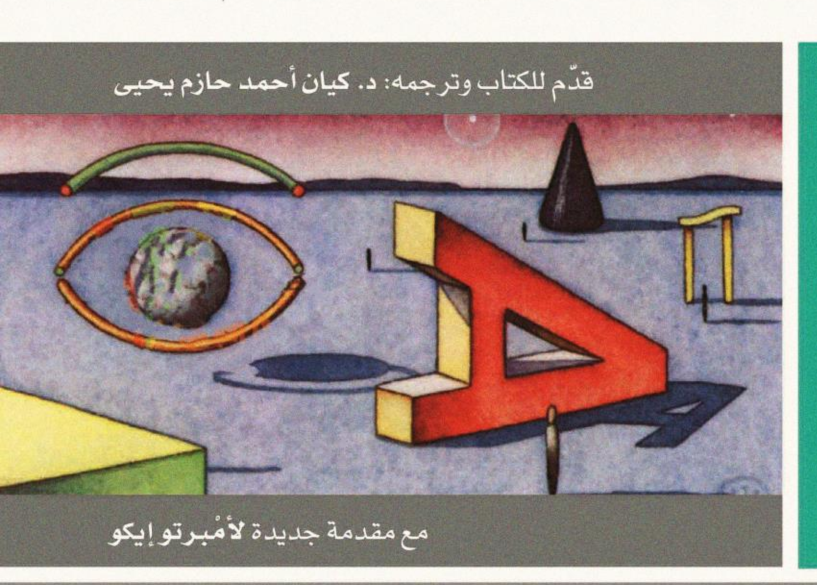
عمل ريادي في علْم الرمزية،
وفي كيفية تأثير اللغة في الفكر

أوغدن وريتشاردز



مَعْنَى المَعْنَى

دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية



C. K. OGDEN & I. A. RICHARDS
The Meaning of Meaning



"كتاب أصيل، تكمن مزيته في قوله أشياء
معينة سابقة لزمنها بأشواط بعيدة" أُمْبرتو إيكو

مَعْنَى المَغْنَى

أوغدِن ورِتشاردز

مَعْنَى المَعْنَى

دِراسَةٌ لأَثَرِ اللُغَةِ في الفِكْرِ ولِعِلْمِ الرَّمْزِيَّةِ

مَعَ مَقالَتَيْنِ مُلحَقَتَيْنِ

لِمالِنوفسكي وكرُوكشانك

ومُقَدِّمَةٍ

لأُمَبِرتو إيكو

قَدَّمَ لِلكِتابِ وتَرجَمَهُ

الدُّكتور كِيان أَحمَد حازِم يَحْيَى

دار الكتاب الجديد المتحدة

- تشارلز كَيِ أوغدِن Charles Kay Ogden (1889-1957م). تَخرَّجَ في كُلِّيَّةِ ماغدالين التّابِعَةِ لِجامِعَةِ كيمبرِج. بَدَأَ في سنةِ 1909 عَمَلَهُ بِدِراسَةِ التَّواصُلِ العالَمِيِّ وأَثَرِ اللُّغَةِ في الفِكْرِ. وزارَ المَدارِسَ والجامِعاتِ في أُورُبّا، والهِندِ، والوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ مِن أَجلِ دِراسَةِ مَناهِجِ تَعليمِ اللُّغَةِ. ثُمَّ أَسَّسَ الدُّكتور أوغدِن المَعهَدَ الأورثولوجيَّ[1]. وكانَ مُبتَكِرَ نِظامِ اللُّغَةِ الإنجليزيَّةِ الأساسيَّةِ، المُتَمَثِّلِ في مُفرَداتٍ قوامُها 850 كَلِمَةً اختيرَتْ لِتَكونَ لُغَةً عالَمِيَّةً. ولِلدُّكتور أوغدِن، زِيادَةً على المُصَنَّفاتِ التي أنجَزَها بِمُشارَكَةِ رِتشاردز، مُؤَلَّفاتٌ مِنها مَعْنَى عِلْمِ النَّفْسِ The Meaning of Psychology (1926)، ونِظامُ الإنجليزِيَّةِ الأساسيَّةِ System of Basic English (1934)، والمُعْجَمُ العامُّ لِلإنجليزِيَّةِ الأساسيَّةِ General Basic English Dictionary (1942)، وغيرُها مِن الكُتُبِ.

- آيفر أرمسترونغ رِتشاردز Ivor Armstrong Richards (1893-1979م). تَخَرَّجَ في كُلِّيَّةِ كلِفتن في برِستل، وفي كُلِّيَّةِ ماغدالين التّابِعَةِ لِجامِعَةِ كيمبرِج. في سَنَةِ 1922 أَصبَحَ مُحاضِرًا في اللُّغَةِ الإنجليزيَّةِ وعُلومِ الأخلاقِ في كيمبرِج، وبَعدَ أَربَعِ سَنَواتٍ نالَ زَمالَةَ كُلِّيَّةِ ماغدالين. وفي أثناءِ هذهِ المُدَّةِ شارَكَ أوغدِن في تَأليفِ أُسُس عِلمِ الجَمالِ Foundations of Aesthetics (1921)، ومَعْنَى المَعْنَى The Meaning of Meaning (1923). وتَتَضَمَّنُ أَعمالُهُ المُتَأَخِّرَةُ مَبادِئَ النَّقدِ الأَدَبِيِّ Principles of Literary Criticism (1925)، والنَّقد العَمَلِيّ Practical Criticism (1929)، ومَذهَب كوليرِج في الخَيال Coleridge on Imagination (1935)، وفَلسَفَة البَلاغَة Philosophy of Rhetoric (1936)، وكَيْفَ تَقْرَأُ صَفحَةً How to Read a Page (1942)، وأَدَواتٌ تَأَمُّلِيَّةٌ Speculative Instruments (1955). ونَشَرَ، زِيادَةً على ذلكَ، مَجموعَتَيْنِ شِعْرِيَّتَيْنِ هُما وَداعًا أَيَّتُها الأرضُ وقَصائدُ أُخرَى Goodbye Earth and Other Poems (1958)، والأَستارُ وقَصائدُ أُخرَى Screens and Other Poems (1960)، ومَسرحِيَّةً شِعرِيَّةً عُنوانُها غَدًا في الصَّباحِ، يافاوستوس! Tomorrow Morning, Faustus!. وفي سَنَةِ 1962 كَرَّمَهُ المَعهَدُ القَومِيُّ لِلفُنونِ والآدابِ بِمَنحِهِ جائزَةَ لوينز لِلشِّعرِ.

---

(1) الأورثولوجيا: فَنُّ القَواعِدِ النَّحوِيَّةِ الصَّحيحَةِ، والاستِعمالِ الصَّحيحِ لِلكَلِماتِ. [المُترجِم]

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقدِّمةُ المُترجِمِ

الحَمْدُ لِلَّهِ الذي جَعَلَ اختِلافَ الألسِنَةِ آيَةً مِن آياتِهِ، وجَعَلَ خَلْقَهُ شُعُوبًا وقَبائِلَ لِيَتَعارَفوا، ولِتَتَلاقَحَ عُقولُهُم، ولِيَعلَموا أن لا عِمارَةَ لِلأرضِ إلّا بِتَواصُلِهِم فيما بَينَهُم، وبِمعرِفَةِ بَعضِهِم ما تَنطَوي عليهِ حَضارةُ بَعضٍ وما تَجُودُ بِهِ قَرائحُ أبنائها. والصَّلاةُ والسَّلامُ على نَبِيِّنا الكريمِ الذي عَرَفَ لِلِّسانِ عَظيمَ شأنِهِ، فكانَ مِن مَظاهِرِ ذلكَ أنْ حَرَصَ كُلَّ الحِرْصِ على أن يُخاطِبَ، ما استَطاعَ، قَبائلَ العَرَبِ بِحَسَبِ ما اعتادَتْهُ كُلُّ قَبيلَةٍ مِن لَهجَةٍ، وأنْ أَقَرَّ قِراءَةَ القُرآنِ بِلَهَجاتٍ مُختلِفَةٍ، وأنْ حَضَّ مِن أصحابِهِ مَن تَوَسَّمَ فيهِ المُكْنَةَ مِنهُم على تَعَلُّمِ لُغاتِ الأُمَمِ الأُخرَى لِيَكونَ لَهُم ذلكَ مِرْقاةً إلى مُعامَلَتِهِم ومُواصَلَتِهِم، تَحقيقًا لِعِمارَةِ الأرضِ وإقامَةِ أُسُسِ الحَقِّ والعَدْلِ فيها.

أمّا بَعْدُ، فقد شَغَلَني أمرُ كِتابِ (مَعْنَى المَعْنَى) رَدحًا مِن دَهري، ولي مَعَهُ قِصَّةٌ أرجو ألّا أُثقِلَ على قارِئي الكريمِ بِسَرْدِ طَرَفٍ مِنها، فلَعَلَّهُ واجِدٌ فيها ما يَحُضُّهُ على مُواصَلَةِ دَرْبِ طُرِقَ طَرْقًا يَسيرًا، وما زالَ يَنتظِرُ الكَثيرَ الكثيرَ.

فقد كانَ بَدْءُ شَأني مَعَ هذا الكِتابِ حينَ كُنْتُ في مرحَلَةِ الدِّراسةِ الأوَّلِيَّةِ لِلُّغةِ العربيَّةِ، إذ كانَ مِن مُفرَداتِ مَنهَجِ عِلمِ اللغةِ المُقَرَّرِ تَدريسُها نَظريّاتُ المَعْنَى، وكانَ الكِتابُ الذي نَدرُسُهُ في مادَّةِ عِلمِ اللغةِ أقرَبَ إلى الأمشاجِ والأخلاطِ المُقتَنَصَةِ مِن هُنا وهُناكَ مِنهُ إلى الكِتابِ المَنهَجِيِّ المُنَظَّمِ، ولقد تبيَّنَ لي بَعدُ أنَّ مُعظَمَ المذكورِ فيهِ مِن نظريّاتِ المعْنَى إنَّما هوَ مُستَمَدٌّ مِن الكِتابِ الرِّيادِيِّ في عِلمِ الدَّلالةِ الذي يَحمِلُ عُنوانَ (عِلم الدَّلالَة) لِمُؤلِّفِهِ الدكتور أحمد مُختار عُمَر. وما زِلْتُ أذكُرُ ما أثارَهُ فِيَّ عُنوانُ مُؤلَّفِ أوغدِن ورِتشاردز حينَ جَبَهَني أوَّلَ مَرَّةٍ وأنا أُطالِعُ النظريَّةَ التي نُسِبَتْ إليهِما في كِتابِهِما هذا والتي

أُطلِقَ عليها اسمُ (النظريَّة الإشارِيَّة)؛ إذ أَسَرَتْني المُفارَقَةُ التي يَنطَوي عليها هذا العُنوانُ (مَعْنَى المَعْنَى)[1]، فهِيَ، وإنْ تَكُن مُفارَقَةً سَهلَةً غيرَ مُتكلَّفَةٍ، تَنُمُّ على حِذْقٍ شَديدٍ وقُدْرَةٍ حَسَنَةٍ على التَّعبيرِ عن مَوضوعِ الكِتابِ بِأقصَرِ طَريقٍ وبِأجمَلِ عِبارَةٍ. ولا أذكُرُ الآنَ، وقد بَعُدَ عَهدي بِتلكَ المرحلةِ مِن الدِّراسةِ، أنّي قَد استَوقَفَني غيرُ العُنوانِ، بَل أذكُرُ جَيِّدًا أنّي أحسَسْتُ تجاهَ الكِتابِ، رُبَّما بِسببِ عُنوانِهِ فَحَسْبُ، بِتَعاطُفٍ غَريبٍ، وكأنَّ شيئًا مّا يَهمِسُ في أُذُني أنْ سَتَكونُ لي معَهُ جَولاتٌ أُخرَى في ما سأستَقبِلُ مِن أيّامٍ.

هذا ما كانَ مِن أمرِ اللقاءِ الأوَّلِ. فأمّا اللقاءُ الثّاني فكانَ، على قَدْرِ ما تُسعِفُني بِهِ ذاكِرتي، أقَلَّ انطِباعيَّةً، وأكثرَ عِلميَّةً. وقد كانَ ذلكَ إبّانَ السنَةِ التَّحضيريَّةِ مِن مَرحَلةِ نَيْلِ شَهادةِ الدكتوراه في اللغةِ العربيَّةِ، إذ كانَتْ مادَّةُ عِلمِ الدَّلالَةِ مِمّا يَجِبُ على طالبِ هذهِ الشَّهادَةِ أن يَقرأَهُ ويجتازَ الاختِبارَ فيهِ. وكانَ مِن أماراتِ سَعْدِ طُلّابِ تلكَ السَّنَةِ، وأنا مِنهُم، أن كُلِّفَ أُستاذٌ نِحريرٌ لا يُشَقُّ لَهُ غُبارٌ في عِلمِ اللغةِ بِتَدريسِ هذهِ المادَّةِ لَنا، وهوَ مَعروفٌ بِسَعَةِ عِلمِهِ، وضَبْطِهِ المَنهجيِّ الدَّقيقِ، واقتِدارِهِ العِلميِّ الفائقِ. وشاءَ اللهُ أن يَكونَ ثَمَّةَ مَوقِفٌ حَدَثَ ونَحنُ نَدرُسُ نظريّاتِ المَعْنَى على هذا الرَّجُلِ العظيمِ، أعادَ إلَيَّ ذِكْرَى تَجرِبَتي الأُولَى معَ كِتابِ أوغدِن ورِتشاردز، وأثارَ فِيَّ مَرَّةً ثانيَةً دَفينَ إحساسي القَديمِ بِأنَّ قِصَّتي معَ هذا الكِتابِ لَمّا تكتَمِلْ فُصولُها بَعْدُ. فإنْ أَنْسَ لا أَنْسَ يَومًا دَخَلَ علينا فيهِ أُستاذُنا القَديرُ، وشَرَعَ يَسْرُدُ بِتَمَكُّنٍ كبيرٍ نظريّاتِ المَعْنَى في الفِكرِ اللغويِّ الغَربيِّ، فلَمّا وَصَلَ بِهِ القَولُ إلى النظريَّةِ الإشاريَّةِ لَخَّصَها بِقَولِهِ إنَّها تُنسَبُ إلى أوغدِن ورِتشاردز اللذَيْنِ عُنِيا بِالمَعْنَى وعالَجاهُ على وَفْقِ هذهِ النظريَّةِ في كِتابِهِما

---

(1) اكتَشَفْتُ بَعدَ حينٍ مُحاولتَيْنِ لاستِثمارِ هذهِ المفارَقَةِ في عُنوانِ الكِتابِ والذَّهابِ بِها إلى مَدًى أبعَدَ؛ إحداهُما لِهوتوبف Hotopf في كِتابِهِ (اللغَةُ، والفِكْرُ، والاستيعابُ- دِراسَةٌ لِكِتاباتِ رِتشاردز *Language, Thought and Comprehension- A Case Study of the Writings of I. A. Richards*)، إذ أطلَقَ على الفَصلِ الثّاني منهُ اسمَ (مَعْنَى مَعْنَى المَعْنَى)؛ والأُخرَى لأُمبرتو إيكو في مقدِّمتِهِ لِطَبعَةِ سَنَةِ 1989م مِن كِتابِ (مَعْنَى المَعْنَى)، التي اصطَفَى لَها عُنوانَ (مَعْنَى مَعْنَى المَعْنَى).

(مَعْنَى المَعْنَى)، وإنَّ حاصِلَ هذهِ النظريَّةِ أنَّ ثَمَّةَ ثلاثةَ عَناصِرَ تُشَكِّلُ أطرافَ ما عُرِفَ عندَهُما بِالمُثَلَّثِ الدَّلالِيِّ، هيَ: الشَّيءُ في الطَّبيعَةِ، وصُورَتُهُ في العَقلِ الإنسانيِّ، ورَمْزُهُ اللِسانيُّ. فـ(الجَبَلُ)، على سبيلِ المِثالِ، مَوجودٌ ثَلاثَ مَرّاتٍ: في الطَّبيعَةِ، وفي العَقلِ، وفي اللِسانِ، ومَعْناهُ هو الذي في الطَّبيعَةِ، استِنادًا إلى مُعطَياتِ هذهِ النظريَّةِ. وبعدَ ذلكَ طَفِقَ أُستاذُنا يَسوقُ بعضَ ما أُورِدَ على هذهِ النظريَّةِ مِن اعتِراضاتٍ، كانَ مِن أهَمِّها، على ما نَصَّ عليهِ الأُستاذُ الجَليلُ، إغفالُها المَعنَويّاتِ غيرَ المادِّيَّةِ وكيفِيَّةَ انطِباعِ صُوَرِ المَعنَويّاتِ في العَقلِ. وبَعدَ أن أَتَى الأُستاذُ على ما بَقِيَ مِن نظريّاتٍ لِلمَعْنَى أنهَى مُحاضَرَتَهُ، على أن نَلتَقِيَ في المُحاضَرَةِ القادِمَةِ لِنتناوَلَ مَوضوعًا آخَرَ مِن مَوضوعاتِ عِلمِ الدَّلالَةِ. غيرَ أنّا لَمّا التَقَيْنا بعدَ أُسبوعٍ كانَ أَوَّلُ ما ابتَدَرَنا بِهِ قولَهُ إنَّهُ يَوَدُّ تنبيهَنا على وَهمٍ رُبَّما يَكونُ قد عَرَفَ طريقَهُ إلى عُقولِنا بِسببِ عَدَمِ فَهمِنا الدَّقيقِ لِما كانَ قَد بيَّنَهُ في المُحاضَرَةِ الفائتَةِ بِشأنِ حَقيقَةِ المَعْنَى في النظريَّةِ الإشاريَّةِ. والتَّنبيهُ الذي رَمَى إليهِ أستاذُنا هوَ أنَّه لا يَنبَغي أن يُفهَمَ مِن قولِنا إنَّ المَعْنَى عندَ أوغدِن ورِتشاردز هو الذي في الطَّبيعَةِ أنَّهُما قَد أغفَلا التَّصوُّرَ؛ ذلكَ بِأنَّهما يَذهَبانِ إلى أنَّنا حينَ نَلفِظُ كلمةَ (جَبَل) يَكونُ مَعناهُ هو الذي في الطبيعَةِ، لكِنْ كيفَ يَصِلُ هذا المَعْنَى إلى المُتَلَقِّي؟ فصورةُ الجَبَلِ المُنطَبِعَةُ في ذِهنِهِ هيَ التي حَضَرَتْ وقَدَّمَتْ لَهُ المَعْنَى. ثُمَّ تَساءَلَ الأُستاذُ قائلاً: لكِنْ هلِ المَعْنَى عِندَهُما صُورَةُ الجَبَلِ؟ الإجابَةُ هيَ: لا، فالمَعْنَى هوَ الذي في الطبيعَةِ، لكِنَّ إيصالَهُ يَكونُ مِن طَريقِ صُورَتِهِ في العَقلِ. فالتَّصَوُّرُ وَسيلَةٌ وسُلَّمٌ لإيصالِ المَعْنَى. أمّا المَعْنَى في النظريَّةِ التصوُّريَّةِ التي يَقتَرِنُ اسمُها بِالفيلسوفِ جون لوك فَهوَ الصُّورَةُ العَقليَّةُ، إذ تكونُ ثَمَّ هيَ الغايَةَ وهيَ المَعْنَى.

كانَ هذا ما استَدرَكَ بِهِ أُستاذُنا الجَليلُ على ما قالَهُ مِن قَبْلُ. والحَقُّ أَنَّ هذا الاستِدراكَ استَوقَفَني لِعِدَّةِ أُمورٍ؛ أَوَّلُها: أَنَّ هذهِ هيَ المَرَّةُ الوحيدَةُ التي رأَيْتُ أُستاذَنا الجليلَ مُتلكِّئًا فيها ومُستَدرِكًا على ما كانَ قَد صَرَّحَ بِهِ مِن قَبْلُ، فأَمرٌ كَهذا لا بُدَّ أن يَكونَ لَهُ شأنٌ؛ وثانيها: أَنِّي استَشعَرْتُ شَيئًا مِن عَدَمِ الارتياحِ لِمُجمَلِ ما عُرِضَ مِن رأيٍ بِشأنِ النظريَّةِ الإشاريَّةِ، سَواءٌ أكانَ ذلكَ على مُستَوى

العَرضِ الأَوَّلِ أم على مُستَوَى ما استُدرِكَ بِهِ عليهِ؛ إذ لم يَكُنْ في مَقدوري استيعابُ كيفَ يُمكِنُ أن يُغْفِلَ مُنَظِّرانِ لُغَويّانِ كَبيرانِ يُشارُ إليهما بالبنانِ شَطرًا أساسيًّا مِن اللغةِ هو شَطرُ المَعنَويّاتِ، فيُسقِطاهُ مِمّا عُنِيَتْ نظريَّتُهُما بِالتنظيرِ لهُ مِن غيرِ أن يُقَدِّما لِذلكَ تَسويغًا أو تَفسيرًا في أَقَلِّ تَقديرٍ؟ وكذلكَ لَم يُقنِعْني ما أورَدَهُ أُستاذُنا الجَليلُ في استِدراكِهِ مِن أنَّ الصُّورَةَ الذِّهنيَّةَ إنَّما يُتَوَسَّلُ بِها لإيصالِ المَعْنَى، الذي هوَ ما في الطَّبيعَةِ، إلى المُتلقِّي؛ فهل يَقتَصِرُ أَمرُ هذهِ الوسيلَةِ على المُتلَقِّي؟ وما الذي يُمَيِّزُ المتلقِّيَ مِن المُرْسِلِ في هذهِ المسألةِ؟ أوَ لَيْسا شَريكَيْنِ في عمليَّةِ التَّواصُلِ، يَصِحُّ في أَحدِهِما ما يَصِحُّ في الآخَرِ مِن حيثُ آلِيَّةُ إنتاجِ فَهْمِ المَعْنَى؟ وثالِثُ ما تَرَيَّثْتُ أمامَهُ آنذاكَ تَنَبُّهي على حَقيقَةٍ لم أكُن لِساعَتي تلكَ قَد فَطِنْتُ لها، هيَ أَنِّي لَم أَقِفْ يومًا مّا على مَن نَقَلَ مِن العَرَبِ مِن كِتابِ أوغدِن ورِتشاردز مُتَرجَمًا إلى العربيَّةِ، وكلُّ ما رأَيْتُهُ مَعزُوًّا إليهما إنَّما كانَ مُعظَمُهُ، بَل يَكادُ يَكونُ كُلُّهُ، مُتَّكِئًا على تَرجَمَةٍ قَصيرَةٍ مُبتَسَرَةٍ لِبِضعَةِ أسطُرٍ مِن الكِتابِ لا تُغْني مِن عَوَزٍ في فَهْمِ النظريَّةِ ولا تُسْمِنُ مِن تَثَبُّتٍ مِمّا أُثيرَ بِشأنِها مِن إشكالاتٍ، اضطَلعَ بِها الدَّلاليُّ الرّائدُ الدكتور أحمد مُختار عُمَر مُورِدًا إيّاها في كِتابِهِ (عِلْمُ الدَّلالَة).

ولَقَد أَلفَيْتُني، وقَد قادَتْني تأمُّلاتِي آنَئذٍ إلى ما سَرَدتُ فيما مَضى طَرَفًا منهُ، أُراجِعُ ما يُمكِنُ أن أُراجِعَهُ مِمّا قَد يَقِفُني على حَقيقَةِ أَمرِ تَرجمةِ كِتابِ (مَعْنَى المَعْنَى) إلى العَربيَّةِ، فتأَكَّدَ لي بَعدَ طُولِ السُّؤالِ واستِنفادِ وسائلِ التَّقَصِّي أن لا تَرجَمَةَ قَد أُنجِزَتْ لِلكِتابِ مُنذُ صُدورِهِ أَوَّلَ مرَّةٍ سنةَ 1923م، على الرَّغمِ مِن أَنَّهُ الكتابُ الأُمُّ الذي يُفصِحُ عَن مَضمونِ نظريَّةٍ تُعَدُّ مِن أهمِّ النظريّاتِ الدَّلاليَّةِ في عَصرِنا هذا، إن لم تَكُنْ أَهَمَّها طُرًّا! فعَجِبْتُ مِن حالِ أُمَّةِ العَرَبِ التي تَحرِصُ الحِرصَ كُلَّهُ على تَرجَمةِ الأعمالِ البوليسيَّةِ الكاملةِ لأغاثا كرِستي، وأَنا هُنا لا أُقَلِّلُ مِن أَهمِّيَّتِها ولا أَغُضُّ مِن قيمَتِها، وتَقْعُدُ بِها الهِمَّةُ عن ترجمةِ المُتونِ الأصيلةِ والمُهِمَّةِ التي مِن شأنِها أن تُبَصِّرَنا بِحقائقِ مَعارِفِ الغَربِ وتَفْلِقَ لَنا صُبْحَها.

غيرَ أنَّ شَأني معَ هذا الكِتابِ لَم يُجاوِزْ في ذلكَ الوَقتِ هذهِ الخَواطِرَ، ولَم يُعقِبْ غيرَ تَحسُّرٍ ومَرارَةٍ استَشعَرْتُهُما لِعَدَمِ مَن يَنهَضُ بِمُهِمَّةِ نَقلِ الكِتابِ إلى العربيَّةِ، ولم يَدُرْ في خَلَدي وَقتَها أنَّ فَصْلاً جَديدًا طَويلاً مِن فُصولِ قِصَّتي معَ (مَعْنَى المَعْنَى) يُوشِكُ أن يَبدأ.

وكانَتْ مَحَطَّتي الثالِثَةُ الحاسِمَةُ معَ الكِتابِ بَعدَ أن أكمَلْتُ أطروحَتي لِلدُّكتوراه، التي كُنْتُ قد اختَرْتُ لَها مَوضوعًا أحسَبُهُ مُهِمًّا، بل غايَةً في الأهمِّيَّةِ، بَل تَبلُغُ أهمِّيَّتُهُ مَبلَغَ أن لا أهمِّيَّةَ لِما سِواهُ بِفَقْدِهِ، وهوَ مَوضوعُ ما يَطْرَأُ على التَّواصُلِ اللُّغَويِّ بينَ بَني البَشَرِ مِن احتِمالاتٍ لُغَوِيَّةٍ تُخِلُّ بِالقَطْعِ بِما يُرادُ مِن مَعاني الكَلامِ في أثناءِ التَّواصُلِ، وسُبُلِ الخَلاصِ مِن هذهِ المُخِلّاتِ والفِكاكِ مِن أسْرِها. وكُنْتُ قَد جَعَلْتُ مَقُولاتِ الأُصوليِّينَ قُطْبَ الرَّحَى في الأُطروحَةِ، وإن لم أُغفِلْ ما جاءَ بِهِ في هذا المجالِ المُتكلِّمونَ، والمُفَسِّرُونَ، واللُغَوِيُّونَ؛ لإيماني بِأنَّ البَحثَ في جُزئيَّةٍ مّا مِن جُزئيّاتِ ثَقافَةٍ مّا في عِلمٍ مِن عُلومِها لا يُمكِنُ أن يُستَوفَى الكَلامُ فيهِ ولا أن يُوصَلَ فيهِ إلى نظريَّةٍ مُتكامِلةٍ ما لَم تُجمَعْ أطرافُ خُيوطِ جَميعِ الجُزئيّاتِ في العُلومِ والفُنونِ الأُخرَى التي تَتَداخَلُ معَ الجُزئيَّةِ المبحوثِ فيها. بَل قَد رَأيْتُ في بَحثي أنَّ مَن تَحَدَّثَ في جُزئيَّةٍ مّا بِوَصفِهِ أُصوليًّا، قَد يَكونُ الشَّخصَ عينَهُ الذي تَحدَّثَ فيها بِوَصفِهِ مُتكلِّمًا، وبِوَصفِهِ مُفَسِّرًا، وبِوَصفِهِ لُغَويًّا، وقد تناوَلَها مِن زَوايا مُختلِفَةٍ بِاختِلافِ ما تُعْنَى بِهِ العُلومُ المُختلِفَةُ التي يُعالِجُ الجُزئيَّةَ المَعْنِيَّةَ في كُلٍّ مِنها بِصِفَةٍ مُختلِفَةٍ، لكِنْ تَحْصُلُ مِن ذلكَ رُؤيَةٌ مُتكامِلَةٌ تَحمِلُ سِماتِ العُلومِ المُختلِفةِ التي عالَجَتْها، فهيَ تَنوُّعٌ في وَحدَةٍ ووَحدَةٌ في تَنوُّعٍ.

وقد خرَجْتُ مِن تَجرِبتي العلميَّةِ تلكَ بِحصيلتَيْنِ؛ إحداهُما: أنَّ مَوضوعَ فَسادِ الفَهمِ وإساءَتِهِ ما زالَتْ بِهِ حاجَةٌ إلى البَحثِ والاستِقصاءِ، ولا سِيَّما في الإرثِ اللغويِّ الغَربيِّ الذي أصبَحْتُ أرجو أن أقِفَ على نظريَّةٍ فيهِ تَصلحُ أن تكونَ نَديدًا لِنظريَّةِ أُمَّةِ الإسلامِ التي أفخَرُ بِأنّي قَد حاولْتُ عَرضَها في أُطروحَتي المذكورةِ آنِفًا، لِيُمكِنَ مِن بَعْدُ تَلمُّسُ مَناحِي الالتِقاءِ والافتِراقِ بينَ النظريَّتَيْنِ،

تَحقيقًا لِلتَّكامُلِ المَعرِفِيِّ والتَّواصُلِ في هذا المجالِ الحيَوِيِّ في حياةِ بَني الإنسانِ.

وما إن وَصَلْتُ إلى هذهِ المرحلةِ مِن التَّفكيرِ حَتَّى قَفَزَتْ إلى ذِهْنِي ذِكْرَى كِتابِ (مَعْنَى المَعْنَى) مِن غَيْرِ أن أعرِفَ لِذلكَ سَبَبًا واضِحًا؛ إذ لَم أكُنْ على دِرايَةٍ بِما يَحويهِ مِن مادَّةٍ إلّا النَّزْرَ اليسيرَ الذي سَبَقَ أن تَحدَّثْتُ عنهُ؛ ذلكَ بِأنّي حتَّى ساعتِئذٍ لم أكُنْ قَد اطَّلَعْتُ على النُّسخَةِ الإنجليزيَّةِ مِن الكِتابِ. فلَمّا طالَعْتُها هالَني ما وَقَفْتُ عليهِ مِن مَباحِثَ تَفصيليَّةٍ في مَوضوعِ المَعْنَى، وما قَدَّمَهُ المؤلِّفانِ مِن إيضاحاتٍ مُسهَبَةٍ بِشأنِ نظريَّتِهما في المَعنَى مِمّا مِن شأنِهِ أن يُجيبَ عن الكثيرِ مِن الاعتِراضاتِ عليها. والحَقُّ أنَّ أكثَرَ ما راقَني في الكِتابِ أمرانِ؛ أمّا أحدُهُما فَما صَرَّحَ بِهِ كاتِباهُ في غيرِ مَوضِعٍ منهُ مِن أنَّ أحدَ أهَمِّ البواعِثِ الرَّئيسةِ على تأليفِ الكِتابِ الرَّغبةُ في إيجادِ آلِيّاتٍ تُعِينُ على إزالَةِ حالاتِ إساءَةِ فَهمِ مَعاني الكَلامِ الواردةِ في أثناءِ التَّواصُلِ البشريِّ، فأدركْتُ أنّي قَد عَثَرْتُ على ضالَّتي المنشودَةِ مِن أقرَبِ طريقٍ وبِما يُوافِقُ هَوًى في نَفسي تجاهَ هذا الكِتابِ مُنذُ أزمانٍ؛ وأمّا ثاني الأمرَيْنِ فما وَقَفْتُ عليهِ مِن تَعدُّدِ أوجُهِ النَّشاطِ العلميِّ الذي تَميَّزَ بِهِ أوغدِن ورِتشاردز والذي بَدَتْ آثارُهُ ظاهِرَةً في تَضاعيفِ صَفَحاتِ (مَعْنَى المَعْنَى)، وفي سِواهُ مِن المؤلَّفاتِ مِمّا اشتَرَكا في تأليفِهِ أو انفرَدَ كُلٌّ بِتَصنيفِهِ؛ فَمِن تَطوافٍ بينَ مُختَلِفِ اتِّجاهاتِ اللغَةِ والأدبِ، إلى تَجوالٍ في أروِقَةِ فَلسَفاتِ الشَّرقِ والغَربِ في القَديمِ والحديثِ، إلى إفادَةٍ مِن مُعطَياتِ عِلمِ النَّفسِ الحديثِ، إلى استِمدادٍ مِن نتائجِ الدِّراساتِ الميدانيَّةِ الأنثروبولوجيَّةِ، إلى عُبورٍ إلى مَيدانٍ رُبَّما لا يَخطُرُ ببالِ أحدٍ مِن المُهتَمِّينَ بِالمَعنَى ونظريّاتِهِ إمكانُ أن يَكونَ لَهُ مَوضِعٌ فيهِما وهو عِلمُ الطِّبِّ، كُلُّ ذلكَ في صِياغَةٍ مُوَحَّدَةٍ مُحكَمَةٍ لا تَضيعُ في تَفاصيلِ هذهِ العُلومِ والفُنونِ، ولا تُضيعُ في الوَقتِ نَفسِهِ شيئًا يُمكِنُ أن تَقِفَ عليهِ فيها مِمّا يُرَصِّنُها ويُمِدُّها بِأسبابِ القُوَّةِ.

فما رَأَيْتُني بَعدَ كلِّ ما لَمَسْتُهُ مِن فَوائدِ هذا الكِتابِ، زيادَةً على أسبابِ الصِّلَةِ القَديمَةِ بينَنا، إلّا مُنجَذِبًا نَحوَهُ، أعُبُّ مِن عُلومِهِ وأنهَلُ مِن مَعارِفِهِ. وعلى

الرَّغمِ مِمّا عرَفْتُهُ لَهُ مِن عُمقِ التَّناوُلِ ورَصانَةِ الحِجاجِ في جَميعِ جَنَباتِهِ عَزَمْتُ بادِئَ ذي بَدْءٍ على الاكتِفاءِ بِتَرجَمةِ الفَصلِ الأَوَّلِ منهُ، وهو الفَصلُ الذي وَرَدَ فيهِ المُثَلَّثُ الإحالِيُّ الذي اشتهرَ أوغدِن ورِتشاردز بِهِ حتّى أصبَحا يُعْرَفانِ بِهِ ويُعْرَفُ بِهِما، والذي تَدورُ عليهِ نظريَّتُهُما الإحالِيَّةُ في المَعْنَى. وما كانَ ذلكَ مِنّي تَهوينًا مِن شأنِ سائرِ الفُصولِ والمُلحَقاتِ ولا زُهدًا في ما تَحويهِ؛ كَيْفَ، وأنا أعلَمُ أنَّ المسألَةَ الواردةَ في مَوضِعٍ مِن كِتابٍ لا تَتَّضِحُ تَمامَ الاتِّضاحِ ما لَم تُتَلَمَّسْ آثارُها في سائرِ مَواضِعِ الكِتابِ، ولكِنَّ شَواغِلَ جَمَّةً مِن أعباءٍ مِهنِيَّةٍ وعِلميَّةٍ أُخرَى جَعَلَتْني أرَى رَأْيِي الأَوَّلِيَّ ذاكَ. فما كانَ مِنّي، وقد وَطَّنْتُ النَّفْسَ، إلّا أن عَكَفْتُ على تَرجمةِ الفَصلِ الأَوَّلِ، فأتمَمْتُهُ بَعدَ حينٍ، وقد بَيَّتُّ في نَفسي أنْ أنشُرَهُ وأُذيعَ ذِكْرَهُ بينَ النّاسِ في مُناسَبَةٍ مُؤاتِيَةٍ.

ثُمَّ كانَ مِن أقدارِ اللهِ تَعالَى في ذلكَ الوَقتِ أن أتَعَرَّفَ الأُستاذَ المِفضالَ سالِمًا الزريقانيَّ صاحِبَ دارِ النَّشرِ المرموقَةِ (دار الكِتابِ الجَديدِ المُتَّحِدَة)، وكُنّا ذاتَ يَومٍ نتجاذَبُ أطرافَ الحديثِ في الكُتُبِ والتَّآليفِ والنَّشرِ، فكانَ مِمّا جَرَى على لِساني في حَديثي إليهِ أن أخبَرْتُهُ بِما كانَ مِنّي مِن شأنٍ معَ كِتابِ (مَعْنَى المَعْنَى). فاستَراثَني طالِبًا مِنّي إيضاحًا مُفَصَّلاً بِشأنِ مَوضوعِ الكِتابِ وأهمِّيَّتِهِ في بابِهِ. فاستَجَبْتُ لِذلكَ، وأسْعَفْتُهُ بِطَلِبَتِهِ وأَنا غيرُ دارٍ بِما يَدورُ في خَلَدِهِ. وبَعدَ مُضِيِّ زَمَنٍ ليسَ بِالطَّويلِ إذا بِهِ يُفاجِئُني ويُخبِرُني بِأَنَّهُ قَد اتَّصَلَ بِالدّارِ الأَجنبيَّةِ النّاشِرَةِ لِلكِتابِ وأَنَّهُ قَد أَتَمَّ إجراءاتِ شِراءِ حُقوقِ تَرجَمةِ الكِتابِ وطَبْعِهِ في دارِهِ العامِرَةِ. وأَشهَدُ لَقَد أثارَ فِيَّ تَصرُّفُهُ هذا شُعُورَيْنِ مُتَضارِبَيْنِ؛ أمّا أحدُهُما فارتِباكٌ وقَلَقٌ لِعَدَمِ تَهَيُّئي واحتِشادِي لِمِثلِ هذا العَمَلِ الكَبيرِ؛ وأمّا الآخَرُ فَفَرَحٌ غامِرٌ خَفِيٌّ اجتاحَني لِما في الإقدامِ على هذا الفِعلِ مِن مُوافَقَةٍ لِهَوًى مُستَكِنٍّ وإنْ تَنَكَّرْتُ لَها سابِقًا وأعرَضْتُ عنها إشفاقًا على نَفسي المشغولَةِ بِما حَدَّثْتُ بِهِ آنِفًا. فالحَقُّ يَقتَضي أن أُقِرَّ بِأنَّ دَفْعَ الأُستاذِ سالِمٍ إيّايَ لِهذا العَمَلِ دَفْعًا، وإنْ وافَقَ هَوًى سالِفًا في نَفْسي، كانَ عامِلاً رَئيسًا في إنجازِهِ وإخراجِهِ إلى حَيِّزِ الوُجودِ في مُدَّةٍ لم أكُن، لَو خُلِّيتُ ونَفسي الموزَّعَةَ، لأتخيَّلَ إنجازَهُ فيها، فلَهُ مِنّي جَزيلُ الشُّكرِ،

وفائقُ الاحتِرام، لا على هذا الموقِفِ فحَسْبُ، بل على مَواقِفَ أُخرَى أَعُدُّ مِنها ولا أُعَدِّدُها. فأسألُهُ جلَّ ذِكرُهُ أن يُوَفِّقَهُ لِلمزيدِ مِن التألُّقِ والتَّميُّزِ في نَشرِ كلِّ ما هوَ نافِعٌ وأَصيلٌ في مَجالاتِ الفِكرِ الإنسانيِّ كافَّةً.

وقَد كُنْتُ عَزَمْتُ في بَدْءِ أمري على أن أُعْمِلَ قَلَمي في مُقَدِّمَةٍ دِراسيَّةٍ لِهذا الكتابِ تَكشِفُ عن بَعضِ ما قَد يُلْبِسُ فيهِ على القارِئِ المُتَخصِّصِ فَضلاً عن مُطالِعِهِ مِن غيرِ ذَوِي الاختِصاصِ، وتُجَلِّي بَعضَ غَوامِضِهِ التي قَد يُعْزَى بَعضُها إلى تَداخُلِ حُقولِ الاختِصاصِ في الكِتابِ بِسببِ التَّنَوُّعِ الهائِلِ في ثَقافةِ مُؤَلِّفَيْهِ وسَعَةِ دائرةِ استِمداداتِهِما الثَّقافيَّةِ، وتُضيءُ مَسالِكَ في الكِتابِ تَبدو حالِكَةَ الظُّلمَةِ لِمَن يُواجِهُ (مَعْنَى المَعْنَى) خالِيَ الذِّهنِ ويَقصِدُ قِراءَتَهُ غيرَ مُزَوَّدٍ بِعُدَّةٍ تَمهيديَّةٍ تُيَسِّرُ لَهُ خَوضَ غِمارِهِ وقَطفَ غِراسِهِ. لكِنِّي حينَ شَرَعْتُ أكتُبُ ما كُنْتُ مُزمِعًا جَعلَهُ مُقَدِّمَةً لِهذا الكِتابِ أحسَسْتُ شَيْئًا فشَيْئًا أنَّ ما أَكتُبُهُ أكبَرُ مِن أن يَكونَ ما اعتادَ القُرّاءُ تلقِّيَهُ بِوَصفِهِ مُقَدِّمَةً لِكتابٍ مُترجَمٍ؛ فالمَعلوماتُ التي يَشتَمِلُ عليها كبيرَةٌ يَضيقُ بِها تَقديمٌ مِن هذا القَبيلِ؛ والحجمُ الذي قَد يَبلُغُهُ رُبَّما يُنافِسُ المَتنَ المُترجَمَ نَفسَهُ؛ ثُمَّ إنَّ كَثيرًا مِن القُرّاءِ قَد يَضيقُ ذَرْعًا بِسِوَى المَتنِ المُتَرجَمِ، ولا يُريدُ أن يَحولَ بينَهُ وبينَ قِراءَتِهِ المَتْنَ أيَّةُ قِراءَةٍ أُخرَى مَهما تَكُن مَوضوعيَّةً.

فَلَمّا تَوافَرَتْ لَدَيَّ هذهِ الرُّؤْيَةُ اتَّجَهْتُ صَوبَ أن أكتَفِيَ في التَّقديمِ لِتَرجَمةِ الكِتابِ بِما سَطَّرْتُهُ آنِفًا مِن أَسبابٍ دَفَعَتْني إلى تَرجمتِهِ وإيضاحٍ لِبَعضِ مُفارَقاتِها، أمّا الجهدُ النَّقْدِيُّ الذي أشَرْتُ إلى ضَرورتِهِ وإلى أنَّ قِراءةَ المَتنِ المُتَرجَمِ في ضَوءِ كَواشِفِهِ الهادِيَةِ ومُجَلِّياتِهِ المُبَصِّرَةِ لا شَكَّ مُغْنِيَةٌ لِلقِراءَةِ البَيضاءِ الخالِيَةِ الذِّهنِ، فعَزَمْتُ أن أُفرِدَ لَهُ دِراسةً مُستقلَّةً أتَبَسَّطُ فيها ما شِئتُ، وأُسَلِّطُ فيها الأضواءَ على كلِّ ما في الكِتابِ مِمّا أُقَدِّرُ أنَّهُ قَد يَغْمُضُ شَيْئًا مّا على القارِئِ العَربيِّ؛ مِن إجمالٍ شَديدٍ في مَتنِ الكِتابِ المُتَرجَمِ لِسيرَتَيْ مُؤَلِّفَيْهِ يُقْنِعُ القارِئَ المُتَبَلِّغَ لكِنَّهُ لا يُطفِئُ ظَمَأَ المُطالِعِ المُتعطِّشِ[2]؛ أو ذِكرٍ سَريعٍ لِمَذهَبٍ فَلسفيٍّ أو

(2) أورَدَ ناشِرُ الكِتابِ وَصفَيْنِ مُقتَضَبَيْنِ لِسيرتَي مُؤَلِّفَي الكِتابِ العِلميَّتَيْنِ. لكِنَّ =

سايكولوجيٌ أو نَقْدِيٌ؛ أَو سَرْدٍ خاطِفٍ لِوجهَةِ نَظَرٍ يَفترِضُ مُؤَلِّفا الكِتابِ أنَّ القارِئَ مُحيطٌ بِجَميعِ أبعادِها؛ أو ظُهورِ مُتَعدِّدٍ لِكِناياتٍ واستِعاراتٍ مألوفةٍ في ثَقافةِ اللغاتِ التي كُتِبَ (مَعْنَى المَعْنَى) في جَوِّها ومُحيطِها، لكِنَّها تَعْسُرُ على فَهمِ مُتلَقِّيها مِن غيرِها مِن الثَّقافاتِ.

على أنَّ ذلكَ لَم يَمنَعْني مِن تَزويدِ تَرجمةِ الكِتابِ بِهَوامِشَ كَثيرةٍ كَثيرَةٍ يَستَطيعُ القارِئُ في هَديِها تَلَمُّسَ طريقِهِ في خِضَمِّ بَحْرِ (مَعْنَى المَعْنَى) المُتَلاطِمِ الأمواجِ. فهذهِ الهوامشُ الكَثيرةُ أَرَدتُ لَها أن تَكونَ أشرِعةً لِمَركبِ مُطالِعِ الكِتابِ تُمَكِّنُهُ، بِإذنِ اللهِ، مِن العُبورِ الآمِنِ مِن مَحطَّةٍ في الكِتابِ إلى مَحطَّةٍ أُخرَى، أمّا مَن رامَ أن يَضُمَّ إلى الشُّعورِ بِالأَمْنِ والسَّلامَةِ عندَ مُطالَعَةِ الكِتابِ إحساسًا بِالمُتعَةِ العَقليَّةِ وبِانفِتاحِ آفاقٍ رَحْبَةٍ أمامَهُ تَسلُكُ بِهِ مَسالِكَ جانبيَّةً لِتَعودَ بِهِ بَعدُ إلى المَصَبِّ الرَّئيسِ بَعدَ أَن يَكونَ قَد تَزَوَّدَ بِزادٍ عَقليٍّ إضافيٍّ، ففي وُسعِهِ الرُّجوعُ إلى الدِّراسةِ النَّقديَّةِ المُستقِلَّةِ، فَعَسَى أن يَجِدَ فيها ما يُشبعُ نهمَتَهُ ويَروِي عَطَشَهُ.

ولا أُريدُ في هذهِ العُجالَةِ أن أُكرِّرَ على مَسامِعِ القارِئِ الكريمِ ما اعتادَهُ مِن مُتَرجِمي كُتُبِ اللغةِ، أو غيرِها، مِن صُعوبَةِ مَأتاهُم ووُعورةِ مَسعاهُم، فكلُّ ذلكَ بادٍ لا تَكادُ صَفحةٌ مِن صَفَحاتِ الكِتابِ تَخلو مِن شاهِدٍ عليهِ. لكِنّي أَوَدُّ أن أُشيرَ إشارَةً سريعةً إلى نُقطتَيْنِ رُبَّما لا تَعرِضانِ في كُلِّ تَرجمةٍ، فما لَم يُحَدَّثْ عنهُما فقد يَضيعُ جهدٌ رُبَّما لا يَقِلُّ صُعوبةً ووُعورةً عن مهمَّةِ التَّرجمةِ نَفسِها.

أمّا إحداهُما فتتعلَّقُ بِما كُنْتُ قد أَشَرْتُ إليهِ قبلَ قليلٍ مِن سَعَةِ دائرةِ استِمداداتِ أوغدِن ورِتشاردز في مُؤلَّفِهِما؛ إذ كانَتْ لَهُما صَولاتٌ وجَولاتٌ في مَيادينَ إنسانيَّةٍ مُتنوِّعةٍ، كاللِسانيّاتِ بِجميعِ فُروعِها، والأدَبِ بِشِعْرِهِ ونَثرِهِ وبِتَغايُرِ المَذاهِبِ فيهِما، والفلسفةِ بِاختِلافِ تَوجُّهاتِها، وعِلمِ النَّفْسِ بِتنوُّعِ مَدارِسِهِ،

= أوغدِن ورِتشاردز أَغْنَيا هاتَيْنِ السِّيرَتَيْنِ بِمَعلوماتٍ تتعلَّقُ بِما أَلَّفاهُ بَعدَ (مَعْنَى المَعْنَى) وبِأخبارٍ عَن نَشاطاتٍ مُتَنوِّعَةٍ لَهُما بَثّاها في تَضاعيفِ تَصديراتِهِما لِلطَّبَعاتِ المُتَعدِّدَةِ لِلكِتابِ. وسيَجِدُ مُطالِعُ هذهِ التَّرجَمَةِ كُلَّ ذلكَ مَنقُولاً إلى العَربيَّةِ في مَوضِعِهِ المُحدَّد.

والأنثروبولوجيا وعِلمِ الأعراقِ البَشَريَّةِ بِامتِداداتِهِما، والفُنونِ الجميلةِ بِأقسامِها، والتَّأريخِ بِقِدَمِهِ ومُعاصَرَتِهِ. بَل كانَ لِلمُؤلِّفَيْنِ إشاراتٌ غيرُ قليلةٍ إلى مَذاهِبَ اقتِصاديَّةٍ، ومَدارِسَ سِياسيَّةٍ. بَل بَلَغَ بِهِما أمرُ سَعَةِ الاستِمدادِ مَبلَغَ أن ذَيَّلا كِتابَهُما بِمُلحَقٍ لِطَبيبٍ، رَأيَا فيهِ ما يُمكِنُ أن يُعَزِّزَ ما قدَّما مِن نظريَّةٍ لِلمَعْنَى في كِتابِهِما. ولا شَكَّ في أنَّ سَعَةَ دائرةِ الاستِمدادِ هذهِ تَفرِضُ على المُترجِمِ عِبئًا جديدًا يُثقِلُهُ ويَنوءُ بِهِ؛ إذ لا بُدَّ لهُ مِن مُراجَعَةِ المُعجَماتِ المُتخصِّصَةِ في العُلومِ والفُنونِ المُختلِفَةِ، ولا يُمكِنُهُ الاكتِفاءُ بِالمُعجَماتِ العامَّةِ ولا الاقتِصارُ، معَ المُعجَماتِ العامَّةِ، على المُعجَماتِ المُتخصِّصَةِ في عُلومِ اللغةِ. وصُعوبةُ هذا الأمرِ ومَشقَّتُهُ لا يَعلَمُها إلّا مَن عانَى تَرجمةَ مِثلِ هذهِ الكُتُبِ الموسوعيَّةِ التَّخصُّصاتِ.

أمّا النُّقطةُ الأُخرَى فتتعلَّقُ بِهَوامشِ التَّرجمةِ التي قَد يُظَنُّ أنَّها مِن قبيلِ تَحصيلِ الحاصِلِ، وأنَّ المَعلوماتِ التي يُرادُ إثباتُها فيها مَبذولةٌ سَهلَةُ القِطافِ يَسيرَةُ الجَنَى لِمَن رامَها وطَلَبَها. والحَقُّ خِلافُ هذا كُلِّهِ، ولا سيَّما معَ كِتابٍ كـ(مَعْنَى المَعْنَى) حُشِدَ بِأسماءِ الشَّخصيّاتِ، وبِالإشاراتِ التَّأريخيَّةِ أوِ الأُسطوريَّةِ، وبِمَواضِعَ عَرَضَتْ عَرْضًا سَريعًا خاطِفًا لِفِكرةٍ لا يُمكِنُ مَعَهُ أن يُتابِعَ مُعظَمُ القُرّاءِ مِنَ العَرَبِ، بَل مِن أصحابِ اللِسانِ الأصليِّ نَفسِهِ، مُطالَعَةَ الكِتابِ مِن غيرِ تَوضيحٍ مُجمَلٍ لِمَضامينِها. ولِلقارِئِ أن يتخيَّلَ ما راجَعْتُهُ مِن كُتُبٍ وبُحوثٍ ومَواقِعَ على شبكةِ المَعلوماتِ مِن أجلِ أن أُؤَمِّنَ قِراءَةً نافِعةً لِلمَتْنِ وتَواصُلاً لا تَعُوقُهُ العَوائقُ بينَ الكِتابِ ومُتلَقِّيهِ. ويَكفي أن يَعلَمَ القارئُ الكريمُ أنَّ جُلَّ ما جاءَ في هَوامشِ الكِتابِ إنَّما كانَتْ مَصادِرُهُ بِاللغةِ الإنجليزيَّةِ، فاضطُرِرْتُ إلى ترجمةِ ما فيها مِمّا يَنفَعُ في مَواضِعِهِ، فكانَ هذا عِبئًا إضافيًّا، لكنَّهُ ضَروريٌّ، لا أُشَبِّهُهُ إلّا بِالجُنديِّ المَجهولِ الذي رُبَّما تُزوَى عنهُ الأعيُنُ، ولا تَأبَهُ لَهُ المُطالَعَةُ السَّريعةُ، لكِنَّ الجهدَ المودَعَ فيهِ وما نالَهُ منِّي مِن سَهَرٍ وضَعْفِ بَصَرٍ لا يُقَدِّرُ قَدرَهُما إلّا اللهُ الذي أحتَسِبُ ما صَنَعْتُهُ في هذا الكِتابِ عندَهُ وأرجوهُ ولا أرجو سِواهُ أن يَجزِيَني بِهِ ما هوَ أهلُهُ.

ثُمَّ إنَّ ثَمَّةَ أمرًا لا يَسَعُني إلّا أن أكشِفَ عنهُ وأبوحَ بِسِرِّهِ، وهوَ لا شَكَّ يُمَثِّلُ صُعوبةً أُخرَى كَبيرَةً واجَهَت ترجمةَ هذا الكِتابِ الباقِعَةِ. تلكُم هيَ مُشكِلةُ إيرادِ المؤلِّفَيْنِ الكَثيرَ مِن الكَلِماتِ، والعِباراتِ، والجُمَلِ، بَل النُّصوصِ الطَّويلةِ نِسبيًّا، بِغَيرِ اللغَةِ الإنجليزيَّةِ. وكانَت اللغاتُ التي هَيمَنَتْ على هذهِ المَنقولاتِ هيَ اللاتينيَّةَ، والفرنسيَّةَ، والألمانيَّةَ، معَ بَعضِ المنقولاتِ القليلةِ الأُخرَى بِلُغاتٍ أورُبِّيَّةٍ غيرِها. والحقُّ أنَّ صُعوباتِ التَّعامُلِ معَ هذهِ المَنقولاتِ كانَتْ مُتفاوِتَةً؛ فأسلَسُها قِيادًا كانَت الكلماتِ المُفرَدَةَ أو العِباراتِ الموجَزَةَ التي يُمكِنُ الوُقوفُ على ترجماتِها في المُعجَماتِ المُتخصِّصَةِ اللُّغويَّةِ وغيرِ اللغويَّةِ، وفي شبكةِ المعلوماتِ؛ وأصعَبُها مِراسًا كانَت الجُمَلَ المُعقَّدَةَ والنُّصوصَ الطويلةَ التي لا يُمكِنُ التَّوصُّلُ إلى مُعالَجةٍ ناجِعةٍ لَها بِالاكتِفاءِ بِمُراجعةِ ما ذُكِرَ مِن مَصادِرَ.

وألفَيْتُني في ضَوءِ هذهِ المُشكِلةِ أمامَ خِيارَيْنِ:

أحدُهُما أن أعمدَ إلى إسقاطِ ما يَصعُبُ التَّوصُّلُ مَعَهُ إلى مُعالَجةٍ مُقْنِعَةٍ، وإنْ تَعَذَّرَ ذلكَ في بعضِ المواطِنِ لشِدَّةِ تعلُّقِ المنقولاتِ المذكورةِ بِسياقِ الكِتابِ، كالنَّصِّ المُطَوَّلِ الذي أورَدَهُ أوغدِن ورِتشاردز بِاللُّغةِ الفَرنسيَّةِ في التَّذييلِ A المُلحَقِ بِالكِتابِ الذي كانَ يَدورُ حولَ مَوضوعِ النَّحوِ، إذ كانَ هذا النَّصُّ مُنطَلَقًا أساسيًّا لَهُما استندا إليهِ في تِبيانِ بعضِ أوجُهِ النَّقصِ والقُصورِ في الدِّراساتِ النَّحويَّةِ التَّقليديَّةِ. على أنَّ إسقاطَ بعضِ النُّصوصِ غيرِ المؤثِّرَةِ تأثيرًا بالِغًا، وإن كانَ مَظهَرَ نَقصٍ في التَّرجَمَةِ، لَهُ مَن يَعمَلُ بِهِ ويُمارِسُهُ في حَقلِ التَّرجمةِ، يَعلَمُ ذلكَ كُلُّ مَن استَهواهُ أن يُراجِعَ بعضَ الكُتُبِ المُترجَمةِ إلى العربيَّةِ بِلُغاتِها الأصليَّةِ.

أمّا الخِيارُ الآخَرُ، وهوَ الذي قَرَّرْتُ المُضِيَّ فيهِ وعَزَمْتُ على تَبَنِّيهِ مَعَ عِلْمي بِوُعورَةِ مَسلَكِهِ، فهوَ أن أنقُلَ كلَّ شاردةٍ وواردةٍ أورَدَها المؤلِّفانِ في المَتنِ أو في الهامِشِ، لِئلّا أُفَوِّتَ على القارئِ الكريمِ فُرصةَ الاطِّلاعِ على ما قَد يُغْني رُؤيتَهُ ويُنيرُ دَربَهُ. لكِنَّ ذلكَ كانَ غايةً في الصُّعوبةِ؛ إذ ألجأَني إلى استِشاراتٍ كثيرَةٍ ومُراجَعاتٍ مُتعدِّدَةٍ لِكُتُبٍ، وأشخاصٍ، ومَواقِعَ على شبكةِ المعلوماتِ، آخِذُ

مِن ذا وذاكَ، ومِن ذِي وتلكَ، ثُمَّ أُوازِنُ بينَ مُختلِفِ ما تَجَمَّعَ لديَّ مِن مَعلوماتٍ علَّني بِذلكَ أخرُجُ مِن بينِ فَرْثٍ ودَمٍ بِلَبَنٍ خالِصٍ سائغٍ لِلشارِبينَ. على أنَّ المَرجِعَ الأوَّلَ والمُستَشارَ الأكبرَ في هذهِ المهمَّةِ الشاقَّةِ كانَ والِدِي أعَزَّهُ اللهُ وحَباهُ بِخَيرِ ما يُمكِنُ أن يَحبُوَ بِهِ عَبدًا لَهُ في الدُّنيا والآخِرةِ؛ فهوَ، يَحفَظُهُ اللهُ، مَعلَمَةٌ لُغَويَّةٌ وثَقافِيَّةٌ كبيرَةٌ جِدًّا، أفدتُّ منها ونَهَلْتُ مِن مَعينِها الفَيّاضِ، فكانَتْ خيرَ مَوئلٍ في المُلِمّاتِ، وكاشِفٍ لِظُلمةِ الحيرَةِ عندَ اشتِدادِها. فجَزاهُ اللهُ عنّي خيرَ ما يَجزي والِدًا عن ولَدِهِ، ومُعَلِّمًا عَن تِلميذِهِ، ومُرَبّيًا عَمَّن استُرْعِيَ.

وقَبلَ أن أضَعَ قَلَمي أوَدُّ أن أُبَيِّنَ لِقارِئِ هذهِ الكِتابِ الأُمورَ الأساسيَّةَ التي التَزَمْتُها في تَرجَمتِهِ حتّى يَكونَ على بَيِّنَةٍ مِن أمرِهِ حينَ يُطالِعُهُ:

(1) اعتَمَدتُّ في تَرجَمَةِ (مَعْنَى المَعْنَى) الطَّبْعَةَ الإنجليزيَّةَ الأخيرَةَ لَهُ الصّادِرَةَ في سنَةِ 1989م، وهيَ المُصَدَّرَةُ بِمُقَدِّمَةِ النّاقِدِ الإيطاليِّ المُعاصِرِ الأشهَرِ أُمبرتو إيكو.

(2) حاوَلْتُ ترجمةَ الكِتابِ على نَحوٍ يُحافِظُ، قَدرَ المُستَطاعِ، على دِقَّةِ عِباراتِهِ وعِلميَّةِ أُطروحاتِهِ، مُتَجَنِّبًا في الوَقتِ نَفسِهِ الانسِياقَ وَراءَ النَّقْلِ الحَرْفِيِّ الذي قَد يُفَوِّتُ الغَرضَ ويُذهِبُ القَصْدَ.

(3) حَرَصْتُ على تَرجَمَةِ جَميعِ ما بينَ دفَّتَيْ (مَعْنَى المَعْنَى)، فلَم أُغادِرْ مِنهُ شَيئًا البَتَّةَ وإنْ بَدا غَيْرَ ذي نَفْعٍ لِلقارِئِ العَرَبِيِّ أو مُخالِفًا لِمُتَبَنَّياتي الفِكرِيَّةِ؛ لإيماني بِأنَّ مُهِمَّةَ المُتَرجِمِ نَقْلُ مَضمونٍ ثَقافِيٍّ مِن لُغَةٍ إلى أُخرَى، ومَعلومٌ أنَّ أهَمَّ ما يُشتَرَطُ في النّاقِلِ أمانَتُهُ. لِذلكَ أرَى مِن نافِلَةِ القَولِ أن أُذَكِّرَ بِأنَّ حِرْصي على نَقْلِ جَميعِ ما وَرَدَ في تَضاعيفِ الكِتابِ وما انطَوَتْ عليهِ أُطروحاتُهُ لا يَعْني التِزامي الفِكرِيَّ لِكُلِّ ما فيهِ. وقَد بَلَغَ بِي تَوَخّي الدِّقَّةِ في النَّقْلِ مَبْلَغَ أن التَزَمْتُ تَرجَمَةَ قائمَةِ مُحتَوَياتِ الكِتابِ التي أثبَتَها مُؤَلِّفاهُ ولم أعمِدْ إلى اصطِناعِ قائمةٍ جديدَةٍ. ومِمّا زادَني حِرْصًا على ذلكَ أنّي رأيتُ إبداعَ الكاتِبَيْنِ غيرَ مَحصورٍ في تأليفِ مادَّةِ فُصولِ الكِتابِ وتَذييلاتِهِ وفي انتِقاءِ مُلحَقَيْهِ المُتَمَيِّزَيْنِ، بل إنَّهُ امتَدَّ لِيَشمَلَ، على نَحوٍ لا يُعهَدُ كَثيرًا، قائمَةَ مُحتَوَياتِهِ التي أزعُمُ أنَّ مُطالِعَها يُمكِنُ أن

يَخرُجَ بِخُلاصَةٍ إبداعيَّةٍ لِلأفكارِ المركزيَّةِ في الكِتابِ. وكذلِكَ اكتَفَيْتُ بِتَرجمَةِ مَسْرَدَي المُصطَلَحاتِ والأعلامِ اللَذَيْنِ أَثبَتَهُما المُؤَلِّفانِ في نِهايَةِ كِتابِهِما، ولَم أَشَأ أَن أُفسِدَ عليهِما حتّى إنجازَهُما الصَّغيرَ هذا بِاصطِناعِ مَسرَدَيْنِ جَديدَيْنِ؛ رَغبَةً مِنّي في نَقْلِ صُورَةٍ كامِلَةٍ لِجُهدِهِما الإبداعيِّ الذي طالَ هذَيْنِ المَسرَدَيْنِ أيضًا؛ إذ لَم يَكُنْ عَمَلُهُما في مَسْرَدِ المُصطَلَحاتِ بِخاصَّةٍ مَقصورًا على النَّقْلِ الحَرفِيِّ لِلمُصطَلَحاتِ مِن مَتْنِ الكِتابِ، بَل أَعمَلا فِكرَهُما فَصاغا في الكَثيرِ مِنها صِياغاتٍ مُصطَلَحِيَّةً جَديدَةً تُمَثِّلُ نَتيجَةَ استِقراءٍ لِحالاتِ وُرودِها، أَو استِنباطٍ لِفِكرَةٍ اقتَرَنَتْ بِها.

(4) التَزَمْتُ في النَّصِّ المُتَرجَمِ تَقطيعَ أوغدِن ورِتشاردز فِقراتِ كِتابِهِما التِزامًا تامًّا؛ فكُنْتُ أَبتَدِئُ مِن حَيْثُ ابتَدَأَ الأَصلُ، وأَنتَهي إلى حَيثُ انتَهَى. ذلكَ بِأَنّي أُؤمِنُ بِأَنَّ تَفصيلَ نَصٍّ مّا وتَقطيعَ فِقراتِهِ يَعكِسُ سَيرورَةً فِكرِيَّةً مُعَيَّنَةً في ذِهنِ مُنشِئِهِ، وأَنَّ تَجاوُزَ ذلكَ بِانتِهاجِ تَفصيلٍ وتَقطيعٍ جَديدَيْنِ لا بُدَّ أَن يُفَوِّتَ شَيئًا مِن قَصدِ الكاتِبِ وغَرَضِهِ، فيكونُ ذلكَ سَبيلاً خَفِيَّةً مِن سُبُلِ الخِيانَةِ في التَّرجَمَةِ.

(5) عَمَدتُ إلى إثباتِ أرقامِ صَفَحاتِ النُّسخَةِ الإنجليزيَّةِ في مَتنِ تَرجمتي العربيَّةِ، لِيتسنّى لِمَن أرادَ مُراجَعَةَ شَيءٍ مّا في الأصلِ العَودَةُ إليهِ بِسُهولَةٍ ومِن غيرِ عَناءٍ. وقَد جَعَلْتُ أرقامَ صَفَحاتِ الأصلِ مَحصورَةً بينَ مَعقوفتَيْنِ تَمييزًا لَها مِمّا قَد يَرِدُ في النَّصِّ المُتَرجَمِ مِن أرقامٍ لا صِلَةَ لَها بِها.

(6) عَرَّفْتُ بِجَميعِ الشَّخصيّاتِ التي ذُكِرَتْ في مَتْنِ (مَعْنَى المَعْنَى)، وأَثْبَتُّ ذلكَ في هَوامِشَ في أَسفَلِ الصَّفَحاتِ التي يَرِدُ فيها ذِكْرُ تلكَ الشَّخصِيّاتِ، مُعْقِبًا إيّاها قَوْلي: [المُتَرجِم]؛ تَمييزًا لَها مِن الهوامِشِ التي يُورِدُها المُؤَلِّفانِ. وكانَ مَنهَجي في ذلكَ هوَ التَّعريفَ بِالشَّخصِيَّةِ عِندَ أَوَّلِ ذِكْرٍ لَها ابتِداءً بِالفَصلِ الأَوَّلِ مِن الكِتابِ وانتِهاءً بِآخِرِ مُلحَقٍ فيهِ. أمّا ما قَد يَكونُ مِن ذِكرٍ لِشَخصِيَّةٍ مّا في ما قَبلَ الفَصلِ الأَوَّلِ، أي في تَصديراتِ المُؤَلِّفَيْنِ لِطَبعاتِ الكِتابِ المُختلِفَةِ أو في ما سَبَقَها مِن مُقَدِّمَةٍ لأُمبِرتو إيكو، فإنْ كانَ لِتلكَ الشَّخصيَّةِ ذِكْرٌ بَعدَ ذلكَ في فُصولِ الكِتابِ أو تَذييلاتِهِ أو مُلحَقَيْهِ فإنّي أُرجِئُ التَّعريفَ بِها إلى حينِ ذلكَ، وإلّا عَرَّفْتُ بِها عندَ أَوَّلِ مَجيئِها في التَّصديراتِ أو المُلحَقِ قَبلَها. ثُمَّ إنّي أَثبَتُّ

في المَتنِ المُقابِلَ الأجنَبِيَّ لاسْمِ الشَّخصِيَّةِ المُعَرَّفِ بِها عندَ أوَّلِ ذِكْرٍ لَها على النَّهجِ المذكورِ آنِفًا.

(7) أثْبَتُّ هَوامِشَ تَوضيحيَّةً لِلأفكارِ التي عليها مَدارُ كَلامِ المُؤلِّفَيْنِ، والتي أرَى أنَّ النَّصَّ لا يُسْلِمُ نَفسَهُ لِفَهمِ مُتلَقِّيها إلّا بإعاناتٍ مُرشِدَةٍ وإضاءاتٍ هادِيَةٍ. وقَد أخَذَ ذلكَ مِن جُهدي ووقتي كُلَّ مأخَذٍ وبَلَغَ كُلَّ مَبلَغٍ، لكِن لَم يَكُنْ بُدٌّ منهُ؛ إذ إنَّ الاستِغناءَ عنهُ قَد يَمضي بِالقارِئِ في بَعضِ المَواطِنِ إلى طَريقٍ مَسدودٍ، أو يُفْضي بِهِ إلى حَيْرَةٍ وشَتاتٍ.

(8) أوْرَدتُّ المُقابِلاتِ الأجنَبِيَّةَ لِعددٍ مِن المُصطَلَحاتِ والتَّعبيراتِ والجُمَلِ في التَّرجمةِ، مِمّا رَأيْتُ أنَّهُ مُهِمٌّ لِتَمثيلِهِ حَصيلَةً لِسانيَّةً أو فلسفيَّةً أو سايكولوجيَّةً أو أنثروبولوجيَّةً أو طِبِّيَّةً أو سِوَى ذلكَ مِمّا قَد يُهِمُّ ذَوِي الاختِصاصِ أو التَّراجِمَةَ أو المُثَقَّفِينَ الاطِّلاعُ عليهِ.

ولَم يَبقَ لي في الخِتامِ إلّا أن أقولَ لِمُطالِعِ تَرجَمةِ هذا الكِتابِ: هذا عَمَلي بينَ يَدَيْكَ، لَم أتَعمَّد التَّقصيرَ في أيِّ حرفٍ مِن حُروفِهِ، فَضلاً عن كلِماتِهِ، وجُمَلِهِ، ونُصوصِهِ، وقد أخَذَ مِنّي ما أخَذَ مِن قُوَّتي ومِن بَصَري، وصَرَفَني عَن مُتابَعَةِ الكَثيرِ مِن شُؤوني الخاصَّةِ وشُؤونِ أهلِ بَيتي الذينَ احتَملوا صابِرينَ مُحتَسِبِينَ إخراجَ هذا الجهدِ إلى النّاسِ، مِمّا أسألُ اللهَ أن يَجعَلَهُ في مَوازينِ حسناتِهِم وأن يُثيبَهُم عليهِ الثَّوابَ الجزيلَ. فغايةُ ما أرجوهُ أن يَغتَفِرَ قارِئُ هذهِ التَّرجمةِ زَلّاتِي فيها، وأن يُتحِفَني بِما يَظُنُّ أنّي أخفَقْتُ في إيصالِ المُرادِ منهُ. وأسألُهُ تَعالَى أن يَجعَلَ عملي هذا خالِصًا لِوَجهِهِ الكريمِ، وألّا يَجعَلَ لأحدٍ فيهِ شيئًا، وأن يُثيبَني عليهِ، وآخِرُ دَعوايَ أنِ الحَمدُ لِلّهِ رَبِّ العالَمِينَ.

المُترجِم

الدكتور كِيان أحمد حازِم يَحْيَى

المُقَدِّمَة

مَعْنَى مَعْنَى المَعْنَى

بِقَلَمِ أمبِرتو إيكو[1]

أعتَقِدُ أنَّ الكَثيرَ مِن الدّارِسينَ الجادِّينَ لِلِّسانيّاتِ، وعِلمِ الدَّلالَةِ، وفَلسَفَةِ اللُّغَةِ، والسِّيميوطيقا، قَد أفادُوا في مُستَهَلِّ حَياتِهِم العَمَلِيَّةِ مِن قِراءَةِ كِتابِ مَعْنَى

---

(1) أُمبِرتو إيكو (1932م-...). مُنَظِّرٌ، وناقدٌ أدبيٌّ، وباحثٌ في الفلسفةِ وعلمِ الجمالِ والشِّعرِ ووسائلِ الإعلامِ والترجمةِ، وعالِمٌ بالرموزِ والعلاماتِ، ورِوائيٌّ، وفيلسوفٌ، ومؤرِّخٌ، وصحفيٌّ، وأستاذٌ جامعيٌّ، وناشرُ كتبٍ لِلأطفالِ، ومؤلِّفُ قصصٍ مصوَّرَةٍ، ومؤسِّسُ مَجلّاتٍ أدبيَّةٍ، وأخيرًا أحدُ أبرزِ رموزِ السِّيميوطيقا في القَرنِ العشرينَ. وُلِدَ في ألساندريا بإيطاليا. ودرَسَ في بدايةِ حياتِهِ الفلسفةَ، فحصلَ على إجازةٍ فيها من جامعةِ تورينو سنةَ 1954 عن بحثٍ عنوانُهُ (القضيَّةُ الجماليَّةُ عندَ القدِّيسِ توما الأكويني). ثمَّ وجَّهَ اهتمامَهُ إلى الشِّعرِ الطليعيِّ والثقافةِ الجماهيريَّةِ بعدَ أن أصبَحَ أستاذًا لِعلمِ الجمالِ في جامعةِ تورينو سنةَ 1961. وبعدَ ذلك تخصَّصَ في السِّيميوطيقا والأبحاثِ المتعلِّقةِ بنظريَّةِ الأدَبِ. ومنذُ سنةِ 1975 أصبحَ أستاذًا جامعيًّا في السِّيميوطيقا بِجامعةِ بولون. وفي أثناءِ هذه المسيرةِ ألَّفَ إيكو مجموعةً من الأعمالِ الرِّوائيَّةِ التي لفتَت الانتباهَ وطرحَت الأسئلةَ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ النقديَّةِ: العملُ المفتوح، والبِنيَةُ الغائبة، وتأريخُ الجمال، والعَلامةُ- تحليلُ المفهومِ وتأريخُه، والسِّيميوطيقا وفلسفةُ اللغة، وحدودُ التأويل، وسِتُّ رِحلاتٍ في أدغالِ السَّرديَّة، والقارئُ في الحكاية. أمّا في مجالِ الرِّوايةِ فقد نشرَ روايتَهُ الأولى (اسمُ الوردة) التي أمضى في كتابتِها خمسَ عشرةَ سنةً، وكانَ نجاحُها العالَميُّ مفاجأةً بكلِّ المقاييس؛ إذ لم يَسبِقْ أن أصدَرَ متخصِّصٌ في أحدِ أصعبِ العلومِ الإنسانيَّةِ الحديثةِ عملاً أدبيًّا مهمًّا. ونَشَرَ لاحقًا رِوايتَهُ الثانيةَ (بندول فوكو)، وكذلكَ: جزيرة اليومِ السابِقِ، وباودولينو، واللهَب الغامِض لِلملكةِ لوانا، ومقبرة براغ. [المُترجِم]

المَعْنَى (المَطبوعِ في سَنَةِ 1923، لكِنَّ أَصلَهُ سِلسِلَةُ مَقالاتٍ لِلمُؤَلِّفَيْنِ بَدَأَتْ بِالظُّهورِ في سَنَةِ 1910). وإِنِّي عَلى عِلْمٍ، كذلكَ، بِأَنّا نادِرًا مّا نُلفي هذا الكِتابَ في قَوائمِ مَراجِعِ أيِّ مُؤَلِّفٍ مُعاصِرٍ في اللِسانيّاتِ، أَو عِلمِ الدَّلالَةِ، أَو فَلسَفَةِ اللُغَةِ، أَو السِّيميوطيقا. هذا الغِيابُ يُمكِنُ أن يُشيرَ إمّا إلى أَنَّ المُؤَلِّفَ لَم يَطَّلِع على الكِتابِ (وكَثيرًا مّا يَقِفُ القارِئُ على هذا الأمرِ)، وإمّا إلى أَنَّهُ يَتقَيَّدُ بِالمَبدَإِ المُريبِ الذي مفادُهُ أَنَّ ضَمانَ جَودَةِ قائمَةِ المَراجِعِ وظُهورِها بِمَظهَرٍ حَداثِيٍّ يَقتَضي أَلّا تَشتَمِلَ إلّا على المُؤَلَّفاتِ التي ظَهَرَتْ إلى الوُجودِ في العَقدِ الأخيرِ. على أَنَّهُ مِن الشّائعِ أن تَكونَ ثَمَّةَ قَوائمُ لِلمَراجِعِ تُورِدُ اسمَ مُؤَلِّفٍ يَرجِعُ إلى سَنَةِ 1923 لكِنْ على نَحوٍ غيرِ مُباشِرٍ فَقَط، ثُمَّ إنَّ مَرَدَّ ذلكَ إلى أَنَّهُ قَد وَرَدَ ذِكْرُهُ في مُؤَلَّفٍ يَرجِعُ إلى سنةِ 1983.

وإِنِّي لأَعتَقِدُ أَنَّ كِتابَ مَعْنَى المَعْنَى ما زالَ يَستَحِقُّ أن يُورَدَ، مِن أجلِ بَعضِ فُصولِهِ في أَقَلِّ تَقديرٍ. وإنَّهُ لَيَستَحِقُّ أن يُقرَأَ، على أَيَّةِ حالٍ.

إنَّ كِتابًا أكاديمِيًّا مِثْلَ كِتابِنا، كُتِبَ في مُستَهَلِّ القَرْنِ، تَجدُرُ قِراءَتُهُ لِعِدَّةِ أَسبابٍ؛ أَوَّلُها: أَنَّهُ أَثَرٌ كلاسيكيٌّ مُعتَرَفٌ بِهِ؛ وثانيها: أَنَّهُ كانَ كِتابًا أَصيلاً أَثَّرَ على نَحوٍ مّا في الدِّراساتِ المُتأخِّرَةِ، ويَجِبُ أن يَكونَ حاضِرًا في الذِّهنِ إذا ما أَرَدْنا فَهْمَ ما جاءَ بَعدَهُ؛ وثالِثُها: أَنَّ قِراءَتَهُ ما زالَتْ مُثيرَةً، وإن يَكُنْ بَعضُ ما وَرَدَ فيهِ مِن أفكارٍ قَد أَصبَحَ بالِيًا.

وأنا أَقولُ فَورًا إنَّ كِتابَ مَعْنَى المَعْنَى يَنتَمي، بِلا شَكٍّ، إلى الخانَةِ الثّالِثَةِ، ما دامَ يُقَدِّمُ تَجرِبَةً مُمتِعَةً مُثيرَةً حتَّى لِلقارِئِ غيرِ المُرتَبِطِ بِالبَحثِ المُتَخصِّصِ في مَيدانِ اللُغَةِ. إنَّهُ [v] لَيسَ أَثرًا كلاسيكيًّا بِالمَعْنَى الذي تَكونُ بِهِ كذلكَ أَعمالُ فريجة، أَو سوسير، أو فِتغِنشتاين؛ ذلكَ بِأَنَّهُ كثيرًا مّا يَكونُ انتِقائيًّا وتَبسيطِيًّا. وهوَ إلى طَرْقِ المُشكِلاتِ، واستِشرافِ مَوضوعاتِ الخِلافِ، أَقرَبُ مِنهُ إلى تَأسيسِ نَظرِيَّةٍ مُتَكامِلَةٍ. لكِن لا شَكَّ في أَنَّهُ كانَ كِتابًا أَصيلاً تَكْمُنُ مَزِيَّتُهُ في قَولِهِ أَشياءَ مُعَيَّنَةً سابِقَةً لِزَمَنِها بِأَشواطٍ بَعيدَةٍ، والحَقُّ أَنَّ الكَثيرَ مِن إملاءاتِهِ لَمّا يَحْظَ بَعدُ

بِالقَبولِ التّامِّ عندَ الدّارِسِينَ[2]. فالمُتَخَصِّصُونَ أيضًا يُمكِنُ أن يُعيدُوا قِراءَتَهُ لِيَنتَفِعُوا بِهِ.

واقتِراحي الذي أُقَدِّمُهُ لِلشَّخصِ الاعتِيادِيّ أو لِلطّالبِ الذي يُهَيِّئُ نَفسَهُ لِمُواجَهَةِ مُشكِلاتِ اللُّغَةِ هوَ أن يَستَحضِرَ في ذِهنِهِ أنَّ هذا الكِتابَ قَد صِيغَ في العُقودِ الأُولَى مِن هذا القَرنِ. وقَد جَدَّتْ أحداثٌ كَثيرَةٌ مُنذُ ذلكَ الوَقتِ: كانتِشارِ الوَضعيَّةِ المَنطِقِيَّةِ، والفَلسَفَةِ التَّحليليَّةِ، واللِسانيّاتِ البِنْيَوِيَّةِ، والسِّيميوطيقا، والهيرمنيوطيقا، وتَطبيقِ النَّماذِجِ المَنطقيَّةِ على اللُّغَةِ الاعتياديَّةِ، والبراغماتِيّاتِ، واللِسانيّاتِ الاجتِماعيَّةِ، واللِسانيّاتِ النَّفسيَّةِ، زِيادَةً على الدَّورِ المَركزيّ الذي تُؤَدِّيهِ الآنَ مَسأَلَةُ المَعْنَى في البَحثِ في مَجالِ الذَّكاءِ الاصطِناعيّ. ولَم يَكُنْ في وُسعِ أوغدِن ورِتشاردز مَعرِفَةُ أيٍّ مِن هذهِ الأشياءِ. لِذلكَ كانَ عَلى القارِئِ أن يَتذَكَّرَ أنَّ هذا الكِتابَ بِمَنزِلَةِ التَّمهيدِ لِهذهِ التَّطوُّراتِ. وبِطَريقَةٍ يَعُدُّها مُتَخَصِّصُو اليَومِ غيرَ كافِيَةٍ تِقْنِيًّا يُقَدِّمُ لَنا هذا الكِتابُ عِدَّةَ إحساساتٍ سَبْقِيَّةٍ بِما سَيَحدُثُ فيما بَعْدُ، وعِدَّةَ تَوَقُّعاتٍ عَبقَرِيَّةٍ.

فإذا ما استَحضَرَ القارِئُ ذلكَ بِقُوَّةٍ في ذِهنِهِ استَطاعَ إدراكَ سِحْرِ هذا الكِتابِ، وقُدرَتِهِ على فَتحِ الآفاقِ.

فطَوالَ حياتِنا كُلِّها نحنُ نُعامِلُ الأشياءَ بِوَصفِها عَلاماتٍ. وكُلُّ تَجرِبَةٍ، بالمعنَى الأوسَعِ إمكانًا لِلكَلِمةِ، قَد يُستَمتَعُ بِها، أو تُؤَوَّلُ (أي تُعامَلُ بِوَصفِها عَلامَةً)، أو يُفعَلُ بِها كِلا الأمرَيْنِ، والقَليلُ جِدًّا مِنها لا تَطولُهُ دَرَجَةٌ مُعَيَّنَةٌ مِن التَّأويلِ. لِذلكَ كانَ تَقديمُ وَصفٍ لِعَمَليَّةِ التَّأويلِ هوَ المِفتاحَ لِفَهمِ الحالِ العَلامِيَّةِ، وكانَ مِن ثَمَّ بِدايَةَ الحِكمَةِ. ومِن المُدهِشِ أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ الحاجَةَ إلى وَصْفٍ كَهذا [vi] كانَ أمرًا مألوفًا في عِلمِ النَّفسِ مُدَّةً طَويلَةً، نَجِدُ المَعنِيِّينَ بِالنَّقدِ وتَنظِيمِ مَعارِفِنا يُغْفِلونَ تَمامًا عَواقِبَ إهمالِهِ إلّا قَليلاً منهُم. (ص131-132)

---

(2) لِلتَّثَبُّتِ مِن أهمِّيَّةِ الكِتابِ لا نَحتاجُ إلّا إلى إلقاءِ نَظرَةٍ على تَصديراتِهِ الخَمسَةِ: فالكِتابُ الذي حَظِيَ بهذا العَدَدِ مِن الطَّبَعاتِ والتَّحديثاتِ لا بُدَّ أن يَكونَ قَد أثارَ اهتِمامًا بالِغًا.

كانَتْ هذهِ صَفحَةً واحِدةً مِن عِدَّةِ صَفَحاتٍ ما زالَت تَبدو مُعاصِرَةً تَمامًا. والحَقُّ أَنَّ النَّظَرَ إلى خِبرَتِنا كُلِّها على أنَّها تَفاعُلٌ معَ العَلاماتِ، وإلى هذا التَّفاعُلِ على أَنَّهُ فَعّاليَّةٌ تأويليَّةٌ، يُعَدُّ اليَومَ إحدَى القَضايا 'السّاخِنَةِ' في الخِلافِ السِّيميوطيقيِّ.

غيرَ أَنَّ هذهِ الفِقْرَةَ تَكشِفُ كذلكَ عن جانِبٍ آخَرَ مِن الكِتابِ كانَ، بِحَقٍّ أو بباطِلٍ، مَصدَرًا لِلسُّخرِ: إذ تَعُمُّ كِتابَ **مَعْنَى المَعْنَى** حَماسَةٌ تَبشيريَّةٌ وافِرَةٌ. وسأُطلِقُ على هذا المَوقِفِ، بِشَيءٍ مِن القَسْوَةِ، اسمَ 'المُغالَطَة العِلاجِيَّة.'

والمُغالَطَةُ العِلاجِيَّةُ مُستَمَدَّةٌ مِن سِلسِلَةٍ مِن الاعتِباراتِ الصَّحيحَةِ والحَتمِيَّةِ؛ أَوَّلُها: أَنّا كَثيرًا ما نَستَعمِلُ كَلِماتٍ ذَواتِ مَعانٍ مُختَلِطَةٍ ومُلْبِسَةٍ، ومِن هذا اللَّبْسِ يُمكِنُ أن يَنشَأَ عَددٌ مِن الإشكالاتِ؛ وثانيها: أنَّ الكَثيرَ مِن هذهِ الإشكالاتِ يُمكِنُ اجتِنابُهُ إذا ما ثَبَّتْنا بِدِقَّةٍ تامَّةٍ مَعانيَ التَّعبيراتِ التي نَستَعمِلُها؛ وثالِثُها: أَنَّ هذا المَنهجَ قَد أثبَتَ أَنَّهُ ناجِعٌ في العُلومِ المُنضَبِطَةِ، وعالَمِ القانونِ، وصِياغَةِ العُقودِ، والاقتِصادِ، والحَياةِ العَسكريَّةِ؛ ورابِعُها: أَنَّ العِلْمَ اللُّغَويَّ الذي يُمكِنُهُ تَوسيعُ هذهِ المَعاييرِ أيضًا إلى اللُّغَةِ الاعتِيادِيَّةِ يَجعَلُ الحَياةَ الاجتِماعيَّةَ، والعَلاقاتِ الفَردِيَّةَ، والمُشكِلاتِ الأخلاقيَّةَ أَقَلَّ لَبْسًا وأَكثَرَ ضَبْطًا.

ومِمّا يُؤسَفُ عليهِ أَنَّهُ إنْ تَكُنِ المَلحوظَتانِ الأُولَى والثّالِثَةُ دَقيقَتَيْنِ وغَيْرَ قابِلَتَيْنِ لِلدَّحْضِ فإنَّ المَلحوظَةَ الرّابِعَةَ في نَفسِها مُلْبِسَةٌ. فَصَحيحٌ أَنَّ في إمكانِ النَّظريَّةِ اللُّغَويَّةِ الجَيِّدَةِ أن تَجعَلَنا أكثَرَ وَعيًا لِوَظيفيَّةِ اللُّغَةِ التي نَستَعمِلُها والفِخاخِ التي تَنصِبُها لَنا: فالذي يَعرِفُ لُغَةً ما مَعرِفَةً جَيِّدَةً يُمكِنُهُ أن يَكونَ أدَقَّ في التَّعبيرِ عن نَفسِهِ، أو يُمكِنُهُ حَتَّى أن يَكذِبَ على نَحوٍ أكثَرَ إقناعًا- تَمامًا كما أَنَّ الكاتِبَ الذي يَقرَأُ الأعمالَ الكلاسيكيَّةَ بِعَيْنٍ ناقِدَةٍ يتَعلَّمُ تِقْنِيّاتٍ كِتابيَّةً أَكثَرَ تَهذيبًا. وصَحيحٌ أيضًا أَنَّهُ، في أثناءِ المُحادَثَةِ اليَوميَّةِ، قَد يَكونُ مِن المُفيدِ أن نَسأَلَ مُحادِثَنا عَمّا أرادَ قَولَهُ حَقيقَةً وعَن المَعنَى الذي كانَ يَمنَحُهُ كَلِمَةً مُعَيَّنَةً يَستَعمِلُها. لكِن يُساوي ذلكَ صِحَّةً أَنَّ اللُّغَةَ الاعتِياديَّةَ تَعيشُ على اللَّبْسِ، والفَرقِ الدَّقيقِ، والتَّلميحِ، و[vii]أَنَّ النّاسَ يَستَعمِلونَها مِن غَيرِ مُبالاةٍ، وكَثيرًا مّا يُفلِحُ بَعضُهُم في

الفَهْمِ عن بَعضٍ على الرَّغمِ مِن وُجودِ الكَلِماتِ غيرِ الدَّقيقَةِ، والمَحذوفاتِ، وإساءاتِ الفَهمِ. وما مِن مُعالَجَةٍ لُغَويَّةٍ يُمكِنُها أن تَمحُوَ هذهِ العُيوبَ التي في اللُّغَةِ الاعتِيادِيَّةِ، ما دامَت تُمَثِّلُ كذلكَ مَظهَرَ ثَرائها وقُوَّتِها. ويُمكِنُ مَحْوُها فَقَطْ في نِطاقِ مساحاتٍ مَخصوصَةٍ تَحتَ ظُروفٍ مُختَبَرِيَّةٍ: واللُّغَةُ التي نَستَعمِلُها لِغَرَضِ إرسالِ بَرقِيَّةِ عَمَلٍ، أو التي نَستَعمِلُها في التَّحَدُّثِ إلى حاسوبِنا الشَّخصيِّ، مِثالانِ لِلُّغَةِ المُختَبَرِيَّةِ. لكِنَّ اللُّغَةَ المُختَبَرِيَّةَ لا تَعمَلُ إلّا في المُختَبَرِ الذي صِيغَتْ مِن أجلِهِ. ولَو أنّا، في أيِّ تَفاعُلٍ تَواصُلِيٍّ في الحَياةِ اليَوميَّةِ، مارَسْنا الصَّرامَةَ التي يَجِبُ أن تَكونَ سِمَةَ المَنطِقِيِّ والمُعجَمِيِّ لَغَدَتِ الحَياةُ جَحيمًا، أو لَتَحَوَّلْنا إلى شَيْءٍ مّا يُشْبِهُ سُكّانَ جَزيرَةِ لابُوتا Laputa[3].

إنَّ فِكرَةَ المُعالَجَةِ اللُّغَويَّةِ قَديمَةٌ: إذ كانَ لوك Locke يَمتَلِكُ في ذهنِهِ مُعالَجَةً لُغَويَّةً في ذلكَ القِسمِ الرّائعِ مِن كِتابِهِ **مَقالَةٌ في الفَهمِ الإنسانيّ** *Essay on Human Understanding*، وعُنوانُ هذا القِسمِ هو "في الكَلِماتِ On Words". وبِمُرورِ القُرونِ أُسِّسَ الكَثيرُ مِن النَّظريّاتِ التي استَهدَفَتْ إمّا بِناءَ لُغَةٍ كامِلَةٍ، وإمّا مُعالَجَةً لِلُّغَةِ الاعتِياديَّةِ مُنجَزَةً بِوَساطَةِ نَظريَّةٍ دَلاليَّةٍ صارِمَةٍ. وبَعدَ رِتشاردز وأوغدِن كانَ الأُنموذَجُ الأكثرُ لَفتًا لِلنَّظَرِ في الوِلاياتِ المُتَّحدَةِ مَشروعَ عِلمِ الدَّلالَةِ العامِّ

(3) جَزيرَةُ لابُوتا: مَوضِعٌ قَصَصِيٌّ خَياليٌّ مَأخوذٌ مِن كِتابِ (رِحْلاتُ غَلِفَر Gulliver's Travels) لِلأديبِ الإنجليزيِّ جوناثان سوِفت Jonathan Swift (1667-1745م). وهيَ جَزيرةٌ أو صَخرةٌ طائرةٌ يَبلُغُ قُطرُها نَحوَ أربعةِ أميالٍ ونِصفِ المِيلِ، بِقاعِدَةٍ صُلْبَةٍ، يَستَطيعُ سُكّانُها التَّحرُّكَ في أيِّ اتِّجاهٍ باستِعمالِ العَومِ المُغناطيسيِّ في الهَواءِ. وهؤلاءِ السُّكّانُ هُم عِرْقٌ مِن الشَّواذِّ الذينَ تتَّجِهُ رُؤوسُهُم دومًا إلى اليمينِ أو الشِّمالِ، ولا تَتَّجِهُ أعيُنُهم البَتَّةَ إلى العالَمِ مِن حَولِهِم. وهُم مُولَعُونَ بِشَيئَيْنِ: الرِّياضيّاتِ، والموسيقى، فهُم مُتَقدِّمونَ جِدًّا في هذَيْنِ المجالَيْنِ، لكِنَّهُم لا يَستطيعونَ استِعمالَهُما لِتَحقيقِ غاياتٍ عمَلِيَّةٍ؛ إذ ليسَ في إمكانِهِم بِناءُ مَساكِنَ بِزوايا قائمةٍ، ولا خِياطةُ الملابِسِ المُناسِبةِ لهم. وسببُ ذلكَ أنَّهُم يَرفُضونَ أخذَ القِياساتِ مِن واقِعِ الحياةِ، ويُفَضِّلونَ بَدَلاً مِن ذلكَ استِعمالَ المُعادَلاتِ الرِّياضيَّةِ لإثباتِ ما يَنبَغي أن يكونَ صَحيحًا. فهُم أُناسٌ مَذهولونَ ونِطاقُ اهتمامِهِم مَحدودٌ جِدًّا. [المُترجِم]

لِكورزِبسكي Korzybski[4]. وكَثيرًا مّا استَسلَمَ مُؤَلِّفا كِتابِ **مَعْنَى المَعْنَى**، اللذانِ انشَغَلا فيما بَعْدُ بِنَشرِ اللُّغةِ الإنجليزيَّةِ الأساسيَّةِ، لِهذهِ الطّوباوِيَّةِ.

فَمِن الواضِحِ، إذا ما نَظَرْنا مِن زاوِيَةٍ عِلمِيَّةٍ، أنَّ المُغالَطَةَ العِلاجِيَّةَ تُعاني الطّوباوِيَّةَ. إذ لا يُمكِنُ إصلاحُ المُجتَمَعِ بِإصلاحِ اللُّغَةِ؛ ذلكَ بِأنَّ اللُّغَةَ كائنٌ حَيٌّ يتكَيَّفُ على وَفقِ تَطوُّرِ مُجمَلِ المُجتَمَعِ واتِّجاهاتِهِ. ويَتفاعَلُ أعضاءُ المُجتَمَعِ مَعَ كُلِّ تَحَجُّرٍ في اللُّغَةِ بِاللُّجوءِ إلى الشِّعرِ، أو بِابتِكارِ أشكالٍ لُغَوِيَّةٍ جَديدَةٍ، غيرِ دَقيقَةٍ، مُؤَثِّرَةٍ، في اللَهجَةِ العامِّيَّةِ، أو في اللَعِبِ، أو في عِباراتِ التَّحَبُّبِ.

ولِلمُغالَطَةِ، على الرَّغمِ مِن ذلكَ، جانِبٌ أصيلٌ ومُهِمٌّ اجتِماعيًّا. فَالذي أقولُهُ هوَ أنَّهُ إنْ ثبتَ عَدَمُ كِفايَةِ المُغالَطَةِ العِلاجيَّةِ في اقتِراحِ العِلاجاتِ فما زالَت دَقيقَةً في تَشخيصاتِها على نَحوٍ دراماتيكيٍّ. ورُبَّما لَن يكونَ البَشَرُ قادِرينَ على أن يتكلَّموا لُغَةً 'دَقيقَةً'، لكِن مِن [viii] المُهِمِّ لَهُم أن يَعرِفوا إلى أيِّ مَدًى يُمكِنُ أن تكونَ لُغَتُهُم غيرَ دَقيقَةٍ.

وهذا هوَ مَبْعَثُ السِّحْرِ والقُوَّةِ في كِتابِ **مَعْنَى المَعْنَى**: ويَكفينا أن نَقرَأَ الفَصلَ الذي يَدورُ حَولَ مَعْنَى كَلِمَةِ جَمال والفَصلَ المُخَصَّصَ لِلبَحْثِ في مَعْنَى لَفْظِ مَعْنًى اللَذَيْنِ كانَت النِّقاشاتُ الفَلسَفِيَّةُ مادَّتَهُما، لِنَشعُرَ بِجاذِبِيَّتِهِ وبِأنّا غارِقُونَ في زِئبَقِيَّةِ اللُّغَةِ التي نَستَعمِلُها، حتَّى حينَ نتكلَّمُ بِلُغَةٍ نَعُدُّها صارِمَةً. وإن لَم تَكُنِ المُعالَجاتُ الميكانيكيَّةُ مَوجودَةً فَما زالَ في الإمكانِ أن يُوجَدَ المَوقِفُ الوِقائيُّ؛ كاليَقظَةِ، والصَّرامَةِ، والشَّكِّ، الذي هوَ على الدَّوامِ -في اللُّغَةِ، كما هوَ في كُلِّ شَيْءٍ- شَرْطُ الصِّحَّةِ الجَيِّدَةِ.

---

(4) ألفريد هابدانك شاربيك كورزِبسكي (1879-1950م). فيلسوفٌ وعالِمٌ بولنديٌّ-أمريكيٌّ. يقترِنُ اسمُهُ بِتطويرِ نظريَّةِ عِلمِ الدَّلالَةِ العامِّ. إذ ذهبَ إلى أنَّ المعرِفَةَ الإنسانيَّةَ لِلعالَمِ مَحدودَةٌ بِأمرَيْنِ: النِّظامُ العَصَبِيُّ البشَرِيُّ، وبِنيَةُ اللغةِ. ورأى أنَّ الناسَ لا يَملِكونَ مَنفَذًا إلى المعرِفةِ المباشِرَةِ لِلواقعِ، لكِنَّهُم يَملِكونَ مَنفَذًا إلى إدراكاتٍ ومَجموعةٍ مِن الاعتِقاداتِ خَلَطَ المجتمعُ البشَريُّ بينَها وبينَ معرفةِ الواقعِ. أشهَرُ مؤلَّفاتِهِ هيَ: رُجولَةُ العالَمِ، والعِلمُ والرُّشْدُ. [المُترجِم]

فقراءَةُ مَعْنَى المَعْنَى، إذَن، لا تَعني تَعلُّمَ 'الكَمالِ' في التَّكَلُّمِ، بَل بِالأَحرَى تَعَلُّمَ ما الذي يَعنيهِ التَّكَلُّمُ بِطَريقَةٍ لا تَعرِفُ الكَمالَ.

إنَّ الكِتابَ الذي ما زالَ في إمكانِهِ أن يَقولَ كُلَّ هذهِ الأشياءِ لِلقارئِ الاعتِياديِّ قَد يَكونُ لَدَيْهِ بَعضُ ما يَقولُهُ لِلقارِئِ المُتَخَصِّصِ. ولا أعتَقِدُ أَنَّ مُهِمَّةَ هذهِ المُقَدِّمَةِ التي أكتُبُها تَقويمُ مَعْنَى المَعْنَى مِن وِجهَةِ نَظرِ الفَلسفَةِ، والسِّيميوطيقا، واللِسانِيّاتِ في الزَّمَنِ الحاضِرِ. لَكِنْ قَد يَكونُ مِمّا يَجْدُرُ ذِكْرُهُ كَيْفِيَّةُ أداءِ الكِتابِ وَظيفَةً رِيادِيَّةً.

فَلَيسَ مِن غيرِ المُعتادِ في أيّامِنا هذهِ أن نَجِدَ مُؤَلَّفاتٍ لِلِسانِيِّينَ لا يَعرِفونَ سِوَى ما تَشتَمِلُ عليهِ بِبليوغرافيَةُ اللِسانيّاتِ، أو لِفَلاسِفَةٍ في اللُغَةِ لا يَتطرَّقونَ إلى غَيرِ الفَلسفَةِ التَّحليلِيَّةِ، أو لِسايكولوجِيِّينَ لا يَعرِفونَ سِوَى عِلمِ النَّفسِ. وما يَأْسِرُنا في الكِتابِ هوَ ما يَتوفَّرُ عليهِ مُؤَلِّفاهُ مِن وَعيٍ واسِعٍ مُتَعَدِّدِ التَّخَصُّصاتِ. فقد عَرَفا عِلْمَ الدَّلالَةِ عندَ بريال Bréal، ولِسانِيّاتِ سوسير Saussure، وسابير Sapir، وجيسبِرسن Jespersen. وتَمكَّنا أيضًا مِن مَزجِ مُشكِلاتِ اللِسانيّاتِ بِالمُشكِلاتِ الخاصَّةِ بِالأنثروبولوجيا الثَّقافيَّةِ، على ما يُشيرُ إليهِ المُلحَقُ الذي دَبَّجَهُ يَراعُ مالِنوفِسكي Malinowski. وحَقيقَةُ أنَّ ثَمَّةَ وَشائجَ مَتينَةً بينَ دِراسَةِ اللغَةِ ودِراسَةِ عِلْمِ الأعراقِ تَكادُ تَكونُ الآنَ، بَعدَ بِنْيَوِيَّةِ براغ Prague[5] وليفي ستروْس Levi-Strauss[6]، مَفروغًا مِنها. لكِنْ في سَنَةِ 1923 لَم تَكُن هذهِ مَعلومَةً مَبذولَةً.

---

(5) حَلقَةُ براغ اللغويَّةُ: مدرسةٌ لغويَّةٌ خَرَجَتْ إلى الضَّوءِ سنةَ 1926م. وكانَ رَئيسُها فيلم ماثيوس، وضَمَّتْ أعلامَ اللغويِّينَ في تشيكوسلوفاكيا، وكانَ أساسُ الحلقةِ ثلاثةَ لغويِّينَ تشيكيِّينَ هُم: ماثيوس، وترنكا، وهافرا نيك، وثلاثةً مِن الرُّوسِ المُهاجِرِينَ هُم: تروبتسكوي، وجاكوبسن، وكارسيفسكي. واتَّفَقَ أعضاءُ الحلقةِ على اتِّخاذِ فكرةِ الوظيفيَّةِ أساسًا في الدِّراسةِ اللغويَّةِ، وإن اختلفوا في بعضِ التفصيلاتِ. وأعلَنَتْ حلقةُ براغ برنامجَها سنةَ 1929م في أوَّلِ عددٍ مِن نشرتِها. [المُترجِم]

(6) كلود ليفي سترَوس (1908–2009م). أنثروبولوجيٌّ فرنسيٌّ، وأحدُ أعمدةِ الفِكرِ البنيويِّ. بدأ مسيرتَهُ العلميَّةَ بدراسةِ الفلسفةِ، غيرَ أنَّ النظريّاتِ المجرَّدَةَ البعيدةَ عن الواقعِ الاجتماعيِّ ما لبِثَتْ أن خيَّبَتْ آمالَهُ، فسافرَ إلى البرازيلِ، حيثُ درَسَ علمَ الاجتماعِ =

ولَم يُغْفِلْ أوغدِن ورِتشاردز تَأريخَ الفِكرِ المَنطِقيِّ-اللُّغَويِّ- السِّيميوطيقيِّ، وقَد أحالا على سَكستوس أمبِرِقوس Sextus Empiricus، ولوك، ووِلكِنز Wilkins، ودَلغارنو Dalgarno، زِيادَةً على هوسِّيرل Husserl، وفريجة Frege، ورَسِل Russell، وكاسيرَر Cassirer. وفَطنا لِلدَّورِ الأساسيِّ [ix] الذي يُؤَدِّيهِ البَحثُ في الحُبْسَةِ في نَظريَّةِ اللُّغَةِ قَبْلَ جاكوبسن Jakobson(7) وهالي Halle(8)

= واكتشفَ أعمالَ الأنثروبولوجيِّينَ الأمريكيِّينَ التي لم تكُن معروفةً آنذاكَ في أورُبّا. وبعدَ عودتِهِ إلى فرنسا سنةَ 1948 انتُخِبَ أستاذًا في كوليج دو فرانس، وشغَلَ كرسيَّ الأنثروبولوجيا الاجتماعيَّةِ. وقد كانَ لأعمالِهِ أثَرٌ بالِغٌ في مجالِ الأنثروبولوجيا والبحثِ الإثنولوجيِّ الميدانيِّ. مِن مؤلَّفاتِهِ: البِنَى الأوَّليَّةُ لِعَلاقاتِ القَرابةِ، والأنثروبولوجيا البنيويَّةُ، ومَداراتٌ حَزينةٌ. [المُترجِم]

(7) رومان أوسيبوفِتش جاكوبسن (1896-1982م). لِسانيٌّ، ومُنَظِّرٌ أدَبيٌّ رُوسيٌّ-أمريكيٌّ. وُلِدَ في موسكو، واهتَمَّ منذُ وقتٍ مُبَكِّرٍ باللغةِ واللهجاتِ والفنِّ الشَّعبيِّ، واطَّلَعَ على أعمالِ سوسير وهوسّيرل. وفي سنةِ 1915 أسَّسَ معَ ستَّةِ طلبةٍ الناديَ اللسانيَّ بِموسكو، الذي انبَثَقَتْ منهُ مدرسةُ الشَّكلانيِّينَ الرُّوس. وفي سنةِ 1920 انتقلَ إلى تشيكوسلوفاكيا، حيثُ أعَدَّ أطروحةَ الدكتوراه سنةَ 1930 بعدَ أن أسهَمَ في تأسيسِ نادي براغ اللسانيِّ الذي احتضَنَ مَخاضَ المناهجِ البنيويَّةِ وبحوثَ وظائفِ الأصواتِ. وفي خِضَمِّ هذهِ الحقبةِ تبلورَتْ أهمُّ المنطلَقاتِ المبدئيَّةِ في عَلاقةِ الدِّراسةِ الآنيَّةِ بِالدِّراسةِ الزَّمانيَّةِ لدَيْهِ. وفي سنةِ 1941 رحلَ إلى الولاياتِ المتَّحدَةِ الأمريكيَّةِ، فدرَسَ في نيويورك، والتقَى ليفي ستروس. ثمَّ انتقَلَ إلى جامعةِ هارفَرد ومعهدِ ماسَتشوستس لِلتكنلوجيا، وهناكَ رسخَتْ قدمُهُ في التنظيرِ اللسانيِّ، حتَّى غدَتْ أعمالُهُ مَعينًا لكلِّ التيّاراتِ اللسانيَّةِ. مِن أشهَرِ مُصنَّفاتِهِ: مُحاوَلاتٌ في اللسانيّاتِ العامَّةِ، ومُحاضَراتٌ في الصَّوتِ والمعنَى. [المُترجِم]

(8) مورِس هالي (1923-...). لِسانيٌّ لاتفِيٌّ-أمريكيٌّ. دَرَسَ الهندسةَ في نيويورك، ثُمَّ توجَّهَ إلى جامعةِ شيكاغو التي حصلَ فيها على درجةِ الماجستير في اللِسانيّاتِ سنةَ 1948، ثُمَّ درَسَ في جامعةِ كولومبيا على يَدِ رومان جاكوبسن، ثُمَّ أصبَحَ أُستاذًا في معهدِ ماسَتشوستس لِلتكنلوجيا سنةَ 1951، ثُمَّ حصلَ على الدكتوراه من جامعةِ هارفَرد سنةَ 1955. تَقاعَدَ مِن معهدِ ماسَتشوستس لِلتكنلوجيا سنةَ 1996، لكنَّهُ ما زالَ نشيطًا في مَجالِ البحثِ والنَّشرِ. يُجيدُ الألمانيَّةَ، واليِيدِيَّةَ، واللاتفِيَّةَ، والرُّوسيَّةَ، والعِبريَّةَ، والإنجليزيَّةَ. ويُقيمُ حاليًّا في كيمبرِج. أشهَرُ ما يُعرَفُ بِهِ عملُهُ الرِّياديُّ في الفونولوجيا التوليديَّةِ؛ إذ كتَبَ (في النَّبْرِ والوَقْفِ في الإنجليزيَّةِ) في سنةِ 1956 بِمشاركةِ نوام تشومسكي وفريد لوكوف، و(النَّمَط الصَّوتيّ في الإنجليزيَّة) في سنةِ 1968 بِمشاركةِ =

بِأكثَرَ مِن ثَلاثينَ سَنَةً. واستَشرَفَا الكَثيرَ مِن الخِلافاتِ المُتأخِّرَةِ بِشأنِ أفعالِ الكَلامِ، زِيادَةً على مُواجَهَةِ مُشكلةِ التَّعريفِ استِنادًا إلى التَّقابُلِ التَّحليليّ-التَّركيبيّ. وقَدَّما لِلدّارِسِينَ المُتأخِّرِينَ أُنموذَجَ المُثَلَّثِ السِّيميوطيقِيّ (الرَّمز-الإحالَة-المَرجِع) الذي ثبتَتْ إفادَةُ الكَثيرِينَ مِنهُ فيما بَعدُ في فَحصِهِم- في التَّشابُهاتِ وفي الاختِلافاتِ- لِمُختَلِفِ نَظريّاتِ المَعنى، وعِلمِ دَلالَةِ شُروطِ الصِّدقِ، مُنذُ زَمَنِ أرِسطو Aristotle حتَّى يَومِنا هذا.

وكانَ المُؤَلِّفانِ مِن أوائلِ مَن اهتَمَّ بِكِتابِ فِتغِنشتاين Wittgenstein الذي عُنوانُهُ رِسالَةٌ Tractatus[9]. وقَد نُشِرَ هذا العَمَلُ في سَنَةِ 1921 في حَولِيَّةِ الفَلسَفَةِ الطَّبيعِيَّةِ *Annalen der Naturphilosophie* وفي هذهِ السَّنَةِ نَفسِها أصبَحَ أوغدِن مُديرَ تَحريرِ المَكتَبَةِ العالَمِيَّةِ لِعِلمِ النَّفسِ والفَلسفةِ والمَنهَجِ العِلميّ لِلنّاشِرِ كيغَن باول Kegan Paul. ونيطَتْ بِأوغدِن (بِمَعُونَةٍ مِن رامسي Ramsay[10]، ورَسِل، وفِتغِنشتاين نَفسِهِ) مهمَّةُ إنجازِ التَّرجَمَةِ الإنجليزيَّةِ الأُولَى لِكِتابِ رِسالَة في سَنَةِ 1922.

وقَد اقتَرَحَ المُؤَلِّفانِ في كِتابِهِما **مَعْنَى المَعْنَى** (ص89) وُجوبَ تَحريرِ بَعضِ تَقريراتِ كِتابِ رِسالَة مِن 'الحِجابِ الصُّوفيّ' (وليسَ المُؤَلِّفانِ مُخطِئَيْنِ في ذلكَ تَمامًا)؛ وفي سَنَةِ 1923 كَتَبَ فِتغِنشتاين رِسالَةً إلى أوغدِن لا يَبدو فيها راضِيًا عن **مَعْنَى المَعْنَى**؛ إذ يَقولُ فيها: "أعتَقِدُ أنَّكُما لَم تُدرِكا تَمامًا المُشكِلَةَ التي -على سَبيلِ المِثالِ- كُنْتُ أرمِي إليها في كِتابي" (*Letters to C.K.Ogden,*

= تشومسكي. وكتَبَ كذلكَ بِمشاركةِ صاموئيل جَي كَيْسَر في النظريَّةِ القُدْمَى لِعِلمِ العَروضِ التَّوليدِيّ. [المُترجِم]

(9) اسمُ الكِتابِ كامِلاً هو (رِسالةٌ مَنطِقِيَّةٌ فَلسفِيَّةٌ)، وسيأتي الحديثُ عنهُ وعن مؤلِّفِهِ لاحِقًا في الكِتابِ. [المُترجِم]

(10) فرانك بلَمبتن رامسي (1903-1930م). عالِمُ رِياضيّاتٍ، وفيلسوفٌ، واقتِصاديٌّ بريطانيٌّ مُتميِّزٌ، توُفِّيَ وعُمُرُهُ سِتٌّ وعِشرونَ سنةً. كانَ صديقًا مُقَرَّبًا لِلودفيغ فِتغِنشتاين، وكانَ لَهُ دَورٌ فاعِلٌ في ترجمةِ كِتابِهِ (رِسالةٌ مَنطقيَّةٌ فلسفيَّةٌ) إلى اللغةِ الإنجليزيَّةِ، وفي إقناعِهِ بِالعَودةِ إلى الفلسفةِ وإلى كيمبرِج. مِن آثارِهِ: المُسَلَّماتُ، وحَقائقُ ومُقتَرَحاتٌ، ومُسَلَّماتُ القانونِ والواقِعِ. [المُترجِم]

(Oxford; Blackwell, 1973). ولا شَكَّ في أَنَّ فِتغِنشتاين القَديمَ، بِمَوقِفِهِ المَنطقيِّ الصّارِمِ، لَم يَكُنْ في إمكانِهِ تَقديرُ الاهتِماماتِ الانتِقائيَّةِ السّايكولوجيَّةِ، واللُّغَوِيَّةِ، والسّوسيولوجيَّةِ، لِمُؤَلِّفَيْنا. ولَرُبَّما كانَ في إلحاحِهِما على فِكرَةِ الفِخاخِ اللُّغَوِيَّةِ ما كانَ يُمكِنُ أن يَجِدَ في شَخصِ فِتغِنشتاين صاحِبِ كِتابِ **بُحُوثٌ فَلسَفيَّةٌ** *Philosophical Investigations* قارِئًا أكثَرَ تَعاطُفًا. لكِنَّ الأمرَ المُهِمَّ الذي يَنبَغي أن يُلحَظَ هُنا هوَ الفَورِيَّةُ التي تَعامَلَ بِها كِتابُ **مَعْنَى المَعْنَى** معَ أكثَرِ القَضايا سُخونَةً وأصالَةً في الجَدَلِ المُتعلِّقِ باللُّغَةِ.

ويَتَجلَّى أوضَحُ مِثالٍ على هذا الخَيالِ الرِّياديِّ في الطَّريقَةِ التي عالَجَ بِها أوغدِن ورِتشاردز مَوضوعَ بيرس Peirce. إذ لم يَكُنْ بيرس أعظَمَ عالِمٍ سيميوطيقِيٍّ مُعاصِرٍ فَحَسْبُ، بَل كانَ أيضًا-على ما أراهُ في أقَلِّ تَقديرٍ- [x] أعظَمَ فَيلسوفٍ أمريكيٍّ في أواخِرِ القَرنِ ومِن غيرِ شَكٍّ أحَدَ أعظَمِ مُفَكِّري زَمانِهِ. وعلى الرَّغمِ مِن ذلكَ لَم يُدرَسْ فِكْرُ بيرس إلّا حَديثًا، في الوِلاياتِ المُتَّحِدَةِ، خارِجَ نِطاقِ مَجموعَةٍ مَحدودَةٍ جِدًّا مِن المُتَخصِّصِينَ. وفي سَنَةِ 1923 لا يَكتَفي أوغدِن ورِتشاردز بِتَخصيصِ اثنَتَيْ عَشرَةَ صَفحَةً لِنَظرِيَّةِ بيرس في العَلاماتِ، يُمكِنُ أن يُنصَحَ بِمُراجَعَتِها، حتَّى في يَومِنا هذا، الطُّلّابُ الذينَ يَرغَبونَ في مُقارَبَةِ هذا المُفَكِّرِ، ولا يَقتَصِرُ أمرُهُما على إدراكِ خِصْبِ سيميوطيقيَّةِ بيرس قَبلَ خَمسَ عشرَةَ سَنَةً مِن تأليفِ تشارلز مورِس Charles Morris[11] كِتابَهُ **أُسُسُ نَظرِيَّةِ**

(11) تشارلز وِليَم مورِس (1901-1979م). سيميوطيقيٌّ، وفيلسوفٌ أمريكيٌّ. أكثرُ ما يُعرَفُ بِهِ كِتابُهُ الذي أورَدَهُ أُمبرتو إيكو في المتنِ وهو (أُسُسُ نظرِيَّةِ العَلاماتِ Foundations of the Theory of Signs)، وهذا هو العنوانُ الدَّقيقُ لَهُ، فقد وقَعَ اختِلافٌ يَسيرٌ في العُنوانِ الوارِدِ في المتنِ هُنا؛ إذ جاءَتِ الأداةُ a بَدَلاً مِن الأداةِ the. وقد نُشِرَ هذا الكتابُ سنةَ 1938، ليكونَ الجزءَ الأوَّلَ مِن مَشروعٍ كبيرٍ لِمورِس عنوانُهُ الموسوعةُ العالَميَّةُ لِلعِلمِ الموَحَّدِ. وقَسَّمَ مورِس السيميوطيقا في هذا الكتابِ على ثَلاثةِ أقسامٍ هيَ: التَّركيبُ Syntax، وعِلمُ الدِّلالَةِ Symantics، والبراغماتيّات Pragmatics. ومن مؤلَّفاتِهِ الأُخرَى: العَلاماتُ واللغةُ والسُّلوكُ، والحركةُ البراغماتيَّةُ في الفلسفةِ الأمريكيَّةِ، وكِتاباتٌ في النظريَّةِ العامَّةِ لِلعَلاماتِ. [المُترجِم]

العَلاماتِ Foundations of a Theory of Signs (إيذانًا بِمُقارَبَةِ مورِس السُّلوكيَّةِ لِمُشكِلَةِ المَعْنَى- بِكُلِّ ما في المُحاوَلَةِ مِن أوجُهِ قُصُورٍ ولكِنْ أيضًا بِكُلِّ ما تَحمِلُهُ مِن جِدَّةٍ)، بَل إنَّهُما يَستَعمِلانِ أيضًا مَقُولَةَ 'التَّأويل' على النَّحوِ الذي طَوَّرَها بِهِ بيرس بِوَصفِها المَفهومَ المَركَزِيَّ لِنظريَّتِهما في المَعْنَى.

وهذهِ نُقطَةٌ مُهِمَّةٌ حَقًّا، وقد تَكونُ أكثَرَ ما جاءَ في هذا الكِتابِ أصالَةً، ولا سِيَّما إن اسْتَحْضَرْنا أنَّ نظريَّةَ التَّأويلِ تَقتَضي أن يَكونَ لَدَى مُؤَلِّفَيْنا نظريَّةٌ لِلسِّياقاتِ، وأنَّها تَضَعُهُما في مُواجَهَةِ المُشكِلَةِ- التي هيَ غايَةٌ في الحَداثَةِ- المُتَعَلِّقَةِ بِالعَلاقَةِ بينَ المَعْنَى اللُّغَوِيِّ والمَعْنَى الإدراكيِّ. مِن أجلِ ذلكَ تَضَمَّنَ الكِتابُ اقتِباساتٍ كَثيرَةً لَها دَلالتُها مِن كَلامِ اللَّيْدِي فِكتوريا ويلبي Victoria Welby التي كانَ لِتَبادُلِها الرَّسائلَ مَعَ بيرس أهمِّيَّةٌ أساسيَّةٌ في تَطوُّرِ نَظريَّةِ المَعْنَى. وقَد أظهَرَت الوَثائقُ الآنَ أنَّ أوغدِن كانَ على صِلَةٍ وَثيقَةٍ بِاللَّيْدي ويلبي.

هذِهِ، إذَنْ، بَعْضُ الأسبابِ التي تَدعو إلى إعادَةِ قِراءَةِ كِتابِ **مَعْنَى المَعْنَى**: فلا يُبحَثُ فيهِ عَمّا لَم يَكُنْ في وُسعِهِ، بَعْدُ، قَولُهُ أو عَمّا قَالَهُ على نَحوٍ لا يَفي بِالغَرَضِ، بَل تُلحَظُ فيهِ عِدَّةُ إملاءاتٍ ما زالَتْ إلى حَدٍّ مَا لَم تَحْظَ بِالقَبولِ التّامِّ. [xi]

ميلان
أغسطس / أيلول 1988

أمبرتو إيكو
تَرجَمَها عَن الإيطاليَّةِ وِلْيَم وِيفَر[12]

(12) وِليَم فينس ويفَر (1923-...م). مترجِمٌ أمريكيٌّ لِلأدَبِ الإيطاليِّ إلى اللغةِ الإنجليزيَّةِ. أكثرُ ما يُعرَفُ بِهِ ترجماتُهُ لِمؤلَّفاتِ أمبرتو إيكو وإيتالو كالفينو، زيادةً على ترجمتِهِ نُصوصًا لِكُتّابٍ إيطاليِّينَ آخَرينَ على مدَى خَمسِينَ سنةً قَضاها في الترجمةِ. مِن أهَمِّ تَرجماتِهِ لِمُؤلَّفاتِ إيكو القصصيَّةِ: اسمُ الوردةِ، وجزيرةُ اليومِ السّابِقِ، وباودولينو. [المُترجِم]

تَصْدِيرُ الطَّبْعَةِ الأُولَى

إنَّ مُعظَمَ ما سيَأتي مِن صَفَحاتِ هذا الكِتابِ، التي يَرجِعُ زَمَنُ كِتابَةِ بَعضِها إلى سَنَةِ 1910، كانَ قَد ظَهَرَ على نَحوٍ دَوْرِيٍّ بينَ سَنَتَيْ 1920 و1922، مَدفُوعًا بِمُحاوَلَةِ التَّعامُلِ مُباشَرَةً معَ الصُّعوباتِ النّاجِمَةِ عن تأثيرِ اللُّغَةِ في الفِكْرِ.

والأُطروحَةُ المُدَّعاةُ هيَ أنَّ عِلمَ الرَّمْزِيَّةِ[1]، الذي هوَ دِراسَةُ ذلكَ التَّأثيرِ،

---

(1) لِكَلِمَةِ الرَّمْزِيَّةِ ارتِباطاتٌ تَاريخيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ مِن خِلالِ المَعاني المُعجَميَّةِ المُختَلِفَةِ لِكَلِمةِ 'رَمْز' تَستَحِقُّ التَّأمُّلَ. فزِيادَةً على مَعناها الأساسيِّ الثّابتِ الذي هوَ العَلامَةُ أو الأمارَةُ (شَيءٌ مّا 'مَجموعٌ') كانَتْ قَد نَعِمَتْ بِمَعنَيَيْنِ يَرجِعانِ إلى حقبَتَيْنِ مُختلفتَيْنِ؛ إذ يَرجِعُ أحدُهُما إلى سايبريَن Cyprian، ويُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عن العَقيدَةِ التي كانَت تُعَدُّ 'عَلامَةً' لِلمَسيحيِّ تُمَيِّزُهُ مِن الوَثَنِيِّ، كما جاءَ في حَديثِ هنري الثّامِنِ عن "العَقائدِ الثَّلاثِ أو الرُّموزِ الثَّلاثَةِ". وثَمَّةَ تَحريفٌ أُسطوريٌّ لِلأَصلِ [أي الإغريقيِّ قَبلَ استِعمالِهِ في المَسيحِيَّةِ. (المُتَرْجِم)] (1450-1550, *Myrr. our Ladye* III, 312) يَمضي على النَّحوِ الآتي: "العَقيدَةُ فيكِ [الخِطابُ هُنا مُوَجَّهٌ إلى مَريَمَ عليها السَّلامُ. (المُتَرْجِم)] نَدْعُوها الرَّمْزِيَّةَ، أي أنَّها مَجْمُوعَةٌ مِمّا هُوَ مُتَعَدِّدٌ؛ واحِدٌ مِنهُ لِكُلٍّ مِن الحَوارِيِّينَ الاثنَيْ عَشَرَ" [ساقَ المُؤَلِّفانِ النَّصَّ بالإنجليزيَّةِ القَديمَةِ. (المُتَرجِم)]. ويُمكِنُ الوُقوفُ على تَفصيلاتٍ تَاريخيَّةٍ أُخرَى في كِتابِ شليسِنغَر Schlesinger الذي عُنوانُهُ **تاريخُ الرُّموز** *Geschichte des Symbols* (1923).

والآخَرُ هوَ الاستِعمالُ الواسِعُ لِلصِّفَةِ رَمزِيّ Symbolist في التِّسعينيّاتِ لِوَصْفِ الشُّعَراءِ الفَرَنسِيِّينَ الذينَ ثارُوا على كُلِّ أشكالِ الكِتابَةِ الواقِعِيَّةِ والوَصفيَّةِ، والذينَ ألحَقُوا مَعانِيَ رَمزِيَّةً أو خَفِيَّةً بِمَوضوعاتٍ، أو بِكَلِماتٍ، أو بِأصواتٍ مَخصوصَةٍ. على نَحوٍ مُشابِهٍ يُحيلُ نُقّادُ الفَنِّ بِفَضفاضِيَّةٍ على الرَّسّامِينَ الذينَ آثَرُوا 'الإيحاءَ' مَوضوعًا لَهُم على 'التَّمثيلِ' أو 'البِناءِ'، كما هيَ الحالُ لَدَى الرَّمزِيِّينَ.

على أنَّ فيما يَأتي مِن صَفَحاتِ الكِتابِ إشارَةً إلى وِجهَةِ النَّظَرِ التي يُمكِنُ على أساسِها أن يُحَدَّدَ مَوضِعُ كُلٍّ مِن هذَيْنِ العُنوانَيْنِ الغامِضَيْنِ في نِظامِ العَلاماتِ والرُّموزِ؛ =

يَنطَوي على مَسلَكٍ جَديدٍ لِمُقارَبَةِ المُشكِلاتِ التَّقليديَّةِ التي كانَت تُعَدُّ حتَّى يَومِنا هذا حَكْرًا على الفَلاسِفَةِ والميتافيزيقيِّينَ. وأكثَرُ مِن ذلكَ أنَّ مِثلَ هذا البَحثِ في هذهِ المُشكِلاتِ مُطابِقٌ لِمَناهِجِ العُلومِ الخاصَّةِ التي مَكَّنَتْ إسهاماتُها الدِّراسَةَ الجَديدَةَ مِن أن تَكونَ [xiii] مُتَمَيِّزَةً مِن التَّأمُّلاتِ التي هيَ أكثَرُ غُموضًا والتي قَد تَبْدو مُرتَبِطَةً بِها.

وقَد هَيْمَنَ على النَّحويِّينَ بِخاصَّةٍ نَوعٌ مِن القَلَقِ. إذ سادَ شُعورٌ بِأنَّ دِراسَةَ اللُّغَةِ على النَّحوِ المَعمولِ بِهِ حتَّى الآن بِالمَناهِجِ التَّقليديَّةِ قَد أخفَقَتْ في مُواجَهَةِ القَضايا الأساسيَّةِ على الرَّغمِ مِن مَوقِعِها المَركَزيِّ في كُلِّ اتِّصالٍ بَشَريٍّ. وقَد تَواصَلَتِ الجُهودُ لاستِدراكِ هذا الإهمالِ طَوالَ القَرنِ الحاليِّ، لكِنَّ المُؤَلَّفاتِ التي اضطَلَعَ بِتأليفِها فيلولوجيُّونَ مُجتَهِدونَ والتي تَحمِلُ عُنواناتٍ مِن قَبيلِ فَلسَفَةُ اللُّغَةِ *The Philosophy of Language*، ومَبادِئُ النَّظَريَّةِ اللُّغَويَّةِ *Principes de Linguistique Théoretique*[2] وشُرُوطُ أُسُسِ نَقْدِ النَّحوِ العامِّ وفَلسَفَةِ اللُّغَةِ *Voraussetzungen zur Grundlegung einer Kritik der allgemeinen Grammatik und Sprachphilosophie*، كانَتْ، في أغلَبِ الأحيانِ، خلْوًا مِن الاقتِراحاتِ المُثمِرَةِ. إذ لَم تَضَعْ يَدَها على المُشكِلاتِ الأساسيَّةِ، ولَم تَفتَحْ آفاقًا لِلبَحثِ مُثيرَةً لِلاهتِمامِ ولَو كانَتْ ثانَويَّةً، إلّا استِثناءاتٍ قَليلةً مِثلَ كِتابِ **عِلم الدَّلالَة** *Semantics* لِبريال Bréal. "إنَّ سَعَةَ الأُفُقِ لَيسَتْ سِمَةً واضِحَةً في اللِسانيّاتِ المُعاصِرَةِ"، هذا ما يَقولُهُ في آخِرِ مُؤَلَّفاتِهِ شَخصٌ مَرجِعيٌّ لَهُ مِن سَعَةِ الاطِّلاعِ حَظٌّ وافِرٌ، هوَ جيسبرسن Jespersen، عازِيًا هذهِ النَّظرَةَ الضَّيِّقَةَ إلى "حَقيقَةِ أنَّ اللُّغَويِّينَ قَد أهمَلوا جَميعَ المُشكِلاتِ المُتَّصِلَةِ بِتَقويمِ اللُّغَةِ". ومِمّا يُؤسَفُ عليهِ أنَّ تَوصِياتِ

= وتَشديدًا على تلكَ الجَوانِبِ مِن الرَّمزيَّةِ التي تَسبَّبَ إهمالُها في ظُهورِ عَدَدٍ كَبيرٍ جِدًّا مِن المُشكِلاتِ الزّائفَةِ، في كُلٍّ مِن عِلمِ الجَمالِ والفَلسَفَةِ.

(2) عُنوانٌ لِكِتابٍ أَلَّفَهُ اللِسانيُّ الفيلولوجيُّ الفرنسيُّ غوستاف غيوم Gustave Guillaume (1883-1960م). وهو مُبتَكِرُ النظريَّةِ اللِسانيَّةِ المعروفةِ باسمِ (السّايكوميكانيكا psychomechanics). أهَمُّ مؤلَّفاتِهِ كِتابُ (أُسُسٌ لِعِلمٍ لِلُّغَةِ). [المُترجِم]

جيسبرسن الشَّخصيَّةَ بِشأنِ إيجادِ مُقارَبَةٍ مِعياريَّةٍ، أي الأسئلَةَ الثَّلاثةَ التي يَحُثُّ فيلولوجيِّينَ على النَّظَرِ فيها-

والتي أوَّلُها: ما المِعْيارُ الذي بِمُقتَضاهُ تُفَضَّلُ كَلِمَةٌ أو صيغَةٌ على أُخرَى؟

وثانيها: أتُعَدُّ التَّغيُّراتُ التي نَراها تَحدُثُ تَدريجيًّا في اللُّغاتِ نافِعَةً في مُجمَلِها، أم تُعَدُّ عكسَ ذلكَ؟

وثالِثُها: هَل يُمكِنُ إنشاءُ لُغَةٍ عالَميَّةٍ؟-

لا تَكادُ تَمَسُّ المُشكِلَةَ المَركَزيَّةَ لِلمَعْنَى، أو عَلاقاتِ الفِكرِ واللُّغَةِ، ولا يُمكِنُ أن يَنتَفِعَ الفيلولوجيُّونَ بِمُناقَشَتِها مِن غَيرِ فَحصٍ شامِلٍ لِهذِهِ الخطوَةِ الأوَّليَّةِ المُغفَلَةِ. وسَنَرَى في الفَصلِ التّاسِعِ مِن كِتابِنا هذا أنَّ الفَلاسِفَةَ وعُلَماءَ النَّفسِ، [xiv] الذينَ كَثيرًا مّا يُفتَرَضُ أنَّهُم عاكِفونَ على مِثلِ هذهِ الأبحاثِ، لَم يَفعَلوا لِمُساعَدَتِهِم إلّا القَليلَ لِلأَسَفِ.

وثَمَّةَ مَن يَجِدُونَ صُعوبَةً في النَّظَرِ في أيِّ أمرٍ ما لَم يتمكَّنوا مِن تَمييزِهِ بِوَصفِهِ يَنتَمي إلى ما يُدْعَى 'مَوضوعًا a subject'، ومَن يُمَيِّزونَ المَوضوعَ بِوَصفِهِ شَيئًا مّا يُقَدَّمُ فيهِ، في مَكانٍ مّا في أقَلِّ تَقديرٍ، الأساتِذَةُ دَرسَهُم، ورُبَّما تُجتازُ الاختِباراتُ. فهؤُلاءِ بِهِم حاجَةٌ إلى أمرٍ واحِدٍ هوَ أن يُذَكَّرُوا بِأنَّهُ في زَمَنٍ مّا لَم تَكُنْ ثَمَّةَ مَوضوعاتٌ، وحتَّى زَمَنٍ مُتأَخِّرٍ لم يُوجَدْ مِنها سِوَى خَمسَةٍ. لكِنَّ ما أُحِسَّ بِهِ مِن القَلَقِ بِدُخولِ مَيادينِ البَحثِ التي لَم تُؤْلَفْ كَثيرًا قَلَقٌ حَقيقيٌّ. فَفي المَوضوعاتِ التي تَكونُ أكثَرَ تَكَرُّرًا تَكونُ الطُّرُقُ الرَّئيسَةُ، سَواءٌ أكانَتْ في الأماكِنِ الصَّحيحَةِ أم لَم تَكُنْ، مُعَلَّمَةً على نَحوٍ جَيِّدٍ، ويَكونُ المُسافِرُ الذِّهنِيُّ مُطمَئنًّا بِما يَكفي إلى الوُصولِ إلى بُقعَةٍ مَعلومَةٍ، سَواءٌ أكانَت تَستَحِقُّ الزِّيارَةَ أم لَم تَكُنْ، وعادَةً مّا يَجِدُ نَفسَهُ مَعَ صُحْبَةٍ مُحتَرَمَةٍ ومُعتَمَدَةٍ. أمّا المَوضوعُ الجَديدُ أو المُتَوسِّطُ الجِدَّةِ فيتطلَّبُ مِنهُ أن يَكونَ أكثَرَ اعتِمادًا على نَفسِهِ، وأن يُقَرِّرَ لِنَفسِهِ مَكمَنَ ما هُوَ أكثَرُ إثارَةً وأهمِّيَّةً والنَّتائجَ المُتَوَقَّعَةَ. فَهوَ في مَوضِعِ الرّائدِ. فإن وُجِدَ في المُغامَرَةِ المُسَجَّلَةِ هُنا ما يَمُدُّ يَدَ العَونِ إلى أيٍّ مِن الآخَرينَ في دِراسَةِ الرُّموزِ

فذلكَ يَكفِي لِيَعُدَّها المُؤَلِّفانِ مُسَوَّغَةً. ومِن نافِلَةِ القَولِ أن يُذْكَرَ أنَّهما يَعتَقِدانِ أنَّ أهمِّيَّتَها أكبَرُ مِن أن تُقْصَرَ على ذلكَ.

ومِن أَجلِ عَدَمِ الإخفاقِ في تَحقيقِ الهَدَفِ الذي هوَ أكثَرُ تَواضُعًا، في أَقَلِّ تَقديرٍ، والذي يَتَمثَّلُ في لَفْتِ الانتِباهِ إلى مَجموعةٍ مُغْفَلَةٍ مِن المُشكِلاتِ، ألحَقَ المُؤَلِّفانِ بِكِتابِهِما عددًا مِن النُّصوصِ الدّالَّةِ على المَلامِحِ الرَّئيسَةِ لِمَشاريعَ مُشابِهَةٍ لِكُتّابٍ آخَرينَ في الماضي.

أمّا ما يتعلَّقُ بِإسهاماتِهِما في وَضعِ الأُسُسِ لِعِلمٍ لِلرَّمْزِيَّةِ فَما يَأتي يَبدُو لَهُما غايَةً في الأهمِّيَّةِ:

(1) أن تَكونَ ثَمَّةَ أُطروحَةٌ بِشَأنِ التَّأويلِ مِن زاوِيَةٍ سَبَبِيَّةٍ تُصبِحُ بِوَساطَتِها مُعالَجَةُ اللُّغَةِ بِوَصفِها نِظامًا مِن العَلاماتِ قابِلَةً لِلنَّتائِجِ التي قَد تُلحَظُ مِن بَيْنِها بِدايَةُ التَّقسيمِ المَبْنِيِّ على ما لا يُمكِنُ التَّحدُّثُ عنهُ بِوُضوحٍ وما يُمكِنُ فيهِ ذلكَ. [xv]

(2) تَقسيمُ وَظائفِ اللُّغَةِ على مَجموعتَيْنِ: الرَّمزِيَّةِ، والانفِعالِيَّةِ. فالكَثيرُ مِن الخِلافاتِ المَشهورَةِ في العُلومِ يُعتَقَدُ إمكانُ بَيانِ أنَّ مَصدَرَها الخَلطُ بينَ هاتَيْنِ الوَظيفتَيْنِ؛ إذ تُستَعمَلُ الكَلِماتُ أنفُسُها في الوَقتِ نَفسِهِ لِتَكوينِ جُمَلٍ تَقريرِيَّةٍ ولإثارَةِ المَواقِفِ. وما مِن خَلاصٍ مُمكِنٍ مِن الاختِلافاتِ الزّائفَةِ المُتَوَلِّدَةِ بِهذهِ الطَّريقَةِ إلّا بِفَهمِ وَظائفِ اللُّغَةِ. إذ يُعتَقَدُ أنَّ هذا الفَهمَ كَفيلٌ بِإزالَةِ الخِلافاتِ التي مِن قَبيلِ الخِلافِ بينَ الحَيَوِيَّةِ والآلِيَّةِ، وبينَ المادِّيَّةِ والمِثالِيَّةِ، وبينَ الدِّينِ والعِلْمِ، وما إلى ذلكَ، بَل بِإحياءِ الشُّروطِ التي يُمكِنُ بِمُقتَضاها إحداثُ تَجديدٍ عامٍّ في الشِّعْرِ.

(3) أن يَكونَ ثَمَّةَ تَشريحٌ لِـ 'المَعْنَى' وإخراجٌ لَهُ إلى الهَواءِ الطَّلْقِ؛ فهوَ قُطْبُ الرَّحَى في نَظرِيَّةِ المَعرِفَةِ وفي كُلِّ نِقاشٍ.

(4) أن يَكونَ ثَمَّةَ فَحْصٌ لِما يُعْرَفُ على نَحوٍ تَخليطِيٍّ بِـ'المَسائلِ اللَفظِيَّةِ.' فليسَ ثَمَّةَ ما هوَ أكثرُ شُيوعًا في النِّقاشِ مِن سَماعِنا وَصْفَ نُقطَةٍ مّا خِلافِيَّةٍ بِأنَّها

'لَفظِيَّةٌ' على نَحوٍ خالِصٍ أو في جُزءٍ كَبيرٍ مِنها. إذ يَستَعمِلُ المُختَلِفُونَ أحيانًا الكَلِماتِ أنفُسَها لأشياءَ مُختلفةٍ، وكَلِماتٍ مُختلفَةً لِلأشياءِ أنفُسِها أحيانًا أُخرَى. ووُجودُ آليَّةٍ لِلتَّعريفِ تُكَيَّفُ بِحُرِّيَّةٍ كَفيلٌ بِمُواجَهَةِ الصُّعوبَةِ في كِلتا الحالَتَيْنِ. ولكِنْ كَثيرًا مَا يَستَعمِلُ المُختَلِفُونَ الكَلِماتِ أنفُسَها (أو المُختَلِفَةَ) لِغَيْرِ شَيْءٍ، وهُنا يُنصَحُ بِتَواضُعٍ أكبَرَ مَصدَرُهُ إدراكٌ أكثَرُ حَيَوِيَّةً لِحالِ اللُّغَةِ.

وما مِن عِلْمٍ، حتَّى الآن، استَطاعَ التَّعامُلَ معَ القَضِيَّةِ مُباشَرَةً؛ ذلكَ بأنَّ الطَّرَفَ الأَساسيَّ في القَضِيَّةِ هوَ نَظرِيَّةُ العَلاماتِ إجمالاً وتأويلُ هذهِ العَلاماتِ. وهذا المَوضوعُ بِخاصَّةٍ يَصلُحُ لأن يَتَعاوَنَ عليهِ الدّارِسُونَ، وبِهذهِ الطَّريقَةِ وَحدَها يُمكِنُ أن يَكونَ ثَمَّةَ أَمَلٌ مَعقولٌ في أن يُؤْتَى إلى حَيِّزِ التَّنفيذِ العَمَلِيِّ بِمَشروعٍ كانَ قَد هَجَرَهُ يَأسًا الكَثيرُ مِن الباحِثِينَ المُغامِرِينَ لكِن المُنفَصِلِينَ، وفي أن يُبَدَّدَ الشَّكُّ المُتعلِّقُ بالغَرابَةِ التي يُثيرُها المَوضوعُ في أحيانٍ كَثيرَةٍ جِدًّا. ويُظهِرُ البَحثُ التَّأريخيُّ أنَّهُ مُنذُ زَمَنِ المُؤَلَّفِ المَفقودِ لأنتِسثينيس Antisthenes[3] ومُحاوَرَةِ أقراطيلوس *Cratylus* لأفلاطون وُجِدَتْ سَبْعَةُ [xvi] مَناهِجَ رَئيسَةٌ لِلمُعالَجَةِ- النَّحوِيُّ (أَرِسطو، وديونيسيوس ثراكس Dionysius Thrax[4])، والميتافيزيقيُّ (الاسْمِيُّونَ، ومايِنونغ Meinong)، والفيلولوجيُّ (هورن تُوك Horne Tooke، وماكس مُلَر Max Mûller)، والسّايكولوجيُّ (لوك Locke، وستاوت Stout)، والمَنطِقِيُّ (لايبنِتْز Leibnitz، ورَسِل Russell)، والسّوسيولوجيُّ (شتاينتال Steinthal، وفُونت Wundt)، والاصطِلاحِيُّ (بالدوِن Baldwin، وهوسِّرل Husserl). فَمِن هذهِ المَناهِجِ، ومِن الدِّراساتِ المُستَقِلَّةِ أيضًا كَدِراساتِ اللَّيْدي ويلبي، ومارتي Marty، وبيرس، ومِن كِتابِ ماوثنَر Mauthner الذي عُنوانُهُ

(3) أنتِسثينيس (445-365ق.م). فيلسوفٌ إغريقيٌّ، وتِلميذٌ لِسُقراط. اعتنَقَ الجانبَ الأخلاقيَّ مِن تَعاليمِ سُقراط وطوَّرَهُ، وتبنَّى فكرةَ وجوبِ أن تَحكُمَ الفضيلةُ حياةَ الإنسانِ. عُدَّ فيما بَعدُ مُؤسِّسًا لِلفلسفةِ الكَلبيَّةِ Cynicism. وقد ألَّفَ عددًا من الكُتُبِ، لكِنَّها فُقِدَتْ جَميعًا على العكسِ مِن مؤلَّفاتِ أفلاطون. [المُترجِم]

(4) ديونيسيوس ثراكس (170-90ق.م). نَحوِيٌّ إغريقيٌّ. دَرَّسَ في رودس وروما، وألَّفَ كِتابًا في النَّحوِ الإغريقيِّ سمّاهُ (فنّ النّحو). [المُترجِم]

دِراسَةٌ نَقْدِيَّةٌ لِلُّغَةِ *Kritik der Sprache*، وكِتابِ إيردمان Erdmann[5] الذي **عُنوانُهُ مَعاني الكَلِمات** *Die Bedeutung des Wortes*، وكِتابِ تَيْن Taine الذي **عُنوانُهُ في العَقْلِ** *De l' Intelligence*، استَمَدَّ الكاتِبانِ التَّوجيهَ وأحيانًا المُتعَةَ.

ومُؤَلِّفا هذا الكِتابِ مَدينانِ على نَحوٍ خاصٍّ لِلدُّكتور مالِنوفِسكي. فقَد مَكَّنَتْهُما عَودَتُهُ إلى إنجلترا حينَ كانَ مُؤَلَّفُهُما في طَريقِهِ إلى المَطبَعَةِ مِن استِثمارِ فُرصَةِ قَضائِهِ عِدَّةَ سَنَواتِ تَأَمُّلٍ في العَمَلِ المَيْدانيِّ في عِلْمِ الأعراقِ في المنطقةِ المُتوَسِّطَةِ المُمَيَّزَةِ الصُّعُوبَةِ بينَ اللِسانِيّاتِ وعِلمِ النَّفسِ. وإنَّ مَزجَهُ الفَريدَ لِلتَّجرِبَةِ العَمليَّةِ بِالفَهْمِ الشّامِلِ لِلمَبادِئِ النَّظريَّةِ يَجعَلُ مُوافَقَتَهُ لِلكَثيرِ مِن الاستِنتاجاتِ التي هيَ أكثَرُ ابتِداعًا والتي تَوَصَّلَ إليها هذا الكِتابُ مُشَجِّعَةً على نَحوٍ مَخصوصٍ. والمُؤَلِّفانِ على يَقينٍ مِن أَنَّ إسهامَ قَلَمِهِ في مُعالَجَةِ دِراسَةِ اللُغاتِ البِدائيَّةِ، الذي يَظهَرُ في صُورَةِ مُلْحَقٍ، سَيَكونُ ذا نَفْعٍ لا يَقتَصِرُ أثَرُهُ على عُلَماءِ الأعراقِ بَل يَعُمُّ جَميعَ مَن لَدَيْهِم اهتِمامٌ فَعّالٌ بِالكَلِماتِ ومَسالِكِها.

إنَّ الأهمِّيَّةَ العَمَليَّةَ لِعِلْمِ الرَّمْزِيَّةِ حتَّى في شَكلِهِ غيرِ المُطَوَّرِ الحاليِّ تَحتاجُ إلى شَيْءٍ مِن التَّأكيدِ. فأكثرُ الأشكالِ تَطوُّرًا لِلحياةِ الاجتِماعيَّةِ والفِكريَّةِ تتأثَّرُ كُلُّها بالتَّغيُّراتِ الحاصِلَةِ في مَوقِفِنا مِن الكَلِماتِ، واستِعمالِنا لَها. وعادَةً مّا تُعَدُّ كَيْفِيَّةُ عَمَلِ الكَلِماتِ أمرًا نَظريًّا، وذاتَ أهمِّيَّةٍ قَليلَةٍ لِلأشخاصِ العَمَليِّينَ. صَحيحٌ أنَّ البَحثَ لا بُدَّ أن يتطرَّقَ أحيانًا إلى مَسائلَ عَويصَةٍ شَيْئًا مّا، لكِنَّ عَدَمَ اعتِدادِ الأشخاصِ العَمَليِّينَ بِهِ، معَ ذلكَ، قُصورُ نَظَرٍ. فَوِجهَةُ النَّظرِ التي تَذهَبُ إلى أنَّ اللُغَةَ تُؤَدِّي وَظيفَتَها جَيِّدًا على ما هيَ عليهِ لا يُمكِنُ أن يتبَنّاها إلّا الذينَ يَقتَصِرونَ في استِعمالِها على الشُّؤُونِ التي يُمكِنُ أَن تُدارَ مِن غيرِ حاجَةٍ إليها- كَعَملِ مُوَزِّعِ الجَرائِدِ، [xvii] أو الجَزّارِ، على سبيلِ المِثالِ، حَيْثُ يَكونُ كُلُّ ما يَحتاجُ إلى أن يُحالَ عليهِ مُساوِيًا تَمامًا لِما يُمكِنُ أن يُشارَ إليهِ بالْيَدِ. وما مِن أحَدٍ يُمكِنُهُ ادِّعاءُ أن لا حاجَةَ إلى أن يَكونَ ثَمَّةَ فَحصٌ نَقْدِيٌّ لأكثَرِ أدَواتِ الحَضارَةِ أهمِّيَّةً، سِوَى

(5) كارل أوتو إيردمان (1858-1931م). لِسانيٌّ ألمانيٌّ. أهَمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُهُ (مَعاني الكلِمات) الذي تأثَّرَ فيهِ بِفيغينَر وبريال، والذي حاوَلَ فيهِ الإجابةَ عن السؤالِ الآتي: ما الذي يُمكِنُ أن تُنجِزَهُ اللغةُ بِوصفِها وسيلةً لِلتَّواصُلِ؟ [المُترجِم]

أولئكَ الذينَ يُغْمِضُونَ أعيُنَهُم عَن رُؤْيَةِ إعادَةِ التَّكيُّفِ السَّريعَةِ تَبَعًا لِلظُّروفِ الجَديدَةِ تَمامًا التي سَعَى الجِنسُ البَشَريُّ في القَرنِ السّابقِ سَعْيًا حَثيثًا مِن أَجلِ تَحقيقِها. فَعَلى مَلايينَ جُدُدٍ مِن المُشارِكِينَ في ضَبطِ الشُّؤونِ العامَّةِ أن يُحاوِلوا الآنَ تَكوينَ آراءٍ شَخصيَّةٍ بِشَأنِ أُمورٍ كانَتْ فيما مَضَى مَوكولَةً إلى فِئةٍ قَليلَةٍ. ثُمَّ إنَّ هذهِ الأُمورَ قَد ازدادَت تَعقيدًا على نَحوٍ هائلٍ، في الوَقتِ نَفسِهِ. وإنَّ لِلنَّظرَةِ القَديمَةِ التي تَرَى أنَّ المَدخَلَ الوَحيدَ إلى مَوضوعٍ مّا يَكونُ مِن خِلالِ دَرْسٍ مُطَوَّلٍ لَهُ، إن صَحَّتْ، عَواقِبَها في المُستَقبَلِ القَريبِ التي لَمّا تُواجَهْ بَعْدُ. والبَديلُ هوَ رَفعُ مُستَوَى التَّواصُلِ مِن خِلالِ دِراسَةٍ مُباشِرَةٍ لِشُروطِهِ، ومَحاذيرِهِ، وصُعوباتِهِ. ويُمَثِّلُ التَّعليمُ الجانبَ العَمَليَّ مِن هذا المَشروعِ، إن أُخِذَ التَّواصُلُ بِمَعناهُ الواسِعُ.

وقَد آثَرَ المُؤَلِّفانِ نَشْرَ هذا الكِتابِ بِصُورَتِهِ الحاليَّةِ على الانتِظارِ، رُبَّما إلى أَجَلٍ غيرِ مُسَمًّى، رَيثَما يَتجَمَّعُ ما يَكفي مِن أوقاتِ الفَراغِ، في أَزمانٍ تُشغَلُ على ما يَنبَغي بِطريقَةٍ أُخرَى، لإعادَةِ كِتابتِهِ لِيَظهَرَ في صُورَةٍ أَكثَرَ اكتِمالاً ومَنهَجيَّةً؛ لاقتِناعِهِما بِالحاجَةِ المُلِحَّةِ إلى فَحصٍ لِلُّغَةِ أَكثَرَ صَرامَةً مِن زاويَةِ نَظرٍ لا تَلْقَى أيَّ اهتِمامٍ في الوقتِ الحاضِرِ. وهُما يَعتَقِدانِ أنَّ وَعيَهُما لِمَواطِنِ الإخفاقِ فيهِ أكبَرُ مِمّا يَفتَرِضُهُ مُعظَمُ النُّقّادِ، ولا سِيَّما المَواطِنُ النّاجِمَةُ عن الصُّعوباتِ المَخصوصَةِ التي يُحَتِّمُ إظهارَها النَّقدُ الجَوهَريُّ لِلُّغَةِ لِلمُفَسِّرينَ لَها.

وثَمَّةَ سَبَبانِ لاعتِقادِ أَنَّهُ قَد حانَتِ اللحظَةُ التي يُمكِنُ أَن تُؤازَرَ فيها مُحاوَلَةُ جَذبِ الانتِباهِ إلى المَعْنَى. أمّا أَحَدُهُما فَوجودُ استِعدادٍ مُتَنام في أَوساطِ عُلَماءِ النَّفسِ للإقرارِ بِأهمِّيَّةِ المُشكِلَةِ. إذ يَقولُ البروفيسور بير Pear[6] في كِتابِهِ (**التَّذَكُّرُ والنِّسْيان** *Remembering and Forgetting*، 1923، [xviii] ص59): "لَو كانَ اكتِشافُ الطَّبيعَةِ السّايكولوجيَّةِ لِلمَعْنَى قَد كُتِبَ لَهُ النَّجاحُ التّامُّ لَكانَ مِن المُحتَمَلِ أن يَضَعَ ذلكَ حَدًّا لِعِلمِ النَّفسِ تَمامًا". وأمّا السَّبَبُ الآخَرُ فإدراكُ أَنَّ الأَشخاصَ المُثَقَّفِينَ والمُخلِصِينَ هُم، على نَحوٍ يُرْثَى لَهُ، تَحتَ رَحمَةِ أشكالٍ مِن الكَلامِ لا

(6) ت. هـ بير T. H. Pear (1886-1972م). أَحَدُ مُؤَسِّسِي عِلمِ النَّفْسِ في بريطانيا. حَصَلَ على زَمالَةٍ دِراسيَّةٍ في جامعةِ مانشستَر سنةَ 1909، وأصبَحَ أوَّلَ أُستاذٍ لِعِلمِ النَّفْسِ في سِنِّ الثالثةِ والثَّلاثِينَ في بريطانيا سنةَ 1919. أَهَمُّ آثارِهِ كِتابُ (التَّذَكُّرُ والنِّسيان). [المُترجِم]

يُمكِنُ الصَّبْرُ عليها طَويلاً، حينَ نَجِدُ، على سبيلِ المِثالِ، اللورد هَغ سيسِل Hugh Cecil[7] يَنتَهي إلى بَيانٍ حَصيفٍ لِمَوقِفِهِ مِن الطَّلاقِ بِقَولِهِ: "يَبدو لي أنَّ الشَّيءَ الوَحيدَ الذي يُضْطَرُّ المَسيحيُّونَ، بِوَصفِهِم مَسيحيِّينَ، إلى مُقاوَمَتِهِ، هوَ أيُّ مُقْتَرَحٍ لإطلاقِ اسمِ الزَّواجِ على ما تَعُدُّهُ تَعاليمُ المَسيحِ سِفاحًا" (The Times, Jan. 2, 1923). والخُطوطُ المائلَةُ مِن صُنعِنا.

ومِمّا يَتَعَذَّرُ اجتِنابُهُ في مِثلِ عَمَلِنا هذا تأكيدُ بَعضِ ما قَد يَبدو لِبَعضِهِم واضِحًا، واستِخدامُ المُصطَلَحاتِ التي تَجعَلُ قِسمًا مِن البَحثِ أقَلَّ سُهولَةً مِن غَيرِهِ، بِسببِ تَغَيُّرِ زاوِيَةِ النَّظَرِ إلى المَوضوعِ، مِن جِهَةٍ أُخرَى. ومِن المُؤَمَّلِ، في الوقتِ نَفسِهِ، أن يَتمَكَّنَ حتَّى الذينَ ليسَ لَدَيْهِم سابِقُ عِلمٍ بِمَوضوعاتِ الكِتابِ، بِقليلٍ مِن الصَّبرِ، مِن مُتابَعَةِ البَحثِ كامِلاً، وإن يَكُنْ قَد كُثِّفَ في بَعضِ الأحيانِ مِن أجلِ إبقاءِ العَرضِ في الإطارِ المَرسومِ لَهُ. لِذلكَ أثبَتْنا قائمَةً كامِلَةً لِلمُحتَوَياتِ، صُمِّمَتْ لِتُقرَأَ بِوَصفِها جُزءًا مِن أجزاءِ الكِتابِ.

وضَمَمْنا إلى الكِتابِ مُلَخَّصًا، وبعضَ التَّذييلاتِ المُتعلِّقَةِ بِمُشكِلاتٍ خاصَّةٍ، وعَدَدًا مِن الإحالاتِ المُتَبادَلَةِ Cross-references[8]، لِيَنتَفِعَ بِها القُرّاءُ الذينَ لَم تُتَحْ لَهُم فُرصَةُ إيلاءِ كُلِّ جُزءٍ مِن المَيْدانِ المَبحوثِ قَدْرًا مُتَساوِيًا مِن الاهتِمامِ، أو الذينَ يَرغَبونَ في مُلاحَقَةِ الدِّراسَةِ إلى مَدًى أبعَدَ.

أوغدِن ورِتشاردز

كُلِّيَّةُ ماغدالين كَيمبرِج
يَنايِر/ كانون الثاني 1923

[xix]

(7) هَغ رِتشارد هيثكوت غاسكوين سيسِل (1869-1956م). سياسيٌّ بريطانيٌّ كانَ عُضوًا في حِزبِ المُحافِظِينَ البريطانيّ. مِن مؤلَّفاتِهِ: الحُرِّيَّةُ والسُّلطَةُ، والمسألةُ الإيرلنديَّةُ مرَّةً أُخرَى، والوطنيَّةُ والكاثوليكيَّةُ. [المُترجِم]

(8) المقصودُ بالإحالَةِ المُتبادَلَةِ: تنبيهُ القارئِ في موضِعٍ مِن الكِتابِ على الرُّجوعِ إلى مَوضِعٍ آخَرَ يُعالِجُ الموضوعَ نفسَهُ، ثُمَّ تَنبيهُهُ في المَوضِعِ الثاني على الرُّجوعِ إلى الموضِعِ الأوَّلِ؛ مِن أجلِ رَبطِ نواحي الموضوعِ الواحِدِ بَعضِها بِبعضٍ. [المُترجِم]

تَصْدِيرُ الطَّبْعَةِ الثّانِيَة

إنَّ الاستِقبالَ المُمَيَّزَ الذي تَلَقّى بِهِ أشخاصٌ ذَوُو مُيولٍ مُختَلِفَةٍ جِدًّا الطَّبعَةَ لأولَى مِن هذا الكِتابِ؛ وحَقيقَةَ أَنَّهُ بَعدَ مُرورِ سَنَتَيْنِ على نَشْرِهِ استُعمِلَ رَسمِيًّا في عَدَدٍ من الجامِعاتِ، ومِنها جامِعَةُ كولومبيا؛ والاهتِمامَ المَلحوظَ الذي أثارَهُ في أَمريكا، على نَحوٍ مَخصوصٍ، أَدَّتْ إلى التِقاءِ المُؤَلِّفَيْنِ، في نيويورك، في فَصلِ الرَّبيعِ مِن سَنَةِ 1926، مِن أَجلِ المُناقَشَةِ والمُراجَعَةِ. وأَمكَنَ، نتيجَةً لِذلكَ، أَن تُراعَى مُتطلَّباتُ جُمهورٍ أكبرَ مِن الجُمهورِ الذي وُجِّهَ الكِتابُ إليهِ في البَدْءِ. ولَم يَقتَصِرِ الأمرُ في هذهِ الطَّبعَةِ على تَعديلِ بَعضِ الإشاراتِ المَوضِعِيَّةِ، بَل أُدخِلَت تَحسيناتٌ مُختلِفَةٌ على مُستوَيَي التّأكيدِ والتّأسيسِ نَأْمُلُ أَن تُنيرَ دَرْبَ القارِئِ.

وفي الوَقتِ نَفسِهِ لَم نَجِدْ ضَرورَةً لإحداثِ تَغييرٍ في المَواقِفِ السّابِقَةِ. على أَنَّ الكَسَلَ لَم يَجِدْ لَهُ إلى المُؤَلِّفَيْنِ سَبيلاً، وعَسَى ألّا تَكونَ بَعضُ الإحالاتِ على أعمالٍ إضافيَّةٍ اضطَلَعا بِإنجازِها في غيرِ مَحلِّها. فكِتابُ رِتشاردز **مَبادِئُ النَّقدِ الأَدَبيّ** *Principles of Literary Criticism* يَسْعَى إلى أن يَمنَحَ الوظيفَةَ الانفِعاليَّةَ لِلُّغَةِ الأَساسَ النَّقدِيَّ نَفسَهُ الذي يُحاوِلُ هذا الكِتابُ مَنحَ الوَظيفَةِ الرَّمزيَّةِ إيّاهُ. ويُقَدِّمُ كِتابُ أوغدِن **سِحْرُ الكَلِمَة** *Word Magic* العُدَّةَ التّأريخيَّةَ والفيلولوجيَّةَ التي بِالاستِعانةِ بِها وَحدَها يُمكِنُ تَفسيرُ العاداتِ اللُّغويَّةِ الرّاهِنَةِ– وقد أَمكَنَ تَقليلُ الطُّولِ المُبالَغِ فيهِ لِلفَصلِ الثّاني الأَصليِّ بِسَبَبِ وُجودِ هذهِ الدِّراسَةِ المُستقلَّةِ. ويُمكِنُ الوُقوفُ على مَدخَلٍ عامٍّ إلى المُشكِلاتِ السّايكولوجيَّةِ لِدِراسَةِ اللُّغَةِ في كِتابِ أوغدِن **مَعْنَى عِلْمِ النَّفْس** *The Meaning of Psychology*، في حين يُناقِشُ كِتابُ رِتشاردز **العِلْمُ والشِّعْر** *Science and Poetry* مَكانَةَ الأَدَبِ ومُستَقبَلَهُ في حَضارتِنا. [xx]

غيرَ أنَّ هذهِ الأعمالَ الإضافيَّةَ ما زالَت تُتيحُ اكتِشافَ قَدْرٍ كَبيرٍ مِن الأَرضِ البِكْرِ التي بادَرَ افتِضاضَها كِتابُ **مَعْنَى المَعْنَى**. ومِن بينِ تلكَ الرَّغائبِ الأساسيَّةِ تَطويرُ آلِيَّةٍ تَعليميَّةٍ يُمكِنُ بِها مَدُّ يَدِ العَونِ لِلأطفالِ والبالِغينَ على حَدٍّ سَواءٍ لِتَحقيقِ استِعمالٍ أفضَلَ لِلُّغَةِ، والبَحثُ في المَبادِئِ العامَّةِ لِتَدوينِ الرُّموزِ وارتِباطِهِ بِمُشكِلَةِ اللُّغَةِ العِلمِيَّةِ العالَمِيَّةِ، والمهمَّةُ التَّحليليَّةُ المُتعلِّقَةُ بِاكتِشافِ نَمَطٍ مِن النَّحْوِ يُمَكِّنُنا مِن التَّحكُّمِ بِالتَّرجمةِ مِن نِظامٍ لِلرُّموزِ إلى آخَرَ. وهذهِ مَشاريعُ تَقتَضي إنشاءَ مُؤَسَّسَةٍ لِلبَحثِ اللُّغَويِّ مَقَرّاتُها الرَّئيسَةُ في جنيف، ونيويورك، وبكين.

أوغدِن ورِتشاردز

كَيمبرِج،
يونيو/حَزيران، 1926

تَصْدِيرُ الطَّبْعَةِ الثَّالِثَة

تُتِيحُ لَنا الحاجَةُ المُلِحَّةُ إلى طَبعَةٍ ثالِثَةٍ لِلكِتابِ فُرصَةَ تَصحيحِ عددٍ مِن الأَخطاءِ والتَّعارُضاتِ البَسيطَةِ. أمّا ما يتعلَّقُ بِالرَّغائبِ التي أُحيلَ عليها آنِفًا فإنَّ ثانِيَتَهُما وثالِثَتَهُما كانَتا مَوضِعَ الاهتِمامِ في كِتابِ أوغدِن **الإنجليزِيَّة الأساسيَّة** *Basic English*، وهيَ نِظامٌ لِلُّغَةِ الإنجليزيَّةِ مُكَيَّفٌ في ضَوءِ مُتَطلَّباتِ اللُّغَةِ العالَمِيَّةِ، وقَد جاءَ وَصفٌ لِلرَّغيبَتَيْنِ في المُجَلَّدَيْنِ التّاسِعِ والعاشِرِ مِن دَوْرِيَّةِ Psyche (1928–1930)؛ أمّا الرَّغيبَةُ الأُولَى فعُنِيَ بِها كِتابُ رِتشاردز **النَّقدُ العَمَلِيّ** *Practical Criticism* الذي هوَ تَطبيقٌ تَعليمِيٌّ لِلفَصْلِ العاشِرِ، وإنَّ الخِبرَةَ التي اكتَسَبَها المُؤَلِّفُ بِوَصفِهِ أُستاذًا زائرًا في بكين بينَ سَنَتَيْ 1929 و1930 تَجعَلُ الحاجَةَ إلى إنجازِ عَمَلٍ إضافيٍّ بِشَأنِ جَميعِ هذهِ المَسائلِ يَبدُو بَعْدُ أكثَرَ إلحاحًا.

أوغدن ورِتشاردز

كَيمبرِج،
يَنايِر/ كانون الأوَّل، 1930

[xxi]

تَصْدِيرُ الطَّبْعَةِ الرَّابِعَة

عَمَدْنا في هذهِ الطَّبعَةِ إلى إزالَةِ بَعضِ التَّضارُباتِ والإبهاماتِ التي لَحِظْناها عندَ تَراسُلِنا معَ الدُّكتور إيشيباشي Ishibashi الذي تَرجَمَ الكِتابَ إلى اللُّغَةِ اليابانيَّةِ في سَنَةِ 1936.

وبَعدَ صُدورِ الطَّبعَةِ الثّالثَةِ مِن الكِتابِ وَجَّهَ كِتابُ أوغدِن **نظريَّةُ التَّخَيُّلاتِ عندَ بينثام** *Bentham's Theory of Fictions* الاهتِمامَ صَوبَ إسهامٍ في المَوضوعِ مُهمَلٍ تتجاوزُ أهمِّيَّتُهُ الأهمِّيَّةَ التّأريخيَّةَ. ويَفحَصُ كِتابُ رِتشاردز **مَذهَبُ مينشيوس في العَقْلِ** *Mencius on the Mind* الصُّعوباتِ التي تَعتَرِضُ طَريقَ المُتَرجِمِ ويَكتَشِفُ آلِيَّةَ التَّعريفِ المُتَعدِّدِ، التي حَظِيَتْ بِمَزيدٍ مِن الإيضاحِ في كِتابِ رِتشاردز **قَواعِدُ التَّفكيرِ الأساسيَّة** *Basic Rules of Reason*. أمّا كِتابُ رِتشاردز **مَذهَبُ كوليرِج في الخَيالِ** *Coleridge on Imagination* فيَعرِضُ تَقويمًا جَديدًا لِنظريَّةِ كوليرِج في ضَوءِ تَقويمٍ أكثَرَ كِفايَةً لِلُّغَةِ الانفِعاليَّةِ. وأمّا كِتابُ أوغدِن **التَّقابُل** *Opposition* فيُقَدِّمُ تَحليلاً لِجانِبٍ مِن التَّعريفِ ذي أهمِّيَّةٍ مَخصوصَةٍ في التَّيسيرِ اللُّغَويِّ.

أوغدِن ورِتشاردز

كَيْمبرِج،
مايو/مايس، 1936

تَصْدِيرُ الطَّبْعَةِ الثَّامِنَة

إنَّ الفُضولَ الذي أثارَهُ كُلٌّ مِن الإحالاتِ على هذا الكِتابِ في عَددٍ مِن التَّطبيقاتِ الشّائعَةِ لِمَبادِئِ المُعالَجةِ اللُّغويَّةِ التي لَقِيَت تَأييدًا في كِتابِنا، والتَّبَنِّي الواسِعِ لِلإنجليزيَّةِ الأساسيَّةِ بِوَصفِها مَنهَجًا تَعليميًّا، أحْوَجَ إلى طَبَعاتٍ أُخرَى لِلكِتابِ. وكُنّا في الطَّبَعاتِ الأربَعِ الماضِيَةِ قَد أدخَلْنا قَليلاً مِن التَّغييراتِ الإضافِيَّةِ، ووَسَّعْنا أَجزاءً مُعَيَّنَةً مِن الفَصلَيْنِ الثّاني والعاشِرِ في مُؤَلَّفاتٍ مُستَقِلَّةٍ- في مَقالاتِ أوغدِن في المُجَلَّدَيْنِ السّادِسَ عَشَرَ والثّامِنَ عَشَرَ مِن دَوْرِيَّةِ *Psyche*، وكِتابَيْ رِتشاردز **التَّأويلُ في التَّعليم** *Interpretation in Teaching*، **وكَيْفَ تَقْرَأُ صَفحَةً** *How to Read a Page*.

أوغدِن ورِتشاردز

كَيْمبرِج،
مايو / مايس، 1946

الْمُحْتَوَيات

المَشكوكُ فيها.- استِحالَةُ الأُطروحَةِ التَّواصُلِيَّةِ الأناوَحْدِيَّةِ؛ بالذِون، 80-81. تَنَوُّعُ الأَحْوالِ العَلاميَّةِ وكُلِّيَّةُ حُضورِها، 81-84. المَكانَةُ المُمَيَّزَةُ لِلرُّموزِ، 85.

الفَصْلُ الثاني
سُلطَةُ الكَلِماتِ

الرُّموزُ بِوَصفِها مَصدَرًا دائمًا لِلأَعاجيبِ والأَوهامِ. شُيوعُ عِبادَةِ الرُّموزِ في أوساطِ الأُمِّيِّينَ، 87-88. اللُّغَةُ ناقِلَةٌ لأَكثَرِ أفكارِ البَشَرِ وعَواطِفِهِم بِدائيَّةً، 88-89. الاسمُ بِوصفِهِ نَفْسًا.- الأسماءُ السِّرِّيَّةُ، 90-92. [xxiii]

الخُرافَةُ اللَفظيَّةُ ما زالَتْ سائدَةً.- أسبابُ انتِشارِها الواسِعِ.- البِناءاتُ اللَفظيَّةُ الخالِصَةُ في الفَلسَفَةِ المُعاصِرَةِ، 94-95. عالَمُ الوُجودِ المَزعومُ؛ برتراند رَسِل بِوَصفِهِ أفلاطونيًّا جَديدًا، 96-97.

النَّظرَةُ الإغريقيَّةُ إلى اللُغَةِ.- الأفلاطونيَّةُ بِوَصفِها مُفرَزًا مِن مُفرَزاتِ سِحْرِ الكَلِمَةِ البِدائيِّ، 97-98. هيراقليطس، وفيثاغورس، 99-100. بارمينيديس.- 'مُثُلُ' أفلاطون المُطَوَّرَةُ عن النَّفْسِ الاسمِيَّةِ عندَ الفيثاغوريِّينَ.- إهمالُ مُحاوَرَةِ أقراطيلوس لأفلاطون، 101-102. اعتِمادُ أرسطو على الكَلِماتِ؛ إذ يَرتَكِزُ مَنطِقُهُ على النَّحوِ.- شَهادَةُ هيوويل وغومبيرز.- الحِيَلُ اللُغَويَّةُ المُمَيِّزَةُ للجَدَلِ الإغريقيِّ، 103-104. نَقْدُ ماوثنَر لِلَّفظِيَّةِ الأرسطيَّةِ.- كِتابُ **في التَّأويل** (العِبارَة)، 104-105. الخُرافاتُ اللَفظيَّةُ في روما، 106-108. إثباتُ أنَّ الإغريقَ أدرَكوا الأثَرَ المُضَلِّلَ لِلُّغَةِ، 108-109. بَل إنَّ البوذِيَّةَ أكثَرُ صَراحَةً في ذلكَ.- غيرَ أنَّ أينيسيديموس والشَّكِّيِّينَ وَحدَهُم في العُصورِ القَديمَةِ قارَبوا مُشكِلَةَ العَلاماتِ مُقارَبَةً عِلمِيَّةً، 109-110.

الشَّرقُ هوَ المَوطِنُ الحَقيقيُّ لِلخُرافَةِ اللَفظيَّةِ.- التَّعويذاتُ: السِّحْرُ اللفظيُّ والطِّبُّ اللفظيُّ، 112-113. السِّحْرُ اللفظيُّ ما زالَ يُمارَسُ بِحُرِّيَّةٍ اليَومَ.- لكِنْ بِأشكالٍ جَديدَةٍ.- المَناطِقَةُ بِوَصفِهِم صُوفيِّينَ، 113. رِنيانو والقَوقَعَةُ اللَفظيَّةُ.- الرَّنينُ الوجدانيُّ في الميتافيزيقا، 114-116. سِحْرُ الكَلِمَةِ في الطِّبِّ المُعاصِرِ، 117-118.

لا يُمكِنُنا التَّخلُّصُ مِن هذهِ التَّأثيراتِ إلّا بِتَحليلِ العَلامَةِ والأَحْوالِ الرَّمزِيَّةِ.- لَم يُدْرَكْ وُجودُ المُشكِلَةِ إلّا في الأزمِنَةِ الحَديثَةِ.- رُوّادُ المُعالَجَةِ العِلمِيَّةِ مِن وِلْيَم الأوكاميِّ إلى ماوثنَر، 118-120.

الخطوَةُ اللاحِقَةُ. لا غِنَى عن نَظرِيَّةِ العَلاماتِ مِن أجلِ تَحليلِ مَعاني الرُّموزِ.- تَسليطُ الضَّوءِ على السِّحْرِ اللفظيِّ بِوَساطَةِ هذهِ النَّظرِيَّةِ، 121-126.

الفَصلُ الثالِثُ
الأَحوالُ العَلامِيَّةُ

الفَصْلُ الرّابعُ
العَلامَاتُ في الإدْرَاكِ الحِسّيّ

الفَصْلُ الخامِسُ
قَوَانِينُ الرَّمْزِيَّةِ

الفَصْلُ السّادِسُ
التَّعريفُ

الفَصْلُ السّابِعُ
مَعْنى الجَمالِ

الفَصْلُ الثامِنُ
المَعْنَى عِنْدَ الفَلاسِفَةِ

الفَصْلُ التاسِعُ
مَعْنَى المَعْنَى

الفَصْلُ العاشِرُ
الأَحوالُ الرَّمزيَّةُ

المُلْحَقاتُ

مَعْنَى المَعْنَى

"مَرَدُّ الحَياةِ كُلِّها إلى كَلامِنا- وَسيلَةِ تَواصُلِنا". - هِنري جَيْمس Henry James

"أصعَبُ ما تَكونُ عليهِ إزالَةُ الخَطَإ حينَ تَكونُ جُذورُهُ لُغَوِيَّةً". - بينثام Bentham

"علَيْنا الانتِفاعُ بِاللُّغَةِ، التي شُكِّلَتْ بِالضَّرورَةِ مِن أفكارٍ مُتَصَوَّرَةٍ سَلَفًا. وهذهِ الأفكارُ المَقبولَةُ في اللاوَعي هيَ أخطَرُ الأفكارِ". - بوانكاري Poincaré

"بالاعتِمادِ على البِناءِ النَّحْوِيِّ لِمَجموعَةٍ مِن اللُّغاتِ كُلُّ شَيءٍ يَجري بِسَلاسَةٍ لِنَوعٍ واحِدٍ مِن أنواعِ النِّظامِ الفَلسفيِّ، في حينِ أنَّ الطَّريقَ يَكونُ، إن جازَ التَّعبيرُ، مَسدودًا أمامَ إمكاناتٍ مُعَيَّنَةٍ أُخرَى". - نيتشة Nietzsche

"ليسَ في إمكانِ الإنجليزِيِّ ولا الفَرَنسِيِّ ولا الألمانِيِّ ولا الإيطالِيِّ أن يَحمِلُوا أنفُسَهُم على التَّفكيرِ بِالطَّريقَةِ نَفسِها تَمامًا، في الأقَلِّ في المَوضوعاتِ التي تتضَمَّنُ أيَّ قَدْرٍ مِن العُمْقِ العاطفِيِّ: إنَّهُم يَفتَقِرونَ إلى الوَسيلَةِ اللفظِيَّةِ". - البروفيسور ماكينزي Prof. J. S. Mackenzie

"في الفِكْرِ البِدائيِّ يَكونُ الاسمُ والمُسَمَّى مُرتَبِطَيْنِ على نَحْوٍ يُعَدُّ أحَدُهُما على وَفْقِهِ جُزءًا مِن الآخَرِ. وإنَّ الفَصْلَ غيرَ التامِّ لِلكَلِماتِ عن الأشياءِ لَمِمّا يُمَيِّزُ الفِكْرَ الإغريقِيَّ عُمومًا".
- هربرت سبنسر Herbert Spencer

"كانَ على الدَّوامِ ثَمَّةَ مَيْلٌ قَوِيٌّ إلى اعتِقادِ أنَّ كُلَّ ما هوَ قابِلٌ لِتَلَقِّي اسمٍ مّا لا بُدَّ أن يَكونَ كِيانًا أو وُجودًا، لَهُ وُجودٌ ذاتِيٌّ مُستَقِلٌّ: فإن لَم يُعثَرْ على كِيانٍ واقِعِيٍّ يَستَجيبُ لِلاسمِ لَم يَفتَرِضِ النّاسُ، لِهذا السَّبَبِ، عَدَمَ وُجودِهِ، بَل تَصَوَّرُوا أنَّهُ شَيْءٌ مُبهَمٌ وغامِضٌ على نَحوٍ مَخصوصٍ، وأرقَى بِكَثيرٍ مِن أن يَكونَ شَيْئًا حِسِّيًّا". - جون ستيوَرت مِل J. S. Mill

"ليسَ ثَمَّةَ ما هُوَ أكثَرُ اعتِيادِيَّةً مِن أن يتطَفَّلَ الفَلاسِفَةُ على عالَمِ النَّحْوِيِّينَ، وأن يَخوضوا في جِدالاتٍ كَلِمِيَّةٍ، في الوَقتِ الذي يَتَصَوَّرونَ فيهِ أنَّهُم يُعالِجونَ خِلافاتٍ لَها أهَمِّيَّةٌ وشَأْنٌ".
- هيُوم Hume

"يُقْنِعُ النّاسُ أنفُسَهُم بِالكَلِماتِ أنفُسِها التي يَستَعمِلُها النّاسُ، كَما لَو أنَّ الصَّوتَ الواحِدَ يَحْمِلُ بِالضَّرورَةِ المَعْنَى نَفسَهُ". - لوك Locke

"قَد يَكونُ النِّقاشُ اللفظِيُّ مُهِمًّا أو غيرَ مُهِمٍّ، لكِن مِن المَرغوبِ فيهِ، في أقَلِّ تَقديرٍ، أن يُعْلَمَ أنَّهُ لَفظِيٌّ". - السِّير كورنوول لويس Sir G. Cornwall Lewis

"إنَّ الخِلافاتِ العِلمِيَّةَ تَتَكَشَّفُ على الدَّوامِ عَن أنَّها اختِلافاتٌ بِشَأنِ مَعاني الكَلِماتِ".
- البروفيسور شُوستَر Prof. A. Schuster

الفَصلُ الأَوَّلُ
الأَفكارُ، والكَلِماتُ، والأَشياء

لِنَزدَدْ قُرْبًا مِن النّارِ حتّى نستطيعَ رُؤيَةَ ما نقولُ.

- بوبِس فرناندو بو
The Bubis of Fernando Po

إنَّ أَثَرَ اللغةِ في الفِكرِ قد استحوَذَ على اهتمامِ عُقلاءِ النّاسِ وحَمقاهُم على حَدٍّ سَواءٍ، منذُ أن استنتَجَ لاو تسي Lao Tse[1] في الماضي البعيدِ "أنَّ الَّذي يَعلَمُ لا يتكلَّمُ، وأنَّ الَّذي يتكلَّمُ لا يَعلَمُ".

والحقُّ أنَّ العُقَلاءَ قد أثبتوا أحيانًا أنَّهم في هذا المضمارِ مِن أَشَدِّ النّاسِ حُمقًا؛ أَلَم يُعْلِنْ بنتلي Bentley[2] العظيمُ، عَميدُ كلِّيَّةِ ترِنِتي Trinity التّابِعةِ لِجامعةِ كيمبرِج Cambridge، ورئيسُ شَمامِسَةِ برِستل Bristol، الَّذي له مَنصِبانِ آخَرانِ أيضًا "أنَّ أسماءَ الأشخاصِ والأماكِنِ المذكورةَ في الكِتابِ المقَدَّسِ قبلَ الطُّوفانِ، إذا ما تَجاوَزْنا دَلائلَ أُخرَى، تَجعَلُنا على يَقِينٍ مِن أنَّ العِبرِيَّةَ كانَت اللغةَ البِدائيَّةَ لِلبَشَرِ"؟ وفي الصَّفحةِ المقابِلَةِ انتَقَيْنا تَعليقاتٍ أُخرَى تتعلَّقُ بِموضوعِ

(1) لاو تسي (604-531 ق.م). فيلسوفٌ صينيٌّ قديمٌ، ويُعَدُّ إلهًا في الطّاوِيَّةِ. وتَعني الكَلِمةُ السَّيِّدَ القَديمَ، وتُعَدُّ لقبَ تفخيم. [المُترجِم]

(2) رِتشارد بنتلي (1662-1742م). لاهوتيٌّ إنجليزيٌّ، وعالِمٌ كلاسيكيٌّ، وناقِدٌ. كانَ عميدًا لكلِّيَّةِ ترِنِتي في جامعةِ كيمبرِج. [المُترجِم]

اللغةِ ومَعناها، وسَواءٌ أَوُسِمَتْ هذه التَّعليقاتُ بِالحِكْمَةِ أم بِالحُمْقِ فإنَّها، في الأَقَلِّ، قد أثارَت تَساؤُلاتٍ يَنبَغي أن يُجابَ عنها عاجِلاً أو آجِلاً. وفي السَّنواتِ الأخيرَةِ أُقِرَّ عُمومًا بِوُجودِ مُشكِلةِ المعنَى وأهَمِّيَّتِها، بَيْدَ أنَّ سُوءَ الحظِّ لاحَقَ مَن حاوَلوا التَّوصُّلَ إلى حَلٍّ بِشأنِ ذلك مُجْبِرًا إيّاهُم على التَّخَلّي عن طُموحِهِم- إمّا بِسَبَبِ التَّقَدُّمِ في السِّنِّ كحالِ لايبِنِتْز Leibnitz[3]، وإمّا بِسَبَبِ الفَقرِ المُدْقِعِ كحالِ بيرس C. S. Peirce[4]، وإمّا بِسببِ الأمرَيْنِ مَعًا. بل إنَّ المَناهِجَ المفتَرَضَةَ لِمعالجةِ المشكلةِ السّابقةِ ظَلَّتْ مَوْضِعَ شَكٍّ. وجَنَحَ كلُّ عِلمٍ إلى أن يُفَوِّضَ إلى غَيرِهِ مِن العُلومِ القِيامَ بِهذه المهِمَّةِ غيرِ السّارَّةِ. [1] إنَّ ما أخطَأَ فيهِ الميتافيزيقِيُّونَ وما أَغفَلوهُ لَمِمّا ينبغي أن يَحُثَّنا على إيلاءِ المشكلةِ مزيدًا مِن الاهتِمامِ، وعلى الفيلولوجيّينَ تَحمُّلُ قِسطِهِم مِن الوِزْرِ. على أنَّ مَن قَد يَكونُ أدرَكَ بِوُضوحٍ شَديدٍ ضَرورةَ النُّهوضِ بِمعالجةٍ أشمَلَ لِلموضوعِ في السَّنواتِ القَريبةِ كانَ فيلولوجيًّا.

إذ كَتَبَ الرّاحِلُ الدُّكتور بوستغَيْت Postgate[5] يَقولُ: "على مَدَى تأريخِ البَشريَّةِ الطَّويلِ لم تَكُنْ ثَمَّةَ أَسئلَةٌ تَسَبَّبَتْ في المزيدِ مِن المُعاناةِ، والاضطِراباتِ، والدَّمارِ كتلكَ الأَسئلةِ المتعلِّقةِ بِمُناظَرَةِ الكَلِماتِ لِلوَقائعِ. ويَكفِي مُجَرَّدُ الذِّكْرِ لِكلِماتٍ نَحوِ 'دِين' و'وَطَنيَّة' و'مِلْكِيَّة' بُرهانًا على صِحَّةِ ذلك. إنَّ البَحثَ في طَبيعةِ التَّناظُرِ بينَ الكَلمةِ والواقِعَةِ، بِالمَعْنَى الأوْسَعِ لِهذَيْنِ التَّعبيرَيْنِ، يُمَثِّلُ

(3) غوتفريد فِلهِلم لايبنتز (1646-1716م). فيلسوفٌ، وعالِمُ طبيعَةٍ، وعالِمُ رياضيّاتٍ، ودِبلوماسيٌّ، ومَكتبيٌّ، ومُحامٍ، ألمانيٌّ. أسَّسَ علمَ التَّفاضُلِ والتَّكامُلِ مُستقِلاً عن نيوتن. عاشَ في عصرِ العَقلانيَّةِ والتَّنويرِ. مِن مُؤلَّفاتِهِ: مَقالَةٌ في الميتافيزيقا، ومَقالاتٌ جَديدةٌ في الفَهمِ الإنسانيّ. [المُترجِم]

(4) تشارلز ساندرز بيرس (1839-1914م). سيميائيٌّ، وفيلسوفٌ أمريكيٌّ. يُعَدُّ مُؤَسِّسَ البراغماتيَّةِ معَ وِليَم جَيمس. ويُعَدُّ كذلكَ أحَدَ مُؤَسِّسي السِّيميائيّاتِ المُعاصرةِ معَ دو سوسير. من آثارِهِ: المصادَفَةُ، والحبُّ، والمنطِق- مَقالاتٌ فلسفيَّةٌ، والبُحوثُ الكامِلَةُ لِتشارلز ساندرز بيرس. [المُترجِم]

(5) جون بيرسِفال بوستغَيْت (1853-1926م). كلاسيكيٌّ بريطانيٌّ، وأستاذُ اللغةِ اللاتينيَّةِ في جامعةِ لِفَربول بينَ سنتَيْ 1909 و1920م. [المُترجِم]

المشكِلَةَ الخاصَّةَ والكُبرَى في عِلْمِ المعنَى. ومِمّا لا يُمكِنُ إنكارُهُ أنَّ لِكُلِّ كَلمةٍ حَيَّةٍ جُذُورَها في وَقائعِ وَعْينا وتَأرِيخِنا العَقْلِيَّيْنِ، غيرَ أنَّ تَحديدَ ماهيَّةِ تلكَ الوَقائعِ أَمرٌ مُختَلِفٌ تَمامًا. ولا شَكَّ في أنَّ التَّصَوُّرَ البِدائيَّ يُفيدُ أنَّ الاسمَ يُشيرُ إلى الشَّيءِ أو يَصِفُهُ. وهذا يَستَتْبِعُ على الفَورِ إمكانَ الاستِدلالِ على وُجودِ الشَّيءِ بِحُضورِ الاسمِ. هذا هو التَّصَوُّرُ البَسيطُ لِلأَقوامِ البِدائيَّةِ".

تَحتَ وَطْأَةِ مِثلِ هذهِ الحاجَةِ المُلِحَّةِ إلى تَحليلٍ واضِحٍ لِلعَلاقةِ بينَ الكَلِماتِ والوَقائعِ بِوَصفِهِ أساسَ النَّظَريَّةِ المعْنِيَّةِ بِالمعنَى كانَ الدُّكتور بوستغَيْت نفسُهُ يَعِي تَمامًا أَنَّهُ في مَرْحَلَةٍ مّا لا يُمكِنُ تَجَنُّبُ النَّواحي الفَلسفيَّةِ والنَّفسيَّةِ لِتلك النَّظريَّةِ. حينَ كَتَبَ ذلك في عامِ (1896م) لم يَكُن اضطِلاعُ عِلْمِ الدَّلالَةِ Semantics بِمهمَّةِ رَأْبِ الصَّدْعِ أَمَلاً غيرَ مَعقولٍ. لكِنْ على الرَّغمِ مِن لَفْتِ أبحاثِ السَّيِّدِ بريال Bréal[6] الانتِباهَ إلى عددٍ مِن الظَّواهِرِ الرّائعَةِ في تَأريخِ اللغةِ وإثارَتِها اهتِمامًا مُتَجدِّدًا بالإمكاناتِ التَّعليمِيَّةِ لِعِلمِ تأصيلِ الكَلِماتِ Etymology، كانَت النَّتيجَةُ النِّهائيَّةُ مُخَيِّبَةً لِلآمالِ. وحَتْمِيَّةُ خيبةِ الأَمَلِ تِلكَ يُمكِنُ الوُقوفُ عليها إذا ما نَظَرْنا في الموقِفِ مِن [2] اللغةِ المتضَمَّنِ في النَّصِّ اللاحقِ. إنَّ استِعمالَ الكَلِماتِ وكأَنَّ مَعانِيَها ثابِتَةٌ، واستِمرارَ اللُّجُوءِ إلى الاسْتِعاراتِ الطَّليقَةِ، وإضفاءَ الصِّفَةِ المادِّيَّةِ على المصطَلَحاتِ الرَّئيسةِ، كُلُّ أُولئكَ يُشيرُ إلى مَوقِفٍ غيرِ مُناسِبٍ لِمُقارَبَةِ موضوعِ البَحثِ:

> "الأَسْماءُ عَلاماتٌ مُلْحَقَةٌ بِالأَشياءِ: إنَّها تَشتَمِلُ تَمامًا على ذلكَ القَدْرِ مِن الحَقيقَةِ الذي يُمكِنُ أن يَشتَمِلَ الاسمُ عليهِ، ذلكَ القَدْرِ الذي يَكونُ، بِالضَّرورَةِ، قَليلاً بِالإضافةِ إلى حَقيقةِ الشَّيءِ. إنَّ أكثَرَ الأَسماءِ مُلاءَمَةً لأَشيائها إنَّما هيَ الأَسماءُ المجَرَّدَةُ؛ ذلك بِأَنَّها تُمَثِّلُ عَمَلِيَّةً ذِهْنِيَّةً يَسيرةً.

(6) ميشال جول ألفريد بريال (1832-1915م). فيلولوجيٌّ فَرَنسيٌّ. غالِبًا مّا يُوصَفُ بِأَنَّهُ مُؤَسِّسُ علمِ الدَّلالَةِ الحديثِ. مِن آثاره: دراسةُ أصولِ دِيانةِ المَجوس، وأُسطورةُ أوديب، ومَقالَةٌ في عِلمِ الدَّلالَةِ. [المُترجِم]

فَإذا ما استَعمَلْتُ الكلِمَتَيْنِ الآتِيتَيْنِ: القابِلِيَّةُ لِلانضِغاطِ، والخلود، فكُلُّ ما يُمكِنُ أن يُوجَدَ في إحداهما مِن الفِكْرَةِ idea إنَّما يُوجَدُ كذلكَ في الكَلِمَةِ word. لكِنْ إذا ما تناوَلْتُ كِيانًا حَقيقيًّا، أي شَيئًا موجودًا في الطَّبيعةِ، فإنَّه سيكونُ مُحالاً على اللغةِ أن تُودِعَ الكَلِماتِ كُلَّ الأفكارِ الَّتي يُثيرُها هذا الكِيانُ أو الشَّيءُ في الذِّهنِ. فاللغةُ، مِن أجلِ ذلكَ، مُجبَرَةٌ على الاختيارِ؛ فَمِن بينِ كُلِّ الأفكارِ تَستطيعُ اختيارَ فِكرةٍ واحدةٍ فقط. وهي، بِذلك، تَخلُقُ اسمًا يكونُ عَمّا قَريبٍ مُجَرَّدَ عَلامَةٍ.

ومِن أَجْلِ أن يَحظَى هذا الاسمُ بِالقَبولِ لا بُدَّ مِن امتِلاكِهِ، في الأَصْلِ، خَصيصَةً حقيقيَّةً ولافِتَةً لِلنَّظَرِ مِن جانِبٍ أو مِن آخَرَ؛ إذ يَجِبُ أن يُرضِيَ عُقولَ الَّذينَ يُعرَضُ عليهِم أوَّلَ مرَّةٍ. غَيرَ أنَّ هذا الشَّرطَ لا يَلزَمُ إلّا في البِدايةِ؛ فَما إن يُقبَلِ الاسمُ حتَّى يتخلَّصَ سَريعًا مِن دَلالَتِهِ الأَصليَّةِ، وإلّا فإنَّ هذه الدَّلالَةَ قد تُصبِحُ مَدعاةً إلى الإحراجِ. فتَسمِياتُ الكثيرِ مِن الأشياءِ غيرُ دَقيقةٍ؛ إمّا بِسببِ جَهْلِ الكُتّابِ الأَصليِّينَ، وإمّا بِسببِ تَغيُّراتٍ طارئةٍ تُفْسِدُ التَّناغُمَ بينَ العَلامَةِ والشَّيءِ المَدلولِ عليهِ. وعلى الرَّغمِ مِن ذلك تُؤَدِّي الكَلِماتُ الغَرَضَ نَفسَهُ كما لو أنَّها دَقيقَةٌ على نَحْوٍ لا يَقبَلُ الخطَأَ، حَتَّى إنَّهُ ما مِنْ أَحَدٍ يُفَكِّرُ في تَنقيحِها. فَهذهِ الكَلِماتُ إنَّما تُقبَلُ بِموافَقَةٍ ضِمنيَّةٍ لا تَدخُلُ في نِطاقِ شُعورِنا". (Bréal's *Semantics*, pp. 171-2).

ما الَّذي يُمكِنُ فِعلُهُ حَقيقَةً بِالأسماءِ الَّتي "تَشتَمِلُ على" الحَقيقَةِ، "ذلكَ القَدْرِ مِن الحَقيقَةِ الذي يُمكِنَ أن يَشتَمِلَ عليهِ اسمٌ مّا"؟ كَيفَ يُمكِنُ "كُلَّ ما يُوجَدُ في الفِكرَةِ أن يُوجَدَ كذلِكَ في الكَلِمَةِ"؟ إنَّ تَصَوُّرَ اللغةِ بِوَصفِها "مُجبَرَةً على اختيارِ فِكرَةٍ مّا"، وبِذلكَ تَخلُقُ "اسمًا يكونُ عَمّا قَريبٍ عَلامَةً مّا"، لَهُو تَصَوُّرٌ غَريبٌ، في حينِ أنَّ 'الدِّقَّةَ' و'التَّناغُمَ' يُعْوِزُهما الوُضوحُ عندَ استِعمالِهِما في التَّسميَةِ وفي العَلاقَةِ بينَ العَلامَةِ والشَّيءِ المَدلولِ عَليهِ على التَّوالِي. وما مَضَى مِن النَّقدِ ليسَ مَحضَ قَدحٍ؛ فالعِباراتُ المعتَرَضُ عليها [3] تُخفي الوَقائعَ أَنْفُسَها الَّتي يُعنَى عِلمُ اللغةِ the science of language بِإيضاحِها. إنَّ المهمَّةَ الحقيقيَّةَ لِهذا

علم لا يُمكِنُ إنجازُها بنَجاحٍ ما لم يَتَوافَرِ الإدراكُ النّاقِدُ لِلمَحاذيرِ الَّتي يَنطَوي عليها التَّعبيرُ السّائبُ؛ فَمُحالٌ مُعالَجَةُ قَضيَّةٍ عِلميَّةٍ بِتَعبيراتٍ اسْتِعاريَّةٍ. ولم تَرْقَ خِبْراتُ الفيلولوجيِّينَ في أغلَبِ الأحيانِ إلى زِيادَةِ سيطرَتِهم على اللغةِ التَّحليليَّةِ والتَّجريديَّةِ. وقد يَكونُ المَناطِقَةُ مُهَيَّئينَ أكثَرَ مِن غيرِهم في هذا المجالِ لَولا أنَّ مُكْنَتَهم اللغويَّةَ تَنحو إلى أن تُخفِيَ عنهم ما يتحدَّثُونَ عنه، وتَجعلُهم مَيّالِينَ إلى قَبولِ البِناءاتِ اللغويَّةِ المحضَةِ الَّتي تُلائمُ أغراضَهم الخاصَّةَ، بِوَصفِها حالاتٍ نِهائيَّةً.

إنَّ استِبدادَ اللغةِ العظيمَ بِأُولئكَ الَّذينَ يَقصِدُونَ البَحثَ في مَيادينِها يَتَجلّى واضِحًا في تأمُّلاتِ الرّاحِلِ دو سوسير F. de Saussure[7]، وهو الكاتِبُ الَّذي رُبَّما يَعُدُّهُ جُمهورٌ مِن الطَّلَبةِ الفَرَنسيِّينَ والسّويسريِّينَ أوَّلَ مَن وَضَعَ اللغةَ على قاعدةٍ عِلميَّةٍ. هذا الكاتِبُ يَبدأُ بِالتَّساؤُلِ: "ما مَوضُوعُ اللِسانيّاتِ الَّذي هو في آنٍ واحِدٍ مُتَكامِلٌ ومَلموسٌ؟". وهو لا يَسأَلُ عن حقيقةِ امتِلاكِ اللِسانِيّاتِ شيئًا مِن ذلك، وإنَّما يُطيعُ إطاعةً عَمياءَ الدّافعَ الفِطريَّ إلى أن يُستنتَجَ مِن الكلِمةِ شيءٌ تَرْمِزُ إليهِ، ثُمَّ يَنطَلِقُ عازِمًا على العُثورِ عليه. غيرَ أنَّهُ يُتابعُ قائلاً إنَّ اللُغَةَ speech (*le langage*)[8] وإن كانَتْ مَلموسَةً بِما فيه الكِفايَةُ، بِوصفِها مجموعةَ أحداثٍ، فهيَ ليسَتْ مُتَكامِلَةً؛ فأصواتُها تتضَمَّنُ حَرَكاتٍ كَلاميَّةً، ولِكَونِ الأصواتِ

---

(7) فرديناند دو سوسير (1857-1913م). لِسانيٌّ سويسريٌّ. يُعَدُّ الأبَ والمُؤسِّسَ لِلبنيويَّةِ في اللسانيّاتِ، ومِن أشهرِ علماءِ اللغةِ في العَصرِ الحديثِ. اتَّجَهَ نحوَ دراسةِ اللغاتِ دراسةً وصفيَّةً بِوَصفِ اللغةِ ظاهرةً اجتماعيَّةً، وقد كانَت تُدرَسُ مِن قَبلُ دراسةً تاريخيَّةً. وكانَ السببُ في هذا التَّحوُّلِ الخطيرِ في دراسةِ اللغةِ اكتشافَ اللغةِ السنسكريتيَّةِ. أهمُّ آثاره: دروسٌ في الألسُنيَّةِ العامَّةِ. [المُترجِم]

(8) في كِتابِ سوسير (دُروسٌ في الألسُنِيَّةِ العامَّةِ) ثلاثةُ مُصطَلَحاتٍ كانَ لَها شَأنٌ كبيرٌ في مُجمَلِ الدِّراساتِ اللِسانيَّةِ اللاحِقَةِ، تَوَجَّهَ كَلامُ أوغدِن ورِتشاردز في المَتْنِ إلى اثنَيْنِ مِنها هُما le langage وla langue، وأورَدا ثالِثَها في الهامشِ وهوَ parole. وقَد التَزَمْتُ فيها جَميعًا إثباتَ المُقابِلِ الإنجليزيِّ الذي أورَدَهُ أوغدِن ورِتشاردز لِلأُصولِ الفرنسيَّةِ زِيادَةً على إثباتِ المُقابِلِ العَرَبيِّ لها، بُغيَةَ تَنبيهِ القارِئِ العربيِّ على ما قَد يَعرِضُ مِن إشكالاتٍ بسببِ اختِلافِ أفهامِ المُترجِمِينَ العَرَبِ عن اللغةِ الأصلِ وتَبايُنِ أمزِجَتِهِم، فَضلاً عَمّا قَد تُسَبِّبُهُ التَّرجمةُ بِالواسِطَةِ عبرَ لُغَةٍ وَسيطَةٍ، هيَ الإنجليزيَّةُ في مِثالِنا هذا، مِن إشكالاتٍ. =

والحرَكاتِ الكَلاميَّةِ جَميعًا آلاتٍ لِلفِكرِ فهي تتضَمَّنُ أفكارًا. ويَمْضِي قائلاً إنَّ لِلأفكارِ جانِبًا اجتِماعيًّا كما أنَّ لها جانِبًا فَردِيًّا، وفي كُلِّ لَحظةٍ تنطَوي اللغةُ على أمرَيْنِ: نِظامٍ مُستَقِرٍّ، وتَطَوُّرٍ، "وبِذلكَ، فَمِن أيِّ جانِبٍ قارَبْنا السُّؤالَ لَن نَعثُرَ في مَكانٍ مّا على المَوضُوعِ المُتَكامِلِ لِلِّسانِيّاتِ". ولا يتوقَّفُ دو سوسير عندَ هذه النُّقطةِ لِيسأَلَ نفسَهُ: عَمَّ أبحَثُ؟ أو: أثَمَّ ما يَدعُو إلى وُجوبِ وُجودِ ما أبحَثُ عنه؟ ولكِنَّه، بَدَلاً مِن ذلك، يُواصِلُ السَّيرَ بِطَريقَةٍ مألوفةٍ في بِداياتِ العُلومِ جَميعًا، فيختَرِعُ مَوضوعًا مُناسِبًا هو ما يُسَمِّيهِ *'la langue'* اللِسانَ the language، في مُقابِلِ اللُغَةِ. [4] إذ يقولُ: "ما اللِسانُ؟ ما نَراهُ هوَ وُجوبُ عَدَمِ الخَلْطِ بينَهُ وبينَ اللُغَةِ. إنَّهُ يُعَدُّ الجزءَ المحَدَّدَ مِنها، وهوَ جُزْءٌ أساسيٌّ والحَقُّ يُقالُ. إنَّهُ في آنٍ واحِدٍ نتاجٌ اجتِماعيٌّ لِلمَلَكَةِ اللُغَوِيَّةِ ومَجموعةٌ مِن المُواضَعاتِ الضَّروريَّةِ الَّتي أقَرَّها الكِيانُ الاجتِماعِيُّ لِيُمَكِّنَ الأفرادَ مِن مُمارَسَةِ هذهِ المَلَكَةِ . . . إنَّهُ كُلٌّ في حَدِّ ذاتِهِ ومَبْدَأٌ لِلتَّصنيفِ. وما إن نَجعَلهُ في المقامِ الأوَّلِ بينَ حَقائقِ اللُغَةِ حَتَّى نَكونَ قَد أدخَلْنا نِظامًا طَبيعيًّا في مَجموعةٍ لا تُسْلِمُ نفسَها لأيِّ تصنيفٍ آخَرَ". واللِسانُ، بَعدُ، "مَجموعُ الصُّوَرِ اللَفظيَّةِ المُختَزَنَةِ لَدَى جَميعِ الأفرادِ . . . إنَّهُ كَنْزٌ يَدَّخِرُهُ الأفرادُ الذينَ يَنتَمُونَ إلى مَجموعَةٍ واحِدَةٍ مِن خِلالِ مُمارَسَةِ اللُغَةِ. إنَّهُ نِظامٌ نَحويٌّ لَهُ وُجودٌ فِعْلِيٌّ في كلِّ عَقلٍ، أو على نَحوٍ أدَقَّ في عُقولِ مجموعةٍ مِن الأفرادِ؛ إذ إنَّ اللِسانَ لا يُوجَدُ كامِلاً لَدَى أيٍّ مِنهُم، بَل إنَّ وجودَهُ الكاملَ لا يكونُ إلّا لَدَى المجموعِ"[(9)].

= وقد اختَرْتُ المُقابِلاتِ العربيَّةَ (اللُغَة)، و(اللِسان)، و(الكَلام)، لِلأُصولِ الفَرنسيَّةِ le langage، وla langue، وparole، على التَّوالي، لِسبَبَيْنِ؛ أحدُهُما: أنَّ مُرادَ سوسير يتَّضِحُ تَمامًا بِها؛ والآخَرُ: أنَّها اختِيارُ عددٍ مِن لِسانِيِّي المغرِبِ العربيِّ المُمَحِّصِينَ مِمَّن يُتقِنُونَ اللُغَةَ الفرنسيَّةَ، وهيَ لُغَةُ كِتابِ سوسير، كالدُّكتور عبد السَّلام المسدِّيِّ في كِتابِهِ (قاموس اللِسانيّات): ص196، 208، والدُّكتور مُصطفى غلفان في كِتابِهِ (اللِسانيّات البنيويَّة- مَنهجيّات واتِّجاهات): ص156. ويُلحَظُ أنَّ المُقابِلَيْنِ الإنجليزيَّيْنِ المُثبَتَيْنِ في نَصِّ الكِتابِ لِـ le langage وla langue هُما على التَّوالي speech وlanguage، لافتِقارِ اللغةِ الإنجليزيَّةِ إلى مُقابِلٍ دَقيقٍ يَفي بِما يَشتَمِلُ عليهِ المُصطَلَحُ الفرنسِيُّ la langue. [المُترجِم]

(9) *Cours de Linguistique Générale*, pp. 23-31.

ولا شَكَّ في أنَّهُ قَد يُتَوَصَّلُ إلى بِناءٍ باذِخٍ كَاللِسانِ بِمَنهَجٍ لِلتَّشْتيتِ المُكَثَّفِ Method of Intensive Distraction مُشابِهٍ لِذلكَ الَّذي يَرتَبِطُ به اسمُ الدُّكتور وايتهيد Whitehead(10)، ولكِنَّهُ مُذهِشٌ إذا ما نُظِرَ إليهِ بِوَصفِهِ مَبدَأً يُسْتَنارُ بِهِ في عِلمٍ ناشِئٍ. وقَد ثَبَتَ، زِيادَةً على ذلك، أنَّ الإجراءَ نفسَهُ الذي يَقومُ على اختِراعِ كِياناتٍ لَفظِيَّةٍ خارجَ مَجالِ البَحثِ الممكِنِ ذو تَأثيرٍ كارِثِيٍّ في نظريَّةِ العَلاماتِ اللاحقةِ(11). [5]

ولم يَستطِعْ دو سوسير، بِوَصفِهِ فيلولوجِيًّا ذا احترامٍ مُتَطَرِّفٍ لِلمُواضَعَةِ اللغويَّةِ، أن يَحتَمِلَ التَّلاعُبَ بِما تَصَوَّرَهُ مَعنًى ثابِتًا، جُزْءًا مِنَ اللِسانِ. هذهِ النَّظرَةُ

---

(10) ألفريد نورث وايتهيد (1861-1947م). عالِمٌ رِياضيٌّ، وفيلسوفٌ إنجليزيٌّ، كتبَ في الجَبرِ والمَنطقِ وأُسُسِ الرِّياضيّاتِ، وفي فلسفةِ العلومِ والفيزياءِ والميتافيزيقا والتَّعليم. أشرفَ على أطروحةِ الدكتوراه لبرتراند رَسِل، وأثَّرَ في الفلسفةِ التَّحليليَّةِ. شاركَ رَسِل في تأليفِ كتابِ (مَبادِئ الرِّياضيّات). [المُترجِم]

(11) العَلامَةُ (sign) عندَ دو سوسير ثُنائيَّةٌ مُكَوَّنَةٌ مِن مَفهومٍ concept (signifié) وصورةٍ سَمعيَّةٍ acoustic image (signifiant)، وكلٌّ منهما كِيانٌ نَفسيٌّ. ويُؤكِّدُ أنَّه في حالِ فُقدانِ المَفهومِ لن تُكَوِّنَ الصُّورَةُ السَّمعيَّةُ عَلامَةً (ص100). وضَرَرُ هذهِ الأُطروحَةِ يَكمُنُ، على ما سَنَرَى، في أنَّ عمليَّةَ التَّأويلِ تكونُ مُتَضَمَّنَةً في تعريفِ العَلامةِ.
والحَقُّ أنَّ دو سوسير فَخَرَ بِأنَّه إنَّما "عَرَّفَ الأشياءَ لا الكَلِماتِ". وذكَرَ أنَّ التَّعريفاتِ المؤسَّسَةَ بهذه الطَّريقةِ "لا يُخشَى عليها مِن مُصطَلَحاتٍ غامِضَةٍ مُعَيَّنَةٍ لا تُوافِقُ لُغَةً أو أُخرَى؛ وهكذا فإنَّ كلمةَ *sprache* في الألمانيَّةِ تعني 'اللِسانَ' و'اللُّغَةَ'... أمّا في اللاتينيَّةِ فكلمةُ *sermo* تَدُلُّ، على الأصَحِّ، على اللُّغَةِ والكَلامِ *parole*، في حينِ أنَّ كلمةَ *lingua* تَدُلُّ على 'اللِسانِ'، وهَلُمَّ جَرًّا. وليسَتْ ثَمَّةَ كلمةٌ تُناظِرُ تَمامًا أيًّا مِن الأفكارِ المُحَدَّدَةِ المذكورةِ آنِفًا، وهذا هو السَّببُ في أنَّ أيَّ تَعريفٍ يُصاغُ لِيُلائمَ كلمةً مّا يكونُ تافِهًا، كما أنَّ المَنهَجَ الذي يَنطَلِقُ مِن الكَلِماتِ لِتَحديدِ الأشياءِ مَنهَجٌ سَيِّئٌ" (المصدرُ نَفسُه: ص32). إنَّ وِجهَةَ التَّعريفِ المتبنّاةَ هنا تتضمَّنُ، على ما سيُبَيَّنُ لاحِقًا، إغفالاً مُدهِشًا لِلإجراءِ الطَّبيعيِّ- أي استِبدالِ رُموزٍ مفهومةٍ جيِّدًا بِأُخرَى غامضَةٍ. وعَيِّنَةٌ أُخرَى لِمِثلِ هذه السَّذاجةِ نَجِدُها في رَفضِ مُصطَلَحِ 'الرَّمز symbol' دالاً على العَلامَةِ اللغويَّةِ (ص103).
" لِلرَّمزِ خَصيصَةُ عَدَمِ الاعتِباطيَّةِ التّامَّةِ. إنَّه ليسَ فارِغًا؛ فهناكَ بِدايةٌ لِرِباطٍ طَبيعيٍّ بينَ الدّالِّ والمَدلولِ عليهِ. فرَمزُ العَدالَةِ والمقاييسُ لا يُمكِنُ استِبدالُ شيءٍ آخَرَ بها على نَحوٍ اعتِباطيٍّ، كَأن يَكونَ عَرَبَةً، على سبيلِ المثالِ".

المُتَوَرِّعَةُ لِلاستِعمالاتِ الخياليَّةِ 'المقبولَةِ' لِلكلِماتِ مِيزَةٌ مألوفةٌ عندَ الفيلولوجِيِّينَ، تَضرِبُ جُذورُها في أعماقٍ سَحيقَةٍ في الطَّبيعةِ البَشريَّةِ، على ما سنَرَى في الفَصلَيْنِ اللاحِقَيْنِ. ومِمّا يُؤسَفُ عليه بخاصَّةٍ أنَّ العُدَّةَ التِّقْنِيَّةَ، وإنْ تَكُن مُمتازَةً في الأحوالِ الأُخرَى، ضَعيفَةٌ جِدًّا في هذه النُّقطةِ؛ ذلكَ بأنَّ التَّمييزَ الأَوَّلِيَّ لِعِلْمٍ عامٍّ لِلعَلاماتِ 'السِّيميولوجيا Semiology'[12]، وهو الَّذي سَتَكونُ اللِسانِيّاتُ فَرعًا له، وهيَ أَهَمُّ فُروعِهِ، كانَ مُحاوَلَةً فَذَّةً جِدًّا في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ. وبِسببِ الإهمالِ التّامِّ لِلأشياءِ الَّتي تَرْمِزُ إليها العَلاماتُ كانَتْ نَظَرِيَّةُ العَلاماتِ هذه، لِسُوءِ الحظِّ، مَبتوتَةَ الصِّلَةِ مُنذُ البِدايَةِ بِكُلِّ ما يَمُتُّ بِسببٍ إلى مَناهِجِ التَّحقيقِ العِلميَّةِ. على أنَّه لا يَبدو أنَّ دو سوسير قد تابَعَ المسألَةَ بَعيدًا إلى الحدِّ الَّذي يَجعَلُ هذا الخَلَلَ واضِحًا. والإهمالُ نَفسُهُ يَجعَلُ البَحثَ الأحدَثَ لِلبروفيسور ديلاكروا Delacroix[13] الَّذي عُنوانُهُ **اللغةُ والفِكْرُ** *le langage et la pensée* غيرَ فَعّالٍ كَذلكَ بِوَصفِهِ دِراسةً لأثَرِ اللغةِ في الفِكرِ.

فَقد مُنِيَتْ مُحاوَلاتُ الفَلاسِفَةِ والفيلولوجِيِّينَ على حَدٍّ سَواءٍ بِالإخفاقِ. وتَبقَى مَجموعةٌ ثالِثَةٌ مِن الباحِثِينَ المهتَمِّينَ بِالنَّظَرِيَّةِ اللغوِيَّةِ، وهم عُلَماءُ الأعراقِ البَشَرِيَّةِ الَّذينَ اتَّجَهَ الكثيرُ مِنهم إلى موضوعِهِ بعدَ تَدريبٍ أَوَّلِيٍّ في عِلمِ النَّفسِ. إنَّ تَقديمَ بَيانٍ وافٍ عن الأقوامِ البِدائيَّةِ مُحالٌ مِن غيرِ تَبَصُّرٍ بِأساسيّاتِ لُغاتِهم، وهذا

(12) يُستَعمَلُ مُصطَلَحُ (السِّيميولوجيا)، أحيانًا، لِلإشارةِ إلى دِراسةِ العَلاماتِ عندَ المُفَكِّرينَ الذينَ ينتمونَ إلى تُراثِ سوسير الخاصِّ بِهذا الشَّأنِ، ومنهُم على سبيلِ المِثالِ: رولان بارت، وليفي ستروس، وجوليا كريستيفا. أمّا مُصطَلَحُ (السِّيميوطيقا) فيُستَعمَلُ أحيانًا لِلإشارةِ إلى المُفكِّرينَ الذينَ يَعملونَ داخلَ تُراثِ بيرس الخاصِّ، ومنهُم على سبيلِ المِثالِ: مورِس، وأوغدِن ورِتشاردز، وسيبويك. ويُستَعمَلُ مُصطَلَحُ (السِّيميولوجيا) أحيانًا لِلإشارةِ إلى الدِّراساتِ المَعْنِيَّةِ أساسًا بِتحليلِ النُّصوصِ، في حينِ أنَّ مُصطَلَحُ (السِّيميوطيقا) يُستَعمَلُ لِلإشارةِ إلى الدِّراساتِ التي تتَّخِذُ وِجهَةً فلسفيَّةً على نحوٍ أكبرَ، كما يُستَعمَلُ في الوقتِ الحاضرِ على نحوٍ كبيرٍ بوصفِهِ مُصطَلَحًا شامِلاً يَضُمُّ كُلًّا من السِّيميولوجيا وما أسماهُ بيرس السِّيميوطيقا. [المُترجِم]

(13) هنري ديلاكروا (1873-1937م). سايكولوجيٌّ فرنسيٌّ، وأحدُ أكثرِ عُلَماءِ النَّفسِ الفرنسيِّينَ إنتاجًا. من أشهرِ أعمالِهِ: اللُّغةُ والفِكرُ، والدِّينُ والإيمانُ. [المُترجِم]

ما لا يُمكِنُ اكتِسابُهُ بِالاقتِصارِ على نَقلِ المُمَيِّزاتِ النَّحويَّةِ الهِندوأورُبِّيَّةِ الحالِيَّةِ، وهو إجراءٌ كَثيرًا مّا يَكونُ مُضَلِّلاً جِدًّا. في مِثلِ هذه الظُّروفِ يُفتَرَضُ أن يُعيدَ كلُّ باحِثٍ مَيْدانِيٍّ بِناءَ النَّحوِ لِلِسانٍ مّا بِدائيٍّ مُستَعينًا بِمُتابَعاتِهِ الشَّخصيَّةِ لِسُلوكِ مُتَحَدِّثٍ مّا في سِياقٍ مُعَيَّنٍ. وهذا، لِسُوءِ الحظِّ، نادِرًا مّا يُفعَلُ؛ [6] ذلكَ بِأنَّ صُعُوباتِهِ جَمَّةٌ، ورُبَّما تَسبَّبَ ما يَعرِضُ في المصطَلَحِ السّايكولوجِيِّ في مَيْلِ العامِلِ في هذا المجالِ إلى إهمالِ بيئةِ المتحدِّثِ الملموسةِ والاقتِصارِ على اعتِبارِ 'الأفكارِ' الَّتي يُنظَرُ إليها بِوَصفِها 'مُعَبَّرًا عنها'. وهكذا فإنَّ الدُّكتور بواز Boas[14]، وهو الأكثرُ إيحاءً وتأثيرًا في مجموعةِ عُلَماءِ الأعراقِ البَشَريَّةِ المعنِيَّةِ بِموضوعِ البَحثِ الكَبيرِ الذي تُقَدِّمُهُ اللغاتُ الأمريكيَّةُ-الهِندِيَّةُ، يَصوغُ ثَلاثَ نِقاطٍ يُلتَفَتَ إليها في البَحثِ الموضوعيِّ لِلُّغاتِ:

النُّقطةُ الأُولَى: العناصِرُ الصَّوتيَّةُ المُكَوِّنَةُ في اللغةِ.

والنُّقطةُ الثّانيةُ: مَجموعاتُ الأفكارِ الَّتي تُعَبِّرُ عنها مَجموعاتٌ صَوتيَّةٌ.

والنُّقطةُ الثّالثةُ: مَنهَجُ تَوحيدِ المَجموعاتِ الصَّوتيَّةِ وتَعديلِها.

ويقولُ الدُّكتور بواز: "كُلُّ الكَلامِ يُقصَدُ به أن يُؤَدِّيَ مهمَّةَ تَوصيلِ الأفكارِ". على أنَّ الأفكارَ يَبعُدُ أن يَصِلَ إليها مَن يَطلُبُها مِن الخارِجِ، ونَحنُ بِنا حاجَةٌ إلى نَظَريَّةٍ تَصِلُ الكَلِماتِ بالأشياءِ مِن خِلالِ الأفكارِ الَّتي تَرمِزُ إليها، إن وُجِدَتْ هذهِ الأخيرَةُ. أي إنَّ الأمرَ يتطلَّبُ تَحليلاتٍ مُنفصِلَةً لِعَلاقاتِ الكَلِماتِ بالأفكارِ ولِعَلاقاتِ الأفكارِ بالأشياءِ. ثُمَّ إنَّ القِسمَ الأعظَمَ مِن اللغةِ، ولا سِيَّما اللغةُ البِدائيَّةُ، لا يُعنَى ابتِداءً بِالأفكارِ البَتَّةَ، إلّا إذا ضُمِّنَتِ 'الأفكارُ' الانفِعالاتِ والمواقِفَ- وهذا إجراءٌ يَستلزِمُ إشكالاتٍ مُصطلَحيَّةً. إنَّ إسقاطَ جَميعِ المعالَجاتِ

(14) فرانز بواز (1858-1942م). أنثروبولوجيٌّ ألمانيُّ الأصلِ أمريكيُّ الجنسيَّةِ. رائدُ الأنثروبولوجيا الحديثةِ. طبَّقَ المنهجَ العلميَّ في دراسةِ الثَّقافاتِ والمُجتمعاتِ البشريَّةِ. من آثارِهِ: صِلَةُ دارون بالأنثروبولوجيا، وعَقلُ الرَّجُلِ البِدائيّ، والفَنُّ البِدائيّ، والأنثروبولوجيا والحياةُ المعاصِرَة. [المُترجِم]

المنفصِلَةِ لِلطَّرائقِ الَّتي يَكونُ بِها الكَلامُ، زِيادَةً على كَونِهِ ناقِلاً لِلأفكارِ، مُعَبِّرًا عن المواقِفِ والرَّغَباتِ والمَقاصِدِ[15] لَهُو نُقطَةٌ أُخرَى ما زالَ عَمَلُ هذه المدرسةِ النَّشِيطَةِ مُتَخَلِّفًا فيها. [7]

ثُمَّ إنَّ هؤلاءِ المتخصِّصِينَ جَميعًا يُخفِقُونَ، مِن وَجهٍ آخَرَ، في إدراكِ أوجُهِ النَّقصِ في النَّظَرِيَّةِ اللغويَّةِ الحاليَّةِ؛ فبِسَببِ انهِماكِهِم، أي انهماكِ عُلَماءِ الأعراقِ البَشَرِيَّةِ بِتَسجيلِ تَفصيلاتِ اللغاتِ المختفِيَةِ سَريعًا، والفيلولوجِيِّينَ بِتِقْنِيَّةٍ مُحْكَمَةٍ لِلقَوانينِ الصَّوتيَّةِ ومَبادِئِ الاشتِقاقِ، والفَلاسِفَةِ بِـ'الفَلسَفَةِ'، أهمَلوا جَميعًا الحاجةَ الماسَّةَ إلى فَهمٍ أفضَلَ لِما يَحدُثُ في النِّقاشِ. إنَّ تحليلَ عَمليَّةِ التَّواصُلِ

(15) ليسَ نَقصُ التَّعريفاتِ هو ما يُسَبِّبُ تَضمينَ غيرِ الأفكارِ هنا. وهكذا في واحدةٍ مِن أكثَرِ الدِّراساتِ اللغويَّةِ الحديثةِ اقتِدارًا وإمتاعًا، وهي الَّتي نَهَضَ بِها سابير E. Sapir رئيسُ قِسمِ الأنثروبولوجيا، والمَسْحِ الجيولوجيِّ في كَنَدا، وعالِمُ الأعراقِ البَشَرِيَّةِ الشَّديدُ القُربِ مِن المدرسةِ الأمريكيَّةِ، تُعَرِّفُ اللغةُ بِأنَّها "طَريقةٌ إنسانيَّةٌ خالِصَةٌ وغيرُ غريزيَّةٍ لِتَوصيلِ الأفكارِ والعَواطِفِ والرَّغَباتِ بِوَساطةِ نِظامٍ مِن الرُّموزِ المُنشَأَةِ طَوعِيًّا" (language, 1922, p. 7). ولكِنَّ العُنصرَ الانفِعاليَّ قَليلاً مَّا يُلتفَتُ إليه، حتَّى إنّا نَجِدُ مِن المقرَّرِ في دِراسَةٍ لِلشَّكلِ النَّحويِّ، على ما يُظهِرُهُ التَّنَوُّعُ الكَبيرُ في تَرتيبِ الكَلِماتِ في اللاتينيَّةِ، أنَّ التَّحوُّلَ مِن 'hominem femina videt' إلى 'femina hominem videt' يُحدِثُ "فَرقًا ضَئيلاً أو فَرقًا رُبَّما لا يَتَعَدَّى الفَرقَ البَلاغيَّ أو الأُسلوبيَّ". (ص65). وما كُتِبَ بالخطِّ المائلِ إنَّما هو مِن فِعلِنا، أمّا الكاتِبُ نفسُهُ فيُلَخِّصُ دِراسَتَهُ لِلرَّمزِ المُعَقَّدِ: المُزارِعُ يَقتُلُ البُطَيْطَةَ، بِقولِهِ: "هذه الجملةُ القَصيرَةُ ذاتُ الكَلِماتِ الثَّلاثِ [هيَ خَمسٌ في الإنجليزيَّةِ. المُترجِم] تُعَبِّرُ عن ثَلاثَةَ عَشَرَ مَفهومًا مُتَمَيِّزًا". (ص93). إنَّ استِعمالَ مُصطلَحِ المَفهُوم 'concept'، على ما سيُلحَظُ في مَرحلةٍ لاحقةٍ، غيرُ مُوَفَّقٍ بِخاصَّةٍ في مِثلِ هذا التَّحليلِ، وإنَّ المفرَدَةَ المُعَبَّأَةَ كثيرًا بِالاضطِراباتِ الميتافيزيقيَّةِ الحاليَّةِ لا بُدَّ مِن أن تَقودَ إلى نَقصٍ في المعالَجةِ.

وبعد أن أصبَحَ سابير مُجبَرًا على أن يُدرِجَ في 'المَفاهيم' كُلاًّ مِن المَفاهيمِ الملموسةِ- 'الأغراضِ الماديَّةِ'، و'المَفاهيمِ العَلاقِيَّةِ المحضَةِ' (الطَّرائقِ التَّجريديَّةِ لِلإحالَةِ)، لم يَعُدْ قادِرًا في عَمَلِهِ هذا- الَّذي لم يُلحَق قَطُّ لِسُوءِ الحظِّ بِما كانَ قَد خَطَّطَ له مِن كِتابٍ في اللِسانيّاتِ- على أن يُنجِزَ ولو التَّمييزاتِ الأساسيَّةَ في اللغةِ الرَّمزيَّةِ (يُنظَر: الفَصلُ الخامس، ص192، فما بَعدَها)، وسَنجِدُ، عندَ مُعالَجتِنا لِلتَّرجمةِ (الفَصلُ العاشر، ص 344-345)، أنَّ هذه المفرَدَةَ قَد ثَبتَ عَدَمُ نَفعِها له هو أيضًا.

سايكولوجيٌّ في جُزْءٍ مِنهُ، وقد بَلَغَ عِلمُ النَّفسِ الآنَ مَرحلَةً تُمَكِّنُ مِن الاضطِلاعِ بِهذا الجُزْءِ بِنَجاحٍ. وإلى حِينِ حُدوثِ ذلك يَبْقَى عِلمُ الرَّمزيَّةِ science of Symbolism بِالضَّرورَةِ مُعَطَّلاً، ولكِن لم يَعُدْ ثَمَّةَ عُذرٌ لِلحديثِ الغامضِ عن المعنَى، ولِجَهلِ الطَّرائقِ الَّتي تَخدَعُنا بِها الكَلِماتُ.

ومِن المتَّفَقِ عليه في طُولِ العالَمِ الغَربيِّ وعَرضِهِ أنَّ على النّاسِ أن يَلتَقُوا كثيرًا، وأنَّ حَديثَ بَعضِهِم إلى بعضٍ ليسَ مَقبولاً فحَسْبُ، بَل إنَّ مِن مُقتضَياتِ اللُّطفِ الاجتِماعِيِّ قَولَ شَيءٍ مّا حَتَّى حينَ لا يَكادُ يُوجَدُ ما يُقالُ. يَقولُ الرّاحِلُ البروفيسور ماهافي Mahaffy[16]، الَّذي نَنقُلُ هذه الملحوظَةَ مِن كِتابِهِ **مَبادِئُ فَنِّ الحِوار** *Principles of the Art of Conversation*: "كُلُّ إنسانٍ مُتَحَضِّرٍ يَشعُرُ، أو يَجِبُ أن يَشعُرَ، بِهذا الواجِبِ. إنَّه الإنجازُ الكَونِيُّ الَّذي يَجِبُ أن يُمارِسَهُ الجميعُ"، والَّذينَ يُخْفِقُونَ في ذلك يُعاقَبونَ بِكُرْهِ المجتمَعِ لَهُم أو بِإهمالِهِ إيّاهُم.

لا شَكَّ في أنَّ ثَمَّةَ فَنًّا مّا في قَولِ شَيءٍ مّا حينَ [8] لا يُوجَدُ ما يُقالُ، غيرَ أنَّه مِمّا لا شَكَّ فيه أيضًا أنَّ ثَمَّةَ فَنًّا لا يَقِلُّ عن ذاكَ أهمِّيَّةً، وهو أن يَقولَ الشَّخصُ بِوُضوحٍ ما يَرغَبُ في قَولِهِ عِندَ وُجودِ وَفرَةٍ مِن المادَّةِ، ونادِرًا ما يُحْرِزُ الحِوارُ ولو مُستَوَى التَّسليةِ الذِّهنيَّةِ في حالِ عَدَمِ تَوافُرِ مَناهِجِ التَّأويلِ الكافيةِ كذلكَ.

إنَّ الرَّمزيَّةَ هي دِراسَةُ الدَّوْرِ الَّذي تُؤَدِّيهِ اللغةُ والرُّموزُ بِكلِّ أنواعِها في الشُّؤونِ الإنسانيَّةِ، ولا سِيَّما أثَرُها في الفِكرِ. إنَّها تُفْرِدُ بِبَحْثٍ خاصٍّ الطَّرائقَ الَّتي تُعينُنا بِها الرُّموزُ على التَّفكيرِ في الأَشياءِ وتَعُوقُنا عنهُ.

الرُّموزُ تُوَجِّهُ وتُنَظِّمُ، تُسَجِّلُ وتُوَصِّلُ. وبِتَقريرِنا ما الَّذي تُوَجِّهُهُ وتُنَظِّمُهُ، وتُسَجِّلُهُ وتُوَصِّلُهُ يَنبَغي أن نُمَيِّزَ دائمًا الأفكارَ مِن الأَشياءِ[17]. إنَّ الفِكرَةَ thought

---

(16) جون بنتلاند ماهافي (1830-1919م). كلاسيكيٌّ إيرلنديٌّ. من أشهرِ آثارِه: تأريخُ الأدبِ اليونانيِّ الكلاسيكيِّ، والعَصرُ الفِضِّيُّ لِلعالَمِ اليونانيِّ، ومَبادِئُ فنِّ الحِوار. [المُترجِم]

(أو الإحالَة *reference*، على ما سَنُعَبِّرُ بِهِ عادَةً)، هي الَّتي تُوَجِّهُ وتُنَظِّمُ، وإنَّها كذلك الَّتي تُسَجِّلُ وتُوَصِّلُ. ولكِنْ كَما نَقولُ: البُستانيُّ يَحصِدُ الحقلَ، معَ عِلمِنا أنَّ الآلَةَ الحاصِدَةَ هي ما يَقومُ بِالقَصِّ، فكذلكَ على الرَّغمِ مِن عِلمِنا أنَّ العَلاقةَ المباشِرَةَ لِلرُّموزِ إنَّما هي بِالفِكرَةِ نَقولُ أيضًا: إنَّ الرُّموزَ تُسَجِّلُ الأحداثَ، وتُوَصِّلُ الحقائقَ.

إنَّ تَخَلِّيَنا عن عَناصِرَ أساسيَّةٍ في الحالِ اللغويَّةِ يُسَهِّلُ إثارَتَنا مُشكِلاتٍ وصُعوباتٍ تَتَلاشَى حينَ يُراعَى الإجراءُ كُلُّهُ بِمَزيدٍ مِن التَّفصيلِ. فالكَلِماتُ، على ما هو مَعلومٌ الآنَ، لا 'تَعْني' شيئًا في أَنْفُسِها، على الرَّغمِ مِن أنَّ اعتِقادَ كَونِها فاعِلَةً لِذلكَ، على ما سنَرَى في الفَصلِ اللاحِقِ، كانَ في زَمَنٍ مّا شائعًا [9] كَذلكَ في العالَمِ كلِّهِ. إنَّ الكَلِماتِ لا تَرْمِزُ إلى شَيْءٍ مّا، أو بِتعبيرٍ آخَرَ: لا يَكونُ لَها 'مَعنًى'، إلّا حينَ يَستعمِلُها المفكِّرُ. إنَّها أَدَواتٌ فحَسْبُ. لكِنْ زِيادَةً على هذا الاستِعمالِ الإحاليِّ الَّذي يَنبَغي أن يكونَ لَهُ النَّصيبُ الأعظَمُ في كُلِّ استِعمالٍ تَأمُّليٍّ فِكريٍّ لِلُّغَةِ، لِلكَلِماتِ وَظائفُ أُخرَى يُمكِنُ وَضعُها في مَجموعةٍ واحدَةٍ بِوَصفِها وَظائفَ انفِعاليَّةً. وأفضَلُ اختِبارٍ لِهذه الوَظائفِ يُمكِنُ أن يَحصلَ حينَ

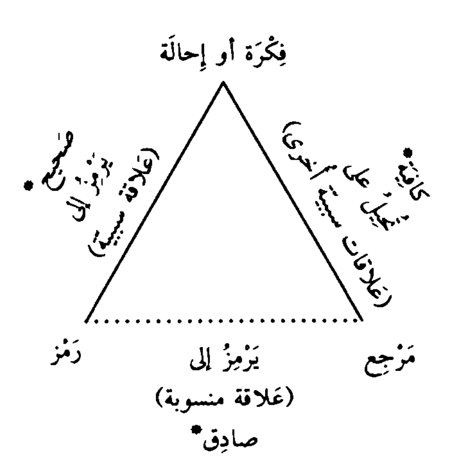
---

(17) إنَّ كَلِمةَ 'شَيْء thing' غيرُ مُلائمةٍ لِلتَّحليلِ الَّذي نحنُ بِصَدَدِهِ هنا؛ لأنَّها مَقصورةٌ في الاستِعمالِ الشّائعِ على الأجسامِ المادِّيَّةِ- وهذه الحقيقةُ أدَّتْ إلى إيثارِ الفَلاسِفة مُصطَلَحاتِ 'كِيَان entity'، أو 'كَيْنُونَة ens'، أو 'مَوضوع object'، لِلتَّعبيرِ عَمّا هو اسمٌ عامٌّ لأيِّ شَيءٍ. على أنَّه بَدَا مِن المستَحسَنِ تقديمُ تَعبيرِ اصطِلاحِيٍّ يَرْمِزُ إلى ما يُمكِنُ أن نُفَكِّرَ فيه أو نُحيلَ عليه. وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ هذا هو الاستِعمالُ الأصليُّ لِلَفْظِ 'مَوضوع object'، إنَّ لَهُ تَأريخًا غيرَ سارٍّ. لِذلك أُقِرَّتْ كَلِمَةُ 'مَرجِع referent' على الرَّغمِ مِن أنَّ صيغَتَها التَّأصيليَّةَ عُرضَةٌ للتَّساؤلِ إذا ما نُظِرَ إليها مُتَعلِّقةً بِمُشتَقّاتٍ تَشارُكِيَّةٍ أُخرَى نَحوِ الفاعِلِ agent أو الكاشِفِ reagent. ولكِنْ حتَّى في اللاتينيَّةِ يُبْدِي اسمُ الفاعلِ أحيانًا (على سَبيلِ المِثالِ *vehens in equo* [ترجمتُها في الإنجليزيَّةِ carrying on a horseback. المُترجِم]) تنوُّعًا في الاستِعمالِ، وقَد يَكونُ في الإنجليزيَّةِ إلحاحٌ على مُشابَهَةِ الأسماءِ، كما في نحوِ: 'كاشِف reagent'، و'امتِداد extent'، و'حادِثَة incident'. وهكذا لا يَنبَغي لِحقيقةِ أنَّ كلمةَ 'مَرجِع referent' تَرْمِزُ فيما سيأتي إلى شَيءٍ مّا لا إلى شَخصٍ فاعِلٍ أن تُسَبِّبَ خَلْطًا.

يُعَيِّنُ إطارُ مُشكِلَتَي التَّقريرِ الصّارِمِ والتَّواصُلِ الفِكرِيِّ. إنَّ أهمِّيَّةَ النَّواحي الانفِعاليَّةِ نَنُغةِ لا تتقلَّصُ بِذلكَ، وكُلُّ مَنْ هُوَ مَعْنِيٌّ أساسًا بِكلامِ العامَّةِ أو البِدائيِّينَ قد يُنحَى بِهِ إلى أن يَعكِسَ نِظامَ المقارَبَةِ هذا. والحقُّ أنَّ الكثيرَ مِن المشكِلاتِ نَاجِمةِ عن سُلوكِ الكَلِماتِ في أثناءِ النِّقاشِ، حتَّى بينَ العُلَماءِ، يُجبِرُنا في مَرحلةٍ مُبَكِّرةٍ على أن نَضَعَ نُصبَ أعيُنِنا هذه التَّأثيراتِ 'غيرَ الرَّمزيَّةِ.' ولكِن مِن أجْلِ تَحليلِ اتِّجاهاتِ 'المعنَى' الذي نَحنُ مَعنِيُّونَ به أصالَةً هُنا يُستَحسَنُ البَدءُ بِعَلاقاتِ الأفكارِ thoughts، والكَلِماتِ words، والأشياءِ things، على ما هي عليه في حالاتِ الكَلامِ التَّأمُّلِيِّ الَّتي لم تُعَقِّدْها الإزعاجاتُ الانفِعاليَّةُ أو ندبلوماسيَّةُ أو غيرُ ذلك. وإنَّ عَدَمَ المباشَرَةِ في العَلاقاتِ بينَ الكَلِماتِ والأشياءِ هو السِّمَةُ التي تَستَحِقُّ الانتِباهَ أوَّلاً فيما يتعلَّقُ بتلكَ العَلاقاتِ.

ويُمكِنُ إيضاحُ هذا بِسُهولةٍ بِمُخَطَّطٍ، تكونُ فيه العَوامِلُ الثَّلاثةُ، الحاضِرَةُ كُلَّما أُنشِئَ كَلامٌ تَقريريٌّ أو فُهِمَ، مَوضوعَةً في زَوَايا مُثَلَّثٍ، والعَلاقاتُ الَّتي تَصِلُ بينَها مُمَثَّلَةً بِأضلاعِهِ. والنُّقطةُ الَّتي كُنّا آنِفًا بِصَدَدِها يُمكِنُ أن يُعادَ صَوغُها بِالقَولِ: إنَّ قاعِدَةَ المثَلَّثِ تَكونُ، في هذه الحالةِ، مُختلِفةً جِدًّا في تَركيبِها عن كُلٍّ مِن الضِّلعَيْنِ الآخَرَيْنِ.

فالعَلاقاتُ بَيْنَ الفِكرةِ thought والرَّمزِ symbol تَكونُ سَبَبِيَّةً. فالرَّمزُ الذي نَستعمِلُهُ حينَ نتكلَّمُ تُسَبِّبُهُ جُزئيًّا الإحالَةُ الَّتي نُنشِئُها، وجُزئيًّا العَوامِلُ الاجتِماعيَّةُ والنَّفسِيَّةُ- الغَرَضُ الَّذي مِن أجْلِهِ نُنشِئُ الرَّمزَ، والأثَرُ المُفتَرَضُ [10] لِرُموزِنا في الآخَرينَ، ومَوقِفُنا نَحنُ. وحينَ نَسمَعُ ما يُقالُ تُسَبِّبُ الرُّموزُ لنا أمرَيْنِ، أحدُهما: أداءُ فِعلٍ إحاليٍّ، والآخَرُ: اتِّخاذُ مَوقِفٍ يَكونُ، استِنادًا إلى الظُّروفِ، مُشابِهًا تَقريبًا لِفِعلِ المتَكَلِّمِ ومَوقِفِهِ.



وثَمَّةَ عَلاقَةٌ أيضًا بَينَ الفِكرةِ thought والمَرجِعِ referent مُباشِرَةٌ تَقْرِيبًا (كما في حالةِ تَفكيرِنا في سَطحٍ مُلَوَّنٍ نَرَاهُ أَو شُهودِنا له)، أَو غيرُ مُباشِرَةٍ (كما في حالةِ 'تَفكيرِنا' بِنابوليون أو 'إحالَتِنا' عليه)، وفي هذه الحالةِ قد تَكونُ هُناكَ سِلسِلَةٌ طَويلَةٌ جِدًّا مِن الأحوالِ العَلامِيَّةِ الَّتي تَتَخَلَّلُ بينَ الفِعلِ ومَرْجِعِهِ، نحوِ: كَلِمةٍ- تَأريخِيٍّ- سِجِلٌ مُعاصِرٍ- شاهِدِ عِيانٍ- مَرجِعٍ (نابوليون).

أمّا بينَ الرَّمزِ symbol والمَرجِعِ referent فلا تُوجَدُ عَلاقَةٌ ذاتُ صِلَةٍ سِوَى العَلاقَةِ غيرِ المباشِرةِ الَّتي تَكمُنُ في أَنَّ شَخصًا مّا يَستَعمِلُهُ لِتَمثيلِ مَرْجِعٍ مّا. أي إنَّ الرَّمزَ والمَرجِعَ غيرُ مُرتَبِطَيْنِ ارتِباطًا مُباشِرًا (وحينَ نَستَعمِلُ ضِمنيًّا هذه العَلاقَةَ لأَسبابٍ نَحوِيَّةٍ لَن تكونَ إلّا عَلاقَةً مَنسُوبَةً[18] [11] في مُقابِلِ العَلاقَةِ الحقيقيَّةِ)، وإنَّما ارتِباطُهما غيرُ مُباشِرٍ حَولَ ضِلعَي المثَلَّثِ[19].

---

* يُنْظَر: الفصل الخامس، ص193-194.

(18) يُنْظَر: الفصل السادس، ص210.

(19) ثَمَّةَ حالةٌ استِثنائيَّةٌ، وذلكَ حينَ يَكادُ الرَّمزُ المستعمَلُ يكونُ مُماثِلاً على نَحوٍ مُباشِرٍ لِلمَرجِعِ الَّذي يُستَعمَلُ مِن أَجْلِهِ، ويُمكِنُ أَن يَحدُثَ ذلكَ، مَثَلاً، حينَ يَكونُ كَلِمَةً دالَّةً =

قد يَبدو غيرَ ضَروريٍّ الإصرارُ على أن لا ارتِباطَ مُباشِرًا بينَ كَلِمَةِ 'كَلْب'، مَثَلاً، وأشياءَ شائعَةٍ مُعَيَّنَةٍ في شَوارِعِنا، وأنَّ الارتِباطَ الوحيدَ الذي يَصِحُّ هو الَّذي يَكمُنُ في استِعمالِنا لِلكَلِمةِ عندَ إحالَتِنا على الحيَوانِ. على أنَّنا سَنجِدُ أنَّ نَمَطَ التَّبسيطِ الَّذي يُمَثِّلُهُ ما كانَ حينًا مِن الدَّهرِ نَظَريَّةً شامِلَةً لِعَلاقاتِ المعنَى المباشِرَةِ بينَ الكَلِماتِ والأَشياءِ هو مَصْدَرُ كلِّ الصُّعوباتِ تَقريبًا الَّتي يُواجِهُها الفِكرُ. إنَّ القُدرةَ على العَرقَلَةِ والتَّعويقِ الَّتي تَنطَوي عليها مِثلُ هذه التَّبسيطاتِ سَبَبُها الأَساسيُّ، على ما سيظهَرُ في مرحلةٍ لاحقةٍ، ظُروفُ التَّواصُلِ؛ فلِكَي تُستَعمَلَ اللغةُ لا بُدَّ مِن أن تكونَ آلَةً جاهِزةً، وقُربُ تَناوُلِ العِبارةِ وسُهولَتُها أَهَمُّ دائمًا مِن دِقَّتِها عندَ تَقديرِ إمكانِ استِعمالِها استِعمالاً واسِعًا.

وهكذا فإنَّ الاختِزالَ المُتَمَثِّلَ في كَلمةِ 'يَعْني means' يُستَعمَلُ دائمًا لِتَضمينِ عَلاقَةٍ مُباشِرةٍ مُبَسَّطَةٍ بينَ الكَلِماتِ والأَشياءِ، والعِباراتِ والأَحوالِ. وإذا ما أُقِرَّتْ مِثلُ هذه العَلاقاتِ فَمِن المؤَكَّدِ أنَّه لن تَكونَ هُناكَ أيَّةُ مُشكِلَةٍ بِشأنِ طبيعةِ [12] المعنَى، وأنَّ الجمهورَ العَريضَ مِن المَعْنِيِّينَ بِها سيَكونُ مُحِقًّا في رَفضِهِ مُناقَشَتَها. غيرَ أنَّ الكَثيرَ مِن التَّطوُّراتِ المُثيرةِ لِلاهتِمامِ قد حَدَثَتْ في العُلومِ مِن خِلالِ نَبذِ

= صَوتِيًّا، أو صُورَةً، أو إيماءَةً، أو رَسْمًا، فحينَئذٍ يَكتَمِلُ المثَلَّثُ؛ إذ يُزَوَّدُ بِقاعدَتِهِ، ويَحصلُ تَبسيطٌ عَظيمٌ لِلمُشكلةِ المَعْنِيَّةِ. مِن أجْلِ ذلك جَرَتْ مُحاوَلاتٌ كَثيرةٌ لتَقليصِ حالِ اللُّغَةِ الاعتِياديَّةِ إلى هذا الشَّكلِ الَّذي قد يكونُ أكثرَ بِدائيَّةً. إنَّ كَونَهُ أكثَرَ اكتِمالاً يُعَلِّلُ، بِلا شَكٍّ، الأَفضَلِيَّةَ الهائلَةَ في الكِفايَةِ لِلُّغاتِ الإيمائيَّةِ في حَقلِها الملائم على اللُّغاتِ الأُخرَى غيرِ المُعَزَّزَةِ بالإيماءِ في حُقولِها. مِن هُنا يَكونُ عِلمُنا بِحادِثٍ مَا بِإعادَةِ تَمثيلِهِ جَيِّدًا أكمَلَ بِكَثيرٍ مِنهُ بِمُجَرَّدِ وَصفِهِ. ولكِنْ في الحالَةِ الاعتِيادِيَّةِ يَنبغي أن نُدرِكَ أنَّ مُثَلَّثَنا مُجَرَّدٌ مِن قاعدتِهِ، وأن لا عَلاقَةَ مُباشِرَةً تَصِحُّ بينَ الرَّمزِ والمرجِعِ، بَل إنَّ مُعظَمَ مُشكِلاتِ اللغةِ يَنشَأُ مِن هذا النَّقصِ. إنَّ اللغاتِ المحاكِيَةَ وغيرَ المحاكِيَةِ مُتَمايِزَةٌ تَمامًا مِن حيثُ المبدأُ؛ فالرَّمزُ إلى شَيءٍ مَا وتَمثيلُهُ عَلاقتانِ مُختَلِفتانِ. على أنَّ مِن المريحِ التَّحدُّثَ أحيانًا كما لَو أنَّ ثَمَّةَ عَلاقَةً مُباشِرَةً تَصِحُّ بينَ الرَّمزِ والمرجِعِ، فَعِندَ ذلك نقولُ، قِياسًا على آلَةِ جَزِّ العُشْبِ، إنَّ رَمزًا مَا يُحيلُ على مَرجِعٍ مَا. وإذا ما اشتُرِطَ عَدَمُ نِسيانِ الطَّبيعةِ المُتَراكِبَةِ لِلعِبارةِ فَلن يَتحتَّمَ أن يَكونَ ثَمَّةَ خَلْطٌ. ويُقَدِّمُ الدُّكتور مالِنوفسكي Malinowski في القِسمِ الخامسِ مِن المُلْحَقِ الأوَّلِ، فما بَعدَهُ، لِهذا الكتابِ تَقريرًا قَيِّمًا عن تَطَوُّرِ الحالَةِ الكَلاميَّةِ في ضَوْءِ المخَطَّطِ المثبَتِ آنِفًا.

التَّرميزاتِ اليَوميَّةِ والسَّعيِ إلى إحلالِ البَياناتِ الدَّقيقةِ مَحَلَّها، إلى الحدِّ الَّذي لم يُمكِن معَهُ أَن تَشيعَ في ذلك الحينِ أَيَّةُ نَظريَّةٍ ساذجةٍ فَحوَاها أَنَّ 'المعنَى' هو 'المعنَى' فَحَسْبُ. والحقائقُ الجديدةُ التي تَكونُ على خِلافٍ هائلٍ معَ التَّفسيراتِ المقبولةِ لِحَقائقَ أُخرَى، عادَةً مَا يُحتاجُ إليها قبلَ القِيامِ بِالتَّحليلاتِ النَّقدِيَّةِ لِما يُعَدُّ، عُمومًا، أفكارًا سَهلَةً مُقْنِعَةً. وهذا ما حَدَثَ في الثَّوراتِ الحديثةِ في الفيزياءِ. ولكِنْ زِيادةً على ذلك كانَت الحاجَةُ إلى مُقاوَمَةٍ عَظيمةٍ لِلتَّسليم بِما هو نَسِيجُ وَحْدِهِ، مِمّا لا يُمكِنُ تَبَيُّنُ ضَرُورَتِهِ[20]، قائمَةً قبلَ أن تُصبحَ فِكرةُ التَّزامُنِ simultaneity الطَّبيعيَّةُ السَّهلَةُ، مَثلاً، بِوَصفِها عَلاقةً ذاتَ طَرَفَيْنِ، مَوْضِعَ شَكٍّ. على أنَّ النَّظريَّةَ النِّسبِيَّةَ كانَتْ نَتيجَةً لِتساؤُلاتٍ كَهذه. إنَّ الباعِثَيْنِ أنفُسَهُما، أحدُهما الحقائقُ الجديدةُ المتَعارِضَةُ، والآخَرُ كَراهةُ استِعمالِ الأنواعِ الغامضةِ مِن الكِياناتِ في الاحتِيالِ لِلتَّفسيراتِ، أدَّيَا إلى اضطِراباتٍ في عِلمِ النَّفسِ، وإن لَم تَكُنِ البَياناتُ المعَدَّلَةُ المطلوبةُ قَد جُهِّزَتْ بَعدُ. ولَمّا تَحْدُثْ بَعْدُ ثَورةٌ كوبرنيكيَّةٌ، وإنْ كانَتِ الحاجَةُ قائمَةً إلى عَدَدٍ منها إذا ما أُريدَ جَعلُ عِلمِ النَّفسِ على خَطٍّ واحدٍ معَ ما هُوَ صِنْوٌ لَهُ مِن العُلومِ.

على أنَّ مِمّا يَجْدُرُ أن يُلحَظَ أنَّ النَّشاطاتِ الحديثةَ في عِلمِ النَّفسِ عُنِيَت أَساسًا، إن لم نَقُلْ تَمامًا، بِالشُّعورِ والإرادةِ. إنَّ النَّجاحَ العامَّ لِلتَّحليلِ النَّفسيِّ مالَ إلى صَرْفِ الانتِباهِ عن مُشكلةِ التَّفكيرِ القُدْمَى. ومعَ ذلكَ، فَبِقَدْرِ تَعلُّقِ الأَمرِ بما لِلتَّقَدُّمِ هنا مِن نَتائجَ ظاهِرَةٍ في كلِّ العُلومِ الأُخرَى وفي آلِيَّةِ البَحثِ كُلِّها في عِلمِ النَّفسِ نَفْسِهِ، رُبَّما كانَتْ مُشكلةُ المعرِفَةِ أَو 'المعنَى' المركزيَّةُ هذه أَجدَرَ بِإنعامِ النَّظَرِ، وأكثَرَ احتِمالاً لِتأسيسِ تَوَجُّهاتٍ جديدةٍ مِن كُلِّ ما قد يُقتَرَحُ في هذا المجالِ. وهذه القَضيَّةُ، على ما أَشارَ إليه السُّلوكيُّونَ أيضًا بِدِقَّةٍ كَبيرَةٍ، [13] وَثيقَةُ الارتِباطِ بِاستِعمالِ الكَلِماتِ.

غيرَ أنَّ ما تَقتَضيهِ مُقارَبَةُ المعنَى مِن بَحثٍ مُستَقصٍ في اللغةِ أكبَرُ بِكَثيرٍ مِمّا تَقتَضيهِ مُقارَبَةُ مُشكِلاتٍ كَمُشكِلاتِ الفيزياءِ. إنَّ أيَّ تقدُّمٍ عظيمٍ في الفيزياءِ كانَ

(20) تُمَثِّلُ الأَمكِنَةُ والأزمِنَةُ حالاتٍ نموذَجِيَّةً لِلكِياناتِ ذاتِ الأُصولِ اللَّفظِيَّةِ.

على حِسابِ جُزْءٍ مَقبولٍ عُمومًا مِن تَفسيرٍ ميتافيزيقيٍّ حافَظَ على نفسِهِ في اختِزالٍ رَمزيٍّ مُريحٍ يُمارِسُهُ العالَمُ أجمَعُ. لكِنَّ التَّخليطَ والتَّعويقَ النّاشِئَيْنِ مِن تَعبيراتٍ اختِزاليَّةٍ كَهذه ومِن النَّظَريّاتِ السّاذجةِ الَّتي تَحميها وتُبقيها على قَيدِ الحياةِ أعظَمُ في عِلمِ النَّفسِ، ولا سِيَّما في نظريَّةِ المعرِفةِ، مِمّا هُما عليهِ في أيِّ مَجالٍ آخَرَ؛ إذ ما مِن مُشكِلةٍ مُلَوَّثةٍ بِما يُدعَى صُعوباتٍ ميتافيزيقيَّةً كما هي الحالُ هنا- وهي ناشِئةٌ هنا، على ما هو مُعتادٌ، مِن مُقارَبَةٍ لِسُؤالٍ مّا مِن خِلالِ الرُّموزِ مِن غيرِ بَحثٍ مَبدَئيٍّ في وَظائفِها.

علينا الآنَ أن نَنظُرَ بِمَزيدٍ مِن الدِّقَّةِ في ماهيَّةِ الأسبابِ والنَّتائجِ لِلرُّموزِ(21)؛ فَمَهما تَكُنِ المَنافِعُ الَّتي يُقَدِّمُها التَّرميزُ، غيرُ مُهِمَّةِ المحافَظَةِ والاحتِجازِ، فكُلُّ ما لَدَيْنا مِن خِبرةٍ يُظهِرُ أنَّ لَهُ أضرارًا أيضًا. فقد شُخِّصَتْ صُوَرٌ أَشْنَعُ لِلتَّخليطِ اللفظيِّ مِنذُ زَمَنٍ بَعيدٍ، لكِنَّ اهتِمامًا أقَلَّ قَد وُجِّهَ إلى الصُّوَرِ التي هيَ أدَقُّ وأكثَرُ تَكَرُّرًا. وسيُقَدَّمُ عَدَدٌ مِن الأمثِلةِ لِذلك في الفُصولِ اللاحِقَةِ، اختِيرَ مُعظَمُها مِن حُقولِ الفلسفةِ؛ فَفيها تُصبِحُ مِثلُ هذهِ التَّخليطاتِ، بِمرورِ الزَّمَنِ، ظاهِرةً جدًّا. وسنتَتَبَّعُ جُذورَ المشكلةِ وُصولاً إلى خُرافةِ أنَّ الكَلِماتِ، على نَحوٍ مّا، أجزاءٌ مِن الأشياءِ أو تتضَمَّنُ دائمًا الأشياءَ الَّتي تُناظِرُها، مُقَدِّمَيْنِ شَواهِدَ تَأريخيَّةً مِن عِدَّةِ مَصادِرَ لِهذا الاعتِقادِ الذي ما زالَ غَريزيًّا فَعّالاً. [14] أي إنَّ المُغالَطَةَ الأساسيَّةَ مِن بَيْنِ المُغالَطاتِ وأكثَرَها خِصْبًا هيَ أنَّ قاعِدَةَ المثَلَّثِ المثبَتِ آنِفًا مَملوءَةٌ.

إنَّ اكتِمالَ أيَّةِ إحالَةٍ يتفاوَتُ؛ فهو قَريبٌ وواضِحٌ تَقريبًا، وهو 'يُمسِكُ' بِمَوضوعِهِ بِدَرَجةٍ أكثَرَ أو أَقَلَّ. والتَّرميزُ المصاحِبُ له- كالصُّوَرِ المختلفةِ الأنواعِ،

(21) إنَّ تَحديدَ مَدَى ضَرورَةِ الرُّموزِ، بِشَكلٍ أو بِآخَرَ، لِلفِكرِ نَفسِهِ مُشكِلةٌ صَعبةٌ، وهذا مُناقَشٌ في الفَصلِ الثّالث عشَرَ مِن كِتابِ مَعنَى عِلمِ النَّفسِ *The Meaning of Psychology*، وفي الفَصلِ العاشِرِ مِن كِتابِنا هذا كذلكَ. لكِن مِن المؤَكَّدِ أنَّ تَوثيقَ الفِكرِ وتَوصيلَهُ (إذا وَضَعْنا التَّخاطُرَ telepathy جانِبًا) يتطلَّبانِ رُموزًا. ويَبدو أنَّ في إمكانِ الفِكرِ، بِقَدْرِ تَعلُّقِ الأمرِ بِكَوْنِهِ نَشاطًا مُتَعَدِّيًا وليسَ في هيأةِ حِوارٍ داخليٍّ، الاستِغناءَ عن الرُّموزِ، وأنَّ الرُّموزَ لا تَظهَرُ إلّا حينَ تتَّخِذُ الفِكرةُ شَكلَ هذهِ المناجاةِ الذّاتيَّةِ. وفي الحالةِ الاعتياديَّةِ يَكونُ التَّطوُّرُ الفِعْليُّ لِلفِكرِ وَثيقَ الارتِباطِ بِالتَّرميزِ المصاحِبِ له.

والكَلِماتِ، والْجُمَلِ التَّامَّةِ والمجَزَّأَةِ- غَيرُ مُرتَبِطٍ ارتباطًا وَثيقًا مَلحوظًا بِتَفاوُتِ اكتِمالِ الإحالَةِ. لِذلكَ ما دُمْنا غيرَ قادِرِينَ في أيِّ نِقاشٍ على أن نُحَدِّدَ مُباشَرَةً رَأيَ شَخصٍ مّا مِن خِلالِ تَعليقاتِهِ فإنَّ بِنا حاجةً إلى آلِيَّةٍ تُبقي أَطرافَ النِّقاشِ مُتَّصِلَةً وتُزيحُ الأَخطاءَ في الفَهمِ- أَو، بِعِبارَةٍ أُخرَى، إلى نَظَرِيَّةٍ لِلتَّعريفِ. ولا يُمكِنُ أن يُمِدَّنا بِمِثلِ هذهِ الآلِيَّةِ إلّا نَظَرِيَّةٌ لِلمَعرِفَةِ، أو لِلإحالَةِ، تتجنَّبُ، كما لا تفعلُ النَّظَرِيّاتُ الحديثةُ، عَزوَ قُدراتٍ إلى العارِفِ قد يَسُرُّهُ افتِراضُهُ امتِلاكَها، لكِنَّها في غَيْرِ مُتَناوَلِ النَّوعِ الوَحيدِ مِن البَحثِ المتابَعِ بِفائدةٍ حتَّى الآن، وهو النَّوعُ المعروفُ عُمومًا بِالبَحثِ العِلميِّ.

مِن المُعتادِ أنّا كُلَّما سَمِعْنا شيئًا مّا يُقالُ قَفَزْنا تِلقائيًّا إلى استِنتاجٍ فَورِيٍّ، هوَ أَنَّ المتكلِّمَ يُحِيلُ على ما كانَ يَنبَغي أن نُحِيلَ عليه لو كُنّا نَحْنُ أَنفُسُنا مَن يتكلَّمُ بِالكَلِماتِ. في بعضِ الحالاتِ قد يكونُ هذا التَّأويلُ صَحيحًا، ويَثبُتُ أنَّ هذا هو ماكانَ المتكلِّمُ يُحِيلُ عليه. ولكِنَّ الأمرَ لن يكونَ كذلكَ في مُعظَمِ النِّقاشاتِ الَّتي تُعالِجُ ما هو أعظَمُ دِقَّةً مِمّا يُمكِنُ أن يُعالَجَ في لُغةٍ إيمائيَّةٍ. إنَّ افتِراضَ خِلافِ ذلكَ يَعني إهمالَ لُغاتِنا الإيمائيَّةِ الفَرعيَّةِ الَّتي هي، في إطارِ عَوالِمِها المحدودةِ، أكثرُ دِقَّةً بِكثيرٍ مِمّا قد تَوَصَّلَ إليه حتّى الآن أيُّ نِظامٍ لِلرُّموزِ المنطوقةِ أو المكتوبةِ، ما عَدَا الحالَةَ الخاصَّةَ والمميَّزَةَ جِدًّا لِلرُّموزِ الرِّياضِيَّةِ[22]، والعِلميَّةِ، والموسيقيَّةِ. وما دامَت الكَلِماتُ غيرَ قادِرَةٍ على أن تَتحالَفَ مَعَ الإيماءاتِ وعلى أن تُعَزِّزَ أَنفُسَها بِها فهيَ، في الزَّمَنِ الحاضِرِ، وَسيلةُ تَواصُلٍ ناقِصَةٌ جِدًّا. وحتَّى عندَ تَعلُّقِ الأمرِ بِالتَّفكيرِ الشَّخصِيِّ [15] فإنَّ الفِكرَةَ كَثيرًا ما تكونُ مُهَيَّأَةً لِلتَّقَدُّمِ، ولا يَعُوقُها إلّا خِيانَةُ رمزيَّتِها الطَّبيعيَّةِ، ولأغراضِ الحِوارِ يَعرِضُ النِّطاقُ المكتَسَبُ نفسَهُ دائمًا لِكُلِّ مَن يَأتي بِمُحاوَلاتٍ جادَّةٍ لِلمُوازَنَةِ بينَ الآراءِ.

وليسَ في مَنظورِنا هنا الطَّرائقُ المألوفةُ أكثرَ مِن غيرِها الَّتي قَد تُستَعمَلُ الكَلِماتُ بِوَساطَتِها لِلتَّضليلِ. وفي فَصلٍ لاحِقٍ، عندَ المناقَشَةِ الكامِلَةِ لِوَظيفةِ اللغةِ

(22) نِسبَةً إلى عِلمِ الرِّياضيّاتِ mathematical. [المتَرجِم].

بِوَصفِها آلَةً لإنشاءِ الأغراضِ أكثرَ مِنها وَسيلةً لِلرَّمزِ إلى الإحالاتِ، سنَرَى كيفَ يُمكِنُ أن يُعَقِّدَ قَصدُ المتكلِّمِ الحالَةَ. لكِن رُبَّما لا يَكونُ الإنسانُ المُحتَرَمُ مُهَيَّأً لِلمَدَياتِ الَّتي يُمكِنُ أن تُساقَ إليها البَراعَةُ اللفظيَّةُ. وقد استَغَلَّ هذه الإمكاناتِ إلى الدَّرجةِ القُصوَى في كلِّ الأزمانِ مُؤَوِّلو الكِتابِ المقدَّسِ الَّذينَ يَرغبونَ في التَّوفيقِ بين النَّقيضَيْنِ. هُنا، على سبيلِ المِثالِ، عَيِّنَةٌ تَفْسيرِيَّةٌ لِلرّاحِلِ الدُّكتور ليمان أبوت Lyman Abbott[23] القَسِّ، والخَبيرِ في القانونِ الدّولِيِّ، والنّاشِرِ، وقَد أضحَتِ الآنَ بِفَضلِ جُهودِ السَّيِّدِ أُوبتون سِنكلير Upton Sinclair[24] أثَرًا كلاسيكيًّا. هَل تُدِينُ المسيحيَّةُ أساليبَ تَدبيرِ الموارِدِ الماليَّةِ في القَرنِ العِشرينَ؟ لا شَكَّ في وُجودِ بِضعِ كَلِماتٍ صَعبَةِ المِراسِ في الأناجيلِ، لكِنَّ القَليلَ مِن 'التَّأويلِ' هو كلُّ ما يُحتاجُ إليه.

> "لم يَقُلِ المسيحُ: 'لا تَكنِزُوا لَكُم كُنوزًا على الأرضِ'، بل قالَ: 'لا تَكنِزُوا لَكُم كُنوزًا على الأرضِ، حَيْثُ يُفسِدُ السُّوسُ والصَّدَأُ، وحَيْثُ يَنْقُبُ السّارِقُونَ ويَسْرِقُونَ'[25]. ولكِن ما مِن أمريكِيٍّ عاقِلٍ يَفعَلُ ذلك. إنَّ السُّوسَ والصَّدَأَ لا يَعرِضانِ لآبارِ السَّيِّدِ روكفلر Rockefeller[26]

(23) ليمان أبوت (1835-1922م). فيلسوفٌ ولاهُوتيٌّ. ابنُ الكاتبِ والمُؤرِّخِ يعقوب أبوت. أنهى سنةَ 1853 دراسةَ القانونِ في جامعةِ نيويورك، وحصلَ على إجازةٍ في القَضاءِ سنةَ 1856، ثمَّ توجَّهَ إلى دراسةِ اللاهوتِ، فتخرَّجَ سنةَ 1860. من أهمِّ أعمالِهِ: التعليقُ المُوضحُ على العَهدِ الجديدِ، وما النَّصرانيَّةُ؟، وحياةُ المَسيحِ، ومُشكِلاتُ الحياةِ. [المُترجِم]

(24) أوبتون بيل سنكلير الابن (1878-1968م). مؤلِّفٌ أمريكيٌّ، رُشِّحَ مرَّةً واحدةً لمنصبِ حاكمِ كالِفورنيا. كتبَ ما يَقرُبُ مِن ألفِ كتابٍ في مُختلِفِ المجالاتِ. حقَّقَ شعبيَّتَهُ في النِّصفِ الأوَّلِ من القرنِ العشرينَ مِن خلالِ روايتِهِ الكلاسيكيَّةِ التي عنوانُها (الأدغالُ)، والتي تَسبَّبَ كشفُها عن أوضاعٍ في قطاعِ تعبئةِ اللحومِ في غضبٍ في أوساطِ الشعبِ أسهَمَ في إقرارِ قانونِ الأطعمةِ والعقاقيرِ النَّقيَّةِ وقانونِ فَحصِ اللحومِ سنةَ 1906 بعدَها ببضعةِ أشهُرٍ. [المُترجِم]

(25) إنجيل مَتَّى : 6 / 19. [المتَرجِم].

(26) جون دَيفِدسن روكفلر (1839-1937م). يُعرَفُ أيضًا بِجون د. روكفلر الأبِ تمييزًا لهُ =

النِّفطيَّةِ، ولا يَعمدُ السّارِقُونَ كَثيرًا إلى نَقْبِ سِكَّةِ الَحديدِ وسَرِقَتِها. فَما أَداتُهُ المسيحُ إنَّما هو ادِّخارُ الثَّروَةِ".

لِذلكَ كانَ في الإمكانِ الحُكمُ على أيِّ استِثمارٍ وعلى كلِّ كَسْبٍ عالَميٍّ، استِنادًا إلى واحِدٍ مِن قادَةِ كُهّانِ العالَمِ الجديدِ، مِن خِلالِ مَيِّزاتِهِ. وليسَ ثَمَّةَ قانُونٌ قاسٍ ومُتَعَجِّلٌ. وإذا ما تَخَلَّصَ العِلْمُ مِن السُّوسِ والصَّدَإِ فمِنَ المُفتَرَضِ ألّا يَكونَ لَدَى المستَثمِرِ المسيحيِّ مُشكِلَةٌ، ولَكِنْ في غُضونِ ذلك يبدو أنَّ النِّفطَ المعالَجَ بِالكافورِ يُنجِزُ مُعظَمَ المتطلَّباتِ الإجماليَّةِ تَقريبًا؛ فاللُّصوصُ غيرُ مُولَعِينَ [16] بِهِ، وهو لَعنَةٌ على السُّوسِ، وخَطَرُ الصَّدَإِ معَهُ مأمونٌ تمامًا.

ويَتَّصِلُ بِهذا اتِّصالاً وَثيقًا مَظهَرٌ آخَرُ مِن مَظاهِرِ البَراعَةِ اللفظيَّةِ، هو استِعمالُ الرُّموزِ المتعَمَّدُ في تَضليلِ المُستَمِعِ. وثَمَّةَ أعذارٌ مَعروفةٌ لِهذه الممارَسَةِ في حالةِ المجنونِ الَّذي نَرغَبُ في أن نُخفِيَ عنه مَكانَ مُوسَى الحِلاقَةِ، غيرَ أنَّهُ قَد كانَتْ كذلكَ ثَمَّةَ مُحاوَلاتٌ لِتَسويغٍ أوسَعَ لِلأمرِ. فَنحنُ نَسمَعُ في العَهدِ المسيحيِّ عن "تَزييفاتٍ لِوَثائقَ، واختِلاقاتٍ لأساطيرَ، وتَزويراتٍ لِكلِّ وَصفٍ جَعَلَ الكنيسةَ الكاثوليكيَّةَ مَقَرًّا حقيقيًّا لِلكَذِبِ"(27). وَرُخَصٍ في اللعِبِ بِالكَلِماتِ الَّتي يَأخُذُها المتكلِّمُ على معنًى مُعَيَّنٍ، ويَقصِدُ بِها معنًى آخَرَ لِلمُستَمِعِ(28). والحقُّ أنَّ ألفونسو دي ليغوري Alfonso de Liguori(29)، الَّذي أُنزِلَ مَنازِلَ

= مِن ابنِهِ جون د. روكفلر الابن (1874-1960م). كانَ مِن كِبارِ رِجالِ الأعمالِ والصِّناعيِّينَ في أمريكا، وأدَّى دورًا مِحوريًّا في تأسيسِ صناعةِ النِّفطِ. ويُعَدُّ بِلا جِدالٍ أهمَّ رجُلِ أعمالٍ في تأريخِ صناعةِ النِّفطِ منذُ اطلاقِ هذهِ الصِّناعةِ سنةَ 1859 حتّى يومِنا هذا. [المُترجِم]

(27) Westermarck, *The origin and development of moral ideas*, Vol. II., P. 100.

(28) Alagona, *Compendium Manualis D. Navarri* XII., 88, P. 94.

(29) ألفونسو ماريا دي ليغوري (1696-1787م). أسقفٌ كاثوليكيٌّ إيطاليٌّ، وكاتبٌ روحانيٌّ، وفيلسوفٌ مَدرسيٌّ. مِن أهمِّ أعمالِهِ: الوسيلَةُ العُظمَى لِلصَّلاةِ، ومُمارَسَةُ حُبِّ يَسوع المَسيح. [المُترجِم]

القِدِّيسِينَ في القَرنِ التّاسِعَ عَشَرَ، كانَ قد مَيَّزَ ثلاثةَ أنواعٍ مِن المراوَغاتِ الَّتي يُمكِنُ استِعمالُها في حالِ وُجودِ سَبَبٍ وَجيهٍ[30]، وهو "أيُّ غَرَضٍ صادِقٍ، كَمُحافظتِنا على مَصالِحِنا، دِينِيَّةً كانَتْ أو دُنيَوِيَّةً"[31]. وفي القَرنِ العِشرِينَ زادَ اشتِدادُ النَّزعَةِ الوَطَنِيَّةِ القِتاليَّةِ 'سَبَبًا وَجيهًا' آخَرَ؛ ذلك بِأنَّ القانُونَ العَسكَرِيَّ يتضَمَّنُ كلَّ الإجراءاتِ معَ المُعادِي مِن الدُّوَلِ أو الأفرادِ بِوَصفِها جُزءًا مِن عمليَّةِ المُحافظةِ على المَصالِحِ الدِّينيَّةِ والدُّنيَوِيَّةِ. وفي زَمَنِ الحربِ تَغدو الكَلِماتُ جُزءًا طبيعيًّا مِن آلِيَّةِ الخِداعِ، وقد لَخَّصَ اللورد ولسلي Wolseley[32] أخلاقيّاتِ الحالَةِ على نَحوٍ مُلائمٍ بِقولِهِ: "سنَظَلُّ نُرَدِّدُ إيمانَنا بِأنَّ 'الصِّدقَ خَيرُ سِياسَةٍ'، وبِأنَّ الغَلَبَةَ تَكونُ دَوْمًا لِلصِّدْقِ على المدَى البَعيدِ. فَلِهذه الجمَلِ الجميلةِ فِعْلُها الحَسَنُ في دَفتَرِ الطِّفلِ، لكِنَّ الرَّجُلَ الَّذي يَتَصَرَّفُ بِمُوجِبِها في الحربِ يَحسُنُ بِهِ أن يُغمِدَ سَيفَهُ إلى الأبَدِ"[33]. [17]

وكانَ الإغريقُ، على ما سنَرَى، غيرَ بَعيدِينَ، بِطَرائقَ شَتَّى، عن مَوقِفِ الرَّجُلِ البِدائيِّ مِن الكَلِماتِ. وليسَ بِمُستَغْرَبٍ أن نقرَأَ أنَّ الآلِيّاتِ اللفظيَّةَ لِلسِّلْمِ بعدَ الحربِ البيلوبونيزيَّةِ Peloponnesian war[34] أصبَحَتْ عاطِلَةً تَمامًا، ولم تُمكِنْ إعادَتُها لِلاستِعمالِ على ما يقولُ ثيوسيديديس Thucydides[35]؛ إذ إنَّ

---

(30) Alfonso de Liguori, *Theologia Moralis*, III., 151, Vol. I., P. 249.

(31) Meyrick, *Moral and devotional theology of the church of Rome*, V. I. P. 3. Cf. further Westermarck, loc. Cit.

(32) الفيلد مارشال غارنت جوزيف ولسلي (1833-1913م). ضابطٌ أنغلو-إيرلنديٌّ في الجيشِ البريطانيِّ. خدَمَ في بورما وحربِ القرمِ والصِّينِ وكندا، وشارَكَ في قَمعِ ثورةِ الهندِ سنةَ 1875، وفي حملاتٍ بريطانيَّةٍ متعدِّدةٍ في إفريقية. تولّى منصبَ القائدِ العامِّ للقوّاتِ البريطانيَّةِ بينَ سنتَيْ 1895 و1900. [المُترجِم]

(33) *Soldier's pocket book for field service*, P. 69.

(34) الحربُ البيلوبونيزيَّةُ: اندلَعَتْ بينَ سنتَيْ 431 و403 ق.م بسببِ التوسُّعاتِ الاستعماريَّةِ والتِّجاريَّةِ لأثينا على حِسابِ كورنث حليفةِ إسبارطةَ. وما كَتَبَهُ ثيوسيديديس هوَ أكبرُ مرجعٍ يُعتَمَدُ عليهِ لهذهِ الحربِ. [المُترجِم]

(35) ثيوسيديديس (460-395 ق.م). مؤرِّخٌ إغريقيٌّ مشهورٌ، صاحِبُ كتابِ (تاريخ =

"مَعانيَ الكَلِماتِ لم تَعُدْ لَها العَلاقَةُ نَفسُها بالأشياءِ، وإنَّما بَدَّلَها النّاسُ على النَّحوِ الَّذي رَأَوْهُ مُلائِمًا". فَلَم يَكُن لِلإغريقِ قِبَلٌ بِمُواجَهَةِ مِثلِ هذهِ الحالَةِ. ويَبدو أنَّنا، بِما أُوتِينا مِن حِكمَةٍ، قَد أوجَدْنا أعْرافاً تَجعلُنا بَعدُ أكثرَ عَجْزًا[36].

وبِمِقياسٍ أقَلَّ ضَخامَةً يُمكِنُ أن تُدرَسَ آلِيَّةُ التَّضليلِ المتَعَمَّدِ دِراسةً تَنظُرُ في مَقاييسِ التَّصحيحِ. ومِن خِلالِ إيضاحِ مَرامي كِتابِ نيومان Newman[37] الَّذي عُنوانُهُ **قَواعِدُ التَّصديقِ** Grammar of assent[38] كانَ لِلدُّكتورِ أبوت E. A. Abbott[39] فُرصَةٌ لِيَصِفَ عَمَليَّةَ 'التَّزييتِ'، أي فَنَّ تَزييتِ النُّزولِ مِن المقَدِّماتِ

= الحربِ البيلوبونيزيَّة)، ويُعَدُّ أوَّلَ المُؤرِّخينَ الإغريقِ الذينَ أولَوا العواملَ الاقتصاديَّةَ والاجتماعيَّةَ أهمِّيَّةً خاصَّةً. وقعَ عليهِ عِبْءُ الكتابةِ عن حقبةٍ شاذَّةٍ من حياةِ الحضارةِ التي ترعرعَ في ربوعِها. وكانَ أوَّلَ مَن وَصَفَ المناعةَ؛ إذ أُصيبَتْ أثينا بالطّاعونِ ولَحِظَ الذينَ أُصيبوا بِهِ وشُفُوا منهُ أنَّ المرضَ لم يَعُدْ إليهم. [المُترجِم]

(36) عَبَّرَ عن هذا جَيِّدًا الرّاحِلُ مونتاغ C. E. Montague بقولِهِ (*Disenchantment*, P. 101): "إنَّ الشَّيءَ الجديدَ الوَحيدَ بِشَأنِ الخِداعِ في الحربِ هو ما لَدَى الإنسانِ المعاصِرِ مِن وَسيلَةٍ أكْمَلَ لِمُمارستِهِ. فقد أصبَحَ الشَّيءُ في يَدِهِ بُوقًا أكثرَ فاعليَّةً مِن بُوقِ جيديون Gideon . . . وفي مُتَناوَلِهِ ما أرادَ لَهُ أن يَكونَ نِدًّا لِمَدفَعِ لويس Lewis الَّذي يُطلِقُ بهِ الآنَ حمَمَهُ الصَّلدةَ، وهيَ الصَّحافةُ يُطلِقُ بها على رأسِ العَدُوِّ ما لا يُلمَسُ أو يُحَسُّ بِه". لكِنْ، هَل كانَ هذا استِعمالاً مُؤَقَّتًا لآليَّةِ التَّضليلِ المعاصِرَةِ، وبِعَودَةِ السِّلْمِ فُقِدَتْ هذه العادَةُ؟ يُجيبُ السَّيِّدُ مونتاغ بِأنَّ الأمرَ ليسَ كذلكَ؛ إذ "إنَّ أيَّ سِلاحٍ تَستَعمِلُهُ في حَربٍ مّا يُخَلِّفُ فاتُورَةً لِتُسَدَّدَ في السِّلْمِ، وسِلاحُ الدِّعايَةِ له تَكلِفَتُهُ كأيِّ سِلاحٍ آخَرَ". إنَّ عَودَةَ مُستَغِلِّي الماكِنَةِ اللفظيَّةِ إلى مَناصِبِهِم المدَنِيَّةِ لَهِيَ عَودَةُ انتِصارٍ، وسَتُلمَسُ نتائجُها عِدَّةَ سَنَواتٍ في جَميعِ الدُّوَلِ الَّتي تَبقَى فيها سُلطَةُ الكَلِمةِ وَسطَ الجماهيرِ هي العُلْيا.

(37) جون هنري نيومان (1801-1890م). شخصيَّةٌ مهمَّةٌ في التّاريخِ الدِّينيِّ لإنجلترا في القرنِ التّاسعَ عشَرَ. عُرِفَ على الصَّعيدِ الوطنيِّ بِحلولِ منتصفِ ثلاثينيّاتِ القَرنِ التّاسعَ عشَرَ. ولمّا كانَ في الأصلِ أكاديميًّا إنجيليًّا في أوكسفورد، وكاهِنًا في كنيسةِ إنجلترا، كانَ رائدًا للتقدُّمِ في حركةِ أوكسفورد. مِن مؤلَّفاتِهِ: مَقالاتٌ في المُعجِزات، والرِّبحُ والخَسارَة، ومَقالَةٌ في تأييدِ قَواعِدِ التَّصديق، وتطوُّرُ الغَلَطِ الدِّينيّ. [المُترجِم]

(38) الاسمُ الكامِلُ لِلكتابِ هوَ (مَقالَةٌ في تأييدِ قَواعِدِ التَّصديق An Essay in Aid of a Grammar of Assent). [المُترجِم]

(39) إدوِن أبوت أبوت (1838-1926م). ناظرُ مدرسةٍ ولاهُوتيٌّ إنجليزيٌّ، وهو الابنُ =

المنطقيَّةِ إلى الاستِنتاجِ، الَّذي يَستَعمِلُهُ بِطريقةٍ مُلائمةٍ جِدًّا سَمِيُّهُ المشارُ إليه آنِفًا[40]. فَمِن أجلِ تَزييتٍ جَيِّدٍ لا بُدَّ مِن تَوافُرِ شُروطٍ مُختَلِفَةٍ:

"أوَّلُها: تَمييزٌ جَيِّدٌ لِلكَلِماتِ يُمَكِّنُكَ مِن تَشكيلٍ سَهلٍ وطَبيعيٍّ لِعَدَدٍ كَبيرٍ مِن القَضايا propositions المتَدَرِّجَةِ جَيِّدًا، التي تَتَحوَّلُ تَدريجيًّا، إن جازَ التَّعبيرُ، مِن الجزمِ بِأنَّ 'X هو أبيضُ' إلى الجزمِ بِأنَّ 'X هو أسوَدُ.' وثانيها: ازدِراءٌ داخِليٌّ ومُطلَقٌ لِلمَنطِقِ ولِلكَلِماتِ... فَهَل الكَلِماتُ سِوَى لُعَبٍ وحَلْوَياتٍ لِلصِّغارِ البالِغِينَ الَّذينَ يُسَمُّونَ أنفُسَهم رِجالاً؟"[41].

ولكِنْ حَتَّى حَيْثُ تَكونُ الْمَراجِعُ الحقيقيَّةُ غيرَ مَشكوكٍ فيها قَد يَصْعُبُ إدراكُ الْمَدَى الَّذي تَنتشِرُ فيه [18] عادَةُ استِعمالِ سُلطَةِ الكَلِماتِ غيرَ مُقتصِرَةٍ على التَّواصُلاتِ الصّادِقةِ وإنَّما بِوَصفِها أُسلوبَ تَضليلٍ. وفي عالَمٍ كَعالَمِ اليَومِ يُحتَمَلُ أن يُضَلِّلَ المُؤَوِّلُ السّاذجُ تَضليلاً خَطيرًا في مُناسَباتٍ كَثيرَةٍ إن أُغْفِلَ وُجودُ هذه الميزَةِ غيرِ السّارَّةِ التي تَسُودُ الطَّبَقاتِ والجماهيرَ على حَدٍّ سَواءٍ مِن غيرِ تَمييزٍ لِعِرْقٍ، أو عَقيدَةٍ، أوجِنسٍ، أو لَوْنٍ.

على أنَّنا في كُلِّ كِتابِنا هذا إنَّما نُعالِجُ التَّواصُلَ الصّادِقَ فحَسْبُ، ما عَدا القَدْرَ الذي رَأيْنا مِن الضَّروريِّ مَعَهُ أن نُناقِشَ في الفَصلِ التّاسِعِ الاستِعمالَ الفَرْعِيَّ لِلمَعنَى الَّذي يُسَبِّبُهُ التَّضليلُ. أمّا ما يتَعلَّقُ بِغَيْرِ ذلك فإنَّ الخِداعَ اللفظيَّ الَّذي يَعنِينا يَقتَصِرُ على ما يَدخُلُ في استِعمالِ الرُّموزِ على هذا النَّحوِ. وإذا ما واصَلْنا فَحصَ ظُروفِ التَّواصُلِ فسَنَرى سَبَبَ كَونِ أيَّةِ عُدَّةٍ رَمزيَّةٍ عامَّةِ الاستِعمالِ عُرضَةً لِلنَّقصِ والخلَلِ.

= الأكبرُ لإدوِن أبوت. درسَ وتعلَّمَ في كيمبرِج. أشهَرُ مُؤلَّفاتِهِ: رِوايةُ (الأرض المُسطَّحَة)، وكِتابُ (فيلوميثوس- التِّرياقُ المُضادُّ لِسُرعةِ التَّصديقِ: مُناقَشَةٌ لِمَقالَةِ الكاردِنال نيومان في المُعجِزاتِ الكَنَسِيَّة). [المُترجِم]

(40) أي: الدُّكتور ليمان أبوت Lyman Abbott. [المتَرجِم].

(41) *Philomythus*, P. 214.

لكِنْ إنْ تَكُنْ عُدَّتُنا اللغويَّةُ غَزّارَةً فهي، مَعَ ذلك، لا غِنَى عنها، وكذلك لَن تتحَسَّنَ الأُمورُ، بِالضَّرورةِ، بِوُجودِ عُدَّةٍ أُخرَى كامِلَةٍ ولَو كانَ كَمالُها مُضاعَفًا عَشرَ مَرّاتٍ. وليسَتِ الكَلِماتُ الجديدةُ هي ما يُحتاجُ إليهِ دائمًا، وإنَّما يُحتاجُ إلى وَسيلةٍ لِضَبطِها بِوَصفِها رُموزًا، وَسيلةٍ لِلكَشفِ الفَوْرِيِّ عمّا تُحِيلُ عليه عادَةً في العالَمِ في أيَّةِ مُناسَبَةٍ، وهذا ما يَنبغي أن تُمِدَّنا به نَظريَّةُ تَعريفٍ وافيةٌ.

بَيدَ أنَّ نَظريَّةَ التَّعريفِ يَجِبُ أن تَلِيَ نظريَّةَ العَلاماتِ لا أن تَسبِقَها، وقَليلاً مّا يُدرَكُ كَم هو واسِعٌ المحَلُّ الَّذي تَشغَلُهُ الأحوالُ العَلاميَّةُ في الفِكرِ التَّجريدِيِّ وفي الشُّؤونِ العَمَليَّةِ على حَدٍّ سَواءٍ. لكِن إن أُريدَ لأُطروحَةٍ بِشأنِ الأحوالِ العَلاميَّةِ أن تَكونَ عِلميَّةً فَيَنبَغي أن تَأخُذَ مَلحُوظاتِها مِن أكثرِ الأمثِلةِ مُناسَبَةً، وألّا تَستَمِدَّ مَبادِئَها العامَّةَ مِن حالةٍ استِثنائيَّةٍ. إنَّ الشَّخصَ الَّذي يُؤَوِّلُ العَلامةَ فِعْلاً لا يَقِفُ في المكانِ المناسبِ الذي يُتيحُ لَهُ أن يَلحَظَ ما يَحدُثُ. لِذا يَنبَغي لَنا أن نُنْشِئَ نظريَّتَنا لِلعَلاماتِ استِنادًا إلى ما نَلْحَظُهُ في الآخَرِينَ، وألّا نَقبَلَ الدَّليلَ المُستَقى مِن الاستِبطانِ(42) إلّا حينَ نَعلَمُ كيفَ نُقَوِّمُهُ. إنَّ تَبَنِّيَ الطَّريقةِ الأُخرَى على أساسِ أنَّ كلَّ ما نَعرِفُهُ عن [19] الآخَرِينَ مُستَنبَطٌ مِمّا نَعرِفُهُ عن أَنفُسِنا يُمكِنُ أن يُؤَدِّيَ فقط إلى مَأزِقِ الأناوَحْدِيَّةِ solipsism(43) الَّذي يَنبَغي لِلفِكرِ

(42) الاستِبطانُ: طريقةٌ ذاتيَّةٌ في فَهمِ الأحداثِ أو الظَّواهرِ وتَفسيرِها، كانَت تُمَثِّلُ المَنهجَ السائدَ حتّى مُنتَصَفِ القَرنِ التاسِعَ عشَرَ، إذ كانَ الفَردُ يتأمَّلُ ما يَجري في داخِلِ نَفسِهِ مِن عملِيّاتٍ شُعوريَّةٍ. فهذا المنهجُ يَعتمِدُ على دِراسةِ المَرءِ مَشاعِرَهُ وذاتَهُ وتأمُّلِ ما يَدورُ فيها مِن عمليّاتٍ. [المُترجِم]

(43) الأناوَحْدِيَّة solipsism: كلمةٌ منحوتةٌ مِن كلمتَيْنِ لاتينيَّتَيْنِ، إحداهُما solus ومعناها (مُنفَرِدٌ)، والأُخرَى ipse ومعناها (ذاتٌ). وهي الفكرةُ الفلسفيَّةُ التي فحواها أنَّ عقلَ الفردِ هو الشيءُ الوحيدُ المؤكَّدُ الوُجودِ. وتَذهَبُ الأناوَحدِيَّةُ، بِوَصفِها موقِفًا مَعرِفِيًّا، إلى أنَّ معرفةَ أيِّ شيءٍ خارجَ عقلِ الفردِ غيرُ مؤكَّدَةٍ. فالعالَمُ الخارجيُّ والعقولُ الأُخرى لا تُمكِنُ معرفتُها، وربَّما لا يكونُ لها وجودٌ خارجَ عقلِ الفردِ. وهيَ تذهبُ، بوصفِها موقفًا ميتافيزيقيًّا، إلى أبعدَ من ذلكَ؛ إذ ترى أنَّ العالَمَ والعقولَ الأُخرى لا وجودَ لها. فعلى ذلكَ تكونُ، بِما تدَّعيهِ هي نفسُها، الموقفَ المعرفيَّ الوحيدَ الذي لا يُمكِنُ تَفنيدُهُ ولا إثباتُهُ في الوقتِ نفسِهِ. [المُترجِم]

المعاصِرِ أن يَنكِصَ عنه. والَّذينَ يَتَقَبَّلُونَ مِن غيرِ جِدالٍ فِكرةَ أنَّ ثَمَّةَ أُناسًا مِثلَهم مُؤَوِّلِينَ لِلعَلاماتِ كذلكَ ومُنفَتِحينَ لِلبَحثِ لَن يَجِدوا صُعوبَةً في الإقرارِ بِأنَّ مُراقَبَتَهُم سُلوكَ الآخَرِينَ قد يُهيِّئُ، في الأَقلِّ، إطارًا يُمكِنُ أن يُودَعَ فيه استِبطانُهم الشَّخصيُّ، تلك الحالةُ الخاصَّةُ والمضَلِّلَةُ. وكَوْنُ ما سَبَقَ هو ما تُمارِسُهُ العُلومُ جَميعًا لا يَكادُ يَحتاجُ إلى أن يُلْفَتَ النَّظَرُ إليهِ؛ فحينَ يُبتَلَى أيُّ طَبيبٍ عاقِلٍ بِالمرَضِ لا يَثِقُ بِتَشخيصِهِ الاستِبطانيِّ الشَّخصِيِّ ويَطْلُبُ مَشورَةَ زَميلٍ لَهُ.

والحقُّ أنَّ ثَمَّةَ أَسبابًا وَجيهَةً تُفَسِّرُ لِمَ يَتَوارَى عَنّا جُزئيًّا ما يَحدُثُ في دَواخِلِنا، وأنَّنا، في العُمومِ، حُكّامًا على ما يَفعلُهُ الآخَرونَ خَيْرٌ مِنّا حُكّامًا على ما نَفعلُهُ نَحنُ أنفُسُنا. وقبلَ أن نُنعِمَ النَّظرَ في ما في رُؤُوسِ الآخَرِينَ كانَ الاعتِقادُ السّائدُ هو أنَّ ثَمَّةَ كِيانًا يُدعَى النَّفْسَ يَسكُنُها، تَمامًا كما يَعتقِدُ الأطفالُ عادةً أنَّ في داخِلِ الجمجُمَةِ رَجُلاً صَغيرًا يَنظُرُ عندَ الأعيُنِ، نَوافِذِ الرُّوحِ، ويَسمَعُ عندَ الآذانِ. ويمتلكُ الطِّفلُ الدَّليلَ الاستِبطانيَّ الأقوَى لِذلك الاعتِقادِ الَّذي لَولا الْمَباضِعُ والْمَجاهِرُ لَصَعُبَتْ زَحزَحتُهُ. إنَّ الافتِراضَ الأناوَحْدِيَّ الضِّمنِيَّ الذي مفادُهُ أنَّ هذه المقارَبَةَ على نَحوٍ مّا ضَرورةٌ مَنهجيَّةٌ لَيُجَرِّدُ مُعظَمَ الأبحاثِ الفلسفيَّةِ والسّايكولوجيَّةِ مِن حَقِّها في التَّأويلِ. فلو أنَّا قَصَرْنا موضوعَ البَحثِ على 'الأفكارِ' والكَلِماتِ، أي: على الجانبِ الأيسَرِ مِن مُثَلَّثِنا، وأَغْفَلْنا كلَّ تَمييزٍ صَريحٍ لِلعالَمِ الخارجيِّ، لَقَدَّمْنا، حَتْمًا، تَخليطًا في مَوضوعاتٍ نَحوِ: المعرِفةِ في الإدراكِ الحِسِّيِّ، والتَّحَقُّقِ، والمَعنَى نَفسِهِ[44]. [20]

ولَو أنَّا وَقَفْنا في جِوارِ مُفتَرَقِ طُرُقٍ، وراقَبْنا أَحَدَ الْمُشاةِ وهو يُواجَهُ بِلافِتَةٍ مَكتوبٍ فيها: **إلى غرانتشيستر** *To Granchester* مَوضوعةٍ على عَمودٍ، لَمَيَّزْنا، عادَةً، ثَلاثةَ عَوامِلَ مُهِمَّةً في هذهِ الحالِ. فَلا شَكَّ في أَنَّ ثَمَّةَ (1) عَلامَةً، (2)

(44) تُلحَظُ هذه النَّزعةُ بِخاصَّةٍ في أعمالٍ كرِسالةِ بالدون Baldwin المفَصَّلَةِ في الأفكارِ والأشياءِ، حيثُ يَصعُبُ التَّوفيقُ بينَ جِهازٍ سايكولوجيٍّ لِـ'التَّحكُّماتِ' و'المحتَوَياتِ'، والمطالَبةِ السّابقةِ بِمناقشةِ التَّواصُلِ. إنَّ الانعِطافَ في التَّحليلِ النَّحويِّ الَّذي سبَّبَهُ إغفالُ أرِسطو المُشابِهُ لِلإحالَةِ مُعالَجٌ في التَّذييل A.

تُحِيلُ على مَكانٍ، و(3) يُؤَوِّلُها شَخصٌ مّا. وجَميعُ الأحوالِ الَّتي تُراعَى فيها العَلاماتُ مُشابِهَةٌ لِهذا. إذ يُقالُ عن الطَّبيبِ الَّذي يَلحَظُ أنَّ مَريضَهُ مُصابٌ بِالْحُمَّى وما إلَيها إنَّهُ شَخَّصَ مَرَضَهُ بِأنَّه النَّزلَةُ الوافِدَةُ influenza. وكَلامُنا بِهذه الطَّريقةِ لا يَتَّضِحُ منه أنَّ العَلاماتِ طَرَفٌ في هذا الموضوعِ كذلكَ. بل إنَّنا، حينَ نتحدَّثُ عن الأعراضِ symptoms[45]، كَثيرًا مّا لا نُفَكِّرُ فيها على أنَّها مُرتَبِطةٌ ارتِباطًا وَثيقًا بمجموعاتٍ أُخرَى مِن العَلاماتِ. لكِنْ إذا قُلْنا: إنَّ الطَّبيبَ يُؤَوِّلُ الْحُمَّى، وما إليها، بِأنَّها عَلامَةٌ لِلنَّزلَةِ الوافِدَةِ، فإنَّنا، على أيَّةِ حالٍ، نَضَعُ أنفُسَنا على طريقِ التَّساؤُلِ: أثَمَّةَ ما هو مُشتَرَكٌ بينَ السُّلوكِ الَّذي عامَلَ بِهِ الماشي الشَّيْءَ الذي عندَ مُفترَقِ الطُّرُقِ، والسُّلوكِ الَّذي عامَلَ بِهِ الطَّبيبُ مِحرارَهُ والْمُحَيّا المتَوَرِّدَ؟

فالفَحصُ الدَّقيقُ يَبَيِّنُ أنَّ الكَثيرَ جِدًّا مِن الأحوالِ الَّتي لا نَعُدُّها في العادةِ أحوالاً عَلامِيَّةً إنَّما هي، أساسًا، ذَواتُ طبيعةٍ مُماثِلةٍ لها. فالكيميائيُّ يَغمِسُ وَرَقَةَ عَبّادِ الشَّمسِ في أُنبوبةِ الاختِبارِ ثُمَّ يُؤَوِّلُ عَلامَةَ اللونِ الأحمرِ أو عَلامَةَ اللونِ الأزرقِ بِأنَّها تَعني الحامضيَّةَ أو القاعديَّةَ. ويَلحَظُ نَبيٌّ عِبرانيٌّ غَيمَةً سَوداءَ صَغيرةً، فيُعَلِّقُ بِقَولِهِ: "ستُمطِرُ السَّماءُ". ويُنْعِمُ ليسِنغ Lessing[46] النَّظَرَ في لاكُوون Laocoön[47]، فيَستَنتِجُ أنَّ قَسَماتِ لاكوون الأبِ في حالَةِ استِرخاءٍ. وتَنظُرُ تِلميذةٌ نيوزيلنديَّةٌ في حُروفٍ مُعَيَّنَةٍ في صَفحةٍ في نُسخَتِها مِن الْمُقرَّرِ التَّأريخيِّ لِلمَراحِلِ

---

(45) الأعراضُ هُنا جَمعُ (عَرَض). [المتَرجِم].

(46) غوتولد إفرايم ليسِنغ (1729-1781م). كاتبٌ، وفيلسوفٌ، وكاتبٌ مَسرحيٌّ، وناقِدٌ ألمانيٌّ. أحدُ ممثِّلِي عصرِ التَّنويرِ. أثَّرَتْ مَسرحيّاتُهُ وكتاباتُهُ النظريَّةُ تأثيرًا كبيرًا في تطوُّرِ الأدَبِ الألمانيِّ. مِن آثارِهِ: لاكُوون- مَقالةٌ في حُدودِ الرَّسمِ والشِّعرِ، والمُفكِّرُ الحُرُّ، واليهودُ، وتعليمُ البَشَرِ. [المُترجِم]

(47) لاكُوون: شخصيَّةٌ في الأساطيرِ الإغريقيَّةِ والرّومانيَّةِ. وكانَتْ قِصَّةُ لاكُوون موضوعَ مسرحيَّةٍ سوفوكليس (ضاعَت اللُّعبَةُ الآن)، وذَكَرَها كُتّابٌ إغريقٌ آخَرونَ. وقد قُتِلَ لاكُوون كاهِنُ طروادةَ في القِصَّةِ بعدَ محاولةٍ لِفَضحِ حيلةِ حِصانِ طروادةَ بِضَربِهِ بِالرُّمحِ؛ إذ أرسَلَ بوسيدون الثعابينَ التي عَدَّها الطرواديُّونَ بُرهانًا على أنَّ الحصانَ كانَ كائنًا مقدَّسًا. والوصفُ الأكثرُ شهرةً لهذهِ الأحداثِ هو في (الإنيادَة) لِفيرجيل. لكنَّ هذا بَدَأَ على الأرجَحِ بعدَ أن اكتمَلَ عملُ التمثالِ النحتيِّ الرُّخاميِّ الكلاسيكيِّ الذي يُظهِرُ =

الابتِدائيَّةِ، فتَعلَمُ أنَّ الملِكَةَ آن Anne مَيتَةٌ.

إنَّ مَنهَجَ تَمييزِ السِّمَةِ المشتركَةِ في التَّأويلِ العَلاميِّ(48) لَهُ مَحاذِيرُهُ، غيرَ أنَّهُ

= لاكُوون وأبناءَهُ وهُم يُهاجِمُهُم ثُعبانُ بَحرٍ مُخيفٌ. وفي الوقتِ الذي يَبدو فيهِ الألَمُ واضِحًا على مُحَيّا لاكُوون، أُعيدَ تَقويمُ تَفسيرِ قَسَماتِهِ على مَرِّ الزَّمَنِ وعلى نحوٍ مُتواصِلٍ مِن وِجهاتِ نظرٍ تأريخيَّةٍ مُختلفةٍ. أمّا عَلاقَةُ ليسِنغ بِهذهِ الشخصيَّةِ الأسطوريَّةِ فتتمثَّلُ في كِتابِهِ الأشهَرِ (لاكُوون- مَقالةٌ في حُدودِ الرَّسمِ والشِّعْر) الذي تَجلَّتْ فيهِ أهمِّيَّةُ ليسِنغ بِوصفِهِ ناقِدًا أدبيًّا؛ إذ يَقِفُ في هذا الكتابِ بِالضِّدِّ من الميلِ إلى اتِّخاذِ أَثَرِ هوراس (يَنطَبِقُ على الرَّسمِ ما يَنطَبِقُ على الشِّعرِ) بِوصفِهِ منظورًا لِلأدَبِ. أي إنَّهُ بِعبارةٍ أخرى اعترَضَ على مُحاولَةِ كتابةِ الشِّعرِ باستعمالِ الإجراءاتِ أنفُسِها التي تُتَّبَعُ في الرَّسمِ. فقد تبنَّى بَدلاً من ذلك وِجهةَ النظرِ التي ترى أنَّ لِكلٍّ من الشِّعرِ والرَّسمِ طابعَهُ الخاصَّ؛ فامتِدادُ الشِّعرِ في الزمانِ، وامتدادُ الرَّسمِ في المكانِ. وقد يكونُ مَرَدُّ ذلكَ إلى انعطافِ ليسِنغ من الكلاسيكيَّةِ الفرنسيَّةِ إلى المُحاكاةِ الأرسطيَّةِ. أمّا سببُ إثباتِ ليسِنغ اسمَ لاكُوون في عنوانِ كتابِهِ فقد بيَّنَهُ بِما ذَكَرَهُ من أنَّهُ لَمّا كانَ قد استَشهَدَ بِهِ في غَيرِ مَوضِعٍ من الكِتابِ أَحَبَّ أن يَكونَ لَهُ من العنوانِ نَصيبٌ. [المترجِم].

(48) في جَميعِ هذه الحالاتِ أُوِّلَتْ عَلامةٌ مّا صَوابًا أو خَطأً، أي أنَّ شيئًا مّا لم يُكتَفَ بِتَجرِبَتِهِ أو الاستِمتاعِ به، وإنَّما فُهِمَ بِوصفِهِ مُحِيلاً على شيءٍ آخَرَ. فكُلُّ ما أمكَنَت تَجرِبَتُهُ أمكَنَ فَهمُهُ على هذا النَّحوِ كذلكَ، أي أمكَنَ كذلكَ أن يكونَ عَلامةً. ومِن المهِمِّ أن نتذكَّرَ أنَّ عمليَّةَ التَّأويلِ أو ما يَحدُثُ لِمُؤَوِّلٍ مّا (أو في ذِهنِهِ) مُتَميِّزٌ تَمامًا مِن كُلٍّ مِن العَلامةِ ومِمّا تَرْمِزُ إليهِ العَلامةُ أو تُحِيلُ عليه. فإذا ما تحدَّثْنا، إذَن، عن معنَى عَلامةٍ مّا فيَجِبُ علينا ألّا نَخْلِطَ، على ما يَميلُ إلى فِعلِهِ الفَلاسفةُ وعُلَماءُ النَّفسِ والمناطِقةُ، العَلاقةَ المَنسوبَةَ بينَ عَلامةٍ مّا وما تُحِيلُ عليه، إمّا بالمَرْجِعِ (ما يُحالُ عليه)، وإمّا بعمليَّةِ التَّأويلِ (الـ'ماجَرَياتِ' في ذِهنِ المؤَوِّلِ). وهذا النَّوعُ مِن الخَلْطِ هو الَّذي جَعَلَ العَمَلَ السّابِقَ الكثيرَ في موضوعِ العَلاماتِ ومَعناها غيرَ مُثمِرٍ. وبِاستِعمالِ الفلاسفةِ مُصطَلَحَ 'المعنَى' نفسِهِ بِخاصَّةٍ في كُلٍّ مِن الـ'ماجَرَياتِ' في داخِلِ رُؤوسِهِم (الصُّوَرِ، والتَّصاحُباتِ، وما إليها، الَّتي مَكَّنَتْهم مِن تَأويلِ العَلاماتِ)، والمَراجِعِ (الأشياءِ الَّتي تُحِيلُ عليها العَلاماتُ)، أُجبِرُوا على أن يَضَعُوا غرانتشيستر، والزُّكامَ، والملِكَةَ آن، والكَونَ كلَّهُ حَقًّا، على حَدٍّ سَواءٍ في داخِلِ رُؤوسِهِم- أو، إذا ما أفزَعَهُم مَشهَدُ الاكتِظاظِ الدِّماغيِّ 'في عُقولِهِم' في الأقَلِّ، على النَّحوِ الذي تُصبِحُ بِهِ كلُّ هذه الأغراضِ 'ذِهنيَّةً' على نَحوٍ مُلائمٍ. فلذلكَ يَنبَغي أن نَكونَ على حذَرٍ شَديدٍ عندَ استعمالِ مُصطلَحِ 'المعنَى' ما دامَت تَداعِياتُهُ خَطِرةً.

يَفتَحُ [21] الطَّريقَ لِمُعالَجةٍ جَديدَةٍ لِلكثيرِ مِن الموضوعاتِ المختلفةِ اختِلافًا واسِعًا.

ويُمكِنُ الاستِشهادُ بِالموضوعِ المعالَجِ في الفَصلِ الرّابعِ مِثالاً لمناسَبةٍ تكونُ فيها نظريَّةُ العَلاماتِ ذاتَ نَفْعٍ خاصٍّ. وإذا ما عَلِمْنا أنَّ الأَحوالَ العَلاميَّةَ تَدْخُلُ في كلِّ إدراكٍ حِسّيٍّ، بِوَصفِهِ مُمَيَّزًا مِن مُجَرَّدِ الوَعْيِ، كانَ لَدَينا مَنهَجٌ جَديدٌ لِمُقارَبَةِ المشكِلاتِ الَّتي يَنشَأُ فيها إخفاقٌ لَفظِيٌّ تامٌّ؛ فَفي كُلِّ حِينٍ 'نَتَصَوَّرُ' فيهِ ما نُسَمِّيهِ 'كُرسِيًّا' نَكونُ مُؤَوِّلِينَ لِمَجموعةٍ مُعَيَّنَةٍ مِن المُعْطَياتِ (تَعديلاتِ الأعضاءِ الحِسِّيَّةِ)، ومُعالِجِينَ إيّاها بِوَصفِها عَلاماتٍ لِمَرجِعٍ. وعلى نَحْوٍ مُشابِهٍ يُوجَدُ، حتَّى قبلَ تَأويلِ كَلِمَةٍ مّا، ما يَقْرُبُ مِن التَّأويلِ الآليِّ لِمجموعةٍ مِن الضَّوضاءاتِ أو الحروفِ المُتَتابِعَةِ بِأنَّها كَلِمةٌ. ويُمكِنُنا بِوَساطَةِ آلِيَّةٍ جَديدَةٍ أن نستكشِفَ أيضًا، زِيادةً على العالَمِ الخارجيِّ، الأَحوالَ العَلاميَّةَ اللازِمةَ مِن الأَحداثِ الذِّهنيَّةِ، التي هيَ 'ماجَرَياتُ goings on' التَّأويلِ، أو عَمَليّاتُهُ أنفُسُها. ولَيسَتْ بِنا حاجةٌ إلى الاقتِصارِ على التَّعميماتِ الاعتِباطيَّةِ لِلاستِبطانِ سَيْرًا على دَرْبِ عِلمِ النَّفسِ الكلاسيكيِّ، ولا إلى إنكارِ وُجودِ صُوَرٍ وأَحداثٍ 'ذِهنيَّةٍ' أُخرَى لِعَلاماتِها مُتابَعَةً لِمُتَطرِّفِي السُّلوكيِّينَ(49). إنَّ فَرضيَّةَ اللغةِ المزدَوِجةِ الَّتي اقترحَتْها نظريَّةُ العَلاماتِ وأَيَّدَها التَّحليلُ اللُّغويُّ ستَجعَلُ الدُّكتور واطسن Watson(50) ومُتابِعِيهِ [22] في حِلٍّ مِمّا تَسْتَلْزِمُهُ نَظَرِيَّتُهُم استِلْزامًا ضَروريًّا مِن افتِعالِ فقدانِ الحِسِّ العامِّ anaesthesia. فالصُّوَرُ، وما إليها، كَثيرًا مّا تكونُ عَلاماتٍ نافِعةً جِدًّا لِسلوكِنا

---

(49) كَونُ المشكلةِ العقليَّةِ-الجسَديَّةِ ناشئةً عن ازدواجيَّةٍ في الآلةِ الرَّمزيَّةِ سيُؤَكَّدُ في الصَّفحةِ الحاديةِ والثَّمانينَ مِن الفصلِ الرّابعِ. ويُنظَرُ أيضًا الفَصلُ الثّاني مِن كِتابِ أوغدِن مَعْنَى عِلمِ النَّفسِ *The Meaning of Psychology* (1926)، إذ أُيِّدَتْ وِجهةُ النَّظَرِ هذه معَ الإحالةِ على المراجعِ المعاصرةِ الَّتي تتمسَّكُ بها.

(50) جون برَودس واطسن (1878-1958م). عالِمُ نَفسٍ أمريكيٌّ، يُعَدُّ مؤسِّسَ المدرسةِ النَّفسيَّةِ السُّلوكيَّةِ. أحدَثَ تغييرًا في علمِ النَّفسِ مِن خلالِ مُحاضَرَتِهِ التي حملَتْ عنوانَ (علمُ النَّفسِ كما يراهُ السُّلوكيُّونَ)، والتي ألقاها في جامعةِ كولومبيا سنةَ 1913. [المتَرجِم].

الحاضرِ والمستقبلِ- ولا سيَّما في تَأويلِ الأحلامِ المعاصِر[51]. وسيَكونُ لَدَى النَّظريَّةِ السُّلوكيَّةِ المُحَسَّنَةِ الكثيرُ مِمّا تقولُهُ بِشأنِ المحاوَلاتِ الفَوضَويَّةِ في التَّأويلِ والبِناءِ الرَّمزيَّيْنِ التي يُضْعِفُ بِها المحلِّلُونَ النَّفسيُّونَ الثِّقةَ بِجُهودِهم القَيِّمةِ.

إنَّ المشكِلاتِ الَّتي تَنشأُ مُتَّصلةً بِأيَّةِ 'حالِ عَلاميَّةٍ' ذَوَاتُ شكلٍ عامٍّ واحدٍ. ولا شَكَّ في أنَّ العَلاقاتِ الَّتي بينَ العناصرِ المعْنِيَّةِ مُختلِفةٌ، إلّا أنَّها مِن نَوعٍ واحدٍ. لِذلكَ يُمكِنُ أن يُتَوَقَّعَ مِن تَصنيفٍ شاملٍ لِهذه المشكِلاتِ في مَيْدانٍ واحدٍ كَمَيْدانِ الرُّموزِ أن يُسَلِّطَ الضَّوءَ على مُشكِلاتٍ مُتَشابِهةٍ في صُعُدٍ تَبدو ذاتَ نِظامٍ مُختلِفٍ جِدًّا بادِيَ الرَّأيِ.

وحينَ نَنْظُرُ في الأنواعِ المُختَلِفَةِ مِن الأحوالِ العَلاميَّةِ الممَثَّلَةِ آنِفًا نَجِدُ العَلاماتِ الَّتي يَستعمِلُها النّاسُ في تَواصُلِهم وبِوَصفِها أدَواتِ فِكرٍ تتبوَّأُ مَكانًا مُمَيَّزًا. ومِن المريحِ أن نَجمَعَها تحتَ اسمٍ مُمَيِّزٍ، وأن نَستَعمِلَ لِلكَلِماتِ، وتَنظيماتِ الكَلِماتِ، والصُّوَرِ، والإيماءاتِ، والتَّمثيلاتِ كالرُّسومِ أو أصواتِ المحاكاةِ مُصطَلَحَ الرُّموزِ. إنَّ تأثيرَ الرُّموزِ في حياةِ الإنسانِ وفِكرِهِ في ما لا يُحصَى مِن الطَّرائقِ غيرِ المتوقَّعةِ لَمّا يُدرَكْ تَمامًا، وهذا هو الفَصلُ مِن التَّأريخِ الَّذي نَشرَعُ الآنَ فيه. [23]

(51) مِمّا يَصطَلِحُ عليهِ كِتابُنا الحاضرُ أنَّهُ لا شَكَّ في أنَّ عدَدًا مِن 'رُموزِ' المحَلِّلِ النَّفسيِّ إنَّما هي عَلاماتٌ فَحَسْبُ، ولا تُستَعمَلُ لأغراضِ التَّواصُلِ. ولكِنْ في أَدبيّاتِ التَّحليلِ النَّفسيِّ إلحاحٌ كبيرٌ جِدًّا على الحاجةِ إلى أشكالٍ أوسَعَ لِلتَّأويلِ، ولا سِيَّما ما يتعلَّقُ منها بِالغُلُوِّ الشُّعوريِّ. يُنظَرُ، على سبيلِ المِثالِ، بَحثُ الرّاحِلِ الدُّكتور جيلّيف Jelliffe الموسومُ بِـ"الرَّمزُ مُكَثِّفًا لِلطّاقةِ The Symbol as an Energy Condenser" في (**دَوْرِيَّةِ الأمراضِ العَصَبيَّةِ والعَقليَّةِ** *Journal of Nervous and Mental Diseases*, December 1919)، وإنْ كانَ هذا المَجازُ، شأنُهُ شأنُ عَدَدٍ مِن تعبيراتِ التَّحليلِ النَّفسيِّ، مِمّا يَجِبُ عَدَمُ التَّوسُّعِ فيهِ كَثيرًا لِما قيلَ سابِقًا ولِما سيَأتي بَعدُ. (تُنظَرُ الصَّفَحاتُ 194-195، و313 فَما بَعدَها).

الفَصْلُ الثّاني

سُلْطَةُ الكَلِمات

الكَلِمَةُ، حِينَ نَعْرِفُها، كائنٌ حَيٌّ... الكَلِمَةُ هيَ الكَيْنُونَةُ، والكَيْنُونَةُ هيَ اللهُ
- فِكتور هوغو Victor Hugo.

أيُّها الأثينيُّونَ، أَراكُم على مُختلِفِ أحوالِكُم شَديدِي التَّبجيلِ لِلآلِهَةِ
- بولِس الطَّرسوسيّ Paul of Tarsus.

مَن يُراعِ هذه الأُمورَ على ما ينبغي يَجِدْ في الكلِماتِ سِحرًا مّا أو جاذبيَّةً مّا تَجعَلُها تعمَلُ بِقُوَّةٍ تَفوقُ ما يُمكِنُ تَقديرُهُ في الأحوالِ الطبيعيَّةِ
- ساوث South.

منذُ العصورِ القديمةِ كانَت الرموزُ التي استعمَلَها البشَرُ لِتُعينَهم على التفكيرِ ولِتُسجِّلَ مُنجَزاتِهم مَصدَرًا مُستمرًّا لِلأعاجيبِ والأوهام. فقد أثَّرَتْ خصائصُ الكلِماتِ، بِوَصفِها أدَواتِ ضَبطٍ للأشياءِ، في الجنسِ البشريِّ كلِّهِ حتَّى إنَّه أخذَ يَعزُو إليها في كلِّ عصرٍ قُوًى خفيَّةً. ومِن النَّظرَةِ الأُولَى لَن يُحَسَّ إلّا بِفرقٍ ضئيلٍ بينَ مَوقفِ المِصريِّ القَديمِ مِن ذلكَ ومَوقِفِ الشاعرِ المعاصِر. يقولُ والت وِتْمان Walt Whitman[1]: "كلُّ الكلماتِ رُوحيَّةٌ"، "وليسَ ثَمَّةَ ما هو أشَدُّ رُوحيَّةً من

---

(1) والتر والت وِتْمان (1819-1892م). شاعرٌ أمريكيٌّ عاشَ في بروكلين وتلقّى تعليمَهُ فيها. كانَ يقرأُ كلَّ ما تصلُ إليهِ يداهُ من الإنجيلِ، وأعمالِ هوميروس، وشيكسبير، ودانتي، وأثَّرَتْ هذهِ القراءاتُ في شعرِهِ مِن حيثُ الإيقاعُ والمضمونُ، ولا سيَّما في مراحلِهِ =

الكلماتِ. مِن أينَ جاءَتْ؟ كَم مِن آلافِ السِّنِينَ وعَشَراتِ الآلافِ من السِّنِينَ استغرَقَ انتقالُها إلينا؟". وما لَم نُدرِكْ تَمامًا ما لِلخُرافةِ مِن أثرٍ عميقٍ في ما يتعلَّقُ بالكلماتِ فلن نفهَمَ سببَ رُسوخِ عددٍ من العاداتِ اللغويَّةِ الواسعةِ الانتشارِ، التي ما زالَت تَعودُ على أكثرِ أنماطِ التفكيرِ تَأَنِّيًا بالفسادِ والبُطلانِ.

في الأغلبِ، وفي أمورِ النِّقاشِ الاعتياديِّ، يَعُمُّ أثَرُ ذلك الإرثِ اللغةَ كما يَعُمُّ المجالاتِ الأُخرى. "ولو كانَ في استِطاعتِنا أن نفتَحَ رأسَيْ رَجُلَيْنِ يَنتَمِيانِ إلى جِيلٍ واحدٍ وبَلَدٍ واحدٍ لكنَّهما على طَرَفَيْ نقيضٍ في المستوى الذِّهنيِّ، لِنطَّلِعَ على أفكارِهما، [24] لرُبَّما ألفَيْنا عقلَيْهما مُختلِفَيْنِ كما لو أنَّهما ينتميانِ إلى صِنفَيْنِ مُختلِفَيْنِ... إنَّ الخرافاتِ تَظَلُّ حيَّةً لأنَّها في الوقتِ الذي تَصدِمُ فيه وِجهاتِ نظرِ أفرادِ المجتمعِ المتنَوِّرِينَ تظَلُّ مُتناغِمَةً وأفكارَ الآخَرِينَ ومَشاعِرَهم، أولئكَ الذينَ يَبقَونَ في أعماقِهم بَربَرِيِّينَ أو هَمَجِيِّينَ على الرغمِ مِن أنَّ أفاضِلَهُم يُحاوِلونَ تَلقِينَهُم ما يَجعَلُهُم يَظهَرونَ بِمَظهَرٍ حضاريٍّ"[2].

إنَّ أرقَى الناسِ مُستَوًى تعليميًّا لا يَعُونَ البتَّةَ المدَى الذي تَظَلُّ فيه تلكَ المَوروثاتُ حَيَّةً، وهُم أكثرُ عَمًى بِشأنِ إدراكِ كيفيَّةِ صَوْغِ يَدِ الماضي الخفيَّةِ لِسلوكِهم الشخصيِّ. يَقُولُ الدكتور فرَيْزَر Dr Frazer[3]: "إنَّ الذينَ قادَتْهُم دِراساتُهُم إلى البَحثِ في الموضوعِ هُم وَحدَهُم الذينَ يَعُونَ العُمقَ الذي جَعَلَتْ قُوًى خَفِيَّةٌ الأرضَ تَهْوِي إليهِ مِن تَحتِ أقدامِنا، إنْ جازَ التَّعبيرُ".

= المتأخِّرَةِ. هاجَمَ كلَّ أنواعِ التَّعصُّبِ والفاشيَّةِ والدكتاتوريَّةِ مؤكِّدًا أن لا ازدِهارَ لأُمَّةٍ إلّا بترسيخِ الديمقراطيَّةِ فيها. لُقِّبَ بأبي الشِّعرِ الحُرِّ وعدَّهُ النُّقّادُ فيلسوفًا. من أشهرِ أعمالِهِ: كتاباتُ والت وِتمان الشِّعريَّةُ والنَّثريَّة، والرُّوّاد. [المُترجِم]

(2) J. G. Frazer, *Psyche's Task*, P. 169.

(3) جَيمس جورج فرَيزَر (1854-1941م). أنثروبولوجيٌّ أسكتلنديٌّ كبيرٌ. عُرِفَ بِكتابِهِ المشهورِ والضَّخمِ (الغُصنُ الذَّهبيّ)، وهوَ دراسةٌ في السِّحرِ والدِّينِ أوضحَ فيها أنَّ الكثيرَ من الأساطيرِ والطُّقوسِ الدِّينيَّةِ ترجِعُ أصولُها إلى أيّامِ ظهورِ الزِّراعةِ في عصرِ ما قبلَ التَّاريخِ. مِن كتبِهِ الأخرَى: الطوطميَّة، والزَّواجُ بِغَيرِ ذَوِي القُربَى. [المُترجِم]

ويُقَرِّرُ الأنثروبولوجيُّ أنَّه يُمكِنُ أن يكونَ سَطحُ المجتَمَعِ، شأنُهُ شأنُ سَطحِ البَحرِ، دائمَ الحرَكَةِ، في حين تبقَى أعماقُهُ، شأنُها شأنُ أعماقِ المحيطِ، شِبهَ ساكنةٍ. ولا يُمكِنُنا التَّواصُلُ معَ أفرادِ المجتَمَعِ إلّا بِالغَوصِ كلَّ يَومٍ نحوَ تلك الأعماقِ، كما لا يُمكِنُنا، في الحالةِ المتميِّزةِ لِلُّغةِ فقَط، أن نُشارِكَ أفرادَ مُجتمعِنا الحياةَ إلّا بالتَّخلّي عن الامتيازاتِ التي يُهيِّئُها هذا النِّظامُ العِلميُّ من الرُّموزِ أو ذاكَ، وبِالنَّهلِ مِن المجرَى غيرِ المطَهَّرِ نفسِهِ. ولَئنْ تَفجَّرَتْ مِن فَوقِنا غمائمُ رُكامِ التقاليدِ اللفظيَّةِ علانِيَةً- في السَّعيِ إلى التَّواصُلِ، وفي مُحاوَلَةِ التَّأويلِ- لَيسَ مِنّا إلّا القليلُ حتَّى الآنَ مِمَّن أنشَأَ حَتَّى أوَّليَّاتٍ لِلدِّفاعِ.

فسُلطَةُ الكَلِماتِ هي أكثَرُ القُوَىٰ مُحافَظَةً conservative في حياتِنا. وفي الأمْسِ القريبِ فقط بدأَ دارِسُو الأنثروبولوجيا يُقِرُّونَ بِوجودِ تلكَ الأسلاكِ اللفظيَّةِ الحتميَّةِ التي تُطَوِّقُ الكثيرَ من تفكيرِنا. "إنَّ الخطَّةَ العامَّةَ الموروثَةَ لِلتَّصَوُّرِ التي تُحيطُ بِنا، وتَأتينا طبيعيَّةً وغيرَ قابِلَةٍ لأن يُعتَرَضَ عليها كالهواءِ الطبيعيِّ، هي، مع ذلك، [25] مفروضَةٌ علينا، وتُحَجِّمُ نشاطاتِنا الذِّهنيَّةَ بِطرائقَ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى- ويَزيدُها تَوَطُّدًا وَعَدَمَ قابِلِيَّةٍ لأن تُقاوَمَ أنَّ كونَها متأصِّلَةً في اللغةِ نفسِها التي يَجِبُ أن نستعمِلَها للتَّعبيرِ عن أيسَرِ المعاني يَجعلُها مُتبَنّاةً ومُتَمَثَّلَةً مِن قَبْلِ أن نستطيعَ البَدْءَ بِالتَّفكيرِ لأنفُسِنا مُطلَقًا"[4]. أمّا بِنيَةُ لُغَتِنا فلا نَكادُ نَستَطيعُ مُجَرَّدَ التفكيرِ في الإفلاتِ مِن قَبْضَتِها. وعَلَى الرَّغْمِ مِن مُضِيِّ عَشَراتِ الآلافِ من السِّنينَ على تَخَلُّصِنا مِن أذْنابِنا ما زِلْنا نَتَواصَلُ بِوَسِيلَةٍ مَصُوغَةٍ لِتُلَبِّيَ حاجاتِ ساكِنِ الأشجارِ. وإذا كانَتْ أصواتُ اللغةِ ومَعالِمُها شاهِدةً على بِدائيَّةِ أُصولِها فإنَّ تَداعِياتِ هذهِ الأصواتِ والمَعالِمِ، وعاداتِ التفكيرِ التي نَمَتْ بالاستعمالِ وبالبِناءاتِ التي فرَضَها عليها أبَوا البَشَريَّةِ الأوَّلانِ شاهدَةٌ بالقَدرِ نفسِهِ على استمراريَّةٍ ذاتِ مَغْزًى.

وقَد تَحمِلُنا أوهامُ الرَّجُلِ البِدائيِّ اللغويَّةُ على الابتِسامِ، ولكِنْ هل في وُسعِنا أن نُنكِرَ أنَّه هو مَن أنشأَ الماكِنَةَ اللفظيَّةَ التي تَطيبُ نُفوسُنا تَمامًا

(4) F. M. Conford, *From Religion to Philosophy*, P. 45.

بِاعتِمادِها، والتي ما زالَ ميتافيزيقيُّونا يُؤمِنونَ بِسَبرِ طبيعةِ الوُجودِ بِها، وقد تَكونُ مسؤولَةً عن أوهامٍ أُخرَى رُبَّما لَيْسَتْ أقلَّ جسامةً ولا أيسَرَ استئصالاً؟ وقد يَكفي هُنا أن نتذكَّرَ تفشِّيَ المفرَداتِ المقَدَّسَةِ أو السِّرِّيَّةِ، والكلماتِ الممنوعةِ على اختلافِ أنواعِها. فَما زالَ في وُسعِ جُلِّ البلدانِ الأوروبِّيَّةِ أن تُقَدِّمَ نماذِجَ لِلحِكايَةِ التي ينبغي لاسْمٍ مَّا فيها (كأن يكونَ، مَثَلاً: Tom-Tit-Tot، أو Vargaluska، أو Rumpelstiltskin، أو Finnur، أو Zi) أن يُكتَشَفَ قبلَ أن يُزَوَّجَ أميرٌ مّا، أو يُحبَطَ غُولٌ مّا[5]. فَمِن الواضِحِ، استِنادًا إلى الأساسِ السِّياقيِّ للإحالَةِ، الذي هو مُفْرَزُ التطوُّراتِ المعاصرةِ لِلنَّزْعَةِ التَّرابُطِيَّةِ associationism[6]، بِتشديدِها الهائلِ على الدَّورِ الذي تؤدِّيهِ اللغةُ في الذاكرةِ والخيالِ، أنَّهُ في الزَّمَنِ الذي سَبَقَ التَّمَكُّنَ مِن التَّحليلِ النَّفسيِّ لا بُدَّ مِن أنَّ الدَّليلَ على وُجودِ عالَمٍ خاصٍّ من الكَلِماتِ [26] ذَواتِ السُّلطَةِ، على أسماءٍ تَقومُ مَقَامَ الآلِهَةِ، قَدْ بَدَا دامِغًا.

وفي مِصرَ القَديمةِ اتُّخِذَت التَّدابيرُ لِمَنعِ انقِراضِ الثّامِنِ أو النَّفْسِ الاسْمِيَّةِ Name-soul، ولاستِمرارِ بَقائهِ معَ أسماءِ الآلِهَةِ[7]. وذَكَرَتِ النصوصُ التي عُثِرَ عليها في الهَرَمِ إلهًا يُدعَى كيرن Khern، أي الكَلِمَةَ؛ فقد كانَتْ لِلكَلِمةِ شَخصيَّةٌ كشخصيَّةِ الكائنِ البَشَريِّ. وعُزِيَ خَلقُ العالَمِ إلى تَأويلِ تحوت Thoth[8] لِكلِماتِ

---

(5) J. A. Macculloch, *The Childhood of Fiction*, pp. 26-30.
وهذا هو آخِرُ كتابٍ جَمَعَ تلك الإحالاتِ وعَزاها، كما فَعَلَ السَّيِّدُ كلود Mr Clodd في قِصَّتِهِ Tom-Tit-Tot، إلى المُمارسةِ العامَّةِ لِلسِّحرِ اللفظيِّ.

(6) التَّرابُطيَّةُ: النَّظَرُ إلى التَّعَلُّمِ بِوَصفِهِ ناجِمًا عن الحدوثِ التَّرابُطيِّ لِلمُثيرِ والاستِجابةِ. [المُترجِم]

(7) Budge, *The Book of the Dead*, pp. lxxxvi-xc.

(8) تحوت: إلهُ الحكمةِ عندَ الفراعنةِ، وأحدُ أربابِ ثامون الأشمونين الكونيّ، ويُعَدُّ من أهمِّ الآلهةِ المصريَّةِ القديمةِ، ويُصَوَّرُ بهيأةِ رَجُلٍ برأسِ منجلٍ. نظيرُهُ الأنثويُّ ماعت. كانَ ضريحُهُ الأساسيُّ في أشمون إذ كانَ المعبودَ الأساسيَّ هناكَ. عدَّهُ قُدماءُ المصريِّينَ مَن علَّمَهُم الكتابةَ والحِسابَ. وهو يُصَوَّرُ دائمًا مُمسِكًا بقلَمٍ ولَوحٍ يكتبُ فيهِ. ولهُ دورٌ أساسيٌّ في محكمةِ المَوتَى؛ إذ يُؤتَى بالميتِ بعدَ البعثِ لإجراءِ عمليَّةِ وزنِ قلبِهِ أمامَ ريشةِ الحَقِّ ماعت، فيُسجِّلُ تحوت نتيجةَ الميزانِ؛ فإن كانَ قلبُ الميتِ أثقلَ مِن ريشةِ الحَقِّ– =

تُعبِّرُ عن إرادةٍ إلهيَّةٍ. ولا بُدَّ مِن أنَّ القِسْمَ الأعظمَ مِن الجنسِ البَشَريِّ كانَ قد آمَنَ يومًا مّا بأنَّ الاسْمَ هو ذلك الجزءُ المتَمِّمُ لِلإنسانِ الذي يُناظِرُ النَّفْسَ، أو أنَّهُ ذلكَ الجزءُ المهِمُّ جِدًّا منهُ الذي قَد يَقُومُ مَقامَ الكُلِّ، على حَدِّ ما يُعَبِّرُ بِهِ مُستَخدِمُو عُمّالِ المَصانِعِ عَنهُم بِـ'الأيدِي' العامِلَةِ. ونَقرأُ في **الكتابِ المقدَّسِ**: "وقُتِلَ بِالزَّلزَلَةِ أسماءٌ مِن النّاسِ سبعةُ آلافٍ"[9]، وفَضلاً عن ذلكَ جاءَ في رِسالةٍ إلى كنيسةِ ساردِس Church of Sardis: "ثَمَّةَ قليلٌ مِن الأسماءِ في ساردِس مِمَّن لم تُدَنِّسْ أثوابَها". والوَحشُ القادِمُ مِن البَحرِ على رَأسِهِ "أسماءٌ كُفرِيَّةٌ". وما الكُفرُ نفسُهُ إلّا مِثالٌ لِذلكَ؛ إذ افتُرِضَ أنَّ الإلهَ مُستاءٌ شَخصِيًّا من تدنيسِ اسمِهِ، بل بَلَغَ الأمرُ مَبْلَغَ أنَّ صَبيًّا حُكِمَ عليه بالموتِ حَرْقًا في عَهدِ حُكم هنري الثامنِ Henry VIII بسببِ كَلِماتٍ تافِهةٍ تتعلَّقُ بأسرارٍ دينيَّةٍ صادَفَ أن التَقَطَتْها أُذُناهُ- فرَدَّدَتها، في غفلةٍ، شَفَتاهُ[10].

وفي سِفرِ **القُضَاة** book of *Judges* يَقولُ مَلَكُ الرَّبِّ لِمَنوح Manoah[11]: "لِمَ تَسألُ عن اسْمِي وهو عَجِيبٌ؟"[12] (أو 'لا يُوصَفُ'، على ما جاءَ عندَ البروفيسور مور G. F. Moore[13]). وجَميعُ الشُّعوبِ البِدائيَّةِ، تَقريبًا، يُبْدُونَ كراهيةً عَظيمةً لِذِكرِ أسمائِهم؛ حتَّى إنَّه لَمّا كانَ اسمُ أحدِ زُعَماءِ نيوزيلندا وَيْ Wai، الذي يَعني الماءَ، أصبحَ لِزامًا أن يُختارَ اسمٌ جديدٌ لِلماءِ، ويَجمَعُ كتابُ

= أي كانَ من الخاطِئينَ العاصِينَ- أُلقِيَ بقلبِهِ إلى وحشٍ مفترسٍ مُتَخَيَّلٍ اسمُهُ عمعموت ليلتهِمَهُ، وتكونُ هذهِ هيَ النِّهايةَ الأبديَّةَ للميتِ؛ وإن كانَ القلبُ أخفَّ من ريشةِ الحقِّ (ماعت) فمعنَى ذلكَ أنَّ الميتَ كانَ صالحًا في الدُّنيا، فيدخلُ الجنَّةَ ليعيشَ فيها مع زوجتِهِ وأحبابِهِ بعدَ أن يستقبِلَهُ أوزيريس. [المُترجِم]

(9) سِفْرُ الرُّؤيا 11: 13. [المُترجِم]

(10) Pike, *History of Crime in England*, Vol.II, p.56.

(11) مَنوح: شخصيَّةٌ تَظهَرُ في سِفرِ القُضاةِ من التَّوراةِ. ويَعني اسمُهُ 'الراحَة' أو 'الهادِئ.' [المُترجِم]

(12) سِفرُ القُضاة 13: 18. [المترجِم]

(13) جورج فُوت مور (1851-1931م). باحثٌ مُبَرِّزٌ في الشُّؤونِ الآسيويَّةِ، ومؤرِّخٌ دينيٌّ، وكاتبٌ، ومُدرِّسٌ بارعٌ. وُلِدَ في بنسلفانيا. من أشهرِ أعمالِهِ: أَدَبُ العَهدِ القديم، وَولادَةُ الدِّينِ ونُمُوُّهُ. [المُترجِم]

فرَيْزَر الغُصْنُ الذَّهَبِيُّ Frazer's *Golden Bough* عِدَّةَ أمثلةٍ لِلمَحظوراتِ الكَلميَّةِ word taboos تُظهِرُ عالَمِيَّةَ المَوْقِفِ. وليسَ ذلك مقصورًا على الزُّعَماءِ بَل إنَّ مِن ضَحايا هذا الرُّهابِ النُّطقِيِّ logophobia الآلِهَةَ، فَضلاً عن القسِّ الذي افترِضَ أنَّ الآلِهَةَ [27] تَسْكُنُهُ (وهوَ اعتقادٌ أغرَى الكانتونيِّينَ Cantonese[14] بإطلاقِ مُصطلَحِ 'صَنادِيق الآلِهَة god boxes' على شخصيّاتٍ مُفضَّلَةٍ كَهذه). ونحنُ نعلَمُ كيفَ رَفَضَ هيرودوتس Herodotus[15] (II. 132, 171) أن يَذكُرَ اسمَ أوزيريس Osiris[16]. والاسمُ الحقُّ الأعظَمُ لِلَّهِ Allah اسمٌ خَفِيٌّ[17][18]، والأمرُ نفسُهُ

---

(14) نِسبَةٌ إلى الكانتونيَّةِ التي تُمَثِّلُ أحدَ الفروعِ الرئيسةِ لِلُّغةِ الصينيَّةِ. يُقَدَّرُ عددُ مُتحدِّثِيها بِنحوِ 71 مليونَ نسمةٍ، ولا سيَّما في ماكاو وهونغ كونغ. [المُترجِم]

(15) هيرودوتس: مؤرِّخٌ إغريقيٌّ عاشَ في القرنِ الخامسِ قبلَ الميلادِ (484- نحو 425 ق.م). اشتهرَ بالأوصافِ التي كتبَها لعِدَّةِ أماكنَ زارَها ولأُناسٍ قابَلَهم في رِحلاتِهِ، وبكُتُبِهِ عن السيطرةِ الفارسيَّةِ على اليونانِ. عُرِفَ بأبي التَّاريخِ. معروفٌ بفضلِ كتابِهِ (تأريخ هيرودوتس) الذي يَصِفُ فيه أحوالَ البلادِ والأشخاصِ في ترحالِهِ حولَ البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ. وموضوعُ كتابِهِ الرَّئيسُ هو الحروبُ بينَ الإغريقِ والفُرسِ أو الميديِّينَ. [المُترجِم]

(16) أوزيريس: إلهُ البعثِ والحِسابِ، ورئيسُ محكمةِ المَوتَى عندَ قُدَماءِ المصريِّينَ، ومن آلهةِ التاسوعِ المقدَّسِ الرَّئيسِ في الدِّيانةِ المصريَّةِ القديمةِ. كانَ أخًا لإيزيس ونيفتيس وست، وتزوَّجَ إيزيس، وكانَ أبَواهُما جب إلهَ الأرضِ ونوت إلهةَ السَّماءِ. [المُترجِم]

(17) Sell, *The Faith of Islam*, p. 185.

(18) يُشيرُ المؤلِّفانِ إلى ما ورَدَ عندَ المُسلِمِينَ في كُتُبِ السُّنَّةِ مِن حَديثٍ رَواهُ أبو داوُدَ في سُنَنِهِ: ح1493، 1494، كِتاب الوِتْر، باب (الدُّعاء)، والتِّرمِذِيُّ في جامِعِهِ- واللفظُ لَهُ- : ح3475، كِتاب الدَّعَوات، باب (ما جاءَ في جامِعِ الدَّعَواتِ عن النَّبِيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسَلَّمَ)، وابنُ ماجَةَ في سُنَنِهِ: ح3857، كِتاب الدُّعاء، باب (اسم اللهِ الأعظَم)، عَن عبدِ اللهِ بنِ بُرَيدَةَ الأسلَمِيِّ عن أبيهِ قالَ: سَمِعَ النَّبِيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ رَجُلاً يَدعو وهوَ يَقولُ: اللهُمَّ إنِّي أسأَلُكَ بِأنِّي أشْهَدُ أنَّكَ أنتَ اللهُ لا إلَهَ إلّا أنتَ الأحَدُ الصَّمَدُ الذي لَمْ يَلِدْ ولَمْ يُولَدْ ولَمْ يَكُن لَهُ كُفُوًا أحَدٌ. قالَ: فقالَ: "والذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللهَ بِاسْمِهِ الأعْظَمِ الذي إذا دُعِيَ بِهِ أجابَ وإذا سُئِلَ بِهِ أعْطَى". والذي أراهُ أنَّ ما وَرَدَ بِشأنِ الاسمِ الأعظَمِ لِلَّهِ تعالَى عندَ المُسلِمِينَ يَختَلِفُ تَمامًا عن الحالاتِ الأُخرَى التي سَرَدَها أوغدِن ورِتشاردز؛ ذلكَ بِأنَّ النَّبِيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسَلَّمَ قَد نَصَّ على =

يَصِحُّ في آلِهةِ البَرهَمِيَّةِ[19] Brahmanism[20] والاسْمِ الحقيقيِّ لكونفُوشيوس[21] Confucius[22]. ومن الواضِحِ أنَّ اليهودَ الأورثودوكسيِّينَ Orthodox jews[23] يتجنَّبونَ تمامًا اسمَ يَهوَه[24] Jahweh[25]. ويُمكِنُ أن نُلْحِقَ بذلكَ قولَنا: 'Thank

= أنَّ الاسمَ الأعظَمَ قَد ذُكِرَ ذِكْرًا صَريحًا في دُعاءِ الرَّجُلِ، وهذا يَنفي عنهُ سِمَةَ الخَفاءِ والسِّرِّيَّةِ المُمَيِّزَةَ لِسائرِ ما أورَدَهُ المؤلِّفانِ. ثُمَّ إنَّهُ لا يَنبَني على اختِلافِ المُسلِمينَ في تَعيينِ الاسمِ الأعظَمِ مَوقِفٌ اعتِقاديٌّ مَخصوصٌ يَطبَعُهُم بِطابعٍ دينيٍّ مُعَيَّنٍ أو يُمَيِّزُهُم مِن سائرِ المِلَلِ الأخرَى. وقَد رَجَّحَ جَمْعٌ مِن عُلَماءِ المُسلِمينَ أنَّ الاسمَ الأعظَمَ المُشارَ إليهِ في الحَديثِ هوَ لَفظُ الجَلالَةِ (الله)؛ إذ إنَّهُ الاسمُ الوحيدُ الذي يُوجَدُ في جَميعِ النُّصوصِ التي قالَ فيها النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وآلِهِ وسلَّمَ إنَّ اسمَ اللهِ الأعظَمَ قَد وَرَدَ فيها. [المُترجِم]

(19) البَرهَمِيَّةُ: هيَ النَّواةُ التَّأريخيَّةُ للهندوسيَّةِ الحديثةِ، وإن اختلَفَتْ عنها كثيرًا. تَتَّجِهُ العِبادَةُ فيها إلى عبادَةِ العناصرِ مثلِ النارِ، والأنهارِ، وعبادةِ الآلهةِ البطلةِ كأندرا، وتقديمِ القَرابينِ. [المُترجِم]

(20) Hopkins, *Religions of India*, p. 184.

(21) كونفُوشيوس: أوَّلُ فيلسوفٍ صينيٍّ يُفلِحُ في إقامةِ مَذهَبٍ يتضمَّنُ جميعَ التَّقاليدِ الصينيَّةِ المتعلِّقةِ بالسُّلوكِ الاجتماعيِّ والأخلاقيِّ. تقومُ فلسفتُهُ على القِيَمِ الأخلاقيَّةِ الشَّخصيَّةِ، وعلى أنْ تكونَ ثَمَّةَ حكومةٌ تخدمُ الشَّعبَ تطبيقًا لِمَثَلٍ أخلاقيٍّ سامٍ. لُقِّبَ بِنبيِّ الصِّينِ. [المُترجِم]

(22) Friend, *Folk-Lore Record*, IV., p. 76.

(23) اليهوديَّةُ الأورثودوكسيَّةُ: من أهمِّ طوائفِ اليهوديَّةِ في العصرِ الحديثِ. ولا يجوزُ الخلطُ بينها وبينَ الأورثودوكسيَّةِ المسيحيَّةِ؛ فلفظةُ (الأورثودوكسيَّة) تعني في اليونانيَّةِ الرأيَ القويمَ، وتُستَعمَلُ للدلالةِ على الطوائفِ الدينيَّةِ المتمسِّكةِ بالقوالبِ القديمةِ أو الأصليَّةِ للدِّينِ. [المُتَرْجِم]

(24) يَهوَه: أحدُ أسماءِ اللهِ المذكورةِ في التوراةِ. وعلى الرغمِ مِن ذِكْرِ الاسمِ في التوراةِ العِبريَّةِ يَحْرُمُ على اليهودِ التلفُّظُ بهذه الكلمةِ، إذ تُستَعمَلُ بدلاً منها كلمةُ (أدوناي) أو (هاشِم) في العِبرانيَّةِ الحديثةِ. ويُسمَحُ لرئيسِ الكهنةِ بِنُطقِها عندَ قراءتِهِ التوراةَ في يومِ الغُفرانِ فقط في أثناءِ قُدسِ الأقداسِ. [المُتَرْجِم]

(25) Herzog-Plitt, *Real-Encyclopadie*, VI., p. 501.

فلِذلكَ يُقْرَأُ الاسمُ أدوناي Adonai بَدَلاً مِن الاسم الذي لا يُوصَفُ، والذي يُوَلَّدُ مِنهُ الاسمُ يهوفا Jehovah بإدخالِ أحرُفِ العِلَّةِ للاسمِ أدوناي في الاسمِ يَهوَهtetragrammaton.

'Goodness'[26] و 'Morbleu'[27]– ومُعظَمَ العِباراتِ التَّلطيفيَّةِ euphemisms. ومن المعتادِ عندَ الهندوسِ أنَّه إذا فُقِدَ لهم طِفلٌ سُمِّيَ الطِّفلُ الذي يَليهِ ببعضِ الأسماءِ المُحَقِّرَةِ. فَالذَّكَرُ مِن الأطفالِ يُدعَى كُوريا Kuriya، أو دَنغهِل Dunghill– والرُّوحُ، لا شَكَّ، تعرِفُ الناسَ بأسمائهم وستُهمِلُ التّافِهِينَ. كذلكَ يَعرِفُ اللهُ كلَّ إنسانٍ باسمِهِ– "فقالَ الرَّبُّ لِموسَى: 'لأنَّكَ وجَدتَّ نِعمَةً في عَينَيَّ، وعَرَفْتُكَ باسْمِكَ'"[28]. وكانَ لِكلِّ مِصريٍّ قَديمٍ اسمانِ اثنانِ– أحدُهما للعالَمِ، والآخَرُ تَعرِفُهُ بِهِ القُوَى العُلوِيَّةُ. والاسمُ الثاني لِنَصارَى الحبَشَةِ الذي مُنِحُوا إيّاهُ عندَ التَّعميدِ ما كانَ لِيُفشَى البَتَّةَ. وتَمتَّعَ الإلهُ الحارِسُ في روما بِاسْمٍ لا يُشارِكُهُ فيه أحَدٌ، وفي مواضِعَ من اليونانِ القديمةِ حُفِرَتْ أسماءُ الآلِهةِ على ألواحٍ من الرَّصاصِ ثُمَّ غُطِّسَتْ في البَحرِ لِضَمانِ عدَمِ تدنيسِها.

وكَثيرًا ما يَستَوي الأطفالُ في حِرصِهم على إخفاءِ أسمائهم، ومِثلَما يَتساءَلُ الأطفالُ دَومًا عن اسمِ شيءٍ مّا (ولا يَفعَلُونَ ذلكَ البَتَّةَ إنْ كانَ له اسمٌ) ويَعُدُّونَ الاسمَ كَسْبًا ثَمينًا، نحنُ نَعلَمُ أنَّ النُّجومَ جميعًا لها أسماءٌ. "إنَّه يَعلَمُ عَدَدَ النُّجومِ، ويَدعُو كلَّ واحدٍ منها باسْمِهِ". وهُنا يُمكِنُنا أن نَلحَظَ المثَلَ المُبهِجَ الذي قد يَظهَرُ على صَفحةِ العُنوانِ لِكُلِّ عَمَلٍ يُعالِجُ الرُّموزَ: "إنَّ الإلهَ يُدعَى على هذا النَّحوِ بِحَقٍّ". [28]

وما يُعانِيهِ القَرنُ العِشرُونَ مِن تَخريباتِ تلكَ الخرافاتِ اللفظيَّةِ أكبَرُ، على نَحوٍ مّا، مِمّا عاناهُ أيُّ عَصرٍ سابقٍ. على أنَّهُ بِفِعلِ التطوُّراتِ الحاصلةِ في مَناهِجِ التَّواصُلِ، وخَلقِ عِدَّةِ أنظِمةٍ رَمزيَّةٍ خاصَّةٍ، تغيَّرَ شَكلُ المرَضِ بِوُضوحٍ، وبِصَرْفِ النَّظَرِ عن الثَّباتِ الغريبِ لِلمُنافَحاتِ الدِّينيَّةِ أصبحَ يَتَّخِذُ أشكالاً أكثرَ مَكرًا مِمّا كانَ عليه في الماضي. إنَّ التَّأثيراتِ التي تُحْدِثُ الانتشارَ الواسعَ لهذا المرَضِ هي: التَّعقيدُ المُحيِّرُ في المَنظومةِ الرَّمزيَّةِ التي تحتَ تصرُّفِنا الآنَ؛ وامتلاكُ

(26) وتَعني: شُكرًا لِلَّهِ، لكِن مِن غيرِ تَصريحٍ بِذِكرِ اسمِ اللهِ. [المُتَرْجِم]

(27) وتَعني: ألزَمَهُ اللهُ الخُسرانَ والهلاكَ، لَكِن مِن غيرِ تَصريحٍ بِذِكرِ اسمِ اللهِ. [المُتَرجِم]

(28) سِفرُ الخروج 33: 17. [المترجِم]

الصُّحُفيّينَ والأُدَباءِ مُفرَداتٍ لُغويَّةً شِبْهَ اصطِلاحِيَّةٍ هائلةً معَ عدَمِ توافُرِ الفُرْصَةِ أو الرَّغبةِ لديهم للاستِفسارِ عن استعمالِها اللائقِ؛ ونجاحُ المفَكِّرينَ التحليليّينَ في مجالاتٍ مُتاخِمَةٍ للرّياضيّاتِ حيثُ يكونُ الطَّلاقُ بينَ الرَّمزِ والواقِعِ صَريحًا جِدًّا والمَيلُ إلى إضفاءِ الصِّفَةِ المادِّيَّةِ مُغريًا جدًّا؛ والتَّوَسُّعُ في مَعرِفةِ أشكالٍ أكثرَ بَساطةً لِلمُواضَعَةِ الرمزيَّةِ (الرّاءات الثلاث the three R's[29])، وارتِباطُ ذلكَ باتِّساعِ الفَجوةِ بينَ العامَّةِ والتَّفكيرِ العِلميِّ للعصرِ؛ وأخيرًا استغلالُ آلاتِ الطِّباعةِ وذلكَ بِنَشرِ القوالبِ اللفظيَّةِ الثابتةِ *clichés* وتكرارِها لأغراضٍ سياسيَّةٍ وتِجاريَّةٍ.

إنَّ الحُضورَ المُلِحَّ لِوِجهةِ النظرِ اللُّغويَّةِ البِدائيَّةِ في أعمالِ أكثرِ المفَكِّرينَ عُمقًا فضلاً عن عُمومِ العالَمِ الدِّينيِّ هو، حقًّا، واحدَةٌ من أكثرِ السِّماتِ لَفتًا للنظَرِ في الفِكرِ المُعاصِرِ. فَقَد سيطَرَ على فلسفةِ القَرنِ التاسِعَ عَشَرَ تقليدٌ مِثاليٌّ استُبْدِلَ فيهِ التَّوَسُّعُ في المنظومةِ الرَّمزيَّةِ الهائلةِ (يُقَدِّمُ الدِّيالكتيك الهيغليُّ[30] Hegelian Dialectic[31] مِثالاً لافتًا للنظَرِ بِهذا الشَّأنِ) بِالبَحثِ المُباشِرِ، وكانَ

(29) تُشيرُ إلى برنامَجِ التَّعليمِ المُوَجَّهِ لِلمَهاراتِ الأساسيَّةِ في المدارسِ، الذي يَشمَلُ: القراءةَ reading/ ، والكِتابةَ w/riting، والحِسابَ a/rithmetic. [المترجِم]

(30) كلمةُ (ديالكتيك) التي تُترجَمُ إلى العربيَّةِ بِـ(جدليَّة) مُشتقَّةٌ من الفعلِ اليونانيِّ dialegein الذي يَعني تَحديدًا الكلامَ 'عبرَ' المجالِ الفاصلِ بينَ المُتحاورين بِوصفِهِ طريقةَ استِقصاءٍ وضعَها زينون الإيليُّ، قبلَ أن تستكمِلَ شكلَها على يدِ أفلاطون الذي تعني الكلمةُ عندَهُ أيضًا التقسيمَ المنطقيَّ الذي يُوصِلُ المرءَ عبرَ المقارَبَةِ إلى اكتشافِ المعاني الأساسيَّةِ المُجرَّدَةِ (أو المُثُل). وعادَت الجدَليَّةُ في القرنِ التاسعَ عشَرَ لِتكتسِبَ على يدِ الفيلسوفِ الألمانيِّ هيغِل (1770-1831م) معنًى فلسفيًّا جديدًا وعميقًا ما زالَ سائدًا حتّى الساعةِ؛ ذلكَ بأنَّ مؤسِّسَ المثاليَّةِ المطلَقَةِ جعلَ منها قانونًا يحدِّدُ مسيرةَ الفِكرِ والواقِعِ عبرَ تفاعُلاتِ النفيِ المتتالي لِلأطروحةِ these، والنقيضَةِ antithese، وحَلِّ إشكاليّاتِ المتناقِضاتِ القائمةِ من خِلالِ الارتقاءِ إلى التركيبِ synthese، الذي سرعانَ ما يُتَجاوَزُ هوَ أيضًا، من المنطَلَقِ نفسِهِ. وهكذا يتحوَّلُ 'الفِعلُ السَّلبيُّ' لِيُصبحَ جُزءًا من الصيرورةِ، وهذا ما يجعلُهُ عندَ هيغِل مُحرِّكًا لِلتأريخِ والطبيعةِ والفلسفةِ. [المُترجِم]

(31) يُوازِنُ يويت Jowett بينَ ديالكتيكي هيغل وأفلاطون بِقولِهِ: "رُبَّما ليسَ ثَمَّةَ عَيبٌ في منظومةِ هيغل أكبرُ من افتقارِها إلى نظريَّةٍ لُغويَّةٍ سَليمةٍ". - *The Dialogues of Plato,* Vol. IV., p.420.

بُؤرَةَ الاهتِمامِ. واستَهَلَّ القَرنُ العِشرونَ بتحليلٍ دقيقٍ لأسرارِ الرِّياضيّاتِ استِنادًا إلى 'أفلاطونيَّةٍ' [29] أكثرَ صَراحَةً مِن أفلاطونيَّةِ واقِعيِّينَ نَقْدِيِّينَ Critical Realists[32] مُعَيَّنِينَ في عامِ 1921م[33]. وبذلك أصبَحْنا نَقرأُ الآتِيَ:

"أنا أُطلِقُ اسمَ الحَدّ term على كلِّ ما يُمكِنُ أن يكونَ مَوضوعًا لِلفِكرِ، أو ما يُمكِنُ أن يُوجَدَ في أيَّةِ قَضِيَّةٍ صادِقةٍ أو كاذِبَةٍ، أو ما يُمكِنُ أن يُعَدَّ كَذلكَ... فكُلٌّ مِن الإنسانِ، واللحظةِ، والرَّقمِ، والطَّبَقَةِ، والعَلاقةِ، والكائنِ الخُرافِيِّ، وأيُّ شيءٍ آخَرَ يُمكِنُ ذِكرُهُ، لا شَكَّ في أنَّه حَدٌّ، وإنكارُ أن يكونَ هذا الشيءُ أو ذاكَ حَدًّا لا بُدَّ أن يكونَ كاذِبًا... فلِلحَدِّ جَميعُ الخصائصِ التي تُعزَى عادةً إلى الموادِّ والأسماءِ... وكلُّ حَدٍّ غيرُ قابلٍ للتغييرِ ولا للتَّحطيمِ. الحَدُّ هو الحَدُّ، ولا يُمكِنُ تخيُّلُ تغيُّرٍ مّا فيه لا يُحطِّمُ هُوِيَّتَهُ ولا يُحيلُهُ حَدًّا آخَرَ... ويُمكِنُ تمييزُ نَوعَينِ من الحُدودِ هما على التوالي: الأشياءُ، والمَفاهيمُ"[34].

وبِمساعدةِ ذلك السَّيفِ اللفظيِّ الغَريبِ ادُّعِيَتْ عِدَّةُ فَرْقَعاتٍ ملموسةٍ. وهكذا فإنَّ نظريَّةَ "الصِّفاتِ أو النُّعوتِ أو الأشياءِ المثاليَّةِ التي هي على نحوٍ مّا أقلُّ مادِّيَّةً وأقلُّ بَقاءً ذاتيًّا وأقلُّ مُطابَقَةً ذاتيَّةً، مِن الأسماءِ الحقيقيَّةِ، تَغدو مُخطِئةً تَمامًا"[35]؛ واستُبعِدَتْ منظوماتٌ فلسفيَّةٌ بِتَمامِها؛ ذلك بأنَّ "السَّماحَ (المتَضَمَّنَ

---

(32) الواقعيَّةُ النَّقدِيَّةُ هي النظريَّةُ التي تَذهبُ إلى أنَّ بعضَ مُعطَياتِنا الحِسِّيَّةِ (كالمتعلِّقِ منها بالصِّفاتِ الأوَّلِيَّةِ على سبيلِ المِثالِ) يُمكِنُها أن تُمَثِّلَ، بل إنَّها تُمَثِّلُ بِدِقَّةٍ ما في الخارجِ مِن أشياءَ، وخَواصَّ، وأحداثٍ، في حينِ أنَّ بَعضًا آخَرَ مِن مُعطَياتِنا الحِسِّيَّةِ (كالمتعلِّقِ منها بالصِّفاتِ الثانويَّةِ والأوهامِ التَّصوُّريَّةِ) لا تُمثِّلُ بِدِقَّةٍ أيَّةَ أشياءَ، ولا خَواصَّ، ولا أحداثٍ. وبِعبارةٍ بَسيطةٍ يُمكِنُ أن نقولَ إنَّ الواقعيَّةَ النَّقديَّةَ تُسلِّطُ الضَّوءَ على الجانبِ التّابعِ لِلعَقلِ من العالَمِ، الذي يُفضي إلى فَهمِ العالَمِ المُستقِلِّ عن العَقلِ. [المُترجِم]

(33) يُنظَر: الفصل الثامن، الصفحة (164) فما بَعدَها.

(34) B. Russell, *The Principles of Mathematics* (1903), Vol. I., pp. 43- 44.

(35) *Ibid.*, P. 46.

في ذِكرِ *mention* الإنسانِ أو الكائنِ الخُرافيّ) بِعِدَّةِ حُدودٍ terms يُحَطِّمُ الواحِديّةَ"[36]؛ وشُيِّدَتْ مُجَدَّدًا أفلاطونيّةٌ مُعاصِرَةٌ أُعيدَ بِوساطتِها تأهيلُ عالَمٍ يَقينِيٍّ مِن 'الأشياءِ 'things' المذكورةِ 'mentioned' بِوساطةِ 'حُدودٍ 'terms'، عالَمِ الكُلّيّاتِ. هُنا يَبني العقلُ مَسكَنًا، "أو الأوْلَى أن يُقالَ إنَّهُ يَجِدُ مَسكَنًا سَرمَديَّ البَقاءِ، تُشْبَعُ فيهِ كلُّ مُثُلِنا، ولا تُحبَطُ أفضَلُ أمانِيِّنا. ولَن نستطيعَ إدراكَ الأهمّيّةِ العميقةِ لِجَمالِهِ إدراكًا كافيًا ما لَم نَفهَمْ فَهْمًا شامِلاً الاستقلالَ التّامَّ لأنفُسِنا الذي ينتمي إلى ذلك العالَمِ الذي يَجِدُهُ العقلُ"[37]. فكلُّ شيءٍ هُنا "غيرُ قابلٍ للتَّغييرِ، وصارِمٌ، ودقيقٌ، ومُبهِجٌ لعالِمِ الرّياضيّاتِ، ولعالِمِ المنطقِ، ولِمُشيِّدِ الأنظمةِ الميتافيزيقيَّةِ، ولِكلِّ مَن حُبُّهُ لِلكَمالِ أكبَرُ مِن حُبِّهِ لِلحياةِ". وقَد زُكِّيَ هذا العالَمُ لِلإنسانِ الكادِحِ، في مُقابلِ [30] عالَمِ الوجودِ "السَّريعِ، المُبهَمِ، الذي لا حُدودَ صارمةً لَهُ، والذي لا مُخَطَّطَ ولا ترتيبَ واضحَيْنِ لَهُ"، على الرغمِ من أنَّه "يَحوي جَميعَ الأفكارِ والمَشاعرِ". وكِلا العالَمَيْنِ موجودٌ بالقَدْرِ نفسِهِ، ومُستحِقٌّ للتأمُّلِ بالقَدْرِ نفسِهِ، و"تفضيلُنا لتأمُّلِ أحدِهما أو الآخَرِ مَرَدُّهُ إلى أمزجتِنا"[38].

ومِن المؤسِفِ أنَّ الأفلاطونيّينَ المُعاصِرينَ يَنْدُرُ جِدًّا أن يُتابِعوا أفلاطونَ في محاولاتِهِ أَن يَدرُسَ الرُّموزَ دِراسَةً عِلميَّةً، ولكِن مِن المُثيرِ أن يُلحَظَ إدراكُهُم اتِّصالَ نظريَّتِهِم بأوثقِ أسبابِ النَّسَبِ بالفِكْرِ الإغريقيّ؛ إذ إنَّ لِكِلَيهِما أصلاً في العاداتِ اللغويَّةِ أنفُسِها. إنَّ أصالَةَ المنطقِيِّ المعاصرِ تَجنَحُ إلى إخفاءِ الأُسُسِ اللفظيَّةِ لِبنائهِ، في حين تَظهَرُ هذه الأُسُسُ واضحةً في الفلسفةِ اليونانيَّةِ. وكانَتْ

---

(36) *Ibid.*, P. 44.

(37) *Mysticism and Logic* (1918), p.69.

(38) B. Russell, *The Problems of Philosophy*, Home University Library, p. 156.
والذّهابُ إلى أنَّ ثَمَّةَ أجزاءً مِن هذا العالَمِ، الذي قد يُميِّزُهُ السَّيِّدُ رَسِل اليَومَ بِأنَّهُ ذو أساسٍ لغويٍّ بحتٍ، مازالَتْ مُلتصقةً بالكونِ المتَصَوَّرِ في كتابِهِ **تَحليلُ العَقْلِ** *Analysis of Mind* المَنشورِ في سَنَةِ 1921، يُمكِنُ الوُقوفُ عليهِ في الصفحةِ 54 منهُ. ومِن المُمكِنِ مَعرِفَةُ آخِرِ إقرارِتِهِ في الصفحةِ 688 من كتابِ **فَلسَفَةُ برتراند رَسِل** *The Philosophy of Bertrand Russell* (1944)، وفي الصفحةِ 34 مِن دَوريَّةِ *Polemic* 2 (1946).

كِتاباتُ الكُتّابِ الأوائلِ مملوءةً بِمُخَلَّفاتِ سِحرِ الكلِمةِ البِدائيِّ. إنَّ تصنيفَ الأشياءِ يَعني تَسميتَها، وبِقَدرِ تعلُّقِ الأمرِ بالسِّحْرِ فإنَّ اسمَ شيءٍ مّا أو مجموعةٍ من الأشياءِ يَعني نَفْسَهُ؛ فمعرفةُ أسمائها تَعني امتِلاكَ السَّيطَرةِ على نُفُوسِها. فما مِن شيءٍ، سَواءٌ أكانَ بَشَرِيًّا أم فوقَ مُستَوَى البَشَرِ، يُعجِزُ سُلطَةَ الكَلِماتِ. واللُّغةُ نَفسُها ما هي إلّا نُسخةٌ طِبقُ الأصلِ أو نَفْسٌ ظِلٌّ لِبِنيَةِ الواقِعِ جُمْلَةً. ومِن هُنا نشأَ مَبْدَأُ اللوغوس *Logos*[39] الذي مَثَّلَ مَفاهِيمَ مُتَعدِّدَةً منها أَنَّهُ هذا الواقِعُ الأسمَى، المادَّةُ الرُّوحيَّةُ المقدَّسَةُ، وأَنَّهُ 'مَعنَى' كُلِّ شَيْءٍ أو عِلَّتُهُ، وأَنَّهُ 'مَعنَى' الاسمِ أو جَوهَرُهُ[40].

ومن الواضِحِ أنَّ الإرثَ الدِّينيَّ الذي أَدْمَجَهُ فَلاسِفةُ الإغريقِ الأوَّلُونَ في أنظِمتِهم الخاصَّةِ أسهَمَ في تقبُّلِ الإغريقِ لِفِكرةِ عالَمٍ آخَرَ لِلوُجودِ. فعلى سبيلِ المِثالِ، عَدَّ طاليس Thales[41] طبيعةَ الأشياءِ، أي وُجودَها الطَّبيعِيَّ *physis*، مِمّا لا يَقَعُ في مُتَناوَلِ الحواسِّ، ومادَّةً أوَّلِيَّةً ضَعيفةً تُعْزَى دَومًا إلى النُّفُوسِ والأشباحِ، ولا تختلِفُ عن الجسَدِ [31] إلّا في كَونِها غيرَ ملموسةٍ وغيرَ مَرئيَّةٍ.

---

(39) اللوغوس: من أشدِّ الكلماتِ أهمِّيَّةً وأكثرِها غُموضًا في الفِكرَيْنِ الغَربيَّيْنِ الدِّينيِّ والفلسفيِّ؛ إذ تدُلُّ في سياقاتٍ شتَّى على مدلولاتٍ مُتعدِّدةٍ، كالخِطابِ، واللُّغةِ، والعقلِ الكُلِّيِّ، وكلمةِ الإلهِ. بدأ ظهورُ هذهِ الكلمةِ معَ هيراقليطس (535-475 ق.م) الذي استعملَها لِلتَّعبيرِ عن مبدَإ النظامِ والمعرفةِ. واستعملَ الفلاسفةُ القُدَماءُ الكلمةَ بطرائقَ مختلفةٍ؛ فالسوفسطائيُّونَ استعملوها لِلدَّلالةِ على الخِطابِ، واستعملَها أرسطو لِلدَّلالةِ على الخِطابِ المُعَقلَنِ أو (الحُجَّة) في مَجالِ البَلاغَةِ. [المُترجِم]

(40) Cornford, *op. cit.*, *From Religion to Philosophy*, pp.141, 186, 248.

(41) طاليس (634-543 ق.م). أحدُ فلاسفةِ الإغريقِ قبلَ سُقراط، وأحدُ الحُكَماءِ السَّبعةِ. يَعُدُّهُ الكثيرونَ الفيلسوفَ الأوَّلَ في الثَّقافةِ اليونانيَّةِ وأبا العُلوم لأَنَّهُ حاوَلَ تَفسيرَ العالَمِ تَفسيرًا عَقليًّا بِرَدِّهِ كُلَّ شَيءٍ إلى الماءِ، أي بِذَهابِهِ إلى أنَّ الماءَ جَوهَرٌ أصليٌّ يَشيعُ في الطَّبيعَةِ، وأَنَّهُ أصلُ جميعِ الظَّواهرِ الطَّبيعيَّةِ. وقالَ إنَّ العالَمَ حافِلٌ بِالنُّفوسِ، فإذا كانَ كلُّ فِعلٍ مَصدَرُهُ النَّفْسُ، وإذا كانَ العالَمُ يَموجُ بِالحَرَكةِ، فالنَّفْسُ إذَن مُنبَثَّةٌ في كلِّ العالَمِ، وكلُّ ما فيهِ لَهُ نَفسٌ، حتّى الجَمادُ. وضَرَبَ مَثَلاً حَجَرَ المغناطيسِ؛ إذ يُحَرِّكُ الحديدَ، فمِن ثَمَّ تَكونُ لهُ نَفسٌ. فمَبدَأُ الحركةِ هوَ النَّفْسُ، والحركةُ كلِّيَّةٌ، ومِن ثَمَّ تكونُ النَّفسُ كُلِّيَّةً. [المُترجِم]

وبِذلكَ كانَ في أوَّلِ الأمرِ لِعالَمِ الوُجودِ، الذي تَسكُنُهُ الكِياناتُ الزّائفةُ، القَدرُ الأدنَى من المادِّيَّةِ التي لَولاها لَم يَكُنْ في الإمكانِ أن يَقَعَ شَيْءٌ مّا تَحتَ التَّصَوُّرِ. ولكِنْ بِتطوُّرِ عِلمِ المنطقِ، وبِتَعاظُمِ الاهتمامِ بِسُلطةِ الكلماتِ فُقِدَت تلكَ المادِّيَّةُ تدريجيًّا، حتَّى أنشأَ أفلاطون Plato[42] في مُحاورةِ المَأْدُبَةِ Symposium 211[43]، وفي مُحاورةِ فيدون *Phaedo* 80[44]، عالَمًا من المثاليَّةِ الخالصةِ وُصِفَ كذلكَ بِالوُجودِ الطَّبيعِيِّ *physis*، الذي تَسكُنُ النُّفُوسُ الاسميَّةُ فيهِ نَقيَّةً، ومُقَدَّسَةً، وخالدَةً، وجَلِيَّةً، ومُتَّسِقَةً، وغَيْرَ قابِلَةٍ لِلتَّحَلُّلِ، ولا للتغيُّرِ.

وهذا التطوُّرُ ناجِمٌ، إلى حَدٍّ بَعيدٍ، عَن تأثيرِ الفيثاغوريَّةِ Phythagoreanism[45]، وإنَّ المراحلَ التي تخلَّلَتْهُ ذَواتُ أهمِّيَّةٍ مَخصوصَةٍ في

---

(42) أفلاطون (428-427/ 348-347 ق.م). فيلسوفٌ يونانيٌّ كلاسيكيٌّ. يُعَدُّ مؤسِّسَ أكاديميَّةِ أثينا التي هيَ أوَّلُ معهدٍ للتَّعليمِ العالي في العالَمِ الغربيِّ. مُعلِّمُهُ سُقراطُ وتلميذُهُ أرسطو. ويُعَدُّ واضِعَ الأسسِ الأولَى للفَلسفةِ الغربيَّةِ والعلومِ. اتَّضَحَ نبوغُهُ وأسلوبُهُ في مُحاوراتِهِ السُّقراطيَّةِ (نحو ثلاثينَ محاورةً) التي تناولَتْ موضوعاتٍ فلسفيَّةً شتَّى، كالمعرفةِ، والمنطقِ، واللغةِ، والرِّياضيّاتِ، والميتافيزيقا، والأخلاقِ، والسِّياسةِ. [المُترجِم]

(43) عُنوانُ مُحاورةٍ مَشهورةٍ لأفلاطونَ في الحُبِّ، أجرَى فيها الحوارَ بينَ سُقراطَ وبعضِ مُعاصِريهِ من الفلاسفةِ والأطبّاءِ والشعراءِ والسوفسطائيِّينَ ورجالِ السياسةِ. والمحاورةُ تُصوِّرُ في مجموعِها مذهبَ سُقراطَ في الحُبِّ، ومُلخَّصُها أنَّ الحُبَّ يبعثُ في الإنسانِ الإحساسَ بِالشرفِ ويُنَمِّي فيه الإيثارَ وروحَ التضحيةِ، وأنَّه يجبُ التفريقُ بينَ نوعينِ من الحُبِّ: نوعٍ دنيءٍ وضيعٍ يُلبِّي النزعاتِ الجنسيَّةَ، وهو حبُّ النساءِ والحبُّ الشاذُّ لِلغِلمانِ؛ ونوعٍ نبيلٍ شريفٍ يخلو خلوًّا تامًّا من كلِّ نزعةٍ جسديَّةٍ وشهوةٍ بَهيميَّةٍ، وهو الحبُّ النقيُّ البريءُ الذي يرتفعُ عن الصغائرِ ويتنزَّهُ عن الدنايا ويُكسِبُ صاحبَهُ المعرفةَ والحكمةَ والفضيلةَ، كالحبِّ الذي ينشأُ بينَ الأستاذِ وتلاميذِهِ أو مُريديهِ. [المُترجِم]

(44) عُنوانُ مُحاورةٍ مَشهورةٍ لأفلاطونَ تدورُ وقائعُها في السِّجنِ الذي قبعَ فيهِ سُقراطُ بطلُ المحاورةِ، الذي تحدَّثَ في الساعاتِ الأخيرةِ قبلَ موتِهِ عن النفسِ وماهيَّتِها والدلائلِ على خلودِها ومصيرِها. والمحاورةُ مَرويَّةٌ من منظورِ أحدِ تلاميذِ سُقراطَ، ويُدعَى فيدون الأليسيَّ، فإليهِ تُنسَبُ. [المُترجِم]

(45) الفيثاغوريَّةُ: مدرسةٌ فلسفيَّةٌ وأخويَّةٌ دينيَّةٌ يُعتقَدُ أنَّ فيثاغورس أنشأها في جنوبِ إيطاليا. وفيثاغورس (570-495 ق.م) فيلسوفٌ إغريقيٌّ اهتَمَّ بالرِّياضيّاتِ اهتمامًا كبيرًا =

تأريخِ الرُّموزِ. وكانَ هيراقليطس Heracleitus[46] أوَّلَ مَن احتَكَمَ إلى الكَلِماتِ بِوَصفِها مُجَسِّدَةً لِطبيعةِ الأشياءِ، وتأثيرُهُ في أفلاطون جَليٌّ في مُحاوَرَةِ أقراطيلوس *Cratylus*[47]. لقد رأى هيراقليطس اللغةَ الشَّيءَ الأكثرَ ثَباتًا في عالَمِ دائمِ التَّغَيُّرِ، وتَعبيرًا عن الحِكمةِ المشتركةِ عندَ البَشَرِ جميعًا، وبِنيَةُ الكلامِ الإنسانيِّ، عندَهُ، تَعْكِسُ بِنيَةَ العالَمِ الخارجيِّ. إنَّها تَجسيدٌ لِتلكَ البِنيةِ- "واللوغوس مُحتَوًى فيها، كما يُمكِنُ أن يُحتَوَى مَعنًى مَّا في عِدَّةِ رُموزٍ مُختلفةٍ خارجيَّةٍ"[48].

وَمِن جِهةٍ أخرَى، سبَّبَتْ رُموزُ الأعدادِ حَيرَةً كبيرةً لِلفيثاغوريِّينَ. إذ قالَ أرِسطو[49]

= ولا سيَّما بالأرقامِ، واهتَمَّ بالموسيقى أيضًا وذكَرَ أنَّ الكونَ يتألَّفُ من التمازُجِ بينَ العددِ والنغَمِ. ويَعتقِدُ فيثاغورس وتلاميذُهُ أنّ كلَّ شيءٍ مرتبِطٌ بالرِّياضيّاتِ، فمِن ثَمَّ يُمكِنُ التنبُّؤُ بكلِّ شيءٍ وقياسُهُ على شكلِ حلقاتٍ إيقاعيَّةٍ. واشتهرَ بِمُبَرهَنَتِهِ في الرِّياضيّاتِ التي مفادُها: أنَّهُ في المثلَّثِ القائمِ الزاويةِ يكونُ مربَّعُ طولِ الوَتَرِ مُساوِيًا لِمجموعِ مُرَبَّعَيْ طولَي الضِّلعَيْنِ المحاذِيَيْنِ للزاويةِ القائمةِ. [المُترجِم]

(46) هيراقليطس (535-475 ق.م). فيلسوفٌ يونانيٌّ قبلَ سُقراط، قالَ بالتَّغيُّرِ الدائمِ، وعبَّرَ عن ذلكَ بقولِهِ: كلُّ شيءٍ في جَرَيانٍ دائمٍ. والقولُ المشهورُ الذي يُعَبِّرُ به هيراقليطس عن هذا المبدإ هو: لا تستطيعُ أن تنزلَ في النهرِ نفسِهِ مرَّتَيْنِ. ويُضيفُ إليهِ فلوطرخس التَّفسيرَ الآتيَ: لأنَّ مياهًا جديدةً تتدفَّقُ فيهِ. [المُترجِم]

(47) عُنوانُ مُحاورةٍ مَشهورةٍ لأفلاطونَ تُمثِّلُ إحدى الكتاباتِ الأُولى لَهُ وربَّما الاستِثناءَ الوحيدَ بينَ مُحاوراتِهِ الأُولى من حيثُ موضوعُها الرَّئيسُ؛ ذلكَ بأنَّ هذه المحاوراتِ قد غلبَ عليها عُمومًا المضمونُ الأخلاقيُّ، في حينِ أنَّ الموضوعَ الأساسيَّ لهذه المحاورةِ هو أصلُ اللغةِ والأسماءِ، وإن كانَتْ قد تطرَّقَتْ عَرَضًا إلى موضوعاتٍ مُتنوِّعةٍ. وأقراطيلوس أثينيٌّ عاصَرَ سُقراطَ، لكِن يَبدو أنَّهُ كانَ أصغَرَ منهُ سِنًّا، وكانَ مِن أتباعِ هيراقليطس، وارتبَطَ بِهِ أفلاطونُ في شَبابِهِ. وقَد صَوَّرَهُ أفلاطونُ في مُحاورةِ (أقراطيلوس) وهوَ يَطرَحُ فلسفتَهُ في الأسماءِ التي مفادُها أنَّ كلَّ شيءٍ لهُ اسمٌ، وأنَّ الطبيعةَ قَد أضفَتْ هذهِ الأسماءَ على الأشياءِ، وأنَّها تَصِفُ طبيعةَ هذهِ الأشياءِ. [المُترجِم]

(48) Cornford, *op. cit.*, p.192.

(49) أرسطو (384-322 ق.م). فيلسوفٌ يونانيٌّ. تلميذُ أفلاطون ومعلِّمُ الإسكندر الأكبرِ، وأحدُ عظماءِ المفكِّرينَ. تناولَتْ كتاباتُهُ عدَّةَ مجالاتٍ كالفيزياءِ، والميتافيزيقا، والشِّعرِ، والمسرحِ، والموسيقى، والمنطقِ، والبلاغةِ، واللغويّاتِ، والسِّياسةِ، والحكومةِ، والأخلاقِ، وعلمِ الأحياءِ، وعلمِ الحيوانِ. ويُعَدُّ أحدَ أهمِّ مؤسِّسي الفلسفةِ الغربيَّةِ. [المُترجِم]

Aristotle[50]: "لَمّا بَدَا كلُّ شيءٍ مُنَمَّطًا بِتَمام طابعِهِ على أساسِ الأعدادِ، وكانَتِ الأعدادُ هي الأشياءَ المطلَقَةَ في الكَونِ كُلِّهِ، باتُوا مُقتَنِعِينَ بِأنَّ عَناصِرَ الأعدادِ هيَ عَناصِرُ كُلِّ شيءٍ". والحقُّ أنَّ الفيثاغوريَّةَ في مَراحِلِها الأخيرةِ عبَرَتْ مِن مَذهَبِ أنَّ العالَمَ انبثاقٌ لِلأعدادِ مِن الفَرْدِ the One إلى بِنيَةِ أنَّ كُلَّ شيءٍ مُنبَثِقٌ مِن الأرواحِ العَدَدِيَّةِ، وكُلٌّ يَدَّعي وُجودًا خالِدًا مُستَقِلاً[51]. [32]

وجاءَ بعدَ ذلكَ بارمينيديس Parmenides[52] الذي شَغَلَتْهُ وَظائفُ الرُّموزِ السّالِبَةِ؛ فإذا لم يَعْنِ 'بارِدٌ' سِوَى ما يَعْنِيهِ 'غَيرُ حارٍّ'، ولم يَعْنِ 'مُظْلِمٌ' سِوَى ما يَعْنِيهِ 'غَيرُ مُضِيءٍ'، فكيفَ يُمكِنُنا التَّحدُّثُ عن غِياباتِ الأشياءِ؟ ويقولُ: "ثَمَّةَ جِسمانِ قَرَّرَ البَشَرُ تَسميتَهُما، وكانَ عليهم أن يَدْعُوا تسميةَ أحدِهما، وهذا ما ضَلُّوا طَريقَهُم فيهِ". لقد سَمَّوْا أشياءَ هيَ لَيسَتْ بِأشياءَ، هيَ غَيْرُ أشياءَ (*μήεόν*). لكِنْ زِيادةً على مُشكلةِ الوَقائعِ السّالِبَةِ التي جَعَلَتْ أفلاطونَ يَنهَضُ بِمهمَّةِ الفَحْصِ الجادِّ الأوَّلِ لِعَلاقاتِ الفِكرِ واللُغةِ (*Sophist*, 261)، أَوْرَثَ بارمينيديس أفلاطونَ أحاجِيَّهُ المبهَمَةَ بِشأنِ الفَرْدِ the One والمتَعَدِّدِ the Many التي كانَتْ لَها هي

(50) *Metaphysics*, A.5; trans.A. E. Taylor.

(51) يُزَوِّدُنا الدكتور ألّيندي R. Allendy في كتابِهِ **رَمْزِيَّةُ الأعدادِ، مَقالَةٌ في الأرِثموصوفيا** ***Le Symbolisme des Nombres, Essai d' Arithmosophie***، 1921، بِسِجِلٍّ عامٍّ عن الفيثاغوريَّةِ والأرِثموصوفيا. وكانَ غَرَضُ المؤلِّفِ "فَحصَ بعضِ جوانبِ المفتاحِ العَدَدِيِّ الذي بِمُوجِبِهِ أَخْفَتِ الفلسفةُ الدِّينيَّةُ والسِّرِّيَّةُ في كلِّ الأزمانِ وكلِّ المدارسِ تَعاليمَها . . . وانطلاقًا مِن وِجهةِ النَّظَرِ هذهِ وجبَ على دراسةِ الأعدادِ أن تُنشِئَ الأساسَ لِكلِّ العُلُومِ السِّرِّيَّةِ Occultism ولِكُلِّ الفَلسَفاتِ الرُّوحانيَّةِ Theosophy". وسيَجِدُ الفُضوليُّ في المزيجِ المحالِ الذي سيَحْصُلُ دليلاً كافيًا على أنَّ سِحرَ الأعدادِ لم يَكَدْ يَقِلُّ شُيوعًا عن سِحرِ الكَلِماتِ.

(52) بارمينيديس: فيلسوفٌ يونانيٌّ وُلِدَ في القرنِ الخامسِ قبلَ الميلادِ في إيليا، وهيَ مدينةٌ يونانيَّةٌ على الساحلِ الجنوبيِّ لإيطاليا. ذُكِرَ أنَّهُ كانَ تلميذَ كزينوفانيس. ويُعَدُّ أحدَ أهمِّ الفلاسفةِ قبلَ سقراط. ذهبَ إلى أنَّ طريقةَ إدراكِنا اليوميَّةَ للواقعِ مُخطِئةٌ، وأنَّ واقعَ العالَمِ كينونةٌ واحدةٌ غيرُ متغيِّرةٍ وغيرُ متوالدةٍ وغيرُ قابلةٍ لِلانهيارِ. وهو أوَّلُ فيلسوفٍ يبحثُ بحثًا حقيقيًّا في ما وراءَ الظاهرِ من الحقيقةِ الثابتةِ والوجودِ الثابتِ، على أساسِ تناظُرِ الحقيقةِ والوُجودِ. [المُترجِم]

أيضًا جُذورُها في اللُّغةِ. ولِذلكَ كانَ لأفلاطونَ كلُّ العُذرِ لِيَنشغِلَ بالنَّظريَّةِ اللُّغويَّةِ، بصَرفِ النَّظَرِ تَمامًا عن الصُّعوباتِ النّاجِمَةِ عن عالَمِهِ المِثاليِّ الذي كانَ مَسْكَنًا لِلنُّفوسِ الاسميَّةِ، وعَلاقاتِهِ بِعالَمِ الطِّينِ والدَّمِ (الذي تردَّدَ، لأسبابٍ جَماليَّةٍ، في إدخالِ 'المُثُلِ ideas' في كِياناتِهِ، كما جادَلَ اللاهُوتيُّونَ في أَنَّ لِلزُّنوجِ نُفُوسًا).

لِذلكَ كانَ مِمّا زادَ الحَظَّ سُوءًا إهمالُ المعاصِرينَ تَمامًا مُحاوَرَةَ أقراطيلوس *Cratylus* التي أودَعَها آراءَهُ في اللُّغةِ. لقد قَبِلَ الفيثاغوريُّونَ نظريَّةَ أفلاطونَ في المُثُلِ أو النُّفوسِ الاسميَّةِ، ولكِنَّ عِلْمِيَّتَهُ جَعَلَتْهُ دائمَ المقارَبَةِ لِمُشكلةِ الأسماءِ ومَعناها بِوَصفِها واحِدًا مِن أصعَبِ ما يُواجَهُ مِن البُحوثِ. والتَّحليلُ الذي خَرَجَ بِهِ إنجازٌ فائقٌ، ولا سِيَّما أنَّه جاءَ في زَمَنٍ لم يَعرِفْ أَهلُوهُ شيئًا عن الفيلولوجيا المقارِنَةِ، ولا النَّحوِ، ولا عِلمِ النَّفْسِ، ولكِنَّهُ عَجَزَ عن التَّوصُّلِ إلى تفريقٍ مَتينٍ بينَ الرُّموزِ والأفكارِ المرمَّزَةِ. [33]

وظَلَّ التَّقليدُ الرَّئيسُ لِلفِكْرِ الإغريقيِّ وَفِيًّا لِلمُقارَبَةِ اللفظِيَّةِ. وكتَبَ الدكتور هيوويل Dr Whewell[53] قائلاً: ثَمَّةَ طريقتانِ لِفَهمِ الطَّبيعةِ؛ "تقومُ إحداهُما على اختبارِ الكلماتِ وَحدَها والأفكارِ التي تَستدعيها، والأُخرَى على الاهتمامِ بالوَقائعِ والأشياءِ التي تُخرِجُ هذه الأفكارَ إلى حَيِّزِ الوُجودِ... واتَّبَعَ الإغريقُ الطريقةَ الأُولَى، أي: الوِجهَةَ اللَفظِيَّةَ أو الفِكريَّةَ، فَأَخفَقوا". ونَقولُ هُنا مَرَّةً أُخرَى إنَّ "النُّزوعَ إلى البَحثِ عن المبادِئِ الكامنةِ في الاستعمالاتِ الشّائعَةِ لِلُّغَةِ رُبَّما كانَ قد اكتُشِفَ في مَرحلةٍ مُبَكِّرَةٍ جِدًّا... إذ نَجِدُ عِندَ أَرِسطو تَحقُّقًا لِهذا التَّوَجُّهِ الفِكريِّ"[54]. ومُنذُ زَمَن ترينديلينبرغ[55]

(53) وِليَم هيوويل (1794-1866م). إنجليزيٌّ مَوسوعيُّ الثقافةِ، وعالِمٌ، وكاهِنٌ أنجليكانيٌّ، وفيلسوفٌ، ولاهوتيٌّ، ومُؤَرِّخٌ لِلعُلوم. كانَ عميدَ كلِّيَّةِ ترِنتي في جامعةِ كيمبرج. من آثارِهِ: تأريخُ العُلومِ الاستقرائيَّةِ، وفلسفةُ العُلومِ الاستقرائيَّة. [المُترجِم]

(54) *History of the Inductive Sciences*, I., pp. 27,29.

(55) فريدرِش أدولف ترينديلينبرغ (1802-1872م). فيلسوفٌ وفيلولوجيٌّ ألمانيٌّ. أشهرُ آثارِهِ: عناصرُ المنطقِ الأرسطيّ، والتَّحقيقاتُ المنطقيَّة. [المُترجِم]

Trendelenburg[56] باتَ مَقبولاً على وجهِ العُمومِ عَدَمُ إمكانِ دِراسةِ المقولاتِ، والعَلاماتِ الفارِقَةِ المُشابِهةِ التي تُؤَدِّي دَورًا كبيرًا في نِظامِ أرِسطو، بِمَعزِلٍ عن خَصائصِ اللُغَةِ الإغريقيَّةِ. يَقولُ غومبيرز Gomperz[57]: "إنَّ أرِسطو كَثيرًا مّا يَسْمَحُ لِنَفسِهِ بِالانقِيادِ لأشكالِ اللُغَةِ. ولم يَكُنْ ذلك دائمًا عَن عدَمِ قُدرةٍ على التَّحرُّرِ مِن تلكَ الرَّوابِطِ، ولكِنْ بالقَدْرِ نَفسِهِ، في الأَقَلِّ، بِسَببِ أنَّ مَطالِبَ الدِّيالكتيك لَم تَكُن لِتَسمَحَ لهُ بِمُغادَرَةِ مُعتَرَكِهِ... وهكَذا انتُزِعَ التَّفريقُ بينَ المعرِفةِ إجمالاً والعُلومِ المَخصوصَةِ، الذي كانَ مُستَنَدُهُ الوَحيدُ حقيقةَ أنَّ أغراضَ العُلومِ المَخصوصَةِ مُضَمَّنَةٌ في أسمائِها... وكثيرًا مّا يَحكُمُ تَصنيفَهُ لِلمَقولاتِ اعتباراتُ المُلاءَمَةِ اللُغَويَّةِ، ولا بُدَّ أنَّ ذلكَ، ويَجِبُ أن يُقبَلَ (كَذا)، جَعَلَهُ يُحجِمُ عن تَطبيقِهِ في الأغراضِ الأنطولوجيَّةِ"[58].

لقد كانَتْ مُمارسَةُ الجدَلِ الدِّيالكتيكيِّ في زَمَنِ أرِسطو تَستَنِدُ إلى فِكرةِ أنَّ لِكُلِّ لَفظٍ مَعنًى بَسيطًا مُحَدَّدًا، وهذا ما نَراهُ في تَعليقاتِ أمونيوس Scholia of Ammonius[59] على كِتابِ **في التَّأويل (العِبارَة)**

---

(56) *Kategorienlehre*, p. 209، حيثُ الاقتِناعُ بأنَّ الاعتباراتِ اللُغَويَّةَ "وَجَّهَت" التَّصنيفَ، "لكِنَّها لم تُحَدِّدْهُ". ومُنذُ القَرنِ الأوَّلِ بعدَ الميلادِ أكَّدَ مُختلِفُ المشّائِينَ التَّوفيقيِّينَ أنَّ المقولاتِ كانَتْ مُهتَمَّةً جدًّا بالكَلماتِ، مَعَ أنَّ الدكتور روتّا P. Rotta يَرَى في كتابِهِ **(فَلسَفَةُ اللُغَةِ عِندَ الآباءِ اليَسُوعِيِّينَ والفَلاسِفَةِ المَدْرَسِيِّينَ** *La Filosofia del Linguaggio nella Patristica e nella Scholastica*, p. 56) أنَّ الأوْلَى أن يَكونَ ذلكَ مُتأتّيًا مِن زاويةِ ثُنائيَّةِ الاسميّ-الواقِعِيّ nominalist-realist.

(57) تيودور غومبيرز (1832-1912م). فيلسوفٌ وعالِمٌ كلاسيكيٌّ نمساويٌّ. دَرَسَ في فيينّا، وتخرَّجَ فيها سنةَ 1867، وأصبحَ أستاذَ الفيلولوجيا الكلاسيكيَّةِ سنةَ 1873. وانتُخِبَ سنةَ 1882 عُضوًا في أكاديميَّةِ العُلومِ. نالَ درجةَ الدكتوراه في الفلسفةِ من جامعةِ كونزبيرغ، والدكتوراه في الأدَبِ مِن جامعَتَيْ دَبلِن وكَيمبرِج. من أهمِّ آثارِهِ: المُفَكِّرُونَ الإغريقُ- تأريخُ الفلسفةِ القَديمة، والشِّعريَّةُ عندَ أرسطو. [المُترجِم]

(58) T. Gomperz, *Greek Thinkers*, IV., pp.40-41.

(59) تَعليقاتٌ على مَقالاتِ أرِسطو كتبَها أمونيوس هيرميا (440-520م)، وهو فيلسوفٌ إغريقيٌّ وابنُ فَيلسوفَي الأفلاطونيَّةِ المُحدَثَةِ هيرمياس وأيديسيا. دَرَسَ على يَدِ بروكليوس =

De Interpretatione[60] وبذلكَ استَفهَمَ السائلُ قائلاً [34]: "هلِ البَلاغَةُ جَديرَةٌ بالاحتِرامِ؟"، وفي إحدَى صِيَغِ اللُعبةِ، على أيَّةِ حالٍ، يُتَوَقَّعُ أن يُجيبَ المجيبُ بِمُجَرَّدِ قَولِ نَعَم أو لا. وعُدَّتْ كَلِماتٌ مُعَيَّنَةٌ في المُفرَداتِ الدارجةِ مُلْبِسَةً نَتيجَةً لِدراسةِ 'أضدادِها.' ويَسْرُدُ أرِسطو في كِتابِهِ طوبيقا (الجَدَل) Topics[61] عِدَّةَ قَواعِدَ تتعلَّقُ بِاللَبسِ وإجراءاتٍ أُخرَى مُتَصَوَّرَةٍ باعِثُها جَرُّ الخصمِ إلى شَكلٍ مِن أشكالِ التَّناقُضِ اللَفظيِّ.

وخاضَ ماوثنر Mauthner[62] في نِقاشٍ مُفَصَّلٍ لِيُظهِرَ أنَّ التَّعاليمَ الأرسطِيَّةَ المتعلِّقَةَ بالنَّفيِ والمقولاتِ "جَعَلَتْ أشكالَ الكَلامِ الحَيَّةَ مَحالَّ لِعِبادَةٍ خُرافيَّةٍ، كما لَو كانَتْ مَعبوداتٍ حقيقيَّةً"، ثُمَّ علَّقَ قائلاً: "إنَّ أرسطو مَيتٌ لأَنَّهُ كانَ مُخْلَصًا على نَحوٍ خُرافيٍّ لِلكَلِماتِ، رُبَّما أكثرَ مِن أيِّ كاتِبٍ مَعروفٍ في تأريخِ الفَلسفةِ كُلِّهِ. واعتَمَدَ حَتَّى في مَنطِقِهِ على أعراضِ اللُغَةِ اعتِمادًا تامًّا، على أعراضِ لُغَتِهِ الأُمِّ. ولم يَكُنْ تَبجيلُهُ الخُرافيُّ لِلكلماتِ في غيرِ أوانِهِ البَتَّةَ"[63]. ومَرَّةً أُخرَى:-

= في أثينا، ودرَّسَ في الإسكندريَّةِ معظمَ حياتِهِ، كاتِبًا تعليقاتٍ على أفلاطون، وأرسطو، وفلاسفةٍ آخَرينَ. [المُترجِم]

(60) كِتابٌ لأرِسطو يُعَدُّ أحدَ أقدمِ الأعمالِ الفلسفيَّةِ الباقيةِ في التراثِ الغَربيِّ التي تُعالِجُ العَلاقةَ بينَ اللغةِ والمنطقِ على نَحوٍ مفهومٍ، وواضحٍ، وشَكليٍّ. [المُترجِم]

(61) عُنوانُ أحدِ الكُتُبِ التي تُؤَلِّفُ أورغانون أرِسطو، وفيهِ يتناولُ الحُجَجَ والجدليّاتِ. ويَشتَمِلُ الأورغانون على خَمسةِ كُتُبٍ أخرى غيرِ الطوبيقا (الجَدَل)، هيَ: المَقولاتُ، والعِبارَةُ، والتَّحليلاتُ الأولَى، والتَّحليلاتُ الثانية، والأغاليطُ. [المُترجِم]

(62) فرِتز ماوثنَر (1849-1923م). رِوائيٌّ هنغاريٌّ نَمساويٌّ، وناقِدٌ مَسرحِيٌّ، وكاتِبٌ هِجائيٌّ، ومُناصِرٌ لِمذهبِ الشَّكِّ الفلسفيِّ المُستَمَدِّ مِن نَقدِ المعرفةِ الإنسانيَّةِ. مِن مؤلَّفاتِهِ: سبِنوزا، ونَقدُ اللغة، وشوبنهاوَر. [المُترجِم]

(63) Mauthner, *Aristotle*, English Translation, pp.84, 103-4. ويُنظَرُ لِلمُؤلِّفِ نَفسِهِ كتابُ **نَقْد اللُغَة** *Kritik der Sprache*، الجزءُ الثالِثُ، ص4، إذ قالَ: "لَو أنَّ أرسطو كانَ يتكلَّمُ الصِّينيَّةَ أو الداكوتانيَّةَ لَكانَ عليهِ أن يتبنَّى مَنطِقًا مُختَلِفًا تَمامًا، أو على أيَّةِ حالٍ نظريَّةَ مَقولاتٍ مُختَلِفةً تَمامًا".

"رزَحَ الفِكرُ البَشَريُّ طَوالَ أَلْفَيْ سَنَةٍ بِتَمامِهما تحتَ تأثيرِ شِعاراتِ هذا الرَّجُلِ، ذلك التَّأثيرِ الذي كانَتْ نَتائجُهُ مُؤذِيَةً تَمامًا. وليسَ ثَمَّةَ أُنموذَجٌ لِنِظامِ كَلِماتٍ ذي فاعِليَّةٍ دائمةٍ كَأُنموذَجِهِ"(64).

ومِمّا يَلْفِتُ النَّظَرَ أنَّ أرسطو قَدَّمَ في كِتابِهِ في **التَّأويل (العِبارَة)** *De Interpretatione* آراءً يَصعُبُ التَّوفيقُ بينَها وبينَ مِثلِ هذهِ المقارَبَةِ اللفظيَّةِ؛ إذ يُؤَكِّدُ هناكَ أنَّ الكَلِماتِ عَلاماتٌ لِلميولِ العَقليَّةِ في المقامِ الأوَّلِ، ولِلأشياءِ التي هيَ مَظاهِرُ لَها في المقامِ الثّاني(65). [35] وهو يُطَوِّرُ نظريَّةً لِلفَرضِيَّةِ التي تُشيرُ، على الرَّغمِ مِن قُصورِها وكَونِها مَصدَرًا لِتَخليطٍ دائمٍ، إلى مَوقِفٍ نَقْدِيٍّ مِن اللُّغَةِ أبْعَدَ مِمّا قد تُوحي بِهِ عُدَّتُهُ المنطِقيَّةُ جُملَةً. إذ لا يَجِدُ أرسطو هُنا صُعوبةً في مُعالَجَةِ السُّؤالِ الرَّئيسِ الذي أثارَهُ أفلاطون في مُحاورَةِ أقراطيلوس. وهو يَقولُ إنَّ كلَّ كَلامٍ دالٍّ إنَّما يَستَمِدُّ دَلالَتَهُ مِن المواضَعَةِ فَحَسْبُ، لا مِن الطَّبيعةِ، ولا بِوَصفِهِ آلَةً طَبيعيَّةً- مُهمِلاً بِذلكَ مَلحُوظاتِ أفلاطونَ الدَّقيقةَ بِشَأنِ الدَّورِ الذي أَدَّتْهُ المحاكاةُ الصَّوتيَّةُ onomatopœa في الأُصولِ اللفظيَّةِ. وفي كِتابِ **في التَّأويل (العِبارَة)** *De Interpretatione* استُبعِدَتْ عَمْدًا عِدَّةُ تَفرُّعاتٍ لِلكلامِ الدّالِّ، ونحنُ مَدْعُوُّونَ هُناكَ إلى أن نَنظُرَ فقط في ذلكَ النَّوعِ المعروفِ بِوَصفِهِ إخبارِيًّا، الذي لا يَنتَمي منهُ إلى المنطِقِ إلّا إخبارُهُ بِالصِّدقِ أو الكَذِبِ. أمّا أساليبُ الكَلامِ الأُخرَى، نَحوُ الرَّجاءِ، والأمرِ، والاستِفهامِ، وما إلى ذلكَ، فقد عُدَّتْ، على نَحوٍ أكثَرَ طَبيعيَّةً، مِن أقسامِ الأساليبِ البَلاغيَّةِ أو الشِّعريَّةِ(66).

---

(64) المصدر نفسه: ص19. ويُنظَرُ أيضًا: التَّذييلُ A لِلاطِّلاعِ على مُناقَشَةٍ لتأثيرِ أرسطو في النَّحوِ.

(65) *De Interpretatione, 16, a. 3.* ومِمّا يَجْدُرُ أن يُلْحَظَ أنَّ أندرونيكوس الرّوديسيَّ Andronicus of Rhodes، الذي حَرَّرَ الطبعةَ الكاملةَ الأولَى لأعمالِ أرسطو حينَ جُلِبَتْ مكتبةُ ثيوفراستوس Theophrastus مِن أثينا إلى روما بِوَصفِها جُزءًا مِن غنيمةِ سُلّا Sulla، أشارَ إلى أنَّ هذهِ الرِّسالةَ زائفَةٌ. على أنَّ الحُجَجَ التي ساقَها مايَر Maier في تَعضيدِ الرِّسالةِ أقنَعَتِ الدّارِسِينَ بِقَبولِها عَمَلاً أرسطيًّا.

(66) في كِتابِ **الشِّعْرِيَّة** *Poetics* (1456 b. Margoliouth, p. 198) يُلْمِحُ أرسطو ثانيةً =

ورُبَّما كانَ مِن المُتَوَقَّعِ أن يَقومَ الأدَبُ الإغريقيُّ شاهِدًا في جُملَتِهِ على تأديةِ الخُرافةِ اللفظيَّةِ دَورًا واسِعًا في الفلسفةِ الإغريقيَّةِ، ويَرَى فارّار Farrar(67) ضَرورةَ افتراضِ أنَّ أسخيلوس Æschylus(68) وسوفوكليس Sophocles(69)، على سبيلِ المِثالِ، لا بُدَّ أن يكونَا قد آمَنَا بِالمُحاكاةِ الصَّوتيَّةِ التي تَرتَبِطُ دَوْمًا بِسِحرِ الكَلِماتِ البِدائيِّ، على ما سنَرَى. ويُبَيِّنُ أنَّهُ حتَّى الرّومانُ العَمَلِيُّونَ كانوا ضَحايا تلكَ الاعتقاداتِ، وكُلُّهُم كانَ سيُرَدِّدُ لُغَةَ أوسونيوس Ausonius(70):-

---

= إلى "العمليّاتِ التي آلَتُها الكَلامُ، الذي تَقسيماتُهُ: الإثباتُ والتَّفنيدُ، وتأجُّجُ العواطفِ كالإشفاقِ، والخوفِ، والغَضَبِ، وما إلى ذلكَ، والمبالَغَةُ والنَّقصُ". وعندَ التَّعليقِ على الاستِعمالِ الإخباريِّ أو 'الإعلاميِّ' لِلُّغَةِ (*D. I. 17 a. 2*) يُحيلُ أمونيوس على فِقرةٍ في أحدِ مُؤَلَّفاتِ ثيوفراستوس Theophrastus الضائعةِ، حيثُ تُمَيِّزُ اللغةُ 'الإعلامِيَّةُ' التي تُعنَى بِالأشياءِ مِن سائرِ تنوُّعاتِ اللغةِ الأُخرَى التي تُعنَى بالأثرِ في المستمِعِ وتنوُّعُ بِتنوُّعِ المخاطَبِينَ. هذه الأنواعُ المختلفةُ مِن القَضايا، وعددُها خَمسةٌ على وَفقِ ما جاءَ عندَ المشّائِينَ المتأخِّرينَ، شَهِدَتْ مَزيدًا مِن التَّفصيلِ على أيدِي الرِّواقِيِّينَ. Cf. Prantl (*Geschichte der Logik*, Vol. I., p. 441), Steinthal (*Geschichte der Sprachwissenschaft bei den Griechen und Römern*, Vol. I., p. 317), H. Maier, *Psychologie des Emotionalen Denkens*, pp. 9-10..

(67) فريدرِك وِليَم فارّار (1831-1903م). رَجُلُ دِينٍ في الكنيسةِ الإنجليزيَّةِ (الأنجليكانيّة)، ومُدرِّسٌ، وكاتِبٌ. مِن أهمِّ آثارِهِ: حياةُ المسيحِ، وتأريخُ التَّأويلِ، والظُّلمةُ والفَجر. [المُترجِم]

(68) أسخيلوس (525-452 ق.م). كاتِبٌ مسرحيٌّ يونانيٌّ، يُعَدُّ مِن مُؤسِّسِي اللونِ التراجيديِّ في الأدبِ اليونانيِّ. كتبَ عدَّةَ مسرحيّاتٍ جسَّدَت التَّاريخَ اليونانيَّ، يُقَدَّرُ عددُها بِنحوِ سبعينَ مسرحيَّةً لم يَصِلْ إلينا منها سِوى سبعِ مسرحيّاتٍ، هي: الفُرسُ، وسَبعةٌ ضِدَّ طيبة، وبروميثيوس مُصَفَّدًا، والضّارعات، وأغاممنون، وحامِلاتُ الشَّراب، وربّاتُ الغَضَب. يُعَدُّ مِن أهمِّ كُتّابِ المأساةِ الإغريقيَّةِ، وهو مُؤسِّسُها بالمعنى الفنِّيِّ وأقدمُ فرسانِها المعروفِينَ. [المُترجِم]

(69) سوفوكليس (496-405 ق.م). أحدُ أعظمِ ثلاثةِ كُتّابٍ لِلمَأساةِ الإغريقيَّةِ، والآخَرانِ هُما أسخيلوس ويوربيديس. مِن مسرحيّاتِهِ: أنتيغوني، وأوديب ملِكًا، وإلكترا. [المُترجِم]

(70) ديسيميوس ماغنوس أوسونيوس (نحو 310- نحو 395م). شاعرٌ لاتينيٌّ، ومُعلِّمُ بَلاغةٍ في بوردو في فرنسا. كانَ مُعلِّمًا لإمبراطور المستقبلِ غراتيان. يُعرَفُ بقصيدتِهِ موسيلا =

إذ إنَّهُ مِن قَبيلِ التَّكَهُّنِ أن يُجعَلَ مِثلُ هذا الاسمِ مُمَثِّلاً
لِكَثيرٍ مِنَ الإشاراتِ، أو لِصِفَةٍ، أو لِلمَوتِ. [36]

ويُخبِرُنا شيشرون Cicero[(71)] بأنَّهم اهتَمُّوا في قَوائمِهِم لِخِدمةِ التَّجنيدِ "بأن يكونَ أوَّلُ مَا يُدرَجُ فيها أسماءً نَحوَ فِكتور Victor[(72)]، وفيلِكْس Felix[(73)]، وفاوستوس Faustus[(74)]، وسيكَنْدوس Secundus[(75)]، وحَرَصُوا على ابتِداءِ قائمَةِ إحصاءِ السُّكّانِ بِكَلِمةٍ تُوحِي بِفَألٍ سَعيدٍ نحوِ سالفيوس فاليريوس Salvius Valerius[(76)]. وكانَ قَيْصَر Cæsar قد سَلَّمَ قِيادَةَ إسبانيا لِشَخصٍ مَغمورٍ اسمُهُ شيبيو Scipio[(77)]، لا لِشَيْءٍ إلّا لِما انطَوَى عليهِ اسمُهُ مِن فألٍ. ويُعَنِّفُ شيبيو جُنودَهُ

= التي يَصِفُ فيها نهرَ موسيل، وبقصيدَةِ التَّقويمِ الفَلَكيِّ التي يَصِفُ فيها يومًا اعتياديًّا في حياتِهِ. وتُظهِرُ قصائدُهُ الأخرى اهتمامَهُ بأُسرتِهِ، وأصدقائهِ، ومدرِّسِيهِ، ومَعارِفِهِ. [المُترجِم]

(71) ماركوس توليوس شيشرون (106-43 ق.م). فيلسوفٌ، وسياسيٌّ، ومُحامٍ، وخطيبٌ رومانيٌّ مُمَيَّزٌ. صاحِبُ إنجازٍ ضَخمٍ يُعدُّ أنموذجًا مَرجعيًّا لِلتَّعبيرِ اللاتينيِّ الكلاسيكيِّ، وصَلَ إلينا منهُ لِحُسنِ الحَظِّ قَدرٌ كبيرٌ. مِن آثارِهِ: طَبيعَةُ الآلِهَةِ، والنُّبوءةُ، والقدرُ. [المُترجِم]

(72) كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (القاهِر). [المُترجِم]

(73) كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (المحظوظ). [المُترجِم]

(74) كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (المحظوظ). [المُترجِم]

(75) كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (الثاني)، وكذلكَ (المفَضَّل) أو (المحظوظ). [المُترجِم]

(76) سالفيوس: كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (الصَّبور)، و(الشديدَ التدقيق). وفاليريوس: كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (القَويّ). [المُترجِم]

(77) كلمةٌ لاتينيَّةُ الأصلِ، تَعني (القضيب)، أو (الصَّولَجان). والمقصودُ بِشيبيو هنا: كورنيليوس شيبيو 'سالفيتو' (وقد مُنِحَ لَقَبَ 'سالفيتو' لِشبهِهِ بِفنّانٍ للتمثيلِ الصامتِ يَحمِلُ هذا الاسمَ)، الذي عاشَ في أواخِرِ عصرِ الجمهوريَّةِ الرومانيَّةِ، وكانَ أحدَ ذوي قَرابةِ شيبيو الأفريقيِّ، الجنرال الرومانيِّ الذي هزَمَ هانيبَعل. وكانَ سالفيتو شخصًا مُزدَرًى لا يُذكَرُ، حتّى ألحَقَهُ يوليوس قيصَر في سنةِ 46 ق.م بحملتِهِ في شمالِ إفريقيا لِمُقاتلةِ فُلولِ قُوّاتِ بومبي، تحتَ قيادةِ كونتوس ميتيلوس بيوس شيبيو ناسيكا. وبسببِ اعتقادٍ متأصِّلٍ مفادُهُ أنَّهُ لا يُمكِنُ أن ينتصِرَ في إفريقيا سِوَى مَن يَحمِلُ اسمَ شيبيو، ولأنَّ يوليوس =

المتمرِّدِينَ على مُتابَعَتِهِم شَخصًا اسمُهُ أتريوس أُومْبَر Atrius Umber وهوَ 'قائدٌ مَقيتُ السُّمعَةِ'، لِكَونِهِ، على ما يَدعُوهُ دي كونسي De Quincey[78]، 'حَشوَ الظَّلام.' وواسَى الإمبراطورُ سيفيروس Severus نفسَهُ في خِياناتِ زوجتِهِ الإمبراطورةِ جُوليا Julia؛ بِكَونِها حمَلَتِ اسمَ ابنةِ أوغُسْطُس Augustus الخليعةِ نَفسَهُ[79]، ولَمّا أصبَحَ أدريان السّادِسُ Adrian VI. أسقُفًا أقنَعَهُ كَرادِلَتُهُ بِعدَمِ الاحتِفاظِ باسْمِهِ الأصليِّ، بِحُجَّةِ أنَّ كُلَّ الأساقِفَةِ الذينَ فعلوا ذلكَ ماتُوا في السَّنَةِ الأُولَى مِن وِلايتِهِم[80].

وإذا ما تأمَّلْنا مَلِيًّا التَّأثيراتِ التي قد تكونُ وَجَّهَتِ اهتمامَ المفكِّرِينَ الإغريقِ والرّومانِ إلى المشكِلاتِ اللُّغَويَّةِ، فإنَّ ما يَفْجَؤُنا أوَّلَ وَهْلَةٍ أنَّ الكثيرَ منهم مِمَّن بِناءاتُهُم لَفظيَّةٌ إلى حُدودٍ بَعيدَةٍ جِدًّا كانوا كذلكَ في جَوانِبَ مُعَيَّنَةٍ مُدرِكِينَ تَمامًا الطَّبيعةَ المضَلِّلَةَ لِوَسَطِهِم. وإنَّ انجِذابَ الهيراقليطيِّينَ إلى اللُّغَةِ بِوَصفِها شاهِدًا لِمَذهَبِ التَّغَيُّرِ المستَمِرِّ، على ما عَلِمْناهُ مِن مُحاوَرَةِ أقراطيلوس، عارَضَهُ بِشِدَّةٍ المناطِقَةُ البارمينيدِيُّونَ والمؤمِنُونَ بِالمُثُلِ كذلكَ. وأبدَى أفلوطين Plotinus[81]

= قيصَر كانَ يُواجِهُ شخصًا اسمُهُ شيبيو، جعَلَ يوليوس قيصَر سالفيتو في مقدِّمةِ جيشِهِ؛ بِوَصفِهِ تَعويذةً لِحظٍّ سعيدٍ؛ أو لتهدئةِ قوّاتِهِ المتوتِّرةِ؛ أو لإثباتِ ازدرائهِ شيبيو ناسيكا. [المُترجِم]

(78) توماس بينسن دي كونسي (1785-1859م). كاتبُ مَقالاتٍ إنجليزيٌّ. أشهرُ ما عُرِفَ به كتابُ (اعترافاتُ مُدمِنٍ إنجليزيٍّ لِلأفيونِ). ويُشيرُ الكثيرُ من الدارسِينَ إلى أنَّ دي كونسي قد افتتحَ بِنَشرِهِ هذا الكتابَ تُراثَ أدبِ الإدمانِ في الغَربِ. [المُترجِم]

(79) F. W. Farrar, *Language and Languages*, pp. 235-6.

(80) Mervoyer, *Etude sur l'association des idées*, p. 376.

(81) أفلوطين (205-270م). فيلسوفٌ مَشهورٌ من العالَمِ القَديمِ. يُعَدُّ معَ أستاذِهِ أمونيوس ساكس مؤسِّسَ الأفلاطونيَّةِ الحديثةِ التي كانَ لها تأثيرٌ كبيرٌ في العصورِ الوُسطى. وجميعُ المعلوماتِ التي لدينا عنهُ مُستَقاةٌ مِن تلميذِهِ فورفوريوس الذي جمعَ تعاليمَهُ في ستَّةِ أجزاءٍ تُدعَى التّاسوعاتِ لاشتِمالِ كلِّ جُزءٍ من هذهِ الأجزاءِ على تِسعِ مَقالاتٍ، ولولا هذا العملُ لَضاعَت تعاليمُ أفلوطين. ولِكتاباتِ أفلوطين تأثيرٌ كبيرٌ في عدَّةِ أديانٍ وفلسفاتٍ كاليهوديَّةِ، والمسيحيَّةِ، والصُّوفيَّةِ. [المُترجِم]

استِعدادًا مُماثِلاً لِلإقرارِ بِأنَّ الافتراضاتِ المسَبَّقَةَ لِلُّغَةِ تَجِبُ مُقاوَمتُها بِعُنفٍ. واللُّغَةُ، مِن وِجهَةِ نَظَرِ الأفلاطونيَّةِ المُحدَثَةِ Neo-Platonic(82)، "لا يُمكِنُ أن نَجعَلَها تُعَبِّرُ عن طبيعةِ النَّفْسِ إلّا بِقَصْرِها على أغراضٍ لا يُفَكِّرُ مُعظَمُ النّاسِ في استِخدامِها مِن أَجْلِها"، وزِيادَةً على ذلكَ "لا يُمكِنُ وَصفُ النَّفْسِ البَتَّةَ إلّا بِعِباراتٍ قد تَغدُو بِلا مَعنًى في حالِ تَطبيقِها على الجَسَدِ أو صِفاتِهِ، أو على تَحدِيداتِ أجسامٍ مَخصوصَةٍ"(83). [37]

وذَهَبَ الكُتّابُ البُوذِيُّونَ إلى أبعدَ مِن ذلكَ في رَفضِهِم أشكالَ اللُّغَةِ المضَلِّلَةَ، عندَ مُعالَجَتِهِم 'النَّفْسَ.' فَسَواءٌ كانَ اسمُها *satta* (الوُجود)، أو *attā* (النَّفْس)، أو *jiva* (المَبْدَأ الحيّ)، أو *puggăla* (الشَّخْص)، لم يَكُن ذلكَ مُهِمًّا:

> "فإنَّها لَيسَتْ إلّا أسماءً، وتَعبيراتٍ، وانعِطافاتٍ كَلاميَّةً، وتَسمِياتٍ في الاستِعمالِ العامِّ في العالَم. ومَن ظَفَرَ بِالحقيقةِ كانَ قادِرًا على الإفادةِ منها حَقًّا، على أنَّها لَن تُضَلِّلَهُ"(84).

وكانَ البُوذِيُّونَ ذَوُو المَوقِفِ الاستِثنائيِّ مِن اللُّغَةِ على أَتَمِّ الاستِعدادِ لاستِعمالِ العِباراتِ العُرفِيَّةِ في البَياناتِ الشَّعبيَّةِ، غيرَ أنَّهُ ليسَ مِن الواضِحِ: أَحَصَلَ لَدَيْهِم أيُّ تَطويرٍ لِمُقارَبَةٍ دَقيقَةٍ لِلمُشكِلاتِ الخياليَّةِ؟(85).

---

(82) الأفلاطونيَّةُ المُحدَثَةُ: مدرسةٌ فلسفيَّةٌ تشكَّلَتْ في القَرنِ الثّالثِ لِلميلادِ بناءً على تعاليمِ أفلاطون والأفلاطونيِّينَ، لكنَّها اشتملَتْ على تفسيراتٍ يَراها كثيرٌ من الباحثِينَ مُختلفةً عن فلسفةِ أفلاطون الأصليَّةِ. وعلى الرَّغمِ من أنَّ الأفلاطونيِّينَ المُحدَثينَ يَعُدُّونَ أنفسَهُم أفلاطونيِّينَ ومُدافِعِينَ عن أفكارِ أفلاطون يَرَى كثيرٌ من الباحثِينَ فلسفتَهُم مُحاولةً للجمعِ بينَ مَدرستَي اليونانِ الأساسيَّتَيْنِ الأفلاطونيَّةِ والأرسطيَّةِ. وقد وُضِعَ الشَّكلُ الأساسيُّ لهذهِ المدرسةِ على يدِ أفلوطين الذي قالَ إنَّه تلقَّى التَّعاليمَ الأفلاطونيَّةَ من أمونيوس ساكس أحدِ أهمِّ فلاسفةِ الإسكندريَّةِ. [المُترجِم]

(83) Whittaker, *The Neo-Platonists*, p. 42.

(84) Digha N. I. 263; cf. C. A. F. Rhys Davids, *Buddhist Psychology*, p. 32.

(85) لِلوقوفِ على دِراسَةٍ مُوَسَّعَةٍ عن المدارِسِ الفِكريَّةِ الشَّرقيَّةِ وسُلوكِها معَ الكَلِماتِ، يُنظَرُ: *op. cit.*, *Word Magic*, by C. K. Ogden.

ولكِنْ على الرَّغمِ مِن أنَّ كُلَّ ما بَعدَ الأرسطيَّةِ مِن مَدارِسَ، ولا سِيَّما المدرسةُ الرِّواقِيَّةُ[86] التي كانَ لِوِجهتِها اللُّغويَّةِ أثَرُها البالِغُ في الحُقوقيِّينَ الرّومانِ[87]، أَوْلَتِ النَّظريَّةَ اللُّغَويَّةَ قِسْطًا مِن الاهتِمامِ، لا نَجِدُ في الأزمنةِ القديمةِ دَليلاً على أنَّ ذلك قادَ إلى دِراسةٍ لِلرُّموزِ كَتِلكَ التي بَدَا أحيانًا أنَّ أفلاطونَ وأرسطو قد قارَبَاها. ومَرَدُّ ذلك، على ما سنَرَى، إلى الافتِقارِ إلى أيَّةِ محاوَلَةٍ لِلتَّعامُلِ معَ العَلاماتِ بِما هِيَ، ومِن ثَمَّ لإدراكِ وَظائفِ الكَلِماتِ المُتعلِّقَةِ بالأحوالِ العَلامِيَّةِ التي هيَ أكثَرُ عُموميَّةً والتي يَعتَمِدُ عليها الفِكْرُ كُلُّهُ. على أنَّهُ قَبلَ أن تُزهِقَ المسيحيَّةُ الرُّوحَ النَّقديَّةَ بِقَليلٍ في نِهايَةِ المَطافِ، ظَهَرَت دِراساتٌ فَذَّةٌ في العالَمِ الإغريقيِّ-الرّومانيِّ، وأُخضِعَتِ المشكِلَةُ المركزيَّةُ لِفحصٍ فيهِ مِن الدِّقَّةِ ما كانَ يُمكِنُ أن يَقودَ إلى تَطوُّرٍ عِلميٍّ حَقيقيٍّ. وأدرَكَ القادةُ الدِّينيُّونَ حجمَ الخطَرِ، [38] حتَّى إنَّ ثَمَّةَ فِقرةً عندَ غريغوري النَّزينزِيِّ St Gregory of Nazianzus[88]، يُتَذَمَّرُ فيها مِن الإشكالِ الحاصِلِ مُنذُ "أن أُتيحَ للسّكستونِيِّينَ

(86) الرِّواقيَّةُ: مدرسةٌ فلسفيَّةٌ أخلاقيَّةٌ معاصرةٌ لِلأبيقوريَّةِ. انتشرَتْ في إطارِ الثقافةِ اليونانيَّةِ في القرنِ الثالثِ قبلَ الميلادِ بتأثيرِ الأفكارِ التي تدعو إلى المواطَنةِ العالَميَّةِ والنزعةِ الفرديَّةِ والمعرفةِ الرياضيَّةِ. وقد وضَعَ أصولَها زينون. وسمِّيَتْ بالرِّواقيَّةِ نِسبةً إلى الرِّواقِ المُصَوَّرِ بأثينا، مَكانِ اجتماعِ الشعراءِ، الذي اتَّخذَهُ زينون مقرًّا يجتمِعُ فيهِ بأصحابِهِ. وأطلَقَ عليهم الإسلاميُّونَ اسمَ أصحابِ المظلَّةِ، وحُكماءِ المظالِّ، وأصحابِ الأصطوانِ. والغايةُ الرئيسةُ من الفلسفةِ عندَهم أن تكونَ فلسفةً عمليَّةً أخلاقيَّةً. وقد عُنُوا بالناحيةِ الشكليَّةِ الصِّرفةِ، أي ناحيةِ الألفاظِ والحدودِ، أكثرَ ممّا عُنُوا بالبحثِ في العمليّاتِ المنطقيَّةِ العقليَّةِ. [المُترجِم]

(87) Lersch, *Die Sprachphilosophie der Alten*, Vol. III., pp. 184-6
ويُستَشهَدُ بإليوس غالوس Aelius Gallus لِتعريفِهِ النَّهْرَ بِأنَّهُ "الماءُ الذي يتدَفَّقُ". واستِنادًا إلى ما ذَكَرَهُ جيليوس Gellius كانَ أنتِستيوس لابيو Antistius Labeo مُغرَمًا بِالنَّحوِ والدِّيالكتيك، "وأُصولِ الكَلِماتِ اللاتينيَّةِ وتَكوينِها، وتَطبيقِ تلكَ المعرفةِ على نحوٍ خاصٍّ في حَلِّ الكثيرِ مِن النِّقاطِ المُعقَّدَةِ في القانونِ".

(88) غريغوري النَّزينزِيُّ (329-389 أو 390م). رئيسُ أساقِفَةِ القسطنطينيَّةِ، ويُعَدُّ أكثرَ اللاهوتيِّينَ براعةً في أسلوبِهِ البلاغيِّ في العصرِ الآبائيِّ. وهو خطيبٌ وفيلسوفٌ أيضًا، أدخلَ مفهومَ الهيلينيَّةِ ذاتِ الولاءِ لِلفِكرِ الإغريقيِّ إلى كنيسةِ المسيحيَّةِ الأولى، واضِعًا بذلكَ أنموذجًا للبيزنطيِّينَ اللاهوتيِّينَ والمسؤولينَ في الكنيسةِ. [المُترجِم]

Sexti[89] والبيرونِيِّينَ Pyrrhoneans[90] ورُوحِ التَّناقُضِ التَّطفُّلُ بِخُبْثٍ على كَنائسِنا، كَوَباءٍ شِرِّيرٍ حاقِدٍ"[91]. والحقُّ أنَّ نظريَّةَ العَلاماتِ جُملَةً كانَتْ قَد خَضَعَتْ لِفَحصٍ كُلٌّ مِن أينيسيديموس Aenesidemus[92] مُجَدِّدِ البيرونِيَّةِ Pyrrhonism في الإسكندريَّةِ، وطَبيبٍ إغريقيٍّ يُدعَى سكستوس Sextus[93] بينَ المِئةِ والمِئتَيْنِ والخمسِينَ بَعدَ الميلادِ. وكانَ ما قُدِّمَ مِن تَحليلٍ أكثرَ جَوهريَّةً مِن كُلِّ ما ظَهَرَ حتَّى القَرنِ التاسعَ عَشَرَ[94].

ولا رَيبَ في أنَّ هذهِ النَّظرَةَ العامَّةَ المختَصَرَةَ لِلمُقارَبَةِ اللُّغويَّةِ الإغريقيَّةِ-

---

(89) نِسبَةً إلى سَكستوس أمبِرقوس (160-260م)، وهو طبيبٌ وفيلسوفٌ، تذكرُ المصادرُ أنَّهُ عاشَ في الإسكندريَّةِ أو روما أو أثينا على خِلافٍ. يُمَثِّلُ كِتاباهُ (مَعالِمُ البيرونيَّةِ) و(الرَّدُّ على الجَزْمِيِّينَ) أكمَلَ ما وصلَ إلينا مِن مَذهبِ الشَّكِّ الفلسفيِّ الإغريقيِّ والرّومانيِّ. [المُترجِم]

(90) نِسْبَةً إلى البيرونيَّةِ، وهيَ مَدرسةٌ شَكِّيَّةٌ أسَّسَها الفيلسوفُ اليونانيُّ أينيسيديموس في القرنِ الأوَّلِ قبلَ الميلادِ، ودَوَّنَها سكستوس أمبِرقوس في أواخرِ القرنِ الثاني بعدَ الميلادِ أو أوائلِ القرنِ الثالثِ بعدَ الميلادِ. أُطلِقَ عليها هذا الاسمُ نِسبَةً إلى الفيلسوفِ اليونانيِّ بيرو (360-270 ق.م) وأتباعِهِ. وما زالَتْ أصداءُ هذا المذهبِ تتردَّدُ في فلسفاتِ العصرِ الحديثِ. [المُترجِم]

(91) يُنظَر كذلكَ: N. Maccoll, *The Greek Sceptics* (p. 108), إذ أُشيرَ إلى أنَّهُ بَعدَ ثَلاثَةَ عَشَرَ قَرنًا، حينَ وُوجِهَت السُّلطةُ بِالتَّحدِّي مرَّةً أُخرَى، استَقطَبَ بَقايا هؤُلاءِ المفكِّرِينَ الاهتِمامَ حالاً. وكَتَبَ فوشير Foucher تأريخًا لِلأكاديميَّةِ الجديدةِ، وتَرجَمَ سوربيير Sorbière فَرضِيّاتِ سكستوس Hypotheses of Sextus.

(92) أينيسيديموس: فيلسوفٌ يونانيٌّ عاشَ في القرنِ الأوَّلِ قبلَ الميلادِ. كانَ تلميذًا للفيلسوفِ بيرو، ومن أتباعِ أكاديميَّةِ أفلاطون. دعا إلى النَّزعةِ الشَّكِّيَّةِ، ولم يَرَ إمكانَ قبولِ التَّأكيدِ؛ إذ إنَّ ثَمَّةَ تأكيدًا مُضادًا على الدَّوامِ. تُسَمَّى مدرستُهُ بِالبيرونيَّةِ، وكذلكَ بالمدرسةِ الشَّكِّيَّةِ الثالثةِ. أثَرُهُ الرَّئيسُ هو (البيرونيَّةُ)، وقد ناقشَ فيهِ أربعَ أفكارٍ رئيسةٍ، أولاها: أسبابُ الشَّكِّ والارتيابِ؛ وثانيتُها: الحُجَجُ المُضادَّةُ لِلسَّببيَّةِ والصِّدقِ؛ وثالِثُها: النظريَّةُ المادِّيَّةُ؛ ورابعتُها: النظريَّةُ الأخلاقيَّةُ. [المُترجِم]

(93) هوَ سَكستوس أمبِرقوس، وقد تقدَّمَت ترجمتُهُ قبلَ قليلٍ. [المُترجِم]

(94) يُنظَر: R. D. Hicks, *Stoic and Epicurean*, p. 390 ff., on Aenesidemus; and *infra*, Appendix c.

الرّومانيَّةِ كافِيَةٌ لِتَمثيلِ التَّفَكُّرِ في هذا الموضوعِ في المرحلةِ التي سَبَقَتِ العِلْمَ. وزِيادَةً على ذلكَ، كانَ تأثيرُها في الفِكرِ الأوروبيِّ المعاصِرِ أكبرَ حتَّى مِن تأثيرِ التَّطوُّرِ الخِصْبِ لِلنَّظريّاتِ الشَّرقيَّةِ. ويَبدو أنَّ الجوَّ اللفظيَّ الذي نَشَأَتْ في كَنَفِهِ مُعظَمُ الفَلسفةِ الهِنديَّةِ كانَ أكثرَ كَثافَةً حتَّى مِن ذلكَ الذي عاشَ في ظِلِّهِ الفَلاسِفَةُ المدرَسِيُّونَ[95]، أو الجَدَلِيُّونَ الإغريقُ. وفي هذا المجالِ لا يَكادُ كُلٌّ مِن جَدَلِ المِمامسا-نيايا Mimāmsā-Nyāya، وفَلسَفَةِ اليوغا، ومَقُولاتِ الفِجنانافادا Vijñānanvāda، والبرابهاكارا مِمامساكاس Prābhākara Mīmāmsakas[96]، يُعَدُّ أقَلَّ تأَلُّقًا مِن مَذهَبِ الكَلِمَةِ المقدَّسَةِ AUM[97] والانتِشاءاتِ اللفظيَّةِ لِلتَّأمُّلاتِ الصُّوفيَّةِ[98]، التي جَدَّدَ جُزءًا مِن آليَّتِها الدكتور كُوي Coué[99].

---

(95) نِسبَةً إلى الفلسفةِ المدرسيَّةِ أو السكولاستيَّةِ، وهيَ الفلسفةُ المسيحيَّةُ التي كانَتْ سائدةً في القرونِ الوُسطَى. انبثَقَتْ من المدارسِ التي أُنشِئَتْ في عهدِ شارلمان، وفي أواخرِ القرنِ الثامنِ للميلادِ، وظلَّتْ مُسيطرةً على الفكرِ المسيحيِّ حتّى أوائلِ عَصرِ النهضةِ. بُنِيَتْ على منطقِ أرسطو ومفهومِهِ لِما وراءَ الطبيعةِ بعدَ أن عرَفَ الأورُبيُّونَ كُتُبَهُ من طريقِ الفيلسوفِ العربيِّ ابنِ رُشدٍ. استَهدَفَتْ هذهِ الفلسفةُ في المقامِ الأوَّلِ إضفاءَ صفةٍ عَقلانيَّةٍ على اللاهُوتِ المسيحيِّ، وإقامةَ الدليلِ على أن لا تَعارُضَ بينَ العَقلِ والدِّينِ. أشهَرُ رِجالِها توما الأكوينيُّ صاحِبُ المذهَبِ المعروفِ بِاسمِ (التومانيَّة). ويُطلَقُ اسمُ السكولاستيَّةِ أيضًا على السكولاستيَّةِ المُحدَثَةِ، وهيَ حركةٌ كاثولَيكيَّةٌ حديثةٌ ظهَرَتْ في أواخرِ القرنِ التاسعَ عشَرَ، واستَهدَفَت تعديلَ طرائقِ الفلسفةِ السكولاستيَّةِ بحيثُ تُلائمُ حاجاتِ العصرِ الفكريَّةَ ومُكتشَفاتِ العصرِ الحديثِ. [المُترجِم]

(96) Keith, *Indian Logic*, chapter V.; Dasgupta, *History of Indian Philosophy*, Vol. I., pp. 148-9, 345-54; Rama Prasad, *Self-Culture or the Yoga of Patanjali*, pp. 88, 148, 152, 156, 215; Vedânta Sutras, *Sacred Books of the East*, Vol. XLVIII., p.148.

(97) رَمزٌ مُقَدَّسٌ في الهندوسيَّةِ والبوذيَّةِ والجينيَّةِ، يوضَعُ عادةً في بدايةِ النصوصِ الهندوسيَّةِ بِوصفِهِ عنوانًا مُقدَّسًا يُقرَأُ قبلَ قراءةِ نصوصِ الفيدا أو بعدَها، أو يَسبِقُ أيَّةَ صلاةٍ، ويُستعمَلُ في خِتامِ التضرُّعِ إلى الإلهِ الذي يُتقرَّبُ إليهِ لِيُمثِّلَ دعوةً لهذا الإلهِ لِلمُشاركةِ في القُربانِ. [المُترجِم]

(98) *The Science of the Sacred Word* (translated by Bhagavan Das); R. A. Nicholson, *Studies in Islamic Mysticism*, pp. 6-9.

(99) إميل كوي (1857-1926م). عالِمُ فسلجةٍ وصيدَلَةٍ فرنسيٌّ، قدَّمَ طريقةً مشهورةً في =

إنَّ تأريخَ التَّعويذاتِ، والسِّحرِ اللفظيّ، والطِّبِّ اللفظيّ، سَواءٌ كانَ مَن يُمارِسُ ذلكَ مُشَعْوِذَ التروبرياند(100) Trobriand(101)، أو كاهِنَ نُصوصِ الأهرامِ المِصريَّ، أو عالِمَ الميتافيزيقا المُعاصِرَ، هو مَوضوعٌ بِحَدِّ ذاتِهِ [39] وقَد عُولِجَ على نحوٍ مُفَصَّلٍ في كِتابِ **سِحْر الكَلِمَة** *Word Magic*، الذي صُمِّمَ لِيكونَ تَوسيعًا لِهذا الفَصلِ.

ولا يَنكَشِفُ المدَى الذي ما زالَ الفَطِنُ يَبْلُغُهُ في استِغلالِ المواقِفِ البِدائيَّةِ تجاهَ الكَلِماتِ تَمامَ الانكِشافِ إلّا عندَ انسِجام إنجازاتِ بَلاغِيٍّ ساخِرٍ معَ أضواءِ قاعةِ العَدلِ، أو حينَ تَكونُ سخافةٌ مُتَأَلِّقَةٌ مُعَيَّنَةٌ بَديلاً من أكثَرِ أساليبِ الإيحاءِ تأنِّيًا التي تُفَضِّلُها الصّحافةُ التَّكراريَّةُ. غيرَ أنَّ هذه المواقِفَ أنفُسَها عامَّةٌ عندَ الأطفالِ، وتُقَوِّيها النَّزعَةُ اللفظيَّةُ الطّاغيةُ تَقْوِيَةً لا تَملِكُ مَعَها حتَّى الدُّرْبَةُ العِلميَّةُ الفائقَةُ الدِّقَّةِ إلّا القَليلَ مِن حيثُ جَعلُ البالِغ أقَلَّ خُنوعًا لِوَسَطِهِ. والحقُّ أنَّ أمهَرَ المناطِقَةِ، على ما قد رأينا، هُم، على وجهِ التَّحديدِ، أُولئكَ الذينَ سِيقُوا لاستِنباطِ أكثرِ الأنظمةِ رَوْعَةً بِمَعونَةِ آليَّتِهِم اللفظيَّةِ. وفي الأزمِنَةِ القادِمَةِ قد يُعَدُّ المنطِقِيُّ المُعاصِرُ الصُّوفِيَّ الحقيقيَّ، حينَ يَخضَعُ الأساسُ العَقلانيُّ لِلعالَمِ الذي يُؤمِنُ بِهِ لِلفَحصِ العِلميِّ.

وإذا ما انعَطَفْنا نحوَ جَوانِبَ أكثرَ عاطِفِيَّةً في الفِكرِ المعاصِرِ فلَن يُفاجِئَنا وُجودُ طُقوسٍ عِربيدَةٍ حقيقيَّةٍ لِهَوَسِ الألفاظِ verbomania. والعمليَّةُ التي اكتَسَبَت بِها الأنظمةُ اللفظيَّةُ الخالِصَةُ، التي أكثَرُ ما يَسِمُها هو التَّأمُّلُ الأصيلُ، أبعادًا

= العِلاجِ النَّفسيِّ والتَّحسينِ الذّاتيِّ تعتمدُ على الإيحاءِ الذّاتيِّ التَّفاؤُليّ. وقد عالَجَ الكثيرَ من المَرضى مِن غيرِ تَقاضي أيِّ أجرٍ. من أهمِّ آثارِهِ: كيفيَّةُ مُمارَسَةِ الإيحاءِ والإيحاءِ الذّاتيّ. [المُترجِم]

(100) التروبرياند: جُزُرٌ تُعرَفُ اليومَ بِاسمِ جُزُرِ كِيريوِينا. وهيَ 450 كيلومترًا مربَّعًا من الجُزُرِ المرجانيَّةِ المقابلةِ لِلسّاحلِ الشَّرقيِّ من غينيا الجديدةِ. مُعظمُ سُكّانِها الأصليِّينَ البالِغ عددُهُم اثني عشرَ ألفًا يعيشونَ في جزيرةِ كِيريوِينا الرَّئيسةِ. وتُعَدُّ هذه الجُزُرُ منطقةً مُهمَّةً من الغاباتِ الاستوائيَّةِ التي تحتاجُ إلى أن يُحافَظَ عليها. [المُترجِم]

(101) Malinowski, *Argonauts of the Western Pacific*, pp. 408-10.

هائلةً كَهذِهِ أخضَعَها رِنيانو Rignano[102] حَديثًا لِلاختبارِ[103]. فالنُّعوتُ التي كَشَفَتِ التَّجارِبُ عن تَناقُضِها كانَت تُجَرَّدُ مِن الطّابِعِ المادِّيِّ تَدريجيًّا، ويُوضَعُ محلَّها "ظُروفٌ لَفظِيَّةٌ خاوِيَةٌ مِن أيِّ مَضمونٍ مَفهومٍ؛ مِن أجلِ استِئصالِ التَّناقُضِ المُتَبادَلِ والتَّثبيطِ اللَّذَيْنِ ستُوَلِّدُهُما هذهِ النُّعوتُ حَتْمًا إذا ما سُمِحَ لَها بأنْ تُقَدِّمَ مادَّةً لِلخَيالِ ولَو بِنِسبَةٍ ضَئيلَةٍ". وبِمُوازاةِ هذا التَّجريدِ من الطابعِ المادِّيِّ شُيِّدَ صَرحٌ دِيالكتيكيٌّ هائلٌ نَحوُ ما كانَ لِلفلسفةِ المَدرَسِيَّةِ، مِن أجلِ إقناعِ العَقلِ البَشَرِيِّ بِغِيابِ التَّعارُضِ المنطِقِيِّ في أكثَرِ السَّخافاتِ سُخْفًا[104]. [40]

بِهذِهِ الطَّريقةِ، قُلِّصَتْ فِكرةُ الأُلوهيَّةِ، على سبيلِ المِثالِ، إلى "خَليطٍ مِن النُّعوتِ لَفظيٍّ خالِصٍ أو يَكادُ". ونَجَمَ عن ذلكَ أخيرًا، على حَدِّ قَولِ وِليَم جَيمس William James[105]، "أنَّ مَجموعةَ النُّعوتِ الميتافيزيقيَّةِ التي يتخيَّلُها اللاهوتيُّ" (كَوْنُ اللهِ هو العِلَّةَ الأُولَى يَجعَلُهُ يَمتلِكُ وُجودًا بِنَفسِهِ؛ وهوَ ضَروريٌّ ومُطْلَقٌ، لا يَحُدُّهُ شَيءٌ البتَّةَ، كامِلٌ كَمالاً لا نِهايَةَ لَهُ؛ وهوَ واحِدٌ ووَحِيدٌ، رُوحانِيٌّ، بَسيطٌ ميتافيزيقيًّا، ثابِتٌ، أَبَدِيٌّ، كُلِّيُّ القُدرةِ، كُلِّيُّ العِلْمِ، كُلِّيُّ الوُجودِ، وما إلى ذلكَ) "لَيسَتْ سِوَى خَلْطٍ ومُزاوَجَةٍ بينَ صِفاتٍ مُعجَمِيَّةٍ مُتَحَذلِقَةٍ. وإنَّ أحَدَنا لَيَشعُرُ بِأنَّها وهيَ تَحتَ تَصَرُّفِ اللاهوتِيِّينَ ما هيَ إلّا

(102) يوجينو رِنيانو (1870-1930م). فيلسوفٌ يَهوديٌّ إيطاليٌّ. حرَّرَ مجلَّةَ Scientia، وأثَّرَ كتابُهُ (سايكولوجيَّةُ التَّفكير) (1923) في الأنثروبولوجيِّ الاجتماعيِّ إدوَرد إيفانز برتشارد، وألَّفَ جوزيف نيدهام كتابَهُ (الإنسانُ آلةٌ) (1927) بعدَ أن نَشَرَ رِنيانو كتابَهُ (الإنسانُ ليسَ بآلةٍ) (1926). [المُترجِم]

(103) *The Psychology of Reasoning*, Chap. XI. on Metaphysical Reasoning.

(104) Cf. Guignebert, " Le dogme de la Trinité ", *Scientia*, Nos. 32, 33, 37 (1919.14)

(105) وِليَم جَيمس (1842-1910م). فيلسوفٌ وعالِمُ نَفسٍ أمريكيٌّ. يُعَدُّ هوَ وتشارلز ساندرز بيرس وجون ديوي أعظمَ الشَّخصيّاتِ التي ارتبطَتْ أسماؤُها بالمدرسةِ المُسمّاةِ بالبراغماتيَّةِ، ويُعَدُّ أحدَ مُؤسِّسي علمِ النَّفسِ الوظيفيِّ. أثَّرَ في عددٍ مِن عَمالِقَةِ الفِكرِ مثلِ إميل دوركهايم، وإدموند هوسِّيرل، وبرتراند رَسِل، ولودفيغ فِتغِنشتاين. مِن أكثرِ مُؤلَّفاتِهِ تأثيرًا: مَبادِئُ عِلمِ النَّفس، وتنوُّعاتُ التَّجرِبَةِ الدِّينيَّة. [المُترجِم]

مَجموعةُ عُنواناتٍ اكتُسِبَتْ بِمُعالَجةٍ ميكانيكيَّةٍ لِلمُترادِفاتِ؛ فالنَّزعةُ اللفظيَّةُ حلَّتْ مَحلَّ الرُّؤيَةِ، والاحتِرافيَّةُ مَحَلَّ الحياةِ"[106].

وعلى نَحوٍ مُشابِهٍ، تَكونُ الوَظيفَةُ الأساسيَّةُ لِلُّغةُ في التَّفكيرِ الذي يُتَحَدَّثُ عنهُ عادَةً بِوَصفِهِ ميتافيزيقيًّا تَقديمَ "إسنادٍ لَفظيٍّ مَكينٍ، بِحَيثُ يُمكِنُ استِدعاءُ المَفاهيمِ غيرِ المنضبِطَةِ، وغيرِ الواضِحَةِ، والمتقلِّبَةِ، إلى الذِّهنِ عندَ الحاجةِ، مِن غيرِ أيِّ إضرارٍ بِمُرونةِ المَفاهيمِ"؛ فلِذلكَ كانَ في التَّعبيرِ المُتَبَنَّى "ما أَمكَنَ مِن الضَّبابيَّةِ والغُمُوضِ. فَمِن هُنا يَنشَأُ ما يُسَمَّى بالتَّعبيراتِ 'المكتوبةِ بِعُمقٍ'، التي يُحيلُ عليها رِيبو Ribot[107]، والأثيرَةِ عندَ الميتافيزيقيِّينَ جَميعًا، لا لِشَيءٍ إلّا أنَّها صِيغَتْ بِبراعةٍ لِتَحوِيَ كُلَّ ما يُرغَبُ أن تتضمَّنَهُ، ولِتُخفِيَ كذلكَ تناقُضاتِ المذاهِبِ وسَخافاتِها المستنِدَةَ إلى المَفاهيمِ ذاتِ الشَّأنِ... مِن أجْلِ ذلكَ كانَتْ مهمَّةُ الرَّمزِ اللفظيِّ إبقاءَ النُّعوتِ المتَنافِرَةِ مُتَّحِدَةً اتِّحادًا قَسرِيًّا، على الرَّغمِ مِن أنَّهُ قد يكونُ مِن غيرِ المُمكِنِ استِحضارُها جَميعًا في الذِّهنِ في اللحظةِ نَفسِها لِسببٍ واحِدٍ هو أنَّ بَعضَها يَنفي بَعضًا؛ معَ أنَّ مِن المُهِمِّ أن تَكونَ تَحْتَ تَصَرُّفِ الميتافيزيقيِّ لِيَستَنبِطَ مِن المَفهومِ، مِن مَجموعِها، حُزمَةً مِن الاستِنتاجاتِ أحيانًا، وحُزمَةً غَيرَها أحيانًا [41] أُخرَى، بِحَسَبِ ما يُرغَبُ فيهِ مِن عَرضٍ لِلواقِعِ".

وفي النِّهايةِ، حَلَّتِ الكلمةُ مَحَلَّ الفِكرةِ كُلِّيًّا- وعَلَّقَ ميفِستوفيليس Mephistopheles[108] بِقَولِهِ: حَيثُ يَضْعُبُ الفَهْمُ إذا بِكَلِمَةٍ تُظْهِرُ نَفسَها في الوَقتِ

(106) W. James, *The Varieties of Religious Experience*, pp. 439-46.

(107) تيودول أرماند ريبو (1839-1916م). عالِمُ نَفسٍ فرنسيٌّ. ألقَى في سنةِ 1885 مُحاضَراتٍ في جامعةِ السّوربون في عِلمِ النَّفسِ التَّجريبيِّ، وعُيِّنَ في سنةِ 1888 أستاذًا للمادَّةِ في الكوليج دو فرانس. صَرَفَ اهتِمامًا مخصوصًا لِلعُنصرِ المادِّيِّ لِلحياةِ العقليَّةِ، مُهمِلاً جميعَ العوامِلِ الرُّوحيَّةِ أو غيرِ المادِّيَّةِ في الإنسانِ. من أعمالِهِ: فلسفةُ شوبنهاور، وعِلمُ النَّفسِ المُعاصِرُ في ألمانيا. [المُترجِم]

(108) ميفِستوفيليس: اسمٌ يُعطَى غالبًا الشَّخصِيَّةَ التي تُمثِّلُ الشَّيطانَ. وعلى العكسِ من الشَّيطانِ الذي يُمَثَّلُ عادَةً في المُخَيِّلَةِ الغربيَّةِ في صورةٍ شِبهِ حيوانيَّةٍ بِحوافرَ وقُرونٍ يبدو ميفِستوفيليس أكثرَ إنسانيَّةً؛ إذ يظهرُ في هيأةِ رجُلٍ طويلٍ مُسربَلٍ بِالسَّوادِ، يَحمِلُ =

المُناسِبِ. وكَم هو مُلائمٌ تَشبيهُ رِنيانو لِهذه العمليَّةِ بِطَرحِ حَيَوانٍ قِشرِيٍّ دِرْعَهُ. "فَعَدَمُ وُجودِ هذا الدِّرْعِ اللَفظيِّ يَجعَلُ اختِفاءَ كُلِّ المَضمونِ الفِكريِّ يَستَلزِمُ اختِفاءَ كُلِّ أثَرٍ لِلوُجودِ الماضي لِذلكَ المَضمونِ. لكِنَّ الدِّرعَ يَصونُ شَيئًا يُمكِنُ أن يُسْلَكَ في عِدادِ الموجوداتِ لِسَبَبٍ واحِدٍ هو أنَّ ذلكَ الشَّيءَ دَليلُ الوُجودِ الماضي لِفِكرةٍ كانَ لَها سابقًا حياةٌ حقيقيَّةٌ. لِذلكَ، يُشَكِّلُ هذا الشَّيءُ دَوْمًا، على خَوائِهِ مِن أيِّ مَضمونٍ فِكريٍّ، نُقطَةَ رَبطٍ وإسنادٍ ثَمينَةً لِلعاطِفةِ المُناظِرَةِ لَهُ، التي تَبْلُغُ مِن الشِّدَّةِ ما يَجعَلُها لا تُدرِكُ أنَّ مَواطِنَ الشَّبَهِ المَحبوبَةَ لَم تَعُد تَرتَدي الشَّيْءَ الحبيبَ"[109].

بَيْدَ أنَّ الدِّرعَ، أي القِشْرَةَ اللفظيَّةَ، لَيْسَ مُجَرَّدَ مُرتَكَزٍ وَدَاعِيٍّ، بَل إنَّ لَهُ طاقَةً رَنينِيَّةً، أي 'رَنينًا وجدانيًا' يُمَكِّنُ مُعالِجَ الرُّموزِ الذي قد يُمَثِّلُهُ المُطْلَقُ Absolute مِن طَمأنَةِ نَفسِهِ بِأنَّ جُهودَهُ لم تَذهَبْ سُدًى تَمامًا. يَقولُ باركلي Berkeley[110]: "مَتَى ما أصبَحَتِ اللغةُ مألوفةً فإنَّ سَماعَ الأصواتِ أو رُؤْيَةَ الخَصائصِ كَثيرًا مَا يَكونانِ مَصحوبَيْنِ مُباشَرَةً بِالعَواطِفِ التي كانَ مِن المُعتادِ في البَدْءِ أن يُنشِئَها تَخَلُّلُ الأفكارِ التي هي الآنَ مُطَّرَحَةٌ تَمامًا"[111]. وهكذا نُجاوِزُ الاستِعمالَ الرَّمزِيَّ لِلكَلِماتِ إلى الاستِعمالِ الانفِعالِيِّ. ولِريبو تعليقٌ حَسَنٌ على الكَلِماتِ المستَعمَلَةِ على هذا النَّحوِ كما في الشِّعْرِ، يَرَى فيهِ "أنَّها لَم تَعُد تَعمَلُ

= كتابًا أحمرَ يُوَقِّعُ فيهِ الأشخاصُ الذينَ يَبيعونَهُ أرواحَهُم. وغالبًا ما يَظهَرُ في هيأةِ راهبٍ فرانشِسكانيٍّ، ويكونُ بِهذهِ الصُّورةِ في نَصَّيْ كرِستوفَر مارلو 1616 الذي عنوانُهُ (تأريخُ الدكتور فاوستوس المأساويّ)، ويوهان فولفغانغ غوتة 1725 الذي عنوانُهُ (فاوست)، والذي اقتُبِسَ منهُ النَّصُّ الذي أورَدَهُ أوغدِن ورِتشاردز في هذا الموضِعِ. [المُترجِم]

(109) Rignano, *op. cit.*, Chap. XI.

(110) جورج باركلي (1685-1753م). فيلسوفٌ إنجليزيٌّ إيرلنديٌّ، وأسقفٌ أنجليكانيٌّ. يُعَدُّ مِن مُسانِدِي الرُّؤيَةِ الجوهريَّةِ في القرنِ الثامنَ عشرَ للميلادِ؛ إذ ادَّعَى عدمَ وجودِ شيءٍ اسمُهُ مادَّةٌ، وأنَّ ما يراهُ البشرُ ويَعُدُّونَهُ عالَمَهم الماديَّ لا يَعدو أن يكونَ مُجرَّدَ فكرةٍ في عِلمِ اللهِ. ولهُ أيضًا مؤلَّفاتٌ في الرِّياضيّاتِ وعِلمِ المعرِفةِ. من آثارِهِ: بَحثٌ لِمبادِئِ المعرفةِ الإنسانيَّة، ومَقالَةٌ نَحوَ نظريَّةٍ جديدةٍ في الرُّؤيَةِ، والمُحَلِّلُ. [المُترجِم]

(111) *Treatise*, Introduction, § 20.

بِوَصفِها عَلاماتٍ، بل بِوَصفِها أَصواتًا، وأَنَّها نَغَماتٌ موسيقيَّةٌ تَحْتَ تَصَرُّفِ عِلمِ نَفسٍ عاطِفِيٍّ"[112]. لِذلكَ، على الرَّغمِ مِن أنَّ التَّفكيرَ الميتافيزيقيَّ عندَ هذا الحدِّ مِن التطرُّفِ [42] قد يكونُ غيرَ قابِلٍ لِلاستيعابِ العَقلِيِّ، أي على الرَّغمِ مِن أنَّهُ قد يُصبِحُ حَقًّا 'يُعَبَّرُ عنهُ بِالكَلامِ ولا يتصَوَّرُهُ العَقلُ'، يَكتَسِبُ بِطَريقةِ التَّعويضِ، كما يَقولُ رِنيانو، "دَلالَةً انفِعاليَّةً مُمَيَّزَةً لَهُ، أي أنَّهُ يَتحوَّلُ إلى نوعٍ من اللغةِ الموسيقيَّةِ المُثيرَةِ لِلعَواطِفِ والانفِعالاتِ". ويَرْجِعُ نَجاحُهُ كُلِّيًّا إلى السِّلسِلَةِ المُتَناغِمَةِ مِن الأصداءِ العاطِفِيَّةِ التي يَستَجيبُ لَها العَقلُ السّاذَجُ- والمنطقة البَرْبَرِيَّة التي تُرَدِّدُ صَدَى الدوِيِّ الصّاخِبِ.

ولَيْسَتْ هذهِ التَّأثيراتُ بِأَقَلَّ فاعِلِيَّةً في الشُّؤونِ العَمَلِيَّةِ، وتَكونُ أكثَرَ كارِثِيَّةً بِكَثيرٍ. وكُلُّ ما نَحتاجُ إليهِ هو التَّمثيلُ بِما زَعَمَهُ الرّاحِلُ الدكتور كرُوكشانك Crookshank[113]، مُعَزِّزًا بِوَفرَةٍ مِن الأدِلَّةِ التَّفصيلِيَّةِ، مِن أنَّهُ "في ظِلِّ تأثيرِ مَدارِسَ فِكرِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، وعاداتٍ تَعبيرِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أصبَحْنا مُعتادِينَ أن نتكلَّمَ ونَكتُبَ كما لو أنَّ المرَضَ شيءٌ طَبيعيٌّ"؛ وأنَّهُ تَجِبُ مُقاوَمَةُ هذه العاداتِ اللفظيَّةِ الكارِثِيَّةِ؛ إذ "لا احتِمالَ لِحُصولِ أيِّ تَقَدُّمٍ كَبيرٍ في مَيدانِ الطِّبِّ حتَّى يُهجَرَ اعتِقادُ وُجودٍ حَقيقيٍّ لِلأمراضِ"؛ وأنَّهُ تَجِبُ مُواجَهَةُ المشكِلَةِ اللُّغَوِيَّةِ في الحالِ؛ إذ "لن يُنْجَزَ أيُّ قَدْرٍ مِن الاتِّفاقِ النّافِعِ ما لَم نَكُن مُنسَجِمِينَ أوَّلاً مع مَبادِئِ المنهَجِ والفِكرِ"[114]. ولا يُمكِنُنا بِسُهولَةٍ أن نَرفُضَ تأييدًا لمُقارَباتِنا لافِتًا لِلنَّظَرِ

(112) *La Logique des Sentiments*, p. 187. cf. Erdmann, *op. cit.*, p. 120.
حيثُ تُراعَى مَناهِجُ خَطَبِ "فَوْرَةِ الإعجابِ أمامَ ما هوَ مُشْرِقٌ مَصقُولٌ ويَخلُو مِن الفِكرَةِ، نارٌ تَشتَعِلُ مِن القِشِّ".

(113) إدغار مارتِش كرُوكشانك (1858-1928م). طبيبٌ بريطانيٌّ، وعالِمُ أحياءٍ مِجهرِيَّةٍ كذلكَ. درَسَ في كلِّيَّةِ المِلكِ البريطانيَّةِ، وعمِلَ طبيبًا في الجيشِ البريطانيِّ في مِصرَ في حقبةِ ثورةِ عُرابي، وقُلِّدَ وِسامًا لخدمتِهِ في معركةِ التَّلِّ الكبيرِ. وبعدَ عودتِهِ من مصرَ جابَ أنحاءَ أورُبّا للحصولِ على المزيدِ من الخبرةِ الطبِّيَّةِ. وتعلَّمَ في برلين كيفيَّةَ فصلِ السُّلالاتِ البكتيريَّةِ مِن أجلِ فحصِ الأمراضِ المُعدِيَةِ. مِن أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: تأريخُ التَّطعيمِ ومرضيَّتُهُ، والمُقرَّرُ في علمِ البكتيريا. [المُترجِم]

(114) *Influenza*, 1922, pp. 12, 61, 512.

كَهذا، ولا سِيَّما أنَّ مَصدَرَهُ شَخصٌ لَهُ خِبرَةُ ثَلاثِينَ سَنَةً في فَنِّ العِلاجِ. وفي صَفحَةٍ أُخرَى يُقَدِّمُ الدكتور كرُوكشانك نَفسُهُ حُجَجًا أُخرَى لِعَدِّ ذلكَ الرَّفضِ مِمّا لا يُمكِنُ أن يَرتَكِزَ إلّا على الإخفاقِ في تَقديرِ الحقائقِ(115).

ولم نَشهَدْ حَتَّى الأزمِنَةِ المُتأَخِّرَةِ جُهودًا لاختِراقِ اللُّغزِ إلّا هُنا وهُناكَ، وذلكَ بِمُهاجَمَةٍ مُباشِرَةٍ لِلمُشكِلَةِ الرَّئيسَةِ. وفي القَرنِ الرّابِعَ عَشَرَ ظَهَرَ التَّحليلُ الاسمِيُّ لِوِليَم الأوكاميّ William of Occam(116)، وفي القَرنِ السّابِعَ عَشَرَ كانَ نِتاجُ بَيْكن Bacon(117) وهوبز Hobbes(118). ويَبلُغُ البَحْثُ ذروَتَهُ معَ [43]

---

(115) *Infra*, Supplement II, pp. 344-5.

(116) وِليَم الأوكاميّ (1287-1347م). أخَوِيٌّ فرانشِسكانيٌّ، وفيلسوفٌ مَدرَسِيٌّ، ولاهُوتيٌّ إنجليزيٌّ مِن أوكام، وهي قريةٌ صغيرةٌ في سُرَّي. يُعَدُّ معَ توما الأكوينيّ ودَنز سكوتس وابنِ رُشدٍ من عُظماءِ المُفكِّرينَ في القُرونِ الوُسطَى. كانَ لهُ أثرٌ فكريٌّ وسياسيٌّ في مجرى الأحداثِ في القرنِ الرابعَ عشرَ. كانَ رائدَ المذهبِ الاسميّ، ويَعُدُّهُ بعضُ الباحثِينَ أبا علمِ المعرفَةِ المُعاصِرِ. وكانَ يَرَى أنَّ المعرفةَ حَدْسِيَّةٌ، وأنَّ المَعانيَ لا تُوجَدُ إلّا في العَقلِ، وأنَّها تقومُ مقامَ كثرةِ الأفرادِ (إنسان، مَثَلاً)، وأنَّها ليسَتْ كُلِّيَّةً بذاتِها بل بما تُحمَلُ عليهِ، أي أنَّ الاسمَ الذي يَدُلُّ على المَعنَى يُطلَقُ على الأفرادِ بِوَصفِهِ رَمزًا لِلجُزئيّاتِ لا لِلمَعْنَى نَفسِهِ، فالمَفاهيمُ العامَّةُ التي تُنشِئُها أفكارُنا عن الأشياءِ المَوجودةِ لا تَنفَصِلُ عنها، بَل إنَّها لا تُعَبِّرُ عن جَميعِ خَصائصِها وصِفاتِها. فعلى ذلكَ يَكونُ المَذهَبُ الاسميُّ مادِّيًّا يَقولُ بِأولويَّةِ الأشياءِ وثانويَّةِ المَفاهيمِ، ويكونُ أوَّلَ تعبيرٍ عن المادِّيَّةِ في القُرونِ الوُسطَى. وكانَتْ لأوكام فكرةٌ فلسفيَّةٌ تُدْعَى نَصْلَ أوكام، مفادُها أنَّ التَّعدُّدَ لا ينبغي افتراضُهُ مِن غيرِ ضَرورةٍ، وما يُمكِنُ شَرحُهُ بِفُروضٍ قليلةٍ لا يَنبَغي شَرحُهُ بِفُروضٍ كَثيرَةٍ. وتُقسَمُ كِتاباتُهُ على كِتاباتٍ سِياسيَّةٍ وكِتاباتٍ فلسفيَّةٍ، ومُعظَمُ كِتاباتِهِ الفلسفيَّةِ شُروحٌ لِكُتُبِ أرسطو، وأهمُّها: المجموعةُ المَنطقيَّةُ، والعَرَضُ الذَّهبيُّ، ومِئةُ قَضيَّةٍ لاهُوتيَّة. [المُترجِم]

(117) فرانسِس بَيْكن (1561-1626م). فيلسوفٌ، ورَجُلُ دَولةٍ، وكاتبٌ، وخطيبٌ إنجليزيٌّ، معروفٌ بِقيادتِهِ للثورةِ العلميَّةِ بفلسفتِهِ الجديدةِ القائمةِ على المُلاحظةِ والتَّجريبِ. كانَ مِن الرُّوّادِ الذينَ تنبَّهوا إلى عدمِ جدوَى المنطقِ الأرسطيِّ الذي يعتمدُ على القياسِ. من آثارِهِ: تأريخُ الحياةِ والموت، وأطلانطا الجديدَة. [المُترجِم]

(118) تومَس هوبز (1588-1679م). عالِمُ رياضيّاتٍ، وفيلسوفٌ إنجليزيٌّ. يُعدُّ مِن أكبرِ فلاسفةِ القرنِ السّابعَ عشَرَ في إنجلترا وأكثرِهم شهرةً ولا سيَّما في المجالِ القانونيِّ؛ إذ =

الكِتابِ الثّالثِ مِن مُؤَلَّفِ لوك Locke[119] الذي عُنوانُهُ مَقالَةٌ Essay[120] وفي اهتِمامِ لايبنِتز Leibnitz بإيجادِ لُغَةٍ فَلسَفيَّةٍ- ذاتِ سِمَةٍ عالَمِيَّةٍ. أمّا باركلي وكوندياك Condillac[121] فأبقَيا القضيَّةَ حَيَّةً. ونَصِلُ معَ هورن تُوك Horne

= كانَ زيادةً على اشتغالِهِ بالفلسفةِ والأخلاقِ والتّأريخِ فقيهًا قانونيًّا أسهَمَ على نحوٍ كبيرٍ في بلورةِ كثيرٍ من الأطروحاتِ التي تميَّزَ بها هذا القرنُ على المُستويَيْنِ السياسيِّ والحقوقيِّ. وعُرِفَ أيضًا بإسهامِهِ في تأسيسِ الكثيرِ من المفاهيمِ كمفهومِ العَقدِ الاجتماعيِّ. ويُعدُّ كذلكَ من الفلاسفةِ الذينَ وظّفوا مفهومَ الحقِّ الطبيعيِّ في تفسيرِ الكثيرِ من القضايا المعروضَةِ في عصرِهم. من مؤلَّفاتِهِ: دراسةٌ في الطبيعةِ الإنسانيَّةِ، ورسائلُ في الحرِّيَّةِ والضَّرورةِ. [المُترجِم]

(119) جون لوك (1632-1704م). فيلسوفٌ تجريبيٌّ، ومفكِّرٌ سياسيٌّ إنجليزيٌّ. لم ينخرِطْ في سلكِ رجالِ الدِّينِ لكراهتِهِ عدمَ التسامُحِ الدِّينيِّ البيوريتانيِّ عندَ اللاهُوتيِّينَ، فدرسَ بدلاً من ذلكَ الطِّبَّ ومارسَ التجريبَ العلميَّ حتَّى عُرِفَ بِاسمِ الدكتور لوك. ذَهَبَ إلى أنَّ المَعرِفَةَ مَقصورةٌ على ما تَمنَحُنا إيّاهُ التَّجرِبةُ، وأن لو كانَتْ لدينا حاسَّةٌ زائدةٌ أو نَقَصَتْ حاسَّةٌ مِن حَواسِّنا، لاختلَفَت تَجربتُنا ومعرِفتُنا لِلعالَمِ زِيادةً أو نُقصانًا. ورَأى أنَّ الأفكارَ التي نُكَوِّنُها لَيسَتْ صُوَرًا مُطابِقَةً لِلأشياءِ، ولَيْسَتْ أشباهًا لها، لكِنَّها عَلاماتٌ تَدُلُّ عليها، شأنُها في ذلكَ شأنُ الألفاظِ؛ فهيَ لا تُشبِهُ المَعانيَ التي تقومُ في النَّفْسِ عندَ سَماعِها، ولكِنَّها تَدُلُّ عليها. ورَأى أنَّ وظيفةَ اللغةِ التَّواصُلُ بينَ النّاسِ والإفصاحُ عمّا يعتمِلُ في عُقولِهِم مِن أفكارٍ ومَعانٍ، وأنَّ الألفاظَ تدُلُّ على جُزئيّاتٍ مادِّيَّةٍ، وبِالانتِباهِ إلى الخصائصِ المُشتركةِ بينَ الجُزئيّاتِ وفَصلِها عن الخَصائصِ الذّاتيَّةِ لِكُلِّ جُزئيٍّ نَحصلُ على مَعانٍ كُلِّيَّةٍ نُخصِّصُ لِكلٍّ منها اسمًا يُغنينا عن الكثيرِ مِن الألفاظِ التي تَرْمِزُ إلى كلِّ جُزئيٍّ. وأطلَقَ لوك على هذهِ العمليَّةِ اسمَ التَّجريدِ، وقالَ إنَّ المَعْنَى الكلِّيَّ ناقِصٌ، يَحتوي بعضَ خصائصِ الأشياءِ، وكلَّما ازدادَتْ كلِّيَّتُهُ ازدادَ نَقصُهُ، وإنَّ المَعانيَ الكُلِّيَّةَ يَصنَعُها الفِكرُ ولَيْسَتْ صُوَرًا لِلأشياءِ ولا تُشيرُ إلى أصولِها أو جَواهِرِها، ولَيسَتْ مَعرِفةً واقعيَّةً لأنَّها ليسَتْ مَعْنيَّةً بِالوُجودِ مُباشَرَةً. من مؤلَّفاتِهِ: في التَّسامُحِ، ومَقالتانِ في الحُكومة، ومَقالَةٌ في الفَهمِ الإنسانيِّ. [المُترجِم]

(120) عنوانُهُ الكامِلُ هوَ: مَقالَةٌ في الفَهمِ الإنسانيِّ. [المُترجِم]

(121) إيتيان بونو دو كوندياك (1715-1780م). فيلسوفٌ، ومَعرِفِيٌّ فرنسيٌّ مشهورٌ، من فلاسفةِ عصرِ التَّنويرِ. درَسَ سايكولوجيَّةَ العقلِ وفلسفتَهُ، وكانَ مِن أنصارِ التَّجريبِ على طريقةِ لوك. وقَد أذاعَ أهمُّ مؤلَّفاتِهِ (رِسالةٌ في الإحساساتِ) اسمَهُ؛ إذ نَحا فيهِ مَنحَى لوك في إعادتِهِ الأفكارَ إلى الأحاسيسِ، وزادَ عليهِ رَدَّهُ قُوَى العَقلِ نَفسِهِ إلى الأحاسيسِ =

Tooke[122] ومُتابِعِيهِ إلى حَرَكَةِ القَرنِ التّاسِعَ عَشَرَ الذي شَهِدَ جُهدًا ذا أهمِّيَّةٍ خاصَّةٍ لِكُلٍّ مِن بينثام Bentham[123]، وتَيْن Taine[124]، وماوثنَر[125].

ولا حاجَةَ بِنا هُنا إلى أن نُعنَى بالإنجازاتِ المُخَيِّبَةِ لِلفيلولوجيا المُقارِنَةِ

= وإن طرَأَتْ عليها بعضُ التَّحوُّراتِ. فوَصَفَ الذاكرةَ، مَثَلاً، بِأنَّها إحساسٌ قَوِيٌّ قَد تركَ أثرًا في الإمكانِ استِدعاؤُهُ، ووَصَفَ الانتِباهَ بِأنَّهُ انصِرافٌ لِلوَعيِ بِإحساسٍ واحِدٍ يَعزِلُهُ عن باقي الأحاسيسِ. وقالَ كونديِاك إنَّ الإنسانَ يَكْمُلُ بِاللغةِ بِوَصفِهِ إنسانًا، وينتقِلُ مِن مرحلةِ الإحساساتِ البسيطةِ إلى الجَدَلِ الفكريِّ وإقناعِ الآخَرينَ. وأنزَلَ اللغةَ مَنزلةً خاصَّةً مِن التَّفكيرِ، ورأى أنَّ التَّفكيرَ الفلسفيَّ لا يَقومُ إلّا بِلُغَةٍ واضحةٍ مَصُوغةٍ جيِّدًا. وذَهَبَ إلى أنّا إن أردْنا أن تَكونَ لَنا لغةٌ واضحةٌ كانَ علينا أن نبلُغَ بِمعانيها أبسَطَ حقائقِها بِمنهجٍ تحليليٍّ، ثُمَّ أن نُقارِنَ بينَ المَعاني المُتشابِهَةِ بِمَنهجٍ رِياضيٍّ على مِنوالِ: إذا كانَ أ=ب، وب=ج، فإذَن أ=ج. [المُترجِم]

(122) جون هورن تُوك (1736-1812م). سياسيٌّ، وفيلولوجيٌّ إنجليزيٌّ. درَسَ القانونَ وفقهَ اللغة. أهَمُّ آثارِهِ: الفلسفةُ الارتقائيَّةُ لِتشونسي رايت، ومُحاكَمَةُ جون هورن توك، وخِلافاتٌ متأخِّرةٌ في مَذهَبِ الأداتيَّة. [المُترجِم]

(123) جيرمي بينثام (1748-1832م). عالِمُ قانونٍ، وفيلسوفٌ، ومُصلِحٌ قانونيٌّ واجتِماعيٌّ إنجليزيٌّ. كانَ الرائدَ في فلسفةِ القانونِ الأنغلو-أمريكيّ، واشتهرَ بِدعواتِهِ إلى النَّفعيَّةِ وحقوقِ الحيوانِ. وشمِلَتْ مواقِفُهُ الحُجَجَ المُؤيِّدةَ للفردِ والحُرِّيَّةِ الاقتصاديَّةِ والفَصلِ بينَ الكنيسةِ والدَّولةِ وحرِّيَّةِ التَّعبيرِ والمُساواةِ في الحقوقِ، وطالَبَ بِإلغاءِ الرِّقِّ وعقوبةِ الإعدامِ، وبِإلغاءِ العقوباتِ البدنيَّةِ. وكانَ يَعتَقِدُ أنَّ الكثيرَ مِمّا نتحدَّثُ بِهِ لا مَعْنَى لهُ في الواقعِ، مِثالُ ذلكَ كلِماتُ (الواجِب) و(الحَقّ) و(السُّلطَة)، فهيَ كلماتٌ غيرُ مَفهومةٍ ما لم نُحِلْها على الواقِعِ. من آثارِهِ: مقدِّمةٌ لِمبادِئِ الأخلاقِ والتشريعِ، وكتاباتٌ مُختارة، ونظريَّةُ التشريع. [المُترجِم]

(124) هِبولايت تَيْن (1828-1893م). ناقِدٌ، وعالِمُ تأريخٍ فرنسيٌّ. كانَ له تأثيرٌ كبيرٌ في الأدبِ الفرنسيِّ، ولهُ خطٌّ ثابتٌ من الشَّكِّيَّةِ. من أشهرِ أعمالِهِ: لافونتين والخرافات، وفلسفةُ الفَنّ، وتأريخُ الأدَبِ الإنجليزيّ. [المُترجِم]

(125) لِلوقوفِ على مُناقَشَةٍ تفصيليَّةٍ لِلإنجازاتِ اللُّغَوِيَّةِ لِكُلٍّ مِن بَيْكن، وهوبز، وباركلي يُنظَر: *Psyche,* 1934, pp. 9-87. والإسهامُ الأساسيُّ لكِنِ المُغْفَلُ لِجيرمي بينثام Jeremy Bentham الذي يَسبِقُ التَّطوُّراتِ المعاصِرَةَ سَبقًا رائعًا، قد تناوَلَهُ أوغدِن في كِتابِهِ نظريَّةُ بينثام في التَّخَيُّلات *Bentham's Theory of Fictions* (International Library of Psychology), 1932.

التي طالَما كانَتْ مَركَزَ الاهتِمامِ العامِّ مُمَثَّلَةً في جُهودِ شتاينتال Steinthal[126]، وماكس مُلَر Max Müller[127]، وآخَرِينَ. وما زالَتِ المُقارَباتُ الفيلولوجيَّةُ والسوسيولوجيَّةُ لا تُمِدُّ المشتغِلِينَ في الميدانِ بأسبابِ الهِدايَةِ. وفي التَّذييلِ A حَديثٌ مُنصَبٌّ على فَوضَى النَّحوِيِّينَ، أمّا التَّذييلُ D فيَشتَمِلُ، زِيادَةً على مُلَخَّصٍ لِما قَدَّمَهُ بيرس C. S. Peirce، على نَماذِجَ لِما أنجزَهُ الآخَرُونَ الذينَ بَحَثُوا في عِلْمِ المنطِقِ عَن حَلٍّ، وكذلكَ الَّذينَ يَبدو أنَّهُم اعتَمَدوا على المُصطَلَحِ اعتِمادًا كُلِّيًّا. وفي سائرِ فُصولِ الكِتابِ سنَشغَلُ أنفُسَنا كثيرًا بِالكُتّابِ المعاصِرِينَ الَّذينَ أفادُوا مِن الطَّريقَيْنِ الباقِيَيْنِ (لِمَناهِجِ المُقارَبَةِ السَّبعةِ الرَّئيسَةِ)، وهُم الميتافيزيقِيُّونَ، والسّايكولوجِيُّون. أمّا غَيرُهُم فقد جَهِدْنا في الإشادَةِ بِمَن يَستَحِقُّها- ابتِداءً بِعَمَلِ أنسيلم Anselm[128] الذي عُنوانُهُ في النَّحو *De Grammatico*، ومُرورًا بِدَلغارنو Dalgarno[129] (1661)، ووِلكِنْز Wilkins[130]

(126) هيرمان شتاينتال (1823-1899م). فيلولوجيٌّ، وفيلسوفٌ ألمانيٌّ. درَسَ في جامعةِ برلين وأقامَ في باريس بينَ سنتَيْ 1852 و1855، إذ سَخَّرَ جهدَهُ لدراسةِ اللغةِ الصينيَّةِ. مِن أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: فون همبولت والفلسفةُ الهيغليَّة. [المُترجِم]

(127) فريدرِش ماكس مُلَر (1823-1900م). عالِمٌ ألمانيٌّ اهتمَّ على نحوٍ مخصوصٍ بِاللغةِ السنسكريتيَّةِ الهنديَّةِ القديمةِ. أسهمَ في الدراسةِ المُقارِنَةِ في مجالاتِ اللغةِ والدِّينِ والأساطيرِ، وإن كانَ علماءُ العصرِ الحديثِ قد نبذوا الكثيرَ من نظريّاتِهِ. مِن مقولاتِهِ: إنَّ فكرةَ التَّعبُّدِ من الغرائزِ التي فُطِرَ الإنسانُ عليها منذُ نشأتِهِ الأُولى. مِن آثارِهِ: مُحاضَراتٌ في عِلمِ اللُّغَةِ، ومُقَدِّمَةٌ لِعِلمِ الدِّينِ، ودِراساتٌ في البُوذِيَّةِ، والدِّينُ الطَّبيعِيُّ. [المُترجِم]

(128) أنسيلم أسقف كانتربري (1033-1109م). لاهُوتيٌّ وفيلسوفٌ إيطاليٌّ من أوائلِ الفلاسفةِ المَدرسيِّينَ. كانَ له تأثيرٌ بالغٌ في اللاهُوتِ الغربيِّ، وكانَ يعتقدُ أنَّ الإيمانَ يجبُ أن يَسبِقَ المعرفةَ؛ فيجِبُ أن تُؤمِنَ لِتَعرِفَ، ومعَ ذلكَ يُمكِنُ أن يُبنَى الإيمانُ على المعرفةِ. اشتهرَ بِكتابَيْهِ (المُناجاة) و(التَّمهيد). [المُترجِم]

(129) جورج دَلغارنو (1616-1687م). مفكِّرٌ أسكتلنديٌّ عُنِيَ بِالمُشكِلاتِ اللغويَّةِ. أصلُهُ من أبردين، وعمِلَ لاحقًا مُدرِّسًا في جامعةِ أوكسفورد برفقةِ جون وِلكِنز. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ (مُعَلِّمُ الصُّمِّ والبُكْم) الذي اقترَحَ نظامًا لغويًّا جديدًا ليستعمِلَهُ الصُّمُّ والبُكْمُ، والذي ما زالَ معمولاً بِهِ في أمريكا إلى اليوم. [المُترجِم]

(130) جون وِلكِنز (1614-1672م). قسٌّ، وفيلسوفٌ طبيعيٌّ، ومؤلِّفٌ، وعالِمٌ موسوعيٌّ =

(1668)، وفريك Freke[131] (1693)، وانتِهاءً بِسِلبيرر Silberer[132] (1917)، وكِتابِ كاسِيرر Cassirer[133] الذي عُنوانُهُ فَلسَفَةُ الأشكالِ الرَّمزيَّةِ *Philosophie der symbolischen Formen* (1923)- في المَسْحِ العامِّ لِتَقَدُّمِ الإنسانِ نَحْوَ تحقيقِ الاستِقلالِ اللفظيِّ الذي كانَ يَظهَرُ على نَحوٍ مُتَقَطِّعٍ في دَوْرِيَّةِ *Psyche* مُنذُ سَنَةِ 1927[134].

ونتيجةً لِكلِّ هذه الجهودِ باتَ مُمكِنًا وُجودُ عِلمٍ لِلرَّمْزِيَّةِ، غيرَ أنَّهُ مِن الضَّروريِّ على الدَّوامِ ألّا تَغيبَ عَنِ الذِّهنِ الأشكالُ الخاصَّةُ التي يُمكِنُ أن تُعْرِبَ بِها سُلطةُ الكَلِماتِ عَن نَفْسِها في الزَّمَنِ الحاضِرِ. [44]

= إنجليزيٌّ. أسَّسَ الكُلِّيَّةَ السِّرِّيَّةَ، وكانَ أحدَ مؤسِّسِي الجمعيَّةِ الملكيَّةِ، وأُسقُفَ شيستَر منذُ سنةِ 1668 إلى وفاتِهِ. يُعَدُّ من القَليلينَ الذينَ رأَسُوا كُلِّيَّةً في كُلٍّ مِن جامعتَيْ أوكسفورد وكَيمبرِج. وهو أحدُ مُؤسِّسِي اللاهُوتِ الطبيعيِّ المُوافِقِ لِلعِلمِ في زمانِهِ. أشهَرُ مؤلَّفاتِهِ (مَقالَةٌ نحوَ طابعٍ حقيقيٍّ ولُغةٍ فلسفيَّةٍ)، وقد تضمَّنَ اقتراحَ لُغةٍ عالَميَّةٍ ونظامٍ عشريٍّ للقياسِ لا يختلفُ عن النظامِ المتريِّ الحديثِ. [المُترجِم]

(131) وِليَم فريك (1662-1744م). كاتِبٌ صُوفيٌّ إنجليزيٌّ. غالبًا ما يُذكَرُ بِوَصفِهِ أحدَ المُوَحِّدِينَ السوسينيِّينَ الذين عانَوا الاضطِهادَ على يَدِ البرلمانِ سنةَ 1694 بسببِ المعتقَداتِ المُنكرَةِ لِلتَّثليثِ، لكِنَّهُ رَجَعَ عن ذلكَ فيما بَعدُ. أهمُّ آثارِهِ: مَقالاتٌ في توحيدِ اللاهُوتِ والفَضيلَةِ، والعَقلُ أو الدِّينُ الطبيعيُّ والوَحي. [المُترجِم]

(132) هربرت سِلبيرر (1882-1923م). مُحلِّلٌ نَفسِيٌّ نَمساويٌّ، ارتبطَ اسمُهُ بِالحلقَةِ المِهنِيَّةِ المُحيطةِ بِسيغموند فرويد التي تضمَّنَتْ رُوّادًا آخَرينَ في الدِّراسةِ السايكولوجيَّةِ مثلَ كارل يُونغ وألفريد أدلَر وغيرِهما. ولَهُ مُشارَكةٌ سابِقَةٌ في الرِّياضةِ والصِّحافةِ الرِّياضيَّةِ. وكانَ لديهِ اهتمامٌ كبيرٌ بِالأحلامِ، ونشرَ في سنةِ 1909 بحثًا يُفَصِّلُ فيهِ بَحثَهُ في الحالةِ الذِّهنيَّةِ التي يكونُ فيها الفَردُ بينَ اليَقظةِ والنَّومِ. [المُترجِم]

(133) إيرنست كاسيرر (1874-1945م). فيلسوفٌ، ومؤرِّخٌ ألمانيٌّ، ينتمي إلى ما يُسَمَّى بِمدرسةِ ماربورغ في الفلسفةِ الكانتيَّةِ الجديدةِ. اشتهرَ بِكونِهِ ألمعَ شُرّاحِ الفلسفةِ الكانتيَّةِ في القرنِ العشرِينَ. من أشهرِ مؤلَّفاتِهِ: الجوهرُ والوظيفة، والحُرِّيَّةُ والشَّكل، وفلسفةُ الأشكالِ الرَّمزيَّة. [المُترجِم]

(134) يُنظر بخاصَّةٍ Vol. XVIII (1946)، حيثُ يُمكِنُ، أخيرًا، أن تَبدُوَ مَلامِحُ نَواةِ بَحثٍ تأخَّرَ أوانُهُ بِشأنِ "سِحر الكَلِمَة Word Magic".

مُمتازًا، فإنَّ اسمَهُ الذي يُوحِي بِمَقبوليَّتِهِ يَتَخَلَّلُ ما بينَ إحساسِي وشُعُورِي، وقد أعتَقِدُ أنَّ نَكهَتَهُ تُمْتِعُني في الوَقتِ الذي يُثبِتُ فيهِ قَليلٌ مِن الانتِباهِ عَكسَ ذلكَ".(139)

وما لم نُدرِكْ طبيعةَ سُلطةِ الكَلِماتِ، فإنَّها قد تَحُولُ بَينَنا وبينَ أغراضِنا بِطَرائقَ دَقيقَةٍ لا يُحصيها العَدُّ. فَهِيَ تُؤَدِّي في عِلْمِ المنطِقِ، على ما قد رأيْنا، إلى خَلقِ الكِياناتِ الزّائفَةِ، والكُلِّيّاتِ، والخَواصِّ، التي سيكونُ لَنا مَزيدُ بَحثٍ فيها في الخاتِمَةِ. ويُؤَدِّي استِقطابُ الكَلِماتِ الاهتِمامَ إلى ذَواتِ أنفُسِهِنَّ إلى تَشجيعِ الدِّراسةِ غيرِ المُجدِيَةِ لِلأشكالِ التي فَعَلَتِ الكثيرَ لِتُفقِدَ الثِّقَةَ بِالنَّحوِ؛ فبِسببِ الإثارةِ التي تَهيجُها بِجَبَرُوتِها العاطفيِّ يَغدُو القِسمُ الأعظَمُ مِن النِّقاشِ عَقيمًا؛ وبِسببِ الأنماطِ المتنوِّعةِ لِهَوَسِ الألفاظِ وهَوَسِ الكِتابَةِ يَغدُو الرِّضا بِالتَّسميَةِ مَفهومًا، والإحساسُ بالقُوَّةِ الذّاتيَّةِ مُعَزَّزًا على نَحوٍ مُتَكَلَّفٍ. [45]

ولا غَرابَةَ في أنَّ مُراعاةَ الطَّرائقِ التي على وَفقِها جُعِلَتِ اللُّغَةُ خادِمَةً لِلبَشَريَّةِ في الماضي كَثيرًا مّا تُؤَدِّي إلى رَدِّ فِعلٍ شَكِّيٍّ. وقد عبَّرَ عن ذلكَ كاتِبٌ قَديرٌ، لكِنَّهُ مَغمورٌ(140)، بِقَولِهِ:-

"افتَرِضْ أنَّ شَخصًا مّا يُؤَكِّدُ قائلاً: *The gostak distims the doshes*، فلا

= تلك المرحلةِ. وقد حاوَلَ إنفاذَ القِيَمِ التي أطاحَ بِها المذهبُ المادِّيُّ، وتأكيدَ إيمانِ بِالرُّوحِ لا يتزعزعُ. من مؤلَّفاتِهِ: مَقَالَةٌ في المُعطَياتِ المُباشِرَةِ لِلوجدانِ، والمادَّةُ والذّاكرة، والتَّطوُّرُ الخَلّاق. [المُترجِم]

(139) *Time and Free-Will*, p. 131.

(140) الإشارةُ هنا إلى أندرو إنغراهام (1841-1905م)، الذي كانَ مُديرَ مدرسةِ سوَيْن قبلَ سنةِ 1903. يُنسَبُ إليهِ ابتِكارُ مَفهوم غوستاك Gostak concept، وهوَ اسمٌ لا مَعنَى لهُ استَعمَلَهُ في عِبارَةِ: The gostak distims the doshes، وهيَ مِثالٌ لِكيفيَّةِ اشتِقاقِ مَعنًى مِن نَظمِ جُملةٍ، على الرغمِ مِن كونِ مَراجِعِ التعبيراتِ فيها مَجهولةً تَمامًا. وقد ابتكَرَ العبارةَ أندرو إنغراهام سنةَ 1903، لكنَّها اشتهرَتْ حينَ اقتبسَها أوغدِن ورِتشاردز سنةَ 1923 في كتابِهما (مَعْنَى المَعْنَى)، ومنذُ ذلكَ الحينِ أُحيلَ عليها في عِدَّةِ سِياقاتٍ ثَقافيَّةٍ. أهمُّ آثارِ أندرو إنغراهام كتابُ (مُحاضَراتُ مَدرسةِ سوَيْن). [المُترجِم]

أنتَ ولا أنا نَعرِفُ لِذلِكَ مَعنًى. لكِنْ إن افتَرَضْنا أنَّ لُغَةَ هذا القَولِ هي الإنجليزيَّةُ فسنَعرِفُ أنَّ *the doshes are distimmed by the gostak*. ونحنُ نَعرِفُ كذلِكَ أنَّ *one distimmer of doshes is a gostak*. وزِيادَةً على ذلكَ، إن كانَتْ لَفظَةُ *doshes* تَعني الزَّركَشاتِ، فسنَعلَمُ أنَّ بعضَ الزَّركَشاتِ *are distimmed by the gostak*. ويُمكِنُنا أن نَستَمِرَّ على هذا المِنوالِ، بل إنّا كَثيرًا ما نَستَمِرُّ على هذا المِنوالِ".

ونَتَساءَلُ مَرَّةً أُخرَى: إلامَ تَرمِزُ الكَلِماتُ التي نستَعمِلُها في حياتِنا اليوميَّةِ؟ "نحنُ لا يُتاحُ لنا دَومًا أن نتحدَّث، بِطَريقَةِ النَّظَرِ إلى الشَّيءِ بِوَصفِهِ كُلًّا لا يَتجَزَّأ، عن مجموعةِ الظَّواهِرِ الدّاخِلَةِ أو المرتَبِطةِ بِعُبورِ زِنجِيٍّ فَوقَ سِياجٍ ذي قُضبانٍ وتَحتَ ذِراعِهِ بِطّيخَةٌ في اللَحظَةِ التي بَدَأَ فيها القَمَرُ بالتَّواري خَلفَ السَّحابِ. لكِن لو كانَتْ هذه الظَّواهِرُ المُتَصاحِبَةُ مُتَكَرِّرَةَ الحُدوثِ، وأُتيحَتْ لنا فُرصَةُ التَّحدُّثِ عنها كَثيرًا، وكانَ مِن المُحتَمَلِ أن يكونَ حُدوثُها ذا أثَرٍ في السُّوقِ الماليَّةِ، لَكانَ لَنا مِن ذلكَ اسمٌ مّا نَحوُ 'wousin' نُشيرُ بِهِ إلَيها. وآنئذٍ سيَتنازَعُ النّاسُ: هل يَستَلزِمُ وُجودُ wousin مّا أن يَكونَ ثَمَّةَ سِياجٌ ذو قُضبانٍ؟ وهل يُمكِنُ استِعمالُ هذه الكَلِمةِ في حالِ أنَّ العُبورَ كانَ لِرَجُلٍ أبيضِ البَشَرَةِ فوقَ حائطٍ صَخرِيٍّ؟"[141].

---

(141) A. Ingraham, *Swain School Lectures* (1903), pp. 121-182, on "Nine Uses of Language".

والاستِعمالاتُ التِّسعَةُ التي تطرَّقَ إليها الكاتبُ هي:

1. تَبديدُ الزّائدِ والعائقِ مِن الطاقَةِ العَصَبيَّةِ.
2. تَحديدُ اتِّجاهِ حَرَكَةِ الآخَرينَ، مِن البَشَرِ والحيَوانِ.
3. تَبادُلُ الأفكارِ.
4. وَسيلَةٌ لِلتَّعبيرِ.
5. لأغراضِ التَّوثيقِ.
6. تَحريكُ أمرٍ مّا (السِّحرُ).
7. بِمَنزِلَةِ آلَةِ تَفكيرٍ.
8. إضفاءُ البَهجَةِ بِوَصفِها صَوتًا فَحَسْبُ.
9. إمدادُ الفيلولوجيِّينَ بِشُغلٍ مّا.

وكثيرًا مّا تَقودُ دِراسةُ الصُّعوباتِ اللفظيَّةِ الَّذينَ يُواجِهونَها أوَّلَ مَرَّةٍ إلى استِنتاجاتٍ، مِن قَبيلِ "أنَّ الأمرَ كُلَّهُ لا يَعْدُو أن يَكونَ كَلِماتٍ"، أو "أنَّنا لا يُمكِنُ أن نَصِلَ إلى نتيجةٍ- فأنتَ تَصوغُ الأمرَ بِطريقةٍ وأنا أصوغُهُ بِطريقةٍ أُخرَى، وما يُدرينا أنّا نتحدَّثُ [46] عن الأمرِ نَفسِهِ؟". غيرَ أنَّ الفَهمَ العميقَ لِلطَّرائقِ التي تَنشأُ بِها تلكَ الصُّعوباتُ- والحالتانِ المذكورتانِ عَيِّنَتانِ مُناسِبتانِ- لا يَفسَحُ مَجالاً لِلعَدَميَّةِ اللُّغَويَّةِ.

إنَّ أفضَلَ وَسيلَةٍ لِلتَّخَلُّصِ مِن نَزعَةِ شَكٍّ كَهذِهِ ومِن التَّأثيراتِ المُنَوِّمَةِ مُغناطيسِيًّا التي كُنّا بِصَدَدِها، تَكْمُنُ في التَّمييزِ الواضِحِ لِلطَّريقَةِ التي تنتَهِجُها الرُّموزُ في مُمارَسَةِ سُلطَةٍ كهذِهِ، ولِمُختَلِفِ الأوجُهِ التي يُقالُ إنَّها تَحمِلُ مَعنًى مِن خِلالِها. وأوَّلُ ما يُواجِهُنا، بِوَصفِهِ إجراءً تَمهيدِيًّا أساسيًّا، هوَ الحاجَةُ الماسَّةُ إلى بَيانٍ لأبسَطِ أنواعِ الحالِ العَلامِيَّةِ، يُمَكِّنُنا مِن إدراكِ: كَيفَ 'نَعلَمُ' أو'نُفَكِّرُ' مُطْلَقًا.

وسَنَرَى أنَّ النَّظريَّةَ السِّياقيَّةَ لِلعَلاماتِ، التي هي أوَّلُ ما نَتَوَجَّهُ إليهِ، تُسَلِّطُ الضَّوءَ على الفِكرةِ البِدائيَّةِ التي تَذهَبُ إلى أنَّ الكَلِماتِ والأشياءَ مُتَّصِلَةٌ بِرِباطٍ سِحريٍّ؛ فالحَقُّ أنَّ حُدوثَ الرُّموزِ والأشياءِ مَعًا، وارتِباطَ بَعضِهِما بِبَعضٍ في 'سِياقٍ' مّا، هما ما يَجعَلُ الرُّموزَ تُؤَدِّي ذلكَ الدَّورَ المُهِمَّ في حَياتِنا الذي لم يَجعَلْها غَرَضًا مَشرُوعًا لِلإعجابِ فَحَسْبُ، بَل مَصدَرَ كُلِّ سَطوَتِنا على العالَمِ الخارِجيِّ. [47]

الفَصْلُ الثّالِثُ

الأَحْوالُ العَلامِيَّةُ

إنَّ دِراسةَ لُغاتِ العالَم تكونُ في بَدْءِ الأمرِ مهمَّةً تَعسَةً وجاحِدَةً، لكِنْ إنْ تَغَلَّبْنا على الصُّعوباتِ الأَوَّلِيَّةِ فيها أمكَنَنا، معَ حَماسَةٍ كَبيرَةٍ، الاستِخفافُ بِالعملِ الشّاقِّ، وأُمْطِرْنا بَعدَ ذلكَ بِوابِلٍ مِن المَنافِعِ. - فالكنَير Valcknaer

الْمَعْنَى، ذلكَ المُصطَلَحُ المركَزِيُّ في كُلِّ نَظَرِيَّةٍ لِلُّغَةِ، لا تُمْكِنُ مُعالَجَتُهُ مِن غيرِ نَظريَّةٍ مُقْنِعَةٍ لِلعَلاماتِ. ومَعَ شَيءٍ مِن مَعانيهِ (التي يَستَوِي فيها 'المعنَى الذي أَقصِدُهُ' و'ما أُفَكِّرُ فيهِ') يَكونُ السُّؤالُ الذي تَنبَغي إجابَتُهُ هو، بِاختِصارٍ: "ما الذي يَحدُثُ حينَ نَحكُمُ على شَيءٍ مّا، أو نَعتَقِدُهُ، أو نُفَكِّرُ فيهِ: مِمَّ يتكوَّنُ هذا الشَّيءُ: وما عَلاقَتُهُ بالحَدَثِ الذِّهنيِّ الذي هو حُكمُنا، واعتِقادُنا، وتَفكيرُنا؟". إنَّ المُقارَبَةَ التَّقليديَّةَ لِهذا السُّؤالِ كانَتْ مِن خِلالِ الاستِبطانِ والتَّحليلِ المنطقِيِّ لِلحُكمِ، وكانَتِ النَّتيجةُ أنَّ جَميعَ الإجاباتِ المتَعدِّدَةِ التي قُدِّمَتْ مِن هذهِ الزّاويةِ اكتُشِفَ أنَّها، بالضِّدِّ مِن تلكَ التي سنُوجِزُها لاحِقًا، تَنَوُّعاتٌ لِرأْيٍ واحدٍ. أي إنَّها تَتَّفِقُ في أنّا حينَ نُفَكِّرُ في شَيءٍ مّا يَكونُ لَدَيْنا مَعَهُ (أو، أحيانًا، معَ شَيءٍ آخَرَ) عَلاقَةٌ مِن نَوعٍ فَريدٍ جِدًّا. بِعِبارةٍ أُخرَى، يُمكِنُ القَولُ إنَّ التَّفكيرَ يُعَدُّ حَدَثًا لا نَظيرَ لَهُ. وهكَذا تُناقَشُ مُشكِلاتُ التَّرميزِ والإحالَةِ على حِدَةٍ، كَأن لَيسَ ثَمَّةَ مَيادِينُ بَحْثٍ مُتَّحِدَةٌ.

هذا الافتِراضُ لِفَرادَةِ العَلاقَةِ بينَ الذِّهنِ ومَوضوعاتِهِ يُشَكِّلُ العقيدَةَ المركَزِيَّةَ في الآراءِ التي لا تَتَّفِقُ في شَيءٍ على الصُّعُدِ الأُخرَى. وهكَذا يَتَمَسَّكُ بعضُهُم

على نَحوٍ مَعقولٍ ظاهِريًّا بِأنَّهُ حينَ نَعتَقِدُ (مَثَلاً) أنّنا أحياءٌ، نكونُ على عَلاقَةٍ مُباشِرَةٍ [48] مِن نَوعٍ فَريدٍ بِكِيانٍ خارِجٍ عن نِطاقِ الزَّمانِ والمكانِ، يُدعَى افتِراضَ 'أنَّنا أحياءٌ.' ويَدَّعِي آخَرُونَ أن ليسَ ثَمَّةَ شيءٌ مِن هذا القَبيلِ، بل، بَدَلاً مِن ذلكَ، نكونُ حينَئذٍ مُرتَبِطينَ بِعَلاقَةٍ مُتَعَدِّدَةٍ، مِن نَوعٍ فَريدٍ كَذلكَ، وذاتِ تَنَوُّعٍ في الكِياناتِ- التي (رُبَّما) نكونُ نحنُ أنفُسُنا مِن ضِمنِها، وبِلا شَكٍّ شَيءٌ مّا يُدعَى 'مَفهُومًا' (أو 'كُلِّيَّةً' أو 'خاصِّيَّةً')، أي الحَياةَ أو أن تكونَ حَيًّا. وعلى كِلا الرَّأيَيْنِ فإنَّ فَرادَةَ العَلاقَةِ بينَ الفِكرةِ بِوَصفِها حَدَثًا ذِهنِيًّا والأشياءِ التي تَتَعلَّقُ هذه الفِكرَةُ 'بِها'، مَهما تَكُنْ هذهِ الأشياءُ، هي مِن الوُضوحِ بِحَيثُ لا يُشَكُّ فيها.

ويَجدُرُ في هذا المقامِ أن نُنَوِّهَ بِكَيْنز Keynes[1] بوَصفِهِ مُمَثِّلاً لِلمَدرسَةِ الواقِعِيَّةِ التي تَزعُمُ أنَّها قد تَمَثَّلَتْ وِجهَةَ النَّظَرِ العِلميَّةَ المعاصِرَةَ؛ إذ تَبَنَّى الرَّأيَ الذي يَذهَبُ إلى أنَّ علينا من الوِجهَةِ الفَلسَفيَّةِ أن نَبدَأَ مِن أصنافٍ مُختَلِفَةٍ مِن الأشياءِ التي لنا اطِّلاعٌ مُباشِرٌ عَلَيها. فهوَ يَقُولُ: "إنَّ أَهَمَّ أصنافِ الأشياءِ التي لنا اطِّلاعٌ مُباشِرٌ عَلَيها: إحساساتُنا الذاتيَّةُ التي يُمكِنُ القولُ إنّا نُعانيها، والأفكارُ والمعاني التي نَملِكُ تجاهَها أفكارًا والتي يُمكِنُ القولُ إنّا نَفهَمُها، والوَقائعُ، أو الخصائصُ، أو عَلاقاتُ المُعطَياتِ الحِسِّيَّةِ أو المعاني، التي يُمكِنُ القولُ إنّا نُدرِكُها إدراكًا حِسِّيًّا... وسأصطَلِحُ على أغراضِ المعرِفَةِ والاعتِقادِ- في مُقابِلِ أغراضِ الاطِّلاعِ المباشِرِ التي أصطَلِحُ عليها بالأحاسيسِ، والمعاني، والإدراكاتِ الحِسِّيَّةِ- بالقَضايا". مِثالُ الاطِّلاعِ المباشِرِ هو ما نُخبَرُ بِهِ مِن أنَّ مَعْرِفَتي لِلإحساسِ بِاللونِ الأصفَرِ "يُمَكِّنُني مِن العُبورِ مُباشَرَةً إلى مَعرِفَةِ القَضِيَّةِ التي مفادُها 'أنَّ لَدَيَّ إحساسًا بِاللونِ الأصفَرِ'"[2]. ولَولا أن

---

(1) جون مينارد كَيْنز (1883-1946م). اقتِصاديٌّ إنجليزيٌّ. اشتغلَ في بدايةِ حياتِهِ في الهندِ وألَّفَ كتابًا عن الإصلاحِ فيها. يُعَدُّ مؤسِّسَ النظريَّةِ الكينزيَّةِ من خلالِ كتابِهِ (النظريَّةُ العامَّةُ في التَّشغيلِ والفائدةِ والنقود)، وعارَضَ النظريَّةَ الكلاسيكيَّةَ التي كانَتْ من المُسَلَّماتِ في ذلك الوقتِ. مِن مؤلَّفاتِهِ: النتائجُ الاقتصاديَّةُ لِلسِّلْم، ورِسالةٌ في الاحْتِمالِ. [المُتَرجِم]

(2) *A Treatise on Probability* (1921), pp. 12-13.

يُفتَرَضَ أنَّ هذا المذهَبَ الغَريبَ، لكِن السائدَ جِدًّا، مُمَيِّزٌ لِمَدرَسَةٍ مّا لأَحَلْنا على تَسويغِ الحُكمِ das Urteil[3] "غَيرِ المكانيِّ، وغَيرِ الزَّمانيِّ، وغَيرِ الشَّخصِيِّ"، وهوَ المَوضوعُ الدَّقيقُ لِلبَحثِ المنطِقيِّ الذي فَصَّلَ فيهِ لِبْس[4] Lipps[5]؛ [49] وعلى المذهَبِ المُشابِهِ الذي يُبطِلُ الكثيرَ مِن تَحليلِ هوسّيرل Husserl[6]

(3) الحُكْمُ هوَ قُطبُ الرَّحَى في مَذهَبِ الفيلسوفِ الألمانيِّ تيودور لِبْس الذي ستأتي ترجمتُهُ. وحاصِلُ ما أتَى بِهِ أنَّ قَوانينَ الفِكرِ هيَ أنفُسها قَوانينُ طبيعتِنا النفسيَّةِ، وأنَّ المنطِقَ هوَ عِلمُ فيزياءِ التَّفكيرِ. والحُكْمُ عِندَهُ إنَّما يُنسَبُ إلى الصِّحَّةِ الموضوعيَّةِ حينَ يُؤلِّفُ بينَ تَمثيلاتٍ على نَحوٍ ضَروريٍّ. لكِنَّ لِبْس يُفَسِّرُ هذهِ الضَّرورةَ تفسيرًا فيزيائيًّا؛ إذ إنَّها عندَهُ إلزامٌ نَفسِيٌّ يُجبِرُنا على أن نُؤلِّفَ بينَ الأفكارِ على نَحوٍ مّا (أحكامٌ مُوجَبَةٌ) ويَمنعُنا مِن أن نُؤلِّفَ بينَها على نَحوٍ آخَرَ (أحكامٌ سالِبَةٌ). فالضَّرورةُ عندَهُ، كما هيَ عندَ هيوم، شُعورٌ بالضَّرورةِ. وبِتقدُّمِ تفكيرِ لِبْس ظَهَرَ لدَيْهِ التَّفريقُ بينَ مَضمونِ (content) الحُكمِ، الذي يُميِّزُهُ بِوَصفِهِ الأحداثَ النفسيَّةَ (الإدراكاتِ، والصُّوَرَ، وما إليها)، ومَوضوعِ (object) الحُكمِ، وهوَ المقصودُ مِن الحُكمِ والمُفَكَّرُ بِهِ فيهِ. ويُؤكِّدُ لِبْس أنَّ الحُكمَ إنَّما يتعلَّقُ بِهذا الأخيرِ؛ فنَحنُ نُنشِئُ أحكامًا لا بِشأنِ صُوَرِنا بَل بِشأنِ الموضوعاتِ. ويَذهَبُ لِبْس إلى أنَّ الضَّرورةَ التي تنتَمي إلى الأحكامِ الصحيحةِ موضوعيًّا تَتأتَّى مِن المطلَبِ (demand) الذي تُمارِسُهُ الموضوعاتُ علينا. وبِذلكَ نَحكُمُ بِصِحَّةِ: 7+5=12؛ إذ إنَّ هذا الموضوعَ يَطلُبُ أو يَقتَضي إقرارَنا. فإذا ما فُكِّرَ في الموضوعِ جُرِّبَ هذا المطلَبُ، وكانَ رَدُّ فِعلِنا لِهذا التجريبِ إقرارًا يُنشِئُ فِعلاً حُكمِيًّا. [المُترجِم]

(4) تيودور لِبس (1851-1914م). فيلسوفٌ ألمانيٌّ. كانَ أحدَ أكثرِ أساتذةِ الجامِعةِ تأثيرًا في زمانِهِ؛ إذ جذَبَ إليهِ الكثيرَ من الطُّلّابِ من مختلِفِ أنحاءِ العالَم. كانَ لديهِ اهتمامٌ كبيرٌ بِمفاهيمِ الفَنِّ والجَمالِ. وكانَ سِغموند فرويد من بينِ مُعجَبيهِ المُتحمِّسِينَ لَهُ؛ إذ كانَ لِبس المُؤيِّدَ الرَّئيسَ لِفِكرةِ العقلِ الباطنِ. وفي أواخرِ حياتِهِ تبنَّى بعضَ أفكارِ هوسِّيرل. من أهمِّ آثارِهِ: الانسجامُ والتنافُرُ في الموسيقَى، ودِراساتٌ سايكولوجيّةٌ. [المُترجِم]

(5) *Psychologische Untersuchungen*, Vol. II., section 1, "zur 'Psychologie' und 'Philosophie'", pp. 4-10.

(6) إدموند هوسِّيرل (1859-1938م). فيلسوفٌ مِثاليٌّ ألمانيٌّ مِن أصلٍ يهوديٍّ. يُعَدُّ مؤسِّسَ المدرسةِ الفينومينولوجيَّةِ (الظّاهِراتيَّة). وُلِدَ في مورافيا حينَما كانَت تابِعَةً لألمانيا، ودرَسَ الرِّياضيّاتِ والفيزياءَ والفَلَكَ في جامعةِ لايبزغ. تنصَّرَ على المذهبِ البروتستانتيِّ وهو شابٌّ مثل الكثيرِ من أقرانِهِ اليَهودِ. ازدادَ اهتمامُهُ بالفلسفةِ في فيينّا بتأثيرِ برنتانو. درَّسَ في جامعةِ هال بينَ سنَتَيْ 1887 و1901، ثمَّ في جامعَتَيْ غوتنغن وفرايبورغ بينَ =

لِلُّغَةِ[7]؛ وعلى خَيالاتِ فان جِنيكين van Ginneken[8] التي هيَ بَعْدُ أكثَرُ غَرابَةً، وهو عالِمُ نَفسٍ لِسانِيٌّ ثاقِبُ الفِكْرِ، يُقَدِّمُ وِجهَةَ النَّظَرِ نَفسَها بِوَصفِها نَظَرِيَّةً لِـ'الالتِصاقِ adhesion'، مُتأثِّرًا في ذلكَ، بِلا شَكٍّ، بِماينونغ Meinong[9] وبِعِلمِ

= سَنَتَيْ 1906 و1916. كانَ يتصوَّرُ أنَّ الفلسفةَ الفينومينولوجيَّةَ التي دعا إليها ستكونُ شيئًا جديدًا تمامًا؛ فالأنطولوجيا الغربيَّةُ تستنِدُ إلى ثُنائيَّةِ الذاتِ والموضوعِ، أمّا هوَ فكانَ يَرمي إلى تأسيسِ أنطولوجيا جديدةٍ تفترِضُ ارتباطَ أحدِهما بِالآخَرِ، بل تَجَسُّدَ أحدِهما من خلالِ الآخَرِ؛ فالطبيعةُ (الموضوعُ) لا تعني عندَهُ شيئًا إلّا إذا ارتبطَتْ بالوعيِ الإنسانيِّ (الذات). من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: فلسفةُ عِلمِ الحِساب، وبُحُوثٌ مَنطِقِيَّةٌ، وأفكارٌ: نَحْوَ ظاهِراتِيَّةٍ خالِصَةٍ وفلسفةٍ ظاهِراتِيَّةٍ، وتأمّلاتٌ ديكارتيَّةٌ. [المُترجِم]

(7) يُنظر التَّذييلُ D، حيثُ يُوجَدُ رأيٌ مُشابِهٌ لِلسَّيِّدِ رَسِل Russell (1903).

(8) جاكوبس جوانز أنطونيوس فان جِنيكين (1877-1945م). لِسانيٌّ، وكاهِنٌ يَسوعيٌّ هولنديٌّ. كانَ أستاذًا في الجامعةِ الكاثوليكيَّةِ في نِميغين منذُ بِدايتِها سنةَ 1923. درَّسَ اللغةَ والأدَبَ الهولنديَّيْنِ، واللسانيّاتِ المُقارنةَ لِلُّغاتِ الهندوأورُبِّيَّةِ والسنسكريتيَّةِ. مِن آثارِهِ: مبادِئُ اللسانيّاتِ السايكولوجيَّة، وأسبابُ تغيُّرِ اللغة. [المُترجِم]

(9) أليكسيوس ماينونغ (1853-1920م). فيلسوفٌ نمساويٌّ. دَرَسَ على برنتانو بِجامعةِ فيِنّا، وعلَّمَ بِجامعةِ غراتس، وأسَّسَ بِها أوَّلَ مَعمَلٍ لِعلمِ النَّفسِ التَّجريبيِّ بِالنَّمسا، لكِنَّ مُعظَمَ مُؤلَّفاتِهِ لا تَدخُلُ في بابِ علمِ النَّفسِ التَّجريبيِّ، بَل في بابِ علمِ النَّفسِ الوَصفيِّ الذي يَقومُ على افتِراضِ أنَّ التَّوجُّهَ نحوَ الأشياءِ هو السِّمَةُ المُمَيِّزَةُ لِكلِّ الحالاتِ العقليَّةِ. ويُفَرِّقُ بينَها بِحسبِ الفِعلِ والمَضمونِ. فأمّا الفِعلُ فهو كالفَرقِ بينَ التفكيرِ في التِّنّينِ مَثلاً واعتِقادِ وُجودِهِ. وأمّا المَضمونُ فهو كالفَرقِ بينَ التَّفكيرِ في الأشباحِ والتَّفكيرِ في التِّنّينِ. وبَنَى ماينونغ فلسفتَهُ على تقسيمِ برنتانو حالاتِ العقلِ على صُوَرٍ تمثيليَّةٍ وأحكامٍ ومَواقِفَ عاطفيَّةٍ. لكِنَّهُ قَسَّمَ الصُّوَرَ التَّمثيليَّةَ على صُوَرٍ تتطلَّبُ إدراكًا حسِّيًّا ساليًا، وأُخرَى تتطلَّبُ إنتاجًا مُوجَبًا لِموضوعاتٍ لا تُدرَكُ بِالحِسِّ، وليسَ لَها وُجودٌ فِعليٌّ بل وُجودُها افتِراضيٌّ. فهيَ افتراضاتٌ، ويُسَمّى وُجودُها وُجودًا ضِمنيًّا، وهيَ تُشبِهُ الأحكامَ لكِن يَنقُصُها الإقناعُ، ولا يتوقَّفُ كونُها مَوضوعاتٍ أو افتِراضاتٍ على التَّعبيرِ عنها أو التَّفكيرِ فيه. وقد تناوَلَها ماينونغ في كِتابِهِ (عَنِ الافتِراضاتِ)، وبَنَى نظريَّتَهُ في المَوضوعاتِ على التَّفريقِ بينَ طبيعةِ الشَّيءِ ووُجودِهِ، وذَهَبَ إلى أنَّ كلَّ شَيءٍ مَوضوعٌ لِلتَّفكيرِ ولو لم يَكُنْ قابِلاً لأن يُفَكَّرَ فيهِ؛ فكونُهُ غيرَ قابِلٍ لأن يُفَكَّرَ فيهِ يَصِفُهُ في أقَلِّ تَقديرٍ بِأنَّهُ غيرُ قابِلٍ لأن يُفَكَّرَ فيهِ. فالمُربَّعُ المُستَديرُ، مَثلاً، لهُ طبيعةُ أنَّهُ مُربَّعٌ ومُستَديرٌ، وإن لَم يُمكِن وُجودُهُ في الواقِعِ لأنَّ طبيعتَهُ تَخرِقُ قانونَ الثالِثِ المرفوعِ. وليسَ قولُنا إنَّ وُجودَهُ ضِمنيٌّ يَعني أنَّ =

الأديانِ كذلكَ. ويُقرِّرُ هذا الكاتِبُ أنَّ أيَّةَ أُطروحَةٍ بِشأنِ عمليَّةِ التَّفكيرِ تَتَوسَّلُ بِلُغَةِ الصُّوَرِ اللفظيَّةِ وتَمثيلاتِ الأشياءِ ستَكونُ غيرَ وافِيَةٍ. فَـ"نحنُ نَجِدُ أنفُسَنا في مُواجَهَةِ قُوَّةٍ جَديدَةٍ: شيءٍ لا يَقَعُ في مُتَناوَلِ الحِسِّ، ولا يَبلُغُهُ إدراكُ البَشَرِ... يَكونُ فَهمُنا وعِلْمُنا مِن خِلالِهِ على نَحوٍ جَديدٍ، وأكثَرَ كَمالاً مِمّا يَكونُ عليهِ مِن خِلالِ طبيعتِنا الحيَوانيَّةِ. فنحنُ... نلتَصِقُ بِالواقِعِ الحاضِرِ، بِالذي هو مَوجودٌ واقِعًا وفِعلاً... وكذلكَ بِالذي هو مُمكِنٌ، الجَوهَرِ"[10]. ومِن الواضِحِ أنَّ الوَصْفَ العِلمِيَّ لِعمليَّةِ التَّفكيرِ مُستَبعَدٌ مِن أوَّلِ الأمرِ في أيَّةِ وِجهَةِ نَظَرٍ كَهذِهِ.

"ما الذي يَحدُثُ حينَ نُفَكِّرُ؟": سُؤالٌ يَنبَغي أن يكونَ مُثيرًا لاهتِمامِ كلِّ مُفَكِّرٍ. وقد تُعِينُ الإجابَةُ المُبتَذَلَةُ "حينَ نُفَكِّرُ نحنُ نُفَكِّرُ"، التي تُقَدِّمُها وِجهاتُ نَظَرٍ كَهذِهِ، على تَفسيرِ ضَآلَةِ الاستِثارَةِ المُبداةِ. وسَنُحاوِلُ في الصَّفَحاتِ القادِمَةِ أن نُقَدِّمَ وَصفًا مُوجَزًا لِلتَّفكيرِ بِتعبيراتٍ سَبَبِيَّةٍ خالِصَةٍ، مِن غيرِ أيَّةِ مُقَدِّمَةٍ عَن عَلاقاتٍ فَريدَةٍ مُختَرَعَةٍ لأغراضٍ خاصَّةٍ. وبِهذهِ الخاتِمَةِ لِوجهَةِ النَّظَرِ، أي تَقديمِ نَظَرِيَّةٍ طَبيعيَّةٍ لِلتَّفكيرِ بإزاءِ أُخرَى مُصطَنَعَةٍ لهُ، نَبدَأُ النَّظَرَ في العَلاماتِ.

فطَوالَ حياتِنا كُلِّها نحنُ نُعامِلُ الأشياءَ بِوَصفِها عَلاماتٍ. وكُلُّ تَجرِبَةٍ، بالمعنَى الأوسَعِ إمكانًا لِلكَلِمةِ، قَد يُستَمتَعُ بِها، أو تُؤَوَّلُ (أي تُعامَلُ بِوَصفِها عَلامَةً)، أو يُفعَلُ بِها كِلا الأمرَيْنِ، والقَليلُ جِدًّا مِنها لا تَطُولُهُ دَرَجَةٌ مُعَيَّنَةٌ مِن التَّأويلِ. لِذلكَ كانَ تَقديمُ وَصفٍ لِعَمَليَّةِ التَّأويلِ هوَ المِفتاحَ لِفَهمِ الحالِ العَلامِيَّةِ، وكانَ مِن ثَمَّ بِدايَةَ [50] الحِكمَةِ. ومِن المُدهِشِ أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ الحاجَةَ إلى وَصْفٍ كَهذا كانَ أمرًا مألوفًا في عِلمِ النَّفْسِ مُدَّةً طَويلَةً، نَجِدُ المَعنِيِّينَ بِالنَّقدِ

= لهُ وُجودًا في الواقعِ مِن أيِّ نوعٍ، بل يَعني أنَّ لهُ طبيعةً يُمكِنُ وَصفُها ولا صِلَةَ لها بِكونِهِ موجودًا في الواقعِ أو غيرَ موجودٍ. وتُؤدِّي هذهِ الافتِراضاتُ دورًا مُهمًّا في الفنونِ والألعابِ والفُروضِ العِلميَّةِ والخَيالِ. ولا يَعني وُضوحُ بعضِ هذهِ الفُروضِ صِحَّتَها. من آثارِ ماينونغ: دِراساتٌ عن هيوم، ونحوَ تقويمٍ مَعرِفِيٍّ لِلذاكرة، وفي سايكولوجيَّةِ الطبائعِ والعَلاقات. [المُترجِم]

(10) *Principles de linguistique Psychologique*, pp. 52, 55, 68-9.

وتَنظِيمِ مَعارِفِنا يُغْفِلونَ تَمامًا عَواقِبَ إهمالِهِ إلّا قَليلاً منهُم.

وقد ظَهَرَتْ مُحاوَلاتٌ لِتَقديمِ هذهِ الأُطروحَةِ في مُفرَداتٍ كثيرَةٍ مُختَلِفَةٍ. فَقَد أوجَدَت تَعاليمُ عِلمِ النَّفْسِ التَّرابُطِيّ[11]، والإدراكِ الواعي[12]، والإيحاءِ[13]، صِياغاتٍ جَديدَةً تتعلَّقُ بالعَمليَّةِ أكثرَ مِن تَعلُّقِها بالمَضمونِ: إذ تَحُلُّ 'التَّتابُعاتُ الغَريزيَّةُ'[14] مَحَلَّ 'الكيمياءِ الذِّهنِيَّةِ'، في أفضَلِيَّةٍ، لكِن مِن غَيرِ تَغيُّرٍ جَوهَريٍّ في وِجهاتِ النَّظَرِ المُتَبَنّاةِ. وأحدَثُ شَكلٍ اتَّخَذَتْهُ الأُطروحَةُ هو الذي تَبَنّاهُ سيمون Semon[15] الذي بَدا أنَّ جِدَّةَ مُفرَداتِهِ أعادَتْ جَذْبَ الانتِباهِ إلى اعتِباراتٍ كانَتْ، بِلا شَكٍّ، مألوفَةً إلى حَدٍّ لا يُظَنُّ مَعَهُ أنَّ لَها أهمِّيَّةً مّا.

---

(11) D. Hartley, *Observations on man*, Prop. X.

(12) G. C. Lange, *Apperception*, Part I, §§ 1, 2.

(13) I. Miller, *The Psychology of Thinking*, P. 154.

(14) C. Lloyd Morgan, *Instinct and Experience*, P. 194.

(15) رِتشارد فولفغانغ سيمون (1859-1918م). عالِمُ حَيَوانٍ وأحياءٍ ألمانيٌّ. تبنّى مفهومَ توارُثِ الصِّفاتِ المكتسَبَةِ، وطبَّقَهُ على التطوُّرِ الثقافيِّ الاجتماعيِّ، وافترَضَ توازِيًا سايكوفِسيولوجيًّا تُناظِرُ كلُّ حالةٍ سايكولوجيَّةٍ استنادًا إليهِ تَغيُّراتٍ في الأعصابِ. وقد طوَّرَ سيمون أفكارَهُ في الذاكرةِ في بداياتِ القرنِ العشرينَ؛ إذ كانَ أوَّلَ مَن ذَهَبَ إلى أنَّ الذاكرةَ يَجِبُ أن يُنظَرَ إليها على أنَّها استِرجاعيَّةٌ. وقَدَّمَ مَفهومَ (الإنغرام engram)، وهو وحدةُ الذاكرةِ، أو بالأحرى النمطُ المستعمَلُ في تَشفيرِها (أثَرُ الذاكرة). ثمَّ قدَّمَ مفهومًا آخَرَ هو (المُثيرُ المُنَشِّط ecphoric stimulus)، وهو إشارَةٌ تُساعِدُ في استِرجاعِ ذِكْرَى خاصَّةٍ. ولَحِظَ أنَّ احتمالَ العُثورِ على ذِكرَى مُعَيَّنَةٍ يعتمِدُ أيضًا على الإشارةِ المُستَعمَلَةِ لاسترجاعِها (النَّمَطِ المُستعمَلِ في حَلِّ شَفرَتِها)؛ فنحنُ كثيرًا مّا نكونُ مُجبَرينَ على تذكُّرِ شيءٍ مّا لا لِشَيءٍ إلّا لأنَّنا واجَهْنا كلمةً ما، أو رأيْنا شيئًا مّا ذَكَّرَنا بِشَيءٍ آخَرَ. صحيحٌ أنَّ ذلكَ جَرَى في لحظةٍ خاطفةٍ، إلّا أنَّهُ كافٍ لاستِدعاءِ الذِّكرَى لِشيءٍ ما أو لِشخصٍ ما. وقد أدرَكَ سيمون سُلطةَ الإشارةِ؛ فصحيحٌ أنَّها ليسَتْ إلّا جُزءًا من الإنغرام، لكنَّها كافِيَةٌ لاستِرجاعِ الإنغرام كامِلاً. أهَمُّ مؤلَّفاتِ سيمون كتابُهُ الذي نشَرَهُ سنةَ 1904 بِعنوانِ (الأحاسيسُ التذكُّرِيَّةُ في عَلاقاتِها بالأحاسيسِ الأصليَّة)، وقد تُرجِمَ إلى الإنجليزيَّةِ بِعُنوانِ Mneme، وهو تحويرٌ لكلمةٍ إغريقيَّةِ الأصلِ تَعني إلاهَةَ الذاكرةِ، وهيَ إحدَى الإلاهاتِ الأصيلاتِ الثَّلاثِ عندَ الإغريقِ، والثانيةُ إلاهَةُ الغِناءِ، والثالثةُ إلاهَةُ التَّأمُّلِ. [المُترجِم]

ومَناهِجُ المُقارَباتِ هذهِ المُختَلِفَةُ العالِيَةُ القِيمَةِ تَميلُ إلى فَصلِ مُعالَجَةِ القَوانينِ الأساسيَّةِ لِلعمليَّةِ الذِّهنيَّةِ عن تلكَ الخاصَّةِ بتأويلِ العَلاماتِ، ولا يَصُبُّ هذا في مَصلحةِ عِلمِ النَّفسِ. ولم يَقتَصِرْ أَمرُ تلكَ المَناهِجِ على أَنَّها أَدَّتْ إلى أن يكونَ البَحثُ في مَعزِلٍ عن مُشكِلاتٍ مُماثِلَةٍ جَوهَريًا، بَل كذلكَ إلى العَجْزِ عن تَمييزِ حُدودِ الأرضيَّةِ التي تَحرَّكَ فيها المُفَكِّرُونَ الأوائلُ.

ولَمّا كانَت الصِّياغَةُ تُقَدَّمُ على الدَّوامِ بِتَعبيراتٍ سَبَبِيَّةٍ، كانَ استِعمالُ تلكَ المنظومةِ المُصطَلَحيَّةِ مُلائمًا. واستِعمالُها لأغراضِ الوُضوحِ يَكادُ يَكونُ مِمّا لا مَفَرَّ منهُ، وإذا ما كانَ التَّوَسُّعُ الصَّحيحُ حاضِرًا في أذهانِنا فلَن يَكونَ تَضليلُها ضَربَةَ لازِبٍ. وبِذلكَ يَكونُ عَمَلُنا في هذهِ الأُطروحَةِ التَّمهيدِيَّةِ مَقصورًا على استِعمالِ اللغةِ السَّبَبِيَّةِ بِوَصفِها تَيسيرًا إيضاحيًّا لإيجازِها ولِما فيها مِن أفعالِ verbs. وتَتَجَنَّبُ الأُطروحَةُ اللاحِقَةُ التي هيَ أكثَرُ اكتِمالاً أيَّ ذِكرٍ لِلأسبابِ، والنَّتائجِ، والتَّبَعِيَّةِ، [51] ولا تَتَعامَلُ إلّا معَ الارتِباطاتِ المُشاهَدَةِ أو الاتِّساقاتِ السِّياقِيَّةِ بينَ الأحداثِ.

إنَّ التَّأثيراتِ في الكائنِ التي تُحْدِثُها العَلامَةُ، التي قد تكونُ مُثيرًا خارِجيًّا أو عَمَليَّةً مّا تَحدُثُ في الدّاخِلِ، إنَّما تَعتَمِدُ على السِّجِلِّ الماضي لِذلكَ الكائنِ، على نَحوٍ عامٍّ وعلى آخَرَ أكثَرَ تَحديدًا. ولا رَيْبَ في أنَّ السِّجِلَّ الماضيَ كُلَّهُ، بِمَعنًى مِن المَعاني، وَثيقُ الصِّلَةِ، لكِن مِن بينِ أحداثِ الماضي في ذلكَ السِّجِلِّ ما يُحَدِّدُ طبيعَةَ الإثارَةِ الحاضِرَةِ على نَحوٍ أكثَرَ مُباشَرَةً مِمّا يُحَدِّدُهُ غَيرُهُ. فإذا ما أشعَلْنا عُودَ ثِقابٍ، على سبيلِ المِثالِ، فإنَّ الحركاتِ التي نقومُ بِها وصَوتَ الكَشطِ هي مُثيراتٌ حاضِرَةٌ. لكِنَّ الإثارَةَ الحاصِلَةَ مُختَلِفَةٌ عن تلكَ التي كانَتْ سَتَحْصُلُ في حالِ أنّا لَم نُشعِلْ عُودَ ثِقابٍ مِن قَبْلُ. لقد خَلَّفَتِ الإشعالاتُ الماضيَةُ في مَنظومَتِنا إنغراماتٍ engrams[16]، أي آثارًا

(16) Semon's terminology: *Die Mneme*, particularly Part II. (English translation, p. 138 ff.).

ولِقراءةٍ نَقديَّةٍ لِنظريَّةِ سيمون يُنظر: *op. cit., Principles of Literary Criticism*, Chapter XIV., and *op. cit., The meaning of Psychology*, Chapter IV.

باقِيَة[17]، تُعينُ على تَحديدِ ما ستَكونُ عليهِ العَمَلِيَّةُ الذِّهنيَّةُ. فَعلى سبيلِ المِثالِ، هذه العمليَّةُ الذِّهنيَّةُ مِن بينِ العَمليّاتِ الأُخرَى تُمَثِّلُ وَعْيًا لِكَونِنا نُشعِلُ عُودَ ثِقابٍ. وما كانَ لَنا أن نَحْصُلَ على مِثلِ هذا الوَعْيِ لو كانَ الأمرُ بِمَعزِلٍ عن نتائجِ الأحوالِ المُشابِهَةِ السابقةِ. ولو ذَهَبْنا أبعدَ مِن ذلكَ فافترَضْنا أنَّ هذا الوَعْيَ يَصحَبُهُ تَوَقُّعٌ لِحصولِ اتِّقادٍ، لَكانَ مَرَدُّ هذا التَّوَقُّعِ كذلكَ إلى نتائجِ الأحوالِ التي كانَ إشعالُ عُودِ الثِّقابِ فيها قد أعقَبَهُ اتِّقادٌ. إنَّ التَّوَقُّعَ هو إثارَةُ جُزءٍ مِن أجزاءِ مُرَكَّبٍ إنغرامِيٍّ، يَستَدعَيهِ مُثيرٌ (هو الكَشْطُ) يُشبِهُ جُزءًا مِن أجزاءِ الحالِ الإثارِيَّةِ الأصليَّةِ فَحَسْبُ.

ولَعَلَّ تَقديمَ مِثالٍ آخَرَ يَزيدُ هذا الأمرَ وُضوحًا. فأكثَرُ يَرَقاناتِ الفَراشِ شُهرَةً، وهي التي قد وَثَّقَ تأريخَها جُزئيًّا الرّاحِلُ البروفيسور لويد مورغان Lloyd Morgan[18] في كتابِهِ **العادَةُ والغَريزَة** *Habit and Instinct* ص41، كانَتْ مُخَطَّطَةً باللونَيْنِ الأصفرِ والأسوَدِ، وكانَتْ إحدَى دَجاجاتِ البروفيسور قد اقتَنَصَتْها. ولَمّا لَم يَرُقِ الدَّجاجةَ مَذاقُها لَفَظَتْها. ومُنذُ ذلكَ الحين كَفَّتِ الدَّجاجَةُ عَن مُهاجَمَةِ اليَرَقاناتِ المُشابِهَةِ. فما عِلَّةُ ذلكَ؟ السَّبَبُ هو أنَّ رُؤيَةَ يَرَقانَةٍ كَهذهِ، [52] وهي جُزءٌ مِن سِياقِ الرُّؤيَةِ-الاقتِناصِ-المذاقِ الكُلِّيِّ لِلتَّجربَةِ الأصليَّةِ، تُثيرُ الدَّجاجَةَ الآنَ على نَحوٍ يُشبِهُ إلى حَدٍّ لا بأسَ بِهِ[19] الإثارةَ التي كانَ السِّياقُ الكُلِّيُّ يُسَبِّبُها؛ ذلكَ بأنَّ الاقتِناصَ، في أقَلِّ تَقديرٍ، لن يَحدُثَ، سَواءٌ أكانَ ثَمَّةَ تَذَوُّقٌ (في الخَيالِ) أم لَم يَكُنْ.

---

(17) الإنغرام: هو البَصمَةُ الدائمةُ في الفسيولوجيا العصبيَّةِ وعِلم النَّفسِ، وهي بَصمَةٌ عُضويَّةٌ في النَّسيجِ العَصبيِّ لِلدِّماغِ يُوَلِّدُها أيُّ مُثيرٍ ذِهنيٍّ، مُفَسِّرًا بذلكَ إلحاحَ الذِّكْرَى. وكانَ البايولوجيُّ الألمانيُّ رِتشارد سيمون قد قَدَّمَ مَفهومَ الإنغرام بِوصفِهِ وحدةَ الذاكرةِ، أو بالأحرى النمطَ المستعمَلَ في تَشفيرِها (أثَر الذاكرة). [المُترجِم]

(18) كونوي لويد مورغان (1852-1936م). عالِمٌ في السلوكِ الحيوانيِّ، وعالِمُ نَفسٍ بريطانيٌّ. أكثرُ ما يُعرَفُ بِهِ مُقاربتُهُ التجريبيَّةُ لِسايكولوجيَّةِ الحيوانِ التي تُعرَفُ الآنَ بِقانونِ مورغان. من أشهرِ مؤلَّفاتِهِ: العادَةُ والغَريزَة، ومقدّمةٌ في علم النَّفسِ المُقارن. [المُترجِم]

(19) دَرَجَةُ الشَّبَهِ المطلوبَةُ مَوضِعُ خِلافٍ. وبِذلكَ يُصبِحُ لَونُ الصُّفرَةِ والسَّوادِ عَلامَةً لِلمَذاقِ الكَريهِ.

وهذهِ الحالةُ البَسيطَةُ نَمَطيَّةٌ في كُلِّ تأويلٍ؛ ذلكَ بأنَّ خُصوصِيَّةَ التَّأويلِ تَكمُنُ في أنَّه إذا ما أثَّرَ فينا في الماضي سِياقٌ مّا فإنَّ تَكَرُّرَ جُزءٍ مِن ذلكَ السِّياقِ فَحَسْبُ سيُوَلِّدُ لَدَيْنا رَدَّ فِعلٍ مُماثِلاً لِرَدِّ فِعلِنا السّابِقِ[20]. فالعَلامَةُ هي على الدَّوامِ مُثيرٌ مُشابِهٌ لِجُزءٍ مّا مِن مُثيرٍ أصليٍّ، وهو كافٍ لاستِدعاءِ الإنغرامِ[21] الذي كَوَّنَهُ ذلكَ المُؤَثِّرُ.

والإنغرامُ هوَ الأثَرُ الباقي لِتَكيُّفِ adaptation[22] الكائنِ لِلمُؤَثِّرِ. والعَمَليَّةُ الذِّهنِيَّةُ[23] النّاجِمَةُ عن استِدعاءِ الإنغرامِ هي تَكَيُّفٌ مُشابِهٌ: فَبِقَدْرِ ما يَكونُ هذا التَّكَيُّفُ إدراكِيًّا يَكونُ ما هوَ مُكَيَّفٌ لَهُ مَرجِعَهُ، وهوَ ما تُمَثِّلُهُ العَلامَةُ المُثيرَةُ أو تَدُلُّ عليهِ.

ولَفْظُ 'مُكَيَّف adapted'، على الرَّغمِ مِن كَونِهِ ملائمًا، يَنبَغي تَوسيعُهُ إذا ما أُريدَ لِهذهِ الأُطروحَةِ أن تَكونَ واضِحَةً- وما بَقِيَ مِن هذا الفَصلِ سيُخَصَّصُ لِهذا التَّوسيعِ. فَلْنَعُدْ إلى مِثالِنا، وَلْنَفتَرِضْ أنَّ عُودَ الثِّقابِ قد اشتَعَلَ وأنّا كُنّا نتوقَّعُ

---

(20) يُمكِنُ أن نَستَعمِلَ مُصطَلَحاتِ المدرسةِ الجشتالتيَّةِ 'Gestalt school' فنقولَ إنَّهُ إذا ما كانَ ثَمَّةَ 'جشتالت gestalt' أو 'هَيْأَةٌ configuration' قَد كُوِّنَ فَإنَّ النِّظامَ الذي قَد أُقْلِقَ سيَميلُ نحوَ 'حالَةِ النِّهايَةِ end-state' التي حدَّدَتْها حَوادِثُ سابِقَةٌ. ووِجهَةُ النَّظَرِ هذهِ ومُصطَلَحاتُها قد نوقِشَتْ في كِتابِ مَعْنَى عِلْمِ النَّفْس *The Meaning of Psychology*، في الصَّفَحاتِ 108-111، و114-115 منهُ، حيثُ نَجِدُ فِقرةً تَحوي سِتَّ عِباراتٍ مُختلِفَةً يُمكِنُ أن تَحُلَّ مَحَلَّها جميعًا كلمةُ جشتالت عندَ الرَّغبةِ (على أنَّ الفِقرَةَ تبدو أكثرَ وُضوحًا على ما هي عليهِ).

(21) إن كانَ لَدَى القارئِ شَكٌّ بِشَأنِ البَصَماتِ الدّائمَةِ فبإمكانِهِ أن يَقرأَ ما ذُكِرَ على وَفقِ الآتي: "لاستِدعاءِ الإثارَةِ المُشابِهَةِ لِتِلكَ التي سَبَّبَها المُؤَثِّرُ الأصليُّ".

(22) ليسَ هذا التَّكَيُّفُ بالضَّرورةِ صَحيحًا أو لائقًا. ونحنُ هُنا لا نتناوَلُ التَّكيُّفَ إلّا بِقَدْرِ كَوْنِهِ إدراكِيًّا، وقَد نَغُضُّ الطَّرْفَ عن الصِّفَةِ التَّأثيريَّةِ-الإرادِيَّةِ لِلعَمليَّةِ.

(23) الأُطروحَةُ المقَدَّمَةُ هُنا تُمكِنُ قِراءَتُها بِوَصفِها مُحايِدَةً في ما يتعلَّقُ بِالتَّوازي النَّفسِيِّ-العَصَبِيِّ، والتَّفاعُلِ، والفَرضِيَّةِ المُزدَوجَةِ المَظهَرِ، ما دامَتْ مُشكِلَةُ العَلاقَةِ بينَ العَقلِ والجَسَدِ- بِقَدْرِ ما أنَّها لَيسَتْ هيَ نَفسُها مُشكِلَةً وَهمِيَّةً- مُشكِلَةً لاحِقَةً. Cf. Chapter IV., p. 81, and *op. cit.*, *The Meaning of Psychology*, Chapter II.

الاتِّقادَ. فالاتِّقادُ في هذهِ الحالةِ هوَ ما نَحْنُ مُكَيَّفُونَ لهُ. [53] وعلى نَحوٍ أكثَرَ اكتِمالاً تُشابِهُ العَمَلِيَّةُ الذِّهنيَّةُ، التي هي التَّوقُّعُ، عَمَلِيّاتٍ سَبَّبَتْها اتِّقاداتٌ في الماضي، بَل إنَّها 'مُوَجَّهَةٌ شَطْرَ' المُستَقبَلِ. وإذا ما استَطَعْنا أن نَكتَشِفَ ما تُمَثِّلُهُ هذهِ الـ'مُوَجَّهَةُ شَطْرَ شَيءٍ مّا' فسنكونُ قد انتَهَيْنا مِن الجُزءِ الرَّئيسِ مِن وَصفِنا لِلتَّأويلِ.

وزِيادَةً على كَونِ تَوَقُّعِنا 'مُوَجَّهًا شَطْرَ' المُستَقبَلِ، يَكونُ 'مُوَجَّهًا شَطْرَ' الاتِّقادِ كذلكَ. غيرَ أنَّ كَونَهُ 'مُوَجَّهًا شَطْرَ شَيءٍ مّا' هُنا لا يُمَثِّلُ سِوَى كَونِهِ 'مُشابِهًا لِما سَبَّبَ وُجودَهُ شَيءٌ مّا'. فالفِكرَةُ تكونُ 'مُوَجَّهَةً شَطْرَ' الاتِّقادِ حينَ تُشبِهُ مِن جوانِبَ مُعَيَّنَةٍ أفكارًا سَبَّبَها الاتِّقادُ. ولا يَنبَغي لَنا، على ما بَيَّنّا مِن قَبلُ، أن نَسمَحَ لِعُيوبِ اللغَةِ السَّبَبِيَّةِ بِأن تُضَلِّلَنا هُنا ولا بِأن تَجعَلَنا، بَدَلاً مِن ذلكَ، نَهجُرُ مَنهَجَ المُقارَبَةِ المُشارَ إليهِ. وإذا ما طَوَّرْنا هذهِ اللُّغَةَ فَسَيَظهَرُ لنا أمرانِ، أحدُهُما أنَّ هذا النَّوعَ مِن البَديلِ لِـ'المُوَجَّه شَطْرَ شَيءٍ مّا' سَيَفقِدُ غَرابَتَهُ، والآخَرُ أنَّ النَّوعَ نَفسَهُ مِن الاستِبدالِ سَيُلائمُ حالَةَ 'الاتِّجاهِ شَطْرَ المُستَقبَلِ' وسيُفَسِّرُ في الواقِعِ 'اتِّجاهَ' عَمَلِيّاتِ التَّفكيرِ أو إحالَتَها على وَجهِ العُمومِ.

إنَّ فِكرَةَ السَّبَبِ الفَجَّةَ مُضَلِّلَةٌ في هذا الارتِباطِ بِخاصَّةٍ ما دامَتْ قد جَعَلَتْ حتَّى أكثَرَ المُفَكِّرِينَ جُرأَةً[24] يَنكَمِشونَ مِن مُناظَرَةِ [54] 'أن تُفَكِّرَ في' لِـ'أن

(24) المُستَثْنَوْنَ مِن ذلكَ، كالسَّيِّدَيْنِ هولت E. B. Holt ورَسِل Russell اللذَيْنِ تَبَنّى كُلٌّ مِنهما على انفِرادٍ نَظريَّةً سببيَّةً لِلإحالةِ، لم يُفلِحُوا في تَقديمِ تَحديدٍ لِوجهةِ النَّظَرِ هذهِ. فالسَّيِّدُ هولت الذي يَذهَبُ في كِتابِهِ (الرَّغْبَةُ الفرويدِيَّةُ *The Freudian Wish*, p. 168) إلى أنَّ في السُّلوكِ "إحالَةً مَوضوعيَّةً حَقيقيَّةً على البيئةِ"، معَ ذلكَ يُتابِعُ قَولَهُ- إنَّهُ "حتَّى حينَ يَعي المرءُ أشياءَ غيرَ مَوجودَةٍ، كما في الهَلوَسَةِ، يُكَيِّفُ جِسمُهُ على وَفقِها كما لَو كانَتْ مَوجودَةً"، أو يتساءَلُ بِقولِهِ (ص202): "لِمَ يَذهَبُ الغُلامُ إلى صَيدِ السَّمَكِ؟ ... لأنَّ سُلوكَ الجِسْمِ الذي في طَورِ النُّمُوِّ مُتَكامِلٌ بِالقَدْرِ الذي يَستَجيبُ بِهِ استِجابةً مُحَدَّدَةً لِمَوضوعٍ بيئيٍّ كالصَّيْدِ في البركَةِ ... فَالفِكرَةُ (المضمونُ) التي لَدَى الغُلامِ هي السَّمَكَةُ". وسنَرَى أنَّ النَّظَرِيَّةَ السِّياقيَّةَ لِلإحالةِ التي يُوجِزُها هذا الفَصلُ تُقَدِّمُ بَيانًا لاستِجابَةٍ مُحَدَّدَةٍ تنطَبِقُ، كما لا تَنطَبِقُ عندَ السَّيِّدِ هولت، على السُّلوكَيْنِ الخَطَإِ والمُكَيَّفِ بِصِدقٍ على =

تكونَ مُسَبَّبًا عَن.' إذ إنَّ فِكرَةَ أن يكونَ قَولي: 'أنا أفكِّرُ في A' مُساوِيًا لِقَولِي: 'فِكرَتي مُسَبَّبَةٌ عن A' سَتُسَبِّبُ صَدمَةً لِكُلِّ ذي عَقلٍ سَليم. ومَعَ ذلكَ سَنَجِدُ، حينَ نَستَبدِلُ بِكلِمَةِ 'مُسَبَّب' أُطروحَةً مُوَسَّعَةً، أنَّ هذهِ الفِكرَةَ الغَريبَةَ هي الحَلُّ.

والحَقُّ أنَّ النَّظَرَ إلى السَّبَبِ بِوَصفِهِ شَيئًا مّا يُجبِرُ شَيئًا مّا آخَرَ يُدْعَى نَتيجَةً على الحُدُوثِ، هو وَهمٌ بَلَغَ مِن الوُضوحِ مَبْلَغَ أَنْ جَعَلَ حتَّى الميتافيزيقِيِّينَ يَرفُضونَهُ. ومِن ناحِيَةٍ أخرَى، لَيسَتِ الأُطروحَةُ العِلمِيَّةُ الحالِيَّةُ، التي تَختَزِلُ السَّبَبَ في الارتِباطِ، بِمُلائمَةٍ لأغراضِ التَّفسيرِ، ما دامَ الإطنابُ المُتَواصِلُ لا يُمكِنُ تَفادِيهِ في ظِلِّ غِيابِ المُفرَداتِ 'التَّصْريفِيَّةِ.' ولو أنّا أدرَكْنا، معَ ذلك، أنَّ أساسَ هذهِ الأُطروحَةِ هوَ حقيقَةُ أنَّ التَّجرِبَةَ لَها صِفَةُ التَّكَرُّرِ، أي أنَّها تأتينا في

= حَدٍّ سَواءٍ. أمّا السَّيِّدُ رَسِل، الذي هَجَرَ الآنَ، شأنُهُ شأنُ السَّيِّدِ هولت، نَظرِيَّةَ عَلاقاتِ المعرِفَةِ المُباشِرَةِ بينَ الأذهانِ والأشياءِ، فَيُبْهِمُ صِياغةَ الأُطروحَةِ السَّبَبِيَّةِ في كِتابِهِ **تَحليلُ العَقل** *Analysis of Mind* بِتَقديمِ اعتِباراتٍ تَنشَأُ مِن مُعالَجَةٍ هي غايةٌ في عَدَمِ الانسِجام. إذ يَقولُ (ص235): "إنَّهُ لَشَيْءٌ فَريدٌ جِدًّا أن يُوَلِّدَ المعنَى المُفرَدُ إحالةً مَوضوعِيَّةً مُزدَوِجَةً، أي صادِقَةً وكاذِبَةً". وسَنَرَى حينَ نُحَلِّلُ الإحالاتِ المعقَّدَةَ كيفَ يَختَفي هذا الشُّذُوذُ. إنَّ التميِيزَ المُفتَرَضَ لِـ'المعنَى' مِن الإحالَةِ المَوضوعِيَّةِ على وَفقِ هذا التَّقديرِ هو على دَرَجَةٍ مِن التَّعقيدِ تُؤَكِّدُها المُواضَعاتُ الرَّمزِيَّةُ. ويُلحَظُ كذلكَ أنَّ الأُطروحَةَ السَّبَبِيَّةَ لِلمَعنَى عندَ السَّيِّدِ رَسِل، ولا سِيَّما في ص197 فَما بَعدَها، وص231 فَما بَعدَها، تُخالِفُ تلكَ المُطَوَّرَةَ هُنا في الأهَمِّيَّةِ المَنُوطَةِ بِالصُّوَرِ؛ لِكَونِ المعنَى أو الإحالَةِ يُعرَّفُ إمّا مِن خِلالِ مُشابَهَةِ الصُّوَرِ لِما تَعْنِيهِ، وإمّا مِن خِلالِ 'فَعّالِيَّتِها السَّبَبِيَّةِ'، أي 'مُلاءَمَةِ' نتائجِها. وأهَمُّ الاعتِراضاتِ على وِجهَةِ النَّظَرِ هذهِ هيَ: غُموضُ 'المُلاءَمَةِ'، ومُغايَرَةُ 'الفَعّالِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ' لِهُوِيَّةِ المعنَى، والتَّعقيداتُ الحاصِلَةُ بِشأنِ مُشكِلَةِ الصِّدْقِ. ويتبنَّى البروفيسور إيتن Eaton في كِتابِهِ **الرَّمزِيَّةُ والصِّدْق** *Symbolism and Truth* (1925)، ص23، وِجهَةَ نظَرٍ تُشبِهُ إلى حَدٍّ مّا وِجهَةَ نَظَرِ السَّيِّدِ رَسِل، إذ يَقولُ: "إنَّ الحلَّ الأيسَرَ لأغراضِ التَّوصُّلِ إلى نَظَرِيَّةِ المعرِفَةِ يَكمُنُ في قَبُولِ فَعّالِيَّةِ المَعنَى بِوَصفِها متفَرِّدَةً . . . فَلِكُلِّ مَوضوعٍ فَعّالِيّاتٌ مُعَيَّنَةٌ تُلائِمُهُ". والنِّزاعُ في هذا الفَصلِ، مِن جِهَةٍ أُخرَى، يَدُورُ حَولَ إمكانِ السَّيْرِ خَلْفَ هذهِ 'المُلاءَمَةِ' وجَدْوَى ذلكَ.

ويُقِرُّ شَرحُ السَّيِّدِ رَسِل الذي هوَ أبعَدُ عن المُتَناوَلِ في الصَّفَحاتِ 117–119 مِن عدَدِ دَوْرِيَّةِ *The Dial* الصّادِرِ في أُغُسطُس/آب بِأنَّ الصُّوَرَ لا يَنبَغي تَقديمُها لِتُفَسِّرَ المعنَى .

سِياقاتٍ شِبْهِ مُنتَظمَةٍ، لَكانَ لَنا في هذا كُلُّ ما يَتَطلَّبُهُ تكوينُ نَظريَّةٍ لِلعَلاماتِ، وكُلُّ ما كانَتِ النَّظريَّةُ القَديمَةُ لِلأسبابِ مُؤَهَّلَةً لأنْ تُحافِظَ عليهِ. وبعضُ هذهِ السِّياقاتِ أقرَبُ زَمانًا ومَكانًا مِن سِواهُ؛ فالسِّياقاتُ التي يَبحَثُ فيها عِلمُ الفيزياءِ، على سبيلِ المِثالِ، تَتَقَلَّصُ إلى دَرَجَةِ الاستِشهادِ بِالمُعادَلاتِ التَّفاضُلِيَّةِ. أمّا السِّياقاتُ التي نَجَحَ عِلمُ النَّفسِ حتَّى الآن في الكَشفِ عنها فَواسِعَةٌ؛ فَالأحداثُ المنتَظمَةُ التَّرابُطِ كَثيرًا مّا تَكونُ مُنفَصِلَةً زَمَنِيًّا إلى حَدٍّ بَعيدٍ. على أنَّ التَّأويلَ غيرُ مُمكِنٍ لَوْلا هذهِ السِّياقاتُ المُتَكَرِّرَةُ، وهذا أمرٌ مُقَرٌّ بِهِ على نِطاقٍ واسِعٍ جِدًّا، [55] لكِن لَو مُحِّصَ لاكتُشِفَ أنَّهُ أكثَرُ جَوْهَرِيَّةً بِكَثيرٍ مِمّا كانَ يُظَنُّ بِهِ. فالحَقُّ أنَّ إخبارَنا عن أيِّ شَيءٍ بِأنَّهُ تأويلٌ يَعني أن نُخبِرَ بِأنَّهُ عُضوٌ في سِياقٍ سايكولوجِيٍّ مِن نَوعٍ مُعَيَّنٍ. فالتَّأويلُ نَفسُهُ إنَّما هُوَ تكرارٌ.

ويُمكِنُ، عندَ هذهِ النُّقطةِ مِن البَحثِ، الإتيانُ بِمِثالٍ تَوضيحيٍّ مَلموسٍ. فَثَمَّةَ كَلبٌ مَشهورٌ في مُعظَمِ الكُتُبِ التي تُعالِجُ سُلوكَ الحيَوانِ، يَجري عِندَ سَماعِهِ جَرسَ العشاءِ بِاتِّجاهِ غُرفةِ الطَّعامِ، ولو كانَ في أجزاءٍ مِن الدّارِ بَعيدَةٍ تَمامًا عن مَصدَرِ الرَّوائحِ والنَّكهاتِ؛ لَعَلَّهُ يَحظَى بِجِلسَةٍ مُناسِبَةٍ، في حالِ تَوَلَّدَ لَدَى مُتناوِلِي العشاءِ أيُّ نَوعٍ مِن الأفكارِ المُتعاطِفةِ تجاهَهُ. فهذا الكَلبُ إنَّما يُؤَوِّلُ صَوتَ الجَرسِ بِوَصفِهِ عَلامَةً. فَكيفَ يَحدُثُ ذلكَ؟ ولا يَنبَغي أن يكونَ ثَمَّةَ خِلافٌ في الإجابةِ عن هذا السُّؤالِ، وهي أنَّ ذلكَ يَحدُثُ مِن خِلالِ تَجربَةِ الكَلبِ الماضِيَةِ. إذ تشتَمِلُ هذهِ التَّجربَةُ الماضِيَةُ، على لَفائِفَ مُتَكَرِّرَةٍ مِن الأحداثِ، إنْ جازَ التَّعبيرُ، تتألَّفُ إحداها، على نَحوٍ تَقريبيٍّ، مِمّا يأتي: جَرسٍ قُرصِيٍّ، ورائحَةٍ ذاتِ نَكهَةٍ، وتأمُّلٍ مُتَشَوِّفٍ لالتِهامِ مُتناوِلِي العشاءِ لِلأطعِمَةِ، وهِباتٍ، وشِبَعٍ. وسَنَدعو مِثلَ هذهِ اللَّفيفَةِ التي يتكرَّرُ حُدوثُها مِن وَقتٍ إلى آخَرَ سِياقًا خارِجِيًّا. وفي مُناسَبَةٍ مَخصوصَةٍ قد يُسمَعُ صَوتُ الجَرسِ القُرصِيِّ بَعيدًا عن مَصدَرِ النَّكهاتِ. لكِنْ بِسبَبِ خِبرَةِ الكَلبِ المُؤَوِّلِ الماضِيَةِ المشتَمِلَةِ على أصواتِ الجَرسِ القُرصيِّ والنَّكهاتِ مَعًا، يَرتَبِطُ صَوتُ الجَرسِ الحاليُّ بِعَلاقَةٍ مَخصوصَةٍ بِما مَضَى مِن الأصواتِ والنَّكهاتِ، والتَّشَوُّفاتِ، وما إليها، بِما يَجعَلُهُ يَتَصَرَّفُ على النَّحوِ الذي وُصِفَ مِن الحَصافَةِ، ويكونُ حاضِرًا في وَجبَةِ الطَّعامِ. وسنُطلِقُ

على مِثْلِ هذهِ المجموعةِ الذِّهنيَّةِ مِن الأحداثِ- سَماعِهِ الحاليِّ لِصوتِ الجَرسِ القُرصيِّ، وسَماعاتِهِ الماضيَةِ لأصواتٍ مُشابِهَةٍ، ونَكَهاتِهِ الماضِيَةِ معَ أجراسٍ قُرصِيَّةٍ، وما إلى ذلكَ، وعمليَّتِهِ الذِّهنيَّةِ الحاليَّةِ أيضاً التي يَجري بِمُقتضَاها إلى غُرفةِ الطَّعام- اسمَ السِّياقِ السّايكولوجيّ. ومِن الواضِحِ أنَّ هذا النَّوعَ مِن السِّياقِ يُمكِنُ تَكرُّرُ حُدوثِهِ فيما يتعلَّقُ بِسِماتِهِ التي هيَ أكثَرُ عُموميَّةً. وواضِحٌ كذلكَ أنَّ عناصِرَهُ قد تَكثُرُ كثرةً غيرَ مَحدودَةٍ وقد يَفصِلُ بَعضَها عن بَعضٍ زَمَنٌ واسِعٌ، وأنَّه مِن خِلالِ هذهِ الفَواصِلِ الزَّمنيَّةِ يُمكِنُ أن يَربِطَ هذا السِّياقُ السّايكولوجيُّ بينَ السِّياقاتِ الخارجيَّةِ، مِن اللَفائفِ المُتَكرِّرَةِ الحُدوثِ مِن الخِبْراتِ [56] ذَوَاتِ الطّابِعِ الجَرسِيِّ-النَّكهِيِّ المذكورةِ آنِفًا. وعلى نَحوٍ مُشابِهٍ سَيُوضِحُ كلُّ تَعَلُّمٍ بِوَساطَةِ الخِبْرَةِ أنَّ كونَ الشَّيءِ فِعلاً تأويليًا لا يَعني إلّا أن يَكونَ عُضوًا مُمَيَّزًا(25) في سِياقٍ سايكولوجيٍّ مِن نَوعٍ مُعَيَّنٍ؛ لِكَونِ السِّياقِ السّايكولوجيِّ مَجموعَةً مُتَكرِّرَةَ الحُدوثِ لأحداثٍ ذِهنيَّةٍ يَرتَبِطُ بعضُها بِبعضٍ على نَحوٍ مُمَيَّزٍ لِيتكَرَّرَ حُدوثُها، فيما يتعلَّقُ بِسِماتِها الرَّئيسةِ، في اتِّساقٍ جُزئيٍّ.

سيُشعَرُ بِقَليلٍ مِن التَّردُّدِ في التَّسليمِ بِأنَّهُ ما لم يَكُنْ ثَمَّةَ تَكرُّرُ حُدوثٍ أو اتِّساقٌ جُزئيٌّ فَلَن يُمكِنَ حُدوثُ أيِّ تَنبُّؤٍ، ولا استِدلالٍ، ولا تَعرُّفٍ، ولا تَعميمٍ استِقرائيٍّ، ولا مَعرِفةٍ أو رأيٍ مُحتَمَلٍ فيما يتعلَّقُ بِما ليسَ مُعْطًى مُباشَرَةً. وما هوَ أصعَبُ في الفَهمِ أنَّ سَبَبَ ذلكَ ليسَ إلّا أنَّ هذهِ العَمليّاتِ، أَو التَّعرُّفاتِ، أَو الاستدلالاتِ، أو الأفكارَ أعضاءٌ في سِياقاتٍ سايكولوجيَّةٍ مُعَيَّنةٍ مُتَكرِّرَةِ الحُدوثِ. فقَولِي إنِّي أُمَيِّزُ شيئًا مّا أمامِي بِوَصفِهِ ثَمَرَةَ فراولة، مَثَلاً، وأتَوقَّعُ أن يكونَ طَيِّبَ المَذاقِ، يُساوِي قَولِي إنَّ ثَمَّةَ عَمَليَّةً مّا حاليَّةً في داخِلِي تنتَمي إلى كُلٍّ مِن سِياقٍ سايكولوجيٍّ مُحَدَّدٍ وعمليَّةٍ ماضِيَةٍ مُعَيَّنَةٍ (تَصوُّراتٍ والتِهاماتٍ ماضِيَةٍ لِثِمارِ الفراولةِ). هذهِ السِّياقاتُ السّايكولوجيَّةُ يتكرَّرُ حُدوثُها كُلَّما مَيَّزْنا أو استَدْلَلْنا. وعادَةً مّا تَرتَبِطُ معَ (أو تُشَكِّلُ سِياقاتٍ أوسَعَ مَعَ) السِّياقاتِ

(25) ثَمَّةَ مَزيدٌ مِن التَّحليلِ لِلتَّمَيُّزِ في التَّذييلِ B.

الخارجيَّةِ(26) بِطَرِيقَةٍ مُمَيَّزَةٍ(27). وما لَم يَحدُث ذلكَ فَحينَئذٍ يُقالُ إنَّنا مُخطِئُونَ.

وأبسَطُ صيغةٍ مُصطلحيَّةٍ يُمكِنُ أن يُعرَضَ بِها هذا النَّوعُ مِن الارتِباطِ هي صيغةُ العَلاماتِ. فَوراءَ كُلِّ تأويلٍ تَكمُنُ حقيقةُ أنَّهُ حينَ يتكرَّرُ حُدوثُ جُزءٍ مِن سِياقٍ خارجيٍّ مّا في التَّجرِبةِ يَكونُ هذا الجُزءُ أحيانًا عَلامةً على سائرِ ما في السِّياقِ الخارجيِّ، مِن خِلالِ ارتِباطِهِ بِعضوٍ مّا في سِياقٍ سايكولوجيٍّ مّا (أي في مَجموعةٍ مِن الأحداثِ الذِّهنيَّةِ المُتَرابِطَةِ سَبَبِيًّا التي كَثيرًا مّا تَكونُ بينَها فَواصِلُ زَمنيَّةٌ واسِعَةٌ).

وثَمَّةَ نُقطتانِ تحتاجانِ إلى إيضاحٍ إذا ما أُريدَ لِهذِهِ الأُطروحَةِ المُوجَزَةِ أن [57] تَكونَ وافِيَةً؛ تتعلَّقُ إحداهُما بِالسِّياقاتِ(28)، والأُخرَى بِالوَجْهِ الذي تَكونُ على وَفقِهِ مُطَّرِدَةً.

(1) السِّياقُ هو مجموعةُ كِياناتٍ (أشياءَ أو أحداثٍ) مُترابِطَةٍ بِطريقَةٍ مُعَيَّنةٍ،

---

(26) إذا لم ننظُرْ إلى الأمرِ مِن زاويةٍ سايكولوجيَّةٍ أمكَنَ أن يُقرأ 'خارِجِيّ' على أنَّهُ 'فيزيائيّ.'

(27) يُنظَر: ص145 فما بَعدَها، والتَّذييلُ B.

(28) يُستَعمَلُ لَفظُ السِّياقِ حيثُما وَرَدَ في كِتابِنا هذا بِالمَعْنَى الاصطِلاحِيِّ الصّارِمِ المُحَدَّدِ في ما يأتي، الذي يَختلِفُ عن الاستِعمالِ المُعتادِ. فالسِّياقُ الأدبيُّ مَجموعةٌ مِن الكَلماتِ، والحوادِثِ، والأفكارِ، إلخ، تصَحَبُ في مُناسَبَةٍ مُعَيَّنَةٍ أيَّ شيءٍ يُقالُ إنَّ لَهُ هذا السِّياقَ أو تُحيطُ به، في حينِ أنَّ السِّياقَ المُحدَّدَ هو نَوعٌ مِن المجموعاتِ التي يتكرَّرُ حُدوثُها والتي إنْ كانَ أحدُ أعضائِها في الأقَلِّ مُحَدَّدًا حُدِّدَ سائرُ أعضائها الآخَرينَ. ويَبدو أنَّ البوفيسور بالدون Baldwin قد تبنَّى استعمالاً مُشابِها إلى حَدٍّ مّا لكِنَّهُ أكثرُ غُموضًا في كتابِهِ (**الفِكْرُ والأشياءُ** *Thought and Things* Vol. I., p. 48)، وإنْ كانَ قَد أصبَحَ واضِحًا بِتَقَدُّمِ شَرحِهِ (يُنظَرُ كذلكَ التَّذييلُ D) أنَّ هذا الشَّبَهَ وَهمِيٌّ ما دامَت الصُّورةُ، على سبيلِ المِثالِ، (Vol. I., p. 81) "يُمكِنُ تحويلُها إلى سِياقٍ"، ونَقرأُ حَديثَهُ عن "التَّطوُّرِ الحاصلِ في مَضمونٍ بِعَينِهِ لِلسِّياقِ المُوَسَّعِ لِلمَعاني الإسناديَّةِ والضِّمْنيَّةِ" (Vol. II., p. 246). وتشتَرِكُ هذهِ الاستِعمالاتُ على نحوٍ أكبَرَ معَ استِعمالِ البروفيسور تِتشِنَر Titchener الذي يقولُ بعدَ الفِقرَةِ الثّانِيَةِ التي سنَقتَبِسُها في الفصلِ الثّامنِ: "أنا أفهَمُ مِن السِّياقِ أنَّهُ ليسَ سِوَى عمليَّةٍ ذِهنيَّةٍ أو مُرَكَّبٍ مِن العَمليّاتِ الذِّهنيَّةِ يَحصلُ لِلفِكرةِ الأصليَّةِ مِن خِلالِ الحالِ التي يَجِدُ الكائنُ نَفسَهُ فيها".

وكُلٌّ من هذهِ الكِياناتِ لهُ خَصيصَةٌ على نَحوٍ تَحدُثُ معَهُ مجموعاتُ الكِياناتِ الأُخرَى حامِلَةً الخصائصَ أنفُسَها ومُتَرابِطَةً بالطَّريقةِ عَينِها، وتَحدُثُ هذهِ 'على نَحوٍ يَكادُ يَكونُ مُطَّرِدًا'. في مِثالِنا بِشَأنِ حادِثةِ كَشطِ عُودِ الثِّقابِ وحادثةِ الاتِّقاد يتَّضِحُ تضَمُّنُ العَلاقَةِ المُوَحِّدَةِ تَقارُبًا في الزَّمانِ والمكانِ- فلَن يُكَوِّنَ كَشطٌ مّا في أمريكا واتِّقادٌ مّا في الصِّينِ نحوَ هذا السِّياقِ-، غيرَ أنَّ مِن المُهِمِّ أن يُدرَكَ أنَّه لَيسَتْ ثَمَّةَ حاجَةٌ إلى أن نفرِضَ ابتِداءً تحديدًا لِنوعِ العَلاقةِ التي يُمكِنُ حُدوثُها بِوَصفِها العَلاقَةَ المُوَحِّدَةَ في سِياقٍ مّا، ما دُمْنا لن نكتشِفَ أنواعَ العَلاقاتِ الحادِثَةِ فِعلاً إلّا بِالخِبرَةِ وَحْدَها. وقد يكونُ لِلسِّياقاتِ، فَضلاً عن ذلكَ، أيُّ عَدَدٍ مِن الأعضاءِ، ويبدو أنَّ السِّياقاتِ المُزدَوِجةَ التي تَشتَمِلُ على عُضوَيْنِ فقط نادِرَةٌ، معَ أنَّهُ مِن المُريحِ افتِراضُ حُدوثِها لأغراضٍ إيضاحيَّةٍ. وثَمَّةَ صُعوبةٌ مُعيَّنَةٌ تتعلَّقُ بالخصائصِ التَّأسيسِيَّةِ الدّاخِلَةِ. ففي مِثالِنا بِشَأنِ حادِثةِ كَشطِ عُودِ الثِّقابِ وحادثةِ الاتِّقاد قد يُعَبَّرُ عنهما بِـ'حُدوث كَشطٍ' و'حُدوث اتِّقادٍ'، غيرَ أنَّ هذَيْنِ التَّعبيرَيْنِ اسمانِ مُختَزَلانِ لِمَجموعاتٍ مِن الخَواصِّ واسِعَةٍ جِدًّا. فَنحنُ لا نتوقَّعُ حُدوثَ اتِّقادٍ عندَ كُلِّ كَشطٍ، وسنُفاجَأُ إذا ما اتَّقَدَ عُودُ ثِقابِنا كما يتَّقِدُ شَريطُ المغنيسيوم. [58]

(2) أمّا النُّقطةُ الأُخرَى فالصُّعوبةُ التي تتعلَّقُ فيها بِاختِيارِ الخصائصِ التَّأسيسِيَّةِ مُرتَبِطةٌ بِمُشكلةِ 'الوَجْهِ الذي تَحدُثُ السِّياقاتُ على وَفقِهِ حُدوثًا يَكادُ يَكُونُ مُطَّرِدًا'. ومِن الواضِحِ أنَّهُ إذا ما كانَ لَدَيْنا ما هُوَ على قَدرٍ كافٍ مِن العُمومِ مِن الخَصائصِ والعَلاقاتِ المُوَحِّدَةِ فَليسَ صَعبًا أن نَقِفَ على سِياقاتٍ مُطَّرِدَةٍ على نَحوٍ تامٍّ لا تَقريبيٍّ. مِثالُ ذلكَ السِّياقُ الذي يُؤَسِّسُهُ كِيانانِ لِكُلٍّ مِنهما خَصيصَةُ 'أن يَكونَ حَدَثًا'، وتَربِطُ بينَهما عَلاقَةُ 'التَّتابُعِ'[29]. وإذا ما حَدَّدْنا، مِن جِهةٍ أُخرَى، الخصائصَ التَّأسيسيَّةَ والعَلاقَةَ المُوَحِّدَةَ تَحديدًا كبيرًا فلن يُصبِحَ تَكرُّرُ الحدوثِ

(29) مِمّا يَجدُرُ التَّنبيهُ عليهِ أنَّهُ ليسَ ضَروريًّا في الخَصائصِ التي تُؤَوِّلُ عَلامَةٌ مّا على وَفقِها أن تكونَ 'مُعطاةً'، أي لَنا، لِنُدرِكَ أنَّها تنتمي إليها. وتَتجلَّى أهمِّيَّةُ هذهِ الحالةِ عندَ النَّظرِ في عَمليّاتِ التَّأويلِ التي تَقودُنا إلى تَعرُّفِ كِياناتٍ أُخرَى غيرِ الأحاسيسِ. ويَنبَغي أن يُلحَظَ زِيادَةً على ذلكَ أنَّ الخَصيصةَ التَّأسيسيَّةَ قَد تَكونُ مِن نَمَطِ 'أن تكونَ A، أو B، أو C، وما إلى ذلك'.

أكيدًا. لِذلكَ علينا أن نَصوغَ أُطروحَتَنا بِلُغَةٍ احتِماليَّةٍ. فأن نقولَ، في مِثالِنا، إنَّ السِّياقَ الذي يكونُ فيهِ 'الكَشطُ' و'الاتِّقادُ' خصيصَتَيْنِ تَأسيسيَّتَيْنِ مُتَكرِّرُ الحُدوثِ (أو إنَّهُ سِياقٌ) يَعني:-

أنَّهُ كُلَّما حَدَثَ كَشطٌ كانَ مِن المُحتَمَلِ حُدوثُ اتِّقادٍ لهُ العَلاقَةُ المطلوبةُ بِالكَشطِ.

أو أنَّهُ كُلَّما حَدَثَ اتِّقادٌ فلَرُبَّما كانَ قد حَدَثَ كَشطٌ لهُ العَلاقَةُ المُعاكِسَةُ لِلاتِّقادِ.

أو مَزيجًا مِن القَولَيْنِ المُتَقَدِّمَيْنِ مَعًا.

فأمّا أُولَى الحالاتِ فيُقالُ عن السِّياقِ فيها إنَّهُ مُحَدِّدٌ فيما يتعلَّقُ بِخَصيصَةِ الاتِّقادِ؛ وأمّا ثانيَتُها فيُقالُ عنهُ فيها إنَّهُ مُحَدِّدٌ فيما يتعلَّقُ بِخَصيصَةِ الكَشطِ، وأمّا ثالِثَتُها فيُقالُ عنهُ فيها إنَّهُ مُحَدِّدٌ فيما يتعلَّقُ بِكِلتا الخَصيصَتَيْنِ.

وقَد لَجَأْنا في هذا المَقامِ إلى سِياقٍ مُزدَوِجٍ لِغَرَضِ التَّبسيطِ، وهذا يُظهِرُ الأُطروحَةَ بِصورَةِ المُصطَنَعَةِ. ولا تَستَلزِمُ السِّياقاتُ المُتَعَدِّدَةُ التي تَشتَمِلُ على ثَلاثةِ ألفاظٍ أو أكثرَ مُشكِلاتٍ إضافيَّةً. إذ يَجِبُ أن تكونَ مُحَدِّدَةً فيما يتعلَّقُ بِإحدَى الخَصائصِ التَّأسيسيَّةِ، ويُحتَمَلُ أن تَكونَ كذلكَ فيما يتعلَّقُ بِأيِّ عَدَدٍ مِنها.

لقد حَرَصْنا في أُطروحَتِنا هذهِ على اجتِنابِ أيِّ ذِكرٍ [59] لِلصُّوَرِ- تلكَ الإحياءاتِ أو النُّسَخِ لِلتَّجارِبِ الحِسِّيَّةِ التي تَشْخَصُ شُخوصًا ظاهِرًا جِدًّا في مُعظَمِ ما يُوَلِّدُهُ التَّفكيرُ. وثَمَّةَ أسبابٌ وَجيهةٌ تُظهِرُ لِمَ كانَ مِن المُحتَّمِ على المُحاوَلاتِ التي تَسْعَى إلى بِناءِ نظريَّةٍ لِلتَّأويلِ مُستنِدَةٍ إلى الصُّوَرِ أن تَكونَ مَحفوفَةً بِالخَطَرِ. فمِن ذلكَ أنَّ مِن المشكوكِ فيهِ جِدِّيًا أن تحدُثَ هذه الصُّوَرُ في بَعضِ الأذهانِ أو أن تكونَ قد حَدَثَتْ فيها أصلاً. ومِن ذلكَ أيضًا أنَّهُ في عددٍ كبيرٍ مِن التَّأويلاتِ التي لا يَكونُ لِلكلماتِ فيها دَورٌ واضِحٌ يُخفِقُ الاستِبطانُ في إظهارِ أنَّ الصُّوَرَ حاضِرَةٌ، ما لم يَكُن هذا الاستِبطانُ مُفرِطًا في دِقَّتِهِ وهذا ما يَستَدعي الشَّكَّ في قيمَتِهِ بِوَصفِهِ دَليلاً. وأوجَهُ مِن هذَيْنِ السَّبَبَيْنِ أنَّ الصُّوَرَ تَبدو إلى حَدٍّ بَعيدٍ تَرَفِيّاتٍ ذِهنيَّةً. فقبلَ ظُهورِ صورةٍ مّا، صُورةِ وَحْشٍ بُحَيْراتٍ على سبيلِ المِثالِ، يُمكِنُ أن يُلحَظَ حُدوثُ شَيءٍ مّا كَثيرًا مّا يُوصَفُ وَصفًا مُضَلِّلاً بِأنَّهُ

'قَصْدُ لِتَخيُّلِ' وَحْشٍ بُحَيْراتٍ. غيرَ أنَّ التَّأمُّلَ يُظهِرُ بِوضوحٍ أنَّ هذا ليسَ مُجرَّدَ قَصْدٍ. فحينَ نتحدَّثُ عن قَصْدٍ على هذا النَّحوِ إنَّما نتحدَّثُ عن خصائصَ تأثيريَّةٍ-إرادِيَّةٍ، خصائصَ تتحَوَّلُ بِسَبَبِها، على نَحوٍ تَقريبيٍّ، حالةٌ في الذِّهنِ مِن وَضعٍ ابتِدائيٍّ نِسبيًّا إلى آخَرَ مُنَظَّمٍ وواضِحٍ نِسبيًّا. فوُجودُ قَصْدٍ بِمُفرَدِهِ مُستَحيلٌ استِحالةَ وُجودِ إثارةٍ بِمُفرَدِها. إذ لا بُدَّ مِن وُجودِ مُثارٍ مّا، ولا بُدَّ مِن وُجودِ شَيءٍ مّا يَنتَمي إليهِ القَصْدُ. فما يكونُ هذا الشَّيءُ في الحالاتِ التي نحنُ بِصَدَدِها؟

مَهما يَكُنْ هذا الشَّيءُ فإنَّ لهُ تلكَ الخَصيصَةَ المُمَيِّزَةَ لِلتَّوَجُّهِ شَطرَ أحدِ الأشياءِ دونَ غيرِهِ، وهذا ما نُطلِقُ عليه هُنا اسمَ الإحالَةِ reference. وقد تَكونُ هذهِ الإحالَةُ غيرَ أكيدَةٍ وغامِضَةً، لكِنْ تَبدو مُماثِلَةً في النَّوعِ لِلإحالةِ التي تَحدُثُ في حالاتٍ مِن التَّفكيرِ أوضَحَ وأكثرَ تَحديدًا، حيثُ تُوجَدُ رُموزٌ في هَيْأةِ صُوَرٍ أو كَلِماتٍ. ومِن الصَّعبِ أن نفترِضَ أنَّ الصُّوَرَ تُؤدِّي أيَّ دورٍ رَئيسٍ في المراحلِ الأوَّلِيَّةِ لِمِثلِ هذهِ الإحالاتِ. فأيَّةُ صورةٍ تَنشَأُ تَخضَعُ فورًا لِلقَبولِ أو الرَّفضِ بِناءً على انسِجامِها معَ الإحالَةِ أو عَدَمِهِ، وليسَ المَقصودُ بِهذا الانسِجامِ تَطابُقَ الصُّوَرِ، أو التَّشابُهَ في أيَّةِ خَصائصَ جَوهريَّةٍ. وإنْ كانَتْ ثَمَّةَ صُوَرٌ مِن أيِّ نَوعٍ داخِلَةٌ [60] في هذهِ الحالاتِ مُنذُ بَدءِ التَّفكيرِ بالأشياءِ، فَمِن المُؤكَّدِ أنَّها لا تَدخُلُ على الدَّوامِ بِوَصفِها صُوَرًا، أي بِوَصفِها تَنسَخُ الأشياءَ التي تُشيرُ إليها الإحالَةُ وتُمَثِّلُها، بَل، بِقابليَّةٍ أكثرَ تَحرُّرًا لأنْ تَكونَ مُجَرَّدَ عَلاماتٍ لا بِقابليَّتِها لأنْ تكونَ عَلاماتِ مُحاكاةٍ أو تَقليدٍ.

والحقُّ أنَّهُ قد يُتَساءَلُ: ألَيسَتِ التَّخيُّلاتُ المُحاكيةُ نِتاجًا مُشتَقًّا مُتأخِّرًا في التَّطوُّرِ الذِّهنيِّ؟ لقد بَلَغَ اعتِيادُنا بَدءَ عِلمِ النَّفسِ بِمَعِيَّةِ الصُّوَرِ مَبلَغًا يَجعلُنا نَميلُ إلى اعتِقادِ أنَّ الأذهانَ لا بُدَّ أن تَكونَ قَد بَدَأَتْ بِمَعيَّتِها أيضًا. لكِن ليسَ مِن سَبَبٍ وَجيهٍ لافتِراضِ عَدَمِ إمكانِ الذِّهنِ أن يَعمَلَ بِالكِفايَةِ نَفسِها مِن غيرِ هذهِ الصُّوَرِ. نَعَمْ، إنَّ لَها استِعمالاتٍ مُعَيَّنةً مُحَدَّدَةً تَحديدًا ضَيِّقًا كَالاقتِصادِ في الجهدِ في مَيادينَ مُعَيَّنةٍ مُحَدَّدَةٍ. فالفَنّانُ، ولاعِبُ الشَّطرنجِ، وعالِمُ الرِّياضيّاتِ يَرَوْنَها وَسيلةً مُريحةً. لكن مِن الصَّعبِ أن يُقالَ عَمّا يُمارِسُهُ هؤُلاءِ إنَّهُ أعمالٌ ذِهنيَّةٌ أوَّليَّةٌ. ويَندُرُ أن يَستَثيرَ الجوعُ الصُّوَرَ المَذاقيَّةَ؛ فَسَيَلانُ اللُّعابِ يَحصلُ معَ عدَمِ وُجودِها.

والرُّكونُ إلى حِسِّ الاتِّجاهِ والتَّصَوُّرِ فَحَسْبُ خَيرُ وَسيلةٍ للاهتِداءِ في غيرِ المَطروقِ مِن البَرِّيّاتِ وضَواحي الحَواضِرِ. وإجمالُ القَولِ أنَّ العَلامَةَ المُحاكِيَةَ ليسَتْ مِمّا يَعظُمُ انتِفاعُ العَقلِ البِدائيِّ بِها. ويَصلُحُ سائرُ أصنافِ العَلاماتِ على حَدٍّ سَواءٍ لِمُعظَمِ الأغراضِ، وكِفَّةُ المَزايا القَليلةِ لِلصُّوَرِ ستَطيشُ إذا ما تذَكَّرْنا ما يُمكِنُ أن يُعَرِّضَ مُستَعمِلُو الصُّوَرِ أنفُسَهُم لَهُ مِن 'مَظَنَّةِ الخَطَرِ.' إذ إنَّ وُجودَ الصُّوَرِ غيرِ الدَّقيقَةِ وغيرِ ذَواتِ الصِّلَةِ أشَدُّ ضَرَرًا مِن عَدَمِها أصلاً. وإنَّهُ لَيَصعُبُ تَقويمُ الحُجَجِ التي تُعَزِّزُ جانبَ الصُّوَرِ بِوَصفِها مُفرَزاتٍ أوَّليَّةً وأساسيَّةً جِدًّا، كحُجَّةِ الأحلامِ، مَثلاً، أو السَّيطَرَةِ المزعومةِ لِلصُّوَرِ على الأطفالِ والأقوامِ البِدائيَّةِ. وقد يكونُ لِلتَّخَيُّلاتِ حُضورُها القَويُّ وإن لم تُؤَدِّ، بالضَّرورةِ، وظيفةً مُهمَّةً؛ فليسَ ما تُسَبِّبُهُ مِن إشباعاتٍ شُعوريَّةٍ في أحلامِ اليقظَةِ، على سبيلِ المِثالِ، بِدَليلٍ على أنَّ الإحالاتِ المَعْنيَّةَ ما كانَتْ لِتَحدُثَ لَولاها. وتُشبِهُ ذلكَ حالةُ الذينَ يُوَلِّدُونَ صُوَرًا مُستقصِيَةً لِمائدةِ إفطارِهِم، فكَثيرًا مّا يُمكِنُهُم أن يَعرِفُوا كلَّ شيءٍ عنها مِن غيرِ بارِقَةٍ [61] لِصورةٍ مّا، ما لم يَكنِ الانغِماسُ الشَّديدُ في الصُّوَرِ قد أفسَدَ قُدرَتَهم الطَّبيعيَّةَ.

مِن أجلِ ذلكَ كانَ لأيَّةِ نظريَّةٍ في التَّأويلِ بِمَقدورِها أن تَنْأى بِنَفْسِها عَن جَعلِ الصُّوَرِ حَجَرَ زاوِيَةٍ فيها أفضَلِيَّةٌ واضِحَةٌ على النَّظريّاتِ التي ليسَتْ كذلكَ. وتُمَثِّلُ هذهِ النُّقطةُ مَوضِعَ الاختِلافِ الرَّئيسَ بينَ وِجهةِ النَّظرِ المُطَوَّرَةِ هُنا وما قَدَّمَهُ السَّيِّدُ رَسِل(30) Russell(31) بِشأنِ المعنَى، الذي ينبَغي، معَ ذلكَ، أن

(30) برتراند آرثَر وِليَم رَسِل (1872-1970م). فيلسوفٌ، وعالِمُ مَنطِقٍ، ورياضيٌّ، ومؤرِّخٌ، وناقدٌ اجتماعيٌّ بريطانيٌّ. حازَ سنةَ 1950 جائزةَ نوبل لِلآداب. وكانَ في مراحِلَ من حياتِهِ لِيراليًّا واشتراكيًّا وداعيةَ سلام، إلّا أنَّهُ أقَرَّ بِأنَّهُ لم يكُنْ أيًّا من هؤلاءِ بالمعنى العميق. قادَ الثورةَ البريطانيَّةَ المُضادَّةَ لِلمثاليَّةِ في أوائلِ القرنِ العشرينَ. يُعَدُّ أحدَ مُؤسِّسِي الفلسفةِ التحليليَّةِ معَ سلَفِهِ غوتلوب فريجة وتلميذِهِ لودفيغ فتغنشتاين، وأحَدَ أهمِّ عُلماءِ المنطِقِ في القرنِ العشرينَ. ألَّفَ معَ وايتهيد كتابَ (مَبادِئُ الرِّياضيّات)، وهوَ محاولةٌ لِشرحِ الرِّياضيّاتِ بِالمنطقِ. وتُعدُّ مقالتُهُ الفلسفيَّةُ (في الدِّلالَةِ التَّعيينيَّة) أنموذجًا فكريًّا في الفلسفةِ. [المُترجِم]

(31) يُنظَرُ كِتابُهُ **تَحليل العَقلِ** *The Analysis of Mind*، ولا سيَّما ص207-210. وثَمَّةَ =

يُراجِعَهُ أولئكَ الذينَ يُفَضِّلُونَ على وَصفِنا المُوجَزِ نِقاشًا أَيْسَرَ لِما تُؤَدِّيهِ السَّببيَّةُ التَّذكُّريَّةُ مِن دَورٍ مَعرِفيٍّ.

فَلْنَفتَرِضِ الآنَ أنّا أشعَلْنا عُودَ الثّقابِ وتَوقَّعْنا حُدوثَ اتِّقادٍ. فلا بُدَّ لنا مِن وَسيلةٍ لِلحُكم على توقُّعِنا بِالصِّدقِ أو بِالكَذِبِ. والذي نَفعَلُهُ في الواقِعِ هو أنَّنا ننظُرُ لِنَرَى: أكانَ اتِّقادٌ أم لم يَكُنْ؟ لكنَّ السُّؤالَ الذي ينبغي أن نُجيبَ عنهُ هو: كيفَ لَنا أن نَنتَخِبَ، مِن بينِ كلِّ الأحداثِ المُمكِنَةِ الأُخرَى التي كانَ يُحتَمَلُ أن نختارَها، هذا الاتِّقادَ المَخصوصَ بِوَصفِهِ الحدَثَ الذي يَعتَمِدُ عليهِ صِدقُ توقُّعِنا أو كَذِبُهُ؟[32]. فَنحنُ نَنتَخِبُهُ بِوَساطةِ سِياقاتٍ خارجيَّةٍ مُعيَّنَةٍ يَنتمي إليها، أي إنَّهُ ذلكَ الحدَثُ الذي، إن يَكُن، يُكمِلُ السِّياقَ الذي يُمَثِّلُ الكَشطُ عُضوَهُ الآخَرَ في هذهِ الحالَةِ، وبِذلكَ يَكونُ مُهَيَّأً لِلارتباطِ بِالتَّوقُّعِ مِن خِلالِ السِّياقِ السّايكولوجيِّ الذي يُنشِئُهُ ذلك التَّوقُّعُ والخِبْراتُ الماضيَةُ المُتعلِّقَةُ بِأحداثِ الكَشطِ والاتِّقادِ.

فَإنْ كانَ ثَمَّةَ حَدَثٌ يُكمِلُ السِّياقَ الخارجيَّ المَعنِيَّ فالإحالَةُ صادِقَةٌ والحَدَثُ المذكورُ هوَ مَرجِعُها. أمّا إن لم يَكُن نَحوُ هذا الحدَثِ فالإحالَةُ كاذِبَةٌ والتَّوقُّعُ خائبٌ.

والأُطروحَةُ المُتَقَدِّمَةُ تَشمَلُ اعتقاداتٍ على نَحوِ 'سَيعقُبُ هذا الكَشطَ اتِّقادٌ' يُحدِثُها إحساسٌ حاضِرٌ. [62] وقد يَحُلُّ اعتِقادٌ مّا بِنَفسِهِ مَحَلَّ إحساسٍ مّا حاضِرٍ لِيَكونَ عَلامَةً لاعتِقادٍ آخَرَ يَكونُ حينَئذٍ تأويلاً لِهذا الاعتِقادِ. والحالاتُ الوَحيدَةُ مِن هذا النَّوعِ التي يَبدُو أنَّها تَحدُثُ هي الاعتِقاداتُ الاستِبطانيَّةُ التي على نَحوِ 'أعتَقِدُ أنّي أعتَقِدُ، وما إلى ذلكَ' والتي مِن المُهِمِّ أن يُدرَكَ أنَّها قد تكونُ كاذِبَةً

= نُقطةٌ في مُعالجتِهِ هُنا على قَدرٍ كبيرٍ مِن الأهمِّيَّةِ. يقولُ السَّيِّدُ رَسِل: "المسألَةُ في العُمومِ والخُصوصِ مَسألَةُ دَرَجَةٍ" (ص 209). ولا يبدو أنَّ ثَمَّةَ استنتاجًا غيرَ هذا يُسهِمُ في إيجادِ نَظريَّةٍ سبَبِيَّةٍ لِلإحالةِ. فالخُصوصيّاتُ المُطلَقَةُ والعُموميّاتُ المُطلَقَةُ يَنبغي أن تكونَ غيرَ مُعتَبَرَةٍ ومِمّا لا يستحقُّ النِّقاشَ.

(32) يُمكِنُ الوُقوفُ على بَيانٍ أكثرَ مَنهجيَّةً وتَفصيلاً لِهذهِ الخطوةِ الحاسمةِ في نظريَّةِ التَّأويلِ في التَّذييلِ B الذي يُوصَى بِهِ أولئكَ الذينَ يعلمونَ قَدرَ ما في الموضوعِ مِن تَعقيدٍ.

بِقَدرِ ما يُمكِنُ أن تَكونَ اعتِقاداتٌ أُخرَى كذلكَ، أو بِأكثَرَ مِن ذلكَ. وعادةً مَا يتطلَّبُ الاعتقادُ الذي يَنشَأُ مِن غيرِ طريقِ الإحساسِ عددًا مِن الاعتِقاداتِ المُتَزامِنَةِ أوالمُتَعاقِبَةِ لِتُكوِّنَ عَلاماتِهِ. إنَّ الاعتِقادَيْنِ 'سيكونُ ثَمَّةَ اتِّقادٌ' و'أنا في مَصنَعِ بارودٍ' سيَكونانِ لِمُعظَمِ المُعتقِدِينَ عَلامَتَيْنِ يُؤَوِّلُهُما مَعًا الاعتِقادُ 'الموتُ وَشيكٌ'. وبِذلكَ يكونُ أحدُ السِّياقَيْنِ السّايكولوجِيَّيْنِ مُحَدَّدًا فيما يَتَعلَّقُ بِخَصيصةِ هذا الاعتِقادِ الأخيرِ(33). ويَعتَمِدُ صِدقُ الاعتقادِ الذي نحنُ بصددِهِ أو كَذِبُهُ على وُجودِ، أو عَدَمِ وُجودِ، كِيانٍ مّا يُكَوِّنُ هوَ ومَرجِعا الاعتقادَيْنِ العَلامِيَّيْنِ، استِنادًا إلى خَصائصِهِ وخَصائصِهِما وإلى عَلاقَةٍ مُرَكَّبَةٍ، سِياقًا مُحَدَّدًا فيما يتعلَّقُ بِخَصائصِهِما. وبِتعبيرٍ آخَرَ- يَعتَمِدُ على انفِجارِ المكانِ فِعلاً.

على هذا النَّحوِ يُمكِنُ أن تُوَسَّعَ الأُطروحَةُ المذكورَةُ آنِفًا لِتَشمَلَ جَميعَ حالاتِ التَّوقُّعاتِ المَخصوصَةِ. ثُمَّ إنَّ كَونَ العَلاقاتِ المُوَحِّدَةِ لِلسِّياقاتِ غيرَ مَقصورةٍ على التَّعاقُباتِ يَجعَلُ الأُطروحَةَ تَنطَبِقُ على كلِّ حالاتِ الاستِدلالِ أو التَّأويلِ مِن حالَةٍ إلى أُخرَى. لِذلكَ ستكونُ الخطوةُ التّاليةُ الاستِفهامَ عن نَوعِ الأُطروحَةِ التي يُمكِنُ تَقديمُها في حالةِ الإحالاتِ العامَّةِ.

إنَّ اللغةَ التَّجريديَّةَ الضَّروريَّةَ لِلاستِعمالِ تُسبِّبُ صُعوباتٍ مُعيَّنَةً. وسيتضمَّنُ فَصلٌ لاحِقٌ حُجَجًا تُؤَيِّدُ عَدَّ رُموزٍ جَلِيَّةٍ نَحو 'خَصيصَة'، و'عَلاقَة'، و'خاصِّيَّة'، [63] و'مَفْهُوم'، وما إلى ذلكَ، مَقصُورَةً على أَنْ تَرْمِزَ (على نَحْوٍ غَيرِ مُباشِرٍ) إلى الأفرادِ الذينَ تُطَبَّقُ عليهم الخَصيصَةُ المزعومةُ. وأَهَمُّ هذهِ الحُجَجِ ما جُبِلَ عليهِ النّاسُ مِن عَدَمِ التَّصديقِ بِوجودِ سُكّانٍ كُلِّيِّينَ لِعالَمِ الوُجودِ. وسنَرَى أنَّ هذهِ

(33) يَلزَمُ هنا افتِراضٌ إضافيٌّ هو أنَّ نتائجَ اعتقادٍ مّا كَثيرًا مّا تُشبِهُ، فيما يتعلَّقُ بالاعتِقاداتِ الثّانويَّةِ، نتائجَ الإحساسِ المُتَحَقِّقِ. فلن يُنكِرَ إلّا القَليلُ أنَّ اعتِقادَ وُجودِ رَجُلٍ مُتَخَفٍّ بِشَجرةٍ يُصَوِّبُ نَحوي ستكونُ لهُ نتائجُ مُشابِهَةٌ (فيما يتعلَّقُ بِالاعتِقاداتِ الثّانويَّةِ نَحوِ أنَّ الأَوْلَى أن أكونَ في مَكانٍ غيرِ الذي أنا فيهِ) لِتلكَ التي كانَتْ رُؤيَةُ هذا الرَّجُلِ مُصَوِّبًا ستُفضِي إليها. ونَحْوُ هذهِ السِّياقاتِ، التي يَكونُ فيها اعتقادُ حُدوثِ A وحُدوثُ A نَفسُهُ عَلامتَيْنِ بَديلتَيْنِ لِتأويلَيْنِ مُتَماثِلَيْنِ في هذهِ الجوانبِ، تَكونُ راسِخَةً رُسوخَ أيَّةِ سِياقاتٍ أُخرَى في عِلمِ النَّفسِ.

الرُّموزَ الجَلِيَّةَ آلِيَّةٌ لا غِنَى عنها، لِذا قد تُحتَمَلُ سَذاجَةُ التَّصديقِ هذهِ لأغراضٍ مُعيَّنَةٍ. غيرَ أنَّ هذهِ الاعتِقاداتِ التي لا أساسَ لَها (أو التي أساسُها رَمزِيٌّ خالِصٌ) عَوائقُ خَطِرَةٌ في أغراضٍ أُخرَى. وبِذلكَ يكونُ أحدُ المَوانِعِ الرَّئيسةِ لِتَوسيعِ الأُطروحَةِ المُوجَزَةِ هُنا لِتَشمَلَ الإحالاتِ العامَّةَ صُعوباتٍ وَهمِيَّةً مَنشَؤُها الإيمانُ بِذلكَ العالَمِ الآخَرِ.

ويُمكِنُ تشكيلُ نَحوِ هذهِ الإحالاتِ بِطَرائقَ مُتَنَوِّعةٍ، يُفَضَّلُ مِنها:- 'كُلُّ S هو P'، و(X) Ψ (X) ϕ : (X)'. ونَحتاجُ إلى أن نَكتَشِفَ ماذا يَحدُثُ حينَ يكونُ لدَينا اعتِقادٌ يُمكِنُ تَرميزُهُ بِهذهِ الطَّرائقِ. فإذا أخَذْنا مِثالاً لِذلكَ اعتِقادَ أنَّ 'كُلَّ أحداثِ كَشطِ عِيدانِ الثِّقابِ تَعقُبُها اتِّقاداتٌ'، فإنَّ لَدَينا سَبَبًا وَجيهًا لافتِراضِ أنَّ مِثلَ هذهِ الاعتِقاداتِ إنَّما هيَ تَطوُّراتٌ سايكولوجيَّةٌ تالِيَةٌ لاعتِقاداتٍ على النَّحوِ الذي تناوَلْناهُ. ومِن الافتِراضاتِ المَقبولَةِ أنَّ لِبَعضِ الحيواناتِ والأطفالِ تَوقُّعاتٍ مَخصوصَةً، لكِنَّهُم يَفتَقِرونَ تَمامًا إلى الاعتِقاداتِ العامَّةِ. ويُقالُ إنَّ الاعتِقاداتِ العامَّةَ إنَّما تَنشَأُ بِتَأمُّلِ الاعتِقاداتِ المَخصوصَةِ. لِذا قَد نَتَوَقَّعُ أن نَجِدَ أنَّ الاعتِقاداتِ العامَّةَ تَنشَأُ مِن رَحِمِ الاعتِقاداتِ الخاصَّةِ بِطريقةٍ مّا. لكِن ما مِن شَكٍّ في أنَّ العُمومَ والخُصوصَ المَعزُوَّيْنِ إلى إحالاتٍ بَسيطةٍ أو بِدائيَّةٍ لا يُمَثِّلانِ ما تَسعَى الصِّياغَةُ المنطقيَّةُ جاهِدَةً إلى تَقديمِهِ. ولا يَنبَغي كذلكَ افتِراضُ مَرحَلةٍ أو حقبَةٍ لإحالَةٍ مَخصوصَةٍ تَسبِقُ نَشأتُها التَّفكيرَ العامَّ. فالأصَحُّ أنَّ ثَمَّةَ مَيْلَيْنِ حاضِرَيْنِ في جَميعِ العَمليّاتِ الفِكريَّةِ، أحَدُهما المَيْلُ إلى المَزيدِ مِن التَّحديدِ والتَّدقيقِ، والآخَرُ إلى مَجالٍ ومَدًى أرحَبَيْنِ. واهتِمامُنا هُنا مُنصَبٌّ على الشُّروطِ التي يَكونُ المَيْلُ الثّاني بِمُوجِبِها هوَ المُؤَثِّرَ.

فَلنَستَهدِ هذهِ الفِكرةَ في مُحاوَلةِ تثبيتِ بعضِ [64] الشُّروطِ التي قد يَنشَأُ الاعتِقادُ العامُّ بِمُقتَضاها مِن إحالاتٍ مَخصوصَةٍ نَحوِ ما تناوَلْناهُ. ولْنَفتَرِضْ بِدايَةً لِذلكَ:

(1) أنَّ عَددًا مِن الإحالاتِ الصّادقةِ والمُحَقَّقَةِ مِن أحداثِ كَشطِ أعوادِ الثِّقابِ قد حَدَثَ في الكائنِ نَفسِهِ، و

(2) أنَّهُ لا يُعتَبَرُ في نُشوءِ الاعتِقادِ العامِّ أيُّ تأويلٍ أَظْهَرَ كَذِبَهُ انعِدامُ الإحساسِ ذي الصِّلَةِ بِخَصيصَةِ الاتِّقادِ المُتَوَقَّعِ.

ومِن الواضحِ أنَّ ثانِيَ الشَّرطَيْنِ أهَمُّ مِن أوَّلِهِما. ويبدو أنّا كَثيرًا مّا نَعبُرُ إلى الاعتِقاداتِ العامَّةِ مِن خِبْراتٍ مُفرَدَةٍ وأن لَيسَتْ بِنا حاجةٌ إلى التَّعدُّدِ، ولكِنّا (بِصَرْفِ النَّظَرِ عن المُفَكِّرينَ الكِبارِ جِدًّا) لا نُؤسِّسُ الاعتِقاداتِ العامَّةَ على دليلٍ مُتناقِضٍ في الحالِ. مِن أجلِ ذلكَ يُمكِنُنا استِبْقاءُ الشَّرْطِ الثّاني، لكِن يَجِبُ علينا أن نُراجِعَ الأَوَّلَ. ولا رَيبَ في أنَّ التَّوقُّعاتِ المُحَقَّقَةَ المُتكرِّرَةَ في بعضِ الحالاتِ تُحدِّدُ التَّوقُّعَ العامَّ، لكِنَّها تُحَدِّدُ درجتَهُ لا إحالتَهُ. وقد يُحتاجُ، مِن جانِبٍ آخَرَ، إلى تَجْرِبَةٍ ذاتِ طابعٍ تَكرُّرِيٍّ. ومِن الصَّعْبِ أن تكونَ الفِكرَةُ الأُولَى لِعَقلٍ بِدائيٍّ فِكرةً عامَّةً بالمعنَى المذكورِ هُنا. ويبدو أَنَّ مِن المُسَوِّغِ افتِراضَ وُجوبِ أن يَشتَمِلَ سِياقُ الاعتِقادِ العامِّ على سِلسلةِ تأويلاتٍ مُحَقَّقَةٍ متَشابِهَةٍ، وإن يَكُنْ مِن الواجِبِ في الوقتِ الحاضِرِ عَدَمُ الجَزمِ بِمَدَى ارتِباطِ هذهِ الحاجَةِ بالتَّأويلِ المَخصوصِ الذي يَخضَعُ لِلتَّعميمِ.

وثَمَّةَ شَرْطٌ آخَرُ لا يُمكِنُ التَّعبيرُ عنهُ إلّا بِنوعٍ مِن الغُموضِ، وهو مُتَعلِّقٌ بِشُموليَّةِ الإحالَةِ العامَّةِ. ولا يبدو أنَّ التَّضامَّ الدّاخِلَ في إحالَةٍ كَهذهِ بِهِ حاجةٌ إلى أيَّةِ خَواصَّ في 'عَقلٍ' مّا سِوَى تلكَ الخَواصِّ المُفتَرَضَةِ والمُثْبَتَةِ سَلَفًا، لكِنْ قد تَنشَأُ بِسببِ الشُّموليَّةِ مُشكِلَةٌ جَديدَةٌ. على أَنَّهُ لا يَصْعُبُ اكتِشافُ نوعِ التَّجربةِ المطلوبةِ. وبِقَدْرِ تَعلُّقِ الأمرِ بِالمُثيراتِ المُحَقَّقَةِ لا يُهِمُّ في مُناسَباتٍ كَثيرَةٍ: [65] أَفَكَّرْنا في مجموعةِ الأغراضِ المُعْطاةِ كُلِّها أم فَكَّرْنا في كُلٍّ منها تِباعًا. فالطِّفلُ الذي يَجِدُ جَميعَ أصابِعِهِ دَبِقَةً قد يَجِدُ كُلًّا منها دَبِقًا بِالقَدْرِ نَفسِهِ. ورُبَّما لن تَحتاجَ أصابِعُهُ الصُّغرَى في مُناسَباتٍ أُخرَى إلى أن تُغسَلَ. وبِذلكَ يُوَلِّدُ الفَرقُ بينَ المجموعاتِ الشُّموليَّةِ وغيرِ الشُّموليَّةِ مِن الأغراضِ التي تُمَثِّلُ المَراجِعَ، والفَرقُ بينَ 'بَعضٍ' و'كُلٍّ' الإحالاتِ، عَلاماتٍ مُناسِبَةً في وقتٍ مُبَكِّرٍ. وقد يُوجَدُ مِن الأفرادِ مَن 'يُفَكِّرُونَ' طَوالَ أعمارِهِم في هذهِ الفُروقِ بِوَساطةِ صُوَرٍ كَهذهِ، أي إنَّهُم يستَعمِلُونَ صُوَرًا كَهذهِ بِوَصفِها عَلاماتٍ مُساعِدَةً في تأويلاتِهِم. ولا يُوجَدُ، في حالاتٍ أُخرَى، شَيءٌ مِن هذهِ التَّخَيُّلاتِ، ولا استِعمالٌ لِكلِمَتَيْ 'كُلّ'

و'بعض'، ولا ما يُعادِلُ ذلكَ البَتَّةَ. ولكِنْ حتَّى في هذهِ الحالاتِ قد يُفتَرَضُ، على نَحوٍ مَعقولٍ، أنَّ الأثَرَ البَاقِيَ لِفِعلٍ إنغراميٍّ[34] سبَّبَتْهُ أحوالٌ مِن هذا النَّحوِ مُحَدِّدٌ لِلتَّأويلاتِ التي 'تَستَخدِمُ هذهِ الأفكارَ.' لذلكَ، إذا حاوَلْنا تَحديدَ نَوعِ السِّياقِ السّايكولوجيِّ الذي يتألَّفُ منهُ السِّياقُ العامُّ فإنَّ الألفاظَ المُمَثِّلَةَ لِذلكَ تَقتَضي الشُّمولَ.

هكذا نَجِدُ الأُطروحَةَ الابتِدائيَّةَ جِدًّا تَنطَوي على الأُطروحَةِ التي تُقَدِّمُها نَظَريَّةُ السَّبَبيَّةُ لِلإحالَةِ بِشأنِ الاعتِقاداتِ العامَّةِ. وإنَّ البَحْثَ التَّفصيليَّ في سِياقاتٍ كَهذهِ مُهِمَّةٌ يَجِبُ على عِلمِ النَّفسِ أن يَعكُفَ عليها عاجِلاً أو آجِلاً، على أنَّ مَناهِجَ المطلوبَةَ لِذلكَ مِن النَّوعِ الذي لم يَبدَإِ العِلمُ بِالتِماسِهِ إلّا حَديثًا. ويُمكِنُ تَوَقُّعُ الكَثيرِ في هذا المجالِ حينَ تَنالُ نَظريَّةُ بافلوف Pavlov[35] في الانعِكاسِ المَشروطِ المَزيدَ مِن التَّطويرِ[36].

وما زالَ علينا أن نُناقِشَ: بِأيِّ وَجْهٍ يَكونُ لِلاعتِقادِ الكاذِبِ، إن وُجِدَ، مَخصوصًا كانَ أو عامًّا، مَرجِعٌ مّا؟ يَتَّضِحُ مِمّا تَقَدَّمَ مِن التَّعريفاتِ أنَّ الوَجهَ الذي يُقالُ بِهِ عن الاعتِقادِ الكاذِبِ إنَّ لهُ مَرجِعًا، لا بُدَّ أن يَكونَ غيرَ ذلكَ الذي يُقالُ بِهِ إنَّ لِلاعتِقادِ الصّادِقِ مَرجِعًا. لِذلكَ لَن يَكونَ لِلحُجَجِ التي سَتُقَدَّمُ الآنَ مِن أجلِ استِعمالٍ أكثرَ سَعَةً لِلَّفظِ تَأثيرٌ البَتَّةَ في ما قَد قِيلَ، وسيكونُ استِعمالُنا لِلَّفظِ مَعَ الاعتقاداتِ الكاذِبَةِ خالِصًا لأغراضِ التَّيسيرِ. [66]

---

(34) نِسبَةً إلى (الإنغرام)، وهو الأثَرُ الدائمُ في الفسيولوجيا العصبيَّةِ وعِلمِ النَّفسِ، وقد سبَقَ الكلامُ عليهِ في هذا الفَصلِ. [المُترجِم]

(35) إيفان بِتروفِتش بافلوف (1849-1936م). فِسيولوجيٌّ روسيٌّ حصلَ على جائزةِ نوبل في الطِّبِّ سنةَ 1904 لأبحاثِهِ المتعلِّقةِ بِالجهازِ الهضميِّ. من أشهرِ ما عُرِفَ بهِ نظريَّةُ الاستجابةِ الشَّرطيَّةِ التي يُفَسَّرُ بها التعلُّمُ. من مؤلَّفاتِهِ: عشرونَ عامًا من الدراسةِ الموضوعيَّةِ للنشاطِ العصبيِّ الأعلى عندَ الحيوانِ، ومُحاضراتٌ في عملِ نِصفَي الكرةِ المُخِّيَّةِ. [المُترجِم]

(36) لِلوُقوفِ على بَيانٍ لِهذا المَنهجِ وتَطبيقاتِهِ يُنظَرُ الفَصلُ الرّابعُ مِن كِتابِ مَعْنَى عِلْمِ النَّفْس *The Meaning of Psychology*.

ومِن الواضحِ، بادِئَ ذي بَدْءٍ، أنَّ الإحالاتِ، الصّادِقَةَ والكاذِبَةَ على حَدٍّ سَواءٍ، تتَّفِقُ في وَجهٍ لا تَتَّفِقُ مَعَها فيهِ عَمليّاتٌ مِثلُ الإحساسِ، والتَّنفُّسِ، وتَقليصِ العَضَلاتِ، والإفرازِ، والرَّغبَةِ، وما إلى ذلكَ. ومِن المُريحِ أن يكونَ ثَمَّةَ لَفظٌ، مِثلُ الإحالَةِ، يُمَثِّلُ هذا الوَجهَ الذي تَتَّفِقُ فيهِ. أمّا لَفْظُ 'اعتِقاد' الذي قد يَبدو الأليَقَ بادِيَ الرَّأيِ فإنَّهُ أقلُّ مُلاءَمَةً لِسَبَبَيْنِ؛ أمّا أحدُهما فارتِباطُهُ بِمَذاهِبَ مِن نَحوِ ما بُحِثَ آنِفًا تُسَلِّمُ بِوُجودِ عَلاقَةٍ فَريدَةٍ هي 'التَّفكيرُ في'، وأمّا الآخَرُ فالازدِيادُ المُتَواصِلُ لاستِعمالِهِ مُحيلاً إحالَةً خاصَّةً على الصِّفاتِ التَّأثيريَّةِ-الإراديَّةِ لِلعمليَّةِ. وثَمَّةَ سَبَبٌ آخَرُ أقوَى يَنشَأُ مِمّا يُمكِنُ أن نَدعُوَهُ تحليلَ الإحالاتِ. فإذا ما وازَنّا، مثلاً، بينَ الإحالَتَيْنِ اللَّتَيْنِ يَرمِزُ إلَيهِما قَولانا: 'سيكونُ ثَمَّةَ وَميضٌ قَريبًا'، و'ستكونُ ثَمَّةَ ضَوضاءُ قَريبًا'، فسيَكونُ مَقبولاً، في الأقَلِّ، افتراضُ أنَّهما مُرَكَّبانِ يَشتَمِلانِ على أجزاءٍ بَعضُها مُتَشابِهٌ وبعضُها مُختَلِفٌ. فأمّا ما يُمكِنُ عَدُّهُ مُختَلِفًا مِنها فالجُزآنِ اللَّذانِ تَرمِزُ إلَيهِما كَلِمَتا 'وَميضٌ' و'ضَوضاءُ'، وأمّا سائرُ الأجزاءِ فَتُعَدُّ مُتَشابِهةً في الحالتَيْنِ. فَيُثارُ، حينَئذٍ، السُّؤالُ الآتي: "ما هذهِ الأجزاءُ التي قد يَبدو تَرَكُّبُ الإحالاتِ مِنها مُمكِنًا؟".

فَالإجابةُ التي نُقَدِّمُها هي أنَّ هذهِ الأجزاءَ أَنْفُسَها إحالاتٌ، وأنَّ كلَّ إحالَةٍ مُرَكَّبَةٍ إنَّما تُكَوِّنُها إحالاتٌ بَسيطَةٌ مُتَّحِدَةٌ على نَحوٍ يَمنَحُ الإحالَةَ المُرَكَّبَةَ التي تُكَوِّنُها بِنيَتَها المطلوبَةَ. لكِنْ علينا ونَحنُ نُحاولُ تنفيذَ هذا التَّحليلِ أن نَكونَ على حَذَرٍ مِن عَقَبَةٍ خاصَّةٍ. إذ يَجِبُ ألّا نَفتَرِضَ أنَّ بِنيَةَ الرَّمزِ الذي نَرمِزُ بِهِ إلى الإحالَةِ المطلوبِ تَحليلُها تَعكِسُ بِنيَتَهُ على أيِّ نَحوٍ مُنتَظِم. فحديثُنا السّابِقُ عن الجُزأَيْنِ اللَّذَيْنِ تَرمِزُ إلَيهِما كَلِمَتا 'وَميضٌ' و'ضَوضاءُ' لا يَخلو إذَن مِن مُجازَفَةٍ. فَالتَّحليلاتُ غيرُ المَشروعَةِ لِلرُّموزِ تَكادُ تَكونُ مَصدَرَ كلِّ العَقَباتِ في هذهِ الموضوعاتِ. [67]

وثَمَّةَ نُقطةٌ أُخرَى يَجِبُ إيضاحُها تتعلَّقُ بِالوَجْهِ الذي على وَفقِهِ يُمكِنُ تَرَكُّبُ الإحالاتِ. فالحديثُ عن إحالَةٍ مّا يَعني الحديثَ عن السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةِ والخارجيَّةِ التي تَصِلُ العَلامَةَ بِمَرجِعِها. وبِذلكَ يَكونُ نِقاشُ تَرَكُّبِ الإحالاتِ نِقاشًا لِعَلاقاتِ السِّياقاتِ بِعضِها بِبَعضٍ.

وإذا ما استنَدْنا إلى وِجهَةِ النَّظرِ المتَبَنّاةِ هُنا فسيكونُ ما اعتَدْنا أن نَدعُوَهُ 'الأشكالَ المَنطقيَّةَ' لِلقَضايا، وما يُمكِنُ أن نَدعُوَهُ أشكالَ الإحالاتِ، أشكالاً أو بِنًى لِلسِّياقاتِ المُحَدِّدَةِ لِلتَّأويلاتِ. ويُقارِبُها في الوَقتِ الحاضِرِ المَناطِقَةُ، ووسيلتُهُم الرَّئيسةُ في ذلكَ هيَ دِراسةُ العمليَّةِ الرَّمزيَّةِ. على أَنَّ تَوافُرَ مُقارَبَةٍ أكثرَ مُباشَرَةً يَبْدُو مُمكِنًا، لكِنَّهُ حتَّى الآن صَعبٌ. وبِذلكَ لا تَكونُ خارجَ دائرةِ الظَّنِّ، إن تكُن لا تَزالُ ظَنِّيَّةً، الأقسامُ الباقيَةُ لنَظريَّةِ السِّياقِ الكامِلَةِ لِلإحالَةِ، أي أوصافُ إحالاتِ الأشكالِ 'p أو q'، و'p وq'، و'لَيْسَ p'، والفرقُ بينَ 'كُلّ S' و'بَعض S'، بِوَصفِها مَعْنِيَّةً بِتَحابُكِ السِّياقاتِ.

فإذا استَصحَبْنا هذهِ الفِقرةَ الشَّرطيَّةَ أمكَنَنا استِئنافُ النَّظَرِ في مَراجِعِ الاعتِقاداتِ الكاذِبَةِ، وفي تَحليلِ الاعتِقاداتِ المُرَكَّبَةِ.

فَقد رأَيْنا أنَّ الاعتقاداتِ الصّادِقَةَ والكاذِبَةَ أعضاءٌ في أنواعِ السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةِ أنفُسِها، وأنَّها لا تختلِفُ إلّا في السِّياقاتِ الخارجيَّةِ[37]. [68] فَلْنَنظُرْ في هذا الاختِلافِ ثانيَةً، مُتَوَسِّلِينَ بِحالةِ الاعتِقاداتِ المخصُوصَةِ تَوَخّيًا لِلسُّهولةِ. وَلْنَفتَرِضْ أنَّ ثَمَّةَ اعتِقادَيْنِ مُمكِنَيْنِ، أحدُهُما 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا أخضَرُ بَعْدَ لَحظَةٍ'، والآخَرُ 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا أحمَرُ بَعْدَ لَحظَةٍ'، وأنَّ الأَوَّلَ صادِقٌ

(37) قد يُطلَقُ على المُرَكَّبِ مِن الأشياءِ المُتَّحِدَةِ في سِياقٍ مّا اسمُ 'واقِعَة fact'. ولا يَلزَمُ مِن ذلكَ ضَرَرٌ، لكِنْ عادَةً مّا تَغلِبُ العاداتُ اللفظيَّةُ المُحَفِّزَةُ على هذا النَّحوِ الحِسَّ الواقعيَّ حتَّى عندَ أفضَلِ الفَلاسِفةِ. إذ يُولَدُ مِن رَحِمِ الوَقائعِ 'وَقائعُ سالِبَةٌ'؛ فـ'ألّا يَحدُثَ اتِّقادٌ' يُصبِحُ واقِعَةً سالِبَةً يُخفِقُ تَوقُّعُنا في مُناظَرَتِها حينَ نَكونُ مُخطِئينَ. لِذلكَ كانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ افتِراضُ أنَّ ثَمَّةَ مَنحَيَيْنِ لِلإحالةِ؛ إذ تَتَّجِهُ صَوبَ واقِعَةٍ مّا في الإحالةِ الصّادقةِ، وتَبتَعِدُ عنها في الإحالةِ الكاذِبةِ. على هذا النَّحوِ يُمكِنُ أن تُجعَلَ نظريَّةُ الإحالةِ غايةً في التَّعقيدِ والصُّعوبَةِ، كما هي عليهِ، مثلاً، عندَ السَّيِّدِ رَسِل في كِتابِهِ **تَحليلُ العَقْلِ** *Analysis of Mind*، ص271-278. وقد استَطاعَ السَّيِّدُ رَسِل، فيما يتعلَّقُ بالوَقائعِ السّالِبَةِ، المُحافَظَةَ على نظريّاتِهِ المُبَكِّرَةِ مِن أن تُفسِدَها دِراسَتُهُ الحديثةُ لِلمَعنَى. وستُناقَشُ مَسألةُ 'الوَقائعِ السّالِبَةِ' العامَّةُ في التَّذييلِ E، وسنَرَى، حينَ نَأتي لِنُمَيِّزَ الوُجوهَ المُختلِفَةَ لِلمَعنَى، أنَّ إثارَةَ مسألةِ مُناظَرَةِ الاعتِقادِ لِلواقِعَةِ تَعني أن تُحاوِلَ النَّظريَّةُ السَّبَبِيَّةُ لِلإحالةِ حَلَّ المُشكلةِ مَرَّتَيْنِ. فَحينَ تُحَلُّ مُشكِلةُ الإحالةِ تُحَلُّ مُشكِلةُ الصِّدْقِ كذلِكَ.

والثّانيَ كاذِبٌ. لكِنَّ الثّانيَ، إن أمكَنَ الاعتِدادُ بِهِ، بِاحتَوائِهِ أو تَضَمُّنِهِ الاعتِقادَ 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا بَعْدَ لَحظَةٍ' سيكونُ قد تَضَمَّنَ اعتِقادًا صادِقًا ومُشابِهًا لاعتِقادٍ مُتضَمَّنٍ في الاعتِقادِ الأوّلِ. فَلْنَعُدِ الآنَ إلى تَعريفِنا لِلسّياقِ لِنَرَى: على أيِّ وَجهٍ يكونُ هذا الاعتِقادُ مُتَضَمَّنًا، وكيفَ يُمكِنُ أن يَكونَ صادِقًا؟

فَفي حالةٍ كَهذهِ قد يتألَّفُ السّياقُ الخارجيُّ مِن كِيانَيْنِ اثنَيْنِ، نَحوِ s (عَلامَةٌ sign) وg (شَيءٌ مّا أخضَرُ green)، لَهُما الخَصيصَتانِ S وG، وتَتَّصِلانِ بِعَلاقَتَي المَكانِ والزَّمانِ اللَتَيْنِ يُمكِنُ تناوُلُهُما مَعًا. غيرَ أنَّ مِن الواضِحِ أنَّ كُلًا مِن s وg ستكونُ لَهُ خَصائصُ أُخرَى غيرُ S وG. فقد تَلا s، على سبيلِ المِثالِ، كِياناتٍ أُخرَى وقد يُؤَوَّلُ في ضَوءِ هذهِ الخَصيصَةِ زِيادَةً على تأويلِهِ في ضَوءِ الخَصيصَةِ S، وتأويلُهُ على هذا النَّحوِ[38] يُوَلِّدُ الاعتِقادَ 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا بَعْدَ لَحظَةٍ'، أمّا تأويلُهُ كذلكَ في ضَوْءِ الخَصيصَةِ S فيُوَلِّدُ الاعتِقادَ المُعَقَّدَ 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا أخضَرُ بَعْدَ لَحظَةٍ'، أو الاعتِقادَ المُعَقَّدَ 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا أحمَرُ بَعْدَ لَحظَةٍ'، أي اعتِقادًا صادِقًا وكاذِبًا لِـ s بِهذا الاعتِبارِ الإضافيِّ، مَهْما يَكُنِ الأمرُ. ولكِنْ في كِلتا الحالتَيْنِ سيكونُ الاعتِقادُ المُتَضَمَّنُ 'سيكونُ هُنا شَيءٌ مّا بَعْدَ لَحظَةٍ' صادِقًا إن وُجِدَ شَيءٌ مّا (نَحوُ g) يُشَكِّلُ مَعَ s، بِمُقتَضَى خَصيصَةِ أن يَكونَ s تالِيًا (أو خَصائصَ مُؤَقَّتَةٍ أُخرَى) وخَصائصِ g المُؤَقَّتَةِ، سِياقًا مُحَدَّدًا لِهذهِ الخَصيصَةِ لِـs. وبِسبَبِ عُمُومِ هذهِ الخَصائصِ لا يَتعذَّرُ البَتَّةَ تَكَرُّرُ حُدوثِ مِثلِ هذهِ السّياقاتِ، وهذا ما يُعَلِّلُ سُهولَةَ ما يُمكِنُ إجراؤُهُ مِن التَّنَبُّؤاتِ الصّادِقَةِ التي مِن هذا النَّوعِ غيرِ المُحَدَّدِ. [69]

ويبدو حينَئذٍ أنَّ الاعتِقادَ قد يَحوِي اعتِقاداتٍ أُخرَى أَقَلَّ تَحديدًا، وأنَّ الاعتِقادَ المُحَدَّدَ المُرَكَّبَ يتألَّفُ مِن اعتِقاداتٍ أبسَطَ وأقَلَّ تَحديدًا تَربِطُ بينَها عَلاقاتٌ تُثمِرُ البِنيَةَ المطلوبةَ[39].

---

(38) ليسَ ضَروريًا في هذا الإيجازِ المُختَصَرِ لِلنَّظرِيَّةِ أن يُراعَى: أتَكفي هذهِ الخَصيصَةُ لإجراءِ التّأويلِ؟

(39) ستُعالَجُ المُشكِلاتُ المُهِمَّةُ والمُعَقَّدَةُ التي تُنشِئُها هذهِ العَلاقاتُ على نَحوِ ما عُولِجَتْ بِهِ =

وأَحَدُ الاعتِراضاتِ على وِجهةِ النَّظَرِ هذهِ مَنشَؤُهُ اللُّغَةُ. فَمِن المُعتادِ قَصْرُ لَفْظِ الاعتِقادِ على العَمليّاتِ التي تَرمِزُ إلَيها الإخباراتُ على نحوٍ طبيعيٍّ، وعلى العمليّاتِ التي حَولَها والتي لَها خَصائصُ تَأثيرِيَّةٌ-إرادِيَّةٌ زيادةً على خَصائصِها بِوَصفِها إدراكاتٍ. ونادِرًا مّا تُسْلِمُ الإحالاتُ البَسيطةُ المطلوبةُ في حالِ تَبَنِّي التَّحليلِ المُقترَحِ أنفُسَها لِلصِّياغَةِ الإخبارِيَّةِ وعادَةً مّا تُفتَقَدُ في ما يُصاحِبُ مِن اعتِقادٍ، ومَشاعِرَ، وحَثٍّ على الفِعْلِ. لِذلكَ كَثيرًا مّا يَكونُ لَفْظا 'فِكرَة' و'تَصَوُّر' أكثَرَ مُلاءَمَةً لِعمليّاتٍ كَهذهِ. وبِتوسيعِنا لاستعارَةٍ باتَتْ مألوفةً، يُمكِنُ أن نَعُدَّ هذا النوعَ من الإحالاتِ إحالاتٍ 'إلكترونيَّةً'. غيرَ أنَّ ما نُعْنَى بِهِ هُنا مِن أفكارٍ أو تَصَوُّرٍ يَنبَغي تَمييزُهُ بِوُضوحٍ مِن 'مَفاهيمِ' الميتافيزيقيِّينَ الذينَ يُؤمِنونَ بِعالَمٍ مِن الكُلِّيّاتِ. وسَنَتناوَلُ هذهِ المَسألَةَ بِإسهابٍ أكبرَ في الفَصلِ الخامسِ.

وإذا نَظَرْنا في ما يتعلَّقُ بِالخُضْرَةِ مِن فِكرةٍ أو تَصوُّرٍ وَجَدْناهُ يَنشَأُ عندَ القارئِ في هذهِ القَضيَّةِ مِن خِلالِ حُدوثِ كَلِمةِ 'أَخضَر.' وفي مُناسَباتٍ كثيرةٍ صَحِبَتْ هذهِ الكَلمةَ إظهاراتٌ لأشياءَ خُضْرٍ. على هذا النَّحوِ يُسَبِّبُ لَهُ حُدوثُ الكلمةِ عمليَّةً مُعيَّنَةً يُمكِنُ أن نَدعُوَها فِكرةَ الخُضْرَةِ. لكِنَّ هذهِ العمليَّةَ لَيسَتْ فِكرَةَ أيِّ شَيءٍ أخضَرَ مُحَدَّدٍ، وستكونُ هذهِ الفِكرةُ أكثرَ تعقيدًا، وستَحتاجُ إلى عَلامَةٍ (أو إلى رَمزٍ في حالتِنا هذهِ) لَها المَزيدُ مِن الخَصائصِ لِيُؤَوِّلَها- ولن تَكونَ لهُ فِكرةٌ مُحدَّدَةٌ إلّا بِهذهِ الطَّريقةِ. [70] والسِّياقُ السّايكولوجيُّ الذي تنتمي إليهِ هذهِ الفِكرةُ غيرُ مُهَيَّإٍ لِربطِ أيِّ شَيءٍ أخضَرَ مُحَدَّدٍ بِالعَلامَةِ دُونَ غيرِهِ مِمّا سِواهُ. ولو استَبْدَلْنا بِما سَبَقَ عِبارةَ 'شَيءٌ أخضَرُ' لَحدَثَتِ العمليَّةُ نفسُها- ما لم يَكُن القارئُ مَنطقِيًّا أو فيلسوفًا يَحمِلُ نَظريّاتٍ خاصَّةً (أي سِياقاتٍ لُغَويَّةً مُتَميِّزَةً). في كِلتا الحالتَيْنِ يُمكِنُ القَولُ عن الفِكرةِ إنَّها 'تَتَعَلَّقُ' بِإحساسٍ شبيهٍ بِإحساساتٍ مُعَيَّنَةٍ صَحِبَتْ في الماضي حُدوثَ الإحساسِ الذي اتُّخِذَ عَلامةً. وفي حالِ مُوازَنَةِ هذا

= مُشكِلةُ عُمومِ الإحالاتِ، التي هي في الحقيقةِ أُنموذَجٌ فحَسْبُ. إنَّ السُّؤالَ الخطيرَ 'ما الشَّكْلُ المَنطِقِيُّ؟' الذي لا يُعالِجُهُ الآنَ إلّا المَناطِقَةُ الذينَ لا مَنهَجَ لَهُم إلّا الشَّعيرَةُ الخُرافيَّةُ 'الفَحصُ المُباشِرُ'، يَجِبُ أن يُخْضَعَ لِلبَحثِ في الوقتِ المُناسِبِ.

بِالاعتِقادِ غيرِ المُحدَّدِ الذي يُرمَزُ إلَيهِ بِـ'ثَمَّةَ أشياءُ خُضْرٌ' سَنَجِدُ في هذا الأخيرِ أنَّ كُلَّ إحساسٍ مِن مَجموعةِ الإحساساتِ نَفسِها التي قِيلَ عن الفِكرةِ إنَّها 'تَتعلَّقُ' بِهِ يَكونُ مُحَقِّقًا لِلاعتِقادِ. ذلكَ بِأنَّهُ إذا ما كانَ ثَمَّةَ كِيانٌ أو أكثرُ مِمّا يُشبِهُ كِياناتٍ مُعَيَّنَةً هيَ أعضاءٌ في سِياقِهِ السّايكولوجيِّ، حُكِمَ عليهِ بِأنَّهُ صادِقٌ، وإن كانَ بِخِلافِ ذلكَ حُكِمَ عليهِ بِأنَّهُ كاذِبٌ. فَلِذلكَ، يُمكِنُنا أن نُوَسِّعَ لَفْظَ 'المَرجِع' لِيَشمَلَ هذهِ الكِياناتِ، إن وُجِدَ شَيءٌ مِنها، مِن غيرِ أن يُؤَدِّيَ الاستِعمالُ إلى تَخليطٍ.

وسيُلحَظُ أنَّ الاعتِقاداتِ غيرَ المُحَدَّدَةِ المُفرِطَةَ البَساطةِ (المُمَثَّلَةَ بِـ'ثَمَّةَ أشياءُ خُضرٌ' بِإزاءِ 'ثَمَّةَ أشياءُ خُضرٌ الآنَ') لا يَحتاجُ إثباتُ صِدْقِها إلّا إلى شَرْطٍ حاضِرٍ وَسْطَ سِياقاتِها السّايكولوجيَّةِ. هذهِ الحالةُ المُوَفَّقَةُ لِلأشياءِ لَها ما يُوازيها في حقيقةِ أنَّ الأفكارَ المُفرِطَةَ البَساطةِ لا تُؤَدِّي إلى مُواجَهَةِ مُشكلةٍ: أهِيَ أفكارٌ 'تَتَعَلَّقُ' بِأيِّ شَيْءٍ أم هِيَ لَيْسَتْ كذلكَ؟ أمّا الأفكارُ المُعَقَّدَةُ كالجِبالِ الزُّجاجيَّةِ، والعَنقاواتِ، والمُرَبَّعاتِ الدّائريَّةِ، والمُثَلَّثاتِ المُستَقيمَةِ فيُمكِنُ أن تكونَ مَحفوفَةً بِمُشكِلاتٍ كَهذهِ. على أنَّ الفَرْقَ بينَ الفِكرةِ والاعتِقادِ فَرْقٌ مَحدودٌ، على الرَّغمِ مِن أنَّهُ يَبدو أحيانًا صَعبَ التَّذليلِ في المُواضَعاتِ الرَّمزيَّةِ.

ويُمكِنُنا الآنَ تَحديدُ استِعمالِ لَفْظِ 'المَرجِع' في الاعتِقاداتِ الكاذِبَةِ. فَالاعتِقاداتُ كُلُّها، صادِقُها وكاذِبُها، يُمكِنُ تحليلُها نَظريًّا إلى مُرَكَّباتٍ مُكَوِّناتُها إحالاتٌ بَسيطةٌ، مُحدَّدَةٌ أو غيرُ مُحدَّدَةٍ، مُتَّحِدَةٌ بِعَلاقاتٍ تَهَبُ لِلإحالَةِ 'شَكلَها المَنطِقيَّ'.

ولَيسَتِ الإحالاتُ البَسيطةُ المُحدَّدَةُ شائعَةً كَثيرًا. [71] ويَبدو أنّا نَحُوزُها حينَ نَقولُ: 'هذا!'، و'هُناكَ!'، و'الآنَ!.' ولكِنْ عادَةً مّا يُمكِنُ التَّحليلُ حتّى في حالِ كَونِ إحالَتِنا لَها مَرجِعٌ واحدٌ فقط. بَل إنَّ الإحالاتِ التي نَستَعمِلُ لَها رُموزًا بَسيطةً (أسماءً)، دُستويفسكي Dostoevski[40] مَثَلاً، قد تكونُ على الدَّوامِ مُرَكَّبَةً؛

(40) فيدور ميخائيلوفِتش دستويفسكي (1821-1881م). رِوائيٌّ، وكاتِبُ قِصَّةٍ قَصيرَةٍ =

إذ تُضَمَّنُ السِّياقاتُ المُتَمايِزَةُ ما هُوَ مُحَدَّدٌ إفرادِيًّا مِن الخَصائصِ المُمَيِّزَةِ لِلمَرجِعِ[41]. وما هوَ أكثرُ أهمِّيَّةً فَهمُ التَّشتُّتِ المُمَيِّزِ الذي يَحدُثُ في الإحالَةِ الكاذِبةِ. وقد تَفي الشُّروحُ بِإيضاحِ ذلكَ أكثرَ مِن الحُجَجِ.

فإذا ما قُلْنا: 'هذا كِتابٌ'، وكُنّا مُخطِئينَ في ذلكَ، فستَكونُ إحالتُنا مُؤَلَّفةً مِن إحالةٍ غيرِ مُحدَّدةٍ بَسيطةٍ على أيِّ كِتابٍ، مُغايِرٍ لأيِّ شَيءٍ موجودٍ الآنَ، مُغايِرٍ لأيِّ شيءٍ قد يُوجَدُ هُنا، وهلُمَّ جَرًّا. هذهِ المُكَوِّناتُ ستكونُ كلُّها صادِقَةً، لكِنَّ الإحالةَ الكُلِّيَّةَ على هذا الكتابِ التي تُؤَلِّفُها مُجتَمِعَةً (بِشَطْبِ جَميعِ المراجِعِ، إنْ جازَ التَّعبيرُ، سِوَى الذي يُمكِنُ أن يكونَ كِتابًا، وهُنا، والآنَ) ستَكونُ كاذِبةً، إذا ما كُنّا مُخطِئينَ وكانَ الموجودُ حَقًّا هو صُندوقًا أو شيئًا مّا يُخفِقُ في إتمامِ السِّياقاتِ الثَّلاثةِ: كِتاب، وهُنا، والآنَ. وفي مِثالٍ أكثرَ تعقيدًا بِقليلٍ، قد يقولُ لاعِبُ الغولف: "ضَربَةٌ مُوَفَّقَةٌ!"، وقد يكونُ واضِحًا للمُشاهِدِ أنَّ إحالتَهُ تَنصَرِفُ إلى قُلاعَةِ العُشبِ وطَيَرانِها، وإلى ضَربَتِهِ، وإلى شَرَكِ كُرَةِ الغولف، وإلى كُرَةٍ. على أنَّ الكُرَةَ تَبقَى ثابتةً، وهذهِ الإحالاتُ المُكَوِّنَةُ أو المُرَكِّبَةُ التي يَفي كُلٌّ منها بِالمُرادِ بِنَفسِهِ مُوَحَّدَةٌ في إحالتِها المُعقَّدَةِ على نَحوٍ مُخالِفٍ لِما عليهِ حالُ مَراجِعِها المُنفصِلَةِ في عالَمِ الواقِعِ. ومِن الواضحِ أن لا وُجودَ لِحالةِ عَدَمِ حُدوثِ طَيَرانٍ لِكُرَةِ الغولف بِوَصفِهِ مَوضوعًا لاعتِقادِهِ، وإنْ كانَ مِن المُحتَمَلِ أنَّهُ كانَ يُحيلُ على الإحساسِ بِضَربَتِهِ، أو على صورةِ كُرَةٍ عابِرَةٍ. ويَنبَغي لنا في هاتَيْنِ

= ومَقالاتٍ، وفيلسوفٌ روسيٌّ. أحدُ أكبرِ الكُتّابِ الرُّوسِ، ومِن أفضلِ كُتّابِ العالَم. شَخصيّاتُهُ على الدَّوامِ في أقصَى حالاتِ اليأسِ وعلى حافَةِ الهاويةِ، وتنطوي رواياتُهُ على فَهمٍ عميقٍ للنَّفسِ البَشريَّةِ، وتقدِّمُ تحليلاً ثاقِبًا للحالةِ السياسيَّةِ والاجتماعيَّةِ والروحيَّةِ لِروسيا في ذلك الوقتِ. من مؤلَّفاتِهِ: الإخوةُ كارامازوف، والجريمةُ والعقاب، والأبلَه. [المُترجِم]

(41) هذهِ الجملةُ فَضفاضَةٌ، شأنُها شأنُ جميعِ الجُمَلِ المشتملةِ على كلماتٍ نَحوِ كلمةِ 'خَصيصَة'، والأولَى أن تُقرأَ على النَّحوِ الآتي...: "إذ تُضَمَّنُ السِّياقاتُ المُتَمايِزَةُ الإفرادِيَّ غيرَ المُحَدَّدِ مِن التَّحديدِ لِلمَرجِعِ". لكِنَّ هذا التَّشذيبَ لِفضفاضِيَّتِها قَد يُؤَدِّي إلى تَعَذُّرِ وَظيفتِها التَّواصُليَّةِ. يُنظَر: ص185، فما بَعدَها.

الحالَتَيْنِ الأخيرَتَيْنِ أن نفترِضَ أنَّهُ يُقَصِّرُ سِلسلتَهُ التَّأويليَّةَ بَدَلاً مِن أنَّهُ يَلُوذَ بِالفِرارِ ويُغامِرُ في الذَّهابِ بَعيدًا جِدًّا [72] بِما يُمكِنُ أن يُدْعَى تأويلاً قَفْزِيًّا. إنَّ لُغَتَهُ (يُنظَرُ أيضًا القانونُ الرّابِعُ ص195، فما بَعدَها) لا تَشُدُّنا إلى أيٍّ مِن البَدِيلَيْنِ. وهكذا نَرَى في إيجازٍ كيفَ يُمكِنُ أن تُحَلَّلَ الاعتِقاداتُ الكاذِبَةُ المُرَكَّبَةُ.

فَمَرجِعُ الاعتِقادِ الكاذِبِ المُرَكَّبِ هوَ مَجموعةُ المَراجِعِ المُبعثَرَةِ لِلاعتِقاداتِ البَسيطةِ الصّادِقَةِ التي يَشتَمِلُ عليها. وسنتحدَّثُ في ما يأتي عن الاعتِقاداتِ، والتَّأويلاتِ، صادِقِها وكاذِبِها، وعن الأفكارِ التي، بِوَصفِها إحالاتٍ، تَقتَضي أن تكونَ لَها مَراجِعُ على الأوجُهِ المُحدَّدَةِ آنِفًا.

وبِذلكَ نَرَى كَيفَ يُمكِنُ أن تُوَسَّعَ النَّظريَّةُ السِّياقيَّةُ لِلإحالةِ لِتَشمَلَ جَميعَ الاعتِقاداتِ، والأفكارِ، والتَّصوُّراتِ، و'ما يُفَكَّرُ فيهِ.' وتَبْقَى تَفصيلاتُ تطبيقِها على حالاتٍ خاصَّةٍ مِمّا يَحتاجُ إلى تَحقيقٍ. ولا شَكَّ في أنَّ في وُسعِ المَناطِقَةِ اقتِراحَ عِدَّةِ أُحجِياتٍ[42]، يُهَيِّئُ حَلُّها تَمرينًا صِحّيًّا لِلسّايكولوجيِّينَ. على أنَّ على الفَرضيَّةِ العامَّةِ التي مفادُها أنَّ التَّفكيرَ، أو الإحالةَ، مُنحَصِرٌ في العَلاقاتِ السَّبَبيَّةِ أن تُسَوِّقَ نَفسَها اكثرَ فأكثرَ لَدَى أُولئكَ الَّذينَ يتَّخِذونَ (أحيانًا في الأقَلِّ) مَوقِفًا عِلميًّا مِن العالَمِ. ولَمّا كانَ 'المَعنَى'، مِن حيثُ كَونُهُ إحالةً، مُعَرَّضًا لاشتِراطِ إمكانِ تَقديمِ أُطروحَةٍ مُقْنِعَةٍ بِشأنِ الاحتِمالِ، أصبَحَ على وَفقِ هذهِ النَّظريَّةِ مُنفَتِحًا على المناهِجِ التَّجريبيَّةِ.

على أنَّ الأُطروحَةَ المُقْنِعَةَ بِشأنِ الاحتِمالِ، وإن تَكُن مَرغوبًا فيها بِشِدَّةٍ، لا يَبدو إمكانُها وَشيكًا في ظِلِّ المَناهِجِ الحاليَّةِ. ومِن الواضِحِ أنَّهُ لا بُدَّ مِن إحداثِ تَغييرٍ في المُعالَجَةِ. إنَّ رِسالَةَ *Treatise* الرّاحِلِ اللورد كَيْنز Keynes[43]، التي تَبدأُ

(42) مِثالُهُ: إذا كانَ أحَدُ الاعتِقادَيْنِ العَلامِيَّيْنِ في المِثالِ المَذكورِ آنِفًا أو كِلاهُما كاذِبًا، ومعَ ذلكَ انفَجَرَتِ الغُرفةُ التي نَحنُ فيها لأسبابٍ أُخرَى، فهل يُمكِنُ أن يكونَ اعتِقادُنا صادِقًا؟ ويَسهُلُ حَلُّ هذهِ المُشكلةِ إذا ما لَحِظْنا أنَّهُ على الرَّغمِ مِن كَذِبِ الاعتِقادِ الذي يُرمَزُ إلَيهِ عندَ المتكلِّمِ، قد يَكونُ الاعتِقادُ المحرَّضُ عليهِ عندَ المُستَمِعِ صادِقًا.

(43) عُنوانُ الرِّسالةِ كامِلاً هو (رِسالَةٌ في الاحتِمال)، لِجون مينارد كَيْنز (1883-1946م) =

في الحَقيقَةِ بِعَلاقةٍ مَنطقيَّةٍ غيرِ قابلةٍ لِلتَّحليلِ تُدْعَى الاحتِمالَ تَحدُثُ بينَ كِياناتٍ مُستَويَةٍ في غُموضِها وعدمِ قَبولِها لِلمُقارَبَةِ تُدعَى قَضايا، تَحمِلُ طابِعًا مُغرِقًا في وَسيطيَّتِهِ يَصعُبُ مَعَهُ الانتِفاعُ بِها؛ وما زالَ علينا أن نَنظُرَ في إمكانِ إفادةِ العُلَماءِ مِن كِتابِ نظريَّةُ الاحتِمال *Wahrscheinlichkeitslehre* لِرايشِنباخ Reichenbach[44]، الذي هوَ أكثَرُ اعتِمادًا على التَّجريبِ.

= الذي نَشَرَها سنةَ 1921 حينَ كانَ في جامعةِ كيمبرِج. وقد هاجَمَتْ هذه الرِّسالةُ النظريَّةَ الكلاسيكيَّةَ لِلاحتِمالِ، واقترحَتْ بَدَلاً منها نظريَّةً مَنطقيَّةً-عَلاقِيَّةً. ومُلخَّصُ مَفهومِ كَينز لِلاحتمالِ أنَّهُ عَلاقَةٌ منطقيَّةٌ صارِمةٌ بينَ البُرهانِ والفَرضيَّةِ، ودرجةٌ من اللزومِ الجُزئيِّ. وقد نظرَ كَينز إلى الاحتمالاتِ المُتعدِّدَةِ على أنَّها حالاتٌ خاصَّةٌ لِلاحتمالِ الذي لا يَجِبُ أن يَكونَ قابلاً لِلقياسِ أو حتَّى لِلمُقارنةِ. واستَعمَلَ مِثالَ اتِّخاذِ مِظَلَّةٍ في حالةِ المطَرِ للتعبيرِ عن فِكرةِ (الشَّكِّ غيرِ القابلِ لِلتقليلِ)، وهيَ نَمطٌ من الاحتمالِ لا يقتصِرُ على كونِهِ غيرَ مَعدودٍ ولكنَّهُ غيرُ أصليٍّ كذلك- أي غيرُ قابلٍ للمقارنةِ. إذ يقولُ في الصفحةِ 30 من رسالتِهِ هذهِ: "أيكونُ توقُّعُنا لاحتمالِ نزولِ المطَرِ، حينَ ننطلِقُ لِلمَشيِ، أكبرَ على الدوامِ من توقُّعِنا لاحتمالِ عدَمِهِ، أم يكونُ أقَلَّ منهُ، أم يكونُ مُساوِيًا لهُ؟ أنا مُستعِدٌّ لِلمُجادَلَةِ في أنَّهُ في بعضِ المناسَباتِ لا يَحدُثُ أيٌّ من هذهِ الأبدالِ، وأنَّ قرارَ اتِّخاذِ المِظَلَّةِ أو عدَمِ اتِّخاذِها سيكونُ قرارًا اعتِباطيًّا. وإن كانَت درجةُ حرارةِ المِحرارِ مُرتفعةً، لكِنَّ الغُيومَ كانَتْ سُودًا، فليسَ من دَواعي التعقُّلِ دَومًا أن يَغلِبَ أحدُ الاحتماليْنِ الآخَرَ في عُقولِنا، أو حتّى أن نُوازِنَ بينَهما، وإن كانَ من دَواعي التعقُّلِ أن نَسمَحَ لِهَوَى النَّفْسِ بِأن يُقرِّرَ لنا، وألّا نُضيعَ الوَقتَ في الجَدَلِ". [المُترجِم]

(44) هانز رايشِنباخ (1891-1953م). عالِمٌ ألمانيٌّ متخصِّصٌ في فلسفةِ العلوم، ومُرَبٍّ، وأحدُ المُنادِينَ بالتَّجريبيَّةِ المنطقيَّةِ. تعودُ شهرتُهُ إلى إنشاءِ حلقةِ برلين، وتأليفِ كتابِ (نَشأةُ الفلسفة العِلميَّة). وقَد رَفَضَ نظريَّةَ صِدقِ المَعْنَى التي تبنّاها المَناطِقَةُ الوَضعيُّونَ، مُفَضِّلاً عليها نظريَّةً في احتِماليَّةِ المَعنَى تكونُ القضيَّةُ فيها ذاتَ مَعْنًى إذا أمكَنَ تَحقُّقُها بِدرجةٍ مِن الاحتِمالِ، ويَكونُ لِلقَضيَّتَيْنِ المَعْنَى نَفسُهُ إذا كانَتْ لَهُما دَرجةُ احتِماليَّةِ التَّحقُّقِ نَفسُها. ومِن ثَمَّ قالَ إنَّ العِباراتِ العِلميَّةَ بِشأنِ العالَمِ لا تُساوي في المَعْنَى العِباراتِ الحِسِّيَّةَ التي تَصِفُهُ، لكِنَّها ترتبِطُ بِها بِرباطٍ احتِماليٍّ. وقَد بَنَى على ذلكَ إمكانَ استنباطِ وُجودِ حالاتٍ فيزيقيَّةٍ لِلعالَمِ مُستقلَّةٍ بِدرجةٍ مِن الاحتِمالِ عن انطِباعاتِنا عن العالَمِ، لكِنَّها مَسؤولةٌ في الوقتِ نَفْسِهِ عن هذهِ الانطِباعاتِ. وعُرِفَ رايشنباخ بإسهاماتِهِ في دِراسةِ الاحتِمالِ والاستقراءِ والمَكانِ والزَّمانِ والهندسةِ النِّسبيَّةِ وميكانيكا الكَمِّ والقَوانينِ العِلميَّةِ. والاسمُ =

ويبدو مُمكِنًا، استِنادًا إلى النَّظريَّةِ السِّياقيَّةِ لِلإحالةِ، [73] اقتراحُ تَوسيعٍ لِهذا النَّوعِ مِن الاختِزالِ الغامضِ ومِن ثَمَّ الاقترابُ أكثرَ مِن صِياغَةِ القَضيَّةِ المركزيَّةِ لِلاحتِمالِ، التي لَمّا تُكتَشَفْ بَعدُ. وما يتحدَّثُ عنهُ المَناطِقَةُ بِوَصفِهِ قَضايا إنَّما هوَ، استِنادًا إلى هذهِ النَّظريَّةِ، خَصائصُ عَلاقِيَّةٌ لأفعالٍ إحاليَّةٍ- وهي الخَصائصُ العَلاقِيَّةُ التي يُستَعمَلُ لَفْظُ 'إحالات' لِلتَّعبيرِ عنها. وبِذلكَ يَكونُ مَعنَى أن تَعتَقِدَ، أو أن تَستَمتِعَ، أو أن تُفَكِّرَ في قَضِيَّةٍ، على وَفقِ هذهِ النَّظرةِ، لَيسَ سِوَى أن تُحيلَ، ولا تُعَدُّ القَضِيَّةُ بِوَصفِها كِيانًا مُنفَصِلاً سِوَى خَيالٍ لُغَويٍّ تَفرِضُهُ علينا الخُدْعَةُ الأُوتراكوسِتيَّةُ[45][46]. إنَّ عمليَّتَيْ 'تَفكيرٍ في' 'القَضِيَّةِ' نَفسِها هُما تَفكيرانِ لَهُما الإحالةُ نَفسُها، والخاصِّيَّةُ العَلاقِيَّةُ نَفسُها، أي 'كَونُهُما مُرتَبِطَيْنِ سِياقيًّا على النَّحوِ نَفسِهِ بِالمَرجِعِ نَفسِهِ.' وسيُلحَظُ أنَّهُ يَجِبُ، استنادًا إلى هذا العَرضِ لِلقَضايا، أن تُعالَجَ العَلاقاتُ المنطقيَّةُ لِلقَضايا بَعضِها معَ بَعضٍ بِقَدرٍ مِن الاختِصارِ والشَّكليَّةِ أقَلَّ بِكثيرٍ مِمّا عليهِ الحالُ حتّى الآن.

= الكامِلُ لِكِتابِهِ الذي أورَدَهُ أوغدِن ورِتشاردز في المتنِ هوَ (نظريَّةُ الاحتِمال- بَحثٌ في الأُسُسِ المنطقيَّةِ والرِّياضيَّةِ لِحِسابِ تَغايُرِ الاحتِمالِ). [المُترجِم]

(45) يُنظَر: الفَصلُ السّادِسُ ص229.

(46) الأُوتراكوسِتيَّةُ: كلمةٌ مُشتَقَّةٌ من العِبارةِ اللاتينيَّةِ sub utraque specie التي تَعني (في كِلا النَّوعَيْنِ). ويُمكِنُ رَدُّ الكلمةِ إلى الكلمتَيْنِ اللاتينيَّتَيْنِ (uter + und) اللتَيْنِ تُقابِلُهما في الإنجليزيَّةِ (either + and). وتُمَثِّلُ كلمةُ (الأُوتراكوسِتيَّة) العَقائدَ والمُمارَساتِ الخاصَّةَ بِالكالكستيِّينَ، وهم مَجموعةٌ مِن الهوسِيِّينَ الذينَ هُم أتباعُ رَجُلِ الدِّينِ التشيكيِّ يان هوس (1369-1415م) الذي حاولَ إصلاحَ الكنيسةِ الكاثوليكيَّةِ من الفَسادِ والشرورِ بالرُّجوعِ إلى الكتابِ المقدَّسِ وأخلاقِ السيِّدِ المسيحِ ووصاياهُ. وقد ذهبَ الهوسيُّونَ إلى أنَّهُ يَنبغي أن يُدارَ الخُبْزُ والنَّبيذُ كِلاهُما على الشَّعبِ في أثناءِ القُربانِ المقدَّسِ، وجاهدوا في القرنِ الخامسَ عشَرَ مِن أجلِ ذلكَ. وقد طَوَّرَ أوغدِن ورِتشاردز في هذا الكتابِ عبارةَ (الخُدْعَة الأُوتراكوسِتيَّة) لِتَصِفَ استعمالَ لَفْظٍ يُمكِنُ أن يُحيلَ إمّا على مَرجِعِهِ الفيزيائيِّ وإمّا على مَرجِعِهِ الذِّهنيِّ، ويبقَى هذا الإبهامُ مفتوحًا لِتأويلِ القارئِ أو المُستَمِعِ. وقد قَدَّما مِثالاً لِذلكَ تَعبيرَ (الإدراك الحِسّيّ)، وسيَمُرُّ بنا هذا كلُّهُ في الفصلِ السادِسِ من هذا الكتابِ. [المُترجِم]

واستِنادًا إلى هذا الفَهمِ لِلقَضايا ثَمَّةَ وَجْهٌ يُمكِنُ به بِوُضوحٍ أن يُقالَ عَن قَضِيَّةٍ مُنفَرِدَةٍ وَحْدَها لا تَربِطُها عَلاقَةٌ بِالقَضايا الأُخرَى إنَّها مُحْتَمَلَةٌ. وما زالَ لِلاحتِمالِ هُنا جانِبٌ عَلاقِيٌّ، وما كانَ لِلقَضايا (أي الإحالاتِ) أن يُقالَ عنها إنَّها مُحتَمَلَةٌ لَولا عَلاقِيَّتُها. وهذا الوَجهُ الأساسيُّ جِدًّا هوَ الذي على وَفقِهِ يُحتَمَلُ اتِّساقُ السِّياقِ الذي يَعتمِدُ عليهِ صِدقُ الإحالةِ.

وقد لَحِظْنا أنَّ في وُسعِنا الحصولَ على سِياقاتٍ بِأعلى احتِماليَّةٍ مُمكِنَةٍ بِاتِّخاذِ خَصائصَ تَأسيسيَّةٍ وعَلاقَةٍ مُوَحِّدَةٍ عامَّةٍ جِدًّا. فَكذلكَ تتضاءَلُ احتِماليَّةُ السِّياقِ حتّى لا يَعودَ مُمكِنًا أن نَدعُوَهُ سِياقًا بِاتِّخاذِ خَصائصَ وعَلاقَةٍ مُحَدَّدَةٍ جِدًّا. وبِذلكَ تتوقَّفُ احتماليَّةُ سِياقٍ مّا على دَرَجةِ عُمومِ خَصائصِهِ التَّأسيسيَّةِ وعَلاقتِهِ المُوَحِّدَةِ، وعلى عددِ أعضائهِ، والسِّياقاتِ الأُخرَى التي تنتَمي إليها، وهَلُمَّ جَرًّا... فهيَ لا تتوقَّفُ [74] على سِمَةٍ واحِدَةٍ لِلسِّياقِ بَل على عِدَّةِ سِماتٍ. فمِنَ المُمكِنِ دَوْمًا، على سَبيلِ المِثالِ، زِيادَةُ احتِماليَّةِ سِياقٍ مّا بِزِيادَةِ أعضاءٍ مُناسِبِينَ. لكِنْ على الرَّغمِ مِن كَونِ هذهِ المَلْحوظَةِ الأخيرَةِ طَبيعيَّةً تُعاني فَضفاضيَّةً لُغَويَّةً تُعزَى إليها أساسًا صُعوباتُ المُشكِلةِ. و'الاحتِماليَّةُ' بِالوَجْهِ الأساسيِّ الذي يَكونُ على وَفقِهِ سِياقٌ مّا مُحتَمَلاً هيَ رَمزٌ اختِزاليٌّ لِجَميعِ سِماتِهِ التي تَعتَمِدُ عليها دَرَجَةُ اتِّساقِهِ.

ولا يَنبغي لَنا عندَ اعتِبارِ عَمليّاتِ التَّأويلِ الواعيةِ والحَيَويَّةِ أن نَغْفُلَ عن إدراكِ أنَّ كلَّ هذهِ الفَعّاليَّةِ، التي من النوعِ الذي ناقَشْناهُ في نظريَّةِ الاستِقراءِ، تَرتَكِزُ على التَّأويلاتِ 'الغَريزيَّةِ'. وإذا أدرَكْنا كيفَ يَكونُ التَّأويلُ 'الغَريزيُّ' الأساسيُّ في كلِّ مَكانٍ استَطَعْنا مُتابَعَةَ أبحاثِنا مِن غيرِ أن تُزعِجَنا شُكوكُ الصَّفائيِّينَ purists[47] التَّعليليِّينَ، ولا مُماطَلَةُ الرِّياضِيِّينَ في تَفعيلِ مُعادَلاتِهِم

(47) نِسبَةً إلى الصَّفائيَّةِ، وهيَ مذهبٌ ثقافيٌّ يَميلُ إلى تثبيتِ مرحلةٍ من مراحلِ تطوُّرِ اللغةِ أو الفنِّ بوصفِها مِثالاً يُطلَبُ السيرُ على مِنوالِهِ. وقد ظهرَ هذا المذهبُ في اللغةِ الفرنسيَّةِ وآدابِها في عشرينيّاتِ القرنِ السابعَ عشرَ، واستَعمَلَ جان شابلان تسميةَ (صَفائيِّينَ) أوَّلَ مَرَّةٍ لِلإشارَةِ إلى مجموعةٍ مِن علماءِ اللغةِ الباحِثِينَ في أُسُسِ صفاءِ اللغةِ الفرنسيَّةِ. ووضعَ =

التَّفاضُلِيَّةِ. ذلكَ بِأنَّ إعمالَ المُعادَلَةِ التَّفاضُلِيَّةِ نَفسِها التي هيَ أكثرُ عَمليّاتِ التّأويلِ عَقلانيَّةً سَيؤُولُ إلى الإخفاقِ ما لَم يُفلِحْ تَنفيذُ الكَثيرِ مِن التّأويلاتِ 'الغَريزيَّةِ' التي لا يُمكِنُ في الوقتِ الحاضرِ إخضاعُها لأيَّةِ مُعالَجَةٍ رِياضيَّةٍ.

وتُيَسِّرُ المَناهِجُ التَّجريبيَّةُ أحيانًا بِقَدْرٍ كَبيرٍ اكتِشافَ ما تُحِيلُ عليهِ عمليَّةُ التَّفكيرِ. فإذا ما سألْنا شَخْصاً مّا أن 'يُفَكِّرَ في' اللونِ الأحمرِ الأرجُوانيِّ، وعَرَضْنا عليهِ ألوانًا مُختلِفَةً، فسنكتَشِفُ أنَّهُ في أغلَبِ المَرّاتِ يُفَكِّرُ في لَونٍ آخَرَ. وهذا النَّوعُ مِن الاعتِبارِ هوَ الذي يَجعَلُ عِبارَةَ 'مُكَيَّف لِـ' مُكافِئًا مُلائمًا جِدًّا لِعبارةِ 'يُحِيلُ على'، وإذا ما استَصْحَبْنا أنَّ 'التَّكَيُّفَ لِـ' شَيءٍ مّا إن هُوَ إلّا رَمزٌ اختِزاليٌّ لِلارتِباطِ بِهِ على النَّحوِ المذكورِ مِن خِلالِ سِياقاتٍ خارجيَّةٍ وسايكولوجيَّةٍ، فقد يُمكِنُنا استِعمالُ اللَفْظِ مِن غيرِ أن تُؤَدِّيَ بنا ارتباطاتُهُ القَصديَّةُ والبايولوجيَّةُ إلى سُوءِ الفَهمِ.

وما زالَ علينا أن نُقَدِّمَ بَيانًا لإساءَةِ التَّأويلِ، وأن نُفَسِّرَ كيفَ يُمكِنُ أن تَنشَأَ الاعتِقاداتُ التي لا أساسَ لَها. أمّا [75] أوَّلُ الأمرَيْنِ فكَثيرًا مّا يُقالُ عَن الشَّخصِ الذي أساءَ تأويلَ عَلامَةٍ مّا إنَّهُ قدَّمَ اعتِباراتٍ أو أفكارًا غيرَ ذَواتِ صِلَةٍ بِالموضوعِ، أو إنَّهُ أسقَطَ مِنها ما لَهُ صِلَةٌ بِهِ. ولِمَفهومِ الصِّلَةِ أهمِّيَّةٌ عظيمةٌ في نظريَّةِ المَعنَى. إذ يَكونُ الاعتِبارُ (المفهومُ، أو الفِكرَةُ) أو التَّجرِبَةُ ذا صِلَةٍ بِتأويلٍ مّا حينَ يُشَكِّلُ جُزءًا مِن السِّياقِ السّايكولوجيِّ الذي يَربِطُ سِياقاتٍ أُخرَى مَعًا على النَّحوِ المُمَيَّزِ الذي يَربِطُها بِهِ التَّأويلُ[48]. فالاعتِبارُ غيرُ ذي الصِّلَةِ عُضوٌ غيرُ رابِطٍ

= كلود فافر دو فوغلاس الأُسُسَ النظريَّةَ لمذهَبِ الصَّفائيَّةِ في كتابِ (مَلحوظاتٌ في اللغةِ الفرنسيَّةِ)، وأصبحَ الكتابُ دليلاً للأخلاقيّاتِ اللغويَّةِ التي على أفرادِ الطبقةِ الأرستقراطيَّةِ التزامُها في تعامُلاتِهِم. وفي سنةِ 1635 حقَّقَت الصَّفائيَّةُ أهمَّ انتصارٍ لها بِتأسيسِ الأكاديميَّةِ الفرنسيَّةِ التي كُلِّفَتْ بِمهمَّةِ استنباطِ قواعدَ سليمةٍ لِلُّغَةِ الفرنسيَّةِ لِتُصبِحَ لغةً صافيةً وأنيقةً وقادرةً على التعبيرِ عن مُجمَلِ العلومِ والفُنونِ. وكانَ أنصارُ النَّزعةِ الإنسانيَّةِ أشدَّ أعداءِ الصَّفائيَّةِ. [المُترجِم]

(48) لا تَختلِفُ الرَّوابِطُ السّايكولوجيَّةُ الأُخرَى لِلسِّياقاتِ الخارجيَّةِ اختِلافًا جَوهريًّا عن التَّأويلِ، لكِنَّنا لا نُعنَى هُنا بِغيرِ الجانبِ الإدراكيِّ لِلعمليَّةِ الذِّهنيَّةِ. وسيكونُ هذا الوَجْهُ =

فِي السِّياقِ السّايكولوجيِّ. وقَد يُظَنُّ أَنَّ حَقيقَةَ حُصولِ اعتِقاداتٍ 'لا أساسَ لَها' مِمّا يَقِفُ في طريقِ وِجهةِ نظرِ التَّفكيرِ المُتَبَنّاةِ هُنا. على أنَّ تَفسيرَ هذا يُمكِنُ الوُقوفُ عليهِ في حقيقةِ أنَّ العمليّاتِ الذِّهنيَّةَ لا تُحَدَّدُ تَحديدًا سايكولوجيًّا خالِصًا، وإنَّما، على سبيلِ المِثالِ، بِوَساطَةِ ضَغطِ الدَّمِ أيضًا. ولَو لَم يَعتَمِد تأويلُنا إلّا على السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةِ الخالصَةِ لَكانَ مِن المُحتَمَلِ أن تَكونَ اعتِقاداتُنا مُسَوَّغَةً على الدَّوامِ، صادِقةً كانَتْ أو كاذِبَةً. وتَحدُثُ إساءَةُ التَّأويلِ النَّموذَجيَّةُ عندَ النَّومِ والإعياءِ. فَمَرَدُّ إساءَةِ التَّأويلِ، إذَن، إلى التَّضارُبِ مَعَ السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةِ، أَي إلى 'الأخطاءِ.' ولا تَستَقِلُّ السِّياقاتُ السّايكولوجيَّةُ، مِن جِهةٍ أُخرَى، بِتَقريرِ صِدقِ تأويلٍ مّا أو كَذِبِهِ- ما لَم يَكُنْ بَحثُنا في عِلمِ النَّفسِ. وقد يَكونُ لَنا كُلُّ الحقِّ في تَوَقُّعِ اتِّقادٍ مّا حينَ نُشعِلُ عُودَ الثِّقابِ، لكِنَّ ذلكَ، لِلأَسَفِ، لَن يَجعَلَ حُدوثَ الاتِّقادِ أكيدًا. إذ يُعَوَّلُ في ذلكَ على السِّياقِ الفيزيائيِّ، لا على السِّياقِ السّايكولوجيِّ. [76]

= نَفسُهُ لِما لَهُ صِلَةٌ مُلائمًا في مُناقَشَةِ النُّزوعِ؛ إذ إنَّ لِلمَنهَجِ السِّياقِيِّ في التَّحليلِ القُدرَةَ على تسليطِ الكَثيرِ مِن الضَّوءِ على مُشكِلاتِ الرَّغبةِ والدّافِعِ.

الفَصْلُ الرّابِعُ

العَلامَاتُ في الإدْرَاكِ الحِسّيِّ

الطَّبيعَةُ مَعْبَدٌ تَنطَلِقُ فيهِ أحيانًا كَلِماتٌ مُختَلِطَةٌ، مِن أعمِدَةٍ حَيَّةٍ، يَمُرُّ مِن خِلالِها الإنسانُ عبرَ غاباتٍ مِن الرُّموزِ، تَرْمُقُهُ بِنَظَراتٍ مَألُوفَةٍ - بودلير Baudelaire.

على الرَّغمِ مِن أنَّنا، بِتنامي مَعارِفِنا، قد أصبَحْنا أقَلَّ تيقُّنًا مِن أسلافِنا بِشَأنِ ماهيَّةِ الكَراسيِّ والمَناضِدِ، لَمّا يُفلِحِ الفيزيائيُّونَ والفَلاسِفةُ بَعدُ في جَعلِ المَسألةِ خارِجَةً عن نِطاقِ الشَّكِّ. فلا أحدَ يُجادِلُ في أنَّ الكراسيَّ والمَناضِدَ أشياءُ حَسَنَةٌ تَمامًا- فهيَ موجودةٌ هُنا ويُمكِنُ لَمسُها- لكِنَّ كلَّ مَن هوَ مُؤَهَّلٌ لِتكوينِ رأيٍ لا يُجادِلُ كذلكَ في أنَّهُ مَهما يَكُن ما نَراهُ فهوَ ليسَ إيّاها يَقينًا. فما الذي يُمكِنُ فِعلُهُ إزاءَ ذلكَ؟

سيتَّضِحُ فورًا سببُ اتِّفاقِ العُلَماءِ والآخَرينَ على أنَّ ما نَراهُ ليسَ كَراسيَّ ولا مَناضِدَ إذا ما راعَيْنا ما نَراهُ حينَ نَنظُرُ إلى نَحوِ هذهِ الأشياءِ. على أنَّ الإسهاماتِ المُقَدَّمَةَ بِشَأنِ ما نَراهُ، مِن جِهةٍ أُخرَى، لم تَسِرْ بِالأمرِ إلى مَدًى أبعدَ؛ بِسببِ العاداتِ السَّيِّئةِ التي نُكَوِّنُها في سَنَواتِ عَدَمِ النُّضجِ بِالخَطَإِ في تَسميَةِ الأشياءِ التي تَستَهوينا. وفي الآتي، على سبيلِ المِثالِ، مَنهَجٌ إجرائيٌّ شائعٌ يُوضِحُ طريقةَ نُشُوءِ هذهِ العاداتِ:-

"أذكُرُ ذاتَ مَرَّةٍ أنّي احتَجْتُ إلى كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عن المِنضَدَةِ. كانَ مِن حَولي خَمسَةُ أولادٍ أو سِتَّةٌ، فقَرَعْتُ المِنضَدَةَ بِسَبّابتي مُتسائلاً: 'ما هذِهِ؟.' فقالَ

أحدُهُم إنَّها *dodela*، وقالَ آخَرُ إنَّها *etanda*، وبَيَّنَ ثالثٌ أنَّها *bokali*، ورابعٌ أنَّها *elamba*، و[77]قالَ خامِسٌ إنَّها *meza*. فكَتَبْنا هذهِ الكَلِماتِ المختلفةَ في دفترِ المَلْحُوظاتِ، وغَبَطْنا أنفُسَنا على عَمَلِنا وَسْطَ أُناسٍ بَلَغوا مِن غِنَى اللُّغةِ مَبلَغَ حِيازَةِ خَمسِ كَلِماتٍ لِلتَّعبيرِ عن مادَّةٍ واحدَةٍ"[1].

إنَّ ما افترَضَهُ السَّيِّدُ المُحتَرَمُ[2] هوَ أنَّهُ إذا ما سأَلَ سُؤالاً مُحَدَّدًا أُجيبَ إجابَةً مُحَدَّدَةً. ورُبَّما كانَ القَليلُ مِن التَّأمُّلِ في حَقيقةِ ما رَآهُ أو طَرَقَهُ سَيَكفيهِ مَؤُونَةَ أن يَكتَشِفَ في مَرحلةٍ مُتأخِّرَةٍ أنَّ "أحدَ الأولادِ فكَّرَ في أنَّ بِنا حاجةً إلى كلِمةٍ تُعَبِّرُ عن الطَّرْقِ، وآخَرَ ظَنَّنا نَبحثُ عن كلِمةٍ تُعَبِّرُ عن المادَّةِ التي صُنِعَتْ منها المِنضَدَةُ، وآخَرَ فكَّرَ في احتياجِنا إلى كَلِمَةٍ تُعَبِّرُ عن الصَّلابةِ، وآخَرَ ذهَبَ إلى أنَّنا نَنشُدُ اسمًا لِذلكَ الذي يُغَطِّي المِنضَدَةَ، وآخِرَهُم، الذي رُبَّما لم يَكُنْ في وُسعِهِ التَّفكيرُ في شَيءٍ آخَرَ، قَدَّمَ لَنا كلِمَةَ *meza*، مِنْضَدَة- وهيَ الكَلِمَةُ الفِعليَّةُ التي كُنّا نَبحَثُ عنها".

وينتَظِرُ الخُبَراءَ اكتشافٌ مُشابِهٌ، ورُبَّما لا يَكونُ مِن غيرِ المُلائمِ الإشارةُ إلى السِّماتِ الرَّئيسةِ لِهذا التَّقدُّمِ المَعرِفِيِّ الوَشيكِ. ومِمّا يُثيرُ الاستِغرابَ بادِيَ الرَّأْيِ أن يَنتَظِرَ الباحِثُونَ المُعاصِرُونَ هذا الوَقتَ المَديدَ لِيتَبَنَّوا تحليلَ الأحوالِ العَلاميَّةِ الذي ابتَدَأَهُ أينيسيديموس Aenesidemus وأوكام Occam[3]. لكِن يبدو أنَّ قَلَقَهُم بِشأنِ الأُمورِ التي افترَضوا وُقوعَها في نِطاقِ تَخصُّصِ 'الميتافيزيقيِّينَ' كانَ كافِيًا لِيُلجِمَ فُضولَهُم بِشأنِ مَبادِئِ التَّأويلِ المُتضَمَّنَةِ في كلِّ مَرحلةٍ مِن مَراحلِ عَمَلِهِم.

---

(1) *Among Congo Cannibals*, by J. H. Weeks, p. 51.

(2) المُشارُ إليهِ هو جون هنري ويكس (1861-1924م)، وهو مُبشِّرٌ، وأنثروبولوجيٌّ، ومُستكشِفٌ بريطانيٌّ. مَكثَ في الكونغو بينَ سنتَيْ 1882م و1912م. عُنوانُ مؤلَّفِهِ الرئيسِ هو (وَسطَ آكِلِي لُحومِ البَشَرِ الكونغوليِّينَ: التجاربُ، والانطباعاتُ، والمُغامَراتُ مُدَّةَ ثلاثينَ عامًا وَسطَ قبائلِ الكونغو)، وقد أَلَّفَهُ وسطَ آكِلِي لُحومِ البَشَرِ الكونغوليِّينَ، وهو يَروي قصصَ مُغامراتِهِ وتجارِبِهِ وانطباعاتِهِ وسطَ قبيلةِ البولوكيِّينَ وغيرِها من القبائلِ، ويَصِفُ خَصائصَها المُمَيِّزَةَ، وعاداتِها، ودينَها، وقوانينَها. [المُترجِم]

(3) هو وِليَم الأوكاميُّ، وقد سبقَت ترجمتُهُ في الفَصلِ الثاني. [المُترجِم]

وفي الإمكانِ، زِيادةً على ذلكَ، تحقيقُ قَدرٍ عظيمٍ مِن الإنجازِ مِن غيرِ مَعرِفَةِ أنَّهُ لا يُمكِنُ التَّعامُلُ معَ الإدراكِ الحِسِّيِّ عِلمِيًّا إلّا حينَ تُحَلَّلُ خَصيصَتُهُ بِوَصفِها حالاً عَلامِيَّةً، ما أَمكَنَ اجتِنابُ التَّقاطُعِ معَ المُتَخصِّصِينَ في الحُقولِ الأُخرَى.

مِن أجلِ ذلكَ كانَ ما انفَرَدَ هيلمهولتز Helmholtz(4) بِقَولِهِ مِمّا تَتعاظَمُ أَهَمِّيَّتُهُ؛ إذ لم يَكُن واحِدًا مِن أعمَقِ المُفَكِّرِينَ العِلمِيِّينَ في الأزمنةِ الحديثةِ فَحَسْبُ، [78] بَل تَكشِفُ مُراسَلاتُهُ عَمّا كانَ لَدَيْهِ مِن اهتِمامٍ حَيَوِيٍّ طَوالَ حياتِهِ بالخِلافاتِ الفَلسفيَّةِ. بَل إنّا لَنَراهُ يُشيرُ في عامِ 1856 إلى مُشكلةِ الطَّريقةِ التي نَنفُذُ بِها مِن الإحساساتِ البَسيطةِ إلى أحكامِ الإدراكِ الحِسِّيِّ، وهذا ما لم يُعهَدْ أن يُولِيَهُ أحدٌ مِن الفَلاسِفةِ المُعاصِرِينَ اهتِمامًا جادًّا. وكانَ شَديدَ التَّأثُّرِ بِكانت

(4) هيرمان فون هيلمهولتز (1821–1894م). طبيبٌ، وعالِمُ فيزياءٍ ورياضيّاتٍ، وفيلسوفٌ ألمانيٌّ. درسَ فسلجةَ عملِ العَيْنِ والأُذُنِ، ولهُ إنجازاتٌ مهمَّةٌ في مَجالَي الطبِّ والفيزياءِ، ولا سيَّما الكهرباءُ المغناطيسيَّةُ. تُنسَبُ إليهِ طاقةُ هيلمهولتز الحُرَّةُ. حاوَلَ أن يُخضِعَ إلى البحثِ المُختبَريِّ القُدرةَ على تحليلِ الافتراضاتِ الفلسفيَّةِ، وكانَ هذا مُرتكَزًا للكثيرِ من جوانبِ العِلمِ في القرنِ التاسعَ عشرَ، وقد فعلَ ذلكَ بوضوحٍ ودِقَّةٍ. ويُمكِنُ رَدُّ الفِكرةِ العامَّةِ التي تَسري في مُعظَمِ أعمالِ هيلمهولتز، إن لم نَقُلْ فيها جميعًا، إلى رفضِهِ فلسفةَ الطبيعةِ المُستَمَدَّةَ من الفيلسوفِ الألمانيِّ إيمانويل كانْت الذي ذهبَ إلى أنَّ مفاهيمَ الزمانِ والمكانِ والعِلَّةِ ليسَتْ نتائجَ للتجربةِ الحسِّيَّةِ، بل هي صفاتٌ ذِهنيَّةٌ يُمكِنُ بوساطتِها إدراكُ العالَمِ. فعلى الرَّغمِ مِن تأثُّرِ هيلمهولتز الكبيرِ بِكانْت حتّى إنَّهُ نُسِبَ إليهِ، عارَضَ هذه النظرةَ بتأكيدِهِ أنَّ المعرفةَ كلَّها إنَّما يُتَوصَّلُ إليها بِالحواسِّ. وزيادةً على ذلكَ يُمكِنُ، بل يَجبُ، اختزالُ العِلمِ كلِّهِ إلى قوانينِ الميكانيكا الكلاسيكيَّةِ التي رأى أنَّها تَشمَلُ المادَّةَ، والقُوَّةَ، والطاقةَ، بِوصفِها الواقِعَ كلَّهُ. ورأى أنَّ مَعرفةَ الواقعِ تقومُ في الشُّعورِ نتيجةً لِتغيُّراتٍ في أعضاءِ الحِسِّ تَستَحدِثُها مُسَبِّباتٌ خارجيَّةٌ، وأنَّ هذهِ التَّغيُّراتِ تنتقِلُ إلى الأعصابِ فالمُخِّ لِتُصبحَ إحساساتٍ شُعوريَّةً أوَّلاً، ثُمَّ يُترجِمُها المُخُّ ويَربِطُ بينَها بِعمليّاتٍ يُسَمِّيها هيلمهولتز استِدلالاتٍ لاشُعوريَّةً تُشبِهُ ما يَحدُثُ لِلطِّفلِ عندَ تعلُّمِهِ لُغتَهُ الأُمَّ. وذَهَبَ إلى أنَّ الأحاسيسَ تُماثِلُ مُماثَلَةً تامَّةً خَواصَّ الشَّيءِ المُسبِّبِ لها بِفِعلِ مَبدَإِ الطاقاتِ العصبيَّةِ المُتخصِّصةِ، بحيثُ يُمكِنُ القولُ إنَّ الأحاسيسَ تُسَبِّبُها الموضوعاتُ الخارجيَّةُ، وإنَّها عَلاماتٌ ذاتيَّةٌ لِهذهِ الموضوعاتِ وخَواصِّها، لكِنَّها ليسَتْ صُوَرًا لها. من مؤلَّفاتِهِ: حَقائقُ الإدراكِ، ودليلُ البَصَريّاتِ الفِسيولوجيَّةِ، وفي حِفظِ الطّاقَةِ. [المُترجِم]

Kant[5] الذي، على الرَّغمِ مِن تِقْنِيَّتِهِ المُربِكَةِ، يُوشِكُ دومًا أن يُقارِبَ قَضايا التَّأويلِ المركزيَّةَ، والذي يُدَّعَى أنَّهُ أكثرُ الباحِثِينَ اقتِناعًا بِالمَذهَبِ الاسمِيِّ Nominalist في الأزمنةِ الحديثةِ[6]. غيرَ أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ ما هوَ كانتِيٌّ مَخصوصٌ في نظريَّةِ العَلاماتِ التي يُمكِنُ الوُقوفُ عليها في مَواضِعَ مُختلفةٍ مِن كِتاباتِ هيلمهولتز[7]. وقد أكَّدَ أنَّ مَعارِفَنا تَتَّخِذُ شَكلَ العَلاماتِ، ونحنُ نُؤَوِّلُ هذهِ العَلاماتِ بِوَصفِها دالَّةً على العَلاقةِ المجهولةِ لِلأشياءِ في العالَمِ الخارجيِّ. إنَّ الإحساساتِ الكامنةَ في أَصلِ جَميعِ الإدراكاتِ الحِسِّيَّةِ هيَ عَلاماتٌ ذاتِيَّةٌ لمَوضوعاتٍ خارجيَّةٍ[8]. ولَيسَتْ صِفاتُ الإحساساتِ هيَ صِفاتِ المَوضوعاتِ. فَالعَلاماتُ لَيسَتْ صُوَرًا لِلواقِعِ.

"وليسَ ضَروريًّا أن تُشبِهَ العَلامةُ على أيِّ نَحوٍ ما تَدُلُّ عليهِ. والعَلاقَةُ إنَّما تَكمُنُ في حقيقةِ أنَّ المَوضوعَ الواحِدَ الذي يَعمَلُ في ظُروفٍ مُتَشابِهَةٍ يُنشِئُ العَلامَةَ نَفسَها، ولِذلكَ يَحدُثُ على الدَّوامِ مُناظَرَةُ العَلاماتِ المُختلفةِ لِلإحساساتِ المُختلفةِ"[9].

وكانَتْ لِهيلمهولتز فُرصةٌ، في أثناءِ مُناقشتِهِ الطَّريقةَ التي نُؤَوِّلُ بِها الإحساساتِ مِن زاوِيَةِ العالَمِ الخارجيِّ، لِلتَّنبيهِ على أنَّ تَعدُّدَ العَلاماتِ البَصَريَّةِ التي نَستَعمِلُها هوَ على نَحوٍ لا يَنبَغي لَنا مَعَهُ أن نَعجَبَ مِن التَّنوُّعِ والتَّعقيدِ في الأخبارِ التي تُقدِّمُها لَنا. إنَّ العَلاماتِ المبدئيَّةَ لِلُّغَةِ هيَ 26 حَرفًا فقط. فإذا ما

---

(5) إيمانويل كانْت (1724-1804م). فيلسوفٌ ألمانيٌّ من بروسيا. كانَ آخِرَ فيلسوفٍ مؤثِّرٍ في أورُبّا الحديثةِ في التسلسلِ الكلاسيكيِّ لنظريَّةِ المعرفةِ في عصرِ التنويرِ الذي بدأ بِجون لوك، وجورج باركلي، وديفِد هيوم. أشهرُ آثارِهِ: (نقدُ العقلِ العمليّ) الذي كانَ جُلُّ اهتِمامِهِ فيهِ موضوعَ الأخلاقِ، و(نَقدُ الحُكم) الذي استقصى فيهِ الجَمالَ والغائيَّةَ. [المُترجِم]

(6) H. Wolff, *Neue Kritik der reinen Vernunft*, p. 17.

(7) Collated by Kûhtmann, *op. cit.*, p.66.

(8) *Vortrge und Reden*, I., 393.

(9) *Die Tatsachen in der Wahrnehmung*, p. 39.

استطَعْنا أن نَستَخرِجَ مِن هذهِ الحُروفِ السِّتَّةِ والعِشرِينَ كلَّ ما يتَّصِلُ بِالأدَبِ والعِلمِ، فإنَّ في وُسعِنا الاعتِمادَ على الألْيافِ البَصَرِيَّةِ البالغِ عددُها مِئتَيْنِ وخَمسِينَ ألْفًا لِلحُصولِ على مَعرِفَةٍ أكثَرَ ثَراءً وأحسَنَ تصنيفًا. [79]

فَما الذي نَراهُ حينَ ننظُرُ إلى مِنضَدَةٍ؟ الإجابَةُ هيَ أنّا نَرَى، أكثَرَ مِن أيِّ شَيءٍ آخَرَ، منطقةً مُضاءَةً تَحوي بَعضَ الهَواءِ، تُضيئُها أشِعَّةٌ بَعضُها قادِمٌ مِن صَوبِ المِنضَدَةِ، وبَعضُها الآخَرُ مِن مَصادِرَ أُخرَى؛ ثُمَّ نَرَى الحُدودَ الأُخرَى لِهذهِ المنطقةِ، وسُطوحَ الأشياءِ وفي ضِمنِها جُزءٌ مِن سَطحِ المِنضَدَةِ. فإذا ما أشَرْنا الآنَ إلى ما نَرَى وسَمَّيْناهُ هذا! فسنكونُ مُعرَّضِينَ لِخَطرِ القَولِ: هذا مِنضَدَةٌ، في حالِ تَوجيهِ انتِباهِنا إلى المِنضَدَةِ. لِذا يَنبَغي لَنا أن نكونَ يَقِظِينَ. ثُمَّ أينَ مَوقِعُ اللَونِ مِن هذا المُخَطَّطِ؟ في مَكانٍ مّا في العَيْنِ، وسيكتشِفُ ذلكَ كُلُّ مَن يُطْبِقُ عَيْنَيْهِ.

وما وَصَفْناهُ لَيسَ هوَ المِنضَدَةَ، معَ أنَّ جُزءًا مِمّا وَصَفْناهُ هوَ جُزءٌ مِن المِنضَدَةِ. وكلُّ ما نَقولُهُ تحتَ هذهِ الظُّروفِ مِمّا يتضمَّنُ المِنضَدَةَ يَجِبُ أن يتضَمَّنَ التَّأويلَ *Interpretation* أيضًا. نَحنُ نُؤَوِّلُ العَلامَةَ، التي يُعْطَى جُزءٌ منها[10]، بِوَصفِها تَدُلُّ على شَيءٍ مّا غيرِ نَفسِها، وهوَ المِنضَدَةُ في هذهِ الحالةِ.

---

(10) لقد أدرِكَ زمنًا طويلاً أنَّ ثَمَّةَ غَلَطًا في لَفظِ مُعْطًى Datum. فَـ'المُعْطَى' كَثيرًا مّا يكونُ الأصعَبَ قَبولاً مِن بَيْنِ الأشياءِ جَميعًا.

(أ) يُمكِنُ أن يَكونَ شَيْءٌ مّا 'مُعْطًى' بِمَعنَى أنَّهُ ما يكونُ حاضِرًا فِعليًّا بِكلِّ خَصائصِهِ، سَواءٌ أعَلِمْنا ماهيَّتَها أم لا، وسَواءٌ أأدرَكْناها على الوَجهِ الصَّحيحِ أم لا.

(ب) وبِمَعنًى أضيَقَ لا يُقالُ عن شَيءٍ إنَّهُ مُعطًى- 'مُعْطًى مُباشَرَةً *Datum datissimum*'، إلّا عن الكِياناتِ التي تُدرَكُ مُباشَرَةً، أي التي هي تَعديلاتٌ لأعضائنا الحِسِّيَّةِ، وما حائزُها المَزعومُ، أو سَبَبُها البَعيدُ، المَناضِدُ، والذَّرّاتُ، وما إليها، إلّا مُعْطًى على أنَّهُ حاضِرٌ، أو أنَّ جُزءًا منهُ حاضِرٌ بِالمَعنَى (أ).

وبِذلكَ يُمكِنُ أن يُقالَ عَن مُعْطًى بِالمعنَى (أ) إنَّ لَهُ 'ظُهورًا' هُوَ مُعْطًى بِالمعنَى (ب). فَـ'المخروطُ المَرئيُّ الكُلّيُّ' مُعْطًى بِالمعنَى (أ)، وما هوَ 'شَيءٌ مّا بَيْضِيُّ الشَّكلِ' مُعطًى بِالمعنَى (ب).

لكِنَّ هذا ليسَ كلَّ ما في الأمرِ، ويبدو أنَّ في الإمكانِ أن يُقالَ هُنا شيْءٌ جَديدٌ تَمامًا. سيكونُ غَريبًا أن يُقالَ إنَّا نَرَى شَيْئًا ليسَ أمامَ أعيُنِنا، أو لا يُلقِي صُوَرًا على شَبكيَّةِ العَيْنِ، كما في حالَةِ الذُّبابَةِ الطَّائرَةِ *musca volitans*(11). فعَلَى الصَّفائيِّينَ، إذَن، أن يتبنَّوا عدَمَ رُؤْيَتِنا الألوانَ البَتَّةَ. ومَعَ ذلكَ فإنَّ الألوانَ والكِياناتِ المُدرَكَةَ مُباشَرَةً هيَ العَلاماتُ الأوَّلِيَّةُ التي يرتَكِزُ عليها كلُّ تأويلٍ، وكلُّ استِدلالٍ، وكلُّ مَعرِفةٍ. وما الذي يُمكِنُ أن نَعرِفَهُ بِالتَّأويلِ؟ إنَّهُ ما هوَ حاضِرٌ- الكُلُّ الذي يؤَلِّفُهُ، على ما سنعرِفُ بِمُرورِ الوقتِ، [80] المنطقةُ المُضاءَةُ، والهَواءُ، وما إلى ذلكَ، مِمّا قد ألمَحْنا إليهِ آنِفًا، لكِنَّهُ الذي لا نُميِّزُ فيهِ إلّا هذهِ المُكَوِّناتِ التي تُمكِنُ تَسْمِيَتُها بعدَ عمليَّةِ تأويلٍ طويلةٍ تُدارُ على وَفقِ مَناهِجَ تَجريبيَّةٍ- "الطِّفلُ يتعلَّمُ أوَّلاً، وما إلى ذلكَ، وما إلى ذلكَ".

فما هذا الإدراكُ المُباشِرُ الذي يُناطُ بِهِ هذا الدَّورُ المُهِمُّ جِدًّا؟ وعادةً ما تُرفَضُ الإجابةُ الصَّحيحةُ مِن غيرِ تَردُّدٍ؛ لِمُناقضتِها الشَّديدةِ لِبعضِ عاداتِنا اللفظيَّةِ المُفَضَّلةِ. فمَعنَى أن يُدرَكَ الشَّيءُ مُباشَرةً هو أن يُسَبِّبَ أحداثًا مُعَيَّنَةً في الأعصابِ لا يَملِكُ عُلَماءُ الأعصابِ في الوقتِ الحاضرِ أن يَذهبوا معَها إلى أبعدَ مِن تأكيدِ حُدوثِها. بِذلكَ يَكونُ ما يُدرَكُ مُباشَرةً تَعديلاً لِعُضوٍ حِسِّيٍّ، وإدراكُهُ تَعديلاً إضافيًّا لِلنِّظامِ العَصَبيِّ الذي نتوقَّعُ تطوُّرَ مَعارِفِنا تجاهَهُ في بعضِ قابِلِ أيّامِنا(12).

(11) الذُّبابَةُ الطائرَةُ، ويُقالُ لها أيضًا عَوائمُ العَيْنِ، أو الأجسامُ الطافيَةُ، أو الأجسامُ العائمةُ floaters: هي ترسُّباتٌ في داخلِ الجسمِ الزُّجاجيِّ لِكُرةِ العَينِ، لَها أحجامٌ وأشكالٌ ومُعامِلاتُ انكِسارٍ مُختلفةٌ. وفي السِّنِّ الصغيرةِ يكونُ الجسمُ الزُّجاجيُّ شفّافًا تمامًا، لكن معَ تقدُّمِ العُمُرِ تبدأُ هذه الشوائبُ بالظهورِ تدريجيًّا عندَ الكثيرينَ. وتتكوَّنُ الأجسامُ الطافيَةُ غالبًا بسببِ التغيُّراتِ التنكُّسِيَّةِ في الجسمِ الزُّجاجيِّ، وتُرَى بسببِ الظلِّ الذي تُلقيهِ على شبكيَّةِ العَينِ، أو بسببِ انكِسارِ الضوءِ المارِّ خلالَها. ولهذه الأجسامِ أشكالٌ متعدِّدةٌ؛ فقد تكونُ بُقَعًا أو خيوطًا، وتطفو عادةً بِبُطءٍ أمامَ عينِ الشخصِ المُصابِ. [المُترجِم]

(12) مِن الاعتراضاتِ المُباشِرَةِ على هذا ما يُثارُ كَثيرًا مِن أنَّ 'المُعطى الحِسِّيَّ' لا يبدو مُشابِهًا البتَّةَ لِتَعديلٍ لِشَبكيَّةِ العَيْنِ، لكِن على النَّحوِ نفسِهِ لا يُشْبِهُ عُبورُ مَحطَّةٍ في قِطارٍ ما يَراهُ ناظِرُ المحطَّةِ. ولا يُوجَدُ شيءٌ هنا سِوَى حَدَثٍ واحدٍ، هوَ عُبورُ القِطارِ، لكنَّ العَلاماتِ مُختلفةٌ جدًّا. والأمرُ نفسُهُ يَصدُقُ على 'المُعطَى الحِسِّيِّ'؛ إذ يَنبغي أن نتوقَّعَ اختِلافًا =

لَكِنْ، أَلَيسَتْ هذهِ مادِّيَّةً مَحْضَةً؟ والإجابةُ هيَ: بَلَى، إذا ما أُسيءَ فَهمُها بِما فيهِ الكِفايَةُ. على أَنَّها في نَفسِها لَيسَتْ أكثَرَ مِن خطوةٍ مُحتَمَلَةٍ جِدًّا في أَكثَرِ عَرضٍ نِظامِيٍّ لِـ'المَعرِفَةِ' مَعقوليَّةً يُمكِنُ تَقديمُهُ. وفي سائرِ ما يُقتَرَحُ عَرضُهُ حتّى الآن تُوجَدُ، في أَقَلِّ تَقديرٍ، فِكرةٌ واحدَةٌ غيرُ قابِلَةٍ لِلتَّحديدِ يَنبَغي تَقديمُها في نُقطَةٍ مّا، وفي أَقَلِّ تَقديرٍ كِيانٌ واحِدٌ إضافِيٌّ تامُّ الغُموضِ ومُطلَقُهُ يَنبَغي التَّسليمُ بِهِ- عَلاقَةُ 'مَعرِفَةٍ مُباشِرَةٍ' وأُمورٌ أُخرَى مُلحَقَةٌ بِها يتعذَّرُ تفسيرُها. ومِن المُسَلَّم بِهِ في غُضونِ ذلكَ على نِطاقٍ واسعٍ أَنَّنا نَعرِفُ الكثيرَ. فَلَدَيْنا العُلومُ، ونُؤَكِّدُ هُنا أَنّا نَملِكُ سَلَفًا مادَّةَ عَرضِ المَعرِفَةِ نَفسِها- على أن يَسبِقَ ذلكَ اختِراقٌ لأَحابيلَ رَمزيَّةٍ مُعيَّنَةٍ أو إزالةٌ لَها. [81]

وتَرتكِزُ الأُحبولَةُ الرَّئيسَةُ مِنها على سُوءِ فَهمٍ لِطبيعةِ التَّعبيرِ. فإنشاءُ عِبارَةٍ مّا يَعني أن نَرمِزَ إلى إحالَةٍ مّا. وقد وَقَفْنا في الفَصلِ السّابقِ على المُرادِ بِالإحالَةِ. ومَهما حاوَلْنا فلن نستطيعَ الذَّهابَ في طريقِ المعرفةِ إلى ما وراءَ الإحالَةِ. والإحالَةُ الصّادِقَةُ هيَ الإحالَةُ على مَجموعةٍ مِن المَراجِعِ المُتَرابِطَةِ. أمّا الإحالَةُ الكاذِبَةُ فَالإحالَةُ عليها حالَ كَونِها مُرَتَّبَةً ترتيبًا آخَرَ لا تكونُ فيهِ مُتَرابِطَةً بِالفِعلِ. ويَكمُنُ تطوُّرُنا المَعرِفيُّ في ازدِيادِ قُدرتِنا على الإحالَةِ على المَراجِعِ حالَ كَونِها مُتَرابِطَةً بِالفِعلِ. وهذا كلُّ ما في وُسعِنا فِعلُهُ. ولن يُمَكِّنَنا الادِّعاءُ البَتَّةَ مِن اكتِشافِ ماهيَّةِ المَراجِعِ. وكلُّ ما يُمكِنُنا اكتِشافُهُ هو الكَيْفِيَّةُ. ولا شَكَّ في أنَّ هذا مَذهَبٌ عَتيقٌ ومألوفٌ، لكِنَّ الحاجةَ إلى تأكيدِهِ تتجَدَّدُ كُلَّما تدَخَّلَ الميتافيزيقيُّ، سَواءٌ كانَ ذلكَ بِوَصفِهِ مادِّيًّا، أو رُوحِيًّا، أو ثَنَوِيًّا، أو واقِعِيًّا أو بِوَصفِهِ يَحمِلُ إجابَةً مِن مَصدَرٍ آخَرَ لِسؤالٍ مُعجِزٍ. على أنَّ لَدَيْهِ، لِسُوءِ الحظِّ، فُرصَةً سانِحةً لإقامةِ عَوائقَ لا سبيلَ ظاهِرَةً إلى اختِراقِها، بِسببِ جَهلِنا الحاليِّ لآليَّةِ اللُّغةِ. وما مِن

= عظيمًا بينَ الإحالاتِ المُتضَمَّنَةِ- والمَراجعُ واحدةٌ- ما دامَ ثَمَّةَ إدراكٌ مُباشِرٌ واحدٌ بَسيطٌ بالقَدرِ المُمكِنِ، هوَ إحالةٌ أَوَّلِيَّةُ الرُّتبَةِ، وإحالةٌ أُخرَى لِتَعديلِ عُضوٍ حِسِّيٍّ، هيَ غايةٌ في التَّعقيدِ ولا يُتَوَصَّلُ إليها إلّا بَعدَ سِلسِلةٍ طويلةٍ مِن التَّأويلاتِ. إنَّها رُتبَةٌ أُخرَى لِلإحالَةِ. وفي الفَصلِ اللاحقِ (ص183-184) مَزيدُ نِقاشٍ لِهذهِ المُشكلةِ العظيمةِ الأهمِّيَّةِ المُتعلِّقةِ بِرُتَبِ الإحالاتِ والعَلاماتِ أو مُستَوَياتِها.

سَبيلٍ لِتَفادي ذلكَ إلّا بِالانطِلاقِ مِن الحقائقِ المعروفةِ المتعلِّقةِ بِكيفيَّةِ اكتِسابِ المَعرِفةِ. ثُمَّ بِوُجودِ أُطروحَةٍ لِلتَّأويلِ على نَحوِ ما هوَ مُخَطَّطٌ هُنا يُصبِحُ الطَّريقُ مَفتوحًا أمامَ تَنظيمِ جَميعِ ما يُعْرَفُ، ولِكلِّ ما سَوْفَ يُعرَفَ، زِيادةً على ذلكَ[13].

فَلْنَستأنِفْ مُخَطَّطَنا المُوجَزَ لِلعَرضِ التَّنظيميِّ لِلإدراكِ الحِسِّيِّ. فَمِن أجلِ ذلكَ تكونُ تَعديلاتُ الشَّبكيَّةِ المُدرَكَةُ مُباشَرَةً كالألوانِ مَثَلاً عَلاماتٍ أَوَّلِيَّةً لِـ'المَوضوعاتِ' و'الأحداثِ' (أو على النَّحوِ الذي نتَّفِقُ عليهِ لِلرَّمزِ إلى [82] المَراجِعِ)، وتكونُ خَصائصُ الأشياءِ التي نَكتَشِفُها بِالتَّأويلِ كأشكالِ المَخاريطِ والمَناضِدِ عَلاماتٍ ثانَوِيَّةً أو ثالِثِيَّةً على التَّوالي. أمّا أشكالُ العَلاماتِ الأَوَّلِيَّةِ، كَتَعديلاتِ الشَّبكيَّةِ مَثَلاً، فتُعَدُّ عَلاماتٍ أَوَّلِيَّةً.

وإذا جرَّبْتَ أن تَضَعَ قِطعةً مَعدِنِيَّةً جديدةً مِن النّيكَل على راحةِ يَدِكَ مادًّا ذِراعَكَ أُفُقِيًّا، فسيَصِفُ الشَّخصُ الصّادِقُ شَكلَها بِأنَّهُ بَيْضِيٌّ. فإذا نَظَرْتَ إليها عَموديًّا من الأعلَى رأيْتَها مُستَديرَةً. فما حقيقةُ شَكلِ القِطعةِ المَعدِنِيَّةِ: أدائريٌّ هوَ أم بَيْضِيٌّ؟ يالَها مِن مُعضِلَةٍ لا حَلَّ لَها!

إذا ما قُلْنا إنَّ المُعْطَى لَنا في كِلتا الحالتَيْنِ إنَّما هوَ سَطْحُ القِطعَةِ المَعدِنيَّةِ فستَكونُ الإجابةُ أنَّها دائريَّةٌ وبَيْضِيَّةٌ مَعًا. والهَزْلِيُّ في الأمرِ أنّا 'نَعلَمُ' كما يَعلَمُ كلُّ فيزيائيٍّ عِلمًا متينًا[14] أنَّها لم تتغيَّرْ تغيُّرًا قابِلاً لِلقِياسِ، وأنَّها مُستَديرَةٌ في

---

(13) يَشيعُ إحساسٌ بِالقشعريرةِ أو خَيبَةِ الأملِ عندَ الذينَ يُمارِسونَ وِجهةَ النَّظرِ هذهِ أوَّلَ مَرَّةٍ. على أنَّ الإنكاراتِ التي تَبدو مُتضَمَّنَةً بِسببِ قَصْرِ المعرفةِ على الإحالةِ، تبدأُ بالتَّناقُصِ حينَ يُصْرَفُ الاهتِمامُ اللازِمُ إلى الاستِعمالاتِ الأُخرَى 'غيرِ الرَّمزيَّةِ' لِلُّغَةِ التي تُناقَشُ في الفَصلِ العاشرِ. وكَثيرًا مّا يُقالُ إنَّ الميتافيزيقا هَجينٌ مِن العِلمِ والشِّعْرِ؛ إذ إنَّها تَحمِلُ الكثيرَ مِن أماراتِ الهَجينِ، فهِيَ، على سبيلِ المِثالِ، عَقيمٌ. إنَّ الفَصلَ المُلائمَ لِهذهِ الأزواجِ السَّيِّئةِ التَّصنيفِ هوَ واحدَةٌ مِن أهَمِّ نتائجِ البَحثِ في الرَّمزيَّةِ.

(14) يَذكرُ روجيير Rougier في كتابِهِ (**المُغالَطات** *Paralogismes*، ص408) أنَّ نظريَّةَ الصِّفاتِ الأَوَّلِيَّةِ والثّانويَّةِ التي بَدا أنَّ حُجَجَ باركلي Berkeley قد دَحَضَتْها أخذَت تَستَقطِبُ الاهتِمامَ مرَّةً أُخرَى. و"ليسَ في مُعْطَياتِنا أيُّ دافِعٍ مُهِمٍّ يَدفَعُنا لأن نُفَكِّرَ بِأنَّ الأحاسيسَ التي مَبْعَثُها أيُّ شَكلٍ مِن الأشكالِ الهَندَسِيَّةِ لَيسَتْ واقِعِيَّةً". على أنَّهُ لا يَكفي أن نَرفُضَ =

الواقِعِ. فلَنا الخِيارُ، مِن جِهَةٍ، في أن نَرى الكَونَ مَملوءًا بِالتَّناقُضاتِ كما يَراهُ الميتافيزيقيُّونَ، وغَريبًا جِدًّا كما يَراهُ كاتِبُو المَقالاتِ المُهَذَّبونَ، ورائعًا جِدًّا كما يَراهُ الأساقِفَةُ؛ أو في أن نَقولَ، مِن جِهةٍ أُخرَى، إنَّ السَّطحَ ليسَ هوَ المُعْطَى في كِلتا الحالتَيْنِ.

إنَّ كلَّ مَن شاهَدَ إجراءَنا معَ القِطعةِ المَعدِنيَّةِ، مِمَّن يُسْتَعانُ بِهِ في هذهِ النُّقطةِ، سيقولُ إنَّ ما كانَ حاضِرًا في كِلتا الحالتَيْنِ هوَ كُلٌّ يَحوي أجزاءً، هيَ مَخاريطُ[15] قِمَمُها في العَيْنِ، وقَواعِدُها حُدودُ رُؤيَتِنا، أو حُدودُ السُّطوحِ إذا ما كانَتْ حَولَنا أَغراضٌ كَقِطَعِ المَعدِنِ. وثَمَّةَ مَخروطانِ هُنا معَ قاعدةٍ هيَ سَطحُ القِطعةِ المَعدِنيَّةِ الدّائريُّ. ففي الحالةِ الأُولَى كانَ المخروطُ بَيْضِيًّا [83] في مَقطَعِهِ العَرضِيِّ، وسَطحُ القِطعةِ المَعدِنيَّةِ مَقطَعًا مائلاً؛ أمّا في الحالةِ الثّانيةِ فكانَ المخروطُ دائريًّا، وسَطحُ القِطعةِ المَعدِنيَّةِ مَقطَعًا عَرضِيًّا دائريًّا أيضًا. إنَّ ما أُخِذَ هُنا على أنَّهُ شَكلُ قِطعةِ المَعدِنِ الواضِحُ، مِن المقبولِ جِدًّا أن يُقالَ عنهُ إنَّهُ مَقطَعُ المخروطِ العَرضِيُّ. وهذا هوَ العَلامةُ التي نُؤَوِّلُها بِوَصفِها السَّطحَ، وليسَ هذا السَّطحُ 'datum datissimum' البَتَّةَ- أي مُعْطًى مُباشِرًا. ويُحَرِّرُنا هذا التَّطبيقُ البَسيطُ لِنظريَّةِ العَلاماتِ مِن التَّناقُضِ، والغَرابَةِ، وما يَرُوعُ، ويُعيدُ إلينا إيمانَنا بالفيزيائيِّينَ، ويُمَكِّنُنا مِن التَّقَدُّمِ في عَمَلِنا، أي في عَرضٍ مُلائمٍ لإدراكِ طَبيعَةِ الأشياءِ.

إنَّ المَنهَجَ الذي أُزيلَتْ بِهِ أسبابُ هذهِ الفَضيحةِ القَديمةِ يُمكِنُ أن يَلقَى النَّجاحَ نَفسَهُ في كلِّ 'المُشكِلاتِ الأساسيَّةِ' الأُخرَى. وكُلَّما اكتشَفَ العَقلُ

= الأمرَ مُعلَّقِينَ بِقولِنا إنَّ مُفارَقَةَ العَصَا المُنحنِيَةِ "لا وُجودَ لَها إلّا عندَ مَن لا يَعرِفونَ شَيْئًا عن قَوانينِ انكِسارِ الضَّوءِ". وبِصَرفِ النَّظَرِ عن نَظريَّةٍ وافِيَةٍ لِلعَلاماتِ فإنَّ قَوانينَ انكِسارِ الضَّوءِ تَظهَرُ بِمَظهَرٍ سَيِّئٍ بإزاءِ إبداعِ الأنطولوجيِّينَ.

(15) كلمةُ 'مَخروط' إنَّما تُستَعمَلُ هُنا لِمَلْءِ فَجوةٍ لُغَويَّةٍ وعلى نَحوٍ استِعاريٍّ. إنَّها اختِزالٌ لِـ'المنطقةِ المُتَخلِّلَةِ بينَ السَّطحِ وشَبكيَّةِ العَيْنِ' التي تكونُ في مُعظَمِ الحالاتِ ذاتَ شَكلٍ مَخروطيٍّ أو هَرَميٍّ.

العَبقرِيُّ تناقُضًا ذاتيًّا (نحوَ "هذهِ القِطعةُ المَعدِنيَّةُ نَفسُها التي أراها هي دائريَّةٌ وبَيضِيَّةٌ في الوقتِ نَفسِهِ"، أو "هذهِ العصَا نَفسُها التي أراها مغمورةً بِالماءِ هيَ مُستقيمةٌ وَمُنحَنِيَةٌ في الوقتِ نَفسِهِ") ظَهَرَ تَرميزٌ سَيِّئٌ، ووَجَبَ علينا تَوسيعُ الرَّمزِ السَّقيم[16] إلى حينِ اكتِشافِنا الحالَ العَلامِيَّةَ الغامضَةَ التي سَبَّبَتِ المُشكِلَةَ. ثُمَّ نُسَجِّلُ هذا الغُموضَ، ونُحَسِّنُ تَرميزَنا لِنتَفادَى الهُراءَ الذي نَصِيرُ إليهِ في حالِ عَدَمِ فِعْلِنا ذلكَ. وبِذلكَ نقولُ في حالةِ القِطعةِ المَعدِنيَّةِ: "قاعدةُ هذا المخروطِ التي هيَ عَلامَتي مائلَةٌ ودائريَّةٌ، وهيَ سَطحُ قِطعةِ المَعدِنِ التي أراها، لكِنَّ المقطَعَ الاعتياديَّ لِهذا المخروطِ بَيْضِيٌّ. كَذلكَ يُمكِنُ أن يُقالَ عَنِّي إنِّي أرَى قِطعةَ المَعدِنِ أو إنِّي أرَى أيَّ جُزءٍ مِن المخروطِ، لكِن لا شَيءَ مِن ذلكَ مُعْطًى مُباشَرَةً. بَل إنَّ المخروطَ الكُلِّيَّ الذي تُشَكِّلُ تلكَ أجزاءَهُ مُنتَخَبٌ مِن المخروطِ الأوسَعِ الذي يَضُمُّ زِيادَةً على المخروطِ المَعدِنِيِّ مَخاريطَ كُلِّ ما أراهُ، المُعْطَى الكُلِّيَ الذي هوَ مَجالُ رُؤْيَتي".

وهذا الانتِخابُ لِلمَخاريطِ الجُزئيَّةِ مِن المخروطِ الكُلِّيِّ [84] الذي هوَ مَجالُ الرُّؤيَةِ يُنجَزُ مِن غيرِ خَطَإٍ في الظُّروفِ الاعتياديَّةِ. والحَقُّ أنَّهُ لَولا حالةُ 'الصُّوَرِ المُزدَوِجَةِ' لَكانَ مِن المُحتَمَلِ ألّا يكونَ ثَمَّةَ شَكٌّ في فاعِلِيَّةِ التَّأويلِ هُنا أيضًا. فَلِكُلِّ عَيْنٍ مَخروطٌ كُلِّيٌّ مُستَقِلٌّ، لكِنَّنا نتعلَّمُ على نَحوٍ اعتِياديٍّ مُماهاةَ مَخاريطَ جُزئيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ في المَخاريطِ التي لَها القاعدَةُ نَفسُها. فإذا ما أُفْسِدَ التَّناظُرُ الشَّبَكِيُّ الذي نَفعَلُ ذلكَ مِن خِلالِهِ (كما في تَوسيعِنا مُقلَةَ العَيْنِ قَليلاً، أو نَظَرِنا إلى شيءٍ بَعيدٍ مُتَجاوِزِينَ ما هُوَ قَريبٌ) أخفَقْنا في الحصولِ على التَّطابُقِ الصَّحيحِ، وقُلْنا إنّا نَرَى قِطعَتَيْنِ مَعدِنيَّتَيْنِ (الصُّوَر المُزدَوِجَة). مَرَّةً أُخرَى نَسمَحُ لِلُغَتِنا هُنا بِأن تَخدَعَنا. فالموجودُ هُنا، كما هوَ مُعتادٌ في الرُّؤيةِ الثُّنائيَّةِ العَيْنِ،

(16) في حالةِ قِطعةِ المَعدِنِ يُوَسَّعُ إلى الحالةِ التي مفادُها أنَّ "هذا المخروطَ الذي أَراهُ والذي قاعِدَتُهُ القِطعةُ المَعدِنيَّةُ هوَ دائريٌّ وبَيضِيٌّ في الوقتِ نفسِهِ". فهُنا العَلامَةُ، أي المخروطُ، قد تُؤَوَّلُ بِوَصفِها دالَّةً إمّا على مَقطَعٍ عَرضيٍّ بَيضِيٍّ، أي مَقطَعٍ اعتياديٍّ، وإمّا على مَقطَعٍ مائلٍ دائريٍّ.

مَخروطانِ ذَوَا قاعدةٍ مُشتركةٍ. وبِسببِ التَّغيُّرِ في شَبكيَّةِ العَيْنِ يَتعطَّلُ مَنهَجُ المُطابَقةِ اللاإراديُّ الاعتياديُّ، فَـ'نَرَى' قِطعَةَ المَعدِنِ كما لَو أنَّها في مَكانَيْنِ اثنَيْنِ؛ ونُؤَوِّلُ مَخروطَيْنِ ذَوَيْ قاعدةٍ مُشتركةٍ كما لَو أنَّهما مَخروطانِ ذَوَا قاعدَتَيْنِ مُنفَصلَتَيْنِ. الانعِكاسُ والانكِسارُ- لُغزانِ مِن ضِمنِ ما تَكتَظُّ بِهِ نَظريَّةُ الرُّؤيةِ الكُلِّيَّةُ مِن 'ألغازٍ' تنتَظِرُ أن تَحُلَّها نَظريَّةُ العَلاماتِ المذكورةُ آنِفًا(17).

فَمهمَّةُ نظريَّةِ العَلاماتِ هذهِ لا تَقتَصِرُ إذَن على إزالةِ التَّناقُضاتِ النّموذَجيَّةِ السّابقةِ لِمرحلةِ العِلمِ، بَل إنَّها تُهَيِّئُ قاعدةً جديدةً يَقومُ عليها عِلمُ الفيزياءِ. إذ إنَّ مِمّا يَشيعُ افتِراضُهُ مُناقَضَةَ الأشياءِ التي نَراها للأشياءِ التي نتخيَّلُها، التي هيَ غيرُ حقيقيَّةٍ على نَحوٍ مّا. فَهذا التَّفريقُ بينَ الرُّؤيةِ والخيالِ مُضَلِّلٌ، وإنَّ الأشياءَ التي نَدَّعي الرُّؤيةَ بِحَقٍّ لأجزائها التي لا نَراها لا تَقِلُّ حقيقيَّةً عن تلكَ التي نَراها. [85] فالجانبُ الآخَرُ مِن القَمَرِ الذي لا نَراهُ البَتَّةَ لا يَقِلُّ حقيقيَّةً عن الجانبِ الذي تُدرِكُهُ أبصارُنا. وإذا ما عُزِّزَ الجهدُ التَّأويليُّ لِعالِمِ الفيزياءِ فلن تكونَ الذَّرّاتُ التي تُصَوَّرُ مَسالِكُها ضَوئيًّا، والألكتروناتُ التي لا 'نَراها'، أَقَلَّ حقيقيَّةً مِن العَلاماتِ التي يُعطاها الإدراكُ الذي يَبتَدِئُ الفيزيائيُّ بَحثَهُ منها. فحينَ نَنظُرُ إلى كراسيِّنا ومَناضِدِنا 'نَرَى' مُعْطًى مُباشِرًا، فَمَخاريطَ، فسُطوحًا، فَكُرسيًّا، فَظَهْرًا

---

(17) مِمّا يتَّصِلُ بالأحوالِ العَلاميَّةِ ثَمَّةَ ما يُقالُ بِشَأنِ أَشَدِّ المحاوَلاتِ عَزمًا على مُعالَجَةِ المُعطَياتِ مِن زاوِيَةِ العَلاماتِ مُنذُ بَحثِ رَيد Reid- وهيَ المُحاوَلَةُ التي طَوَّرَها البروفيسور جون ليرد John Laird في الصَّفْحَةِ 24 فَما بَعدَها مِن كِتابِهِ دِراساتٌ في الواقِعِيَّةِ *Studies in Realism*. إذ يقولُ البروفيسور ليرد: "إنَّ المُعْطَى الحِسِّيَّ البَصَريَّ هو عَلامةٌ بِقَدرِ ما هوَ واقِعَةٌ، وإنَّهُ لَيُدرَكُ دَومًا على هذا النَّحوِ". ويُواصِلُ كَلامَهُ مُؤكِّدًا أنَّنا نُدرِكُ دَومًا الدَّلالَةَ (العَلاقَةَ التي بِسببِها تَدُلُّ العَلامَةُ)، أنَّنا نُدرِكُ دَومًا وَقائعَ عَلاميَّةً لا مُعطَياتٍ تَخلُو مِن الدَّلالَةِ. فإذا فَهِمْنا 'المعنَى' الوارِدَ في قَولِهِ بَعْدُ: "إنَّ المعنَى يُدرَكُ مُباشَرَةً، تَمامًا كاللونِ أو الصَّوتِ" على أنَّهُ 'الدَّلالَةُ' فلن يكونَ هذا التَّقريرُ مُتناقِضًا بِالقَدرِ الذي كانَ سيكونُ عليهِ في حالةِ خَلطِ 'المعنَى' بِـ'ما يُعْنَى.' ويُنظَرُ ما ذَكَرَهُ أويرنليه Hoernlé إذ يَقولُ في دَوْرِيَّةِ *Mind*، 1907، ص86-: "أنا أَعُدُّ الشُّعورَ بالمعنَى أوَّليًّا وأساسيًّا، وتَمييزَ العَلامةِ مِن المعنَى نِتاجَ التَّأَمُّلِ". أمّا نَوعُ هذا 'المعنَى' فَرُبَّما يُمكِنُ استنتاجُهُ مِن الفَصلِ الثّامنِ.

ومَقعَدًا وقَوائمَ، فَخشَبًا، فَخَيْزُرانًا، فَأليافًا، فَخَلايا، فَجُزَيْئاتٍ، فَذَرّاتٍ، فَألِكترونات... في أَوجُهٍ كَثيرةٍ لِـ'الرُّؤْيَةِ' تَتَواصَلُ في تَدَرُّجٍ مُتَراتِبٍ بِتَغَيُّرِ الأحوالِ العَلاميَّةِ. وإذا ما حدَثَ تَبَدُّلٌ في وِجهَةِ النَّظَرِ، والاهتِمامِ، والآلِيَّةِ العِلميَّةِ أو هَدَفِ البَحثِ فستتغيَّرُ المُستَوَياتُ التي تُمَثِّلُها هذهِ الإحالاتُ تَبَعًا لِذلكَ. [86]

الفَصْلُ الْخَامِسُ
قَوَانِينُ الرَّمْزِيَّةِ

لَمَنظومَةُ تَسمِيَةٍ مُوَفَّقَةٌ أقدَرُ مِن المَنطِقِ الصّارِمِ أحيانًا على الإذنِ لِسلسلةِ فِكْرٍ جَديدةٍ بِسُرعةِ القَبولِ وعُمومِهِ. - البروفيسور شُوستَر Prof. A. Schuster

أمّا ما يتعلَّقُ بسائرِ الأُمورِ فَلَن أكونَ مُستاءً، سَيِّدِي، إن تَقَحَّمْتَ أبعَدَ قَليلاً في تَفصيلاتِ انعِطافاتِ العَقلِ التي تَظهَرُ مُدهِشَةً عندَ استِعمالِ الحُروفِ. - لايبنِتز Leibnitz

إنَّ أساسَ كُلِّ تَواصُلٍ مُسَلَّماتٌ أو لَوازِمُ- افتِراضاتٌ مُوَجِّهَةٌ لا يُمكِنُ إن عُدِمَتْ أن يتطوَّرَ نِظامٌ لِلرُّموزِ، ولا عِلْمٌ، ولا حتَّى مَنطِقٌ. وليسَ بِمُستَغرَبٍ إهمالُ المَناطِقَةِ إيّاها؛ إذ لَم يُعْنَ أحدٌ بِالبَحْثِ فيها حتَّى اليومِ. وقد شُغِلَ المنطِقُ، الذي قد يُعَدُّ عِلْمًا لِتَنظيمِ الرُّموزِ، إمّا بِالأحكامِ التي هيَ سَايكولوجيَّةٌ، وإمّا بِـ'القَضايا' التي عُومِلَتْ بِوَصفِها مَوضوعاتٍ لِلفِكْرِ مُتميِّزَةً مِن الرُّموزِ وغيرَ سايكولوجيَّةٍ. أمّا عُلَماءُ الرِّياضيّاتِ المُعاصِرونَ الذينَ فَعلوا الكثيرَ مِن أجلِ إحداثِ تَطويرٍ شَكليٍّ لِلمَنهَجِ الرَّمزيِّ فيَسلُكونَ أحَدَ مَسلَكَيْنِ؛ فإمّا أن يَفتَرِضوا هذهِ القَوانينَ ضِمنيًّا، وإمّا أن يُقَدِّموا تَعقيداتٍ خاصَّةً إضافيَّةً[1] في أنظِمَتِهِم حينَ تُواجِهُهُم صُعوباتٌ بِسببِ إهمالِهِم. والحقُّ أنَّها أساسيَّةٌ لِكلِّ خِطابٍ كأساسيَّةِ الكيمياءِ لِعِلمِ الفَسلَجَةِ،

(1) مِثالُ ذلكَ نَظريَّةُ الأنماطِ- التَّعامُلُ معَ أبِمينيديس Epimenides وكَذِبِ الكريتِيِّينَ المزعومِ؛ أو نَظريّاتُ الوُجودِ عندَ تأويلِ "العَنقاواتُ لها وُجودٌ". =

أو الدّيناميكا لِعِلمِ القَذائفِ، أو عِلمِ النَّفسِ لِعِلمِ الجَمالِ. فدِراسةُ هذهِ القَوانينِ في كُلِّ مَنطِقٍ ليسَ صُورِيًّا خالِصًا، بِمَعنَى أنَّهُ [87] مُخْلَصٌ لِتَفصيلِ إمكاناتِ التَّلاعُبِ بِالرُّموزِ(2)، هيَ أُولَى الأساسيَّاتِ، ومُراعاتُها الصّارِمَةُ كفيلَةٌ بِجَعلِ جَميعِ مَسالِكِ المُعالَجةِ التَّقليديَّةِ عديمةَ الفائدةِ.

ومِن المُناسِبِ عَرضُ عَددٍ مِن هذهِ القَوانينِ بِلُغَةِ الرُّموزِ والمَراجِعِ. وتَجْدُرُ هاهُنا مُعاوَدَةُ النَّظرِ في المُثَلَّثِ الإحاليِّ المُثبَتِ آنِفاً. وفي الآتي القانونُ الأَوَّلُ لِلرَّمزِيَّةِ، قانونُ الأُحادِيَّةِ Singularity:

1. - الرَّمزُ الواحِدُ يَرْمِزُ إلى مَرْجِعٍ واحِدٍ لا غَيْر.

وهذا المَرجِعُ الواحدُ قد يكونُ مُعَقَّدًا في مُعظَمِ الحالاتِ. فـ'كُلُّ المعتوهِينَ المَنغوليِّينَ'، مَثَلاً، رَمزٌ لَهُ مَرجِعٌ واحدٌ. فكذلِكَ يَكونُ لِـ (x أو y) مَرجِعٌ واحدٌ. على أنَّ رُموزَ الرِّياضيّاتِ مُتَميِّزَةٌ في أنَّها رُموزٌ إمّا لِرُموزٍ أُخرَى وإمّا لِعَمليّاتِ ذَواتِ رُموزٍ. هذا التَّميُّزُ هوَ ما يُعَبَّرُ عنهُ كَثيرًا بِالقَولِ إنَّ الرِّياضيّاتِ الخالصةَ تَجريديَّةٌ، أو شَكليَّةٌ، أو إنَّها لا تَذكُرُ أيَّ شَيءٍ البَتَّةَ. وقد تَحوي الرُّموزُ أجزاءً

= [يُشيرُ المؤلِّفانِ بِحديثِهما عن أبِمينيديس وكَذِبِ الكريتِيِّينَ المزعومِ إلى ما يُعْرَفُ بِمُفارَقَةِ أبِمينيديس، التي سُمِّيَتْ بِهذا الاسمِ نِسبَةً إلى الفيلسوفِ الكريتيِّ أبِمينيديس (كانَ حيًّا في نَحوِ القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ) الذي أطلَقَ مَقولَتَهُ الخالدَةَ: "جَميعُ الكريتِيِّينَ كاذِبونَ"؛ إذ تتولَّدُ مُفارَقَةٌ تتعلَّقُ بِالإحالةِ الذاتيَّةِ حينَ يُنظَرُ: أيُمكِنُ أن يكونَ ما قالَهُ أبِمينيديس صادِقًا؟ ويُقَرِّرُ توماس فاولَر (1869) هذه المفارَقَةَ على النحوِ الآتي: "يَقولُ أبِمينيديس الكريتيُّ إنَّ جَميعَ الكريتِيِّينَ كاذِبونَ، لكنَّ أبِمينيديس نَفسَهُ كريتيٌّ، فهو نفسُهُ إذَن كاذِبٌ. لكِنْ إن كانَ كاذِبًا كانَ ما قالَهُ غيرَ صادِقٍ وكانَ الكريتيُّونَ مِن ثَمَّ صادِقِينَ. لكِنَّ أبِمينيديس كريتيٌّ، فما قالَهُ إذَن صادِقٌ، وبِقَولِهِ إنَّ الكريتِيِّينَ كاذِبونَ يكونُ هو نفسُهُ كاذِبًا ويكونُ ما قالَهُ غيرَ صادِقٍ. وهكذا يُمكِنُنا الاستمرارُ بِالتَّناوُبِ في إثباتِ الصِّدقِ والكَذِبِ لأبِمينيديس والكريتِيِّينَ. المُترجِم]

(2) يُعالِجُ البروفيسور إيتن R. M. Eaton في كتابِهِ **الرَّمزيَّةُ والصِّدْقُ** *Symbolism and Truth* (ص92، و224، فما بَعدَ ذلكَ) قَواعِدَ النَّحوِ المنطقيِّ على نَحوٍ مُثيرٍ لِلاهتِمامِ مِن وِجهةِ نظرٍ شِبْهِ تَقليدِيَّةٍ.

ضروريَّةٌ، كالنَّفي، وكلماتٍ نَحوِ 'ال'، و'الذي'، وهيَ ليسَ لها في أنفُسِها مَراجِعُ مُحَدَّدَةٌ. ودِراسةُ نَحْوِ هذهِ العناصرِ البِنائيَّةِ غيرِ الرَّمزِيَّةِ تَقعُ على عاتِقِ النَّحوِ.

وتَظهَرُ هذهِ الإشاراتُ البِنائيَّةُ في اللُّغةِ الاعتِياديَّةِ في تَنَوُّعٍ شَكليٍّ مُحيِّرٍ. فالتَّصريفاتُ، والرَّوابِطُ، والمُوَزِّعاتُ، والأفعالُ المُساعِدَةُ، وبَعضُ حُروفِ الجَرِّ، والاستِعمالُ الرَّئيسُ لِلفِعلِ الرّابِطِ، وما إلى ذلكَ، كُلُّ أُولئكَ لَهُ هذهِ الوَظيفَةُ. وتُقَلَّصُ هذهِ العَناصِرُ البِنائيَّةُ إلى أَقَلِّ ما يُمكِنُ في عِلمِ الرِّياضيّاتِ بِسببِ بَساطةِ تَوجُّهِهِ؛ وإلّا فإنَّ الرُّموزَ التي في العَمليّاتِ الإحصائيَّةِ كالاثنَيْنِ والثَّلاثَةِ، أو رُموزَ الرُّموزِ كالتَّعبيراتِ الجَبريَّةِ، لا تُمكِنُ مُعالَجَتُها نِظامِيًّا. وتُظهِرُ وِجهاتُ النَّظرِ الحديثةُ في الرِّياضيّاتِ رَدَّ فِعلٍ مُتَجدِّدًا تجاهَ التَّصوُّفِ المنطقيِّ أو [88] أرِثموصوفيةِ[3] فريجة Frege[4]، وكوتُورا Couturat[5]، وآخَرينَ، مِمّا كانَ سائدًا

(3) أرِثموصوفيا: هو عِلمُ الأعدادِ الرَّمزِيُّ. والترجمةُ الحرفيَّةُ لهذه الكلمةِ تَعني (حِكْمَة الأعداد). والمقصودُ بالأعدادِ هنا الأعدادُ المستعمَلَةُ في العَدِّ، المتضمِّنَةُ لِلأعدادِ (صفر، 1، 2، 3، ...). فهَل لِهذهِ الأعدادِ المفرَدَةِ مَعانٍ ضِمنيَّةٌ؟ من الواضحِ أنَّهُ إن جاءَ العددُ في سياقٍ حِسابيٍّ عمليٍّ، كما في حالةِ قياسِ حجمِ غُرفَةٍ، فليسَ مِن سببٍ يدعو إلى افتراضِ أنَّ العددَ يُنبِئُ بِشيءٍ، ما عدا أنَّ الغرفةَ صغيرةٌ إلى درجةٍ لا يُمكِنُ معها وضعُ السريرِ فيها. فمعنَى عددٍ مّا يعتمدُ على ما يُستَعمَلُ لِعَدِّهِ؛ ففي ما طُولُهُ سبعةُ سنتمتراتٍ، على سبيلِ المِثالِ، ليسَ لِلعددِ 7 دَلالةٌ أرِثموصوفيَّةٌ؛ إذ إنّ السنتمتر وحدةٌ اعتِباطيَّةٌ، أمّا في ما مُدَّتُهُ سبعةُ أيّامٍ فينطوي العددُ 7 على دَلالةٍ؛ ذلكَ بأنَّ اليومَ وحدةٌ طبيعيَّةٌ. وأحدُ أشهَرِ الأمثلةِ لذلكَ هو ارتباطُ العددِ 13 بالحظِّ السَّيِّئِ، الذي يُعَدُّ من قبيلِ الخُرافاتِ. على أنَّ بعضَ الباحثِينَ قد طوَّرَ مُخطَّطًا نِظاميًّا لِتأويلِ الأعدادِ، ابتِداءً بِالعددِ 1 الذي يُمثِّلُ (الوحدة)، فالعددِ 2 الذي يُمثِّلُ (التحليل)، فالعددِ 3 الذي يُمثِّلُ (التركيب). [المُترجِم]

(4) فريدرِش لودفيغ غوتلوب فريجة (1848-1925م). عالِمُ رِياضِيّاتٍ، ومَنطقيٌّ، وفيلسوفٌ ألمانيٌّ. يُعَدُّ أبا الفلسفةِ التَّحليليَّةِ الحَديثَةِ لِكتاباتِهِ في فلسفةِ اللغةِ والرِّياضيّاتِ. دَرَسَ دَورَ اللُّغَةِ في الفِكرِ الإنسانيِّ والعَلاقَةَ بينَ المَعنَى والحَقيقَةِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: أُسُسُ عِلمِ الحِساب. [المُترجِم]

(5) لويس كوتورا (1868-1914م). مَنطقيٌّ، وعالِمُ رياضيّاتٍ، وفيلسوفٌ، ولِسانيٌّ فرنسيٌّ. =

في بِدايَةِ القَرنِ. ويَسُودُ شُعورٌ واضِحٌ بِأنَّ الأُطروحَةَ التي لا تَستَنِدُ إلى كِياناتٍ ما وَراءَ الحِسِّ يَجِبُ أن تُخْلَصَ لِما يُخْلِصُ عُلَماءُ الرِّياضيّاتِ لَهُ أُطروحَتَهُم.

واستَطاعَ بَعضُهُم، مِثلُ فِتغِنشتاين Wittgenstein[6]، إقناعَ نَفسِهِ بِأنَّ "قَضايا الرِّياضيّاتِ هيَ المُعادَلاتُ، فَلِذلكَ هيَ قَضايا زائفَةٌ"، وبِأنَّ "المَنهَجَ الذي يتوصَّلُ عِلمُ الرِّياضيّاتِ بِهِ إلى مُعادَلاتِهِ هوَ مَنهَجُ الاستِبدالِ. ذلكَ بِأنَّ المُعادَلاتِ تُعَبِّرُ عن القابليَّةِ الاستِبداليَّةِ لِتَعبيرَيْنِ، وأنّا نَنطَلِقُ مِن عدَدٍ مِن المُعادَلاتِ إلى مُعادَلاتٍ جديدةٍ، مُستَبدِلِينَ بِتَعبيراتٍ تَعبيراتٍ أُخرَى طِبْقًا لِلمُعادَلاتِ"[7]. وفي الإمكانِ تَقديمُ وِجهةِ نَظَرٍ كهذِهِ مِن غيرِ الخَلفيَّةِ الصُّوفيَّةِ ولا السِّتارِ اللَذَيْنِ يُقَدِّمُهُما هذا الكاتِبُ. وإنَّ أقسامَ الرِّياضيّاتِ التي لا يبدو أنَّها مَعْنِيَّةٌ بالمُعادَلاتِ فَحَسْبُ، ومِنها على سبيلِ المِثالِ نَظريَّةُ المجموعاتِ النُّقَطيَّةِ[8]، ما زالَت تَحتاجُ إلى تَعليلٍ.

ويذهَبُ آخَرُونَ معَ رِنيانو[9] إلى أنَّ الرِّياضيّاتِ كُلَّها لَيسَتْ إلّا تنفيذًا لِتَجارِبَ فيزيائيَّةٍ مُتَخَيَّلَةٍ، تُسَجَّلُ وتُمَثَّلُ بِرُموزٍ. وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ هذا التَّضخيمَ

= نشرَ في سنةِ 1901 كتابَهُ (مَنطِقُ لايبنتز)، وهوَ دراسةٌ مُفَصَّلَةٌ لِلمَنطِقيِّ لايبنتز. [المُترجِم]

(6) لودفيغ فِتغِنشتاين (1889-1951م). فيلسوفٌ نَمساويٌّ. يُعَدُّ أحدَ أكبرِ فلاسفةِ القرنِ العشرينَ. حظِيَ بالتَّقديرِ بِسببِ كِتابَيْهِ (رِسالةٌ منطقيَّةٌ فلسفيَّةٌ)، و(بُحوثٌ فلسفيَّةٌ). عَمِلَ في المقامِ الأوَّلِ في أُسُسِ المنطقِ، والفلسفةِ، والرياضيّاتِ، وفلسفةِ الذِّهنِ، وفلسفةِ اللغة. [المُترجِم]

(7) *Tractatus Logico-Philosophicus*, 6.2 and 6.24.

(8) نظريَّةُ المجموعات: إحدَى أهمِّ الرَّكائزِ في الرِّياضيّاتِ الحديثةِ، وهي النظريَّةُ التي تَصِفُ المجموعاتِ الرِّياضيَّةَ المؤلَّفَةَ من كائناتٍ رياضيَّةٍ مجرَّدَةٍ والعمليّاتِ المطبَّقةَ عليها. وتَضُمُّ المجموعةُ عدَّةَ عناصرَ، وقد تكونُ مُنتهِيَةً أي أنَّ عددَ عناصرِها عددٌ صَحيحٌ طبيعيٌّ مَعلومٌ كمجموعةِ الأعدادِ المحصورةِ بينَ العددَيْنِ 7 و11 ومجموعةِ أيّامِ الأسبوعِ؛ وقد تكونُ غيرَ مُنتَهِيةٍ كمجموعةِ الأعدادِ الطبيعيَّةِ التي يُرمَزُ إليها بالحرفِ N: N = {0, 1, 2, 3,...}. ومِن أمثلةِ العمليّاتِ المطبَّقَةِ على المجموعاتِ: عمليَّةُ الاتِّحادِ، وعمليَّةُ التقاطُعِ، وعمليَّةُ الفَرق. [المُترجِم]

(9) *The Psychology of Reasoning*, Chapters VII. And VIII.

لِوِجهةِ نظرِ جَيمس مِل[10] James Mill وتَيْن[11] Taine يُلائمُ بعضَ أقسامِ الرِّياضيّاتِ بِما يَكفي، هوَ أَقلُّ مُلاءَمَةً لأقسامٍ أُخرَى. ولا يَعزُو رِنيانو إلى الرُّموزِ، في تَطويرِهِ لِهذِهِ النَّظرَةِ، إلّا النَّزْرَ القليلَ مِن الأهمِّيَّةِ، أمّا مَجموعاتُ الرُّموزِ العاليةُ التَّنظيمِ كالتي في الرِّياضيّاتِ فَلَيسَتْ، عندَهُ، مُجَرَّدَ وَسيلَةٍ لِتَمثيلِ أداءاتِنا الذِّهنيَّةِ. لكِنَّها تُصبِحُ، إنْ جازَ التَّعبيرُ، قادِرَةً على الأداءِ بِسبَبِها. إنَّها تُصبِحُ ماكِناتِ تَفكيرٍ إذا ما أُحسِنَ التَّعامُلُ مَعَها [89] أثمَرَتْ نتائجَ لا يُمكِنُ أن تتنبَّأَ بِها أيَّةُ عمليَّةِ تَجارِبَ فيزيائيَّةٍ تَخيُّلِيَّةٍ.

وثَمَّةَ مَدرسةٌ ثالثةٌ لم تُقَدِّم الرِّياضيّاتِ بِوَصفِها آلَةَ تفكيرٍ، بَل بِوَصفِها مَجموعةَ تَوجيهاتٍ تحتَ تصَرُّفِ هذهِ الآلةِ، التي هيَ العَقلُ. وتَرَى هذهِ المدرسةُ أنَّ الرِّياضيّاتِ لا تَشتَمِلُ على أيِّ تَقريرٍ، بَل على أوامِرَ وإيعازاتٍ فَحَسْبُ. وتَكمُنُ المُشكِلَةُ حينَئذٍ في ما ينبغي أن يُطلَبَ مِن عُلَماءِ الرِّياضيّاتِ فِعلُهُ.

وقد يُوقَفُ على أنَّ الإجابةَ عن هذا السُّؤالِ المَكرورِ بِشأنِ طبيعةِ الرِّياضيّاتِ تتألَّفُ مِن مَزيجٍ مِن هذهِ المذاهبِ المختلفةِ. وليسَ ثَمَّةَ سببٌ وَجيهٌ لافتِراضِ أنَّ الرِّياضيّاتِ عِلْمٌ مُتجانِسٌ في أصلِهِ، على الرَّغمِ مِن أنَّ امتِلاكَها

---

(10) جَيْمس مِل (1773-1836م). مؤرِّخٌ، واقتصاديٌّ، ومُنَظِّرٌ سياسيٌّ، وفيلسوفٌ أسكتلنديٌّ. أسَّسَ معَ دَيفِد ريكاردو علمَ الاقتِصادِ الكلاسيكيّ، وهوَ والدُ فيلسوفِ اللِيبراليَّةِ المُؤثِّرِ جون ستيوَرت مِل. أهمُّ آثارِهِ: تحليلُ العقلِ الإنسانيّ، وتأريخُ الهندِ البريطانيَّةِ، وعناصِرُ الاقتِصادِ السِّياسيّ. [المُترجِم]

(11) في كِتابِ تَحليلُ العَقلِ الإنسانيّ *The Analysis of the Human Mind*، ج2، ص9: "فالأعدادُ لَيسَتْ أسماءً لِلأشياءِ. إنَّها أسماءٌ لِعمليَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، عمليَّةِ الجَمْعِ ... فالواحِدُ اسمٌ لَها حالَ تنفيذِها، أو لِلجَمعِ المُبتَدَإِ بِهِ، والاثنانِ اسمٌ لَها حالَ تنفيذِها مرَّةً أُخرَى". ويَذهَبُ مِل الابنُ في مَلْحوظاتِهِ بشأنِ هذا النَّصِّ المُدَوَّنَةِ في مَقالاتِهِ الافتِتاحيَّةِ إلى أنَّ "أكثَرَ ما يُلائمُ وَصفَ الأعدادِ هو أنَّها أسماءٌ لِلأشياءِ. فلا شَكَّ في أنَّ الاثنَيْنِ اسمٌ لِلشَّيْئَيْنِ اللّذَيْنِ هُما اثنانِ، أصبعانِ اثنانِ، وما إلى ذلكَ. وما يَفعَلُهُ الاسمُ اثنانِ هوَ أن يَدُلَّ دَلالَةً إيحائيَّةً على عَمليَّةِ جَمْعِ واحدٍ وَواحدٍ لِتكوينِ الاثنَيْنِ، لا أن يَدُلَّ دَلالَةً تَعيينيَّةً عليها". ويَكتَنِفُ الغُموضُ هذا التَّعليقَ؛ إذ إنَّ هذا ليسَ حتَّى استِعمالَ جون ستيوَرت مِل J. S. Mill المُعتادَ لِـ'الدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ'.

نِظامَ رُموزٍ مُفرَدَةٍ يَجعَلُها تَبدو كذلكَ. على أنَّ ما يَنبَغي أن يَجعَلَنا مُهَيَّئِينَ لِتقَبُّلِ هذا الإمكانِ ما تتمتَّعُ بِهِ كلُّ أنظِمةِ الرُّموزِ لا الرُّموزُ المُفرَدَةُ وَحْدَها مِن استِعدادٍ معروفٍ لاكتِسابِ المزيدِ مِن الاستِعمالاتِ. ومِن الواضحِ أنَّ بعضَ أقسامِ الرِّياضيّاتِ مَعْنِيٌّ على نَحوٍ خاصٍّ بِالبَحثِ في الأقسامِ الأُخرَى مِنها. و"قد يُوَفَّقُ المَناطِقَةُ إلى تأسيسِ نَحْوٍ خاصٍّ باللُّغةِ المَنطقيَّةِ حينَ يتخلَّصُ المنطِقُ تَمامًا مِن الميتافيزيقا. ورُبَّما يُسَمُّونَهُ حينَئذٍ نَحْوَ المنطِقِ، ويُطلِقُونَ على اللُّغَةِ المنطقيَّةِ اسمَ المَنطِقِ. وكلُّ ما هوَ وَجيهٌ في هذا المَنطِقِ يَظَلُّ عَناصِرَ مُكَوِّنَةً لِلنَّحْوِ- نَحوِ عِلمِ التَّفكيرِ بِاللُّغَةِ"(12).

ومِن المُهِمِّ، بعدَ هذا الاستِطرادِ، أن نتذكَّرَ أنَّ الإحالةَ، على ما بُيِّنَ آنِفًا، هيَ مَجموعةٌ مِن السِّياقاتِ الخارجيَّةِ والسّايكولوجيَّةِ التي تَصِلُ العَمليَّةَ الذِّهنيَّةَ بِالمَرجِعِ. فلِذا لا يُحتَمَلُ البَتَّةَ وُجودُ إحالتَيْنِ مُتشابِهَتَيْنِ تَمامًا. وإنّا لَنُثيرُ سُؤالاً لَهُ مَدَاهُ حينَ نتساءَلُ: أيُستَعمَلُ رَمزانِ لإحالةٍ واحدةٍ- ولا سِيَّما حينَ يكونُ المُستَعمِلانِ شَخصَيْنِ ذَوَيْ خلفيَّتَيْنِ مُختلفتَيْنِ-؟ [90] والأَوْلَى أن يُتَساءَلَ: أتُوجَدُ إحالتانِ مُتَشابِهتانِ بِالقَدرِ الذي يُتيحُ نِقاشًا مُثمِرًا؟ فإذا ما كانَ نَحوُ هذا النِّقاشِ مُمكِنًا قِيلَ عن الإحالَتَيْنِ إنَّهما 'مُتَساوِيَتانِ'. ولا وَسيلَةَ مُتاحَةً الآنَ لِمُوازَنَةٍ مُباشِرَةٍ بينَ الإحالاتِ. لذا كانَ علينا أن نَحكُمَ بِالدَّليلِ غيرِ المُباشِرِ المُستَمَدِّ على نَحوٍ رَئيسٍ مِن مُراقبةِ السُّلوكِ الإضافيِّ لِلأطرافِ المَعنيَّةِ. إذ نَلْحَظُ: أيَنشَأُ الشَّكُّ واليَقينُ في المَواضِعِ أنْفُسِها؟ أَوَ يَسمَحُ كِلاهُما بالأبدالِ في المَواضِعِ أنْفُسِها؟ وهلُمَّ جَرًّا. غيرَ أنَّ ثَمَّةَ حاجَةً مُلِحَّةً إلى اختِبارٍ أسهَلَ تَطبيقًا مِن أجلِ الإجابةِ عن عِدَّةِ تَساؤُلاتٍ مُهِمَّةٍ في نَظريَّةِ النَّحْوِ، ولا سيَّما حينَ تُناقَشُ دَرجةُ تَداخُلِ الوظيفَتَيْنِ الانفِعاليَّةِ والإحاليَّةِ لِلُّغَةِ. ولم يَبْقَ أَمَلٌ إلّا في التَّحليلِ الإضافيِّ لِلسِّياقاتِ الفعّالةِ في الإحالةِ، معَ مُراعاةِ انتِخابِ المُحَدِّدِ مِن بَينِ العَوامِلِ السِّياقيَّةِ الكثيرَةِ، وفي غُضونِ ذلكَ قد يَكْفُلُ تَوافُرُ إدراكٍ واضِحٍ لِلتَّعقيداتِ المتَضَمَّنَةِ مَنْعَ جَزْمِيَّةٍ نحنُ في غِنًى عنها.

---

(12) J. W. Powell, *Twentieth Annual Report of the Bureau of American Ethnology* (1903), p. clxx.

وإذا ما بَدا أنَّ ثَمَّةَ رَمزًا يَرْمِزُ إلى مَرْجِعَيْنِ أو أكثرَ وَجَبَ عَدُّهُ رَمزَيْنِ أو أكثرَ، يَنبَغي تمييزُ أَحَدِهِما مِن الآخَرِ، أَو بَعضِها مِن بَعضٍ. وهذا القانونُ يتربَّصُ بِأوضَحِ أنواعِ اللَبْسِ، كَالذي في كلمَةِ top التي تَصْدُقُ على (الجَبَل)، وعلى (اللُعْبَة الدَّوّارَة)[13]، على سبيلِ المِثالِ. ونحنُ نُميِّزُ أحدَ هذَيْنِ الرَّمزَيْنِ مِن الآخَرِ بِمَعُونَةِ قانونٍ ثانٍ يُعنَى بِما اعتادَ النّاسُ تَسمِيَتَهُ تَعريفًا، وهوَ كذلكَ غايَةٌ في الأهمِّيَّةِ.

وإذا ما واجَهْنا رَمزًا لا نَفهَمُهُ وكُنّا مِمَّن يُهِمُّهُ الأمرُ شَرَعْنا نَتَّخِذُ رَمزًا آخَرَ لَنا القُدرةُ على تأويلِهِ، على أن يكونَ لَهُ المَرجِعُ نَفسُهُ. حينَئذٍ يُمكِنُ أن نَقولَ: "أنا أَعلَمُ ما يَعنِيهِ الرَّمزُ A، إنَّهُ يَعني عَيْنَ ما يَعنِيهِ الرَّمزُ B". (فَإذا قالَ العُلَماءُ إنَّ 'chien' يَعنِي 'dog'[14]، كانَ عليهِم أن يَقولوا إنَّ 'chien' و'dog' يَعنِيانِ الشَّيءَ نَفسَهُ). كذلكَ إذا كانَ الرَّمزُ طَويلاً أو غيرَ مُناسِبٍ لِلاستِعمالِ، أو يُحتَمَلُ أن يُساءَ فَهمُهُ، اتَّخَذْنا رَمزًا مُلائمًا جَديدًا لِنَستَعمِلَهُ بَدَلاً مِنهُ. وتَحدُثُ عَمَلِيَّةُ التَّعريفِ نَفسُها في الحالتَيْنِ كِلتَيْهِما. وتَستَدعي تَفصيلاتُ [91] آلِيَّةِ التَّعريفِ التي يتطلَّبُها البَحثُ بِاستِمرارٍ دِراسَةً خاصَّةً، وستُعالَجُ في الفَصلِ السّادِسِ القادِمِ. ويُنَزَّلُ القانونُ الثّاني لِلرَّمزِيَّةِ، أي قانونُ التَّعريفِ Definition، مَنزِلَةَ حَجَرِ الأساسِ:-

2. - الرَّمزانِ اللذانِ يُمكِنُ استِبدالُ أَحَدِهِما بِالآخَرِ يَرْمِزانِ إلى إحالَةٍ واحدَةٍ.

يُمَكِّنُنا هذا القانونُ مِن أن نَستَبدِلَ بِالرَّمزِ الغامِضِ 'top' المُرادِفَ 'قِمَّة الجَبَل mountain top' أو 'اللُعْبَة الدَّوّارَة المُسَمّاة بِهذا الاسم spinning top'، فَيزولَ الغُموضُ بِذلكَ. لكِنَّ ذلكَ ليسَ الفائدَةَ الوحيدَةَ التي نَجنيها مِن هذا

(13) كلمةُ top في الإنجليزيَّةِ قد يُرادُ بِها قِمَّةُ الجبَلِ، وقد يُرادُ بِها اللُعبَةُ التي تُسَمَّى بِهذا الاسمِ، وهيَ لُعبَةٌ مُصَمَّمَةٌ لِتَدورَ بِسُرعةٍ على الأرضِ، وتُسبِّبُ حركتُها بقاءَها مُتوازِنةً بِدِقَّةٍ على طَرَفِها بسببِ القُصورِ الذاتيِّ. [المُترجِم]

(14) الكَلْبُ في الفرنسيَّةِ chien وفي الإنجليزيَّةِ dog. [المُترجِم]

القانونِ. والذي يَحجُبُ أَهَمِّيَّتَهُ هو فَرْطُ بَساطَتِهِ. فهوَ الضّامِنُ في الرِّياضيّاتِ. وتطبيقُهُ يُحقِّقُ تَنظيمَ رُموزِنا (الذي يُمكِنُ أن تُستَبْدَلَ بِهِ عِبارَةُ "نِظامنا الفِكريّ"). فَمِن الواضحِ، مَثَلاً، أنَّ الرَّمزَيْنِ 'مَلِك إنجلترا' و'مالِك قَصرِ بَكِنغهام' مَرجِعُهُما واحِدٌ. وهُما، معَ ذلكَ، لا يَرمِزانِ إلى الإحالَةِ نَفسِها؛ لِلاختِلافِ الشَّديدِ في السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةِ المُتَضَمَّنَةِ في كُلٍّ من الحالتَيْنِ. فَهُما، استِنادًا إلى ذلكَ، لا يَحُلُّ أحدُهما مَحَلَّ الآخَرِ على النَّحوِ الذي يَقتَضيهِ هذا القانونُ. فالرُّموزُ البَديلَةُ التي يُمكِنُ استِعمالُها كَي 'يُعَرِّفَ'[15] بَعضُها بَعضًا لا يَكفي فيها أن يكونَ لَها مَرجِعٌ واحِدٌ، بَل لا بُدَّ أن تَرمِزَ إلى الإحالَةِ نَفسِها. وعادَةً مّا يُقالُ عن نَحوِ هذهِ الرُّموزِ إنَّ لَها 'الدَّلالَةَ الإيحائيَّةَ connotation' نَفسَها، وهيَ تعبيرٌ مُضَلِّلٌ وخَطِرٌ، يَقبَعُ تحتَ غِطائِهِ خَلطٌ بَغيرِ عِلمٍ بينَ مَسألَتَيْنِ مُتَمايِزَتَيْنِ هُما استِعمالُ الإحالاتِ وصِحَّةُ التَّرميزِ (يُنظَر: ص194، لاحِقًا). وستُخضَعُ الدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ لِمَزيدٍ مِن النِّقاشِ في الفَصلِ التّاسِعِ.

على أنَّ اللُّغَةَ تنطَوي على ألغامٍ مُفَخَّخَةٍ أخطَرَ مِن التَّعبيراتِ المُلبِسَةِ الواضِحَةِ، و"مِن المُؤَكَّدِ"، على ما يَقولُ بَيْكن، "أنَّ كَلِماتٍ مِثلَ قَوْسِ التَّتارِيِّ[16] [92] تُصيبُ الفَهمَ في مَقتَلٍ وتُوقِعُ الحُكمَ في شَرَكِها وتُفسِدُهُ إلى حَدٍّ بَعيدٍ". وهذهِ الرُّموزُ المُعَقَّدَةُ المعروفةُ بِالقَضايا، التي 'تُمَوْضِعُ' المَراجِعَ (يُنظَرُ

(15) سَنَرَى في الفَصلِ القادِمِ أنَّ هذا الشَّكلَ الصّارِمَ لِلتَّعريفِ يَنفَعُ أساسًا في بِناءِ أنظِمَةِ الرُّموزِ الاستِدلاليَّةِ. أمّا أشكالُ التَّعريفِ التي هيَ أكثرُ حُرِّيَّةً والتي يَكفي فيها تَطابُقُ مَرجِعَي الرَّمزَيْنِ فلا غِنَى عنها في النِّقاشِ العامّ.

(16) كانَ الغَزوُ الأخيرُ والأفظَعُ لأوْرُبّا على يَدِ التَّتارِ أو المَغولِ الذينَ قَهَروا كُلّاً مِن الصِّينِ ورُوسيا في النِّصفِ الأوَّلِ مِن القَرنِ الثّالثَ عَشَرَ الميلاديّ. وأطلَقَ الأوْرُبِّيُّونَ عليهِم اسمَ التَّتارِ الفُرسانِ، إذ كانوا يَنظُرونَ إليهِم بِوَصفِهِم شَياطينَ مِن منطقَةِ تارتاروس الجَهَنَّمِيَّةِ. وقَد جاءَتْ عِبارَةُ (قَوْس التَّتارِيّ Tartar's Bow) في المَشهَدِ الثّاني مِن الفَصلِ الثّالثِ في مَسرحيَّةِ شيكسبير (حُلمُ لَيلَةِ صَيْف A Midsummer Night's Dream) مُضَمَّنَةً فيما يَأتي:
"إنِّي أمضِي، إنِّي أمضِي، انظُرْ إلَيَّ وأنا أمْضِي
أسرَعَ مِن السَّهْمِ المُنطَلِقِ مِن قَوْسِ التَّتارِيِّ". [المُترجِم]

القانونُ السّادِسُ الآتي ذِكْرُهُ) قد تُضَيِّقُ أو تُوَسِّعُ. فـ"هامْلِت كانَ مَجنونًا" رمزٌ مُضَيَّقٌ يَحتاجُ إلى أن يُوَسَّعَ قبلَ أن يُخضَعَ لِلبَحثِ. أمّا "هامْلِت كانَ مَجنونًا على المَسرَحِ" أو "في تأويلي لِلمَسرحيَّةِ" فقَد يَكونانِ رَمزَيْنِ مُوَسَّعَيْنِ لِما يُحالُ عليهِ. وتتأتّى أهمِّيَّةُ هذهِ المَسألةِ مِن كَونِها مَصدَرَ تمييزِ الصِّدْقِ مِن الكَذِبِ. وهيَ تَأخُذُ بِأيدينا إلى قانونِ الرَّمزيَّةِ الثّالِثِ، قانونِ التَّوسيعِ Expansion :-

3. - مَرْجِعُ الرَّمزِ المُضَيَّقِ هوَ مَرجِعُهُ مُوَسَّعًا.

يُطلَقُ أحيانًا على ما يَنشَأُ بسببِ مُخالَفَةِ هذا القانونِ اسمُ الفَلسَفَةِ، على ما سَيَظهَرُ شيئًا فشَيئًا.

ومِن النَّتائجِ الواضحةِ لِهذا القانونِ أنَّ الخطوةَ الأُولَى التي يَنبَغي اتِّخاذُها عندَ مُواجَهَةِ رَمزٍ مُتَنازَعٍ فيهِ هيَ تَوسيعُهُ، إن أمكَنَ، إلى شَكلِهِ الكامِلِ- إلى شَكلٍ يُشيرُ إلى الأحوالِ العَلاميَّةِ الكامنَةِ وراءَ الإحالةِ التي يَرمِزُ إلَيها. وأمثِلةُ هذا التَّوسيعِ تَحْصُلُ بِاستِمرارٍ في كلِّ نِقاشٍ عِلميّ. وقد سَنَحَتْ لَنا في الفَصلِ الأخيرِ فُرصَةُ تَوسيعِ 'مِنضَدَة' و'يَرَى'، وسنُحاوِلُ جهدَنا فيما بَعدُ أن نُوَسِّعَ 'المَعنَى' بِكُلِّ الاتِّجاهاتِ المُمكِنةِ. ومِمّا يُؤسَفُ عليهِ أَنَّهُ في ظِلِّ غِيابِ أيَّةِ نَظريَّةٍ نِظامِيَّةٍ لِلتَّأويلِ لَمّا يُنجَزْ حتّى الآن ترتيبٌ مُحدَّدٌ لِلمُستَوَياتِ التي نُحِيلُ عليها. بَل إنَّ فِكرةَ وُجودِ مُستَوًى إحالِيٍّ ما زالَتْ غامِضَةً. معَ أنّا حينَ نُحيلُ على 'ذلكَ الحيَوان'، ثُمَّ بَعدَ ذلكَ على 'ذلكَ الوَشَقِ'[17]، رُبَّما بَعدَ دراسةٍ إضافيَّةٍ لآثارِ أقدامِهِ، ستَكونُ إحالَتُنا على المَرجِعِ نَفسِهِ لكِنْ بِمُستَوَيَيْنِ تأويليَّيْنِ مُختلِفَيْنِ [93] على وَجهٍ مُحَدَّدٍ يتضمَّنُ عددَ تطبيقاتِ العمليّاتِ التَّأويليَّةِ ودرجةَ تَعقيدِ هذهِ العمليّاتِ. وفي نحوِ هذهِ الحالاتِ البسيطةِ نِسبيًّا يَسهُلُ وَضعُ الأمورِ في نِصابِها، وليسَ الأمرُ كذلكَ في حالاتٍ أكثرَ تعقيدًا- حينَ نتحدَّثُ عن الحُكومةِ، والسُّمعَةِ، والوَطَنيَّةِ،

---

(17) يَعظُمُ الانتِفاعُ بِآليَّةِ تَنظيمِ الجِنسِ والنَّوعِ لِهذا الغَرَضِ في مَراحِلَ مُعَيَّنَةٍ في عُلوم مُعَيَّنَةٍ كعِلمِ الحَيَوانِ، وعِلمِ طَبَقاتِ الأرضِ، وعِلمِ النَّباتِ، وما إلى ذلكَ. لكِنَّ هذهِ الآليَّةَ لا تكونُ بِتلكَ الفائدةِ في مَراحِلَ أُخرَى سابِقَةٍ أَو لاحِقَةٍ، أو خارِجَ تلكَ العُلومِ.

والإيمانِ، والجَمالِ، والعاطِفَةِ، وما إلى ذلكَ. وكلُّ ما اعتَدْنا أن نُناقِشَهُ مِن مَوضوعاتٍ يَشيعُ الاهتمامُ بها يُعاني عَدَمَ يَقينٍ يَصْعُبُ تَحديدُهُ بشأنِ مُستَوَى تأويلِ الإحالةِ التي نَرمِزُ إلَيها. وجَميعُ المَعْنِيِّينَ بالتَّعليمِ يَعلَمونَ ما الذي تَرْمِزُ إليهِ 'مُستَوَياتُ الإحالةِ.' وثَمَّةَ حاجَةٌ ماسَّةٌ إلى تَحليلٍ لِلمسألةِ أكثرَ اكتِمالاً. وقد سَبَقَتْ في الفَصلِ الرّابعِ مُحاوَلَةٌ في هذا الاتِّجاهِ. على أنَّ مِن المُؤْسِفِ أن يكونَ الأشخاصُ أنفُسُهُم الذينَ يُحتَمَلُ احتمالاً كبيرًا أن ينجَحوا بِفَضلِ قُدرتِهِم التَّحليليَّةِ مِن أشَدِّ النّاسِ كَراهَةً لِمُعالَجَةِ المُشكِلاتِ إلى حينِ صِياغَتِها صِياغَةً مُفَصَّلَةً.

وفي غُضونِ ذلكَ يَستَمِرُّ تَخليطُ الجهازِ الرَّمزيِّ عُمومًا؛ فبَدَلاً مِن التَّوسيعاتِ لا يُقَدِّمُ إيضاحُ الرُّموزِ المشكوكِ فيها عادَةً إلّا إفراطاتِ نُمُوٍّ رَمزِيَّةً، بِما يُؤَدِّي إلى تَخليطٍ أكبرَ مِن ذلكَ الذي كانَ يُمكِنُ أن تُؤَدِّيَ إليهِ التَّضييقاتُ التي تَحُلُّ مَحَلَّها. وفي الفِقرةِ التّاليةِ ما يَكفي مِن الأمثِلةِ لِذلكَ. ولِكُلٍّ مِن التَّضييقاتِ والتَّوسيعاتِ الزّائفةِ النتيجةُ نَفسُها- مَلءُ العالَمِ بِكِياناتٍ زائفَةٍ، وظَنُّ الآلِيّاتِ الرَّمزِيَّةِ مَراجِعَ. والعِلاجُ الدّائمُ الوَحيدُ يَكمُنُ في اكتِشافِ التَّوسيعِ المُناسِبِ، وذلكَ بِالبَحثِ في الحالِ العَلاميَّةِ التي تَقودُ إلى الإحالةِ التي قَد رُمِزَ إليها على نَحوٍ مَشكوكٍ فيهِ[18].

والحقُّ أنَّهُ يُمكِنُ أن يُدرَكَ بِسُهولةٍ أنَّهُ إلى حينِ تَحقُّقِ ذلكَ لَنْ تُجْدِيَ إثارةُ تَساؤُلاتٍ إضافيَّةٍ بشأنِ حقيقتِهِ أو عَلاقتِهِ بِالرُّموزِ الأُخرَى؛ ذلكَ بِأنَّ الرَّمزَ المُضيَّقَ لا يَجعَلُ 'مَوْضِعَ' مَرجِعِهِ واضِحًا، ومِن ثَمَّ لا يُمكِنُ بَحثُهُ. إنَّ تَمييزَ صادِقِ الرُّموزِ مِن كاذِبِها أمرٌ [94] لا يُمكِنُ أن يكونَ النِّقاشُ فيهِ مُثمِرًا بِاستِعمالِ ألفاظٍ عامَّةٍ، أي بِوَساطةِ تَضييقاتٍ أو اختِزالٍ لُغَويٍّ. فالصَّحيحُ أن يُوكَلَ الأمرُ في كلِّ قَضيَّةٍ إلى المُختَصِّ الذي يستطيعُ بِفَضلِ طُولِ إلفِهِ الأحوالَ العَلاميَّةَ الفِعليَّةَ المُتَضَمَّنَةَ أن يُقَرِّرَ في ضِمنِ مَجالِهِ الخاصِّ لِلإحالةِ أيُّ الرُّموزِ صادِقٌ وأيُّها كاذِبٌ. ولَم يَنشَأْ ما يُعرَفُ بِمُشكِلَةِ الصِّدْقِ إلّا بِسببِ نَحوِ هذا النِّقاشِ في الرُّموزِ

(18) يُعَبَّرُ عن ذلكَ بِكلماتٍ بسيطةٍ لكنَّها فَضفاضَةٌ، بِأنّا لا نَكونُ على يَقينٍ مِمّا يُقالُ إلّا حينَ نَعلَمُ لِمَ قِيلَ، وإنْ كانَ واجِبًا علينا ألّا نُقحِمَ الدَّوافِعَ في 'لِمَ.'

المُضَيَّقَةِ. فَبَدَلاً مِن مُعالَجَةِ كلِّ حالةٍ كِفايَةٍ بِحَسَبِ ما فيها مِن ميزاتٍ، يَرَى الأبِستِمولوجيُّونَ أنَّهم ما دامُوا قادِرِينَ على استِعمالِ كَلِمةٍ واحدَةٍ بِوَصفِها اختِزالاً عَلامِيًّا مُريحًا لِلإحالَةِ على جَميعِ الرُّموزِ الصَّادقةِ فلا بُدَّ أنَّ ثَمَّةَ ما هُوَ مُتاحٌ لِهُم لِلبَحثِ فيهِ بِصَرفِ النَّظَرِ عن القَضايا الصّادقةِ والكاذبةِ. ولا تَنشَأُ أيَّةُ مُشكلةٍ بسببِ أيَّةِ قَضِيَّةٍ صادقَةٍ حينَ تُمَيَّزُ بِوَصفِها كَذلكَ، وليسَ ضَروريًّا هُنا إثارَةُ مُشكِلةٍ زائفَةٍ كما أنَّهُ ليسَ ضَروريًّا افتِراضُ 'حُمْرَةٍ' عامَّةٍ بِسببِ أنَّ الأشياءَ الحُمْرَ كلُّ واحدٍ مِنها أحمَرُ. وتُمَيَّزُ الأصنافُ الآنَ على أنَّها تَخَيُّلاتٌ رَمزِيَّةٌ، ولَن يَكونَ المَناطِقَةُ الرَّمزِيُّونَ مَنطِقِيِّينَ إلّا حينَ يُقِرُّونَ بِأنَّ الكُلِّيّاتِ تُمَثِّلُ تَيسيرًا تَناظُرِيًّا. ومِن المُحَتَّمِ حينَئذٍ أن يُجَرَّدَ عالَمُ الوُجودِ الخالِصِ مِن قاطِنِيهِ السّابِقِينَ الذينَ كانَتْ نَظرِيَّةُ الكُلِّيّاتِ مُحاوَلَةً لِتَقديمِ تَفسيرٍ لَهُم. ويَنبغي أن يُلحَظَ أنَّ آلِيّاتِنا الرَّمزِيَّةَ (التَّشابُهَ، وما إليهِ) تَعظُمُ قِيمتُها ويَسهُلُ فَهمُها حينَ يَتَلاشَى هؤُلاءِ الأسلافُ المُحَنَّطُونَ.

وقد تُضافُ بعضُ الاعتِباراتِ مِن خِلالِ تَفسيرِ هذهِ التَّيسيراتِ الرَّمزيَّةِ. فتَكييفاتُ أَعضائنا الحِسِّيَّةِ، و'الأشياءُ' على ما شَرَعْنا نَعرِفُها مِن خِلالِ تأويلِ هذهِ العَلاماتِ، هيَ على الدَّوامِ مُرَكَّبٌ أو أجزاءٌ لِمُرَكَّبٍ. بَل إنَّ البُقعَةَ البالِغَةَ الصِّغَرِ التي يتسبَّبُ اضطِرابُ جِهازِ اللونِ في العَيْنِ في أن نَدعُوَها النَّجمةَ التي لا تَكادُ تُرَى، يُحيطُ بِها مَجالٌ مُظلِمٌ. وكلُّ ما في هذه العَلامَةِ مِمّا يُمكِنُ الحديثُ عنهُ هوَ هذا المُرَكَّبُ، ونَحنُ نستَطيعُ التَّحدُّثَ عنهُ بِأساليبَ مُختلِفَةٍ. فبِإمكانِنا أن نَقولَ: "البُقعَةُ في المَجالِ" أو "يُحيطُ بِها المَجالُ" أو "جُزءٌ مِن المَجالِ" أو "مُرتَبِطةٌ بِالمَجالِ [95] بِعَلاقةِ كَونِها مَحصورَةً"، أو نَستطيعُ أن نَقولَ: "هذهِ التي لَها خاصِّيَّةُ أن تَكونَ بُقعَةً مُرتَبِطةً بِذاكَ الذي لَهُ خاصِّيَّةُ أن يَكونَ مَجالاً بِعَلاقَةِ الانضِواءِ". هذهِ عِباراتٌ بَديلَةٌ، ومُتساويَةٌ في الصِّدْقِ. فَـ'بُقعَةٌ في مَجالٍ' اسمٌ، كما أنَّ 'بُقعَة' اسمٌ أيضًا. على أنّا نُفَضِّلُ في مُناسَباتٍ أُخرَى أن نَرمِزَ إلى الإحالاتِ في ظُروفٍ تَصِحُّ فيها إعادَةُ استِعمالِ الأسماءِ أَنفُسِها. ويَجْدُرُ بِنا أن نَقتَصِدَ في مادَّةِ رُموزِنا؛ فعَلَيْنا أن نُعيدَ استِعمالَها مِرارًا وتَكرارًا، على نَحوٍ نِظامِيٍّ، مُعَرِّضِينَ أنفُسَنا لِعاقِبَةِ الإخفاقِ في التَّواصُلِ. فإذا ما استَبْدَلْنا بِالاسم 'هذهِ البُقعَة' نُمُوًّا رَمزِيًّا أكثَرَ ثَراءً هُوَ 'هذهِ التي لَها خاصِّيَّةُ أن تَكونَ بُقعَةً'

فسيُغرِينا هذا بِأن نَفترِضَ أنَّ الـ'هذهِ' تَرْمِزُ إلى مَراجِعَ مُختلِفةٍ عندَ اختِلافِ المُناسَباتِ، أمّا 'خاصِّيَّةُ أن تكونَ بُقعَةً' فلا تَرْمِزُ إلّا إلى مَرجِعٍ واحِدٍ هوَ المَرجِعُ نَفسُهُ.

على هذا النَّحوِ تنشَأُ 'الصِّفاتُ' الكُلِّيَّةُ، وهيَ أوهامٌ تُسَبِّبُها القُوَّةُ الانكِسارِيَّةُ لِلوَسَطِ اللُّغَوِيِّ، ويَجِبُ ألّا تُعامَلَ هذهِ بِوَصفِها جُزءًا مِن أثاثِ الكَوْنِ، لكِنَّها مُفيدَةٌ بِوَصفِها مُكَمِّلاتٍ رَمزِيَّةً symbolic accessories تُمَكِّنُنا مِن الاقتِصادِ في مادَّتِنا الكَلامِيَّةِ. وتَنشَأُ 'العَلاقاتُ' الكُلِّيَّةُ على نَحوٍ مُشابِهٍ تَمامًا، وهيَ تَنطَوي على الإغراءِ نَفسِهِ. إذ يُمكِنُ أن تُعَدَّ تَيْسيراتٍ رَمزِيَّةً على النَّحوِ نَفسِهِ. أمّا دَعْوَيا 'المُشابَهَة' و'عَدَم المُشابَهَة' اللَّتانِ كَثيرًا مّا يُفتَرَضُ تَمَيُّزُهُما استِنادًا إلى حُجَجٍ رَمزِيَّةٍ خالِصَةٍ (يُنظَر: كِتابُ رَسِل مِن مُشكِلاتِ الفَلسَفَة *Some Problems of Philosophy*، ص150) فلا تَختَلِفانِ في شَيءٍ البَتَّةَ.

وليسَ مِن المَشروعِ في جَميعِ الحالاتِ، بَل في حالةِ المُشابَهَةِ هذهِ أيضًا، اختِلاقُ كِياناتٍ عَدَمِيَّةٍ مِن أجلِ تَعليلِ الاستِعمالِ النِّظامِيِّ لِلرُّموزِ. أمّا أن يَكونَ ثَمَّةَ دَليلٌ آخَرُ يَشهَدُ لَها غيرُ نابعٍ مِن ضَروراتٍ رَمزِيَّةٍ فَحَسْبُ[19]، فهذا [96] أمرٌ

(19) أي مُقتَضَياتٍ نَحوِيَّةٍ. وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ ما سنذكُرُهُ قد يكونُ مُحبِطًا، لا يَنبَغي أن نَنسَى أنَّهُ لِكَونِ انعِكاسِ بِنيَةِ العالَمِ بَعيدًا جِدًّا مِن النَّحوِ- بِنيَةِ النِّظامِ الرَّمزِيِّ- يَزدادُ احتِمالُ أن تكونَ أيَّةُ بِنيَةٍ مُفتَرَضَةٍ لِلعالَمِ انعِكاسًا لِلنَّحوِ المُستَعمَلِ. وهُناكَ كثيرٌ مِن الأنحاءِ المُمكِنَةِ التي تَختَلِفُ فيما بينَها اختِلافًا جَوهَرِيًّا. وتَطوُّراتُها المتعدِّدَةُ إن تَعكِسْ تَعكِسْ سِماتِ التَّجارِبِ المُبَكِّرَةِ لِلأقوامِ الذينَ حَدَثَتْ فيهِم، واهتِماماتِهِم الرَّئيسَةَ، وأنظِمَتَهُم الفَعّالَةَ، ورُبَّما بِنيَةَ أنظِمَتِهِم العَصَبِيَّةِ المركزيَّةِ. وعلى الرَّغمِ مِن صِحَّةِ ما يُذكَرُ مِن أنَّ النَّحوَ قد يَعكِسُ احتِياجاتِ قَومٍ مّا ووِجهَةَ نَظَرِهِم، وأنَّهُ بِسببِ تَشابُهِ هذهِ الاحتِياجاتِ قد تَكونُ ثَمَّةَ بِنيَةٌ مُشتَرَكَةٌ في كلِّ اللُّغاتِ البِدائيَّةِ والقَديمَةِ، لا يَستَتبِعُ ذلكَ (معَ إمكانِهِ بِلا شَكٍّ) أنَّ اللغةَ التامَّةَ الانسِجامِ التي تُلَبِّي احتِياجاتِ العِلمِ على أكملِ وَجهٍ تَحتَفِظُ بِأيِّ قَدرٍ مِن هذهِ البِنيَةِ، أو أنَّها بِنَفسِها تَجعَلُ بِنيَتَها مُناظِرَةً لِبِنيَةِ العالَمِ على نَحوٍ مُباشِرٍ. وافتِراضُ أنَّ الأمرَ يَجِبُ أن يكونَ كذلكَ يَعني الغَفلَةَ عن كَونِ العَلاقاتِ بينَ الأفكارِ والأشياءِ غيرَ مُباشِرَةٍ، عبرَ الإحالَةِ. وفي التَّذييلِ A المخَصَّصِ لِلنَّحوِ مَزيدُ نِقاشٍ لِهذهِ المسائلِ.

مُختَلِفٌ. والحَقُّ أنَّها راسِخَةٌ رُسوخَ 'مَلَكَةِ' المَعرِفةِ في عِلمِ النَّفسِ. إنَّ حُصولَ المُتَشابِهاتِ لا يَقسُرُنا على إدراكِ 'التَّشابُهِ'، وهو مِن الكُلِّيّاتِ، على نَحوٍ أعظَمَ مِمّا يُجبِرُنا حُصولُ المعرِفةِ على إدراكِ مَلَكَةِ المَعرِفةِ. إنَّ الشَّيءَ الوَحيدَ الذي يَفعَلُهُ هوَ قَسْرُنا على إدراكِ حُصولِ المُتَشابِهاتِ. ووُجودُ أشياءَ مُتشابِهَةٍ مَعلومةٌ طَبيعيَّةٌ. ولا مُسَوِّغَ لِجَعلِها، بِاستِغلالِ الاقتِصادِ في الرُّموزِ، قاعدةً لِلمَعرِفةِ الميتافيزيقيَّةِ- بُرهانًا على وُجودِ عالَمٍ آخَرَ مِن الوُجودِ الخالِصِ حيثُ 'تَكونُ' الكِياناتُ، لكِنْ بِلا وُجودٍ. ولا تَصِحُّ أيَّةُ حُجَّةٍ بِشَأنِ العالَمِ لا تَستَنِدُ إلّا إلى الطَّريقةِ التي يتصرَّفُ على وَفقِها نِظامُ الرُّموزِ[20]. ولا يُمكِنُ أن تُثمِرَ مِثلُ هذهِ

(20) طَريفٌ أن يُوازَنَ هذا البَحثُ المُضادُّ لِـ'الكُلِّيّات' بِوجهةِ نَظَرِ السَّيِّدِ رامسي F. P. Ramsey مِن كُلِّيَّةِ المَلِكِ في جامعةِ كيمبرِج (في دَوْرِيَّةِ *Mind*، أكتوبر، 1925، ص404-405)، إذ يَقولُ: "في قَولِنا: 'سُقراطُ حَكيمٌ': سُقراطُ هو المَوضوعُ subject [المُسنَدُ إليهِ، أو المُبتَدَأ. المُترجِم]، وحكيمٌ هوَ المَحمولُ predicate [المُسنَدُ، أو الخَبَرُ. المُترجِم]. فلَو عَكَسْنا القَضِيَّةَ فقُلْنا: 'الحِكمَةُ خَصيصَةٌ لِسُقراطَ' لأصبَحَتِ الحِكمةُ مَوضوعًا بَعدَ أن كانَتْ مَحمولاً. ومِن أوضَحِ الأُمورِ الفَلسَفيَّةِ عندي أنَّ كِلتا الجُملَتَيْنِ 'سُقراطُ حَكيمٌ' و'الحِكمَةُ خَصيصَةٌ لِسُقراطَ' تُؤَكِّدُ الحقيقةَ نَفسَها ... لا شَكَّ في أنَّهما لَيسَتا جُملَةً واحدَةً، لَكِنَّ لَهُما المَعنَى نَفسَهُ، كما يُمكِنُ أن يَكونَ لِجُملَتَيْنِ بِلُغَتَيْنِ مُختلِفَتَيْنِ المعنَى نَفسُهُ. أمّا اختِيارُ إحدَى الجُملتَيْنِ دونَ الأُخرَى فيَتبَعُ إمّا الأسلوبَ الأدبيَّ وإمّا وِجهةَ النَّظَرِ التي نُقارِبُ الحَقيقَةَ بِها ... ولا عَلاقَةَ لهُ بِالطَّبيعةِ المنطقيَّةِ لِسُقراطَ أو الحِكمَةِ، وإنَّما هوَ شَأنٌ نَحْوِيٌّ خالِصٌ".
ويَزعُمُ السَّيِّدُ رامسي أنَّ "الحُجَّةَ المذكورَةَ آنِفًا تَبعَثُ على الشَّكِّ في مُجمَلِ قاعدَةِ تَمييزِ الجُزئيِّ مِن الكُلِّيِّ"، و"أنَّ جَميعَ الفَلاسِفَةِ تَقريبًا، وبِضِمنِهِم السَّيِّد رَسِل، قد ضَلَّلَتْهُم اللُّغَةُ على نَحوٍ أبعَدَ مَدًى" مِن افتِراضِ أنَّ كلَّ القَضايا يَجِبُ أن تكونَ على صُورَةِ المَوضوعِ-المَحمول، و"أنَّ نَظريَّةَ الجُزئيّاتِ في جُملتِها مَرَدُّها إلى الخَطَإ في تَبَيُّنِ الصِّفَةِ المُمَيِّزَةِ الأساسيَّةِ لِلواقِعِ، التي هيَ لَيسَتْ سِوَى الصِّفَةِ المُمَيِّزَةِ لِلُّغةِ". معَ ذلكَ، كانَ قَد كتَبَ قبلَ ذلكَ بِنَحوِ ثَمانيةَ عَشَرَ شَهرًا في الدَّوْرِيَّةِ نَفسِها (*Mind*، يَنايِر، 1924، ص109)، بِوَصفِهِ مُؤمِنًا بِالكُلِّيّاتِ، عن الكِتابِ الحاضرِ أنَّ المُؤَلِّفَيْنِ "يَعجَزانِ عَن رُؤيَةِ وُجودِ المُشكِلاتِ المنطقيَّةِ، ويَقتَرِحانِ أن يُستَبدَلَ بِالفَلسَفَةِ 'عِلمُ الرَّمزِيَّةِ' وعِلمُ النَّفسِ". على أنَّ إحالةَ المُشكِلاتِ على النَّحويِّينَ لا يَستَوي والعَجْزَ عن رُؤيَةِ وُجودِها.

الحُجَجِ [97] مَعرِفةً إلّا ما يتعلَّقُ منها بِنِظامِ الرُّموزِ المَعْنِيّ. وكَثيرًا مّا تكونُ هذهِ المعرفةُ عظيمةَ القِيمَةِ. وجَميعُ المَناهِجِ التي تُمَيِّزُ الرُّموزَ الخاصَّةَ، أي الأسماءَ names، مِن المُكَمِّلاتِ الرَّمزيَّةِ مَناهِجُ مُهِمَّةٌ.

قد تَحدَّثْنا آنِفًا عن الانعِكاسِ والانكِسارِ عبرَ الوَسَطِ اللغويّ. وإذا ما رُوعِيَتْ هاتانِ الاستِعارَتانِ بتأنٍّ فلنَ تكونَا مَصدَرَ تضليلٍ. على أنَّ أفضلَ وَصفٍ لِلُّغَةِ، وإن ذُكِرَتْ كَثيرًا على أنَّها وَسيلةُ تَواصُلٍ، هو أنَّها آلَةٌ، وجَميعُ الآلاتِ ما هيَ إلّا تَوسيعاتٌ، أو تَهذيباتٌ لأعضائنا الحِسِّيَّةِ. فالمِقرابُ، والهاتِفُ، والمِجهَرُ، ومُكَبِّرُ الصَّوتِ، والمِقياسُ الكَلْفانيُّ، شأنُها شأنُ النَّظّارَةِ الأُحاديَّةِ الزُّجاجةِ أو العَيْنِ نَفسِها، قادِرَةٌ على تَمويهٍ، أي تَقديمٍ، أعضاءٍ مُلائمِينَ جُدُدٍ إلى سِياقاتِ عَلاماتِنا. ومِثلَما تُوَسِّعُ آلاتُ الاستِقبالِ أعضاءَنا تُوَسِّعُ آلاتُ المُعالَجَةِ اليَدَوِيَّةِ البارِعَةِ مَجالَ الفَعّاليّاتِ الحَرَكيَّةِ. فإذا لم نَستَطِعْ أن نُشيرَ فِعليًّا إلى الدَّبَبَةِ التي قتَلْناها أخبَرْنا أصدِقاءَنا عنها أو رَسَمْناها، فَإن أُتيحَتْ لَنا آلَةٌ أفضَلُ قَليلاً مِن اللغةِ قَدَّمْنا صُورَةً فوتوغرافيَّةً لَها. والقِياسُ نَفسُهُ يَصدُقُ على الاستِعمالاتِ الانفِعالِيَّةِ لِلُّغَةِ: فالكَلِماتُ يُمكِنُ استِعمالُها بِوَصفِها هرَاوَى ودَبابيسَ. غيرَ أنَّهُ يَشيعُ في التَّصويرِ الفوتوغرافيِّ أن يُخطِئَ الهُواةُ في تَمييزِ نَتائجِ عَمليّاتِ المُعالَجَةِ مِن سِماتِ الأشياءِ المُصَوَّرَةِ. واستَغَلَّ الخُبَراءُ بَعضَ هذهِ النَّتائجِ لأغراضٍ أهمُّها اختِبارُ الرّاحِلِ السِّير آرثَر كونان دويل Sir Arthur Conan Doyle[21] ومَن يَرَى رَأيَهُ[22]. فَكذلِكَ اللغةُ

(21) آرثَر كونان دويل (1859–1930م). أديبٌ، وطبيبٌ بريطانيٌّ. مُبتَدِعُ شخصيَّةِ شرلوك هولمز الخياليَّةِ، التي عاشَ معها في حالةِ صِراعٍ؛ إذ اعتَقَدَ أنَّها حازَتْ مِن الشُّهرةِ أكثرَ مِمّا حازَ هوَ نفسُهُ. وقد كانَ روحانيًّا يُؤمِنُ بأنَّ الأشباحَ والأرواحَ يُمكِنُ الاتِّصالُ بها باستعمالِ وَسيطٍ. ومِن أجلِ إقناعِ الآخَرينَ بهذهِ الفكرةِ اختارَ أن يَبحثَ شخصيًّا في إنتاجِ صُوَرِ الأشباحِ مِن الوُسَطاءِ الذينَ كانوا مَهَرةً في توليدِ هذهِ الظاهرةِ. وقد نُشِرَت اكتِشافاتُهُ بِهذا الشأنِ سنةَ 1923 في كتابٍ عنوانُهُ (الحُجَّةُ المُؤيِّدَةُ لِتَصويرِ الأرواحِ). ونشَرَ باترِك ووَيتلي سمِث كتابًا أسمَاهُ (الحُجَّةُ المُضادَّةُ لِتَصويرِ الأرواحِ). [المُترجِم]

(22) Cf. *The Case against Spirit Photographs*, by W. Whately Smith and C. V. Patrick, pp. 33-36. Cf., now (1946) *Mind*, July, 1945, p.225.

مَملوءَةٌ بِعَناصِرَ لا وَظيفَةَ تَمثيلِيَّةً أو رَمزِيَّةً لَها، مَرَدُّها إلى مُعالَجَةِ اللغةِ فَحَسْبُ، يُسِيءُ كذلكَ الميتافيزيقيُّونَ ومَن يَرَى رَأيَهُم تأويلَها أو استِغلالَها لأغراضٍ أهمُّها اختِيارُ بَعضِهِم بَعضًا- ويَصْدُقُ ذلكَ على عامَّةِ النّاسِ المُستَعِدِّينَ لِلإصغاءِ إليهِم.

وتُشَكِّلُ الكِياناتُ الخياليَّةُ التي تُقَدِّمُها اللغةُ على هذا النَّحوِ [98] ضَرْبًا خاصًّا مِمّا يُدْعَى تَخيُّلاتٍ fictions. لكِنَّ هذا المُصطَلَحَ غامِضٌ جِدًّا على ما يُظهِرُهُ استِعمالُ فايهِنغَر Vaihinger[23] لَهُ، وهذهِ التَّخيُّلاتُ المَزعومَةُ لا يُمكِنُ تَمييزُها كَثيرًا مِن الفَرضِيّاتِ التي هيَ لَيسَتْ سِوَى إحالاتٍ غيرِ مُثْبَتَةٍ. وبعضُ المُجَرَّداتِ، كَـ'الرَّجُلِ الاقتِصادِيِّ economic man'[24]، لَها هذهِ الطَّبيعةُ، معَ أنَّهُ لا أحَدَ يُؤْمِنُ بها لِمَنهجيَّتِها الخالِصَةِ، ومِن جِهةٍ أُخرَى قد يُوقَفُ يومًا ما على مَراجِعَ لِلكثيرِ مِن التَّمَثُّلاتِ الذِّهنيَّةِ والمَخلوقاتِ الخياليَّةِ كَدون جوان Don Juan[25] وإوبَرمينش

(23) هانز فايهِنغَر (1852-1933م). فيلسوفٌ ألمانيٌّ، وصاحِبُ نظرِيَّةِ (كأنَّ as if). كانَ جَمَّ النشاطِ، لكنَّ بصرَهُ الكَليلَ أقعَدَهُ عن همَّتِهِ وأجبَرَهُ على اعتِزالِ التدريسِ الجامعيِّ. وجاءَتْ فلسفتُهُ وليدَةَ ظروفِهِ، وأطلَقَ عليها اسمَ التَّخيُّلِيَّةِ (أو الاختِلاقِيَّةِ) fictionalism، وشرَحَها في كتابِهِ الرَّئيسِ (فلسفةُ كأنَّ) سنةَ 1911 الذي ترجَمَهُ أوغدِن إلى الإنجليزيَّةِ ونُشِرَ سنةَ 1924. وخُلاصةُ فلسفتِهِ هذهِ أنَّ الواقِعَ يَقْصُرُ عن الوَفاءِ بِطموحِ الإنسانِ، فمِن ثَمَّ كانَتْ حاجتُهُ الدائمةُ إلى اختِلاقِ عالَمٍ يَستَكمِلُ بِهِ هذا الواقِعَ. وهوَ يَعرِفُ أنَّ تَخيُّلاتِهِ لا أساسَ لها مِن هذا الواقِعِ، لكِنَّهُ يتمسَّكُ بها لأنَّها مُفيدةٌ عمَلِيًّا. [المُترجِم]

(24) الرَّجُلُ الاقتِصادِيُّ: مَفهومٌ خَياليٌّ تَنطَوي عليهِ بعضُ النظريّاتِ الاقتِصاديَّةِ التي تَنظُرُ إلى الإنسانِ بِوَصفِهِ عَقلانِيًّا تَمامًا ومُهتَمًّا بِنَفسِهِ على نَحوٍ ضَيِّقٍ، ولديهِ القُدرةُ على إنجازِ الأحكامِ بِشأنِ غاياتِهِ المُحدَّدَةِ ذاتِيًّا. إذ يُحاوِلُ الرَّجُلُ الاقتِصادِيُّ استِعمالَ هذهِ التَّقديراتِ العَقلانيَّةِ مِن أجلِ تَعظيمِ انتِفاعِهِ بِوَصفِهِ مُستَهلِكًا، ورِبْحِهِ الاقتِصادِيِّ بِوَصفِهِ مُنتِجًا. ويَقِفُ هذا المفهومُ بِالضِّدِّ مِن المَفهومِ الذي يُقَرِّرُ أنَّ الإنسانَ تَدفَعُهُ ابتِداءً رَغبَتُهُ في التَّعاوُنِ وفي تَحسينِ بيئتِهِ. وأوَّلُ استِعمالٍ لِمُصطلَحِ (الرَّجُلِ الاقتِصادِيِّ) ظَهَرَ في أواخِرِ القرنِ التاسِعَ عَشَرَ على يَدِ نُقّادِ ما كَتَبَهُ جون ستيوَرت مِل في الاقتِصادِ السِّياسيِّ. [المُترجِم]

(25) دون جوان: شخصيَّةٌ أُسطوريَّةٌ من الأدَبِ الشَّعبيِّ الإسبانيِّ. ذاعَ صيتُهُ في أورُبّا في القرنِ السابِعَ عشَرَ قبلَ أن تنتقِلَ شهرتُهُ إلى العالَمِ أجمَعَ. تُنسَبُ صِناعةُ هذهِ الشخصيَّةِ إلى الكاتِبِ والشاعِرِ الباروكيِّ تيرسو دي مولينا، وبالتَّحديدِ في روايتِهِ (ماجِنُ إشبيلية). [المُترجِم]

Übermensch[26]. ولا يَظهَرُ هامْلِت Hamlet[27] وأُورتير *Urtier*[28] عندَ غوتة Goethe[29] بِمَظهَرِ الفَرضِيّاتِ؛ ذلكَ بِأنَّهُما قد أُرِّخَ لَهُما ووُضِعا حيثُ لا يَملِكُ التَّأريخُ لَهُما مَوْضِعًا. إنَّهُما خَيالِيّانِ بِمَعنَى أنَّ فِكرَةَ شيكسبير أو غوتة ليسَ لَها مَرجِعٌ مُفرَدٌ. ولا شَكَّ في أنَّ في إمكانِنا الإحالَةَ على هذهِ الأفكارِ، على أنّا أكثَرُ اعتيادًا لِمُحاوَلَةِ إعادَةِ إنتاجِها فَحَسْبُ. لكِن يَجِبُ أن تُمَيَّزَ جَميعُ التَّخيُّلاتِ التي مِن هذا النَّوعِ تَمييزًا واضِحًا مِن تِلكَ النّاجِمَةِ عَن مُعالَجاتِ اللُّغةِ نَفسِها. ولم يُؤَكِّدْ فايهِنغَر هذا التَّمييزَ تأكيدًا كافِيًا، وقد يَعودُ ذلكَ إلى النَّقصِ في تَحليلِ عَلاقاتِ اللغةِ والفِكرِ- الذي يُظهِرُهُ استِعمالُهُ لَفظَيْ 'مَفهوم Begriff' و'يَفهَم begreifen' عندَ مُناقَشَتِهِ المُجَرَّداتِ والمَعرِفَةَ[30]. وتَحدُثُ التَّخيُّلاتُ اللغويَّةُ بِإحدَى طَريقَتَيْنِ؛ فإمّا أن يكونَ ذلكَ مِن خِلالِ سُوءِ فَهمٍ لِوظيفةِ المُكَمِّلاتِ الرَّمزيَّةِ نَحوِ 'الحُرِّيَّة' و'الحُمْرَة'، حتَّى إنَّ مَن يَستَعمِلُهُما يَفتَرِضُ بِإنشائهِ إحالَةَ

---

(26) الصِّيغَةُ الألمانيَّةُ لِلسوبرمان أو الرَّجُلِ الخارِقِ. وهوَ مَفهومٌ في فلسفةِ فريدرِش نيتشة الذي جعلَ مِنهُ هَدَفًا لِلإنسانيَّةِ تَسعَى إليهِ في كتابِهِ الأشهَرِ (هكذا تكلَّمَ زُرادِشت) الذي نشَرَهُ سنةَ 1883. وليسَ ثَمَّةَ إجماعٌ على المعنَى المُحدَّدِ لِلسوبرمان، ولا على أهمِّيَّةِ هذا المَفهومِ في فِكرِ نيتشة. [المُترجِم]

(27) الأميرُ هامْلِت: هوَ الشَّخصيَّةُ الرَّئيسَةُ في مَسرحيَّةِ (مأساةُ هامْلِت) التي ألَّفَها شيكسبير. كانَ أميرَ الدنمارك، وكانَ يُكافِحُ طَوالَ المسرحيَّةِ مِن أجلِ معرفةِ كيفيَّةِ الانتِقامِ لِمَقتلِ والدِهِ. وتنتهي المسرحيَّةُ بمقتلِهِ. [المُترجِم]

(28) أورتير: مُصطلَحٌ استعملَهُ الأديبُ الألمانيُّ الكبيرُ غوتة، يُمكِنُ أن يُترجَمَ بِـ(الحيَوانِ الأصليّ)، لكِنَّ هذهِ الترجمةَ لا تُعَبِّرُ عن مَقصودِ غوتة؛ إذ إنَّ الأورتير عندَهُ يَعني في التَّحليلِ النِّهائيِّ 'فِكرةَ الحيوان'، فهوَ ليسَ السَّلَفَ المُشترَكَ لِلأشكالِ الموجودَةِ، بل هو فكرةُ النمطِ المشتركِ الذي يكونُ أساسَ جميعِ الأشكالِ، أي أنَّهُ صورةٌ عامَّةٌ تكونُ أشكالُ جميعِ الحيواناتِ مُتضمَّنَةً فيها بِالقُوَّةِ. [المُترجِم]

(29) يوهان فولفغانغ غوتة (1749-1832م). أحدُ أشهَرِ أدباءِ ألمانيا المتميِّزينَ. تركَ إرثًا أدبيًّا وثقافيًّا ضخمًا للمكتبةِ الألمانيَّةِ والعالَميَّةِ، وكانَ لهُ أثرٌ بالغٌ في الحياةِ الشِّعريَّةِ والأدبيَّةِ والفلسفيَّةِ. تنوَّعَ أدبُهُ بينَ الرِّوايةِ والمسرحيَّةِ والشِّعرِ، واهتَمَّ بالثَّقافةِ والأدبِ الشرقيَّيْنِ. من أشهَرِ آثارِهِ: آلامُ فيرتر، وفاوست. [المُترجِم]

(30) *Philosophie des Als Ob* (1920), pp. 51, 393.

على الأفعالِ الحُرَّةِ أو الأشياءِ الحُمرِ أنَّهُ يُحِيلُ على شَيءٍ مّا خارِجٍ عن نِطاقِ الزَّمانِ والمَكانِ؛ وإمّا أن يَكونَ ذلكَ مِن خِلالِ إضفاءِ صِفَةٍ مادِّيَّةٍ على الأَدَواتِ البِنائِيَّةِ الرّابِطَةِ نحوِ 'أو'، و'إن'، و'لَيسَ'، وما إلَيْها مِمّا لا يَستَهوِي إلّا المَناطِقَةَ.

إنَّ استِعمالَ لَفْظِ 'مَفْهُوم concept' مُضَلِّلٌ في التَّحليلِ اللُّغويِّ بِخاصَّةٍ. فثَمَّةَ مَجموعةٌ مِن الكَلِماتِ نحو 'التَّصَوُّر conception'، و'الإدراك الحِسِّيّ perception'، و'الإثارَة excitation'، كانَتْ مَصدَرَ جَدَلٍ دائمٍ مُنذُ أن مُيِّزَ أوَّلَ مَرَّةٍ بِوُضوحٍ ما يَحدُثُ في داخِلِ الجِسمِ مِمّا يَحدُثُ في خارِجِهِ. وقد شاعَت تَسمِيَةُ عَمَليّاتِ الإدراكِ الحِسِّيِّ التي تَحدُثُ عندَ المُؤَوِّلِ بِفِعلِ وَقْعِ المَوضوعاتِ الخارجيَّةِ عليهِ [99] 'إدراكاتٍ حِسِّيَّةً'، وبِهذا الاسمِ أيضًا سُمِّيَت تلكَ المَوضوعاتُ أنفُسُها بِفِعلِ خَلْطٍ واضِحٍ سنُناقِشُهُ في الفَصلِ القادِمِ بِوَصفِهِ 'المُغالَطَةَ الأُوتراكوسِتِيَّةَ utraquistic fallacy'. وعلى نَحوٍ مُشابِهٍ أُطلِقَ اسمُ 'تَصَوُّراتٍ conceptions' على عمليّاتٍ أُخرَى، على إحالاتٍ أكثرَ تَجريدًا أو مُسَبَّبَةٍ على نَحوٍ أقَلَّ وُضوحًا. لكِنْ في الوقتِ الذي لا يتضَمَّنُ فيهِ المعنَى المُزدَوِجُ لِتَعبيرِ 'الإدراك الحِسِّيّ' إلّا خَلطًا بينَ مَرجِعَيْنِ مُمكِنَيْنِ أو مَجموعتَيْنِ مِن المَراجِعِ، إحداهُما في داخِلِ الرَّأسِ والأُخرَى في خارِجِهِ، كانَ جَعْلُ لَفْظِ 'مَفهوم concept' لَفظًا مُزدَوِجًا باعِثًا خاصًّا على خَلقِ كِياناتٍ زائفَةٍ. وكَثيرًا مّا افتُرِضَ أنَّه ما دامَتْ مَراجِعُ هذهِ العمليّاتِ التي هيَ أكثرُ تَجريدًا تبدو بَسيطةً فهيَ مُختلِفَةٌ تَمامًا عن مَراجِعِ العَمليّاتِ الذِّهنيَّةِ التي تَحدُثُ حينَ تكونُ المَراجِعُ 'مُعْطاةً' في التَّصوُّرِ. فمِن ثَمَّ تَصَوَّرَ الفَلاسِفَةُ عالَمًا مُتَعالِيًا قوامُهُ 'المَفاهيمُ'، في حينِ أنَّ عُلَماءَ النَّفسِ الذينَ فضَّلوا أن يُسَمُّوا أنفُسَهُم 'تَصَوُّرِيِّينَ conceptualists' بِإدراكِهِم أنَّ مَجالَ المَفاهيمِ هو العَقلُ- بِإزاءِ الأُطروحَةِ المُتَعالِيَةِ ('الواقِعِيَّةِ' المَدرَسِيَّةِ) أو غيرِ السّايكولوجِيَّةِ (الاسميَّةِ)- كثيرًا مّا قادَتْهُم منظومَتُهُم المُصطلحيَّةُ إلى تَبَنِّي وِجهةِ نَظَرٍ غيرِ دَقيقَةٍ بِشأنِ الأحوالِ الرَّمزِيَّةِ.

لا شَكَّ في أنَّ 'المَفاهيمَ' أو الإحالاتِ المُجَرَّدَةَ أنفُسَها يُمكِنُ أن يُتَحَدَّثَ عنها في الدِّراساتِ المُتعلِّقَةِ بِالمَنهَجِ أو بِالعَمليّاتِ الذِّهنيَّةِ، وفي هذهِ الحالةِ

الخاصَّةِ يُمكِنُ القَولُ إنَّ الكَلِماتِ تَرْمِزُ إلى الأفكارِ على نَحوٍ مُلائم. غيرَ أنَّهُ لا يَصِحُّ القَولُ إنّا بِذلكَ نُحِيلُ في التَّواصُلِ الاعتِياديِّ على آليَّتِنا الذِّهنيَّةِ أكثرَ مِن إحالَتِنا على المَراجِعِ التي نتحدَّثُ 'عنها' بِوَساطَةِ تلكَ الآليَّةِ. فالكَلِماتُ، على ما رأيْنا، تَرمِزُ (يُنظر: ص70) إلى الأفكارِ على الدَّوام، والتَّصَوُّرِيُّ مَيّالٌ إلى أن يُلمِحَ إلى إمكانِ تَعميمِ الحالةِ الخاصَّةِ جِدًّا المتعلِّقةِ بالبِنيَةِ أو المَفهومِ الذي جَرَى تَخَيُّلُهُ لِلوُصولِ إلى إحالةٍ أو تَصنيفٍ عِلميٍّ قَد جُرِّبَ، ثُمَّ اختُبِرَ هو نَفسُهُ بَعْدَ ذلكَ. ثُمَّ يُقَرِّرُ بَعدَ ذلكَ أنَّ الكَلمةَ لَيسَتْ مُجَرَّدَ كلمةٍ على ما يَرَى الاسمِيُّونَ، بَل إنَّها تُمَثِّلُ رَمزًا تَصَوُّرِيًّا. وقد نَحكُمُ عليهِ بِأنَّهُ مُحِقٌّ في مَذْهَبِهِ هذا إذا ما نَظَرْنا إليهِ بإزاءِ مَن يُؤمِنُ [100] بِالكِيانِ المُفرَدِ القابِلِ لِلاكتِشافِ الذي تَرْمِزُ إليهِ الكَلِماتُ التي تَرمِزُ إلى الإحالاتِ العامَّةِ، على أنَّهُ رُبَّما يُسيءُ فَهمَ مُفرَداتِهِ أولئكَ الذينَ لا يُقِرُّونَ بِأنَّهُم لا يَتَحدَّثونَ 'عَنْ' شَيءٍ البَتَّةَ حينَ يبدو أنَّهُم يُحِيلُونَ عَلى كِياناتٍ غيرِ مُسَوَّغَةٍ[31].

ويُمكِنُ أن يَكونَ استِعمالُ هذهِ المُكَمِّلاتِ اللُّغَويَّةِ غيرَ خَطِرٍ، على أن تُدرَكَ ماهِيَّتُها. إنَّها تَيسيراتٌ في الوَصفِ، لا ضَروراتٌ في بِنيَةِ الأشياءِ. يتَّضِحُ هذا في أنَّ ثَمَّةَ أبدالاً مُتنوِّعةً مُتاحَةً لَنا لِوَصفِ أيِّ مَرجِعٍ؛ فبِإمكانِنا استِعمالُ نَحوٍ قوامُهُ 'الأسماءُ substantives' و'النُّعوتُ attributes'[32] (nouns and adjectives)، أو

(31) فقد افتُرِضَ أنَّ كرُوكشانك Crookshank، على سبيلِ المِثالِ، بِتقريرِهِ أنَّ النَّزلَةَ الوافِدَةَ "حالةٌ كُلِّيَّةٌ لا غير" في كِتابِهِ النَّزلَةُ الوافِدَةُ *Influenza* (1922)، ص3، مُنكِرٌ لِحُدوثِ المَرَضِ، على الرَّغمِ مِن أنَّهُ في الخاتِمَةِ يَجعَلُ مَضامِينَ مُهاجَمَتِهِ 'واقِعِيِّ' الطِّبِّ واضِحَةً جِدًّا. ويُنظَرُ أيضًا المُلحَقُ الثّاني.
ويَبلُغُ حُمْقُ هذهِ المنظومةِ المُصطَلَحيَّةِ، في غَيرِ مُقاوَمَةِ أكثَرِ فَلسَفاتِ التَّعالي فَجاجَةً، مَبلَغَ تلكَ التي أجبَرَتْ سابير (في كِتابِهِ اللُّغَة *Language*، ص106. ويُنظَرُ أيضًا الفَصلُ الأَوَّلُ ص66) على أن يتكلَّمَ على المَفاهيمِ الملموسةِ، والاشتِقاقيَّةِ، والعَلاقِيَّةِ الملموسَةِ، والعَلاقِيَّةِ الصّادِقَةِ، في حينِ أنَّ وُجودَ أطروحَةٍ تَقُومُ على الأسماءِ، والمُكَمِّلاتِ اللُّغَويَّةِ، والمَراجِعِ، مِن شأنِهِ أن يُمَكِّنَ من المُحافَظَةِ على التَّفريقِ الأساسيِّ بينَ الأفكارِ، والكَلِماتِ، والأشياءِ.

(32) Johnson, *Logic*, Part I, p. 100.

نَحوِ قوامُهُ 'الأحداثُ' و'الأشياءُ'(33)، أو نَحوِ قوامُهُ 'المَكانُ' و'المَرجِعُ'(34)، تَبعًا لِتَفضيلِنا التَّوَجُّهَ الأرسطِيَّ، أو تَوَجُّهَ الفيزياءِ الحديثَةِ، أو العَرْضَ التَّصويرِيَّ لِوجهاتِ النَّظَرِ المُدافَعِ عنها هُنا. ومِمّا لا يُجدِي شَيئًا إلّا إضاعَةَ وَقتِنا ورُبَّما وَقتِ الآخَرينَ مُناقَشَةُ مسائلَ كهذهِ بِرُوحيَّةٍ غيرِ التي نَفْصِلُ بها بينَ مِيزاتِ مُختَلِفِ العَوامِلِ الكيميائيَّةِ التي تُتلِفُ النباتاتِ وتَمنَعُ نُمُوَّها weed killers.

وتَنشَأُ، على نَحوِ مُشابِهٍ، مُشكِلَةٌ لا حَلَّ لَها ظاهِرًا مِن سُؤالِنا: ما الصِّدْقُ؟ على أنّا وَقَفْنا في الفَصلِ الثّالثِ على حَلٍّ لِهذه المُشكِلةِ بِوَصفِها جُزءًا مِن نَظريَّةِ التَّأويلِ. [101] ومِن المُلائمِ هُنا أن نُعَرِّفَ الرَّمزَ الصّادِقَ بِتَمَيُّزِهِ مِن الإحالةِ الصّادِقَةِ. والتَّعريفُ هوَ الآتي: الرَّمزُ الصّادِقُ = الرَّمز الذي تكونُ دَلالتُهُ على إحالةٍ كافيَةٍ صَحيحَةً(35). وعادَةً ما يكونُ مَجموعَةَ كَلماتٍ في صُورَةِ قَضِيَّةٍ أو جُملةٍ. إنَّهُ يَكونُ ذا دَلالةٍ صَحيحَةٍ على إحالةٍ كافيَةٍ حينَ يَتسبَّبُ في حُدوثِ إحالةٍ مُشابِهَةٍ لَدَى مُؤَوِّلٍ مُناسِبٍ. ويكونُ كاذِبًا حينَ يُسَجِّلُ إحالَةً غيرَ كافيَةٍ.

وكَثيرًا ما يكونُ تمييزُ القَضايا الكاذِبَةِ مِن غيرِ الصَّحيحَةِ ذا أهمِّيَّةٍ كبيرَةٍ.

---

(33) Whitehead, *The Concept of Nature*, pp. 77, 169.

(34) ص197، فما بَعدَها. ومِن الطَّريفِ أن يُلحَظَ في هذا الصَّدَدِ أنَّ المدارسَ الفَلسفيَّةَ الهِنديَّةَ، كالفايسيسِيكا VaiÇesika، طَوَّرَتْ في مُدَدٍ مُختلِفَةٍ آليَّةً مَنطقيَّةً لا تُشبِهُ مُعظَمَ ما أتَتْ بِهِ مَدارِسُ النَّحوِ الغَربيَّةُ كما لا تُشبِهُ إحداها الأُخرَى. فالبراساستابادا PraÇastapada، على سبيلِ المِثالِ، اقتَرَحَتْ نظريَّةً لِلخُصوصيَّةِ بِوَصفِها واقِعًا مُستَقِلًّا يَستَقِرُّ في المَوادِّ السَّرمَديَّةِ ويُمَيِّزُ بَعضَها مِن بَعضٍ. ويَسهُلُ الوُقوفُ على تَقسيماتٍ أُخرَى لا تَكادُ تُثمِرُ شَيئًا بِلُغَةٍ مَفهومَةٍ.

(35) مِن المُفيدِ أن يَكونَ في الإنجليزيَّةِ لَفظٌ كَلَفظِ 'الكِفايَة adequacy' الذي يُمَيِّزُ بِهِ الوَجهُ الذي قد يكونُ بِهِ الرَّمزُ صادِقًا مِن ذلكَ الذي تَكونُ بِهِ الإحالةُ صادِقةً. فالالتِباساتُ واضِحةٌ في جُمَلٍ مِن قَبيلِ "ما قالَهُ كانَ كاذِبًا"؛ إذ لا يتبيَّنُ لَنا الكاذِبُ مِن الاثنَيْنِ: ألرَّمزُ أم الإحالةُ؟ أمّا الحالاتُ التي تَكونُ أدَقَّ والتي تَظهَرُ فيها كلمةُ 'قَضِيَّة' عَرَضًا فكَثيرًا ما تَنشَأُ فيها تَخليطاتٌ لا يُمكِنُ التَّخلُّصُ منها مِن غيرِ هذا التَّمييزِ. ولِلَفْظِ 'الكِفايَة' الفَضلُ في طَرحِ السُّؤالِ الصَّعبِ: أيَكونُ لِلإحالةِ مَدًى؟ وإن يَكُن، فعَلَى أيِّ وَجهٍ؟

فالرَّمزُ غيرُ الصَّحيحِ هوَ الذي يَظهَرُ في عالَمِ خِطابٍ مُعْطًى[36] فَيُنشِئُ عندَ مُؤَوِّلٍ مُناسِبٍ إحالةً مُختلِفةً عن الإحالةِ التي يُرمَزُ إليها عندَ المُتكلِّمِ. فإذا ما قُلْنا: "تُوُفِّيَ تشارلز الأوَّلُ في فِراشِهِ وهوَ يُعَلِّقُ تَعليقاتٍ ذكيَّةً"، فاحتِمالُ أن يَكونَ رَمزُنا غيرَ صَحيحٍ أكبرُ مِن احتِمالِ أن تَكونَ إحالتُنا كاذِبةً؛ إذ ليسَ مِن التَّهَوُّرِ أن يُقالَ إنَّ المَرجِعَ هوَ مَوْتُ تشارلز الثّاني في فِراشِهِ in *his* bed. غيرَ أنَّهُ لا مُسَوِّغَ لِمِثلِ هذا التَّأويلِ المُتَهَوِّرِ في كثيرٍ مِن الحالاتِ، وستزدادُ حينَئذٍ صُعوبَةُ تَحديدِ: أيُّها الذي يَحدُثُ. وفي مُقابِلِ ذلكَ حينَ نَقولُ، على سبيلِ المِثالِ: "تُحاوِلُ الشَّمسُ أن تَخرُجَ"، أو "يَنهَضُ الجَبَلُ"، فمِن الواضِحِ أنّا رُبَّما لا نَكونُ قد كَوَّنّا إحالتَيْنِ مُختلِفتَيْنِ عمّا كُنّا سنُقَدِّمُهُ وَصفًا عِلمِيًّا لِلحالَةِ، لكِنْ قد يَكونُ قَصدُنا أن تُؤخَذَ هذهِ التَّقريراتُ أخذًا 'حَرفِيًّا'. وأخذُ تَقريرٍ مّا أخذًا حَرفيًّا مَعناهُ تأويلُ رُموزِنا بِوَصفِها رُموزًا أوَّلِيَّةً، أي بِوَصفِها أسماءً مُستعمَلَةً مع إحالةٍ يُثْبِتُها عالَمُ خِطابٍ مُعْطًى. وإذا لَم يَكُنْ ثَمَّةَ رَمزٌ في مُتَناوَلِ اليَدِ لِسَبَبٍ مّا، كفَقْرِ اللُّغةِ، فبإمكانِنا أن نَختارَ رَمزًا يُشْبِهُ مَرجِعُهُ [102] مَرجِعَنا ثُمَّ نَنْقُلَ هذا الرَّمزَ. فإذا عَجَزَ المُتكلِّمُ عَن رُؤيَةِ أنَّ مِثلَ هذهِ الرُّموزِ استِعاريَّةٌ أو تَقريبيَّةٌ فَحَسبُ، أي أخَذَها أخذًا حَرفيًّا، فحينَئذٍ يَنشَأُ الكَذِبُ، أي التَّرميزُ الصَّحيحُ لإحالةٍ كاذِبةٍ يُمكِنُ أن تُضَلِّلَ المُؤَوِّلَ. مِن جِهَةٍ أُخرَى، إذا أنشَأَ المُتكلِّمُ إحالةً صادِقةً، لكِنَّهُ استَعمَلَ رُموزًا تَجعَلُ مُؤَوِّلاً مُناسِبًا، يُؤَوِّلُ على نَحوٍ صَحيحٍ، يُنشِئُ إحالةً كاذِبةً، فالرَّمزُ حينَئذٍ غيرُ صَحيحٍ.

ومِن الواضِحِ أنَّ عدَمَ الصِّحَّةِ قد يَكونُ على دَرَجاتٍ؛ ذلكَ بأنّي إذا قُلْتُ حينَ يَكونُ لَدَيَّ غليونُ تَدخينٍ مُنطَفِئٌ: "غليوني مُشتَعِلٌ"، كانَ هذا الرَّمزُ "غليوني مُشتَعِلٌ" صَحيحًا بِما يَكفي لِتمييزِ مَرجِعِهِ لا لِلحُلولِ مَحلَّهُ. وبِتعبيرٍ آخَرَ، جَيِّدٌ أن يَكونَ الباحِثُ قادِرًا على البَحثِ عن مَرجِعِ هذا الرَّمزِ بينَ الأحداثِ،

---

(36) عالَمُ الخِطابِ مَجموعةُ مُناسَباتٍ نَتواصَلُ فيها بِوَساطةِ الرُّموزِ. ويَكفي في الحصولِ على عَوالِمِ خِطابٍ مُختلِفَةٍ أن تَكونَ ثَمَّةَ دَرَجاتُ دِقَّةٍ مُتَبايِنَةٌ، و(يُنظَرُ الفَصلُ السّادِسُ، ص203-204) قد يَتطلَّبُ الأمرُ تَعريفاتٍ جَديدَةً.

وعلى استِبعادِهِ بِحُجَّةِ أنَّ الحَيِّزَ الذي يَدَّعِيهِ قد شَغَلَهُ المَرجِعُ "غليوني مُنطَفِئٌ". واستِنادًا إلى السِّياقِ الفِعليِّ، قد يَكونُ جَيِّدًا أيضًا لَهُ أن يَبحَثَ عنهُ وَسطَ أنظِمَةِ مَراجِعَ مُحتَمَلَةٍ أُخرَى، كأن تكونَ أحاسيسَ ذَوقِيَّةً، أوشَمِّيَّةً، أو حَرارِيَّةً، أو صُوَرًا، وهلُمَّ جَرًّا. وعُثورُهُ عليهِ قد يُمَكِّنُهُ مِن تَوسيعِ الرَّمزِ غيرِ الصَّحيحِ، بِتَغييرٍ مُمكِنٍ لِكلِّ كَلِمةٍ في العَمليَّةِ. فكَذلكَ إذا ما اقتَنَعْتُ بِأنَّ غليوني مُنطَفِئٌ، فقد أتمكَّنُ بِنَفسي مِن تَوسيعِ رَمزي لِيَكونَ "يَبدو غليوني وكَأنَّهُ مُشتَعِلٌ".

وتَنبَثِقُ مِن هذا المِثالِ مَجموعةٌ مِن المسائلِ تتطلَّبُ قانونًا رابِعًا، هوَ قانونُ الفِعليَّةِ Actuality، لِيُوضِحَ الحالَةَ:-

4. - الرَّمزُ إنَّما يُحِيلُ على ما استُعْمِلَ الرَّمْزُ فِعْلِيًّا لِيُحِيلَ عليهِ، ولا يُحِيلُ بِالضَّرورةِ على ما يَجِبُ أن يُحِيلَ عليهِ في الاستِعمالِ الجَيِّدِ، أو على ما يَقصِدُهُ المُؤَوِّلُ، أو على ما يَقصِدُ المُستَعمِلُ أن يُحِيلَ عليهِ.

إنَّ الزَّعْمَ المُعالَجَ آنِفًا يُمكِنُ أن يَكونَ قد أَحالَ أو لَم يُحِلْ على مَرجِعٍ كالذي يُستَعمَلُ لَهُ على نَحوٍ صَحيحٍ. فقد أُقِرُّ أو أُنكِرُ أنَّ مَرجِعِي كانَ شُعورًا مّا لا تَبغًا مُشتَعِلاً. استِنادًا إلى هذا يكونُ لَدَيْنا هُنا، بِوَساطةِ القانونِ الأوَّلِ، مَجموعةُ رُموزٍ [103] تَبدو في صُورةِ رَمزٍ واحدٍ، ويَجِبُ علينا انتِخابُ الرَّمزِ الذي يُستَعمَلُ فِعليًّا. فإن لم يَكُنْ في وُسعِنا أن نَنتَخِبَ على هذا النَّحوِ فليسَ ثَمَّةَ ما يُمكِنُ فِعلُهُ سِوَى تهيئةِ مَجموعةٍ مِن الرُّموزِ غيرِ الغامضَةِ لِلاستِعمالِ المُستقبَليِّ في الحالاتِ المُشابِهَةِ[37]. لكِن لو افتَرَضْنا أنّا قد انسَقْنا إلى أن نُقَرِّرَ، مُتابِعِينَ في ذلكَ المَناطِقَةِ الصُّورِيِّينَ، أنَّ مَرجِعًا مِثلَ 'الاحتِراق المَعدوم لِلتَّبغِ' مُتَضَمَّنٌ، لَبَدا أنّا نُواجِهُ مُشكِلةً بِشأنِ كَيفيَّةِ إمكانِ الإحالَةِ على ما ليسَ مَوجودًا لِيُحالَ عليهِ. وهذهِ المُشكِلةُ التي لا أهمِّيَّةَ لَها في نَفسِها إنَّما تُذكَرُ هُنا لِكونِها حالةً نموذَجِيَّةً

(37) خُصِّصَ الفَصلانِ السّادِسُ والسّابعُ لِلآليَّةِ المطلوبةِ في هذهِ العمليَّةِ، والطَّرائقُ المُطَوَّرَةُ في الفَصلِ التّاسعِ مُخلَصَةٌ لِلَّبسِ الرَّئيسِ، المَعنَى.

للصُّعوباتِ النّاجِمَةِ عن مُعامَلَةِ نِظامٍ غيرِ مُكتَمِلٍ مِن الرُّموزِ النّاقِصةِ كما لَو أنَّهُ نِظامٌ مُكتَمِلٌ مِن الرُّموزِ الكامِلَةِ. فإذا نَشَأَت تَناقُضاتٌ كهذهِ في نِظامِ رُموزٍ ثانويٍّ على دَرجةٍ عاليةٍ مِن التَّعقيدِ مِن مُعالَجَةٍ بارِعَةٍ مَشروعَةٍ لِلرُّموزِ، فإنَّها تكونُ إشارَةً مُفيدَةً إلى أنَّ ثَمَّةَ نَقصًا ما زالَ باقِيًا. مِثالُ ذلكَ: الرِّياضيّاتُ؛ فإذا واجَهَ عالِمَ الرِّياضيّاتِ تناقُضٌ كهذا فإنَّهُ يُواصِلُ تَحسينَ منظومةِ رُموزِهِ، وأَوْلَى لَنا أن نَحذُوَ حَذوَهُ مِن أن نَفترِضَ أنّا قد أثبَتْنا شُذوذًا مّا غَريبًا في الكَونِ.

وثَمَّةَ سُؤالانِ آخَرانِ ينبَغي أن يُجابَ عنهما. أحدُهُما: "كيفَ لَنا أن نَعرِفَ أنَّ عِبارَةَ 'الغِليونُ مُشتَعِلٌ الآنَ' تَستَحِقُّ المَوضِعَ نَفسَهُ لِعِبارَةِ 'الغِليونُ مُنطَفِئٌ الآنَ'، في حينِ أنَّ عِبارَةَ 'الغِليونُ مَسدودٌ الآنَ' لا تَستَحِقُّهُ؟". فإذا أرَدْنا التَّحدُّثَ بِلُغَةِ الخُرافَةِ كانَت الإجابَةُ: "نَحنُ نَعرِفُ ذلكَ بِالخِبْرَةِ". ونَحنُ نَمتَلِكُ في المَجالاتِ المألوفَةِ تَراكُماتٍ كَبيرَةً لِمَعرِفَةٍ كَهذهِ. فَنَحنُ نَعلَمُ، على سبيلِ المِثالِ، أنَّ عِباراتِ 'x أخضَر' و'x أحمَر' و'x أزرَق' كُلَّها تَستَحِقُّ المَوضِعَ نَفسَهُ لِمَراجِعِها، كما هوَ شَأنُ عِبارَتَي 'x غامِقٌ' و'x فاتِحٌ.' ونَحنُ نَعلَمُ أيضًا أنَّ عِباراتِ 'x أخضَر' و'x غامِقٌ' و'x مُشرِقٌ' لَيسَت استِحقاقاتٍ مُتعارِضَةً. أمّا المَجالاتُ غيرُ المألوفَةِ فالصُّعوبَةُ الرَّئيسةُ فيها تَكمُنُ تَحديدًا [104] في اكتِسابِ مَعرِفةٍ كَهذهِ. فنحنُ نَحتاجُ إلى هذهِ المعرِفةِ لِنُكْمِلَ رُموزَنا، كما نَحتاجُ إلى رُموزٍ مُكْمَلَةٍ لِنُطَوِّرَ مَعرِفَتَنا.

والسُّؤالُ الآخَرُ هوَ: "لِمَ لا يُقالُ: ما دُمْنا لَم نَقِفْ على مَرجِعٍ لِـ'غليوني مُنطَفِئٌ' حَيثُ دُلِلْنا لِلبَحْثِ عنهُ، فليسَ ثَمَّةَ مَرْجِعٌ إذَن؟". لكِنْ ثَمَّةَ إحالَةٌ- وإن لَم تَكُنْ خاصَّةً بالمَرجِعِ المُتَبادِرِ إلى الذِّهنِ أوَّلَ وَهلَةٍ. إنَّ مُشكِلَةَ العُثورِ على المَرجِعِ الفِعليِّ هُنا، كما هيَ عادَةً، تَنحَصِرُ في تَتَبُّعِ الارتِباطاتِ السَّبَبِيَّةِ أو السِّياقاتِ المُتَضَمَّنَةِ بالطَّريقَةِ المُشارِ إليها في الفَصلِ الثّالثِ.

على أنَّ ثَمَّةَ مُشكِلةً خاصَّةً تتعلَّقُ بالرُّموزِ المُعَقَّدَةِ تَستَلزِمُ قانونًا قد تكونُ وَظائفُهُ غيرَ واضِحَةٍ بادِيَ الرَّأْيِ، لكِنَّهُ ضَروريٌّ لِتَجَنُّبِ الهُراءِ في خِطابِنا. إنَّهُ يَتَعلَّقُ بِإنشاءِ رُموزٍ مُعَقَّدَةٍ مِن رُموزٍ بَسيطَةٍ أو أَقَلَّ تعقيدًا. ومِن الواضِحِ أنَّهُ إذا

أدمَجْنا في رَمزٍ واحدٍ عَلاماتٍ تَستَحِقُّ المَوضِعَ نَفسَهُ، سَواءٌ أكانَتْ، على سبيلِ المِثالِ، لَوْنًا (أحمَر- أصفَر)، أم شَكلاً (مُستَديرًا- مُرَبَّعًا)، فإنَّ رَمزَنا المُقتَرَحَ سيكونُ فارِغًا. ويُدْعَى هذا القانونُ الخامِسُ قانونَ الانسِجامِ Compatibility :-

5. - لا يُمكِنُ أن يَحوِيَ رَمزٌ مُعَقَّدٌ رُموزًا تَأسيسِيَّةً تَستَحِقُّ 'المَوضِعَ' نَفسَهُ.

مِن أجلِ ذلكَ كانَ مُهِمًّا أن يُبَيَّنَ في الحالِ ما يَنبَغي فِعلُهُ حينَ 'يُمَوضِعُ' الرَّمزُ المَرجِعَ. وثَمَّةَ صِيَغٌ ثَلاثٌ يَرجِعُ عَهدُها إلى زَمَنِ أرِسطو تُعْرَفُ في التَّقاليدِ باسمِ قَوانينِ الفِكرِ قد أَوْلاها المَناطِقَةُ اهتِمامًا بالِغًا، بِكياسَةٍ وبِغَيرِ كياسَةٍ. وقد تَنوَّعَتْ أوجُهُ تأويلِها، فَأُوِّلَتْ على أنَّها قَوانينُ يَمتَثِلُ لَها العَقلُ لكِن لا يَلْزَمُ أن تَمتَثِلَ لَها الأشياءُ، أو على أنَّها قَوانينُ تَمتَثِلُ لَها الأشياءُ لكِن لا يَلْزَمُ أن يَمتَثِلَ لَها العَقلُ، أو على أنَّها قَوانينُ تَمتَثِلُ لَها جَميعُ الأشياءِ (وبِضِمنِها العَقلُ)، أو على أنَّها قَوانينُ لا يَلْزَمُ أن يَمتَثِلَ لَها أيُّ شَيءٍ لكِنَّ المَنطِقَ يَرَى فيها، على نَحوٍ غَريبٍ، نَفعًا. وتَرَى الرَّمزِيَّةُ فيها ثالوثًا لِقَوانينَ ثانويَّةٍ تُعينُ على حِفظِ كاتِدرائيَّةِ الرَّمزِيَّةِ في نِظامٍ مُناسِبٍ. أوَّلُ هذهِ القَوانينِ قانونُ التَّطابُقِ (الهُوِيَّة) identity- المَصُوغُ بِطَرافَةٍ على وَفقِ الآتي ' A هوَ A'، فالرَّمزُ هوَ ماهِيَّتُهُ، أي أنَّهُ لا بُدَّ لِكلِّ رَمزٍ [105] مِن مَرجِعٍ. وثانيها قانونُ التَّناقُضِ Contradiction- ' A لَيسَ عَدَمَ A'، فَما مِن رَمزٍ يُحيلُ على ما لا يُحيلُ عليهِ، أي أنَّهُ ما مِن مَرجِعٍ لَهُ أكثَرُ مِن مَوضِعٍ في نِظامِ المَراجِعِ الكُلِّيِّ. وثالِثُ القَوانينِ قانونُ الوَسَطِ المَرفوعِ Excluded Middle- ' A إمّا أن يَكونَ B وإمّا أن يَكونَ غَيْرَهُ'، فالرَّمزُ يَجِبُ أن يَكونَ لَهُ مَرجِعٌ مُعْطًى أو آخَرُ غَيرُهُ، أي أنَّ كلَّ مَرجِعٍ لَهُ مَوضِعٌ ثابِتٌ في نِظامِ المَراجِعِ الكُلِّيِّ. ويُمكِنُنا، بِوَساطَةِ القانونِ الثّاني، استِبدالُ هذا الثّالوثِ بِالصِّيغَةِ الآتِيَةِ التي هيَ قانونُ الرَّمزِيَّةِ السّادِسُ: قانونُ الفَرْدِيَّة Individualism-

6. - كُلُّ المَراجِعِ المُمكِنَةِ تُشَكِّلُ مَعًا نِظامًا يَكونُ لِكُلِّ مَرجِعٍ فيهِ مَوضِعٌ واحِدٌ فقط.

وقد يكونُ مِن المُفيدِ التَّعليقُ على صُعوبَةٍ واحِدَةٍ تتعلَّقُ بـ'المَوْضِع.' وهو إلى أن يَكونَ مِن المُكَمِّلاتِ الرَّمزِيَّةِ (يُنظَر: ص184، التي مَرَّتْ آنِفًا) أقرَبُ مِنهُ إلى أن يَكونَ رَمزًا فِعلِيًّا. وقد ألمَحْنا إلى أنَّ ثَمَّةَ أمرَيْنِ يَجِبُ تَمييزُهُما بِوُضوحٍ في أيِّ تَقريرٍ كاذِبٍ، أحدُهما المَرجِعُ الذي نُحِيلُ عليهِ فِعلِيًّا، والآخَرُ مَرجِعٌ مَزعومٌ نَعتَقِدُ أنَّنا نُحِيلُ عليهِ. وأوَّلُ المَرجِعَيْنِ وَحدَهُ لَهُ 'مَوْضِعٌ' في نِظامِ المَراجِعِ الكُلِّيِّ.

ويُمكِنُنا أن نَقُولَ بَدَلاً مِن ذلكَ إنَّنا في حالةِ التَّقريرِ الكاذِبِ إمّا أن نَعتَقِدَ أنَّ المَرجِعَ في 'مَوْضِعٍ' هوَ ليسَ فيهِ فِعْلاً، وإمّا أن نَعتَقِدَ أنّا نُحِيلُ على مَرجِعٍ مُختَلِفٍ عن المَرجِعِ الذي نُحِيلُ عليهِ فِعلاً. إذ يُمكِنُنا في التَّقريرَيْنِ المُتَناقِضَيْنِ، مَثَلاً، إمّا أن نَقولَ إنّا نُحِيلُ على المَرجِعِ نَفسِهِ لكِنّا نُعَيِّنُ لَهُ 'مَوْضِعَيْنِ' مُختَلِفَيْنِ، وإمّا أن نَقولَ إنّا نُحِيلُ على مَرجِعَيْنِ مُختلِفَيْنِ ونُعَيِّنُ لَهُما 'المَوْضِعَ' نَفسَهُ. وتتضَمَّنُ هاتانِ العِبارَتانِ البَديلَتانِ تَحَوُّلَيْنِ خفيفَيْنِ في المَرجِعَيْنِ اللَّذَيْنِ يَستَعمِلانِ 'المَرجِعَ' و'المَوْضِعَ' مَعًا، وتُؤَكِّدانِ الاعتِبارَ المُهِمَّ وهوَ أنَّ التَّفريقَ بينَ إحالَتَيْ هذَيْنِ اللَّفْظَيْنِ مُصطَنَعٌ لا غَير. إذ ليسَ ثَمَّةَ فَرقٌ بينَ المَرجِعِ ومَوضِعِهِ. فَمِن غيرِ المُمكِنِ وُجودُ مَرجِعٍ خارِجٍ عن نِطاقِ المَكانِ، ولا وُجودُ مَكانٍ يَفتَقِرُ إلى مَرجِعٍ مّا. فإذا ما عُرِفَ مَرجِعٌ مّا عُرِفَ مَوضِعُهُ أيضًا، ولا يُمكِنُ تَعريفُ مَوضِعٍ مّا [106] إلّا بِمَرجِعِهِ الذي يَشغَلُهُ. أي إنَّ 'المَوْضِعَ' مُجَرَّدُ رَمزٍ مُقَدَّمٍ بِوَصفِهِ تَيسيرًا لِوَصفِ عُيُوبِ الإحالةِ التي تُوَلِّدُ الكَذِبَ.

وقد بَيَّنّا أنَّهُ يتخلَّلُ كُلَّ الإحالاتِ على الدَّوامِ أحوالٌ عَلامِيَّةٌ بينَ المَرجِعِ والفِعلِ. ورُبَّما لا تَنطَوي أبسَطُ حالَةٍ، وهيَ المتعلِّقَةُ بِالحُكمِ الصّادِقِ المُباشِرِ لِلإدراكِ الحِسِّيِّ، إلّا على حالٍ عَلامِيَّةٍ واحِدَةٍ (قد نُوقِشَتْ في الفَصلِ الثّالِثِ). أمّا القَضِيَّةُ الكاذِبَةُ فَفيها سِلسِلَةٌ عَلامِيَّةٌ مُشابِهَةٌ، لكِنَّ الاختِلافَ الذي يَظهَرُ هُنا هوَ حُدوثُ إساءَةِ تأويلٍ. على أنَّهُ ليسَ ضَرورِيًّا على الدَّوامِ أن نَكتَشِفَ مَكمَنَ حُدوثِ إساءَةِ التَّأويلِ مِن أجلِ تَحويلِ قَضِيَّةٍ كاذِبَةٍ إلى أُخرَى صادِقَةٍ؛ فبِإمكانِ سِلسِلَةٍ عَلامِيَّةٍ جَديدَةٍ مُجاوِرَةٍ لِلمَرجِعِ نَفسِهِ أن تكونَ

البَديلَ. على أنَّ مِثلَ هذا الاكتِشافِ ضَروريٌّ في التَّوسيعِ، والصُّعوبةُ تُفَسِّرُ سببَ تَفضيلِنا التَّحويلَ على التَّوسيعِ. وعادَةً مّا يَكونُ اكتِشافُ إساءَةِ التَّأويلِ في التَّعليمِ والجَدَلِ أكثَرَ الخطواتِ أساسيَّةً.

وتُمَثِّلُ هذهِ القَوانينُ السِّتَّةُ: الأُحادِيَّةُ، والتَّعريفُ، والتَّوسيعُ، والفِعليَّةُ، والانسِجامُ، والفَردِيَّةُ، البَديهِيّاتِ الأساسيَّةَ التي تُحَدِّدُ الاستِعمالَ الصَّحيحَ لِلكَلِماتِ في التَّفكيرِ المَنطقيِّ. فقد أصبَحَ لَدَينا الآنَ بوصَلَةٌ يُمكِنُنا بِها أن نَستَكشِفَ حُقولاً جَديدَةً مُؤَمِّلينَ تَفادِيَ الحركةِ الدّائريَّةِ. ويُمكِنُنا البَدءُ بِتَرتيبِ المُستَوَياتِ الرَّمزيَّةِ والبَحثِ في عمليَّةِ التَّأويلِ، الـ'ماجَرَيات' في أذهانِ المُؤَوِّلينَ. ومِمّا يُمكِنُ الآنَ بِخاصَّةٍ، وإن لم يَكُنْ سَهلاً على الدَّوام، أن يُبَيَّنَ مَتى يَكونُ الرَّمزُ مُجَرَّدَ اختِصارٍ، وأن تُحَدَّدَ أنواعُ التَّعريفِ المُختلِفَةُ المُلائمَةُ لِلمُناسَباتِ المُختلِفَةِ. ولا يُحتَمَلُ في هذهِ الأثناءِ أن يَبدُوَ غيرَ عَقلانيٍّ إعلانُ الدِّراساتِ المُتأثِّرَةِ بِهذهِ الاكتِشافاتِ-

"أَحْكِمْ إغلاقَ فَوهَةِ الغَضَبِ مُدَّةً مِن الزَّمَنِ حتَّى نَستَطيعَ
استِجلاءَ هذهِ الالتِباساتِ، ونَعرِفَ مَنبَعَها، ورَأسَها،
وأصلَها الحقيقيَّ". [107]

وتَضبِطُ هذهِ القَوانينُ نِظامَ الرُّموزِ المعروفَ بِالنَّثرِ. فإن لم تَثبُتْ كِفايَتُها في أنفُسِها في مَنعِ كَلامِنا مِن أن يُضَلِّلَنا فكُلُّ ما سِواها مِمّا قد يَكونُ مَطلوبًا لَن يَختَلِفَ عنها في ذلكَ. ولَن يَحسُنَ انتِظامُ مَجموعةٍ مّا مِن الرُّموزِ، أو إنَّها لَن تُشَكِّلَ أُسلوبًا نَثريًّا جَيِّدًا، إلّا إذا احتَرَمَتْ هذهِ القَوانينَ. وهذهِ المجموعةُ هيَ الوَحيدَةُ التي تُتيحُ لَنا تَنفيذًا آمِنًا لِتحويلاتِ الرُّموزِ وإبدالاتِها التي تَسعَى لُغَةُ العِلمِ بِوَساطَتِها إلى أن تُظهِرَ عَلاماتِها الفارِقَةَ واستِنتاجاتِها وأن تُسَجِّلَها- تلكَ العمليّاتِ التي بَيَّنّا أنَّ الإنسانَ البِدائيَّ بَدَا لَهُ أنَّها تُشاطِرُ السِّحرَ طَبيعَتَهُ. وهذهِ المجموعةُ، زِيادَةً على ما سَبَقَ، هيَ الوَحيدَةُ التي تُمَكِّنُ الفَيلَسوفَ مِن مُناقَشَةِ أُمورٍ أكثرَ أهمِّيَّةً مِن مُمَيِّزاتِ تَعبيرِهِ أو تَعبيرِ أقرانِهِ. [108]

الفَصْلُ السّادِسُ
نَظَرِيَّةُ التَّعْريف

إنِّي لأعزُو السَّبَبَ الأوَّلَ لِلاستِنتاجاتِ السَّخيفَةِ إلى غِيابِ المَنهَجِ؛ إذ لا يَنطَلِقُ الاستِدلالُ المَنطِقيُّ حينَئذٍ مِن التَّعريفاتِ. - هوبز Hobbes.

"أرجو، أيُّها اللورد دارلِنغتن Darlington، أن تَرحَمَ عَقلِيَ المِسكينَ، فتُبَيِّنَ لي ما تَعْنيهِ حَقًّا".- "أُفَضِّلُ ألّا أفعَلَ ذلكَ، أيَّتُها الدّوقَةُ؛ فَفي أيّامِنا هذهِ، أن تَكونَ واضِحًا يَعني أن تُكتَشَفَ".-

مِرْوَحَةُ اللَّيْدي وِنْدَرْمير Lady Windermer's Fan.

لا تُوجَدُ في الوَقتِ الحاضِرِ نَظَرِيَّةٌ لِلتَّعريفِ قابِلَةٌ لِلتَّطبيقِ العَمَليِّ في الظُّروفِ الاعتِياديَّةِ. ولَم تُحَقِّق النَّظَرِيَّةُ التَّقليدِيَّةُ إلّا القَليلَ مِن التَّقَدُّمِ، بِالقَدرِ الذي لَم تَضِعْ فيهِ في مَتاهاتِ التَّفصيلاتِ العَقيمَةِ لِلنَّوعِ والصِّفَةِ المُمَيِّزَةِ، وفي الاضطِرابِ الذي يُسَبِّبُهُ مُصطَلَحُ 'الدَّلالَة الإيحائيَّة Connotation' - والسَّبَبُ الرَّئيسُ في ذلكَ هوَ الخُرافاتُ البَربَرِيَّةُ[1] المتعلِّقَةُ بِاللُّغةِ التي تَجمَّعَتْ عِندَ [109]

(1) كَثيرًا مَا يَكمُنُ سِحْرُ الأسماءِ في آخِرِ ما يُتَوَقَّعُ مِن الأماكِنِ، والكَرْبُ الذي أصابَ ساكس Sachs عندَ اكتِشافِهِ كَوكَبَ أورانُوس Uranus، الذي عَبَّرَ عنهُ في تَساؤُلِهِ: "ما الذي يَضمَنُ لَنا أنَّ الكَوكَبَ الذي يَتَعارَفُ الفَلَكيُّونَ أنَّهُ أورانُوس هوَ أورانُوس حَقًّا؟"، لَيسَ أكثَرَ بِدائيَّةً إلّا بِدَرَجَةٍ واحدَةٍ مِن زَعمِ هربَرت سبَنسَر Herbert Spencer أنّا "نَعرِفُ المعنَى الأساسيَّ لِكَلِمةٍ مَا بِمُقارنةِ مَعانيها في ارتِباطاتٍ مُختلِفَةٍ، وبِمُلاحظَةِ ما تَشتَرِكُ فيهِ ... وبِذلكَ يُمكِنُنا تأكيدُ مَعنَى كَلِماتٍ مِثلِ 'حَسَن'"، وما إلى ذلكَ. =

تُخومِ المَنطِقِ مُنذُ الأَزمِنةِ الأُولَى. إذ وَقَفَتْ أربَعُ صُعوباتٍ حَجَرَ عثرَةٍ، فلَم يَكُ بُدٌّ مِن إزالَتِها أوَّلاً.

فأمّا أُولَى الصُّعوباتِ فتَكمُنُ في السُّؤالِ الآتي: ما الذي نُعَرِّفُهُ، ءَالأشياءُ أَم الكَلِماتُ؟ فَمِن أَجلِ تَحديدِ هذهِ النُّقطَةِ ما علَينا إلّا أن نَلحَظَ أنّا حينَ نتحدَّثُ عن تَعريفِ الكَلِماتِ إنَّما نُحيلُ على شَيءٍ مُختَلِفٍ تَمامًا عمّا يُحيلُ عليهِ 'تَعريفُ الأشياءِ' أو يَعْنِيهِ. فَحينَ نُعَرِّفُ الكَلِماتِ نتناوَلُ مَجموعةً أُخرَى مِن الكَلماتِ قد تُستَعمَلُ معَ المَرجِعِ نَفسِهِ الذي تُستعمَلُ فيهِ الأُولَى، أي أنّا نُعَوِّضُ بِرَمزٍ يُفهَمُ على نَحوٍ أَفضَلَ في حالَةٍ مُعْطاةٍ. أمّا الأشياءُ، مِن جِهَةٍ أُخرَى، فلا يَتضَمَّنُ الأمرُ مَعَها مِثلَ هذا التَّعويضِ. فالتَّعريفُ المَزعومُ لِلفَرَسِ بِإزاءِ تَعريفِ كَلِمةِ 'فَرَس' إنَّما هوَ عِبارَةٌ فيها تَعدادٌ لِخَواصِّهِ التي قد يُقارَنُ مِن خِلالِها بِأشياءَ أُخرَى ويُمَيَّزُ مِنها. فليسَ ثَمَّةَ تَنافُسٌ بينَ التَّعريفاتِ 'اللفظِيَّةِ' و'الواقِعِيَّةِ'[2].

= وإمالَةُ الكَلِمَتَيْنِ في النَّصِّ المذكورِ مِن صُنْعِنا، ولا أحدَ مِمَّن لا يُؤْمِنُ معَ نانسِن Nansen في كِتابِهِ إسكيمو غرينلاند Greenland Eskimos "بِأنَّ ثَمَّةَ صِلَةً رُوحيَّةً بينَ شَخصَيْنِ يَحمِلانِ الاسمَ نَفسَهُ" يُخفِقُ في رُؤيَةِ عَبَثِيَّةِ مِثلِ هذهِ المُحاوَلاتِ لِلتَّعريفِ باستِعمالِ الجَوهَرِ. ومَصدَرُ هذا المذهَبِ وِجهَةُ النَّظَرِ التي أحَلْنا عليها آنِفًا وهيَ أنَّ الكَلِماتِ على نَحوٍ مّا أجزاءٌ مِن الأشياءِ (وهِيَ تُهمَةٌ وَجَّهَها تَوجيهًا لافِتًا لِلنَّظَرِ سبنسر نَفسُهُ إلى الفِكْرِ الإغريقيِّ بِعامَّةٍ في مَكانٍ آخَرَ). فإنْ كانَ لِكُلِّ شَيءٍ، على ما هوَ مُفتَرَضٌ، اسمُهُ الخاصُّ، فإنَّ وُجودَ اسمٍ مّا يُمَكِّنُنا مِن البَحثِ بِثِقَةٍ عن الشَّيْءِ أو 'الفِكرَةِ' اللذَيْنِ يَنتَمي إليهِما، وسيكونُ، عُمومًا، بينَ الأشياءِ التي تَمتَلِكُ الاسمَ نَفسَهُ شَيءٌ مّا مُشتَرَكٌ يَجِبُ على عمليَّةِ التَّعريفِ أن تُحاوِلَ جهدَها أن تَقِفَ عليهِ. إنَّ البَحثَ عن جَوهَرِ الأشياءِ، *haecceitas* كما يُسَمِّيهِ دَنز سكوتس Duns Scotus، قد يكونُ لَهُ جُذورٌ في الموقِفِ مِن الكَلِماتِ نَفسِهِ، وإنْ كانَ مِن غيرِ المُنصِفِ أن تُعزَى إلى أرِسطو سَخافاتُ أتباعِهِ اللُّغَوِيَّةُ. وبَعضُ مَضامينِ هذهِ التَّقاليدِ الأكثرُ لَفتًا لِلنَّظَرِ في كُلٍّ مِن تأريخِ الفَلسَفَةِ وأحدَثِ تَطَوُّراتِ المَنطِقِ بَرَعَ في مُعالَجَتِها البروفيسور رُوجيير Rougier في كِتابِهِ **مُغالَطاتُ العَقلانِيَّة** *Paralogismes du Rationalisme*، ص146 فما بَعدَها، و368 فما بَعدَها، و386 فما بَعدَها.

(2) لِلوُقوفِ على مِثالٍ لِلطَّريقَةِ التي تُصُوِّرَ بِها التَّمييزُ يُنظَر:

Leibnitz, *New Essays concerning Human Understanding*, 1916, pp. 316-7.

ولا شَكَّ في أنَّ الكَلِماتِ التي تُعَدِّدُ هذهِ الخَواصُّ مِن خِلالِها تَمنَحُنا رَمزًا بَديلاً- إمّا تَحليلاً مُكتَمِلاً، وإمّا مُختَصَرًا بِوَسائلَ تَصنيفيَّةٍ (مِن نَمَطِ 'النَّوعِ والصِّفَةِ المُمَيِّزَةِ' المُعتادِ)- معَ المَرجعِ نَفسِهِ (الأفراس) الذي لِلرَّمزِ الأصليِّ، لكِنْ بِوَصفِهِ نتيجَةً طَبيعيَّةً أكثرَ مِن أن يَكونَ بِوَصفِهِ غَرَضَ التَّحليلِ الرَّئيسَ. وزِيادَةً على ذلكَ، لا يُمكِنُ إجراءُ هذهِ العمليَّةِ إلّا على الأشياءِ المُعَقَّدَةِ التي عَكَفَ عِلمٌ مِن العُلوم على دِراستِها زَمَنًا طَويلاً. أمّا الأشياءُ البَسيطَةُ، أو التي لا يُعرَفُ أنَّها قابِلَةٌ لِلتَّحليلِ بِسببِ نَقصٍ في البَحثِ، شأنُها في ذلكَ شأنُ كلِّ شَيءٍ لَمّا تُطَبَّقْ عليهِ بَعدُ مَناهِجُ التَّصنيفِ، فمِن الواضِحِ أنَّ هذهِ الوَسيلةَ غيرُ مُتاحَةٍ مَعَها، وأنَّهُ يَجِبُ في هذهِ الحالةِ إيجادُ رُموزٍ أُخرَى تَكونُ هيَ الأبدالَ التي يَسعَى تَعريفُ الرُّموزِ إلى تَهيِئَتِها. وما مَرَّ إنَّما هوَ مُوجَزُ الحَلِّ لِلنِّزاعِ المُمتَدِّ بينَ أنصارِ التَّعريفاتِ الواقِعيَّةِ وأنصارِ التَّعريفاتِ الرَّمزيَّةِ. [110]

والصُّعوبَةُ الثّانيَةُ وَثيقَةُ الصِّلَةِ بِالأُولَى. فَعَلى الرَّغمِ مِن كَونِ التَّعريفِ تَعويضًا رَمزيًّا، عادَةً مّا تُعرَضُ التَّعريفاتُ، لأسبابٍ نَحويَّةٍ، في صُورَةٍ تَجعَلُها تَبدو مُوجَّهَةً صَوبَ الأشياءِ. مَرَدُّ ذلكَ إلى ما اعتَدْناهُ مِن اختِصارِ رُموزٍ مِثلِ "كَلِمَةُ 'نار' تُحِيلُ على المَرجِعِ نَفسِهِ الذي تُحِيلُ عليهِ كَلِمتَا 'ما يُحْرِقُ'" إلى "النّارُ هيَ ما يُحْرِقُ"، أو ما اعتَدْناهُ مِن قَولِنا: "*Chien* يَعنِي 'كَلْبًا'"، حينَ يَكونُ واجِبًا أن نَقولَ: "كَلِمَةُ *Chien* وكَلِمَةُ 'كَلْب' كِلتاهُما تَعنِي الحَيَوانَ نَفسَهُ"(3).

أمّا الصُّعوبةُ الثّالثةُ فهيَ أنَّ كلَّ التَّعريفاتِ صِيغَتْ أساسًا لأغراضٍ خاصَّةٍ. فهيَ تتعلَّقُ بِغَرَضٍ مّا أو حالَةٍ مّا، لِذا لا يُمكِنُ تَطبيقُها إلّا على حَقلٍ أو 'عالَمِ

(3) قد يُلحَظُ أنّا حينَ نَقولُ 'النّارُ تُحْرِقُ' نَبدو ناقِلِينَ لِمَعرِفةٍ تتعلَّقُ بالنّارِ لا بالرَّمزَيْنِ، أمّا معَ مُرَكَّبٍ تَرادُفِيٍّ مِثلِ "*Chien* يَعنِي 'كَلْبًا'" فنَبدو غيرَ قادِرِينَ على تَقديمِ مَعرِفَةٍ تتعلَّقُ بِأيٍّ منهُما. وسببُ ذلكَ أنّا حينَ نَقولُ: 'النّارُ تُحْرِقُ' إنَّما نَستَعمِلُ 'النّار' و'تُحْرِقُ' بِتَعريفَيْنِ مُختَلِفَيْنِ. ولَو أنّا عَرَّفْنا *Chien* بِأنَّهُ 'حَيَوانٌ أليفٌ يُشبِهُ الذِّئبَ'، و'الكَلبَ' بِأنَّهُ "ذُو أربَعٍ نابِحٌ"، لأمكَنَنا أن نَقولَ: "*Chien* هوَ 'كَلْبٌ'" (= "الكِلابُ تَنبَحُ")، ولَنَقَلَ إلَينا هذا مَعرِفَةً.

خِطابٍ' مُحَدَّدٍ. وفي بَعضِ التَّعريفاتِ، كتَعريفاتِ الفيزياءِ مَثَلاً، يَكونُ هذا النِّطاقُ واسِعًا جِدًّا. فَلَفْظُ 'طاقَة' عندَ الفيزيائيِّ أوسَعُ مِنهُ عندَ المُدَرِّسِ، ما دامَ الفيزيائيُّ يَعلَمُ أنَّ تَقريرَ الطّالبِ المُعَلَّمَ بِعَلامَةِ 'بِلا طاقَةٍ' يَمتَلِكُ الطّاقَةَ بِأشكالٍ مُتَنَوِّعَةٍ. وكُلَّما اقتُطِعَ لَفْظٌ مّا على هذا النَّحوِ مِن عالَمِ الخِطابِ الذي حُدِّدَ لَهُ استَحالَ استِعارَةً، ورُبَّما احتاجَ إلى تَعريفٍ جَديدٍ. وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ الاستِعارَةَ لا تَقْتَصِرُ على ذلكَ لَدَيْنا هُنا سِمَةٌ أساسيَّةٌ لِلُّغَةِ الاستِعارِيَّةِ الرَّمزِيَّةِ. وسيُناقَشُ الفَرقُ بينَ هذهِ اللُّغَةِ واللُّغَةِ الاستِعارِيَّةِ \الانفِعاليَّةِ لاحِقًا في الصَّفحَتَيْنِ 358-359.

وأمّا رابِعَةُ الصُّعوباتِ فتتَّصِلُ بِمُشكِلَةِ التَّعريفِ 'المُكَثَّفِ intensive' بإزاءِ التَّعريفِ 'المُوَسَّعِ extensive'[4] التي تَبلُغُ ذروَتَها عندَ استِعمالِ مُصطَلَحَي 'يَدُلُّ دَلالَةً تَعْيينِيَّةً denote' و'يَدُلُّ دَلالَةً إيحائيَّةً connote'. وستَلْقَى اصطِناعيَّةُ هذهِ التَّفريقاتِ في الفَصلِ التّاسعِ مَزيدًا مِن التَّأكيدِ. أمّا هُنا فَمِن الضَّروريِّ أن يُشارَ إلى أنَّهُ قد يُقالُ عن رَمزَيْنِ إنَّ لَهُما الدَّلالَةَ الإيحائيَّةَ نَفسَها حينَ [111] يَرمِزانِ إلى الإحالَةِ نَفسِها. وسيكونُ التَّعريفُ المُكَثَّفُ أو الدّالُّ دَلالَةً إيحائيَّةً هوَ الذي لا يَنطَوي على تَغييرٍ في خَصائصِ المَرجِعِ التي بِمُقتَضاها يُكَوِّنُ سِياقًا معَ عَلامتِهِ الأصليَّةِ. أمّا التَّعريفُ المُوَسَّعُ فقد يَنطَوي على مِثلِ هذا التَّغييرِ. بِعِبارَةٍ أُخرَى،

(4) لِلدُّكتور سمير شريف استيتية كَلامٌ مُفيدٌ يُسَلِّطُ الضَّوءَ على ما جاءَ في هذا الموضِعِ مِن حَديثٍ عن التَّعريفِ المُكَثَّفِ أو المُضَيَّقِ والتَّعريفِ المُوَسَّعِ، إذ قالَ في كِتابِهِ (اللِسانِيّاتُ: المجالُ، والوَظيفَةُ، والمنهَجُ): 270-271: "الأصلُ أنَّهُ قد يَكونُ لِلمَعْنَى كلمةٌ تُعَبِّرُ عنهُ أو جُملَةٌ تُفصِحُ عنهُ أو تُقَرِّبُهُ إلى أذهانِ النّاسِ. ويُسَمّى القَدْرُ الذي يُعَبِّرُ عن هذا المعْنَى من الكلماتِ مَجالاً. وتقومُ العَلاقَةُ بينَ المجالِ في أدنَى حُدودِ قَدْرِهِ على أساسِ مُساواتِهِ لِلمَعْنَى في أوسَعِ حُدودِ قَدْرِهِ. وبيانُ ذلكَ، مَثَلاً، أنَّ كلمةَ 'رَجُل'، وهيَ كلمةٌ واحدَةٌ، تَتَّسِعُ مِن جِهَةِ المعْنَى لِتَشمَلَ كلَّ ما يُوصَفُ بِأَنَّهُ 'رَجُلٌ' دونَ تَعيينٍ أو تَخصيصٍ أو تَحديدٍ أو استِثناءٍ. فإذا وَسَّعْنا المجالَ بِأن جَعَلْناهُ مِن ثَلاثَةِ مورفيماتٍ، مَثَلاً، كاسْمِ الإشارَةِ 'هذا' و'ال التَّعريفِ' و'رَجُل'، فقُلْنا: هذا الرَّجُلُ، خَرَجَتْ كلمةُ 'رَجُل' مِن عُمومِها إلى أن تَكونَ دالَّةً على المُشارِ إليهِ فقط". [المُترجِم]

حينَ نُعَرِّفُ تعريفًا مُكَثَّفًا نَحنُ نَلتَزِمُ الحالَ العَلامِيَّةَ نَفسَها لِلمُعَرَّفِ والمُعَرِّفِ، أمّا حينَ نُعَرِّفُ تعريفًا مُوَسَّعًا فقد يَتغَيَّرُ ذلكَ.

فنحنُ الآنَ في وَضعٍ يَجعَلُنا نَتَشَبَّثُ بِالفَرقِ بينَ التَّعريفاتِ والتَّقريراتِ الاعتِياديَّةِ. فَعِبارَتا "الغوريلّاتُ حَيَواناتٌ" و"الغوريلّاتُ أنيسَةٌ" تَختَلِفُ إحداهُما عن الأخرَى في أنَّ أولاهُما تَبدو صادِقَةً يَقينًا بِقَدرِ فَهمِنا لَها، في حينِ أنَّ الثّانيةَ قد يُشَكُّ فيها. ذلكَ بِأنَّ عِبارَةَ "هذهِ غوريلّا" تَعقُبُها مُباشَرَةً عِبارَةُ "هذهِ حَيَوانٌ"، لا أنَّها حَيَوانٌ أنيسٌ. وإذا ما رُحْنا نَبحَثُ عن فَرقٍ في الصِّلَةِ الأساسيَّةِ بينَ الحَيَوانيَّةِ والغوريلِّيَّةِ مِن جِهَةٍ، وبينَ الغوريلِّيَّةِ والأُنسِ مِن جِهَةٍ أُخرَى فلَن نَجنِيَ مِن ذلكَ إلّا إزجاءً لاهِيًا لِوَقتِ فَراغِنا. لكِنْ إذا نَظَرْنا إلى الفَرقِ في مَوضِعِهِ المُناسِبِ، أي بينَ الإحالَتَيْنِ أو فيهِما[5]، فسنكتَشِفُ أنَّ التَّعريفَ المُستَعمَلَ فِعليًّا في الحالةِ الأُولَى يتضَمَّنُ الحَيَوانَ، فبِحَديثِنا عن الغوريلّا نكونُ قد تحدَّثْنا عن الحَيَوانِ، ونكونُ بذلكَ قادِرينَ على أن نُحِيلَ مَرَّةً أُخرَى بِلا تَرَدُّدٍ على ما سَبَقَ أن أَحَلْنا عليهِ، في حينِ أنَّ الأُنسَ لم يَكُن مُتَضَمَّنًا على هذا النَّحوِ. فالحَقُّ أنَّ التَّعريفَ المُناسِبَ هوَ التَّعريفُ المُستَعمَلُ فِعلِيًّا[6]. [112]

---

(5) مِثالُ السُّؤالِ الزّائفِ النَّمَطِيِّ هوَ: أينَ يَكونُ مَكْمَنُ الفَرقِ؟

(6) لِهذهِ النُّقطةِ صِلَةٌ بِالخِلافِ بشأنِ العَلاقاتِ، كُلِّها أو بَعضِها: أداخِلِيَّةٌ هيَ أم خارِجِيَّةٌ؟ فالعَلاقَةُ الدّاخليَّةُ تبدو عَلاقَةً تَعريفيَّةً، وكلُّ عَلاقَةٍ تُستَعمَلُ على هذا النَّحوِ تبدو داخليَّةً. فَكَلِمَتا 'داخِلِيَّة' و'تَعريفيَّة' إذَن مُتَرادِفَتانِ، وعَلاقَةُ الكُلِّ بِالجُزءِ، عَلى سبيلِ المِثالِ، عَلاقَةٌ داخليَّةٌ ما دامَ الكُلُّ يُعَرَّفُ مُباشَرَةً بِاشتِمالِهِ على أجزائهِ، وكذلكَ عَلاقَةُ الجُزءِ بِالكُلِّ إذا ما عُرِّفَ الجُزءُ بِوَصفِهِ مُتَضَمَّنًا في الكُلِّ. أمّا العَلاقَةُ الخارجيَّةُ فهيَ أيَّةُ عَلاقَةٍ سِوَى العَلاقَةِ التَّعريفيَّةِ. ولَو كانَتْ عَلاقَةُ البروفيسور مُور G. E. Moore وهيَ 'يَسْتَلْزِمُ 'entails (*Philosophical Studies*, p. 291) عَلاقَةَ استِبدالٍ جُزئِيٍّ أو كُلِّيٍّ بينَ الرُّموزِ، مُرتَكِزَةً على تَطابُقِ الإحالةِ، ما كانَتْ هذهِ الأُطروحَةُ المُتعلِّقَةُ بِالعَلاقاتِ الدّاخليَّةِ لِتَختَلِفَ كَثيرًا حينَئذٍ عن التي قَدَّمَها البروفيسور مُور. على أنَّ ثَمَّةَ صُعوبَةً استِثنائيَّةً في اكتِشافِ ما تُقَرِّرُهُ الأطرافُ المُتعدِّدَةُ لِهذا الخِلافِ، وكلٌّ يَميلُ حقًّا إلى النَّوْحِ على عدَمِ قُدرَتِهِ على فَهمِ الآخَرِينَ.

فَلْنُحاوِلِ الآنَ مُعالَجَةً جَديدَةً لِلمُشكِلَةِ الأساسيَّةِ المُتعلِّقَةِ بِكَيفِيَّةِ التَّعريفِ، أو إحرازِ الرُّموزِ البَديلَةِ المطلوبَةِ في أيِّ نِقاشٍ. فنَحنُ نَعلَمُ[7] أنَّ 'الرَّمزُ إنَّما يُحِيلُ على ما استُعْمِلَ الرَّمْزُ فِعْلِيًّا لِيُحِيلَ عليهِ.' فيَنبَغي لَنا إذَن الكَفُّ عن افتِراضِ أنَّ النّاسَ يُحِيلُونَ عَلى ما كانَ 'يَجِبُ' أن يُحِيلُوا عليهِ، وألّا نُراعِيَ إلّا ما يُحِيلُونَ عليهِ فِعلِيًّا. والنُّقطةُ التي تُواجِهُنا في كلِّ نِقاشٍ هيَ النُّقطةُ التي في المُقَدِّمَةِ حَقًّا، والتي يَجِبُ أن تُفهَمَ أوَّلاً. وهيَ أنَّ علينا في كُلِّ الحالاتِ أن نَجِدَ المَرجِعَ. فكيفَ يُمكِنُ فِعلُ ذلكَ على أحسَنِ وَجهٍ؟

إنَّ الإجابَةَ عن هذا السُّؤالِ سَهلَةٌ وواضِحَةٌ. وذلكَ بِأن نَجِدَ أوَّلاً مَجموعةَ مَراجِعَ تَكونُ مُشتَرَكَةً يَقينًا بينَ جَميعِ المَعْنِيِّينَ، يُمكِنُ أن يُضْمَنَ الاتِّفاقُ عليها، ثُمَّ نُعَيِّنَ المَرجِعَ المطلوبَ مِن خِلالِ عَلاقَتِهِ بِهذِهِ المَراجِعِ.

ومِن حُسنِ الحظِّ أنَّ أنماطَ الارتِباطاتِ الأساسيَّةِ التي تُعنَى بِها النِّقاشاتُ قَليلةُ العَدَدِ، وإنْ كُنّا نَميلُ إلى أن نَعتَقِدَ، وعلى هذا النَّحوِ يَتَنَوَّعُ تَعقيدُ كَلامِنا، أنَّ الأشياءَ مَرتَبِطةٌ بِأيِّ عددٍ مِن الطَّرائقِ. ولا حاجَةَ بِنا هُنا إلى النَّظَرِ في سببِ هذا الفَقرِ: أهوَ الأثَرُ المُقَيِّدُ لِلُّغَةِ؛ إذ إنَّ وُجودَ عددٍ أكبرَ مِن الارتِباطاتِ يَجعَلُ قِيادَهُ يَتَعذَّرُ على بُسطاءِ المتكلِّمِينَ تَعذُّرًا تامًّا لا تَعذُّرًا جُزئيًّا، أم هوَ بِنيَةُ العَقلِ، أم هوَ البَساطَةُ الفِعليَّةُ في الكَونِ؟ ولِلأغراضِ العَمَليَّةِ تُحْصَرُ الارتِباطاتُ الأساسيَّةُ التي يُمكِنُ استِعمالُها في التَّعريفِ في تلكَ التي يُمكِنُ أن تتبادَرَ إلى الذِّهنِ الاعتِياديِّ عندَ تَسمِيَتِها مُباشَرَةً. فَلْنَنْظُرْ، على سبيلِ المِثالِ، في نُشوءِ التَّجْرِيدِ الذي نُسَمِّيهِ العَلاقَةَ المَكانِيَّةَ. فَفي كلِّ إحالاتِنا على المَوضوعاتِ المَكانِيَّةِ ثَمَّةَ عَناصِرُ أو خُيوطٌ مُشتَرَكَةٌ مُعَيَّنَةٌ تَكونُ فَعّالَةً. فلو أرَدْنا التَّفكيرَ أصلاً في المَكانِ مُقابِلاً لِلمَوضوعاتِ المَكانِيَّةِ لَكانَ علينا أن نُفَكِّرَ في تَتابُعٍ سَريعٍ في تَنَوُّعٍ مِن المَوضوعاتِ المَكانِيَّةِ مِن أجلِ أن تَظهَرَ العَناصِرُ المُشتَرَكةُ في الإحالاتِ. وقد أصبَحْنا قادِرِينَ في الوَقتِ المُناسِبِ على استِعمالِ هذهِ [113] الإحالاتِ

(7) بِوَساطةِ القانونِ الرّابعِ المذكورِ في الفَصلِ الخامسِ.

المُشتَرَكَةِ، أي العامَّةِ، على نَحوٍ مُستَقِلٍّ مِن غيرِ حاجَةٍ إلى بِنائها مِن جَديدٍ في كُلِّ مُناسَبَةٍ. ونَحنُ قادِرونَ الآنَ على استِعمالِها على وَفقِ حالةٍ واحِدَةٍ هيَ الإثارَةُ البَديلَةُ لِلرَّمزِ 'عَلاقَةٌ مَكانِيَّةٌ.'على أنَّ العَقلَ الاعتِياديَّ ما زالَ، إلّا في الحالاتِ القَليلةِ التي تكونُ لِمِثلِ هذهِ التَّجريداتِ فيها قِيمَةٌ عامَّةٌ، يَستَعينُ بِالأمثِلَةِ، والتَّشابُهاتِ، والاستِعاراتِ. وقِلَّةُ هذهِ التَّجريداتِ هيَ ما يُنقِذُ الحالَةَ اللُّغَويَّةَ. فلَو أنّا استَخدَمْنا نَحوَ مِئةٍ مِن أنماطِ الارتِباطاتِ المُختَلِفةِ جَذرِيًّا (وما زالَ هذا رَقمًا مُتَواضِعًا) لَكانَ مِنَ المُحالِ حَصرُ حالاتِ سُوءِ الفَهمِ النّاجِمِ عن تَنَوُّعِ إحالاتِنا.

فَلَمّا كانَت الارتِباطاتُ الأساسيَّةُ بِهذهِ القِلَّةِ قَصَرَتْ مُهِمَّةُ إنشاءِ نَظريَّةٍ لِلتَّعريفِ نَفسَها على تَأطيرِ قائمَةٍ مِن القَوائمِ. وجَميعُ المَراجِعِ المُمكِنَةِ مُرتَبِطَةٌ بِواحِدَةٍ مِن هذهِ الطَّرائقِ الأساسيَّةِ أو بِعددٍ منها معَ مَراجِعَ يُمكِنُنا جَميعًا أن نَنجَحَ في تَعْيينِها. ولا يَنبَغي لَنا أن نَفتَرِضَ أنّا بِإحالتِنا على أيَّةِ نُقطةِ اتِّفاقٍ ثابتَةٍ مُعَيَّنَةٍ نَجِدُ أنفُسَنا قادِرِينَ على الانطِلاقِ منها- نَفعَلُ أكثَرَ مِن الاتِّفاقِ على تَعْيينِها. ويَجِبُ أن نكونَ على حَذَرٍ مِن تَقديمِ نِقاطِ انطِلاقِنا على هذا النَّحوِ لِئلّا تُوَلِّدَ مُشكِلاتٍ جَديدَةً بِسَببِها. أي إنّا يَجِبُ علينا أن نَنتَخِبَها بِالإحالَةِ على العالَمِ المَخصُوصِ لِلخِطابِ الذي تَقَعُ فيهِ تَعبيراتُنا المُعَرَّفَةُ. فإذا رَغِبْنا، بِذلكَ، في الإشارَةِ إلى ما نُحيلُ عليهِ حينَ نَستَعمِلُ كلمةَ 'جَمال' كانَ علينا البَدْءُ بِانتِخابِ نِقاطِ انطِلاقٍ مُعَيَّنَةٍ، كالطَّبيعَةِ، أو المُتعَةِ، أو العاطِفَةِ، أو الصِّدْقِ، ثُمَّ قَولِنا إنَّ ما نُحيلُ عليهِ بِكَلِمةِ 'جَمال' هوَ أيُّ شَيءٍ يَقَعُ في عَلاقَةٍ مُعيَّنَةٍ (تَقليدِ الطَّبيعَةِ، والتَّسبُّبِ في المُتعَةِ أو العاطِفَةِ، والكَشفِ عَن الصِّدْقِ) بِهذهِ النِّقاطِ. أمّا تَفصيلُ كَيفِيَّةِ فِعلِ ذلكَ فَمَوضِعُهُ الفَصلُ القادِمُ.

وإذا سأَلَ شَخصٌ مّا عن مَكانِ مَيْدانِ كيمبرِج Cambridge Circus[(8)] كانَتْ إجابَتُنا: "أنتَ تَعرِفُ مكانَ المتحَفِ البريطانيِّ، وتَعرِفُ الطَّريقَ إلى شارِعِ

---

(8) مَيدانُ كيمبرِج: تَقاطعٌ مُروريٌّ في منطقةِ تقاطعِ شارِعِ شافتسبيري ومُفترَقِ تشيرنغ في مركزِ مدينةِ لندن. [المُترجِم]

شافتسبيري Shaftesbury Avenue[9]. فإذا ذَهَبْتَ إلى شارعِ شافتسبيري رأَيْتَهُ هُناكَ". [114] وثَمَّةَ أمرانِ يُمكِنُ أن يُلْحَظا-

(1) أنَّ نُقطةَ الانطِلاقِ يَجِبُ أن تكونَ مألوفَةً، ولا يُمكِنُ ضَمانُ ذلكَ في المُمارَسَةِ إلّا حينَ تكونُ شَيئًا نَحنُ مُلِمُّونَ بِهِ على نَحوٍ مُباشِرٍ لا على نَحوٍ رَمزِيٍّ (أي أنَّ مَعرِفَتَنا لَهُ لا تَقتَصِرُ على مَعرِفَةِ اسمِهِ)، أو شَيئًا ذا امتِدادٍ واسِعٍ ومُبْهَمٍ لا يَتضَمَّنُ أيَّ غُموضٍ في السِّياقِ الذي يُستَعمَلُ فيهِ. فعلى ذلكَ إن كانَ ثَمَّةَ شَخصٌ مّا في حدائقِ كينسِنغتن Kensington Gardens[10] وليسَ لَدَيهِ مِن الزَّمَنِ إلّا رُبُعُ ساعةٍ، وهوَ يَرغَبُ في مُشاهَدَةِ مَيْدانِ كيمبرِج، فأُخبِرَ أنَّ المَيْدانَ المذكورَ يَقَعُ خَلفَ ساحةِ لَيسيستَر Leicester Square[11]، فإنَّهُ سيُؤَجِّلُ زيارَتَهُ بالسُّرعةِ نَفسِها التي كانَ سيَكونُ عليها لَو أنَّهُ أُخبِرَ (بالغُموضِ نَفسِهِ ولِغَرَضٍ آخَرَ) أنَّهُ يَقَعُ في سوهو Soho[12].

(2) أنَّ حاجَتَنا في الأغراضِ التي هيَ أكثرُ صَرامَةً شِبْهُ دائمَةٍ إلى نِقاطِ انطِلاقٍ تُؤخَذُ مِن خارجِ الحالِ الكَلامِيَّةِ، أي أشياءَ نَستَطيعُ الإشارةَ إليها أو تَجرِبَتَها. ويُمكِنُنا على هذا النَّحوِ أن نُفيدَ في رُموزِنا مِن إيجابيّاتِ اللُّغاتِ الإيمائيَّةِ المذكورةِ آنِفًا. وبِذلكَ تَكونُ الإشارةُ إلى غِطاءٍ واقٍ لِظَهرِ كُرسِيٍّ أسهَلَ مِن وَصفِهِ عندَ وُجودِ أحَدِ هذهِ الاحتِرازاتِ.

وبَعدَ أن بَيَّنّا أهمِّيَّةَ نِقاطِ الانطِلاقِ، أي أن تَتَصَرَّفَ تَصَرُّفَ العَلاماتِ التي

(9) شارعُ شافتسبيري: شارعٌ رئيسٌ في النِّهايَةِ الغَربيَّةِ لِمدينةِ لندن. [المُترجِم]

(10) حدائقِ كينسِنغتن: حدائقُ مَلَكيَّةٌ خاصَّةٌ في قَصرِ كينسِنغتن في مَدينةِ لندن. تَقَعُ إلى الغَربِ من حديقةِ هايد بارك. وتُشَكِّلُ المساحاتُ المفتوحةُ في حدائقِ كينسِنغتن، وهايد بارك، وغرين بارك، وسَينت جيمس بارك 'الرِّئةَ الخضراءَ' في قلبِ لندن. [المُترجِم]

(11) ساحةُ لَيسيستَر: ساحةٌ لِلسّابلةِ في النِّهايةِ الغَربيَّةِ لِمدينةِ لندن. [المُترجِم]

(12) سوهو: منطقةٌ من مَناطقِ مدينةِ لندن، وهيَ جُزءٌ من النِّهايةِ الغَربيَّةِ لَها. يَحُدُّها من الجنوبِ مَيدانُ بيكاديلّي وشارعُ شافتسبيري ومَيدانُ كيمبرِج، ومن الشَّرقِ مُفتَرَقُ تشَيرِنغ، ومن الشمالِ شارعُ أوكسفورد، ومن الغربِ شارعُ ريجنت. [المُترجِم]

يُتَوَصَّلُ بِها إلى المَراجِعِ المطلوبةِ، يُمكِنُنا الآنَ أن نُعَدِّدَ بعضَ المَسالِكِ الرَّئيسَةِ التي تُفيدُنا في الاهتِداءِ إلى مَجالِ الإحالةِ. ولا يَنبَغي لَنا أن نَنسَى أنَّ الأحوالَ العَلاميَّةَ المُتَضَمَّنَةَ هُنا لا تَنشَأُ إلّا مِن خِلالِ تأويلاتٍ أُخرَى أبسَطَ هيَ مِن النَّوعِ الذي ناقَشْناهُ في الفُصولِ السّابِقَةِ. ومِن السَّهلِ رَمزيًا أن نَجعَلَ الحالَ التي تَنشَأُ عندَ التَّعريفِ تَبدو بَسيطَةً، لكِنْ إذا أدرَكْنا دِقَّةَ العَمليّاتِ والتَّكييفاتِ المطلوبَةِ فلَن نُفرِطَ في الثِّقَةِ بِالمُقارَناتِ الظّاهريَّةِ لِلرُّموزِ (المَنهَجِ المُعتادِ)، بَل سنُحاوِلُ، بَدَلاً مِن ذلِكَ، أن نَنظُرَ في ما يَحدُثُ فِعليًا.

وإذا سُئِلْنا في نِقاشٍ مّا: 'هل تَستَطيعُ تَعريفَ ألفاظِكَ؟'، أو تَذَمَّرَ أحَدُنا قائلاً: 'أنا لا أفهَمُ ما تَعْنيهِ بِالكَلِماتِ التي تَستَعمِلُها'، فإنّا نَسعَى إلى اكتِشافِ مَسلَكٍ مّا نَستَطيعُ بِوَساطتِهِ ضَمانَ فَهمٍ، أي تَعْيينٍ، لِلمَراجِعِ.

إنَّ الشَّخصَ المُلِمَّ إلمامًا تامًّا بِموضوعِهِ [115] وبِآليَّةِ التَّعريفِ لا بُدَّ أن يَكونَ قادِرًا، شأنُهُ في ذلكَ شَأنُ الرَّجُلِ المُرتَفِعِ عاليًا في مَتاهَةٍ، على تَوجيهِ المُسافِرينَ القادِمينَ مِن مُختَلِفِ الأماكِنِ إلى أيَّةِ نُقطَةٍ يَرغَبونَ في التَّوَجُّهِ إليها، وقد يُزادُ على ذلكَ بِالقَولِ إنَّ ارتِقاءَ السُّلَّمِ والإطلالَ على المَتاهَةِ هُما إلى حَدٍّ بَعيدٍ الأُسلوبُ الأمثَلُ لِلتَّمَكُّنِ مِن المَوضوعِ.

وعلى الرَّغمِ مِمّا رأَيناهُ آنِفًا مِن أنَّ العَلاقاتِ لا تُعَدُّ البَتَّةَ جُزءًا مِن مادَّةِ الطَّبيعَةِ، وعلى الرَّغمِ مِن أنّا حينَ نَظهَرُ بِمَظهَرِ مَن يَتحدَّثُ عنها إنَّما نَستَعمِلُها بِوَصفِها أدَواتٍ، وهذا لا يَتَضَمَّنُ مَراجِعَ حقيقيَّةً مُناظِرَةً لَها- حينَ تُستَعمَلُ على هذا النَّحوِ تَكونُ ثَمَّةَ عَلاماتٌ فارِقَةٌ مُتَنَوِّعةٌ يَحسُنُ أن تُجعَلَ مَسألَةَ تَيسيرٍ. وقد وَصَفْنا في بَدءِ بَحثِنا العَلاقَةَ التي يُقالُ إنَّها تَحدُثُ بينَ الرَّمزِ والمَرجِعِ بِأنَّها عَلاقَةٌ مَنسُوبَةٌ. ولَو أنّا قد اكتَفَيْنا بِوَصْفِها بِأنَّها عَلاقَةٌ غيرُ مُباشِرَةٍ لَكُنّا قد أسقَطْنا الفَرقَ المُهِمَّ بينَ العَلاقاتِ غيرِ المُباشِرَةِ المُدرَكَةِ بِوَصفِها غيرَ مُباشِرَةٍ وتِلكَ التي تُعامَلُ خَطَأً على أنَّها عَلاقاتٌ مُباشِرَةٌ. وبِذلكَ تَكونُ عَلاقَةُ الجَدِّ بِحَفيدِهِ غيرَ مُباشِرَةٍ على نَحوٍ أكبَرَ بِكثيرٍ مِنها في عَلاقَةِ الأبِ بِابنِهِ، ويُمكِنُ تَحليلُها إلى عَلاقَتَيْنِ أبَويَّتَيْنِ- 'أن تَكونَ أبًا لأبٍ (أو لأُمٍّ) لِـ' ولَن يَفتَرِضَ إلّا القَليلُ مِن النّاسِ أنَّ ثَمَّةَ عَلاقَةً

غيرَ مُباشِرَةٍ مُتَضَمَّنَةً هُنا، ما دامَتْ كُلُّ العَلاقاتِ الأُسَرِيَّةِ غيرَ مُباشِرَةٍ على نَحوٍ كَبيرٍ. على أنَّ مِمّا يَشيعُ كَثيرًا التَّحدُّثَ عن الحُبِّ، والكُرْهِ، والصَّداقَةِ، والتَّعاطُفِ، وما إلى ذلكَ، على أنَّها عَلاقاتٌ مُباشِرَةٌ، على الرَّغمِ مِن أنَّ الاختِبارَ يُظهِرُ فورًا عَدَمَ مُباشَرَتِها. على أنَّ السّايكولوجيَّةَ الاجتِماعيَّةَ بِأجمَعِها مُبتَلاةٌ بِعَلاقاتٍ مَنسُوبَةٍ مِن هذا النَّمَطِ، ومِن أجلِ تَفسيرِها استُحدِثَتْ في الغالبِ فَرضِيّاتٌ كَفَرضِيَّةِ الوَعيِ الجَمعِيِّ.

على أنَّ تَمييزَ العَلاقاتِ البَسيطَةِ مِن المُعَقَّدَةِ، مِن جِهَةٍ أُخرَى، مُختَلِفٌ شيئًا مّا. فعَدَمُ المُباشَرَةِ نَوعٌ واحدٌ فقط مِن التَّعقيدِ، ولَيسَ ضَروريًّا أن تكونَ العَلاقاتُ المُباشِرَةُ بَسيطَةً. فعَلاقَةُ 'أن تَكونَ عَمًّا كَريمًا لِـ'، على سَبيلِ المِثالِ، مُعَقَّدَةٌ؛ فهيَ مَزيجٌ مِن عَلاقَتَي 'أن تَكونَ كَريمًا تجاهَ' و'العَمِّيَّةِ.' ومُشابَهَةُ بَعضِ حَبّاتِ البازِلّاءِ [116] بَعضًا عَلاقَةٌ مُعَقَّدَةٌ؛ ذلكَ بِأنَّها مَزيجٌ مِن مُشابَهاتٍ مِن حيثُ الخُضرَةُ، والصَّلابَةُ، والصَّلاحيَّةُ لِلأكلِ، وما إلى ذلكَ. وهذهِ الاعتِباراتُ، على الرَّغمِ مِن أنَّها تَبدو أوَّلِيَّةً، ذاتُ نَفعٍ في كلِّ حينٍ يَكونُ علينا أن نتعامَلَ فيهِ مَعَ العَلاقاتِ.

فالمَسالِكُ التي نَبحَثُ عنها في سَعيِنا إلى الوُصولِ إلى المَرجِعِ المَطلوبِ هيَ العَلاقاتُ الواضِحَةُ التي يَقِفُ فيها هذا المَرجِعُ بِإزاءِ مَرجِعٍ مّا مَعروفٍ. وما مِن شَكٍّ في أنَّ عَدَدَ العَلاقاتِ المُمكِنَةِ كبيرٌ، لكِن، لِحُسنِ الحَظِّ، ما يُنتَفَعُ بِهِ عَمَلِيًّا منها يُقسَمُ، على ما بَيَّنّا سابِقًا، على مَجموعاتٍ قليلَةِ العَدَدِ. لِذا، فإنَّ لَدَينا في ما يأتي قائمَةً تُمَثِّلُ تصنيفًا تَمهيدِيًّا(13):-

1. التَّرميز *Symbolization*

هوَ أسهلُ طَرائقِ التَّعريفِ وأكثَرُها أساسيَّةً. فإذا سُئلْنا: عَلامَ يُحيلُ 'بُرتُقالِيٌّ'؟ فبِإمكانِنا تناوُلُ شَيءٍ مّا بُرتُقاليٍّ وأن نَقولَ: "'بُرتُقالِيٌّ' رَمزٌ يَرْمِزُ إلى

(13) Cf. further Psyche, Vol. X, No. 3, January, 1930, pp. 9 and 29.

هذا". والعَلاقَةُ التي نَستَعمِلُها هُنا هيَ التي ناقَشْناها في الفَصلِ الأَوَّلِ بِوَصفِها تُشَكِّلُ قاعدَةَ مُثَلَّثِنا. وقد ذَكَرْنا أَنَّها عَلاقَةٌ مَنْسُوبَةٌ يُمكِنُ تَقليصُها إلى عَلاقَةٍ بينَ رَمزٍ وفِعلٍ إحالِيٍّ وعَلاقَةٍ بينَ فِعلٍ إحالِيٍّ ومَرجِعٍ. ونُقطَةُ انطِلاقِنا هيَ كَلِمَةُ 'بُرتُقالِيّ'، ومَسلَكُ تَعريفِنا هوَ هذهِ العَلاقَةُ. أمّا المَرجِعُ المطلوبُ فَهوَ (هذا). وحَقيقَةُ ما نَفعَلُهُ هُنا هوَ التَّسمِيَةُ مُباشَرَةً.

على أَنَّهُ قد يُقالُ إنَّ (هذا) إنَّما يُخبِرُنا أنَّ 'بُرتُقالِيّ' قابِلٌ لِلتَّطبيقِ في حالةٍ واحدَةٍ فَقَط، وما نَرغَبُ في مَعرِفتِهِ هوَ كَيفِيَّةُ تَطبيقِهِ عُمومًا؛ فنَحنُ نَرغَبُ في تَوسيعِ التَّعريفِ لِيَشمَلَ كلَّ المَراجِعِ التي يَكونُ 'بُرتُقالِيٌّ' رَمزًا مُناسِبًا لَها. ويُمكِنُ تَنفيذُ هذا التَّعميمِ في كلِّ أنماطِ التَّعريفاتِ على النَّحوِ نَفسِهِ باستِعمالِ عَلاقاتِ المُشابَهَةِ. فيُمكِنُنا أن نَقولَ: "'بُرتُقالِيٌّ' يَنطَبِقُ على هذا وعلى كلِّ الأشياءِ المُشابِهَةِ في اللونِ لِهذا". وتَمييزُ إحدَى عَلاقاتِ المُشابَهَةِ مِن الأُخرَياتِ عِندَ المُمارَسَةِ يتطلَّبُ عُمومًا استِعمالَ [117] أمثِلَةٍ مُتَناظِرَةٍ، تَشابُهاتٍ في الحقيقَةِ، بِأَبسَطِ رُتْبَةٍ.

2. المُشابَهَة *Similarity*

بِذلكَ قد تُستَعمَلُ المُشابَهَةُ نَفسُها بِوَصفِها عَلاقَةً تَعريفِيَّةً. فمَرْجِعُنا المَطلوبُ يُشْبِهُ مَرجِعًا يَقَعُ عليهِ الاختِيارُ. فإذا سُئِلْنا: عَلامَ يُحِيلُ الرَّمزُ 'بُرتُقالِيٌّ'؟ فبِإمكانِنا تَعريفُ هذا الرَّمزِ بِتَناوُلِ شَيءٍ مّا بُرتُقالِيٍّ وأن نَقولَ: "الرَّمزُ 'بُرتُقالِيٌّ' يَنطَبِقُ على أيِّ شَيءٍ يُشْبِهُ هذا الشَّيءَ في اللَونِ". فقد أَحْلَلْنا هُنا 'يُشْبِهُ هذا في اللَونِ' مَحَلَّ 'بُرتُقالِيّ'، ومَرجِعُ الرَّمزَيْنِ واحِدٌ. فَنُقطةُ انطِلاقِنا هي (هذا) والعَلاقَةُ هيَ الشَّبَهُ، وكُلُّ مَن يَعرِفُ ما يَرْمِزُ إليهِ 'هذا' (أي أَنَّهُ ليسَ أَعمَى) ويَعرِفُ ما يَرْمِزُ إليهِ 'الشَّبَهُ' سيَكونُ حليفُهُ النَّجاحَ.

3. العَلاقاتُ المَكانِيَّةُ *Spatial Relations*

مِن الأمثِلَةِ الواضِحَةِ لَها: على، وفَوْقَ، وبينَ، وبِجانِبِ، وإلى اليَمينِ مِن،

وقُربَ، وأكبَرُ مِن، وجُزءٌ مِن. و"'بُرتُقاليٌّ' رَمزٌ لِلَونِ المنطقَةِ التي بينَ الأحمَرِ والأصفَرِ في الطَّيفِ (ولأيِّ لَونٍ كَهذا)". ويُلْحَظُ أنَّ عَلاقَةَ التَّسمِيَةِ مُتَضَمَّنَةٌ في هذا التَّعريفِ كما هيَ الحالُ في كلِّ تَعريفٍ، وأنَّ التَّعريفَ قابِلٌ لَلتَّوسيعِ على الدَّوامِ بِوَساطةِ عَلاقَةِ مُشابَهَةٍ. ومِن اللافِتِ لِلنَّظَرِ أنَّ بعضَ هذهِ الرُّموزِ الخاصَّةِ بِعَلاقاتِ المُشابَهَةِ غيرُ مُتَماثِلَةٍ. فبِذلكَ يَكونُ لَدَينا 'عَلَى'='فَوقَ وبِتَماسٍّ مَعَ'، لكِن لَيسَ ثَمَّةَ اختِصارٌ لِـ'تَحتَ وبِتَماسٍّ مَعَ' إلّا نَحْوُ هذهِ الكَلِمَةِ الغامِضَةِ 'سانِد.' وقد نَلحَظُ كذلكَ أنَّ مُعظَمَ الاستِعمالاتِ الشّائعةِ لِـ'عَلى' استِعارِيَّةٌ على نَحوٍ غَريبٍ جِدًّا بِحيثُ باتَ يُتَساءَلُ في شَكٍّ: أَلَيسَ ثَمَّةَ عَلاقَةٌ بَسيطَةٌ غيرُ قابِلَةٍ لِلتَّحليلِ لَمّا تُلحَظْ بَعْدُ. وسوفَ يُتَطَرَّقُ لاحِقًا في هذا الفَصلِ إلى المُقارَبَةِ الصَّحيحَةِ لِمُشكِلاتِ التَّوَسُّعِ الاستِعاريِّ.

4. العَلاقاتُ الزَّمانِيَّةُ *Temporal Relations*

'أَمْسِ' هوَ اليَومُ الذي يَسبِقُ يَومَنا هذا، و'الأَحد' [118] هوَ أَوَّلُ أيّامِ الأُسبوعِ، و'نِهايَة الحَربِ' هيَ x أشهُر بَعدَ الحَدَثِ y، و'وَقتُ الإِضاءَةِ' هوَ xدَقائق بَعدَ الغُروبِ.

5. السَّبَبِيَّةُ : الفيزيائيَّة *Causation : Physical*

'الرَّعْدُ' هوَ ما يُسَبِّبُهُ (ليسَ اصطِدام غَيمَتَيْنِ بَل) اضطِراباتٌ كَهرَبِيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ. و'نُشارَةُ الخَشَبِ' هيَ ما يُنتَجُ، وما إلى ذلكَ.

6. السَّبَبِيَّةُ : السّايكولوجِيَّة *Causation : Psychological*

'اللاشُعُورُ' هو الذي يُسَبِّبُ الأحلامَ، وحالاتِ الشُّرودِ، وحالاتِ الذُّهانِ، والمِزاجَ وسائرَ ذلكَ. أمّا 'السُّرورُ' فهُوَ 'المُصاحَبَةُ الواعِيَةُ لِلفَعّاليَّةِ النَّفسِيَّةِ النّاجِحَةِ'.

7. السَّبَبِيَّةُ : السّايكوفيزيائيَّة *Causation: Psycho-physical*

زِيادَةً على النَّماذِجِ المتَّصِلَةِ بِالجَمالِ التي ستُقَدَّمُ في الفَصلِ القادِمِ يُمكِنُنا تعريفُ 'إدراكٍ مّا لِلبرتُقالِيّ' بِأنَّهُ 'ما يُخَلِّفُهُ سُقوطُ اهتِزازاتٍ مُعَيَّنَةٍ على شَبَكيَّةِ العَيْنِ مِن أثَرٍ في الوَعْيِ'.

وقد تكونُ العَلاقاتُ السَّبَبِيَّةُ أكثَرَ مَسالِكِ التَّعيينِ شُيوعًا في الاستِخدامِ في النِّقاشِ العامِّ، وفي العِلمِ أيضًا. وعلى هذا الأساسِ عَرَّفَتْ وِجهةُ نَظَرٍ ذاتُ أهمِّيَّةٍ تأريخيَّةٍ عظيمةٍ الإلهَ بِأنَّهُ سَبَبُ الكَونِ، في حينِ تُعزَى أهمِّيَّةُ عِلمِ الأجِنَّةِ في التَّصنيفِ الحَيَوانيِّ إلى العَلاقاتِ التَّعريفيَّةِ السَّبَبِيَّةِ التي يُقَدِّمُها.

8. أن يَكونَ مَوضوعَ حالَةٍ ذِهنِيَّةٍ *Being the Object of a Mental State*

إنَّ الجانِبَ الأيمَنَ مِن مُثَلَّثِنا، أي الإحالَةَ، هوَ إحدَى هذهِ الحالاتِ، وكَذلكَ الرَّغبَةُ، والمَشيئةُ، والشُّعورُ، وما إليها. وبِذلكَ يُمكِنُ تَعريفُ 'الأشياءِ التي يُرثَى لَها' بِأنَّها الأشياءُ التي نَشعُرُ تجاهَها بِالشَّفَقَةِ، و'الأشياءِ الحَسَنَةِ' بِأنَّها الأشياءُ التي نَستَحسِنُ استِحسانَها.

9. العَلاقاتُ المُعَقَّدَةُ المُشتَرَكَةُ *Common Complex Relations*

تُصاغُ بعضُ التَّعريفاتِ في صُورَةٍ مُعَقَّدَةٍ على نَحوٍ مُلائمٍ جِدًّا. ففي الوَقتِ الذي تكونُ فيهِ قابِلَةً لأنْ تُحَلَّلَ إلى مَجموعاتٍ لِعَلاقاتٍ بَسيطَةٍ تَندَرِجُ تحتَ أحَدِ العُنواناتِ المذكورةِ آنِفًا، هيَ أكثرُ استِعدادًا لأنْ تُطَبَّقَ بِوَصفِها مُرَمَّزَةً على نَحوٍ شائعٍ. [119]

وأمثِلَتُها هيَ 'النَّفعُ' (قابِلٌ لِلتَّحليلِ إلى الرَّقمَيْنِ 7 و8)، و'المُحاكاةُ' (2 و7)، و'التَّضَمُّنُ' (1 و8).

10. العَلاقاتُ القانُونِيَّةُ *Legal Relations*

يتَكَرَّرُ كثيرًا استِخدامُ هذهِ العَلاقاتِ وتَضمينُها، وإنْ كانَتْ مُتَخَفِّيَةً كَثيرًا، لِذا استَحقَّتْ أن يُفرَدَ لَها عُنوانٌ بِرَأسِهِ، ثُمَّ إنَّها، فَوقَ ذلكَ، خاضِعَةٌ لِلاختِبارِ الاعتِباطِيِّ- إقناع مَن يَحكُمُ في أمرٍ مّا.

وأمثِلَتُها هيَ: 'يَنتَمي إلى' (حينَ يَكونُ مُساوِيًا لِـ'مَملوك لِـ')، و'مَوضوعٌ لِـ'، و'عُرضَةٌ لِـ'، و'دَليلٌ على.' وكلُّ التَّعريفاتِ القانونيَّةِ مُعَقَّدَةٌ جِدًّا، لكِنَّها معَ ذلكَ نافِعَةٌ.

إنَّ العَلاقاتِ المذكورةَ آنِفًا هيَ التي أظهَرَت التَّجرِبَةُ الكَثيرَةُ شُيوعَ استِخدامِها في التَّعريفاتِ. وأيَّةُ عَلاقاتٍ أُخرَى قد يُحتاجُ إليها لأغراضٍ خاصَّةٍ لا تَقِلُّ استِحقاقًا أن تُضَمَّنَ في قائمَةٍ مُتَكامِلةٍ- كالشَّكلِ، أو الوظيفَةِ، أو الغَرَضِ، أو التَّقابُلِ، على سبيلِ المِثالِ. لِذلكَ لا نَدَّعي أنَّ المجموعاتِ الثَّمانِيَ الأُولَى تَستَوعِبُ العَلاقاتِ الأَوَّلِيَّةَ ذَواتِ الصِّلَةِ، ولا أنَّ تلكَ العَلاقاتِ المُعقَّدَةَ التي أورَدْناها يُمكِنُ اختِزالُها مِن غيرِ سائرِ العَلاقاتِ التي على هذهِ الأنماطِ. ومُجمَلُ التَّصنيفِ إنَّما يَقومُ على أساسٍ براغماتيٍّ، وعلى مُستَوَى أكثرِ ما يُعتادُ مِن عَوالِمِ الخِطابِ فحَسْبُ.

وقد ثبَتَ كذلكَ عَدَمُ ضَرورةِ مُناقَشَةِ: أيُمكِنُ اختِزالُ جَميعِ العَلاقاتِ مَنطِقِيًّا في عَلاقَةٍ مُطلَقَةٍ واحِدَةٍ أو أكثَرَ؟ وعلى أيِّ نَحوٍ يكونُ ذلكَ؟[14]؛ إذ لَن يُسَبِّبَ أيُّ اختِزالٍ مِن هذا القَبيلِ اختِلافًا في قِيمَةِ التَّعريفاتِ التي تَناوَلْناها في مَجالِها المُلائم. بَل إنَّ التَّعريفاتِ التي فيها الكثيرُ مِن التَّعقيدِ، لانطِوائها على نَظَرِيّاتٍ مُختلِفَةٍ، يُمكِنُ اختِزالُها مِن غيرِ صُعوبَةٍ إلى مَقادِيرَ صَغيرَةٍ قابِلَةٍ لِلنِّقاشِ، إذ يُفَضَّلُ اختِبارُ صِحَّتِها بِوَصفِها أبدالاً. وفي هذا مَزيدُ إيضاحٍ لِحقيقَةِ أنَّ التَّعريفاتِ

---

(14) وبِذلكَ، استِنادًا إلى فَرضِيَّةِ أَلِكساندَر على سبيلِ المِثالِ (في كِتابِهِ **المَكانُ، والزَّمانُ، واللهُ** Space, Time, and Deity، 1، ص239)، "يُمكِنُ اختِزالُ العَلاقَةِ، في نِهايَةِ الأمرِ، في الجانِبِ المَكانيِّ-الزَّمانيِّ".

كَثيرًا مّا تكونُ على مَراحِلَ، كما في حالةِ السّائلِ عن مَيدانِ كيمبرِج حينَ لم يَكُن [120] المتحَفُ البريطانيُّ مألوفًا لَدَيهِ، فاحتاجَ إلى أن يُوَجَّهَ إلى هُناكَ أوّلاً مِن طَريقِ نَفَقِ السِّكَّةِ الحديدِيَّةِ مِن قَوْسِ الرُّخامِ Marble Arch(15).

ولا تَنشَأُ صُعوبَةٌ في هذا الصَّدَدِ بِسببِ العَلاقاتِ المُتَعَدِّدَةِ. فَالعَلاقَةُ المُتَعَدِّدَةُ تَكونُ بينَ أكثَرَ مِن اثنَيْنِ مِن الألفاظِ. وبِذلكَ يَكونُ الإدراكُ الحِسّيُّ، على ما أَكَّدَ الدُّكتور وايتهيد Whitehead حَديثًا، عَلاقَةً مُتَعَدِّدَةً تَنشَأُ بينَ مُدرِكٍ، ومَوضوعٍ، وشُروطٍ؛ والعَطاءُ عَلاقَةٌ مُتَعَدِّدَةٌ تَنشَأُ بينَ مُحسِنٍ، ومَنْحٍ، ومُستَفيدٍ. ونحنُ نَسلُكُ عندَ تعريفِ أيٍّ مِن هذهِ الألفاظِ أو عندَ اتِّخاذِنا أيًّا منها نُقطةَ انطِلاقٍ لِمَسلكٍ تعريفيٍّ، سُلوكَنا نَفسَهُ الذي نَسلُكُهُ معَ العَلاقاتِ المُزدَوِجَةِ- خَلا أنَّ الأَوْجُهَ يَجِبُ أن تُؤْخَذَ مِن أكثَرَ مِن مَعلَمٍ واحدٍ، حينَ يَقتَضي عالَمُ الخِطابِ مُستَوًى مُتَميِّزًا مِن الدِّقَّةِ. وبِخِلافِ ذلكَ لا يُمكِنُ الوُصولُ إلى المُعَرَّفِ. وبِذلكَ، قد يكونُ ضَروريًا في بعضِ المُناسَباتِ، عندَ تَعريفِ مَوضوعٍ مّا بِوَصفِهِ ما رَآهُ فُلانٌ، أن يُنَصَّ على الشُّروطِ- كَما في جلسَةِ استِحضارِ الأرواحِ، إذ يُحتاجُ إلى مَعرِفَةِ صَرامَةِ الاختِيارِ؛ أو كَما في الحُكمِ على قِطارٍ عابِرٍ بِأَنَّهُ قِطارٌ سَريعٌ، إذ علينا أن نَنظُرَ في سُرعَةِ قِطارِنا نَحنُ. على أَنَّهُ يُمكِنُ أن يُباشَرَ نَقاشٌ كَبيرٌ على نَحوٍ مُفيدٍ مِن غيرِ أن تَنشَأَ هذهِ الأحوالُ المُعقَّدَةُ.

إنَّ الجانِبَ العَمَليَّ في قائمةِ مَسالِكِ التَّعريفِ المذكورَةِ آنِفًا لَيستَحِقُّ التَّأكيدَ. إذ إنَّ الغايَةَ مِن مُطلَقِ استِعمالِ التَّعريفاتِ غايَةٌ عَمَلِيَّةٌ. فَنحنُ نستَعمِلُها لِجَعلِ النِّقاشِ أكثَرَ نَفعًا، ولِلأخذِ بِيَدِ مُختَلِفِ المُفَكِّرينَ إلى صَريحِ مُوافَقَةِ بَعضِهِم بَعضًا أو اختِلافِهِم. صَحيحٌ أنَّ ثَمَّةَ استِعمالاً لِلتَّعريفِ أكثَرَ إبهامًا مُستَمَدًّا مِن هذا الاستِعمالِ الأَوَّليِّ البَسيطِ. ولِلتَّعريفاتِ أهمِّيَّةٌ عَظيمةٌ في بِناءِ الأنظِمةِ العِلمِيَّةِ الاستِدلالِيَّةِ، التي هيَ ماكِناتُ التَّفكيرِ الأوتوماتيكيَّةُ التي يَكونُ المَنطِقُ والرِّياضيّاتُ، إنْ جازَ التَّعبيرُ، قَواعِدَ أو تَعليماتٍ لَها. ففي نِظامٍ استِدلاليٍّ

(15) قَوسُ الرُّخام: قَوسٌ لِلنَّصرِ أبيضُ يُمَثِّلُ مَعلَمًا من مَعالِمِ القرنِ التاسعَ عشرَ في لندن. [المُترجِم]

كالميكانيكا، على سبيلِ المِثالِ، إنَّما تَلتَحِمُ أجزاءُ النِّظامِ الرَّمزيِّ مَعًا مِن خِلالِ التَّعريفاتِ المُستَخدَمَةِ، [121] لِتُوَلِّدَ المُعالَجَةُ المُقَدَّمَةُ البارِعَةُ لِلرُّموزِ نَتائجَ قابِلَةً لِلمُوازَنَةِ حتَّى حينَ لا يَكونُ المُعالِجُ قد تَنبَّأَ بِطَبيعَتِها المُحدَّدَةِ. وهكذا، يكونُ لِهذِهِ الأنظِمَةِ ما يُعَدُّ الـ تَّعريفَ لِرَمزٍ مَخصوصٍ. وإذا ما رُوعِيَ النِّظامُ فَلَن يَكونَ لِلرَّمزِ سِوَى تَعريفٍ واحِدٍ فقط هوَ التَّعريفُ الصَّحيحُ أو المُلائمُ، أي أنَّ عَمَلَ النِّظامِ يَعتَمِدُ على استِخدامِ هذا التَّعريفِ.

ولِلمُتَخصِّصينَ المَعْنِيِّينَ كثيرًا بِأنظِمَةٍ كهذهِ مَيْلٌ طَبيعِيٌّ إلى النَّظَرِ إلى التَّعريفاتِ جَميعًا بِمِنظارٍ واحِدٍ. على أنَّ الكَثيرَ مِن مَوضوعاتِ النِّقاشِ المُثيرَةِ جِدًّا لِلاهتِمامِ لا يَقتَصِرُ الأمرُ فيها على تَفضيلِ ما يُخالِفُ ذلكَ تَمامًا مِن مَوقِفٍ أو عادَةٍ عَقليَّةٍ مِمّا يتعلَّقُ بِالتَّعريفاتِ، بَل الحَقُّ أنَّ ذلكَ ضَرورِيٌّ فيها مِن أجلِ أن يَكونَ النِّقاشُ مُثمِرًا. ولَمّا يُتَوَصَّلْ في عُلومِ الجَمالِ، والسِّياسَةِ، والنَّفسِ، والاجتِماعِ وغيرِها إلى مَرحَلَةِ التَّرميزِ النِّظامِيِّ بِتَعريفاتِهِ الثّابِتَةِ غيرِ القابِلَةِ لِلتَّغييرِ. ولَمّا تَبلُغْ بَعدُ هذهِ الدِّراساتُ عندَ أيٍّ مِن الباحِثينَ مُستَوىً عالِيًا مِن النُّضجِ يُتيحُ لَهُ تَحديدَ النِّظامِ الأكثَرِ نَفعًا والأَقَلِّ احتِمالاً لاستِبعادِ الجَوانِبِ المُهِمَّةِ. وإنَّ أعلَى العُلومِ نِظامِيًّا هِيَ التي تَتَعامَلُ معَ أبسَطِ جَوانبِ الطَّبيعَةِ. وما زالَت الموضوعاتُ التي هيَ أصعَبُ مِن غيرِها، والتي يَراها الكثيرُ مِن النّاسِ بِالطَّبعِ أكثَرَ مِنها جاذِبِيَّةً، في مَرحَلَةٍ تنطَوي على سُؤالٍ مَفتوحٍ هوَ: أيُّ تَرميزٍ يُستَحسَنُ أكثَرَ مِن غَيرِهِ؟ والأمرُ الأساسِيُّ الذي يَنبَغي تَفاديهِ في هذهِ المرحلةِ هوَ النِّزاعُ المَستورُ والمَخفِيُّ بينَ الأنظِمَةِ المُتنافِسَةِ في صُوَرِها الأولَى، الذي يَعُوقُ أكثَرَ مِن أيِّ شَيءٍ آخَرَ الفَهمَ المُتَبادَلَ حتّى بينَ الذينَ قد يكونونَ مُتَّفِقينَ. إنَّ الكثيرَ مِن التَّعبيراتِ المُستعمَلَةِ في النِّقاشاتِ التي يَرِدُ فيها بِاستِمرارٍ 'الإيمانُ'، و'الجَميلُ'، و'الحُرِّيَّةُ'، و'الخَيْرُ'، و'الاعتِقادُ'، و'الطّاقَةُ'، و'العَدلُ'، و'الدَّولَةُ' إنَّما تُستَعمَلُ مِن غَيرِ إحالَةٍ بَيِّنَةٍ؛ ذلكَ بِأنَّ المُتَكلِّمَ إنَّما تَتحكَّمُ بِهِ عاداتٌ لُغَوِيَّةٌ وإيمانٌ بَسيطٌ بِالحِيازَةِ الواسِعَةِ لِهذهِ العاداتِ. مِن هُنا يَأتي مَنظَرُ الغَضَبِ الشائعُ الذي يُثيرُهُ ما في المُستَمِعِ مِن بَلادَةٍ وعِنادٍ واضِحَيْنِ [122] "حَيْثُ يَكونُ الأمرُ بَديهِيًّا بِكلِّ تأكيدٍ".

على أنَّهُ حتَّى في هذهِ النِّقاشاتِ التي هيَ أكثَرُ نُدْرَةً والتي يَستَطيعُ فيها المُتكلِّمونَ أن يَكونوا أكثَرَ وُضوحًا، كَثيرًا ما يَكونُ المَيلُ الفِطرِيُّ الغَريبُ إلى اعتِقادِ أنَّ لِلكَلمةِ استِعمالَها الحَقيقيَّ أو الخاصَّ، وقَد لَمَسْنا جذورَهُ في السِّحْرِ، مانِعًا لِهذهِ القُدرَةِ على إنتاجِ التَّعريفاتِ مِن أن تكونَ ذاتَ أثَرٍ فاعِلٍ. ولا شَكَّ في أنَّ ثَمَّةَ عَوامِلَ أُخرَى مُتَضَمَّنَةً. فمِمّا يُسهِمُ في ذلكَ الافتِقارُ إلى المَرانَةِ المطلوبَةِ، والطُّقوسُ الأدَبيَّةُ المتعلِّقَةُ بِأناقَةِ الأُسلوبِ، وكَراهَةُ الظُّهورِ بِمَظهَرِ المُتَحَذلِقِ، والتَّخَفِّي الدِّفاعيُّ، واستِعمالاتٌ لُغَويَّةٌ وِقائيَّةٌ أُخرَى. لكِنَّ ما يَفوقُ ذلكَ كُلَّهُ بِمَراحِلَ المَوقِفُ الغَريزيُّ مِن الكَلِماتِ بِوَصفِها أوعِيَةً طَبيعيَّةً لِلسُّلطَةِ، وهو الموقِفُ الذي افتَرَضَتْهُ البَشَرِيَّةُ، على ما قد بيَّنّا، مُنذُ مَولِدِ اللُّغةِ، وما زالَتْ جَميعُ مَراحِلِ التَّعليمِ الأوَّلِيَّةِ تُؤَيِّدُهُ وتَحُثُّ عليهِ.

إنَّ الطَّريقَ إلى تَصحيحِ هذا المَيْلِ المُستَحكِمِ يَكونُ مِن خِلالِ مَزيدٍ مِن الأُلفَةِ معَ مَسالكِ تَعريفٍ أكثَرَ شُيوعًا، وإحساسٍ أكثرَ حَيَويَّةً، وهو ما تَسْهُلُ إثارَتُهُ بِوَصفِهِ جُزءًا مِن التَّعليمِ، بِأنَّ استِعمالَنا لأيَّةِ كَلِمةٍ مُقَدَّمَةٍ لِتَرْمِزَ إلى مَرجِعَنا في أيَّةِ مُناسَبةٍ ليسَ ناجِمًا عن مُلاءَمَةٍ مَخصوصَةٍ لِلكَلِمَةِ لِذلكَ المَرجِعِ المَخصوصِ، وإنَّما يُحَدِّدُهُ جَميعُ أنواعِ الحوادثِ الغَريبةِ في تأريخِنا الشَّخصيِّ. ويَنبَغي لَنا أن نَعُدَّ التَّواصُلَ أمرًا صَعبًا، والتَّناظُرَ الكبيرَ في الإحالةِ عندَ مُختَلِفِ المُفَكِّرينَ حَدَثًا نادِرًا نِسبيًّا. ويَجِبُ عَدَمُ الرُّكونِ إلى افتِراضِ أنَّهُ مَضمونٌ ما لَم يُعلَمْ كُلٌّ مِن نِقاطِ الانطِلاقِ ومَسالِكِ التَّعريفِ اللذَيْنِ بِوَساطتِهِما يُتَوَصَّلُ، في الأقَلِّ، إلى مُعظَمِ الرُّموزِ المُستَخدَمَةِ.

ونَحنُ في هذا الفَصلِ إنَّما نَقْصُرُ اهتِمامَنا على الإحالةِ وَحدَها تَوَخِّيًا لِلسُّهولَةِ. فَفي النِّقاشِ الفِعْلِيِّ يَكونُ استِعمالُ الألفاظِ مِن أجْلِ تأثيراتِها الإقناعيَّةِ والانفِعاليَّةِ يُوازي، في أقَلِّ تَقديرٍ، استِعمالَها مِن أجْلِ قيمَتِها الرَّمزيَّةِ الصّارِمَةِ. فأيُّ بَديلٍ لِـ'جَميل'، على سبيلِ المِثالِ، سوفَ يُخفِقُ إخفاقًا تامًّا وكَبيرًا بِحيثُ [123] يُفَضِّلُ الكثيرُ مِن النّاسِ استِعمالَ التَّعبيرِ بِكُلِّ مَحاذيرِهِ على اللُّجوءِ إلى المُصطَلَحِ السّايكولوجيِّ الذي قد يُقِرُّونَ بِأنَّهُ أكثَرُ إقناعًا مِن وِجهةِ النَّظَرِ العِلميَّةِ بإزاءِ وِجهَةِ النَّظَرِ الانفِعاليَّةِ.

والحقُّ أَنَّهُ كَثيرًا مّا يَستَحيلُ تَحديدُ أَوَّلِ ما يَكونُ عليهِ الاستِعمالُ المَخصوصُ لِلرُّموزِ: أَرَمزِيٌّ هوَ أَم انفِعاليٌّ؟ وهذا ما يَحدُثُ، بِالضَّبطِ، معَ أنواعٍ مَخصوصةٍ مِن الاستِعارَةِ. فَحينَ يَصرُخُ داوُدُ النَّبِيُّ شاكِيًا أعداءَهُ قائلاً: "سَنُّوا ألسِنتَهم كَحَيَّةٍ. حُمَةُ الأُفعُوانِ تَحتَ شِفاهِهِم"[16]، يَصعُبُ أن نُحدِّدَ: أَثَمَّةَ شَبَهٌ وَهمِيٌّ بينَ الحَيَّةِ والأشخاصِ الذينَ يَصِفُهُم يَجعَلُهُ قادِرًا على أن يَقولَ شَيئًا عنهُم على نَحوٍ استِعارِيٍّ، أم إنَّ الغايَةَ الوَحيدَةَ لِقَولِهِ هيَ ألّا يُبْدِيَ مَقْتَهُ لَهُم وأن يُنشِئَ لَدَى مُستَمِعِيهِ مَواقِفَ مُشابِهَةً نَحوَهُم. ومُعظَمُ تَعبيراتِ السِّبابِ والتَّحَبُّبِ تُوَلِّدُ هذهِ المُشكِلَةَ التي، لِحُسنِ الحظِّ، لا يُهِمُّ في العادَةِ حَسْمُها. أمّا الفَرقُ المُهِمُّ فهو الذي بينَ الأَقوالِ التي تكونُ الوظيفةُ الرَّمزيَّةُ فيها تابِعةً لِلفِعلِ الانفِعالِيِّ، والأَقوالِ التي يَصِحُّ فيها عَكسُ ذلكَ. أمّا الحالةُ الأُولَى فمَهما بَلَغَتِ الإحالاتُ التَّواصُليَّةُ فيها مِن التَّحديدِ والتَّفصيلِ فإنَّها يُمكِنُ أن تَكونَ حاضِرَةً بِطاقَةٍ آليَّةٍ أساسًا، بِوَصفِها وسيلَةً لِلتَّأثيراتِ الانفِعاليَّةِ. وأمّا الحالةُ الثّانيةُ فمَهما بَلَغَت التَّأثيراتُ الانفِعاليَّةُ فيها مِن القُوَّةِ فإنَّها يُمكِنُ أن تَكونَ حَصائلَ ثانويَّةً لا وَظيفةَ جَوهريَّةَ لها في الإجراءِ الكَلاميِّ. إنَّ تَميُّزَ العِبارَةِ العِلميَّةِ، وهيَ التَّطوُّرُ الجديدُ الحَديثُ لِلفعّاليَّةِ اللُّغَويَّةِ، يَكمُنُ في اقتِصارِها على الوَظيفةِ الرَّمزيَّةِ.

فإذا ما أُبقِيَ على هذا الاقتِصارِ، وإذا ما وُسِّعَ نِطاقُ مَناهِجِ التَّعبيرِ العِلميَّةِ لِيَشمَلَ مَيادِينَ كالتي يُعنَى بِها الفَلاسِفةُ عادَةً، فمِن الواجِبِ إعدادُ العُدَّةِ لِمُواجَهَةِ مَحاذِيرَ دَقيقَةٍ جِدًّا. مِن هذهِ المَحاذِيرِ ظُهورُ كَلِماتٍ، لا يُعرَفُ لَها عَدَدٌ حتَّى الآن، عُدَّتْ خَطَأً ذَوَاتِ وَظيفَةٍ رَمزِيَّةٍ مِن غيرِ أَدنَى شَكٍّ. مِثالُ ذلكَ كَلِمةُ 'حَسَن good'. [124] فَمِن المُحتَمَلِ أن تَكونَ هذهِ الكلمةُ في أساسِها مَجموعَةَ مُشتَرَكاتٍ لَفظيَّةٍ عُهِدَ مُنذُ القِدَمِ نُطقُها مُرتَبِطَةً بِمَجموعةِ أشياءَ، على نَحوٍ تَقريبيٍّ، (سَريرٌ حَسَنٌ، رَكلَةٌ حَسَنَةٌ، طِفلٌ حَسَنٌ، إلَهٌ حَسَنٌ) لا وُجودَ لِصِفَةٍ مُمَيِّزَةٍ مُشتركَةٍ بينَها. غيرَ أنَّ ثَمَّةَ استِعمالاً آخَرَ لِلكَلمةِ كَثيرًا مّا يَكونُ ظُهورُهُ مُؤَكَّدًا، يُفتَرَضُ أن يَكونَ بعضُ ما أَورَدْناهُ في الأَقَلِّ مَظاهِرَ تَحلُّلٍ لَهُ، حيثُ يُزعَمُ أنَّ كلمةَ 'حَسَن'

(16) سِفرُ المَزامير 140: 3. [المُترجِم]

تَرْمِزُ إلى مَفهومٍ فَريدٍ غيرِ قابلٍ لِلتَّحليلِ. ويُقالُ إنَّ هذا المَفهومَ هوَ موضوعُ عِلمِ الأخلاقِ[17]. ونَحنُ نذهَبُ إلى أنَّ هذا الاستِعمالَ الأخلاقيَّ المُمَيَّزَ إنَّما هوَ استِعمالٌ انفِعاليٌّ خالِصٌ. وإذا استُعمِلَت الكَلِمةُ على هذا النَّحوِ فإنَّها لا تَرْمِزُ إلى شَيءٍ البَتَّةَ، ولا تَكونُ لَها وظيفَةٌ رَمزِيَّةٌ. وبِذلكَ، حينَ نَستَعمِلُها على هذا النَّحوِ في جُملَةِ 'هذا حَسَنٌ' إنَّما نُحِيلُ على هذا، أمّا الزِّيادةُ 'حَسَنٌ' فلا تُحدِثُ فَرقًا في الإحالةِ البَتَّةَ. في حينِ أنّا إذا قُلْنا: 'هذا أحمَرُ' فإنَّ زِيادَةَ 'أَحمَرُ' على 'هذا' تَرمِزُ إلى امتِدادٍ في إحالتِنا، أي إلى شَيءٍ مّا أحمَرَ آخَرَ. أمّا 'حَسَنٌ' فلَيسَتْ لَهُ وَظيفةٌ رَمزِيَّةٌ مُشابِهَةٌ؛ فهوَ لا يَصلُحُ إلّا أن يَكونَ عَلامَةً انفِعالِيَّةً تُعَبِّرُ عن مَوقِفِنا مِن هذا، ورُبَّما تُثيرُ مَواقِفَ مُشابِهَةً عندَ أشخاصٍ آخَرينَ، أو تَحُثُّهُم على أفعالٍ مِن نَوعٍ أو آخَرَ.

ومَعرِفَةُ أنَّ الكثيرَ مِن أعظَمِ موضوعاتِ النِّقاشِ شُيوعًا مُبتَلًى بِكَلِماتٍ مِن هذا النَّوعِ فارِغَةٍ رَمزِيًّا لكِنَّها نَشِيطَةٌ انفِعالِيًّا خطوَةٌ تَمهيدِيَّةٌ أساسيَّةٌ على طريقِ امتِدادِ المَنهَجِ العِلميِّ إلى هذهِ المَوضوعاتِ. وخطوَةٌ أُخرَى هيَ اتِّخاذُ آلِيَّةٍ مّا يُتَيَقَّنُ بِوَساطتِها: أيٌّ مِن الكَلِماتِ لَها هذهِ الطَّبيعةُ، وما المناسَباتُ التي تَكونُ فيها كذلكَ؟ وقد يُشَكُّ في إمكانِ أن يُقَدِّمَ المنهَجانِ التَّجريبِيُّ والفِسيولوجيُّ في الوَقتِ الحاضرِ أيَّةَ نتيجَةٍ، غيرَ أنَّ الحَسمَ النِّهائيَّ لِلأمرِ لا يَكادُ يُمكِنُ تَوقُّعُهُ حتَّى نَحوزَ اختِباراتٍ مُستَقِلَّةً، على نَحوٍ مّا، [125] عن رَأْيِ المُتَكَلِّمِ.

وسَنجِدُ في كلِّ النِّقاشاتِ أنَّ ما يُقالُ لا تُحدِّدُهُ الأشياءُ التي يُحِيلُ عليها المُتكلِّمُ إلّا جُزئيًّا. إذ يَختَزِنُ النّاسُ، مِن غيرِ وَعيٍ مِنهم في كَثيرٍ مِن الأحيانِ،

---

(17) Cf. G. E. Moore, *Principia Ethica*, Chap. I.

ولا شَكَّ في أنّا إذا عَرَّفْنا 'الحَسَنَ' بِأنَّهُ 'الذي نَستَحسِنُ استِحسانَهُ'، أو قَدَّمْنا مِثلَ هذا التَّعريفِ الذي نَقولُ فيهِ: "هذا حَسَنٌ"، فإنّا نكونُ قد أنشَأْنا تَقريرًا. إنَّ ما نَقتَرِحُ ألّا يَكونَ إلّا عَلامَةً انفِعاليَّةً خالِصَةً هوَ كَلِمَةُ 'حَسَن' غيرُ القابِلَةِ لِلتَّعريفِ. وإنَّ ما يُزعَمُ عَدَمُ اشتِمالِ أيِّ تعريفٍ لِـ'حَسَن' عليهِ مِن نَحوِ 'شَيءٌ مّا أكثَرُ' أو 'شَيءٌ مّا غَيرُهُ' إنَّما هوَ بِمَنزِلَةِ العَبيرِ العاطِفِيِّ لِلكَلِمَةِ.

اهتِماماتٍ سابِقةً تُحدِّدُ استِعمالَهم لِلكَلِماتِ. فَإن لم نَكُن مُطَّلِعِينَ على أهدافِهِم واهتِماماتِهِم في تلكَ اللحظةِ فلنَ يكونَ في وُسعِنا أن نَعلَمَ: عَمَّ يتحدَّثونَ؟ أَوَ تُماثِلُ مَراجِعُهُم مَراجِعَنا أم تُخالِفُها؟

إنَّ الهَدَفَ يُؤَثِّرُ في المُفرَداتِ بِطَريقَتَيْنِ؛ إذ يُملِي أحيانًا خِيارَهُ مِن الرُّموزِ التي تُلائمُ المُناسَبَةَ على نحوٍ خاصٍّ، مِن غيرِ أن يُؤَثِّرَ في الإحالةِ. وهكذا، قد تَختَلِفُ لُغَةُ المُدَرِّسِ عندَ وَصفِهِ المِطياف لِطِفلٍ عن لُغَتِهِ التي يَصِفُهُ بِها لِزَميلِهِ أو لِمَخطوبَتِهِ، مِن غيرِ أن يكونَ ثَمَّةَ اختِلافٌ البَتَّةَ في إحالتِهِ. أو قد يُجرِي كاتِبٌ مّا مُتأَنِّقٌ كلَّ التَّنويعاتِ المُمكِنَةِ في كِتابتِهِ عبرَ سِلسِلةٍ مِن المُتَرادِفاتِ[18] مِن غيرِ تَغييرٍ في إحالتِهِ. مِن جِهَةٍ أُخرَى، يَستَعمِلُ الفيزيائيُّ لُغَةً مُختلِفَةً عن التي يَستَعمِلُها دَليلُهُ المُرشِدُ لِلحديثِ عن طَيْفِ الجَبَلِ بروكِن Spectre of the Brocken[19]؛ إذ يُؤَثِّرُ تغايُرُ هَدَفَيْهِما في لُغَتَيْهِما في هذهِ الحالةِ مِن خِلالِ تَغييرِ إحالَتَيْهِما.

ومِن الواضحِ أنَّ حالاتِ النَّوعِ الأَوَّلِ أبسَطُ بِكثيرٍ مِن حالاتِ النَّوعِ الثّاني؛ فهذِهِ الأخيرَةُ وَحدَها هيَ التي قد تُؤَدِّي إلى خِلافاتٍ عَقيمَةٍ. وهكذا، قد يُحيلُ أحَدُ المُتَجادِلِينَ عندَ حديثِهِ عن الرَّأيِ العامِّ على ما يَدعُوهُ الآخَرُونَ وِجهاتِ نَظَرِ لِمالِكِي صَحيفَةٍ مُعَيَّنَةٍ، فحينئذٍ سَيَميلُ النِّزاعُ بِشَأنِ إمكانِ تأثيرِ الصَّحافَةِ في الرَّأيِ العامِّ إلى أن يَكونَ غيرَ حاسِمٍ في ظِلِّ غِيابِ طَرَفٍ ثالِثٍ مُتَمَرِّسٍ في آلِيَّةِ التَّعريفِ. مِثلُ هذهِ الجِدالاتِ تَحدُثُ على نَحوٍ مُتَواصِلٍ حتَّى في أكثرِ الأوساطِ ذَكاءً، معَ أنَّها إذا ما سُلِّطَتْ عليها الأضواءُ النَّقدِيَّةُ الكاشِفَةُ كَثيرًا مّا يَظهَرُ أنَّها أكثَرُ حُمقًا مِن أن تَكونَ مُمكِنَةً.

---

(18) رُبَّما لا يَكونُ ثَمَّةَ مُترادِفاتٌ تامَّةٌ، أي كَلِماتٌ مُتَماثِلَةٌ في جَميعِ وَظائفِها. أمّا المُتَرادِفاتُ الجُزئيَّةُ التي تُستَعمَلُ لِلإحالةِ نَفسِها فشائعَةٌ.

(19) هو الظِّلُّ المُكَبَّرُ والهائلُ لِلشَّخصِ، الذي يَظهَرُ على السُّطوحِ العلويَّةِ لِلغيومِ المُقابِلةِ لِلشَّمسِ. ويُمكِنُ أن تَبدُوَ هذهِ الظاهرةُ في أيِّ جانبٍ ضَبابيٍّ لِلجبَلِ أو في كُتلةٍ غَيمِيَّةٍ أو حتَّى من الطائرةِ، لكنَّ الضَّبابَ المتكرِّرَ والمنفَذَ المنخفضَ الارتفاعِ اللذَيْنِ يَمتازُ بهما البروكِن، وهوَ قِمَّةٌ في جِبالِ هارتز في ألمانيا، كانا قد خَلَقا أسطورةً محلِّيَّةً استمَدَّتْ منها الظّاهرةُ اسمَها. [المُترجِم]

لكِنْ كيفَ تُمكِنُ إدارَةُ نِقاشٍ هَدَفُهُ [126] إزالَةُ الشَّكِّ بِشأنِ الشَّيءِ الذي يُحِيلُ عليهِ أطرافُ هذا النِّقاشِ: أواحِدٌ هُوَ أم مُتعدِّدٌ؟

ما يَجِبُ أوَّلاً هو أن نَتذكَّرَ أنَّهُ لَمّا كانَتْ خَلفِيّاتُ الأفرادِ الماضِيَةُ مُختَلِفَةً إلّا في جَوانِبَ مُعَيَّنَةٍ يَسيرَةٍ جِدًّا كانَ مِن المُحتَمَلِ أن تَختَلِفَ رُدودُ أفعالِهِم تجاهَ أيَّةِ كلمةٍ عامَّةٍ وأن يَختَلِفَ استِخدامُهُم لَها. فَسيكونُ ثَمَّةَ مَن تكونُ الكَلِمَةُ عندَهُم مُجَرَّدَ مُثيرٍ لإطلاقِ كَلِماتٍ أُخرَى مِن غيرِ ظُهورٍ لأيَّةِ إحالةٍ- البَبَّغائيُّونَ psittacists[20]، أي الذين يَستَجيبونَ لِلكَلِماتِ بالقَدرِ نَفسِهِ الذي قد يَستَجيبونَ بِهِ لِلنَّغَماتِ الأُولَى لِقِطعةٍ موسيقيَّةٍ يُواصِلونَ إكمالَ التَّرَنُّمِ بِها على نَحوٍ آليٍّ تَقريبًا. وسيكونُ في الطَّرَفِ الآخَرِ مَن تَرمِزُ كُلُّ كلمةٍ مُستَعمَلَةٍ عندَهُم إلى إحالةٍ مُحَدَّدَةٍ وواضِحةٍ تَمامًا. ونحنُ غيرُ مَعنِيِّينَ هُنا بِمَن يُمَثِّلونَ الحالةَ الأُولَى، أمّا الآخَرُونَ فما لَم يَكُن لَدَينا دليلٌ مُعتَبَرٌ يُفيدُ العَكسَ فَعلَينا أن نَفتَرِضَ أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ أفكارَهُم قد تكونُ واضِحَةً رُبَّما لَن تَكونَ أفكارًا لِلأَشياءِ أنْفُسِها. ومِن الواضِحِ أنّا لا نَستَطيعُ تعْيينَ المَراجِعِ إلّا مِن خِلالِ الإحالاتِ المُخَصَّصَةِ لَها. لِذلكَ قَد تَعُودُ إحالاتٌ مُختلِفةٌ إلى مَرجِعٍ واحِدٍ، ويَجِبُ ذلكَ في حالِ تَوافُرِ الشَّبَهِ الكافي بينَها، وضَمانُ الشَّبَهِ في الإحالةِ هوَ وَحدَهُ ما يَضمَنُ لَنا تعْيينَ مَراجِعِنا. ومِن أجلِ تحقيقِ ذلكَ يُفَضَّلُ أن يُرمَزَ إلى الإحالاتِ بِوَساطَةِ مَسالِكِ التَّعريفِ البَسيطَةِ التي تَطرَّقْنا إليها آنِفًا. ويَجِبُ علينا أن نَختارَ نِقاطَ انطِلاقٍ إمّا مِن الأشياءِ التي نَستَطيعُ الإشارَةَ إليها، وإمّا مِن الأشياءِ التي تَظهَرُ بِحُرِّيَّةٍ في التَّجربةِ الاعتِياديَّةِ. ويَجِبُ أن تكونَ المَسالِكُ التي نَربِطُ بِها نِقاطَ الانطِلاقِ هذهِ بِما نَرغَبُ فيهِ مِن المَراجِعِ مألوفةً تَمامًا، وهذا ما يَجعَلُنا مُحدَّدِينَ في المُمارَسَةِ بِأربعةِ مَسالِكَ وبِمُركَّباتِ

(20) البَبَّغائيُّونَ هُم المَنسوبونَ إلى البَبَّغائيَّةِ psittacism، والأصلُ اليونانيُّ لِهذهِ الكلمةِ هوَ (psittakos)، والأصلُ اللاتينيُّ لَهُ هوَ (psittacur)، ويَعني البَبَّغاءَ. وقد استَعمَلَ الفيلسوفُ لايبنِتز هذا المُصطَلَحَ لِلدَّلالَةِ على تَرديدِ ألفاظٍ لا تُقابِلُها مَوضوعاتٌ، إذ قالَ: "غالِبًا مَا نُفَكِّرُ بِالألفاظِ مِن غيرِ أن تكونَ الأشياءُ ذاتُها حاضِرَةً في أذهانِنا. إنَّ هذهِ المعرِفَةَ لا تُؤثِّرُ في القَلبِ ... إنَّها نوعٌ مِن البَبَّغائيَّةِ التي تُوَلِّدُ شَيْئًا في الذِّهنِ". [المُترجِم]

مِنها. وهيَ تلكَ التي يَجِبُ علينا أن نَعْرِفَها ونُمَيِّزَها مِن غيرِ خَطَإٍ مِن أجلِ أن نَبقَى أحياءَ- المُشابَهَةُ، والسَّبَبِيَّةُ، والمَكانُ، والزَّمانُ. على أنَّه كَثيرًا مَا يَكفي في المُمارَسَةِ البَدءُ مِن نِقاطِ أَقَلَّ أَوَّلِيَّةً وبِدائيَّةً، واتِّباعُ مَسالِكَ أكثَرَ خَطَرًا وتَعقيدًا. وهكذا يَكونُ 'المُوسَى' مُساوِيًا لِـ'آلَة تُستَعمَلُ لِلحِلاقَةِ' على نَحوٍ لا غُموضَ فيهِ، مِن غيرِ حاجَةٍ إلى مَزيدِ اختِزالٍ لِـ 'تُسْتَعْمَلُ لِـ' بِوساطَةِ التَّحليلِ. [127]

ويَجِبُ أن يُترَكَ لِلفُرصَةِ المُناسِبَةِ أمرُ تَقريرِ النُّقطةِ التي تكونُ تَعريفاتُنا عِندَها شامِلَةً بِما يَكفي. ولا يُؤَمَّلُ مِن النِّقاشِ الشَّفَويِّ، ما لَم يَكُن مُطَوَّلاً ومُتَواصِلاً بِإفراطٍ، إلّا القَليلُ ما عَدا الدَّوافِعَ والتَّلميحاتِ التي تكونُ نافِعَةً في جُهودٍ أكثَرَ جِدِّيَّةً. ولكِنْ حَيْثُما وُجِدَ سَبَبٌ لافتِراضِ أنَّ ثَمَّةَ لَفْظًا زِنبَقِيًّا يُستَخدَمُ، فَمِن دَواعي الحِكمةِ أن يُلجَأَ إلى جَمعِ أوسَعِ مَدًى مُمكِنٍ مِن استِعمالاتِهِ مِن غيرِ بَحثٍ في هذهِ المرحلةِ عن عُنصُرٍ مُشتركٍ بينَها. وإنَّ المُعجَمَ الجَيِّدَ لَيُحاوِلُ فِعلَ ذلكَ في كَلِماتٍ مُعَيَّنَةٍ، لكِنَّ ذلكَ عادَةً مَا يَكونُ مِن وِجهَةِ نَظَرٍ تأريخيَّةٍ ومِن غيرِ مَبْدَإٍ تَنظيريٍّ. والخطوةُ التّاليَةُ تكونُ بِتَرتيبِ هذهِ الاستِعمالاتِ مِن أجْلِ اكتِشافِ مَسالكِ التَّعيينِ الرَّئيسةِ المُتَبَنّاةِ لِلمَراجِعِ المَعْنِيَّةِ. وليسَ ضَروريًّا أن تَكونَ التَّعريفاتُ المُستَقِلَّةُ المَصوغَةُ على هذا النَّحوِ حاصِرَةً على نَحوٍ تَبادُلِيٍّ؛ فكثيرًا مَا تَشمَلُ المَراجِعَ أنفُسَها لكِنْ بِإحالاتٍ مُختَلِفةٍ. وقد تُواجِهُنا في هذهِ الحالاتِ مُشكِلَةُ مُستَوَياتِ الإحالةِ المُشارُ إليها آنِفًا. فَـ'حَيَوانٌ' في الحديثِ الدّارِجِ، و'ثَدْيِيٌّ' في عِلمِ الحَيَوانِ يَرْمِزانِ تَقريبًا إلى مَرجِعَيْنِ مُتَماثِلَيْنِ، أمّا الإحالَتانِ فتَختَلِفانِ اختِلافًا كبيرًا في تَحديدِ السَّلاسِلِ العَلامِيَّةِ المُتَضَمَّنَةِ وتَعقيدِها. فَهذهِ الاختِلافاتُ يَنبَغي، إن أمكَنَ، أن يُشارَ إليها في صِياغةِ التَّعريفاتِ. فالمطلوبُ هوَ أن يُبدِيَ كُلُّ تَعريفٍ بِوُضوحٍ مَدًى مُعَيَّنًا مِن المَراجِعِ. ولَو أبدَى تَعريفانِ المَدَى نَفسَهُ ما كانَ في ذلكَ بأسٌ؛ فالمُهِمُّ هوَ أن يكونَ كُلُّ مَدًى مُستَقِلّاً بِوُضوحٍ عن المَدَياتِ الأُخرَى مِن أجلِ أن يكونَ قابِلاً لِلمُعالَجَةِ على أساسِ مِيزاتِهِ الذّاتيَّةِ.

ويتمثَّلُ المَيْلُ الطَّبيعِيُّ لِمَن اعتادوا الإجراءَ التَّقليديَّ في تَوَقُّعِ أنَّهُ لَمّا كانَ ما يَظهَرُ أنَّهُ كَلِمةٌ واحدةٌ مُعَرَّفًا كانَتِ الرُّموزُ البَديلَةُ التَّناوُبِيَّةُ تَرْمِزُ إلى مَراجِعَ

تَشتَرِكُ في خَصيصَةٍ ذاتِ طبيعةٍ تَكادُ تَكونُ مُبهَمَةً. وهذا قد يَحدُثُ أحيانًا، أمّا البَحثُ عن إجابةٍ لِسؤالِ: أثَمَّةَ خَصيصَةٌ مُشتركةٌ مِن هذا القَبيلِ، فيَنبَغي تأجيلُهُ إلى مَرحلةٍ مُتَأَخِّرَةٍ جِدًّا عَمّا نَحنُ فيهِ. إنَّ أبسَطَ دِراسَةٍ لِلطَّريقةِ التي تَكتَسِبُ بِها الكَلِماتُ في الحديثِ الاعتِياديِّ الاستِعمالاتِ الثّانَوِيَّةَ العَرَضِيَّةَ [128] والوَفِيرَةَ مِن خِلالِ تَحَوُّلاتٍ استِعارِيَّةٍ بِدَرَجاتٍ مُختَلِفةٍ مِن الدِّقَّةِ، ومِن خِلالِ ما بِالإمكانِ تَسمِيَتُهُ عَوارِضَ لُغويَّةً، كافِيَةٌ لِتُظهِرَ أنَّ من غيرِ المُحتَمَلِ تَمامًا لِعُنصُرٍ مُشتَرَكٍ مَهما يَكُن قَدرُهُ أو أهمِّيَّتُهُ أن يَسرِيَ في جَميعِ الاستِعمالاتِ المُتعدِّدَةِ لِلكلِمةِ. ولا شَكَّ في اعتِمادِ كُلِّ تَحَوُّلٍ استِعارِيٍّ على عُنصُرٍ مُشتركٍ تَقتَسِمُهُ الإحالةُ الأصليَّةُ والإحالةُ التي تَستَعيرُ الرَّمزَ. ويَجِبُ أن تَستَوِيَ الإحالَتانِ في جُزءٍ مّا مِن سِياقَيْهِما. غيرَ أنَّ التَّداخُلاتِ المُمكِنَةَ بينَ السِّياقَيْنِ غيرُ قابِلةٍ لِلعَدِّ، وليسَ ثَمَّةَ ما يَدعو إلى تَوقُّعِ دَيمومَةِ استِعارَةِ أيَّةِ كلِمَةٍ خِصبَةِ السِّياقِ استِنادًا إلى تَساوي الشَّبَهِ أو التَّداخُلِ. وبِذلكَ، قد يَرمِزُ (A الجَميل) و(B الجَميل) إلى إحالَتَيْنِ تَشتَرِكانِ في شَيءٍ مّا، وكذلكَ (B الجَميل) و(C الجَميل)، غيرَ أنَّ هذا لا يستَتْبِعُ البَتَّةَ تَساوِيَ هذهِ العناصِرِ المشتركةِ، أو أن تَرْمِزَ الرُّموزُ الثّلاثةُ إلى مَراجِعَ تَقتَسِمُ أيَّ شَيءٍ مَهما يَكُنْ قَدرُهُ. مَعَ ذلكَ فالقَليلُ مِن الكُتّابِ المَعْنِيِّينَ بِمِثلِ هذهِ الكلماتِ الجَوّالَةِ مَن يُقاوِمُ إغراءَ بَدءِ دِراسَتِهِ بالبَحثِ عن المَعاني الأساسيَّةِ أو غيرِ القابلةِ لِلاختِزالِ.

وقد تَعاظَمَ هذا الإغراءُ بِمَيْلِ المُعجَماتِ إلى عَزلِ نَواةٍ اعتِباطِيَّةٍ مِن الاستِعمالاتِ رغبةً في الإيجازِ، وإلى مُعامَلَةِ المَعاني التي يُحتَمَلُ أن تَكونَ مَصدَرَ إشكالٍ كبيرٍ في النِّقاشِ بِوَصفِها 'مَيتَةً' أو'عَرَضِيَّةً.' وفي بعضِ الحالاتِ يُمكِنُ أن تُمَيِّزَ حالاً التَّغييراتُ التَّأريخيَّةُ والتَّعديلاتُ الصَّوتيَّةُ في الرَّمزِ نَفسِهِ.وهكذا يُمكِنُ تَمييزُ التَّحَوُّلاتِ في *persona - person - parson* مِن نَظرَةٍ إلى المُخطَّطِ الآتي[21]:-

(21) Greenough and Kittredge, *Words and their Ways in English Speech*, p.268.

1. A		قِناع
2. B + A		خَصيصَةٌ يُشارُ إليها بِقِناعٍ
3. B	..	خَصيصَةٌ أو دَورٌ في مَسرَحِيَّةٍ
4.	C + B	شَخصٌ يُمَثِّلُ خَصيصَةً
5.	C	مُمَثِّلٌ على العُمومِ
6.	D + C ..	مُمَثِّلٌ لِلكَنيسَةِ في الأَبرشِيَّةِ
7.	D	قَسٌّ [129]

كُلُّ هذا التَّطوُّرِ حَدَثَ في اللاتينيَّةِ، لكِنْ حينَ اقتُرِضَتِ الكلمةُ في الإنجليزيَّةِ بِصيغَةِ *persoun*، التي يَستَعمِلُها تشوسَر Chaucer[22]، تَسَبَّبَ تَحويلٌ وتَلاشٍ للاستِعارَةِ في B في إنتاجِ B1، أي التَّحَوُّلِ إلى 'personage'؛ و*parson* هيَ التَّهجِئَةُ الصَّوتيَّةُ لِهذهِ الصِّيغَةِ القُدمَى. وكَثيرًا مّا يُمكِنُ أن يُوقَفَ بِهذهِ الطَّريقةِ على ما يَقرُبُ مِن اثنَيْ عَشَرَ استِعمالاً لِلكَلِمةِ، وحَيثُما كانَ الفَصلُ التَّأريخيُّ أو الصَّوتيُّ غيرَ واضِحِ التَّحديدِ كانَ حُدوثُ الخَلطِ حَتمِيًّا، إلّا إذا كانَت المَوضوعاتُ المُحالُ عليها قابِلَةً لِلتَّمييزِ تَمامًا بِحَيْثُ تُشجِّعُ المولَعِينَ بالتَّورِيَةِ.

وإذا ما أَرَدْنا أن نَكونَ وَسَطِيِّينَ في تَعاطينا مَعَ وِجهاتِ النَّظَرِ المُتنافِسَةِ فأَوْلَى لَنا أن نَفتَرِضَ أنَّ المُتَنازِعِينَ مُستَقِلُّونَ مُصطَلَحِيًّا مِن افتِراضِنا أنَّهم يَجِبُ أن يَستَعمِلوا كَلِماتِهم بالطَّريقَةِ نَفسِها في جَميعِ الوُجوهِ. ففي الإجراءِ الأَوَّلِ، إنْ كانَ ثَمَّةَ عُنصُرٌ مُشتركٌ مُتَضَمَّنٌ حَقًّا كُنّا في وَضعٍ مُناسِبٍ لاكتشافِهِ. وفي الإجراءِ الثّاني، لا بُدَّ أن نَنحُوَ نَحوَ إساءَةِ تَأويلِ وِجهاتِ النَّظَرِ المَعْنِيَّةِ وأن نُغْفِلَ مُعظَمَ سِماتِها العاليةِ القِيمَةِ والمُتَميِّزَةِ حَقًّا. ويَجِبُ إرجاءُ القِيامِ بِتَوليفَةٍ مِن الآراءِ

(22) جيفري تشوسَر (1343-1400م). شاعرٌ إنجليزيٌّ من شُعَراءِ العُصورِ الوُسطَى. يُلَقَّبُ بِأبي الشِّعرِ الإنجليزيِّ، ويُعَدُّ من أقدَمِ الشُّعراءِ الإنجليز المعروفِينَ. يُعرَفُ بِعمَلِهِ المشهورِ (حِكاياتُ كانتَربَري). ومِن أعمالِهِ الأُخرى المعروفةِ: كتابُ الدّوقة، وترويلس وكريسيد. [المُترجِم]

المُتَنَوِّعَةِ، إن كانَتْ ثَمَّةَ مُحاولَةٌ في هذا الاتِّجاهِ، إلى حينِ إجراءِ اختِبارٍ مُتكامِلٍ قَدرَ المُستَطاعِ لِكلِّ وِجهةِ نظرٍ على حِدَةٍ. فالجهودُ المُبْتَسَرَةُ، التي يَتَواطَأُ على إغرائنا بِها جَميعُ مَواقِفِنا الطَّبيعيَّةِ مِن الرُّموزِ، مَعينُ تَخليطٍ لا يَنضُبُ.

وكَثيرًا مّا يَصعُبُ على الذينَ يُقارِبونَ الرُّموزَ بِطَيْشٍ أن يُصَدِّقوا أنَّ كَلِماتٍ مُريحَةً مِثلَ 'الجَمال' أو 'المَعْنَى' أو 'الصِّدْق' لَيسَتْ في الحقيقةِ كَلماتٍ مُفرَدَةً البَتَّةَ، بَل هيَ مَجموعاتٌ مِن الرُّموزِ غيرِ القابلةِ لِلتَّمييزِ ظاهِرِيًّا، وهيَ معَ ذلكَ مُتعارِضَةٌ كُلِّيًّا. على أنَّهُ ليسَ صَعبًا تَبَيُّنُ أسبابِ ذلكَ. فاللُّغةُ، التي تَطَوَّرَتْ أساسًا لإرضاءِ ضَروراتِ التَّعامُلِ العَمَليِّ اليَوميِّ، تُبدِي تَفاوُتًا كبيرًا في كَثافةِ تَوزيعِ وَحداتِها حينَ نَنظُرُ إليها مِن مِنظارِ حاجاتِنا النَّظَريَّةِ. وهكذا كثيرًا مّا يَكونُ على كَلِمةٍ مُفرَدَةٍ أن تُؤَدِّيَ وَظائفَ لَو قُيِّضَ لأدائها مِئةُ كَلمةٍ ما كانَ ذلكَ بالكَثيرِ. فما السَّبَبُ في تَمَنُّعِ اللغةِ كَثيرًا عن النُّمُوِّ عندَ هذهِ النِّقاطِ؟ تلكَ مُشكِلَةٌ مُحَيِّرَةٌ. [130] إذ إنَّ مِن المُمكِنِ مُعالَجَةَ نَقصِ الألفاظِ في العُلومِ الرّاسِخَةِ مِن غيرِ صُعوبَةٍ بِتَقديمِ ألفاظٍ جَديدَةٍ. أمّا إن كانَت العُلومُ في مَراحِلِها الأَوَّليَّةِ، قبلَ أن تَتطَوَّرَ لِتُصبِحَ مِن شَأنِ ذَوِي الاختِصاصِ، وحينَ تكونُ بَعدُ مِمّا يُهِمُّ عامَّةَ النّاسِ، فإنَّ مُقاوَمَتَها لِلألفاظِ الجَديدَةِ تَكونُ كبيرةً جِدًّا. وقد يُفَسِّرُ ذلكَ الافتِقارُ إلى القُوَّةِ الانفِعاليَّةِ التي هيَ السِّمَةُ المُمَيِّزَةُ لِجميعِ الآلِيّاتِ.

ونَجَمَ عن هذهِ النُّدرَةِ في الألفاظِ أنَّ أيَّةَ إحالةٍ، مَهما تَكُنْ، على هذهِ الموضوعاتِ المُتَضَوِّرَةِ جُوعًا تَكونُ مُجْبَرَةً على الإفادَةِ مِن الكلِماتِ القَليلةِ المُتَوافِرَةِ، ولا تُهِمُّ دَرَجَةُ تَميُّزِ مَراجِعِها مِن مَراجِعِ الإحالاتِ الأُخرَى التي تَستَعمِلُ هيَ *أيضًا الكَلِماتِ أَنفُسَها. وهكذا تَجْنَحُ كلُّ إحالَةٍ على الفَعّاليّاتِ* الإنسانيَّةِ غيرِ النَّظَرِيَّةِ ولا العَمَليَّةِ إلى أن تَرمِزَ إلَيها كلمةُ 'جَماليّ'، ويَجْنَحُ كلُّ ما لا يُهِمُّنا مُجَرَّدُ مَعرفتِهِ أو تَغييرِهِ إلى أن يُوصَفَ اشتِقاقيًّا بِأنَّهُ جَميلٌ. وهذا مِمّا قد نَستَطيعُ تَمييزَهُ، مَهما تَكُنِ المَواقِفُ تجاهَ الأشياءِ مُختَلِفَةً جَذرِيًّا. ويَضَعُ هذا أيدِينا على سببِ اللَّبْسِ المُفْرِطِ الذي تُسَبِّبُهُ جَميعُ الكَلِماتِ الشَّديدَةِ الأهمِّيَّةِ المُستَعمَلَةِ في النِّقاشِ العامِّ، وهوَ يُتِمُّ عَمَلِيّاتِ التَّحَوُّلِ الاستِعاريِّ المُعالَجَةِ قَبلَ قَليلٍ ويُقَوِّيها.

فَعلَينا قَبْلَ البَدْءِ بِأيِّ اختبارٍ جادٍّ لِهذهِ الموضوعاتِ أن نُزَوِّدَ أنفُسَنا بِقائمةٍ تَحوي ما أمكَنَ مِن الاستِعمالاتِ المُختلفَةِ لِلكَلماتِ الرَّئيسةِ. وسَبَبُ جَعلِ هذهِ القائمةِ مُتَكامِلَةً قَدرَ المُستَطاعِ، وخاضِعَةً بِلا شَكٍّ لِلفَهْمِ المُشتَرَكِ ولِلاجتِهادِ الاعتِياديِّ، سبَبٌ مُهِمٌّ. فَمِن الصُّعوبةِ البالغةِ في مَيادينَ كَهذهِ المُحافَظَةُ باطِّرادٍ على ما يُمكِنُ أن يُدعَى 'الإحساس بِالمَوضِعِ.' وتتضَمَّنُ عمليَّةُ الاستِقصاءِ قَدرًا كبيرًا مِمّا يَظهَرُ لِلمُستَقْصي أنَّهُ وَمَضاتُ بَصيرَةٍ، ولَمَحاتٌ فُجائيَّةٌ لِلصِّلاتِ بينَ الأشياءِ، ووَعيٌ فُجائيٌّ لِلمَزايا والفُروقِ. ومِن أجلِ الحِفاظِ على هذهِ جَميعًا يَنبَغي أن يُرمَزَ إليها، ما لَم تَظهَرْ أصلاً، كما هيَ الحالُ كَثيرًا، [131] في حالةٍ مُرَمَّزَةٍ سَلَفًا.

وما لَم تَتَوافَرْ هذهِ الخَريطَةُ لِلمَيادينِ القابلةِ لِلفَصلِ التي يَشمَلُها الاستِقْصاءُ فسيكونُ أيُّ افتِراضٍ مُبتَكَرٍ عُرضَةً لِلاختِلاطِ بِغَيرِهِ، لِيتضَرَّرا مَعًا، أو لِيُوَلِّدا تناقُضًا واضِحًا ذا أَصلٍ لَفظيٍّ خالصٍ. على أنّا لَو استَطَعْنا في الحالِ أن نَضَعَ الفِكرَةَ في مَوضِعِها المُناسِبِ لَجَرَّدْنا الحادِثَ العَرَضِيَّ القاضِيَ بِاستِعمالِ الكَلِماتِ أَنْفُسِها بِوَصفِها رُموزًا مُتمايِزَةً كُلِّيًّا مِن قُدرتِهِ على إقلاقِ تَوجيهِنا. ولا يَكفي مُجَرَّدُ التَّفريقِ لأغراضٍ خاصَّةٍ بينَ مَعنَيَيْنِ أو رُبَّما ثَلاثَةِ مَعانٍ لِكَلِمةٍ اصطُنِعَت استِجابَةً لِمُقتَضَياتٍ جَدَليَّةٍ مَخصوصَةٍ. ولا يُمكِنُنا البَتَّةَ التَّنَبُّؤُ بِالجُزءِ التّالي الذي سيُسَلَّطُ عليهِ الضَّوءُ مِن المَيدانِ الكُلِّيِّ، وما لَم نَعرِفْ بِإيجازٍ الإمكاناتِ المُتاحَةَ فمِن المُحتَمَلِ أن نَبقَى جاهِلِينَ حقيقةَ ما كانَتْ لَنا بِهِ بَصيرَةٌ.

وليسَ كُلُّ الكلماتِ يَستحِقُّ كُلَّ هذا العَناءِ. إذ يَسَعُنا أن نَفتَرِضَ، إلى حَدٍّ مّا، أنَّ ثَمَّةَ مَوضوعاتٍ مُعَيَّنَةً لا تَستَحِقُّ الاهتِمامَ، لكِنَّ النَّظَرَ المُدَقِّقَ يُوحي بِأنَّ هذهِ الموضوعاتِ، التي يُمَثِّلُ عِلمُ الأديانِ أُنموذجًا جيِّدًا لها، ما هيَ في أَنفُسِها إلّا أَنظِمةٌ كَلِميَّةٌ. لكِنْ حتَّى أكثَرُ المَيادينِ عُقمًا لَها أهمِّيَّتُها السّايكولوجيَّةُ، والذينَ يُقارِبونَ البَحثَ مُسَلَّحِينَ بِآلِيَّةٍ رَمزِيَّةٍ ولَهُم القُدرةُ على تَطبيقِ مَبادِئَ على شاكلةِ القَوانينِ المُعالَجَةِ في الفَصلِ السّابقِ يُمكِنُهُم أن يَأْمُلُوا كُلَّ يَومٍ وبِكُلِّ طريقَةٍ أن يَجِدوا أَنفُسَهُم أفضَلَ وأَفضَلَ.

وحتَّى الذينَ ينكَمِشونَ مِن تَشَدُّداتِ القوانينِ السِّتَّةِ يُمكِنُهُم إنجازُ شَيءٍ مّا. فقد ذَكَرَ شوبِنهاوَر Schopenhauer[23] في كِتابِهِ فَنُّ الجَدَل *Art of Controversy*، الذي قالَ بِشَأنِهِ: "أنا لا أعلَمُ أنَّ شَيئًا مّا قد أُنجِزَ في هذا الاتِّجاهِ، على الرَّغمِ مِن استِقْصاءاتي البَعيدَةِ والواسِعَةِ"، ما يَأتي: "لَو أَمكَنَ أن يَكونَ لِكُلِّ حِيلَةٍ اسمٌ قَصيرٌ وواضِحُ المُناسَبَةِ لَكانَ ذلكَ أمرًا جيِّدًا جِدًّا؛ فَإذا استَعمَلَ شَخصٌ مّا هذهِ الخدعَةَ المخصوصةَ أو تِلكَ وُبِّخَ حالاً على فِعلِهِ هذا". وعَزَّزَ هذا الاقتِراحَ نَعْتُ البروفيسور ديوي Dewey[24] [132] العَلامةَ اللفظيَّةَ بِالسِّياجِ، والبِطاقَةِ، والنّاقِلِ: أي أنَّها تَنتَقي المعانِيَ وتَميزُها مِن الفَراغِ، وتَجعَلُ ما كانَ مُعتِمًا وغامِضًا شاخِصًا كالكِيانِ الواضِحِ؛ وبَعدَ ذلكَ تَحتَفِظُ بِالمعنى المُثَبَّتِ بِهذهِ الطَّريقَةِ لِلاستِعمالِ المُستَقبَليِّ؛ ثُمَّ إنَّها أخيرًا تَجعَلُهُ قابِلاً لِلتَّطبيقِ والنَّقلِ إلى سِياقٍ جَديدٍ وحالٍ جَديدَةٍ. وإن شِئْنا قُلْنا بِلُغَةٍ أَقَلَّ ميتافيزيقيَّةً إنَّ الرَّمزَ يُعينُنا على فَصلِ إحالَةٍ عن أُخرَى، وعلى تَكرارِ إحالَةٍ سَبَقَ أن اجتَرَحْناها، وعلى اصطِناعِ إحالاتٍ ذَواتِ شَبَهٍ جُزئيٍّ في سِياقاتٍ أُخرَى. ويُفَضَّلُ كَثيرًا في جَميعِ هذهِ الطَّرائقِ أن تُلحَظَ الإجراءاتُ التي يَصطَنِعُها الجَدَليُّونَ.

هكذا يُمكِنُ أَن تُحَدَّدَ في الحالِ ثَلاثُ حِيَلٍ مِن هذا القَبيلِ. أُولَى هذهِ الحِيَلِ، وهي الخُدْعَةُ الصَّوتِيَّةُ Phonetic subterfuge، ستُعَدُّ بَسيطَةً بِحَيْثُ لا تكونُ خَطِرَةً ما لَم يَحمِلِ التَّأريخُ شَهادَةً على آثارِها. إنَّها تَكمُنُ في مُعامَلَةِ الكلماتِ

(23) آرثَر شوبنهاور (1788-1860م). فيلسوفٌ ألمانيٌّ معروفٌ بفلسفتِهِ التشاؤميَّةِ؛ إذ رأى الحياةَ شرًّا مُطلَقًا، وبَجَّلَ العدَمَ. أَلَّفَ كتابَ (العالَمُ إرادَةٌ وفِكرةٌ) الذي سطَّرَ فيهِ فلسفتَهُ، فربطَ بينَ الإرادةِ والعقلِ؛ إذ رأى العقلَ أداةً بيدِ الإرادةِ وتابِعًا لها. مِن مؤلَّفاتِهِ الأخرى: الإرادةُ في الطبيعة، والمُشكِلتانِ الأساسيَّتانِ في فلسفةِ الأخلاق. [المُترجِم]

(24) جون ديوي (1859-1952م). فيلسوفٌ، وعالِمُ نَفسٍ، ومُصلِحٌ تَربَويٌّ أمريكيٌّ، وزعيمٌ من زُعماءِ الفلسفةِ البراغماتيَّةِ، ومن مؤسِّسِي عِلمِ النَّفسِ الوظيفيِّ. ويُقالُ إنَّهُ هو مَن أطالَ عُمُرَ الفلسفةِ البراغماتيَّةِ، واستطاعَ أن يستعملَ بِلباقةٍ كلمتَيْنِ قريبتَيْنِ من الشعبِ الأمريكيِّ، هما العِلمُ والديمُقراطيَّةُ. مِن مؤلَّفاتِهِ: عِلمُ النَّفْسِ الجديد، والمدرسةُ والمُجتمَع، والمبادِئُ الأخلاقيَّةُ في التربية، وكيفَ نُفَكِّرُ، والفلسفةُ والحضارة. [المُترجِم]

التي تَبدو مُتشابِهَةً كما لَو أنَّ تَوَسُّعاتِها يَجِبُ أن تكونَ مُتَشابِهَةً. وأشهَرُ حالةٍ لِذلكَ استِعمالُ مِل Mill[25] لِـ'مَرغُوب فيهِ desirable' كما لَو أنَّهُ يَجِبُ أن يَتوَسَّعَ بالطَّريقةِ نفسِها التي يَتَوسَّعُ بِها 'مِن المُمْكِنِ أن يُرَى visible' و'مِن المُمْكِنِ أن يُعْلَمَ knowable'. والتُّهمَةُ في أمرِ هذهِ الخُدْعَةِ يَنبَغي تَوجيهُها إلى اللُّغةِ أكثرَ مِن تَوجيهِها إلى مِل، ومِن الواضِحِ أنَّها لَفظِيَّةٌ. و'مَرغوبٌ فيهِ' بِمَعنَى 'يَنبَغي أن يَكونَ مَرغوبًا فيهِ' يُمكِنُ اختِزالُهُ في 'مِن المُمْكِنِ أن يَرْغَبَ فيهِ عَقلٌ ذو نِظام مُعَيَّنٍ'[26]، لكِنَّهُ، بِوَصفِهِ رَمزًا، لا يُضارِعُ 'مِن المُمْكِنِ أن يُرَى' الذي بِمَعنَى 'مِن المُمْكِنِ أن يَراهُ أحَدٌ مَا'.

أمّا الخُدْعَةُ الثّانيةُ، وهيَ المُتعلِّقَةُ بِإضفاءِ الصِّفَةِ المادِّيَّةِ Hypostatic subterfuge، فتَعويقُها أصعَبُ؛ ذلكَ بِأنَّها إساءَةُ استِعمالٍ لِتَيسيرٍ لُغويٍّ أساسيٍّ. فإن أَرَدْنا التَّوَقُّفَ عن إطلاقِ أيِّ تَعليقٍ عامٍّ وَجَبَ علينا أن نُضَيِّقَ لُغَتَنا ونُكَثِّفَها، لكِن ليسَ ضَروريًّا أن نُضفِيَ الصِّفَةَ المادِّيَّةَ على تَضييقاتِنا. وقد أُحيلَ على هذهِ النُّقطةِ مِن حيثُ اتِّصالُها بِالكُلِّيّاتِ، أمّا مَدَى رَواجِ هذهِ المُمارَسَةِ ومَدَى تأثيرِها [133] فيُمكِنُ تبيينُهُما بِقائمةِ الألفاظِ الآتيةِ:- الفَضيلَةُ، الحُرِّيَّةُ، الدِّيمُقراطِيَّةُ،

(25) جون ستيوَرت مِل (1806-1873م). ابنُ الفيلسوفِ جَيْمس مِل. وُلِدَ بِلَنَدن، ولم يتلقَّ العِلمَ في المَدارسِ بَل علَّمَهُ أبوهُ. تأثَّرَ بِكتاباتِ فيلسوفِ النَّفعيَّةِ بينثام، وانخَرَطَ في جماعةِ الرّادِكاليِّينَ الفلاسفةِ التي كانَ أبوهُ مِن زُعَمائها. لكِن سرعانَ ما أُصيبَ بِرَدِّ فِعلٍ مُضادٍّ لِلآراءِ العقليَّةِ والأخلاقيَّةِ التي ذهبَ إليها أبوهُ والرّادِكاليّونَ الفلاسفةُ، ووقفَ على كتاباتِ سان سيمون وأوغست كونت وكوليرج فتأثَّرَ بها، فَعارَضَ المذهَبَ العقليَّ بِالمَذهَبِ الحِسِّيِّ. والمذهبُ العقليُّ يَعني عندَهُ المذهبَ الحَدْسِيَّ الذي يَزعُمُ أنَّ العَقلَ قَد فُطِرَ على المَعاني والمَبادِئ. ولَم يَنفِ الحَدْسَ تَمامًا بِوَصفِهِ مَصدرًا لِلمَعرفةِ، بل قَصَدَ تَقليلَ المسائلِ التي يدَّعي العقلُ العِلمَ بِها ما أمكَنَ. مِن أهَمِّ آثارِهِ: المَنطِقُ، ومَبادِئُ الاقتِصادِ السِّياسيِّ، ومَقالٌ في الحُرِّيَّةِ، والمَذهَبُ النَّفعِيُّ، وأوغست كونت والوَضعيَّة. [المُترجِم]

(26) قد طَوَّرْنا نظريَّةَ القِيمَةِ هذهِ في كتابِنا مَبادِئُ النَّقدِ الأدَبيِّ *Principles of Literary Criticism*، حيثُ تَخلَّصْنا مِن الحُجَجِ المطروحةِ بِالضِّدِّ منها مِثلِ 'المُغالَطَة الطَّبيعيَّة النَّزعَةِ naturalistic fallacy'.

السِّلْمُ، أَلمانيا، الدِّينُ، المَجْدُ. وجَميعُ الكلماتِ العالِيَةِ القيمَةِ، بَل التي لا غِنَى عنها، إنَّما لَها القُدرةُ على أن تُخَلِّطَ أوضَحَ المسائلِ ما لَم تُضبَطْ بِالقانونِ الثّالِثِ.

وأمّا الثّالثةُ، وهيَ الخُدْعَةُ الأُوتراكوِستِيَّةُ Utraquistic subterfuge[27]، فرُبَّما تكونُ قد جَعَلَت الحُجَّةَ التي هيَ أكثَرُ سُوءًا مَقبولةً أكثَرَ مِن أيِّ إجراءٍ جَدَلِيٍّ يُمكِنُ أن يُمارَسَ في حقِّ البَشَرِيَّةِ المُفعَمَةِ بِالثِّقَةِ. فقد عُرِفَ مُنذُ زَمَنٍ طَويلٍ أنَّ تَعبيرَ 'الإدراك الحِسِّيّ perception' إمّا أن يَكونَ مَرجِعُهُ فيزيائيًّا، وإمّا أن يكونَ ذِهنِيًّا. أَعَلَى ما يُدرَكُ يُحِيلُ، أم عَلَى إدراكِ هذا الشَّيءِ؟ فَكذلكَ قد تُحِيلُ 'مَعرِفَةٌ' على ما يُعرَفُ أو على مَعرِفَةِ ذلكَ الشَّيءِ. فَالخُدْعَةُ الأُوتراكوِستِيَّةُ تَكمُنُ في استِعمالِ ألفاظٍ تَصلُحُ في وَقتٍ واحِدٍ لِكِلا المَرجِعَيْنِ المُختلِفَيْنِ المَعْنِيَّيْنِ. والظُّهورُ النّموذَجِيُّ لَها حينَ يُستَخدَمُ لَفظُ 'جَمال'، إذ يُحالُ على نَحوٍ تَخليطِيٍّ على كُلٍّ مِن صِفاتِ المَوضوعِ الجميلِ وعلى التَّأثيراتِ العاطفيَّةِ لِهذهِ الصِّفاتِ في المُشاهِدِ.

وقد تُودَعُ الكلِمَةُ نَفسُها أَحيانًا اثنَتَيْنِ أو أكثرَ مِن هذهِ الخُدَعِ. وهكذا تكونُ كلمةُ 'جَمال' في مُعظَمِ المُناسَباتِ مَصدَرَ إجرامٍ مُزدَوِجٍ، أي إجرامِ إضفاءِ الصِّفَةِ المادِّيَّةِ والإجرامِ الأُوتراكوِستِيِّ.

وزِيادَةً على هذه العَنْوَنَةِ لِلحِيَلِ الجَدَلِيَّةِ يُمكِنُ وَضعُ مَجموعةٍ إضافيَّةٍ مِن قَواعِدِ التَّجرِبَةِ تكونُ دَليلاً عَمَلِيًّا على وَفقِ القَوانينِ السِّتَّةِ. وفي حَلقَةٍ نِقاشِيَّةٍ حَديثَةٍ لِلجَمعيَّةِ الأَرسطِيَّةِ لِلفَعّالِيَّةِ الذِّهنِيَّةِ، أُنجِزَ مُعظَمُها بِاستِعمالِ قَوسَي الاقتِباسِ، لم يَكُن مُفاجِئًا أن نَجِدَ البروفيسور كارفيث ريد Carveth Read[28] يُعَلِّقُ مَرَّةً أُخرَى

(27) الخُدْعَةُ الأُوتراكوِستِيَّةُ: عِبارةٌ طَوَّرَها أوغدِن ورِتشاردز في هذا الكتابِ لِتَصِفَ استعمالَ لَفظٍ يُمكِنُ أن يُحيلَ إمّا على مَرجِعِهِ الفيزيائيِّ وإمّا على مَرجِعِهِ الذِّهنِيِّ، ويبقَى هذا الإبهامُ مفتوحًا لِتأويلِ القارئِ أو المُستمِعِ. وقد قَدَّما مِثالاً لِذلكَ تَعبيرَ (الإدراك الحِسِّيّ). [المُترجِم]

(28) كارفيث ريد (1848-1931م). فيلسوفٌ، ومنطقيٌّ بريطانيٌّ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: المنطِقُ: الاستِدلاليُّ والاستِقرائيّ. [المُترجِم]

بِقَولِهِ: "لَطالَما أُدرِكَ أنَّ سَبَبَ سُوءِ الفَهمِ الأكثرَ شُيوعًا يَكمُنُ في اللَّبْسِ الحاصِلِ في الألفاظِ، ومعَ ذلكَ لا نُحقِّقُ إلّا القليلَ جِدًّا مِن التَّقدُّمِ في الاتِّفاقِ على التَّعريفاتِ. وحتَّى إنْ بَدَا أحيانًا أنّا مُتَّفِقونَ على استِعمالٍ لِكلمةٍ مُهِمَّةٍ، نَشَأَ اهتِمامٌ جَديدٌ، أو اكتَسَبَ الحياةَ اهتِمامٌ قَديمٌ، ثُمَّ إن اعتَقَدَ أنصارُهُ أنَّهُ سَيكونُ أكثرَ قُوَّةً باستِعمالِ تلكَ الكلمةِ على نَحوٍ آخَرَ فلن يتردَّدوا في تَغييرِهِ". [134]

وبَعدَ أكثرَ مِن سنَتَيْنِ نَجِدُ البروفيسور لَفجوي Lovejoy(29)، في المُلتَقَى السَّنَويِّ العاشِرِ لِلجَمعيَّةِ الفَلسفيَّةِ الأمريكيَّةِ، يُقاطِعُ سِلسِلةَ إساءاتِ فَهمٍ مُشابِهَةٍ بِقَولِهِ: "إذا ما أَرَدْنا الوُصولَ إلى الفَهمِ فلا بُدَّ مِن المَزيدِ مِن التَّقَيُّدِ بالتَّعريفاتِ. لا بُدَّ مِن تَحديدِ لجنَةٍ لِتَعريفِ الألفاظِ الأساسيَّةِ التي ستُستَعمَلُ في النِّقاشِ".

وحينَ نَنظُرُ في مِقدارِ الزَّمَنِ الذي نُمْضيهُ هذهِ الأيّامَ في نِقاشٍ كهذا وفي عَدَدِ الكَلماتِ التي نَنطِقُها في أثناءِ اليوم الواحِدِ- التَّقديرُ الحِسابيُّ هو أنّا نَنطِقُ ما بينَ 150 و250 كلمةً في الدَّقيقةِ- تتبيَّنُ لنا أهمِّيَّةُ معرفةِ أصنافٍ مُعَيَّنَةٍ مِن هذهِ الكلماتِ، وهي التي تكونُ عرضَةً لِلتَّضليلِ في الجَدَلِ.

ومِن حُسْنِ الحَظِّ أنَّهُ قد قيلَ: "ما يَبدو في عِلمِ النَّفسِ هوَ 'كائنٌ'". فَهَلْ ما 'يَبدو' واقِعِيٌّ؟ يُجيبُ بوزانكيه Bosanquet(30) بِقولِهِ: "كُلُّ شيءٍ واقِعِيٌّ ما دُمْنا لا نَتناوَلُهُ على غيرِ ما هوَ عليهِ". واعتَرَفَ البروفيسور أَلِكساندَر Alexander(31) قائلاً: "إنِّي أتحدَّثُ مِن غيرِ حَذَرٍ إلى حَدٍّ مّا عن العَقلِ بِوَصفِهِ

(29) آرثَر أونكين لَفجوي (1873-1962م). فيلسوفٌ أمريكيٌّ مُؤثِّرٌ، ومُؤرِّخٌ فِكريٌّ أسَّسَ الحقلَ المعروفَ بِتأريخِ الأفكارِ. درَسَ الفلسفةَ في البَدءِ في جامعةِ كالفورنيا، ثمَّ في جامعةِ هارفَرد على يَدِ وِليَم جَيْمس وجوزايا رويس. من مؤلَّفاتِهِ: القَيْدُ الوُجوديُّ الكبير، وتأمُّلاتٌ في الطبيعةِ الإنسانيَّة. [المُترجِم]

(30) برنارد بوزانكيه (1848-1923م). فيلسوفٌ، ومُنظِّرٌ سياسيٌّ إنجليزيٌّ. أثَّرَ في كثيرٍ مِن المُفَكِّرِينَ الذينَ عادوا فنقدوا فِكرَهُ فيما بَعدُ، مثل برتراند رَسِل، وجون ديوي، ووِليَم جَيْمس. مِن أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: النظريَّةُ الفلسفيَّةُ لِلدَّولة، ومَبدأُ الفرديَّةِ والقيمَة، وقيمَةُ الفَردِ ومَصيرُه. [المُترجِم]

(31) صاموئيل أَلِكساندَر (1859-1938م). فيلسوفٌ بريطانيٌّ أستراليُّ الأصلِ. كانَ لديهِ اهتِمامٌ =

شَيئًا"، وقالَ بِمَزيدٍ مِن الأَسَفِ: "قد استَعمَلْتُ الكَلِمَةَ التَّعِسَةَ (ظاهِرَة Phenomenon). وقد قَرَّرْتُ أَلّا أستَعمِلَ هذهِ الكلمةَ البَتَّةَ مرَّةً أُخرَى مِن غيرِ اعتِناءٍ بِتَعريفِ مَعناها. أمّا كيفَ يُمكِنُ أن يَقولَ السَّيِّدُ ستاوت Stout[32] إنّي أَصِفُ العَقلَ وكأَنَّهُ ليسَ بِظاهِرَةٍ فَمِمّا لا يُدرِكُهُ فَهمي. لقد قَصَدتُ بالكلمةِ العَدَمَ تَقريبًا". ويُذَكِّرُ هذا بِالمَثَلِ الذي ضَرَبَهُ كروتشة Croce[33] بِشأنِ المُتَسامِي Sublime[34]،

= بِعلمِ النَّفسِ. من مؤلَّفاتِهِ: النظامُ الأخلاقيُّ وتقدُّمُهُ، ولوك. [المُترجِم]

(32) جورج فريدرِك ستاوت (1860-1944م). فيلسوفٌ، وعالِمُ نفسٍ إنجليزيٌّ. دَرَسَ الفلسفةَ وعلمَ النَّفسِ ودرَّسَهُما في جامعةِ كيمبرِج، وكانَ برتراند رَسِل مِن بينِ تلاميذِهِ. كانَ مُحرِّرَ المجلَّةِ الفلسفيَّةِ الذائعةِ الصِّيتِ *Mind* بينَ سنتَيْ 1891 و1920. مِن مؤلَّفاتِهِ: عِلمُ النَّفسِ التَّحليليّ. [المُترجِم]

(33) بينيديتّو كروتشة (1866-1952م). فيلسوفٌ إيطاليٌّ من أتباعِ المدرسةِ الهيغليَّةِ الجديدةِ، وأستاذٌ في نابولي بينَ سنتَيْ 1902 و1920. تأثَّرَتْ فلسفتُهُ بفلسفةِ الرُّوحِ عندَ هيغِل، لكنَّ الرُّوحَ عندَهُ ليسَتْ هيَ اللهَ أو الفكرةَ، لكنَّها الواقعُ أو الخِبرةُ، وتأريخُها هو تأريخُ الخِبرةِ أو المعرفةِ. والخِبرةُ أو المعرفةُ عندهُ أربعُ درجاتٍ؛ أُولاها: الخبرةُ الإدراكيَّةُ التي يُدرَكُ بها ما هو جُزئيٌّ، وهي حَدسيَّةٌ عِيانيَّةٌ، مِن طريقِ الخيالِ، وهي المعرفةُ الجماليَّةُ، وميدانُها علمُ الجمالِ؛ وثانيتُها: الخبرةُ الإدراكيَّةُ التي يُدرَكُ بها ما هو كُلِّيٌّ، وهي حَدسيَّةٌ عِيانيَّةٌ، أي معرفة الكلماتِ، وهي منطقيَّةٌ صُورِيَّةٌ، وميدانُها علمُ المنطقِ؛ وثالثتُها: الخِبرةُ العمليَّةُ التي تَستَهدِفُ غاياتٍ فرديَّةً، وميدانُها علمُ الاقتصادِ؛ ورابعتُها: الخِبرةُ العمليَّةُ التي تَستَهدِفُ غاياتٍ كلِّيَّةً، وميدانُها علمُ الأخلاقِ. ومِن ثَمَّ يكونُ للنشاطِ الروحيِّ مستوياتٌ أربعةٌ هيَ: الجمالُ، والحقُّ، والمنفعةُ، والخيرُ. أمّا في فلسفةِ الفنِّ فيرى كروتشة أنَّ الفنَّ رؤيةٌ وحدسٌ كموضوعٍ خارجيٍّ (شيءٍ أو شخصٍ)، أو كموضوعٍ داخليٍّ (عاطفةٍ أو مِزاجٍ)، يُعبِّرُ عنهُ الفنّانُ باللغةِ أو اللونِ أو النغمِ أو الحجرِ. والعملُ الفنِّيُّ عندَهُ صورةٌ ذهنيَّةٌ يؤلِّفُها الفنّانُ ويُعيدُ متذوِّقُو الفنِّ تأليفَها، وليسَ الفنُّ سِوَى عرضِ الشعورِ مُجَسَّمًا في صورةٍ ذهنيَّةٍ. مِن أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: الإستطيقا عِلمًا للتعبيرِ وعلمُ اللغةِ العامّ، والمنطق، وما هو حيٌّ وما هو ميتٌ في فلسفةِ هيغِل، والمُجمَلُ في علمِ الجمال. [المُترجِم]

(34) التَّسامِي في عِلمِ الجَمالِ: صِفَةُ العَظَمَةِ، التي قد تكونُ فيزيائيَّةً، أو أخلاقيَّةً، أو فِكريَّةً، أو ميتافيزيقيَّةً، أو جماليَّةً، أو رُوحيَّةً، أو فنِّيَّةً. ويُحيلُ المُصطلَحُ على عَظَمةٍ تَفوقُ كُلَّ إمكانٍ لِلعَدِّ، أو القِياسِ، أو التَّقليدِ. ويَرجِعُ الأصلُ اللاتينيُّ لِلكلمةِ الأورُبِّيَّةِ بِوَصفِها مُصطلَحًا أدبيًّا إلى استِعمالِها بِهذا المعنَى في مَبحَثٍ يونانيٍّ مجهولِ المؤلِّفِ اسمُهُ =

إذ قالَ: "المُتَسامِي هوَ كُلُّ شَيءٍ يَدعُوهُ على هذا النَّحوِ أُناسٌ، أو سَوفَ يَدعونَهُ، وهُم الذينَ يَستَخدِمونَ هذا الاسمِ، أو سَوفَ يستخدِمونَهُ". والوظيفةُ الرَّئيسةُ لِمِثلِ هذهِ التَّعبيراتِ في النِّقاشِ العامِّ هيَ أن تَسلُكَ سُلوكَ المُهَيِّجاتِ Irritants، إذ تَستَثيرُ العَواطِفَ غيرَ ذَواتِ الصِّلَةِ بِتحديدِ المَرجِعِ. وفي ذلكَ قَدْحٌ في الوظيفَةِ الشِّعريَّةِ لِلُّغةِ التي سَنعودُ إليها.

إنَّ لِما يُمكِنُ أن يُدعَى عِلمَ تَحسينِ نَسْلِ اللغةِ Eugenics of Language مَجالاً واسِعًا، ليسَ بِأَقَلَّ مِن مَجالِ عِلمِ أخلاقِ الاصطِلاحِ Ethics of Terminology.

وبإلْماحِ السَّيِّدِ ألفريد سِدْغوِك Alfred Sidguick[35] إلى الاستِئصالِ اللُّغَويِّ الواعي، [135] لَفَتَ الانتِباهَ تَحتَ عُنوانِ "الكلِماتُ الفاسِدَةُ Spoilt Words" إلى الألفاظِ المُلْبِسَةِ التي يَستَعصي عِلاجُها. لكِنَّهُ غادَرَ هذهِ المُشكِلَةَ عندَ هذا الحدِّ مُكتَفِيًا بِتَقريرِها على هذا النَّحوِ. ونحنُ نَعلَمُ أنَّ اللغةَ أُوجِدَتْ قبلَ أن يتعلَّمَ

= (في التَّسامِي)، وقد كانَ يُنسَبُ قديمًا إلى عالِمِ البَلاغةِ لونجينوس الذي عاشَ في روما في القَرنِ الثالثِ الميلاديِّ. وترجِعُ فكرةُ التَّسامِي إلى التَّفرِقَةِ الخطابيَّةِ الشائعةِ منذُ زَمَنِ قُدماءِ الإغريقِ التي تُميِّزُ ثلاثةَ أساليبَ لِلكلامِ: المُتَسامِي، والمتوسِّطُ، والبَسيطُ. لكِنَّ لونجينوس المزعومَ أخرجَ هذهِ التَّفرقةَ من مُجرَّدِ تقسيمٍ لِلأساليبِ الكلاميَّةِ إلى التَّقديرِ النَّقديِّ للآثارِ الأدبيَّةِ بِصِفةٍ عامَّةٍ. والسِّمةُ المُمَيِّزَةُ لِلتَّسامِي عندَهُ متَّصلةٌ بالناحيةِ الوجدانيَّةِ لِلعملِ الأدبيِّ، ورأى أنَّ الفنَّ ينطبقُ بِخاصَّةٍ على ما سُمِّيَ بالعبقريَّةِ المُبدِعةِ الأصيلةِ، على حسابِ الالتزامِ بِقواعدِ النُّظمِ الصارمةِ. ويُلحَظُ أنَّهُ في اللغةِ الفرنسيَّةِ يُستعمَلُ لفظُ (التَّسامِي) في المعنَى المُشارِ إليهِ، ولكنَّهُ يُستعمَلُ أيضًا صِفَةً لِلأسلوبِ البليغِ، وأنَّ فكتور هوغو كانَ يستعمِلُهُ دومًا بِمعنًى خاصٍّ هو كلُّ ما يُثيرُ الميولَ المُتَسامِيَةَ في النَّفْسِ لِيشمَلَ المأساةَ والجَمالَ والمِثاليَّةَ، ويُخالِفُ الهَزْلِيَّ والمَلهاةَ والقُبْحَ. [المُترجِم]

(35) ألفريد سِدْغوِك (1850-1943م). مَنطقيٌّ، وفيلسوفٌ إنجليزيٌّ. درَسَ في كلِّيَّةِ لِنكولن التابعةِ لجامعةِ أوكسفورد. أكثرُ ما يُعرَفُ بِهِ تحليلُهُ لِلمُغالَطاتِ. عارَضَ المنطقَ الصُّوريَّ ووَجَّهَ اهتِمامَهُ إلى المَنافعِ العمليَّةِ التي يجبُ أن تَعودَ بها دراسةُ المنطقِ. من مؤلَّفاتِهِ: المُغالَطاتُ- نظرةٌ في المنطقِ من الجانبِ العمليِّ، والبحثُ عن مَعنًى، ومَلحوظاتٌ نقديَّةٌ. [المُترجِم]

النّاسُ التَّفكيرَ، والذينَ أوجَدوها، بِحَسَبِ تعبيرِ مِل، هُمُ 'العامَّةُ'، وما زالَت تُصطَنَعُ على هذا النَّحوِ بالشَّكلِ الذي نستَعمِلُها بِهِ في حِواراتِنا، على الرَّغمِ مِن مِقدارِ الأسَفِ الذي نَشعرُ بِهِ تجاهَ هذهِ الحقيقةِ. ومِمّا يُشَكُّ فيهِ كثيرًا مِقدارُ ما نُسْهِمُ بِهِ في زِيادَةِ التَّخليطِ الموجودِ بِسَعيِنا إلى تَقييدِ مَعنَى هذهِ التَّعاساتِ. فحينَ نتذَكَّرُ أنَّ التَّرابُطاتِ العاطفيَّةَ وغيرَها مِن التَّرابُطاتِ لا تتجَمَّعُ حَولَ الكَلِماتِ فقط، بَل إنَّ فِكتور هوغو Victor Hugo[36]، مَثَلاً، (على ما أشارَ إليهِ رِيبو Ribot) رَأى في كلِّ حَرفٍ تَمثيلاً رَمزيًا لِجانبٍ أساسيٍّ مِن المَعرِفةِ الإنسانيَّةِ[37]، نَكونُ مُتَفائلِينَ، إلى حدٍّ مّا، بِوَضعِ ثِقَتِنا في فاعِلِيَّةِ تَقييدِ المَعنَى في النِّقاشِ. وقالَ ماكس مُلَر Max Müller: "أعتَقِدُ أنَّهُ سيكونُ حَقًّا مِن المُفيدِ جِدًّا لِلعُلومِ العقليَّةِ أن تُقصَى لِبَعضِ الوَقتِ جَميعُ الألفاظِ مِن أمثالِ الانطِباعاتِ، والأحاسيسِ، والنَّفسِ، والرُّوحِ، وسائرِها، ولا يُسمَحَ لَها بالعَودَةِ ثانيةً إلى حينِ خُضوعِها لِتنقِيَةٍ شامِلَةٍ". وقد نَجَحَ الدُّكتور سارغنت فلورِنس Sargant Florence[38] في استِخدامِ هذهِ الطَّريقةِ في تَحليلِهِ الرّائعِ لِـ اقتِصادِيّات الإجهادِ والقَلَقِ *Economics of Fatigue and Unrest* (1924) بالتَّخلُّصِ التّامِّ مِن لَفظَي 'الإجهادِ' و'القَلَقِ' في

---

(36) فِكتور هوغو (1802-1885م). أديبٌ، وشاعرٌ فرنسيٌّ. يُعَدُّ من أكبرِ أدباءِ فرنسا في الحقبةِ الرومانسيَّةِ. تُرجِمَتْ مؤلَّفاتُهُ إلى أغلبِ اللغاتِ المنطوقةِ. أثَّرَ في العصرِ الفرنسيِّ الذي عاشَ فيهِ، وتُعَدُّ الحُرِّيَّةُ من أهمِّ الجوانبِ في حياةِ كاتبِ أحدَبِ نوتردام المشهورِ؛ فهيَ الكلمةُ التي تتردَّدُ لديهِ كثيرًا. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: أحدَبُ نوتردام، والبُؤَساء، وعُمّالُ البحر. [المُترجِم]

(37) تُقَدِّمُ أهمِّيَّةُ الخَطِّ في الكِتابةِ الصِّينيَّةِ مِثالاً لِلتَّطفُّلِ الجَماليِّ على نِظامٍ لِلعَلاماتِ النَّثريَّةِ- حتَّى في المواضِعِ التي تَختَفي فيها الجاذِبيَّةُ التَّصويريَّةُ لِلعَلاماتِ أنفُسِها.

(38) فيليب سارغنت فلورِنس (1890-1982م). رَجُلُ اقتِصادٍ أمريكيٌّ. أمضَى مُعظَمَ حياتِهِ في المَملكةِ المُتَّحِدَةِ. وُلِدَ في نيوجيرسي في الولاياتِ المُتَّحدَةِ، وتخرَّجَ في جامِعَةِ كيمبرج في إنجلترا، وحازَ درجةَ الدُّكتوراه من جامعةِ كولومبيا في نيويورك. وفي سنةِ 1921 عُيِّنَ مُحاضِرًا في الاقتِصادِ في جامعةِ كيمبرج. وفي سنةِ 1929 أصبَحَ أُستاذًا لِلتِّجارةِ في جامعةِ برمنغهام، حيثُ بَقِيَ حتَّى بلغَ سِنَّ التَّقاعُدِ في سنةِ 1955. أهَمُّ آثارِهِ كتابُ (اقتِصادِيّاتُ الإجهادِ والقَلَق). [المُتَرجِم]

المَراحلِ الأُولَى (مِن الفَصلِ الأَوَّلِ إلى الفَصلِ الحادي عَشَرَ) مِن بَحثِهِ.

"لا تُغَيِّروا أبَدًا الأسماءَ القَومِيَّةَ؛ فقد وَهَبَ اللهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أسماءً لَها قُوَّةٌ في الغَوامِضِ غيرُ قابِلَةٍ لِلتَّفسيرِ". هذا ما قالَهُ كاهِنٌ كِلدانيٌّ لهُ بَصيرةٌ ثاقِبَةٌ. لكِنْ في البُحوثِ النَّثريَّةِ التي تَستَهدِفُ تَجنُّبَ الطَّلاسِمِ يَجِبُ نَبذُ كُلٍّ مِن الألفاظِ المُهَيِّجَةِ Irritants والمُنْحَلَّةِ Degenerates بِلا هَوادَةٍ؛ فأمّا الألفاظُ المُهَيِّجَةُ فلِقُدرَتِها على استِثارَةِ عَواطِفَ مُزعِجَةٍ، وأمّا الألفاظُ المُنْحَلَّةُ فَلِتَعدُّدِ مَراجِعِها المُتَرابِطَةِ. [136] وما مِن داعٍ في هذا المَقامِ إلى أن نَجمَعَ قائمةَ المُحتَوَياتِ المُنَقَّحَةَ المُشتَمِلَةَ على كلِّ ذلكَ ابتِداءً بِـ'الظُّهورِ Appearance' وانتِهاءً بِـ'الواقِعِ Reality'، أو بِأقرَبِ ما يُمكِنُ مِن الحَرفِ Z.

وثَمَّةَ صِنفٌ آخَرُ مِن الكلماتِ التي يُمكِنُ أن توضَعَ على نَحوٍ مُفيدٍ خارِجَ مَدَى الخِلافِ المشروعِ. إذ يتحدَّثُ ماثيو أرنولد Matthew Arnold(39) عن "تَعبيراتٍ تُطرَحُ طَرْحًا، إن جازَ التَّعبيرُ، على مَوضوعٍ يتعلَّقُ بِوَعيِ المُتكلِّمِ ليسَ في المُتَناوَلِ تَمامًا". وما دُمْنا نُدرِكُ الوظيفةَ الصَّحيحةَ لِهذهِ التَّعبيراتِ المُسْتَجْدِيَةِ Mendicants، على ما يُمكِنُ أن تُلَقَّبَ بهِ، فإنَّها ستُسَبِّبُ القَليلَ مِن الإشكالِ. ويَنبَغي ألّا تُعامَلَ مُعامَلَةً قاسيَةً البَتَّةَ، والعِلاجُ إنَّما يَكونُ بِإضفاءِ نَوعٍ مِن التَّثبيتِ على هذهِ التَّعبيراتِ.

ويَنبَغي التَّفريقُ بينَ التَّعبيراتِ المُسْتَجْدِيَةِ التي يُمكِنُ افتِراضُ امتِلاكِها غريزَةَ الاستِقرارِ، والتَّعبيراتِ البَدويَّةِ Nomads التي كانَ لوك Locke أوَّلَ مَن وَصَفَ أُسلوبَ حياتِها بِقولِهِ:-

"اعتادَ النّاسُ منذُ نُعومةِ أظفارِهِم أن يتعلَّموا الكَلِماتِ التي يَسهُلُ

---

(39) ماثيو أرنولد (1822-1888م). شاعرٌ، وناقدٌ، وكاتبٌ، ومُصلِحٌ تربويٌّ إنجليزيٌّ. لم يقتصِرْ نشاطُهُ على الأدَبِ، بل تناولَتْ كتاباتُهُ الأدبَ والتأريخَ والسياسةَ واللاهوتَ والعلمَ والفَنَّ. اهتَمَّ في أعمالِهِ بِوَضعِ الإنسانِ الغربيِّ المعاصرِ الذي يُواجِهُ الحياةَ من غيرِ دِينٍ. من مؤلَّفاتِهِ: الثقافةُ والفَوضى، ومقالاتٌ في النقد، والأدبُ والعقيدةُ. [المُترجِم]

تَحصيلُها والحِفاظُ عليها، مِن قَبلِ أن يَعلموا أو يتصَوَّروا الأفكارَ المتكاملةَ التي تُعَبِّرُ تلكَ الكلِماتُ عنها، وهُم يَستَمِرُّونَ على هذا المِنوالِ طَوالَ حياتِهِم، ويَستَعمِلونَ كلماتِهِم مِن أجلِ التَّعبيرِ عن أفكارِهِم غيرِ الثّابتةِ والمُضطَرِبَةِ مِن غيرِ أن يَحمِلوا هَمَّ تَثبيتِ أفكارٍ مُحدَّدَةٍ في عُقولِهِم، مُقتَنِعِينَ بالكلماتِ أنفُسِها التي يَستَعمِلُها الآخَرونَ كما لَو أنَّ الصَّوتَ بِعَينِهِ يَحمِلُ مَعَهُ بِالضَّرورةِ المَعنَى بِعَينِهِ. و(على الرَّغمِ مِن أنَّ النّاسَ يُمارِسونَ ذلك في أحداثِ الحياةِ الاعتياديَّةِ، إنَّهُم حِينَ يُقدِمونَ على التَّفكُّرِ في مُعتَقَداتِهِم) يَجعَلُ ذلكَ التَّوَجُّهُ خِطابَهُم مَمْلُوءًا بِوَفرَةٍ مِن الضَّوضاءِ الفارِغَةِ والرَّطانةِ- ولا سيَّما في الأُمورِ الأخلاقِيَّةِ حيثُ لا يُفَكَّرُ كَثيرًا إلّا في الأصواتِ المُجَرَّدَةِ لِلكلِماتِ، أو، في الأقَلِّ، في الأفكارِ المُلحَقَةِ بِها التي يَلُفُّها الكثيرُ مِن الشَّكِّ والغُموضِ.

إنَّ النّاسَ يتناوَلونَ الكَلِماتِ التي يَجِدونَها مُستَعمَلَةً وَسطَ مَن يُجاوِرُونَهُم، وما لا يَبدُونَ جاهِلِينَ ما يَرْمِزُ إليهِ مِنها، فَيَستَعملونَها بِثِقَةٍ مِن غيرِ أن يُجهِدوا عُقولَهُم بِشأنِ مَعنًى ثابِتٍ مُعَيَّنٍ يُحَقِّقُونَ بِهِ، زيادَةً على سُهولتِهِ، فائدَةَ أنَّهُم لَمّا نَدَرَ أن يكونوا على صَوابٍ في مِثلِ هذا الخِطابِ نَدَرَ أن يَقتَنِعوا بِأنَّهُم على خَطَإٍ، وهيَ الطَّريقةُ الوَحيدَةُ لإخراجِ هؤلاءِ النّاسِ الذينَ ليسَتْ لَدَيهِم أفكارٌ ثابِتَةٌ مِن أخطائهِم، كَمَثَلِ طَردِ مُتَشَرِّدٍ ليسَ لَهُ مَقَرٌّ ثابِتٌ مِن مَسكَنِهِ. هذا ما أظُنُّ الأمرَ عليهِ، وفي وُسعِ كلِّ شَخصٍ أن يَلحَظَ نفسَهُ أو الآخَرِينَ: آلأمرُ كذلكَ مَعَهُ أو مَعَهُم أم لا؟".

وما زالَ مُمكِنًا إلى اليَومِ أن نتَّفِقَ على أنَّ ثَمَّةَ قَليلاً مِن الشَّكِّ: آلأمرُ كذلكَ أم لا؟ وإذا كُنّا قادِرِينَ على تَمييزِ هذهِ التَّعبيراتِ البدويَّةِ بِيُسرٍ أكبَرَ فعَلَيْنا أن نُمْضِيَ [137] زَمَنًا أقَلَّ في ما يَرتَضيهِ النّاسُ كَثيرًا في زَمنِنا الحاضِرِ مِن التَّنقيبِ المَسعورِ عن القُبورِ التَّذكارِيَّةِ الخالِيَةِ.

وحينَ نَلِجُ غابَةَ الكَلِماتِ المَسحورةَ رُبَّما لا تَقتَصِرُ قَواعِدُنا التَّجريبيَّةُ على تَمكينِنا من التَّعامُلِ معَ العفاريتِ الشِّرِّيرَةِ مِثلِ الخُدْعَةِ الصَّوتِيَّةِ، وخُدْعَةِ إضفاءِ

الصِّفَةِ المادِّيَّةِ، والخُدْعَةِ الأُوتراكوسِتِيَّةِ، بَل تُقدِرُنا على التَّعامُلِ معَ الظَّواهرِ الغريبةِ المُزعِجَةِ الأُخرَى التي تُمَثِّلُ الألفاظُ المُهَيِّجَةُ، والألفاظُ المُسْتَجْدِيَةُ، والألفاظُ البَدوِيَّةُ نَماذِجَ لَها. وتَستَمِدُّ هذهِ القَوانينُ مَزِيَّتَها مِن القَوانينِ التي هيَ أكثرُ تَهذيبًا والتي سَبَقَ أن أشَرْنا إلى فاعِلِيَّتِها.

على أنَّهُ قد يُتَساءَلُ: ما جَدوَى مَعرفةِ طَبيعةِ التَّعريفِ؛ أفَلا تَكمُنُ المُشكِلَةُ في العُثورِ على التَّعريفِ المُحدَّدِ الذي سيكونُ نافِعًا؟ وثَمَّةَ إجابتانِ عن ذلكَ. إحداهُما أنَّ مُعظَمَ النّاسِ إنَّما يَكتَسِبونَ القُدرَةَ على صِياغَةِ التَّعريفاتِ بِالمُمارَسَةِ، كالجِراحَةِ، والتَّشخيصِ، والطَّبخِ، ولكِنَّ مَعرِفةَ مَبادِئِ تلكَ الصِّياغةِ ستُشَكِّلُ عَونًا كبيرًا كما هيَ الحالُ في هذهِ الفُنونِ. والإجابَةُ الأُخرَى أنَّ هذهِ المَعرِفةَ لِلمَبادِئِ العامَّةِ تَجعَلُ أيَّةَ مَهارَةٍ مُكتَسَبَةٍ في أثناءِ الدِّراسةِ الخاصَّةِ لأَحَدِ المَيادِينِ مُتاحَةً حالاً حينَ نُقدِمُ على التَّعامُلِ معَ مَيادِينَ أُخرَى لكِنَّها مُشابِهَةٌ. وتَظهَرُ الأنماطُ أَنْفُسُها لِلعَلاقاتِ التَّعريفيَّةِ في جَميعِ مَوضوعاتِ النِّقاشِ الرَّئيسةِ- علمِ الجَمالِ، وعلمِ الأخلاقِ، والدِّينِ، والسِّياسَةِ، والاقتِصادِ، وعِلمِ النَّفسِ، وعِلمِ الاجتِماعِ، والتَّأريخِ، ولِذا كانَ التَّمكُّنُ النَّظَرِيُّ في أيِّ نَمَطٍ منها كفيلاً بِمَنحِ الثِّقَةِ بِمُعالَجَةِ الأنماطِ الأُخرَى. [138]

الفَصْلُ السَّابِعُ

مَعْنَى الْجَمَال

قَد ذَكَرْتُ هذا في هذا المَقامِ على سبيلِ المُناسَبَةِ لأُظهِرَ كَمْ هُوَ مُهِمٌّ لِلنّاسِ أن يُعَرِّفوا كلِماتِهِم حينَ تَكونُ ثَمَّةَ مُناسَبَةٌ داعِيَةٌ إلى ذلكَ. ولا بُدَّ أن يَكونَ مَرَدُّ الامتِناعِ عن فِعلِ ذلكَ إلى نَقصٍ كَبيرٍ في الإبداعِ (ولا أقولُ المَزيدَ عنهُ)؛ ما دامَ التَّعريفُ هوَ الوَسيلةَ الوَحيدَةَ التي يُمكِنُ أن يُعرَفَ بِها المَعنَى المُحَدَّدُ لِلكَلماتِ المَعْنَوِيَّةِ. -لوك Locke

"إنَّ الخِلافاتِ لَتَتَضاعَفُ، حتَّى لَيُخَيَّلُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ مَشكوكٌ فيهِ، ثُمَّ إنَّ هذهِ الخِلافاتِ لَتُرَوَّضُ، حتَّى لَيُخَيَّلُ أنَّ كُلَّ شَيءٍ غيرُ قابلٍ لِلشَّكِّ. وليسَ العَقلُ هوَ مَن يَفوزُ بِالغَنيمةِ وَسطَ كلِّ هذا الصَّخَبِ، بَل الفَصاحَةُ، وما مِن داعٍ إلى أن يَيأسَ أيُّ شَخصٍ مِن كَسبِ الأنصارِ لأكْثَرِ الفَرضِيّاتِ تَطَرُّفًا، إن كانَ يَمتَلِكُ ما يَكفي مِنَ الفَنِّ لِتَمثيلِها بالألوانِ المُفَضَّلَةِ. فالنَّصرُ لا يُحرِزُهُ المُدَجَّجونَ بِالسِّلاحِ الذينَ يُجيدونَ استِخدامَ الرُّمحِ والسَّيفِ، بَل يُحرِزُهُ عازِفو الجَيشِ، وطَبّالُوهُ، وموسيقيُّوهُ". - هيوم Hume.

مِن أجلِ اختِبارِ قِيمةِ الأُطروحَةِ المتعلِّقَةِ بِالتَّعريفِ، المَذكورَةِ في الفَصلِ السّابقِ، يَجدُرُ بِنا انتِخابُ مَوضوعٍ أبْدَى حتَّى الآن تَأَبِّيًا مَشهورًا على مَناهِجِ التَّعريفِ. والحقُّ أنَّ الكثيرَ مِن أذكياءِ النّاسِ قد عَزَفوا عن الفِكْرِ الجَماليِّ، ولا اهتِمامَ لَهُم بِالبَحثِ في طبيعةِ الفَنِّ أو غَرَضِهِ؛ لِشُعورِهِم بِضَآلَةِ احتِمالِ التَّوَصُّلِ إلى أيِّ استِنتاجٍ مُحَدَّدٍ. وتَبدو المَصادِرُ شَديدَةَ الاختِلافِ في أحكامِها بِشأنِ: أيُّ الأشياءِ هيَ الجَميلَةُ؟ وإذا ما حَدَثَ أن اتَّفَقَتْ كَلِمَتُها فَما مِن وَسيلةٍ لِمعَرفَةِ: ما الذي تَتَّفِقُ عليهِ؟

فَما حَقيقَةُ المَقصودِ بِالجَمالِ؟ فالبروفيسور بوزانكيه Bosanquet والدُّكتور سانتَيانا Santayana[1]، والسَّيِّدُ كروتشة Croce وكلايف بيل Clive Bell[2]، فَضلاً عن رَسْكِن Ruskin[3] وتولِستوي Tolstoi[4]، كُلُّهُم، بِجَزْمِيَّتِهِ وحَماسِيَّتِهِ وفَضفاضِيَّتِهِ على طَريقَتِهِ الخاصَّةِ، يَترُكُ استِنتاجاتِهِ غيرَ مُترابِطةٍ على حدٍّ سَواءٍ مَعَ استِنتاجاتِ سابِقيهِ. وإنَّ أحكامَ الخُبَراءِ بَعضِهِم على بَعضٍ لَيسَتْ أقَلَّ [139] تَعارُضًا. لكِنْ إن لَم يَكُن ثَمَّةَ سَببٌ لافتِراضِ أنَّ النّاسَ يتحدَّثونَ عن الشَّيءِ نَفسِهِ، فَما مِن داعٍ إلى استِغرابِ الافتِقارِ إلى التَّرابُطِ في تَعليقاتِهِم. ونَحنُ نَعجَلُ في افتِراضِ أنَّ تَشابُهَ اللغَةِ يَستَلزِمُ تَشابُهَ الأفكارِ وتَشابُهَ الأشياءِ التي يُفَكَّرُ فيها. لكِن لِمَ لا يُوجَدُ إلّا مَوضوعُ بَحثٍ واحِدٌ يُسَمَّى عِلمَ الجَمالِ؟ لِمَ لا يَكونُ ثَمَّةَ

---

(1) جورج أغُسطين نِكولاس رويز دي سانتَيانا، المعروفُ بِجورج سانتَيانا (1863-1952م). فيلسوفٌ، وكاتبٌ، وشاعرٌ، وروائيٌّ. نشأ وتلقَّى تعليمَهُ في أمريكا، وعرَّفَ نفسَهُ بِأنَّهُ أمريكيٌّ، معَ أنَّهُ كانَ يمتلكُ جوازَ سفرٍ إسبانيًا وكانَ مُواطِنًا إسبانيًا طَوالَ حياتِهِ. كتبَ بِالإنجليزيَّةِ، وعُدَّ على العُمومِ أديبًا أمريكيًا. يُعَدُّ من البراغماتيِّينَ معَ زَميلَيْهِ في جامعةِ هارفَرد وِليَم جَيْمس وجوزايا رويس. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: الإحساسُ بِالجمال، وحياةُ العَقل. [المُترجِم]

(2) آرثَر كلايف بيل (1881-1964م). ناقدٌ فنِّيٌّ إنجليزيٌّ، يرتبِطُ اسمُهُ بِالشَّكليَّةِ وبِجماعَةِ بلومزبيرغ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: المدَنيَّة، والفَنّ، والأصدِقاءُ القُدامَى. [المُترجِم]

(3) جون رَسْكِن (1819-1900م). شاعرٌ، وناقِدٌ فنِّيٌّ، ومفكِّرٌ اجتماعيٌّ إنجليزيٌّ. لهُ عددٌ من المؤلَّفاتِ والأعمالِ الأدبيَّةِ والفنِّيَّةِ، وكانَ لكتاباتِهِ تأثيرٌ كبيرٌ في العصرَيْنِ الفِكتوريِّ والإدوَرديِّ. حازَ شهرةً واسعةً بعدَ تأييدِهِ أعمالَ تيرنَر، ومُنافحتِهِ عن المذهبِ الطبيعيِّ في الفَنِّ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: الرَّسّامونَ المُعاصِرُونَ. [المُترجِم]

(4) ليف نِكولايِفتش تولِستوي، ويُعرَفُ أيضًا بِليو تولِستوي (1828-1910م). من عمالقةِ الرِّوائيِّينَ الرُّوسِ، ومن أعمدةِ الأدبِ الرُّوسيِّ في القرنِ التاسعَ عشَرَ، ويَعُدُّهُ بعضُ الباحِثِينَ من أعظمِ الرِّوائيِّينَ على الإطلاقِ. من أشهرِ مؤلَّفاتِهِ: (الحربُ والسَّلام) الذي يتناولُ مراحلَ الحياةِ المختلفة، ويَصِفُ الحوادثَ السياسيَّةَ والعسكريَّةَ في أورُبّا بينَ سنتَيْ 1805 و1820؛ وكتابُ (أنّا كارنينا) الذي عالَجَ فيهِ قضايا اجتماعيَّةً وأخلاقيَّةً وفلسفيَّةً في صورةِ مأساةٍ غراميَّةٍ بطلتُها أنّا كارنينا؛ وكتابُ (ما الفَنُّ؟) الذي أوضَحَ فيهِ أنَّ الفَنَّ ينبغي أن يُوَجِّهَ الناسَ أخلاقيًا، وأن يُحَسِّنَ أحوالَهُم، وأن يكونَ بسيطًا يُخاطِبُ عامَّةَ الناسِ. [المُترجِم]

مَيادينُ مُتعدِّدَةٌ يُبحَثُ في كلٍّ منها على حِدَةٍ، سَواءٌ أكانَتْ مُترابِطَةً أم غَيرَ مُترابِطَةٍ؟ بَل إنَّ الأديبَ لَيَرَى حَتْمًا، إذا ما أُعطِيَ الزَّمَنَ الكافيَ، أنّا إذا أنشَدْنا قَولَ الشّاعِرِ(5):

"'الجَمالُ هوَ الحقيقَةُ، والحَقيقةُ هيَ الجَمالُ'- هذا كُلُّ
ما تَعرِفُ وما تَحتاجُ أن تَعرِفَ على وَجهِ الأَرضِ"،

فليسَ مِن الضَّروريِّ أن نَكونَ مُتَحدِّثِينَ عن الشَّيءِ نَفسِهِ الذي يتحدَّثُ عنهُ الكاتِبُ الذي يَقولُ:

"قد يُطْرَى جِلدُ الكَركَدَن لِمُلاءَمَتِهِ، ولكِن لَمّا كانَ نادِرًا مّا يُشيرُ إلى الحَيَويَّةِ عُدَّ أَقَلَّ جَمالاً مِن الجِلدِ الذي يَعرِضُ مَشاهِدَ مُتنوِّعَةً لِمُرونةِ العَضَلاتِ".

ما السَّبَبُ الدّاعي إلى افتِراضِ إمكانِ صِياغَةِ مَذهَبٍ جَماليٍّ واحدٍ يَشتَمِلُ على كلِّ الأنواعِ النَّفيسَةِ لِما يُسَمَّى الأَدَبَ؟

معَ ذلكَ، وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ ذلكَ قد يَبدو مُثيرًا لِلاستِغرابِ، ليسَ ثَمَّةَ مَن يَبدو أنَّهُ قد أَقَرَّ بِهذهِ الصُّعوبةِ بِوُضوحٍ وأَدرَكَ أَهمِّيَّتَها سِوَى رُوبَرت برُوك Rupert Brooke(6)،

(5) القائلُ هو جون كيتس (1795-1821م)، وهو شاعرٌ إنجليزيٌّ مِن أهمِّ شُعراءِ الحركةِ الرومانتيكيَّةِ الإنجليز في مَطلَعِ القَرنِ التاسِعَ عشرَ. وقد هوجِمَتْ أعمالُهُ في أثناءِ حياتِهِ القصيرةِ، لكنَّ تأثيرَهُ بعدَ وفاتِهِ في شُعراءَ مثلِ ألفريد تينيسن كانَ هائلاً. وتُعَدُّ سلسلةُ القَصائدِ الغِنائيَّةِ القَصيرةِ التي كتبَها كيتس تُحَفًا فنِّيَّةً اليومَ، أمّا رسائلُهُ بِشأنِ نظريَّتِهِ الجماليَّةِ في القُدرةِ السَّلبيَّةِ، أي قُدرةِ الفَردِ على التصوُّرِ والتفكيرِ والعملِ خارجَ نِطاقِ أيِّ افتراضٍ قَبْلِيٍّ لِقدرةِ الإنسانِ المُحدَّدةِ سلَفًا، فتُعَدُّ أكثرَ الرسائلِ المُحتفَى بها. [المُترجِم]

(6) رُوبَرت تشَونَر برُوك (1887-1915م). شاعرٌ إنجليزيٌّ من شُعَراءِ الحربِ العالَميَّةِ الأُولى. ماتَ مُبَكِّرًا وهو في الثامنةِ والعشرينَ من عُمُرِهِ، فصارَ رمزًا لِلشَّبابِ الذينَ قُتِلوا في الحربِ. اشتهرَ بِقَصائدِ الحربِ التي كانَ أهمُّها ما جاءَ في ديوانِهِ (1914 وقصائدُ أخرى) الذي نُشِرَ بعدَ موتِهِ سنةَ 1915. وقد اتَّصَفَت تلك القصائدُ الإبداعيَّةُ الرومانسيَّةُ بالمثاليَّةِ في رُؤيتِها أنَّ الحربَ تَطهيرٌ لِلنَّفْسِ وأنَّ القِتالَ والموتَ هما الموتُ المُشَرِّفُ دفاعًا عن الوطَنِ. وتُعَدُّ قَصيدَتاهُ (الجُندِيّ) و(العاشِقُ الكبير) أفضَلَ مِثالَيْنِ لهذهِ الرُّوحِ الرومانسيَّةِ. =

إذ يَقولُ[7]: "إنَّ أَحَدَ المَحاذِيرِ التي تَعرِضُ لِمَن يَتساءَلونَ بِقولِهِم: ما الفَنُّ؟ هو مِثْلُهُم، شَأنُهُم في ذلكَ شأنُ جميعِ النّاسِ، إلى العُثورِ على ما يَبحثونَ عنهُ: الصِّفَةِ المُشتركَةِ في الفَنِّ... والذينَ يَبدَؤُونَ على هذا النَّحوِ مُعَرَّضونَ لأن يَكونوا مَصدَرَ إزعاجٍ لا يُحتَمَلُ لِلنُّقّادِ والفَنّانِينَ على حَدٍّ سَواءٍ... إذ إنَّ هذهِ أَسوَأُ طريقَةٍ مِن بَينِ ما هُوَ خَطَأٌ مِن طَرائقِ مُقارَبَةِ مَوضوعِ 'الفَنّ' أو حتَّى أيٍّ مِن أنواعِهِ؛ ذلكَ بِأنَّها أَكثَرُ الطَّرائقِ ضَرَرًا". ويُواصِلُ حَديثَهُ لِيُبَيِّنَ كَيفَ "بدَأَ كروتشة بِسَذاجَةٍ إلى حَدٍّ مّا بِما لَحِظَهُ مِن أنَّ 'الجَمالِيَّ' استُعمِلَ في كُلٍّ مِن مَسائلِ الفَنِّ وفي الإدراكِ الحِسِّيِّ. ثُمَّ انطَلَقَ لِيَكتَشِفَ المَعنَى الذي يَنطَوي عليهِ حَقًّا استِعمالُهُ في كِلَيْهِما. وجَعَلَ [140] الشَّرطَ الضَّروريَّ الوَحيدَ الذي يَجِبُ أن تَفِيَ بِهِ الإجابَةُ الصَّحيحةُ بِشأنِ 'عِلمِ الجَمالِ' هوَ أن تُفَسِّرَ كَيفيَّةَ اشتِمالِهِ على كُلٍّ مِن الفَنِّ والإدراكِ الحِسِّيِّ. فإذ قد وَجَدَ هذا التَّفسيرَ، أَحَسَّ بِالاطمِئنانِ والرِّضَا". إنَّ وَعيَ المَحاذِيرِ اللغويَّةِ الحيَويَّ الذي مَكَّنَ رُوبَرت برُوك مِن تَجاوُزِ كروتشة بِحِكمةٍ هوَ نَفسُهُ الذي أتاحَ لَهُ أيضًا أن يَستَبينَ نُقطةَ الضَّعفِ في مَنظومَةِ البروفيسور مُور G. E. Moore[8]، وأن يُقاوِمَ كذلكَ المَنطِقَ العَنيدَ لِواقِعِيِّي كيمبرِج، حينَ كانوا في أَوجِ تأثيرِهِم آنَذاكَ. ويَقولُ: "يَبدو لي، مِن النّاحيةِ السّايكولوجيَّةِ، أنَّهُم محكومٌ عليهِم بالإخْفاقِ منذُ البدايةِ؛ ذلكَ بِأنِّي، في المَقامِ الأَوَّلِ، لا أُقِرُّ بِدَعاوَى كُلِّ مَن يَقولُ: 'الجَمالُ مَوجودٌ لأَنَّ المرءَ حينَ يَقولُ: "هذا جَميلٌ" لا يَعنِي أنَّ "هذا مُحَبَّبٌ إلى النَّفْسِ"...' فأنا غيرُ مَعْنِيٍّ بِما قَد يَعْنِيهِ النّاسُ. إذ إنَّهُم كَثيرًا مّا يَعنُونَ، وعَنَوا، أَكثرَ الأَشياءِ إثارَةً لِلذُّهولِ. وقد يَكونُ صَحيحًا أنَّ النّاسَ حينَ

= ومِن أهمِّ آثارِهِ النثريَّةِ كتابُ (جون ويبستَر والمسرحُ الإليزابيثيّ). [المُترجِم]

(7) في كتابِهِ (جون ويبستَر والمسرحُ الإليزابيثيّ)، وجميعُ الاقتِباساتِ القادمةِ المتعلِّقَةِ بهذا الشاعرِ مَصدرُها هذا الكتابُ. [المُترجِم]

(8) جورج إدوَرد مُور (1873-1958م). فيلسوفٌ بريطانيٌّ أثَّرَ في كثيرٍ من الفلاسفةِ البريطانيِّينَ المعاصرينَ. دافَعَ عن مَفاهيمِ الفَهْمِ المُشتَرَكِ، وشَجَّعَ على دراسةِ اللغةِ الاعتياديَّةِ بِوَصفِها أداةً لِلفلسفةِ. وُلِدَ في لندن، وكانَ مُدَرِّسًا لِلفلسفةِ في جامعةِ كيمبرِج، ومُحَرِّرًا لِدوريَّةِ *Mind* الفلسفيَّةِ مُدَّةَ ثلاثينَ عامًا تقريبًا. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: مبادِئُ علمِ الأخلاق، والأخلاق، ودِفاعٌ عن الفَهْمِ المُشتَرَك. [المُترجِم]

يَقولونَ: 'هذا جَميلٌ'، لا يَعنُونَ أنَّ 'هذا مُحَبَّبٌ إلى النَّفْسِ'، فقد يَعنُونَ أنَّ الانفِعالَ الجَماليَّ مَوجودٌ. والتَّعقيبانِ الوَحيدانِ لَدَيَّ هما أنَّهُ لا يَستَلزِمُ وُجودَ الانفِعالِ الجَماليّ، وأنَّهُم، في الحقيقةِ، مُخطِئونَ"[9].

وتَعاطُفُهُ الشَّخصيُّ، على ما يَبدو في الكِتابِ الذي نَقتَبِسُ مِنهُ في الأقَلِّ، إنَّما هوَ معَ وِجهاتِ النَّظَرِ المُتَضَمَّنَةِ في النَّمَطِ الحادِيَ عَشَرَ مِن القائمةِ التي ستُذكَرُ لاحِقًا، على الرَّغمِ مِن أنَّهُ لا يَبدو أنَّهُ قد مَنَحَ الأمرَ حَقَّهُ مِن إنعامِ النَّظَرِ، ولم تُتَحْ لَهُ فُرصَةُ مُتابَعَةِ ما وَعَدَتْ بِهِ مُقارَبَتُهُ الرّائعَةُ.

وكُلَّما مَرَرْنا بِتَجرِبَةٍ يُمكِنُ أن تُوسَمَ بِأنَّها 'جَماليَّةٌ'، أي كُلَّما استَمتَعْنا، أو تأمَّلْنا، أو أكبَرْنا مَوضوعًا أو أُعجِبْنا بِهِ، فثَمَّةَ أجزاءٌ لِلحالَةِ واضِحَةُ الاختِلافِ يُمكِنُ أن تَكونَ مَوضِعَ تأكيدٍ. وبِانتِخابِنا أحَدَ هذهِ الأجزاءِ أو غيرَهُ نُطَوِّرُ أحَدَ المَذاهِبِ الجَماليَّةِ الرَّئيسَةِ أو غيرَهُ. والحقُّ أنّا بِاختِيارِنا هذا نكونُ قد [141] قَرَّرْنا: أيَّ نَمَطٍ رَئيسٍ لِلتَّعريفِ نَستَخدِمُ؟ وهكذا يُمكِنُ أن نَبدَأَ معَ المَوضوعِ نَفسِهِ، أو معَ أشياءَ أُخرَى يَرتَبِطُ بِها مِثلِ الطَّبيعَةِ، أو العَبقَريَّةِ، أو الكَمالِ، أو المِثالِ، أو الصِّدْقِ، أو معَ آثارِها فينا. يُمكِنُنا أن نَبدَأَ مِن حَيثُ نَشاءُ، فالأمرُ المُهِمُّ هوَ أنَّهُ يَنبَغي أن نَعلَمَ ويَكونَ واضِحًا لَدَينا: أيَّ هذهِ المُقارَباتِ نَسلُكُ؟ ذلكَ بِأنَّهُ إن اختَرْنا أحَدَ المَجالاتِ فإنَّ الموضوعاتِ التي نَتعامَلُ مَعَها، المَراجِعَ التي نُحيلُ عليها، لن تَكونَ، في أغلَبِ الأحيانِ، الموضوعاتِ أنفُسَها في غيرِهِ. والقَليلُ مِن الأشخاصِ مَن تُهِمُّهُ المَجالاتُ كافَّةً على حَدٍّ سَواءٍ، لكِنَّ بَعضَ الإلمامِ بِها يَجعَلُ، في الأقَلِّ، اهتِماماتِ النّاسِ أكثَرَ وُضوحًا، والنِّقاشَ مَعَهُم أكثَرَ نَفعًا. إنَّ الاختِلافاتِ في الرَّأيِ والاختِلافاتِ في الاهتِمامِ بِهذِهِ الأُمورِ شَديدَةُ التَّرابُطِ، لكِنَّ أيَّةَ مُحاوَلَةٍ لِتكوينِ فَرضيَّةٍ عامَّةٍ، قد تَكونُ سابِقَةً لأوانِها في

---

(9) *John Webster and the Elizabethan Drama*, pp. 1-7.

ومن الواضحِ أنَّ رُوبَرت برُوك لم يَفهَمْ أنَّ الحُجَّةَ، وقَد فُنِّدَتْ هُنا، اُذِنَتْ بِإقامَةِ الدَّليلِ على البَقاءِ لا على الوُجودِ. على أنَّ الفَهْمَ المشتَرَكَ يُفلِحُ أحيانًا حَيثُ يُخفِقُ الذَّكاءُ المنطقِيُّ في تَحقيقِ غايَتِهِ.

الوقتِ الحاضِرِ، يَجِبُ أن تَبدَأَ بِفَكِّ بَعضِها عن بَعضٍ.

وعَلَيْنا بَعدَ ذلكَ أن نَتثَبَّتَ بِشأنِ مَنهَجِ التَّعريفِ الذي نَستَخدِمُهُ. وفي جَدوَلِ التَّعريفاتِ الآتي بَيانٌ لِمَجالِ المَناهِجِ النّافِعةِ، التي يُمَثِّلُ مُعظَمُها مَذاهِبَ تَقليديَّةً في التَّعريفِ، في حين يَجعَلُ غيرُها، ولكِن ليسَ قَبلَ تَأكيدِهِ، المُعالَجَةَ مُتَكامِلَةً تَقريبًا. ولا بُدَّ مِن الإشارَةِ إلى أنَّ استِعمالاتِ 'الجَميلِ' المُجَدْوَلَةَ هُنا لَيسَتْ كامِلَةَ التَّحديدِ على الإطلاقِ. ويُمكِنُ أيَّ تَعريفٍ أن يَكونَ واضِحًا إذا مَكَّنَ القارِئَ الذَّكِيَّ مِن تَعيينِ الإحالةِ المَعْنِيَّةِ. ولَو تَوَخَّيْنا الصِّياغةَ التّامَّةَ في أيٍّ مِن هذهِ الحالاتِ لاستَلزَمَتْ حَيِّزًا أكبرَ ولأَظهَرَتْ أنَّ مَجالَ الجَميلِ في بَعضِها أكثَرُ امتِدادًا مِنهُ في الأعمالِ الفَنِّيَّةِ، في حينِ أنَّ بعضَ التَّقييداتِ، كتِلكَ التي تَستَبعِدُ الشُّرطَةَ مِن النَّمَطِ الثّامِنِ، على سبيلِ المِثالِ، يَتَبادَرُ إلى ذِهنِ القارِئِ في الحالِ.

1. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَمتَلِكُ صِفَةَ الجَمالِ البَسيطَةَ.
2. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَكونُ لَهُ شَكلٌ مُحَدَّدٌ. [142]
3. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَكونُ مُحاكاةً لِلطَّبيعَةِ.
4. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَنشَأُ مِن استِغلالٍ ناجِحٍ لِوَسَطٍ مّا.
5. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَكونُ نِتاجًا لِعَبقَرِيَّةٍ.
6. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُظهِرُ (أ) الصِّدْقَ، و(ب) رُوحَ الطَّبيعَةِ، و(ت) المِثالَ، و(ث) الشُّمُولَ، و(ج) النَّمَطَ.
7. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُوَلِّدُ الوَهمَ.
8. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُؤَدِّي إلى نَتائجَ اجتماعيَّةٍ مَرغوبٍ فيها.
9. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَكونُ تَعبيرًا.
10. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُسَبِّبُ البَهْجَةَ.
11. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُثيرُ العَواطِفَ.
12. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُعَزِّزُ عاطِفَةً مُحَدَّدَةً.
13. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَتَضَمَّنُ عَمَلِيّاتِ المُشارَكَةِ الوِجدانِيَّةِ.

14. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَزيدُ الحَيَويَّةَ.
15. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يَجعَلُنا على تَماسٍّ معَ شَخصيّاتٍ استِثنائيَّةٍ.
16. يَكونُ الشَّيءُ جَميلاً- حينَ يُحدِثُ انسِجامًا بينَ البَواعِثِ المُختلِفَةِ *Synaesthesis*[(10)].

ويُمكِنُ أن يُلحَظَ أنَّ كُلَّ واحدٍ مِن هذهِ التَّعريفاتِ يُمَثِّلُ واحِدةً أو أكثَرَ مِن العَلاقاتِ التَّعريفيَّةِ الأساسيَّةِ التي ناقَشْناها في الفَصلِ السّابقِ. وهكذا، فتَعريفاتُ المجموعةِ C، أي التَّعريفاتُ المحصورةُ بينَ 10-16، كُلُّها مَصُوغَةٌ مِن زاوِيَةِ تأثيراتِ الأشياءِ في الشُّعورِ، وكذلكَ حالاتُ النَّمَطِ السّابعِ. أمّا تَعريفَا المجموعةِ A، فأوَّلُهُما، أي النَّمَطُ الأوَّلُ، يُمَثِّلُ حالةَ تَسمِيَةٍ بَسيطةٍ. إذ نُسَلِّمُ بِصِفَةٍ هيَ الجَمالُ، فَنُسَمِّيها، ثُمَّ نَكِلُ مُهِمَّةَ تَعيينِ هذا المَرجِعِ الخُرافيِّ إلى الفاعِلِيَّةِ السِّحْرِيَّةِ لِلاسمِ الذي اختَرْناهُ. والحقُّ أنَّ بَحثَ [143] الجَميلِ مِن زاوِيَةِ صِفَةٍ جوهريَّةٍ هيَ الجَمالُ مِثالٌ مُمتازٌ لِرُسوخِ الخُرافاتِ الكَلمِيَّةِ البِدائيَّةِ، ولِلمُجازَفاتِ التي يَرتكِبُها أيُّ نِقاشٍ غيرِ مُمَحِّصٍ رَمزيًا. أمّا التَّعريفُ الثّاني، بِالشَّكلِ، فإمّا أن يكونَ مَكانِيًّا وإمّا أن يكونَ زَمانِيًّا، بِحَسَبِ الفَنِّ الذي يُطَبَّقُ عليهِ. فإن وُجِدَتْ أَيَّةُ عَلاقَةٍ أُخرَى سِوَى هاتَيْنِ العَلاقَتَيْنِ في أيَّةِ مُناسَبَةٍ فَسَنَجِدُ عندَ الاختِبارِ أنَّ التَّعريفَ قد غُيِّرَتْ نُقطَةُ انطِلاقِهِ خِلسَةً وأصبَحَ سايكولوجِيًّا حقيقَةً، وهو تَغييرٌ يَحدُثُ بِسُهولةٍ في هذا المجالِ مِن غيرِ أَيِّ تَغييرٍ في التَّرميزِ ظاهرٍ في الحالِ. مِثالٌ صارِخٌ على ذلكَ استِعمالُ كلمةِ 'عَظيم' في النَّقدِ الأدَبيِّ والفَنِّيِّ، إذ يُظْهِرُ هذهِ العَمليَّةَ، أي التَّحوُّلَ، مِن غيرِ إشارَةٍ رَمزيَّةٍ، مِن 'المَوضوعيِّ' إلى 'الذّاتيِّ'، على ما جَرَت العادَةُ في تَسمِيَتِهما.

(10) يُمكِنُ الوُقوفُ على مُناقَشَةٍ مُستَفيضَةٍ لِوجهاتِ النَّظَرِ المُعَرَّفَةِ بِهذهِ الطَّرائقِ في كِتابِ **أُسُس عِلمِ الجَمالِ** *The foundations of Aesthetics* لِمُؤَلِّفَيْ هذا الكِتابِ والسَّيِّدِ جَيمس وود James Wood (1921، والطَّبعة الثانية 1926)، وعلى سَرْدٍ لآخِرِ الأعمالِ في ضوءِ التَّصنيفِ الذي أورَدْناهُ في المَتنِ في **الموسوعةِ البريطانيَّةِ** *Encyclopedia Britanica*، الطَّبعة الثالثةَ عشرةَ، الأجزاء الجديدة (1926)، مادَّة 'عِلم الجَمال'.

أمّا تَعريفاتُ المجموعةِ B فكُلُّها مُعَقَّدٌ تَقريبًا.

ومِن الواضِحِ أنَّ كُلّاً مِن المُحاكاةِ (3)، والاستِغلالِ (4)، أي التَّعريفِ بالإحالةِ على قُدُراتِ الوَسَطِ، مُرَكَّبٌ مِن عَلاقاتِ السَّبَبِيَّةِ، والمُشابَهَةِ، والإدراكِ، والرَّغبَةِ. فَالحَقُّ أنَّ التَّعريفَ المُتَعلِّقَ بِالاستِغلالِ خيرُ مِثالٍ يُمكِنُ الوُقوفُ عليهِ لِتَعريفٍ مُعَقَّدٍ يَسْهُلُ فَهمُهُ بِصيغَتِهِ الاختِزاليَّةِ المُكَثَّفَةِ، ويَصْعُبُ تَحليلُهُ أو يَستَحيلُ. على أن ليسَ ثَمَّةَ إلّا القَليلُ مِن النّاسِ الذينَ قد يُغرَوْنَ بِالتَّسليمِ بِمَزِيَّةٍ خاصَّةٍ هيَ الاستِغلالُ، وإنْ كانَتْ مِثلُ هذهِ الإجراءاتِ عُقوباتٍ، علينا أن نَدفَعَ ثَمَنَها بِسببِ ما اقتَرَفْناهُ مِن اختِصاراتٍ في تَرميزِنا.

وتُقَدِّمُ التَّعريفاتُ الأُخرَى في المجموعةِ B مُشكِلاتٍ مُشابِهَةً في التَّحليلِ. إنَّ الدَّرَجَةَ التي تَظهَرُ بِها مَسالِكُ النَّمَطِ الثّامِنِ، أو المَواقِفُ العَقليَّةُ الاعتِقاديَّةُ (التَّعريفانِ السّادِسُ والسّابعُ)، أو الاستِحسانيَّةُ (التَّعريفُ الثّامِنُ)، سِمَةٌ لافِتَةٌ لِلنَّظَرِ، وهيَ تُعِينُ مَرَّةً أُخرَى على تَفسيرِ مَيْلِ وِجهاتِ نَظَرٍ كَهذهِ إلى أن تُصبِحَ سايكولوجيَّةً (المجموعة C). وهكذا، يَميلُ التَّعريفُ السّادِسَ عشَرَ إلى أن يَشغَلَ مَوقِعَ التَّعريفِ السّادسِ ويَحُلَّ محلَّهُ، أمّا التَّعريفُ الخامسَ عشَرَ ذو الشَّكلِ الواضِحِ المُهَذَّبِ فكَثيرًا ما يَحُلُّ محلَّ التَّعريفِ الخامسِ. وهذهِ الاختِلافاتُ في الإحالةِ، حتَّى في التَّعريفاتِ ذاتِ [144] الرُّموزِ المُعَدَّةِ بِخاصَّةٍ لِضَبطِ مِثلِ هذا التَّحوُّلِ، تُعينُ على تَذكيرِنا بِالأهمِّيَّةِ الكُبرَى لِلقانونِ الرّابعِ في جَميعِ النِّقاشاتِ. ولا تَكمُنُ فائدَةُ وُجودِ نَظريَّةٍ رَمزيَّةٍ لِلتَّعريفِ في أيِّ ضَمانٍ لِمُقاوَمَةِ اللَّبْسِ يُمكِنُها أن تُقَدِّمَهُ، بَل في البَصيرَةِ التي تَمنَحُنا إيّاها، ما دُمْنا نَستَعمِلُ الرُّموزَ، بِشأنِ ما سَوفَ يَحدُثُ، وفي ما تُهَيِّئُهُ مِن وَسيلَةِ استِبانةٍ وتَصحيحٍ لِتلكَ التَّجَوُّلاتِ غيرِ الإراديَّةِ لِلإحالةِ التي لا يَسلَمُ أيُّ خِطابٍ مِن حُدوثِها فيهِ.

ومِن الواضِحِ أنَّ 'نِقاطَ الانطِلاقِ' في التَّعريفاتِ المذكورةِ آنِفًا، أي انسِجامَ البَواعِثِ المُختلِفَةِ، والعاطِفةَ المُحدَّدَةَ، والنَّتائجَ الاجتماعيَّةَ المَرغوبَ فيها، وما إلى ذلكَ، إنَّما يُتَوَصَّلُ إليها هيَ أنفُسها بِعَمليّاتِ تَعريفٍ مُعَقَّدَةٍ. ومِن أجلِ أغراضٍ مَخصوصَةٍ يُحتَمَلُ أن تَكونَ تَعريفاتُ 'الجَميل' قد صِيغَتْ لَها يُمكِنُ

افتِراضُ أنَّ نِقاطَ الانطِلاقِ هذهِ مُتَّفَقٌ عليها، وأنَّ المَناهِجَ التي يُمكِنُ أن يُضمَنُ بها اتِّفاقٌ كهذا هيَ أنفُسها التي تُستَعمَلُ معَ 'العاطِفَة' و'المُتعَة'، كما تُستَعمَلُ معَ 'الجَميل' نَفسِهِ.

كذلِكَ يُمكِنُ أن نَنطَلِقَ مِن هذهِ التَّعريفاتِ أو مِن أيٍّ مِنها إلى الألفاظِ المُقارِبَةِ (القُبح، والحُسْن، والتَّسامِي) أو التي تَتَّصِلُ بِها بِطريقَةٍ أُخرَى (الفَنّ، والزُّخرُف الجَماليّ)، ومِن أجلِ تَعريفِ هذهِ الألفاظِ هيَ أيضًا يُمكِنُ أن نتَّخِذَ بَعضَ المَيادينِ المُعَيَّنَةِ الآنَ لِلجَميلِ نِقاطَ انطِلاقٍ لَها ثُمَّ نَقولَ: - عِلمُ الجَمالِ هوَ دِراسَةُ الجَميلِ، أو: - الفَنُّ هوَ المُحاوَلَةُ المَزعومةُ لإنتاجِ الجَمالِ، أو قَد نَرجِعُ إلى نُقطَةِ انطِلاقِنا لِتَعريفِ الجَمالِ فنَقْصُرُ تَوجيهَ بوصَلَتِنا علَيْهِ.

إنَّ المَيادينَ المُشارَ إليها في التَّعريفاتِ المذكورةِ آنِفًا قد تكونُ في بَعضِ الحالاتِ مُتَساوِيَةَ الامتِدادِ، كما في التَّعريفَيْنِ الخامِسِ والخامِسَ عَشَرَ، أو قد تَتَداخَلُ جُزئيًّا، كما في التَّعريفَيْنِ العاشِرِ والثالثَ عَشَرَ، أو قد تكونُ مُتَمانِعَةً، وهذهِ حالةٌ لا تُدرَكُ هُنا ولا في أيَّةِ دِراسةٍ مُحتَمَلَةٍ. وما يُقَرِّرُ تَساوِيَ امتدادِ اثنَيْنِ مِن هذهِ المَيادينِ، أو تداخُلَهما، أو تَمانُعَهُما هوَ البَحثُ المُفَصَّلُ في المَراجِعِ المُنضَوِيَةِ في المَيادينِ. والحَقُّ أنَّ مَدَياتِ التَّداخُلِ بينَ المَيادينِ تُوَلِّدُ المُشكِلاتِ الخاصَّةَ لِلعُلومِ التَّجريبيَّةِ. وهكذا نَجِدُ، علي سبيلِ المِثالِ، [145] أنَّ الأشياءَ الجَميلةَ المُعَرَّفَةَ بِوَصفِها مُحاكَيَاتٍ لِلطَّبيعَةِ (التَّعريف الثّالث) لا تَتطابَقُ إلّا معَ الأشياءِ الجَميلةِ المُعَرَّفَةِ بِوَصفِها مُوَلِّداتٍ لِلوَهم (التَّعريف السّابع)، بِشُروطٍ صارِمَةٍ مُعَيَّنَةٍ يُوجَدُ مِن بَينِها شَرطٌ لا يَكونُ كذلكَ مُتَضَمَّنًا في مَدَى التَّعريفِ الرّابِعِ. إنَّ البَحْثَ في هذهِ الارتِباطاتِ والشُّروطِ التي تتوَقَّفُ عليها هوَ مُهِمَّةُ عِلمِ الجَمالِ بِوَصفِهِ عِلْمًا.

إنَّ أفضَلِيَّةَ الشَّكلِ التَّوسيعِيِّ نَحويًّا في التَّعريفاتِ تَكمُنُ في أنَّ الرُّموزَ التي نَستَعمِلُها، بِصياغَتِها على هذا النَّحوِ، هي أَقَلُّ الرُّموزِ احتِمالاً لإبهامِ المُفرَزاتِ الحاصِلَةِ، بِتَحويلِ مَسائلَ تَدورُ حولَ أُمورٍ عَمَلِيَّةٍ إلى ألغازٍ مُحَيِّرَةٍ تتعلَّقُ بِربْطِ التَّعبيراتِ.

ويُمكِنُ تَوجيهُ العِنايَةِ إلى جَميعِ ما طالَتْهُ هذهِ المُقارَباتُ المُختلِفةُ مِن مَيادينَ، ومُعظَمُها مُقتَرِنٌ بِأسماءٍ لامِعَةٍ في فَلسَفةِ الفَنِّ.

فَلْنَفترِضْ، إذَنْ، أنّا انتَخَبْنا أحَدَ هذهِ المَيادينِ ورَعَيْناهُ بِكُلِّ ما أُوتِينا مِن طاقَةٍ، فما دَواعي انتِخابِنا إيّاهُ دونَ غيرِهِ؟ ذلكَ بِأنّا قد نَقَعُ في الخَطَإِ إن قارَبْنا الموضوعَ بِرُوحيَّةِ زائِرِ حديقَةِ الحَيَوانِ الذي يَعلَمُ أنَّ كلَّ المخلوقاتِ التي تكونُ في داخِلِ سِياجٍ مُعَيَّنٍ هيَ مِن 'الزَّواحِفِ'، فيَبحَثُ، بِسَبَبِ ذلكَ، عن الخاصِّيَّةِ المُشتركةِ التي تَجعَلُ الزَّواحِفَ بِوَصفِها مَجموعَةً تَنمازُ مِن الأسماكِ في حَوْضِها المائيِّ. مِثالٌ مُشابِهٌ لِذلكَ: أنّا نَدخُلُ بِرْلِنغتن هاوس Burlington House[11] مُفتَرِضِينَ أنَّ كلَّ ما جُمِعَ فيهِ جَميلٌ، فَنُحاوِلُ، على النَّحوِ نَفسِهِ، أن نُنْشِئَ خاصِّيَّةً مُشتركةً. وقَليلٌ مِن التَّأمُّلِ في كَيفيَّةِ وُصولِها إلى هُناكَ رُبَّما كانَ سيُثيرُ شُكوكًا حقيقيَّةً بِشَأنِ ما نَحنُ بِصَدَدِهِ، لكِنْ إنْ أصْرَرْنا، مُتابِعِينَ في ذلكَ ما ذَهَبَ إليهِ الكَثيرُ مِن المُختَصِّينَ في عِلمِ الجَمالِ، فقد نُفلِحُ حتّى في جَعلِ اكتِشافِنا لِخاصِّيَّةٍ مُشتركةٍ ذاتِ صِلَةٍ يَبدو مَقبولاً.

قد رأَيْنا في ما سَبَقَ (ص218-219) كَم هيَ واسِعَةٌ حُرِّيَّةُ التَّجوالِ لِكَلِمةٍ مُهَذَّبَةٍ مِثلِ 'حَسَن'، وثَمَّةَ أسبابٌ وَجيهةٌ لافتِراضِ أنَّ كلمةَ 'جَمال' لن تَكونَ أكثَرَ إخلاصًا لِنَواةِ إحالةٍ مَخصوصةٍ واحدةٍ. والحَقُّ أنَّهُ يَجِبُ دَومًا ألّا يَغيبَ عنّا في النِّقاشِ أنَّهُ لا شَكَّ في وُجودِ عددٍ كبيرٍ مِن الطَّرائقِ التي يُمكِنُ [146] أن يكتَسِبَ الرَّمزُ بِها استِعمالاتٍ ثانَويَّةً؛ فأيَّةُ مُماثَلةٍ وأيَّةُ مُشابَهَةٍ قد تَكونانِ سَبَبًا كافِيًا لِحُدوثِ تَوَسُّعٍ في 'المَعنَى'، أو تَحَوُّلٍ في الدَّلالةِ. وليسَ ما يَلزَمُ مِن هذا مِن أنَّ ما سَيَنشَأُ مِن ذلكَ مِن رَمزَيْنِ أو أكثَرَ (يُنظَر: ص181) سيَرْمِزُ إلى مَراجِعَ لَها خاصِّيَّةٌ مُشتركةٌ ذاتُ صِلَةٍ، بِأكبَرَ مِمّا يَلزَمُ مِن الاسمِ المُشتركِ لِزَوجَةِ أبي رَجُلٍ مّا وزَوجَةِ ابنِهِ مِن أن تُشارِكاهُ في وَجَعِ المَفاصِلِ وحُبِّ سِباقِ الخَيْلِ.

---

(11) بِرْلِنغتن هاوس: مَبنًى مُطِلٌّ على ساحةِ بيكاديلّي في لندَن، وهو معروفٌ لَدَى عامَّةِ الناسِ بِوَصفِهِ مكانَ إقامةِ المعارِضِ المُؤَقَّتَةِ لِلأكاديميَّةِ المَلَكيَّةِ. [المُترجِم]

فلِذلكَ إن استُعمِلَتْ في النِّقاشِ ألفاظٌ مِثلُ الجَمالِ مِن أجلِ قِيمَتِها الانفِعاليَّةِ، على ما هوَ مُعتادٌ، فالتَّخليطُ واقِعٌ لا مَحالَةَ، ما لَم يُدرَكْ دومًا أنَّ الكلماتِ المُستَعملَةَ على هذا النَّحوِ غيرُ قابِلةٍ لِلتَّعريفِ، أي غيرُ قابلةٍ لِلاستِبدالِ؛ لِعدمِ تَوافُرِ كلمةٍ تَحفيزيَّةٍ أُخرَى تَعدِلُها تأثيرًا. ولا شَكَّ في أنَّ هذهِ الاستِعمالاتِ غيرَ القابلةِ لِلتَّعريفِ هيَ ما أدَّى كَثيرًا إلى افتِراضِ صِفَةٍ بَسيطَةٍ لِلجَمالِ (التَّعريف الأوَّل) لِتفسيرِ الصُّعوباتِ اللفظيَّةِ، كما اقتُرِحَ كذلكَ آنِفًا معَ كَلِمَةِ حَسَن (ص219). مِن جِهَةٍ أُخرى، إذا ما احتُفِظَ بِلَفْظِ الجَمالِ بِوَصفِهِ بَديلاً اختِزاليًّا، لِتعريفٍ مّا وَسطَ التَّعريفاتِ الكثيرةِ التي استَخرَجْناها، فلا يُمكِنُ تَسويغُ هذهِ المُمارَسَةِ إلّا بِوَصفِها وَسيلةً تُشيرُ بِكَلِمَةٍ ذاتِ سُلطَةٍ إلى أنَّ التَّجرِبَةَ المُنتَخَبَةَ تُعَدُّ ذاتَ أهمِّيَّةٍ كبيرَةٍ، أو اختِزالاً مُتَدَنِّيَ المُستَوَى مُفيدًا.

وزِيادَةً على تَزويدِ أيَّةِ آلِيَّةِ تَعريفٍ عامَّةٍ بِما يَلزَمُها مِن حالَةِ اختِبارٍ، قد يَكونُ النَّظَرُ في مُشكِلةِ الجَمالِ أفضَلَ ما يُقَدَّمُ لِمَسألَةِ الوظائفِ المُتَنوِّعَةِ لِلُّغةِ. ومَعلومٌ أنَّ الذينَ يكونُ اهتِمامُهُم بِالفَنِّ غايَةً في المُباشَرَةِ كَثيرًا مّا يَميلونَ إلى التَّقليلِ مِن شَأنِ المُقارَبَةِ العِلميَّةِ لاحتِمالِ إفسادِها التَّذَوُّقَ. ولَو قَلَّبْنا هذا الرَّأيَ على وُجوهِهِ لأَلفَيْناهُ عَرَضًا نَموذَجِيًّا لِتَخليطٍ مُتعلِّقٍ بِاستِعمالاتِ اللغةِ حاضِرٍ بِاستِمرارٍ في جَميعِ الدِّراساتِ، بِحَيْثُ سيكونُ تَمييزُهُ عُمومًا واحِدَةً مِن أهَمِّ النَّتائجِ التي يُمكِنُ أن يُقَدِّمَها عِلمُ الرَّمزِيَّةِ.

ولَو عَقَدْنا مُوازَنَةً بينَ مادَّةٍ نَقدِيَّةٍ مُتعلِّقَةٍ [147] بِفَنٍّ مّا ومادَّةِ تَعليقاتٍ مُعتَمَدَةٍ على حَدٍّ سَواءٍ مُتعلِّقَةٍ، مَثَلاً، بِالفيزياءِ أو الفِسيولوجيا لَصُدِمْنا بِتَكَرُّرِ الجُمَلِ، حتَّى عندَ أفضَلِ النُّقّادِ، بِما لا يُمكِنُ فَهمُهُ بِالطَّريقةِ نَفسِها التي نَجهَدُ بِها لِفَهمِ جُمَلِ الفِسيولوجِيِّينَ. قالَ لونجينوس Longinus[12]: "الكَلِماتُ الجَميلَةُ هيَ

(12) لونجينوس: هو الاسمُ المُستَعمَلُ لِمُعلِّمٍ إغريقيٍّ للفصاحةِ أو النقدِ الأدبيِّ، عاشَ بينَ القرنَيْنِ الأوَّلِ والثالثِ الميلادِيَّيْنِ، وهو معروفٌ فقط برسالةِ (في التَّسامِي)، وهيَ تُعْنَى بِتأثيرِ الكتابةِ الحسَنَةِ، وهي من أهمِّ الرسائلِ في علمِ الجمالِ في العُصورِ القديمةِ. وكاتِبُها غيرُ معروفٍ؛ ففي مخطوطةِ (باريسينوس غريكوس 2036) نُسِبَتْ إلى ديونيسيوس =

نُورُ العَقلِ الفِعليُّ والمُمَيِّزُ". ويَرَى كوليرِج Coleridge[13] أنَّ "على الفَنّانِ أن يُحاكِيَ ما يَنطَوي عليهِ الشَّيءُ، ما تَسري فاعِلِيَّتُهُ في الشَّكلِ والمَظهَرِ، فيُخاطِبَنا بِهِ بِوَساطةِ الرُّموزِ- رُوح الطَّبيعَةِ". ويَكتُبُ الدُّكتور برادلي Bradley[14] قائلاً: "الشِّعْرُ رُوحٌ. لا نَعرِفُ مِن أَيْنَ يَأتي. لا نَملِكُ أن نَدعُوَهُ فيَتَكَلَّمَ، ولا أن يُجيبَ بِلُغَتِنا. لا نَملِكُهُ، بَل يَمِلكُنا"[15]. وكانَ الدُّكتور مَكَّيْل Mackail[16] أكثرَ حَماسَةً، إذ قالَ: "إنَّ الشِّعرَ، لِكَونِهِ مادَّةً أو طاقَةً مُستَمِرَّيْنِ في الأصلِ، حَرَكَةٌ مُتَّصِلَةٌ تَأريخيًّا، سِلسِلةُ تَجلِّياتٍ تَكامُلِيَّةٍ تَعاقُبِيَّةٍ. فَكُلُّ شاعِرٍ، بَدْءًا مِن هوميروس Homer[17] وانتِهاءً بِيَومِنا هذا، يُمَثِّلُ إلى حدٍّ مّا وفي نُقطةٍ مّا صَوتَ حَرَكَةِ الشِّعرِ

= أو لونجينوس، وقد أخطأَ ناسِخٌ من العُصورِ الوُسطَى فذَكَرَ أنَّها لديونيسيوس لونجينوس. وحينَ طُبِعَت الرِّسالةُ نُسِبَتْ إلى قاسيوس ديونيسيوس لونجينوس (213-273م)، لكنَّ بعضَ المُترجِمِينَ نسَبوا النَّصَّ إلى ديونيسيوس الأليكارناسوسيِّ، وهو كاتبٌ من القرنِ الأوَّلِ بعدَ الميلادِ. [المُترجِم]

(13) صاموئيل تَيْلَر كوليرِج (1772-1834م). شاعرٌ، وناقدٌ إنجليزيٌّ، اشتَغَلَ بِالفلسفةِ. أعلَنَ مع زميلِهِ وِلْيَم وردزورث بَدءَ الحركةِ الرومانتيكيَّةِ في إنجلترا بِديوانِهِما المشتركِ (قصائدُ غِنائيَّةٌ). ومِن آثارِهِ الأخرَى: قُبْلا خان، والسِّيرَةُ الأدبيَّة. [المُترجِم]

(14) أندرو سيسِل برادلي (1851-1935م). باحثٌ أدبيٌّ إنجليزيٌّ. أكثرُ ما يُعرَفُ بِهِ ما كتَبَهُ عن شيكسبير. كانَتْ حصيلةُ عملِهِ أستاذًا لِمادَّةِ الشِّعرِ في جامعةِ أوكسفورد مدَّةَ خَمسِ سنواتٍ مُؤَلَّفَيْهِ الرَّئيسَيْنِ: التراجيديا الشيكسبيريَّة، ومُحاضَراتُ أوكسفورد في الشِّعرِ. [المُترجِم]

(15) *Oxford Lectures on Poetry*, p. 27.

(16) جون وِلْيَم مَكَّيْل (1859-1945م). أديبٌ، واشتراكيٌّ أسكتلنديٌّ. أكثرُ ما يُعرَفُ به الآنَ أنَّهُ دارسٌ لِفرجيل. وكانَ شاعرًا أيضًا، ومؤرِّخًا أدبيًّا. [المُترجِم]

(17) هوميروس: شاعرٌ مَلحَميٌّ أسطوريٌّ إغريقيٌّ، يُعتَقَدُ أنَّهُ مؤلِّفُ الملحمتَيْنِ الإغريقيَّتَيْنِ الإلياذة والأوديسة. وقد آمَنَ الإغريقُ عُمومًا بأنَّهُ شخصيَّةٌ تأريخيَّةٌ، لكنَّ الباحثِينَ المُحدَثِينَ يتَشَكَّكونَ في هذا؛ إذ لا توجَدُ ترجماتٌ موثوقٌ بِها لِسيرتِهِ باقيةٌ من الحقبةِ الكلاسيكيَّةِ. وقالَ هيرودوتس إنَّهُ عاشَ قبلَهُ بِأربعمئةِ سنةٍ، وهذا قد يعني أنَّهُ عاشَ قريبًا من سنةِ 850 ق.م، في حين ترى مَصادرُ قديمةٌ أخرى أنَّه عاشَ في حقبةٍ قريبةٍ من حربِ طروادةَ المفترَضَةِ. ويعتقِدُ إيراتوستينيس الذي جاهدَ لإثباتِ تقويمٍ علميٍّ لأحداثِ حربِ طروادةَ أنَّها كانَتْ بينَ سنتَيْ 1184 و1194 ق.م. ويقولُ ألفريد هيوبك: إنَّ تأثيرَ أعمالِ =

وطاقَتِهِ؛ فَبِهِ يُصبِحُ الشِّعرُ في زَمَنِهِ مَرئيًّا، ومَسموعًا، ومُجَسَّدًا، ويُمَثِّلُ ما بَقِيَ مِن قَصائدِهِ ما خُلِّفَ لَنا مِن سِجِلٍّ لِذلكَ التَّجَسُّدِ الجُزئيِّ والوَقتِيِّ... إنَّ مَسيرَةِ الشِّعرِ... لإلَى الخُلودِ"[18].

وما مِن شَخصٍ لا يَرغَبُ في إضاعةِ وَقتِهِ يُحاوِلُ تَفسيرَ هذهِ التَّعليقاتِ مُدَّةً طَويلةً بِالطَّريقَةِ نَفسِها التي يُحاوِلُ بِها، مَثَلاً، تَفسيرَ وَصفٍ لِلدَّورَةِ الدَّمَويَّةِ. ومعَ ذلكَ، مِن الخَطَإِ عَدُّها مِمّا لا يَستَحِقُّ الاهتِمامَ. فَمِن الواضِحِ أَنَّها تتطَلَّبُ أُسلوبَ مُقارَبَةٍ مُختَلِفًا. وسَواءٌ أَوَعَى كُتّابُ هذهِ التَّعليقاتِ أم لَم يَعُوا يَتمَيَّزُ استِعمالُ الكَلِماتِ الذي تُعَدُّ هذهِ التَّعليقاتُ نَماذِجَ لَهُ تَمَيُّزًا كُلِّيًّا مِن الاستِعمالِ العِلمِيِّ. وقد تَزدادُ هذهِ النُّقطةُ وُضوحًا في حالِ استِعمالِ جُمَلٍ شِعريَّةٍ في تَجرِبَةٍ عِلمِيَّةٍ. واليَقينيُّ في الأمرِ أنَّ ثَمَّةَ استِعمالاً لِلكَلِماتِ مُشتركًا ومُهِمًّا يَختَلِفُ عن [148] استِعمالِها العِلمِيِّ، أو الرَّمزِيِّ الصّارِمِ، على ما سَنُسَمِّيهِ.

ولِكُلِّ عِبارَةٍ في الكَلامِ اليَوميِّ الاعتياديِّ عَدَدٌ مِن الوَظائفِ لا وَظيفَةٌ واحدةٌ. وفي الفَصلِ الأخيرِ مِن هذا الكِتابِ سَنُصَنِّفُ هذهِ الوَظائفَ تَحتَ خَمسَةِ عُنواناتٍ، أمّا في هذا المَوضِعِ مِن البَحثِ فإنَّ القِسمَةَ الثُّنائيَّةَ أكثرُ مُلاءَمَةً، أي القِسمَةَ على الاستِعمالِ الرَّمزيِّ لِلكَلماتِ والاستِعمالِ الانفِعاليِّ. فالاستِعمالُ الرَّمزيُّ لِلكلماتِ هو تَقريرٌ، أي تَسجيلُ الإحالاتِ، وتَقويَتُها، وتنظيمُها، وتَوصيلُها. أمّا الاستِعمالُ الانفِعاليُّ لِلكلماتِ فأَمرُهُ أيسَرُ مِن ذلكَ، فهوَ استِعمالُ الكَلماتِ لِلتَّعبيرِ عن المَشاعرِ والمواقِفِ ولإثارَتِها، وقد يَكونُ أكثَرَ بِدائيَّةً. فبِقَولِنا: "ارتِفاعُ بُرجِ إيفيل 900 قَدَم"، نحنُ نُنشِئُ تَقريرًا، ونَستَعمِلُ رُموزًا مُعيَّنَةً مِن أجلِ أن نُسَجِّلَ إحالةً مّا أو نُوَصِّلَها، ويَكونُ رَمزُنا صادِقًا أو كاذِبًا على نَحوٍ صارِمٍ، ومُمكِنَ الإثباتِ نَظَرِيًّا. لكِنْ إن قُلْنا: "وُرّا!"، أو "الشِّعْرُ رُوحٌ"، أو "الإنسانُ دُودَةٌ"، فرُبَّما لا نَكونُ بِذلكَ مُنشِئينَ تَقريراتٍ، ولا حَتّى تَقريراتٍ

= هوميروس الذي شَكَّلَ تطوُّرَ الثقافةِ الإغريقيَّةِ وأثَّرَ فيها قد أقَرَّ به الإغريقُ الذينَ عدُّوهُ مُعَلِّمَهُم. [المُترجِم]

(18) *Lectures on Poetry*, pp. xi., xiii.

كاذِبَةً، بَل إنَّ الاحتِمالَ الأَكبرَ هو أنّا نَستَعمِلُ الكَلِماتِ مِن أجلِ استِثارَةِ to evoke مَواقِفَ مُعَيَّنَةٍ.

ولِكُلٍّ مِن هاتَيْنِ الوَظيفَتَيْنِ المُتَضادَّتَيْنِ، على ما سنَرَى، جانِبانِ، أَحدُهما يتعلَّقُ بِالمُتكلِّمِ، والآخَرُ بِالمُستَمِعِ. فيَندَرِجُ في الوَظيفَةِ الرَّمزيَّةِ كُلٌّ مِن تَرميزِ الإحالةِ وتَوصيلِها إلى المُستَمِعِ، أيِ التَّسَبُّبِ في أن تَكونَ لَدَيهِ إحالةٌ مُشابِهَةٌ. ويَندَرِجُ في الوَظيفةِ الانفِعاليَّةِ كُلٌّ مِن التَّعبيرِ عن العَواطِفِ، والمَواقِفِ، والأمزِجَةِ، والمَقاصِدِ، وما إليها، عندَ المُتَكلِّمِ، وتَوصيلِها إلى المُستَمِعِ، أي استِثارَتِها عندَهُ. ولَمّا لم يَكُنْ ثَمَّةَ فِعلٌ مُلائمٌ يَشمَلُ التَّعبيرَ expression والاستِثارَةَ evocation مَعًا، ارتأَينا أن نَلجَأَ كثيرًا في ما سيأتي إلى استِعمالِ تَعبيرِ 'يَستَثِيرُ' لِلتَّعبيرِ عن كِلا جانِبَي الوَظيفَةِ الانفِعاليَّةِ؛ إذ لا يُؤَدِّي ذلكَ إلى خَطَرِ سُوءِ الفَهمِ. وزِيادَةً على ذلكَ، لا يَرجِعُ سَبَبُ استِعمالِ المُتَكلِّمِ اللغةَ الانفِعاليَّةَ في الكثيرِ مِن الحالاتِ إلى امتِلاكِهِ انفِعالاً يَرغَبُ في التَّعبيرِ عنهُ، بَل إنَّ السَّببَ الوحيدَ لِذلكَ هو البَحثُ عن كَلِمةٍ تَستَثِيرُ انفِعالاً يَرغَبُ في امتِلاكِهِ، كما لا يَصِحُّ عَزوُ استِعمالِ اللغةِ الانفِعاليَّةِ إلى أنَّ مِن الضَّروريِّ لِلمُتكلِّمِ [149] نَفسِهِ أن يُجَرِّبَ الانفِعالَ الذي يُحاوِلُ استِثارَتَهُ.

صَحيحٌ أنَّ بَعضَ عناصرِ الإحالةِ رُبَّما يَدخُلُ في كلِّ استِعمالٍ لِلكَلِماتِ تَقريبًا، عندَ جَميعِ البالِغِينَ المُتَحضِّرِينَ[19] في الأَقَلِّ، ومِن المُمكِنِ على الدَّوامِ أن نُفيدَ إحالةً، إن اقتَصَرَ الأمرُ في ذلكَ على الإحالَةِ على الأشياءِ إجمالاً. وكَثيرًا مّا تُوجَدُ الوَظيفَتانِ اللتانِ نحنُ بِصَدَدِهما مَعًا، لَكِنَّهما، على الرَّغمِ مِن ذلكَ،

(19) يُستَحسَنُ هذا التَّحَفُّظُ هُنا، ولَو اقتَصَرَ أمرُهُ على الأغراضِ التَّعليميَّةِ؛ إذ تُفيدُ بعضُ المَصادِرِ "أنَّ نِسبَةَ تِسعٍ وتِسعِينَ مِن مِئةٍ مِن الكَلِماتِ المُستَعمَلَةِ في التَّحدُّثِ إلى طِفلٍ صغيرٍ لا تَعني لَهُ شَيئًا، إلّا بِمَعنَى أنَّها تَسُرُّهُ بِوَصفِها تَعبيرًا عن الاهتِمامِ بِهِ". وزِيادةً على ذلكَ، فإنَّ الأطفالَ قبلَ بُلوغِهِم السَّنَةَ السّادسةَ أو السّابِعَةَ "لا يَستطيعونَ الإمساكَ بِالمعنَى المعروضِ على عُقولِهِم مِن غيرِ تَجرِبَتِهِ بِرُموزٍ إدراكيَّةٍ حِسِّيَّةٍ، كَلِماتٍ كانَتْ أو غيرَها ... ومِن هُنا تتأتَّى رَغبةُ الطِّفلِ الطَّبيعيَّةُ في أن يَتَحدَّثَ أو يُتَحَدَّثَ إليهِ، إذا ما سُئِلَ أن يَجلِسَ هادِئًا ولَو بِضعَ دَقائقَ" (W. E. Urwick, *The Child's Mind*, pp. 95, 102.).

مُتَمايِزَتانِ مِن حيثُ المَبدَأ. فَما دامَتِ الكَلماتُ تُستَعمَلُ استِعمالاً عاطِفِيًّا فلَن يُثارَ تَساؤُلٌ بِشَأنِ صِدْقِها على نَحوٍ صارِم. ولا شَكَّ في أنَّ الصِّدقَ بِهذا المَنحَى الصّارِمِ كَثيرًا مّا يَكونُ مُتَضَمَّنًا على نَحوٍ غيرِ مُباشِرٍ. فالكَثرَةُ الوافِرَةُ مِن الشِّعرِ تتألَّفُ مِن تَقريراتٍ، تَنظيماتٍ رَمزِيَّةٍ قابِلَةٍ لِلصِّدقِ والكَذِبِ لا تُستَعمَلُ مِن أجلِ صِدقِها أو كَذِبِها بَل مِن أجلِ المَواقِفِ التي يَستَثِيرُها قَبولُها. مِن أجلِ ذلكَ كانَ مِن حُسنِ الحَظِّ ألّا تَكونَ لِلصِّدقِ أو الكَذِبِ أهَمِّيَّةٌ البَتَّةَ في مَسألةِ القَبولِ، أو أنَّ الأولَى أن تُناطَ بِالشّاعِرِ مُهِمَّةُ جَعلِ الأمرِ كذلكَ. فبِاستِثارَةِ المَوقِفِ أو الشُّعورِ تَكونُ أهَمُّ وَظيفةٍ لِهذهِ اللغةِ قد نُفِّذَتْ، وأيَّةُ وَظيفةٍ رَمزِيَّةٍ يُمكِنُ أن تكونَ لِلكَلِماتِ لَن تكونَ إلّا مُساعِدَةً وثانَوِيَّةً لِلوَظيفَةِ الاستِثارِيَّةِ.

هذا التَّمازُجُ الدَّقيقُ لِلوَظيفتَيْنِ هوَ السَّببُ الرَّئيسُ لِعَدَمِ شُيوعِ إدراكِ الفَرقِ بينَهُما. وأفضَلُ اختِبارٍ لِلوُقوفِ على استِعمالِنا الأساسيّ لِلكلماتِ: أرَمزِيٌّ هوَ أم انفِعالِيٌّ؟ هوَ إثارَةُ تَساؤُلٍ مفادُهُ: "أصادِقٌ هذا أم كاذِبٌ بِالمَعنَى العِلمِيِّ الصّارِمِ الاعتِيادِيِّ؟". فإن كانَ إيرادُ هذا السُّؤالِ ذا صِلَةٍ فالاستِعمالُ رَمزِيٌّ، وإن كانَ واضِحًا أن لا صِلَةَ لَهُ فالقَوْلُ، حينَئذٍ، انفِعالِيٌّ.

لكِن يَجِبُ الحَذَرُ مِن خَطَرَيْنِ عندَ القِيامِ بِهذا الاختِبارِ. [150] فثَمَّةَ نَمَطٌ مُعَيَّنٌ مِن العُقولِ لا يُمكِنُهُ بَعدَ التَّفكيرِ أن يُقِرَّ بِأنَّهُ يَستَعمِلُ لُغَةً استِثارِيَّةً على الرَّغمِ مِن أنَّهُ يَفعَلُ ذلكَ، ولِذلكَ يَعُدُّ السُّؤالَ السّابِقَ ذا صِلَةٍ في جَميعِ المُناسَباتِ. وإلى هذا السَّببِ يُعزَى انصِرافُ جُمهورٍ عَريضٍ مِن القُرّاءِ أكبرَ مِمّا يُفتَرَضُ عُمومًا عن قِراءَةِ الشِّعْرِ. كانَ هذا هو الخطَرَ الأوَّلَ، أمّا الخَطَرُ الثّاني فأَشَدُّ أهمِّيَّةً. فثَمَّةَ مَعانٍ تَنطَبِقُ على التَّعبيراتِ الانفِعالِيَّةِ (صادِقن)[20] وهيَ مُناظِرَةٌ إلى حَدٍّ مّا لِلمَعنَى الصّارِمِ لِلصِّدقِ والكَذِبِ في التَّقريراتِ الرَّمزِيَّةِ (صادِقر)[21].

(20) في الأصلِ (True E)، والـ(E) الصَّغيرُ يُمَثِّلُ الحرفَ الأوَّلَ مِن كَلمةِ (Emotive). [المتَرجِم].

(21) في الأصلِ (True S)، والـ(S) الصَّغيرُ يُمَثِّلُ الحرفَ الأوَّلَ مِن كَلمةِ (Symbolic). [المتَرجِم].

وكَثيرًا مّا يَستَعمِلُ النُّقّادُ (صادِق[ن]) في كَلامِهِم على الأعمالِ الفَنِّيَّةِ، حيثُ تَكونُ الرُّموزُ البَديلَةُ هيَ 'مُقْنِع' في بعضِ الحالاتِ، و'مُستَقيم' في أُخرَى، و'جَمِيل' في أُخرَى، وهَلُمَّ جَرًّا. وعادَةً مّا يُفعَلُ ذلكَ مِن غيرِ إدراكِ أنَّ (صادِق[ن]) و(صادِق[د]) رَمزانِ مُختَلِفانِ. ثُمَّ إنَّ ثَمَّةَ استِعمالاً استِثارِيًّا خالِصًا لِـ(صادِق)- هوَ استِعمالُهُ لإثارَةِ مَواقِفِ القَبولِ أو الإعجابِ، واستِعمالاً استِثارِيًّا خالِصًا لِـ(كاذِب)- هوَ استِعمالُهُ لإثارَةِ مَواقِفِ الارتِيابِ والاستِنكارِ. وحينَ تُستَعمَلُ هذهِ الكَلِماتُ على هذا النَّحوِ لا يَكونُ بِالإمكانِ استِبدالُ غيرِها بِها إلّا عَرَضًا ما دامَت استِثارِيَّةً، وهذا ما يُفَسِّرُ الكَراهَةَ الشّائعَةَ لِلتَّخَلّي عن استِخدامِها حتَّى عندَ الإدراكِ التّامِّ لِعَدَمِ مُلاءَمَةِ أن يَكونَ ثَمَّةَ رَمزانِ شَديدا التَّشابُهِ ظاهِرِيًّا كالرَّمزَيْنِ (صادِق[د]) و(صادِق[ن]) يُستَعمَلانِ مَعًا. وفي العُمومِ، كَثيرًا مّا يَكونُ مَرَدُّ هذهِ العاطِفَةِ تجاهَ الكَلِمَةِ، حتَّى حينَ يُقَرُّ بِلَبْسِها الذي هوَ سِمَةٌ شائعَةٌ في النِّقاشِ، إلى كِفايَتِها الانفِعالِيَّةِ لا إلى أيَّةِ صُعوبَةٍ حقيقيَّةٍ في إيجادِ رُموزٍ بَديلَةٍ تُعَزِّزُ الإحالَةَ نَفسَها. على أنَّ هذا ليسَ السَّببَ الوَحيدَ على الدَّوامِ، على ما سنَرَى في الفَصلِ الأخيرِ حينَ نُقدِمُ على النَّظَرِ في حالةِ تَبَعِيَّةِ الكَلِمَةِ.

هذا التَّبايُنُ في وظيفةِ الكلماتِ بوَصفِها مُعَزِّزَةً لِلإحالةِ أو حامِلَةً لَها، والكَلِماتِ بِوَصفِها تَعبيراتٍ عن مَواقِفَ أو مُثيراتٍ لَها، بَدَأَ يَحظَى، مِن وِجهَةِ نَظَرٍ نَحْوِيَّةٍ بِشَكلٍ رَئيسٍ، بِبَعضِ الاهتِمامِ في السَّنَواتِ الأخيرَةِ. على أنَّ هذا الإهمالَ لِتأثيراتِ إجرائنا اللغويِّ في جَميعِ [151] فَعّالِيّاتِنا الأُخرَى الذي يُمَيِّزُ اللُّغَوِيِّينَ كَثيرًا قد جَرَّدَ مِثلَ هذهِ الدِّراساتِ التي اضطُلِعَ بِها مِن مُعظَمِ قيمَتِها. فعلى الرَّغمِ مِن أنَّ فون دير غابيلينتز G. von der Gabelentz[22]، مَثَلاً، قد صَرَّحَ بِأنَّ "الفائدَةَ التي يَجنيها المَرءُ مِن اللغةِ لا تَقتَصِرُ على التَّعبيرِ عن شَيءٍ مّا، وإنَّما تتجاوزُ ذلكَ إلى التَّعبيرِ عن النَّفسِ"، لا يَبدو أنَّهُ قد نَظَرَ في ما يُمكِنُ أن يَجُرَّهُ

(22) هانز جورج كونون فون دير غابيلينتز (1840-1893م). لِسانيٌّ ألمانيٌّ. رُبَّما يُعَدُّ كتابُهُ (النَّحوُ الصينيُّ) الذي نشرَهُ سنةَ 1881 أفضَلَ نَظرَةٍ عامَّةٍ نَحوِيَّةٍ شامِلَةٍ لِلُّغَةِ الصينيَّةِ الكلاسيكيَّةِ. [المُترجِم]

مِثلُ هذا الاختِلاطِ في الوَظائفِ مِن عاقِبَةٍ وَخيمَةٍ على النَّظريَّةِ وعلى شَكلِ اللغةِ أيضًا. وإذا ذَهَبْنا نَستَقري آخِرَ ما كُتِبَ بِشَأنِ هذا الموضوعِ فسَنَجِدُ ضالَّتَنا في الفَصلِ الذي خَصَّصَهُ فندريس Vendryes[23] لِدراسةِ اللغةِ الوجدانِيَّةِ، والذي يَتَمَسَّكُ فيهِ مُؤَلِّفُهُ على نحوٍ صارِمٍ بِوِجهةِ نَظَرِ النَّحويِّينَ. إذ يَقولُ فيهِ: "لا يَنفَكُّ العُنصُرُ المنطقيُّ والعُنصُرُ الانفِعاليُّ عن الاختِلاطِ في اللغةِ. وإذا استَثْنَيْنا اللغاتِ التِّقْنِيَّةَ، ولا سِيَّما اللغاتُ العِلمِيَّةُ مِنها، تلكَ التي تُعَدُّ خارِجَ الحياةِ بِطَبْعِها، فإنَّ التَّعبيرَ عن أيَّةِ فِكرَةٍ لا يَخلو البَتَّةَ مِن لَونٍ عاطِفيٍّ". "وهذهِ العَواطِفُ لا تُهِمُّ عالِمَ اللغةِ إلّا حينَ يُعَبَّرُ عنها بِوسيلَةٍ لُغويَّةٍ. لكِنَّها، على العُمومِ، تَظَلُّ خارِجَ اللغةِ؛ فهيَ بِمَنزِلَةِ ضَبابٍ خَفيفٍ يَغشَى التَّعبيرَ عن الفِكرَةِ مِن غيرِ أن يُغَيِّرَ شَكلَها النَّحويَّ"، إلى آخِرِ كَلامِهِ. ويَرَى أنَّ ثَمَّةَ مَنحَيَيْنِ أساسيَّيْنِ يَهتَمُّ اللغَويُّ بِالجانِبِ العاطِفِيِّ مِن اللغَةِ مِن خِلالِهِما، أحَدُهُما أثَرُهُ في انتِظامِ الكلماتِ، والآخَرُ تَحديدُهُ لِلمُفرَداتِ. فالكَثيرُ مِن الكَلِماتِ يُسقَطُ أو يُستَبْقَى لأسبابٍ عاطِفِيَّةٍ. "ويُمكِنُ أن يُفَسَّرَ عَدَمُ استِقرارِ النَّحْوِ بِفِعلِ الانفِعالِ إلى حَدٍّ كبيرٍ. فالمَثَلُ المَنطِقيُّ الأعلَى لِلنَّحوِ هوَ أن يَكونَ لِكُلِّ وَظيفَةٍ تَعبيرٌ، ولِكُلِّ تَعبيرٍ وَظيفَةٌ واحِدَةٌ فقط. ولِتَحَقُّقِ هذا المَثَلِ يَنبَغي افتِراضُ أنَّ اللغةَ ثابِتَةٌ ثَباتَ الجَبْرِ حَيثُ يَبقَى الرَّمزُ مُنذُ صِياغَتِهِ أوَّلَ مَرَّةٍ ثابِتًا لا يَتغيَّرُ في جَميعِ العَمليّاتِ التي يُستَعمَلُ فيها. لكِنَّ العِباراتِ لَيسَتْ رُموزًا جَبرِيَّةً. فالانفِعالُ يَكسو عِبارَةَ الفِكرِ المَنطِقِيَّةَ ويُلَوِّنُها على الدَّوامِ. فنَحنُ لا نُكَرِّرُ العِبارَةَ نَفسَها مَرَّتَيْنِ البَتَّةَ، ولا نَستَعمِلُ الكلمةَ نَفسَها مَرَّتَيْنِ بالقيمةِ نَفسِها؛ إذ ليسَ ثَمَّةَ واقِعَتانِ لُغويَّتانِ مُتَماثِلَتانِ تَماثُلاً تامًّا. [152] ومَرَدُّ ذلكَ إلى ظُروفِ دائبَةِ التَّعديلِ لأحوالِنا العاطِفِيَّةِ"[24].

ورُبَّما لا يكونُ مِن دَواعي الإنصافِ أن نُطالِبَ النَّحوِيِّينَ بِشَيءٍ مِن الاهتِمامِ

(23) جوزيف فندريس (1875-1960م). لِسانيٌّ فرنسيٌّ، وعميدُ كلِّيَّةِ الآدابِ بِجامعةِ باريس، وعُضوُ المعهدِ الفرنسيِّ، ورئيسُ الجمعيَّةِ اللغويَّةِ بباريس. أشهَرُ مؤلَّفاتِهِ: اللغَة. [المُترجِم]

(24) *Le Langage* (1922), pp. 163, 165, 182. E. T., *Language* (1924), Part II., Chapter IV.

بِجَوانِبَ أوسَعَ لِلُّغةِ. فما لَدَيْهِم مِن مَوضوعٍ صَعبٍ ومُضْنٍ يَكفيهِم لِيَشغَلَ كُلَّ اهتِمامِهِم. ومعَ ذلكَ، قد يُتَوَقَّعُ المَزيدُ مِن البَحثِ المُدَقِّقِ مِن كِتابٍ تَضَمَّنَ وَعدًا أدَّى إلى تَخَلِّي كُوتُورا Couturat عن مَشروعِهِ المُسَمَّى "الوَجيزُ في مَنطِقِ اللغة". على أنَّهُ ما زالَ بِإمكانِنا أن نُؤَكِّدَ تَوافُرَ الكَثيرِ مِن اللُّغَوِيِّينَ، الذينَ يُمَثِّلُ السَّيِّدُ فندريس أَحَدَ أكثَرِهِم تَميُّزًا، أمّا المُحَقِّقونَ في نَظريَّةِ اللغةِ فيُفتَقَرُ إليهم افتِقارًا لافِتًا لِلنَّظَرِ[25].

إنَّ المُقارَبَةَ الفِكْرِيَّةَ لهذهِ الازدِواجيَّةِ في الوَظيفَتَيْنِ الرَّمزِيَّةِ والانفِعاليَّةِ قد ظَهَرَتْ حَديثًا، على الصَّعيدِ الفَلسَفيِّ أيضًا، مُتَخفِّيَةً في مَظاهِرَ مُختلِفَةٍ. واشتهرَتْ تَعبيراتٌ مِثلُ الحَدْسِ، والفِكْرِ، والعاطِفَةِ، والحُرِّيَّةِ، والمَنطِقِ، والبَداهَةِ بِقُدرَتِها على التَّسبُّبِ في اضطرابِ النِّقاشِ وتَقويضِهِ. وعلى العُمومِ، فَكلُّ تَعبيرٍ أو عِبارَةٍ، أو 'دافِعٍ حَيَوِيٍّ élan vital'[26]، أو'تَحليلٍ مَنطِقِيٍّ خالِصٍ...' يُمكِنُ استِعمالُهُ

(25) يُمكِنُ استِثناءُ البروفيسور ديلاكروا Delacroix الذي يُخَصِّصُ لِلموضوعِ حَيِّزًا لا بَأسَ بِهِ في كِتابِهِ **اللُّغَةُ والفِكْرُ** *Le Langage et la Pensée* (1924)، لكِنَّهُ يُعامِلُ الوظيفةَ الانفِعاليَّةَ بِروحٍ أكاديميَّةٍ خالِصةٍ مِن غيرِ أن يَمنَحَ آثارَها البَعيدَةَ المدَى في النِّقاشِ اعتبارًا زائدًا على ما مَنَحَها إيّاهُ مَناطِقَةُ الوَضعِيَّةِ (يُنظَر: **التَّركيبُ المَنْطِقِيُّ لِلُّغَةِ** *The Logical Syntax of Language*، لِكارناب Carnap، 1937).

(26) عِبارَةٌ رَوَّجَ لَها الفيلسوفُ الفرنسيُّ المشهور هنري برغسون (1859-1941م)، تعبِّرُ عن نظريَّةٍ انطلَقَ فيها من وِجهةِ نظرٍ مناقضةٍ للنظريَّةِ المادِّيَّةِ الآليَّةِ الميكانيكيَّةِ التي تُلغي وجودَ فكرةِ الحرِّيَّةِ في الطبيعةِ، وهي نظريَّةٌ سادَتْ في القرنِ التاسعَ عشَرَ تذهبُ إلى أنَّ الوجودَ حالةٌ مادِّيَّةٌ متسلسلةٌ مترابطةٌ؛ فكلُّ حدثٍ هو نتيجةٌ لحدثٍ آخَرَ سبَقَهُ، فقالَ برغسون: "إذا كانَ الوجودُ بِكلِّ ما يَحويهِ في لحظةٍ معيَّنةٍ هو نتيجةٌ لآليَّةِ اللحظةِ التي سبقَتْها دونَ أن يكونَ هناكَ قوَّةٌ مُدركةٌ تُنشِئُ وتخلقُ وتختارُ، وإذا كانَتْ هذه اللحظةُ السابقةُ أثرًا للَّتي سبَقَتْها وهكذا، فسنرجعُ في التسلسلِ إلى أن نَصِلَ إلى السديمِ الأوَّلِ ونتَّخِذَ منه سببًا لكلِّ ما طرأ على الكونِ من أحداثٍ". ويرى برغسون أنَّ العالَمَ مكوَّنٌ من جُزأيْنِ، أحدُهما مادِّيٌّ مَرئيٌّ، والآخَرُ حيويٌّ مَخفِيٌّ، وأنَّ الحياةَ تحدثُ حينما يمتدُّ الجزءُ الحيويُّ فيتَّحِدُ أو يظهَرُ في المادَّةِ ويتسلَّطُ عليها ولكِنْ بِدرجاتٍ مختلفةٍ وبدفعةٍ واحدةٍ. فالحياةُ بكلِّ أنواعِها إرادةٌ حُرَّةٌ، فلذلكَ كانَ هذا الاختلافُ والتغيُّرُ المستمرُّ. [المترجِم]

بِوَصفِهِ شِعارًا[27] أو هراوَةً أو بِوَصفِهِ كِلَيْهِما مَعًا، إذا ما أُريدَ ألّا تكونَ مُعالَجَتُهُ كارِثِيَّةً فإنَّهُ يَحتاجُ إلى فَهمٍ راسِخٍ وواعٍ لِهاتَيْنِ الوَظيفَتَيْنِ لِلُّغَةِ. إذ لا فائدَةَ تُرتَجَى مِن تَعقيمِ آلاتِنا مِن غَيرِ دِراسَةِ عاداتِ الجراثيم. بَل إنَّ عِلمَ الرِّياضِيّاتِ أيضًا لَيسَ خالِيًا تَمامًا مِن التَّعقيداتِ الانفِعالِيَّةِ، وإنْ بَدَا أنَّ عددًا مِن أقسامِهِ خالٍ منها فإنَّ السُّهولَةَ التي يتحوَّلُ بِها عُلَماءُ الرِّياضيّاتِ إلى صوفِيِّينَ ("حتَّى عِندَما لا يَكونُ ثَمَّةَ شيءٌ البَتَّةَ، ما زالَتْ هُناكَ خاصِّيَّةُ قابِلِيَّةِ القِسمَةِ على 107") [153] حينَ يَنظُرونَ في أُسُسِ هذا العِلمِ، تُظهِرُ ما عليهِ حَقيقَةُ الحالِ.

وتَتَركَّزُ واحِدَةٌ مِن أشهَرِ هذهِ الدِّراساتِ المُتَخَفِّيَةِ لِلوَظيفَةِ الانفِعالِيَّةِ لِلُّغةِ في مَذهَبِ برغسون Bergson في طَبيعَةِ المَعرِفَةِ. ومِمّا يُقتَبَسُ بِهذا الصَّدَدِ من أحَدِ الأعمالِ الحديثَةِ الشّارِحَةِ لِمَذهَبِهِ: "أنَّ مُهِمَّةَ الفلسفةِ عندَ برغسون مَعرِفَةُ الواقِعِ لا تَفسيرُهُ. ويَقتَضي تَنفيذُ هذهِ المُهِمَّةِ جُهدًا عَقلِيًّا مِن نَوعٍ مُختَلِفٍ. غيرَ أنَّ التَّحليلَ والتَّصنيفَ، بَدَلاً مِن أن يَزيدا مَعرِفَتَنا المُباشِرَةَ، يَنحُوانِ نَحوَ الحَطِّ مِنها"[28]. ويَقولُ برغسون نَفسُهُ: "مِن أجلِ أن نَنتَقِلَ إلى المَعرِفَةِ الفِعلِيَّةِ actual انتَخَبْنا مِن المساحَةِ الشّاسِعَةِ المُتَرامِيَةِ الأطرافِ لِمَعرِفَتِنا الافتِراضِيَّةِ virtual كلَّ ما يتعلَّقُ بِفِعْلِنا تجاهَ الأشياءِ، وأَهمَلْنا سائرَ ما فيها"[29]. ويُواصِلُ شارِحُ مَذهَبِهِ قولَهُ: "إنَّ المَوقِفَ العَقلِيَّ المَطلوبَ لِتَفسيرِ الوَقائعِ يُعارِضُ المَوقِفَ العَقلِيَّ المَطلوبَ لِمَعرِفَتِها. فَإذا نُظِرَ إلى الأمرِ مِن الزّاوِيَةِ البَسيطَةِ لِلمَعرِفَةِ فإنَّ جَميعَ الوَقائعِ مُتساوِيَةُ الأهمِّيَّةِ ولا يُمكِنُنا تَمييزُ بَعضِها مِن بَعضٍ في ذلكَ، أمّا في التَّفسيرِ فبعضُ الوَقائعِ أهَمُّ بِكثيرٍ مِن بَعضِها الآخَرِ. فلِذا حينَ نُريدُ التَّفسيرَ لا المَعرِفَةَ فقط نَميلُ إلى تَوجيهِ انتِباهِنا إلى هذهِ الوَقائعِ ذواتِ الأهمِّيَّةِ العَمَلِيَّةِ وتَجاوُزِ سائرِ الوَقائعِ الأُخرَى"[30].

---

(27) *يُنظَرُ القَولُ المأثورُ لِنيتشة Nietzsche: "ما الكلِماتُ المُرتَبِطَةُ بِالقِيَمِ إلّا شِعاراتٌ مَغروسَةٌ في البُقَعِ التي يُكتَشَفُ فيها نَعيمٌ جَديدٌ- شُعورٌ جَديدٌ".*

(28) K. Stephen, *The Misuse of Mind*, p. 19.

(29) Bergson, *La Perception du Changement*, p. 12.

(30) K. Stephen, *op. cit.*, p. 22.

إنَّ عَمليّاتِ التَّفسيرِ التي وَصَفَها برغسون تُشْبِهُ إلى حَدٍّ كبيرٍ ما أَسمَيْناهُ الإحالَةَ حينَ تَكونُ مُعَزَّزَةً بِالرَّمزِ. على أنَّهُ بِسببِ نَظَرِيَّتِهِ المُمَيَّزَةِ بِشَأنِ الذّاكرةِ لم يَستَطِعْ أَن يُفيدَ مِن الظَّواهِرِ التَّذَكُّرِيَّةِ التي تكونُ أساسيَّةً، على ما رأيْنا، إذا ما أُريدَ اجتِنابُ النَّزعةِ الصُّوفيَّةِ حتَّى في ما يتعلَّقُ بِهذا النَّوعِ مِن 'المَعرِفَة'.

أمّا النَّوعُ الآخَرُ مِن المَعرِفةِ، أي 'المَعرِفةُ الافتِراضِيَّةُ'، المَعرِفَةُ التي هيَ 'دَيْمومَةٌ خَلّاقَةٌ'، والتي هيَ النَّوعُ الوَحيدُ مِن المَعرِفَةِ ذاتِ 'الواقِعِ الواقِعِيِّ الواقِعِيَّةِ' الذي يَسمَحُ بِهِ البرغسونِيُّونَ، على النَّحوِ الذي يَعرِضُهُ بِهِ، فمِمّا لا شَكَّ فيهِ أَنَّها صُوفِيَّةٌ. [154] ولا يَقتَصِرُ سببُ ذلكَ على أنَّ أيَّ وَصفٍ لَها لا بُدَّ أن يُوقِعَ الشّارِحَ في تَناقُضٍ ذاتيٍّ- وقَد رأيْنا أنَّ هذا عاقِبَةُ أيِّ تَنَصُّلٍ ذي آلِيَّةٍ رمزيَّةٍ تَقليديَّةٍ[31]-، بَل يَمْتَدُّ كذلكَ إلى أنَّها تتطلَّبُ إيمانًا مَبدَئيًّا بِوُجودِ عالَمٍ فَسيحٍ مِن 'المَعرِفَةِ الافتِراضِيَّةِ' هوَ في الحقيقةِ غيرُ مَعلومٍ. معَ ذلكَ، فالذينَ ليسَ لَدَيْهِم مِثلُ هذا الإيمانِ، ويكتَفُونَ بِأن يَتَّبِعوا نُصحَ البرغسونِيِّينَ لَهُم بِإهمالِ الألفاظِ الفِعليَّةِ actual terms في الأوصافِ المُقَدَّمَةِ وبِأن يَستَبْدِلوا بِها أداءَ 'فِعلٍ تَركيبيٍّ تَوفيقِيٍّ act of synthesis'، يَسْهُلُ إقناعُهُم بِأَنَّهُم يَفهَمونَ المقصودَ بِـ'المَعرِفَةِ الافتِراضِيَّةِ'، بَل بِأنَّ في وُسعِهِم امتِلاكَها.

وقَد أكَّدْنا آنِفًا (ص168) أنَّ المَعرِفَةَ التي بِمَعنَى الإحالةِ شَأنٌ هوَ غايَةٌ في عَدَمِ المُباشَرَةِ، وأَلمَحْنا إلى أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنّا كَثيرًا مّا نَشعُرُ بِرَفضِنا الإقرارَ بِأنَّ اتِّصالَنا الذِّهنيَّ بِالعالَمِ غيرُ قَريبٍ ولا تامٌّ، بل بِأنَّهُ على العَكسِ مِن ذلكَ بَعيدٌ وتَخطيطِيٌّ، رُبَّما تتقلَّصُ كَراهَتُنا هذهِ بِنَظَرِنا في اتِّصالاتِنا غيرِ المَعرِفِيَّةِ. وهذهِ الأخيرَةُ هيَ أيضًا في قِسمِها الأعظَمِ غيرُ مُباشِرَةٍ، لكِنَّها قابِلَةٌ لِقَدرٍ مِن الاكتِمالِ أكبرَ بِكثيرٍ. وكُلَّما أصبَحَتِ الإحالةُ أوضَحَ وأكثَرَ تَميُّزًا ضَعُفَتْ صِلَتُنا بِما نُحِيلُ عليهِ نِسبَةً إلى إحالةٍ مُشابِهةٍ لكِنَّها أَكثَرُ بَساطَةً، وازدادَ السِّياقُ المُتَضَمَّنُ تَخَصُّصًا ورَهافَةً. وفي وُسعِنا أن نُوافِقَ برغسون في كلِّ ما قالَهُ بِشَأنِ المَيلِ إلى الاهتِمامِ

(31) يُنظَرُ في ذلكَ ما كَتَبَتْهُ السَّيِّدَةُ ستيفِن Stephen عن الموضوعِ بِتأَلُّقٍ كبيرٍ، ولا سِيَّما الصَّفَحاتُ 57-61 منهُ.

التَّحليليِّ المُتَمَيِّزِ المُحَدَّدِ بِتخفيضِ اتِّصالِنا بِما نُعْنَى بِهِ. وأكَّدَ برغسون، زِيادَةً على ذلكَ، الدَّورَ الذي تُؤَدِّيهِ اللغةُ في تَقوِيَةِ هذا المَيلِ والمُبالَغَةِ فيهِ. فعِندَ التَّفكيرِ العَرَضِيِّ بِالأرانبِ قد يكونُ السِّياقُ المُتَضَمَّنُ شَديدَ التَّعقيدِ؛ ذلكَ بِأنَّ قِسمًا كبيرًا مِن تَجرِبَتِنا الماضِيَةِ معَ هذهِ الحَيَواناتِ إجرائيٌّ. وبِالتَّفكيرِ التَّمييزِيِّ بِالأشياءِ أنفُسِها على أنَّها 'حَيَوانٌ صَغيرٌ' يُصبِحُ سِياقُنا مُتَخَصِّصًا، وإنَّ السِّماتِ الوَحيدَةَ لِلأرانبِ التي يُحتاجُ إلى تَضمينِها هيَ السِّماتُ التي تُقاسِمُها إيّاها الأعضاءُ التي تُشارِكُها [155] في الصِّنفِ المَعْنِيِّ. أمّا السِّماتُ الأُخرَى فليسَ بِالضَّرورةِ أن تَغيبَ، لِكِن يُمكِنُ الاتِّفاقُ على أنَّ لَها مَيْلاً قَوِيًّا لِلاختِفاءِ، وفي جميعِ أعمالِ التَّمييزِ الحقيقيَّةِ الصُّعوبَةِ تتأكَّدُ أفضَلِيَّةُ إسقاطِها.

وفي أقصَى الوَعيِ البَعيدِ تَمامًا مِن الاهتِمامِ التَّحليليِّ والتَّجريدِيِّ لا تُوجَدُ حالةٌ مُمكِنَةٌ واحدَةٌ بَل تَنَوُّعٌ مِن الحالاتِ المُمكِنَةِ، تَبَعًا لِنَوعِ السِّياقاتِ ومَدَاها، التي تنتَمي إليها التَّجرِبَةُ المَعْنِيَّةُ. والحالَةُ قد تكونُ بَسيطةً بِالقِياسِ إلى غيرِها كما يَحدُثُ حينَ نَكونُ مُنشَغِلِينَ بِفَعّاليَّةِ إدراكٍ حِسِّيٍّ اعتِيادِيَّةٍ مِثلِ رَمْيِ النَّرْدِ؛ أو قد تكونُ عاطِفِيَّتُها طاغِيَةً؛ أو قد نَستَشعِرُ مَرَّةً أُخرَى نَبَضاتٍ بَسيطَةً بِفِعلِ تَجرِبَةٍ ساذَجَةٍ خالِصَةٍ حينَ نَقْفِزُ طَلَبًا لِلنَّجاةِ مِن المَوتِ عندَ تَدَفُّقِ سائقِي الدَّرّاجاتِ البُخارِيَّةِ. على أنَّ ثَمَّةَ أطوارًا لِلحياةِ مَلموسَةً، مُباشِرَةً، غيرَ عَقلانيَّةٍ، لَها مِن التَّعقيدِ والثَّراءِ ما لا تُساويها فيهِما أيَّةُ فَعّاليّاتٍ عَقلانيَّةٍ. ومِن بينِ هذهِ الأطوارِ تَشخَصُ بِجَلاءٍ التَّجارِبُ الجَماليَّةُ. إنَّ الكَثيرِينَ مِمَّن يَروقُهُم ما ذَهَبَ إليهِ برغسون مِن المُباشَرَةِ immediacy[32] والحاحُهُ على الوَعدِ بِكُنوزٍ تَنتَظِرُ مَن يَستَعيدُها، سيُقِرُّونَ بِأنَّ مَرَدَّ ذلكَ إلى أنَّهُ يَظهَرُ لَهُم في مَظهَرِ مَن يَصِفُ ما يَحدُثُ حينَ

(32) المعرفةُ الحدسيَّةُ عندَ برغسون معرفةٌ مُباشِرَةٌ؛ فبِها نُمزِّقُ حُجُبَ الألفاظِ وشِباكَ الرُّموزِ، لِنغوصَ في طيّاتِ الواقعِ ونَمضِيَ مُباشَرَةً إلى باطنِ الحقيقةِ. وهدفُ برغسون هو تحريرُ الفِكرِ الفلسفيِّ من عبوديَّةِ اللغةِ باللجوءِ إلى الصُّوَرِ والتشبيهاتِ، آملاً من وراءِ ذلكَ أن يتجاوزَ الميتافيزيقا اللفظيَّةَ التي تقومُ على اللغةِ وحدَها، لِيَنفُذَ إلى طبيعةِ الأشياءِ الحيَّةِ النابضةِ. وحرَصَ على أن يؤكِّدَ أنَّ حَدسَهُ أقربُ إلى التفكيرِ منهُ إلى العاطفةِ. فالحدسُ البرغسونيُّ في صميمِهِ استغناءٌ عن الرُّموزِ، وإدراكٌ مُباشِرٌ لِلواقِعِ. [المُترجِم]

يَكونونَ في قِمَّةِ النَّجاحِ في التَّأمُّلِ الفَنِّيِّ. وليسَ بِإمكانِنا في هذا المقامِ الخَوضُ في تَفصيلاتِ ما يُفتَرَضُ أن يَحدُثَ في هذهِ الحالاتِ مِن انسِجام البَواعِثِ المُختلفَةِ synæsthesis، مِن وِجهَةِ نَظَرِ عِلمِ النَّفسِ التَّقليدِيِّ شَيْئًا مّا[33]. على أنَّ ما لا نِقاشَ فيهِ مِن وِجهَةِ النَّظرِ هذهِ أنَّ أهَمَّ هذهِ الحالاتِ إنَّما تَستَمِدُّ قيمتَها مِن الأسلوبِ المُتَميِّزِ الذي تَعمَلُ فيهِ البَواعِثُ التي تُشَكِّلُها تَجرِبَةُ المتأمِّلِ الماضِيَةُ التي تُمَثِّلُها هذهِ البَواعِثُ.

وهكذا، يُعْزَى تَكامُلُ حالاتِ التَّأمُّلِ الجَماليَّةِ وثَراؤُها، بِمَعنًى مُحَدَّدٍ جِدًّا وإن لم تُمكِنْ صِياغَتُهُ بِإحكامٍ إلّا إلى حَدٍّ مّا، إلى فِعلِ الذّاكِرَةِ، ولَيسَ المَقصودُ بِها الذّاكرةَ المُضَيَّقَةَ [156] والمُخَصَّصَةَ التي تَتطلَّبُها الإحالةُ، بل هيَ الذّاكرةُ التي تَعمَلُ بِحُرِّيَّةٍ أكبرَ على تَوسيعِ التَّحَسُّسِ وتَضخيمِهِ. ونَكونُ في مِثلِ هذهِ الظُّروفِ عُرْضَةً لِحافِزٍ أكثرَ انتِشارًا وأكثرَ غَرابَةً؛ ذلكَ بِأنَّ المَوانِعَ التي تتحكَّمُ في خُطوطِ سَيْرِ رُدودِ أفعالِنا تكونُ قد أُزيلَتْ.

وليسَ بِمُستَغرَبٍ أن تَكونَ هذهِ الحالاتُ قد وُصِفَتْ كَثيرًا بِأنَّها حالاتٌ مَعرِفِيَّةٌ، ومَرَدُّ ذلكَ جُزئيًّا إلى تَيَقُّنِ الخصائصِ المُحَسَّةِ لِلحالاتِ التي كُنّا نَصِفُها، وهو مَنحًى مِن الرّاحَةِ والرِّضا لا يَختَلِفُ عن الرِّضا الذي يَعقُبُ جُهدًا فِكرِيًّا ناجِحًا، وإنْ عُزِيَ إلى أسبابٍ مُختَلِفَةٍ تَمامًا- وجُزئيًّا إلى أسبابٍ أُخرَى. إنَّ مِمّا لا يَكادُ الفيلسوفُ يَقْوَى على دَفعِهِ عن نَفسِهِ حينَ يَكونُ مُنهَمِكًا في مَوضوعٍ يَجِدُ فيهِ مُتعَةً عَظيمَةً، استِعمالَ أكثَرِ الكَلماتِ قابِلِيَّةً لِجَذْبِ الانتِباهِ وإثارَةِ الإيمانِ بِأهَمِّيَّةِ الموضوعِ. وهكذا مِن المُحتَمَلِ جِدًّا أن يُطلَقَ اسمُ 'مَعرِفَة' على أيَّةِ حالَةٍ ذِهنِيَّةٍ يَجِدُ فيها أيُّ شَخصٍ مُتعَةً عَظيمَةً؛ إذ ليسَتْ ثَمَّةَ كلمةٌ أُخرَى في عِلمِ النَّفسِ لَها ما لِهذِهِ الكَلمةِ مِن مَزِيَّةٍ استِثارِيَّةٍ. فإنْ كانَتْ هذهِ الحالةُ الذِّهنيَّةُ بَعيدَةً تَمامًا مِن مُشابَهَةِ ما يُطلَقُ عليهِ عادَةً هذا الاسمُ فإنَّ 'المَعرِفَة' الجديدةَ ستَكونُ في مَوضِعِ المُقابِلِ لِلحالاتِ الذِّهنيَّةِ الأُخرَى الذي لَهُ المَزِيَّةُ عليها في كَونِهِ ذا طَبيعَةٍ

(33) بِإمكانِ مَن يَرغَبُ في مُتابَعَةِ المسألةِ الرُّجوعُ إلى كِتابِ أُسُسُ عِلمِ الجَمالِ *Foundations of Æsthetics* المذكورِ آنِفًا.

أكثَرَ رُقِيًّا، وأكثَرَ واقِعِيَّةً، وأكثَرَ جَوهريَّةً. وقَد شاعَتْ في الفَلسَفَةِ على مَرِّ تأريخِها هذهِ الإغاراتُ المُتكرِّرَةُ على عِلمِ الجَمالِ. ومِن النَّماذِجِ الحديثةِ لِذلكَ المِثالُ التَّتويجِيُّ لِكانْت، ومُحاوَلَةُ إلحاقِ عِلمِ الجَمالِ بِالفَلسَفَةِ المِثاليَّةِ.

لِذلكَ كانَ مِن المَعقولِ أن نَفتَرِضَ أنَّهُ إذا ما أُزيلَت المُشكِلاتُ الزّائفَةُ التي تُسَبِّبُها المُفرَداتُ المُتَقاطِعَةُ، ونُبِذَ الوَعدُ المُوهِمُ بِسَماءٍ وأرضٍ جَديدَتَيْنِ الذي يَعْرِضُهُ البرغسونِيُّونَ عَرْضًا ضَعيفًا شَيْئًا مّا، أمكَنَتْ إزالةُ العُقدَةِ في ثُنائيَّةِ الحَدْسِيِّ-العَقْلِيِّ بِفَهمِ الوَظيفَةِ المُزدَوِجَةِ، الرَّمزِيَّةِ والانفِعاليَّةِ، لِكلِمةِ 'مَعرِفَة.' إنَّ إنكارَ أن تَكونَ 'المَعرِفَةُ الافتراضِيَّةُ' مَعرِفَةً بِالمَعنى الرَّمزِيِّ لا يَحُطُّ مِن قَدْرِ الحالةِ (الحالةِ، أو مجموعةِ الحالاتِ، المُستَجيبَةِ استِجابَةً حُرَّةً خاصَّةً لِلمُثيرِ، استِنادًا إلى وِجهَةِ النَّظَرِ المُتَبَنّاةِ هُنا [157]) التي يُطلَقُ عليها هذا الاسمُ. وليسَ في الأمرِ سِوَى تَطبيقِ قانونٍ يُؤَيِّدُهُ كلُّ مَن يُدرِكُ وَظائفَ اللغةِ، أي إنَّهُ في أثناءِ النِّقاشِ، حيثُ يُفتَرَضُ أن تَكونَ الاعتِباراتُ الرَّمزيَّةُ سابِقَةً لِكلِّ الاعتِباراتِ الأُخرَى، لا تُستَغَلُّ الحَسَناتُ الاستِثارِيَّةُ لِلتَّعبيراتِ إلّا حينَ التَّثَبُّتِ مِن عَدَمِ إمكانِ نُشوءِ سَيِّئاتٍ رَمزِيَّةٍ.

غيرَ أنَّ مِن الضَّروريِّ أن يَكونَ ثَمَّةَ مَزيدٌ مِن الوَعْيِ العامِّ لِطبيعَةِ الوَظيفَتَيْنِ إذا ما أُريدَ مَنعُهُما مِن أَنْ تَتَداخَلا، ولا بُدَّ مِن الكَشْفِ عن جَميعِ التَّخَفِّياتِ اللفظِيَّةِ بِخاصَّةٍ، التي تُحاوِلُ مِن خِلالِها إحدى الوَظيفَتَيْنِ جهدَها أحيانًا تَمريرَ نَفسِها في صُورَةِ الأُخرَى. ومِن المُحَتَّمِ استِحالَةُ ادِّعاءِ قُدرَةِ عِبارَةٍ عِلمِيَّةٍ مّا على تَقديمِ 'رُؤْيَةٍ لِلواقِعِ' أكثَرَ إلهامًا وأعمَقَ مِن تلكَ التي تُقَدِّمُها عِبارَةٌ عِلمِيَّةٌ أُخرَى. نَعَم، يُمكِنُ أن تَكونَ أعَمَّ أو أنفَعَ، وليسَ مِن شَيءٍ أكثرَ مِن ذلكَ. ومِن جِهَةٍ أُخرَى، مِن المُحَتَّمِ استِحالَةُ الحديثِ عن الشِّعرِ أو الدِّينِ كما لو أنَّهما قادِرانِ على تَقديمِ 'المَعرِفَةِ'، ولا سِيَّما أنَّ 'المَعرِفَةَ' قد استُهلِكَتْ مُصطَلَحِيًّا مِن كِلا الطَّرَفَيْنِ حتَّى إنَّها لا يُرجَى مِنها كَبيرُ نَفعٍ. فلا شَأنَ لِلقَصيدَةِ- أو لِلدِّينِ، على الرَّغمِ مِمّا بَلغَهُ استِغلالُ الأديانِ بِوُضوحٍ كبيرٍ لِلخَلْطِ في الوَظيفَةِ الذي نحنُ بِصددِ الحديثِ عنهُ، واعتِمادِها الكَبيرِ عليهِ، لِيَكونَ عِبارةً عن أورامٍ مَرَضِيَّةٍ واضِحَةٍ-

بالإحالةِ المُحَدَّدَةِ والمُوَجَّهَةِ. إنَّها لا تُخبِرُنا بِشَيْءٍ، أو يَنبَغي ألّا تُخبِرَنا بِشَيءٍ. إنَّ لَها وَظيفَةً مُختلِفَةً، معَ أنَّها لَيسَتْ أقَلَّ أهمِّيَّةً، وأنَّها أعظَمُ حَيَوِيَّةً بِكثيرٍ- وهيَ استِعمالُ تَعبيرٍ استِثارِيٍّ لَهُ صِلَةٌ بِأمرٍ استِثارِيٍّ. فالذي تَفعَلُهُ، أو الذي يَنبَغي أن تَفعَلَهُ، هو تَهيِئَةُ مَوقِفٍ مُلائمٍ[34] لِلتَّجرِبَةِ. [158] غيرَ أنَّ كَلِماتٍ نَحوَ 'مُلائم'، أو 'مُناسِب'، أو 'مُوافِق' مِمّا يَبعَثُ على القشعريرةِ؛ لِقِلَّةِ ما فيها مِن الطّاقَةِ الاستِثارِيَّةِ أو لانعِدامِها فيها. لِذلكَ كانَ الذينَ يُمَثِّلُ الشِّعرُ أعظَمَ اهتِماماتِهِم والذينَ هُم أكثرُ النّاسِ فَهمًا لِقيمَتِهِ المَركَزِيَّةِ والحاسِمَةِ، مَيّالِينَ إلى الاستِياءِ مِن مِثلِ هذهِ اللغةِ التي لا تَرقَى إلى مُستَوَى مَوضوعِهِ. وإذا ما نَظَرْنا إلى مَوقِفِهِم هذا مِن زاوِيَةِ الاستِثارَةِ حَكَمْنا عليهِ بِأنَّهُ مُسَوَّغٌ. ولكِنْ إذا ما تَحقَّقَ فَصْلٌ مُلائمٌ بينَ هاتَيْنِ الوَظيفَتَيْنِ فسيَتَّضِحُ أنَّ الغَرَضَ الذي تُستَعمَلُ مِن أجلِهِ ألفاظٌ كَهذهِ، أي تَقديمَ وَصفٍ رَمزِيٍّ صارِمٍ لِوَظيفَةِ الشِّعرِ، الذي هوَ لأسبابٍ كثيرةٍ[35] الشَّكلُ الأسمَى لِلُّغَةِ الانفِعاليَّةِ، لا يُمكِنُهُ أن يُعارِضَ التَّقويمَ الشِّعريَّ أو الاستِثارِيَّ لِلشِّعرِ، الذي هوَ مَحَطُّ اعتِناءِ الشُّعَراءِ بِوصفِهِم شُعَراءَ.

ثُمَّ إنَّ مُمارَسَةَ إحدَى الوَظيفَتَيْنِ لا يَلزَمُ مِنها بِحالٍ مِن الأحوالِ، إن لم تَكُن الوَظيفَتانِ مُختَلِطَتَيْنِ، تَداخُلٌ معَ مُمارَسَةِ الوَظيفَةِ الأُخرَى. إنَّ مَنظَرَ أشخاصٍ يَغيظُهُم العِلمُ لِوَلَعِهِم بِالشِّعرِ (يَصرُخُ د. هـ. لورنس D. H. Lawrence[36] قائلاً:

(34) كانَ بِإمكانِنا أن نَقولَ 'ذي قِيمَةٍ' بَدَلاً مِن 'مُلائم.' لكِن لَمّا كانَتْ قيمَةُ مَوقِفٍ مّا تَتوقَّفُ جُزئيًّا على مَواقِفَ أُخرَى مُمكِنَةٍ، وجُزئيًّا على مَدَى انفِتاحِها على إمكانِ حُدوثِ مَواقِفَ أُخرَى في ظُروفٍ أُخرَى، فضَّلْنا استِعمالَ تَعبيرِ 'مُلائم'، ولم يَكُنْ ذلكَ مِن أجلِ تَضمينِ أيَّةِ شَفرَةٍ ضَيِّقَةٍ لِلمواقفِ المُلائمَةِ لِتُتَبَنَّى في كلِّ المُناسَباتِ. ويَنبَغي أن يُفهَمَ لَفْظُ 'مَوقِف' في كُلِّ هذا البَحثِ بِمَنحًى فيهِ سَعَةٌ، لِيَشمَلَ جميعَ الطَّرائقِ التي يُمكِنُ بها أن تَكونَ الدَّوافِعُ مُهَيَّأَةً لِلفِعلِ، يَدخُلُ في ذلكَ الأوضاعُ المُمَيَّزَةُ التي لا تُثمِرُ فِعلاً صَريحًا، والتي غالبًا مّا يُتَحدَّثُ عنها بِوَصفِها 'أمزِجَةً جماليَّةً' أو 'عَواطِفَ جَماليَّةً'.

(35) يُنظر: الفَصلُ العاشِرُ، ص358-359، فما بَعدَ ذلكَ، وكذلكَ كِتابُ مَبادِئِ النَّقدِ الأدَبِيِّ *Principles of Literary Criticism*، الفُصولُ 23-35.

(36) دَيْفِد هربرت لورِنس (1885-1930م). أحدُ أهمِّ الأدباءِ البريطانيِّينَ في القرنِ العشرينَ. تعدَّدَتْ مجالاتُهُ إبداعِهِ من الرِّواياتِ الطويلةِ إلى القصصِ القَصيرةِ والمسرحيّاتِ والقصائدِ =

"مَهْما تَكُنِ الشَّمسُ فلا شَكَّ في أنَّها لَيسَتْ كُرَةَ بنزينٍ مُشتَعِلٍ")، أو مَنظَرَ عُلَماءَ مُحَصَّنِينَ كُلِّيًّا مِن تأثيراتِ الحَضارَةِ، لَيَستَحِقُّ المَزيدَ مِن الأسَفِ حينَ نُدرِكُ كَم هُوَ غيرُ ضَروريٍّ. وبَعدَ أن حَرَّرَ العِلمُ نَفسَهُ مِن وِجهَةِ النَّظَرِ العاطِفِيَّةِ، وغَدَتِ الفيزياءُ الحديثةُ أمرًا تَبدو المَواقِفُ المُتَعَلِّقَةُ بِهِ زائدَةً عن الحاجَةِ إلى حَدٍّ مّا، يَبدو الشِّعرُ قَريبًا مِن العَودَةِ إلى شُروطِ عَظَمتِهِ بِتَخلِّيهِ عن هاجِسِ المَعرِفَةِ والصِّدْقِ الرَّمزيِّ. فليسَ ضَروريًّا أن تُعْرَفَ حقيقةُ الأشياءِ لِتُتَّخَذَ مَواقِفُ مُلائمَةٌ تجاهَها، وإنَّ مَزيَّةَ أعظَمِ المَواقِفِ التي يُمكِنُ أن يَستَثِيرَها الفَنُّ لَتَكْمُنُ في اتِّساعِها غيرِ الاعتِياديِّ. وتَقَعُ مُهِمَّةُ وَصفِ هذهِ المَواقِفِ وتنظيمِها على عاتِقِ عِلمِ الجَمالِ. ومِن نافِلَةِ الكَلام أن يُقالَ إنَّ تَقويمَ هذهِ المَواقِفِ يَجِبُ أن يَستَنِدَ كُلِّيًّا إلى آراءِ النَّفَرِ الأكثَرِ أهلِيَّةً لِيَحكُموا بِموجِبِ مَدَى خِبرَتِهِم ودِقَّتِها وتحرُّرِهِم مِن الشَّواغِلِ غيرِ ذاتِ الصِّلَةِ. [159]

= الشِّعريَّةِ والكتاباتِ النقديَّةِ. مِن آثارِهِ الرِّوائيَّةِ: الطاووسُ الأبيَض، والمُعتَدي، وأبناءٌ وعُشّاقٌ. ومِن أهمِّ مؤلَّفاتِهِ في النَّقدِ الأدَبيِّ كتابُهُ (دِراسةٌ لِتوماس هاردي ومَقالاتٌ أُخرَى). [المُترجِم]

الفَصلُ الثّامِنُ
الْمَعْنَى عِنْدَ الْفَلاسِفَةِ

بولونيوس Polonius: ما الذي تَقرَؤُهُ يا سيِّدِي؟
هاملت Hamlet: كَلِماتٌ، كَلِماتٌ، كَلِماتٌ.

"آهِ مِنكِ يا سُلطَةَ الكَلِماتِ العَجيبَةَ، فبالإيمانِ البَسيطِ
في وُسعِكِ اكتِساءُ المَعنَى الذي نَهْوَى"[1].

هكَذا هُيَ حالُ الشّاعِرِ، وإنَّ النَّظَرَ لا يُبطِلُ هذا التَّعليقَ الثّاقِبَ. ولَرُبَّما افتُرِضَ أنَّ المَناطِقَةَ وعُلَماءَ النَّفسِ قد أولَوا المَعنَى عِنايَةً خاصَّةً لأهمِّيَّتِهِ الجَوهَرِيَّةِ في جَميعِ القَضايا التي هُم مَعنِيُّونَ بِها. لكِن ليسَ هذا ما يَتَّضِحُ[2] لِمَن يَدرُسُ

(1) قائلُ هذا الشِّعرِ هو وِليَم وردزورث William Wordsworth (1770-1850م). وهو شاعِرٌ رومانتيكيٌّ إنجليزيٌّ كبيرٌ. وُلِدَ في أحدِ أجملِ أقاليمِ إنجلترا على ضِفافِ منطقةِ البُحَيراتِ الرائعةِ، فلا غَرابَةَ أن أصبَحَ أكبرَ شاعرٍ يتغنّى بجمالِ الطبيعةِ. تخرَّجَ في جامعةِ كيمبرِج، وكانَ صديقًا حَميمًا لِلشاعرِ كوليرِج، واشتركا في تأليفِ كتابٍ يَحوي أشعارًا رومانسيَّةً لهما سمَّيَاهُ (قَصائد غِنائيَّة)، حاولا فيهِ استعمالَ اللغةِ الاعتياديَّةِ في شَكلٍ شعريٍّ، وقد كتبَ لهُ وردزورث مقدِّمةً نقديَّةً طويلةً عُدَّتْ بِمنزلةِ بَيانِ الحركةِ الرومانتيكيَّةِ الإنجليزيَّةِ. [المُترجِم]

(2) مِمّا تَجدُرُ الإحالةُ عليهِ هُنا الفِقرَةُ الآتيةُ التي وَرَدَت في كِتابِ **فَلسَفَةُ الأشياءِ مِن خِلالِ دِراسَةِ فَلسَفَةِ الكَلِماتِ** *Nuces Philosophicae* لِمُؤَلِّفِهِ إدوَرد جونسن Edward Johnson، وقد نُشِرَ سنةَ 1842: =

الحَلْقَةَ النِّقاشِيَّةَ في دَوْرِيَّةِ *Mind* (في عددِها الصّادِرِ في أُكتوبَر/تشرين الأوَّل مِن سَنَةِ 1920 والأعدادِ التي تَلِيهِ) بِشَأنِ "مَعْنَى 'المَعْنَى'".

ورُبَّما لا يَكونُ ضَروريًّا أن نُشيرَ إلى أنَّ هذهِ المُقتَطَفاتِ المُختَصَرَةَ مِن البُحوثِ الفَلسَفيَّةِ المُطَوَّلَةِ بِما تَسمَحُ بِهِ حُدودُ هذا الفَصلِ لا يُمكِنُ أن تَكفِيَ لِتَمثيلِ ما يُقَدِّمُهُ كاتِبٌ مّا مِن وِجهاتِ نَظَرٍ، مَهما تَكُنْ، إن وُجِدَ شَيءٌ مِنها، بِشَأنِ المَوضوعِ الذي مِن أجلِهِ يَستَعمِلُ كَلِمَةَ 'مَعْنًى.' على أنَّ بَعضَ الاقتِباساتِ تُفْصِحُ عَن نَفسِها، ولكِنْ حتَّى عندَما لا يَكونُ ثَمَّةَ سُخفٌ فِعلِيٌّ فإنَّ اللجوءَ [160] إلى لَفْظٍ كَهذا في الاستِدلالِ الجادِّ، كَما لَو أنَّ لَهُ استِعمالاً مّا مَقبولاً، أو كَما لَو أنَّ استِعمالَ الكاتِبِ كانَ واضِحًا على الفَوْرِ، يُعَدُّ مُمارَسَةً مَرفوضَةً.

وقَد بَدَأَ الدُّكتور شِلَر Schiller[3] بِإعلانِهِ أنَّ اللغَةَ الإغريقِيَّةَ "بَلَغَتْ مِن

= "A. أعتَرِفُ بِاستِغرابي عَدَمَ سُؤالِكَ لِي البَتَّةَ ولَوْ مَرَّةً طَوالَ هذهِ المُدَّةِ عَمّا أعْني بِكَلِمَةِ مَعنًى.

B. فَما الذي تَعني إذَن بِكَلِمَةِ مَعنًى؟

C. لا تَعجَلْ. فلَيسَ في وُسعِكَ مَعرِفةُ مَعنَى كَلِمَةِ مَعنًى إلّا بِالنَّظَرِ في طَبيعَةِ الأفكارِ، وصِلَتِها بِالأشياءِ".

وبَعدَ نِصفِ قَرنٍ مِن ذلكَ اقتَبَسَت اللَيدي ويلبي Welby شَيئًا مِمّا سَطَّرَهُ هذا الكاتِبُ، وذلكَ في دَوْرِيَّةِ *Mind* (1896)، وشَكَتْ "أنَّ المفادَ Sense مِن حيثُ كَونُهُ مَعنًى *meaning* لَمّا يُتَّخَذْ بَعدُ البَتَّةَ مَركَزًا يَنطَلِقُ الحلُّ منه؛ فالتَّنَبُّهُ، والإدراكُ الحِسِّيُّ، والذّاكرةُ، والحُكمُ، وما إليها، لَم تُمَحِّصِ البَتَّةَ مِن حيثُ عَلاقَتُها المُشتركَةُ بِـ'المَعْنَى'".

وبَعدَ انصِرامِ خَمسٍ وعِشرينَ سَنَةً أُخرَى نَجِدُ السَّيِّدَ رَسِل يُقِرُّ ("On Propositions: What they are and how they mean". *Proc. Arist. Soc.* 1919)، ويُؤَيِّدُهُ في ذلكَ الدُّكتور شِلَر Schiller في الحَلقَةِ النِّقاشِيَّةِ، "بِأنَّ المَناطِقَةَ لَم يَفعَلوا إلّا القَليلَ تجاهَ تَفسيرِ العَلاقَةِ المُسَمّاةِ 'المَعنَى'".

(3) فرديناند كانِنْغ سكوت شِلَر (1864-1937م). فيلسوفٌ ألمانيٌّ بريطانيٌّ. دَرَسَ في جامعةِ أوكسفورد، ثُمَّ أصبَحَ أستاذًا فيها. شُبِّهَتْ فلسفتُهُ بِبراغماتيَّةِ وِليَم جَيْمس، وإن كانَ شِلَر يُحيلُ عليها بِوصفِها (الفلسفةَ الإنسانيَّة). وكانَ يُضادُّ بِشِدَّةٍ كُلّاً من الفلسفةِ الوَضعيَّةِ المنطقيَّةِ والفلاسفةِ المُرتبِطينَ بها كبرتراند رَسِل، والمِثاليَّةِ المُطلَقَةِ التي كانَ مُمَثِّلُها فرانسِس هربرت برادلي. من آثارِهِ: الفلسفةُ الإنسانيَّة، ودِراساتٌ في الفلسفةِ الإنسانيَّة، والمنطِقُ الصُّوريّ، ومُشكِلاتُ الاعتِقاد. [المُترجِم]

النَّقص حَدًّا جَعَلَ مِن الصُّعوبَةِ بِمَكانٍ أن يُقالَ إنَّ فيها مُفرَدَةً لِفِكرَةِ" المَعنَى مُطلَقًا، وحينَ واصَلَ الحديثَ مُبَيِّنًا وِجهَةَ نَظَرِهِ التي مفادُها أنَّ "المَعنَى شَخصيٌّ في أَساسِهِ... فَما يَعنيهِ أيُّ شَيءٍ يَعتَمِدُ على مَن يَعنيهِ" وَجَدَ مِن الضَّروريِّ تَجاوُزَ ما يَراهُ السَّيِّدُ رَسِل مِن أنَّ "مُشكِلَةَ مَعنَى الكَلِماتِ تُختَزَلُ في مُشكِلَةِ مَعنَى الصُّوَرِ". ورَدَّ السَّيِّدُ رَسِل بِمُحاوَلَتِهِ "إضفاءَ المَزيدِ مِن التَّحديدِ على تَعريفِ المَعنَى بِتَقديمِ فِكرَةِ 'السَّبَبِيَّةِ التَّذَكُّرِيَّةِ mnemic causation'[4]، فَنَجَحَ بِذلكَ في تَطويرِ وَصفٍ تَنويريٍّ لِلميتافيزيقا. وأَوضَحَ وِجهَةَ نَظَرِهِ بِقولِهِ: "إنَّ الكَلِمَةَ التي تَستَهدِفُ تَحقيقَ العُمومِ التّامِّ، مِثلَ كلمةِ 'كِيان entity' على سبيلِ المِثالِ، يَجِبُ أن تَكونَ خالِيَةً مِن الآثارِ التَّذَكُّرِيَّةِ، ومِن ثَمَّ مِن المَعنَى. لكِنَّ الأمرَ مُختَلِفٌ عندَ المُمارَسَةِ؛ فَمِثلُ هذهِ الكَلِماتِ لَها تَرابُطاتٌ لَفظِيَّةٌ تُؤَسِّسُ مَعرِفَتُها دِراسَةَ الميتافيزيقا". وأَقَرَّ السَّيِّدُ يواكيم Joachim[5]، الذي اختارَ أن يَنأى بِنَفسِهِ عن هذا النِّقاشِ، بِأَنَّهُ يَجِدُ السَّيِّدَ رَسِل "يُؤَكِّدُ أَنَّهُ رُبَّما لا يَكونُ في مَقدورِ أَحَدٍ أن يُفَكِّرَ"، واقتَصَرَ على تَحليلٍ لِوَظيفَةِ الصُّوَرِ، مُنَبِّهًا في الهامِشِ على حَقيقَةِ أَنَّ المَعنَى عندَ السَّيِّدِ رَسِل بَدَا (وَسطَ أشياءَ أُخرَى) 'عَلاقَةً'، وأنَّ "العَلاقَةَ 'تُنشِئُ' المَعنَى، وأنَّ الكَلِمَةَ ليسَ 'لَها' مَعنًى فَحَسْبُ، بَل إنَّها مُرتَبِطَةٌ 'بِمَعنَاها'".

---

(4) ترتبطُ فِكرةُ السببيَّةِ التَّذكُّريَّةِ عندَ رَسِل بما ذهبَ إليهِ مِن أنَّ العقلَ والمادَّةَ كليهما بمنزلةِ تركيباتٍ منطقيَّةٍ استُمِدَّتْ من العناصرِ التي هي في أصلِها مُعطَياتُ الحِسِّ التي هيَ لَيسَتْ بالعقليَّةِ ولا بالمادِّيَّةِ، وإنَّما تتميَّزُ بِكونِ بعضِ العناصرِ فيها- كالصُّوَرِ الذِّهنيَّةِ والمشاعرِ- لا تَدخُلُ إلّا في تركيبِ العقولِ. وعلى ذلكَ فإنَّ مُعطَياتِ الحِسِّ أنفُسَها حينَ تترابطُ تبعًا لِقوانينِ الفيزياءِ تُكَوِّنُ الأشياءَ المادِّيَّةَ، وحينَ تترابطُ تبعًا لِقوانينِ عِلمِ النَّفسِ تُعِينُ على تكوينِ العُقولِ. وهيَ حينَ تكونُ عقليَّةً تقومُ بِمُهِمّاتٍ منها ما يُسَمِّيهِ رَسِل السببيَّةَ التَّذَكُّريَّةَ، وهي نوعٌ من الفِعلِ على البُعْدِ؛ لأنَّ الخِبراتِ الراهنةَ تستتبعُ صُوَرًا ذِهنيَّةً من الذّاكرةِ. [المُترجِم]

(5) هارولد هنري يواكيم (1868-1938م). فيلسوفٌ مِثاليٌّ بريطانيٌّ. يُعرَفُ عمومًا بِتأسيسِهِ نظريَّةَ تَماسُكِ الصِّدْقِ في كتابِهِ (طبيعَةُ الصِّدْق). وكانَ كذلكَ دارِسًا لأرِسطو وسبِنوزا. من مؤلَّفاتِهِ الأُخرى غيرِ (طبيعة الصِّدق): التَّجرِبةُ والتَّأمُّلُ المباشِرانِ، ودراساتٌ منطقيَّةٌ، وقواعدُ ديكارت لِتوجيهِ العَقل. [المُترجِم]

واكتَسَبَ هذا الأمرُ كُلُّهُ طابِعًا مُمَيَّزًا على يَدِ الدُّكتور شِلَر بَعدَ سِتَّةِ أشهُرٍ مِن ذلكَ (في أبريل/نَيسان، 1921، ص185)، بِوَصفِهِ يُقَدِّمُ "السِّماتِ الاعتِيادِيَّةَ لِلدَّرسِ الفَلسَفيّ. أي إنَّهُ يَبدو وكأنَّهُ نِزاعٌ ثُلاثيُّ الأطرافِ، يَستَهدِفُ كلُّ طَرَفٍ فيهِ شَيْئًا مُختَلِفًا، وهوَ عندَ الطَّرَفِ الآخَرِ مُخطِئٌ لِلهَدَفِ وواقِعٌ في الوَهمِ". وعندَ خَوضِهِ في التَّفصيلاتِ يَقتَبِسُ تَعليقًا لِلسَّيِّدِ رَسِل مفادُهُ أنَّ "جَميعَ الكَلِماتِ التي يُحاوِلُ الدُّكتور شِلَر أن يَصِفَ بِها [161] كِياناتِهِ التي لا تُلْحَظُ تَقتَضي، معَ ذلكَ، أنَّهُ يَستَطيعُ أن يَلْحَظَها"، بِوَصفِها حالةً نموذَجِيَّةً لِـ"هَيْمَنَةِ المَعنَى اللَفظِيِّ على المَعنَى الفِعْلِيِّ، وهوَ ما لا يَكادُ يُمكِنُ تَجاوُزُهُ في كِتاباتِ السَّيِّدِ برادلي Bradley[6]".

وأوضَحَ السَّيِّدُ ألفريد سِدغوِك Alfred Sidgwick (ص285) في شَهرِ يوليو/تَمّوز أنَّ "المَعنَى يَعتَمِدُ على النَّتائِجِ، وأنَّ الصِّدْقَ يَعتَمِدُ على المَعنَى"، وتَدَخَّلَ البروفيسور سترونغ Strong[7] (ص313) بِوَصفِهِ 'واقِعِيًّا نَقْدِيًّا critical realist'[8] لِيَرُدَّ اعتِراضاتِ الدُّكتور شِلَر على السَّيِّدِ رَسِل ولِيَجعَلَ نَظرِيَّةَ الأخيرِ واضِحَةً لِلسَّيِّدِ يواكيم. وقَد أوضَحَ هذا بِتَخَيُّلِ انفِجارٍ. فحينَ نَسمَعُ ما نَدعُوهُ انفِجارًا "لا يَكونُ الصَّوتُ قد اكتَسَبَ الكَثيرَ لِيَتَحَوَّلَ إلى مَعنًى... فَما هوَ غيرُ مَلموسٍ وغيرُ مُحَسٍّ يَكونُ على الدَّوامِ مَعنًى، على الوَجهِ الذي يُفيدُ ما لا يُسبَرُ غَورُهُ ولا يُمكِنُنا أن نتأمَّلَ ما وَراءَهُ بَل أن نَقصِدَهُ فقط... فأن تَعنِيَ شَيئًا مّا هوَ أن تتصوَّرَهُ

---

(6) فرانسِس هربرت برادلي (1846-1924م). فيلسوفٌ إنجليزيٌّ، دَرَسَ في جامعةِ أوكسفورد، وعُيِّنَ أستاذًا فيها. كانَ هيغليًّا وقفَ بِالضِّدِّ مِن اللِيبراليَّةِ والنَّفعيَّةِ والتَّجريبيَّةِ والوَضعيَّةِ التي راجَتْ في زمانِهِ، وعارَضَ برتراند رَسِل ووِليَم جَيْمس وجورج إدوَرد مُور. أهمُّ كُتُبِهِ: دِراساتٌ أخلاقيَّةٌ، ومَبادِئُ المَنطِقِ، والظّاهِرُ والحَقيقةُ. [المُترجِم]

(7) تشارلز أوغُسطُس سترونغ (1862-1940م). فيلسوفٌ، وعالِمُ نَفسٍ. أمضَى مرحلتَهُ المِهنيَّةَ الأولَى مُدَرِّسًا في أمريكا، لكنَّهُ استقرَّ فيما بعدُ في إيطاليا قُربَ فلورِنسا حيثُ كتبَ مُعظمَ مؤلَّفاتِهِ بينَ سنتَيْ 1918 و1936، ومنها: أصلُ الشُّعور، ومَقالاتٌ في الأصلِ الطبيعيِّ لِلعقلِ. [المُترجِم]

(8) سَبَقَ التَّعريفُ بِالواقعيَّةِ النَّقدِيَّةِ في الفَصلِ الثّاني. [المُترجِم]

أو بِالأحرَى أن تُعامِلَهُ بِوَصفِهِ غيرَ مُنكَشِفٍ كُلِّيًا لِلعَقلِ في الوقتِ الحاضِرِ".

ويُجيبُ الدُّكتور شِلَر عن هذهِ النُّقطةِ بِأنَّ الدُّكتور سترونغ يَقصُرُ اهتِمامَهُ على الدَّوامِ بِالحالةِ "التي يُقالُ فيها عن 'الشَّيْءِ' إنَّهُ 'يَعنِي كَذا وكَذا'". وهو يَعتَقِدُ أنَّ هذا "يَفرِضُ عليهِ أعباءَ استِخلاصِ المَعنَى الشَّخصِيِّ، وتَفسيرِ صِلَةِ 'الـ'مَعنَى لِشَيْءٍ مَا بِأغراضٍ مَعرِفيَّةٍ ومَعانٍ شَخصِيَّةٍ مُختَلِفَةٍ" (ص445). ثُمَّ يَستَنتِجُ (ص447) أنَّ "وُجودَ المَعنَى الشَّخصِيِّ يَظَلُّ عَقَبَةً في طَريقِ العَقلانِيَّةِ". ومِنَ المُفتَرَضِ أنَّ هذا الجَدَلَ ما زالَ في تَنامٍ.

وبِالتَّزامُنِ معَ الحَلقَةِ النِّقاشِيَّةِ في المَعنَى الذي ظَهَرَ في دَوْرِيَّةِ *Mind* كانَ يَجرِي بَحثٌ في طَبيعَةِ الحُبْسَةِ في دَوْرِيَّةِ *Brain*[9]، وفي أثناءِ مُناقَشَةِ آراءِ الدُّكتور هيد Head[10] طَفَتْ على السَّطحِ مَسألةُ المَعنَى. وقَد قَدَّمَ الدُّكتور هربرت بارسنز J. Herbert Parsons[11] مُذَكِّرَةً خاصَّةً أوحَتْ بِها مُعالَجَةُ 'الحُبْسَةِ الدَّلالِيَّةِ semantic aphasia'[12]، وهيَ تُسَلِّطُ ضَوءًا مُثيرًا لِلاهتِمامِ [162] على مِقدارِ العَوْنِ الذي يُتَوَقَّعُ أن يَحصلَ عليهِ أطِبّاءُ الأعصابِ مِن جُهودِ الفَلاسِفةِ في هذا المِضمارِ. ويُقَرِّرُ الدُّكتور بارسنز أنَّهُ في أدْنَى مُستَوًى لِلأحياءِ "لَن يَكونَ مِن دَواعي الحِكمةِ في شَيءٍ إنكارُ وُجودِ شَيءٍ مِن المَنحَى العاطِفيِّ- وهذا هو البَذْرَةُ الأوَّلِيَّةُ لِـ 'المَعنَى'". على أنَّهُ في المُستَوَى الإدراكيِّ "تُمَيَّزُ مادَّةُ الحياةِ غيرُ المُمَيَّزَةِ نِسبيًّا إلى عَناصِرَ عاطِفيَّةٍ ومَعرِفيَّةٍ مُتَخصِّصَةٍ، ويُعادُ إدماجُها مَرَّةً أُخرَى، لِتَتَحوَّلَ بِذلكَ إلى تَركيبٍ توفيقيٍّ هوَ 'مَعنَى' التَّجرِبَةِ المُعطاةِ. إنَّ غَمْرَ 'المَعنَى' الإدراكيِّ بِالمَنحَى العاطفيِّ مَصدَرُهُ فَعّالِيَّةٌ غَريزِيَّةٌ نُزوعِيَّةٌ". وهكذا، في خِتامِ رَدِّ

---

(9) 1920. Vol. XLIII., Parts II. And IV.

(10) هنري هيد (1861-1940م). طبيبُ أعصابٍ إنجليزيٌّ. نفَّذَ عملاً رِيادِيًّا في النظامِ الجسديِّ-الحِسِّيِّ والأعصابِ الحِسِّيَّةِ. [المُترجِم]

(11) جون هربرت بارسنز (1868-1957م). طبيبٌ بريطانيٌّ. من مؤلَّفاتِهِ: مقدِّمةٌ لِدراسةِ رؤيَةِ اللون، وأمراضُ العَيْنِ. [المُترجِم]

(12) "The Psychology of 'Meaning' in its Relation to Aphasia". *Ibid.*, p. 441.

الفِعلِ المُتَكامِلِ "أصبَحَ 'المَعنَى' غَنِيًّا ومُعَقَّدًا... وهذا 'المَعنَى' المُعَدَّلُ يَكونُ مُخْتَزَنًا، وقابِلاً لِلتَّجديدِ على الرَّغمِ مِن أنَّهُ قد هُبِطَ بِهِ إلى أسفَلِ عتبَةِ الوَعيِ... إنَّ الإدماجَ والتَّركيبَ التَّوفيقيَّ لِمادَّةِ الحياةِ التي هيَ أكثرِ طَواعيةً سَلَفًا يُنشِئانِ نَمَطًا مِن 'المَعنَى' أرقَى وأكثرَ تَعقيدًا". وفي مَرحَلَةٍ لاحِقَةٍ يَظهَرُ تأثيرُ البيئةِ الاجتِماعيَّةِ، وفي عَمليَّةِ التَّواصُلِ الاجتِماعيِّ المُعَقَّدَةِ "تكونُ النَّتائجُ الكُلِّيَّةُ مُعادِلَةً لِتَفاعُلِ 'المَعاني' القَديمَةِ والجَديدَةِ، لِتُنشِئَ عَدَدًا غيرَ مُتَناهٍ مِن 'مَعانٍ' أكثَرَ جِدَّةً، وغِنًى، وتَهذيبًا". وفي هذهِ المَرحَلَةِ "تَتَوَلَّى الفَعّاليّاتُ الخَلّاقَةُ مهمَّةَ التَّآزُرِ في مُستَوًى أرقَى"، و"تُظهِرُ تَواصُلاً مَعَ البيئةِ كانَ غائبًا حتَّى الآن". فما يَصطَنِعُهُ الطِّفلُ مِن "إيماءاتٍ لا يَغدُو مُجَرَّدَ عَلاماتٍ سَلبيَّةٍ لِفَعّاليّاتِهِ العَقليَّةِ، بَل إنَّهُ إشاراتٌ فَعّالَةٌ لِمَشاعِرِهِ ورَغَباتِهِ. وهذا هوَ فَجرُ اللغَةِ".

ولَرُبَّما كانَ في إمكانِ التَّحليلِ التَّفصيليِّ لِحِوارِ دَوْرِيَّةِ *Mind* النِّقاشِيِّ أن يُسْهِمَ في إضاءَةِ الدَّربِ بِوَصفِهِ تَمهيدًا لِصِياغَةِ مَجموعةٍ مِن التَّعريفاتِ، لكِنَّ آلِيَّتَهُ كانَتْ مُخَيِّبَةً لِلآمالِ على نَحوٍ غيرِ مُعتادٍ[13]، وما دامَتْ حَلبَةُ الصِّراعِ الميتافيزيقيَّةُ لِلعالَمِ القَديمِ في أيَّةِ حالةٍ لا بُدَّ أن تُوحِيَ لِلكَثيرِينَ بِجَوٍّ مِن الجَدَلِ اللفظيِّ العَقيمِ، فبِإمكانِنا أن نَتَعامَلَ على نَحوٍ أكثَرَ [163] إيجابيَّةً معَ التَّخليطاتِ التي تَنشَأُ حينَ يُمْلِي الظَّرفُ ذلكَ وأن نُنَوِّهَ هُنا بِنَهجِ النِّتاجِ الجَماعِيِّ الأحدَثِ لِلعالَمِ الجَديدِ. إذ إنَّ كِتابَ **مَقالاتٌ في الواقِعِيَّةِ النَّقْدِيَّةِ** *Essays in Critical Realism*، الذي ظَهَرَ في سنةِ 1920، يُمَثِّلُ جُهدَ سَبعَةٍ مِن الأساتِذَةِ الأمريكيِّينَ[14] نَقَّحَ كلٌّ منهُم لُغَتَهُ ودَقَّقَ فيها حتَّى لَقِيَت استِحسانَ كُتّابِ المَقالاتِ الآخَرِينَ جَميعًا. وتُمَثِّلُ

---

(13) مَرَدُّ ذلكَ على نَحوٍ كبيرٍ إلى عَدَمِ انسِجامِ أمزِجَةِ المُتَحاوِرِينَ. واستَبْدَلَ السَّيِّدُ رَسِل الآنَ، زِيادَةً على ذلكَ، بِإسهامِهِ ذاكَ الفُصولَ ذاتَ الصِّلَةِ في كِتابِهِ **تَحليلُ العَقْلِ** *Analysis of Mind*، الذي أُحيلَ عليهِ آنِفًا (ص137).

(14) أوَّلُهُم ديورَنت دريْك وعنوانُ بحثِهِ (مُقارَبَةُ الواقعيَّةِ النَّقديَّة)، وثانيهِم آرثَر أونكين لَفجوي وعنوانُ بحثِهِ (بينَ البراغماتيَّةِ والبراغماتيّ)، وثالثُهُم جَيْمس بِسيت برات وعنوانُ بَحثِهِ (الواقعيَّةُ النَّقديَّةُ وإمكانُ المعرِفَة)، ورابِعُهُم آرثَر كينيَن روجَرز وعنوانُ بَحثِهِ (مُشكِلَةُ الغَلَط)، وخامسُهُم جورج سانتَيانا وعنوانُ بَحثِهِ (ثلاثةُ بَراهينَ لِلواقعيَّة)، وسادسُهُم روي =

هذهِ المَقالاتُ ثَمَراتِ عَقدٍ زَمَنيٍّ مِن الجَدَلِ في حَقلٍ جَدَلِيٍّ مَحدودٍ، حيثُ "مَكَّنَتْنا أُلفَةُ بَعضِنا مَعانِيَ بَعضٍ مِن فَهمِ طَرائقَ لِلتَّعبيرِ كُنّا في البَدْءِ مَيّالِينَ إلى مُعارَضَتِها". وقد فُصِّلَ القَولُ في المَسائلِ الجَدَلِيَّةِ الرَّئيسةِ سَلَفًا مِن خِلالِ المُؤتَمَراتِ التي ابتَدَأَ انعِقادُها بينَ سَنَتَي 1908-1909، في كِتابٍ ذي جُهدٍ جَماعِيٍّ مُشابِهٍ، اشتَرَكَ في وَضعِهِ سِتَّةٌ[15] مِن الواقِعِيِّينَ الجُدُدِ Neo-realists[16]. ويُمكِنُ عَدُّ الحَصيلَةِ النِّهائيَّةِ عُصارَةَ جُهدِ العُمُرِ لثَلاثَةَ عَشَرَ مُختَصًّا دَأَبُوا جَميعًا على مُواصَلَةِ تَطويرِ مُصطَلَحاتِهِم المُتَبادَلَةِ على مَرأى مِن النّاسِ مُدَّةً تَزيدُ على عَقدٍ مِن الزَّمَنِ.

ولَيسَتْ بِنا حاجَةٌ في هذا المَقامِ إلى أن نُعنَى بِالكِتابِ السابِقِ إلّا بِقَدْرِ ما يَستَلزِمُهُ الأمرُ مِن التَّنبيهِ على أنَّ المُقَدِّمَةَ، التي شَهِدَت تَشديدًا على الاستِعمالِ

= وود سيلَّرز وعنوانُ بَحثِهِ (المعرفةُ ومَقولاتُها)، وسابِعُهُم تشارلز أوغُسطُس سترونغ وعنوانُ بَحثِهِ (في طبيعةِ المُعطى). [المُترجِم]

(15) عُنوانُ الكِتابِ هوَ (الواقعيَّةُ الجديدَةُ- دِراساتٌ فَلسفيَّةٌ جَماعِيَّة)، وأوَّلُ المُشارِكِينَ في تأليفِهِ والتَر مارفِن وعنوانُ بحثِهِ (تَخليصُ الميتافيزيقا مِن الأبستمولوجيا)، وثانيهِم رالف بارتن بيري وعنوانُ بحثِهِ (النظريَّةُ الواقعيَّةُ لِعدَمِ التَّبعيَّة)، وثالثُهُم إدوَرد غليسن سباولدِنغ وعنوانُ بَحثِهِ (دِفاعٌ عن التَّحليلِ)، ورابِعُهُم وِلَيَم بيبيريل مونتاغ وعنوانُ بَحثِهِ (النظريَّةُ الواقعيَّةُ لِلصِّدْقِ والغَلَط)، وخامسُهُم إدوِن هولت وعنوانُ بَحثِهِ (مَكانةُ التَّجرِبَةِ الوَهمِيَّةِ في العالَمِ الواقعيّ)، وسادسُهُم والتَر بِتكِن وعنوانُ بَحثِهِ (مُقتَضَياتٌ واقِعيَّةٌ لِعِلمِ الأحياء). [المُترجِم]

(16) الواقعيَّةُ الجديدةُ: فلسفةٌ ظهرَتْ في أمريكا في بِداياتِ القرنِ العشرينَ بِوَصفِها مُضادَّةً لِلمِثاليَّةِ السائدةِ التي كانَ جوزايا رويس يُدافِعُ عنها، ومُتجاوِزَةً للبراغماتيَّةِ لدى أحدِ أهمِّ فُرسانِها وهو وِليَم جَيْمس، ومُقتدِيَةً بِنهجِ العُلماءِ في العملِ الجماعيّ، ومُتَّخِذةً التعدُّدِيَّةَ غايةً ميتافيزيقيَّةً والتحليلَ منهجًا علميًّا. وزيادةً على إسهاماتِ أصحابِها في مجالِ الأبِستمولوجيا كانَ أكبرُ إسهامٍ لِمؤسِّسِها رالف بارتِن بيري في مجالِ القِيَمِ والنظريَّةِ الاجتماعيَّةِ الذي يَظهَرُ جليًّا في كتابَيْهِ (النظريَّةُ العامَّةُ للقيمة) و(آفاقُ القيمَة)؛ إذ سعى إلى تقديمِ نظريَّةٍ توافقيَّةٍ للخيرِ والسعادةِ يُطوِّرُ فيها الفلسفةَ النفعيَّةَ في ضوءِ الأخلاقِ الكانتيَّةِ، مُمَهِّدًا الطريقَ بذلكَ لِلإسهامِ الذي قدَّمَهُ الفيلسوفُ الأمريكيُّ المعاصِرُ جون رولز في نظريَّةِ العدالة. [المُترجِم]

المُدَقِّقِ لِلكَلماتِ وعلى أَهَمِّيَّةِ التَّعريفاتِ الواضِحَةِ، اشتَمَلَتْ على التَّعليقاتِ الآتيةِ:-

"في الخِطابِ الدَّقيقِ يَجِبُ أن يَخضَعَ مَعنَى كُلِّ تَعبيرٍ لِلمُراجَعَةِ".

"إن لَم نَستَطِعِ التَّعبيرَ عمّا نَعني بِتَعبيراتٍ دَقيقَةٍ فَلْنَنصَرِف، في الأَقَلِّ، إلى صَقْلِ الأَدَبِ".

"إنَّ المِثاليَّةَ لَم تَعْنِ شَيئًا لِعالِمِ النَّفسِ الفِعْلِيِّ".

- في حينِ أنّا نَجِدُ البروفيسور بِتْكِن Pitkin[17] يَعْتَرِضُ في المَقالَةِ الأخيرَةِ على نُقطَةٍ حاسِمَةٍ هيَ أَنَّ أَلِكسَندَر Alexander ونَن Nunn[18] "يُعامِلانِ مادَّةَ *stuff* الأغراضِ الهَلْوَسِيَّةِ وَحدَها على أَنَّها حَقيقيَّةٌ، تارِكَيْنِ المَعانِيَ غيرَ الصَّحيحَةِ نِتاجاتٍ لِعَقلٍ تَفسيريٍّ إلى حَدٍّ مّا".

ومُنذُ ذلكَ الحينِ، أي سَنةِ 1912، لم تَتَوَقَّفْ كَلِمةُ 'مَعنًى' عَن أَداءِ دَورٍ حاسِمٍ في أيِّ خِلافٍ، ولَمّا كانَ الواقِعيُّونَ النَّقْدِيُّونَ قَد حَظُوا بِمِثلِ تلكَ الفُرصَةِ المُناسِبَةِ لِتَجَنُّبِ أَيَّةِ حالاتِ لَبْسٍ رُبَّما كانَ الواقِعِيُّونَ الجُدُدُ قد وَقَعوا فيها، [164] أَمْكَنَنا، بِقَدرِ تَعلُّقِ الأمرِ بِالواقِعِيَّةِ، أن نَقصُرَ أنفُسَنا على جُهودِهِم.

فَفي البَدءِ يَأتي البروفيسور درَيْك المُنتَسِبُ إلى كُلِّيَّةِ فاسّار Drake of Vassar[19]، لِيَقولَ:-

(17) والتَر بوغتن بِتْكِن (1878-1953م). مُحاضِرٌ أمريكيٌّ في الفلسفةِ وعلمِ النفسِ في جامعةِ كولومبيا بينَ سنَتَيْ 1905 و1909. كانَ ينتَمي إلى مدرسةِ الواقعيَّةِ الجديدةِ في الفلسفةِ، ويكتبُ عن عَلاقتِها بِعلمِ الأحياءِ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: الحياةُ تبدأُ في سنِّ الأربعين، وسايكولوجيَّةُ السَّعادَة، ومُقَدِّمةٌ موجَزَةٌ في تأريخِ الغَباء. [المُترجِم]

(18) توماس بيرسي نَن (1870-1944م). تربويٌّ بريطانيٌّ، وأستاذُ التربيةِ بينَ سنَتَيْ 1913 و1936 في معهَدِ التربيةِ في جامعةِ لندَن. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: أهدافُ المنهجِ العلميِّ ومُنجَزاتُهُ. [المُترجِم]

(19) ديورَنت درَيْك (1878-1933م). أستاذُ الفلسفةِ في كلِّيَّةِ فاسّار في أمريكا. من أهَمِّ مؤلَّفاتِهِ: مُشكِلاتُ الدِّين، وأمريكا تُواجِهُ المستقبل. [المُترجِم]

"إنَّ مَعنَى 'الوُجود' نَفْسَهُ يَستَلزِمُ مَحَلاًّ مُحَدَّدًا" (ص16).

"إنَّ مَعْنَى لَفْظِ 'العَلاقَة' نَفْسَهُ يتضَمَّنُ الإحالَةَ على شَيءٍ مّا مُتَعَلِّقٍ" (ص19).

وتُستَعمَلُ هاتانِ العِبارَتانِ لِتَقودَا إلى وِجهَةِ النَّظَرِ القائلَةِ إنَّ المُعْطَيَاتِ الإدراكِيَّةَ "لا يُمكِنُ أن تَكونَ وُجوداتٍ مُماثِلَةً لأسبابِها"، وإنّا "نَعودُ في مَكانٍ مّا إلى الصِّفاتِ".

ويُواصِلُ البروفيسور لَفجوي Lovejoy الحَديثَ بِقَولِهِ إنَّهُ سَيكونُ مَشروعًا كبيرًا أن "تُحَلَّلَ مَعاني" صِياغاتِ البراغماتِيَّةِ، التي "بَدَأَتْ نَظَرِيَّةً تُعنَى بِالشُّروطِ التي يُمكِنُ أن يُقالَ عن المَفاهيمِ والقَضايا التي تَخضَعُ لَها إنَّ لَها مَعنًى، وتُعنَى بِالطَّبيعَةِ التي يَجِبُ أن تَتَوقَّفَ عليها جَميعُ المَعاني". ويَرَى أنَّ البراغماتِيِّينَ يُغْفِلونَ الحقيقةَ الواضِحَةَ وهيَ أنَّ "الكثيرَ مِن مَعانِينا ارتِجاعِيٌّ retrospective[20]... فليسَ ثَمَّةَ خُدعَةٌ مَنطِقيَّةٌ بإمكانِها تَحويلُ مَعنَى 'أمْسِ' إلى مَعنَى 'غدًا...' إنَّهُ، في الحقيقةِ الفِعليَّةِ، مَعنًى غيرُ قابِلٍ في حَدِّ ذاتِهِ لِلإنجازِ التَّجريبيِّ المُباشِرِ... وعلى الرَّغْمِ مِن عَدَمِ التَّجريبِ الفِعْلِيِّ لإنجازِ هذهِ المَعاني البَتَّةَ، لَدَيْنا مَيْلٌ لا يُقاوَمُ إلى اعتِقادِ أنَّ بَعضَها مَعانٍ صَحيحةٌ حَقًّا... والحُكْمُ هوَ سَيِّدُ نَفسِهِ في تَحديدِ ما يَعنيهِ، وإن لَم يَكُنْ كذلكَ في شَأنِ تَحديدِ إنجازِ مَعانيهِ".

ويَنُصُّ البروفيسور برات Pratt[21] على أنَّ الواقِعِيِّينَ الجُدُدَ "أنجزوا تَحليلاً نافِعًا جِدًّا بِتَأكيدِهِم أنَّ المُعْطَياتِ المُقَدَّمَةَ لِفِكرِنا تَتأَلَّفُ مِن مَعانٍ أو طَبائعَ"، لكِنَّهُم لَم يُفَرِّقوا "بينَ هذهِ المَعاني والجُزءِ الحِسِّيِّ مِن حالاتِنا الذِّهنيَّةِ مِن جِهَةٍ

(20) لِلكلمةِ أصلٌ لاتينيٌّ هوَ كلمةُ (retrospectare) التي تعني النظرَ إلى الوَراءِ. ومعنَى الكلمةِ العامُّ هوَ النظرُ في الأحداثِ التي سبَقَ أن وَقَعَتْ. فعلى سبيلِ المِثالِ، تُستَعمَلُ الكلمةُ في الطِّبِّ للتعبيرِ عن النظَرِ في التَّاريخِ الطِّبِّيِّ لِلمريضِ. [المُترجِم]

(21) جَيْمس بِسيت برات (1875-1944م). أستاذُ الفلسفةِ العَقليَّةِ والأخلاقيَّةِ في كلِّيَّةِ وِليَمز في أمريكا. كانَ رئيسَ الجمعيَّةِ اللاهُوتيَّةِ الأمريكيَّةِ بينَ سنَتَيْ 1934 و1935. من مؤلَّفاتِهِ: سايكولوجيَّةُ الاعتِقادِ الدِّينيّ، وما البراغماتيَّة؟ [المُترجِم]

والأغراضِ الوُجودِيَّةِ الفيزيائيَّةِ التي تُعزَى إليها المَعاني مِن جِهَةٍ أُخرَى". فَقَد يَصِفُ عَدَدٌ مِن الأشخاصِ تَصَوُّرَهُم لِشَيءٍ مّا على نَحوٍ مُختَلِفٍ، على الرَّغمِ مِن أنَّهُم جَميعًا [165] "عَنَوْا الشَّيءَ نَفسَهُ، أو فَكَّرُوا في الشَّيءِ نَفسِهِ". ويُواصِلُ حَديثَهُ لِيُفَرِّقَ (ص90) بينَ المَعنَى الذي يُضمِرُهُ الشَّخصُ في التَّصَوُّرِ "والصُّوَرِ التي هيَ 'ناقِلَةٌ' لِلمَعنَى. وهذا المَعنَى هوَ الذي نَجِدُهُ مُعْطَى مُباشَرَةً لِفِكْرَتِنا"، ويَرَى "أنَّ هذا المَعنَى أو المُعْطَى كَثيرًا مّا يَكونُ قابِلاً لِلتَّعريفِ الدَّقيقِ، أي أنَّ لَهُ طَبيعَةً قابِلَةً لِلتَّعريفِ، أو بِالأحرَى أنَّهُ طَبيعَةٌ قابِلَةٌ لِلتَّعريفِ". والإدراكُ الحِسِّيُّ، شَأنُهُ شَأنُ التَّصَوُّرِ، "لا يَشتَمِلُ على صُوَرٍ حِسِّيَّةٍ ومُنَشِّطَةٍ فَحَسْبُ، بَل على عُنصُرٍ واسِعٍ مِن المَعنَى أيضًا". والمُعتادُ أن تَكونَ "جَميعُ الصِّفاتِ المُحَسَّةِ *sensed* مُضَمَّنَةً في الصِّفاتِ المَعْنِيَّةِ *meant*". أمّا الإحالَةُ الخارِجيَّةُ (ص92) "فيُمكِنُ عَدُّها جُزْءًا مِن مُعطَى الإدراكِ الحِسِّيِّ أو مَعناهُ، لكِنَّهُ جُزءٌ يَسْهُلُ تَمييزُهُ". وبِسَبَبِ رُدودِ الفِعلِ الماضِيَةِ فإنَّ مَجموعَةَ الصِّفاتِ "التي يَعيها الشَّخصُ تَعْني مُباشَرَةً أكثَرَ مِمّا هيَ عليهِ. فنتيجَةً لِكُلِّ تَجارِبِ الشَّخصِ الماضِيَةِ أصبَحَت تَرْمِزُ إلى كِيانٍ فَعّالٍ". ومَجموعةُ الصِّفاتِ هذهِ "تَعْني أو تَتَضَمَّنُ مُباشَرَةً عندَ الفَردِ حُضورَ كِيانٍ فَعّالٍ، وإلى حَدٍّ مّا، طَبيعَتَهُ، وهوَ ما يُستَحسَنُ أن يَكونَ واعِيًا لَهُ. إنَّها، بِاختِصارٍ، الوَسيلَةُ التي يُدرِكُ بِها المَوضوعَ". وفي خِتامِ حَديثِهِ يُؤَكِّدُ أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ الواقِعِيِّينَ النَّقدِيِّينَ "لا يَدَّعُونَ مَعرِفَةً شامِلَةً لِلطَّبيعَةِ الدّاخليَّةِ لِلكِياناتِ الفيزيائيَّةِ، قَد عَرَّفْناها بِما يَكفي لِمَعرِفَةِ ما نَعْني بِها، ولِجَعلِ ذلكَ المَعنَى واضِحًا تَمامًا لِلجَميعِ إلّا لِمَن قادَهُ ضَلالُهُ إلى العَمَى".

ويَشكُو البروفيسور روجَرز Rogers[22] المُنتَسِبُ إلى جامِعَةِ يَيْل Yale، الذي يُعْنَى بِمَوضوعِ الغَلَطِ Error، إخفاقَ بوزانكيه Bosanquet في فَهمِ مَسألَةِ "دَرَجاتِ الصِّدْقِ" بِسَبَبِ "رَفضِهِ المُزعِجِ إبْقاءَ المَعاني المُختَلِفَةِ لِلألفاظِ مَفصولاً

---

(22) آرثَر كينيَن روجَرز (1868-1936م). أستاذٌ للفلسفةِ، نالَ درجةَ الدكتوراه في الفلسفةِ في جامعةِ شيكاغو سنةَ 1898، والأُستاذيَّةِ في الفلسفةِ في جامعَتَيْ ميسوري ويَيْل. من مؤلَّفاتِهِ: مقدِّمةٌ موجزةٌ للفلسفةِ المعاصرة، وحياةُ المسيحِ وتعاليمُهُ. [المُترجِم]

بَعضُها عن بَعضٍ بِصَرامَةٍ. ولا تتعلَّقُ هذهِ المسألةُ بِأن يَعنِيَ شَكلُ الكَلِماتِ نَفسُهُ الشَّيءَ نَفسَهُ لأُناسٍ مُختَلِفِينَ، وإنَّما بِنَجاحِ أيِّ مَعْنًى مُعْطًى على انفِرادٍ، مَهما يَكُنْ هذا المَعنَى، في مُناظَرَةِ الحَقيقَةِ" (ص123). ويُعَلِّقُ على إسهام السَّيِّدِ يواكيم بِشأنِ الأشياءِ مَنظورًا إليها مِن زاوِيَةِ كَونِها أنظِمَةً، بِأنّا "إذا ما أصرَرْنا على [166] تَعريفِ مَعنَى حَقيقَةٍ مّا مِن زاوِيَةِ مَوضِعِها في نِظامٍ مّا، فسوفَ تَتوقَّفُ، على نَحوٍ طَبيعيٍّ، عن أن يَكونَ لَها هذا المَعنَى خارِجَ النِّظامِ" (ص125).

أمّا ما يتعلَّقُ بِالتَّطابُقِ "فنَحنُ نُفَرِّقُ، على نَحوٍ طَبيعيٍّ، بِوُضوحٍ بينَ صِفاتِ الأشياءِ مُجَسَّدَةً في المَعاني التي نَعزُوها إليها، والوُجودِ الفِعليِّ لِهذهِ الصِّفاتِ في الأشياءِ أنفُسِها... فـ'تَطابُقُ ما يَتَعَذَّرُ تَمييزُهُ' يَنطَبِقُ على المَعاني المَنطِقِيَّةِ المُجَرَّدَةِ لا على المَوجوداتِ. إذ يُمكِنُ أن نَقولَ عن مَعانٍ مُعَيَّنَةٍ إنَّها المَعاني أنفُسُها- على ألّا نَستَطيعَ تَبَيُّنَ اختِلافٍ بينَها- لِسببٍ واحِدٍ هوَ أنَّ 'صِفَتَها' تُمَثِّلُ كُلَّ ما فيها، أمّا الأشياءُ فليسَ مِنَ الضَّروريِّ أن تَكونَ مُتَساوِيَةً حينَ تَكونُ مُتَشابِهَةً" (ص131). ويَعتَقِدُ أنَّ تَحليلَ البروفيسور هولت Holt[23] يُقَدِّمُ "أُطروحَةً تَقرُبُ مِن الدِّقَّةِ بِشأنِ ما يَقصِدُ الواقعيُّونَ النَّقْدِيُّونَ أن يُحيلوا عَليهِ تَحتَ مَوضوعِ الجَواهِرِ essences أو المَعاني الإنسانيَّةِ. لكِنَّ مُشكِلَةَ المَعرِفَةِ عِندَهُ لا تَكمُنُ في حُضورِ هذهِ المَعاني أو المُعْطَياتِ فَحَسبُ، بَل في إحالَتِها على الشَّيءِ الفِعْلِيِّ" (ص133). وتتلاشَى الصُّعوباتُ المُتَعلِّقَةُ بِالغَلَطِ عندَ البروفيسور بيري Perry[24] إذا ما سَلَّمْنا

(23) إدون بِسّيل هولت (1873-1946م). أستاذُ الفلسفةِ وعلم النَّفسِ في جامعةِ هارفَرد في أمريكا بينَ سنتَيْ 1901 و1918، وأستاذُ عِلم النَّفسِ الزائرُ في جامعةِ برنستن في أمريكا بينَ سنتَيْ 1926 و1936. أسَّسَ معَ آخَرينَ في نحوِ سنةِ 1910 الحركةَ الفلسفيَّةَ التي سُمِّيَتْ بِالواقعيَّةِ الجديدةِ، استِجابةً لانتقاداتِ رويس لآراءِ وِليَم جَيْمس في الواقعيَّةِ. وبعدَ حضورِهِ مُحاضرةَ فرويد المشهورةَ في جامعةِ كلارك في سنةِ 1909 تأثَّرَ كثيرًا بالتحليلِ النفسيِّ الذي أثَّرَ في كتابِهِ (الرَّغبةُ الفرويديَّةُ). ومن مؤلَّفاتِهِ الأخرى: مفهومُ الشعور. [المُترجِم]

(24) رالف بارتن بيري (1876-1957م). فيلسوفٌ أمريكيٌّ. تلمَذَ لِوِلِيَم جَيْمس وحرَّرَ مقالاتِهِ =

بِالفَرقِ "بينَ الشَّيءِ بِوَصفِهِ مَوجودًا أمتَلِكُ اعتِقادًا تجاهَهُ، والشَّيءِ (بِوَصفِهِ مُحتَوًى ذِهنِيًّا أو مَعنًى أو ماهِيَّةً) الذي أعتَقِدُهُ تجاهَهُ". فَحينَ نَكونُ غالِطِينَ يَكونُ لَدَينا "مَعنًى مَعروضٌ أمامَ العَقلِ"، ونَفترِضُ، خَطَأً، أنَّهُ يُشَخِّصُ شَيئًا حَقيقيًّا.

ويُؤَكِّدُ الدُّكتور سانتَيانا Santayana أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنّا لَو عَدِمْنا أجسادَنا الحَيَوانيَّةَ "لَخَسِرَ المَظهَرُ الخارجيُّ مَقَرَّهُ وبُؤرَتَهُ، ولَو عَدِمْنا المَوضوعَ الخارجيَّ لَخَسِرَ دَلالَتَهُ"، يُمكِنُنا، مَعَ ذلكَ، أن نَأخُذَ المَظهَرَ الخارجيَّ مُطلَقًا ثُمَّ "نَمنَعَ كُلَّ رَدِّ فِعلٍ أو فَهمٍ"، لكِن لَمّا كانَت حَتَّى المُعطَياتُ الكامِنَةُ والمُباشِرَةُ لِلمَظهَرِ الخارجيِّ، "إشاراتُهُ ولُغَتُهُ المُجَرَّدَةُ حينَ يُحَدَّقُ فيهِ بِغَباءٍ"، لَها واقِعٌ جَماليٌّ، "لم يَكُنْ بُدٌّ مِن أن يَعنِيَ النَّوعُ الخاصُّ والماكِرُ مِن الواقِعِ بِإزاءِ المَظهَرِ الخارجيِّ واقِعًا أساسيًّا، ماهِيَّةً *substance*، والأَوْلَى أن يُسَمَّى بِهذا الاسمِ". ويُقَدِّمُ لَنا الجَواهِرَ= الكُلِّيّاتِ= المُعْطَياتِ الجَماليَّةَ البَديهِيَّةَ- "رُموزَ [167] الحِسِّ أو الفِكرِ" (ص165)، التي يُمكِنُ أن تَكونَ مُماثِلَةً لِلجَواهِرِ المُجَسَّدَةِ في الماهِيَّةِ على الرَّغمِ مِن أنَّ "القَصدَ والتَّجسيدَ يَظَلّانِ مُختَلِفَيْنِ في الوُجودِ، والأصلِ، والزَّمانِ، والمَكانِ، والجَوهَرِ، والوَظيفَةِ، والمُدَّةِ".

ويَنظُرُ البروفيسور سيلَّرز Sellars[25] المُنتَسِبُ إلى جامِعةِ مِشِغَن Michigan إلى فِكرَةِ أنَّ مَيدانَ التَّجرِبَةِ الفَردِيَّةِ "لَهُ بِنيَةٌ مُعَيَّنَةٌ، وهيَ تُخَلِّفُ مَعَ طائفَةٍ مِن المَعاني والتَّأكيداتِ" بِوَصفِها "أمرًا لا تُنكَرُ حَقيقَتُهُ". وإنَّ الخَطَأَ الأساسيَّ لِلفِكرِ الحَديثِ جِدًّا هوَ رَفضُهُ إدراكَ "أنَّ الشَّيئيَّةَ والإدراكَ الحِسِّيَّ يَسيرانِ مَعًا جَنبًا إلى جَنبٍ"، وبِعِبارةٍ أُخرَى يَكونُ لَدَى المُدرِكِ "مَضمونُ الإدراكِ الحِسِّيِّ، وبِالضِّدِّ

= في التَّجريبيَّةِ الرادِكاليَّةِ سنةَ 1912، وأصبحَ أحدَ قادةِ حركةِ الواقعيَّةِ الجديدةِ. من مؤلَّفاتِهِ: مُقارَبَةُ الفلسفة، والاتِّجاهاتُ الفلسفيَّةُ الراهِنة، والأملُ في الخلود. [المُترجِم]

(25) روي وود سيلَّرز (1880-1973م). فيلسوفٌ أمريكيٌّ نَهَجَ نهجَ الواقعيَّةِ النقديَّةِ والإنسانيَّةِ الدِّينيَّةِ. وهو والدُ الفيلسوفِ وِلفرد سيلَّرز. أمضَى معظمَ حياتِهِ المِهنيَّةِ مُدرِّسًا في جامعةِ مِشِغَن. من مؤلَّفاتِهِ: تأمُّلاتٌ في الفلسفةِ الأمريكيَّةِ من الداخلِ، والطبيعيَّةُ التطوُّريَّة. [المُترجِم]

مِنهُ تَمامًا وعلى نَحوِ مُكافِئ عُقدَةُ التَّحكُّمِ الحَرَكيَّةُ المَوصولَةُ بِالمَعاني والتَّوقُّعاتِ الواقعيَّةِ المُمَيِّزَةُ لِلإدراكِ الحِسِّيِّ". ويَرَى أنَّ ما نَحتاجُ إليهِ هوَ "تَحليلٌ مُتَأنٍّ ومُثابِرٌ يَكونُ قادِرًا على التَّقَدُّمِ إلى الأمامِ تَدريجيًّا في الوَقتِ الذي يُنصِفُ فيهِ البِنيَةَ والمَعانيَ المُتعلِّقَةَ بِتَجربَةِ الفَردِ" (ص197). أمّا ما يتعلَّقُ بِالمَعرفةِ الماضِيَةِ "فيُمكِنُنا أن نَعنِيَ واقِعًا لَم يَعُدْ مَوجودًا على نَحوٍ مُساوٍ لِلواقِعِ المَوجودِ في زَمَنِ القَصدِ" (ص215).

ويُقَدِّمُ البروفيسور سيلَّرز التَّفريقَ الآتيَ:

> "تَختَلِفُ مَعرِفَةُ الوَقائعِ الأُخرَى عن مَعرِفَةِ العالَمِ الفيزيائيِّ. فهِيَ مَعرِفَةٌ مِن خِلالِ تَطابُقِ مَضمونٍ مُقَرَّرٍ، في حينِ أنَّ مَعرِفَةَ العالَمِ الفيزيائيِّ هيَ مَعلوماتٌ عَن مُعطَيَاتٍ. لِذا حينَ أُؤَوِّلُ تَعبيرًا على وَجهِ صَديقي بِأنَّهُ يَعني السُّرورَ أكونُ قد استَعمَلْتُ التَّعبيرَ رَمزًا لِتَجرِبَةٍ أعُدُّها تَجرِبَةً واحِدَةً لَهُ ولِي في أساسيّاتِها" (ص217).

وفي الخِتامِ يَستَنتِجُ البروفيسور سترونغ الذي يَفحَصُ طَبيعَةَ 'المُعْطَى datum'، الذي يَستَبْدِلُ بِهِ ما يُسَمِّيهِ سانتَيانا 'الجَوهَر essence'، (الذي سَبَقَ أن رَأَيْنا الواقِعِيَّةَ النَّقْدِيَّةَ تَعُدُّهُ مُعادِلاً أيضًا لِـ'المَعنَى') أنَّ المُعطَياتِ في طَبيعَتِها "لَيسَتْ وُجوداتٍ، بَل هيَ كُلِّيّاتٌ، أي هيَ الطَّبائعُ المُجَرَّدَةُ لِلأشياءِ، على نَحوٍ يُمكِنُ مَعَهُ أن يَسْتَوِيَ الجَوهَرُ المُجَسَّدُ والجَوهَرُ المُعْطَى". [168]

"فَما نُعْطَاهُ في الإدراكِ الحِسِّيِّ" نَحنُ نَعلَمُ (ص235) "أنَّهُ الإِحساسُ بِوَصفِهِ مَعنًى، أو نَقولُ، إذا ما تَوَخَّيْنا المَزيدَ مِن الدِّقَّةِ، إنَّ ما يُعْطَى هوَ المَعْنَى لا الإِحساسُ... وإنَّ هذهِ الدَّلالَةَ، أو المَعْنَى، أو الجَوهرَ، لَيسَتْ وُجودًا وليسَتْ مَحدودَةً بِزَمانٍ ومَكانٍ، ولكِنَّها، كالمَعْنَى حينَ نُفَكِّرُ في كُلِّيَّةٍ مّا، أي في كِيانٍ مَنطِقِيٍّ خالِصٍ، يُمكِنُ الوُثوقُ بِها تَمامًا". وزِيادَةً على ذلكَ، فالمُعْطَى "لَيسَ حَقيقَةً مُحَسَّةً على وَجهِ الدِّقَّةِ. فلَيسَ في وُسعِنا أن نُحِسَّ بِهِ فِعلِيًّا بِوَصفِهِ شُعُورًا،

وكلُّ ما في وُسعِنا هوَ أن نَنصَرِفَ إليهِ أو أن نَعْنِيَهُ... ولا يَنبَغي فَهمُ المَعْنَى هُنا بِوَصفِهِ نَوعًا مُمَيَّزًا مِن الشُّعورِ، بَل بِوَصفِهِ وَظيفَةً قَد تحرَّرَ الشُّعورُ مِن عِبْئها" (ص237).

ولَيسَتْ بِنا حاجَةٌ هُنا إلى أن نُحاوِلَ إقامَةَ رَبْطٍ بينَ هذهِ الاستِعمالاتِ المُختلِفةِ لِلَّفْظِ تَكونُ فيهِ الدَّعاوَى هيَ الإنجازَ الأخيرَ لِلتَّرميزِ المُنَسَّقِ. وقدَ أثارَتْ هذهِ الأُطروحَةُ، على ما كانَ مُتَوَقَّعًا، جَدَلاً واسِعًا بِتَحَدِّيها الواقِعيِّينَ الجُدُدَ، والبراغماتِيِّينَ، والمِثالِيِّينَ، لكِنَّ المَصدَرَ الحَتمِيَّ الوَحيدَ لِسُوءِ الفَهمِ والاختِلافِ، وهوَ الحُضورُ الكُلِّيُّ omnipresence لِلَفْظِ المَعْنَى، مُرِّرَ مِن غيرِ تَحَدٍّ يُذكَرُ. ويَبدو أنَّهُ قد وَجَدَ لَهُ مَوضِعًا مِن غيرِ جِدالٍ فيهِ في مُفرَداتِ الفَلسفةِ الأمريكيَّةِ، لِيُستَعمَلَ في جَميعِ مَواقِفِ الشَّكِّ[26]، على الرَّغمِ مِن أنَّهُ، لِحُسنِ الحَظِّ، ما زالَ يَبدو لِلقارِئِ البريطانِيِّ غَريبًا في مُعظَمِ سِياقاتِهِ النّموذجيَّةِ.

ومِن أجلِ ألّا يَظُنَّ قَليلُو الدِّرايَةِ أنَّ الميتافيزيقيِّينَ والواقِعيِّينَ النَّقدِيِّينَ مُمَيَّزونَ في مَنهَجِهِم يُمكِنُنا الاتِّجاهُ صَوبَ الاستِعمالِ الذي أضفاهُ عالِمُ النَّفسِ على الكلِمةِ. فَقَدْ ظَلَّتْ كِتاباتُ البروفيسور هوغو مونشتربيرغ Hugo Münsterberg[27] مُدَّةً تَزيدُ على عِشرينَ سَنَةً تُمارِسُ تأثيرًا كَبيرًا في الفِكرِ في إنجلترا وفي ألمانيا لا يَقِلُّ عَمّا هو عليهِ في أمريكا. وشَهِدَتْ ألمانيا أوَّلَ ظُهورٍ لِكِتابِهِ القِيَمُ اللانِهائيَّةُ *Eternal Values* (1909)، ثُمَّ ظَهَرَ مُطَوَّرًا ومُنَقَّحًا باللغةِ الإنجليزيَّةِ. ويُزعَمُ لِهذا الكِتابِ أنَّهُ قد كُتِبَ بِأناةٍ ومَنهَجيَّةٍ، [169] احتِجاجًا على الأُسلوبِ الانطِباعيِّ الأمريكيِّ في التَّفَلسُفِ، الذي كانَ الكَثيرُ مِنهُ "قَد أَصبَحَ

(26) مُثِّلَ لِمُعالجةِ البروفيسور سيلَّرز لَفْظَ 'المَعنَى' في كِتابَيْهِ المُستقلَّيْن: **الواقعيَّةُ النَّقديَّة** *Critical Realism* (1916)، **والطَّبيعيَّةُ التَّطوُّريَّة** *Evolutionary Naturalism* (1921) بالتَّعليقِ الآتي المأخوذِ مِن كِتابِهِ الأوَّلِ (ص282): "إنَّ المَعرفَةَ، بِوَصفِها مَعْنًى، تَكونُ سابِقَةً لِلصِّدقِ، الذي هوَ تَعميقٌ انعِكاسيٌّ لِلحِسِّ المَعرِفيِّ في ضَوءِ رَيْبٍ مُثارٍ".

(27) هوغو مُونشتربيرغ (1863-1916م). عالِمُ نفسٍ ألمانيٌّ-أمريكيٌّ. كانَ أحدَ الروّادِ في علمِ النفسِ التطبيقيِّ. من مؤلَّفاتِهِ: علمُ النفسِ والحياةُ، والحياةُ اللانِهائيَّةُ، والعِلمُ والمِثاليَّةُ، والقِيَمُ اللانِهائيَّة. [المُترجِم]

مُعادِيًا لِلخَصيصَةِ الواقِعِيَّةِ لِلفَلسَفَةِ". وهوَ يَسعَى إلى أن يُؤَكِّدَ لَنا بَدْءًا مِن مُقَدِّمَةِ كِتابِهِ أنَّ الإيمانَ الصّادِقَ أَضفَى على كِتابِهِ الهَدَفَ والمَعنَى الواقِعِيَّيْنِ. وظَهَرَتْ في صَفحَةِ الكِتابِ الأُولَى طَريقَتُهُ في تَقريرِ إمكانِ اختِلافِ الأذواقِ، ومفادُها أنَّ "الجمالِيّاتِ في مَدرَسَةٍ مّا قد تَعني القُبْحَ في أُخرَى"؛ والكَلِماتُ التي في الصَّفحَةِ الثّانيةِ، وهيَ أنَّ "الإقرارَ بِالمِثاليَّةِ لا يَعني البَتَّةَ إثباتَ صِحَّتِها"، تُشيرُ إلى أنَّ التَّأكيدَ الجازِمَ والبُرهانَ لَيسَا شَيئًا واحِدًا؛ ويُعْلِمُنا في الصَّفحَةِ الثّالثةِ أنَّ "العالَمَ يتطلَّعُ إلى تَعبيرٍ جَديدٍ عن مَعنَى الحَياةِ والواقعِ". وفي الصَّفحةِ الرّابعةِ نَقرَأُ أنَّ العُلومَ تَنظُرُ إلى الحَثِّ على نَقدِ أُسُسِها على أنَّه "يَعني تَساؤُلَها عَن القيمَةِ الواقعيَّةِ لِلحَقيقَةِ"، وأنَّ "مَعنَى الحَياةِ في خَطَرٍ" بِقَدرِ تعلُّقِ الأمرِ بِالشُّؤونِ العَمَليَّةِ، وأنَّ بِنا حاجَةً إلى "فَلسَفةٍ جَديدَةٍ يُمكِنُ أن تَهَبَ المَعنَى لِلحياةِ والواقِعِ". وفي الصَّفحةِ الخامِسَةِ نَجِدُ الآتيَ-

"مَعنَى ما لَهُ قِيمَةٌ يَجِبُ أن يُحَدِّدَ نَظرَتَنا إلى العالَمِ".

"تَحتاجُ الفَلسَفةُ إلى أن تُدرِكَ المَعنَى الأساسيَّ لأَيِّ تَقويمٍ".

"الفَيلسوفُ يُعنَى في بَحثِهِ بِتَحَرِّي ما الذي يُمكِنُ أن يَكونَهُ المَعنَى الواقعيُّ لِوَقائعَ مُعيَّنَةٍ، وما الذي تَعنيهِ حِيازَةُ مَعرِفَةٍ لِلعالَمِ مُطلَقًا".

وعُنوانُ القِسْمِ الأَوَّلِ مِن الكِتابِ هوَ 'مَعْنَى القِيَمِ'، وفي الصَّفحاتِ السِّتِّ 74-79 مِنهُ التي تَكشِفُ عن "الحقيقةِ الحاسِمَةِ" يَتَرَدَّدُ ظُهورُ لَفْظِ 'مَعنًى' بِما لا يَقِلُّ عن سِتَّ عشرَةَ مَرَّةً. والحَقيقةُ الحاسِمَةُ هيَ أنّا نُطالِبُ بِتَكَرُّرِ حُدوثِ الأَشياءِ. "نَحنُ نُطالِبُ بِأن يَكونَ ثَمَّةَ عالَمٌ؛ وهذا يَعني أن تَكونَ تَجرِبَتُنا أكثَرَ مِن مُجَرَّدِ مُرُورٍ بِالتَّجرِبَةِ. وهذا هوَ الصَّنيعُ الأَصيلُ الذي يَهَبُ لِواقِعِنا مَعنًى لانِهائيًا" (ص75). "فالعالَمُ يَغدو عالَمًا بِتَكرُّرِ حُدوثِهِ على نَحوٍ مُتَطابِقٍ، وهذا التَّطابُقُ يَعني الإنجازَ، ويَعني الرِّضا، ويَعني القِيمَةَ" (ص79).

وبِتَقَدُّمِ الصَّفَحاتِ يُمكِنُ أن يُلحَظَ أنَّ التَّطابُقَ لا يَستَبْعِدُ التَّغَيُّرَ؛ فَمِن المُسَلَّمِ بِهِ أنَّهُ مَهما يَحدُثْ مِن تَغَيُّرٍ في شَيءٍ مّا فإنَّهُ "ما زالَ عليهِ أن يُبدِيَ تَطابُقًا

في تَغَيُّراتِهِ بِإظهارِ أنَّ التَّغيُّرَ يَنتَمي إلى مَعناهُ الذّاتيّ". [170] والحَقُّ أنَّ "تَساؤُلَنا عن صِحَّةِ القِيَمِ الخالِصَةِ لا يُمكِنُ أن يَكونَ لَهُ مَعنًى آخَرُ إلّا ما يتعلَّقُ بِالعالَمِ الصّادِقِ هذا"، عالَمِ "تَجارِبِنا بِقَدرِ ما تُؤَكِّدُ ذَواتِها"، و"لا مَعنَى لإنكارِ هذا التَّساؤُلِ".

إنَّ إتمامَ الحِجاجِ بِهذهِ المادَّةِ اللغويَّةِ التَّوفيقِيَّةِ قَد يَعنِي أنَّهُ ما دامَ تَكَرُّرُ حُدوثِها التَّطابُقيُّ يُفتَرَضُ أن يَكونَ هُوَ 'مَعنَى' أيِّ شَيءٍ، وما دامَ 'مَعنَى' أيِّ شَيءٍ يُفتَرَضُ أن يَكونَ هُوَ قيمَتَهُ، فإنَّ العِبارَةَ المذكورةَ آنِفًا وهيَ أنَّ "تَكَرُّرَ الحُدوثِ التَّطابُقيِّ يَعني القيمَةَ" قَد تَظهَرُ مُساوِيَةً لِصِيغَةِ أنَّ المَعنَى يَعني المَعنَى.

وصِياغَتُها على هذا النَّحوِ قد تَجعَلُها تَخْسَرُ مِن القُوَّةِ بِقَدْرِ ما تَرْبَحُهُ مِن الوُضوحِ، ولكِنَّ صِياغَتَها على هذا النَّحوِ تُوحِي بِإمكانِ أن نَعبُرَ سَريعًا إلى الفَصلِ الأخيرِ الذي يُلَخِّصُ فيهِ عالِمُ النَّفسِ الذّائعُ الصِّيتِ نَظَريَّتَهُ الكُلِّيَّةَ في القِيمةِ، مُتَنَبِّهِينَ فقط على ما في الصَّفَحاتِ التي تتخلَّلُ ذلكَ مِن نَحوِ التَّعليقاتِ الآتيةِ:-

"إنَّ إرادَةَ نابوليون، إن أَرَدْنا أن نَفهَمَها بِمَعناها التَّاريخيّ، لا تَتَحَدَّرُ إلينا بِوَصفِها شَيئًا. إذ يُمكِنُ أن يُمسَكَ بِالحَدَثِ إمساكًا تامًّا حينَ يُفهَمُ في ضَوءِ مَعنَى مَوقِفِهِ. ولَو فُهِمَتْ إرادَةُ نابوليون فَهمًا تامًّا في ضَوءِ مَعناها ما بَقِيَ شَيءٌ تُتيحُ فَهمَهُ التَّحقيقاتُ الأخرَى" (ص144).

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعنَى التَّاريخِ.

"إنَّ العالَمَ بِمَعناهُ المُفرِطِ في الذّاتيَّةِ غايَةٌ في النَّفاسَةِ، ويَستَمِدُّ نَفاسَتَهُ هذهِ مِن حَقيقَةِ أنَّ وَهَجَ السَّعادَةِ يُنيرُ نُفوسَ البَشَرِ" (ص202).

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعنَى السَّعادَةِ.

"إنَّ الشَّيءَ الواقِعِيَّ يَجِدُ مَعناهُ في التَّوَقُّعِ الذي يُثيرُهُ".

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعنَى الواقِعِ.

"إنَّ التَّوافُقَ الدّاخليَّ لِرَغَباتِنا يَهَبُ لِحَياتِنا في الخِتامِ تَمامَ مَعناها... وإنَّ النَّغَماتِ التي تَهَبُ حَياتُنا لَها المَعنَى تُعَبِّرُ عن إرادَةٍ تُؤَكِّدُ ذاتَها" (ص253).

وهذا ما يُفَسِّرُ مَعنَى كُلٍّ مِن الحَياةِ والموسيقَى.

ثُمَّ نَصِلُ في الخِتامِ إلى رِسالةِ الفَصلِ الأخيرِ الذي يُعالِجُ القِيَمَ المُطلَقَةَ. وفي هذا الفَصلِ الذي يَستَغرِقُ أربَعًا وسِتِّينَ مِن الصَّفَحاتِ تتَرَدَّدُ كلمةُ 'مَعنًى' [171] بِما لا يَقِلُّ عن ثَمانٍ وخَمسينَ مَرَّةً. وعندَ الاقتِرابِ مِن الذِّروَةِ ("نَحنُ نَقِفُ الآنَ في مُواجَهَةِ قِيمَةٍ مُطلَقَةٍ جَديدَةٍ، المُطلَقِ الفَلسَفيِّ، المُطلَقِ الأساسيِّ الذي يَحمِلُ كُلَّ الواقِعِ في ذاتِهِ" ص39) تُطِلُّ علينا الكَلِمةُ المِفتاحُ في كلِّ جُملَةٍ تَقريبًا. وجاءَ في الصَّفحةِ 400 قَولُهُ: "ويُمكِنُنا سَلَفًا أن نتَبَنَّى وِجهَةَ نَظَرٍ واسِعَةً". فإذا ما أُشبِعَتْ رَغبَتُنا في التَّطابُقِ "فلَيسَ في وُسعِها أن يَكونَ لَها أيُّ مَعنًى مُمكِنٍ لِلسُّؤالِ عن قِيمَةِ العالَمِ".

"إنَّ تَجربَتَنا كُلَّها إنَّما تَحصلُ الآنَ على وَحدَتِها، وراحَتِها، ومَعناها النِّهائيِّ... إذ يَدخُلُ مَعنَى القِيمَةِ في عَلاقَةٍ معَ التَّجرِبَةِ العُلْيا لِلذّاتِ العُلْيا... وقَد نَفصِلُ هُنا لِلمَرَّةِ الأخيرَةِ بينَ العالَمِ الخارجيِّ، والعالَمِ المُصاحِبِ، والعالَمِ الدّاخليِّ، ثُمَّ نَنظُرُ في كَيفيَّةِ تَوسيعِ كُلِّ عالَمٍ مَعناهُ فيما يتعلَّقُ بِالواقِعِ الأعْلَى... ولا يُمكِنُ أن يَكونَ لبَحثٍ في 'مادَّةِ stuff' العالَمِ مَعنًى إلّا حينَ تُوجَدُ مَوادُّ كافيَةٌ يُمكِنُ تَمييزُها. فحينَ يَكونُ كُلُّ شَيءٍ إرادَةً على حَدٍّ سَواءٍ لَن يَكونَ بِالإمكانِ أن يَكونَ لَهُ أيُّ مَعنًى لِيَكتَشِفَ حقيقَةَ هذهِ الإرادَةِ... إنَّ الوُصولَ إلى الهَدَفِ يَعني احتِفاظَ الإرادَةِ بِمَوضوعِها في شَكلٍ جَديدٍ... إنَّ مَعنَى العالَمِ هوَ أن يُتَّجَهَ إلى قَدرٍ أكبرَ مِن الاتِّجاهِ الذي يَظَلُّ، معَ ذلكَ، مُطابِقًا لِذاتِهِ... ويَستَوي في الصَّنيعِ نَفسِهِ ما لَيسَ بَعْدُ وما لَن يَكونَ بَعْدُ. فَعَلاقَتُهُما المُتَبادَلَةُ المُؤَقَّتَةُ تَهَبُ لِلصَّنيعِ الوَحدَةَ والمَعنَى".

وبَعدَ عَشرِ صَفَحاتٍ مِن ذلكَ (ص416) يُواصِلُ قَولَهُ:-

"إنَّ النَّظَرَ إلى البَشَريَّةِ مِن خِلالِ هذا الارتِباطِ الميتافيزيقيِّ هوَ الوَسيلَةُ الوَحيدَةُ المُتاحَةُ لإدراكِ المَعنَى المُطلَقِ لِفَعّاليَّتِها التي لا تَنفَدُ... وحينَ يُصبِحُ مَعنَى العَمَلِ الاجتِماعيِّ تجاهَ القِيَمِ مُعَمَّقًا مِن النّاحيَةِ الميتافيزيقيَّةِ

يَجِبُ في الوَقتِ نَفسِهِ أن تُقَوَّى بِالضِّدِّ مِنهُ الإرادَةُ المُعاكِسَةُ التي تُدَمِّرُ القِيَمَ بِحُمقٍ. إنَّ إرادَةَ العالَمِ التي تَهَبُ لِلواقِعِ مَعناهُ هيَ مَبدَأٌ أبطَلَهُ الإنكارُ الواعي لِلقِيَمِ؛ إذ أصبَحَ كُلُّ شيءٍ فَجأَةً بِلا مَعنًى... فَكُلٌّ مِنّا عُضوٌ في المَجموعةِ البَشَرِيَّةِ، لِذلكَ يَكمُنُ المَعنَى الذي تَحمِلُهُ كلُّ ذاتٍ بِمُفرَدِها في الجُزءِ الذي تَضطَلِعُ بِهِ في تَأسيسِ القِيَمِ... سَوفَ نُشيرُ مَرَّةً أُخرَى إلى المَعنَى الأكثَرِ خُلوصًا لِنَظرتِنا إلى العالَمِ. ونَحنُ نُقدِمُ على فَهمِ كَيفَ ضُمِّنَ كلٌّ مِن العالَمِ والبَشَرِيَّةِ والذّاتِ في صَنيعِ الذّاتِ العُلْيا نَحوَ الأَبَدِيَّةِ. نَحوَ الأَبَدِيَّةِ! لَقَد وَصَلْنا إلى النُّقطةِ العُليَا التي مِنها يَكشِفُ مَعنَى الأَبَدِيَّةِ النِّقابَ عن وَجهِهِ... لذلكَ يكونُ الماضي والمُستَقبَلُ في الصَّنيعِ واحِدًا وهذا هوَ وَحدَهُ المَعنَى الأَبَدِيُّ... وكُلُّ مَرحلَةٍ جَديدَةٍ تُدرِكُ المَعنَى المُطلَقَ لِلمَراحِلِ السّابِقَةِ. لكِنَّ هذا وَحدَهُ كانَ يَعنِي لَنا أنّا نتقدَّمُ... والصَّنيعُ [172] يَعني الإنجازَ والتَّمامَ... مِن هُنا نَفهَمُ مهمَّةَ ذاتِيَّتِنا الفَردِيَّةِ ومَعناها... فلِحياتِنا مَعنًى وغَرَضٌ. فأمّا القَلَقُ بِشأنِ إمكانِ أن يَكونَ الواقِعُ الأعلَى بِلا مَعنًى فَمَنفِيٌّ... وأمّا ما هوَ بِلا مَعنًى فأن يُؤَمَّلَ مِن الحياةِ ما يَفوقُ إنجازَ الإرادَةِ العُلْيا... ولا يُمكِنُ أن تَكونَ الرَّغبَةُ في التَّمتُّعِ وَحدَها هَدَفَ حَياتِنا إذا ما أُريدَ لَها الاحتِفاظُ بِالمَعنَى والقيمَةِ مُطلَقًا... إنَّ مُجَرَّدَ القَفزِ ومُجَرَّدَ التَّحوُّلِ المُفاجِئِ مِن حالةٍ إلى أُخرَى لا يُمكِنُ أن يَكونَ لَهُ مَعنًى البَتَّةَ... وأن يُفصِحَ المَرءُ عن إرادَتِهِ الشَّخصيَّةِ إنَّما يَعني لِكُلِّ شَخصٍ أن يُعينَ على بِناءِ العالَمِ المُشتَرَكِ نَفسِهِ".

وعلى هذا المِنوالِ نَصِلُ في الصَّفحةِ التّاليَةِ (430)، وهيَ الصَّفحةُ الأخيرَةُ في الكِتابِ، إلى خاتِمَةٍ تُؤَكِّدُ أنَّ "التَّقَدُّمَ، بِمَعنَى التَّأكيدِ الذّاتِيِّ لِلإرادَةِ بِتَنمِيَةِ الإرادَةِ، يَظَلُّ لِلبَشَرِيَّةِ، أيضًا، المَعنَى المُطلَقَ لِلواجِبِ".

إنَّ دِراسةَ هذهِ المُقتَطفاتِ في الطَّبعةِ الألمانيَّةِ لِكتابِ مونشتَربيرغ مُمارَسَةٌ مُثِيرَةٌ في اللِسانيّاتِ المُقارِنَةِ، وإنَّ إسهامَ لَفظِ 'مَعنًى' في تَقوِيَةِ الاحتِجاجِ واضِحٌ فيهِ. وقد يَكونُ ثَمَّةَ مَن يَصْعُبُ عليهِ تَصديقُ أنَّ أيَّ كاتبٍ مَسؤُولٍ عن مِثلِ هذا

الاستِثمارِ اللَفظيِّ الكَبيرِ بإمكانِهِ أَن يتمتَّعَ كذلكَ بِسُمعَةٍ بِوَصفِهِ مُفَكِّرًا مِن الطِّرازِ الأَوَّلِ. على أنَّ هُناكَ مُحاوَلَةً مُعاصِرَةً طامِحَةً أُخرَى اضطَلَعَ بِها مُنَظِّرٌ أمريكيٌّ مِن أجلِ أن يُعالِجَ أُسُسَ عِلمِ النَّفسِ مُعالَجَةً دَقيقةً. وفي مُقَدِّمَةِ هذا الكِتابِ[28] نَجِدُ إحالةً على ما لِمونشتَربيرغ مِن "إنجازٍ مُتأَلِّقٍ بِشأنِ المُشكِلاتِ الكُبرَى لِلفَلسَفَةِ والعُلوم الطَّبيعِيَّةِ والعَقليَّةِ... ويُمكِنُ أن نَقولَ صادِقينَ إنَّ أمريكا خَسِرَتْ بِمَوتِهِ عالِمَ النَّفسِ التَّنظيرِيَّ الأَوَّلَ فيها". ولم تَكُن لَدَى البروفيسور مُور Moore[29] الفُرصَةُ لِيَقتَبِسَ الكثيرَ مِن الكِتابِ المُمَيَّزِ المُنتَقَى آنِفًا، لكِنَّ مُقتَطَفاتِهِ (ص 107-110) مِن كِتابَي مونشتَربيرغ: عِلْمُ النَّفسِ العامُّ والتَّطبيقيّ *Psychology General and Applied*، والعِلاجُ النَّفسِيّ *Psychotherapy*، تَعُجُّ بِذلكَ اللَفْظِ. وقَد أفسَدَ مُور، على ما كانَ مُتَوَقَّعًا، مُعالَجَتَهُ في أكثَرِ نِقاطِها حَسمًا بِسببِ مَوقِفِهِ المُنفَتِحِ مِن هذا اللَفظِ الحالِّ المُرْتَحِلِ المَقبولِ plausible nomad. [173]

وهوَ يَرَى أنَّ عَلَيْنا، مِن أجلِ أن نَفهَمَ طَبيعةَ عِلمِ النَّفسِ بِوَصفِهِ عِلمًا، أن نتَوَخَّى الدِّقَّةَ في تَمييزِ العِلمِ مِن الميتافيزيقا، و"أنَّ الكَلِمَةَ المِفتاحَ لِمُشكِلةِ الميتافيزيقا هيَ التَّأويلُ. فتأويلُ أيِّ شَيءٍ يَعني تَحديدَ مَعناهُ. وإن تَكُنِ المُسَلَّمَةُ الأَساسيَّةُ لِلعِلْمِ كُلِّهِ هيَ أنَّ كلَّ حَقيقةٍ لا بُدَّ لَها مِن سَببٍ، فالمُسَلَّمَةُ الأَساسيَّةُ لِلميتافيزيقا هيَ أنَّ كلَّ حَقيقةٍ لا بُدَّ لَها مِن مَعنًى" (ص97). ويُمكِنُ أن يُقالَ بِعِبارَةٍ أُخرَى إنَّهُ في الفَلسَفةِ، بِوَصفِها مُقابِلاً لِلعِلمِ، "لا تُعامَلُ أيَّةُ حقيقةٍ على أنَّها نتيجَةٌ لِسببٍ مَّا مُتَقدِّمٍ، بَل على أنَّها التَّعبيرُ عن مَعنًى". فالعِلمُ يَجِبُ أن يَسبِقَ الميتافيزيقا- "فَليسَ في وُسعِنا مَعرِفَةُ ما الذي تَعنيهِ الوَقائعُ ما لَم نَكُنْ قَد عَرَفْنا ما الوَقائعُ، وليسَ في وُسعِنا تَأويلُ الوَقائعِ ما لَم نَكُنْ قَد وَصَفْناها".

ويَعتَرِضُ النّاقِدُ بِقَولِهِ (ص100): "لكِنْ أَلَيْسَ صَحيحًا أنَّ أساسَ العَمَليَّةِ الذِّهنيَّةِ نَفسَهُ هوَ مَعناها؟". الإجابةُ هيَ أنَّ ذلكَ ليسَ بِصَحيحٍ. فقد قَدَّمَ تِتشِنَر

---

(28) *The Foundations of Psychology*, by Jared Sparks Moore, 1921.

(29) جَيرد سباركس مُور (1879-1951م). فيلسوفٌ أمريكيٌّ حديثٌ. أهَمُّ مؤلَّفاتِهِ: أُسُسُ عِلمِ النَّفسِ. [المُترجِم]

Titchener[30] سِتَّةَ أسبابٍ وَجيهَةً لِلسُّؤالِ الذي مفادُهُ: لِمَ تكونُ العَمليّاتُ الذِّهنيَّةُ "غيرَ ذَواتِ مَعنًى في أساسِها؟" (ص101). ويُلِحُّ النّاقِدُ (ص102) بِقولِهِ: لكِنْ أليسَتْ جَميعُ تَجارِبِنا "في طَبيعَتِها الصَّميمِيَّةِ تَعني شَيئًا مّا؟ وهَل نُجَرِّبُ مُطلَقًا إحساسًا 'غيرَ ذي مَعنًى'؟". وتأتي الإجابةُ سَريعًا بِأن ليسَ لَدَينا ما يَدعو إلى اعتِقادِ أنَّ العَقلَ كانَ "مَبدَؤُهُ أحاسيسَ لا مَعنَى لَها، ثُمَّ تَطوَّرَ إلى إدراكاتٍ حِسِّيَّةٍ لَها مَعنًى. بَل يَجِبُ أن نَفتَرِضَ، على عَكسِ ذلكَ، أنَّ العَقلَ كانَ ذا مَعنًى مُنذُ بِدايَتِهِ الأُولَى".

ولَنا وقفَةٌ هُنا عندَ السُّؤالِ الوَثيقِ الصِّلَةِ بِالموضوعِ، وهوَ: "فَما هذا المَعنَى إذَن مِن وِجهةِ النَّظَرِ السّايكولوجيَّةِ؟". وتُساقُ الإجابَةُ مِن غيرِ تَردُّدٍ وبِحُروفٍ مائلَةٍ- "المَعنَى مِن وِجهةِ النَّظَرِ السّايكولوجيَّةِ هوَ السِّياقُ". بَيانُ ذلكَ: أنَّهُ في كلِّ إدراكٍ حِسِّيٍّ، أو مَجموعَةٍ مِن الأحاسيسِ والصُّوَرِ، "تَتَشَكَّلُ الصُّوَرُ المُتَرابِطةُ ذِهنيًّا كما لَو أنَّها سِياقٌ أو 'هُدّابٌ'[31] fringe' يَربِطُ الكُلَّ مَعًا ويَهَبُ لَهُ مَعنًى مُحدَّدًا"، و"هُدّابُ المَعنَى هذا هُوَ الذي يَجعَلُ الأحاسيسَ غيرَ مُقتصِرَةٍ على كَونِها 'مُجَرَّدَ' أحاسيسَ، بَل رُموزًا لِشَيءٍ فيزيائيٍّ". لِذلكَ حينَ نَرَى بُرتقالةً فإنَّ الصُّوَرَ السِّياقيَّةَ لِلشَّمِّ والذَّوقِ [174] "هيَ التي تُمَكِّنُنا مِن 'تَعَرُّفِ' الشَّيءِ- أي أنَّها تَهَبُ مَعنًى لإحساسَي" اللونِ والإشراقِ. فَكذلِكَ (ص103) "لِكُلِّ فِكرَةٍ لُبٌّ core أو نَواةٌ nucleus مِن الصُّوَرِ، وهُدّابٌ مِن الصُّوَرِ المُتَرابِطَةِ... تَهَبُ لِلصُّوَرِ النَّواةِ nuclear images مَعنًى".

(30) إدوَرد برادفورد تِتشينَر (1867-1927م). عالِمُ نَفسٍ بريطانيٌّ. تَلمَذَ لِفُونت عِدَّةَ سنواتٍ. أكثرُ ما عُرِفَ به ما امتازَ به من إسهامٍ في علمِ النَّفسِ في وَصفِ بِنيَةِ العَقلِ. من مؤلَّفاتِهِ: الموجَزُ في عِلمِ النَّفس، وعِلمُ النَّفسِ التَّجريبيّ. [المُترجِم]

(31) الهُدّابُ في العربيَّةِ: ما يقومُ مقامَ الوَرَقِ في الشَّجَرِ الذي لا ورَقَ له. وهُدّابُ النَّخلِ: سَعفُهُ. وكذلكَ ينصَرِفُ مَعناهُ إلى القُصاصاتِ المُزَركشةِ التي تكونُ في حافةِ الثَّوبِ. وهوَ يؤدِّي الغَرَضَ الذي تؤدِّيهِ كلمةُ fringe الإنجليزيَّةُ في هذا المقامِ. [المُترجِم]

خُلاصَةُ القَولِ أنَّهُ:

"في جَميعِ هذهِ الحالاتِ يَكونُ مَعنَى الإدراكِ الحِسّيِّ أو الفِكرةِ 'مَحمولاً' بِوَساطةِ الصُّوَرِ أو الأحاسيسِ السِّياقيَّةِ، والذي يَهَبُ المَعنَى لِكُلِّ تَجرِبةٍ إنَّما هوَ السِّياقُ، ومعَ ذلكَ ليسَ دَقيقًا الذَّهابُ إلى أنَّ مَعنَى إحساسٍ مّا أو صُورَةٍ رَمزيَّةٍ مّا لا يَكونُ إلّا مِن خِلالِ صُوَرِهِ أو أحاسيسِهِ المُتَرابِطةِ لا غير؛ فَفي ذلكَ انتِهاكٌ لِحُرمةِ مَبدَإٍ أنَّ المَعانيَ لا تَقَعُ في دائرةِ اهتِمامِ عِلمِ النَّفسِ. وكُلُّ ما في الأمرِ أنَّ مَعانِيَ تَجارِبِنا تَكونُ مُمَثَّلَةً في نِطاقِ العَمَليّاتِ الذِّهنيَّةِ بِوَساطَةِ 'هُدّابِ عَمَليّاتٍ مُتَرابِطَةٍ تَتجَمَّعُ حَولَ المَجموعةِ المَركزيَّةِ لِلأحاسيسِ أو الصُّوَرِ.' فَالمَعنَى يَعني السِّياقَ مِنَ النّاحيةِ السّايكولوجيَّةِ، لكِنَّهُ مِنَ النّاحيةِ المَنطقيَّةِ والميتافيزيقيَّةِ أكثَرُ بِكَثيرٍ مِن مُجَرَّدِ كَونِهِ سِياقًا سايكولوجيًا، أو يُقالُ مِن زاوِيَةِ نَظَرٍ مُعاكِسَةٍ إنَّهُ مَهما يَكُنِ المَعنَى فعِلمُ النَّفسِ غَيرُ مَعنِيٍّ بِهِ إلّا بِقَدرِ قابليَّتِهِ لأن يَكونَ مُمَثَّلاً في شَكلِ تَصَوُّرٍ سِياقيٍّ" (ص103).

فَمِمّا يَلفِتُ النَّظَرَ مِن بينِ مُقارَباتِ مُشكِلاتِ تأويلِ العَلاماتِ الأُطروحَةُ التي تَذهَبُ إلى أنَّ المَعنَى (مِنَ النّاحيةِ السّايكولوجيَّةِ) هوَ السِّياقُ، وأنَّهُ مَحمولٌ بِوَساطَةِ السِّياقِ، وأنَّهُ أكثَرُ بِكَثيرٍ مِنَ السِّياقِ، وأنَّهُ يُعَبَّرُ عنهُ بِوَساطَةِ الوَقائعِ، وأنَّ عِلمَ النَّفسِ غَيرُ مَعنِيٍّ بِهِ- ومعَ ذلكَ هوَ مَعنِيٌّ بِهِ، بِقَدرِ قابليَّتِهِ لأن يَكونَ مُمَثَّلاً في شَكلِ تَصَوُّرٍ سِياقيٍّ[32]. [175]

(32) في رِسالةٍ نَشَرَتْها دَوْرِيَّةُ *Mind* (أبريل/نيسان 1924)، لكِنَّها لِسوءِ الحَظِّ أصابَها التَّحريفُ في أربعةِ مَواضِعَ شَطَحَ فيها القَلَمُ ('صُورَةُ نَواةٍ' بَدَلاً مِن صُوَرِ نَواةٍ، و'102' بَدَلاً مِن 103، و'193' بَدَلاً مِن 293، و'541' بَدَلاً مِن 544)، تَذَمَّرَ البروفيسور مُور، بَعدَ أن نَبَّهَ على ثَلاثَةِ أخطاءٍ طِباعيَّةٍ مِمّا ذُكِرَ آنِفًا (وقَد أُصلِحَت الآنَ)، مِن أنَّ هذا النَّصَّ "يَجعَلُ وَضعي كُلَّهُ مُضطَرِبًا بِتَسخيفِهِ ما قَدَّمْتُهُ" بِشأنِ المَعنَى. وقالَ: "خُلاصَةُ الأمرِ كُلِّهِ عِندِي هيَ أنَّ المَعنَى 'أكثَرُ بِكَثيرٍ مِنَ السِّياقِ' على الرَّغمِ مِن أنَّهُ 'مَحمولٌ' أو 'مُمَثَّلٌ' في الذِّهنِ مِن خِلالِ السِّياقِ، وأنَّهُ مِن أجلِ ذلكَ "لا يُعْنَى عِلمُ النَّفسِ بِالمَعنَى، بَل يَقصُرُ اهتِمامَهُ على تَمَثُّلاتِهِ في الذِّهنِ". ويَقولُ أيضًا: "لَم أقُلْ في مَوضِعٍ مِنَ المَواضِعِ إنَّ المَعنَى 'هوَ السِّياقُ'، أو إنَّ عِلمَ النَّفسِ 'مَعْنِيٌّ' بِالمَعنَى بِعَيْنِهِ". وخُلاصَةُ الأمرِ كُلِّهِ عِندَنا =

لكِنَّ ثَمَّةَ أُمورًا أَشَدَّ غَرابَةً لا بُدَّ مِن مُتابَعَتِها؛ إذ يُطِلُّ علينا هُنا المَعنَى الصّادِقُ- مُرتَبِطًا بِجَرسٍ مّا. "إنَّ المَعنَى الصّادِقَ لِلمُدرَكِ الحِسِّيِّ لِلجَرسِ هوَ إحالَتُهُ على الجَرسِ المَوضوعيِّ الواقِعِيِّ"، وتُمَثِّلُ هذهِ الإحالَةُ في الذِّهنِ بِوَساطةِ صُوَرٍ سِياقيَّةٍ "تُشَكِّلُ مَعنَى تلكَ الإحالَةِ 'مُحَوَّلاً إلى لُغَةِ' عِلم النَّفسِ. فالمَعنَى الصّادِقُ لِفِكرَةٍ مّا يَكمُنُ في إحالَتِها المَنطقيَّةِ على نِظامِ أفكارٍ مَوضوعيٍّ" (ص104)، وبَعدَ قليلٍ (ص111) نَقِفُ على أنَّ "جَميعَ التَّجارِبِ هيَ تَعبيراتٌ عن المَعاني الدّاخليَّةِ لِلذّاتِ".

ومِن الصَّعبِ أن يُصَدَّقَ أنَّ البروفيسور مُور كانَ سيَرتَضي استِعمالَ مِثلِ هذهِ المُفرَداتِ لَو أنَّهُ حاوَلَ البَحثَ في سايكولوجيَّةِ العَلاماتِ والرُّموزِ، ولم يَكُنْ في وُسعِ مِثلِ هذا البَحثِ إلّا أن يُبدِيَ لَهُ كَم مِن عَمَلِهِ الحاضِرِ يَرجِعُ في أصلِهِ إلى أنَّ التَّوفيقَ لَم يُحالِفْهُ في اختِيارِهِ لِلرُّموزِ، وفي مَوقِفِهِ مِنها. والحَقُّ أنَّ الجاذِبيَّةَ المُتَواصِلَةَ لِمَذهَبٍ مّا باطِنِيٍّ لِلمَعنَى تُذَكِّرُ بالوسائلِ الجَدَليَّةِ لِرجالِ الدِّينِ في القُرونِ الوُسطَى، وبِإمكانِنا أن نَستَنتِجَ مِن غيرِ مُقَدِّماتٍ أنَّ الاستِشهادَ بِهذا المَذهَبِ ذو صِلَةٍ بِالدِّينِ تَحديدًا.

> "قَد يَبحَثُ عِلمُ النَّفسِ في العَمَليّاتِ الذِّهنيَّةِ المُتَضَمَّنَةِ في التَّجرِبَةِ الدِّينيَّةِ بِحُرِّيَّةٍ كالتي يَبحَثُ بِها في العَمَليّاتِ المُتعلِّقَةِ بِتَجرِبتِنا الخاصَّةِ بِالأشياءِ الفيزيائيَّةِ، لكِنَّ أحكامَهُ في كِلتا الحالتَيْنِ لا يُمكِنُها التَّأثيرُ في مَسألةِ مَعنَى... هذهِ التَّجارِبِ. إنَّ مَسألةَ طَبيعَةِ العَمليّاتِ التي يُعانيها العَقلُ البَشريُّ في أيَّةِ مَجالاتٍ لِلفَعّاليَّةِ إنْ هيَ إلّا مَسألةُ حَقيقَةٍ، تَقتَضي وَصفًا وتَفسيرًا تَحليليَّيْنِ مِن زاوِيَةٍ سَبَبيَّةٍ: فمُشكِلةُ الصِّحَّةِ أو القيمَةِ الصِّدْقِيَّةِ لِهذهِ العَمليّاتِ إنْ هيَ إلّا مَسألَةُ مَعنًى، يَقتَضي تأويلاً" (ص122).

= هيَ أنَّ البروفيسور مُور لا يَفتَأُ يُبَدِّلُ استِعمالاتِهِ لِلمَعنَى مِن غيرِ إيضاحِ أيٍّ منها. ولم نَكُن مَعنِيِّينَ بِمُناقَشَةِ وِجهَةِ نظرِهِ بَل بِعَرضِ آليَّتِهِ اللغويَّةِ، ونَحنُ مَسرورونَ إذ نَلحَظُ أنَّ الجُمَلَ التي اقتَبَسْناها مِن رِسالتِهِ تُعَزِّزُ هذا العَرضَ.

أمّا الذينَ يَعُدُّونَ التّأويلَ عَمليَّةً سببيَّةً خالصَةً، ولا يَرونَ في تأويلِ مَعنَى أيِّ شَيءٍ إلّا تَفسيرًا لَهُ مِن زاويَةٍ سببيَّةٍ (في حينِ أنَّهُم يُمَيِّزونَ في الوَقتِ نَفسِهِ وَجْهًا مُتَميِّزًا جِدًّا [176] لِلمَعنَى يَكونُ فيهِ 'مَعنَى' قَصيدَةٍ مّا أو دِينٍ مّا العاطِفَةَ المُستَثارَةَ أو المَوقِفَ المُستَثارَ مِن خِلالِ تلكَ القَصيدَةِ أو ذلكَ الدِّينِ)، فلا بُدَّ أنَّ مَدَى ما يَستطيعُ هذا الرَّمزُ تبديلَ مَوقِعِهِ معَ تَشَكُّلاتِهِ الأُخرَى سيُقَدِّمُ لَهُم مادَّةً صالِحَةً لِلتَّأمُّلِ.

على أنَّ غَرَضَنا هُنا هوَ، بِالأحرَى، تَقديمُ أمثِلَةٍ لاستِعمالِهِ في الأدَبيّاتِ البِنائيَّةِ والجَدَلِيَّةِ الرّائجَةِ، ولَم يَبقَ إلّا أن نَجمَعَ مَعًا بِضعَةَ أمثِلَةٍ نَموذَجِيَّةٍ أُخرَى.

إذ يَقولُ البروفيسور بروْد Broad[33]: "إذا ما تَوَخَّينا الصَّرامَةَ قُلْنا إنَّ الشَّيءَ يَكونُ لَهُ مَعنًى إمّا حينَ يُمَكِّنُ تَعرُّفُهُ أو العِلمُ بِهِ أَحَدَنا مِن الاستِدلالِ على شَيءٍ آخَرَ وإمّا حينَ يَدفَعُ أحدَنا بِوَساطَةِ تَرابُطِ الأفكارِ إلى التَّفكيرِ في شَيءٍ آخَرَ"[34].

(33) تشارلي دَنبَر برَوْد (1887-1971م). أبِستِمولوجيٌّ، ومؤرِّخٌ لِلفلسفةِ، وفيلسوفٌ في العلومِ والأخلاقيّاتِ بريطانيٌّ. وكتبَ أيضًا عن الجوانبِ الفلسفيَّةِ في الأبحاثِ النفسِيَّةِ. اشتهرَ بِاستِقصائهِ الذي يتميَّزُ بالعقلِ والهدوءِ في الحِجاجِ في أعمالِهِ مِثلِ (الإدراكُ الحِسِّيُّ، والفيزياءُ، والواقِع)، و(الفِكرُ العِلمِيّ)، و(العَقلُ ومكانَتُهُ في الطبيعَة). [المُترجِم]

(34) *Perception, Physics, and Reality*, 1914, p. 97.

وعندَ مُراجَعَةِ كِتابِ مكتَغارت J. Ellis Mctaggart الذي عُنوانُهُ "طَبيعَةُ الوُجود The Nature of Existence" في دَوْرِيَّةِ *The Hibbert Journal* (1921، ص173)، يَلحَظُ الدُّكتور برَوْد أنَّ "مِمّا لا شَكَّ فيهِ أنَّ مِكتَغارت قد اقتَبَسَ مِن كِتابِ رَسِل مَبادِئُ الرِّياضيّات *Principles of Mathematics* المَذهَبَ الذي يَرَى أنَّ النُّكوصَ اللانِهائيَّ لا يَكونُ باطِلاً إلّا حينَ يتعلَّقُ بِـ'مَعْنَى' مَفهُومٍ مّا". ويَرَى رَسِل (*Mind*, 1920, p. 401) أنَّ "المَعنَى خاصِّيَّةٌ قابِلَةٌ لأن تُلْحَظَ لِكِياناتٍ قابِلَةٍ لأن تُلْحَظ". ويَذهَبُ البروفيسور جون ليرد John Laird إلى أبعدَ مِن ذلكَ؛ إذ يَرَى أنَّ "المَعنَى قابِلٌ لأن يُدرَكَ مُباشَرَةً شَأنُهُ في ذلكَ شَأنُ الصَّوتِ واللَّونِ تَمامًا ... فَالأصواتُ الامتِداديَّةُ continuants [وهيَ الأصواتُ غيرُ الانفِجاريَّةِ، أي التي يُمكِنُ أن تُطالَ مُدَّةُ نُطقِها مِن غيرِ أن يتوقَّفَ معها تيّارُ النفَسِ، كأصواتِ الإنجليزيَّةِ f, s, n, r, l. وتُقابِلُها الأصواتُ الانفِجاريَّةُ stop. المُترجِم] إنَّما تُنقَلُ لَنا مِن خِلالِ المَعنَى الأساسيِّ لِما نُدرِكُهُ على نَحوٍ مُتَقَطِّعٍ ... إنَّ =

لكِنَّ هذهِ الأُطروحَةَ 'الصّارِمَةَ' جِدًّا لم تَقَعْ مِن نُفوسِ فَلاسِفَةِ الكُتّابِ مَوقِعًا حَسَنًا على الدَّوامِ. يُوضِحُ ذلكَ البروفيسور نيتِلشِب Nettleship[35] بِقَولِهِ[36]: "يُمكِنُنا، تَوَخِّيًا لِلتَّيسيرِ، أن نُمسِكَ، ذِهْنِيًّا، بِجُزءٍ مُعَيَّنٍ مِن الحَقيقَةِ على حِدَةٍ، ولْيَكُن، على سبيلِ المِثالِ، الحَدَّ الأدنَى مِن المَعنَى الذي يُسَوِّغُ استِعمالَنا كَلمةَ المُثَلَّثِيَّة triangularity" - في حينِ أنَّ في وُسعِ اللورد هالدَيْن Haldane[37] أن يَكتُبَ قائلاً[38]: "إنَّ المُدرِكَ هوَ شَيءٌ في عالَمِهِ، لكِن ما زالَ كُلُّ ما يَخُصُّهُ هوَ اشتِمالَ العالَمِ عليهِ، أمّا ما يَخُصُّ مَعنَى العالَمِ فهو أنَّهُ يتضَمَّنُ حُضورَ الذِّهنِ". وفي الآتي بَعضٌ مِن الآراءِ التي قَدَّمَها مُفَكِّرٌ عَظيمُ التَّأثيرِ هوَ البروفيسور رويس[39] Royce[40]: -

> "اللَّحْنُ المُغَنَّى، وفِكرَةُ الفَنّانِ، والتَّفكيرُ في أصدِقائكَ الغائبِينَ، كُلُّ أولئكَ لا يَقتَصِرُ الأمرُ فيها على أنَّ لَها مَعنَاها الدّاخِليَّ الواضِحَ بِوَصفِهِ مُلَبِّيًا لِغَرَضٍ واعٍ بِحُضورِها الفِعليِّ، بَل إنَّها كذلكَ تَبدو، في الأقَلِّ، أنَّ لَها ذلكَ النَّوعَ الآخَرَ مِن المَعنَى، [177] وهوَ الإحالةُ مِن وَرائها على

= المَعنَى المُدرَكَ مُباشَرَةً في حَشْوِ المَكانِ والزَّمانِ يَحوي بُذورَ السَّبَبِيَّةِ في داخِلِهِ" (*A Study of Realism*, pp. 27, 29, 98).

(35) رِتشارد لويس نيتِلشِب (1846-1892م). فيلسوفٌ إنجليزيٌّ. تخرَّجَ في كلِّيَّتَيْ أبِنغهام وباليول في جامعةِ أوكسفورد. خلَّفَ كتابًا لم يُتِمَّهُ عن أفلاطون، ونُشِرَ جزءٌ منه بعدَ موتِهِ معَ مُحاضراتِهِ في المنطقِ وبعضِ المقالاتِ. كانَ تفكيرُهُ مِثاليًّا يُجسِّدُ عناصرَ الهيغليَّةِ، ولكنَّهُ كانَ متأثِّرًا أيضًا على نحوٍ ملحوظٍ بِالمقولاتِ الكانتِيَّةِ. [المُترجِم]

(36) R. L. Nettleship, *Philosophical Remains*, I. p. 220.

(37) رِتشارد بوردن هالدَيْن (1856-1928م). مُحامٍ، وفيلسوفٌ بريطانيٌّ مُؤثِّرٌ. من أهمِّ أعمالِهِ: إسهامُهُ في ترجمةِ كتابِ شوبِنهاوَر (العالَمُ إرادةً وفِكرةً). وأهمُّ مؤلَّفاتِهِ الفلسفيَّةِ (عَهدُ النِّسبيَّة) الذي تناوَلَ القضايا الفلسفيَّةَ للنظريَّةِ النِّسبيَّةِ. [المُترجِم]

(38) *The Reign of Relativity*, 1921, p. 181.

(39) جوزايا رويس (1855-1916م). فيلسوفٌ مِثاليٌّ مَوضوعيٌّ أمريكيٌّ. من أهَمِّ مؤلَّفاتِهِ: الجانبُ الدِّينيُّ لِلفلسفة، ورُوحُ الفلسفةِ المعاصِرة، والعالَمُ والفَرد. [المُترجِم]

(40) *The World and the Individual*, pp. 36, 176.

الأشياءِ... وأنا أقولُ إنَّ هذا المَعنَى الخارجيَّ يَبدو شَديدَ الاختِلافِ عن المَعنَى الدّاخليِّ، ومُتَعاليًا عليهِ تَمامًا".

"إنَّ المَعنَى الدّاخليَّ لِفِكرةٍ مّا بِشَكلِهِ غيرِ الكامِلِ لكِنِ الواعي، أي الغَرَضَ المُنجَزَ نِسبيًّا، هوَ وَحدَهُ ولا شَيءَ غيرهُ ما يَكونُ عليهِ المَعنَى الخارجيُّ ظاهريًّا حينَ يُستَوعَبُ استيعابًا حقيقيًّا، أي التَّعبيرُ الكُلِّيُّ عن الإرادَةِ الفِعليَّةِ المُضَمَّنَةِ على نَحوٍ مُتَشَظٍّ في سِيرَةِ الفِكرَةِ الواعيَةِ الخاطِفَةِ... فأنْ تَكونَ لا يَعنِي سِوَى التَّعبيرِ عن تَضمينِ المَعنَى الدّاخليِّ الكامِلِ لِنِظامٍ مُطلَقٍ مِن الأفكارِ، وهوَ نِظامٌ، زِيادَةً على ذلكَ، مُتَضَمَّنٌ حَقًّا في المَعنَى الدّاخليِّ الصّادِقِ لِكُلِّ فِكرَةٍ مُتَناهِيَةٍ، مَهما يَكُنْ تَشَظِّيها.

فَالصُّوفيَّةُ لا يَعرِفُونَ إلّا المَعانِيَ الدّاخليَّةَ، تَمامًا كَما لا يُعْنَى الواقِعِيُّونَ إلّا بِالمَعاني الخارجيَّةِ".

وصَرَّحَ الدُّكتور كينز Keynes "بِأنَّ لَدَينا اطِّلاعًا مُباشِرًا على الأفكارِ أو المَعاني التي نَمتَلِكُ تَصوُّراتٍ لَها والتي يُمكِنُ القَولُ إنّا نَفهَمُها"، ثُمَّ "إنّا قادِرونَ على العُبورِ مِن الاطِّلاعِ المُباشِرِ على الأشياءِ إلى مَعرِفَةِ القَضايا المُتَعلِّقَةِ بِالأشياءِ التي نُحِسُّ بِها أو نَفهَمُ مَعناها"[41]. إنَّ الحاجَةَ الماسَّةَ إلى مُصطَلَحٍ ناجِعٍ تُساوي الحاجةَ الماسَّةَ إلى دَواءٍ طارِدٍ لِلغازاتِ في جَدَلٍ كَنَسِيٍّ[42]، وإلى الدَّليلِ الذي يُرجَعُ إليهِ في النَّقدِ الموسيقيِّ[43]، وإلى الإشارَةِ إلى النُّقطةِ المُحَدَّدَةِ حيثُ

(41) J. M. Keynes, *A Treatise on Probability*, Part I., Fundamental Ideas, pp. 12, 13.

(42) "إنَّ هذا المَجلِسَ لَيُدرِكُ حَجمَ ما يَعودُ عليهِ مِن النَّفعِ بِالبَحثِ في مَعنَى الإيمانِ وتَعبيرِهِ". - The Upper House of Convocation, May 2nd, 1922.

(43) "لقد أصبَحَ بَرنامَجُ الآنسةِ A في الليلةِ الماضيَةِ مُثيرًا بِسَبَبِ ما ظَهَرَتْ عليهِ مِن صِحَّةٍ وافِرَةٍ ونَضارَةٍ، نُقِلَ تَأثيرُهُما إلينا بِآلِيَّةٍ رائعَةٍ. وقَد تَكشِفُ لَها سوناتَةُ بيتهوفِن Beethoven's Sonata in A, Op. 101 عَن مَعنًى أعمَقَ عندَ تَمامِ نُضجِها، غيرَ أنَّ قِراءتَها الحاليَّةَ كانَتْ صادِقَةً على نَحوٍ بَليغٍ". - *The Morning Post*, June 24th, 1922.

يَختَلِفُ الأَطِبّاءُ[44]، وإلى زَيتِ التَّشحيمِ لِعَجَلَةِ مِغزَلِ شَخصٍ مُؤمِنٍ بِالنِّسبيَّةِ المُطْلَقَةِ[45]. ويتَساءَلُ التَّربَويُّ قائلاً: "إن لم يَكُنْ بالإمكانِ مُطابَقَةُ التَّربِيَةِ [178] ومُجَرَّدِ التَّعليمِ فَما هُيَ إذَن؟ وما الذي يَعنيهِ هذا اللَّفظُ؟". "إجابَتي هيَ أنَّها لا بُدَّ أن تَعنِيَ ضَبْطًا تَدريجيًّا لِحِيازَةِ الجِنسِ البَشَريِّ الرُّوحِيَّةِ"[46]. لذا ما المَعنَى إلّا ذلكَ النَّوعُ مِن الكَلِمَةِ الذي يُمكِنُ أن نَسبِرَ بِهِ الأغوارَ الغامِضَةَ لِنُفوسِ الأسماكِ. "فَلْنُوَجِّهِ اهتِمامَنا إلى الحالةِ الذِّهنيَّةِ لِلسَّمَكِ الذَّهَبيِّ... فَجأةً يَظهَرُ في الوَعْيِ عُنصُرٌ جَديدٌ- النَّظيرُ الواعي لِمُثيراتِ العَيْنِ التي يُسَبِّبُها سُقوطُ الخُبْزِ في الماءِ... فالطَّعامُ يُمَثِّلُ لِلسَّمَكِ شَيئًا في مَكانٍ وزَمانٍ ولَهُ مَعنًى، لكِنْ حينَ يُؤكَلُ الطَّعامُ يَختَفي المُدرَكُ الحِسِّيُّ والمَعْنَى كِلاهُما... ويُمَثِّلُ هذا مِثالاً لارتِباطِ المُدرَكِ الحِسِّيِّ والمَعْنَى"[47].

فإذا ما انتَقَلْنا الآنَ إلى عِلمِ النَّفسِ الرَّسميِّ فسَنَجِدُ أَنَّ ثَمَّةَ سِتَّ مَقُولاتٍ مُتَخصِّصَةً مُتَداوَلَةً تَستَدعي المُوازَنَةَ:-

"إنَّ مَوضوعَ الإدراكِ البَسيطِ هوَ كُلُّ ما يَعنِيهِ العَقلُ أو يَقصِدُ الإحالَةَ عليهِ".

---

(44) "لقد بَلَغَتْ قِلَّةُ العِلمِ بِأهمِّيَّةِ الأعراضِ مَبلَغَ عَدَمِ إمكانِ العُثورِ على وَصفٍ لِمَعنى هذهِ الأعراضِ، وآليَّتِها، ودَلالَتِها، ويُمَثِّلُ هذا خَلَلاً كَبيرًا في المَعرِفَةِ الطِّبِّيَّةِ"- Sir James Mackenzie, *op. cit.*, p. 2.

(45) "إنَّ الكُلِّيَّةَ المَلموسَةَ تَعني أنَّ الواقِعَ، بِكُلِّ ما تَحمِلُهُ هذهِ الكلِمَةُ مِن مَعنًى، لَهُ طَبيعَةُ المَفهومِ ... فَالكُلِّيَّةُ تَعني حُضورَ الكُلِّ في كُلِّ جُزءٍ ... فإن لَم يَكُنْ ثَمَّةَ ما هوَ مُطلَقٌ في عالَمِنا المَوضوعيِّ فإنَّ هذا يَعني أنَّ المُطلَقَ مَوجودٌ في دَواخِلِنا. على أنَّهُ ليسَ في دَواخِلِنا على وَفقِ أيِّ مَنحًى مُجَرَّدٍ، أيِّ مَنحًى يَعزِلُ ذاتَ التَّجرِبَةِ عن مَوضوعِها ... وثَمَّةَ أيضًا تَناغُمٌ بينَ الجَواهِرِ الرُّوحِيَّةِ monads مُؤَسَّسٌ سَلَفًا، وذلكَ بِإضفاءِ المَعنَى القَديمِ على هذا المُصطَلَحِ الجَديدِ"- H. Wildon Carr, *A Theory of Monads* (1922), pp. 299-300, 318.

(46) Nicholas Murray Butler, *What is Education*? (1906), p. 17.

(47) W. E. Urwick, *The Child's Mind* (1907), p. 68.

"إنَّ رُؤْيَةَ كَلِمةِ سُكَّر تَعني حَلاوَتَهُ".

"إنَّ الكَلِمَةَ العامَّةَ الوَحيدَةَ التي تُلائمُ مُطلَقًا التَّعبيرَ عن هذا النَّوعِ مِن الوَعيِ هيَ كَلِمةُ مَعْنًى".(48)

"كُلُّ ما هوَ مَقصودٌ لا يَظهَرُ البَتَّةَ في الحالةِ الذِّهنيَّةِ. فالمَضمونُ الذِّهنيُّ لا يَعني سِوَى ما نُفَكِّرُ فيهِ؛ فهوَ لا يُعيدُ تَوليدَهُ ولا يُنشِئُهُ".(49)

"لِلإدراكاتِ الحِسِّيَّةِ مَعانٍ. وليسَ ثَمَّةَ حِسٌّ لَهُ مَعْنًى؛ فالحِسُّ إنَّما يَحدُثُ بِطَرائقَ وَصْفِيَّةٍ مُختلِفَةٍ: مِن حيثُ الشِّدَّةُ، أو الوُضوحُ، أو المَكانُ، وهَلُمَّ جَرًّا. أمّا الإدراكاتُ الحِسِّيَّةُ فكُلُّها لَهُ مَعْنًى؛ نَعَمْ إنَّها تَحدُثُ، أيضًا، بِطَرائقَ وَصْفِيَّةٍ مُختلِفَةٍ، لكِنَّها تَحدُثُ على نَحوٍ تَكونُ بِهِ ذاتَ مَعْنًى".
"فكَوْنُ الفِكرَةِ تَعني فِكرَةً أُخرَى هوَ مَعنَى تلكَ الفِكرَةِ الأُخرَى مِن النّاحيةِ السّايكولوجيَّةِ، إن كانَ هوَ سِياقَ تلكَ الفِكرَةِ".(50)

"إنَّ المَعنَى التَّأثيريَّ-الإراديَّ لِشَيءٍ مّا، أو القِيمَةَ، لا يُصبِحُ بَيِّنًا إلّا في المُستَوَى المَعرِفِيِّ. وإنَّ تَفعيلَ المَيْلِ النُّزوعِيِّ، إمّا بالشُّعورِ وإمّا بالرَّغبةِ، [179] مِن خِلالِ هذهِ الأفعالِ المَعرِفيَّةِ هوَ ما يَمنَحُ الشُّعورَ أو الرَّغبةَ ذلكَ المَعنَى المُعَبَّرَ عنهُ بِالقِيمَةِ... إذ ما المَعاني المُمكِنَةُ لِلواقِعِ مُستَخدَمًا في التَّقويمِ التَّأمُّلِيِّ، أو ما اللَّمحَةُ المَنطقيَّةُ المُشتَرَكةُ في كلِّ هذهِ المَعاني؟".(51)

"قَد يَكونُ المَعنَى عِبارَةً عن شَيءٍ مّا مَعْنِيٍّ، وقد يَكونُ- المَعْنَى لا غَير... فإن لَم يَكُنِ المَعنَى، في تَأويلي، إلّا جُزءًا مِن عَمليَّةٍ بِعَينِها فَلِمَ يَلجُّ في التَّفَلُّتِ مِن بَحثِنا الدّائبِ عنهُ وَسطَ المُفرَزاتِ المَرصوصَةِ أو المُرَكَّبَةِ

---

(48) Stout, *Manual of Psychology*, pp. 104, 180, 183.

(49) Pillsbury, *Fundamentals of Psychology*, p. 269.

(50) Titchener, *A Text-book of Psychology*, p. 367; and *Experimental Psychology of the Thought-Processes*, p. 175.

(51) Urban, *Valuation*, pp. 95, 387.

لِلعمليَّةِ الذِّهنيَّةِ؟"[52].

"إنَّ المَعنَى هوَ الجُزءُ الأَساسيُّ مِن فِكرَةٍ أو وَعيٍ لِشَيءٍ مّا... وليسَ لِلمَعْنَى مُلازِمٌ سايكولوجِيٌّ جاهِزٌ في الذِّهنِ يُمكِنُ أن يَكونَ بَديلاً لَهُ ويُؤَدِّيَ عنهُ وَظائفَهُ"[53].

مِن جِهَةٍ أُخرَى، يُمكِنُ النَّظَرُ في الفِقرَةِ الآتيةِ مِن كَلامِ الرّاحِلِ البروفيسور بُتنام[54] J. J. Putnam[55]، الذي كانَ مُنتَسِبًا إلى جامِعَةِ هارفَرد، بِوَصفِها عَيِّنَةً لِلُغَةِ المُحَلِّلِينَ النَّفْسِيِّينَ: -

"إنَّ السَّيرَ في الرِّيفِ بِلا مِعطَفٍ شَخصيٍّ يَبدو أمرًا غيرَ ذي شَأنٍ، وهوَ كذلكَ حَقًّا، لكِنَّ حُدُوثَ نَقصٍ في المَلابِسِ مُشابِهٍ لِهذا في الحُلمِ قد يَكونُ حَدَثًا ذا مَعنًى أوسَعَ بِكثيرٍ... يتَّضِحُ مِمّا سَبَقَ أنَّ لَفْظَ 'جِنسِيّ' بِتَعريفِهِ بِمُفرَداتِ التَّحليلِ النَّفسيِّ أوسَعُ مَعنًى بِكثيرٍ مِن التَّصوُّرِ المُعتادِ لَهُ... والنُّقطةُ اللاحقةُ تُحيلُ على مَفهوم 'التَّسامِي sublimation'. هذهِ الحَصيلَةُ مِن الارتِقاءِ الفَردِيِّ، كما يُعَرِّفُها فرويد Freud[56]، تَحمِلُ

(52) Lloyd Morgan, *Instinct and Experience*, pp. 277, 278.

(53) W. Mcdougall, *Body and Mind*, pp. 304, 311.

(54) جَيْمس جاكسن بُتنام (1846-1918م). طبيبُ أعصابٍ أمريكيٌّ. أكثرُ ما عُرِفَ به دفاعُهُ الشُّجاعُ غيرُ الاعتياديِّ عن التحليلِ النفْسِيِّ الفرويديِّ بين سنتَيْ 1905 و1918 حينَ كانَتْ أفكارُ فرويد غيرَ منتشرةٍ في أمريكا وسيِّئةَ السمعةِ ومكروهةً. من مؤلَّفاتِهِ: انطباعاتٌ شَخصيَّةٌ عن فرويد، وفي بعضٍ مِن أوْسَعِ قَضايا حركةِ التحليلِ النفسيِّ، والدوافِعُ الإنسانيَّة. [المُترجِم]

(55) *Addresses on Psycho-analysis*, 1921, pp. 146, 151, 306.

(56) سيغموند فرويد (1856-1939م). طبيبٌ نمساويٌّ من أصلٍ يَهوديٍّ، اختصَّ بِدراسةِ الطبِّ العصبيِّ، ويُعَدُّ مؤسِّسَ علمِ التحليلِ النفسيِّ. اشتهرَ بنظريَّةِ العقلِ اللاواعي، وآليَّةِ الدفاعِ عن القَمعِ، وخلقِ الممارسةِ السريريَّةِ في التحليلِ النفسيِّ لِعلاجِ الأمراضِ النفسيَّةِ بالحوارِ بينَ المريضِ والمحلِّلِ النفسيِّ. ومع التقدُّمِ في مجالِ علمِ النفْسِ ظهرَتْ عدَّةُ عيوبٍ في الكثيرِ من نظريّاتِهِ. لكنْ تظلُّ أساليبُهُ وأفكارُهُ مهمَّةً، وما زالتْ مؤثِّرةً في عددٍ =

مَعنًى اجتِماعيًّا صارِمًا[57]...

إنَّ النِّهايةَ المَنطقيَّةَ لِلمُعالَجَةِ بِالتَّحليلِ النَّفسيِّ تَكونُ بِاستِردادِ الإحساسِ الكامِلِ بِصِلاتِ حياةِ الشَّخصِ ومَعانيها.

إنَّ إحساسَ المَرْءِ بِالفَخرِ بِأُسرَتِهِ قد يَكونُ أَحَدَ أعراضِ إطراءِ الذّاتِ النَّرجِسِيِّ narcistic self-adulation، لكِنَّ هذهِ الحالةَ، شَأنُها شَأنُ جَميعِ العَلاماتِ والرُّموزِ الأُخرَى، مِن الحالاتِ التي يَلتَقي فيها مَعنَيانِ مُتَعارِضانِ...".

ولِلبراغماتيِّينَ مُحاوَلَةٌ جَريئةٌ بِاتِّجاهِ تَبسيطِ هذهِ القضيَّةِ. فقد كَتَبَ البروفيسور مِلَر[58] Miller[59] يَقولُ: "إنَّ ما يُوحَى بِهِ هوَ المَعْنَى"، ولا يَقِلُّ ما قَدَّمَهُ

= من العلومِ الإنسانيَّةِ والاجتماعيَّةِ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: تفسيرُ الأحلام، وقلَقٌ في الحضارة، وموسَى والتوحيد، وخَمسُ محاضراتٍ في التحليلِ النفسِيِّ. [المُترجِم]

(57) قَدَّمَ فرويد مَفهومَ التَّسامِي في عِلمِ النَّفسِ، ويَقصِدُ بِهِ التَّنفيسَ عن رغبةٍ في ما لا يَقبَلُهُ المجتمَعُ أو ما لا يَقدِرُ الفَردُ على فِعلِهِ لأيِّ سببٍ، مِن خِلالِ سلوكٍ آخَرَ مَقبولٍ اجتماعيًّا، كأن يَعمَلَ الراغبُ في العُنفِ جَزّارًا، أو أن يُنَفِّسَ المكبوتُ جِنسيًّا عن شهوتِهِ بِالفَنِّ أو الرِّياضةِ أو حتّى التَّعَلُّم. وقد حلَّلَ فرويد نتاجاتِ عَيِّنَةٍ من الشَّخصيّاتِ المُبدِعَةِ في الفَنِّ والأدَبِ كَدافِنشي، وفان غوخ، ودستويفسكي، وغيرِهِم، فوجدَ أنَّ إبداعَها لم يَكُنْ بِفِعلِ عاملِ الفِطرةِ، بل الفنّانُ عندَهُ إنسانٌ يُعاني العُصابَ Neuroses الذي هو اضطرابٌ عصبيٌّ وظيفيٌّ. وقد رَدَّ العُصابَ إلى اضطرابٍ في الوظيفةِ الجنسيَّةِ التي يُسَمِّيها الطاقةَ الجنسيَّةَ أو الليبيدو Libido. فالعُصابُ هو الذي يَقِفُ وراءَ إبداعِ الفنّانِ؛ إذ إنَّ رغبَتَهُ في التَّخلُّصِ منه جعلَتْهُ يتَّجهُ لاشُعوريًّا باتِّجاهِ ما أطلَقَ عليهِ فرويد مُصطَلَحَ التَّسامِي Sublimation الذي يَعني النَّزوَةَ بِمِقدارِ تحوُّلِها إلى هدفٍ جديدٍ غيرِ جِنسيٍّ؛ إذ تَنصَبُّ على موضوعاتٍ ذاتِ قيمةٍ اجتِماعيَّةٍ. [المُترجِم]

(58) إرفِنغ إيلغَر مِلَر (1869-1962م). عالِمُ نَفسٍ أمريكيٌّ. من مؤلَّفاتِهِ: سايكولوجيَّةُ التَّفكير، ودَلالةُ العُنصرِ الرِّياضيِّ في فلسفةِ أفلاطون، والتَّربيةُ واحتياجاتُ الحياة. [المُترجِم]

(59) I. Miller, *The Psychology of Thinking*, 1909, p. 154.

البروفيسور باودِن[60] Bawden[61] عن هذهِ الأُطروحَةِ بَساطَةً، إذ يَقولُ: "إنَّ الشُّعورَ هوَ التَّقويمُ الغامِضُ لِقيمَةِ وَضعٍ مّا، في حينِ أنَّ المَعرِفَةَ إدراكٌ حِسِّيٌّ واضِحٌ ومُمَيِّزٌ لِمَعناهُ". غيرَ أنَّ المُشكِلَةَ تَبدَأُ معَ المُحاوَلاتِ الأُولَى لتَفصيلِ الكَلامِ في ذلكَ. [180] إذ يَقولُ البروفيسور ديوي Dewey[62]: "إنَّ التَّجرِبَةَ المَعرِفيَّةَ هيَ التي تَكونُ واعِيَةً وَعيًا تَزامُنيًّا لِمَعنَى شَيءٍ مّا خارِجَ ذاتِها. غيرَ أنَّ المَعنَى والشَّيءَ المَعْنِيَّ كِلاهُما عُنصُرٌ في الحالَةِ نَفسِها... ويَكونُ أَحدُهُما حاضِرًا بِوَصفِهِ غيرَ حاضِرٍ بِالطَّريقَةِ نَفسِها التي يَكونُ الآخَرُ حاضِرًا بِها... ويُمكِنُنا القَولُ إنَّ رائحةَ وَردَةٍ مّا تَكونُ حالةً ذِهنيَّةً حينَ يَكتَنِفُها مَعنًى أو قَصدٌ واعٍ".

إنَّ مُؤَرِّخِي الفَلسفةِ[63] والطُّفولَةِ[64]، والمُصلِحِينَ الاجتِماعيِّينَ[65]

---

(60) هنري هيث باودِن (1871-1950م). فيلسوفٌ أمريكيٌّ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: مَبادِئُ البراغماتيَّة، ومُخَطَّطٌ لِعلمِ النَّفس. [المُترجِم]

(61) H. Heath Bawden, *The Principles of Pragmatism*, p. 151.

(62) J. Dewey, *The Influence of Darwin upon Philosophy*, 1910, pp. 88, 104.

(63) "يُمكِنُ القَولُ عُمومًا إنَّ الأفكارَ رُموزٌ تُعَبِّرُ عن لَحظَةٍ فِعليَّةٍ أو مَظهَرٍ فِعليٍّ لِتَجرِبَةٍ مّا، وتَقودُ إلى المَزيدِ مِنَ التَّفعيلِ لِما يَكونُ، أو يَبدو، مُتَضَمَّنًا في وُجودِها أو مَعناها ... وعَدَمُ وُجودِ فِكرَةٍ وافِيَةٍ تَمامًا يَعني أنَّ إيحائيَّةَ التَّجرِبَةِ لا تَنفَدُ". Forsyth, *English Philosophy*, 1910, pp. 180, 183

(64) "يَعودُ جُزءٌ مِن تَعلُّمِ الأطفالِ نُطقَ الكَلِماتِ إلى اتِّخاذِ أصواتٍ مِن عندِ أنفُسِهِم وإعطائها مَعنًى، وجُزءٌ مِنهُ إلى مُحاكاةٍ خالصةٍ ... وكَونُ الطِّفلِ يَختَرِعُ كُلًّا مِنَ الأصواتِ والمَعنَى أمرٌ لا يُمكِنُ القَطعُ بِهِ ... لكِن لا شَكَّ في أنَّهُ يُغَيِّرُ مَعنَى الكَلِماتِ". E. L. Cabot, *Seven Ages of Childhood*, 1921, pp. 22, 23, 24

(65) "مَعنَى الزَّواجِ! ما أسهَلَهُ حَقًّا عليَّ وعليكَ أن نَجزِمَ بِمَعناهُ المُحدَّدِ، ولَكِم استُنْفِدَ، معَ ذلكَ، مِن جُهودٍ يائسَةٍ ومُخَيِّبَةٍ مِن أجلِ اكتِشافِهِ ... ولوَ أنَّ الأطفالَ أحاطُوا بِها عِلمًا لَفَقَدوا المَعنَى الأساسيَّ لِلزَّواجِ الإنسانيِّ. إنَّ مَعرِفَةَ الحَياةِ خارِجَ نِطاقِ الإنسانيَّةِ لا تَزيدُنا بَصيرَةً بِشأنِ ما يَعنيهِ الزَّواجُ لِلرِّجالِ والنِّساءِ ... ومِنَ الواضِحِ أنّا إذا رَغِبْنا في مَعرِفَةِ مَعنَى الزَّواجِ تَعيَّنَ علينا التَّفتيشُ في المَنازِلِ التي تَكونُ فيها الظُّروفُ إيجابيَّةً ... ويُمكِنُنا أن نُقَدِّمَ، بِسَماحَةِ نَفسٍ، التَّقديرَ المُستَحَقَّ لِلقِطَّةِ الأُمِّ. فالأُمومَةُ، في الأصلِ، تَعني الكَثيرَ في عالَمِ الحَيَوانِ!". G. Spiller, *The Meaning of Marriage*, 1914, pp. 1-3.

والنَّحْوِيِّينَ[66]- لِكُلِّ شَريحَةٍ مِنهُم استِعمالاتُها الخاصَّةُ لِلكَلِمَةِ، التي هيَ استِعمالاتٌ واضِحةٌ لكِنَّها غيرُ مُعَرَّفَةٍ. وحَتَّى أكثَرُ المُفَكِّرينَ وُضوحًا يُحجِمونَ عن المَزيدِ مِن التَّحليلِ. ويُؤَدِّي 'المَعنَى' دَوْرًا جَلِيًّا في جَميعِ كِتاباتِ البروفيسور مُور، ويُمكِنُنا أن نَقرَأَ في كِتابِهِ مَبادِئُ عِلمِ الأخلاقِ *Principia Ethica* قَولَهُ:-

"قَد يَكونُ لِسُؤالِنا: 'ما الحَسَنُ؟' مَعنًى آخَرُ. وقَد نَكونُ، في مَقامٍ ثالثٍ، غيرَ قاصِدِينَ أن نَسأَلَ ما الشَّيءُ الحَسَنُ أو الأشياءُ الحَسَنَةُ، بَل أن نَسأَلَ كَيفَ يُعَرَّفُ 'الحَسَنُ...' وكَوْنُ المَقصودِ بِـ'حَسَن' هوَ، في الحَقيقَةِ، ما عَدَا نَقيضَهُ [181] 'سَيِّئ'، هوَ المَوضوعُ الفِكرِيُّ البَسيطُ الوَحيدُ المُمَيِّزُ لِعِلمِ الأخلاقِ.

ولا مَعنَى البَتَّةَ لِقولِنا إنَّ البُرتُقالَ كانَ أصفَرَ، إلّا إذا كانَ الأصفَرُ، في نِهايةِ الأمرِ، يَعني 'الأصفَرَ' فَحَسْبُ... ولَن نَبلُغَ بِعِلمِنا مَبلَغًا بَعيدًا جِدًّا إذا كُنّا مُصِرِّينَ على التَّمَسُّكِ بِأنَّ كُلَّ ما كانَ أصفَرَ يَعني بِالضَّبطِ ما يَعنيهِ الأصفَرُ.

على أنَّهُ في العُمومِ قَد حاوَلَ فَلاسِفَةُ الأخلاقِ تَعريفَ الحَسَنِ مِن غيرِ أن يُدرِكوا ما لا بُدَّ أن تَعنِيَهُ هذهِ المُحاوَلَةُ"[67].

---

(66) إذا ما أَرَدْنا أن يَكونَ حَديثُنا صارِمًا قُلْنا إنَّ الصُّورةَ كَثيرًا مّا يَكونُ لَها معَ المَعنَى دَوْرَانِ؛ فهِيَ جُزْءُ المَعنَى ورَمزٌ لِما بَقِيَ مِنهُ. فَبِوَصفِها جُزءًا تُمَثِّلُ واحِدًا مِن تَفصيلاتِ المَعنَى. وإنَّ واحِدًا مِن أجزاءِ مَعنَى كَلِمَةٍ مّا هوَ إحالَتُها الثّابِتَةُ على مُعادِلٍ مَوضوعِيٍّ مّا . . . والمَعنَى وَحدَهُ هوَ ما يَعبُرُ مِن الذِّهنِ إلى الذِّهنِ. A. D. Sheffield, *Grammar and Thinking*, pp. 3-4.

(67) Pp. 5, 14, 15.

ويُمكِنُنا أن نُوازِنَهُ بِمَنهَجِ مُقارَبَةِ البروفيسور بيري Perry الذي جاءَ فيهِ:

"ما الذي يُمكِنُ أن يَعنِيَهُ إدراكُ الحُسْنِ إذا لم يَعْنِ أنَّ ما هوَ طَبيعِيٌّ وضَرورِيٌّ، وفِعْلِيٌّ وواقِعِيٌّ هوَ حَسَنٌ أيضًا؟

وإذا كانَ أساسِيًّا لِمَعنَى الفَلسفَةِ وُجوبُ انبِثاقِهِ مِن الحَياةِ، فأساسِيٌّ لَهُ كذلكَ وُجوبُ رُجوعِهِ إليها. لكِنَّ هذا الرَّبطَ لِلفَلسفَةِ بالحياةِ لا يَعني اختِزالَها في مُفرَداتِ الحَياةِ كما تُفهَمُ في الأسواقِ.

إنَّ عَصرَنا الحاضِرَ مُنشَغِلٌ عن مَعنَى الحَياةِ بِسببِ انهِماكِهِ بِإنجازاتِهِ الذّاتِيَّةِ". R. B. Perry, *The Approach to Philosophy*, pp. 422, 426, 427.

ولَيسَ عِلمُ الأخلاقِ وَحدَهُ هوَ الذي تَرتَكِزُ الافتِراضاتُ الفَلسفيَّةُ المُهِمَّةُ فيهِ على هذا الأساسِ الاعتِباطيِّ. يَقولُ أحدُ الميتافيزيقيِّينَ المُعاصِرينَ[68]: "مَعلومٌ أنَّ الأشياءَ هيَ، إلى حدٍّ بَعيدٍ، بِناءاتٌ، تَركيبٌ تَوفيقيٌّ مِن عَناصِرَ ومَعانٍ حِسّيَّةٍ... والمَفهومُ ليسَ مُجَرَّدَ كلِمةٍ؛ إذ إنَّ لَهُ مَعنًى... والكُلِّيَّةُ، بِوَصفِها مَوضوعًا لِمَعنًى، لَيسَتْ فِعلاً عَقليًّا". ويُؤَكِّدُ آخَرُ[69] يَتَحدَّثُ أيضًا عن "تَحليلِ المَعنى لِعمليَّةِ تَغَيُّرٍ، مِن وِجهَةِ نَظَرٍ تَنطَلِقُ مِن المَفاهيم" أنَّ مِن المُحالِ تَصَوُّرَ "أنّا نحنُ أنفُسنا يُمكِنُ تَحليلُنا إلى مُعطَياتٍ حِسّيَّةٍ؛ ذلكَ بِأنَّ المُعطَياتِ الحسّيَّةَ 'يُعْطِيها' أو 'يُقَدِّمُها' المَعنَى الفِعليُّ لِلَّفْظِ". ثُمَّ "إنَّهُ لا شَكَّ في صِدقِ أنَّ 'الجِسمَ' و'العَقلَ' يُستَعمَلانِ في أكثَرَ مِن مَعنًى يُمكِنُ أن تُلحَقَ بِهِ دَلالَةٌ مَعقولَةٌ"[70]. والمَعاني التي تُلْحَقُ بِها دَلالَةٌ يَستَشهِدُ بِها أيضًا لوتزة[71] Lotze[72] الذي يَذْهَبُ إلى أنَّ "الشَّخصيّاتِ والأحداثَ التّأريخيَّةَ، على الرَّغْمِ مِن كُلِّ الدَّلالَةِ التي تُلْحَقُ بِمَعناها، كَثيرًا مّا لا تكونُ لَها دَلالَةٌ [182] في شَكلِها الخارجيِّ الذي تَظهَرُ بِهِ"، والذي يُخبِرُنا أيضًا أَنَّهُ في العِمارَةِ الإسلاميَّةِ "قَد يَكونُ القَوسُ المُدَبَّبُ المُرتَفِعُ الذي يُشبِهُ حدوَةَ الحِصانِ غيرَ ذي مَعنًى إنشائيٍّ على وَجهِ الدِّقَّةِ، لكِنَّهُ،

---

(68) D. H. Parker, *The Self and Nature*, 1917, pp. 158, 190.

(69) C. A. Richardson, *Spiritual Pluralism*, 1920, pp. 10, 40.

(70) *Ibid.*, p. 184.

(71) رودولف هيرمَن لوتزة (1817-1881م). فيلسوفٌ، ومنطقيٌّ ألمانيٌّ، وكانَتْ لديهِ درجةٌ طبّيَّةٌ أيضًا. ذَهَبَ إلى أنَّهُ إن كانَ العالَمُ الفيزيائيُّ محكومًا بِقوانينَ آليَّةٍ أمكَنَ تفسيرُ العَلاقاتِ والتطوُّراتِ في الكَونِ بِوَصفِها إعمالاً لِعَقلٍ عالَميٍّ. ومثَّلَت دِراساتُهُ الطبّيَّةُ أعمالاً رِياديَّةً في عِلمِ النَّفْسِ التَّجريبيِّ الذي حملَ لواءَ الدَّعوةِ إليهِ وأعلَنَهُ في عددٍ من مؤلَّفاتِهِ مِثل (عِلم النَّفْسِ الطِّبّيّ) و(العالَم الأصغَر) وغيرِهما من الآثارِ التي تَظهَرُ فيها محاولةُ الجمعِ بينَ الميتافيزيقا والعِلم. ومن مؤلَّفاتِهِ الأُخرَى: مَعالِمُ الميتافيزيقا، ومَعالِمُ فلسفةِ الدِّين، ومَعالِمُ الفلسفةِ العمَليَّة، ومَعالِمُ علمِ النفسِ، ومَعالِمُ عِلمِ الجَمال. [المُترجِم]

(72) *Outlines of Æsthetics*, in the English translation by Professor G. T. Ladd of Yale, p. 86.

بِالأحرَى، يُذَكِّرُ بِالانفِتاحِ العَظِيمِ لِشَقٍّ مَا" (ص66)، في حينِ أنَّ المَنظَرَ الطَّبيعيَّ في تَشكيلٍ تَصويريٍّ "لَهُ مَعنًى يَقتَصِرُ على كَونِهِ جُزءًا مِن العالَمِ الفِعليِّ فَحَسبُ" (ص82).

على أنَّ عِلمَ الجَمالِ ازدَهَرَ على الدَّوامِ في الاستِعمالاتِ الطَّليقَةِ، وقد كانَ الكُتّابُ غيرُ المُتَفلسِفِينَ في هذهِ النُّقطةِ أكثَرَ إلحاحًا مِمّا هوَ مُعتادٌ في تَوَسُّلِهِم بِهذهِ الكَلمةِ في جَميعِ النِّقاطِ الحَيَويَّةِ. إذ يَكتُبُ فان غوخ Van Gogh[73] قائلاً: "إنَّ اللونَ بِوَصفِهِ لَونًا يَعني شَيئًا مَا، ولا يَنبَغي إغفالُ هذهِ الحقيقةِ، بَل الأَوْلَى الإفادةُ مِنها"[74]. ونَقرَأُ أنَّ الشّاعِرَ أيضًا "قالَ ما كانَ يَعنيهِ، لكِن يَبدو أنَّ مَعناهُ يُشيرُ بَعيدًا خارِجَ نَفسِهِ، أو أنَّهُ بِالأحرَى يَمتَدُّ لِيَكونَ شَيئًا غيرَ مَحدودٍ يَترَكَّزُ فيهِ فَقَط"[75].

وهكذا في تَصعيدٍ تَكراريٍّ إذ تُحَلِّقُ عَواطفُ الفيلسوفِ الباحِثِ في أصلِ الكَونِ cosmologist في السَّماءِ:-

"حَوَّلَ الفِكرُ وَضعَ الحَياةِ كُلَّهُ ووَهَبَ لِلواقِعِ مَعنًى جَديدًا... إنَّ عَصرَنا هذا لَعظيمٌ في فُرَصِهِ لِلَّذينَ يَنتَزِعونَ مِن الحَياةِ مَعنًى وقِيمَةً"[76].

"كُلُّ تَفكيرٍ بِشأنِ مَعنَى الحَياةِ يَعودُ بِنا إلى الغَرائزِ... وحالَما نُنكِرُ الإحساسَ فإنَّ أيَّةَ دَلالَةٍ أُخرَى سِوَى ما يَنتَمي إليهِ بِوَصفِهِ مُنَظِّمًا لِلفَعّاليَّةِ، أي القِيَمِ المُختلِفَةِ لِلحَياةِ التي أُشيعَتْ مُنذُ فَجرِ الحَضارَةِ، تُصبِحُ غيرَ ذاتِ مَعنًى تَمامًا"[77].

(73) فِنسِنت وِليم فان غوخ (1853-1890م). رسّامٌ هولنديٌّ يُصَنَّفُ بِوَصفِهِ فنّانًا انطباعيًّا. عانى نوباتٍ متكرِّرَةً من المرضِ العقليِّ، وفي أثنائها قَطَعَ جُزءًا من أُذُنِهِ اليُمنَى. كانَ من أشهرِ فنّاني التصويرِ التشكيليِّ الذي اتَّجَهَ إليهِ للتعبيرِ عن مشاعرِهِ وعواطفِهِ. رسَمَ في آخِرِ خَمسِ سَنواتٍ من عُمُرِهِ ما يَزيدُ على 800 لوحةٍ زيتيَّةٍ. [المُترجِم]

(74) *Letters of a Post-Impressionist*, p. 29.

(75) A. C. Bradley, *Oxford Lectures on Poetry*, 1901, p. 26.

(76) R. Eucken, *The Meaning and Value of Life*, 1909, pp. 38, 147.

(77) I. Harris, *The Significance of Existence*, 1911, p. 319.

"تَمامًا مِثلَما يَجِدُ الفَنّانُ مَعناهُ الخاصَّ بِهِ في صِراعِهِ النّاجِحِ لِلتَّعبيرِ عنهُ، تَعلَمُ الذّاتُ الإلهِيَّةُ، على ما نَرَى، قَصْدَها الذّاتيَّ في عَمَلِيَّةِ إحداثِهِ... إنَّ الجِدَّةَ تُمَثِّلُ لِلعالَمِ جُزءًا مِن مَعناهُ، ويَصْدُقُ هذا بِخاصَّةٍ على نَحوِ التَّجرِبَةِ التي رَأَيْنا أنَّ التَّجرِبَةَ الإلهيَّةَ يَجِبُ أن تَكونَ عليها، حيثُ يَكونُ المُستَقبَلُ هوَ العُنصُرَ الزَّمَنيَّ المُهَيمِنَ"[78].

"اللهُ هوَ الحقيقةُ والمِثالُ مَعًا، لا بِالمَنحَى السّائدِ مِن التِحاقِ قِيمةٍ مّا بِواقِعَةٍ أو بِحَقيقَةٍ، كالتِحاقِ النَّفعِ بِمخْبَرَتي المِنضَدِيَّةِ، بَل بِالمَنحَى المُمَيَّزِ الذي يَلتَحِقُ بِهِ المَعنَى [183] بِما يَرمِزُ إليهِ... فالرَّمزُ أو الشِّعارُ المَوضوعيُّ مَنسوبٌ ومَعزُوٌّ إلى هذا المَعنَى مِن أجلِ التَّعبيرِ عنهُ بِالنِّيابَةِ.

إنَّ الواقِعَ في التَّحليلِ الأخيرِ هوَ ما نَعنيهِ بِالواقِعِ. فما الواقِعُ إذا نُظِرَ إليهِ بِمَعزِلٍ عن كُلِّ مَعنًى لِلتَّجرِبَةِ إلّا سُخفٌ أو مُجَرَّدُ كَلِمةٍ"[79].

"لا يَكتَسِبُ الجانِبُ الفِعليُّ لِكُلِّ دَقيقَةٍ مِن الوَعيِ القِيمَةَ أو المَعنَى إلّا بِوَصفِهِ أمارَةً لِلكُمونِ الضَّخمِ المُستَتِرِ خَلفَهُ ...

ونَظريّاتُ أصلِ الكَونِ التي تُعْنَى بِسَيرورةِ العالَمِ كَثيرًا مّا تتوقَّفُ وتُصبِحُ غَيرَ ذَواتِ مَعنًى بِرَفضِها تَقديمَ فِكرَةِ اللانِهائيَّةِ"[80].

"مِن أجلِ الحصولِ على رُؤيَةٍ أوضَحَ لِهذهِ النَّتائجِ يَنبَغي لَنا النَّظَرُ في مَجالِ هذهِ المَعاني على نَحوٍ أوضَحَ، والبَحثُ في مَدَى إمكانِها أن تُحمَلَ بَعيدًا، كما هيَ الحالُ معَ مَعاني الكَلِماتِ... ومِثلَما يُتِيحُ لِي مَعنَى الكلمةِ أن أعلَمَ أو، إنْ جازَ التَّعبيرُ، أنظُرَ في فِكرِ إنسانٍ آخَرَ، يُتِيحُ لِي مَعنَى رُوحِي أن أنظُرَ في ذلكَ الوُجودِ الذي أدعُوهُ اللهَ... فاللهُ يَعْنِي النَّفسَ الأَزَلِيَّةَ أو اللانِهائيَّةَ"[81]. [184]

(78) W. Temple, *The Nature of Personality*, 1911, p. 107.

(79) J. M. Baldwin, *Genetic Theory of Reality*, 1915, pp. 108, 227.

(80) E. Belford Bax, *The Real, the Rational, and the Alogical*, 1920, pp. 233, 243.

(81) Professor K. J. Spalding, *Desire and Reason*, 1922, p. 8.

الفَصلُ التّاسِعُ
مَعْنَى الْمَعْنَى

يا أَبَتِ ! هذهِ كَلِماتٌ فَظيعَةٌ، لكِنَّ وَقتي لا يَتَّسِعُ الآنَ لِغَيْرِ المَعَانِي. -
ميلموث الجَوّال Melmoth the Wanderer

إنَّ دِراسَةَ أَقوالِ الفَلاسِفَةِ تَشِي بِأَنَّهُم لَيْسُوا مَوضِعَ ثِقَةٍ في مُعالَجَاتِهِم لِلمَعنَى. فَلْنَرَ، بِمَعِيَّةِ ما هَيَّؤُوهُ لَنا مِن مادَّةٍ: أَيُمكِنُ إحرازُ المَزيدِ مِن النَّتائجِ المُشَرِّفَةِ بِالآلِيَّةِ التي فَصَّلْناها سَلَفًا؟

في البَدْءِ نَقولُ: ليسَ صَعْبًا أن نَصوغَ تَعريفَيْنِ يُناظِرانِ التَّعريفاتِ التي في المجموعةِ A في حالَةِ تَعريفِ (الْجَميل). وكانَ إضفاءُ الفَلاسِفَةِ بُعدًا مادِّيًّا على ما يُعَرِّفونَهُ سَهلاً وطَبيعيًّا بِوَساطَةِ أمرَيْنِ، أَحَدُهُما اختِراعُهُم مادَّةً مُمَيَّزَةً، خاصِّيَّةً جَوهَرِيَّةً، وقَولُهُم بَعدَ ذلكَ: لِيَكُنْ كُلُّ ما يَحُوزُ هذهِ حائزًا لِلمَعنَى، والآخَرُ اختِراعُهُم عَلاقَةً خاصَّةً غيرَ قابِلةٍ لِلتَّحليلِ، وقَولُهُم بَعدَ ذلكَ: لِيُقَلْ عَن كُلِّ ما تَربِطُهُ هذهِ العَلاقَةُ بِشَيءٍ آخَرَ إنَّ لَهُ مَعنًى.

ويُتاحُ معَ ثاني التَّعريفَيْنِ المُشارِ إليهما بَديلٌ نَحْوِيٌّ يُعاوِدُ الظُّهورَ في جَميعِ التَّعريفاتِ المُقتَرَحَةِ الأُخرَى، ويَميلُ مَيْلاً كَبيرًا إلى إحداثِ تَخليطٍ في النِّقاشِ. ويُمكِنُنا أن نَعُدَّ المعنى يَرْمِزُ إلى العَلاقَةِ بينَ A وB حينَ يَكونُ مَعنَى A هوَ B، أو يَرْمِزُ إلى B. فَفي أُولَى الحالَتَيْنِ سَيَكونُ مَعنَى A هو عَلاقَتَهُ بِـB، وفي ثانِيَتِهِما سَيَكونُ مَعناهُ هوَ B. وإذا ما فُهِمَ هذا الغُمُوضُ فإنَّهُ سَيُؤَدِّي إلى نُشوءِ شَيءٍ مِن

الصُّعوبَةِ، لكِنَّ تَجنُّبَهُ باستِعمالِ الرَّمزَيْنِ 'إحالَة' و'مَرجع' يُعَدُّ واحِدَةً مِن الحَسَناتِ المُمَيِّزَةِ لِهذهِ المُفرَداتِ. [185]

أمّا التَّعريفاتُ الأُخرَى فتُشْبِهُ تَعريفاتِ (الجمِيل) كذلكَ في أنَّها يَغلِبُ عليها أن تكونَ تَعريفاتٍ سايكولوجِيَّةً. على أنَّه لا يَنبَغي أن يُستَنتَجَ مِن المِثالَيْنِ المذكورَيْنِ أنَّ كلَّ مُشكِلاتِ التَّعريفِ تَنشَأُ في حَقلِ عِلمِ النَّفسِ. ولَو كُنّا نُحاوِلُ تَعريفَ 'السِّباحَة' أو 'الامتِصاص'، على سبيلِ المِثالِ، لَوَجَدْنا أنَّ التَّشديدَ يَكونُ على أساسِ مَسالِكَ لِلتَّعريفِ مُختَلِفَةٍ تَمامًا. ومِن الجَلِيِّ أنَّ 'المعنَى' رَمزٌ يَجِبُ أن تَرتَكِزَ بَعضُ إيضاحاتِهِ على عِلمِ النَّفسِ، وقَد اختِيرَ أُنموذَجُ الجَمالِ لأنَّ هذا الرَّمزَ يَقَعُ كذلِكَ في المَأزِقِ نَفسِهِ، وإنْ كانَ ذلكَ بِدَرَجَةٍ أَقَلَّ عُمقًا.

وفي الآتي قائمَةٌ تُمَثِّلُ التَّعريفاتِ الرَّئيسَةَ المُفَضَّلَةَ لَدَى دارِسِي المعنَى المشهورِينَ. فالمعنَى هُوَ-

(المَجموعَةُ الأُولَى):

1. خاصِّيَّةٌ أساسيَّةٌ.

2. عَلاقَةٌ بِأشياءَ أُخرَى، فَريدَةٌ غيرُ قابِلَةٍ لِلتَّحليلِ.

(المَجموعَةُ الثّانِيَة):

3. الكَلِماتُ الأُخرَى المُلحَقَةُ بِكَلمَةٍ في المُعجَمِ.

4. الدَّلالَةُ الإيحائِيَّةُ Connotation لِلكَلِمَةِ.

5. جَوْهَرٌ Essence.

6. فَعّالِيَّةٌ مُسْقَطَةٌ على مَوضوعٍ مّا.

7.

أ. حَدَثٌ مَقصودٌ.

ب. إرادَةٌ.

8. مَوضِعُ أيِّ شَيءٍ في نِظامٍ مّا.

9. النَّتائجُ العَمَلِيَّةُ لِشَيءٍ مّا في تَجرِبتِنا المستقبلِيَّةِ.

10. النَّتائجُ النَّظَرِيَّةُ التي يَستَلزِمُها تَعبيرٌ مّا أو المُتَضَمَّنَةُ فيهِ.

11. العاطِفَةُ التي يُثيرُها أيُّ شَيءٍ.

(المَجموعَةُ الثّالِثَة):

12. ذلِكَ الذي تَربِطُهُ فِعلِيًّا بِالعَلامَةِ عَلاقَةٌ مُختارَةٌ.

13.

أ. الآثارُ التَّذَكُّرِيَّةُ لِمُؤَثِّرٍ مّا. التَّرابُطاتُ المُكتَسَبَةُ.

ب. حادِثَةٌ أُخرَى تُلائِمُها الآثارُ التَّذَكُّرِيَّةُ لأيَّةِ حادِثَةٍ. [186]

ت. ذلِكَ الذي تُؤَوِّلُ العَلامَةُ بِوَصفِها تتحَلَّى بِهِ.

ث. ما يُوحِي بِهِ Suggests أيُّ شَيءٍ.

وَفي حالَةِ الرُّمُوزِ:

ذلكَ الذي يُحِيلُ عَليهِ فِعلِيًّا مُستَعمِلُ رَمزٍ مّا.

14. ذلكَ الذي يَنبَغي أن يَكونَ مُستَعمِلُ رَمزٍ مّا مُحِيلاً عليهِ.

15. ذلكَ الذي يَعتَقِدُ مُستَعمِلُ رَمزٍ مّا أنَّهُ يُحِيلُ عليهِ.

16. ذلكَ الذي مُؤَوِّلُ رَمزٍ مّا:

أ. يُحِيلُ عليهِ.

ب. يَعتَقِدُ أنَّهُ يُحِيلُ عليهِ.

ت. يَعتَقِدُ أنَّ مُستَعمِلَهُ يُحِيلُ عليهِ.

ولا حاجَةَ بِنا إلى أن نَشغَلَ أنفُسَنا بِالمجموعَةِ الأُولَى. أمّا المجموعَةُ الثّانِيَةُ فالأَوَّلُ فيها (أي الثّالِثُ) هوَ المعنَى المُعجَمِيُّ، أو الدَّلالَةُ عندَ الفيلولوجِيِّينَ،

وهوَ مُستَعمَلٌ على نِطاقٍ واسِعٍ جِدًّا على الرَّغمِ مِن مَظهَرِهِ الهَزْلِيِّ بِصيغَتِهِ المذكورَةِ، ولَهُ في حَقلِ الفيلولوجيا قِيمَةٌ لا يُستَهانُ بِها على ما سيَظهَرُ لنا حينَ نُناقِشُ في ضَوءِ التَّعريفِ الرّابِعَ عَشَرَ المسائلَ المُتَشابِهَةَ المتعلِّقَةَ بالاستِعمالِ والتَّواصُلِ الجيِّدَيْنِ.

والدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ (في التَّعريفِ الرّابِعِ) أي 'المعنَى' في المنطِقِ التَّقليدِيِّ، والجَوهَرُ (في التَّعريفِ الخامِسِ) أي 'المعنَى' عندَ الواقِعِيِّينَ النَّقدِيِّينَ الَّذينَ يُتابِعُونَ الدُّكتور سانتَيانا Santayana على ما ذُكِرَ آنِفًا، يُمكِنُ تناوُلُهما مَعًا؛ ذلكَ بِأنَّ 'الجَواهِرَ' يُمكِنُ أن تُعَدَّ على أحسَنِ نَحوٍ دَلالَةً إيحائيَّةً مُضْفًى عليها البُعْدُ المادِّيُّ عندَ الذينَ لا يَدعُونَ واقِعِيَّتَهُم تَغلِبُ نَقدِيَّتَهُم.

ومُصطَلَحُ الدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ تَبَنّاهُ المناطِقَةُ الَّذينَ تابَعُوا مِل Mill في مُمارَسَةِ النِّقاشِ كما لَو أنَّ ثَمَّةَ مَنحَيَيْنِ أَوَّلِيًّا وأعْلَى يُمكِنُ أن يُقالَ لِلرَّمزِ على وَفقِهِما إنَّهُ يَعنِي؛ الأَوَّلُ أنَّهُ يَعنِيَ مجموعةَ الأشياءِ التي يُمكِنُ أن يُستَعمَلَ فيها على نَحوٍ صَحيحٍ، ويُقالُ عن أعضاءِ هذهِ المجموعةِ إنَّ الكَلِمَةَ تَدُلُّ عليها دَلالَةً تعيينيَّةً أو تُشيرُ إليها، أو إنَّها دَلالَتُها التَّعيينيَّةُ؛ والثّاني أنَّهُ يَعنِيَ الخصائصَ المستَعمَلَةَ في تَحديدِ استِعمالِ رَمزٍ مّا، الخصائصَ التي يكونُ بِمُقتَضاها أيُّ شَيءٍ [187] عُضوًا في المجموعةِ التي هيَ الدَّلالَةُ التَّعيينيَّةُ؛ وهذهِ الخصائصُ يُقالُ عنها إنَّها الدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ لِرَمزٍ مّا، أو أحيانًا إنَّها مَعناهُ فَحَسْبُ. وقد لُخِّصَتْ عَلاقَةُ الدَّلالَةِ التَّعيينيَّةِ بِالدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ تَلخيصًا مُلائمًا على النَّحوِ الآتي: تُحَدِّدُ الدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ لِلكَلِمَةِ دَلالَتَها التَّعيينيَّةَ التي تَعودُ فَتُحَدِّدُ فَهمَها، أي الخصائصَ المشتركةَ في الأشياءِ التي يُمكِنُ أن تُستَعمَلَ فيها. على أنَّ مُصطَلَحَ الدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ كَثيرًا مّا يُستَعمَلُ بِمَعنَى الفَهْمِ نَفسِهِ.

سيَكونُ واضِحًا لدَى جَميعِ مَن يَنظُرُ في كيفيَّةِ استِعمالِ الكَلِماتِ أنَّ هذهِ الأُطروحَةَ مُصطَنَعَةٌ جِدًّا. فلا يُمكِنُ استِعمالُ الدَّلالَةِ التَّعيينيَّةِ ولا الدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ كما لَو أنَّ إحْداهُما عَلاقَةٌ بَسيطَةٌ أو جَوهَرِيَّةٌ. فلَو تناوَلْنا الدَّلالَةَ التَّعيينيَّةَ أوَّلاً لَرأَيْنا أن ليسَ ثَمَّةَ كَلِمَةٌ لها دَلالَةٌ تَعيينِيَّةٌ بِمَعزِلٍ عن إحالَةٍ مّا تَرمِزُ إليها.

والعَلاقاتُ بينَ كَلِمَةٍ مّا والأشياءِ التي تَرْمِزُ إليها هذهِ الكَلِمَةُ غيرُ مُباشِرَةٍ (يُنظَر: المخَطَّط في الفَصلِ الأوَّلِ، ص70)، وهي، على ما أكَّدْنا، سَبَبِيَّةٌ. وإذا ما زِدْنا على ذلكَ التَّعقيداتِ الأُخرَى التي يُوَلِّدُها الاستِعمالُ الصَّحيحُ حَصَلْنا على نتيجَةٍ مُصطَنَعَةٍ اصطِناعًا تَغدُو معَهُ مُحاوَلَةُ استِعمالِ 'التَّعيين' بِوَصفِهِ اسمًا لِعَلاقَةٍ مَنطقيَّةٍ بَسيطَةٍ شيئًا سَخيفًا. والأمرُ أدهَى وأَمَرُّ في حالةِ 'الإيحاء'؛ فالدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ مَجموعَةٌ مُنتَخَبَةٌ مِن الخصائصِ أو الصِّفاتِ، لكِنَّ الخصائصَ لا يُمكِنُ أن تُوجَدَ بِأنفُسِها في أيِّ مَكانٍ، فهيَ كِياناتٌ خَياليَّةٌ أو اسمِيَّةٌ نَختَلِقُها بِتأثيرٍ مِن القِياسِ السَّيِّئِ الذي نُعامِلُ على وَفقِهِ أجزاءً مُعَيَّنَةً مِن رُموزِنا كما لَو أنَّها رُموزٌ تامَّةٌ في أنفُسِها. وليسَ لَدَيْنا مُسَوِّغٌ، غيرُ هذا القِياسِ السَّيِّئِ، لِمُعامَلَةِ الصِّفاتِ كما لَو أنَّها أسماءٌ. فليسَ ثَمَّةَ كِياناتٌ في العالَمِ الحقيقيِّ إلّا الأشياءُ ذاتُ الخصائصِ، التي لا يُمكِنُ تَمييزُها إلى خَصائصَ وأشياءَ إلّا رَمزِيًّا. ولا رَيْبَ في أنَّ هذا لا يَجعَلُ التَّرميزَ، الذي يَسيرُ كما لَو أنَّ الخَصائصَ والأشياءَ مِمّا يَقبَلُ الانفِصالَ، مِمّا تَقِلُّ الرَّغبَةُ فيهِ عندَ الحاجَةِ. وليسَ ثَمَّةَ اعتِراضٌ على أيَّةِ أداةٍ رَمزِيَّةٍ ما دُمْنا نَعلَمُ أنَّها أداةٌ، ولا نَفتَرِضُ أنَّها زِيادَةُ [188] مَعرِفَةٍ لَنا. أمّا ما لا مُسَوِّغَ لَهُ فَأنْ تُصَيِّرَ الوَسيلَةُ التَّيْسيرِيَّةُ حُجَّةً فَتُقَرِّرَ لَنا طَبيعَةَ الكَونِ على طَريقَةِ 'جَواهِرِ' الدُّكتور سانتَيانا. ومِن ناحيَةٍ أُخرَى، إذا نُظِرَ إلى الكُلِّيّاتِ بِوَصفِها آلِيَّةً لُغَوِيَّةً فَلَن يَكونَ فيها ضَيْرٌ، بَل سيَكونُ نَفْعُها عَميمًا. فَفي بَسْطِنا نَظَرِيَّةَ الإحالَةِ السَّبَبِيَّةَ أو السِّياقِيَّةَ، على سبيلِ المِثالِ، قد تَرَخَّصْنا في استِعمالِ لَفْظَيْ 'خَصيصَة' و'عَلاقَة' كما لَو أنَّهُما يُمكِنُ أن يَرْمِزا إلى عُنصُرَيْنِ مُستَقِلَّيْنِ ومُحتَرَمَيْنِ في العالَمِ الواقعيِّ. صَحيحٌ أنَّ ثَمَّةَ ضَرُورَةً لُغَوِيَّةً إلى إجراءٍ كَهذا، لكِنَّ إعلاءَ شأنِهِ لِيَكونَ ضَرُورَةً مَنطِقِيَّةً لِـ'بَقاءِ' عَناصِرَ كَهذِهِ غَفلَةٌ عَمّا عليهِ حالُ العالَمِ.

وبِذلكَ، يُمكِنُ أن نَبتَدِئَ فنقولَ إنَّ الدَّلالَةَ الإيحائيَّةَ لِكَلِمَةٍ مّا مَجموعَةٌ مِن الكِياناتِ الاسمِيَّةِ، لكِن ما زالَ علينا أن نُقَرِّرَ أيَّ شَيءٍ ستكونُ هذهِ. أَحَدُ المَناهِجِ المُتَّبَعَةِ في ذلكَ اعتِمادُ الاستِعمالِ اللُّغَوِيِّ؛ إذ إنَّ "مَعرِفَةَ استِعمالِ لُغَةٍ مّا كافِيَةٌ وَحْدَها لِلعِلمِ بِما تَعنيهِ عِبارَةٌ مّا فيها"، على ما يَقولُ السَّيِّدُ جونسن

Johnson[1] في كِتابِهِ (المَنطِق *Logic*، ص92). واستِنادًا إلى هذا المَنهَجِ، في حالِ اتِّباعِهِ اتِّباعًا صارِمًا، سَتُصبحُ الدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ لِلكَلِمَةِ غيرَ قابِلَةٍ لأن تُمَيَّزَ مِن مَعناها على طَريقَةِ "الكَلِمات الأُخرَى المُلحَقَة بِكَلمَةٍ في المُعجَم" (التَّعريف الثّالث). غيرَ أنَّ ثَمَّةَ مَنهَجًا آخَرَ مُمكِنًا، وسيُظهِرُ اعتِمادُهُ، على نَحوٍ أوضَحَ، اصطِناعَ الدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ وقليلَ ما يُمكِنُ أن يُوثَقَ بِها لِلأغراضِ المنطِقِيَّةِ كالتَّعريفِ، على سَبيلِ المِثالِ. إذ يُمكِنُنا أن نُعَبِّرَ جُزئيًّا عن الصِّيغَةِ التَّيسيرِيَّةِ المذكورَةِ آنِفًا على النَّحوِ الآتي: الإحالَةُ التي تَستَخدِمُ (أو التي تَرمِزُ إليها) كَلِمَةٌ مّا هيَ التي تُحَدِّدُ مَراجِعَها (أي دَلالَتَها التَّعيينيَّةَ)، التي تَعُودُ فتُقَرِّرُ ما الإحالاتُ المختَلِفَةُ التي يُمكِنُ أن تُصنَعَ لَها. يَنشَأُ مِن ذلكَ أَنَّ الرَّمزَيْنِ اللذَيْنِ يَرْمِزانِ إلى إحالَتَيْنِ مُتَشابِهَتَيْنِ سَتكونُ لَهُما الدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ نَفسُها. على أنَّهُ في هذا التَّفسيرِ لِلإحالَةِ يَغدُو أيُّ شَيءٍ مَرْجِعًا لِما هوَ مُعْطًى مِن عَمليَّةٍ أو فِعلِ إحالِيَّيْنِ لا لِشَيءٍ إلّا لِخَصائصَ مُعَيَّنَةٍ يُصبِحُ مِن خِلالِها عُضوًا مُكَمِّلاً لِلسِّياقِ الذي يتضَمَّنُ عَلامَةَ العَمَلِيَّةِ. وبِذلكَ تَكونُ الدَّلالَةُ الإيحائيَّةُ لإحالَةٍ مّا (وبِالتَّبَعِ لِلكَلِماتِ التي [189] تَرمِزُ إلَيها) هيَ خَصائصَ مَرْجِعِها الذي بِمُقتَضَاها يَكونُ هوَ ما يُحالُ عليهِ. فَإنْ كانَ حاضِرًا في أذهانِنا أنَّ هذهِ الخصائصَ ما هيَ إلّا كِياناتٌ اسمِيَّةٌ استَطَعْنا أن نَرَى كَم كانَ سَهلاً على المناطِقَةِ، في ظِلِّ الاختِزالِ الهائلِ لِـ'الدَّلالَةِ التَّعيينيَّةِ' و'الدَّلالَةِ الإيحائيَّةِ' المُطَبَّقَتَيْنِ على الكَلِماتِ، أن يَتَغاضَوا عن الطَّبيعَةِ السَّبَبِيَّةِ لِلعَلاقاتِ التي كانُوا يُناقِشُونَها بِغَيرِ عِلمٍ. ولا غَرابَةَ في أن تُستَصْعَبَ مُحاوَلَةُ تَفسيرِ عَلاقَةِ المعنَى بِالدَّلالَةِ التَّعيينيَّةِ في عِباراتٍ مِن قَبيلِ 'مَلِك فَرَنسا' بِوَساطَةِ مَناهِجَ اختِزاليَّةٍ كَهذِهِ[2].

---

(1) وِليَم إيرنست جونسن (1858-1931م). منطقيٌّ بريطانيٌّ. عُيِّنَ مُحاضِرًا في العُلومِ الأخلاقيَّةِ في جامعةِ كيمبرج، وكانَ لهُ تأثيرٌ كبيرٌ في مدرسةٍ كاملةٍ مِن مَناطِقةِ كيمبرج منهُم برَوْد وكَيْنز. أكثرُ ما يُعرَفُ بِهِ كتابُهُ (المنطِق) الذي يَقَعُ في ثلاثةِ مُجلَّداتٍ، والذي قدَّمَ في المجلَّدِ الثالثِ منهُ المفهومَ المُهِمَّ المُسَمَّى القابليَّةَ لِلاستِبدالِ. [المُترجِم]

(2) كما هي الحالُ عندَ رَسِل فيما كَتَبَهُ في دَوْرِيَّةِ *Mind*، 1905، تَحتَ عُنوانِ "في الدَّلالَةِ =

وثَمَّةَ نُقطةٌ أُخرَى تُظهِرُ على نَحوٍ مُضحِكٍ اصطِناعِيَّةَ الأُطروحَةِ التَّقليدِيَّةِ، أي استِحالَةَ تَطبيقِها على الأسماءِ names، التي يُمكِنُ عَدُّها مِن غيرِ تَهَوُّرٍ مُفْرِطٍ أبسَطَ الرُّموزِ التي تَطَوَّرَتْ عنها كُلُّ آليَّتِنا الرَّمزِيَّةِ الأُخرَى. فَقد استنتَجَ مِل Mill أنَّ أسماءَ الأعلامِ لا تَنطَوي على دَلالَةٍ إيحائيَّةٍ. ويَتَّفِقُ السَّيِّدُ جونْسِن معَهُ (و "مَعَ جَميعِ الصَّفْوَةِ مِن المَناطِقَةِ")، لكِنَّهُ يُقَدِّمُ تَحفُّظًا فيقولُ[3]:

"لا يَرْقَى هذا إلى أن يُقالَ إنَّ الاسمَ العَلَمَ يكونُ غيرَ دالٍّ أو غيرَ ذي مَعنًى، بَل الأَوْلَى أن يُقالَ إنّا نَجِدُ، على نَحوٍ سالِبٍ، أنَّ العَلَمَ لا يَعني ما يَعنِيهِ أيُّ شَيءٍ يُمكِنُ أن تَعنِيَهُ عِبارَةٌ وَصفِيَّةٌ أو إيحائيَّةٌ؛ ونَجِدُ، على نَحوٍ مُوجَبٍ، أنَّهُ يَعنِي على وَجهِ التَّحديدِ ما يُمكِنُ أن تُشيرَ إليهِ عِبارَةٌ وَصفِيَّةٌ مُلائمَةٌ". فَحينَذاكَ تَكونُ الحاجَةُ إلى المزيدِ مِن التَّحوُّلاتِ[4] [190] ماسَّةً، لكِنَّها لا تَصلُحُ إلّا لِتَدميرِ 'المعنَى' بِوَصفِهِ رَمزًا مُفيدًا.

أمّا التَّعريفُ السّادِسُ فَمَعَ أنَّهُ يَرُوقُ أتباعَ مَذهَبِ المُشارَكَةِ الوجدانِيَّةِ، والكروتشِيِّينَ، والأناوَحْدِيِّينَ، يُعَدُّ استِعارِيًّا على نَحوٍ باذِخٍ جِدًّا، بِما يَجعَلُهُ طَريقَةً غَريبَةً وعَجيبَةً لِلتَّعبيرِ بِالكَلِماتِ عَن الآراءِ الشَّديدَةِ الشَّبَهِ بِتلكَ التي يَنطَوي

= التَّعيينِيَّةِ On Denoting". إذ قالَ "وهكذا، سَيبدو أنَّ 'C' و C كِيانانِ مُختَلِفانِ بِحيثُ يَدُلُّ 'C' دَلالَةً تَعيينِيَّةً على C، لكِنَّ هذا لا يُمكِنُ أن يكونَ تَفسيرًا مَقبولاً؛ لأنَّ عَلاقَةَ 'C' بِـ C ما زالَتْ غامِضَةً تَمامًا؛ وأينَ يُفتَرَضُ بِنا أن نَجِدَ المُرَكَّبَ التَّعيينِيَّ 'C' الذي سَيَدُلُّ دَلالَةً تَعيينِيَّةً على C؟ وزِيادَةً على ذلكَ، إذا وُجِدَ C في قَضِيَّةٍ مّا فليسَتِ الدَّلالَةُ التَّعيينِيَّةُ وَحدَها هيَ ما يُوجَدُ، ومعَ ذلكَ فعلى وَفقِ وِجهَةِ النَّظَرِ التي نحنُ بِصَدَدِها يَكونُ C الدَّلالَةَ التَّعيينِيَّةَ فَحسْبُ، أمّا المعنَى فَمُحالٌ كُلِّيًّا على 'C'. وهذا تَعقيدٌ لا سَبيلَ إلى الخَلاصِ منهُ، ويبدو أنَّهُ يُثبِتُ أنَّ تَمييزَ المَعنَى والدَّلالَةِ التَّعيينِيَّةِ كُلَّهُ كانَ قَد بُنِيَ على تَصَوُّرٍ خَطَإٍ". على أيَّةِ حالٍ، لم تُؤَدِّ التَّصوُّراتُ الجديدَةُ المُصَمَّمَةُ لإنقاذِ الحالَةِ إلّا إلى مَزيدٍ مِن التَّعقيداتِ التي يَجهَدُ المناطِقَةُ مَرَّةً أُخرَى مِن أجلِ حَلِّها.

(3) *Logic*, Vol. I., 1921, p. 96.

(4) "كلمةُ 'شَجاعَة' أو عِبارَةُ 'عَدَم الانكِماشِ مِن الخَطَرِ' ذاتُ طَبيعَةٍ تقتَضي ألّا يَكونَ ثَمَّةَ فَرْقٌ بينَ ما تَعنِيهِ وما تُشيرُ إليهِ أو تَدُلُّ عليهِ دَلالَةً تعيينِيَّةً. ولا يَنشَأُ الفَرْقُ بينَ المعنَى والإشارَةِ إلّا في العِباراتِ المبدُوءَةِ بِأداةٍ أو بِتَعبيرٍ مُشابِهٍ". المصدَرُ نَفسُهُ، ص92.

عليها التَّعريفُ الثَّالِثَ عَشَرَ. والأسلوبُ الذي يُعَبِّرُ بِهِ عنهُ الدُّكتور شِلَر Schiller وهو "أنَّ المعنَى فَعّالِيَّةٌ تُمارَسُ تجاهَ الأشياءِ، وتُسْقَطُ بِقُوَّةٍ عليها، كالأداةِ a" يُبْهِمُ حقيقةَ مُوافَقَتِهِ السَّبَبِيَّةَ التَّذَكُّرِيَّةَ التي يُقاوِمُها بِعُنفٍ؛ إذ إنَّهُ حينَ يتحدَّثُ عن "مَطلَبٍ لنا نُحَدِّدُهُ في تَجرِبَتِنا" هو "انتِخابُ الأشياءِ المُثيرَةِ لِلاهتِمامِ"، يَبدو وكأنَّهُ يَصِفُ بِلُغَةِ حَماسِيَّةٍ العَمَلِيّاتِ أنفُسَها (يُنظَر: الفَرعُ (أ) مِن التَّعريفِ الثّالِثَ عَشَرَ، فما دُونَهُ) التي لا يَرغَبُ البَتَّةَ في الإقرارِ بِها. ومِن الواضِحِ أنَّ الخِلافَ بينَ 'الفِعْل act' و'العَمَلِيَّة process' بِوَصفِهِما مُصطَلَحَيْنِ سايكولوجِيَّيْنِ أساسِيَّيْنِ خطوَةٌ تَعقُبُ مُناقَشَةً مُستَفيضَةً لِمُشكِلَةِ المعنَى. وأشارَ البروفيسور سترونغ Strong في ما أسهَمَ بِهِ في الموضوعِ[5] إلى أنَّ لَدَيْنا هُنا، افتِراضِيًّا، مِثالاً لِمَأزِقٍ جَدَلِيٍّ شائعٍ، وهو أن يُستَعمَلَ لِمَراجِعَ مُتَماثِلَةٍ رُموزٌ تُؤخَذُ مِن أنظِمَةِ رُموزٍ مُختلِفَةٍ لكِنَّها قابِلَةٌ، إلى حَدٍّ بَعيدٍ، لِلنَّقلِ.

ونَنتَقِلُ الآنَ إلى التَّعريفِ السّابعِ الذي يَنشَأُ مِن دِراسَةِ تَعليقاتٍ نَحوِ[6]:

لم يَقصِدُوا ضَرَرًا They *meant* no harm

هوَ حَسَنُ القَصْدِ He *means* well

قَصَدتُ الذَّهابَ I *meant* to go

ما قَصَدتُهُ هو ما قُلْتُهُ What I *meant* was what I said

الكَوْنُ الآلِيُّ مُجَرَّدٌ مِن القَصْدِ A mechanistic universe is without *meaning*

فإذا ما استَطَعْنا أن نُحِلَّ كَلِمةَ 'يَقْصِدُ intend' مَحَلَّ كَلِمةِ 'يَعْنِي mean'، كما هيَ الحالُ عادَةً حينَ تُستَعمَلُ هذهِ العِباراتُ، فسيكونُ واضِحًا أنَّ لَدَينا نَوعًا

---

(5) "تَوسيعُ النَّظريَّةِ الحِسِّيَّةِ-السُّلوكِيَّةِ الذي يَبدو ضَرورِيًّا هو، إذَن، لإدراكِ أنَّ الصَّوتَ بِوَصفِهِ مَعنًى يَنمازُ مِن الصَّوتِ بِوَصفِهِ حالةً حِسِّيَّةً، ويَنمازُ مِنهُما مَعًا الشَّيءُ المَعْنِيُّ، الذي مِن غَيرِ وُجودِهِ لن يَكونَ لِهذا المَعْنَى مَعنًى البَتَّةَ".- *Mind*, July, 1921.

(6) الجُمَلُ التي سيُورِدُها المؤلِّفانِ سيكونُ فيها الفِعلُ 'يَعْنِي mean' بِمَعْنَى الفِعلِ 'يَقْصِدُ intend' لا بِلَفظِهِ. [المُترجِم]

مِن 'المعنى' مُختَلِفًا تَمامًا عن أيِّ نَوعٍ آخَرَ مُتَضَمِّنٍ حينَ لا يُمكِنُ استِبدالُ 'القَصْدِ intention' [191] على ذلكَ النَّحو[7]. إنَّ 'مَعنَايَ' أو 'قَصْدِي'، على ما أُجهِدُ نَفسي في إنشائهِ، هو شَيءٌ مّا مَرغُوبٌ فيهِ، وهذا ما يُمَيِّزُهُ مِمّا هوَ مَعلُومٌ أو مُحالٌ عليهِ (هوَ 'المقصودُ' أو 'المُتَّجَهُ نَحوَهُ'، في اصطِلاحِ كُتّابٍ أمريكِيِّينَ مُعَيَّنِينَ). وهكذا، لن يَكونُ ثَمَّةَ تناقُضٌ بينَ هذا المعنَى وذاكَ اللذَيْنِ يَنبَغي لَنا أن نُعالِجَهُما في جُمَلٍ مِن نَحوِ قولِنا: "'Chien' و'Dog' كِلاهُما يَعنِيانِ الشَّيءَ نَفسَهُ". على أنَّ ثَمَّةَ تَلاعُبًا بِالألفاظِ هُنا، ومَصْدَرُ التَّخليطِ الخَطِرِ الذي لَدَيْنا هوَ مُمارَسَةُ المُتَنازِعِينَ الذينَ يُؤَلِّفُونَ بينَ الإحالَةِ reference والقَصدِ intention في عِبارَةِ "ما عَنَيْتُهُ كانَ What I meant was" (= "ما قَصَدتُ أن أُحِيلَ عليهِ كانَ What I intended to refer to was" أو "ما قَصَدتُ أنْ تُحِيلَ عليهِ كانَ What I intended you to refer to was"). وتَزدادُ صُعوبَةُ عَمَلٍ فَحصٍ دَقيقٍ لِلمَوضوعِ قَيْدِ النِّقاشِ تَعاظُمًا؛ ذلكَ بِأنَّ ما قَصَدتُ أن أُحِيلَ عليهِ What I intended to refer to قد يَكونُ مُختَلِفًا تَمامًا عَمّا أَحَلْتُ عليهِ فِعْلاً What I did refer to، وهذهِ حقيقَةٌ

---

(7) تَقودُ المُصادَفَةُ الفيلولوجِيَّةُ المناطِقَةَ أحيانًا إلى الجِدالِ في هذا. إذ يَقولُ جوزيف Joseph في كِتابِهِ مُقَدِّمَةٌ لِلمَنطِقِ *Introduction to Logic*، ص131: "كَلِمَةُ 'القَصْد intention' تُوحِي، على نَحوٍ طَبيعيٍّ، بِما نَقْصِدُ أو نَعْني بِلَفْظٍ مّا".
وعلى مدَى عِشرينَ عامًا حَضَّت السَّيِّدَةُ ويلبي Welby الفَلاسِفَةَ وغيرَهُم، على نَحوٍ بَليغٍ، أن يُوَجِّهوا اهتِمامَهم إلى مَعنَى المعنَى، ولاسِيَّما في مَقالاتِها في "المفاد، والمعنَى، والتَّأويل Sense, Meaning, and Interpretation" التي أحَلْنا عليها آنِفًا (*Mind*, 1896, p. 187, etc.)، ورُبَّما كانَتْ قد أخفَقَتْ في أن تَحمِلَ اقتِناعًا راسِخًا بِذلكَ؛ إذ أقنَعَتْ نَفسَها بِإلحاحٍ غامِضٍ على المعنَى بِوَصفِهِ قَصْدًا بَشَريًّا. ولَمّا كانَتِ التَّمييزاتُ الضَّروريَّةُ في هذا الحقلِ مِمّا لا يُمكِنُ على الدَّوامِ التَّوَصُّلُ إليهِ بِحِسٍّ لُغَوِيٍّ مُهَذَّبٍ فَحَسْبُ، لم تُقَدِّمِ التَّحليلَ الضَّروريَّ في كِتابِها ما المعنَى؟ *What is Meaning?*، ولا في الذي بَعدَهُ دِراسَةُ المَغْنَى واللُّغَةُ *Significs and Language* (1911)، والذي جاءَ فيهِ ما يأتي (ص9):
"المسألَةُ الحاسِمَةُ الوَحيدَةُ في كُلِّ تَعبيرٍ هيَ صِفَتُهُ المُمَيِّزَةُ الخاصَّةُ المتعلِّقَةُ أوَّلاً بالمفادِ الذي يُستَعمَلُ بِهِ، ثُمَّ بِالمعنَى بِوَصفِهِ قَصْدًا لِلمُستَعمِلِ، ثُمَّ بِما يَتَضَمَّنُهُ، بِالمَغْزَى المُطلَقِ، وهذا الأخيرُ هوَ أبعَدُها أثَرًا وأخطَرُها"، في الوَقتِ الذي يَزيدُ فيهِ القَضِيَّةَ تَخليطًا أصداءُ عِباراتِ مَرحَلَةٍ دينيَّةٍ مُوغِلَةٍ في القِدَمِ.

مُهِمَّةٌ يَنبَغي أن نتذَكَّرَها إذا ما رَغِبْنا في التَّوَصُّلِ إلى تَفاهُمٍ مُشتَرَكٍ، ومِن ثَمَّ إلى اتِّفاقٍ أو اختِلافٍ.

وقد يُستَعمَلُ قَصدُ المُتَكَلِّمِ، على نَحوٍ طَبيعِيٍّ تَمامًا، مُرْتَبِطًا بِالإحالَةِ مِن أجلِ الخُروجِ بِتعريفاتٍ مُعَقَّدَةٍ لِلمَعنَى لأَغراضٍ خاصَّةٍ. فَمِمّا جاءَ في مَقالَةٍ حَديثَةٍ قَولُ كاتِبِها: "هَلْ مَعنَى جُملَةٍ مّا هوَ ذلكَ الذي يَكونُ في ذِهنِ المتَكَلِّمِ لَحظَةَ التَّكَلُّمِ، أو هو ذلكَ الذي يَكونُ في ذِهنِ المُستَمِعِ لَحظَةَ الاستِماعِ؟ لا أَظُنُّهُ أيًّا منهُما. [192] لا شَكَّ في أَنَّهُ ليسَ ذلكَ الذي يَكونُ في ذِهنِ المُستَمِعِ؛ إذ قد يُسيءُ فَهمَ غَرَضِ المُتَكَلِّمِ كُلِّيًّا. ولكِنَّهُ، كذلِكَ، ليسَ ذلكَ الذي يَكونُ في ذِهنِ المتَكَلِّمِ؛ إذ قد يَتَعَمَّدُ أن يُخفِيَ في كَلامِهِ الأفكارَ التي في دِماغِهِ، ومِن المُؤَكَّدِ أنَّهُ ما كانَ في وُسْعِهِ أن يَفعَلَ ذلكَ لَو أنَّ مَعنَى الكَلامِ مُطابِقٌ تَمامًا لِذلِكَ الذي يَحتَفِظُ بِهِ في دِماغِهِ. وأظُنُّ أنَّ الصِّياغةَ الآتيَةَ سَتَفي بِالمُرادِ: مَعنَى أَيَّةِ جُملَةٍ هوَ ما يَقصِدُ المُتَكَلِّمُ أن يَكونَ مَفْهُومًا لِلمُستَمِعِ مِنها"[8].

وعِبارَةُ "أن يَكونَ مَفهُومًا" في هذا الموضِعِ مُتَناقِضَةٌ. إذ إنَّها تَرْمِزُ إلى عِدَّةِ أُمورٍ، أوَّلُها: أن يَكونَ مُحالاً عليهِ + وثانيها: أن يَكونَ مُستَجابًا لَهُ + وثالِثُها: أن يَكونَ مُحَسًّا بِهِ تجاهَ المَرْجِعِ + ورابِعُها: أن يَكونَ مُحَسًّا بِهِ تجاهَ المُتَكَلِّمِ + وخامِسُها: أن يَكونَ مُفتَرَضًا أنَّ المُتكلِّمَ يُحِيلُ عليهِ + وسادِسُها: أنَّ المُتكلِّمَ يَرغَبُ فيهِ، وما إلى ذلكَ، وما إلى ذلكَ.

وإنَّما نَذكُرُ هذهِ التَّعقيداتِ هُنا لِنُظهِرَ كَم هيَ غامِضَةٌ مُعظَمُ الألفاظِ التي يَشِيعُ اعتِقادُ أنَّها مُرضِيَةٌ في هذا الموضوعِ. فكَلِمَةُ 'يَفهَمُ'، مَثَلاً، ما لم تُعالَجْ على نَحوٍ خاصٍّ، هيَ على دَرَجَةٍ عاليَةٍ مِن الغُموضِ بِحَيثُ لا تُفيدُ إلّا مُؤَقَّتًا أو في مُستَوَياتٍ مِن الخِطابِ يَكونُ الفَهمُ الحقيقيُّ فيها لِلموضوعِ (بِمَعنَى الإحالَةِ) غيرَ مُمكِنٍ. وسَيكونُ ثَمَّةَ تَصنيفٌ ونِقاشٌ لِلوَظائفِ المُتعدِّدَةِ لِلكَلامِ في الفَصلِ القادِمِ. وسَيَتَّضِحُ هُناكَ أنَّ التَّعبيرَ عَن قَصْدِ المُتكلِّمِ هوَ إحدَى الوَظائفِ الخَمْسِ

---

(8) A. Gardiner, *Brit. Jour. Of Psych.*, Vol. XII., Part iv., 1922, p. 361.

النِّظامِيَّةِ لِلُّغَةِ. ولا يَنبَغي أَن يُؤَكِّدَ بإفراطٍ، لكِن يَنبَغي أن يُتَذَكَّرَ، أنَّ أهمِّيَّةَ هذهِ الوَظيفَةِ، شأنُها شأنُ الوَظائفِ الأُخرَى، تَتَفاوَتُ تَفاوُتًا عَظيمًا مِن شَخصٍ إلى آخَرَ، ومِن مُناسَبَةٍ إلى أُخرَى.

إنَّ إدراكَ التَّعدُّدِ الوَظيفِيِّ لِلُّغةِ الاعتياديَّةِ أساسِيٌّ مِن أجلِ مُقارَبَةٍ جادَّةٍ لِمُشكِلَةِ المعنَى. ولا نَرغَبُ هُنا إلّا في التَّنبيهِ على أنَّ 'المعنَى' مِن حيثُ كَونُهُ 'ذلكَ الذي يَقصِدُ المُتكلِّمُ أن يُحِيلَ المُستَمِعُ عليهِ'، وأنَّ 'المعنَى' مِن حيثُ كَونُهُ 'ذلكَ الذي يَقصِدُ المُتكلِّمُ أن يُحِسَّ بهِ المُستَمِعُ ويَفعَلَهُ'، وما إلى ذلكَ، مُتَمايِزانِ بِوُضوحٍ. [193] ويَجِبُ إدراكُ هذهِ التَّمايُزاتِ واستِعمالُها في الكثيرِ مِن الأَحوالِ الكَلاميَّةِ التي هيَ أكثَرُ دِقَّةً.

وأوَّلُها ما يُعْنَى على نَحوٍ خاصٍّ بِما هوَ خَطَأٌ مِن حالاتِ التَّوجيهِ التي رأيْنا في فَصلِنا الأوَّلِ أنَّها شائعةٌ كَثيرًا. وفي حالةِ الكِذْبَةِ النّاجِحةِ يُنشِئُ الشَّخصُ المخدوعُ الإحالَةَ التي يَقصِدُ الخادِعُ أن يُنْشِئَها، وإذا ما عَرَّفْنا 'المعنَى' بأنَّهُ 'ذلكَ الذي يَقصِدُ المُتكلِّمُ أن يُحِيلَ عليهِ المُستَمِعُ' فإنَّ الضَّحِيَّةَ ستَكونُ قد أوَّلَتْ قَولَ المُتَكَلِّمِ على نَحوٍ صَحيحٍ. إذ ستَكونُ قد أمسَكَتْ بِمَعْناهُ. لكِن لِنتأمَّلْ حالةَ مُؤَوِّلٍ أكثرَ دَهاءً، فإنَّه يُطَبِّقُ عَمليَّةَ تأويلٍ أُخرَى (ترتكِزُ، مَثَلاً، على معرفتِهِ بِأُصولِ اللُّعْبَةِ) لِتُوصِلَهُ إمّا إلى مُجَرَّدِ رَفضِ الإحالَةِ المقصودَةِ، وإمّا إلى إحالَةٍ أُخرَى تَختَلِفُ تَمامًا عن الإحالَةِ المقصودَةِ. فإن عَثَرَ في هذهِ الحالةِ الأخيرَةِ على الإحالَةِ التي صُمِّمَتِ الإحالَةُ المُقتَرَحَةُ الكاذِبَةُ لِتَصرِفَهُ عنها، فَكَثيرًا مَا يُقالُ عنهُ إنَّهُ قد فَهِمَ مُرادَ المُتكلِّمِ، أو قد حَزَرَ 'مَعْنَاهُ الحَقيقِيَّ.' ويَنبَغي أن يُلْحَظَ أنَّ هذا المعنَى الأخيرَ غيرُ رَمزِيٍّ. فَالمُستَمِعُ الحصيفُ يتناوَلُ، فحَسْبُ، سُلوكَ المُتكلِّمِ، وبِضِمنِهِ الكَلِماتُ التي يُطلِقُها، بِوَصفِهِ مَجموعةَ عَلاماتٍ تُؤَوِّلُ بِقَصدٍ وإحالَةٍ لَدَى المُتكلِّمِ، لا تَرمِزُ إلَيهِما الكَلِماتُ العابِرَةُ في مُناسَبَةٍ مُعَيَّنَةٍ. فَضارِبُ الكُرَةِ الذي يلعَبُ 'الكريكيت' على نَحوٍ صَحيحٍ إنَّما يُمارِسُ ضَرْبًا مِن التَّأويلِ مُماثِلاً تَمامًا. إذ إنَّهُ يُخَمِّنُ 'مَعْنَى' حَرَكَةِ رامِي الكُرَةِ بإهمالِ عَلاماتٍ مُعَيَّنَةٍ مِمّا هو مَعروضٌ منها.

وكلُّ حالاتِ 'الازدِواجِ'، سَواءٌ أكانَتْ مُتَعَمَّدَةً (قَصدِيَّةً) أم غيرَ مُتَعَمَّدَةٍ، يُمكِنُ تَحليلُها بالطَّريقَةِ نَفسِها[9]، معَ العِلمِ بِأنَّ مِثالَ خِداعِ الذّاتِ الخاصَّ، الذي يتعلَّقُ بالأحكامِ الاستِبطانيَّةِ التي تُناقَشُ لاحِقًا، ذو أهمِّيَّةٍ عَظيمَةٍ لِلنَّظريَّةِ بِعامَّةٍ. ويَتطلَّبُ الأمرُ هُنا حَذَرًا عظيمًا لِتَجنُّبِ أيِّ خَلطٍ بينَ إحالاتِ المُتكلِّمِ المقصودَةِ أو المُعلَنَةِ، وإحالاتِهِ الفِعليَّةِ. [194]

والحقُّ أنَّ هذا اللَّبْسَ المخصوصَ مِن أشَدِّ ما لا يُرغَبُ فيهِ مِمّا عَلَينا أن نتعامَلَ مَعَهُ مِنهُ. وما لَم يَكُنْ ثَمَّةَ تَمييزٌ واضِحٌ لِوَجْهَي العمليَّةِ الذِّهنيَّةِ الإحاليِّ والتَّأثيرِيِّ-الإرادِيِّ، فلن تَكونَ مُناقَشَةُ عَلاقَتِهما مُمكِنَةً. والخَلطُ في الإحالَةِ، في أحدِ الأشكالِ الخاصَّةِ جِدًّا لِلوَجْهِ الأخيرِ، أي 'القَصْد'، كارِثِيٌّ. ويُمكِنُ عَرْضُ هذهِ النُّقطةَ بِتَلاعُبٍ بِالألفاظِ، فيُقالُ: إنّا كَثيرًا مّا نَعْني ما لا نَعْنِيهِ، أي إنّا نُحِيلُ على ما لا نَقصِدُهُ، وإنّا نُفَكِّرُ تفكيرًا مُتواصِلاً في أشياءَ لا نُريدُ التَّفكيرَ فيها. والحقُّ أنَّ 'يَعْنِي'، بِوَصفِهِ اختِزالاً لِـ'يَقصِدُ أن يُحِيلَ على'، هوَ مِن أقَلِّ الإجراءاتِ الرَّمزِيَّةِ المُمكِنَةِ تَوفيقًا.

والتَّفريقُ بينَ وَجْهَي العمليَّةِ الذِّهنيَّةِ مِن وِجهةِ نَظَرِ نَظريَّةِ السِّياقِ يُمكِنُ تَحديدُهُ بِإيجازٍ، ومِن ثَمَّ بِإبهامٍ، على النَّحوِ الآتي: إذا ما أُعطِيَتِ الإحالَةُ التي أنشَأَها تأويلُ العَلامَةِ السِّياقَ السّايكولوجِيَّ الذي تنتمي إليهِ العَلامةُ، أصبَحَتْ هذهِ الإحالَةُ راسِخَةً كذلكَ. غيرَ أنَّ العَلامَةَ الواحِدَةَ (أو العَلاماتِ ذواتِ الخصائصِ المُتَشابِهَةِ جِدًّا) يُمكِنُ أن تَنتَمِيَ إلى سِياقاتٍ سايكولوجيَّةٍ مُختلِفَةٍ. وتُمَثِّلُ أشكالٌ هَندسيَّةٌ مُعَيَّنَةٌ يُمكِنُ أن تُرَى، 'ساعَةَ يَشاءُ المَرْءُ' تَقريبًا، مُنحَسِرَةً عن السَّطْحِ الذي تُرسَمُ هذهِ الأشكالُ عليهِ أو مُنْبَثِقَةً مِنهُ، نَماذِجَ مَعروفَةً ومُلائمَةً لِذلكَ. فَإذا ما أَثَرْنا السُّؤالَ الآتيَ: كيفَ تَكونُ العَلامَةُ مُنتَمِيَةً إلى السِّياقِ الذي تنتَمِي إليهِ؟ أو كيفَ تَعبُرُ مِن سِياقٍ إلى آخَرَ؟ كُنّا قَد أَثَرْنا أسئلَةً تتعلَّقُ بِالوَجْهِ

(9) مِمّا يُضِيءُ هذهِ النُّقطَةَ مُعالَجَةُ مارتِناك Martinak لِفَنِّ الخَطيبِ، والدِّبلوماسيِّ، والمُحتالِ، والكاذِبِ، في كِتابِهِ (دِراساتٌ سايكولوجيَّةٌ في نظريَّةِ المعنَى *Psychologische Untersuchungen zur Bedeutungslehre*، ص82).

التَّأثيرِيِّ-الإرادِيِّ. والحَقائقُ المُتعلِّقَةُ بِتشكيلِ العادَةِ، وبِالرَّغبَةِ، وبِالنَّغمَةِ المُؤَثِّرَةِ، التي يُرتَكَزُ عليها لِلإجابَةِ عن هذهِ الأسئلَةِ، حَقائقُ مُؤَكَّدَةٌ إلى حَدٍّ مّا، ولكِنْ، إلى حِينِ اكتِشافِ حقائقَ أُخرَى وفَرضِيَّةٍ يُمكِنُ بوَساطتِها أن تُؤَوَّلَ وتُنَظَّمَ، ما زالَ تأمُّلُ الأمرِ مُمكِنًا إمّا بِلُغَةٍ حَماسيَّةٍ، وإمّا بِلُغَةٍ تِلقائيَّةٍ. ومِمّا لم يَحِنْ بَعدُ أوانُ الإجابَةِ عنهُ: أيُّ نَوعٍ مِن اللغاتِ يُقَدِّمُ على نَحوٍ عِلمِيٍّ أكثَرَ الرُّموزِ كِفايَةً، أو: ألا يُمكِنُ وُجودُ رُموزٍ مُحايِدَةٍ؟ وفي هذهِ الأثناءِ، لا [195] عُذرَ في جَعْلِ عِبارَةٍ مُضطَرِبَةٍ لِمُشكلةٍ غيرِ مَحلولةٍ وصَعبَةٍ أداةً رئيسَةً لِجَميعِ بُحوثِنا، وهذا ما سنَفعَلُهُ إذا ما سَلَّمْنا بِـ'المعنَى' على الوَجْهِ الذي نُوقِشَ بِهِ هُنا بِوَصفِهِ تَصَوُّرًا جَوهَرِيًّا.

ونقولُ عن الفَرعِ (ب) مِن التَّعريفِ السّابعِ إنَّ الَّذينَ لا يَتَّضِحُ لدَيهِم مَجالُ هذا التَّساوي: "مَعناهُ مُحَقَّقٌ" = "لَدَيهِ رَغَباتٌ مُحَدَّدَةٌ" كَثيرًا مّا يَجِدُونَ أنفُسَهُم مَسُوقِينَ إلى استِنتاجِ أنَّ كَوْنَ 'المَعنَى' = 'الرَّغَبات' = 'الاختِيار' (حَدَثٌ ذِهنِيٌّ)، وما إلى ذلكَ، إنَّما هو سايكولوجِيٌّ تَمامًا، أو، على ما يحلو لهم كَثيرًا أن يُطلِقُوا عليهِ، هوَ شَخصِيٌّ خالِصٌ[10]. وكَثيرًا مّا يَنشَأُ مِثلُ هذا اللَّبْسِ اللُّغَوِيِّ مرَّةً أُخرَى حينَ يُعَدُّ الكَونُ دَليلاً على إرادَةٍ أو تَصميم، وإذا ما أُحِلَّ 'المعنَى' مَحَلَّ 'القَصْدِ' أو 'الغَرَضِ' لِمِثلِ هذهِ الإرادَةِ فحينَئذٍ سيَكُونُ مَعنَى أيِّ شَيءٍ هوَ غَرَضَهُ- على ما يتصَوَّرُهُ المُتكلِّمُ بِوَصفِهِ مُؤَوِّلاً لِلخطَّةِ المُقَدَّسَةِ، أو وَظيفَتَهُ عندَ غائيِّي البايولوجِيِّينَ المُتحيِّزينَ لِلدّافِعِ الحَيَوِيِّ *élan vital*. وعادَةً مّا تتضَمَّنُ عِبارَةٌ نَحوُ: مَعنَى الحياةِ (يُنظَرُ، على سبيلِ المِثالِ، مُعالَجَةُ البروفيسور مونشتربيرغ المذكورةُ آنِفًا) وِجهَةَ نَظَرٍ كَهذِهِ، غيرَ أنَّ ثَمَّةَ تأويلاً آخَرَ مُمكِنًا أحيانًا، وذلكَ حينَ يُساوَى المعنَى بِـ'المَغْزَى' (في التَّعريفِ الثّامِنِ). فَهُنا لا تكونُ فِكرَةُ الغَرَضِ مُتضَمَّنَةً على الدَّوامِ، ويُقالُ عن مَعنَى أيِّ شَيءٍ إنَّهُ قد أُمسِكَ بِهِ حينَ فُهِمَ بِوَصفِهِ مُرتَبِطًا بِأشياءَ أُخرَى، أو بِوَصفِهِ يَملِكُ مَوقِعَهُ في نِظامٍ مّا بِمُجمَلِهِ.

---

(10) ثَمَّةَ مَنحًى آخَرُ لِتقديمِ اللمسةِ الشَّخصيَّةِ، وهي مُساواةُ 'مَعْنَايَ' بِـ'أفكارِي' سَواءٌ أكانَتْ عن شَيءٍ مّا، أم لم تَكُنْ، كما يَحدُثُ حينَ تُصَرِّحُ إحدَى المُتناظِراتِ بِأنَّ تَعبيرَها عن مَعناها كانَ ناقِصًا، لكِنَّها تَدَّعي أنَّ الأفكارَ شَخصيَّةٌ ودَقيقَةٌ إلى حَدٍّ لا يُمكِنُ معهُ 'التَّعبيرُ' عنها بِإيفاءٍ البَتَّةَ.

ويُقَدِّمُ لنا السَّيِّدُ رَسِل أمثِلَةً جَيِّدَةً لِكِلا هذَيْنِ الاستِعمالَيْنِ، ولَيسَ ضَرورِيًّا زِيادَةُ القَولِ، على نَحوِ ما يَستَعمِلُهُ هُنا، إنَّ كِلَيْهِما تَعبيرٌ مَحمودٌ ومُريحٌ. وفي خاتِمَةِ الوَصفِ الخالِدِ لِميفِستوفيليس Mephistopheles لِتأريخِ كَونِنا، نقرأُ الآتيَ: "إنَّ العالَمَ الذي يُقَدِّمُهُ العِلْمُ لِنُؤمِنَ بِهِ هوَ، بِإيجازٍ، على هذا النَّحوِ، بَل هوَ أكثرُ عَبَثِيَّةً، أكثَرُ خَواءً مِن المعنَى"[11]. [196] ونُوردُ، مَرَّةً أُخرَى، ما يتعلَّقُ بالمُعالَجَةِ الجُزافيَّةِ لِلرِّياضِيّاتِ في الكُتُبِ المدرسيَّةِ: "حُبُّ النِّظامِ يُمكِنُ أن يُطلَقَ لهُ العِنانُ في الرِّياضِيّاتِ كما لا يَكونُ ذلِكَ في مَجالٍ آخَرَ. والمُتَعلِّمُ الذي يَستَشعِرُ هذا الباعِثَ لا يَنبَغي أن يُنَفَّرَ بِمَصفوفَةٍ مِن الأمثِلَةِ الخاليةِ مِن المعنَى، أو يُلهَى بِغرائبَ مُسَلِّيَةٍ"[12].

ولا يُهِمُّ نَوعُ النِّظامِ الذي يَكونُ فيهِ الشَّيءُ، الذي يُقالُ إنَّهُ ذُو 'مَعنًى' بِهذا الوَجْهِ، مُلائمًا. فالتَّصاميمُ أو المَقاصِدُ، إنسانيَّةً كانَتْ أم غيرَ ذلكَ، تُشَكِّلُ فَرْعًا رَئيسًا واحدًا مِن ذلكَ النِّظامِ، على أنَّ ثَمَّةَ كَثيرًا غيرَهُ. فعَلَى سبيلِ المِثالِ، مِن النّاسِ مَن قِيلَ عَنهُم إنَّهُم كانُوا بَطيئِي الإمساكِ بِـ'مَعنًى' إعلانِ الحربِ، وبِتعبيرٍ آخَرَ، لم يُفَكِّرُوا بِسُهولَةٍ في كُلِّ أنواعِ العَواقِبِ التي كانَتْ مُرتَبِطَةً ارتِباطًا سَبَبِيًّا بِذلكَ الحَدَثِ. فعَلَى نَحْوٍ مُشابِهٍ يُمكِنُنا أن نسأَلَ عن 'مَعنَى' البطالَةِ.

وسيُوضِحُ اللاهُوتِيُّ 'مَعنَى' الخطيئةِ بِشَرحِ مُلابَساتِ سُقوطِ آدَمَ، وتأريخِ الرُّوحِ ومَصيرِها. وعلى نَحوٍ مُشابِهٍ، قد يَنقَدِحُ 'مَعنَى' القُبَّعاتِ العالِيَةِ في ذِهنِ سوسيولوجِيٍّ مّا حينَ يُمَيِّزُها بِوَصفِها جُزءًا مِن ظَواهِرِ التَّفاخُرِ المفضوحِ.

يقولُ السَّيِّدُ ستانلي ليثِز Stanley Leathes[13]: "أنا أشُكُّ في كَونِ التَّواريخِ

---

(11) اقتِباسٌ من مَقالَةٍ للفيلسوفِ برتراند رَسِل عُنوانُها (عِبادَةُ إنسانٍ حُرٍّ)، وهي مَنشورةٌ في كِتابِهِ الذي عُنوانُهُ (التَّصَوُّفُ والمَنطِق). [المُترجِم]

(12) *Op. cit., Mysticism and Logic*, pp. 47 and 66.

(13) ستانلي موردونت ليثِز (1861-1938م). مُؤرِّخٌ، ومُتَوَلٍّ لِلخِدماتِ المَدنيَّةِ بريطانيٌّ، وزميلُ كلِّيَّةِ ترِنِتي في جامعةِ كيمبرِج، ومُحاضِرُ مادَّةِ التأريخِ، واحدُ مُحرِّري تأريخِ كيمبرِج المعاصِرِ. أهَمُّ مؤلَّفاتِهِ: ما التَّربية؟ [المُترجِم]

الرَّقْمِيَّةِ تَحمِلُ أيَّ مَعنًى لَدَى مُعظَمِ الأطفالِ. وقَد سألْتُ مَرَّةً غُلامًا في إحدَى مَدارسِ الأحَدِ: مُنذُ كَم مِن الزَّمَنِ عاشَ سَيِّدُنا المَسيحُ؟ فأجابَ: 'مُنْذُ أربَعِينَ يَومًا'"[14]. وليسَ التَّذَمُّرُ مِن أنَّ التَّواريخَ لا 'تُوحِي' بِشَيءٍ، بَل رُبَّما مِن أنَّ 'مَغْزاها' في القِياسِ العامِّ لِلزَّمَنِ لا تُمسِكُ بِهِ عُقولُ الصِّبيانِ. ويُشبِهُ هذا ما يُقالُ عن أرقامِ المسافاتِ لِلنُّجومِ البَعيدَةِ مِن أنَّها لا 'مَعنَى' لَها عندَنا جَميعًا.

غيرَ أنَّ 'المَعنَى' بِهذا الوَجهِ مُبْهَمٌ إبهامًا لا يكونُ مَعَهُ ذا نَفعٍ كبيرٍ حتَّى لِلخُطَباءِ. هل مَعنَى البطالَةِ أسبابُها أو نتائجُها، وهَل تُؤخَذُ نتائجُها مِن زاوِيَةٍ اجتِماعيَّةٍ أو مِن زاوِيَةِ ما يُعانيهِ مِنها الفَردُ العاطِلُ عن العَمَلِ؟ [197] استِنادًا إلى ذلكَ، شاعَ تَقديمُ تقييداتٍ مُتَنوِّعةٍ أعانَتْ على إحرازِ أوْجُهٍ أكثَرَ تَحديدًا لِـ'المَعنَى' بِوَصفِهِ مَوْضِعًا في نِظامٍ مّا، اثنانِ منهما مُهِمّانِ بِما يَكفي لِيَرقَيَا إلى أن يُمَثِّلا تَعريفَيْنِ مُستقِلَّيْنِ لِلمَعنَى، ما دامَ كُلٌّ منهُما قد جُعِلَ حَجَرَ الزّاوِيَةِ لِصَرحٍ ميتافيزيقيٍّ، نَعنِي بِهما 'المَعنَى' بِوَصفِهِ نَتائجَ عَمَلِيَّةً، وبِوَصفِهِ نَتائجَ نَظَرِيَّةً. فَفي كِلتا الحالَتَيْنِ يَكونُ 'المَعنَى' بَقِيَّةَ النِّظامِ التي يُؤخَذُ مِنها كُلُّ ما لَهُ 'مَعنًى.' وسنَقِفُ على نَوعٍ آخَرَ أضْيَقَ وأكثَرَ عِلمِيَّةً لِهذا 'المَعنَى' قَيْدَ الاستِعمالِ حينَ نَنظُرُ في العَلاماتِ الطَّبيعيَّةِ.

أمّا تَقديمُ المعنَى مِن زاوِيَةِ النَّتائجِ العَمَلِيَّةِ (في التَّعريفِ التّاسِعِ) فَيَرتَبِطُ ارتباطًا رَئيسًا بِالبراغماتِيِّينَ. فَوِلِيَم جَيمس William James نَفسُهُ يَرَى أنَّ "مَعنَى أيَّةِ قَضِيَّةٍ يُمكِنُ على الدَّوامِ إسقاطُهُ على نَتيجَةٍ مّا مَخصوصَةٍ في تَجربتِنا العَمَلِيَّةِ المُستقبَلِيَّةِ، على مُستَوَى الكُمُونِ أو على مُستَوَى الفِعلِ"[15]، أو على ما يُعَبِّرُ عن ذلكَ في كِتابِهِ البراغماتيَّة *Pragmatism* (ص201)، بِقَولِهِ: "الأفكارُ الصّادِقَةُ هيَ التي نَستطيعُ استيعابَها، وتأييدَها، وتثبيتَها، وتَحقيقَها. والأفكارُ الكاذِبَةُ هيَ التي لا نَستطيعُ فِعلَ ذلكَ مَعَها. وهذا هوَ الفارِقُ العَمَلِيُّ الذي يُقَدِّمُهُ لَنا امتِلاكُ أفكارٍ صادِقَةٍ. لِذلكَ، كانَ هو مَعنَى الصِّدْقِ؛ إذ لا يُعرَفُ مُمَثِّلٌ لِلصِّدْقِ غَيرُهُ".

---

(14) *What is Education?*, p. 178.

(15) W. James, *The Meaning of Truth*, p. 210.

يُماثِلُ ذلكَ ما يَفعَلُهُ الَّذينَ يُقَدِّمونَ كَلِمَةَ 'يَعْنِي' في نَثرِهِم مُرادِفَةً لِـ'يَتَضَمَّنُ' أو 'يَستَلْزِمُ مَنطِقِيًا' (في التَّعريفِ العاشِرِ). بِذلكَ تَكونُ جَميعُ النَّتائجِ النَّظريَّةِ لِوِجهَةِ نَظَرٍ مّا أو عِبارَةٍ مّا، أو أيٌّ منها، مُنضَوِيَةً بِالتَّعبيرِ الفَلسَفِيِّ الشّائعِ في 'مَعْنَاها'، على نَحوِ ما يُقالُ لَنا (*Mind*, 1908, p. 491): "في الوَقتِ الذي يكونُ فيهِ الإلحاحُ على النَّتائجِ وَحدَها يَعْني جَهلَ الأسبابِ عندَ سبِنوزا Spinoza[16]، يَكونُ الإلحاحُ على الأسبابِ وَحدَها يَعْني جَهلَ النَّتائجِ عندَ البروفيسور لَوري Laurie[17]".

أمّا التَّعريفُ الحاديَ عَشَرَ (العاطِفَةُ) فيَقتَضي وقفَةً قَصيرةً. إنَّهُ وَجْهٌ مُحَدَّدٌ لِلمَعنَى لا يُحتَمَلُ أن يُقحَمَ لِيُسَبِّبَ اضطِرابَ قَضايا أُخرَى إلّا عندَ الأُدَباءِ. وستكونُ ثَمَّةَ مُعالَجَةٌ مُستقِلَّةٌ لِلاستِعمالِ العاطِفِيِّ لِلُّغَةِ [198] في الفَصلِ القادِمِ، حيثُ سيُخضَعُ ما كانَ قَد قيلَ عن هذا الموضوعِ لِلتَّطبيقِ. وفي الفَصلِ السّابِقِ بعضُ الأمثِلَةِ النّموذَجِيَّةِ لِلاستِعمالِ العاطِفِيِّ لِلمَعنَى. وكَثيرًا مّا تكونُ الكَلِمَةُ انفِعاليَّةً مَحضَةً (يُنظَر: كَلِمَةُ 'حَسَن' ص219)، وفي هذهِ الحالاتِ لَن يَجِدَ الكاتِبُ، إنْ كانَ مَعروفًا بِأنَّهُ صاحِبُ أُسلوبٍ، بَديلاً لَها، ولَن يُحاوِلَ القارِئُ العاقِلُ التَّوصُّلَ إلى تَعريفٍ رَمزِيٍّ لَها.

والفَحصُ المُفَصَّلُ لِهذا الوَجْهِ مِن المَعنَى يَكادُ يَكونُ مُساوِيًا لِلبَحثِ في القِيَمِ، كما في مُحاوَلَةِ البروفيسور أُوربان W. M. Urban[18] في بَحثِهِ الهائلِ في

(16) باروخ سبِنوزا (1632-1677م). فيلسوفٌ هولنديٌّ من أهَمِّ فلاسفةِ القرنِ السابعَ عشرَ. يُعَدُّ كتابُهُ (الأخلاق) الذي ألَّفَهُ سنةَ 1677 من أهمِّ الكتبِ المؤثِّرَةِ في الفلسفةِ الغربيَّةِ. ومن مؤلَّفاتِهِ الأخرى: مَبادِئُ فلسفةِ ديكارت، ورِسالةٌ في اللاهُوتِ والسياسة. [المُترجِم]

(17) هنري لوري (1837-1922م). صحفيٌّ وفيلسوفٌ أسكتلنديٌّ. دَرَسَ الأدبَ والفلسفةَ العقليَّةَ والأخلاقيَّةَ في جامعةِ إدِنبيرغ بينَ سنتَيْ 1856 و1860. أهَمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (الفلسفةُ الأسكتلنديَّةُ في تطوُّرِها المحلِّيِّ). ومن كتبِهِ الأخرى المهمَّةِ: (أفكارٌ في الخلود) الذي كانَ في الأصلِ آخِرَ سلسلةٍ من المحاضَراتِ في الأخلاقيّاتِ الكانتيَّةِ؛ وبَحثٌ في أفكارِ جون ستيوَرت مِل عنوانُهُ (مَناهِجُ البحثِ الاستِقرائيّ) نُشِرَ في دوريَّةِ *Mind* سنةَ 1893. [المُترجِم]

(18) وِلبور مارشال أُوربان (1873-1952م). فيلسوفُ لُغةٍ أمريكيٌّ، تأثَّرَ بإيرنِست كاسيرر. =

الموضوعِ، حيثُ تَبدو 'الأخبارُ القِيمِيَّةُ' في صُورَةِ 'مَعَانٍ تَأثيرِيَّةٍ-إرادِيَّةٍ مُدَّخَرَةٍ.' إذ إنَّ "كَلِماتِ 'الله'، و'الحُبّ'، و'الحُرِّيَّة' لَها إيحاءٌ عاطِفِيٌّ حقيقيٌّ، وتُخَلِّفُ وراءَها أثَرًا لِمَعنًى وجدانِيٍّ... ويُمكِنُنا أن نتحَدَّثَ، مُحِقِّينَ تَمامًا، عَن الإيحاءِ العاطفيِّ لِمِثلِ هذهِ الكَلِماتِ بِوَصفِهِ المَعنى المُدَّخَرَ لِرُدُودِ فِعلٍ عاطِفِيَّةٍ سابِقَةٍ، وعَن التَّجريداتِ الوجدانيَّةِ التي تُشَكِّلُ الرَّوابِطَ النَّفْسِيَّةَ لِهذا المعنَى بِوَصْفِها بَقَايَا مَشاعِرِ حُكمٍ سابِقَةٍ"[19]. ومِمّا يُؤْسَفُ عليهِ أنَّ وَلَعَ أُوربان بتَصاحُبِ تِقْنِيّاتٍ مُوحِشَةٍ قد حالَ دُونَ تَعَرُّفِ أشملَ لآراءٍ مُعظَمُها سَليمٌ جِدًّا ومَشروحٌ بِاعتِناءٍ تامٍّ.

ثُمَّ إذا انتقَلْنا إلى المجموعةِ الثّالثةِ من التَّعريفاتِ وَجَدْنا أوَّلَها التَّعريفَ الثّانيَ عَشَرَ الذي يُجَسِّدُ مَذهبَ العَلاماتِ الطَّبيعيَّةِ. فمِن المُفتَرَضِ عُمومًا أنَّ كلَّ حَدَثٍ مُفرَدٍ يَرتَبِطُ بِأحداثٍ أُخرَى بِطَرائقَ مُختلِفَةٍ. فَكلُّ حَدَثٍ مُفرَدٍ يَتَعَلَّقُ فِعلِيًّا، على نحوٍ سَبَبِيٍّ أو زَمانِيٍّ أو على نَحوٍ آخَرَ، بِأحداثٍ أُخرَى لِيَتَوَلَّدَ، بِمُعامَلَتِنا هذا الحدَثَ بِوَصفِهِ عَلامَةً متَّصِلَةً بِعَلاقَةٍ مّا مِن هذا القَبيلِ، حَدَثٌ آخَرُ يكونُ هوَ مَعنَاهُ، أي المُتَعَلِّقَ الذي يُعَلَّقُ على هذا النَّحوِ. وهكذا، يَكونُ الأثَرُ الذي يُخَلِّفُهُ إشعالُ عُودِ الثِّقابِ اتِّقادًا، أو دُخانًا، أو تَساقُطَ رأسِ العُودِ، أو صَوتَ كَشطٍ فَحَسْبُ، أو تَعَجُّبًا. في هذهِ الحالةِ [199] يكونُ الأثَرُ الفِعلِيُّ هوَ مَعْنَى الكَشْطِ، إذا عُومِلَ بِوَصفِهِ عَلامَةً بِهذا الخُصوصِ، والعَكسُ صَحيحٌ أيضًا.

وعلى وَفقِ هذا المنحَى يَتَحدَّثُ المُحَلِّلُ النَّفسِيُّ كَثيرًا عن مَعنَى الأحلامِ. فَحينَ يَكتَشِفُ 'مَعْنَى' ظاهِرَةٍ ذِهنيَّةٍ مّا، عادَةً مّا يَكونُ ما عَثَرَ عليهِ جُزءًا جَلِيًّا مِن السَّبَبِ، ثُمَّ إنَّهُ نادِرًا مّا يُمارِسُ أيَّ استِعمالٍ فِعلِيٍّ آخَرَ لِلكَلمةِ. لكِنْ بِتَقديمِهِ نظرِيّاتٍ في الرَّغَباتِ اللاواعِيَةِ، أي 'المَعْنَى' مِن حَيثُ كَونُهُ شَيئًا مّا مَقصودًا في اللاوَعي، وبِتَقديمِهِ 'رُموزًا عامَّةً'، مُلوكًا، ومَلِكاتٍ، وما إلى ذلكَ، أي 'المَعْنَى' مِن حَيثُ كَونُهُ خاصِّيَّةً جوهَرِيَّةً لِلرَّمزِ، يُمكِنُ أن يَكونَ بِسهولةٍ ما يَعتَقِدُ أنَّهُ يُناقِشُهُ.

= وكتبَ أيضًا في الدِّينِ، والأخلاقِ، والمِثاليَّةِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: التَّقويمُ- طبيعتُهُ وقوانينُهُ، والمشكلاتُ الأنطولوجيَّةُ لِلقيمَة، وفلسفةُ اللغة، والكنيسةُ والفِكرُ المعاصِر. [المُترجِم]

(19) *Valuation*, p. 133.

ويُمكِنُ القَولُ، بِتَعبيرٍ آخَرَ، إنَّ لِلعَلاقاتِ العَلامِيَّةِ السَّبَبِيَّةِ، عِندَهُ كما عندَ كُلِّ عُلَماءِ الطَّبيعةِ، الأهمِّيَّةَ العُظمَى.

وبِعُبورِنا مِن هذا الوَجْهِ لِـ 'المَعْنَى' إلى التَّعريفِ الثّالثَ عشَرَ، الذي يَجِبُ أن يُعتَنَى بِتَمييزِهِ، علينا أن نتذَكَّرَ الأُطروحَةَ التَّأويلِيَّةَ المذكورَةَ آنِفًا. فَقد أكَّدَ أنَّ كُلَّ تَفكيرٍ، كُلَّ إحالَةٍ، إنَّما هو تَكيُّفٌ مَرَدُّهُ إلى سِياقاتٍ سايكولوجِيَّةٍ تَربِطُ عَناصِرَ في سِياقاتٍ خارجيَّةٍ بَعضَها بِبعضٍ. فمَهما يَكُنْ تَكيُّفُنا 'كُلِّيًا'، ومَهما يَكُنْ تَكيُّفُنا 'تَجريدِيًّا' فالأُطروحَةُ العامَّةُ لِما يَحدُثُ تَظَلُّ هيَ الأُطروحَةَ نَفسَها. بِهذِهِ الطريقَةِ نَصِلُ إلى وَجْهٍ واضحٍ ومُحدَّدٍ لِـ'المَعْنَى.' فَاستِنادًا إلى هذا، يكونُ معنَى A هو ذلكَ الذي مِن أجلِهِ تُكَيِّفُ العمليَّةُ الذِّهنيَّةُ المُؤَوِّلَةُ لِـA[20]. وهذا أهَمُّ وَجْهٍ يَكونُ لِلكلماتِ بِهِ مَعنًى.

وفي حالةِ التَّأويلاتِ البسيطةِ، نَحوِ تَمييزِ صَوتٍ مّا، لا يَصعُبُ شَرحُ هذا التَّكيُّفِ. أمّا التَّأويلاتُ التي هيَ أكثرُ تعقيدًا، نحوُ ما يُحاوِلُ القارِئُ إنجازَهُ في هذِهِ اللحظةِ، فَتَقديمُ بَيانٍ مُفَصَّلٍ لَها يَكونُ أكثَرَ صُعوبَةً؛ ومَرَدُّ ذلكَ جُزئيًّا إلى أنَّ مِثلَ هذهِ التَّأويلاتِ تَكونُ على مَراحِلَ، وجُزئيًّا إلى أنَّهُ لم يُكتَشَفْ حتَّى الآن إلّا القليلُ مِن القَوانينِ السايكولوجيَّةِ المُهِمَّةِ وعلى نَحوٍ غامِضٍ. حالَةٌ مُشابِهَةٌ لِذلكَ أنَّ العُلَماءَ قبلَ عَصرِ نيوتن Newton[21] كانوا في شَكٍّ كبيرٍ [200] بِخُصوصِ 'مَعْنَى' ظَواهرِ المَدِّ والجَزرِ، واعتادُوا التَّسليمَ بِعَلاقاتِ 'تَعاطُفٍ' و'تَآلُفٍ' مُمَيِّزَةٍ

(20) يُنظرُ الفَصلُ الثالثُ المذكورُ آنِفًا ص135-160.

(21) إسحاق نيوتن (1642-1727م). عالِمٌ إنجليزيٌّ يُعَدُّ من ألمع من أسهَمَ في الفيزياءِ والرِّياضيّاتِ عبرَ العصورِ وأحدَ رموزِ الثورةِ العلميَّةِ. أسَّسَ كتابُهُ (الأصولُ الرِّياضيَّةُ للفلسفةِ الطبيعيَّة) معظمَ مبادئِ الميكانيكا الكلاسيكيَّةِ. وصاغَ قانونَ الحركةِ وقانونَ الجذبِ العامِّ، وأزالَ آخِرَ الشكوكِ بشأنِ صلاحيَّةِ نظريَّةِ مركزيَّةِ الشمسِ أنموذجًا للكونِ. وكانَ مسيحيًّا متديِّنًا لكِنْ على نحوٍ غيرِ تقليديٍّ؛ إذ رفضَ الأخذَ بالتعاليمِ المقدَّسَةِ لِلأنجليكانيَّةِ، رُبَّما لأنَّهُ رفضَ الإيمانَ بمذهبِ الثالوثِ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: طريقةُ التفاضُلِ، والأصولُ الرِّياضيَّةُ للفلسفةِ الطبيعيَّة، ووصفٌ تأريخيٌّ لِتحريفَيْنِ مهمَّيْنِ للكتابِ المقدَّسِ. [المُترجِم]

مِن أجلِ أن يَربِطوا بينَها وبينَ مَنازِلِ القَمَرِ 'حاكِمِ المِياهِ.' ومَكَّنَتِ المعرفةُ المُتَزايِدَةُ لاتِّساقاتٍ أكثَرَ عُموميَّةً مِن الاستغناءِ عن أمثالِ هذهِ العَلاقاتِ الوَهميَّةِ. فكذلكَ، ستُمَكِّنُ معرِفَةٌ أدَقُّ لِلقَوانينِ السّايكولوجيَّةِ مِن مُعامَلَةِ عَلاقاتٍ مِثلِ 'المعنَى'، و'المعرِفَة'، و'الغَرَضِيَّة'، و'الوَعْي'، و'الإدراك' على أنَّها أوهامٌ لُغَوِيَّةٌ كذلكَ، وأن يُحَلَّ مَحَلَّها الارتِباطاتُ القابِلَةُ لأنْ تُلْحَظَ.

وأكثَرُ ما يُعتادُ مِن الاعتِراضاتِ على وِجهةِ نَظَرٍ كَهذهِ هو اعتِمادُها المُفرِطُ على الاستِبطانِ. والأحكامُ الاستِبطانيَّةُ، شأنُها شأنُ سائرِ الأحكامِ، هيَ تأويلاتٌ. فَسَواءٌ أكانَ حُكمُنا هوَ 'أنا أُفَكِّرُ في المَطَرِ'، أم كانَ، بَعدَ أن أنظُرَ إلى مِقياسِ الضَّغطِ الجَوِّيِّ، هو 'سَتُمطِرُ السَّماءُ'، نحنُ مُنشَغِلونَ بِحالِ عَلامِيَّةٍ. وفي كِلتا الحالتَيْنِ نَحنُ نَجعَلُ مِن تَكَيُّفٍ ثانَويٍّ لِتَكيُّفٍ سابِقٍ عَلامَةً، أو، على نَحوٍ أكثَرَ اعتياديَّةً، لِجُزءٍ مِن التَّكيُّفِ أو مُلازِمٍ لَهُ. مِثالُ ذلكَ حالَةُ الكَلماتِ التي تَرْمِزُ إلى الإحالَةِ التي نُحاوِلُ الحُكمَ عليها في الاستِبطانِ، أو حالَةُ رَمزٍ مّا غيرِ لَفظِيٍّ في حالِ عَدَمِ وُجودِ كَلِماتٍ، أو حالَةُ المشاعِرِ المُبْهَمَةِ المُصاحِبَةِ لِلإحالَةِ حتَّى في حالِ عَدَمِ وُجودِ كَلِماتٍ. لا شَكَّ في أنّا يُمكِنُ أن نَستَجيبَ مُباشَرَةً لاستِجاباتِنا الذّاتيَّةِ. ونحنُ نُواصِلُ فِعلَ ذلكَ عبرَ سِلسِلَةٍ طَويلَةٍ مِن النَّشاطاتِ الاعتياديَّةِ والإدراكِيَّةِ، لكنَّ استِجاباتٍ كهذهِ، لِكَونِها هيَ في أنفُسِها لاواعِيَةً أي واعِيَةً لِلاشَيْءٍ، لا تَقودُ إلى ما يُقَدِّمُ مِن الأحكامِ الاستِبطانيَّةِ دَليلاً مُؤَيِّدًا لأيَّةِ وِجهةِ نَظَرٍ بِشأنِ طَبيعةِ التَّفكيرِ أو مُضادًّا لَها. وما دامَتْ هذهِ الأحكامُ يَجِبُ أن تَبدُوَ مُستَنِدَةً إلى فَحصٍ تأمُّلِيٍّ دَقيقٍ لِلوَعيِ نَفسِهِ، فهيَ تأويلاتٌ تُستَمَدُّ عَلاماتُها مِن كُلِّ عَناصِرِ الوَعيِ المُصاحِبَةِ لِلإحالاتِ التي تَتَعلَّقُ بِها. ومِن المُؤَكَّدِ أنَّ هذهِ العَلاماتِ لا يُعتَمَدُ عليها وأنَّها صَعبَةُ التَّأويلِ؛ فَهِيَ كَثيرًا مّا لا تَكونُ سِوَى مَشاعِرَ باهِتَةٍ غامِضَةٍ. لِذلكَ، نحنُ نَميلُ إلى تَقديمِ التَّرميزِ، آمِلينَ بِذلكَ أن نَحوزَ مِن العَلاماتِ المَزيدَ [201] وما هوَ أوضَحُ. فَعلى سبيلِ المِثالِ، حينَ نُحاوِلُ القِيامَ بِما يُدْعَى تَحليلَ الحُكمِ بالاستِبطانِ المُباشِرِ عادَةً مّا يُؤَدِّي إجراؤُنا إلى تَقديمِ رُموزٍ بَديلَةٍ نَجهَدُ في إقناعِ أنفُسِنا بِأنَّها تَرمِزُ إلى الإحالَةِ نَفسِها. حينَئذٍ سَنَقولُ إنَّ أحَدَ الرَّمزَيْنِ هوَ ما نَعنِيهِ بِالآخَرِ. و يُمكِنُ أن يُلمَسَ في مُعظَمِ النِّقاشاتِ المُعاصِرَةِ لِلمَبادِئِ

تَقريرٌ مّا مُوجَبٌ أو سالِبٌ بِشَأنِ هذهِ الصِّيغَةِ هوَ بِمَنزِلَةِ خطوَةٍ أساسيَّةٍ في ذلكَ. لِذلكَ كانَ مِن الأهمِّيَّةِ بِمَكانِ النَّظَرُ في نَوعِ البُرْهانِ المُتوافِرِ لِهذهِ التَّقريراتِ.

وعادَةً مّا يُجابُ عن ذلكَ بِأنَّ الشَّأنَ ليسَ شأنَ بُرهانٍ وإنَّما هوَ شأنُ اقتِناعٍ فَورِيٍّ. غيرَ أنَّ هذهِ اليَقينِيّاتِ المُباشِرَةَ تختَلِفُ، على نَحوٍ سَيِّئِ الصِّيتِ، بينَ ساعةٍ وأُخرَى، ومِن شَخصٍ إلى آخَرَ. والحَقُّ أنَّها مَشاعِرُ؛ ولِذلكَ لَن نَجِدَ أسبابَها، إنْ أمكَنَ البَحْثُ فيها، غيرَ ذاتِ صِلَةٍ بِمَسألةِ صِحَّتِها. ثُمَّ إنَّ السَّبَبَ الرَّئيسَ لأيِّ اقتِناعٍ مُتَعَلِّقٍ بِكَونِ أحَدِ الرَّمزَيْنِ تَحليلاً صَحيحًا للآخَرِ، أي بِتَطابُقِ الإحالَتَيْنِ اللتَيْنِ يَرمِزُ إليهما كِلا الرَّمزَيْنِ، يَكمُنُ في تَشابُهِ أيٍّ مِن عَلاماتِ الإحالَتَيْنِ المَعْنِيَّتَيْنِ الأُخرَى التي يُمكِنُ الحصولُ عليها. وما دامَ مِن المُقَرِّ بِهِ كَثيرًا أنَّ التَّخَيُّلاتِ غيرُ ذاتِ صِلَةٍ فَسَيُحكَمُ مَرَّةً أُخرَى على هذهِ بِأنَّها مَشاعِرُ: - مَشاعِرُ مُصاحِبَةٌ لِلإحالاتِ، مَشاعِرُ مُلاءَمَةٍ أو عَدَمِ مُلاءَمَةٍ، تَنشَأُ مِن الارتِباطاتِ السَّبَبِيَّةِ لِلرُّموزِ بالإحالاتِ، ومَشاعِرُ تَنشَأُ مِن مُجَرَّدِ التَّشابُهاتِ والتَّبايُناتِ الظّاهِرِيَّةِ لِلرُّموزِ. وهكذا، تُشَكِّلُ هذهِ الشَّبَكَةُ المتَداخِلَةُ والغامِضَةُ مِن المشاعِرِ أرضِيَّةً لِيَقينِيّاتِنا الاستِبطانِيَّةِ. فَلا غَرابَةَ في أن نَجِدَ مهمَّةَ تنقِيَةِ آرائنا بِمَنهَجِ الفَحصِ والتَّحليلِ المُباشِرَيْنِ صَعبَةً، أو أنَّ النَّتائجَ المُتحصَّلَةَ تُثيرُ الجَدَلَ.

والَّذينَ حاوَلُوا تَحديدَ ما يَحكُمونَ عليهِ بِدِقَّةٍ حينَ يُمارِسونَ أشيَعَ الأحكامِ نَحو 'أنا أُفَكِّرُ'، و'ذاكَ كُرسِيٌّ'، و'هذا حَسَنٌ'، لن يَعْجَلُوا في النِّزاعِ في ذلكَ. [202] والحقُّ أنَّه يُحتَمَلُ جِدًّا أنَّ خَطَأَنا في هذهِ الأحكامِ الثّانويَّةِ كَثيرًا مّا يكونُ أكثرَ مِن خَطَئنا في غيرِها مِن الأحكامِ؛ لِسَبَبٍ واضِحٍ هوَ أنَّ التَّحَقُّقَ غايةٌ في الصُّعوبةِ. فلا قِيمَةَ لِتَيَقُّنِ أيِّ أَحَدٍ مِن إحالتِهِ، أي 'مَعْناه'، إذا كانَ الدَّليلُ المُؤَيِّدُ[22] غائبًا، على الرَّغمِ مِن أنَّ هذا النَّوعَ مِن الثِّقَةِ بِالنَّفسِ يَصعُبُ الخَلاصُ مِنهُ.

---

(22) الأنواعُ المُحَدَّدَةُ لِهذا الدَّليلِ المُؤَيِّدِ وقِيمَتُها، أي العَلاماتُ المُتَّحِدَةُ أو السُّلوكُ ذو الصِّلَةِ، هي أُمورٌ مَطروحَةٌ على بِساطِ البَحثِ. فَمُعظَمُ تَجارِبِ تَرابُطِ الكَلِماتِ، على سبيلِ المِثالِ، تُدارُ على أساسِ افتراضاتٍ مَشكوكٍ فيها. لِذلكَ لَم تُثِرْ كَثيرًا مُشكلةُ عَلاقَةِ =

وسَبَبُ الأهمِّيَّةِ الكبيرةِ لِلرُّموزِ هوَ أنَّ الأحاسيسَ والصُّوَرَ غيرَ اللفظيَّةِ المُصاحِبَةَ لِلإحالاتِ عَلاماتٌ لا يُعَوَّلُ عليها البَتَّةَ. فنَحنُ عادَةً مّا نَتَّخِذُ تَرميزَنا دَليلاً لَنا إلى المعنَى الخاصِّ بِنا، وتُصبِحُ المَشاعِرُ العَلاميَّةُ المُصاحِبَةُ مُندَمِجَةً بِمَشاعِرِ رُموزِنا اندِماجًا لا يُمَيِّزُ معهُ شَيءٌ مِن شَيءٍ. على أنَّ ما يُشْعَرُ بِهِ في بعضِ الأحيانِ مِن أنَّ جَميعَ الرُّموزِ المُتوافِرةِ التي يُحتاجُ إليها لِتَرمِزَ إلى الإحالَةِ لا تُلائمُها، يُظهِرُ أنَّ عَلاماتِ الشُّعورِ الأُخرَى يُمكِنُ إحرازُها. وبِذلكَ لا نَكونُ تَحتَ رَحمةِ رُموزِنا تَمامًا.

وعلى الرَّغمِ مِن ذلكَ، ثَمَّةَ أسبابٌ واضِحةٌ لِتلكَ الثِّقةِ المُذهِلةِ بِالرُّموزِ بِوَصفِها إشاراتٍ لِما نَعنِيهِ، وهيَ صِفَةٌ مُمَيِّزَةٌ لِمُفَكِّري الرِّياضِيّاتِ وغيرِهم مِن المُفَكِّرينَ التَّجريدِيِّينَ. فالرُّموزُ الدَّقيقَةُ الاستِعمالِ في موضوعاتٍ كَهذهِ أبدالٌ لا غِنَى عنها مِن المُصاحَباتِ الشُّعوريَّةِ التي لا تُمَيَّزُ بِسهولةٍ تامَّةٍ. فالشُّعورُ المُصاحِبُ، على سبيلِ المِثالِ، لِلإحالَةِ على اثنَتَيْنِ ومِئَةِ تُفّاحَةٍ لا يُمكِنُ تَمييزُهُ بِسهولةٍ مِن ذاكَ الذي يُصاحِبُ إحالَةً على ثَلاثٍ ومِئَةِ تُفّاحةٍ، ومِن غيرِ الرُّموزِ ما كُنّا لِنستطيعَ تَمييزَ إحدَى الإحالَتَيْنِ مِن الأُخرَى. فَفي الفِكرِ التَّجريدِيِّ عادَةً وعِندَ مُعظَمِ المُفَكِّرينَ ما يُحَدِّدُ إحالَتَنا هو اتِّصالُ الرُّموزِ وتَرابُطُها، بَدَلاً مِن أن تُحَدِّدَ إحالاتُنا رُموزَنا. [203] وليسَ أمامَنا إلّا مُراقَبَةُ ألّا يَتَسَبَّبَ ذلكَ في انتِهاكٍ لِقَواعدَ مُعيَّنَةٍ لِلإجراءِ. وبَعضُ هذهِ القَواعدِ ليسَ ذا أهميَّةٍ كبيرَةٍ، وهي المُثْبَتَةُ في الأقسامِ النَّحويَّةِ التي تُعالِجُ الاستِعمالَ الأدَبيَّ وأعرافَ تَكوينِ الجُملةِ. لكنَّ بعضًا آخَرَ منها لهُ منزلةٌ مُختلفةٌ جِدًّا ولا يَنشَأُ إلّا مِن طبيعةِ الأشياءِ في العُمومِ. بِتعبيرٍ آخَرَ، هذهِ القَواعِدُ هيَ قَوانينُ مَنطقيَّةٌ بِمَعنَى أنَّ أيَّ نِظامٍ لِلرُّموزِ لا يُذعِنُ لَها يَجِبُ أن يَنهارَ بِوَصفِهِ وَسيلةً لِتسجيلِ الإحالاتِ، ولا يُهِمُّ ما أُنشِئَتْ هذهِ الإحالاتُ مِن

= العَلاماتِ غيرِ اللفظيَّةِ والعَلاماتِ اللفظيَّةِ (أي الرُّموزِ) بِعَمليّاتِ الحُكمِ التي هيَ عَلاماتٌ لَها. ومادامَ أمرًا مَحتومًا لِلكثيرِ جِدًّا مِن عِلمِ النَّفسِ التَّجريبيِّ أن يَصمدَ أو أن يَسقُطَ معَ الافتِراضاتِ غيرِ المُمَحَّصَةِ تَمامًا المتعلِّقَةِ بِقيمَةِ التَّرميزِ بِوَصفِهِ دَليلاً على الإحالَةِ التي تُدارُ عليها هذهِ التَّجارِبُ، فستبدو هذهِ المُشكِلةُ مُستحقَّةً لِلاهتِمامِ.

أجلِهِ. هذانِ الاحتِياجانِ الجَوهرِيَّانِ إلى نظامِ الرُّموزِ ومُجَرَّدِ قَواعِدِ الكَلامِ المُهَذَّبِ المذكورانِ آنِفًا تَعرَّضَا تأريخيًّا لِبعضِ التَّخليطِ. وقد ناقَشْنا بعضًا مِمّا يتعلَّقُ بِأَوَّلِهِما في الفَصلِ الخامسِ، أمّا الآخَرُ فسيَنالُ حظَّهُ مِن الذِّكرِ والتَّعليقِ حينَ نُعالِجُ الأحوالَ الرَّمزِيَّةَ في الفَصلِ الأخيرِ مِن الكتابِ.

ولَمّا كُنّا رَهنَ هذهِ المُتطلَّباتِ المنطقيَّةِ كُنّا قادِرِينَ، على نَحوٍ واسعٍ بِوَساطةِ رُموزٍ مُعَرَّفَةٍ بِحيثُ يُنظَرُ إلى أحدِها مِن زاوِيةِ الآخَرِ، على تَركيبِ الإحالاتِ، أو، بِتَعبيرٍ آخَرَ، على تَجريدِ أجزاءٍ مُشتركةٍ لإحالاتٍ مُختلفةٍ- على التَّمييزِ والمُقارَنَةِ والرَّبْطِ لإحالاتٍ في مُستَوَياتٍ، وبِمُستَوَياتٍ، وعلى مُستَوَياتٍ مُختلفَةٍ مِن العُمومِ. وعمليَّةُ تَركيبِ هذهِ الأوجُهِ المُتنوِّعةِ مِن التَّكيُّفِ لِتُكَوِّنَ حُكمًا مُحَدَّدًا يُشارُ إليها عُمومًا بِوَصفِها عمليَّةَ التَّفكيرِ، وهيَ الفعّاليَّةُ التي يُحافَظُ عليها عُمومًا مِن خِلالِ أيَّةِ سِلسِلةٍ طَويلةٍ بِاستِعمالِ الرُّموزِ. وقد أصبَحَتْ هذهِ، بِوَصفِها أبدالاً مِن مُثيراتٍ غيرِ مُتوافِرةٍ في أيِّ مِثالٍ مُعْطًى، وبِوَصفِها مُحرِزَةً لِنِتاجِ السَّلاسِلِ المُوَسَّعَةِ مِن التَّنظيماتِ، وبِوَصفِها مُنشِئَةً لِوَسيلةِ إعادَةِ ترتيبِ هذهِ التَّنظيماتِ، قَوِيَّةً جِدًّا، وآلِيَّةً جِدًّا، ومُتَرابِطَةً على نحوٍ مُعَقَّدٍ جِدًّا بِحَيْثُ تُخفِي عنّا ما يَحدُثُ إخفاءً يَكادُ يكونُ تامًّا. ويَؤُولُ الأمرُ بِنا إلى أن نَنظُرَ إلى أنفُسِنا بِوَصفِنا مُرتَبِطِينَ بِمجموعةٍ مُتنوِّعَةٍ مِن الكِياناتِ، والخصائصِ، والقَضايا، والأعدادِ، والوَظائفِ، والكُلِّيّاتِ، وهلُمَّ جَرًّا- بِالعَلاقَةِ الفَريدَةِ التي هيَ المعرِفَةُ. وإذا ما أُدرِكَ أَنَّ هذهِ الكِياناتِ إنَّما هيَ إجراءاتٌ رَمزيَّةٌ فلرُبَّما كانَ لَها نَفعٌ عظيمٌ. أمّا مُحاولةُ [204] البَحثِ فيها بِوَصفِها مَراجِعَ فَتَؤُولُ، على ما رأيْنا، إلى الفَلسَفَةِ، وتُنشِئُ نِطاقَ الفَلاسِفَةِ الذي لا يُساءَلُ.

سيُلحَظُ أنَّ التَّعريفَ الثانيَ عشَرَ والفَرعَ (ب) مِن التَّعريفِ الثالِثَ عشَرَ بِشأنِ حالةِ التَّأويلاتِ الصّادِقَةِ لَهما النَّتيجَةُ نَفسُها. فمَعنَى عَلامَةٍ مّا (في الفَرعِ (ب) مِن التَّعريفِ الثالِثَ عشَرَ) مُؤَوَّلَةٍ على نَحوٍ كافٍ سيكونُ ذلكَ الذي تَرتَبِطُ بِهِ فِعليًّا بِالعَلاقَةِ العَلامِيَّةِ. لكِنْ في حالةِ التَّأويلِ الكاذِبِ سَيكونُ 'المَعنَيانِ' مُختلِفَيْنِ. وثَمَّةَ نُقطةٌ أُخرَى جَديرةٌ بِالاهتمامِ، هي أنَّ هذهِ الأُطروحَةَ تَنفي الحاجَةَ إلى أيَّةِ 'نَظَرِيَّةِ تَناظُرٍ لِلصِّدْقِ'؛ ما دامَتِ الإحالَةُ الكافِيَةُ لا تَتَّخِذُ مَرْجِعًا لَها شَيْئًا مّا يُناظِرُ

الواقِعَةَ أو الحدَثَ الذي هوَ مَعنَى عَلامَةٍ مّا بِمُقتَضَى التَّعريفِ الثانيَ عشَرَ، بَل تَتَّخِذُهُ شيئًا مّا مُطابِقًا لَهُ. وإن شِئْنا قُلْنا إنَّ الإحالَةَ تُناظِرُ مَرْجِعَها، لكِنَّ ذلكَ سيكونُ اختِزالاً لِبَيانٍ أوفَى لِلإحالَةِ، وهوَ الذي قَدَّمْناهُ.

بِوُجودِ هذهِ الاعتِباراتِ أمامَنا نستطيعُ الآنَ فَهمَ خُصوصيّاتِ الرُّموزِ بِثُنائيَّةِ 'المَعنَى' فيها لِلمُتكلِّم والمُستَمِعِ. والرَّمزُ، على ما سَبَقَ أن عَرَّفْناهُ (يُنظَر: ص70، 71، فيما ذُكِرَ آنِفًا)، يَرمِزُ إلى فِعلٍ إحاليٍّ، أي إنَّ أسبابَهُ عندَ المُتكلِّمِ، إلى جَنْبِ رَغبَتَي التَّسجيلِ والتَّوصيلِ بِلا شَكٍّ، والمَواقِفِ المُفتَرَضَةِ تجاهَ المُستَمِعِينَ، تُشَكِّلُ أفعالاً إحاليَّةً. بِذلكَ يُصبِحُ الرَّمزُ حينَ يُنْطَقُ، بِمُقتَضَى كَونِهِ مُسَبَّبًا بِهذهِ الطَّريقةِ، عَلامَةَ فِعلٍ إحاليٍّ لَدَى المُستَمِعِ. غيرَ أنَّ هذا الفِعلَ قَليلُ الأهمِّيَّةِ في نَفسِهِ إلّا عِندَ حُدوثِ صُعوبَةٍ في الفَهمِ، وعادَةً مّا يُنظَرُ إلى الرَّمزِ بِوَصفِهِ عَلامَةً لِما يَرْمِزُ إليهِ، أي ذلكَ الذي تُحِيلُ عليهِ الإحالَةُ التي يَرمِزُ الرَّمْزُ إلَيها. وحينَ يَكونُ هذا التَّأويلُ ناجِحًا يَتوَلَّدُ مِنهُ إنشاءُ المُستَمِعِ إحالَةً تُشبِهُ مِن كلِّ الأَوجُهِ ذاتِ الصِّلَةِ تِلكَ التي يُنشِئُها المُتكلِّمُ. وهذا هوَ ما يُضفي على الرُّموزِ خُصوصيَّتَها بِوَصفِها عَلاماتٍ. وبِذلكَ يُمكِنُ تَعريفُ تَعامُلٍ لُغَويٍّ مّا أو تَواصُلٍ مّا بِأنَّهُ استِعمالٌ لِلرُّموزِ على نَحوٍ تَكونُ فيهِ أفعالُ الإحالَةِ التي تَحدُثُ عندَ المُستَمِعِ مُشابِهَةً [205] في كلِّ الأَوجُهِ ذاتِ الصِّلَةِ لِتِلكَ التي يُرْمَزُ إلَيها بِها عندَ المُتكلِّمِ.

يَتَّضِحُ مِن وِجهةِ النَّظَرِ هذهِ أنَّ العَقَبَةَ التي تَعتَرِضُ طَريقَ نظريَّةِ التَّواصُلِ هيَ تَقْريرُ حُدودِ السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةِ وتَحليلُها، وهي مُشكِلةٌ استِقرائيَّةٌ مُماثِلَةٌ في الشَّكلِ تَمامًا لِمُشكِلاتِ العُلومِ الأُخرَى. على أنَّهُ بِسَبَبِ صُعوبةِ مُتابَعَةِ الأحداثِ السّايكولوجيَّةِ والطَّبيعةِ السَّطحيَّةِ لِلاتِّساقاتِ التي وُقِفَ عليها حتّى الآن، كانَتِ المَناهِجُ المُستَخدَمَةُ في فَحصِ حقيقَةِ: أَحَدَثَ تَواصُلٌ أم لَم يَحدُثْ، غيرَ مُباشِرَةٍ. وما دُمْنا غيرَ قادِرِينَ على أن نَلْحَظَ الإحالاتِ مُباشَرَةً فعلَيْنا أن نَدرُسَها مِن خِلالِ العَلاماتِ، إمّا مِن خِلالِ المَشاعِرِ المُصاحِبَةِ وإمّا مِن خِلالِ الرُّموزِ. فأَمّا المَشاعِرُ فَمِنَ الواضِحِ أنَّها غيرُ كافيَةٍ، وأَمّا الرُّموزُ فَتُقَدِّمُ إشارَةً أشَدَّ حَسّاسيَّةً بِكثيرٍ(23).

(23) مَبْلَغُ تَعويلِنا على الرُّموزِ لِتُبدِيَ لنا ما نَفعَلُهُ يُوضِحُهُ ما تُنوقِلَ حَديثًا مِن قَضيَّةِ الأُسقُفِ =

لكِنَّ الرُّموزَ تُضَلِّلُ أيضًا، فينبَغي ابتِكارُ مَنهَجٍ مّا لِلضَّبطِ، ومِن هُنا تأتي أهمِّيَّةُ التَّعريفِ. وحَيثُما كانَ ثَمَّةَ سَبَبٌ لِلاعتِمادِ على القُوَّةِ الإشارِيَّةِ لِلرُّموزِ فلا شَكَّ في أنَّ اللُّغَةَ المُجَرَّدَةَ مِن كُلِّ العِباراتِ البَديلةِ ستكونُ مَرغوبًا فيها عِلمِيًّا. لكِنْ في مُعظَمِ الأُمورِ لا تُستَطاعُ السَّيطرةُ على ما يُمكِنُ مِن غَدرِ الكَلماتِ إلّا بالتَّعريفاتِ، وكُلَّما ازدادَ عَدَدُ العِباراتِ البَديلةِ المُتوافِرةِ قَلَّ خَطَرُ التَّناقُضِ، على ألّا نَفتَرِضَ الرُّموزَ حائزَةً 'المَعنَى' لِنَفسِها، فنَملأَ العالَمَ بالكِياناتِ الخَيالِيَّةِ.

وتَقودُنا مسألةُ المُتَرادِفاتِ على نَحوٍ طبيعيٍّ إلى النَّظَرِ في التَّعريفِ الرّابعَ عَشَرَ (الاستِعمال الجيِّد). فقد سَبَقَ أن رأَيْنا ما تستلزِمُهُ صِحَّةُ التَّرميز. فالرَّمزُ يكونُ صَحيحًا حينَ يُوَلِّدُ إحالَةً تُشبِهُ تِلكَ التي يَرمِزُ إلَيها عندَ أيِّ مُؤَوِّلٍ مُناسِبٍ. وبِذلكَ ستَنشَأُ لأيَّةِ مَجموعَةٍ مِن مُستعمِلي الرُّموزِ مُلاءَمَةٌ مُعيَّنَةٌ لِشَيءٍ مّا سَيُدعَى [206] مَعْنًى خاصًّا أو استِعمالاً جَيِّدًا. هذا الشَّيءُ يَنحو مَنحَى أن يُتَحَدَّثَ عنهُ بِوَصفِهِ هُوَ مَعنَى الكَلماتِ المَعْنِيَّةِ. والمُثَبَّتُ هو الإحالَةُ التي يُنشِئُها أيُّ عُنصُرٍ في هذهِ المجموعةِ بِتأويلِ رَمزٍ مّا في أيَّةِ مُناسَبَةٍ مُتَضَمَّنَةٍ في عالَمِ الخِطابِ ذي الصِّلَةِ. وما مِن شَكٍّ في أنَّ مِن المُهِمِّ جِدًّا ألّا تَختَلِفَ هذهِ المعاني إلّا في حُدودٍ ضَيِّقَةٍ. غيرَ أنَّهُ قد يَكونُ مِن المَشروعِ لَنا أن نَحْرِصَ على الاحتِفاظِ بِمَعاييرَ مُطَّرِدَةٍ لِلمُوازَنَةِ مِن غيرِ أن نَرَى ضَرورَةَ افتِراضِ أن تكونَ قَد أُسِّسَتْ تَأسيسًا خارِقًا لِلعادَةِ أو أنَّها بِطبيعَتِها غيرُ قابِلةٍ لِلتَّغييرِ. وما يَشيعُ اعتِقادُهُ كثيرًا مِن أنَّ الكَلِماتِ تَعني على نَحوٍ ضَروريٍّ ما تَعنيهِ، مَنشَؤُهُ غُموضُ لَفظِ 'ضَروريّ'، الذي قد يَرْمِزُ إمّا إلى حقيقةِ أنَّ هذا مِن لَوازِمِ التَّواصُلِ، وإمّا إلى ما يُفتَرَضُ مِن حِيازَةِ الكَلِماتِ 'مَعانِيَ' جَوهَرِيَّةً. وبِذلكَ احتُجَّ بِأنَّ مِثلَ كلِمةِ (حَسَن) لا مُرادِفَ لَها ولا يُمكِنُ استِبدالُها، بِحَيثُ يَكونُ لَدَى الأشخاصِ الَّذينَ يَستعملونَ هذهِ الكلمةَ استِعمالاً جَيِّدًا فِكرَةٌ لا يَستَطيعونَ أن يَرمِزوا إلَيها بِطريقَةٍ أُخرَى- يَستَتْبِعُ هذا في مَذهَبِ أُولئكَ أنَّهُ ما

= الذي أضاعَ تَذكرةَ القِطارِ؛ إذ جاءَ فيها أنَّ المُفَتِّشَ، الذي كانَ وَكيلَ كَنيسَةٍ أيضًا، قالَ لهُ: "الأمرُ على ما يُرامُ تَمامًا، يا أبَتِ!". فَرَدَّ الأُسقُفُ قائلاً: "كَلّا، ليسَ الأمرُ كذلكَ؛ إذ كيفَ سأعرِفُ وِجهَتي بِفَقْدِها؟".

دامَتِ الكلِمةُ مُستَعْمَلَةً يَقينًا فَلا بُدَّ مِن وُجودِ فِكرَةٍ أخلاقِيَّةٍ مُتَفَرِّدَةٍ وبَسيطَةٍ، أو، على ما يُقالُ أحيانًا، خاصِّيَّةٍ مُتَفَرِّدَةٍ أو إخبارٍ مُتَفَرِّدٍ، سَواءٌ أحازَهُ شَيءٌ مَا أم لَم يَحُزْهُ. وعلى نَحوٍ مُشابِهٍ تَمامًا يَميلُ عُلَماءُ الرِّياضيّاتِ إلى الجَزمِ بِأنَّهُ إذا لم يَكُنْ ثَمَّةَ ما هو مَوجودٌ البَتَّةَ فلن نَعدَمَ، بَعْدُ، خاصِّيَّةَ '107 رَقْمًا'.

وأكثَرُ ما يُعَزِّزُ هذهِ الثَّباتاتِ في الإحالاتِ ويُحافِظُ عليها هوَ استِعمالُ المُعجَماتِ، وفي أغراضٍ كثيرَةٍ يَكونُ 'المَعْنَى المُعجَمِيُّ' و'الاستِعمالُ الجَيِّدُ' مُتَرادِفَيْنِ. لكِن يُمكِنُ أن يُشارَ إلى وَجْهٍ أكثرَ تَهذيبًا لِلمَعْنَى المُعجَمِيّ. فالمُعجَمُ قائمَةٌ مِن الرُّموزِ البَدِيلَةِ. إنَّهُ في الواقِعِ يَقولُ: "هذا يُمكِنُ استِبدالُهُ بِذاكَ في حالاتِ كذا وكذا". وسَبَبُ إمكانِ هذا الاستِبدالِ أنَّهُ في هذهِ الحالاتِ وعندَ المُؤَوِّلِينَ المُناسِبِينَ تَكونُ الإحالَتانِ المُسَبَّبَتانِ عن الرَّمزَيْنِ مُتشابِهَتَيْنِ بِما فيهِ الكِفايَةُ. فَعَلى ذلكَ تَكونُ فائدَةُ المُعجَمِ في تأشيرِ التَّداخُلاتِ بينَ إحالاتِ الرُّموزِ أكبرَ منها في تَعريفِ حُقولِها. [207]

ويَنشَأُ التَّعريفانِ الأخيرانِ في قائمتِنا (الخامِسَ عَشَرَ والسّادِسَ عَشَرَ) مِن رَحِمِ هذهِ الصُّعوبَةِ في ضَبطِ الرُّموزِ بِوَصفِها إشاراتٍ إلى الإحالَةِ. وعلى ما رَأَيْنا، قد تَكونُ الإحالَةُ التي يَعتَقِدُ مُستَعمِلُ رَمزٍ مّا، بِسَبَبِ ثِقَتِهِ بِالرَّمزِ، أنَّهُ يُنشِئُها مُختَلِفةً جِدًّا عن تِلكَ التي يُنشِئُها فِعْلِيًّا، وهذه حَقيقَةٌ كَثيرًا مّا تَكْشِفُ عنها المُقارَنَةُ المتَأنِّيَةُ لِلعِباراتِ. فكَذلِكَ كَثيرًا مّا تَكونُ الإحالَةُ التي يُنشِئُها المُستَمِعُ مُختلِفةً جِدًّا عن تِلكَ التي يُنشِئُها المُتكلِّمُ. ورُبَّما تكونُ الحالةُ الأخيرَةُ التي يَكونُ فيها مَعنَى رَمزٍ مّا ما يَعتَقِدُ المُستَمِعُ أنَّ المُتكلِّمَ يُحِيلُ عليهِ أوفرَ الحالاتِ نَصيبًا مِن فُرَصِ سُوءِ الفَهمِ. [208]

الفَصلُ العَاشِرُ
الأَحْوالُ الرَّمزِيَّةُ

كَثيرًا مَا يُعَدُّ المَرْءُ حَكِيمًا لِكلمَةٍ تَفوَّهَ بِها، وكَثيرًا مَا يُعَدُّ أحمَقَ لِكلمَةٍ تَفوَّهَ بها. فعلينا، حَقًّا، أن نَكونَ على حَذَرٍ مِمّا نَقولُ. -كونفوشيوس Confucius

سأَلَ آبا آمون Abba Ammon آبا سيسوس Abba Sisoes قائلاً: "حينَ أقرأُ في الكِتابِ المُقدَّسِ يَتُوقُ عَقلي إلى تَرتيبِ الكَلماتِ بِحَيثُ يَكونُ لِكلِّ سُؤالٍ إجابَةٌ". فقالَ لَهُ الرَّجُلُ العَجوزُ: "ليسَ هذا بِالأمرِ الضَّروريِّ؛ فَما مِن شَيءٍ يَستَحِقُّ الطَّلَبَ سِوَى نَقاءِ القَلبِ. لِذلِكَ، ليسَ على المَرْءِ أن يُباليَ كثيرًا بِما يَقولُ". - بالاديوس، "كِتابُ الفِردَوس" *Palladius, "The Book of Paradise"*

يُمكِنُ أن نُقَدِّمَ الآنَ وَصفًا مُوجَزًا لِنَظريَّةِ التَّأويلِ السِّياقيَّةِ مُطَبَّقَةً على استِعمالِ الكلماتِ. وسنَبدَأُ أَوَّلاً بِمُراعاةِ جانبِ المُستَمِعِ، ثُمَّ نُعَرِّجُ بَعدَ ذلكَ على ما هوَ أصعَبُ وهوَ المُتكلِّمُ. فَمِمّا يُمَثِّلُ خطوَةً تَمهيديَّةً لأيِّ فَهمٍ لِلكلماتِ امتِلاكُنا بِالضَّرُورَةِ نَوعًا بَسيطًا جِدًّا مِن التَّأويلِ يُمكِنُ أن نَدعُوَهُ تَمييزًا حِسِّيًا، أو إدراكًا حِسِّيًا. وفي هذا المُستَوَى[1] يُمكِنُ أن يُقالَ إنّا نُمَيِّزُ بَعضَ الأصواتِ مِن بَعْضٍ

---

(1) يُقالُ عن عَمليَّةٍ تأويليَّةٍ مَا إنَّها في مُستَوًى أعلَى مِن عَمَليَّةٍ أُخرَى حينَ يتطلَّبُ حُدوثُها أن يكونَ مَسبوقًا بِحدوثِ الأخرَى (يُنظَرُ الفَصلُ الخامِسُ، القانونُ الثّالِثُ مِنهُ). وأن يُقالَ عن المُستَوَى إنَّهُ أعلَى أو أدنَى مسألةٌ غيرُ مادِّيَّةٍ. وفي هذهِ النُّقطةِ من البَحثِ سنَعُدُّهُ مُستَوًى أعلى.

بِوَصفِها أصواتًا (المسألةُ التي يكونُ فيها ما يُمَيِّزُ حَرَكَةً لأعضاءِ النُّطقِ، أو صُورَةً لَها أو لِصَوتٍ مَّا، مُناظِرَةٌ لِذلك تَمامًا)، وبِذلكَ نَكونُ هُنا مُؤَوِّلِينَ لِعَلامَةٍ أَوَّلِيَّةٍ. ومِن الواضِحِ أن لا استِعمالَ لِلكلماتِ مُمكِنًا ما لَم يُمَيَّزْ صَوتٌ مِن آخَرَ أو صُورَةٌ مِن أُخرَى، على نَحوٍ واعٍ أو غيرِ واعٍ. وعادَةً مّا يَكونُ التَّمييزُ [209] غيرَ واعٍ؛ فاستِعمالُ الكَلماتِ عندَنا يَجري على مُقتَضَى العادَةِ، على أنَّهُ يُمكِنُ أن يُصبِحَ واعِيًا، كما يَحدُثُ عندَ تَعَلُّمِ لُغَةٍ أجنبيَّةٍ. ومِن الفُروقِ الأساسيَّةِ أيضًا بينَ الشِّعرِ والنَّثرِ العِلميِّ الصّارِمِ أنَّهُ يَجِبُ علينا في الشِّعرِ أن نَلتَفِتَ بِوَعيٍ إلى الخصائصِ الحِسِّيَّةِ لِلكَلماتِ، أمّا في النَّثرِ فلا يَلزَمُنا ذلكَ. على أنَّ هذا الانتِباهَ الواعيَ إلى الكلماتِ بِوَصفِها أصواتًا يُفضي إلى تَعويقِ تأويلاتِنا الأُخرَى.

أمّا المرحلةُ التَّأويليَّةُ التي تَلي ذلكَ فتَنقُلُنا مِن مُجَرَّدِ تَمييزِ العَلامَةِ الأَوَّليَّةِ بِوَصفِها صَوتًا مِن نَوعٍ مُعَيَّنٍ إلى تَمييزِها بِوَصفِها كلمةً. ومَرَدُّ هذا التَّغيُّرِ إلى تَغَيُّرٍ في السِّياقِ السّايكولوجيِّ لِلعَلامةِ. ويَقتَضي تمييزُ العَلامةِ بِوَصفِها صَوتًا لَهُ خَصيصَةٌ مُمَيِّزَةٌ سِياقًا يَشتَمِلُ على العَلامةِ وعلى إحساساتٍ صَوتيَّةٍ ماضِيَةٍ أُخرَى تُشبِهُها شَبَهًا يَقِلُّ ويَكثُرُ. أمّا تَمييزُها بِوَصفِها كلمةً فيَقتَضي أن تُشَكِّلَ سِياقًا مَعَ تَجارِبَ أُخرَى[2] سِوَى الأصواتِ. وما زالَ علينا أن نَتَثَبَّتَ تَجريبيًّا مِن الأُسلوبِ المُحدَّدِ الذي نَنتَهِجُهُ عندَ أَوَّلِ مَعرِفَةٍ لَنا أنَّ ثَمَّةَ كلماتٍ، أو اتِّخاذِنا مِن بَعضِ الأَصواتِ دُونَ غَيْرِها كَلِماتٍ، لكِنْ حينَ نَكونُ أطفالاً لا نُنجِزُ هذهِ الخطوةَ بِتَخمينِنا فَورًا أنَّ النّاسَ يَتحدَّثونَ إلينا. فقد طَوَّرْنا، قبلَ زَمَنٍ طَويلٍ مِن قُدرَةِ هذا الحَدْسِ على أن يُصبِحَ مُمكِنًا، لُغَةً واسِعَةً ذاتَ خُصُوصِيَّةٍ مِن خِلالِ حقيقةِ أنَّ أصواتًا مُعَيَّنَةً قد جاءَتْ في سِياقاتٍ بِتَجارِبَ أُخرَى مُعَيَّنَةٍ على نَحوٍ يَكونُ معَهُ حُدوثُ الصَّوتِ عَلامَةً تُؤَوِّلُها استِجابَةٌ مُشابِهَةٌ لِلاستِجابَةِ التي تَستَثيرُها التَّجرِبَةُ المُتَرابِطَةُ الأُخرَى. هذا التَّأويلُ يُمكِنُ أن يَكونَ هو أيضًا واعِيًا أو غيرَ واعٍ. وفي العادَةِ يَكونُ غيرَ واعٍ، لكِنَّهُ يَعودُ فَيَميلُ إلى أن يُصبِحَ واعِيًا في حالِ ظُهورِ

(2) أتَيْنا هنا بِلَفظٍ عامٍّ لِيَشمَلَ الإحساساتِ، والصُّوَرَ، والمَشاعِرَ، وما إليها، ورُبَّما التَّعديلاتِ غيرَ الواعيَةِ لِحالتِنا الذِّهنيَّةِ.

صُعوبَةٍ مّا. وحينَ نَفهَمُ بِسُهولَةٍ فَعادَةً مّا نكونُ أَقَلَّ وَعيًا لِلكلِماتِ المُستَعمَلةِ مِنّا حينَ يُفْحَصُ تأويلُنا مِن خِلالِ عَدَمِ اعتِياديَّةِ الأُسلوبِ أو غَرابةِ المَرجِعِ.

ولِهذهِ الاعتِباراتِ أهمِّيَّتُها في مَجالِ التَّعليمِ. [210] إذ يَبدو الكثيرُ مِن الأطفالِ أغبَى مِمّا هُم عليهِ في حقيقةِ الأمرِ، وليسَ ذلكَ بِسببِ سُوءِ تأويلِهِم للكلماتِ بل بسببِ إخفاقِهِم في تمييزِها أوّلاً بِوَصفِها أصواتًا، وكذلكَ يَتفاوَتُ البالِغُونَ تَفاوُتًا كبيرًا في قُدرتِهِم على تمييزِ الأَصواتِ الملفوظَةِ حينَ يُتَكَلَّمُ بِسُرعةٍ أو بِـ'لكنَةٍ.' فَهذهِ القُدرَةُ تُؤَثِّرُ تأثيرًا كبيرًا في سُهولَةِ اكتِسابِ اللُّغاتِ.

وبِتمييزِ الصَّوتِ بِوَصفِهِ كلمةً تَبدُو أهمِّيَّةُ التَّمييزِ السّابِقِ لِلصَّوتِ وقد تقلَّصَتْ. على أنَّ هذا ليسَ ما يَحدُثُ بِالفِعلِ. صَحيحٌ أنَّ بِمَقدورِنا تمييزَ كَلِمَةٍ مّا سَواءٌ أَنُطِقَتْ بِصَوتٍ عالٍ أم بِصَوتٍ خَفيضٍ، بِسُرعَةٍ أَم بِبُطْءٍ، بِنَغمَةٍ صاعِدَةٍ أم بِنَغمَةٍ هابِطةٍ، وهَلُمَّ جَرًّا. لكِن مَهما يَكُن مِن اختِلافٍ في نُطقَيْنِ لِكلمةٍ واحدَةٍ بِوَصفِهِما صَوتَيْنِ فلا بُدَّ مِن أنَّ لَهُما مَعَ ذلكَ خَصيصَةً مُشتركةً[3]، وإلّا ما استَطَعْنا تَمييزَهُما بِوَصفِهِما كَلمةً واحدَةً. وبِمُقتَضَى هذهِ الخَصيصَةِ وَحْدَها يَكونُ الصَّوتانِ في سِياقَيْنِ سايكولوجِيَّيْنِ مُتشابِهَيْنِ ومِن ثَمَّ يُؤَوَّلانِ على نَحوٍ مُتشابِهٍ. وقد نَكونُ غيرَ قادِرِينَ على تَبَيُّنِ هذهِ الخَصيصَةِ المُشتركةِ على نَحْوٍ واعٍ، على أنَّ ذلك مِمّا لا يَنبَغي أن يُثيرَ استِغرابَنا. إذ يَبدو مَقبولاً، في العُمومِ، أن يُفتَرَضَ أنَّ مَراحِلَ التَّأويلِ التي هيَ أبسَطُ تَجنَحُ إلى التَّسلُّلِ خارِجَ الوَعيِ في الوَقتِ الذي تَنشَأُ فيهِ عنها تَطوُّراتٌ أكثَرُ تفصيلاً، على أن يَجرِيَ ذلكَ بِنَجاحٍ ويُسرٍ. وإنَّ الصُّعوبَةَ أو الإخفاقَ في أيِّ مُستَوًى لِلتَّأويلِ لَيُؤَدّي في مُعظَمِ الحالاتِ إلى عَودَةِ ظُهورِ المُستَوَياتِ الدُّنيا على مَسرَحِ الوَعيِ، وإلى نَوعٍ مِن الانهِماكِ بِها كَثيرًا مّا يَكونُ حالةً مُناوِئَةً لِلتَّأويلاتِ العُلْيا التي أَفضَى عَدَمُ استِقرارِها إلى ظُهورِ تلكَ المُستَوَياتِ الدُّنْيا.

---

(3) يَجِبُ أن نتذَكَّرَ أنَّ هذهِ الخصائصَ التَّأسيسِيَّةَ لِلسِّياقاتِ قد تكونُ بِصيغَةِ 'أن تكونَ A، أو B، أو C، أو ما إليها'.

إلى هُنا نكونُ قد وَصَلْنا إلى مُستَوَى فَهمِ البَسيطِ مِن الأسماءِ والعِباراتِ، وفي الإمكانِ تَسجيلُ مَدًى لا بَأسَ بِهِ لِلإحالةِ وتَوصيلُهُ بِهذهِ الوَسيلةِ وَحدَها. وهذا النَّمَطُ البَسيطُ مِن الأنظِمَةِ الرَّمْزِيَّةِ يَكونُ كافِيًا في حالَةِ المَراجِعِ البَسيطَةِ أو تَجَمُّعاتِ المَراجِعِ البَسيطَةِ، لكِنَّهُ يُخفِقُ فَورًا في حالَةِ المَراجِعِ المُعَقَّدَةِ، [211] أو مَجموعاتِ المَراجِعِ التي لَها بِنْيَةٌ أكثرُ تَعقيدًا مِن مُجَرَّدِ الاجتِماعِ مَعًا. فَمِن أجلِ أَن يُرْمَزَ إلى إحالاتٍ على مِثلِ هذهِ المَراجِعِ المُعَقَّدَةِ لا بُدَّ مِن تَوافُرِ رُموزٍ مُعَقَّدَةٍ لَها بِنًى مُتَخَصِّصَةٌ، معَ أنَّهُ لا يَبدو ضَروريًّا أن يَعكِسَ الرَّمزُ تَعقيدَ المَرجِعِ أو أن يُناظِرَهُ على نَحوٍ وَثيقٍ جِدًّا. وقَد يَكونُ هذا التَّناظُرُ أَوثَقَ في اللغاتِ البِدائيَّةِ. أمّا في اللغاتِ المُتَطَوِّرَةِ تَطَوُّرًا كَبيرًا فَتَكونُ الوَسائلُ التي تتكوَّنُ بِها الرُّموزُ، أي التي تَكتَسِبُ بِها بِنيَتَها بِوَصفِها رُموزًا، مُتَعدِّدَةً ومُتنوِّعَةً. فقد تُعطَى الرُّموزُ المُعَقَّدَةُ التي لَها المَرجِعُ نَفسُهُ أشكالاً بَديلَةً حتَّى في حالِ عَدَمِ تَغْييرِ الرُّموزِ البَسيطَةِ المُتَضَمَّنَةِ، أي الأسماءِ names. إنَّ دِراسةَ هذهِ الأشكالِ قِسمٌ مِن أَقسامِ النَّحوِ، لَكِنْ إن أُريدَ أن تَكونَ دِراسَتُها مُثمِرَةً فلا بُدَّ مِن أن تُولَى المُشكِلاتُ السّايكولوجيَّةُ قَدرًا مِن الاهتِمامِ الحَقيقيِّ ومِن الوَعيِ أكبرَ مِمّا اعتادَ النَّحويُّونَ أن يَتوفَّروا عليهِ.

ويُمكِنُنا الآنَ أن نَنظُرَ قَليلاً في حالاتٍ أسهَلَ لِهذهِ الرُّموزِ المُعقَّدَةِ. ولْنَبدَأْ بِحالةِ التَّضادِّ بينَ أسماءِ الأعلامِ والعِباراتِ الوَصفيَّةِ. فقد رَأَينا آنِفًا أنَّ الإحالاتِ الخاصَّةَ تَقتضي سِياقاتٍ شَكلُها أبسَطُ كَثيرًا مِن شَكلِها في الإحالاتِ العامَّةِ، وأنَّ فَهمَ أيَّةِ عِبارَةٍ وَصفيَّةٍ يَقتَضي سِياقًا شَكلُهُ أكثَرُ تَعقيدًا. فَمِن أجلِ استِعمالِ رَمزٍ مِثلِ اسمِ لِشَخصٍ- وَلْنَدْعُهُ توماس *Thomas*- لا نَحتاجُ إلّا إلى أن يَكونَ الاسمُ في سِياقٍ بِتَجارِبَ توماسِيَّةٍ. وعادَةً مّا يكونُ القليلُ مِن هذهِ التَّجارِبِ كافِيًا لِتأسيسِ هذا الاقتِرانِ؛ ذلكَ بِأنَّ كلَّ واحِدَةٍ مِن هذهِ التَّجارِبِ سَتَكونُ عَونًا على تَكوينِ السِّياقِ؛ إذ يَندُرُ أن نَلقَى أَحدًا مِمَّن نَعرِفُ مِن غيرِ أن نَعلَمَ أنَّ لهُ اسمًا وحَقيقَةَ اسمِهِ. وبِالضِّدِّ مِن ذلكَ حالةُ فَهمِ اسمٍ وَصفِيٍّ مِثلِ 'أقربائي'؛ إذ إنَّ التَّجارِبَ المَطلوبةَ هُنا لَن تَكونَ واحِدَةً في كلِّ الحالاتِ. فَتارَةً يَظهَرُ الجَدُّ، وتارَةً أُخرَى تُقدِّمُ ابنةُ الأخِ نَفسَها، لكِنَّ صِلتَهُما بِنا لا تَكونُ في جَميعِ المُناسَباتِ سِمَةً مُهَيمِنَةً

بِأَيَّةِ دَرَجَةٍ، ولا [212] الصِّلَةُ التي يُوافِقانِ على حَملِها لِلحَفيدِ أو العَمِّ على التَّوالي عَلاقَةً واضِحَةً. وهكذا، فإنَّ وُجودَ مَدًى مِن التَّجارِبِ التي تَختَلِفُ إحداها عن الأُخرَى اختِلافًا كبيرًا ضَرورِيٌّ إذا ما أُريدَ لِلسِّياقِ المَطلوبِ أن يُبْنَى.

وكَلِمةُ 'أَقرِباء'، في حَقيقَتِها، إنَّما هيَ تَجريدٌ، بِمَعنَى أنَّ الإحالةَ التي تَرمِزُ إليها لا يُمكِنُ تَكوينُها بِبَساطَةٍ ومُباشَرَةٍ بِوَساطَةِ تَجَمُّعٍ واحِدٍ لِلتَّجارِبِ، ولكِنَّها نَتيجَةٌ لِتَجَمُّعاتٍ مُختلِفَةٍ مِن التَّجارِبِ التي يُمَكِّنُ اختِلافُها نَفْسُهُ عَناصِرَها المُشتَرَكَةَ مِن البَقاءِ في عُزلَةٍ. وعادَةً مَا تَكونُ عَمَليَّةُ الانتِخابِ والإقصاءِ هذهِ فَعّالَةً في اكتِسابِ المُفرَداتِ وتَطويرِ الفِكرِ. ويَندُرُ أن تتكوَّنَ الكلماتُ مُباشَرَةً في سِياقاتٍ بِتَجرِبَةٍ غيرِ رَمزِيَّةٍ؛ فقد جَرَتِ العادَةُ بِأنَّها لا تُتَعَلَّمُ إلّا مِن خِلالِ كلماتٍ أُخرَى. فَنَحنُ نَبدَأُ بِاستِعمالِ اللغَةِ مُبَكِّرًا مِن أجلِ أن نتعلَّمَ اللغَةَ، لكِن لَمّا كانَ الأمرُ لا يَقتَصِرُ على اكتِسابِ المُتَرادِفاتِ أو التَّعبيراتِ البَديلَةِ كانَ مِمّا هُوَ مَطلوبٌ التَّشديدُ نَفسُهُ على التَّشابُهاتِ بينَ الإحالاتِ، واستِبعادِ اختِلافاتِها بِسببِ التَّعارُضِ. بِهذهِ الوَسيلَةِ نَستَطيعُ تَطويرَ إحالاتٍ أكثَرَ وأكثَرَ تَجريدِيَّةً، وتَغْدو الاستِعارَةُ، وهيَ التَّرميزُ الأَوَّلِيُّ لِلتَّجريدِ، مُمكِنةً. فالاستِعارَةُ، بِمَعْناها العامِّ جِدًّا، هيَ استِعمالُ إحالَةٍ واحِدَةٍ لِمَجموعةِ أشياءَ بَينَها عَلاقَةٌ مُعطاةٌ، مِن أجلِ تَيسيرِ تَمييزِ عَلاقَةٍ مُشابِهَةٍ في مجموعةٍ أُخرَى[4]. وفي تَأويلِ اللغةِ الاستِعَارِيَّةِ يُقالُ إنَّ إحالةً مّا تَستَعيرُ جُزءًا مِن سِياقِ إحالَةٍ أُخرَى في شَكلٍ تَجريدِيٍّ.

وثَمَّةَ طريقَتانِ يُمكِنُ أن تَستَولِيَ بِهِما إحالةٌ مّا على جُزءٍ مِن سِياقِ إحالةٍ أُخرَى. إذ قد تُقرَنُ إحالةٌ على رَجُلٍ بِإحالةٍ على بَحرٍ، لِتَنشَأَ إحالَةٌ على مَلّاحِينَ. ولا تَنطَوي هذهِ الحالَةُ على أَيَّةِ استِعارَةٍ. أمّا حينَ نُعِدُّ العُدَّةَ، مِن جِهَةٍ أُخرَى، لِمُواجَهَةِ بَحرٍ مِن المُشكِلاتِ، فإنَّ ذلكَ الجُزءَ مِن سِياقِ [213] الإحالةِ على البَحرِ المَقرونَ بِسائرِ الإحالاتِ يَظْهَرُ في شَكلٍ تَجريدِيٍّ، أي إنَّ خَصائصَ البَحرِ

---

(4) لِلوقوفِ على أشكالٍ أُخرَى لِلاستِعارَةِ يُنظَرُ كِتابُ مَبادِئُ النَّقدِ الأَدَبيّ *Principles of Literary Criticism*، الفَصلُ الثّاني والثَّلاثونَ.

ذَواتِ الصِّلَةِ لا تتضَمَّنُ في هذهِ الحالةِ انجِذابَهُ نَحوَ القَمَرِ[5]، أو كَونَهُ مَلاذًا لِلأسماكِ. وتَعتَمِدُ القِيمَةُ الشِّعرِيَّةُ لِلاستِعارَةِ في هذهِ الحالةِ بِشَكلٍ أساسيٍّ على الطَّريقَةِ التي تُؤَكِّدُ بِها الاستِمراريَّةُ التي لا انقِطاعَ لَها لِلأمواجِ الإحساسَ بِاليَأسِ الحاضِرِ سَلَفًا- كما تُظهِرُ ذلكَ جَيِّدًا أُسطورَةُ كوتشولَيْن Cuchulain[6].

والحَقُّ أنَّ استِعمالَ الاستِعارَةِ يَستَلزِمُ النَّوعَ نَفسَهُ مِن السِّياقاتِ التي تَستَلزِمُها الفِكرةُ المُجَرَّدَةُ، والنُّقطَةُ المُهِمَّةُ في ذلكَ هو أنَّ الأعضاءَ لا تَمتَلِكُ إلّا السِّمَةَ المُشتركَةَ ذاتَ الصِّلَةِ، وأنَّ السِّماتِ غيرَ ذَواتِ الصِّلَةِ أو العَرَضِيَّةَ يَنفِي بَعضُها بَعضًا. وكلُّ استِعمالٍ لِلصِّفاتِ، وحُروفِ الجَرِّ، والأفعالِ، وما إليها، يَعتَمِدُ على هذا المَبدَإِ. وحُروفُ الجَرِّ مُثيرَةٌ لِلاهتِمامِ على نَحوٍ مُمَيَّزٍ؛ فأنواعُ السِّياقاتِ التي تَعتَمِدُ عليها واضِحَةُ الاختِلافِ في نِطاقِ الأعضاءِ وتنوُّعِها. فـ'داخِل inside' و'خارِج outside'، على ما يَبْدُو، يَنطوِيانِ على أقَلِّ تَعْقيدٍ في السِّياقِ، ومِن ثَمَّ،

(5) الإشارةُ هنا إلى ما يَحدُثُ في ظاهِرَتَي المدِّ والجزرِ، وهما ظاهرتانِ طبيعيَّتانِ تَحدُثانِ لِمياهِ المُحيطاتِ والبِحارِ بِتأثيرٍ من القَمَرِ؛ فالمدُّ هو الارتفاعُ الوقتيُّ التدرُّجيُّ في منسوبِ مياهِ سطحِ المحيطِ أو البحرِ؛ والجزرُ هو الانخفاضُ الوقتيُّ التدرُّجيُّ في منسوبِ مياهِ سطحِ المحيطِ أو البحرِ. وتنشأُ حركةُ المدِّ والجزرِ بِفِعلِ جَذبِ الشمسِ والقَمَرِ لِمياهِ البحارِ والمحيطاتِ، ولكِن لمّا كانَ القمرُ أقربَ إلى الأرضِ كانَتْ جاذبيَّتُهُ أكبرَ على الرَّغمِ من صِغَرِ حجمِهِ. وثمَّةَ عامِلٌ آخَرُ يُسهِمُ في حُدوثِ المدِّ والجزرِ هو قوَّةُ الطَّردِ المركزيِّ التي يُسَبِّبُها دورانُ الأرضِ حولَ نفسِها. [المُترجِم]

(6) كوتشولَيْن: بطلٌ من أبطالِ الأساطيرِ والحكاياتِ الشعبيَّةِ الإيرلنديَّةِ، وهو الشخصيَّةُ الرئيسةُ في ملحمةِ قَطيعِ كولي، وهيَ أقدَمُ ملحمةٍ تُكتَبُ بِلُغةٍ قوميَّةٍ في غربِ أورُبّا. وقد نَمَتْ شهرةُ كوتشولَيْن في الحكاياتِ الشعبيَّةِ الإيرلنديَّةِ وراجَتْ حتّى صارَ يُحكَى عنهُ بِوَصفِهِ مُدافِعًا عن إيرلندا كلِّها. وتزعُمُ الأسطورةُ أنَّ كوتشولَيْن كانَ يتمتَّعُ بقوَّةٍ خارقةٍ لِلعادةِ لأنَّ والدَهُ لوو كانَ إلهًا مهمًّا من آلهةِ السِّلتيِّينَ. وأُطلِقَ على كوتشولَيْن هذا الاسمُ، ومعناهُ كَلبٌ، لأنَّهُ عرَضَ أن يَحلَّ محلَّ كلبِ حِراسةٍ شرسٍ كانَ قد قتلَهُ في منزلِ كُولان. وما أشارَ إليهِ أوغدِن ورِتشاردز مِصداقُهُ ما وردَ في نصِّ الأسطورةِ مِن أنَّ كوتشولَيْن صارَعَ أمواجَ البَحرِ ثلاثةَ أيّامٍ بِلياليها، إلى أن سَقَطَ أخيرًا مِن فَرطِ الجُوعِ والتَّعَبِ، حتَّى قيلَ إنَّهُ لَقِيَ حَتْفَهُ هناكَ. [المُترجِم]

على ما هوَ مُتَوَقَّعٌ، يَسهُلُ الاحتِفاظُ بِهِما في حالاتِ اضطِرابِ وَظائفِ الكَلامِ. إنَّ الجوانِبَ الاستِعارِيَّةَ في القِسمِ الأعظَمِ مِن اللغةِ، والسَّلاسَةَ التي يُمكِنُ أن تُستَعمَلَ بِها أَيَّةُ كلمةٍ على نَحوِ استِعارِيٍّ، تُمَثِّلُ إشارَةً أُخرَى إلى الدَّرَجَةِ التي اكتَسَبَتْ بِها الكَلماتُ سِياقاتٍ مِن خِلالِ كَلماتٍ أُخرَى، ولا سِيَّما لَدَى الأشخاصِ المُتَعلِّمِينَ. ومِن جِهَةٍ أُخرَى، فَالذينَ هُم غايَةٌ في البَساطَةِ مِمَّن تَكونُ مُفرَداتُهُم قليلةً وحِسِّيَّةً يَقرُبُونَ إلى حَدٍّ مّا مِمّا عُرِضَ آنِفًا (ص325)؛ إذ إنَّ القِسمَ الأعظَمَ مِن كلِماتِهِم مُكتَسَبٌ على نحوٍ طبيعيٍّ بِارتِباطٍ مُباشِرٍ بِالتَّجرِبَةِ. وكانَ لِلُغَتِهِم على الدَّوامِ الكثيرُ مِن خَصائصِ أسماءِ الأعلامِ. وإلى ذلكَ تُعْزَى جُزئيًّا سَلامَتُهُم النِّسبِيَّةُ مِن التَّخليطاتِ، على أَنَّهُ يُعزَى إليهِ أيضًا مَوقِفُهُم السّاذَجُ أو السِّحرِيُّ مِن الكلماتِ. ومِثلُ هؤُلاءِ المُستَعْمِلِينَ لِلُّغَةِ يُمكِنُ أن يُقالَ عنهُم إِنَّهُم تَحتَ المُستَوَى الذي يُصبِحُ فيهِ التَّخليطُ مُمكِنًا، وهو الضَّريبةُ التي نَدفَعُها لِما نَمتَلِكُهُ مِن قُدرَةٍ على التَّجريدِ.

في كُلِّ ما قُلْناهُ حتّى الآنَ كُنّا نَتَعامَلُ أساسًا [214] معَ المُستَمِعِ، الذي يُؤَوِّلُ الرُّموزَ كما تُقَدَّمُ لَهُ. فَعلَيْنا بَعدُ أن نَفحَصَ العَمليّاتِ التي تُرَمَّزُ بِوَساطتِها الإحالاتُ عندَ نُشوئها لَدَى المُتَكلِّمِ. وهذهِ الحالةُ مُعاكِسَةٌ في بَعضِ جَوانِبِها لِلحالةِ السّابِقَةِ، أَمّا في جَوانِبَ أُخرَى فما يَحْدُثُ مُختَلِفٌ تَمامًا. فَالكَلِمَةُ لَدَى المُستَمِعِ هيَ العَلامَةُ، ومِن غَيرِها لا تَحدُثُ الإحالَةُ المطلوبَةُ. وقَد تَحْدُثُ لَدَى أنماطٍ عَقليَّةٍ مُعَيَّنَةٍ عمليَّةٌ مُماثِلَةٌ تَمامًا عندَ المتكلِّمِ، معَ اختِلافٍ وَحيدٍ هوَ أنَّ الكلماتِ لا تُعطَى مِن الخارِجِ، بل تَنشَأُ مِن خِلالِ نَوعٍ مِن التَّسبيبِ الدّاخِلِيِّ. فَفي هذهِ الحالَةِ لَيْسَتْ ثَمَّةَ عَمليَّتانِ مُتَمايِزَتانِ، الإحالةُ والتَّرميزُ، بل عَمليَّةٌ واحِدَةٌ فقط- الإحالةُ مِن خِلالِ الرُّموزِ؛ فواقِعُ الحالِ هوَ أنَّ الإحالةَ مَحكومةٌ بِالرَّمزِ.

على أنَّ الرَّمزَ يَبدو عندَ مُعظَمِ المُفكِّرِينَ أَقَلَّ جَوهَرِيَّةً مِن الإحالةِ. فقد يُستَغنَى عنهُ، ويُغَيَّرُ في حُدودٍ مُعَيَّنَةٍ، وهوَ تابعٌ لِلإحالةِ التي هو رَمزٌ لَها. فالرَّمزُ عندَ هؤُلاءِ، أي الفِئةِ الاعتِيادِيَّةِ، لا يَكونُ جُزءًا مِن السِّياقِ السّايكولوجيِّ الذي تتطَلَّبُهُ الإحالةُ إلّا أحيانًا. ولا شَكَّ لَدينا جَميعًا في أنَّ ثَمَّةَ إحالاتٍ لا يُمكِنُنا إنشاؤُها إلّا بِالاستِعانَةِ بِالكَلِماتِ، أي بِالسِّياقاتِ التي تكونُ الكَلماتُ أعضاءً

فيها، لكِنَّ هذهِ قد تَختَلِفُ بِاختِلافِ الأنماطِ العَقليَّةِ لِلنّاسِ ومُستَوَياتِها، بَل إنَّ الأمرَ لَيَصْدُقُ على الفَرْدِ الواحِدِ؛ إذ إنَّ إحالَتَهُ التي قَد يَكونُ في وُسْعِها الاستِغناءُ عن الكَلِمَةِ في إحدَى المُناسَباتِ رُبَّما تَعودُ فَتَحتاجُ هيَ نَفسُها إليها، على نَحْوٍ يَستَحيلُ مَعَهُ أن تَستَغنِيَ عنها، في مُناسَبَةٍ أُخرَى. فبِاختِلافِ المُناسَباتِ قَد تَختَلِفُ السِّياقاتُ المُحَدِّدَةُ فيما يتعلَّقُ بِالإحالاتِ المُتشابِهَةِ اختِلافًا كبيرًا. وعلينا أن نَتَذَكَّرَ أنَّ الإحالَتَيْنِ اللتَيْنِ فيهما مِن الشَّبَهِ في الأساسيّاتِ ما يَكفي لِعَدِّهِما مُتَماثِلَتَيْنِ لِلأغراضِ العَمَليَّةِ، قد تَكونانِ معَ ذلكَ مُختَلِفَتَيْنِ اختِلافًا كَبيرًا جِدًّا في السِّماتِ الثّانويَّةِ. وقد تتضمَّنُ السِّياقاتُ الفَعّالَةُ المَزيدَ مِن الأعضاءِ الزّائدَةِ على العَدَدِ المُقَرَّرِ. غيرَ أنَّ أيًّا مِن هذهِ السِّماتِ الثّانويَّةِ قد تُصبِحُ عُنصُرًا أساسيًّا بِدَلاً مِن أن تَكونَ مُجرَّدَ حالةٍ تكميليَّةٍ، وذلكَ مِن خِلالِ تَغيُّرٍ في السِّياقاتِ المُوسَّعَةِ والتي تَعتَمِدُ عليها هذهِ السِّياقاتُ المُضَيَّقَةُ. ويَبدو أنَّ حُدوثَ هذا يَكونُ [215] عندَ التَّحوُّلِ مِن حالةِ الحُرِّيَّةِ الكَلميَّةِ، حينَ لا تَكونُ الكلمةُ عُضوًا أساسيًّا في سِياقِ الإحالةِ، إلى حالةِ التَّبَعيَّةِ الكَلميَّةِ، حينَ تَكونُ الكَلِمَةُ كذلكَ.

إنَّ النَّتائجَ العمليَّةَ لِهذهِ الاختِلافاتِ بينَ الأفرادِ، وبينَ المُناسَباتِ المُتَعلِّقَةِ بِالفَردِ الواحِدِ، مُهِمَّةٌ. وفي النِّقاشِ عَلَينا أن نُفَرِّقَ بِاستِمرارٍ بينَ الذينَ لَيسَتْ لَهُم القُدرةُ على تَعديلِ مُفرَداتِهِم مِن غيرِ أن يُفسِدُوا إحالاتِهِم إفسادًا شامِلاً، والذينَ يَمتَلِكونَ حُرِّيَّةَ تَنويعِ رُموزِهِم لِتُلائمَ المُناسَبَةَ المَعْنِيَّةَ. وفي جَميعِ مُستَوَياتِ الأداءِ العَقليِّ نَجِدُ أشخاصًا يَفهَمونَ أيَّ اقتِراحٍ مُقَدَّمٍ لَهُم لِتغييرِ رُموزِهُم على أنَّهُ اقتِراحٌ لِلارتِدادِ عن اعتِقاداتِهِم. فاختِلافُ القَولِ عِندَ هؤُلاءِ يَعني اختِلافَ التَّفكيرِ؛ ذلكَ بِأنَّ كَلِماتِهِم أعضاءٌ أساسيَّةٌ في سِياقاتِ إحالاتِهِم. أمّا الذينَ هُم لَيسُوا مُقَيَّدِينَ إلى هذهِ الدَّرَجَةِ بِرُموزِهِم فإنَّ هذا العَجزَ عن التَّخَلِّي الحاليِّ عن أساليبِ التَّعبيرِ المُفَضَّلَةِ كَثيرًا مّا يَبدو لَهُم غَباءً مُتَمَركِزًا مُتَمَيِّزًا[7]. لكِنَّهُ لا يَدُلُّ بِالضَّرورةِ على وِجهَةِ نَظرٍ فَجَّةٍ وخُرافِيَّةٍ بِشأنِ عَلاقاتِ الكَلِماتِ بِالأشياءِ؛ إذ إنَّ علينا أن نَكونَ

(7) ولا يَنبَغي أن يُخَلِّطَ علينا بِعِنادِ ذَوِي الصِّفَةِ الرَّسميَّةِ وغَيرِهِم الذي غالبًا مّا يُقَدَّمُ بِصيغَةِ تَصلُّبٍ لَفظيٍّ، كما في حِكايَةِ الزِّنجِيِّ التي اعتادَ بيرس C. S. Peirce أن يَقُصَّها، والتي =

مُستَعِدِّينَ لإدراكِ أنَّ مِثلَ هذا التَّقيُّدِ بِكَلِماتٍ خاصَّةٍ كما لَو أنَّ لَها مَزيَّةً مُطلَقَةً وطِلَّسْمِيَّةً قد يَكونُ مِن أعراضِ أنَّ الكَلِمَةَ عندَ المُتَكَلِّمِ جُزءٌ ضَروريٌّ مِن سِياقِ الإحالَةِ؛ إمّا لأنَّها كَذلكَ عندَ أَوَّلِ نُشوءِ الإحالَةِ، وإمّا لأنَّ العَلاماتِ غيرَ اللفظيَّةِ لا تَكفي وَحدَها لِتَفادي التَّخليطِ. مِن جِهَةٍ أُخرَى، قد يَكونُ الاستِعدادُ الكبيرُ جِدًّا لاستِعمالِ أيِّ رَمزٍ مُقتَرَحٍ أو كُلِّ رَمزٍ مُقتَرَحٍ [216] مِن أعراضِ القُدرةِ الضَّعيفَةِ على التَّفريقِ بينَ الإحالاتِ، بِما يُوحي إلى المُتابِعِ بِأنَّ المُتكلِّمَ لا يُنشِئُ أيَّةَ إحالَةٍ ثابِتَةٍ البَتَّةَ.

غيرَ أنَّ عِلمَ أعراضِ السُّلوكِ اللغويِّ عِلمٌ مُعَقَّدٌ، ولا يُمكِنُ الوُثوقُ إلّا قَليلاً بِالمُشاهَداتِ التي لا يتيسَّرُ التَّثَبُّتُ منها بِمَعرِفَةٍ واسِعَةٍ لِلسُّلوكِ العامِّ لِلموضوعِ الخاضِعِ لِلاختِبارِ. وما عَرَضْنا هذهِ الأمثِلَةَ هُنا إلّا لِنُشيرَ إلى نَوعِ العَمَلِ الذي ما زالَ أداؤُهُ ضَروريًّا. إنَّهُ ذلك النَّوعُ مِن العَمَلِ الذي يُؤَدِّيهِ الكثيرُ مِن النّاسِ بِنَجاحٍ كَبيرٍ على نَحوٍ طَبيعيٍّ؛ إذ إنَّهُم كَثيرًا مّا يَحكُمونَ فَورًا على مُتَكَلِّمٍ مّا: أَجَديرٌ هُوَ بِأن يُصغَى إليهِ؟ مِن مُجَرَّدِ مُراقَبَةِ الطَّريقَةِ التي تَنطَلِقُ بِها الكلماتُ مِن فَمِهِ، وبِصَرْفِ النَّظَرِ تَمامًا عن الكَلِماتِ المَخصوصَةِ. ودِراسَةُ سُلوكِيّاتِ السِّياسيِّينَ والوُعّاظِ مُفيدَةٌ، على أيَّةِ حالٍ، بِوَصفِها تَدقيقًا لِلاستِنتاجاتِ المُتَعَجِّلَةِ جِدًّا. ومِمّا يُطلَبُ على الدَّوامِ، عُمومًا، تَمييزُ الذينَ تَحكُمُ إحالاتُهُم رُموزَهُم مِن الذينَ تَحكُمُ رُموزُهُم إحالاتِهِم، على الرَّغمِ مِمّا أشَرْنا إليهِ آنِفًا مِن أنَّ حالَتَي الاستِقلاليَّةِ الكَلميَّةِ والتَّبعيَّةِ الكَلميَّةِ، على ما قد تُسَمَّيانِ بِهِ، يَندُرُ أن تُوجَدَ

= جاءَ فيها: "تَعلَمينَ يا ماسا أنَّ الجَنرال واشنطن والجَنرال جاكسن كانا صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ. فَذاتَ يَومٍ قالَ الجَنرال واشنطن لِلجَنرال جاكسن: 'كم كانَ يَبلُغُ طُولُ حِصاني في ظَنِّكَ يا جَنرال؟.' فقالَ الجَنرال جاكسن: 'لا عِلمَ لي يا جَنرال. كَم طُولُهُ أيُّها الجَنرال؟.' فقالَ الجَنرال واشنطن: 'طولُهُ سِتَّةَ عَشَرَ قَدَمًا.' فقالَ الجَنرال جاكسن: '(قَدَمًا) يا جَنرال؟ (قَدَمًا) يا جَنرال؟ لا بُدَّ أنَّكَ تَقصِدُ (يَدًا) يا جَنرال.' فتساءَلَ الجَنرال واشنطن قائلاً: 'هل قُلْتُ (قَدَمًا) يا جَنرال؟ هل تَقصِدُ أن تَقولَ إنِّي قُلْتُ إنَّ طُولَ حِصاني كانَ سِتَّةَ عَشَرَ قَدَمًا؟ لكِنْ إن كُنتُ قد قُلْتُ (قَدَمًا)، إن كُنتُ قد قُلْتُ (قَدَمًا)، فإنِّي مُتَمَسِّكٌ بِقَولي هذا'".

إحداهُما مَعزولَةً عن الأُخرَى، وأنَّ مُعظَمَ المُتَكلِّمِينَ يَتحَوَّلونَ مِن إحداهُما إلى الأُخرَى. وعلى الرَّغمِ مِن هذهِ الصُّعوبةِ العَمَليَّةِ يُمَثِّلُ تَمييزُ التَّبَعيَّةِ الكَلميَّةِ مِن الحُرِّيَّةِ الكَلميَّةِ إحدَى نِقاطِ الانطِلاقِ في البَحثِ اللغويِّ؛ ذلكَ بِأنَّ أعراضَ الكَلامِ الهُرائيِّ، أو اللَغوِ، أو البَبَّغائيَّةِ psittacism أو أيِّ شَيءٍ يُمكِنُ أن نَختارَ أن نُطْلِقَ عليهِ اسمَ المَرَضِ المُدَمِّرِ الذي هو سببُ ما يُعانيهِ الكَثيرُ جِدًّا مِن فَعّاليَّةِ النّاسِ التَّواصُليَّةِ، مُختَلِفَةٌ تَمامًا في الحالتَيْنِ، والحَقُّ أنَّهُ ما لَم يَكُنْ ثَمَّةَ تَمييزٌ فإنَّها تَكونُ مُتَعارِضَةً ومُلْبِسَةً. ومُعظَمُ الكُتّابِ والمُتكلِّمِينَ سَتَدفَعُهُم تَجرِبَتُهُم الشَّخصيَّةُ إلى الإقرارِ بِأنَّ كَلامَهُم في مُناسَباتٍ مُعَيَّنَةٍ يَخرُجُ بَطيئًا وثَقيلاً ومُؤَثِّرًا؛ ذلكَ بِأنَّهُم إذا ما كانوا في حالةِ تَبَعيَّةٍ كلميَّةٍ فإنَّ الكَلِماتِ الضَّروريَّةَ التي لا يَحدُثُ أيُّ شَيءٍ مِن غيرِ وُجودِها تَحْدُثُ بِبُطْءٍ ويَجِبُ انتِظارُها، في حينِ أنَّ الكَلِماتِ في مُناسَباتٍ أُخرَى تَنثالُ انثِيالاً بالأُسلوبِ نَفسِهِ؛ إذ إنَّ كَونَ الكُتّابِ أو المُتكلِّمِينَ في حالةِ تَحَرُّرٍ كَلميٍّ حينَئذٍ [217] يَجعَلُهُم يَختارونَ أكثَرَ رَمْزيّاتِهِم مُلاءَمَةً لِلإحالةِ ولِلمُناسَبَةِ، مِن أجلِ شَيءٍ مِن الحَسميَّةِ في التَّعبيرِ.

وليسَ في الإمكانِ التَّعَسُّفُ في تَعيينِ أيٍّ مِن هاتَيْنِ العَمليَّتَيْنِ الكَلامِيَّتَيْنِ على أنَّها العَمليَّةُ الوَحيدَةُ الصَّحيحَةُ أو المُلائمَةُ. فالتَّبَعيَّةُ الكَلميَّةُ، على سبيلِ المِثالِ، يَجِبُ ألّا تُساوَى بِالبَبَّغائيَّةِ البَتَّةَ، أو أن تُعَدَّ بِالضَّرورةِ سائرَةً في اتِّجاهِها. فالبَبَّغائيَّةُ استِعمالُ الكَلِماتِ مِن غيرِ إحالةٍ، وفِكرَةُ أنَّ الكلمَةَ ضَروريَّةٌ لِلإحالةِ، على ما يُلْحَظُ بِسُهولةٍ، لَيسَتْ بِحالٍ مِن الأحوالِ إشارَةً إلى غِيابِ الإحالةِ. وعلى الرَّغمِ مِن ذلكَ إذا ما نَظَرْنا في الفَعّاليّاتِ الأُخرَى، كَتناوُلِ الطَّعامِ ورُكوبِ الدَّراجةِ، التي تُشبِهُ الكَلامَ في أنَّها عُرضَةٌ لِدَرَجاتِ ضَبْطٍ مُتَغَيِّرَةٍ، فقد نَجِدُ سببًا لِلحُكمِ لِمَصلَحةِ إجراءٍ كَلاميٍّ يَنبَغي أن يَكونَ مَزيجًا مِن تَطَرُّفَي التَّبَعيَّةِ الكَلميَّةِ والتَّحَرُّرِ الكَلميِّ. ويَنبَغي أن يَكونَ الضَّبْطُ المُتَعَمَّدُ في أقصَى دَرجاتِهِ في مَواضِعَ مُعيَّنَةٍ مِن المَقولاتِ الجادَّةِ، أي إنَّ السِّياقَ السّايكولوجيَّ الذي تكونُ الكلمةُ مُلائمةً فيهِ والذي تُعزَى إليهِ الإحالةُ يَنبَغي أن يَتَضَمَّنَ ما يُمكِنُ أن يتضَمَّنَهُ مِن تَنَوُّعِ الأعضاءِ. أمّا سائرُ التَّرميزِ فينبَغي أن يُترَكَ لِتَوجيهِ الأنظمةِ ذاتِ السِّياقاتِ الضَّيِّقةِ التي تُدعَى العاداتِ اللَفظيَّةَ، أو آليّاتِ الكَلامِ، أو الإحساساتِ اللغويَّةَ.

وإنَّ عِلمَ الأمراضِ لَيُسلِّطُ قَدرًا لا بَأسَ بِهِ مِن الضَّوءِ على استِعمالِ الرُّموزِ، كما هيَ الحالُ على الدَّوامِ في البَحثِ السّايكولوجيّ. ويُمكِنُ تَوَقُّعُ الكثيرِ مِن العَمَلِ الجاري الآنَ على الحُبْسَةِ[8].

ومِن المُثيرِ لِلاهتِمامِ في هذهِ الأثناءِ [218] النَّظَرُ في بعضِ الصُّعوباتِ التي

(8) يُنظَرُ بخاصَّةٍ: Henri Piéron, *Thought and the Brain*, (*Int. Lib. Psych.*, 1926), Part III., pp. 149-227, and Kinnier Wilson, *Aphasia* (*Psyche Miniatures*, 1926)، فقد عالَجا الجوانبَ الانفِعاليَّةَ والرَّمزيَّةَ مَعًا.
وقد مَيَّزَ الدُّكتور هنري هيد Henry Head أربعةَ أنواعٍ مِن الاضطِراباتِ الكَلاميَّةِ، أُخِذَتْ أسماؤُها مِن "أبرَزِ عُيوبِ استِعمالِ الكلماتِ"، وهيَ على النَّحوِ الآتي:
(1) الحُبْسَةُ اللفظِيَّة. "هيَ، أساسًا، اضطِرابٌ في تَكوينِ الكَلماتِ ... وعندَ عَودَةِ الكلامِ يُمكِنُ تنفيذُ أوامِرَ مُقَدَّمَةٍ في كَلِماتٍ مَنطوقَةٍ أو مَكتوبَةٍ، لكِنَّ الأوامِرَ التي تَستَلزِمُ استِدعاءَ كلمةٍ مّا أو عِبارَةٍ مّا قد تُنَفَّذُ على نحوٍ سَيِّئٍ".
(2) الحُبْسَةُ النَّحوِيَّة. فالمريضُ "يَميلُ إلى التَّحدُّثِ بِلُغَةٍ غيرِ مَفهُومَةٍ؛ إذ لا يَقتَصِرُ الأمرُ في هذهِ الحالةِ على عَدَمِ اتِّزانِ نُطقِ الكلمةِ، بل يَكونُ إيقاعُ العِبارَةِ مَعيبًا، ويكونُ ثَمَّةَ نَقصٌ في التَّماسُكِ النَّحويِّ ... ومِن المُمكِنِ كِتابَةُ الكلماتِ المُفرَدَةِ على نَحوٍ صَحيحٍ، لكِنَّ أيَّةَ مُحاوَلَةٍ لِتَوصيلِ عِبارَةٍ مَصوغَةٍ ستكونُ عُرضَةً لأن تنتهِيَ بِالتَّخليطِ".
(3) الحُبْسَةُ الاسمِيَّة. "هيَ، في الأساسِ، استِعمالٌ مَعيبٌ لِلأسماءِ ونَقصٌ في استيعابِ المَعنَى الاسمِيِّ لِلكلماتِ أو الرُّموزِ الأخرَى". ويُعَلِّقُ الدُّكتور هيد بهذا الصَّدَدِ بِقولِهِ إنَّ "فَصلَ تَكوينِ الكَلِمةِ عن التَّسْمِيَةِ ووَظائفِها المُتَّحِدَةِ معها سِمَةٌ جديدةٌ تَمامًا في تَصنيفِ الحُبساتِ". ويبدو هذا أمرًا غيرَ اعتيادِيٍّ.
(4) الحُبْسَةُ الدَّلالِيَّة. "فالانفِعالُ يَنطوي على عَوَزٍ في تَمييزِ الدَّلالَةِ التّامَّةِ أو القَصدِ التّامِّ لِلكَلماتِ والعِباراتِ". فالمريضُ "يَفقِدُ القُدرةَ على تَقويمِ المَعاني المُطلَقَةِ أو غيرِ اللفظيَّةِ لِلكَلماتِ والعِباراتِ، ويُخفِقُ في تمييزِ المَقاصِدِ والأهدافِ لِلفَعّاليّاتِ المعروضةِ عليهِ".
ومَهما تَكُنِ القيمةُ السَّريريَّةُ لِلتَّصنيفِ المذكورِ آنِفًا فإنَّهُ، على أيَّةِ حالٍ، مُقْنِعٌ مِن النّاحيةِ النَّظريَّةِ، وإنَّ استِعمالاتِ الدُّكتور هيد لِكلمةِ 'مَعنى' تتضمَّنُ المَحاذِيرَ والإبهاماتِ التي لا يُمكِنُ عَزلُها عن مُصطَلَحٍ كَهذا. ويُعَلِّقُ كِنيير وِلسن Kinnier Wilson (المصدرُ نَفسُه: ص78) بِقولِهِ: "إنَّ التَّنظيمَ السّايكولوجيَّ، إلى حينِ إحرازِ المَزيدِ مِن التَّقدُّمِ، مُعَرَّضٌ لِضَرَرٍ حقيقيٍّ يتمثَّلُ في فقدانِ التَّواصلِ مَعَ الوظيفَةِ الدِّماغيَّةِ، ولا يُعَوِّضُ ذلكَ تَعاظُمُ الشَّرعيَّةِ العِلميَّةِ المُدَّعاةِ لَهُ".

تَحدُثُ في الاستِعمالِ الاعتِياديِّ لِلُّغَةِ. إذ تُوجَدُ عِدَّةُ مُستَوَياتٍ لِلإخفاقِ المُحتَمَلِ تُناظِرُ تَدرُّجاتِ التَّأويلاتِ المُبَيَّنَةِ آنِفًا. فالمُستَوَى الأَوَّلُ هوَ أن نُخْفِقَ في تَمييزِ كَلمةٍ مَّا بِوَصفِها صَوْتًا، حينَ يُصادِفُ أن تُوَجَّهَ الكلمةُ إلينا ونَحنُ نُوشِكُ أن نَنطِقَ نحنُ أنفُسُنا بِها. والمُستَوَى الثّاني هو أنّا إن نَجَحْنا في هذهِ المهمَّةِ فإنَّ السِّياقَ المطلوبَ لِتمييزِ الكَلمةِ قد يُفلِتُ مِنّا. ومَرَدُّ هذا الاضطِرابِ إمّا إلى تَضارُبٍ فِسيولوجِيٍّ، وإمّا، على ما قد بيَّنَ المُحلِّلونَ النَّفسِيُّونَ، إلى تَضارُبٍ عاطفيٍّ. وقد يَحدُثُ الإخفاقُ في الاسمِ، وتُقَدِّمُ هذهِ الحالاتُ مُسَوِّغًا لِتَوجيهِ الاتِّهامِ إلى التَّأثيرِ العاطفيِّ، وقد يَحدُثُ في العِبارةِ الوَصفيَّةِ، أو في أيِّ رَمزٍ مُجَرَّدٍ حقًّا، فما دامَ الأَمرُ، في هذهِ الحالةِ، قد ضُمِّنَ الكثيرَ مِن التَّكيُّفاتِ الدَّقيقةِ لِتَجارِبَ واسِعةِ الاختِلافِ ليسَ لها إلّا جُزءٌ مُشتركٌ هَزيلٌ، فإنَّ الإخفاقَ في تَمييزِ هذا الجُزءِ قد يَصحَبُهُ إخفاقٌ في عُمومِ المَيدانِ المُجَرَّدِ[9]. [219] تِلكَ اللَحَظاتُ الدَّوريَّةُ مِن الغَباءِ التي قد تَعرِضُ لأَيٍّ مِنّا، والتي تَظهَرُ فيها جَميعُ التَّعليقاتِ المُجَرَّدَةِ مُتَحَذلِقَةً وغيرَ مَفهومَةٍ، تَبدو في الكثيرِ الغالبِ مُحَدَّدَةً فِسيولوجِيًّا.

فإذا ما عَبَرْنا مَرَّةً أُخرَى إلى مُستَوًى أعلى فلرُبَّما لا يَكونُ ثَمَّةَ عَجزٌ عن

(9) كانَ ثَمَّةَ خِلافٌ طَويلُ الأَمَدِ في نوعِ الكَلماتِ التي تَتَلاشَى أوَّلاً. وهكذا يُورِدُ رِيبو Ribot في مُعالجتِهِ الكلاسيكيَّةِ لِلذّاكرةِ (.Les Maladies de la Mémoire, Chapter III) عددًا من الحُجَجِ لِلنَّتيجةِ التي مفادُها أنَّ "فَقْدَ الذّاكرةِ يتطوَّرُ مِن الخاصِّ إلى العامِّ. إذ يُؤثِّرُ، في البَدءِ، في أسماءِ الأعلام" ... إلى آخِرِ الكَلام. لكِن لا شَكَّ في أنَّ درجَةَ تَجريديَّةِ الكَلمةِ لَيسَتْ أقَلَّ أهمِّيَّةً في هذا الشَّأنِ مِن عُموميَّتِها، كما يَجِبُ عَدَمُ نِسيانِ أنَّه قد يكونُ ثَمَّةَ تنوُّعٌ لِلاضطِراباتِ الوظيفيَّةِ التي تُوصَفُ، في غيرِ مُبالاةٍ، بِأنَّها 'فَقْدٌ لِلذّاكرةِ' و'حُبْسَةٌ.' ويُجيدُ رِيبو في قَولِهِ: "إنَّ عالِمَ النَّفسِ لَيَقِفُ عاجِزًا إلى حينِ إحرازِ علمِ التَّشريحِ وعِلمِ وَظائفِ الأعضاءِ المَزيدَ مِن التَّقدُّمِ". على أنَّهُ مِن الواضِحِ أيضًا أنَّ أيَّةَ كَلمةٍ مُعطاةٍ قد تَختلِفُ مُستَوَياتُها مِن حيثُ التَّجرُّدُ والعُمومُ بِاختِلافِ المُتكلِّمينَ. وقد يَصِحُّ في العُمومِ أن يُقالَ إنَّ "الجَديدَ منها والمُعَقَّدَ أكثرُ عُرضَةً لِذلكَ مِن القَديمِ مِنها والبَسيطِ" (cf. Piéron, *op. cit.*, *Thought and the Brain*, p. 165)، لكِنَّ المَعْنِيَّ بِذلكَ منها لا يُمكِنُ أن يُحَدَّدَ في أيَّةِ مُناسَبَةٍ مَخصوصَةٍ إلّا بِالاستِعانَةِ بِنَظريَّةٍ لِلسِّياقِ كالتي أُوجِزَتْ في الفَصلِ الثّالثِ آنِفًا.

فَهمِ الرُّموزِ التي هيَ مُكَوِّناتٌ لِرَمزٍ مُعقَّدٍ، ومعَ ذلكَ قد نُخفِقُ في تأويلِ الجُملَةِ كامِلةً. وفي هذهِ الحالةِ يُقالُ عنّا إنّا لا نُقَدِّرُ الشَّكْلَ المنطقيَّ لِلرَّمزِ. ويُمكِنُ تَعريفُ الشَّكْلِ المنطقيِّ هُنا بِما هو مُشتركٌ في رُموزٍ مُعَقَّدَةٍ مِن قَبيلِ "هَبَطَ كرُوسو Crusoe[10] مِن حُطامِ السَّفينةِ"، و"سَقَطَ دون كيشوت Quixote[11] مِن روسينانتي Rosinante[12]"، حيثُ يُمكِنُ أن تُخضَعَ المُكَوِّناتُ لاستِبدالِ كَلِمَةٍ بِكَلِمَةٍ. وكُنّا قد ذَهَبْنا آنِفًا إلى أنَّ مُشكلةَ الشَّكْلِ المنطقيِّ تتطلَّبُ المزيدَ مِن الاهتِمامِ الذي لا يُحتَمَلُ أن يَكونَ مُتاحًا لها في الافتِراضاتِ المنطقيَّةِ الدّارجةِ. وإنَّهُ لأمرٌ كارِثيٌّ أن تُعَدَّ فِكرةً مُطْلَقَةً؛ ذلكَ بِأنَّ ما يَستَلزِمُهُ تأويلُ رَمزٍ مُعَقَّدٍ هو وُجوبُ أن تُكَوِّنَ سِياقاتُ الرُّموزِ التَّكوينيَّةِ معَ الرَّمزِ كامِلاً سِياقًا مِن نَمَطٍ أعلَى. وكُلُّ تَرميزٍ مُتَنَقِّلٍ

(10) روبِنسن كرُوسو: الشَّخصيَّةُ الرَّئيسةُ في قِصَّةٍ تحملُ اسمَ هذهِ الشخصيَّةِ كتبَها دانيال ديفو (1660-1730م) ونُشِرتْ أوَّلَ مرَّةٍ سنةَ 1719. تُعَدُّ أحيانًا الرِّوايةَ الأولَى في الإنجليزيَّةِ. وهيَ سيرَةٌ ذاتيَّةٌ لِشابٍّ إنجليزيٍّ يُغادِرُ إنجلترا في رحلةٍ بحريَّةٍ على ظهرِ سفينةٍ يَسطو عليها القراصنةُ، لكنَّهُ يستطيعُ الهربَ في زورقٍ، ويلتحقُ بِسفينةٍ متَّجهةٍ إلى البرازيل، لكنَّها تغرَقُ فيموتُ جميعُ رِفاقِهِ، لكِنَّهُ يتمكَّنُ من النَّجاةِ قبلَ أن تتحطَّمَ السفينةُ وتَغرَقَ. فتُقَدَّرُ لهُ العُزلةُ في جزيرةٍ وحيدًا مُدَّةً طويلةً من غيرِ أن يُقابِلَ أحدًا من البشرِ. ثُمَّ بعدَ عدَّةِ سنواتٍ يُقابِلُ أحدَ المتوحِّشِينَ، ويُعلِّمُهُ بعضَ ما وصَلَ إليهِ الإنسانُ المتحضِّرُ ويَجعلُهُ خادِمَهُ. وفي نهايةِ القصَّةِ يَعودُ روبِنسن كرُوسو ومعهُ خادِمُهُ إلى أورُبّا حيثُ العالَمُ المتحضِّرُ. وتَعني هذهِ القصَّةُ للكثيرِينَ حُلمَ العُزلَةِ عن هذا العالَمِ الظالِمِ والعَيشِ في ظِلِّ الطبيعَةِ الرحيمةِ. [المُترجِم]

(11) دون كيشوت: الشَّخصيَّةُ الرَّئيسةُ في رِوايةٍ للأديبِ الإسبانيِّ ميغيل دي ثيربانتِس سابيدرا (1547-1616م) نَشَرَها في جُزأَيْنِ بينَ عامَيْ 1605 و1615. تَدورُ أحداثُ الرِّوايةِ حولَ شخصيَّةِ ألونسو كيخانو، وهو رجُلٌ نبيلٌ قاربَ الخمسِينَ من عُمُرِهِ، وكانَ مُولَعًا بِقراءةِ كُتُبِ الفروسيَّةِ والشهامةِ، فقرَّرَ أن يترُكَ منزِلَهُ ويشُدَّ الرِّحالَ كفارسٍ شَهمٍ يبحثُ عن مُغامرةٍ تنتظرُهُ، وأخذَ يجولُ البِلادَ حاملاً معهُ دِرعًا قَديمَةً ومُرتدِيًا خُوذَةً باليةً معَ حِصانِهِ الضَّعيفِ روسينانتي. [المُترجِم]

(12) روسينانتي: اسمُ حِصانِ دون كيشوت في رِوايةِ (دون كيشوت) للأديبِ الإسبانيِّ ميغيل دي ثيربانتِس سابيدرا (1547-1616م). والحقُّ أنَّ روسينانتي لم يَكُنْ حِصانَ دون كيشوت فحَسْبُ، بل كانَ كذلكَ صِنْوَهُ؛ إذ كانَ مِثلَهُ: أخرَقَ، ومُتورِّطًا في مهمَّةٍ تَفوقُ قابليَّتَهُ. [المُترجِم]

يَستَلزِمُ هذا التَّحابُكَ مِن السِّياقاتِ لِتَكوينِ سِياقاتٍ أعلَى، وتأويلُ مِثلِ هذهِ الرُّموزِ المُعَقَّدَةِ مُماثِلٌ في طبيعتِهِ لِتأويلِ الرُّموزِ البسيطةِ إلّا في أمرٍ واحدٍ هو أنَّ أعضاءَ هذهِ السِّياقاتِ التي هيَ أعلَى هِيَ في أنْفُسِها سِياقاتٌ. فآليّاتُ التَّجريدِ، والاستِعارَةِ، وما إلى ذلكَ، مُتَماثِلَةٌ في الحالتَيْنِ، والمُستَوَياتُ أنْفُسُها التي يُمكِنُ فيها الإخْفاقُ تتكرَّرُ فيهما. وهكذا يَستَطيعُ الكثيرُ مِن النّاسِ فَهمَ رَمزٍ مِن نَحوِ قَولِنا: "النّارُ حارَّةٌ"، وإنْ حَيَّرَتْهُم الحقائقُ الإسنادِيَّةُ أو دَعْوَتُهُم إلى النَّظَرِ في الصِّفاتِ العَلاقِيَّةِ.

وتُعَدُّ دِراسةُ شَكلِ البِناءِ لِلإحالاتِ المُعَقَّدَةِ [220] معَ شَكلِ البِناءِ لِرُموزِها أمرًا أساسيًّا لِكُلٍّ مِن المَنطِقِ ولِما يُدعَى عادَةً النَّحْوَ، الذي يُمكِنُ أن يُعَدَّ بِمَنزِلَةِ التّأريخِ الطَّبيعيِّ لأنظِمَةِ الرُّموزِ. وقد نالَ هذا العِلمُ، لأسبابٍ واضِحةٍ، مِن اهتِمامِ المُختَصِّينَ بِالتَّعليمِ ودارِسِي اللغاتِ ما شَغَلَهُم عَن أبحاثٍ أوسَعَ أثَرًا. ويَميلُ النَّحوُ، بِوَصفِهِ عِلمًا مِعيارِيًّا، إلى الاقتِصارِ على التَّحليلِ اللفظيِّ لِلُّغَةِ النَّموذَجِيَّةِ(13)، وعلى الرَّغمِ مِن كَونِهِ مُوحِيًا أحيانًا، لا يَتَوَسَّلُ بِعُدَّةٍ نَقدِيَّةٍ حقيقيَّةٍ. ولَم يُدْرَكْ على وَجهِ الخُصوصِ أنَّ أيَّ استِعمالٍ لا يَكونُ جَيِّدًا إلّا لِعالَمِ خِطابٍ مُعْطًى، ولم تَحدُثْ مُقارَبَةٌ جادَّةٌ البَتَّةَ لِتنظيمِ هذهِ الفِئاتِ المُختَلِفَةِ مِن المُناسَباتِ التي يُمكِنُ أن تُستَعمَلَ فيها الكَلِماتُ.

(13) العِبارَةُ التي أورَدَها المؤلِّفانِ لِلتَّعبيرِ عن اللغةِ النَّموذَجِيَّةِ هيَ How the King Talks، وترجمَتُها هيَ (لُغَةُ الملِك). وقد تطرَّقَ الدكتور كمال بِشر إلى هذا النَّمَطِ اللغويِّ في كِتابِهِ (عِلمُ اللغةِ الاجتِماعِيُّ- مَدْخَل): ص190-191، إذ قالَ: "المفروضُ أنَّ اللغةَ النموذجيَّةَ هيَ لغةُ الخاصَّةِ اجتِماعيًّا وثقافيًّا؛ لِنشدانِهم المُثُلَ العُليا في السلوكِ والتَّعاملِ معَ الحياةِ. واللغةُ في عُمومِها ضَربٌ مِن السلوكِ، واللغةُ النّموذجيَّةُ مَثَلٌ راقٍ منهُ. هذا ما يَحدُثُ في كثيرٍ من بلادِ العالَمِ لِحسبانِ أنَّ اللغةَ النموذجيَّةَ لُغةٌ فَوقِيَّةٌ High language، يَتُمُّ توظيفُها عن (فَوقِيَّةٍ) مُستخدِميها من الناحيتَيْنِ الاجتماعيَّةِ والثقافيَّةِ. ففي إنجلترا مَثَلاً يَفخَرُ المرءُ منهم بأنَّهُ يستخدِمُ اللغةَ الإنجليزيَّةَ النموذجيَّةَ Standard English، أو لُغَةَ المَلِكِ King's English، أو لُغَةَ (كمبردج) أو (أكسفورد) أو ما يُسَمَّى أحيانًا الإنجليزيَّةَ الجنوبيَّةَ Southern English. وهيَ تَسمياتٌ مختلفةٌ لِمُسَمًّى عامٍّ واحدٍ هوَ اللغةُ الصَّحيحةُ الفَصيحةُ ذاتُ المكانةِ العاليةِ رَسميًّا وشَعبيًّا". [المُترجِم]

وإنَّ العِلمَ الذي في وُسْعِهِ تَسويغُ وُجودِهِ بِوَصفِهِ نِظامًا يُشيعُ التَّبَصُّرَ بِطَبيعَةِ الوَسَطِ اللغويِّ لا يَحْظَى بِتِلكَ المَكانَةِ في الزَّمنِ الحاضرِ عِندَ المُعَلِّمِينَ أو المُتَعَلِّمِينَ على حَدٍّ سَواءٍ. وإنَّ تَعيينَ اللِجانِ المُشتركةِ الدّائمةِ، الدّارِجَ في الأوساطِ الفيلولوجيَّةِ، مِن أجلِ مُعالَجَةِ أوَّلِيّاتِ هذا العِلمِ، يُشيرُ إلى أنَّهُ ما زالَ على حالِهِ التي جَعَلَتْ سمارت Smart[14] يَصرُخُ سنةَ 1831 قائلاً: "كانَ اللهُ في عَونِ الأطفالِ المَساكينِ الذينَ يُهَيَّؤونَ لِتَعَلُّمِ التَّعريفاتِ في أوَّلِيّاتِ النَّحوِ". لكِنَّ مُشكِلاتِ النَّحْوِ التَّقليديَّةَ، مِن نَحوِ تَرسيخِ الاستِعمالِ، وتَحليلِ الجُمَلِ، وتَصنيفِ أقسامِ الكَلامِ، هيَ، في الحقيقةِ، مُشكِلاتٌ ثانويَّةٌ مَحدودةُ الأهمِّيَّةِ. وهي غيرُ مُهَيَّأةٍ لِلبَحثِ ما لَم تُكتَشَفِ المُشكِلةُ الرَّئيسةُ المتعلِّقةُ بِطبيعةِ الوَسَطِ اللغويِّ الذي يَتَوَجَّهُ التَّرميزُ إليهِ. فإذا ما أمكَنَ السَّيْرُ بِهذا البَحثِ الأساسيِّ إلى مَدًى أبعدَ قَليلاً جِدًّا فمِنَ المُحتَمَلِ أن يُتَوَصَّلَ إلى أنَّ هذهِ المُشكِلاتِ الأخيرَةَ التي أهدَرَ النَّحويُّونَ في سَبيلِها كُنوزَ اقتِصادِ البَشَرِيَّةِ وفِطنَتِها مُصطَنَعَةٌ خالِصَةٌ في حالاتٍ مُعَيَّنَةٍ، ومُنشَغِلَةٌ بِنِقاطٍ تَفصيلِيَّةٍ في حالاتٍ أُخرَى[15].

إنَّ المُشكِلاتِ التَّربويَّةَ المُوَسَّعَةَ المتعلِّقَةَ [221] باكتِسابِ اللغةِ في الطُّفولةِ كَثيرًا مّا استَقطَبَتِ الاهتِمامَ، وثَمَّةَ مادَّةٌ نافِعةٌ وافِرَةٌ جَمَعَها سَلي Sully[16] وميومان Meumann[17] . . . .

(14) بنيامين سمارت (1786-1872م). نَحويٌّ بريطانيٌّ. نَشَرَ عدَّةَ كُتُبٍ؛ منها: مُوجَزُ عِلمِ العَلاماتِ اللفظيَّةِ (السِّيماتولوجيا Sematology)، أو مَقالَةٌ نَحوَ تأسيسِ نظريَّةٍ جديدةٍ لِلنَّحوِ، والمنطقِ، والبَلاغَةِ (سنةَ 1831)؛ وتَتِمَّةٌ لِعِلمِ العَلاماتِ اللفظيَّةِ (السِّيماتولوجيا Sematology) (سنةَ 1839)؛ والفِكْرُ واللُغَةُ: مَقالَةٌ تُعْنَى بِتَجديدِ فلسفةِ لوك، وتَصحيحِها، وتأسيسِها الاستِثنائيِّ (سنةَ 1855). [المُترجِم]

(15) يُنظر: التَّذييلُ A.

(16) جَيْمس سَلي (1842-1923م). عالِمُ نَفسٍ إنجليزيٌّ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: الأوهام، والخطوطُ العامَّةُ لِعِلمِ النَّفس، ودَليلُ المعَلِّم لِعِلمِ النَّفس، ومَقالَةٌ في الضَّحِك. [المُترجِم]

(17) إيرنست ميومان (1862-1915م). عالِمُ نَفسٍ ومُدَرِّسٌ ألمانيٌّ. يُعَدُّ مُؤَسِّسَ عِلمِ أصولِ التَّدريسِ التَّجريبيِّ. حاولَ استعمالَ نتائجِ الدراساتِ السايكولوجيَّةِ لِتكونَ قاعدةً لنظريَّةِ التعليمِ وممارستِهِ. أهمُّ آثارِهِ: لُغَةُ الطِّفل. [المُترجِم]

وأوشي O'Shea[18] وبياجيه Piaget[19]، غيرَ أنَّ عُلَماءَ النَّفسِ ما زالوا يَخرُجونَ بافتِراضاتٍ تَحولُ دونَ الاستِفادَةِ مِن البَحثِ. يقولُ مونشتربيرغ Münsterberg: "يَبدَأُ الطِّفلُ بِمُحاكاةِ الكلماتِ المنطوقةِ مِن غيرِ أن يَفهَمَها، ثُمَّ يَفهَمُها بَعدَ ذلكَ". ومَحظوظٌ هوَ الطِّفلُ الذي يَبلُغُ المرحلةَ الثّانيةَ! لكِن، لِسوءِ الحظِّ، لا يَفعَلُ الصَّغيرُ السّاذجُ شَيئًا مِن ذلكَ. وقَد كانَتْ وِجهَةُ نَظَرِ رُوسّو Rousseau[20] أَدَقَّ بِكَثيرٍ في كِتابِهِ نَظَراتٌ في التَّربيَة *Thoughts on Education* الذي جاءَ فيه: "يَبدو لي أنَّ ما يُسَبِّبُ الأخطاءَ الأُولى عندَ الأطفالِ هو عَدَمُ اهتِمامِنا بِالطَّريقَةِ الواقِعيَّةِ التي يَفهَمونَ بِها الكَلِماتِ، وأنَّ هذهِ الأخطاءَ، وإنْ أمكَنَ التَّخلُّصُ منها، لَها تأثيرٌ كبيرٌ في أدائِهِم العقليِّ طَوالَ ما يَبقَى مِن حياتِهِم". إنَّ مُجمَلَ البَحثِ في اكتِسابِ اللغةِ واستِعمالِها يتطلَّبُ أساسًا جديدًا، ويَجِبُ التَّعامُلُ معَهُ على نحوٍ واقعيٍّ معَ النَّظَرِ إلى التَّطوُّرِ الحُرِّ لِلقُدُراتِ التَّأويليَّةِ.

ويُمكِنُ التَّمثيلُ لِنوعِ الإجراءِ المرغوبِ فيهِ بِتنظيمِ المُستَوَياتِ التي يُصبِحُ فيها 'الكُرسِيُّ' و'الخَشَبُ' و'الألياف' وما إليها رُموزًا صَحيحَةً لِما نَقعُدُ عليهِ، على ما رأَيْنا في الفَصلِ الرّابعِ (ص173-174). وقد أُشيرَ هُناكَ إلى الطَّريقَةِ التي

---

(18) مايكِل فِنسِنت أوشي (1866-1932م). أُستاذُ التَّربيةِ في جامعةِ وسكونسن الأمريكيَّةِ. مِن مؤلَّفاتِهِ: مُشكِلاتُ التَّعليمِ اليوميَّة، وأخطاءُ الطفولةِ والشباب، والخطواتُ الأُولَى في تَدريبِ الطفل، والعاداتُ الصِّحِّيَّة. [المُترجِم]

(19) جان بياجيه (1896-1980م). عالِمُ نَفسٍ، وفيلسوفٌ سويسريٌّ. طوَّرَ نظريَّةَ التطوُّرِ المعرِفِيِّ عندَ الأطفالِ في ما يُعرَفُ الآنَ بِعِلمِ المعرِفَةِ الوِراثيَّةِ. أنشأَ في سنةِ 1965 مركزَ نظريَّةِ المعرفةِ الوِراثيَّةِ في جنيف وترأَّسَهُ حتّى وفاتِهِ سنةَ 1980. يُعَدُّ رائدَ المدرسةِ البنيويَّةِ في عِلمِ النَّفسِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ: اللغةُ والفِكرُ عندَ الطِّفل، والحكمُ والاستدلالُ عندَ الطِّفل. [المُترجِم]

(20) جان جاك رُوسّو (1712-1778م). كاتبٌ، وفيلسوفٌ سويسريٌّ. يُعَدُّ من أهمِّ كُتّابِ عَصرِ العَقلِ، وهو مرحلةٌ من مراحلِ التأريخِ الأورُبّيِّ امتدَّتْ من أواخرِ القرنِ السابعَ عشَرَ إلى أواخرِ القرنِ الثامنَ عشَرَ الميلاديَّيْنِ. ساعَدَتْ فلسفتُهُ في تشكيلِ الأحداثِ السياسيَّةِ التي أدَّتْ إلى اندِلاعِ الثورةِ الفرنسيَّةِ؛ إذ أثَّرَتْ مؤلَّفاتُهُ في التربيةِ والأدبِ والسياسةِ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: نظراتٌ في التربية، والعَقدُ الاجتماعيُّ أو مَبادِئُ الحقوقِ السياسيَّة. [المُترجِم]

نَشَأَتْ بِها مَجموعةُ التَّخليطاتِ المعروفَةُ بِالميتافيزيقا مِن خِلالِ الافتِقارِ إلى هذهِ المُقارَبَةِ النَّحويَّةِ الصَّحيحَةِ، التَّدقيقِ النَّقْدِيِّ لِلإجراءِ الرَّمزِيِّ. على النَّحوِ نَفسِهِ تُعَدُّ تَحليلاتُنا لِلجَمالِ والمَعنى أَمثِلَةً نموذَجِيَّةً لِما كانَ يُمكِنُ أن يُحَقِّقَهُ النَّحوُ مُنذُ زَمنٍ طويلٍ لو كانَ النَّحويُّونَ قد تَوَفَّروا فقط على بَصيرَةٍ أفضَلَ بِشأنِ احتِياجاتِ الاتِّصالِ العَقلانيِّ، وعلى إحساسٍ أكثرَ حَيَوِيَّةً بِالأهمِّيَّةِ العَمَلِيَّةِ لِعِلمِهِم. ولِفَرطِ الانهِماكِ الطَّبيعِيِّ لِلنَّحويِّ بِالتَّفصيلاتِ المُعَقَّدَةِ لِمَوضوعٍ واسِعٍ، ولِكَونِهِ مُتْقِنًا لآلِيَّةٍ جَليلَةٍ ومَجموعةٍ مُصطَلَحاتٍ شِبْهِ فَلسَفِيَّةٍ مُفَصَّلَةٍ، وَقَفَ ثابِتًا إلى حَدٍّ مّا بِغَباءٍ حَجَرَ عثرةٍ في طَريقِ الذينَ يَرومونَ مُقارَبَةَ حُلولِ الأسئلَةِ الآتِيَةِ- كيفَ تُستَعمَلُ الكَلماتُ؟ [222] وكيفَ يَنبَغي أن تُستَعمَلَ؟ والنَّحوِيُّ يَدرُسُ كذلكَ أسئلةً مُشابِهَةً إلى حَدٍّ مّا بادِيَ الرَّأْيِ، أي نحو- أَيُّ الكَلِماتِ تُستَعمَلُ حينَ كذا؟ وأَيُّها يَنبَغي أن تُستَعمَلَ حينَ كذا؟ وهوَ يَزدَري الرَّأْيَ الذي يَذهَبُ إلى أنَّ عَمَلَهُ قد يكونُ مَحدودَ الأهمِّيَّةِ لِكَونِهِ قد ضَلَّ سَبيلَ قَضِيَّتِهِ. بِاختِصارٍ، لا يُمكِنُ البَدْءُ بِفَحْصٍ مِعياريٍّ لِلكَلماتِ مِن غيرِ فَحْصٍ مِعياريٍّ لِلتَّفكيرِ، ولا يُمكِنُ النَّظَرُ في تَساؤُلٍ مُهِمٍّ بِشَأنِ الاستِعمالِ اللفظيِّ مِن غيرِ إثارةِ تَساؤُلاتٍ بِشأنِ المَرتَبَةِ أو المُستَوَى، والصِّدقِ أو الكَذِبِ لِلإحالاتِ الفِعْلِيَّةِ التي يُمكِنُ أن تَستَخدِمَ ذلكَ. ومِن غيرِ المُمكِنِ دِراسةُ الرُّموزِ بِمَعزِلٍ عن الإحالاتِ التي تَرمِزُ إليها، وإذا ما أُقِرَّ ذلكَ فليسَ ثَمَّةَ نُقطَةٌ يُمكِنُ أن يتوقَّفَ عندَها فَحْصُنا لِهذهِ الإحالاتِ على نَحوٍ آمِنٍ، مِن غيرِ استيفاءٍ لأكمَلِ تَحقيقٍ مُمكِنٍ.

فإذا ما عُدْنا الآنَ إلى تَعقيداتِ الإحالاتِ ورُموزِها فسنَجِدُ أنَّ مُحاولَةَ تَلَمُّسِ التَّناظُرِ تُؤَدِّي إلى تَبَنِّي مَجموعَتَيْنِ مُتَمايِزَتَيْنِ مِن الاعتِباراتِ بِوَصفِها مَبادِئَ هادِيَةً. أمّا أُولاهُما، أي دِراسةُ الإحالةِ، فنَحنُ حتَّى الآن مُنشَغِلونَ بِها. فَالصُّورةُ الرَّمزيَّةُ تَختَلِفُ بِاختِلافِ الإحالةِ. غيرَ أنَّ ثَمَّةَ أسبابًا أُخرَى لاختِلافِها كُنّا قد تَطرَّقْنا إلى شَيءٍ منها آنِفًا (ص249-250). فَكَلِماتُنا، زِيادَةً على رَمْزِها إلى الإحالةِ، عَلاماتٌ كذلكَ لِلعَواطِفِ، أو المَواقِفِ، أو الأمزِجَةِ، أو الطَّبعِ، أو الاهتِمامِ، أو الوَضعِ الذِّهنِيِّ الذي تَحدُثُ فيهِ الإحالاتُ. إنَّها علاماتٌ بِهذهِ الطَّريقَةِ لأنَّها مُتَجَمِّعَةٌ معَ هذهِ المَواقِفِ والاهتِماماتِ في سِياقاتٍ مُعَيَّنَةٍ أكثرَ

فَضْفاضِيَّةً، وأكثرَ إحكاماً. وهكذا، حينَ نَنطِقُ جُملَةً مّا نكونُ مُنشِئينَ لِما لا يَقِلُّ عن حالَيْنِ عَلامِيَّتَيْنِ، كما أنّا حينَ نَسمَعُها نكونُ في مُواجَهَتِهِما. فَأَمّا إحدَى هاتَيْنِ الحالَيْنِ فَتَأويلُها مِن الرُّموزِ إلى الإحالةِ، ومِنها إلى المَرجِعِ؛ وأمّا الأُخرَى فَتَأويلُها مِن العَلاماتِ اللفظيَّةِ إلى المَوقِفِ، والمِزاجِ، والاهتِمامِ، والغَرَضِ، والرَّغبَةِ، وما إلى ذلكَ مِمّا يَخُصُّ المُتَكلِّمَ، ومِن ثَمَّ إلى الحالِ، والظُّروفِ، والشُّروطِ التي يُنشَأُ فيها القَولُ.

وأُولَى هاتَيْنِ الحالَيْنِ حالٌ رَمزِيَّةٌ على ما بُيِّنَ آنِفًا، وثانِيَتُهُما مُجَرَّدُ حالٍ عَلامِيَّةٍ لَفظِيَّةٍ [223] كالأحوالِ العَلاميَّةِ المُتَضَمَّنَةِ في كلِّ إدراكٍ حِسِّيٍّ اعتِياديٍّ، سَواءٌ أكانَ تَنَبُّؤًا، أم ما إلى ذلكَ. ويَجِبُ تَفادي الخَلطِ بينَ الاثنَتَيْنِ، وإن عَسُرَ في الغالِبِ تَمييزُهُما. وبِذلكَ، يُمكِنُ أن يَتَّجِهَ تأويلُنا مِن الرَّمزِ إلى الإحالةِ، ثُمَّ نَتَّخِذَ هذهِ الإحالةَ عَلامَةً لِمَوقِفٍ عندَ المُتَكَلِّمِ قد يَكونُ مُماثِلاً أو غيرَ مُماثِلٍ لِلمَوقِفِ الذي يَنبَغي أن نَتَّجِهَ في تأويلِهِ مُباشَرَةً مِن نُطقِهِ بِوَصفِهِ عَلامَةً لَفظيَّةً.

إنَّ تَنظيمَ الأَحوالِ العَلامِيَّةِ اللفظيَّةِ مَوضوعٌ واسِعٌ يُمكِنُ أن تُمَيَّزَ فيهِ فُروعٌ مُختلفةٌ. ويَبدو لَنا أنَّ النِّقاطَ الآتيَةَ، معَ التَّرميزِ الصّارِمِ الذي مِن المُلائمِ عَدُّهُ الرَّقمَ (1)، تَشمَلُ وَظائفَ اللغةِ الرَّئيسةَ بِوَصفِها وَسيلَةً تَواصُليَّةً.

(2) ثَمَّةَ أحوالٌ تَنشَأُ مِن مَواقِفِ المُتكلِّمِ مِن مُستَمِعِيهِ، كالوُدِّيَّةِ أو العِدائيَّةِ. وفي اللغةِ المكتوبةِ يَضيعُ، بِالضَّرورةِ، الكثيرُ مِن أوضَحِ العَلاماتِ لِهذهِ المَواقِفِ[21]. ويَجِبُ أن يُستَبدَلَ بِنَمَطِ الصَّوتِ ونَغمتِهِ إجراءاتٌ مُختلِفَةٌ، كالصِّيَغِ

(21) إنَّ حِيازَةَ النَّغَماتِ الصَّوتيَّةِ بِوَصفِها عَلاماتٍ لا تَقتَصِرُ على المَواقِفِ، بل تَشرَكُها في ذلكَ العَناصِرُ الرَّمزيَّةُ والنَّحويَّةُ. وتُعَدُّ النَّبراتُ في اللغةِ العِبريَّةِ مِثالاً جَيِّدًا لِلطَّريقةِ التي قد تُحاوِلُ بها لُغَةٌ مَكتوبَةٌ أن تُحافِظَ على مُمَيِّزاتِها التي تَظهَرُ في الكَلامِ مِن خِلالِ الوَقفِ والتَّنغيمِ. وثَمَّةَ أصنافٌ أربَعَةٌ رئيسةٌ مِن النَّبراتِ المُمَيِّزَةِ تُماثِلُ إلى حَدٍّ مّا الوَقَفاتِ في الإنجليزيَّةِ. وزِيادَةً على ذلكَ تُوجَدُ إحدَى عشرَةَ نَبرَةً رابِطَةً تُظهِرُ أنَّ الكَلِمَةَ التي تُلحَقُ بها وثيقَةُ الارتِباطِ في المَعنَى بِالكَلِمَةِ التي تَليها. وقد أدَّى إغفالُها إلى وُجودِ عددٍ مِمّا هوَ خَطأٌ مِن التَّرجَماتِ التي أصبَحَتْ، معَ ذلكَ، تَرجَماتٍ كلاسيكيَّةً، كما في النَّصِّ الآتي =

العُرْفِيَّةِ، والمُبالَغاتِ، والعِباراتِ التَّهْوينِيَّةِ، والصُّوَرِ الكَلامِيَّةِ، ورَسمِ خَطٍّ تحتَ الكَلِمَةِ، وسائرِ ما هو مألوفٌ في آلِيَّةِ كِتابةِ الرَّسائلِ. ومِن الواضِحِ أنَّ تَرتيبَ الكَلِماتِ لَهُ أهمِّيَّةٌ خاصَّةٌ في هذا الشَّأنِ، ولكِنْ، على ما سنَرَى، ما مِن إجراءٍ أدَبيٍّ عامٍّ يُمكِنُ أن يُخَصَّصَ لأيٍّ مِن وَظائفِ الكَلامِ يَكونُ مِن المُؤَكَّدِ أنَّ الوَظائفَ الأُخرَى ستستعيرُهُ في مُناسَبَةٍ مّا. لِذلكَ يُمكِنُ أن يُؤتَى بِأيَّةِ تَحويلاتٍ رَمزِيَّةٍ [224] لِهذِهِ الوَظيفَةِ. فعلى سبيلِ المِثالِ، كَثيرًا مّا تُستَعمَلُ العِبارَةُ المَضغُوطَةُ أو الشَّديدةُ الاختِصارِ، حتَّى في حالِ كَونِها غيرَ مُناسِبَةٍ من النّاحيةِ الإحالِيَّةِ، عَلامَةَ مُلاطَفَةٍ لِلمُستَمعِ أو احتِرامٍ لَهُ، أو لِتَفادي الظُّهورِ في مَظهَرِ التَّحَذلُقِ أو التَّشامُخِ الذي يُمكِنُ أن تُوَلِّدَهُ العِبارَةُ المُوَسَّعَةُ. ويُخاطِبُ المُتَكَلِّمُ، على نحوٍ طبيعيٍّ، حَشدًا مِن المُستَمِعِينَ بِلُغَةٍ مُختلِفَةٍ عن التي يَستَخدِمُها في الحديثِ الاعتِياديِّ؛ إذ إنَّ مَوقِفَهُ قد تَغَيَّرَ.

(3) على نَحوٍ مُشابِهٍ، يُحَدِّدُ مَوقِفُنا مِن مَرجِعِنا الرُّموزَ التي نَستَعمِلُها تَحديدًا جُزئِيًّا. وهُنا تَحدُثُ مرَّةً أُخرَى حالاتٌ مُعَقَّدَةٌ قد يَتَعذَّرُ فيها التَّيَقُّنُ مِن أنَّ مَوقِفَنا هو نَفسهُ المُبَيَّنُ، أو أنَّهُ مُشارٌ إليهِ فَحَسْبُ مِن خِلالِ عَلاماتٍ لَفظِيَّةٍ. وتُقَدِّمُ الأحكامُ الجَمالِيَّةُ بِخاصَّةٍ هذهِ الصُّعوبَةَ، وكَثيرًا مّا لا يَستَطيعُ المتكلِّمُ نَفسُهُ أن يُحَدِّدَ أيُّها يَحدُثُ. فالتَّأكيدُ، والإسهابُ، وكلُّ أشكالِ التَّقويةِ يُمكِنُ، بَل يَشيعُ، استِعمالُها لِهذِهِ الأسبابِ، معَ أنَّها تُستَعمَلُ على حَدٍّ سَواءٍ مِن أجلِ تأثيراتِها في المُستَمِعِينَ (4)، أو بِوَصفِها نِقاطًا حَماسِيَّةً، أو مُتَّكَآتٍ، أو إسناداتٍ في حالِ حُصولِ صُعوبةٍ في الإحالةِ (5).

= مِن سِفرِ إشعِيا 11، 3: "إنَّ صَوتَهُ لَيَصرُخُ في البَرِّيَّةِ، أنْ هَيِّئ طَريقَ الرَّبِّ"؛ فالصَّوتُ، على ما تُبَيِّنُهُ النُّسخَةُ المُنَقَّحَةُ مِن الكِتابِ المُقَدَّسِ، ليسَ في البَرِّيَّةِ، لكِنَّهُ يَصرُخُ قائلاً: "هَيِّئ في البَرِّيَّةِ طَريقَ الرَّبِّ". وكذلكَ جاءَ في سِفرِ التَّكوينِ 3، 22: "قالَ الرَّبُّ الإلَهُ: احذَرُوا، فقد أصبَحَ الإنسانُ كَأحَدِنا؛ يَعلَمُ الخَيرَ والشَّرَّ"، في حينِ أنَّ النَّبرَ المُلائمَ يُقَدِّمُ القِراءَةَ الآتِيَةَ: "احذَرُوا الإنسانَ الذي أصبَحَ كَأحَدِنا، سيَعلَمُ الخَيرَ مِن خِلالِ الشَّرِّ". (Cf. Saulez, *The Romance of the Hebrew Language*, p. 99).

(4) كَثيرًا مَا يُحَدِّدُ بِنيَةَ رُموزِنا قَصدُنا، أي الآثارُ التي نَسعَى جاهِدِينَ إلى إنشائها بِأقوالِنا. فإذا ما رَغِبْنا في انتِحارِ مُستَمِعٍ مّا فبِإمكانِنا، حينَ يَقتَضي الأمرُ، أن نَتَوَجَّهَ إليهِ بِالتَّعليقاتِ أنفُسِها سَواءٌ أكانَ دافِعُ رَغبتِنا في هذا الفِعلِ اهتِمامًا خَيِّرًا بِمِهنَتِهِ أم كانَ مَقتًا لِصِفاتِهِ الشَّخصيَّةِ. وهكذا، لا يَنبَغي خَلطُ التَّعديلِ الرَّمزيِّ النّاجِمِ عن التَّأثيرِ المَقصودِ بِالتَّعديلِ الرَّمزيِّ النّاجِمِ عن المَوقِفِ المُفتَرَضِ تجاهَ مُحاوِرٍ مّا، على الرَّغمِ مِن أنَّهُما، لا شَكَّ، كَثيرًا مَا يَتَطابَقانِ.

(5) زِيادَةً على الصِّدْقِ أو الكَذِبِ تتمتَّعُ الإحالاتُ بِخَصيصَةٍ مِن المُمكِنِ تَسمِيَتُها، مِن حيثُ المَشاعِرُ المُصاحِبَةُ، اليُسْرَ أو العُسْرَ. فقد تَكونُ ثَمَّةَ إحالتانِ صادِقتانِ لِمَرجِعٍ واحِدٍ، لكِنَّهُما تَختَلِفانِ اختِلافًا كبيرًا في هذا اليُسْرِ، وهذا ما قد يَظهَرُ أثَرُهُ في رَمزَيْهِما. فالرَّمزانِ: "يَبدو أنّي أتذَكَّرُ صُعودِي جَبَلَ إيفَرِست Everest"، و"أنا صَعَدتُ إيفَرِست"، رُبَّما لا يَرْمِزانِ، أحيانًا، [225] إلى اختِلافٍ في الإحالَةِ، وبِذلكَ لا يُعزَى اختِلافُهُما إلّا إلى دَرَجاتِ عُسْرِ تَذَكُّرِ هذهِ التَّجرِبَةِ غيرِ الشّائعَةِ. مِن جِهَةٍ أُخرَى، قد يَكونُ هذا، لا شَكَّ، اختِلافًا رَمزيًّا حقيقيًّا لا يَقتَصِرُ أمرُهُ على الإشارَةِ إلى الاختِلافِ في العُسْرِ، بَل إنَّهُ يُفْصِحُ عنهُ. ولا يَنبَغي خَلطُ هذا اليُسْرِ أو العُسْرِ بِاليَقينِ أو الظَّنِّ، أو بِدَرَجةِ الاعتِقادِ أو عَدَمِ الاعتِقادِ، التي تندَرِجُ، على نَحوٍ طبيعيٍّ، تحتَ النُّقطةِ (3) المتعلِّقَةِ بِالمَوقِفِ مِن المَرجِعِ. وكُلٌّ مِن هذهِ الوَظائفِ غيرِ الرَّمزيَّةِ قد تَستَخدِمُ الكَلِماتِ إمّا بِطاقَةٍ رَمزيَّةٍ مِن أجلِ إحرازِ الغايَةِ المطلوبةِ مِن خِلالِ الإحالاتِ المُوَلَّدَةِ عندَ المُستَمِعِ، وإمّا بِطاقَةٍ غيرِ رَمزيَّةٍ حينَ تُكتَسَبُ الغايَةُ مِن خِلالِ التَّأثيراتِ المُباشِرَةِ لِلكَلِماتِ.

وإذا ما اختَبَرَ القارئُ أيَّةَ جُملَةٍ تَقريبًا فسيَجِدُ أنَّ الانحِرافَ الذي تُظهِرُهُ عن التَّعبيرِ الرَّمزيِّ الخالصِ الذي تَحكُمُهُ طبيعةُ الإحالةِ التي يَرمِزُ إليها، مَرَدُّهُ إلى عَوامِلَ تَعويقِيَّةٍ مَصدَرُها واحدةٌ أو أكثرُ مِن المَجموعاتِ الأربَعِ المذكورةِ آنِفًا. وأكثَرُ مِن ذلكَ أنَّ ما يَبدو أنَّهُ الاختِلافُ نَفسُهُ يَكونُ مَرَدُّهُ أحيانًا إلى عامِلٍ مّا، وأحيانًا أُخرَى إلى عامِلٍ آخَرَ. ويُمكِنُ أن يُقالَ بِعبارةٍ أُخرَى إنَّ طَواعِيةَ المادَّةِ الكَلامِيَّةِ في الأحوالِ الرَّمزيَّةِ تكونُ أقَلَّ مِمّا هيَ عليهِ في حالةِ المواقِفِ الإنسانيَّةِ، في غاياتِها ومَساعِيها، أي في النِّظامِ التَّأثيريِّ-الإراديِّ؛ ولِذلكَ تكونُ

التَّعديلاتُ اللغويَّةُ أنفُسُها مَطلوبَةً لأسبابٍ مُختلِفةٍ تمامًا وقد تَنجُمُ عن أسبابٍ مُختلِفةٍ تَمامًا. مِن هُنا تأتي أهمِّيَّةُ دِراسَةِ الجُملَةِ في الفِقرَةِ، والفِقرَةِ في الفَصلِ، والفَصلِ في الكِتابِ، إذا ما أرَدْنا لِرُموزِنا ألّا تكونَ مُضَلِّلَةً، ولِتحليلِنا ألّا يَكونَ اعتِباطِيًّا.

ومِمّا يُثيرُ العَجَبَ إلى حدٍّ مّا أنَّ النَّحويِّينَ لم يُولُوا تَعدُّدَ الوَظائفِ التي يَنبَغي أن تُؤدِّيَها اللغةُ إلّا القَليلَ جِدًّا مِن الاهتِمامِ. وقد ناقَشْنا آنِفًا (ص253) الأُسلوبَ الفاتِرَ الذي اعتَرَفُوا بِهِ مِن حينٍ إلى آخَرَ بِوُجودِ جانبٍ وجدانِيٍّ في مُشكِلاتِهِم. لكِنْ حتَّى هذا التَّمييزُ نادِرًا مّا كانَ يُبَيَّنُ بِوُضوحٍ. والوَظائفُ الآتيَةُ تَبدو وَظائفَ شامِلَةً-

(1) تَرميزُ الإحالةِ، [226]

(2) التَّعبيرُ عن مَوقِفٍ مِن المُستَمِعِ،

(3) التَّعبيرُ عن مَوقِفٍ مِن المَرجِعِ،

(4) إنشاءُ التَّأثيراتِ المَقصودَةِ،

(5) تَعزيزُ الإحالةِ.

ولا رَيبَ أنَّهُ لا يَصعُبُ ذِكرُ عَوامِلَ أُخرَى تُعَدِّلُ شَكلَ الرُّموزِ أو بِنيَتَها. فالفُواقُ، مَثَلاً، قَد يَفعَلُ ذلكَ، أو التِهابُ الحَنجَرَةِ، أو قِصَرُ الأصابعِ؛ وكذلكَ البُعْدُ عن المُستَمِعِينَ، وأهَمُّ مِن ذلكَ خَصيصَةُ المُناسَبَةِ؛ أو إن كانَ المتكلِّمُ مُستَثارًا أو مُهتاجًا لِسببٍ مّا دَخيلٍ فقد يَظهَرُ في أُسلوبِهِ ما يَعكِسُ هذا الانفِعالَ. وإنَّ مُجمَلَ التَّأريخِ اللغويِّ الماضي لِكُلٍّ مِن الفَردِ والجِنسِ الذي ينتمي إليهِ الفَردُ يُمارِسُ بِوُضوحٍ تأثيرًا هائلاً؛ فالأُسكَتلَندِيُّونَ لا يتكلَّمُونَ الألمانيَّةَ على نحوٍ طبيعيٍّ. غيرَ أنَّ جميعَ هذهِ التَّأثيراتِ في الشَّكلِ اللغويِّ، على الرَّغمِ مِن أنَّ الأخيرَ لهُ الأهمِّيَّةُ العُظمَى لِلُّغَويِّ المُقارِنِ، لَيسَتْ وظائفَ لُغويَّةً بِالمَعنَى المَقصودِ هُنا[22]. إنَّ وَضعَ الحِجابِ الحاجزِ أو الحَنجَرَةِ أو الأصابعِ، أو سَمعِيّاتِ الكَنيسَةِ

(22) يَجِبُ ألّا يَحدُثَ خَلطٌ بينَ الوَسيلةِ التي يَستطيعُ بِها الكُتّابُ إحرازَ غاياتِهِم، والغاياتِ =

أو أرضِيَّةِ المُتَنَزَّهِ، لا تَدخُلُ في دائرةِ اهتِمامِ نَظريَّةِ اللغةِ؛ وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ الفيلولوجيا المُقارِنَةَ كَثيرًا مَا تُعَدُّ في نَفسِها مُشتَمِلَةً على مُجمَلِ مَيدانِ العِلمِ مِن الواضِحِ أنَّ هذهِ الدِّراسةَ تنتمي أساسًا إلى التَّأريخِ. ونَحنُ لا نُقَلِّلُ بِقَولِنا هذا مِن شَأنِ طَرافَةِ المَعلُوماتِ التي تُمِدُّنا بِها وأهمِّيَّتِها. [227] غيرَ أنَّ الوَظائفَ التي نَفحَصُها هُنا هيَ الفَعّالةُ بِالضَّرورةِ في كلِّ تَواصُلٍ، أي الطَّرائقُ التي يُؤَدَّى بِها العَمَلُ الكَلاميُّ أي الاستِعمالاتُ الأساسيَّةُ التي يَصلُحُ لَها الكَلامُ.

وسَواءٌ أكانَتْ قائمَتُنا شامِلةً أم لم تَكُنْ، فمِمّا لا شَكَّ فيهِ، على أيَّةِ حالٍ، أنَّ هذهِ الوَظائفَ لا يُمكِنُ تَقليلُ عدَدِها مِن غيرِ خَسارةٍ كبيرةٍ في الوُضوحِ وفي إسقاطِ اعتِباراتٍ هيَ في حالاتٍ كثيرةٍ أساسِيَّةٌ في فَهمِ تَفصيلِ السُّلوكِ اللغويِّ.

ففي التَّرجمةِ، على سبيلِ المِثالِ، أدَّى الافتِقارُ إلى مِثلِ هذا التَّحليلِ لِطَرائقِ استِعمالِ الكلماتِ إلى تَخليطٍ كبيرٍ. إذ كانَ اللغويُّونَ، بِفِعلِ ما لَمَسوهُ مِن إخفاقاتٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى لِتَرجَماتٍ ظاهِرُها الدِّقَّةُ، على أتَمِّ الاستِعدادِ لِقَبولِ آراءِ الفَلاسِفةِ في هذهِ النُّقطَةِ، ومُفرَداتِهِم الغامِضَةِ أيضًا. وهكذا يَقولُ سابير

= أنفُسِها. يقولُ والتَر بَيْتَر Walter Pater: "الحَشْوُ! إنَّ الفنّانَ الحقيقيَّ لَيَخشَى ذلكَ كَما يَخشَى العَدّاءُ انتِفاخَ عَضَلاتِهِ. فَالحقُّ أنَّ الفنَّ كُلَّهُ إنَّما يَكمُنُ في التَّخلُّصِ مِن الحَشْوِ، ابتِداءً مِن اللَّمَساتِ الأخيرَةِ لِمَن يَنقُشُ على الأحجارِ الكَريمةِ نافِضًا عنها آخِرَ ذَرَّةِ غُبارٍ مَرئيَّةٍ، رُجوعًا إلى أقدَمِ نُبوءَةٍ بِشأنِ العَمَلِ المَصقُولِ إلى حَدِّ الكَمالِ، الذي يَكْمُنُ في مَكانٍ مَا مِن الكُتلةِ الحَجَريَّةِ غيرِ المَصقُولَةِ، استِنادًا إلى خَيالِ مايكِل آنجِلو Michelangelo". أو كما علَّقَتْ سِدني سمِث Sydney Smith بِفِطنةٍ كبيرَةٍ بِقولِها إنَّ الأسلوبَ النَّثريَّ غالبًا مَا يُمكِنُ تَحسينُهُ بِشَطْبِ أيَّةِ كلمةٍ زائدَةٍ مِن كُلِّ جُملَةٍ حينَ تُكتَبُ. على أنَّ البروفيسور كونِنغتن Conington (*Miscellaneous Writings*, Vol. I, p. 197., Edited by J. A. Symonds, 1872) يُشيرُ إلى أنَّ "ثَمَّةَ مُناسَباتٍ يُسمَحُ فيها أحيانًا بِقَدرٍ مُعَيَّنٍ مِن الحَشْوِ في النَّثرِ الإيقاعيِّ لا لِسَبَبٍ سِوَى تَقوِيَةِ تَوازُنِ العِبارَةِ بِإزاءِ العِبارَةِ، ولاستِخراجِ التَّأثيرِ الإيقاعيِّ العامِّ" - ومِن الواضِحِ أنَّ المسألةَ مَقصُودَةٌ. ومَهما يَكُنِ الأمرُ فالأسلوبُ، والتَّوازُنُ، والإيقاعُ، وما إليها، لَيْسَتْ بِغاياتٍ في أنفُسِها، لكِنَّها قد تُستَخدَمُ فيما يتعلَّقُ بِأيَّةِ وَظيفَةٍ مِن الوَظائفِ.

Sapir[23]: "جَميعُ تأثيراتِ الفنّانِ الأَدَبيِّ أُحصِيَتْ أو شُعِرَ بِها حَدْسِيًّا بِالنَّظَرِ إلى 'العَبقَرِيَّةِ' الشَّكليَّةِ لِلُغَتِهِ الخاصَّةِ بِهِ؛ إذ إنَّها لا يُمكِنُ نَقلُها مِن غيرِ أن تتعرَّضَ لِلخَسارَةِ أو التَّعْديلِ. لِذلكَ كانَ كروتشة مُحِقًّا تَمامًا في قَولِهِ إنَّ العَمَلَ الفَنِّيَّ الأَدَبيَّ لا يُمكِنُ أن يُترجَمَ البَتَّةَ. ومعَ ذلكَ، يُترجَمُ الأدَبُ فِعليًّا، وبِكِفايَةٍ مُدهِشَةٍ أحيانًا"[24]. وهكذا، يَبدو أنَّ مُشكلةً ستَنشَأُ، والحَلُّ المُقترَحُ لَها يَكمُنُ في "أنَّ في الأَدَبِ نَوعَيْنِ أو مُستَوَيَيْنِ لِلفَنِّ مُتَضافِرَيْنِ مُتَمايِزَيْنِ- أَحَدُهُما فَنٌّ عامٌّ غيرُ لُغَويٍّ يُمكِنُ نَقلُهُ بِلا خَسارَةٍ إلى وَسَطٍ لُغَويٍّ أجنبيٍّ، والآخَرُ فَنٌّ لُغَويٌّ خاصٌّ غيرُ قابِلٍ لِلنَّقلِ. وأعتَقِدُ أَنَّ تَمييزَهُما صَحيحٌ تَمامًا، على الرَّغمِ مِن أَنّا لا يُمكِنُنا الحُصولُ على المُستَوَيَيْنِ خالِصَيْنِ عندَ المُمارَسَةِ. فالأَدَبُ يَتحرَّكُ في اللغةِ بِوَصفِهِ وَسَطًا، غيرَ أنَّ هذا الوَسَطَ يتضَمَّنُ طَبَقَتَيْنِ، إحداهُما تُمَثِّلُ مَضمونَ اللغةِ الكامِنَ- سِجِلَّنا الحَدْسِيَّ الخاصَّ بِالتَّجرِبَةِ-، وتُمَثِّلُ الأُخرَى تَعديلاً خاصًّا لِلُغَةٍ مُعْطاةٍ- الكَيفِيَّةَ المُحَدَّدَةَ لِسِجِلِّنا الخاصِّ بِالتَّجرِبَةِ. فَالأدَبُ الذي يَستَمِدُّ عَونَهُ الرَّئيسَ- لا الكُلِّيَّ البَتَّةَ- مِن المُستَوَى الأخفَضِ، لِنَقُلْ إنَّهُ مَسرَحيَّةٌ لِشَيكسبير Shakespeare[25]، يَكونُ قابِلاً لِلتَّرجَمَةِ [228] مِن غيرِ خَسارَةٍ كبيرةٍ جدًّا في

(23) إدوَرد سابير (1884-1939م). عالِمٌ أمريكيٌّ مُتخصِّصٌ في الأنثروبولوجيا واللسانيّاتِ. بَحثَ في العَلاقةِ بينَ اللغةِ والثقافةِ والشخصيَّةِ، وأسهَمَ في تأسيسِ فرعَيْنِ جديدَيْنِ للبحثِ الأنثروبولوجيِّ، هما: الأنثروبولوجيا اللغويَّةُ، وتُحلِّلُ دورَ اللغةِ في المجتمعاتِ المختلفةِ؛ والأنثروبولوجيا النفسيَّةُ، وتنظرُ في العَلاقةِ بينَ الثقافةِ والشخصيَّةِ. واستَحدَثَ وسائلَ تُمَكِّنُ العلماءَ من إعادةِ بناءِ التأريخِ الثقافيِّ والحضاريِّ على الرغمِ من اندثارِ الآثارِ المكتوبةِ. وكانَ إسهامُهُ في علمِ اللغةِ في مجالِ دراسةِ التراكيبِ اللغويَّةِ، وتأريخِ اللغاتِ، وتحليلِ أوجُهِ الشَّبَهِ والاختلافِ بينَ اللغاتِ. وكانَ رائدًا في مجالاتٍ أخرى في علمِ اللغةِ، منها عِلمُ اللغةِ العِرقِيُّ الذي يبحثُ في العَلاقةِ بينَ اللغةِ والثقافةِ؛ وعِلمُ اللغةِ النفسيُّ الذي يبحثُ في العمليّاتِ الذهنيَّةِ المرتبطةِ باللغةِ. وعالجَتْ معظمُ دراساتِهِ الوصفيَّةِ لغاتِ مجتمعِ الهنودِ الحمرِ في أمريكا وثقافتَهُ. حَوَتْ آثارُهُ الكثيرَ من المقالاتِ، وكتابًا مُوَسَّعًا عنوانُهُ (اللغةُ: مقدِّمةٌ لِدراسةِ الكلامِ). [المُترجِم]

(24) *Op. cit., Language*, pp. 237-239.

(25) وِليَم شَيكسبير (1564-1616م). الشاعرُ، والكاتبُ الإنجليزيُّ الذي يُصَنَّفُ بوصفِهِ أعظمَ =

خَصائصِهِ. فإن كانَ تَحَرُّكُهُ في المُستَوَى الأعلَى أكبَرَ- والمِثالُ المُناسِبُ لِذلكَ إحدَى القَصائدِ الغِنائيَّةِ لِسوِنبيرن Swinburne[26]- فإنَّهُ يَكونُ غيرَ قابِلٍ لِلتَّرجمةِ عَمَلِيًّا". ومِن أجلِ تَوضيحِ هذا التَّمايُزِ تُعْقَدُ مُوازَنَةٌ بينَ الأدَبِ والعِلمِ؛ إذ يُقالُ عن الصِّدْقِ العِلميِّ إنَّهُ غيرُ شَخصيٍّ، "إنَّهُ، في أساسِهِ، غيرُ مَطبوعٍ بِالوَسَطِ اللغويِّ الذي يَجِدُ فيهِ التَّعبيرَ... ومعَ ذلكَ يَجِبُ أن يَكونَ لَهُ تَعبيرٌ مَا، وهذا التَّعبيرُ لا بُدَّ أن يَكونَ تَعبيرًا لُغَويًّا. والحَقُّ أنَّ إدراكَ الصِّدْقِ العِلميِّ هوَ في نَفسِهِ عَمَلِيَّةٌ لُغَويَّةٌ؛ ذلكَ بِأنَّ الفِكرَ ليسَ إلّا اللغَةَ مُجَرَّدَةً مِن كِسوَتِها الخارجيَّةِ". والأدَبُ، مِن جِهةٍ أُخرَى، "شَخصِيٌّ ومَلمُوسٌ... فحَدْسُ الفَنّانِ، وهوَ التَّعبيرُ الذي يَستَعمِلُهُ كروتشة، يَتَشَكَّلُ فَورًا مِن تَجرِبَةٍ إنسانيَّةٍ عامَّةٍ... بَل إنَّ الفنّانِينَ الذينَ تتحرَّكُ أرواحُهُم بِسَعَةٍ في المُستَوَى غيرِ اللغَويِّ (الأَوْلَى أن يُقالَ: في الطَّبَقَةِ اللغويَّةِ العامَّةِ)، لَيَجِدُونَ صُعوبَةً مُعَيَّنَةً في التَّعبيرِ عن أنفُسِهِم". ومِن المُفتَرَضِ أنَّ وِتْمان Whitman وآخَرِينَ، إنْ جازَ التَّعبيرُ، "يُناضِلُونَ في سَبيلِ التَّوصُّلِ إلى لُغَةٍ فَنِّيَّةٍ عامَّةٍ، عِلمِ جَبْرٍ أَدَبِيٍّ... وكَثيرًا مَا يَكونُ تَعبيرُهُم الفَنِّيُّ مُتَكَلَّفًا، ويَبدو أحيانًا مِثلَ تَرجَمَةٍ عَن أَصلٍ مَجهولٍ- والحَقُّ أَنَّ هذا ما هوَ عليهِ بِالضَّبطِ".

فَإنْ حاوَلْنا التَّعامُلَ معَ صُعوباتِ التَّرجَمَةِ مِن زاوِيَةِ 'العَبقَرِيَّةِ الشَّكليَّةِ' و'المَضمونِ الكامِنِ' لِلوَسَطِ اللغويِّ، و'الطَّبَقَةِ غيرِ اللغويَّةِ' التي يَتَحرَّكُ فيها 'الحَدْسُ'، فإنَّ ظُهورَ المُعَمَّياتِ أمرٌ حَتمِيٌّ. لكِنَّ إدراكَ غِنَى الوَسَطِ الذي يَكونُ

= كاتبٍ باللغةِ الإنجليزيَّةِ، وأعظمَ كاتبٍ مسرحيٍّ على مستوى العالَمِ، وكثيرًا مَا يُعَدُّ الشاعرَ الوطنيَّ لإنجلترا. سبَرَ في مسرحيّاتِهِ أغوارَ النفسِ البشريَّةِ وحلَّلَها في بناءٍ متناسقٍ جعلَها أشبَهَ شيءٍ بالسمفونيّاتِ الشعريَّةِ. من أشهرِ آثارِهِ الكوميديَّةِ: كوميديا الأخطاء، وتاجرُ البندقيَّة، ومن أشهرِ آثارِهِ التراجيديَّةِ: روميو وجولييت، ويوليوس قيصر، وهاملت، وعُطَيل، وماكبث، والملِكُ لير. [المُترجِم]

(26) ألغيرنون تشارلز سونبيرن (1837-1909م). شاعرٌ، وكاتبٌ مسرحيٌّ، وروائيٌّ، وناقدٌ إنجليزيٌّ. من آثارِهِ الشِّعريَّةِ الدراميَّةِ: الأُمُّ الملِكَة، وماري ستيوَرت، والأَخَوات. [المُترجِم]

تَحتَ تَصَرُّفِ الشِّعرِ، والذي سيكونُ مَوضِعَ اهتِمامِنا عمّا قَريبٍ، يُتيحُ لَنا الاستِغناءَ عن المُساعدةِ المَشكوكِ فيها لِديالكتيك مَدينةِ نابولي. والحقُّ أنَّ التَّرجمةَ قد تَنجَحُ أو تُخفِقُ لِعِدَّةِ أسبابٍ واضِحَةٍ تَمامًا. فإنَّ أيَّ استِعمالٍ رَمزيٍّ خالصٍ لِلكلماتِ مِن المُمكِنِ إعادَةُ إنتاجِهِ إنْ كانَت قَد طُوِّرَت تَمييزاتٌ رَمزيَّةٌ مُتَشابِهةٌ في مُفرَداتِ اللُّغَتَيْنِ. وإلّا فإنَّ الحاجَةَ إلى إسهاباتٍ أو إلى رُموزٍ جَديدةٍ ستكونُ قائمةً، وإنَّ درجةَ التَّناظُرِ المُمكِنِ لَمِمّا يُمكِنُ التَّثَبُّتُ منهُ بِسُهولةٍ. مِن جِهَةٍ أخرَى، [229] كُلَّما ازدادَ تَضمينُ الوَظائفِ الانفِعاليَّةِ أصبَحَتْ مُهِمَّةُ إدماجِها في مَجموعَتَيْنِ مِن المُفرَداتِ أَقَلَّ يُسْرًا. ثُمَّ إنَّهُ كُلَّما كَثُرَ استِعمالُ التَّأثيراتِ المُباشِرَةِ لِلكلماتِ في اللُّغَةِ الأَصْلِ مِن خِلالِ الإيقاعِ، والصِّفَةِ الصّائتِيَّةِ، وما إليهما، ازدادَتْ صُعوبَةُ تأمينِ تأثيراتٍ مُشابِهَةٍ بِالطَّريقةِ نَفسِها التي تَكونُ عليها في حالةِ وَسَطٍ صَوتِيٍّ مُختلِفٍ. وهكذا، لا بُدَّ مِن تَقديمِ مَنهَجٍ مُكافِئٍ، ويَميلُ هذا إلى تَعويقِ الوَظائفِ الأُخرَى حتَّى إنَّ ما يُدْعَى 'نَجاحَ' التَّرجمةِ كَثيرًا مّا يَكونُ مَرَدُّهُ الأساسُ إلى خَصائصِها الجَوهريَّةِ الذّاتيَّةِ. وإذا ما كانَ ثَمَّةَ فَهمٌ لِكُلٍّ مِن وَظائفِ اللغةِ ومَوارِدِها التِّقْنِيَّةِ فإنَّ النَّقدَ التَّرجَمِيَّ يُقَدِّمُ مَنهَجًا لِدِراسةِ اللغةِ آسِرًا ومُوَجِّهًا على نَحوٍ مُتَمَيِّزٍ.

إنَّ وِجهَةَ النَّظرِ التي مفادُها أنَّ الكَلامَ يُقَدِّمُ حالاً عَلامِيَّةً مُرَكَّبَةً لا مُفرَدَةً في جَميعِ الأَحيانِ تَقريبًا تُسَلِّطُ إضاءَةً جَديدةً على عِدَّةِ مُشكِلاتٍ في النَّحوِ التَّقليديِّ. فَمُعالَجَةُ تَكوينِ الجُملَةِ والتَّركيبِ بِخاصَّةٍ يَجِبُ التَّعامُلُ معَها تَعامُلاً جَديدًا. وانطِلاقًا مِن وِجهَةِ النَّظرِ هذهِ يُمكِنُ أن نَعُدَّ أُنمُوذَجًا لِذلكَ الفيلولوجيَّ[27] القانِعَ بِمُجَرَّدِ وَظيفَةٍ لُغويَّةٍ مُزدَوِجةٍ في تَعريفاتِهِ لِلكلمةِ والجُملةِ.

الكَلِمَةُ رَمزٌ صَوتِيٌّ إفصاحِيٌّ في حالةِ دَلالَةٍ تَعيينِيَّةٍ على شَيءٍ مّا يُتَحَدَّثُ عنهُ.

---

(27) Dr. A. Gardiner in *art. Cit., The British Journal of Psychology* (General Section), Vol. XII, Part iv., April, 1922. See, however, his *The Theory of Speech and Language*, 1932, p. 98.

الجُملَةُ رَمزٌ صَوتِيٌّ إفصاحِيٌّ في حالةِ تَجسيدِ مَوقِفٍ إرادِيٍّ لِلمُتكلِّمِ مِن المُستَمِعِ.

وما دَعاهُ الدُّكتور غارِدِنَر Gardiner[28] 'مَوقِفًا إرادِيًّا' يَبدُو أَنَّهُ مُتَضَمَّنٌ في النُّقطةِ الرّابِعَةِ مِن قائمتِنا لِلوَظائفِ. ومِن المُتَّفَقِ عليهِ عُمومًا أَنَّهُ لا يُمكِنُ الإقرارُ بِكَونِ أَيِّ استِعمالٍ كَلامِيٍّ مُحاوَلَةً لِتحقيقِ التَّواصُلِ ما لَم تُراعَ هذهِ الوَظيفةُ.

إنَّ الفائدَةَ التي يَجنيها النَّحوِيُّونَ مِن المُصطَلَحاتِ المُعَرَّفَةِ بِهذهِ الطَّريقةِ غيرُ واضِحةٍ. والذي يُهِمُّ هوَ ما يُلِحُّ عليهِ الكاتِبُ، مُحِقًّا، مِن التَّبايُنِ بينَ وَظيفَتَي الكَلامِ المذكورَتَيْنِ. ولَيْسَتِ الوَظائفُ الأُخرَى [230] التي تَنبَغي مُراعاتُها في أيِّ تَحليلٍ شامِلٍ لِلُّغَةِ بِأَقَلَّ تَبايُنًا.

ويُتَّهَمُ أحيانًا الذينَ يَكتُبونَ في عِلمِ النَّفسِ بِأَنَّهُم يُغْفِلونَ جانِبَ المُستَمِعِ. ولا شَكَّ في أنَّ الانهِماكَ في 'التَّعبيرِ' بِوَصفِهِ الوظيفَةَ الرَّئيسةَ لِلُّغَةِ[29] كانَ كارِثِيًّا. لكِنَّ ذلكَ لم يَكُنْ بِسببِ إغفالِ المُستَمِعِ الذي حدَثَ بِتلكَ الوَسيلةِ بِقَدرِ ما كانَ بِسببِ الأَثَرِ التَّخديريِّ الغَريبِ لِكلمةِ 'التَّعبيرِ' نَفسِها. فثَمَّةَ تَعبيراتٌ مُعَيَّنَةٌ في البَحثِ العِلميِّ يَبدو أَنَّها تَجعَلُ أيَّ تقدُّمٍ مُستَحيلاً. إذ إنَّها تُذْهِلُ العَقلَ المُتَسائلَ وتُحَيِّرُهُ، ومعَ ذلكَ تُرضِيهِ بِطريقةٍ مّا، وعلى الرَّغمِ مِن أَنَّها مَصْدَرُ يَأسٍ لِلَّذينَ يَوَدُّونَ مَعرِفَةَ ما قَد قالوا، هيَ مَصْدَرُ بَهْجَةٍ لِجَميعِ الذينَ يَكونُ اهتِمامُهُم الرَّئيسُ بالكَلماتِ تَفاديَ المُشكِلاتِ. فكَلِمَةُ 'التَّعبيرِ' إحدَى هذهِ الكَلِماتُ، و'يُجَسِّدُ' كلِمةٌ أُخرَى، وقَد كُنّا مُنذُ قَليلٍ مُنشَغِلِينَ بِمُعالَجَةِ كَلِمةِ 'مَعنًى' بِالتَّفصيلِ. والمَطلوبُ هوَ بَحثٌ فاحِصٌ في العَمَليّاتِ التي تُخْفيها هذهِ الألفاظُ، وإنَّ تَحليلَنا لَيُظهِرُ أَنَّ تَقديمَ المُستَمِعِ لا يَفعَلُ إلّا القَليلَ مِن تَسليطِ الضَّوءِ على القَضِيَّةِ. وزِيادَةً على ذلكَ، حينَ عُنِيَ عُلَماءُ النَّفسِ وغَيرُهُم بِحقيقةِ أَنَّ الكَلامَ يَدُلُّ ضِمنًا على

---

(28) ألن هندِرسن غاردِنَر (1879-1963م). من أوائلِ العُلماءِ البريطانيّينَ المُهتَمّينَ بِالآثارِ المِصريَّةِ في بداياتِ القرنِ العشرينَ وأواسِطِهِ. من أهمِّ آثارِهِ: مِصرُ الفَراعِنة، والنحوُ المِصريّ، ونظريَّةُ الكلامِ واللغة. [المُترجِم]

(29) يُنظَرُ مِثالاً لِذلكَ: Wundt, *Völkerpsychologie*, 3rd ed., I., p. 43.

المُستَمِعِ لم يَكُفُّوا عَن الإلحاحِ على هذهِ النُّقطَةِ. ففي سنةِ 1900 كَتَبَ ديتريتش Dittrich[30]، صاحِبُ أَحَدِ كَراسيِّ الأُستاذِيَّةِ القليلةِ المُمَيَّزَةِ في المَوضوعِ، يَقولُ: "مِن الأُمورِ الأساسيَّةِ لِلعِلمِ اللُّغويِّ ألّا يَقتَصِرَ شَأْنُ اللغةِ على التَّعبيرِ، بل أن يَشمَلَ التَّأثيرَ، وأن يَكونَ التَّواصُلُ مِن أساسيّاتِها، وألّا يُهمَلَ ذلكَ في تَعريفِها". واستِنادًا إلى ذلكَ ضَمَّنَ في تَعريفِهِ الكَلِماتِ الآتِيَةَ: "بِالقَدرِ الذي يُمْكِنُ شَخصًا واحدًا آخَرَ في الأَقَلِّ أن يُحاوِلَ الفَهمَ"[31]. وقد يُشَكُّ في ما يُمكِنُ أن تُقدِّمَهُ زِيادَةُ كَلِماتٍ كَهذهِ لِعِلمٍ مّا، غيرَ أنَّ مِن المُؤَكَّدِ أنَّ فون هَمبولت von Humboldt[32] قد ذَهَبَ بَعيدًا جِدًّا في هذا الاتِّجاهِ حينَ قالَ[33]: "لا يَفهَمُ المَرءُ نَفسَهُ إلّا حينَ يَختَبِرُ عَمَلِيًّا وُضوحَ كَلِماتِهِ عندَ الآخَرينَ". [231] وقَد اشتَهَرَ أيضًا تَأكيدُ شتاينتال Steinthal الدَّورَ الذي يُؤَدِّيهِ المُستَمِعُ في أَصلِ اللغةِ وتَطوُّرِها[34]، وإنَّ دو سوسير في مُعالَجَتِهِ النّموذَجِيَّةِ لِوَظائفِ الكَلامِ التي كانَتْ، على ما رَأَيْنا في فَصلِنا الأَوَّلِ، غيرَ مُرضِيَةٍ مِن ناحيَةٍ أُخرَى، قد بَلَغَ بِالأمرِ مَبْلَغَ رَسمِ صُوَرٍ لِلمُستَمِعِ وهوَ يُصغي إلى المُتَكَلِّمِ، مُتِمًّا بِذلكَ 'الدّائرَةَ اللغويَّةَ'[35]. وأَتَمَّ مارتِناك Martinak[36] دائرةً مُشابِهَةً لِلعَلاماتِ الإرادِيَّةِ في صُورَةِ مُخَطَّطٍ مِن

(30) أوتمار ديتريتش (1865-1951م). لغويٌّ، وفيلسوفٌ ألمانيٌّ في جامعةِ لايبزغ. من مؤلَّفاتِهِ: مُشكِلاتُ سايكولوجيَّةِ اللغة. [المُترجِم]

(31) O. Dittrich, *Die Probleme der Sprachpsychologie*, pp. 11-12.

(32) فريدرِش وِلهِلم كرِستْيَن كارل فردِيناند فون هَمبولت (1767-1835م). فيلسوفٌ، ودِبلوماسيٌّ بروسيٌّ. كانَ صديقًا لِغوتة وشِلَر، ويُذكَرُ غالِبًا بِوَصفِهِ لِسانيًّا. كانَتْ له إسهاماتٌ مهمَّةٌ في حقلِ فلسفةِ اللغةِ والتعليمِ نظريًّا وعمليًّا، ووضَعَ أساسيّاتِ نظامِ التعليمِ في بروسيا، وهو النظامُ الذي أخذَتْهُ أمريكا واليابانُ. من مؤلَّفاتِهِ: الكِتابةُ وعَلاقَتُها بِالكَلام، وأفكارٌ مقترَحَةٌ لِتصنيفِ حدودِ فاعليَّةِ الدولة، ومهمَّةُ المؤرِّخ. [المُترجِم]

(33) *Sprachphilosophische Werke*, edited by Steinthal (1884), p. 281.

(34) *Abriss der Sprachwissenschaft*, Vol. I., 2nd ed. (1881), p. 374.

(35) *Op. cit.*, *Cours de Linguistique Générale* (1916), p. 28.

(36) إدوَرد مارتِناك (1859-1943م). فيلسوفٌ، وعالِمُ نَفسٍ، ولُغَويٌّ ألمانيٌّ. من أهمِّ آثارِهِ: دِراساتٌ سايكولوجيَّةٌ في نظريَّةِ المَعنَى. [المُترجِم]

خِلالِ تَنفيذِ المُستَمِعِ إرادَتَهُ[37]، في حينِ أنَّ بالدوِن Baldwin[38] كانَ قَد خَصَّصَ أكثرَ مِن سَبعينَ صَفحةً مِن المُجلَّدِ الثّاني مِن كِتابِهِ الفِكْرُ والأشياء *Thought and Things* لِتأثُّرِ اللغةِ بِوَظائفِها في الاتِّصالِ، وعَلاقاتِ المُتكلِّمِ والمُستَمِعِ في ما أسماهُ 'الإخبار بِوَصفِهِ تَوضيحًا' و'الإخبار بِوَصفِهِ عَرَضًا'[39].

غيرَ أنَّ أهَمَّ إدراكٍ عَمَليٍّ لِحَقيقةِ أنَّ لِلُّغةِ عِدَّةَ وَظائفَ يُمكِنُ أن نَجِدَهُ في الهُجومِ الكبيرِ الذي شَنَّهُ برُونو Brunot[40] على الإجراءاتِ النَّحويَّةِ السّائدَةِ[41]. وقبلَ ذلكَ، في سَنَةِ 1903، كانَ عَميدُ مُؤَسَّسَةِ المِنَحِ التَّعليميَّةِ الفَرنسيَّةِ قد اقتنَعَ بِضَرورةِ التَّخلِّي عمّا يُسَمَّى 'أقسام الكَلام'، إمّا بِوَصفِهِ مَنهَجَ مُقارَبَةٍ، وإمّا في التَّدريسِ الفِعليِّ، وفي سَنَةِ 1908، بِصِفَتِهِ أُستاذًا في جامعةِ السّوربون، دَوَّنَ اقتِناعَهُ هذا بِوُضوحٍ وقُوَّةٍ. وظَلَّ مُدَّةَ خَمسَ عشرةَ سنةً، في عَشرَةِ تَنقيحاتٍ، مَشغُولاً بِهذا المَوضوعِ الخِلافيِّ، ويقولُ في ذلكَ: "بَعدَ كُلِّ تنقيحٍ كُنتُ أَعودُ إلى الاستِنتاجِ نَفسِهِ- أَن لا تَعامُلَ معَ النِّظامِ القَديمِ، ولا إعادَةَ لِتَجميعِ حَقائقِ اللغةِ يُمكِنُ أَن يَكونَا مُرضِيَيْنِ ما دامَ التَّصنيفُ على أساسِ أقسامِ الكَلامِ سارِيَ

(37) *Op. cit., Psychologische Untersuchungen zur Bedeutungslehre* (1901), p. 65.

(38) جَيْمس مارك بالدوِن (1861-1934م). فيلسوفٌ، وعالِمُ نَفسٍ أمريكيٌّ. تخرَّجَ في جامعةِ برنستن تحتَ إشرافِ البروفيسور الأسكتلنديِّ جَيْمس مكّوش، وكانَ أحدَ مؤسّسِي قسمِ علمِ النفسِ في الجامعةِ. كانَتْ له إسهاماتٌ مهمَّةٌ في علمِ النفسِ، والتحليلِ النفسيِّ، ونظريَّةِ النشوءِ. من أهمِّ آثارِهِ: عناصرُ علمِ النفسِ، وقصَّةُ العقلِ، والفِكرُ والأشياء. [المُترجِم]

(39) Vol. II., p. 152.

(40) فرديناند يوجين جان بابتيست برونو (1860-1938م). لِسانيٌّ وفيلولوجيٌّ فرنسيٌّ، ومُحرِّرُ الكِتابِ المهمِّ (تأريخُ اللغةِ الفرنسيَّةِ منذُ نشأتِها حتّى سنةِ 1900). أصبحَ سنةَ 1891 مُحاضِرًا في جامعةِ السوربون وسنُّهُ إحدى وثلاثونَ سنةً. وهناكَ بدأَ إنجازَ كتابِهِ المشتركِ مع زميلِهِ اللسانيِّ لويس بتي دو جوليفيل، فأتَمَّ الجزءَ الأوَّلَ من تأريخِهِ الضَّخمِ، المخصَّصَ لِفرنسيَّةِ القرونِ الوسطى. وقد طُبِعَ من تأريخِهِ هذا تسعةُ أجزاءٍ في حياتِهِ، واكتمَلَ في ثلاثةَ عشرَ جزءًا. ونَشَرَ كذلكَ كتابًا عن نحوِ اللغةِ الفرنسيَّةِ الفُصحى، وعدَّةَ بحوثٍ تُدافِعُ عن الهِجائيَّةِ الفرنسيَّةِ المبسَّطَةِ. [المُترجِم]

(41) *La Pensée et la langue* (1922).

المَفعولِ. يَجِبُ أن نَعزِمَ على ابتِكارِ مَناهِجَ لِدِراسةِ اللغةِ غيرِ مَصوغَةٍ على أساسِ العَلاماتِ، بَل على أساسِ الأفكارِ". ويَختلِفُ البروفيسور برونو عن مُعظَمِ اللغَويِّينَ في أنَّهُ يَعِي تَمامًا أنَّ التَّحليلَ السّايكولوجيَّ الخالصَ لِلحالَةِ الكَلاميَّةِ يَكمُنُ وَراءَ هذهِ [232] المُقارَبَةِ الوَظيفيَّةِ لِلُّغةِ، ومِنَ المُثيرِ لِلاهتِمامِ أن نَجِدَ بَيانَهُ الشّامِلَ لِما يتعلَّقُ بِالمُصطَلَحِ الفَرَنسيِّ مُطابِقًا لِلقِسمَةِ الخُماسيَّةِ المُقتَرَحَةِ آنِفًا.

ويُمكِنُنا الآنَ أن نُحَدِّدَ بِدِقَّةٍ أكبرَ صِلَةَ الإحالةِ بِالرَّمزِ، التي هيَ عُرضَةٌ لِعَوامِلِ التَّعويقِ هذهِ. فإحالةُ الرَّمزِ الذي نَراهُ الآنَ ما هيَ إلّا واحِدٌ مِن عَدَدٍ مِن الألفاظِ التي لَها صِلَةٌ بِشَكلِ الرَّمزِ. بَل إنَّها ليسَتِ العامِلَ المُهَيْمِنَ في مُعظَمِ الحالاتِ، وكُلَّما كانَ الكَلامُ المَبحوثُ أكثرَ بِدائيَّةً بَدا هذا العامِلُ أقَلَّ أهَمِّيَّةً. ومَعَ ذلكَ، ما دُمْنا نَحتاجُ إلى تَعزيزاتٍ وعَلاماتٍ تَمييزيَّةٍ على الرَّغمِ مِن مَزيدِ رَهافَةِ تَعامُلاتِنا معَ الأشياءِ غيرِ الحاضِرةِ مُباشَرَةً- أي التي لَيْسَتْ في سِياقاتٍ شَديدَةِ القُربِ والبَساطَةِ بِالإضافَةِ إلى تَجرِبَتِنا الحاضِرَةِ-، وعلى الرَّغمِ مِن مَزيدِ التَّعقيدِ أو التَّهذيبِ في إحالتِنا، تُصبِحُ هذهِ الوَظيفةُ الرَّمزيَّةُ الصّارِمةُ لِلكَلِماتِ بِسُهولَةٍ أكثرَ أهمِّيَّةً مِن أيَّةِ وظيفَةٍ أُخرَى. ولِذا كانَ مِنَ الطَّبيعيِّ أن يُبدَأَ في أيَّةِ أُطروحَةٍ تَتعلَّقُ بِوظائفِ الكلماتِ في الاستِعمالِ الاعتِياديِّ بالتَّرميزِ الصّارِمِ.

فَفي الحالاتِ الاعتياديَّةِ لا يَقتَصِرُ الإمكانُ على شَكلٍ رَمزيٍّ واحِدٍ فقط، بَل يُمكِنُ وُجودُ عددٍ مِن أشكالِ الرُّموزِ بِقَدرِ تَعلُّقِ الأمرِ بِالإحالةِ التي عليها أن تَصحَبَها. ويُمكِنُ أن تُصحَبَ الإحالةُ بِـA، أو بِـB، أو بِـC، أو بِـD، وهي رُموزٌ بِأشكالٍ أو بِنيَةٍ مُختلفةٍ. وكُلٌّ مِن هذهِ الرُّموزِ عُضوٌ مُمكِنٌ في السِّياقِ الذي تَعتَمِدُ عليهِ الإحالةُ، بِمَعنَى أنَّ انضِواءَهُ لا يُغَيِّرُ مِن الإحالةِ شَيئًا. وهذا المَدَى مِن الأشكالِ المُمكِنَةِ هوَ الذي يُمَكِّنُ الرَّمزَ مِن أن يُؤَدِّيَ الكثيرَ جِدًّا مِن المَنافِعِ، وأن يَكونَ عَلامَةً في الكثيرِ جِدًّا مِن الأحوالِ المُتَمايِزَةِ التي هيَ معَ ذلكَ مُتَزامِنَةٌ.

فَلْنَفتَرِضِ الآنَ أنَّ المُتَكلِّمَ، زيادَةً على مُهمَّتِهِ الإحاليَّةِ، يَتَّخِذُ مَوقِفًا مّا مِن مُستَمِعِيهِ، ولْنَقُلْ إنَّهُ الوُدِّيَّةُ فَقد يَكونُ مِن بَينِ هذهِ الأشكالِ الرَّمزيَّةِ A، B، C، D، ولْنَقُلْ إنَّهُ D، ما هوَ أكثرُ مُناسَبَةً لِلظِّلِّ الخاصِّ بِهذا المَوقِفِ مِن الأشكالِ

الأُخرَى، بِمَعنَى أَنَّهُ عُضوٌ مُمكِنٌ في سِياقِ المَوقِفِ، أي أَنَّهُ واحِدٌ مِن تلكَ المَجموعةِ مِن الرُّموزِ التي لا يَتَسبَّبُ نُطقُها في تَغييرِ المَوقِفِ. فإن كانَ هذا هوَ كُلَّ ما هوَ مُتَضَمَّنٌ [233] فإنَّ D سيُنطَقُ، ما دامَ أيُّ تَعليقٍ مُناسِبٍ آخَرَ يَتَضَمَّنُ، افتِراضًا، بَعضَ التَّغييرِ في الإحالةِ.

وَلْنَفتَرِضْ، زِيادَةً على ذلكَ، أنَّ المُتكلِّمَ يَشعُرُ، مَثَلاً، بِالاشمِئزازِ مِن مَرجِعِهِ. فإنَّ هذا سيُؤَدِّي، على نَحوٍ مُشابِهٍ، إلى تَعديلٍ إضافِيٍّ في الرَّمزِ. وكذلكَ تَفعَلُ، مَرَّةً أُخرَى، أُمنِيّاتُ المُتكلِّمِ، ورَغَباتُهُ، ومَقاصِدُهُ فيما يتعلَّقُ بِآثارِ تَعليقاتِهِ. وكَثيرًا مّا تُرضِي التَّعديلاتُ أَنْفُسُها هاتَيْنِ الحالَتَيْنِ كِلتَيْهِما، ولكِنْ أحيانًا حينَ يَتَعارَضُ لِسَببٍ مّا، مَثَلاً، مَوقِفُ المُتكلِّمِ الذّاتيُّ والمَوقِفُ الذي يتَمَنَّى أن يُنشِئَهُ، يَجِبُ أن تَزولَ السِّياقاتُ الطَّبيعيَّةُ لِلمَواقِفِ الكَلميَّةِ، ويُصبِحُ التَّرميزُ الحَصيفُ أصعَبَ على بَعضِ النّاسِ. وعلى نَحوٍ مُشابِهٍ، كَثيرًا مّا يَنبَغي لِوُضوحِ المُتكلِّمِ أو لِغُموضِهِ في الإحالةِ أن يُخفَى أو أن يَخضَعَ لِلتَّسويَةِ. ويُمكِنُ، على ما بَيَّنّا آنِفًا، أن يَكونَ أفضَلُ تَصنيفٍ لِيَقينِهِ أو ظَنِّهِ، ولِشَكِّهِ أو دَرَجَةِ اعتِقادِهِ، هوَ معَ المَواقِفِ العامَّةِ مِن المَراجِعِ.

فَمُعظَمَ ما يُكتَبُ أوما يُقالُ إذَن مِمّا يَكونُ مُمتَزِجًا أو بَلاغِيًّا في مُقابِلِ استِعمالِ الكلماتِ الخالِصِ، أو العِلميّ، أو الرَّمزيّ الصّارِمِ، يَكتَسِبُ شَكلَهُ بِوَصفِهِ نتيجَةً لِتَسوِيَةٍ. وأحيانًا فقط يُتاحُ تَرميزٌ يَكونُ، مِن غيرِ أن يَفقِدَ شَيئًا مِن دِقَّتِهِ الرَّمزيَّةِ، مُناسِبًا أيضًا (لِمَوقِفِ الكاتبِ مِن جُمهورِهِ)، ومُلائمًا (لِمَرجِعِهِ)، وحَصيفًا (رُبَّما لِيُنْشِئَ التَّأثيراتِ المرغوبَ فيها)، وشَخصِيًّا (دالاًّ على ثَباتِ إحالاتِهِ أو قَلَقِها). والاحتِمالاتُ تَقِفُ بِالضِّدِّ تَمامًا مِن إمكانِ وُجودِ وَفرَةٍ مِن الرُّموزِ التي لها القُدرةُ على أداءِ هذا القَدْرِ الكَبيرِ مِن المهمّاتِ. ونتيجَةً لِذلكَ يُضَحَّى بِبَعضِ هذهِ الوَظائفِ في مُعظَمِ الأقوالِ. ففي قَولِنا 'صَباحُ الخَيرِ good morning' و'مَعَ السَّلامَةِ good-bye' تُهدَرُ الوَظيفَةُ الإحاليَّةُ، أي أنَّ هاتَيْنِ العَلامَتَيْنِ اللفظيَّتَيْنِ لَيسَتا رَمزَيْنِ، ويَكفي هُنا كَونُهُما مُناسِبَتَيْنِ. وكذلكَ عِباراتُ التَّعجُّبِ والأَيْمانُ لَيسَتْ بِرُموزٍ، فَكُلُّ ما يُبتَغَى بِها أن تُرضِيَ شَرطَ المُلاءَمَةِ، وهو واحدٌ

مِن أسهَلِ الشُّروطِ في المُستَوَى المُتَدَنّي مِن اللُّطفِ الذي تُطَوِّرُ هذهِ العَلاماتُ العاطِفِيَّةُ لِتكونَ إيّاهُ. ويَبدو أنَّ السِّياقاتِ الوَحيدةَ المَطلوبَةَ هُنا [234] هيَ التي تَكونُ بِأبسَطِ نِظامٍ مُمكِنٍ في عِلمِ النَّفسِ، كَبساطَةِ سِياقِ أنينِ وَجَعِ الضِّرسِ. ويَجِبُ أَن تُلَبِّيَ الطَّلَباتُ أو الأوامِرُ شُروطَ الإحالةِ والغَرَضِ، ولكِنَّها يُحتَمَلُ، والحَقُّ أَنَّهُ كَثيرًا مّا يَجِبُ، أن تَتَفادَى كُلًّا مِن المُناسَبَةِ والمُلاءَمَةِ بِالمَعنَيَيْنِ المَذكورَيْنِ آنِفًا، كما هيَ الحالُ، مَثَلاً، في الكثيرِ مِن الأوامِرِ العسكريَّةِ. ومِن جِهَةٍ أُخرَى، في وُسعِ التَّهديداتِ الاستِغناءُ بِسُهولةٍ عن الإحالةِ، أي أن تكونَ غيرَ ذاتِ مَعنًى، وألّا يَحكُمَها إلّا الغَرَضُ المَقصودُ. والأسئلَةُ والطَّلَباتُ تُشبِهُ الأَوامِرَ في الجَوانبِ المذكورةِ آنِفًا ولا تَختَلِفُ عنها إلّا في الوَسيلةِ التي يُبحَثُ مِن خِلالِها عن التَّأثيراتِ المرغوبِ في إحداثِها.

تَقودُنا هذهِ الأمثِلَةُ المُتعلِّقَةُ بِإسقاطِ واحدَةٍ أو أكثرَ مِن وَظائفِ اللغةِ، على نَحوٍ طبيعيٍّ، إلى أكثَرِ الحالاتِ لَفتًا لِلنَّظَرِ وخُضوعًا لِلنِّقاشِ وهيَ حالَةُ الاختِلافِ والافتِراقِ، أي بينَ النَّثرِ والاستِعمالاتِ الشِّعريَّةِ لِلُّغَةِ. فَمِن هذهِ الزّاويَةِ لا يَكونُ التَّمايُزُ بينَهُما مُرَمَّزًا على نَحوٍ مُرْضٍ؛ ذلكَ بِأنَّ أفضَلَ ما يُعرَّفُ بِهِ الشِّعرُ لأكثرِ الأغراضِ عُموميَّةً وأهمِّيَّةً يَكونُ بِالصِّلَةِ بِالحالَةِ، أو بِالحالاتِ، العَقليَّةِ التي يُوَلِّدُها 'الشِّعرُ' في قُرّاءٍ مُناسِبينَ، ومِن غيرِ أيَّةِ صِلَةٍ بِالوَسيلةِ اللفظيَّةِ المُحدَّدَةِ. لِذلكَ، يُمكِنُنا أن نَستَبْدِلَ بِثُنائيَّةِ النَّثرِ والشِّعرِ ثُنائيَّةَ الاستِعمالَيْنِ الرَّمزيِّ والانفِعاليِّ لِلُّغَةِ. ففي اللغةِ الرَّمزيَّةِ الصّارمةِ تكونُ التَّأثيراتُ الانفِعاليَّةُ لِلكلماتِ، مُباشِرَةً كانَتْ أو غيرَ مُباشِرَةٍ، غيرَ ذاتِ صِلَةٍ بِاستِخدامِها. أمّا اللغةُ الاستِثاريَّةُ، مِن جِهةٍ أُخرَى، فيُعنَى فيها بِكُلِّ الوَسائلِ التي يُمكِنُ بِوَساطَتِها أن تُثارَ المَواقِفُ، والأمزِجَةُ، والرَّغَباتُ، والمَشاعرُ، والعَواطِفُ في المُستَمِعينَ إثارَةً لَفظِيَّةً. وقد سَبَقَ أن بَحَثْنا بِشَيءٍ مِن التَّفصيلِ (ص260-261) أهمِّيَّةَ التَّفريقِ بينَ هذَيْنِ الاستِعمالَيْنِ لِلُّغَةِ، ويُمكِنُ أن نَأتيَ هُنا بِعَدَدٍ قَليلٍ مِن الاعتِباراتِ الإضافِيَّةِ التي تَتَعَلَّقُ بِالوَسائلِ التي تَضمَنُ بِها اللغاتُ الاستِثارِيَّةُ حُدوثَ تأثيراتِها.

وكَثيرًا مّا وَصَفَ الأُدَباءُ هذهِ الآثارَ الثّانويَّةَ لِلكلماتِ، مِن غيرِ أن يَفعَلوا

الكثيرَ لِدِراستِها دِراسةً تَفصيليَّةً. إذ يَكتُبُ لافكاديو هيرن Lafcadio Hearn[42]، مَثَلاً، قائلاً إنَّهُ يَرَى أَنَّ "الكَلِماتِ لَها لَونٌ، وتُكَوِّنُ [235] خَصيصَةً. ولَها وُجوهٌ، وقِيافاتٌ، وتَصَرُّفاتٌ، وإيماءاتٌ، ولَها طَبائعُ، وأَمزِجَةٌ، وشُذوذاتٌ، ولَها صِبغاتٌ، ونَغَماتٌ، وشَخصِيّاتٌ. أنا أكتُبُ لأَصدقائي الأَعزّاءِ الذينَ يَستَطيعونَ أن يَرَوا اللونَ في الكَلِماتِ، وأن يَشُمُّوا عِطرَ المَقاطِعِ في طَوْرِ الإزهارِ، وأن يُصْدَموا بِشُذوذِ الكلماتِ الفاتِنِ اللطيفِ. وفي التَّرتيبِ الأَبَديِّ لِلأشياءِ سيَعرِفُ النّاسُ في نِهايةِ المَطافِ لِلكلِماتِ حُقوقَها".

إنَّ الكَلِماتِ أو تَنظيماتِ الكَلِماتِ لَتَستَدعي مَواقِفَ على نَحوٍ مُباشِرٍ كالأَصواتِ، وعلى نَحوٍ أَقَلَّ مُباشَرَةً بِطَرائقَ مُختلِفةٍ كَثيرَةٍ مِن خِلالِ ما يُدعَى على نَحوٍ فَضفاضٍ 'تَرابُطاتٍ.' وتأثيراتُ الكَلِماتِ التي تَنجُمُ مُباشَرَةً (أي عُضويًّا) عن خصائصِها الصَّوتيَّةِ يُحتَمَلُ أن تكونَ تافِهةً، ولا تُصبِحُ مُهِمَّةً إلّا مِن خِلالِ تأثيراتٍ تَراكُميَّةٍ وتخديريَّةٍ كالتي يُسَبِّبُها الإيقاعُ والقافيةُ. وأَهَمُّ مِنها المُصاحِباتُ العاطِفيَّةُ الفَوريَّةُ النّاجِمَةُ عن تَجرِبَةٍ سابِقةٍ لَها في ارتِباطاتِها النّموذَجِيَّةِ. وإذا ما أُريدَ الحُصولُ على هذهِ المُصاحِباتِ فَلا حاجَةَ إلى استِدعاءِ الارتِباطاتِ أنفُسِها. ولَدَيْنا، ثالِثًا، تأثيراتٌ يُلمَحُ إليها اعتِيادِيًّا بِوَصفِها العَواطِفَ النّاجِمَةَ عن التَّرابُطاتِ التي تَنشَأُ مِن خِلالِ استِدعاءِ المَواقِفِ كامِلَةً. وقد قَصَرْنا اهتِمامَنا، حتَّى الآن، على اللغاتِ اللفظيَّةِ، لكِنَّ تَمَيُّزَ الوَظيفَةِ وتنوُّعَها أنفُسَهُما يَنشَآنِ في حالةِ اللغاتِ غيرِ اللفظيَّةِ. فحينَ نَنظُرُ إلى لَوحَةٍ مّا، كما أَنَّنا حينَ نَقرَأُ قَصيدَةً، يُمكِنُنا أن نَتَّخِذَ أَحَدَ مَوقِفَيْنِ اثنَيْنِ أو كِلَيْهِما. إذ يُمكِنُنا الإذعانُ لَها بِوَصفِها مُثيرًا، مُرْخِينَ العِنانَ لِخصائصِها اللونيَّةِ وخَصائصِها الشَّكليَّةِ لِتَفعَلَ فِعلَها العاطِفِيَّ فينا. ويُمكِنُنا اتِّخاذُ مَوقِفٍ مُغايِرٍ بِتأويلِ أَشكالِها وأَلوانِها (كَلِماتِها). وليسَ أَوَّلُ

(42) باترِك لافكاديو هيرن (1850-1904م). كاتبٌ عالَميٌّ يونانيُّ الأصلِ. أهمُّ ما عُرِفَ به مؤلَّفاتُهُ عن اليابانِ، ولا سيَّما مُختاراتُهُ من الأساطيرِ اليابانيَّةِ وقصصِ الأشباحِ. وهو معروفٌ أيضًا في أمريكا بكتاباتِهِ عن نيوأورليانز التي تستنِدُ إلى إقامتِهِ فيها عشرَ سنواتٍ. [المُترجِم]

هذَيْنِ المَوقِفَيْنِ تَمهيدًا لا غِنَى عنهُ لِثانيهِما. وافتِراضُ الأمرِ على هذا النَّحوِ يَعني الخَطَأَ في التَّفريقِ بينَهُما. وقَد أسدَى السَّيِّدُ كلايف بيل Clive Bell خِدْمَةً نافِعَةً بِتَنبيهِهِ على أنَّ الكثيرَ مِن النّاسِ قد اعتادوا العُبورَ، في حالةِ اللوحاتِ، إلى ثاني هذَيْنِ المَوقِفَيْنِ مُهمِلِينَ أَوَّلَهُما كُلِّيًا. ولا شَكَّ في أنَّ مِثلَ هذا الإهمالِ يُجَرِّدُ اللوحةَ مِن جُزئها الأساسيِّ. وقَد أسدَى البروفيسور سَيْنتسبيري Saintsbury[43] خِدْمَةً مُشابِهَةً لِلقُرّاءِ المُتَعَجِّلِينَ. [236]

لكِنْ على الرَّغم مِن أنَّ أَوَّلَ هذَيْنِ المَوقِفَيْنِ، أي التَّسليمَ لِلعَمَلِ الفَنِّيِّ بِوَصفِهِ مُثيرًا، بِهِ حاجَةٌ إلى التَّشجيعِ، إنَّ المَوقِفَ الثّانيَ، أي المُتَعلِّقَ بالتَّأويلِ، لا يَقِلُّ عنهُ أهَمِّيَّةً. عِندَ هذهِ النُّقطةِ يُصبِحُ نُقّادُ كِلا المَوقِفَيْنِ مُتَحَمِّسِينَ جِدًّا لِلوُقوفِ على وَجهٍ لِلصِّدْقِ. ويَجِبُ علينا في مُعظَمِ الحالاتِ، بَعدَ أن نَسمَحَ للأَشكالِ الخالصةِ أن تُؤَثِّرَ فينا، أن نَنطَلِقَ إلى التَّأويلِ إذا ما أَرَدْنا أن نَسمَحَ لِلَّوحَةِ أو القَصيدَةِ بِأَن تُوَلِّدَ نتيجَتَها الكامِلَةَ. فإذا ما فَعَلْنا ذلكَ فسيَكونُ ثَمَّةَ خَطَرانِ في مَقدورِ الحِسِّ السَّليمِ أن يَتَفاداهُما. أحدُهُما خَطَرُ التَّداعياتِ الشَّخصيَّةِ، ولا داعيَ إلى الخَوْضِ في تَعيينِ مُتَعَلَّقِها. والآخَرُ خَطَرُ خَلطِ استِثارَةِ مَوقِفٍ مّا مِن حالَةٍ مّا بالوَصفِ العِلميِّ لَهُ. والفَرقُ بينَ هذَيْنِ الاستِعمالَيْنِ لِلُّغَةِ المُختَلِفَيْنِ جِدًّا يَظهَرُ واضِحًا جِدًّا في حالةِ الكَلِماتِ. غيرَ أنَّ جميعَ ما ذَكَرْناهُ يَنطَبِقُ بِالدَّرَجَةِ نَفسِها على التَّضادِّ بينَ الفَنِّ والتَّصويرِ الفوتوغرافيِّ. إنَّهُ الفَرقُ بينَ طَرائقِ إظهارِ المَوضوعِ الذي يُفيدُ مِن الاضطِراباتِ الانفِعاليَّةِ المُباشِرَةِ التي تُوَلِّدُها مَنظُوماتٌ مُعَيَّنَةٌ، مِن أجلِ إعادَةِ الحالَةِ الكُلِّيَّةِ لِرُؤْيَةِ المَوضوعِ أو سَماعِهِ جَنبًا إلى جَنبٍ معَ العَواطِفِ التي يُشْعَرُ بِها تجاهَهُ، وبينَ الإظهارِ العِلمِيِّ الخالِصِ، أي الرَّمزِيِّ، مِن جِهَةٍ أُخرَى. ولا ضَرورَةَ تَدعو إلى تَوجيهِ المَوقِفِ المُستَثارِ صَوبَ المَوضوعاتِ المُعَيَّنَةِ بِوَصفِها وَسيلَةً لاستِثارَتِهِ، ولكِنَّهُ غالبًا مّا

(43) جورج إدوَرد بَيْتمَن سينتسبيري (1845–1933م). كاتِبٌ، ومؤرِّخٌ أدبيٌّ، وناقِدٌ إنجليزيٌّ. من آثارِهِ: مَقالاتٌ في الأدبِ الإنجليزيّ، ومَقالاتٌ في الرِّوائيِّينَ الفرنسيِّينَ، وانطِباعاتٌ مُصَحَّحَةٌ. [المُترجِم]

يَكونُ تَعديلاً أكثرَ عُموميَّةً. ومِمّا يَزيدُ هذهِ الفُرُوقَ وُضوحًا النَّظَرُ فيها في مَيْدانٍ مُشابِهٍ جِدًّا هوَ الرَّسمُ، حيثُ لا تَدخُلُ العَواطِفُ بِطَرائقَ مُختَلِفَةٍ وإنَّما فقط بِزيادَةِ الاختِلافِ والتَّمايُزِ بَيْنَها تَبَعًا لِلطَّرائقِ التي تَدخُلُ بِها. ومِثلَما يُمكِنُنا تَمييزُ الآثارِ العاطِفِيَّةِ المُباشِرَةِ لِصِفاتِ الصَّوتِ ونَبراتِهِ، يُمكِنُنا بِالضَّبطِ تَمييزُ الآثارِ المُباشِرَةِ المُشابِهَةِ لِلَّونِ والشَّكلِ. فمِثلَما يُمكِنُ، على سبيلِ المِثالِ، أن تُعارِضَ الصِّفَةُ الصّائِتِيَّةُ والصّامِتِيَّةُ الإيقاعَ، يُمكِنُ أن يُعارِضَ اللونُ الشَّكلَ، أي أنَّ بِإمكانِهِما أن يَستَثيرا عَواطِفَ مُتَعارِضَةً. وعلى نَحوٍ مُشابِه، مِن المُقَرَّرِ أنَّ الألوانَ تَكتَسِبُ تأثيراتِها العاطِفِيَّةَ مِن خِلالِ التَّجرِبَةِ، التَّأثيراتِ العاطِفِيَّةَ [237] التي هيَ لَيسَت التَّأثيراتِ العاطِفِيَّةَ لِترابُطاتِها. فَفَردُ الإسكيمو Eskimo[44] وفَردُ المور Moor[45]، على سبيلِ المِثالِ، يَختَلِفُ تأثُّرُهُما بِطَريقَةِ التَّلوينِ البريطانيَّةِ؛ إذ إنَّ كُلّاً منهُما يَألَفُ اختِياراتٍ لَونِيَّةً مُختَلِفَةً، بِصَرفِ النَّظَرِ تَمامًا عن ترابُطاتِها.

وطَبيعيٌّ أنْ تُهمَلَ التَّأثيراتُ العاطِفِيَّةُ في الاستِعمالِ العِلميِّ لِلُّغَةِ، ومِن الواضِحِ أنَّهُ بِإدخالِ هذهِ التَّأثيراتِ يُمكِنُ أن تُصبِحَ اللُّغَةُ مُلائمَةً لأداءِ وَظيفَةٍ مُزدَوِجَةٍ. فإنْ شِئنا، مَثَلاً، أن نَصِفَ كَم تَبدو حَرَكَةُ السّاعةِ بَطيئةً حينَ يَكونُ صَبْرُنا قد نَفِدَ، فإمّا أن نَصِفَ سايكولوجيًّا خَواصَّ امتِدادِ إحساسِنا بِالزَّمَنِ، مُستَعمِلِينَ الرُّموزَ مُمَثِّلَةً لِعَناصِرِ الحالَةِ، ومُطَّرِحِينَ الاستِثاراتِ العاطِفِيَّةَ لِهذهِ الرُّموزِ، وإمّا أن نَستَعمِلَ الرُّموزَ مُمَثِّلَةً لِمَجموعَةٍ مُختارَةٍ مِن هذهِ العَناصِرِ فَحَسْبُ، وبِذلكَ نُعِدُّها لِتُعيدَ لَدَى المُستَمِعِ العَواطِفَ المُلائمَةَ. وتَكشِفُ المُمارَسَةُ

---

(44) الإسكيمو: شَعبٌ يَسكُنُ شَمالَ الكُرةِ الأرضيَّةِ. والكلمةُ مُستَمَدَّةٌ مِن كلمةٍ هِنديَّةٍ-أمريكيَّةٍ تَعني آكِلِي اللحمِ النِّيِّ أو الناطِقِينَ بِلُغَةٍ غَريبَةٍ. [المُترجِم]

(45) المور، أو المورِيُّونَ: مُصطَلَحٌ يُطلَقُ على جَميعِ سُكّانِ شَمالِ إفريقيا مِن غيرِ تَمييزٍ عِرقِيٍّ أو دينيٍّ أو ثَقافيٍّ واضِحٍ. ويُعتَقَدُ أنَّ أصلَ هذهِ الكلمةِ هو الكلمةُ اليونانيَّةُ mauros التي تَعني الأسْوَدَ أو الشَّديدَ الظُّلْمَةِ. ويَستَعمِلُ الغَربُ كلمةَ المور لِلإشارةِ إلى البَشَرِ ذَوِي البَشَرةِ السَّمراءِ في شَمالِ إفريقيا، الذينَ اشتركوا معَ المُسلِمِينَ في فَتحِ إسبانيا أو استيطانِها. ولاحِقًا عَمَّمَ الغَربُ استعمالَ الكلمةِ، فأطلَقَها الأورُبِّيُّونَ على كلِّ مُسلِمٍ في إسبانيا ولو كانَ إسبانيَّ الأصلِ. [المُترجِم]

عن أنَّ هذَيْنِ المَنهَجَيْنِ في استِعمالِ اللغةِ يَكونانِ مُتَضادَّيْنِ في مُعظَمِ الحالاتِ، وإن لم يَكُنْ ذلكَ فيها جَميعًا؛ فقد أكَّدَ البروفيسور مَكّينزي Mackenzie[46] أنَّ شيلي Shelly[47] حينَ كَتَبَ يَقولُ:

"إلى الجَحيمِ أيَّتُها الرُّوحُ المَرِحَة فَلَم تَكوني قَطُّ طَيْرًا"

"لَم يَقصِدْ أن يُنكِرَ حَقًّا انتِماءَ طائرِ القُبَّرَةِ إلى فَصيلَةِ الطُّيورِ"، ويُمكِنُنا أن نَقولَ، على نَحوٍ مُعاكِسٍ، إنَّ العِبارَةَ ذاتَ الكِفايَةِ الرَّمزيَّةِ قد يَكونُ لَها القَليلُ مِن التَّأثيرِ العاطِفِيِّ. نَعَم، تَحدُثُ استِثناءاتٌ، لكِنَّ هذا التَّضادَّ هوَ مِن العُمومِ بِحَيثُ يُسَوِّغُ التَّضادّاتِ المُعتادَةَ بينَ التَّحليلِ والحَدْسِ، وبينَ العِلمِ والفَنِّ، وبينَ النَّثرِ والشِّعرِ. وإنَّما مَرَدُّها إلى حَقيقَةِ أنَّ مِن النّادِرِ جِدًّا أن يَكونَ نَسَقُ الرُّموزِ الذي يُعيدُ حالَةً مّا بِاستِثارَةِ عَواطِفَ مُشابِهَةٍ لِلعَواطِفِ المُضَمَّنَةِ في الأصلِ، رَمزًا كافِيًا لَها. لِذلكَ كانَ كُلٌّ مِن السَّيِّدِ برغسون والتَّحليليّينَ على صَوابٍ؛ إذ إنَّ كُلًّا مِنهُما يَتَمَسَّكُ بِأهمِّيَّةِ إحْدَى وَظيفَتَي اللغةِ. وهُم مُخطِئونَ فَقَط في عَدَمِ رُؤيَتِهِم بِوُضوحٍ أن لا بُدَّ مِن أن تَكونَ لِلُّغَةِ هاتَانِ الوظيفَتانِ. ويَبدو الأمرُ كما لَوْ أنَّ نِزاعًا قد نَشِبَ بِشأنِ الفَمِ: ألِلكَلامِ هُوَ أم لِتَناوُلِ الطَّعامِ؟

ومِمّا لا يُمكِنُ إنكارُهُ أنَّ التَّعقيداتِ وحالاتِ اللَّبْسِ التي في استِعمالِ اللغةِ لأغراضِ الاستِثارَةِ [238] لَيسَتْ بِأقَلَّ مِن تِلكَ التي تُعانيها اللغةُ العِلمِيَّةُ. ولكِنْ

---

(46) جون ستيوَرت مَكّينزي (1860-1935م). فيلسوفٌ هيغليٌّ بريطانيٌّ. حاضَرَ في الاقتِصادِ السياسيِّ في كلِّيَّةِ أونز في جامعةِ مانتشستر بينَ سنَتَيْ 1890 و1893، وأصبحَ في سنةِ 1895 أستاذَ المنطقِ والفلسفةِ في كاردِف. من آثارِهِ: مقدِّمةٌ في الفلسفةِ الاجتماعيَّةِ، ومُحاضَراتٌ في الإنسانيَّة، وعناصرُ الفلسفةِ البنائيَّة. [المُترجِم]

(47) بيرس بيش شيلي (1792-1822م). شاعرٌ إنجليزيٌّ رومانتيكيٌّ مهمٌّ. يُعَدُّ واحدًا من أفضَلِ الشعراءِ الغِنائيِّينَ الإنجليز. يُعرَفُ بِقصائدِهِ القصيرةِ: أوزيمانديَاس، وأغنيةٌ لِلرِّيحِ الغَربيَّةِ، وإلى قُبَّرَةٍ. ومعَ ذلك تتضمَّنُ أعمالُهُ المهمَّةُ قصائدَهُ الطويلةَ مثل: ثورةُ الإسلامِ، وأدوناي، وبروميثيوس طليقًا. [المُترجِم]

حينَ يَختلِفُ شَخصانِ في ما يُسَمَّى في الاستِعمالِ الاعتِياديِّ تَسمِيَةً صَحيحَةً تمامًا "تَأويلَيْهِما" لِقَصيدَةٍ أو لِلَوحَةٍ، فالإجراءُ الذي يَنبَغي أن يُتَبَنَّى حينَئذٍ مُغايِرٌ تَمامًا لِلإجراءِ الذي يُنْصَحُ بِهِ حينَ يَختَلِفانِ في تَأويلَيْهِما لِتَعليقاتٍ فيزيائيٍّ مّا. ومَعَ ذلكَ، ثَمَّةَ شَبَهٌ أساسيٌّ في الحالتَيْنِ مَرَدُّهُ إلى حقيقةِ أنَّ كِلْتَيْهِما حالٌ عَلامِيَّةٌ، وإن تَكُنْ ثانِيَتُهُما وَحدَها رَمزِيَّةً بِالمَعنَى الصّارِمِ لِلكلِمةِ.

ويُمكِنُ تَمييزُ الفَرقِ بينَ الاستِعمالَيْنِ على نَحوٍ أكثَرَ دِقَّةً على النَّحوِ الآتي: في الكَلامِ الرَّمزيِّ تَكونُ الاعتِباراتُ الأساسيَّةُ صِحَّةَ التَّرميزِ وصِدْقَ الإحالاتِ. وفي الكَلامِ الاستِثارِيِّ يَكونُ الاعتِبارُ الأساسيُّ خَصيصَةَ المَوقِفِ المُثارِ. والحَقُّ أَنَّهُ يُمكِنُ استِعمالُ العِباراتِ الرَّمزيَّةِ وَسيلَةً لاستِثارَةِ المَواقِفِ، ولكِنْ حينَ يَقَعُ هذا الاستِعمالُ سيُلحَظُ أنَّ صِدقَ العِباراتِ أو كَذِبَها لا أهمِّيَّةَ لَهُ إذا كانَتْ مَقبولَةً لِلمُستَمِعِ.

إنَّ الوَسائلَ التي يُمكِنُ أن تَستَثيرَ الكَلِماتُ بِها المَشاعِرَ والمَواقِفَ مُتَعدِّدَةٌ وتُهَيِّئُ مَجالَ دِراسَةٍ مُغرِيًا لِعُلَماءِ نَفسِ الأدَبِ. فَبِوَصفِها أصواتًا، وحَرَكاتٍ نُطْقِيَّةً، وكذلكَ مِن خِلالِ عِدَّةِ شَبَكاتِ تَرابُطٍ دَقيقةٍ، أي سِياقاتِ حُدوثِها في الماضي، يُمكِنُها أن تُؤَثِّرَ مُباشَرَةً في البَواعِثِ المُنَظَّمَةِ لِلأنظِمَةِ التَّأثيريَّةِ-الإرادِيَّةِ. ولكِنَّ ما يَفُوقُ كُلَّ أُولئكَ أهمِّيَّةً، إذ يَعمَلُ على تَقْوِيَةِ هذهِ التَّأثيراتِ الثّانويَّةِ وضَبطِها وتَوحيدِها، هوَ التَّأثيراتُ الإيقاعيَّةُ والعَروضِيَّةُ لأنساقِ الكَلِمةِ. وإذا ما افتُرِضَ مَنطِقيًّا أنَّ الإيقاعاتِ ولا سِيَّما الأوزانُ لَها تأثيراتٌ تَخديرِيَّةٌ بِدَرَجةٍ قليلةٍ فإنَّ الفَرقَ المَلحوظَ جِدًّا في القُوَّةِ الاستِثارِيَّةِ بينَ الكَلِماتِ المَنسوقَةِ على هذا النَّحوِ والكَلِماتِ التي ليسَ لَها نِظامٌ تَكراريٌّ، يَسْهُلُ تَفسيرُهُ. إذ يُمكِنُ أن تَكونَ دَرَجَةٌ مُعَيَّنَةٌ مِن فَرطِ الحَسّاسِيَّةِ افتِراضًا مُلائمًا لِتَفسيرٍ أَعمَقَ لِمَزيدِ الحَسّاسيَّةِ المُصاحِبَةِ لِلقِراءةِ العَروضيَّةِ تجاهَ الخَصيصَتَيْنِ الصّائتِيَّةِ والصّامِتِيَّةِ، و[239]لِلتَّأثيرِ البارِدِ أو الصَّفيحِيِّ لِلمَقاطِعِ أنفُسِها حينَ تَكونُ في الشِّعرِ الحُرِّ. فالعاطِفِيَّةُ، والمُبالَغَةُ في المَشاعِرِ الاعتِقادِيَّةِ، وإخفاءُ المَلَكاتِ النَّقدِيَّةِ، وإخمادُ الموقِفِ التَّساؤُلِيِّ 'هَلْ هذا كَذلكَ في حَقيقَةِ الأمرِ؟'، كُلُّ أُولئكَ خَصائصُ مُمَيِّزَةٌ لِلتَّجارِبِ العَروضيَّةِ،

وهيَ مُلائمَةٌ لِلافتِراضِ التَّخديريِّ. فإذا ما زِدْنا على هذهِ التَّأثيراتِ لِلوَزنِ قُدراتِهِ على التَّصويرِ غيرِ المُباشِرِ (كدَلالةِ الكَلِماتِ 'يَتمايَلُ'، و'يَتَقَلَّبُ'، و'ثَقيل'، و'يَندَفِعُ'، و'مُحَطَّم'، حينَ تُطَبَّقُ في الإيقاعاتِ)، وقُدراتِهِ على التَّحَكُّمِ المُباشِرِ بالانفِعالاتِ (كدَلالَةِ الكَلماتِ 'يُهَدْهِدُ'، و'يُثِيرُ'، و'وَقُور'، و'مَرِح')، وقُدراتِهِ على التَّوحيدِ (على ما يُظهِرُ استِعمالُهُ في مُستَوَى مُتَدَنٍّ بِوَصفِهِ تَذَكُّرِيًّا فَحَسْبُ)، فلَن يُفاجِئَنا أن نُلفِيَهُ واسِعَ الحُضورِ جِدًّا في الاستِعمالِ الاستِثارِيِّ لِلكَلامِ.

ولَيسَتْ بِنا حاجَةٌ في هذا المَقامِ إلى التَّفَكُّرِ التَّفصيليِّ في وَسائِلِ الإثارَةِ غيرِ المُباشِرَةِ المُمكِنَةِ مِن خِلالِ الكَلِماتِ. فَمِن خِلالِ العِبارَةِ؛ ومِن خِلالِ إثارَةِ التَّخَيُّلِ (كَثيرًا مّا تَتِمُّ في المُستَوَياتِ المُتَدَنِّيَةِ لِلتَّهذيبِ بِاستِعمالِ الاستِعارَةِ)؛ ومِن خِلالِ الاستِعارَةِ نَفْسِها- ولا تُسْتَعْمَلُ هُنا كما تُسْتَعْمَلُ في التَّرميزِ الصّارِمِ لِتُظْهِرَ سِمَةً بِنائيَّةً في الإحالَةِ أو لِتُؤَكِّدَها، بل لِتُهَيِّئَ، وكَثيرًا مّا يَكونُ ذلكَ تَحتَ غِطاءٍ مِن دَعْوَى هذا التَّفسيرِ، تَصاحُباتٍ لِلإحالاتِ جَديدَةً ومُفاجِئَةً ومُدهِشَةً مِن أجلِ إحداثِ التَّأثيراتِ المُرَكَّبَةِ مِن التَّضادِّ، والتَّعارُضِ، والانسِجامِ، والتَّفاعُلِ، والتَّوازُنِ التي يُمكِنُ الحُصولُ عليها بِهذهِ الطَّريقَةِ، أو تُسْتَعْمَلُ بِبِساطَةٍ أكبرَ لِتَعْديلِ النَّغمةِ الانفِعاليَّةِ أو ضَبطِها؛ ومِن خِلالِ التَّداعي؛ ومِن خِلالِ الإحياءِ؛ ومِن خِلالِ الكَثيرِ مِن الرَّوابِطِ الدَّقيقَةِ لِلأحوالِ التَّذَكُّرِيَّةِ، تَستَطيعُ الكَلِماتُ أن تُمارِسَ تأثيرًا عَميقًا بِصَرفِ النَّظَرِ تَمامًا عن أَيَّةِ إعانَةٍ مِن العَواطِفِ، أو الحاجاتِ، أو الرَّغَباتِ، أو الظُّروفِ المَخصُوصَةِ لِلمُستَمِعِ. فإذا ما حَدَثَتْ، زِيادَةً على ذلكَ، إعانَةٌ مِن أُولئكُم فليسَ ثَمَّةَ حَدٌّ لِمَدَاها الاستِثارِيِّ على ما اتَّضَحَ كَثيرًا على مَدَى التَّاريخِ.

إنَّ السِّمَةَ المُمَيِّزَةَ لِهذهِ الأشكالِ مِن الاستِثارَةِ التي تَحدُثُ في الفُنونِ، حيثُ يَكونُ الانقِطاعُ عن مِثلِ هذهِ الظُّروفِ الشَّخصيَّةِ المَخصُوصَةِ ضَروريًّا لِتحقيقِ العُمومِ، هيَ المَزجُ المُتَواصِلُ بينَ الوَسائلِ المُباشِرَةِ وغَيرِ المُباشِرَةِ. [240] على أَنَّ إهمالَ الوَسائلِ المُباشِرَةِ المُتاحَةِ في الشِّعرِ أو الاستِخفافَ بِها شائعٌ عندَ الذينَ لا يَستَعمِلونَ هذا الوَسَطَ، وكَثيرًا مّا يُؤَدِّي إلى مُحاوَلاتٍ لإخراجِ الشِّعرِ مِن جُملَةِ

الفُنونِ بِحُجَّةِ أنَّ جاذِبِيَّتَهُ تَكونُ على نَحوِ غيرِ مُباشِرٍ فَقط، مِن خِلالِ الأفكارِ، وأنَّها لَيسَتْ ذاتَ طَبيعَةٍ حِسِّيَّةٍ. وليسَ مِن سَببٍ لِهذا الخِلافِ إلّا الجَهلَ وَحدَهُ.

ومِن الضَّروريِّ، لِسوءِ الحَظِّ، تأكيدُ أَهمِّيَّةِ التَّفريقِ بينَ هاتَيْنِ الوَظيفتَيْنِ لِلكَلام. إذ إنَّ الخَلطَ بينَهما يُؤَدِّي إلى خِلافاتٍ يُوضَعُ بِمُوجِبِها الفِكْرُ والعاطِفَةُ، والعَقْلُ والشُّعورُ، والمَنطِقُ والحَدْسُ، أَحَدُها معَ الآخَرِ في تَقابُلٍ مُصطَنَعٍ، على الرَّغمِ مِن سُهُولَةِ إدراكِ أَنَّهُ ليسَ مِن الضَّروريِّ بأَيَّةِ حالٍ مِن الأحوالِ أن تَنتَهِكَ إحدَى هاتَيْنِ الوَظيفتَيْنِ حِمَى الوَظيفَةِ الأُخرَى[48]. ومَعَ ذلكَ، فثَمَّةَ مَجموعاتٌ مُتَشابِهَةٌ مِن الرُّموزِ التَّسجيليَّةِ قد نَمَتْ لِكِلتا الوَظيفتَيْنِ- فثَمَّةَ مَجموعَةُ صِدْقٍ وواقِعِيَّةٍ وشُمولٍ لِلكَلامِ الرَّمزيِّ، ومَجموعةُ صِدْقٍ وواقِعِيَّةٍ وشُمولٍ لِلكَلامِ الاستِثارِيِّ. وهذا التَّناظُرُ الشَّكليُّ مُضَلِّلٌ لِلغايَةِ؛ إذ إنَّ كَلِمَتَي (الصِّدقر)[49] و(الصِّدقن)[50] مُتَمايِزَتانِ كُلِّيًّا بِوَصفِهِما رَمزَيْنِ؛ فأُولاهُما تُحَدَّدُ مِن زاويةِ الإحالةِ، في حينِ أنَّ الثّانيةَ مُعادِلَةٌ لِلمُلائمِ والأصيلِ، ولا تَقتَضي إحالةً. ومِمّا يُؤسَفُ عليهِ أنَّ المُتَحَمِّسينَ لِلأَدَبِ يَستَنفِدُونَ في أحيانٍ كَثيرَةٍ جِدًّا كُلَّ وُجودِهِم العَقليِّ الفَعّالِ وهُم يَحسَبُونَ أنَّهُم يتفَكَّرونَ في قَضيَّةٍ أساسيَّةٍ مِن خِلالِ ثُنائيَّتِهِم في الحَدْسِ والمَنطِقِ في هذا المجالِ.

إنَّ التَّخليطَ الذي صارَ إليهِ هذا الموضوعُ بِسببِ الاعتِمادِ غيرِ المُمَحَّصِ على الكَلامِ، معَ تَخليطاتٍ أُخرَى كَثيرَةٍ تُثيرُ حَقًّا اهتِمامًا شَديدًا، هوَ وَحدَهُ حُجَّةٌ قَوِيَّةٌ لِمُواصَلَةِ البَحثِ في الرَّمزِيَّةِ. وحينَ نتذَكَّرُ التَّساؤُلاتِ العَقيمَةَ والحَيرَةَ التي تُسَبِّبُها الأُمورُ غيرُ ذاتِ الصِّلَةِ والخُصوصيّاتُ الجَوهَرِيَّةُ لِلكَلِماتِ لا عندَ الأطفالِ

---

(48) لِلوُقوفِ عل استِعمالٍ مُثمِرٍ لِهذا التَّفريقِ في مُعالَجَةِ اضطِراباتِ الكَلامِ، يُنظَر: Kinnier Wilson, *op. cit.*, *Aphasia* (1926), pp. 53-62.

(49) في الأصلِ(Truth^s)، والـ(S) الصَّغيرُ يُمَثِّلُ الحرفَ الأوَّلَ مِن كَلمةِ (Symbolic). [المتَرجِم].

(50) في الأصلِ(Truth^E)، والـ(E) الصَّغيرُ يُمَثِّلُ الحرفَ الأوَّلَ مِن كَلمةِ (Emotive). [المتَرجِم].

فقط وإنَّما عندَ كُلِّ مَن يَسعَى إلى العُبُورِ إلى ما وَراءَ مُجَرَّدِ تَبادُلِ الإحالاتِ المَقبولَةِ والمَألوفَةِ، [241] لَن نُخدَعَ فنعتَقِدَ أنَّ اقتِراحَ البَحثِ الجادِّ في اللُّغَةِ لا بُدَّ أن يَكونَ مُزحَةً أو حَذلَقَةً- كما يَعتَقِدُ الذينَ لَم يُعَنِّهِم الفِكْرُ قَطُّ، فلم يَجِدوا مِن ثَمَّ أيَّةَ صُعوبةٍ في التَّعبيرِ عنهُ. إنَّ وِجهَةَ النَّظَرِ التي تَذهَبُ إلى أنَّ اللغَةَ لا تتسبَّبُ في صُعوباتٍ كَهذهِ يُمكِنُ أن يَتَخلَّصَ مِنها كلُّ الأشخاصِ الأذكِياءِ إمّا بِالمُلاحَظَةِ وإمّا بِالتَّجرِبَةِ الشَّخصيَّةِ. أمّا وِجهَةُ النَّظَرِ المُضادَّةُ التي تَرَى أنَّ الصُّعوباتِ هائلَةٌ حتَّى إنَّها لا يُمكِنُ التَّغَلُّبُ عليها فَيَجِبُ رَفضُها لأسبابٍ مُشابِهَةٍ، على الرَّغمِ مِن أنَّها أكثَرُ جَدارَةً بِالعَقلِ البَشَريِّ. وما تَفعَلُهُ اللغَةُ في الأصلِ يُشَكِّلُ أَرضِيَّةَ الأَمَلِ بِأنَّها قَد تُجعَلُ بِمُرورِ الوَقتِ تُنَفِّذُ وَظائفَها على نَحوٍ تامٍّ. ومِن أجلِ تَحقيقِ هذهِ الغايَةِ لا بُدَّ مِن تَضافُرِ نَظَريَّتَي العَلاماتِ والتَّعليمِ. فَما مِن مَنظومَةٍ رَسمِيَّةٍ لِلقَوانينِ والقَواعِدِ، وما مِن مُطالَباتٍ بِإصلاحِ الإساءاتِ في مُعامَلَةِ اللغَةِ، يُمكِنُ أن يَكونَ لَها صَدًى ما لَم تُطَوَّر العاداتُ التي تُمَكِّنُ مِن استِعمالٍ حُرٍّ لِلُّغةِ. فما يُطلَبُ مِن اللُّغَةِ لا يَقتَصِرُ على صَرامَةِ التَّعريفِ وصَلابَةِ التَّعبيرِ، بَل يُحتاجُ كذلكَ إلى المُرُونَةِ، والسَّلاسَةِ، والحُرِّيَّةِ في التَّوسِيعِ السَّريعِ في حالِ اقتَضَى الأمرُ التَّوسيعَ. ولا يُمكِنُ تَطويرُ هذهِ القابِليّاتِ إلّا مِن خِلالِ التَّدريبِ الذي هوَ مُخَصَّصٌ الآنَ لأُمورٍ يَستَلزِمُ فَهمُها وُجودَ لُغَةٍ ذاتِ كِفايَةٍ.

إنَّ عِلمًا جَديدًا، هوَ عِلمُ الرَّمزِيَّةِ، مُهَيَّأٌ الآنَ لِلظُّهورِ، وستأتي مَعَهُ آلِيَّةٌ تَعليميَّةٌ جَديدَةٌ. فاللغةُ هي أَهَمُّ أداةٍ نَمتَلِكُها. وفي الوَقتِ الحاضرِ نَحنُ نَحاوِلُ اكتِسابَ مَعرِفَةِ استِعمالِها وإشاعتَها بِالمُحاكاةِ، وبِالحَدْسِ، أو بِالقاعدَةِ التَّجريبِيَّةِ، راضِينَ بِجَهلِنا لِطبيعتِها. ولا يَرجِعُ الفَضلُ إلى جُهودِ الطِّفلِ وَحدَهُ في زَمنِنا هذا في امتِلاكِهِ عُدَّةً تَفْضُلُ بِمَرّاتٍ ما كانَ يَمتَلِكُهُ أرِسطو مِنها؛ ذلكَ بِأنَّ مِثلَ هذا التَّطويرِ لا بُدَّ أن يَكونَ ثَمَرَةَ تَضافُرٍ في الجُهودِ. أمّا الذينَ لَم تُقْنِعْهُم حُلولُ المُشكِلاتِ اللغَويَّةِ المُقَدَّمَةُ في صَفَحاتِ هذا الكتابِ فَعَسَى أن يَكتَشِفوا خيرًا مِنها. على أنَّهُ إن يَكُن ادِّعاؤُنا تَقديمَ تَوجيهٍ جَديدٍ سائغًا فإنَّ النَّتائجَ العَمَليَّةَ البَعيدَةَ المَدَى التي ناقَشْناها قابِلَةٌ للتَّحقُّقِ أصلاً. [242]

مُلَخَّصُ الكِتاب

في خِتام نِقاشٍ طَويلٍ يتضمَّنُ فَحصًا تَفصيليًّا لِلكثيرِ مِن المُشكِلاتِ المُستَقِلَّةِ، وأمثِلَةً مُفَصَّلَةً لِتطبيقِ المَنهَجِ، وإيضاحاتٍ تأريخيَّةً ونُقودًا خاصَّةً لِنَزَعاتٍ فاسِدَةٍ، يُستَحسَنُ إثباتُ مُختَصَرٍ مُوجَزٍ لِلمَوضوعاتِ الرَّئيسةِ التي عُولِجَتْ في الكِتابِ مِن أجلِ تَقديمِ انطِباعٍ عامٍّ بِشأنِ مَجالِ الرَّمزيَّةِ ومُهِمَّتِها. ولا يُمكِنُنا تَفادي الخَسارَةِ في المَنظورِ التي تُحَتِّمُ وُقوعَها قائمةُ المُحتَوَياتِ التي يُحالُ عليها القارِئُ إلّا بِاستِبعادِ كُلِّ إلماحٍ إلى مَوضوعاتٍ كَثيرةٍ لَيسَتْ بِأقَلَّ أهمِّيَّةً مِن المَوضوعاتِ المَذكورَةِ هُنا.

1. - الأفكارُ، والكَلِماتُ، والأشياء

إنَّ أثَرَ اللغَةِ في الفِكرِ غايةٌ في الأهمِّيَّةِ. والرَّمزيَّةُ هيَ دِراسةُ هذا الأثَرِ، الذي لا تَقِلُّ قُوَّتُهُ مِن حَيْثُ ارتِباطُهُ بِالحَياةِ اليوميَّةِ عَن قُوَّتِهِ في أكثَرِ مَسائلِ الفِكرِ استِغلاقًا.

وإذا ما أُريدَ إنشاءُ أَيَّةِ عِبارَةٍ أو تأويلُها فلا بُدَّ مِن وُجودِ ثَلاثةِ عَوامِلَ:

1. عَمليّاتٌ ذِهنيَّةٌ.
2. رَمزٌ.
3. مَرجِعٌ مَا- شَيءٌ مَا يُفَكَّرُ 'فيهِ'.

إنَّ المُشكِلةَ النَّظريَّةَ لِلرَّمزيَّةِ هيَ-

كيفَ تَرتَبِطُ هذهِ العَوامِلُ الثَّلاثةُ فيما بَينَها؟

أمّا المُشكلةُ العَمَليَّةُ، ما دُمْنا مُضطَرّينَ إلى استِعمالِ الكَلِماتِ في النِّقاشِ

والحِجاجِ، فهيَ-

إلى أيِّ مَدًى تُحَرِّفُ نِقاشَنا نَفسَهُ المَواقِفُ المُعتادَةُ تجاهَ الكَلماتِ، والافتِراضاتُ المُعَشِّشَةُ التي مَصدَرُها نَظَريّاتٌ لَم تَعُدْ يُتَمَسَّكُ بِها على نَحوٍ صَريحٍ لكِن ما زالَتْ يُسمَحُ لَها بِتَوجِيهِ مُمارَستِنا؟

وأخطَرُ هذهِ الافتِراضاتِ شَأنًا مَصدَرُهُ النَّظريَّةُ السِّحريَّةُ لِلاسمِ بِوَصفِهِ جُزءًا مِن الشَّيءِ، النَّظريَّةُ التي تَتَضمَّنُ ارتِباطًا مُتأصِّلاً بينَ الرُّموزِ و[243]المَراجِعِ. ويُؤَدِّي هذا الإرثُ عندَ المُمارَسَةِ إلى البَحثِ عن الـ مَعنَى لِلكَلِماتِ. إنَّ استِئصالَ هذهِ العادَةِ لا يُمكِنُ تَحقيقُهُ إلّا بِدِراسَةٍ لِلعَلاماتِ عُمُومًا تَقودُ إلى نَظريَّةٍ إحاليَّةٍ لِلتَّعريفِ يُمكِنُ أن نتجنَّبَ بِها المُشكِلاتِ الوَهمِيَّةَ النّاجِمةَ عن مِثلِ هذهِ الخُرافاتِ. وحينَ يُتَخَلَّصُ مِن كلِّ ذلكَ تُصبِحُ جميعُ المَوضوعاتِ أقرَبَ مَنالاً وأكثَرَ إمتاعًا.

2. - سُلطَةُ الكَلِماتِ

لِسِحرِ الكَلماتِ مَكانَةٌ خاصَّةٌ في السِّحرِ عُمومًا. وما لَم نُدرِكْ كُنهَ المَواقِفِ الفِطرِيَّةِ تجاهَ الكَلماتِ حتَّى السَّنواتِ الأخيرةِ أخفَقْنا في فَهمِ الكَثيرِ مِمّا يتعلَّقُ بِسُلوكِ المَناطِقَةِ وغيرِهِم مِن الصُّوفيِّينَ المُعاصِرِينَ؛ ذلكَ بِأنَّ هذهِ المَواقِفَ أنفُسَها ما زالَت مُلِحَّةً على نَحوٍ خَفِيٍّ وغيرِ مُعْلَنٍ. وفي الوَقتِ نَفسِهِ بِإمكانِ نَظريَّةِ العَلاماتِ تَسليطُ الضَّوءِ على أُصولِ هذهِ الاعتِقاداتِ السِّحريَّةِ وإلحاحِها.

3. - الأحْوالُ العَلامِيَّةُ

ما يَحدُثُ في كُلِّ عَمليَّةِ تَفكيرٍ هوَ أنّا نُؤَوِّلُ عَلاماتٍ.

وفي الحالاتِ الواضحةِ يُقَرُّ بِذلكَ على الفَورِ. أمّا الحالاتُ التي هيَ أكثَرُ تعقيدًا كالتي في الرِّياضيّاتِ والنَّحوِ فلا تَتَضَمَّنُ إلّا أشكالاً أكثرَ تَعقيدًا لَها الفَعّاليَّةُ نَفسُها.

ويَحْجُبُ كلَّ ذلكَ عنّا الاستِعمالُ غيرُ المُمَحِّصِ لِلرُّموزِ، بِتَفصيلِهِ تَحليلاتِ

لِـ'المَعنَى' و'التَّفكيرِ' شُغْلُها الرَّئيسُ الأوهامُ النّاجِمَةُ عن 'الانكِسارِ اللغويِّ 'linguistic refraction.

لِذا وَجَبَ علينا البَدْءُ بِالتَّأويلِ.

فتأويلُنا لأيَّةِ عَلامَةٍ يُمَثِّلُ رَدَّ فِعلِنا السّايكولوجيَّ تجاهَها، على النَّحوِ الذي تُحَدِّدُهُ بِهِ تَجرِبتُنا الماضيَةُ في أحوالٍ مُشابِهَةٍ، وتَجرِبَتُنا الحاضِرَةُ.

فإذا ما ثُبِّتَ هذا بِالدِّقَّةِ اللازمةِ مِن حَيثُ السِّياقاتُ السَّببيَّةُ والمَجموعاتُ المُتَرابِطَةُ حَصَلْنا على أُطروحَةٍ لِلحُكمِ والاعتِقادِ والتَّأويلِ تَضَعُ سايكولوجيَّةَ التَّفكيرِ في المُستَوَى نَفسِهِ الذي تَكونُ فيهِ سائرُ [244] العُلومِ الاستِقرائيَّةِ، وتَتَخلَّصُ مِن ثَمَّ مِن 'مُشكِلةِ الصِّدْقِ'.

إنَّ نَظريَّةَ التَّفكيرِ التي تَنبِذُ العَلاقاتِ الخَفِيَّةَ بينَ العالِمِ والمَعلومِ وتُعالِجُ المَعرِفةَ بِوَصفِها شَأنًا سَببيًّا خاضِعًا لِلبَحثِ العِلميِّ الاعتياديِّ، لا بُدَّ أن تَروقَ كُلَّ مَن يَبْحَثُ عن الفَهْمِ المشتَرَكِ.

وتَكونُ الأحوالُ العَلاميَّةُ مَربوطَةً على الدَّوامِ بِقُيودٍ، ويُمَثِّلُ الإدراكُ الحِسِّيُّ مَجالَ أَفضَلِ دِراسَةٍ لأبسَطِ حالةٍ مِن حالاتِ هذهِ القُيودِ العَلاميَّةِ.

4. - العَلاماتُ في الإدراكِ الحِسِّيِّ

إنَّ يَقينيَّةَ مَعرِفتِنا لِلعالَمِ الخارجيِّ قد عانَت الكثيرَ على أَيدي الفَلاسِفةِ مِن خِلالِ افتِقارِهِم إلى نَظريَّةٍ لِلعَلاماتِ، ومِن خِلالِ أَلغازٍ جُعِلَتْ مُمكِنَةً بِاعتِيادِنا تَسمِيَةَ الأشياءِ على عَجَلٍ مِن غيرِ تَهيئةِ مَناهِجِ التَّعْيينِ.

ومُفارَقاتُ البَنساتِ المُدَوَّرَةِ حَقيقَةً التي تَبدو بَيْضِيَّةً، وهَلُمَّ جَرًّا، مَرَدُّها إلى إساءاتِ استِعمالٍ لِلرُّموزِ، ولا سِيَّما الرَّمزُ 'مُعْطًى datum'.

فَما 'نَراهُ' حينَ نَنظُرُ إلى مِنضَدَةٍ هوَ، أَوَّلاً، تَعْديلاتٌ لِشَبَكيَّتِنا. فهذهِ هيَ

عَلاماتُنا الأَوَّلِيَّةُ. ونحنُ نُؤَوِّلُ هذهِ العَلاماتِ ونَصِلُ إلى مَجالاتٍ لِلرُّؤيَةِ حُدودُها سُطوحُ المَناضِدِ وما أَشبَهَها. وبِاتّخاذِنا تَصديقاتِنا بِها عَلاماتٍ مِن الدَّرَجَةِ الثّانيةِ وهكَذا دَوالَيْكَ يُمكِنُنا أن نُواصِلَ تَأويلَنا إذ نَصِلُ إلى نَتائجَ تُمَثِّلُ مَناضِدَ، وخَشَبًا، وأليافًا، وخَلايا، وجُزَيْئاتٍ، وذَرّاتٍ، وألِكترونات، وما إليها. والمَراحِلُ الأخيرَةُ لِهذا الجهدِ التَّأويليِّ تُمَثِّلُ الفيزياءَ. فليسَ ثَمَّةَ دِراسةٌ تُدْعَى 'الفَلسَفَةَ' في وُسعِها أن تَزيدَ عِلمَ الفيزياءِ شَيئًا أو أن تُصَحِّحَهُ، وإنْ كانَ مِن المُمكِنِ أن تُسْهِمَ الرَّمزيَّةُ في التَّصنيفِ المَنهَجيِّ لِمُستَوَياتِ الخِطابِ التي تَكونُ فيها 'المِنضَدَةُ' و'نِظامُ الجُزَيْئاتِ' رُموزًا مُلائمَةً.

إنَّ مَنهَجَ استِئصالِ التَّخليطاتِ في هذا المَجالِ يَظَلُّ مَطلوبًا حَيثُما طُبِّقَت الفَلسفةُ. [245] ويَستَنِدُ هذا المَنهَجُ جُزئيًّا إلى نَظريَّةِ العَلاماتِ، وجُزئيًّا إلى قَواعِدِ التَّرميزِ التي يتكفَّلُ الفَصلُ اللاحِقُ بِمُناقَشَتِها.

5. - قَوَانِينُ الرَّمْزِيَّةِ

إنَّ قَواعِدَ الرَّمْزِيَّةِ أو أعرافَها أساسيَّةٌ لِكُلِّ تَواصُلٍ، وجَوهريَّةٌ كذلكَ لأيَّةِ أُطروحَةٍ لِمَنهَجٍ عِلميٍّ.

بَعضُ هذهِ القَواعِدِ تَكونُ واضِحةً بِما فيهِ الكِفايَةُ حينَ تُعرَضُ، ولكِنَّها، رُبَّما لِهذا السَّببِ، كانَت تُهمَلُ على العُمومِ. وبَعضٌ آخَرُ مِنها كانَتْ قد صاغَها على نَحوٍ لافِتٍ لِلنَّظَرِ مَناطِقَةٌ مَعْنِيُّونَ حتَّى الآن بِمَدًى ضَيِّقٍ مِن المُشكِلاتِ التَّقليديَّةِ. على أنَّها حينَ عُرِضَتْ جَميعًا كامِلَةً بِالصِّيَغِ التي يَتَضَمَّنُها الخِطابُ النِّظامِيُّ وُجِدَ أنَّ حُلولَ الكَثيرِ مِن المُشكِلاتِ المُعَمَّرَةِ مُتَوافِرَةٌ بِالفِعلِ.

مِن أمثِلَةِ نَحوِ هذهِ المُشكِلاتِ ما يَتَعلَّقُ منها بِالصِّدْقِ، والواقِعِ، والكُلِّيّاتِ، والمُجَرَّداتِ، والوَقائعِ السّالِبَةِ، والمُثَلَّثاتِ المُستَقيمَةِ، والمُرَبَّعاتِ المُستَديرَةِ، وهَلُمَّ جَرًّا.

إنَّ القَواعِدَ أو المُسَلَّماتِ التي نَحنُ بِصددِها والتي تَحتاجُ إلى الصِّياغةِ احتِياجًا ماسًّا سِتُّ قَواعِدَ، تَظهَرُ بِوَصفِها قَوانينَ الرُّموزِ. وهيَ مُستَمَدَّةٌ مِن طَبيعَةِ

العمليّاتِ الذِّهنيَّةِ، ولكِنَّها، لِكَونِها مَطلوبةً مِن أجلِ ضَبطِ التَّرميزِ، تُعرَضُ مِن زاوِيَةِ الرُّموزِ والمَراجِعِ.

ومُتابَعَةُ هذهِ القَوانينِ تَضمَنُ أُسلوبًا نَثريًّا واضِحًا، وإن لم يَكُن بِالضَّرورَةِ مَفهومًا لِلأُدَباءِ.

6. - التَّعريف

نَحتاجُ في أيِّ نِقاشٍ أو تأويلٍ لِلرُّموزِ إلى وَسيلةٍ لِتَعْيينِ المَراجِعِ. والإجابَةُ عن السُّؤالِ الذي مفادُهُ: إلامَ تُشيرُ أيَّةُ كلمةٍ أو يُشيرُ أيُّ رَمزٍ، تَكمُنُ في تَعويضِ رَمزٍ أو رُموزٍ تُفهَمُ على نَحوٍ أفضلَ.

ومِثلُ هذا التَّعويضِ هوَ المَقصودُ بِالتَّعريفِ. فَهوَ يتضمَّنُ المَجموعَةَ المُختارَةَ مِن المَراجِعِ المَعلومَةِ بِوَصفِها نِقاطَ انطِلاقٍ، و[246] تَشْخيصَ الكَلِمةِ المُعَرَّفَةِ بِارتِباطِها بِهذهِ النِّقاطِ.

إنَّ مَسالِكَ التَّعريفِ، أي العَلاقاتِ الشّائعةَ الاستِعمالِ كَثيرًا لِهذا الغَرَضِ، قَليلَةُ العَدَدِ، وإن كانَ بِإمكانِ المُتَخصِّصِينَ في الفِكر التَّجْريدِيِّ استِخدامُ غيرِها. والحَقُّ أنَّ بِالإمكانِ تَعميمَها عَمَليًّا تَحتَ ثَمانيةِ عُنواناتٍ. إنَّ اعتِيادَ هذهِ المَسالِكِ التَّعريفيَّةِ لا يُفضي إلى الاطمِئنانِ في السُّلوكِ الجَدَليِّ والحِجاجيِّ فَحَسْبُ بَل إنَّهُ يُهَيِّئُ وَسيلَةً لِلهَرَبِ مِن مَتاهَةِ التَّصنيفاتِ المُتَضادَّةِ التي وَلَّدَها الاختِلافُ الكبيرُ في وِجهاتِ النَّظَرِ المُمكِنَةِ.

7. - مَعْنَى الْجَمَال

يُمكِنُ إيضاحُ تَطبيقِ هذا الإجراءِ في المُمارَسَةِ بِتَناوُلِ أَحَدِ أكثرِ مَوضوعاتِ البَحثِ إثارَةً لِلحَيرَةِ، أي عِلمِ الجَمالِ.

فَكَثيرًا مّا عُرِّفَ الجَمالُ واختُلِفَ في تَعريفِهِ- وكذلكَ كَثيرًا مّا صُرِّحَ بِعدَمِ قابليَّتِهِ لِلتَّعريفِ. على أنّا إذا ما بَحَثْنا عن العَلاقاتِ التَّعريفيَّةِ المُمَيِّزَةِ وَجَدْنا أنَّ التَّعريفاتِ المُقتَرَحَةَ حتَّى الآن تَبلُغُ نَحوًا مِن سِتَّةَ عَشَرَ تَعريفًا.

ثُمَّ إنَّ كُلّاً مِن هذهِ التَّعريفاتِ يُقَدِّمُ مَدًى مُمَيَّزًا مِن المَراجِعِ، ويُمكِنُ أَن يَدرُسَ أَيًّا مِن هذهِ المَدَياتِ مَن يَستَهويهِم هذا المَدَى المُعَيَّنُ. فإذا ما اختَرْنا الاستِمرارَ في استِعمالِ لَفْظِ الجَمالِ بِوَصفِهِ بَديلاً اختِزاليًّا لِلتَّعريفِ الذي نُفَضِّلُهُ، على الرَّغمِ مِن اللَّبْسِ المُحيطِ الذي كَشَفْنا عَنهُ (وجَميعُ الألفاظِ التي تُستَعمَلُ استِعمالاً حُرًّا عُرضَةٌ لِلَبْسٍ مُشابِهٍ) فإنَّما نَفعَلُ ذلكَ على أساسٍ مِن الأخلاقِ والمَنفَعَةِ ومُحتَمِلِينَ مَحاذِيرَ جَميعِ التَّخليطاتِ التي لا بُدَّ أن يُوَلِّدَها مِثلُ هذا السُّلوكِ.

ولِـ'الجَمالِ'، زِيادَةً على استِعمالاتِهِ الرَّمزِيَّةِ، استِعمالاتٌ انفِعاليَّةٌ. وكَثيرًا مّا كانَتْ هذهِ الاستِعمالاتُ الانفِعاليَّةُ مَسؤُولةً عن وِجهةِ النَّظَرِ التي تَرَى أنَّ الجَمالَ غيرُ قابِلٍ لِلتَّعريفِ ما دامَ، بِوَصفِهِ لَفْظًا انفِعاليًّا، لا يَسمَحُ بِبَديلٍ لَفظِيٍّ مُقْنِعٍ. وإنَّ مَصدَرَ التَّخليطِ الكَبيرِ في النِّقاشِ والبَحثِ لَهُوَ الإخفاقُ في التَّفريقِ بينَ الاستِعمالَيْنِ الرَّمزيِّ والانفِعاليِّ. [247]

8. - المَعْنَى عِنْدَ الفَلاسِفَةِ

إذا ما اتَّجَهْنا بِالمَبادِئِ أنفُسِها صَوبَ 'المَعنَى' نَفسِهِ وَجَدْنا مَجموعَةً مِن الآراءِ مُتَشَعِّبَةً جِدًّا في كِتاباتِ صَفوةِ الفَلاسِفَةِ. وتُظهِرُ النِّقاشاتُ الأخيرَةُ في دَوْرِيَّتَيْ *Mind* و*Brain* عَجْزَ المُختَلِفِينَ المُتَخَصِّصِينَ عَن التَّعامُلِ معَ حالاتِ اللَّبْسِ التي يُفرِزُها اللَفْظُ. إنَّ الإجراءَ الذي اتَّخَذَهُ أكثَرُ المُفَكِّرِينَ الأمريكيِّينَ تَمَكُّنًا وعَمَلِيَّةً، أي الواقِعِيُّونَ النَّقْدِيُّونَ في سَنَةِ 1921، يَكشِفُ عن قَدْرٍ مُماثِلٍ مِن عَدَمِ الكِفايَةِ، في الوَقتِ الذي لَم يَسلَمْ فيهِ استِعمالُ هذهِ الكَلِمةِ على يَدِ شَخصِيَّةٍ مَرجِعِيَّةٍ مُؤَثِّرَةٍ جِدًّا هيَ البروفيسور مونشتَربيرغ كذلكَ مِن الاعتِراضاتِ. والحَقُّ أنَّ الدِّراسَةَ المُتأنِّيَةَ لِمُمارَساتِ الكُتّابِ المَرموقِينَ مِن جَميعِ المَدارسِ تَقودُنا إلى استِنتاجٍ مفادُهُ أنَّهُ على الرَّغمِ مِمّا يُفتَرَضُ ضِمنِيًّا مِن أنَّ اللَفْظَ مَفهومٌ بِما فيهِ الكِفايَةُ ليسَ ثَمَّةَ مَبدَأٌ يَحكُمُ استِعمالَهُ، ولا وُجودَ لأيَّةِ آلِيَّةٍ يُمكِنُ بِوَساطَتِها تَجَنُّبُ التَّخليطِ.

9. - مَعْنَى المَعْنَى

على أَنَّهُ حينَ تُقارَبُ المُشكِلةُ مُقارَبَةً عِلميَّةً نَجِدُ أَنَّهُ مِن المُمكِنِ أَن يُمَيَّزَ ما لا يَقِلُّ عن سِتَّ عَشرَةَ مَجموعَةً مِن التَّعريفاتِ تَمييزًا مُثمِرًا في حَقلٍ يَتَطَلَّبُ أَعلى مُستَوَياتِ الدِّقَّةِ صَرامَةً.

وقد تَكونُ عاقِبَةُ اللَّبْسِ في حالاتٍ أُخرَى وَخيمَةً على المَوضوعِ المَخصُوصِ الذي يَحدُثُ فيهِ، أَمّا هُنا فَإِنَّ اللَّبْسَ يَجعَلُ ماهِيَّةَ النِّقاشِ نَفسِهِ مَشكوكًا فيها. ذلكَ بِأَنَّ كُلَّ رَأْيٍ بِشَأنِ أَيِّ شَيءٍ إِنَّما يَفتَرِضُ سَلَفًا وِجهَةَ نَظَرٍ مّا مُتعلِّقَةً بِـ'المَعنَى'، وأَنَّ إِحداثَ تَغييرٍ فِعليٍّ في وِجهَةِ النَّظَرِ بِشَأنِ هذهِ النُّقطةِ المُعَيَّنَةِ يَستَلزِمُ عندَ صاحِبِ الفِكرِ المَتَماسِكِ إِحداثَ تَغييرٍ في جَميعِ ما لَدَيْهِ مِن وِجهاتِ نَظَرٍ.

ومِن المُمكِنِ مُعالَجَةُ تَعريفاتِ المَعنَى تَحتَ ثَلاثَةِ عُنواناتٍ. يَتَضَمَّنُ أَوَّلُها الأَوهامَ المُوَلَّدَةَ لُغَويًّا؛ ويَضُمُّ ثانيها الاستِعمالاتِ العارِضَةَ والشّاذَّةَ في مَجموعاتٍ ويُمَيِّزُها؛ ويَشتَمِلُ ثالِثُها على الأَحوالِ العَلامِيَّةِ والرَّمزِيَّةِ عُمومًا.

وثَمَّةَ أَثَرٌ لافِتٌ لِلنَّظرِ في مِثلِ هذا العَرضِ يَتَمَثَّلُ في [248] أَنَّهُ يُجبِرُنا في الوَقتِ الحاضرِ على أَن نَتَخلّى عن لَفظِ 'المَعنَى' نَفسِهِ، وأَن نَستَبْدِلَ بِهِ إِمّا أَلفاظًا أُخرَى مِثلَ 'القَصد'، أَو 'القِيمَة'، أَو 'المَرجِع'، أَو 'العاطِفَة'، التي يُستَعمَلُ مُرادِفًا لَها، وإِمّا الرَّمزَ المُوَسَّعَ الذي يَنبَثِقُ، خِلافًا لِلتَّوقُّعِ، عَقِبَ مُشكِلَةٍ صَغيرَةٍ.

إِنَّ الدِّراسَةَ المُتَأَنِّيَةَ لِهذهِ التَّوَسُّعاتِ تَترُكُ مَجالاً قَليلاً لِلشَّكِّ في أَنَّ ما عَدَّهُ الفَلاسِفَةُ والميتافيزيقيُّونَ، زَمَنًا طَويلاً، فِكرَةً مُستَغلِقَةً ومُطلَقَةً، مِمّا يَقَعُ تَمامًا في دائرَةِ اختِصاصِهِم ودائرَةِ اختِصاصِ عُلَماءِ النَّفسِ الوَصفيِّينَ الذينَ وافَقُوا على تَبَنّي مُصطَلَحٍ مُشابِهٍ، قد كانَ مادَّةَ دَرسٍ وتَحليلٍ مُفَصَّلَيْنِ اضطَلَعَتْ بِهِما عُلومٌ خاصَّةٌ مُختَلِفَةٌ مُدَّةً تَزيدُ على نِصفِ قَرنٍ مِن الزَّمَنِ. وفي غُضونِ السَّنَواتِ القَليلَةِ الماضِيةِ أَحَلَّ كُلٌّ مِن التَّطَوُّراتِ الحاصِلَةِ في عِلمِ الأَحياءِ، والبَحثِ الفِسيولوجيِّ في الذّاكِرَةِ والوِراثَةِ 'مَعنَى' العَلاماتِ مَحَلاً لا يَتطَرَّقُ إِليهِ فيهِ شَكٌّ، وقَد بُيِّنَ هُنا أَنَّ الفِكرَ واللغَةَ يَنبَغي أَن يُعالَجا مُعالَجَةً واحِدَةً.

10. - الأحوالُ الرَّمزيَّةُ

هكذا تَكونُ المَرحلَةُ الأُولَى مِن مراحِلِ تَطوُّرِ الرَّمزيَّةِ بِوَصفِها عِلمًا قد اكتَمَلَتْ، وقَد تَبيَّنَ أَنَّها تَمهيدٌ أساسيٌّ لِجَميعِ العُلومِ الأُخرَى. ويَجِبُ عليها، بِمَعِيَّةِ أقسامٍ مِن النَّحوِ والمَنطِقِ لا تَعُدُّها زائدَةً عن الحاجَةِ، أن تُمِدَّ كُلًّا مِمّا كانَ يَندَرِجُ تَحتَ عُنوانِ فَلسَفَةِ الرِّياضيّاتِ، وما يُعَدُّ حتَّى الآن ميتا-فيزيقيًّا- مُتَمِّمَةً عملَ العالِمِ في كلٍّ مِن غايَتَيْ بَحثِهِ.

ويَحتاجُ كُلُّ تأويلٍ حاسِمٍ لِلرُّموزِ إلى فَهمِ الحالِ الرَّمزيَّةِ، والتَّفريقُ الرَّئيسُ في هذا المَقامِ يَكونُ بينَ الحالةِ التي لا تَكونُ الإحالَةُ فيها مُمكِنَةً إلّا بِوَساطَةِ الرُّموزِ (التَّبَعيَّةِ الكَلميَّةِ) والحالةِ التي يُمكِنُ أن يَكونَ فيها اختِيارٌ حُرٌّ لِلرُّموزِ (الاستِقلاليَّةِ الكَلميَّةِ). وإنَّ فَحصَ العَمَليّاتِ اللغويَّةِ في حالَتَيْ تَمامِها وانحِلالِها [249] يَجِبُ أن يَنطَلِقَ مِن هذا التَّمييزِ أيضًا. ومِمّا لَهُ مَزيدُ أهمِّيَّةٍ أن يُلحَظَ أنَّ الكَلِماتِ لَها وَظائفُ أُخرَى سِوَى وَظيفَةِ التَّرميزِ الصّارِمِ. ودِراسَةُ هذهِ الأوجُهِ الاستِثاريَّةِ تَقودُ، على نَحوٍ طَبيعيٍّ، إلى أُطروحَةٍ تَتَعلَّقُ بِمَوارِدِ اللغَةِ الشِّعريَّةِ وبِالوَسيلَةِ التي يُمكِنُ بِها تَمييزُ هذهِ اللغةِ مِن العِبارَةِ الرَّمزيَّةِ أو العِلمِيَّةِ. فتِقْنِيَّةُ الرَّمزيَّةِ إحدَى الأَدَواتِ الأَساسيَّةِ لِعِلمِ جَمالِ الأَدَبِ.

ويُمكِنُ الوُقوفُ على أَهمِّيَّتِها العَمَليَّةِ عندَ تَطبيقِها في التَّعليمِ وفي النِّقاشِ بِعامَّةٍ؛ ذلكَ بِأنَّهُ عندَ إدراكِ تأثيرِ اللغَةِ في الفِكرِ، وعندَ التَّخلُّصِ مِن الأوهامِ النّاجِمَةِ عَمّا هوَ خَطأٌ مِن الاعتِقاداتِ اللغَويَّةِ، تُصبِحُ السَّبيلُ قاصِدَةً إلى مَناهِجَ لِلتَّأويلِ أكثَرَ إجداءً وإلى فَنٍّ لِلحِوارِ يُمكِنُ بِمُقتَضاهُ أن يَستَمتِعَ المُتواصِلُونَ بِشَيءٍ غيرِ الأَحجارِ والعَقارِبِ المألوفَةِ. [250]

التَّذييلُ A
في النَّحوِ

"المُجَرَّداتُ المُبهَمَةُ، والتَّعريفاتُ الطَّنّانَةُ معَ أنَّها في الأعَمِّ الأغلَبِ عَقيمَةٌ، والقَواعِدُ الكاذِبَةُ، وقَوائمُ الأشكالِ غيرُ المُستَساغَةِ: ما على المَرْءِ إلّا أن يُقَلِّبَ بِضعَ صَفَحاتٍ لأيِّ كِتابٍ مَدرَسيٍّ لِيَجِدَ عَيِّناتٍ مُختَلِفَةً مِن هذهِ الخَطايا المُنافِيَةِ لِلعَقلِ، والصِّدقِ، والتَّربيةِ". كانَتْ هذهِ كَلِماتٍ قاسِيَةً تتضَمَّنُ إدانَةَ القِسمِ الأعظَمِ مِن التَّعليمِ النَّحْويِّ المُعاصِرِ، لكِنَّ البروفيسور برُونو، على ما قَد رأيْنا آنِفًا في الفَصلِ العاشِرِ (ص350-351)، بَعدَ خَمسَ عَشرَةَ سَنَةً مِن نَشرِ هذهِ الكَلِماتِ[1] أمضاها في مَزيدٍ مِن العَمَلِ في التَّحليلِ اللغويِّ، لَم يَرَ ما يَدعوهُ إلى إجراءِ تَعديلٍ عليها. وإذا ما نَظَرْنا في ما وَقَفْنا عليهِ في تَضاعيفِ هذهِ الصَّفَحاتِ مِن خَليطٍ مِن الخُرافَةِ اللفظِيَّةِ، والفَلسفَةِ العَتيقَةِ، والمَنطِقِ الذي أُسيءَ فَهمُهُ، يُؤَدّي مهمَّةَ نَظريَّةٍ لِلوَظيفَةِ اللفظيَّةِ، فَلَن يُفاجِئَنا شُعورُ أوسَعِ الفيلولوجِيِّينَ اطِّلاعًا بِأنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ كَلِماتٌ قاسِيَةٌ أكثرَ مِمّا يَنبَغي في حَقِّ الزّادِ النَّحويِّ الذي ما زالَ طِفلُ القَرنِ العِشرينَ يَتَغذَّى عليهِ.

وبَعدَ أن قَدَّمَ برُونو أمثِلَةً لِلتَّصنيفِ النَّحويِّ الشّائعِ مُعَلِّقًا عليها بِقَولِهِ: "آهٍ! هذهِ التَّصْنيفاتُ النَّحْويَّةُ! يا لَها مِن نَماذِجَ نَضَعُها لِعُلومٍ أُخرَى!"، تابَعَ كَلامَهُ قائلاً:

> "مِثلُ هذا الخِطابِ اللَفظِيِّ نَلْحَظُهُ في التَّحليلِ الذي يُوصَفُ بِـ'النَّحْوِيِّ'، وهذا أنموذَجٌ لَهُ[2]: حَمَلُوا كُلَّ ذاكَ الذي وُجِدَ هُناكَ.

---

(1) *L'Enseignement de la Langue Française*, p. 3.

(2) أجرَيْنا على الأنموذَجِ الذي ساقَهُ برُونو هنا قَدْرًا يَسيرًا مِن التَّعديلِ لِيَكونَ مَفهومًا لِلقارِئِ =

فـ(كُلّ) كَلِمَةٌ لا تُعَرَّفُ إلّا بإضافتِها إلى غَيرِها، وهيَ مُفرَدٌ مُذَكَّرٌ لِتَحْديدِ ذاكَ (!!)؛

و(ذاكَ) اسمُ إشارَةٍ لا يَتعرَّفُ إلّا بِقَيْدِ الحُضورِ، وهوَ هُنا لِتَعيينِ مادَّةِ (!) المَفعُولِ بِهِ المُباشِرِ لِلفِعلِ حَمَلُوا؛

و(الذي) اسمٌ مَوصُولٌ لِلشَّخصِ الثّالِثِ الغائبِ، يَعُودُ عليهِ ضَميرُ نائبِ الفاعلِ لِلفِعلِ وُجِدَ؛

و(وُجِدَ) فِعْلٌ مَبْنِيٌّ لِلمَجهولِ لِتَعيينِ (؟!) ما هُوَ هُناكَ، نائبُ الفاعِلِ فيهِ ضَميرٌ شَخصِيٌّ (؟!) للشَّخصِ الثّالِثِ الغائبِ.

(مَنهَجُ الامتِحاناتِ لِسَنَةِ 1908 ص 302)

يا لَجَمالِ هذا النَّوعِ مِن الكَلامِ! تَصَوَّرُوا: ما هوَ غيرُ مُعَرَّفٍ تُوكَلُ إليهِ مهمَّةُ التَّعريفِ! [251]

فَاسْمُ الإشارَةِ ذاكَ يَحُلُّ بِالضَّرورةِ مَحَلَّ اسمٍ يُلَوَّحُ بِهِ مِن غيرِ أن يُذكَرَ! والاسمُ المَوصولُ، الذي أَخَذَ إمكانَ الشَّخْصِ والمَفعولِ بِهِ المُباشِرِ، أي المادَّةُ التي نتحدَّثُ عنها والتي أخَذَ فِعلُها صيغَةَ الفِعْلِ المَبْنِيِّ لِلمَجهولِ وُجِدَ، هوَ الذي في النِّهايَةِ قَد وَجَدَ نَفسَهُ!!".

وكَانَ تَعليقُهُ الأَخيرُ على النَّحوِ الآتي: "يَنتابُ المَرءَ مِنّا إشفاقٌ عَميقٌ حينَ يُفَكِّرُ في مِئاتِ الآلافِ مِن الأطفالِ الذينَ يُجبَرُونَ على أن يُقاسُوا تَعليمًا قائمًا على مِثلِ هذهِ الانحِرافاتِ"[3].

= العربيُّ؛ إذ إنَّ إيرادَ تَرجَمةٍ حَرفيَّةٍ لَهُ بِصورتِهِ التي هوَ عليها في الأصلِ الفَرَنسيِّ الذي ساقَهُ بِهِ أوغدن ورِتشاردز يَجعَلُ إدراكَ المتلقِّي العربيِّ الفِكرةَ المُرادَةَ منهُ التي قَصَدَ برُونو إيصالَها إلى قارِئِ كَلامِهِ غايَةً في العُسْرِ؛ ذلكَ بِأنَّ الأُنموذَجَ قَد سِيقَ على أساسٍ من المُصطَلَحاتِ والفَصائلِ النَّحويَّةِ التي تتعلَّقُ باللغةِ الفَرنسيَّةِ. على أنَّ ما أَجرَيْناهُ مِن تَعديلٍ لِهذا الأُنموذَجِ لا يَمَسُّ جوهَرَهُ، بل يَقتَصِرُ على تَسهيلِ إدراكِ الفِكرةِ الأَساسيَّةِ المقصودةِ منهُ. [المُترجِم]

(3) *Ibid.*, p. 12.

وقد كانَ سَعيُ اللِجانِ المُختَلِفَةِ المُتَخَصِّصَةِ في المُصطَلَحِ النَّحويِّ في بُلدانٍ مُختلِفَةٍ مُتَّجِهًا صَوبَ التَّخَلُّصِ مِن أكثرِ هذهِ السَّخافاتِ انتِشارًا، مُنذُ زَمَنِ مُؤتَمراتِ سنةِ 1906 في المُتحَفِ التَّعليمِيِّ في باريس. وكانَت تَوصِياتُ لجنَةِ اللُغَةِ الإنجليزيَّةِ قد صَدَرَتْ سنَةَ 1911، وتَبذِلُ الجَمعِيّاتُ اللغَويَّةُ المُختلِفَةُ الآنَ جُهودًا مِن أجلِ تَطبيقِها. على أنَّ مِثلَ هذا التَّطبيقِ تَكتَنِفُهُ مُشكِلَتانِ مُتمايِزَتانِ. تتمثَّلُ إحداهُما في التَّخلُّصِ مِن السَّخافاتِ الواضِحَةِ في المُصطَلَحِ النَّحويِّ لأيَّةِ لُغَةٍ مُعَيَّنَةٍ، أمّا ما يتعلَّقُ بالرَّغبَةِ في الحصولِ على مُصطَلَحٍ مُنَقَّحٍ وما يتعلَّقُ بِقيمَةِ عَمَلِ اللجنةِ في هذا المَجالِ فثَمَّةَ خِلافٌ قَليلٌ بشَأنِ ذلكَ إلى حَدٍّ مّا. أمّا المُشكِلَةُ الأُخرَى فتتعلَّقُ بـ"أهمِّيَّةِ أن يُتَبَنّى في كُلِّ تَدريسٍ لِلنَّحوِ مِن البِدايَةِ مُصطَلَحٌ قابِلٌ لِلاستِخدامِ، بِأقَلِّ قَدرٍ مِن التَّغَيُّرِ، لِيَفِيَ بِأغراضِ أيَّةِ لُغَةٍ أُخرَى تُتَعَلَّمُ فيما بَعْدُ"[4]. صَحيحٌ أنَّ "المُصطَلَحَ المُطَّرِدَ يُظهِرُ بِجَلاءٍ المَبادِئَ البِنائيَّةَ المُشتَرَكَةَ لِكُلِّ اللغاتِ المُتَقارِبَةِ الخَصائصِ، وأنَّ التَّنَوُّعَ غيرَ الضَّروريِّ في المُصطَلَحاتِ يُخفي الوَحدَةَ الحَقيقيَّةَ"[5]، لكِن يَجِبُ أن نتذَكَّرَ أنَّ إصرارَ النُّحاةِ الهِندوأورُبِّيِّينَ على التَّشابُهاتِ البِنائيَّةِ المُفتَرَضَةِ كانَ عائقًا أساسيًّا أمامَ عُلَماءِ الأعراقِ في دِراسَتِهِم لِلكَلامِ البِدائيِّ، ذلكَ الفَرعِ الأكثَرِ أهمِّيَّةً في مَوضوعِ بَحثِهِم. ومِن المُفيدِ أن يَكونَ في مِثلِ هذهِ المَجموعةِ مِن اللُغاتِ التي تَنتَمي إليها اللغةُ الإنجليزيَّةُ نِظامٌ لِتَعيينِ التَّشابُهاتِ[6]، لكِنَّ الأمرَ لا يَخلو مِن خَطَرِ إمكانِ

---

(4) *Report of Government Committee on Classics*, p. 163.

(5) *Report of Government Committee on Modern Languages*, p. 55.

(6) كَتَبَ البروفيسور جيسبرسن Jesperson يَقولُ في خِلافِهِ الذي سنُحيلُ عليهِ في نِهايَةِ هذا التَّذييلِ: "لا أعتَرِضُ بِكَلِمَةٍ واحدَةٍ على المُصطَلَحِ المُطَّرِدِ، لكِنّي أعتَرِضُ بِقُوَّةٍ على تَزييفِ حَقائقِ نَحوِ اللغةِ الإنجليزيَّةِ الذي كَثيرًا مّا يَكونُ نَتيجَةً لِلعُكوفِ على نَحوِ اللُغَةِ اللاتينيَّةِ ... فلجنَةُ المُصطَلَحِ النَّحويِّ تَجعَلُ اللُغاتِ الخَمسَ المُعالَجَةَ تَبدو أكثَرَ تَشابُهًا فيما بَينَها مِمّا هيَ عليهِ في الواقِعِ. وهُم يَتَحدَّثونَ عن حالاتٍ خَمسٍ في اللغةِ الإنجليزيَّةِ، على الرَّغمِ مِن أنَّ سُخفَ ذلكَ كانَ قد تَبيَّنَ جَليًّا لِمادفِغ Madvig مُبكِّرًا مُنذُ سَنَةِ 1841. ويُعَلِّقُ البروفيسور سونّينشاين Sonnenschein بِأنَّهُ إن كانَ هَمُّ اللجنَةِ تَيسيرَ النَّحوِ لا جَعلَهُ أكثَرَ تَعقيدًا فقد فَعَلوا هُنا ما هوَ مُعاكِسٌ تَمامًا لِما استَهدَفوهُ". وليسَ مِن الضَّروريِّ أن =

أن يُعَدَّ الاطِّرادُ [252] المُشَدَّدُ عليهِ على هذا النَّحوِ حَتمِيًّا في اللغةِ كُلِّها، وفي الفِكرِ نَفسِهِ حَقًّا. لِذلكَ كانَ طَبيعيًّا أن تَظهَرَ حَتميّاتُ التَّعبيرِ المَزعومةُ تلكَ بِوَصفِها انعِكاساتٍ لِلطَّبيعَةِ الفِعليَّةِ لِلأشياءِ المُتَحَدَّثِ عنها أَنْفُسِها.

ومِن المشكوكِ فيهِ مَدَى نَظَرِ النُّحاةِ بِوُضوحٍ في مُشكِلَةِ تَناظُرِ الرُّموزِ الكَلميَّةِ والأشياءِ، على ما أثارَهُ السَّيِّدُ برتراند رَسِل في مُقَدِّمَتِهِ لِكِتابِ فِتغِنشتاين Wittgenstein الذي عُنوانُهُ **رِسالَةٌ مَنطِقِيَّةٌ فَلسَفيَّةٌ** *Tractatus Logico-Philosophicus*. وقَد أُحصِيَتْ هناكَ أربَعُ مُشكِلاتٍ لُغَويَّةٍ:

"فالمُشكِلةُ الأولَى تتعلَّقُ بِحَقيقةِ ما يَحدُثُ في عُقولِنا حينَ نَستَعمِلُ اللغةَ قاصِدِينَ أن نَعنِيَ شَيئًا مّا مِن خِلالِها، وهذهِ المُشكِلَةُ مَرجِعُها إلى عِلمِ النَّفسِ. والمُشكِلَةُ الثّانيةُ تَتَّصِلُ بِحَقيقَةِ العَلاقَةِ بينَ الأفكارِ، أو الكَلماتِ، أو الجُمَلِ، وما تُحيلُ عليهِ أو تَعنيهِ، وهذهِ المُشكِلَةُ مَرجِعُها إلى نَظريَّةِ المَعرِفَةِ. أمّا ثالثةُ المُشكِلاتِ فلها عُلقَةٌ بِاستِعمالِ الجُمَلِ لِنَقلِ ما هوَ صِدْقٌ بَدَلاً مِن نَقلِ ما هوَ كَذِبٌ، وهذهِ المُشكِلَةُ مَرجِعُها إلى العُلومِ الخاصَّةِ التي تتعاملُ معَ مَوضوعِ دَرسِ الجُمَلِ المَعْنِيَّةِ. وأمّا المُشكِلَةُ الرّابعةُ فتتعلَّقُ بِالسُّؤالِ الذي مفادُهُ: ما العَلاقَةُ التي يَجِبُ أن تَكونَ بينَ واقِعَةٍ مّا (جُملَةٍ مَثلاً) وَواقِعَةٍ أُخرَى لِتَكونَ قابِلَةً لأن تُصبِحَ رَمزًا لِتلكَ الواقِعَةِ الأخرَى؟ وهذهِ المُشكِلَةُ الأخيرَةُ مُشكِلَةٌ مَنطِقيَّةٌ، وهي التي تُمَثِّلُ مَحَطَّ عِنايَةِ السَّيِّدِ فِتغِنشتاين. فَهوَ مَعنِيٌّ بِشُروطِ الرَّمزيَّةِ الدَّقيقَةِ، أي الرَّمزيَّةِ التي 'تَعني' فيها الجُملَةُ شَيئًا مّا مُحَدَّدًا تمامًا".

ونَحنُ مَعنِيُّونَ في هذا المقامِ بِالسُّؤالِ الرّابعِ، وكَثيرًا مّا بَدا إجراءُ النُّحاةِ- في مُعالَجَتِهِم المُسنَدَ إليهِ والمُسنَدَ على سبيلِ المِثالِ-، سَواءٌ أكانوا على عِلمٍ تامٍّ

= نَنحازَ إلى الميزاتِ التَّصنيفيَّةِ أو التَّعليمِيَّةِ لِـ'الحالاتِ cases' مِن أجلِ الاتِّفاقِ على أنَّ البَحثَ الفيلولوجيَّ في مَبدَإِ الاطِّرادِ لم يَكُنْ عَميقًا جِدًّا.

أم لم يَكونوا، أنَّهُ يَفتَرِضُ ضِمنِيًّا إجابَةَ فِتغِنشتاين بِقَولِهِ: "إنَّ تَشَكُّلَ الأشياءِ في الحالَةِ المَعْنِيَّةِ يُناظِرُ تَشكُّلَ العَلاماتِ البَسيطةِ في العَلامَةِ القَضَوِيَّةِ propositional sign"[7]. هذا الاستِنتاجُ غيرُ المَقبولِ يَستَنِدُ إلى المُطابَقَةِ الاعتِباطيَّةِ بينَ العَلاقَةِ غيرِ المُباشِرَةِ 'الرَّمْزِ إلى standing for'، التي سَبَقَتْ مُناقَشَتُها في الفَصلِ الأوَّلِ، والتَّمثيلِ representation. وجاءَ في الكتابِ، في القَضِيَّةِ 2,16 منهُ، ما يأتي: "مِن أجلِ أن تَكونَ واقِعَةٌ مّا رَسْمًا يَجِبُ أن يَكونَ فيها شَيءٌ مّا مُشتَرَكٌ معَ ما تَرْسُمُهُ"، وجاءَ فيهِ أيضًا 2,171: "بِإمكانِ الرَّسْمِ أن يُمَثِّلَ كُلَّ واقِعٍ لَهُ شَكلُهُ... 2,182، وكُلُّ رَسْمٍ هوَ رَسْمٌ مَنْطِقِيٌّ كذلكَ... 3، وإنَّ الرَّسْمَ المنطِقِيَّ للوَقائعِ هوَ الفِكرَةُ... 3,1، وفي القَضِيَّةِ يُعَبَّرُ عن الفِكرَةِ إدراكيًّا مِن خِلالِ الحواسِّ... 3,12، وأنا أُطلِقُ على العَلامَةِ التي نُعَبِّرُ عن الفِكرَةِ مِن خِلالِها اسمَ [253] العَلامَةِ القَضَوِيَّةِ. 3,2، ويُمكِنُ التَّعبيرُ عن الأفكارِ في القَضايا بِطريقَةٍ تُناظِرُ بِها عَناصِرُ العَلامةِ القَضَوِيَّةِ الأشياءَ التي تَدورُ حولَها الأفكارُ". وإذا ما فُهِمَتْ كُلُّ كلمةٍ في هذا النَّصِّ فَهمًا خاصًّا أُلفِيَ أنَّ هذهِ الأُطروحَةَ لِلحالِ الرَّمزِيَّةِ تُشبِهُ بَياناتِ الحُكَماءِ قَبلَ سُقراط، ثُمَّ إنَّ تَسمِيَتَها أُطروحَةً 'مَنطِقيَّةً' لا سايكولوجيَّةً تَسويغٌ غيرُ مُقنِعٍ عُمومًا.

ويَنطوي هذا الحِجاجُ على خطوَتَيْنِ. تَدَّعي إحداهُما أنَّها تَضمَنُ بِنيَةً مُشتركَةً في الأفكارِ والأشياءِ مِن أجلِ إيضاحِ كَيفيَّةِ إمكانِ أن تَكونَ فِكرَةٌ مّا 'عَنْ' شَيءٍ مّا. ولكِنْ إذا ما نُظِرَ إلى هذا الافتِراضِ لِلتَّناظُرِ في البِنيَةِ في ضَوءِ النظريَّةِ السَّبَبِيَّةِ فإنَّهُ يَكونُ غيرَ ضَرورِيٍّ وغيرَ مُحتَمَلٍ بِنِسبَةٍ عالِيَةٍ[8]. أمّا الخطوَةُ الأُخرَى المُتَمثِّلَةُ

---

(7) *Tractatus*, Prop. 3.21.

(8) هوَ لا يَكادُ يَقِلُّ في عَدَمِ مَقبوليَّتِهِ عَنِ الإيمانِ المُشابِهِ بِالتَّناظُرِ الصّارِمِ بينَ الكلماتِ والأشياءِ، الذي كَثيرًا مّا يَظهَرُ في كِتاباتِ فيلولوجِيِّي القَرنِ التّاسِعَ عَشَرَ، والذي رُبَّما كانَ قد قَرَّرَهُ مُؤكِّدًا إيّاهُ بِشِدَّةٍ دونالدسن Donaldson (*The New Cratylus*, p. 69) بِقَولِهِ: "نَحنُ نَجِدُ في الآليَّةِ الدّاخليَّةِ لِلُّغَةِ النَّظيرَ الدَّقيقَ لِلظَّواهِرِ العَقليَّةِ التي اعتَنَى كُتّابُ عِلمِ النَّفسِ اعتِناءً تامًّا بِجَمعِها وتَصنيفِها. فنَحنُ نَجِدُ أنَّ بِنيَةَ الكَلامِ الإنسانيِّ هيَ الانعِكاسُ التّامُّ أو الصُّورةُ التّامَّةُ لِما نَعرِفُهُ عن نِظامِ العَقلِ: فالوَصفُ واحِدٌ، وتَرتيبُ =

في التَّشديدِ على التَّناظُرِ بينَ بِنيَةِ العَلامَةِ القَضَوِيَّةِ وبِنيَةِ الوَقائعِ فهيَ حتَّى أكثَرُ جُرأةً وافتِقارًا إلى الأساسِ. ولا شَكَّ أنّا في الحالاتِ البَسيطَةِ، كما في حالةِ عَمَلِ المُخَطَّطاتِ وفي الرُّموزِ الكيميائيَّةِ والموسيقيَّةِ، يُمكِنُنا ضَمانُ دَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِن التَّناظُرِ؛ ذلكَ بِأنَّ عَناصِرَ مِثلِ هذهِ اللغَةِ التي تَعتَمِدُ على المُحاكاةِ تُشبِهُ العَلاماتِ البَسيطَةَ، على ما قد أشَرْنا إليهِ في الفَصلِ المذكورِ آنِفًا. وقَد شَهِدَتْ حالَةُ الرُّموزِ الكيميائيَّةِ والموسيقيَّةِ جُهدًا مُتَرَوِّيًا لأجيالٍ مِن العُلَماءِ في سَبيلِ قَسْرِ رُموزِهِم على أن تَكونَ في حالةِ تَناظُرٍ بَسيطٍ معَ الأشياءِ التي تَرْمِزُ إليها. ومَرَّةً أُخرَى نَقولُ إنَّهُ في أيِّ لِسانٍ بِدائيٍّ قد يَأتي زَمانٌ تُبدِي فيهِ لُغَةُ القَومِ، مِن خِلالِ ما تُنشِئُهُ مِن تَمييزاتٍ بَسيطةٍ وَسطَ الأشياءِ التي تُحيطُ بِهِم، مَجموعةً مُشابِهَةً مِن التَّمييزاتِ. على أنَّ التَّناظُرَ في هذهِ الحالةِ يَتحقَّقُ مِن خِلالِ مُناظَرَةِ الإحالاتِ لِلأشياءِ ومُناظَرَةِ أنواعِ الكَلِماتِ لأنواعِ الإحالاتِ. لكِن مِن الواضِحِ أنَّ لُغَةً كهذهِ لا يُمكِنُها أن تُواكِبَ التَّمييزاتِ الإضافيَّةَ في فِكرِهِم وتَعقيدَهُ المُتَنامِيَ. ومِن المُستَحسَنِ أن تَكونَ ثَمَّةَ أنواعٌ جَديدَةٌ مِن الكلماتِ وبِنًى لَفظيَّةٌ جَديدةٌ لِلجَوانبِ والبِنَى الجَديدَةِ التي يَرغَبونَ في تَمييزِها. لِذلكَ وَجَبَ إجهادُ الآليَّةِ القَديمَةِ واللُّجوءُ [254] إلى الكِياناتِ الخَياليَّةِ، النّاجِمَةِ عن عَناصِرَ وبِنًى لُغويَّةٍ لَم تَعُد تُؤَدِّي وَظيفَتَها المُلائمَةَ وإنَّما أصبَحَت تَخدمُ، بِغَيرِ كِفايَةٍ، أغراضًا لَم تُنْشَأْ مِن أجلِها في الأصلِ. وهكذا تَبدو كَلِمَةُ 'طاقَة Energy' في الفيزياءِ الحَديثةِ الكَلِمَةَ الخَطَأَ لِلمَراجِعِ المَعْنِيَّةِ، وليسَ مِن المُحتَمَلِ أن تكونَ أيَّةُ كَلمةٍ أُخرَى تَنتَمي إلى أيٍّ مِن أبوابِ النَّحوِ المَعروفَةِ أكثَرَ مُلاءَمَةً مِنها. ويُمَثِّلُ هذا سَبَبًا في بَعضِ صُعوباتِ نَظَريَّةِ الكَمِّ.

إنَّ مُحاوَلَةَ تَعميمِ الحالاتِ الاستِثنائيَّةِ التي يَحدُثُ فيها تَناظُرٌ جُزئيٌّ بينَ

= الخَصائصِ واحدٌ، ومَجموعةُ المُصطَلَحاتِ التي تُستَعمَلُ فيهِما واحِدَةٌ، ويُمكِنُ أن نَجعَلَ مِن رِسالَةٍ في فَلسَفةِ العَقلِ رِسالَةً في فَلسَفةِ اللغةِ بِمُجَرَّدِ افتِراضِ أنَّ كُلَّ ما يُقالُ في أولاهُما عن الأفكارِ بِوَصفِها ذاتيَّةً يُقالُ مَرَّةً أُخرَى في أُخراهُما عن الكَلِماتِ بِوَصفِها مَوضوعيَّةً'.

الرُّموزِ والمَراجِعِ وجَعلِها حَتمِيَّةً في كلِّ تَواصُلٍ أمرٌ غيرُ صَحيحٍ. ولا يُمكِنُ حَسمُ مَدَى التَّناظُرِ في أيَّةِ حالةٍ مُعْطاةٍ إلّا بِوَساطَةِ تَحقيقٍ تَجريبيٍّ، لكِنَّ نتيجَةَ مِثلِ هذا التَّحقيقِ غيرُ مَشكوكٍ فيها. وقد يَمنَحُ هذا التَّناظُرُ أنظِمةَ الرُّموزِ العِلميَّةَ نِطاقًا ودِقَّةً مُتعاظِمَيْنِ تَعاظُمًا واسِعًا، ويَجعَلُهُما طَيِّعَيْنِ لِلعَمليّاتِ الاستِدلاليَّةِ، لكِنَّهُ لا يَكونُ مُمكِنًا إلّا حينَ يَكونُ مَقصورًا على أبْسَطِ السِّماتِ وأكثرِها نِظاميَّةً، كالعَلاقاتِ العَدَدِيَّةِ والمَكانيَّةِ. وعادَةً مّا تَستَغني اللغَةُ الاعتِياديَّةُ عن ذلكَ، فتَخْسَرُ بِذلكَ على مُستَوَى الدِّقَّةِ لكِنَّها تَرْبَحُ على مُستَوَياتِ المُرونَةِ، والسُّهولَةِ، واليُسْرِ. ثُمَّ إنَّ الخَسارَةَ ليسَتْ بِالقَدرِ الكَبيرِ المُتَخَيَّلِ أحيانًا؛ ذلكَ بِأنَّ إجهادَنا لِلُّغَةِ يُمَكِّنُنا مِن النَّجاحِ في إنشاءِ الإحالاتِ والتَّواصُلِ بِها، على الرَّغمِ مِن الصِّفَةِ المُضَلِّلَةِ لِرُموزِنا إذا ما أُخِذَتْ حَرفِيًّا[9]. ورَأَى بَعضُ الباحِثِينَ، مِثلُ فِتْغِنِشتاين نَفسِهِ، أنَّ إمكانَ هذا التَّناظُرِ وعَدَمَ إمكانِ فَعلِ ما هوَ أكثَرُ مِنهُ يُؤَدِّي إلى الاستِياءِ مِن اللغةِ، وإلى صوفِيَّةٍ مُضادَّةٍ لِلميتافيزيقا. في حينِ أنَّ باحِثِينَ آخَرِينَ، مِثلَ برغسون Bergson[10]، رَأَوا أنَّ عَدَمَ الإمكانِ المَزعومَ لِهذا التَّناظُرِ [255] المُستَنِدِ إلى الطَّبيعَةِ المُفتَرَضَةِ لِلواقِعِ، يُؤَدِّي إلى نَمَطٍ آخَرَ مِن الاستِياءِ، وإلى ميتافيزيقا صُوفِيَّةٍ.

(9) أخذُ استِعارَةٍ مّا أو ما أُضفِيَ عليهِ بُعْدٌ مادِّيٌّ مَأخَذًا 'حَرفِيًّا' يَعني إغفالَ حَقيقَةِ أنَّ الرَّمزَ أو المُكَمِّلَ الرَّمْزِيَّ لا يُستَعمَلُ استِعمالاً أصليًّا. يُنظَر: الفَصلُ الخامِس، القانونُ الثّالِث مِنهُ.

(10) *Introduction to Metaphysics*, pp. 40-41. "يَعْمَلُ التَّحليلُ على الدَّوامِ في ما هوَ ثابِتٌ، في حينِ أنَّ عَمَلَ الحَدْسِ يَتَموضَعُ في التَّحَرُّكِ، أو، بِما يَؤُولُ إلى الأمرِ نَفسِهِ، في الاستِمراريَّةِ. وهُنا يَكمُنُ الخَطُّ الفاصِلُ المُمَيِّزُ جِدًّا بينَ الحَدْسِ والتَّحليلِ. فما هوَ واقِعِيٌّ، ومُجَرَّبٌ، ومَلموسٌ يُمَيَّزُ بِحقيقةِ أنَّهُ التَّغَيُّرُ بِعَينِهِ، ويُمَيَّزُ العُنصُرُ بِحَقيقَةِ أنَّهُ ثابِتٌ. ويَكونُ العُنصُرُ ثابِتًا بِالتَّعريفِ، أو بِأن يَكونَ مُخَطَّطًا، أو بِإعادَةِ بِناءٍ مُبَسَّطَةٍ، أو بِمُجَرَّدِ رَمزٍ في أحيانٍ كَثيرَةٍ، وعلى أيَّةِ حالٍ بِنَظرَةٍ ساكِنَةٍ لِواقِعٍ مُتَحرِّكٍ . . . ويَكمُنُ الخَطَأُ في اعتِقادِ أنَّ بِمَقدورِنا إعادَةَ بِناءِ الواقِعِ بِهذهِ المُخَطَّطاتِ".

ومِن المُثيرِ فيما يَتَّصِلُ بِهذهِ المَذاهِبِ الصُّوفيَّةِ وبِتَسويغِها اللغويِّ تَذَكُّرُ مُشكلَةِ الفَلسَفَةِ المَدرَسِيَّةِ scholastic المُتعلِّقَةِ بِـ: الخاصِّيَّةِ الإلهِيَّةِ التي مِن غَيرِ المُمْكِنِ تَسمِيَتُها. ولم يَرتَضِ بونافنتُورا S. Bonaventura عَقيدَةَ الكُهّانِ التي تَرَى أنَّ الإلهَ مِن غَيرِ المُمكِنِ =

وقد تَبدو هذهِ الكُلِّيّاتُ في نَظَرِ النَّحْوِيِّ بَعيدَةً، لِكِنَّهُ، مَعَ ذلكَ، لا يَستَطيعُ تَكوينَ رَأيٍ بِشَأنِ العَلاقاتِ التي بينَ اللغةِ والحَقيقَةِ، أو تَكوينَ قاعِدَةٍ لِدراسةِ الوَظيفَةِ اللغويَّةِ الصَّحيحَةِ بِالمَعنَى الذي عُرِّفَتْ بِهِ في الفَصلِ العاشِرِ (التي، لا شَكَّ، تَختَلِفُ عَن وَظائفِ الكَلِماتِ عندَ تَكوينِ الجُمَلِ) مِن غيرِ إثارَةِ هذهِ المَسائلِ.

ويُمكِنُنا أن نتَّخِذَ مِن مُشكِلَةِ القَضِيَّةِ proposition وعَلاقَةِ المَوضوعِ بِالمَحمولِ مِثالاً نموذَجِيًّا لِوَظيفَةٍ لُغَوِيَّةٍ افتَرِضَ أنَّها مُستَمَدَّةٌ مِن سِمَةٍ أساسيَّةٍ مِن سِماتِ الواقِعِ، وأنَّها قابِلَةٌ لِلمُعالَجَةِ المُباشِرَةِ بِالفَهْمِ المُشْتَرَكِ مِن غيرِ لُجوءٍ إلى نَظريَّةٍ إحاليَّةٍ. وما دامَتْ جَميعُ وِجهاتِ النَّظَرِ التَّقليديَّةِ المُتَعلِّقَةِ بهذا الأمرِ تَرجِعُ إلى أرِسطو فَيَجدُرُ بِنا أن نستَذْكِرَ الطَّريقَةَ التي حَدَثَتْ بِها مُقارَبَتُها أوَّلَ مَرَّةٍ. إذ يَذكُرُ أوضَحُ شُرّاحِ فَلسَفتِهِ المُعاصِرِينَ أنَّ ما تَدُلُّ عليهِ الكَلماتُ عندَ أرِسطو (مُفرَدَةً كانَتْ أم مُرَكَّبَةً) هوَ تَنَوُّعٌ في المُيُولِ العَقليَّةِ[11]، "أو في الوَقائعِ التي تُمَثِّلُها. لكِنَّ دَلالَةَ حَدٍّ مّا تُمَيَّزُ في نُقطَةٍ مُهِمَّةٍ مِن دَلالَةِ الحُدودِ المُقتَرِنَةِ التي نَدعُوها قَضِيَّةً. إنَّ الاسمَ، أو الفِعلَ الذي يَنتَمي إلى الكُتلَةِ التي تُدعَى اللغةَ يَرتَبِطُ بِتَخَيُّلٍ واحِدٍ أو بِفِكرَةٍ واحِدَةٍ، مِن غيرِ أيِّ فِعلٍ واعٍ اقتِرانيٍّ أو انفِصاليٍّ، في عُقولِ المُتَكلِّمِينَ والمُستَمِعِينَ: فحينَ يُلفَظُ يُوقِفُ مُدَّةً مُعيَّنَةً تَدَفُّقَ الأفكارِ المُتَرابِطَةِ، ويَحْمِلُ العَقلَ على التَّفكيرِ مَلِيًّا في هذهِ المَجموعَةِ المَخصوصَةِ التي تُدْعَى مَعْنَاهُ. ولكِنَّ كُلّاً مِن الاسمِ والفِعلِ، إذا ما أُخِذَ بِمُفرَدِهِ، لا يَفعَلُ شيئًا فَوقَ ذلكَ؛ فما مِن أحَدٍ مِنهُما يُؤَكِّدُ، أو يَنفي، أو يُوَصِّلُ أيَّةَ مَعلومَةٍ صادِقَةٍ أو

= 'تَسْمِيَتُهُ'، فَمِنْ ثَمَّ قَدَّمَ ثَلاثَةَ أسبابٍ نابِعَةً مِن طَبيعَةِ اللغةِ نَفسِها لِهذا الاستِنتاجِ السّالِبِ؛ أوَّلُها (أنَّ اللهَ غيرُ مَحدودٍ واللغَةَ مَحدودَةٌ)؛ وثانيها (أنَّ اللهَ لا شَكلَ لَهُ)، وثالِثُها (أنَّ اللهَ جَوهَرٌ خالِصٌ لا صِفَةَ لَهُ).

(11) حيثُما وَجَدَ الفَلاسِفَةُ المَدْرَسِيُّونَ عندَ تعليقِهِم على كِتابِ **في التَّأويل (العِبارَة)** *De Interpretatione* الإحالَةَ على المُيُولِ النَّفْسِيَّةِ، وَضَعُوا على نَحوٍ مُمَيَّزٍ بَدَلاً مِنها التَّصَوُّراتِ العَقلِيَّةَ بِرُوحِيَّةِ ثُنائيَّةِ الاسمِيَّةِ-الواقعيَّةِ. (c.f. Duns Scotus *D.I.*, III., § 3).

كاذِبَةٍ. مِن أجلِ ذلكَ وَجَبَ علينا أن نَربِطَ الاثنَيْنِ مَعًا على نَحوٍ مّا، لِتُكَوِّنَ قَضِيَّةً. وبِذلكَ تَكونُ دَلالَةُ القَضِيَّةِ مُتَمَيِّزَةً بِوُضوحٍ مِن دَلالَةِ كُلٍّ مِن عُنصُرَيْها المُكَوِّنَيْنِ لَها. فهِيَ تُوَصِّلُ ما يُفهَمُ مِنهُ الواقِعُ، الذي قد يَكونُ صادِقًا أو كاذِبًا، وبِعِبارَةٍ أخرَى إنَّها تُضَمِّنُ عندَ المُتَكلِّمِ، وتُثيرُ عندَ المُستَمِعِ، حالةَ الاعتِقادِ أو عَدَمِ الاعتِقادِ، التي لا تَلْحَقُ الاسمَ أو الفِعلَ عندَ انفِرادِهِما. وهذا المَوضِعُ هوَ ما يُمَيِّزُ القَضِيَّةَ مِن الأنساقِ الدّالَّةِ الأُخرَى لِلكَلماتِ (كجُملَتَي الدُّعاءِ والاستِفهامِ اللتَيْنِ لا تُفيدانِ صِدقًا ولا كَذِبًا)، ومِن جُزأَيْها المُكَوِّنَيْنِ لَها كذلكَ. [256] ولِكُلٍّ مِن هذَيْنِ الجُزأَيْنِ، الاسمِ والفِعلِ، دَلالَةٌ خاصَّةٌ بِهِ، لكِنَّهُما العُنصُرانِ النِّهائيّانِ لِلكَلامِ؛ إذ إنَّ أجزاءَ الاسمِ أو الفِعلِ لا دَلالَةَ لَها البَتَّةَ"[12].

ويُمكِنُ أن يُتَلَمَّسَ في هذا النَّصِّ كُلُّ الشَّكِّ والتَّرَدُّدِ اللذَيْنِ اكتَنَفا ما قَدَّمَهُ كُلٌّ مِن النُّحاةِ والمَناطِقَةِ مُنذُ زَمَنِ أرِسطو. ومِن الواضِحِ أنَّ مَوطِنَ الشَّكِّ هوَ: أعَلَى 'المُيولِ العَقليَّةِ' تَدُلُّ الكَلِماتُ أم عَلَى الوَقائعِ التي 'تُمَثِّلُها'، والخَلْطُ بينَ الصِّفَةِ التَّقريريَّةِ لِلقَضِيَّةِ (التي تُستَعمَلُ هُنا مُرادِفَةً لِلجُملةِ) وحالاتِ الاعتِقادِ وعدَمِ الاعتِقادِ التي قد تَحدُثُ مُتَّصِلَةً بِها.

فأمّا المَصدَرُ الأوَّلُ لِلخَلطِ فقد عالَجْناهُ بِتَفصيلٍ تامٍّ، وأمّا الثّاني فيتطلَّبُ المزيدَ مِن الاهتِمامِ إذا ما أُريدَ اجتِنابُهُ. إذ لم يَفعَلِ البَحثُ السّايكولوجيُّ الحديثُ، ولا سِيَّما في مَجالِ طَبيعَةِ الإيحاءِ وتأثيراتِ العقاقيرِ في المَشاعِرِ، شَيئًا لإبطالِ وِجهَةِ نَظرِ وِلْيَم جَيْمس William James بشأنِ عَلاقَةِ الاعتِقادِ بالإحالةِ. إذ "إنَّ الاعتِقادَ أو الإحساسَ بِالواقِعِ هوَ، في طَبيعَتِهِ الدّاخليَّةِ، نَوعٌ مِن الشُّعورِ مُلتَحِمٌ بِالعَواطِفِ أكثرَ مِن التِحامِهِ بِأيِّ شَيءٍ آخَرَ". والاعتِقادُ وعَدَمُ الاعتِقادِ بِوَصفِهِما مُقابِلَيْنِ لِلشَّكِّ "يُمَيِّزُهُما اتِّكاؤُهُما على الجانِبِ العَقليِّ الخالِصِ"، وهُما "مُرتَبِطانِ ارتِباطًا وَثيقًا بِفَعّاليَّةٍ عَمَليَّةٍ لاحِقَةٍ"[13]. فكأنَّ الاعتِقادَ وعَدَمَ الاعتِقادِ، والشَّكَّ والتَّساؤُلَ، هيَ ما يُسَمَّى هذهِ الأيّامَ الخَصائصَ التَّأثيريَّةَ-

(12) Grote, *Aristotle*, Vol. I., 157.

(13) *Principles of Psychology*, Vol., II., p. 284.

الإراديَّةَ لِلحالاتِ العَقليَّةِ، وبِذلكَ تَكونُ قابِلَةً نَظريًّا لِلفَصلِ عن الحالاتِ التي تُلْحَقُ بِها. أي إنَّ الإحالةَ الواحِدَةَ قد يَصحَبُها الاعتِقادُ تارَةً، وعَدَمُ الاعتِقادِ أو الشَّكُّ تارَةً أُخرَى. مِن أجلِ ذلكَ، وبِالقَدرِ الذي تَكونُ بِهِ اللغةُ مُعَدَّلَةً بِطَبيعَةِ المَشاعِرِ الاعتِقاديَّةِ الحاضِرَةِ، تَأتي هذهِ التَّعديلاتُ تَحتَ عُنوانِ التَّعبيرِ عن المَوقِفِ مِن المَرجِعِ، وهذهِ هيَ الوَظيفَةُ الثّالثةُ لِلُّغَةِ المُبَيَّنَةُ في الفَصلِ العاشِرِ.

هذا الفَصلُ يُعينُ كَثيرًا على إجراءِ تَحليلٍ واضِحٍ لأَهَمِّ خَصيصَةٍ لِلقَضِيَّةِ، أي الطَّريقَةِ التي يَبدو أنَّها تَرمِزُ بِها إلى التَّقريرِ، أي تَرْمِزُ إلى مَوضُوعٍ فِكريٍّ تامٍّ، وهيَ خَصيصَةٌ تَفتَقِرُ إليها أجزاءُ الجُملَةِ البَسيطَةِ. فالاسمُ بِمُفرَدِهِ أوالفِعلُ بِمُفرَدِهِ يَختَلِفُ بِطَريقَةٍ أو بِأُخرَى عن النَّتيجَةِ الكُلِّيَّةِ الحاصِلَةِ بِضَمِّ أحَدِهِما إلى الآخَرِ على نَحوٍ مُناسِبٍ، وهذا الاختِلافُ كانَ النُّقطةَ المِحوَريَّةَ التي لم يَقتَصِرْ أمرُ الاعتِمادِ عليها على التَّحليلِ النَّحويِّ، بل كانَ طَرَفًا في ذلكَ أيضًا المَنطِقُ والفَلسفةُ مُنذُ زَمَنِ أرِسطو.

وقد تَفاقَمَ الخَلطُ بِتَقديمِ مُشكِلَةِ الصِّدْقِ في وَضعٍ غيرِ مَحلولٍ. إذ عُدَّتِ القَضايا بِلا استِثناءٍ تَقريبًا المَوضوعاتِ الوَحيدَةَ التي [257] تُطَبَّقُ فيها كَلِمَتا 'صِدْق' و'كَذِب' على نَحوٍ مُلائمٍ، وإنْ كانَ هذا الإجماعُ قَد حَجَبَتْهُ إلى حَدٍّ مّا اختِلافاتُ وِجهاتِ النَّظَرِ بِشَأنِ أمرٍ هوَ: آلقَضايا الصّادِقَةُ هيَ التي تُعَبِّرُ عن اعتِقاداتٍ صادِقَةٍ، أم الاعتِقاداتُ الصّادِقَةُ هيَ التي تَكونُ مَوضوعاتُها قَضايا صادِقَةً؟ وفي خِضَمِّ هذهِ الخِلافاتِ تُهَيِّئُ التَّحَوُّلاتُ المُختَلِفَةُ لِرَمزِ 'القَضِيَّة'، بِرَمزِها تارَةً إلى الجُملَةِ، وتارَةً ثانيَةً إلى المَرجِعِ، وتارَةً ثالِثَةً إلى خَصيصَةٍ عَلاقِيَّةٍ لِفِعلٍ ذِهنِيٍّ أو لِعَمَليَّةٍ ذِهنِيَّةٍ، مَيدانًا شائقًا لاكتِشافِ عِلمِ الرَّمزِيَّةِ. ولكِنْ في ضَوْءِ ما ذَكَرْناهُ آنِفًا في الفَصلِ الثّالثِ بِشأنِ تَحليلِ الفُروقِ التي تُمَيِّزُ الرُّموزَ المُعَقَّدَةَ مِثلَ 'الثَّلجُ يُبَرِّدُ' مِن الرُّموزِ البَسيطَةِ مِثلِ 'الثَّلج' و'يُبَرِّدُ' اللذَيْنِ يُؤَلِّفانِهِ، نَجِدُ أنَّ التَّعقيداتِ الظّاهِرَةَ النّاجِمَةَ عن تَقديمِ الصِّدْقِ لا تُنشِئُ صُعوبَةً مّا. فَما هيَ إلّا إعادَةُ تَسمِيَةٍ مُحَيِّرَةٌ لِلمُشكِلَةِ بِفِعلِ التَّناظُرِ غَيرِ التّامِّ.

وتُفيدُ نَظريَّةُ العَلاماتِ أنَّهُ ما مِن إحالةٍ، مَهما تَكُنْ بَسيطَةً، إلّا وهيَ صادِقَةٌ

أَو كاذِبةٌ، وأَن ليسَ ثَمَّةَ فَرقٌ في هذا بينَ الإحالةِ التي يُرمَزُ إليها بـ'الثَّلج' والتي يُرمَزُ إليها بـ'الثَّلجُ يُبَرِّدُ.' ويَنبَغي أَن يُصانَ هذا الإطلاقُ مِن التَّأويلِ الفائقِ التَّسرُّع. إذ يَسْهُلُ استِعمالُ كَلِماتٍ مُفرَدَةٍ على نَحوٍ لا تَكونُ فيهِ رُموزًا، ومِن ثَمَّ لا تَرْمِزُ إلى شَيءٍ البَتَّةَ. فإذا ما كانَ ذلكَ فلا شَكَّ في إمكانِ نُشوءِ صُوَرٍ مُبعثَرَةٍ وماجَرَياتٍ ذِهنِيَّةٍ أُخرَى، وما لَم نَكُنْ حَذِرِينَ في استِعمالِنا مُصطَلَحَ 'مَعْنًى' فقد نَفتَرِضُ حينَئذٍ أَنَّ الكَلِماتِ غيرَ الرَّمزيَّةِ المُتَناوَلَةَ على هذا النَّحوِ لَها مِن المَعنَى تَمامًا مِثْلُ ما لها مِنهُ وبِالقَدرِ نَفسِهِ حينَ تَكونُ حاضِرَةً على نَحوٍ رَمزِيٍّ في القَضِيَّةِ. إنَّ الكَلمةَ المُفرَدَةَ، اسْمًا كانَتْ أَم فِعلاً، لا يَكونُ لَها مَعنًى على الوَجهِ المَطلوبِ هُنا إلّا حينَ تُؤخَذُ على نَحوٍ تَدخُلُ بِهِ في تَنافُسٍ إحالِيٍّ مِن النَّوعِ الاعتِياديِّ، ولا تَكونُ مُكَوِّنًا رَمزِيًّا (على النَّحوِ الذي يُمَيَّزُ بِهِ مِن المُكَوِّنِ الانفِعاليِّ) لِقَضِيَّةٍ إلّا إذا أُخِذَتْ على هذا النَّحوِ. وكُلُّ كَلِمةٍ نُظِرَ فيها على هذا النَّحوِ تَكونُ، بِوَصفِها رَمزًا لإحالَةٍ على حالَةٍ مّا، قابِلَةً لِلصِّدْقِ والكَذِبِ، وهيَ بِهذا لا تَختَلِفُ بِحالٍ عن الجُملَةِ المُستَعمَلَةِ رَمزِيًّا لأَغراضِ التَّقريرِ.

لِذلكَ مازالَ علينا أن نَنظُرَ: أَينَ يَكمُنُ الفَرقُ المُمَيِّزُ بينَ الكَلِماتِ المُفرَدَةِ والجُمَلِ؟ وسنَجِدُ، على ما هوَ مُتَوَقَّعٌ مِن طَبيعَةِ الحالِ الرَّمزِيَّةِ، أَنَّ ثَمَّةَ عِدَّةَ فُروقٍ لا فَرقًا واحِدًا، وأَن ليسَ أَحَدُ هذهِ الفُروقِ بِكَثيرِ الحُضورِ ولا بِحَتمِيِّهِ على الرَّغمِ مِن أَنَّ بَعضَها يُمكِنُ القَولُ إنَّهُ مُتَضَمَّنٌ على نَحوٍ طَبيعيٍّ[14]. فإحالاتُ الرُّموزِ، في المَقامِ الأَوَّلِ، [258] كَثيرًا مّا تَختَلِفُ بِنائيًّا. فلَمّا كانَ لإحالةِ 'القُبَّراتُ تَترَنَّمُ' مُكَوِّنانِ اثنانِ اختَلَفَتْ عن إحالةِ 'القُبَّرات'، كما اختَلَفَتْ عنها إحالَتا 'القُبَّرات المُحَلِّقَة' و'فَطِيرَة القُبَّرةِ'، لِكَونِهِما إحالَتَيْنِ ثُنائيَّتَيْنِ أَيضًا. لِذلكَ لم يَكُنْ هذا الفَرقُ أَساسيًّا، على الرَّغمِ مِن أَنَّ مُعظَمَ الإحالاتِ المُعَقَّدَةِ تَستَعمِلُ، في الحَقيقَةِ، الصُّورَةَ القَضَوِيَّةَ. أَحَدُ أَسبابِ استِعمالِ هذهِ الصُّورَةِ هوَ أَنَّها الوَسيلةُ

---

(14) يُمَيِّزُ شفيلد Sheffield في كِتابِهِ (النَّحوُ والتَّفكيرُ *Grammar and Thinking*، ص 34) هذهِ الوَظيفَةَ المُرَكَّبَةَ لِلتَّركيبِ الاسميِّ-الفِعليِّ بِوَصفِها سِمَةً مُهِمَّةً لِلتَّحليلِ، وإنْ احتُمِلَ أن يَكونَ استِعمالُهُ كَلِمَةَ 'مَعْنًى' قد حَجَبَ قِيمَةَ تَمييزاتِهِ عن النُّحاةِ الذينَ يَنتَقِدُهُم .

الطَّبيعيَّةُ التي يُرَمَّزُ بِها اجتِماعُ الإحالاتِ المُكَوِّنَةِ في الحالاتِ التي يَكونُ فيها اللَّبْسُ مُمكِنًا. فالجُملَةُ هيَ الآليَّةُ الرَّمزيَّةُ الأساسيَّةُ لكِنَّها ليسَت الوَحيدَةَ التي بِها يُجعَلُ اجتِماعُ الإحالاتِ واضِحًا. وهذا هوَ ما يُوصَفُ عادَةً بأنَّهُ الوَظيفَةُ 'التَّركيبيَّةُ' لِلقَضِيَّةِ[15]، وهوَ مُصطَلَحٌ غيرُ مُرْضٍ؛ ذلكَ بِأنَّ الأنساقَ اللفظيَّةَ التي لَيسَتْ على الصُّورَةِ القَضَوِيَّةِ مِثلَ 'فَطِيرَة القُبَّرةِ' أو 'فَطِيرَة القُبَّرةِ هذهِ'[16]- مُساوِيَةٌ لَها في تَركيبيَّتِها. وقد كانَ التَّعبيرُ عن جَميعِ القَضايا في المَنطِقِ بِصيغَةِ المَوضوعِ-الرَّابِطَةِ-المَحمول مُواضَعَةً الغايَةُ مِنها اجتِنابُ اللَّبْسِ، وإنْ كانَ المَناطِقَةُ المُعاصِرُونَ قَد رَأوا أنَّ القَضايا العَلاقِيَّةَ تَقتَضي مُواضَعاتٍ أكثرَ تَفصيلاً.

غيرَ أنَّ لِلجُملَةِ كذلكَ أداءً انفِعاليًّا بِطَرائقَ مُختلِفَةٍ[17]. فَهيَ المَنحَى التَّقليديُّ لِلمُخاطَبَةِ، ما دامَ المُستَمِعُونَ يتوقَّعُونَ إشارَةً خاصَّةً إلى أنَّ ثَمَّةَ إحالَةً

---

(15) Cf. *e.g*., Baldwin's treatment in *Thought and Things*, Vol. II., Experimental Logic, p. 262.

(16) C.f. C. Dickens, *Works*, Autograph Edition, 1903, Vol. I., p.16.

(17) يُعاوِدُ المُسنَدُ إليهِ والمُسنَدُ الظُّهورَ عندَ هذهِ النُّقطةِ في كِتاباتِ المُشتَغِلينَ بِعِلمِ النَّفسِ اللُّغَويِّ المُعاصِرينَ في لايبزغ Leipzig، البروفيسور ديتريتش Dittrich وأتباعِهِ. إذ يَبدو أنَّ الـ *Generalsubjekt* أو الـ *Protosubjekt* يُطابِقُ على نَحوٍ كَبيرِ المَرجِعَ في اصطِلاحِنا، في حينِ أنَّ الـ *Generalprädikat* أو الـ *Protoprädikat* هوَ المَوقِفُ (التَّصديقُ، أو الشَّكُّ، أو الرَّغبَةُ، أو أيَّةُ عاطِفَةٍ أُخرَى) المُتَبَنَّى تجاهَ هذهِ الحالَةِ. ويُمَثِّلُ الـ *Protosubjekt* ثابِتًا (Dittrich, in his *Probleme*, p. 61)، في حين يُمَثِّلُ الـ *Protoprädikat* مُتَغيِّرًا. وبالقِياسِ إلى هذَينِ المُكَوِّنَيْنِ يُعَدُّ 'المُسنَدُ إليهِ' و'المُسنَدُ' في المَرتَبَةِ الثّانيةِ مِن حيثُ المُلاءَمَةُ، و'الاسمُ' و'الفِعلُ' في المَرتَبةِ الثّالثةِ. فقولُنا: "Fall in Home Rails"، على وَفقِ هذا الرَّأيِ، يُمَثِّلُ جُملَةً، والـ *Protosubjekt* الخاصُّ بِها هو "fall in Home Rails"، والـ *Protoprädikat* هوَ شُعورٌ بالتَّصديقِ. وبِذلكَ تَكونُ الجُملَةُ غيرَ مُشتَمِلَةٍ على مُسْنَدٍ إليهِ [فاعِلٍ] مُعَبَّرٍ عنهُ: فَـ 'fall' يُعَدُّ *Prädikativum* لاإشارِيًّا لاشَخصِيًّا. ويُقالُ إنَّ السَّبَبَ في كَونِ فاعِلِ 'fall' غيرَ مُعَبَّرٍ عنهُ هوَ أنَّهُ ليسَ ذا فائدَةٍ هُنا، ويَجِبُ، على وَفقِ هذا الرَّأيِ، البَحثُ عنهُ في كلِّ ما هوَ قابِلٌ لِلسُّقوطِ falling، في الأساسِ *Aussagegrundlage*. ولَسْنا مَعنِيِّينَ هُنا بِهذهِ التَّفصيلاتِ، ونُحيلُ القارِئَ على التَّذييلِ D وعلى كِتابِ ديتريتش لِلاطِّلاعِ على مُصطَلَحاتِ غومبيرز Gomperz التي يَستَنِدُ =

تُنشَأُ قبلَ أن يُصيخُوا أَسماعَهُم على نَحوٍ إدراكِيٍّ. ثُمَّ إنَّها العَلامَةُ اللفظيَّةُ التَّقليديَّةُ لِحُضورِ الاعتِقادِ، أي مَشاعِرِ القَبولِ أو الرَّفضِ أو الشَّكِّ، عندَ المُتَكلِّمِ؛ ومُثيرَةٌ لِمَشاعِرَ مُشابِهَةٍ عندَ [259] المُستَمِعِ. ولا شَكَّ في أنَّها قَد تُعَبِّرُ كذلكَ عن مَقاصِدِ المُتكلِّمِ ورَغَباتِهِ وما إلى ذلكَ، التي سيتَبَنّاها المُستَمِعُ.

وبِوُجودِ هذا البَيانِ لِلجُملةِ بينَ أيدينا يُمكِنُنا أن نَنظُرَ في وِجهةِ النَّظرِ التَّقليدِيَّةِ، ما يتعلَّقُ مِنها بِتَمييزِ الاسمِ مِن الفِعلِ وما يتعلَّقُ بِضَرورةِ رَبطِهِما مَعًا في كُلِّ تَقريرٍ. وهناكَ ما يَدعو إلى افتِراضِ أنَّ فَصلَ الأسماءِ عن الأفعالِ في اللغاتِ البِدائيَّةِ يَعكِسُ تَمييزَ أَفعالِ المُتَكلِّمِ مِن الأشياءِ المُحيطَةِ بِهِ. وفي مَرحَلَةٍ تاليةٍ استُعمِلَ هذا التَّقسيمُ لِلمادَّةِ النَّحويَّةِ، بِوَساطَةِ قِياسٍ شَكليٍّ طَبيعيٍّ، على نِطاقٍ واسِعٍ مِن أجلِ تَعيينِ الفَرقِ بينَ الأشياءِ أو الجُزئيّاتِ والحالاتِ، والصِّفاتِ، والتَّغيُّراتِ التي 'تنتمي' أو'تَحدُثُ' لِهذهِ الجُزئيّاتِ. وقَد احتُجَّ بِأنَّ هذهِ الكِياناتِ المُفتَرَضَةَ تُوجَدُ في كلِّ الحالاتِ ذواتِ الأصلِ اللغَويِّ، لكِنَّ ذلكَ لم يَمنَعْ ثُنائيَّةَ الجُزئيِّ والكُلِّيِّ، والشَّيءِ والخاصِّيَّةِ، والمُسنَدِ إليهِ والمُسنَدِ، والاسمِ والصِّفَةِ، والاسمِ والفِعلِ، المُضطَرِبِ في تَسمِيَتِها في كلِّ هذهِ الصُّوَرِ، مِن أن تَظهَرَ بِمَظهَرِ أكثَرِ الأشياءِ أساسيَّةً التي يُمكِنُ أن يُعنَى بِها الفِكرُ[18]. ولم يَكُنِ الجُزئيُّ ولا الكُلِّيُّ مُتَصَوَّرَيْنِ على نَحوٍ مُنفَصِلٍ عندَ أرِسطو، ولا نُلفِي كَثيرًا في مَذهَبِهِ في القَضِيَّةِ استِعمالاً لِهذهِ الميتافيزيقا. ففي افتِراضِهِ القائمِ على أنَّ الكَلِماتِ 'تُناظِرُ' الواقِعَ ليسَ في وُسعِ الاسمِ وَحدَهُ بِرَمْزِهِ إلى الجُزئيِّ، ولا الفِعلِ وَحدَهُ بِرَمزِهِ إلى الكُلِّيِّ، أن يَكونَ لَهُما في أَنفُسِهِما 'مَعنًى' تامٌّ. وليسَ ثَمَّةَ مثالٌ أفضَلُ

= إليها هذا النِّظامُ. ويَكفي أن نَلحَظَ أنَّ هذا الاستِعمالَ لِلمُصطَلَحَيْنِ التَّقليدِيَّيْنِ 'المُسنَد إليهِ' و'المُسنَد' قَد يُسَبِّبُ حَيْرَةَ الذينَ لَيسُوا على دِرايَةٍ كافِيَةٍ بِكِتاباتِ هذهِ المَدرسةِ. وليسَ ثَمَّةَ إلّا القَليلُ مِن المُشتَرَكاتِ بينَ الاستِعمالِ الجَديدِ والاستِعمالِ المألوفِ سابِقًا.

(18) بِذلكَ يَكونُ سابير مُعَبِّرًا عن وِجهةِ نَظرٍ شَديدَةِ الشُّيوعِ في أوساطِ الفيلولوجِيِّينَ، حينَ يَكتُبُ، وكأنَّهُ يَتَعامَلُ معَ خَصيصَةٍ كَونِيَّةٍ مُطلَقَةٍ، بِقَولِهِ: "لا بُدَّ أن يَكونَ ثَمَّةَ ما يُتَحَدَّثُ عنهُ، ولا بُدَّ مِن قَولِ شَيءٍ بِشأنِ مَوضوعِ الخِطابِ هذا حالَ اختيارِهِ . . . ومَوضوعُ الخِطابِ هوَ اسمٌ . . . وما مِن لُغَةٍ تُخفِقُ تَمامًا في تَمييزِ الاسمِ والفِعلِ" (*op. cit.*, p. 126).

مِن تأثيرِ كلٍّ مِن اعتِقادِ أنَّ الكَلِماتِ المُختلِفَةَ وأَنساقَ الكَلِماتِ المُختلِفَةَ لا بُدَّ أن تَرْمِزَ إلى أَنواعٍ مُختلِفَةٍ مِن المَراجِعِ، واعتِقادِ أنَّ الأنواعَ المُختلِفَةَ مِن المَراجِعِ تَقتَضي أنواعًا مُختلِفَةً مِن الكَلِماتِ. وقد رَأَيْنا أنَّ كِلا هذَيْنِ الافتِراضَيْنِ لا يَقومُ على أساسٍ.

بَل إنّا لَو سَلَّمْنا بِصِدقِ المَزاعِمِ المذكورةِ آنِفًا لَكانَتْ نَصيحَتُنا لِلنُّحاةِ بِأن يَجتَنِبوا كُلَّ ما لَهُ صِلَةٌ بِالأساسيّاتِ، ويَقتَصِروا على التَّصنيفاتِ المَعروفَةِ بِـ'البَديهِيَّة.' على أنَّهُ يَنبَغي لَنا أن نتذَكَّرَ أنَّ 'البَديهِيَّةَ' في الأُمورِ اللغويَّةِ ما هيَ في نَفسِها إلّا نظريَّةٌ فَضفاضَةٌ ومُضطَرِبَةٌ، وبَعضُ تَمَثُّلاتِها شاخِصٌ في الفَصلِ الثّاني مِن هذا الكِتابِ. وزِيادَةً على ذلكَ، فإنَّ التَّمييزاتِ الحاليَّةَ والمُصطَلَحاتِ كذلكَ التي يَقتَرِحُها النُّحاةُ لِلاستِخدامِ لا تُمَثِّلُ إرثَ الفَلسَفَةِ الأَرسطِيَّةِ فَحَسْبُ [260]، بَل تُمَثِّلُ إرثَ ذلكَ 'القَرنِ مِن النَّحوِ الميتافيزيقيِّ'، الذي نَبَّهَ البروفيسور هَيْل[19] Hale[20] على أنَّهُ تابَعَ خُطَا تَطبيقِ نَظريَّةِ المَقُولاتِ الكانتيَّةِ في النَّحوِ الذي اضطَلَعَ بِهِ هيرمان Hermann[21] سنَةَ 1801. فَلَمّا لم يَكُنْ بِالإمكانِ البَتَّةَ الاستِغناءُ عن البَحثِ المُدَقِّقِ في سايكولوجيَّةِ اللغةِ، إن كانَ ما نَحصلُ عليهِ مِن

(19) وِليَم غاردنَر هَيْل (1849-1928م). عالِمٌ كلاسيكيٌّ أمريكيٌّ. تخرَّجَ في جامعةِ هارفَرد سنةَ 1870، ودرَسَ فيها بعدَ التخرُّجِ الفلسفةَ في فصلٍ دراسيٍّ بينَ سنتَيْ 1874 و1876، ودرَسَ الفيلولوجيا الكلاسيكيَّةَ في لايبزغ وغوتِنغن بينَ سنتَيْ 1876 و1877، وأصبحَ مُدرِّسًا لِلُّغةِ اللاتينيَّةِ في هارفَرد بينَ سنتَيْ 1877 و1880، وأستاذَ اللغةِ اللاتينيَّةِ ورئيسَ قِسمِها في جامعةِ شيكاغو في سنةِ 1892. أكثرُ ما يُعرَفُ به كونُهُ مدرِّسًا أصيلاً لِمسائلِ النحوِ. مِن مؤلَّفاتِهِ: تَعاقُبُ الأزمنة، والنحوُ اللاتينيّ. [المُترجِم]

(20) St Louis Congress (1904) *Proceedings*. Cf. the same author's "The Heritage of Unreason in Syntactical Method" in the Classical Association's *Proceedings*, 1907.

(21) يوهان غوتفريد جاكوب هيرمان (1772-1848م). عالِمٌ، وفيلولوجيٌّ كلاسيكيٌّ ألمانيٌّ. ذهبَ إلى أنَّ المعرفةَ الدَّقيقةَ لِلُّغتَيْنِ الإغريقيَّةِ واللاتينيَّةِ هيَ الطريقُ الوحيدُ لِلفَهمِ الواضحِ للحياةِ العقليَّةِ للعالَمِ القديمِ، والهدَفُ الرَّئيسُ، إن لم يكُن الوحيدَ، للفلسفةِ. وَجَّهَ اهتمامَهُ المبكِّرَ إلى المقاييسِ الشِّعريَّةِ الكلاسيكيَّةِ، ونشرَ عدَّةَ مؤلَّفاتٍ في هذا الموضوعِ. قدَّمَ في بعضِها نظريَّةً علميَّةً تستنِدُ إلى المقولاتِ الكانتيَّةِ. [المُترجِم]

عِلمٍ قَديمٍ ومُحتَرَمٍ أكثرَ مِمّا يَأتينا مِن مُجَرَّدِ وَضعِ مَعاييرَ لِمِقدارٍ أو ما أشبَهَهُ مِن أسماءٍ مُلائمَةٍ لِمَجموعاتٍ مِن الكَلِماتِ، كانَ مِن المُهِمّ مُواجَهَةُ المسألةِ مُباشَرَةً. ولا يَدورُ في خَلَدِنا هُنا البَتَّةَ أن نُقَلِّلَ مِن شَأنِ جُهودِ النُّحاةِ الجادَّةِ الرّامِيَةِ إلى تَقديمِ نِظامٍ مُعَيَّنٍ خارِجٍ عن الفَوضَى الحاليَّةِ، أو أن نَستَخِفَّ بِالزَّمَنِ والجهدِ اللَذَيْنِ يُستَنفَدانِ في سبيلِ تحقيقِ هذهِ الغايةِ. ومِن الأمثِلَةِ المُبَيِّنَةِ لِنَوعِ المَنظومةِ المُصطَلَحيَّةِ المُطَوَّرَةِ ما اكتَنَفَ انقِسامَ الرَّأيِ بينَ اثنَتَيْنِ مِن الشَّخصيّاتِ المَرجِعيَّةِ الأولَى في أورُبّا، الذي كُشِفَ عنهُ حَديثًا[22] بِشَأنِ صِحَّةِ مُصطَلَحَي 'المُكافِئِ الافتِراضِيِّ subjunctive-equivalent'[23] و'المُستَقبَلِ مِن مَنظورِ الماضي future in the past'[24] (اللَذَيْنِ أقَرَّهُما تَقريرُ لجنةِ المُصطَلَحِ النَّحويّ *Report of the Committee on Grammatical Terminology*، ص 35-36) عندَ إيضاحِ جُملَةِ 'لَوْ عَرَفْتُ عُنوانَهُ لَكَتَبْتُ إليهِ I should write to him if I knew his address'. ولكِنْ إنْ سَلَّمْنا جَدَلاً بِإمكانِ استِخلاصِ مَنظومةٍ مُصطَلَحيَّةٍ جَديرَةٍ بِالاحتِرامِ مِن رُكامِ الألفاظِ المَدرسيَّةِ المُستَعمَلَةِ الآنَ، فما الإنجازُ الذي سيتحقَّقُ مِن وَراءِ ذلكَ؟ فما

---

(22) تُنظَرُ رِسالةُ البروفيسور جيسبِرسن Jespersen التي كتَبَها مُعارِضًا بِها البروفيسور سونينشاين Sonnenschein (*Times Literary Supplement*, June 29, 1922, p. 428). ومِن سُوءِ الحَظِّ أنَّ مُؤَلِّفَ هذا الكاتِبِ الذي عُنوانُهُ **فلسفةُ النَّحو** *Philosophy of Grammar* (1925) يُخفِقُ في مُناقَشَةِ أيٍّ مِن المُشكِلاتِ التي هيَ أكثَرُ أساسيَّةً والتي تَنجُمُ عن المُقارَبَةِ السّايكولوجيَّةِ لِلُّغَةِ، ولا سِيَّما الجوانِبُ النَّقديَّةُ لإصلاحِ اللغَةِ.

(23) المُكافِئُ الافتِراضيُّ: عِبارَةٌ فِعليَّةٌ تَكَوَّنُ في اللغةِ الإنجليزيَّةِ بِوُجودِ مُساعِدٍ صِيغِيٍّ modal auxiliary أي فِعلٍ مُساعِدٍ يُبَيِّنُ مَوقفَ المُتكلِّمِ أي صيغَةَ الفِعلِ مِثل shall, should, may, might، وتَعمَلُ بِطريقَةٍ مُشابِهَةٍ لِلصِّيغَةِ الافتِراضيَّةِ (الشَّرطيَّةِ) التي هيَ صيغةٌ لِلفِعلِ تدُلُّ على الافتِراضِ مِثل were في قَولِنا: ....,If I were you وهيَ تُقابِلُ صيغَةَ الإخبارِ وصيغَةَ الأمرِ. [المُترجِم]

(24) المُستَقبَلُ مِن منظورِ الماضي: استِعمالُ would أو was/were going to لِلإحالةِ على المُستَقبَلِ مِن مَنظورِ نُقطَةٍ في الماضي، أي لِلتَّعبيرِ عن اعتِقادٍ في الماضي لِحدوثِ شَيءٍ مّا في المُستَقبَلِ. مِثالُ ذلكَ: علِمْتُ أنَّكَ ستُساعِدُهُ I knew you would help him أو: عَلِمْتُ أنَّكَ كُنْتَ ستَذهَبُ إلى الحَفْلِ I knew you were going to go to the party.
[المُترجِم]

كُنا لِنَفعَلَ أكثَرَ مِن تَسمِيَةِ أشكالِ الكَلامِ الرَّئيسةِ، ومِن الواضِحِ أنَّ هذا لا يُسَوِّغُ اقتِصارَ النَّحوِ الحاليَّ على تَعَلُّمِ هذهِ الأسماءِ واكتِسابِ الاحتِرامِ لِلاستِعمالِ النّموذَجِيِّ لِلتَّعبيراتِ المُسَمّاةِ. فليسَ ما يَعيبُ النَّحوَ تَخلُّفَ مُصطلَحاتِهِ بل ما يَعيبُهُ هوَ قِلَّةُ الاهتِمامِ التي يُبديها النُّحاةُ تجاهَ أقسامٍ هيَ أقَلُّ عُقمًا لكِنَّهُم لا يَألفونَها كثيرًا في المَجالِ الذي يَدَّعي أنَّهُ يَشمَلُها. فَإلى ذلكَ مَرَدُّ ما يَشيعُ كَثيرًا مِن الاستِياءِ مِن النَّحوِ، وإن لَم يُقَدَّرْ لَهُ أن يَختَفِيَ مِن المِنهاجِ الدِّراسيِّ بِوَصفِهِ 'مَوضوعًا subject'، ومَعَهُ كُلُّ الدِّراسَةِ النَّظريَّةِ لِلُّغَةِ بِوَصفِها أداةً لِلتَّواصُلِ، فما كانَ لإصلاحِهِ أن يَتأَخَّرَ كثيرًا(25).

إنَّ فَهمَ وَظائفِ اللغةِ، أي الطَّرائقِ الكثيرَةِ [261] التي تَهدينا بِها اللغَةُ الطَّريقَ أو تُضِلُّنا بِها عَنهُ، يَجِبُ أن يَكونَ الهَدَفَ الأساسيَّ لِكُلِّ تَعليمٍ صَحيحٍ. فَباللغةِ يَصِلُ إلينا كُلُّ تُراثِنا الفِكريِّ والكَثيرُ مِن تُراثِنا الاجتِماعيِّ. ومُجمَلُ نَظرَتِنا إلى الحَياةِ، وسُلوكُنا، وشَخصيَّتُنا، تتأثَّرُ تأثُّرًا شَديدًا بِما يُمكِنُنا الانتِفاعُ بِهِ مِن الوَسيلَةِ الأساسيَّةِ لِلاتِّصالِ بِالواقِعِ. وإنَّ الاستِعمالَ الفَضفاضَ والمُخادِعَ لِلُّغَةِ لا يُؤَدِّي إلى الاضطِرابِ الفِكريِّ فَحَسْبُ، بَل إلى التَّهرُّبِ مِن المَسائلِ الجَوهريَّةِ أو إلى قَبولِ الصِّيَغِ الزّائفَةِ. ولم تَكُنِ الكَلِماتُ في زَمَنٍ مّا وَسيلَةً شائعَةً لإخفاءِ الجَهلِ ولإقناعِ النّاسِ، بَل أنفُسِنا، بِأنَّ لَنا آراءً في حينِ أنّا لا نَفعَلُ سِوَى الاهتِزازِ معَ الأصداءِ اللفظيَّةِ، أكثَرَ مِنها اليَومَ.

كَم مِن النَّحويِّينَ ما زالوا يَعُدُّونَ عِلمَهُم مُمسِكًا بِمفاتيحِ المَعرِفَةِ؟ كَثيرًا مّا غَدَا عِندَهُم مُجَرَّدَ تَمرينٍ تِقْنِيٍّ ذي مَدًى مَحدودٍ جِدًّا، بَدَلاً مِن أن يَكونَ الدِّراسَةَ المُلهِمَةَ لِوَسائلِ اكتِسابِ الصِّدْقِ والمُحافَظَةِ عليهِ. ولا شَكَّ في أنَّ مُؤَسِّسي هذا العِلمِ كانوا على قَدرٍ لا بَأسَ بِهِ مِن سُوءِ إدراكِ الطّاقاتِ الفِعليَّةِ لِلُّغَةِ، لكِنَّهُم أدرَكوا أهمِّيَّتَها. وقد فَحَصْنا في أثناءِ دِراستِنا الوَسيلَةَ التي يُمكِنُنا أن نَحترِزَ بِها مِن الفِخاخِ والأوهامِ التي تُسَبِّبُها الكَلِماتُ. ويَجِبُ أن تُناطَ بِالنَّحوِ مُهِمَّةُ تَهيِئَةِ كُلِّ

(25) ثَمَّةَ مُحاوَلَةٌ واعِدَةٌ لِتجنُّبِ الجهازِ المُصطَلَحِيِّ النَّحويِّ جُملَةً في التَّعليمِ بِاستِعمالِ المُخَطَّطاتِ، صاحِبَتُها هيَ الآنِسةُ إيزابيل فراي Isabel Fry في كِتابِها **مِفتاحُ اللُّغة** *A Key to Language* =

مُستَعمِلِ لِلرُّموزِ لاكتِشافِ هذهِ الفِخاخِ والأوهامِ. فالتَّدريبُ على التَّحويلِ (ص198-199)، وعلى التَّوْسيعِ بِخاصَّةٍ (ص183)؛ وعلى آلِيَّةِ الاستِبدالِ (ص206)، وطَرائقِ مَنعِ سُوءِ الفَهمِ وإزالتِهِ في مُستَوَياتٍ مُختلِفَةٍ (ص339)؛ وعلى التَّفريقِ بينَ الرَّمزيِّ والانفِعاليِّ مِن الكَلِماتِ والتَّعبيراتِ (ص249-250)؛ وعلى تَعَرُّفِ وَظائفِ اللغَةِ الخَمسِ الرَّئيسةِ (ص340-341)- كُلُّ أُولئكَ مِن التَّمهيداتِ التي لا غِنَى عنها إذا ما أَرَدْنا ضَمانَ استِعمالٍ صَحيحٍ لِلُّغَةِ بِوَصفِها وَسيلةً لِلتَّواصُلِ، ومِن ثَمَّ مُهِمَّةً مَنُوطَةً بِالنَّحوِ [262].

= (1925). ويُمكِنُ النَّجاحُ في تَوسيعِ هذا المَنهَجِ لِيَشمَلَ ما يُناقَشُ هُنا مِن مُشكِلاتٍ لِلتَّحليلِ اللغَويِّ أكثرَ تَعقيدًا.

التَّذييلُ B

في السِّياقات

في حالةِ التَّوَقُّعِ البَسيطةِ، حينَ يَكونُ كلٌّ مِن العَلامَةِ والمَرجِعِ مِن الأحاسيسِ، يُمكِنُ التَّعبيرُ عن النَّظريَّةِ السَّببيَّةِ لِلإحالةِ التي سَبَقَ تَقديمُ مُوجَزٍ عنها في الفَصلِ الثالثِ، ص 136 فما بَعدَها- يُنظَرُ بِخاصَّةٍ الصَّفحتانِ 139، و145- على النَّحوِ الآتي:-

لِيَكُنْ i عمليَّةً ذِهنيَّةً أو حَدَثًا ذِهنيًّا.

فإذا حَدَثَ أن سَبَقَ i إحساسٌ s (صَوتٌ، على سبيلِ المِثالِ)، على نَحوٍ يَكونُ فيهِ:-

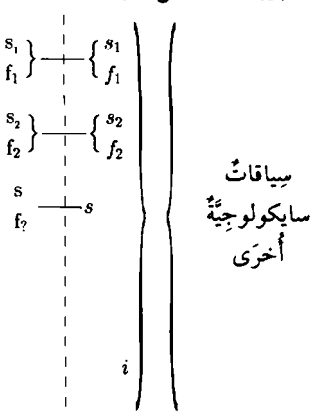
> s لَهُ صِفَةٌ مَا هيَ S (أن يَكونَ صَوتًا خَشِنًا، على سبيلِ المِثالِ) وهيَ صِفَةٌ تأسيسيَّةٌ لِسِياقاتِ 'تَقارُبِ Proximity' (السِّياقُ في حالتِنا مُزدَوِجٌ) مُحَدَّدَةٍ فيما يتعلَّقُ بِصِفَتِها التَّأسيسيَّةِ الأخرَى F (أن يَكونَ إحساسًا بِالتَّوهُّجِ) و(بِالدَّلالَةِ التَّعيينيَّةِ على أعضاءٍ لِمِثلِ هذهِ السِّياقاتِ هيَ s_1، f_1، s_2، f_2 . . .) s_1، f_1، s_2، f_2، . . . ، s، i مُكَوِّنَةٍ سِياقًا مُحَدَّدًا فيما يتعلَّقُ بِـ I، ثُمَّ يُقالُ إنَّ i تأويلٌ لِـ s فيما يتعلَّقُ بِـ S، وإنَّ I هوَ صِفَتُها ذاتُ الصِّلَةِ بِـs، وإنَّ s عَلامَةٌ. في هذهِ الحالةِ يَكونُ i اعتِقادَ أنَّ شيئًا مَا سيَحدُثُ هوَ إحساسٌ بِالتَّوهُّجِ وهوَ في حالةِ تَقارُبٍ معَ s.

فإن كانَ ثَمَّةَ شَيءٌ مَا (لِيَكُنْ f) يُكَوِّنُ معَ s استِنادًا إلى SF سِياقَ تَقارُبٍ مُحَدَّدًا فيما يتعلَّقُ بِـs، فحينئذٍ يُقالُ إنَّ f هوَ مَرجِعُ i بِوَصفِهِ تَأويلاً لِـs مِن هذا الوَجهِ. ويُلحَظُ أنَّ f لَهُ بِوَساطَةِ التَّعريفِ صِفَةُ F وأَنَّهُ في حالةِ تَقارُبٍ معَ s.

فإن كانَ لِشَيءٍ مّا هذهِ الخَواصُّ فحينَئذٍ يُقالُ إنَّ i تأويلٌ صادِقٌ لِـS فيما يتعلَّقُ بِـS، لكِنْ إن لم يَكُنْ ثَمَّةَ ما لَهُ الخَواصُّ المَطلوبةُ فحينَئذٍ يُقالُ إنَّ i تأويلٌ كاذِبٌ فيما يتعلَّقُ بالوَجهِ نَفسِهِ.

فَإذا ما أَرَدْنا التَّعبيرَ عن الأمرِ بِلُغَةٍ أكثرَ تَحرُّرًا مِن اللغَةِ الرَّسمِيَّةِ قُلْنا إنّا حينَ نتوَقَّعُ إحساسًا بالاتِّقادِ، نتيجَةً لِسَماعِ صَوتِ كَشطِ عُودِ ثِقابٍ، يَكونُ اعتِقادُنا عمليَّةً هيَ عُضوٌ في سِياقٍ سايكولوجيٍّ تُوَحِّدُهُ عَلاقَةٌ تَذَكُّرِيَّةٌ مُرَكَّبَةٌ، مِن عَناصِرِها الأُخرَى الإحساساتُ الماضِيَةُ [263] بِحالاتِ الكَشطِ والاتِّقادِ، وتُوَحِّدُ هذهِ العَناصِرَ أَنْفُسَها في سِياقاتٍ مُزدَوِجَةٍ عَلاقَةُ تَقارُبٍ. فإن كانَ الكَشطُ مُرتَبِطًا بِوَساطَةِ هذهِ العَلاقةِ بالاتِّقادِ كانَ اعتِقادُنا صادِقًا، وكانَ هذا الإحساسُ هوَ مَرجِعَ اعتِقادِنا. وإن لم يَكُنْ ثَمَّةَ اتِّقادٌ يَرتَبِطُ بِهِ الكَشطُ على هذا النَّحوِ كانَ اعتِقادُنا كاذِبًا. وقد سَبَقَ أن بَحَثْنا (الفصل الثالث) ما الذي يُمكِنُ أن يُقالَ إنَّهُ المَرجِعُ في هذهِ الحالةِ، إن كانَ ثَمَّةَ شَيءٌ مِن هذا القَبيلِ.

وفي الآتي مُخَطَّطٌ يُصَوِّرُ الأُطروحَةَ المذكورَةَ آنِفًا نُقَدِّمُهُ لِلَّذينَ يَرَوْنَ في المُخَطَّطاتِ نَفْعًا عندَ النَّظَرِ في الأُمورِ المُعَقَّدَةِ، وهوَ ليسَ بِمُضَلِّلٍ، بَل إنَّهُ يُسَلِّطُ بَعضَ الضَّوءِ على مَزيدٍ مِن التَّعقيداتِ التي لم تُضَمَّنْ هُناكَ. والخَطُّ المُنَقَّطُ المَركَزيُّ في المُخَطَّطِ يَفصِلُ السِّياقاتِ السّايكولوجيَّةَ عن السِّياقاتِ الخارجيَّةِ؛ أمّا الأَقواسُ والخُطوطُ المُتَّصِلَةُ فَتُشيرُ إلى السِّياقاتِ؛ وتُمَثِّلُ s، وf، وما إليهما، المُثيراتِ. وأمّا s، وf، وما إليهما، فتُمَثِّلُ الإحساساتِ المُناظِرَةَ:



ويُلحَظُ أنَّ الأُطروحَةَ المذكورَةَ آنِفًا لا تَتَعامَلُ إلّا معَ السِّياقاتِ التي يَكونُ أعضاؤُها مِن الأحاسيسِ. وقَد ضُمِّنَ في المُخَطَّطِ السِّياقاتُ 'الإثارِيَّةُ-الحِسِّيَّةُ' أيضًا. ومِن الطَّبيعِيِّ أنْ تَكونَ أيَّةُ أمثلَةٍ فِعليَّةٍ لِلتَّأويلِ أكثَرَ تَعقيدًا بِمَراحِلَ مِن أيِّ بَيانٍ أو مُخَطَّطٍ يُمكِنُ التَّعبيرُ عنهُ كِتابيًّا. والقَوسُ الذي يَتضمَّنُ سِياقاتٍ سايكولوجيَّةً أخرَى يُشيرُ إلى أحَدِ أسبابِ ذلكَ. فلا بُدَّ مِن وُجودِ مَعنًى مّا يُمكِنُ أن يُقالَ إنَّ أحَدَ السِّياقاتِ يَتَوقَّفُ بِهِ على السِّياقاتِ الأُخرَى. مِثالٌ مَلموسٌ لِذلكَ: فَعّاليَّةُ ماكِنَةِ وَضعِ النُّقودِ التي مِن المُمكِنِ مُعالَجَتُها بِوَصفِها سِياقًا مُزدَوِجًا بَسيطًا (وَضعُ عُملَةٍ نَقدِيَّةٍ- ظُهورُ قِطعَةِ حَلوَى) على أن يَكونَ ثَمَّةَ اطِّرادٌ في تَكرُّرِ حُدوثِ سِياقاتٍ مُرَكَّبَةٍ واسِعَةٍ تَتَضَمَّنُ [264] نُمُوَّ شَجَرِ الكاكاو، والثِّقلَ النَّوعِيَّ لِلنُّحاسِ الذي صُنِعَتْ مِنهُ القِطعَةُ النَّقديَّةُ، والفَحصَ المُنتَظَمَ للآلَةِ الميكانيكيَّةِ. وعِلمُ النَّفسِ مَعْنِيٌّ على الدَّوامِ بِأحوالٍ مُشابِهَةٍ، لكِنَّ تَحليلَ السِّياقاتِ المُتَضَمَّنَةِ على هذا النَّحوِ أكثرُ صُعوبَةً. فمِن الصُّعوبَةِ بِمَكانٍ في عِلمِ النَّفسِ، حَقًّا، اكتِشافُ السِّياقاتِ التي يَكونُ عددُ أعضائها قَليلاً. بَل إنَّهُ لا بُدَّ لِلسِّياقِ الإثارِيِّ-الحِسِّيِّ، مِن أجلِ أن يَكونَ مُحَدَّدًا فيما يتعلَّقُ بِصِفَةِ الإحساسِ، مِن أن يتضمَّنَ على نَحوٍ اعتِياديٍّ أعضاءً سايكولوجيِّينَ آخَرِينَ، يكونُ مِن ضِمنِهم إحساساتٌ أُخرَى وشُروطٌ نُلمِحُ إليها حينَ نَستَعمِلُ كلِمَةَ 'انتِباه.' [265]

التَّذييلُ C

نَظَرِيَّةُ العَلاماتِ عِنْدَ أينيسديموس Aenesidemus

إنَّ ما نَعرِفُهُ عن آراءِ أينيسديموس مُستَمَدٌّ أساسًا مِن الإحالاتِ المُقتَضَبَةِ عليهِ في كِتاباتِ سَكستوس أمبِرِقوس Sextus Empiricus، غيرَ أنَّ الكتابَ الرّابعَ مِن مُؤَلَّفِهِ المَفقودِ الذي عُنوانُهُ مَعالِمُ البيرونيَّة كانَ مُخَصَّصًا لِنَظرِيَّةِ العَلاماتِ. وقد لَخَّصَ سَكستوس مَباحِثَهُ الرَّئيسَةَ في ما بينَ 97-134 مِن فَرضِيّاتِهِ Hypotheses، وإنْ كانَ لا يَتَّضِحُ على الدَّوامِ مِقدارُ ما زادَهُ سَكستوس نَفسُهُ في مَواضِعَ مُختلِفَةٍ.

ويَذهَبُ أينيسديموس، استِنادًا إلى ما نَقَلَهُ عنهُ فوتيوس[1] Photius[2]، إلى أنَّ الأشياءَ غيرَ المَرئيَّةِ لا يُمكِنُ الكَشفُ عنها بِوَساطَةِ عَلاماتٍ مَرئيَّةٍ، وأنَّ الإيمانَ بِعَلاماتٍ مِن هذا القبيلِ ضَربٌ مِن الوَهمِ. ويُؤَكِّدُ هذا المَذهَبَ نَصٌّ في كِتابِ سَكستوس[3] يُبْدِي مُهاجَمَةً لآراءِ الأبيقوريِّينَ[4]. ويَجري الحِجاجُ على النَّحوِ الآتي:

---

(1) فوتيوس (810-893م). البَطريَركُ المسكونيُّ في القُسطنطينيَّةِ بينَ سنَتَيْ 858 و867، وبينَ سنَتَيْ 877 و886. ويُعرَفُ في الكنائسِ الأورثودوكسيَّةِ الشرقيَّةِ باسمِ القِدّيسِ فوتيوس العظيم. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ البيبليوثيكا Bibliothica الذي هو مجموعةٌ من الاقتِباساتِ والاختِصاراتِ لِمئتَيْنِ وثمانِينَ كتابًا لِكُتّابٍ كلاسيكيِّينَ، تُعَدُّ أُصولُ الكثيرِ منها الآنَ في حُكمِ ما قَد فُقِدَ. [المُترجِم]

(2) *Biblioth.*, 170, p. 12.

(3) *Adv. Math.*, VIII., 215 sqq.

[اسمُ الكِتابِ كامِلاً هوَ Adversus Mathematicos وتَرجمتُهُ هيَ (الرَّدُّ على عُلَماءِ الرِّياضيّات). المُترجِم]

(4) نِسبَةً إلى أبيقور (270-341 ق.م)، وهو فيلسوفٌ إغريقيٌّ رأسَ مَدرسةً فلسفيَّةً سُمِّيَتْ باسْمِهِ. وقد انصرَفَ اهتمامُ هذهِ المدرسةِ إلى الأخلاقِ، فقالوا إنَّ أساسَها اللذَّةُ، وإنَّ =

"إنْ بَدَتِ الظَّواهِرُ بِالطَّريقَةِ نَفسِها لِكُلِّ المُشاهِدِينَ ذَوِي التَّكوينِ المُتَشابِهِ، وفَوقَ ذلكَ إنْ كانَتِ العَلاماتُ عِبارَةً عن ظَواهِرَ، فَلا بُدَّ حينَئِذٍ مِن أن تَظهَرَ العَلاماتُ بِالطَّريقَةِ نَفسِها لِكُلِّ المُشاهِدِينَ ذَوِي التَّكوينِ المُتَشابِهِ. وهذا المُقتَرَحُ الافتِراضيُّ هوَ مِن البَديهِيّاتِ؛ فإذا ما سُلِّمَ بالمُقَدِّمَةِ لَحِقَتْها النَّتيجَةُ. فالذي لَدَيْنا، على ما يُتابِعُ سَكستوس سَرْدَهُ، (1) أنَّ الظَّواهِرَ تَبدو بِالطَّريقَةِ نَفسِها لِكُلِّ المُشاهِدِينَ ذَوِي التَّكوينِ المُتَشابِهِ. لكِنَّ (2) العَلاماتِ لا تَبدو بِالطَّريقَةِ نَفسِها لِكُلِّ المُشاهِدِينَ ذَوِي التَّكوينِ المُتَشابِهِ. إنَّ صِدقَ القَضِيَّةِ (1) يَستَنِدُ إلى المُشاهَدَةِ؛ ذلكَ بِأنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ الأشياءَ البِيضَ لا تَبدو بِيضًا لِلمُصابِ بِاليَرَقانِ أو لِمَن عَيْنُهُ مُحتَقِنَةٌ بِالدَّمِ، لا يَختَلِفُ في بَياضِها اثنانِ مِمَّنْ أعيُنُهُم سَليمَةٌ، أي كُلُّ المُشاهِدِينَ ذَوِي التَّكوينِ المُتَشابِهِ. أمّا ما يتعلَّقُ بِصِدْقِ القَضِيَّةِ (2) فإنَّ فَنَّ الطِّبِّ يُقَدِّمُ أمثِلَةً حاسِمَةً بِشأنِهِ. فأعراضُ الحُمَّى، واحتِقانُ الوَجهِ، وتَعَرُّقُ الجِلدِ، ودَرَجَةُ الحَرارَةِ العالِيَةِ، والنَّبْضُ المُتَسارِعُ، حينَ يَلْحَظُها الأطِبّاءُ ذَوُو التَّكوينِ الذِّهنِيِّ المُتَشابِهِ لا يُؤَوِّلونَها تأويلاً واحِدًا. وهُنا يُورِدُ سَكستوس بَعضًا مِن النَّظرِيّاتِ المُتَعارِضَةِ التي تَبَنّاها العُلَماءُ في زَمانِهِ. إذ يَرَى هيروفيلوس Herophilus[5] في هذهِ الأعراضِ [266] أمارَةً على دَمٍ بِمُواصَفاتٍ جَيِّدَةٍ؛ أمّا إيراسِستراتوس Erasistratus[6] فيَرَى فيها عَلامَةً على مُرورِ الدَّمِ مِن الأورِدَةِ إلى الشَّرايينِ؛ وأمّا

= اللذَّةَ هيَ هدفُ الإنسانِ في حياتِهِ. وما دامَت اللذَّةُ هيَ غايةَ الحياةِ فالمعرفةُ لا تتحقَّقُ إلّا مِن طريقِ الحواسِّ التي تُرشِدُ المرءَ إلى تَحديدِ طبيعةِ الشَّيءِ، فيُصدِرُ حُكمَهُ بعدَ الإدراكِ الحِسِّيِّ. والفلسفةُ في منظورِ هذهِ المدرسةِ تَسعَى إلى الحصولِ على السَّعادةِ باستِعمالِ العَقلِ؛ فالمنطقُ هو الذي يُسْلِمُ الإنسانَ إلى اليقينِ الذي بهِ يطمئنُّ العقلُ، الذي يَقودُ إلى تحقيقِ السَّعادةِ. [المُترجِم]

(5) هيروفيلوس (335-280 ق.م). طبيبٌ إغريقيٌّ عُدَّ أوَّلَ مُختَصٍّ في التَّشريحِ. ويُعَدُّ هوَ وإيراسِستراتوس مؤسِّسَيْ مدرسةِ الطبِّ العظيمةِ في الإسكندريَّةِ. [المُترجِم]

(6) إيراسِستراتوس (304-250 ق.م). عالِمٌ بالتَّشريحِ وطبيبٌ مَلَكيٌّ إغريقيٌّ عظيمٌ. أسَّسَ معَ زميلِهِ الطبيبِ هيروفيلوس مدرسةً للتشريحِ في الإسكندريَّةِ. [المُترجِم]

أسكليبيادِس Asclepiades[7] فإنَّها تَدُلُّ عندَهُ على ضَغطٍ شَديدٍ لِلكُرَيّاتِ في الأنسِجةِ الخِلاليَّةِ، وإنْ كانَتِ الكُرَيّاتُ والأنسِجةُ الخِلاليَّةُ لا تَقَعُ في مُتَناوَلِ الحِسِّ بل لا يُدرِكُها إلّا العَقلُ؛ لِفَرطِ صِغَرِها اللامُتَناهي. وبَعدَ أن استَمَدَّ سَكستوس هذا الحِجاجَ مِن أينيسديموس طَوَّرَهُ بِطريقَتِهِ الخاصَّةِ، ورُبَّما يَكونُ هوَ نَفسُهُ مَن قَدَّمَ الأمثِلَةَ الطِّبِّيَّةَ التي اختارَها"[8].

على أنَّ سَكستوس لم يَكْتَفِ بِإبطالِ إسهامِ الأبيقوريِّينَ بِشَأنِ العَلاماتِ بِوَصفِها أشياءَ مَعقولَةً. إذ راحَ يُهاجِمُ رَأيَ الرِّواقِيِّينَ ويُظْهِرُ عَدَمَ إمكانِ فَهمِ ما يَذهَبونَ إليهِ مِن خِلالِ العَقلِ أو الفِكرِ. ورُبَّما لَم يَذهَبْ أينيسديموس نَفسُهُ إلى أبْعَدَ مِن البَرهَنَةِ (بِكَلِماتِ فوتيوس) على أن "ليسَ ثَمَّةَ عَلاماتٌ ظاهِرَةٌ وواضِحَةٌ لِما هوَ غامِضٌ وكامِنٌ"، و هُناكَ مَن يَعتَقِدُ احتِمالَ أن يَكونَ سَكستوس نَفسُهُ هوَ المَصدَرَ الأساسيَّ لِلتَّفريقِ الشّائعِ في أوساطِ مُتأخِّري فَلاسِفَةِ الشَّكِّ Sceptics[9] بينَ صِنفَيْنِ مِن العَلاماتِ- العَلاماتِ 'التَّذكارِيَّةِ commemorative'، والعَلاماتِ 'الدَّليليَّةِ demonstrative'[10]. واستِنادًا إلى هذا التَّفريقِ "ثَمَّةَ عَلاماتٌ تَعمَلُ على

(7) أسكليبيادِس (125-40 ق.م). فيلسوفٌ، وطبيبٌ إغريقيٌّ. حاوَلَ بناءَ نظريَّةٍ جديدةٍ لِلمَرَضِ تستنِدُ إلى تدفُّقِ الذّرّاتِ في مَساماتٍ في الجسمِ. تطلَّعَتْ عِلاجاتُهُ إلى تجديدِ الانسِجامِ من خِلالِ استِعمالِ الحِميَةِ، والتمرينِ، والسِّباحةِ. [المُترجِم]

(8) R. D. Hicks, *Stoic and Epicurean*, p. 390.

(9) نِسبَةٌ إلى مَذهَبِ الشَّكِّ، وهو مَذهَبٌ يَرَى أنَّ المعرِفَةَ الحقيقيَّةَ في حقلٍ مُعَيَّنٍ هي معرفةٌ غيرُ مُحَقَّقَةٍ أو مُؤَكَّدَةٍ، ومَعنَى الكلمةِ في الإغريقيَّةِ الفَحصُ والتَّفَكُّرُ. ويُعَدُّ بيرو Pyrrho (360-275 ق.م) الذي صَحِبَ الإسكندرَ في رحلتِهِ إلى الهِندِ من أشهَرِ الشُّكوكيِّينَ. ويقومُ هذا المذهبُ على نظريَّةٍ فَحواها أنّا وإن كُنّا نَعرِفُ ظواهرَ الأشياءِ فلا نستطيعُ معرفةَ حقائقِها الباطنةِ، وأنَّهُ لَمّا كانَ الشيءُ الواحدُ يَظهَرُ بِمظاهِرَ مُختلفةٍ لِعددٍ من الأشخاصِ تعذَّرَتْ معرفةُ الصَّوابِ في وِجهاتِ النظَرِ. ولَمّا كُنّا لا نستطيعُ التثبُّتَ من طبيعةِ الشَّيءِ ولا إصدارَ الحكمِ الصائبِ عليهِ اقتضَى الأمرُ التوقُّفَ والامتناعَ عن أيِّ عمَلٍ. [المُترجِم]

(10) *Ibid.*, p. 391: the source being *Pyrrh. Hyp.*, II., 100; cf. the context, 99-102; *Adv. Math.*, VIII., 148-158.

وَفقِ قانونِ التَّداعي، مُذَكِّرَةً إيّانا بِأنَّ ثَمَّةَ تَجرِبَةً سابِقَةً شَهِدَت ارتِباطَ ظاهِرَتَيْنِ مَعًا، كارتِباطِ الدُّخانِ بِالنّارِ، والنُّدبَةِ بِالجُرحِ، والطَّعنَةِ في القَلبِ بِالمَوتِ اللاحِقِ. فإنْ عَرَضَ بَعدَ ذلكَ لإحدَى الظّاهِرَتَيْنِ إبهامٌ مُؤَقَّتٌ ففاتَتِ الوَعْيَ المُباشِرَ أَخَذَتِ الأُخرَى على عاتِقِها، إن كانَتْ حاضِرَةً، مهمَّةَ استِدعائِها، ولا تَثريبَ علينا في تَسمِيَتِنا الظّاهِرَةَ الحاضِرَةَ عَلامَةً sign والظّاهِرَةَ الغائبَةَ مُؤَقَّتًا الشَّيءَ المَدلولَ عليهِ the thing signified. ولا إشكالَ لَدَى سَكستوس بِشَأنِ مُصطَلَحِ 'العَلامَة' المَفهومَةِ على هذا النَّحوِ، أي أَنَّها تَذكارِيَّةٌ أو مُذَكِّرَةٌ. وبِمُساعَدَتِها يُصبِحُ التَّنَبُّؤُ مُسَوَّغًا؛ إذ بإمكانِنا تَوقُّعُ النّارِ مِن الدُّخانِ، والجُرحِ مِن النُّدبَةِ، والاقتِرابِ مِن المَوتِ مِن الطَّعنَةِ القاتِلَةِ؛ ذلكَ بِأنّا في كلِّ هذهِ الحالاتِ نَنطَلِقُ استِنادًا إلى تَجرِبَةٍ ماضِيَةٍ. لكِنَّ سَكستوس يَدَّخِرُ عِداءَهُ لِصِنفٍ آخَرَ مِن العَلاماتِ مِن المُمكِنِ تَسمِيَتُها العَلاماتِ الدَّليلِيَّةَ. فحينَ لا يَكونُ ثَمَّةَ حُدوثٌ البَتَّةَ في تَجرِبَةٍ فِعلِيَّةٍ لإحدَى الظّاهِرَتَيْنِ التي يُفتَرَضُ أن تكونَ الشَّيءَ المَدلولَ عليهِ، بَل كانَت تَنتَمي كُلِّيًّا، بِطَبيعَتِها الذّاتِيَّةِ، إلى منطقَةِ المَجهولِ، يَذهَبُ الجَزْمِيُّونَ dogmatists معَ ذلكَ إلى أَنَّهُ إنْ تَحقَّقَتْ شُروطٌ مُعَيَّنَةٌ أشارَتِ الظّاهِرَةُ الأُخرَى، التي سَمَّوْها عَلامَةً، إلى وُجودِها وكانَتْ دَليلاً عليهِ. مِثالُ ذلكَ، على وَفقِ مَذهَبِ الجَزْمِيِّينَ، أنَّ حَرَكاتِ الجَسَدِ تُشيرُ إلى وُجودِ النَّفْسِ وتَدُلُّ عليهِ [267]؛ فهِيَ عَلامَتُهُ. فَـ'العَلامَةُ' إذَن بِهذا المَعنَى الأخيرِ لَها، أي العَلامَةُ الإشارِيَّةُ أو الدَّليلِيَّةُ، هيَ التي يُنازِعُ سَكستوس في وُجودِها ويأخُذُ على عاتِقِهِ مهمَّةَ دَحضِها»[11].

(11) نَقَلَ عادِل فاخوري في كِتابِهِ (عِلمُ الدَّلالةِ عندَ العَرَب- دِراسةٌ مُقارنَةٌ معَ السِّيمياءِ الحديثةِ) نَصًّا مِن كِتابِ تودوروف (نَظريّاتُ الرَّمز) يُثبِتُ قريبًا مِن النَّصِّ الذي نَقَلَهُ أوغدِن ورِتشاردز عن سكستوس أمبرِقوس، إذ قالَ عادِل فاخوري في الصَّفحتَيْنِ 24 و25 مِن كِتابِهِ: «يُمَيِّزُ الرِّواقِيُّونَ، حَسَبَ سكستوس أمبريقوس Sextus Empiricus صِنفَيْنِ مِن العَلاماتِ استِنادًا إلى تَمييزِ صِنفَيْنِ مِن الأُمورِ: الأُمورِ الغامِضَةِ لِفَترَةٍ، والأُمورِ غيرِ المُتَيَقَّنَةِ بِطبيعتِها. (فهذهِ الأُمورُ يُمكِنُ إدراكُها بِعلاماتٍ، لكِن ليسَ بِالعَلاماتِ ذاتِها، بَل الأُولَى تُدرَكُ بِعَلاماتٍ تَذكِرَةٍ commemoratifs ou de rappel، والأُخرَى بِعَلاماتِ كَشفٍ أو تَدليلٍ. تُسَمَّى عَلامَةَ تَذكِرَةٍ العَلامةُ التي، إذا ما لوحِظَتْ بِالوقتِ ذاتِهِ الذي لوحِظَ فيهِ =

فإنْ صَحَّ مِثلُ هذا التَّأويلِ لآرائِهِم اتَّضَحَ أنَّ فَلاسِفَةَ الشَّكِّ، بِإسهامِهِم المتعلِّقِ بِالعَلاماتِ المُذَكِّرَةِ، كانوا قَريبِينَ جِدًّا مِن صِياغَةِ نَظرِيَّةٍ مُعاصِرَةٍ لِلاستِقراءِ العِلمِيِّ، في حينِ أنَّ فلسفتَهُم الشَّكِّيَّةَ المتَعلِّقَةَ بِالعَلاماتِ الدَّليلِيَّةِ تَرقَى إلى أن تَكونَ إنكارًا لإمكانِ الاستِدلالِ على المُتَعالِي transcendental. فإذا ما أُعطِينا حَقيقَةً مّا أو، على وَفقِ ما يُسَمِّيهِ الرِّواقِيُّونَ، 'عَلامَةً' مّا فلَن يَكونَ في وُسعِنا أن نُحَدِّدَ طَبيعَةَ الشَّيءِ المَدلولِ عليهِ تَحدِيدًا قَبْلِيًّا. ولا غَرابَةَ في أن نُلْفِيَ المُصطَلَحاتِ الرَّئيسَةَ التي عليها مَدارُ البَحثِ تُعاني تَخليطاتٍ ما زالَت مُلازِمَةً بِمُكافِئاتِها المُعاصِرَةِ؛ فليسَ بِالإمكانِ أن تُوجَدَ عَلاماتٌ لأشياءَ لا يُمكِنُ أن يُحالَ عليها، لكِن يُمكِنُ أن يُحالَ على أشياءَ غيرِ مُجَرَّبَةٍ.

وإذا ما اكتُشِفَت مَدينَةُ هيركيولانيوم Herculaneum[12] فإنَّ رِسالَةَ فيلوديموس Philodemus[13] المفقودَةَ التي تَدورُ حَولَ النَّظرِيَّةِ الأبيقورِيَّةِ لِلعَلاماتِ والاستِدلالِ التي قَد يُعثَرُ عليها، والوَثائقَ المُشابِهَةَ الأُخرَى أيضًا ذَواتِ الصِّلَةِ

= الشَّيءُ المَدلولُ، تَبعَتْ بِنا، حالَما تَقَعُ تحتَ حواسِّنا مَهما كانَ المَدلولُ غامِضًا، إلى أن نتذَكَّرَ ما لُوحِظَ معَها، حتَّى وإن لم يَقَعْ بِوضوحٍ تحتَ حَواسِّنا، كحالِ الدُّخانِ والنّارِ. أمّا عَلامَةُ الكَشفِ، كما يَقولونَ، فهيَ التي لم تُلاحَظْ بِوضوحٍ في الوقتِ ذاتِهِ معَ الشَّيءِ، لكِنَّها بِمُقتَضَى طبيعتِها وتركيبِها تُشيرُ إلى الأمرِ الذي هيَ عَلامةٌ لهُ، مِثلَما أنَّ حركاتِ الجِسمِ هيَ عَلامَةٌ على النَّفْسِ) (راجِع النَّصَّ في: Todorov, Theories du Symbole, p. 24)". [المُترجِم]

(12) هيركيولانيوم: مدينةٌ رومانيَّةٌ قديمةٌ في جنوبِ إيطاليا بالقُربِ من مدينةِ بومبي الأثريَّةِ. تعرَّضَتْ لِلدَّمارِ بعدَ أن ثارَ بُركانُ فيزوف الهائلُ سنةَ 79م الذي أدَّى إلى تدميرِها وتدميرِ جارتِها بومبي. [المُترجِم]

(13) فيلوديموس (110-28 ق.م). شاعرٌ، وفيلسوفٌ وُلِدَ في غادارا (أمّ قيس في الأردن حاليًّا)، وتوفِّيَ في هيركيولانيوم قُربَ مدينةِ نابولي. درَسَ الفلسفةَ الأبيقوريَّةَ في أثينا على يدِ الفيلسوفِ زينون الصيدليِّ، ثمَّ سافرَ إلى روما حيثُ تعرَّفَ القائدَ السياسيَّ كالبورنيوس بيزون وأهدَى إليهِ كتابَهُ (الملكُ الصالحُ عندَ الشاعرِ هوميروس)، فقدَّمَ لهُ بيزون دارةً يملِكُها في هيركيولانيوم، فأقامَ فيها مدرسةً للفلسفةِ الأبيقوريَّةِ. وقد زارَهُ فيها الخطيبُ الرومانيُّ المشهورُ شيشرون، ويُقالُ إنَّهُ زوَّجَهُ ابنتَهُ. [المُترجِم]

بِهذا الجَدَلِ الرّائعِ، قَد تُسَلِّطُ المَزيدَ مِن الضَّوءِ على ما أُحرِزَ مِن تَقَدُّمٍ في تلكَ الأزمِنَةِ المُبَكِّرَةِ بِاتِّجاهِ أُطروحَةٍ عَقلانيَّةٍ بِشَأنِ الكَونِ، فتُمَكِّنُنا بِذلكَ مِن إدراكِ شَيءٍ عَمّا كانَ يُمكِنُ أَن تُنجِزَهُ فَلسَفَةٌ شَكِّيَّةٌ سَليمَةٌ لَو لَم تَكُن الاهتِماماتُ الدِّينيَّةُ مُهَيمِنَةً تَمامًا على ذلكَ النَّحوِ طَوالَ الحُقبَةِ الزَّمَنِيَّةِ اللاحقَةِ التي امتَدَّتْ خَمسَةَ عَشَرَ قَرنًا. [268]

التَّذييلُ D
مَعَ عَدَدٍ مِنَ المُعاصِرِين

إنَّ الذينَ ليسَ لَدَيهم اطِّلاعٌ كافٍ على أدَبِيّاتِ المَعنَى سَيَستَشعِرونَ صُعوبَةَ إدراكِ كَم هيَ غَريبَةٌ ومُتَناقِضَةٌ اللُّغاتُ التي اعتَقَدَ أكثَرُ المُفَكِّرينَ تَمَيُّزًا أنَّها مُلائمَةٌ لِتَتَبّناها مُحاوَلاتُهُم لِلتَّعامُلِ معَ العَلاماتِ، والرُّموزِ، والأفكارِ، والأشياءِ. وقَد قَدَّمْنا في الفَصلِ الثّامِنِ مِن كِتابِنا هذا عِدَّةَ أمثِلَةٍ بِإيجازٍ، رُبَّما يَكونُ، على ضَرورَتِهِ، قَد جَعَلَ المُنصِفِينَ يَتَساءَلونَ: أَلَم يَكُنْ في ذلكَ شَيءٌ مِن الجَورِ العارِضِ؟ مِن أجلِ ذلكَ نُلحِقُ بِها هُنا أمثِلَةً أكثرَ طُولاً يُمكِنُ أن يُحكَمَ عليها بِمَوضوعِيَّةٍ، سَطَّرَتْها أقلامُ أكثَرِ المُتَخصِّصِينَ تبريزًا الذينَ تَعامَلُوا معَ هذهِ المَسألَةِ في السَّنواتِ الأخيرَةِ. والمَأمولُ أن تُسهِمَ هذهِ الوَسيلَةُ في تَسويغِ ما أكَّدْناهُ في مُستَهَلِّ كِتابِنا مِن ضَرورَةِ إيجادِ مُقارَبَةٍ جَديدَةٍ.

§1. هوسِّيرل *Husserl*

يُمكِنُ أن نَبدَأَ بِما قد تَكونُ أشهَرَ مُحاوَلَةٍ مُعاصِرَةٍ تتعامَلُ بِشُمولِيَّةٍ مَعَ قَضِيَّةِ العَلاماتِ والمَعنَى، وهيَ مُحاوَلَةُ البروفيسور إدموند هوسِّيرل Edmund Husserl. ومِن المُهِمِّ لِفَهمِ مُصطَلَحاتِ هوسِّيرل مَعرِفَةُ أنَّ كُلَّ ما كَتَبَهُ إنَّما هوَ تَطويرٌ لِـ"المَنهَجِ الظّاهِراتِيِّ والفَلسَفَةِ الظّاهِراتيَّةِ"[1] اللَّذَيْنِ كانَ قَد أخَذَ على عاتِقِهِ مهمَّةَ

(1) إشارَةٌ إلى مُحاضَراتِهِ الأربَعِ التي ألقاها في جامعةِ لندَن، والتي طُبِعَتْ فيما بَعْدُ بِعُنوانِ (خُلاصَةُ الفَصلِ الدِّراسيِّ المُشتَمِلِ على أربَعِ مُحاضَراتٍ في "المنهَجِ الظّاهِراتِيِّ والفلسفةِ الظّاهِراتِيَّةِ" (مُحاضَراتُ الكلِّيَّةِ الجامعةِ في لندَن). ويَلفِتُ عنوانُ المُحاضَراتِ النظَرَ إلى أنَّ ظاهراتيَّةَ هوسّيرل تَجمَعُ بينَ المَنهَجِ والمذهَبِ مَعًا؛ فأمّا المنهَجُ فيتجلَّى في الجهدِ المستمرِّ والمعاناةِ الدائبةِ لِحَدسِ الماهيّاتِ وتأسيسِ العِلمِ الكُلِّيِّ؛ وأمّا المذهَبُ فيتمثَّلُ في المباحثِ المتعلِّقَةِ بِالذّاتيَّةِ الخالصةِ والأنا المُتعالي والتَّجارِبِ المُرتبطةِ بهِ، وهيَ =

التَّفصيلِ فيهما مُنذُ سنةِ 1910، بِوَصفِهِ أُستاذَ الفَلسفةِ، في غوتِنجن Göttingen أَوَّلاً ثُمَّ في فرايبورغ Freiburg لاحِقًا. وفي شَهرِ يونيو/حَزيرانَ مِن سنةِ 1922، في فَصلٍ دِراسيٍّ أَلقَى فيهِ مُحاضَراتٍ في جامعةِ لَندَن، قَدَّمَ عَرضًا لِمَنهَجِهِ أَمامَ حُضورٍ إنجليزيٍّ كبيرٍ، والجُمَلُ الآتِيَةُ مأخوذةٌ مِن الخُلاصَةِ *Syllabus* الإيضاحيَّةِ التي سَعَى فيها جاهِدًا، هوَ أو مُتَرجِمُهُ الرَّسميُّ، إلى تِبيانِ مَنهَجِهِ ومُفرَداتِهِ مَعًا.

"مِمّا قَد أَصبَحَ مُمكِنًا ويَجري العَمَلُ عليهِ الآنَ عِلمٌ استِدلاليٌّ جَديدٌ مُستَخلَصٌ تَمامًا مِن الحَدْسِ الظّاهِراتيِّ المَلموسِ (*Anchauung*)، وهوَ عِلمُ الظّاهِراتِيَّةِ المُتَعاليةِ الذي يَبحَثُ في مَجموعِ الإمكاناتِ المِثاليَّةِ التي تَقَعُ في إطارِ [269] الذّاتِيَّةِ الظّاهِراتِيَّةِ، طِبْقًا لصِيَغِها النَّمَطيَّةِ وقَوانينِها الوُجودِيَّةِ.

وفي الخَطِّ المُلائمِ لِتَفسيرِها يَكمُنُ تَطويرُ الظّاهِراتِيَّةِ 'الخالِصَةِ الأَنا egological' (تُحالُ على الأنا ego ذي التَّفسيرِ الفَلسَفِيِّ في الوَقتِ الحاضِرِ) في أَصلِها إلى ظاهِراتِيَّةٍ اجتِماعيَّةٍ مُتَعالِيَةٍ تُحيلُ على تَعَدُّدِيَّةٍ ظاهِرَةٍ لِمَوضوعاتٍ واعِيَةٍ يَتَواصَلُ بَعضُها مَعَ بَعضٍ. ويَقودُ التَّطويرُ المُتَواصِلُ نِظامِيًّا لِلظّاهِراتِيَّةِ بِالضَّرورَةِ إلى مَنطِقٍ شُموليٍّ كُلِّيٍّ مَعنِيٍّ بِالمُتَلازِماتِ الآتِيَةِ: الفِعلِ المَعرِفِيِّ، والدَّلالَةِ المَعرِفِيَّةِ، والمَوضوعِيَّةِ المَعرِفِيَّةِ".

ويُوضِحُ هوسِّيرل أَحَدَ استِنتاجاتِهِ وهوَ أَنَّ "مَذهَبَ الجَوهَرِ الفَردِ المُتَعالِي transcendental monadism الذي يَنشَأُ بِالضَّرورَةِ مِن الإحالَةِ الاستِذكارِيَّةِ على الذّاتِيَّةِ المُطلَقَةِ يَحمِلُ مَعَهُ صِفَةً قَبْلِيَّةً مُتَميِّزَةً مُضادَّةً لِلمَوضوعِيّاتِ المُكَوَّنَةِ، المُتَعَلِّقَةِ بِمُقتَضَياتِ الجَوهَرِ لِلموناداتِ المُفرَدَةِ ولِشُروطِ الإمكانِ لِعالَمٍ مِن الموناداتِ 'المُمكِنَةِ مَعًا compossible'. وإلى هذا البَحثِ 'الميتافيزيقيِّ' تَنتَمي

= الميدانُ الأساسيُّ الذي يَجري فيهِ حَدْسُ الماهيّاتِ والذي سيُقيمُ عليهِ هوسّيرل العِلمَ الكُلِّيَّ اليَقينيَّ. [المُترجِم]

ضَرورَةُ الجَوهَرِ لِـ'الانسِجامِ المُتَناغِمِ' لِلمونادات مِن خِلالِ عَلاقَتِها بِعالَمِ مَوضوعيٍّ يُكَوِّنُ تَبادُلِيًّا فيها، والمُشكِلاتُ المُتَعَلِّقَةُ بِالغائيَّةِ وبِمَعنَى العالَمِ وتَأريخِ العالَمِ، ومُشكِلَةُ اللهِ".

على هذا النَّحوِ كانَتِ الصِّيَغُ التي رَغِبَ هوسِّيرل أن يُقارِبَ مَنهَجُهُ مِن خِلالِها، وفي الحَقلِ الأضيَقِ لِلمَعنَى كانَ تِلميذُهُ البروفيسور غَيْسَر J. Geyser[2] الأستاذُ في جامِعَةِ مُونشتَر Münster قَد أَخذَ على عاتِقِهِ مهمَّةَ انتِخابِ الأساسيّاتِ على نَحوٍ مُشابِهٍ، وذلكَ في كِتابِهِ الفَلسَفَةُ في سُبُلِها الحَديثَةِ والقَديمَةِ *Neue und alte Wege der Philosophie* الذي أَخلَصَهُ لِتَلخيصِ إسهاماتِ هوسِّيرل الرَّئيسَةِ في نَظريَّةِ المَعرِفَةِ في كِتابَيْهِ بُحوثٌ مَنطِقيَّةٌ *Logische Untersuchungen*، وأفكارٌ: نَحْوَ ظاهِراتِيَّةٍ خالِصَةٍ وفلسفةٍ ظاهِراتِيَّةٍ *Ideen zu einer reinen Phenomenologie*.

ويَذهَبُ هوسِّيرل إلى أنَّ وَظيفَةَ التَّعبيرِ إنَّما تُعَدِّلُ مُباشَرَةً وفورًا لِما يُوصَفُ عادَةً بِأَنَّهُ مَعنَى (Bedeutung) *meaning* أو مفادُ (Sinn) *sense* الكَلامِ أو أقسامِ الكَلامِ. والسَّببُ الوَحيدُ لِتَسميةِ الصَّوتِ الكَلِميِّ 'تَعبيرًا' expression' هوَ كَونُ المَعنَى المُرتَبِطِ بِذلكَ الصَّوتِ الكَلِميِّ يُعَبِّرُ عن شَيءٍ مّا (*Ideen*, p. 256 f). "وبينَ المَعنَى وما يُعْنَى، أو ما يُعَبَّرُ عنهُ، ثَمَّةَ عَلاقَةٌ أساسيَّةٌ؛ ذلكَ بِأنَّ المَعنَى هوَ التَّعبيرُ عن المَعْنِيِّ مِن خِلالِ مَضمونِهِ الذّاتيِّ (Gehalt). ويَكمُنُ المَعْنِيُّ (dieses Bedeutete) في 'مَوضوعِ object' الفِكرَةِ أو الكَلامِ. لِذلكَ يَجِبُ علينا أن نُفَرِّقَ بينَ هذهِ الثَّلاثَةِ- الكَلِمةِ، والمَعنَى، والمَوضوعِ"[3]. [270]

---

(2) جوزيف غَيْسَر (1869-1948م). فيلسوفٌ ألمانيٌّ من فَلاسفةِ الواقعيَّةِ النَّقديَّةِ. حازَ درجةَ الدكتوراه في الفلسفةِ من جامعةِ بون سنةَ 1898. عارَضَ منذُ شبابِهِ ما عدَّهُ اتِّجاهَيْنِ للفلسفةِ المتأخِّرَةِ، أحدُهما الاتِّجاهُ العَقليُّ الشَّديدُ التَّلوُّنِ بِالنِّسبيَّةِ التَّاريخيَّةِ، والآخَرُ الاتِّجاهُ الكانتيُّ المِثاليُّ المُغرِقُ في التَّجريدِ. وحاوَلَ جاهِدًا أن يَجعلَ الفلسفةَ تسألُ الأسئلةَ المستقلَّةَ تمامًا عن أيِّ موقِفٍ وقتِيٍّ وأن تُجيبَ عن هذهِ الأسئلةِ على نحوٍ موضوعيٍّ واقعيٍّ نَقديٍّ. مِن مُؤلَّفاتِهِ: عِلمُ المَعرِفَةِ عندَ أرِسطو، ومُقَرَّرٌ في عِلمِ النَّفسِ العامّ، والفلسفةُ في سُبُلِها الحديثةِ والقديمة. [المُترجِم]

(3) Geyser, *op. Cit.*, p. 28.

فَأَمّا المَوضوعُ فَهوَ ما يَقولُ التَّعبيرُ عنهُ شَيئًا مّا، وأَمّا المَعنَى فَهوَ ما يَقولُهُ عنهُ. فيَرتَبِطُ القَولُ حينَئذٍ بِالمَوضوعِ بِوَساطَةِ المَعنَى. لكِنَّ هوسِّيرل يَنُصُّ صَراحَةً على أنَّ "المَوضوعَ لا يُطابِقُ (*zusamenfällt*) المَعنَى البَتَّةَ" (*L.U.*, II., i., p. 46). وهوَ يَجعَلُ مُرتكَزَ هذا الجَزمِ حَقيقَةَ "أنَّ الكَثيرَ مِن التَّعبيراتِ يُمكِنُ أن يَكونَ لَها مَعنًى واحِدٌ لكِنَّ مَوضوعاتِها مُختلِفَةٌ، ثُمَّ قَد يَكونَ لَها مَعانٍ مُختَلِفَةٌ لكِنَّ المَوضوعَ واحِدٌ" (*Ibid.*, p. 47). "فتَعبيرا 'المُثَلَّث المُتَساوي الزَّوايا equiangular والمُثَلَّث المُتَساوي الأَضلاعِ equilateral'، على سبيلِ المِثالِ، لَهُما مَعنَيانِ مُختَلِفانِ، لكِنَّهُما اسمانِ يُطلَقانِ على المَوضوعِ نَفسِهِ. وقد يَحدُثُ العَكسُ، أي أن يَختَلِفَ المَوضوعُ لكِن يُدَلُّ على مَعنًى واحِدٍ، وذلكَ حينَ يُوصَفُ كُلٌّ مِن بوسيفالوس Bucephalus[4] وحِصانِ العَرَبَةِ cart-horse بِأَنَّهُ 'حِصانٌ horse'. ولا يَغدُو مَعْنَى تَعبيرٍ مّا مَوضوعًا إلّا حينَ يَرتَدُّ فِعلُ فِكرَةٍ مّا إليها على نَحوٍ انعِكاسِيٍّ"[5].

ويُوضِحُ هوسِّيرل مفادَ التَّعبيرِ 'المَعنَى'، الذي ذَكَرَ غَيْسَر (ص 33) أَنَّهُ عادَةً مّا يُرادِفُ 'المَفهومَ (was meist als Begriff bezeichnet wird)'، بِالمُوازَنَةِ بينَ حالَتَيْنِ. فَعِندَ الإدراكِ الحِسّيِّ لِمَوضوعٍ أبيضَ يُمكِنُ أن يُرضِيَنا إدراكُهُ حِسّيًّا وفي نِهايَةِ الأمرِ تَمييزُ شَيءٍ مّا أو غَيرِهِ فيهِ. وليسَ ثَمَّةَ ضَرورةٌ لِوُجودِ التَّعبيرِ والمَعنَى مِن أجلِ أداءِ هذهِ الوَظيفَةِ. غيرَ أَنَّ بِإمكانِنا أيضًا أن نُجاوِزَ ذلكَ إلى فِكرَةِ: "هذا أبيَضُ". فالمُدرِكُ قَد زادَ، في هذهِ الحالَةِ، على الإدراكِ الحِسّيِّ فِعلاً عَقلِيًّا يُعَبِّرُ ويَعْنِي الشَّيءَ المُدرَكَ حِسّيًّا والشَّيءَ الذي قَد مُيِّزَ فيما قَد أُدرِكَ حِسّيًّا، أي الغَرَضَ. لِذلكَ إذا ما أَرَدْنا صِياغَةً عامَّةً قُلْنا إنَّ التَّعبيرَ شَكلٌ يَرْفَعُ المفادَ "إلى مَملَكَةِ 'اللوغوس Logos' المَفْهومِيِّ ومِنهُ إلى ما هوَ 'عامٌّ'" (*Ideen*, p. 257). إنَّ وَظيفَةَ التَّعبيرِ، هذا المقصدِ المُمَيِّزِ، "تَستَنفِدُ نَفسَها بِالتَّعبيرِ، وبِهذا الذي هوَ

---

(4) بوسيفالوس: حِصانُ الإسكندَرِ الأكبَرِ (356-323 ق.م)، وأحدُ أشهَرِ خُيولِ العُصورِ القَديمةِ. [المُترجِم]

(5) Geyser, *op. Cit.*, p. 29.

داخِلٌ حَديثًا مِمّا لَهُ شَكلٌ مَفهوميٌّ" (*Ibid.*, p. 258). ووظيفَةُ 'التَّعبيرِ'، بَعدَ ذلكَ، وَظيفَةُ مُحاكاةٍ لا وَظيفَةُ إنتاجٍ.

ويَصِفُ هوسّيرل بِكَلِمَتَي 'تَعبير' و'مَعنًى'، في المَقامِ الأوَّلِ، المَفاهيمَ، ولكِنَّهُ يَصِفُ بِهِما أيضًا الأحكامَ والاستِنتاجاتِ، فيقولُ: "على المَنطِقِ الخالِصِ، حيثُما تَعامَلَ معَ المَفاهيمِ والأحكامِ والاستِنتاجاتِ، أن يَتَعامَلَ حَصْريًّا معَ هذهِ الوحداتِ المِثاليَّةِ، التي نُسَمّيها هُنا المَعانِيَ" (*L.U.*, II., i., p. 916). وعلى العُمومِ، "واضِحٌ أنَّ المَنطِقَ يَجِبُ أن يَكونَ مَعرِفَةَ المَعاني في حَدِّ ذاتِها: أنواعِها واختِلافاتِها الأساسيَّةِ، والقَوانينِ المُخْلَصَةِ لَها كذلكَ (أي المِثاليَّةِ). ذلكَ بِأنَّهُ إلى هذهِ الفُروقِ الأساسيَّةِ تنتَمي أيضًا الفُروقُ التي بينَ المَعاني، التي لَها مَوضوعاتٌ objects والتي لا مَوضوعاتِ لَها، الصّادِقَةِ والكاذِبَةِ . . ." (*Ibid.*, p. 92). ولِكُلِّ فِكرَةٍ مَدًى مُعَيَّنٌ مُلائمٌ مِن أفعالِ التَّعبيرِ أو المَعنَى، التي لا تُطابِقُ الكَلِمةَ الحِسِّيَّةَ ولا [271] مَوضوعاتِ الإدراكِ. "ولا يَسْهُلُ أن يُدرَكَ بِوُضوحٍ أنَّهُ، في الحقيقَةِ، بَعدَ تَجريدِ الطَّبَقَةِ الصَّوتيَّةِ-الكَلِميَّةِ الحِسِّيَّةِ يُلفَى تَرتيبٌ طَبَقِيٌّ مِن النَّوعِ الذي نَفتَرِضُهُ هُنا، أي أنَّهُ في كُلِّ حالةٍ- حتَّى في حالةِ الفِكرَةِ اللفظيَّةِ المُجَرَّدَةِ، الفارِغَةِ، غيرِ الواضِحَةِ- ثَمَّةَ طَبَقَةٌ لِلتَّعبيرِ عن المَعنَى، وطَبَقَةٌ فَرعِيَّةٌ لِلمَعنَى المُعَبَّرِ عنهُ. وأقَلُّ مِن ذلكَ سُهولَةً فَهمُ الارتِباطاتِ الأساسيَّةِ لِهذهِ الطَّبَقاتِ" (*Ideen*, p. 259).

ويُتابِعُ هوسّيرل مُفَرِّقًا بينَ ما يُسَمّيهِ 'مَقاصِدَ المَعنَى' (Bedeutungsintentionen) وما يُسَمّيهِ 'المَعانيَ المُدرَكَةَ (erfüllte Bedeutungen)'؛ وبينَ أفعالِ 'مَنحِ المَعنَى' وأفعالِ 'إدراكِ المَعنَى (*L.U.*, i., p. 38)'؛ وبينَ المُعالَجَةِ السّايكولوجيَّةِ لِلمَعنَى والمُعالَجَةِ المَوضوعِيَّةِ-الظّاهِراتِيَّةِ لَهُ[6]. فَفي المَنظورِ الظّاهِراتيِّ، حينَ نَسألُ عن مَعنَى تَعبيرِ 'العَدَدِ الأوَّليِّ prime-number'[7] إنَّما

---

(6) Geyser, p. 22.

(7) العددُ الأوَّليُّ: هو عددٌ طبيعيٌّ أكبرُ قَطعًا من (1)، ولا يَقبَلُ القِسمةَ إلّا على نفسِهِ وعلى (1) فقط. ويُدْعَى كُلُّ عددٍ طبيعيٍّ أكبر قطعًا من (1) وغير أوَّليٍّ عددًا مُؤَلَّفًا. فالعددُ (5)، =

نُحيلُ على (meinen) هذا التَّعبيرِ في نَفسِهِ وفي حَدِّ ذاتِهِ، لا في خُصوصِيَّتِهِ (Besonderheit)، بِوَصفِهِ يَتَحَدَّثُ بِهِ فَردٌ مّا في مُحاضَرَةٍ مّا، أو بِوَصفِهِ مَوجودًا في كِتابِ كَذا وكَذا المَكتوبِ بِطَريقَةِ كَذا وكَذا. والأحرَى أنّا سنكتَفي بِسُؤالِ: ما الذي يَعنيهِ الـ تَّعبيرُ 'الرَّقمُ الأوَّلِيُّ'؟ كما أنّا لا نَسألُ: ما الذي كانَ يَعنيهِ في هذهِ اللحظَةِ أو تلكَ التَّعبيرُ الذي يُفَكِّرُ بِهِ المَرءُ كَذا وكَذا أو يُجَرِّبُهُ؛ بَل نَسألُ عن مَعناهُ عُمومًا في حَدِّ ذاتِهِ وفي نَفسِهِ. ويُعَبِّرُ هوسِّيرل عن هذهِ الحالةِ بِقَولِهِ إنَّ الشَّأنَ في مِثلِ هذهِ الأسئلَةِ يتعلَّقُ بِالتَّعبيرِ والمَعنَى 'في صُورَتِهِما الفِعليَّةِ'، 'بِوَصفِهِما نَوعًا'، و'بِوَصفِهِما فِكرَةً'، و'بِوَصفِهِما وَحدَةً مِثاليَّةً'؛ ذلكَ بِأنَّ المُحالَ عليهِ هوَ مَعنًى واحِدٌ وهوَ المَعنَى نَفسُهُ، وتَعبيرٌ واحِدٌ وهوَ التَّعبيرُ نَفسُهُ، على أيِّ نَحوٍ فُكِّرَ فيهِما أو تُكُلِّمَ بِهِما (*L.U.*, II., i., p. 42 f). مِن ثَمَّ لا بُدَّ مِن أن يَكونَ لِلمَعاني أي المَوضوعاتِ المِثاليَّةِ وُجودٌ، ما دُمْنا نُسْنِدُ إليها بِصِدْقٍ- مِثالُ ذلكَ قَولُنا إنَّ الأربَعَةَ رَقمٌ زَوجِيٌّ (*Ibid.*, p. 125)، لكِنَّ وُجودَها لا يَعتَمِدُ على كَونِها يُفَكَّرُ فيها. إنَّ لَها وُجودًا خالِدًا مِثالِيًّا[8]. "يُمكِنُ أن نُجابَ عن سُؤالِ: ما المَعنَى؟ مُباشَرَةً كما نُجابُ مُباشَرَةً عن سُؤالِنا عن اللونِ أو النَّغمَةِ. على أنَّهُ لا يُمكِنُ تَعريفُهُ بِأكثَرَ مِن ذلكَ؛ ذلكَ بِأنَّهُ قيمَةٌ مُطلَقَةٌ وَصفِيَّةٌ. فَكُلَّما أتمَمْنا تَعبيرًا مّا أو فَهِمْناهُ عَنَى لَنا شَيئًا مّا وكُنّا واعِينَ فِعلِيًّا لِمَعناهُ". والفُروقُ بينَ المَعاني تُقَدَّمُ إلينا مُباشَرَةً كذلكَ، وفي وُسعِنا تَصنيفُها في ظاهِراتِيَّةِ المَعنَى، بِوَصفِها 'رَمزِيَّةً-فارِغَةً'، و'مُدرَكَةً حَدْسِيًّا'، وما إلى ذلكَ؛ وإنَّ العَمَليّاتِ التي مِن قَبيلِ التَّعْيينِ والتَّمييزِ، والعَزْوِ، وتَعْميمِ التَّجْريدِ، تَهَبُ لَنا "المَفاهيمَ المَنطِقِيَّةَ الأساسيَّةَ التي هيَ لَيسَتْ سِوَى تَصَوُّراتٍ مِثاليَّةٍ للتَّمْييزاتِ الأوَّلِيَّةِ لِلمَعنَى" (*Ibid.*, p. 183). [272]

= مثلاً، عددٌ أوَّليٌّ لأنَّهُ لا يقبلُ القِسمةَ إلّا على (1) وعلى (5)، في حينِ أنَّ العددَ (6) عددٌ مؤلَّفٌ لأنَّهُ يَقبلُ القسمةَ على (1) و(2) و(3) و(6). [المُترجِم]

(8) *Ibid.*, p. 36.

§2. برتراند رَسِل Bertrand Russell

يُمكِنُ الوُقوفُ على أشهَرِ رَأيٍ بِهذا الشَّأنِ لِلسَّيِّدِ رَسِل (وهوَ الذي يَجِبُ أن يُقرَأَ الآنَ، على أيَّةِ حالٍ، مُتَّصِلاً بِإسهامِهِ السّايكولوجيِّ الذي لَقِيَ قَبولاً أكثَرَ والذي تَطرَّقْنا إليهِ في الفَصلِ الثّالثِ مِن هذا الكتابِ، وبِمَقالاتِهِ في دَوْرِيَّةِ Monist بينَ سَنَتَيْ 1918-1919) في الصَّفحةِ السّابِعَةِ والأربَعينَ مِن كِتابِهِ مَبادِئُ الرِّياضِيّات Principles of Mathematics. وهوَ مَعنِيٌّ في هذا المَوضِعِ بِصِلَةِ مَذهَبِهِ في الصِّفاتِ بِآراءٍ تَقليديَّةٍ مُعَيَّنَةٍ بِشأنِ طَبيعَةِ القَضايا propositions، وبِنَظريَّةِ برادلي Bradley[9] التي مفادُها "أنَّ جَميعَ الكلماتِ تَرْمِزُ إلى أفكارٍ لَها ما يُسَمِّيهِ مَعنًى، وأنَّ كلَّ حُكمٍ يَنطَوي على شَيءٍ مّا، هوَ المَوضوعُ الصّادِقُ لِلحُكم" الذي ليسَ بِفِكرةٍ وليسَ لَهُ مَعنًى. ويقولُ السَّيِّدُ رَسِل: "امتِلاكُ المَعنى فِكرَةٌ مُرَكَّبَةٌ تَركيبًا تَخليطِيًّا مِن عناصِرَ مَنطِقِيَّةٍ وسايكولوجِيَّةٍ. فَجميعُ الكَلِماتِ لَها مَعنًى، على الوَجهِ البَسيطِ الذي فَحواهُ أنَّها رُموزٌ تُمَثِّلُ شَيئًا مّا غيرَ ذَواتِها. لكِنَّ القَضِيَّةَ proposition، ما لَم تَكُن لُغَوِيَّةً، لا تشتَمِلُ هيَ نَفسُها على كَلِماتٍ، بَل تَشتَمِلُ على كِياناتٍ يُشارُ إليها بِالكَلِماتِ. وعلى ذلكَ يَكونُ المَعنَى، على الوَجهِ الذي يَكونُ لِلكَلِماتِ بِهِ مَعنًى، غيرَ ذي صِلَةٍ بِالمَنطِقِ. لكِنَّ المَفاهيمَ التي مِن قَبيلِ رَجُل يَكونُ لَها مَعنًى على وَجهٍ آخَرَ: فهيَ، إن جازَ التَّعبيرُ، رَمزِيَّةٌ بِطبيعتِها المَنطقيَّةِ الذّاتيَّةِ؛ ذلكَ بِأنَّ لَها الخاصِّيَّةَ التي أدعوها دَلالَةَ التَّعْيينِ denoting. أي إنَّهُ إذا ما ظَهَرَ رَجُلٌ في قَضِيَّةٍ مّا (في قَولِنا، على سبيلِ المِثالِ: 'قابَلْتُ رَجُلاً في الشّارِعِ') فإنَّ القَضِيَّةَ لا تَدورُ حولَ فِكرَةِ الرَّجُل، بَل إنَّها تَدورُ حَولَ شَيءٍ مُختلِفٍ تَمامًا، شَيءٍ فِعلِيٍّ ذي قَدَمَيْنِ يَدُلُّ عليهِ المَفهومُ دَلالَةً تَعيينِيَّةً. بِذلكَ يكونُ لِلمَفاهيمِ التي مِن هذا القَبيلِ مَعنًى بِمَنحًى غيرِ سايكولوجيٍّ. وبِهذا المَنحَى، حينَ نَقولُ: 'هذا رَجُلٌ'، نَحنُ نُنشِئُ قَضِيَّةً يَكونُ المَفهومُ فيها، بِمَنحًى مّا، مُلْحَقًا بِما ليسَ بِمَفهومٍ. ولكِنْ حينَ يُفهَمُ المَعنَى على هذا النَّحوِ لا يَكونُ لِلكِيانِ المُشارِ إليهِ بِـجون John مَعنًى، على ما يُؤَكِّدُ السَّيِّدُ برادلي، بَل إنَّهُ لا يَحوزُ المَعنَى مِن

(9) Logic, Book I., Chapter I., §§ 17, 18 (pp. 58-60).

المَفاهيمِ إلّا ما كانَ يَدُلُّ دَلالَةً تَعْيينِيَّةً. أعتَقِدُ أنَّ القِسْمَ الأعظَمَ مِن الخَلطِ في هذا الأمرِ مَرَدُّهُ إلى فِكرَةِ أنَّ الكَلِماتِ تَقَعُ في قَضايا، ومَرَدُّ هذهِ هيَ أيضًا إلى فِكرَةِ أنَّ القَضايا عَقلِيَّةٌ في أساسِها وأنَّها تَقتَضي مُطابَقَتَها معَ الإدراكاتِ".

§3. فريجة *Frege*

قَدَّمَ فريجة نَظريَّتَهُ في المَعنَى في كِتابِهِ **تَدْوِينُ المَفهُومِ** *Begriffsschrift*[(10)]، وكِتابِهِ **أُسُسُ الحِسابِ** *Grundlagen der Arithmetik*[(11)]، وفي مَقالَتَيْهِ "المَفهومُ والمَوضوع Begriff und Gegenstand"[(12)]، و"المَعنَى والإشارَة Sinn und Bedeutung"[(13)]. ونَحنُ هُنا نُتابِعُ خُلاصَةً مُلائمَةً عَرَضَها السَّيِّدُ رَسِل في الصَّفحَةِ 502 مِن **كِتابِهِ المَبادِئ** *Principles*[(14)] الذي يَذهَبُ إلى أنَّ مَا جاءَ بِهِ فريجة

(10) العُنوانُ الكامِلُ لِهذا الكتابِ هوَ (تَدْوِينُ المَفهُومِ: لُغَةٌ صُورِيَّةٌ لِلفِكرِ الخالِصِ على مِنوالِ لُغَةِ الحِسابِ). [المُترجِم]

(11) العُنوانُ الكامِلُ لِهذا الكِتابِ هوَ (أُسُسُ الحِسابِ: تَحقيقٌ مَنطِقِيٌّ-رِياضِيٌّ في مَفهومِ العَدَدِ). [المُترجِم]

(12) تَمييزُ المَفهومِ مِن المَوضوعِ في فلسفةِ اللغةِ يُمكِنُ عَزوُهُ إلى فريجة الذي ذهبَ إلى أنَّ الجُملةَ التي تُعَبِّرُ عن فِكرةٍ مُفرَدَةٍ تتكوَّنُ مِن تَعبيرٍ (اسم عَلَم، أو تَعبيرٍ عامٌ معَ أداةِ التَّعريفِ) يَدُلُّ على مَوضوعٍ، معَ مَحمولٍ (الرّابِطَةِ "is" معَ تَعبيرٍ عامٍّ مَصحوبٍ بِأداةِ التَّعريفِ أو بِصِفَةٍ) يَدُلُّ على مَفهومٍ. فبِذلكَ تكونُ جُملةُ "سُقراطُ فيلسوفٌ" مُكَوَّنَةً مِن "سُقراط" الذي يَدُلُّ على الموضوعِ سُقراط، و"فيلسوف" الذي يَدُلُّ على مَفهومِ أن يَكونَ المرءُ فيلسوفًا. وقد شَكَّلَتْ هذهِ الأُطروحَةُ افتِراقًا واضِحًا عن المنطِقِ التَّعبيرِيِّ التقليديِّ الذي كانَتْ كلُّ قَضِيَّةٍ فيهِ (أي جُملَةٍ) تتكوَّنُ مِن تَعبيرَيْنِ عامَّيْنِ تَصِلُ بينَهُما الرّابطةُ "is". [المُترجِم]

(13) عُنوانُ المَقالَةِ هوَ (في المَعْنَى والإشارَة). وهُما جانِبانِ مُختلِفانِ لِبَعضِ معاني التَّعبيراتِ عندَ فريجة؛ فإشارةُ التَّعبيرِ هيَ الموضوعُ الذي يُشيرُ إليهِ التَّعبيرُ، في حينِ أنَّ مَعنَى التَّعبيرِ هو الطريقةُ التي يُشيرُ بها التَّعبيرُ إلى ذلكَ الموضوعِ. وقد استعمَلَ فريجة مُصطَلَحَ الإشارَة معَ أسماءِ الأعلامِ على نحوٍ رئيسٍ، ومعَ الجُمَلِ على نَحوٍ أقَلَّ. [المُترجِم]

(14) العُنوانُ الكامِلُ لِهذا الكِتابِ هوَ (مَبادِئُ الرِّياضيّات)، وقد ألَّفَهُ برتراند رَسِل سنةَ 1903م، وقدَّمَ فيهِ مُفارَقَتَهُ المَشهورةَ واحتَجَّ لأطروحتِهِ التي مفادُها أنَّ الرِّياضيّاتِ والمنطِقَ مُتَطابِقانِ. [المُترجِم]

"تَكثُرُ فيهِ التَّمييزاتُ [273] الدَّقيقَةُ، ويَجتَنِبُ جَميعَ المُغالَطاتِ المُعتادَةِ التي تَكتَنِفُ كِتاباتِ المُشتَغِلينَ بِالمَنطِقِ". إنَّ التَّفريقَ الذي أتَى بِهِ فريجة بينَ المَعنى meaning (*Sinn*) والإشارَةِ indication (Bedeutung) يُعادِلُ، على وَجهِ التَّقريبِ لا الدِّقَّةِ، تَفريقَ السَّيِّدِ رَسِل بينَ المَفهومِ في حَدِّ ذاتِهِ وما يُشيرُ إليهِ المَفهومُ (*Principles* §96). ولم يَنطَوِ العَمَلانِ الأوَّلانِ لِفريجَة مِن أعمالِهِ المَذكورةِ آنِفًا على هذا التَّفريقِ، لكِنَّهُ يَظهَرُ في عَمَلِهِ الثّالثِ *B.u.G*، وتَعامَلَ معَهُ تَعامُلاً خاصًّا في عملِهِ الآخَرِ *S.u.B*. وقد رَأى أن يَنتَهِيَ مِن مُطابَقَةِ أسماءِ المَوضوعاتِ قبلَ القِيامِ بِالتَّفريقِ (*Bs.*, p. 13)، فيَقولُ إنَّ كَوْنَ "A مُطابِقًا لِـ B" يَعني أنَّ العَلامَةَ A والعَلامَةَ B لَهُما الدَّلالَةُ نَفسُها (*Bs.*, p. 15)- وهذا تَعريفٌ، مِن وِجهَةِ نَظرِ السَّيِّدِ رَسِل، "يَلزَمُ مِنهُ الدَّوْرُ مِن النّاحيَةِ اللفظيَّةِ في الأقَلِّ". لكِنَّهُ يُفَسِّرُ المُطابَقَةَ، لاحِقًا، تَفسيرًا يَقتَرِبُ كثيرًا مِن أن يَكونَ مُماثِلاً لِما فَسَّرَها بِهِ السَّيِّدُ رَسِل في كِتابِ المَبادِئ *Principles*, §64. إذ يَقولُ: "إنَّ المُطابَقَةَ تَستَلزِمُ الانعِكاسَ الذي تُسَبِّبُهُ الأسئلَةُ المُلحَقَةُ بِها التي لا تَسهُلُ تَمامًا الإجابَةُ عنها. أعَلاقَةٌ هِيَ؟ أعَلاقَةٌ هيَ بينَ مَوضوعاتٍ Gegenstände أم عَلاقَةٌ بينَ أسماءٍ أو عَلاماتٍ لِمَوضوعاتٍ Gegenstände؟" (*S.u.B.*, p. 25). ويُتابِعُ قائلاً إنَّ عَلَينا أن نُمَيِّزَ المَعنَى، الذي يتضَمَّنُ الطَّريقَةَ التي يُعطَى بِها، مِمّا يُشارُ إليهِ (أي مِن *Bedeutung*). فعَلَى ذلكَ يَكونُ لِـ 'نَجمِ المَساءِ' و'نَجمِ الصَّباحِ' إشارَةٌ واحِدَةٌ، لكِنَّ مَعناهُما ليسَ واحِدًا. فالكَلِمَةُ تَرمِزُ إلى إشارَتِها على نَحوٍ اعتِياديٍّ؛ فإذا ما رَغِبْنا في الحديثِ عن مَعناها كانَ علينا استِعمالُ عَلامَتَي الاقتِباسِ أو آليّاتٍ أُخرَى مُشابِهَةٍ. وإشارَةُ اسمِ العَلَمِ هيَ المَوضوعُ object الذي يُشيرُ إليهِ؛ والمَظهَرُ الذي يَظهَرُ بِهِ ذاتِيٌّ تَمامًا؛ وبينَ الاثنَيْنِ يَكمُنُ المَعنَى، الذي هوَ ليسَ ذاتِيًّا، مَعَ أنَّهُ ليسَ المَوضوعَ. فاسمُ العَلَمِ يُعَبِّرُ عن مَعناهُ، ويُشيرُ إلى إشارَتِهِ.

ويَمضي السَّيِّدُ رَسِل بِقَولِهِ: "إنَّ هذهِ النَّظريَّةَ في الإشارَةِ أشمَلُ وأعَمُّ مِن نظريَّتي، يَدُلُّ على هذا حقيقَةُ أنَّ كُلَّ اسمِ عَلَمٍ يُفتَرَضُ أن يَكونَ لَهُ هذانِ الجانِبانِ. ويَبدو لِي أنَّ أسماءَ الأعلامِ المُشتَقَّةَ مِن المَفاهيمِ بِوَساطَةِ أداةِ التَّعريفِ ال هيَ وَحدَها التي يُمكِنُ أن يُقالَ إنَّ لَها مَعنًى، أمّا الكَلِماتُ التي على شاكِلَةِ

جون *John* فليسَ لَها إلّا أن تُشيرَ مِن غيرِ أن يَكونَ لَها مَعنًى. وإذا ما تَقَبَّلَ المَرءُ، كما أفعَلُ أنا، إمكانَ أن تَكونَ المَفاهيمُ مَوضوعاتٍ وأن يَكونَ لَها أسماءُ أعلامٍ، فمِن الواضِحِ تَمامًا أنَّ ما لَها مِن أسماءِ أعلامٍ ستُشيرُ إليها، عادَةً، مِن غيرِ أن يَكونَ لَها مَعنًى بَيِّنٌ، أمّا الرَّأيُ المُضادُّ فَلا يَبدو مُستَحيلاً مِن النّاحيةِ المَنطقيَّةِ وإنْ كانَ يُؤَدّي إلى نُكوصٍ لا نِهايَةَ لَهُ".

§4. غومبيرز *Gomperz*(15)

طَوَّرَ غومبيرز H. Gomperz وِجهةَ نظرِهِ في المُجلَّدِ الثّاني مِن كِتابِهِ [274] **رُؤيَةُ العالَمِ** *Weltanschauungslehre* (1908)، الذي خُصِّصَ الجُزءُ الأَوَّلُ منهُ لِعِلمِ الدَّلالَةِ اللفظيَّةِ المُسَمَّى السيماسيولوجيا *Semasiology*. وقد تَبنّاها البروفيسور ديتريتش Dittrich في كِتابِهِ **مُشكِلاتُ سايكولوجيَّةِ اللُّغَةِ** *Probleme der Sprach-psychologie* (1913)، الذي تَرتَكِزُ الخُلاصَةُ الآتِيَةُ على ما قَدَّمَهُ:-

في كُلِّ عِبارَةٍ تامَّةٍ (Aussage) يُمكِنُنا أن نُمَيِّزَ: أ. الأصواتَ *sounds* (Lautung) *phonesis* أو بالأَحرَى (Aussage-laute)، أي الشَّكلَ الصَّوتِيَّ لِلعِبارَةِ، ب. المَضمونَ *import* (Aussage-inhalt)، أي مفادَ *sense* (Sinn) العِبارَةِ؛ ج. الأَساسَ foundation (Aussagegrundlage)، أي الواقِعَةَ الفِعلِيَّةَ (Tatsache) التي تُنسَبُ إليها العِبارَةُ. ويُمكِنُ تَصويرُ العَلاقاتِ بينَ هذهِ العَناصِرِ الثَّلاثةِ على النَّحوِ الآتي: الأصواتُ (phonesis) هيَ التَّعبيرُ (Ausdruck) عن المَضمونِ واسمُ (Bezeichnung) الأساسِ، في حينِ أنَّ المَضمونَ هوَ تَأويلُ (Auffassung) الأساسِ. فَبِالقَدرِ الذي تُعالَجُ بِهِ الأصواتُ على أنَّها تَعبيراتٌ عن المَضمونِ تُضَمُّ إلى العِبارَةِ (Aussage). وبِالقَدرِ الذي يُعالَجُ بِهِ الأساسُ على أنَّهُ الواقِعَةُ التي يَنطَوي عليها المَضمونُ يُمكِنُ أن يُسَمَّى الواقِعَةَ المفصَحَ عنها (ausgesagte Sachverhalt)، أو الواقِعَةَ فَحَسْبُ. وتُدْعَى العَلاقَةُ القائمَةُ بينَ العِبارَةِ والواقِعَةِ

(15) هاينرِخ غومبيرز (1873-1942م). فيلسوفٌ نمساويٌّ، ابنُ الفيلسوفِ تيودور غومبيرز. من مؤلَّفاتِهِ: رُؤيَةُ العالَمِ، ودِراساتٌ فلسفيَّةٌ. [المُترجِم]

المُعَبَّرِ عنها المَعنَى (Bedeutung)[16].

ويَرَى غومبيرز أنَّ الأصواتَ التي تُطابِقُ عِبارَةً تامَّةً، نَحو "هذا الطّائرُ يَطيرُ"، لَها وظيفَةٌ تَمثيليَّةٌ خُماسِيَّةٌ. فالعِبارَةُ، بِوَصفِها صَوتًا، يُمكِنُ أن يُنظَرَ فيها على ذلكَ تَحتَ خَمسَةِ بُنودٍ:-

1. أَنَّها تُمَثِّلُ نَفسَها، بِوَصفِها مُجَرَّدَ ضَجيجٍ، على ما يُدرِكُهُ مِنها أَيُّ شَخصٍ لا يَعرِفُ هذهِ اللغَةَ.

2. أنَّها تُمَثِّلُ حالةً مُعَيَّنَةً (Tatbestand)، 'هذا الطّائرُ يَطيرُ'، المَعنَى الذي عادَةً مّا تُستَعمَلُ لِلتَّعبيرِ عنهُ، مَضمونَ الفِكرَةِ التي يُفَكِّرُ فيها كُلُّ مَن يَنطِقُها أو يَسمَعُها.

3. أنَّها، زِيادَةً على ذلكَ، تُمَثِّلُ واقِعَةَ 'هذا الطّائرُ يَطيرُ'، أي كُلَّ جُزءٍ مِن الواقِعِ يُمكِنُ أن تَنطَوِيَ عليهِ فِكرَةُ 'هذا الطّائرُ يَطيرُ' ويُشيرُ إليهِ هذا الصَّوتُ. (قَد يَتنوَّعُ هذا تَنوُّعًا كَبيرًا- فقد يَكونُ زرزورًا، أو نَسرًا، أو مُجَرَّدَ 'شَيءٍ مّا يتحرَّكُ').

4. أنَّها تُمَثِّلُ القَضِيَّةَ: 'هذا الطّائرُ يَطيرُ'، بِوَصفِها قَولاً دالّاً، مِن خِلالِهِ يُعَبِّرُ الصَّوتُ، الذي يُصبِحُ بِذلكَ صَوتًا لُغَوِيًّا، عن المَعنَى أو الحالَةِ لِـ'هذا الطّائرُ يَطيرُ'، وبِمَعِيَّةِ هذا المَعنَى يُكَوِّنُ العِبارَةَ.

5. أنَّها تُمَثِّلُ الواقِعَةَ (Sachverhalt) التي تُفْصِحُ عنها القَضِيَّةُ، والتي تُمَيِّزُ بِوُضوحٍ مِن كُلٍّ مِن الأساسِ ومِن المَضمونِ. "فالقَضِيَّةُ لا تَقتَصِرُ على الإفصاحِ عن [275] حُضورِ جُزءٍ مِن الواقِعِ الفيزيائيِّ يُمكِنُ التَّفكيرُ فيهِ بِوَصفِهِ يَمتَلِكُ خاصِّيَّةً أو بِوَصفِهِ عَمليَّةً، بِوَصفِهِ إيجابِيًّا أو سَلْبِيًّا active or passive، وما إلى ذلكَ. لكِنَّها تُفصِحُ عن حُدوثِ عمليَّةٍ فيزيائيَّةٍ يُمَيَّزُ فيها مَوضوعٌ حَيَوِيٌّ، أي طائرٌ، وفَعّاليَّةٌ (طَيَرانٌ)، وحُضورٌ فَوْرِيٌّ لِلمَوضوعِ المُشارِ إليهِ بِـ'هذا.' بِعِبارَةٍ أُخرَى، ما

(16) Gomperz, *loc., cit.*, p. 61.

تُفصِحُ عنهُ القَضِيَّةُ هوَ 'طَيَرانُ هذا الطّائِرِ.' ويَستَوي هذا أيضًا في كَونِهِ جُزءًا مِن الواقِعِ الفيزيائيِّ، لكِنَّهُ ذو لَفظٍ أُحادِيِّ المَعنَى. وهوَ ليسَ جُزءًا مِن الواقِعِ الفيزيائيِّ بِالمَعنَى العامِّ فَحَسْبُ، بَل إنَّهُ عمليَّةٌ فيزيائيَّةٌ على نَحوٍ أكثَرَ تَحديدًا، وفَعّاليَّةٌ فيزيائيَّةٌ على نَحوٍ مُحدَّدٍ تَمامًا. لكِنَّ هذهِ مُجَرَّدُ مَحمولاتٍ ما كانَ لِيُمكِنَ الأصواتَ في حَدِّ ذاتِها الإفصاحُ عنها... بِعِبارةٍ أُخرَى، يُمكِنُ أن يَكونَ الأساسُ واحِدًا لِلقَضايا الثّلاثِ: 'هذا الطّائرُ يَطيرُ'، و'هذا طائرٌ'، و'أنا أرَى مَخلوقًا حَيًّا'، في حينِ أنَّ الواقِعَةَ التي تُعَبِّرُ عنها هذهِ القَضايا الثّلاثُ تَكونُ مُختَلِفَةً في كلِّ مُناسَبَةٍ. إذ إنَّ القَضِيَّةَ الأولَى تُفصِحُ عن 'طَيَرانِ هذا الطّائرِ'، أمّا الثّانيةُ فتُفصِحُ عن 'أنَّ ثَمَّةَ طائرًا هوَ هذا'، وأمّا الثّالثةُ فتُفصِحُ عن 'رُؤيَتي أنا مَخلوقًا حَيًّا.' فإنْ كانَ الأساسُ لِهذهِ القَضايا واحِدًا هوَ الأساسُ نَفسُهُ، في حينِ أنَّ الواقِعَةَ المُفصَحَ عنها ليسَتْ واحِدَةً هيَ الواقِعَةُ نَفسُها، فلا يُمكِنُ أن تُدْمَجَ الواقِعَةُ في الأساسِ". كما لا يَجِبُ تَطابُقُ الواقِعَةِ معَ المَضمونِ أو المَعنَى (Inhalt oder Sinn)، "الذي هوَ ليسَ شَيئًا مّا فيزيائيًّا، بَل إنَّهُ مَجموعَةُ تَحديداتٍ مَنطقيَّةٍ (Bestimmungin)".

ويَذكُرُ ديتريتش أنَّهُ مِن كُلِّ ما سَبَقَ تَنشَأُ الصِّفَةُ العَلاقِيَّةُ المُمَيِّزَةُ لِذلكَ العُنصُرِ مِن عَناصِرِ العِبارَةِ الذي يُدْعَى المَعنَى. ولا يُمكِنُ أن يُطابِقَ المَعنى مُجَرَّدَ الاسْمِ designation (Bezeichnung). ويُؤَكِّدُ أنَّ الصَّوتَ الواحِدَ نَفسَهُ، 'top' مَثَلاً، يُمكِنُ أن يَكونَ اسْمًا لأساساتٍ مُختلِفَةٍ جِدًّا، وإذا ما قَصَرْنا المَعنَى على العَلاقَةِ بينَ العَلامَةِ وما يُسَمَّى، وهوَ ما يَفعَلُهُ مارتِناك Martinak، فلَن نَصِلَ إلى تَعريفٍ مُقْنِعٍ. وقَد يَكونُ التَّأويلُ (Auffassung)، على نَحوٍ مُشابِهٍ، عَلاقَةً مُتعدِّدَةً-واحِدَةً، ثُمَّ إنَّ استِعمالَ مُصطَلَحِ المَعنَى لِلتَّعبيرِ عن هذهِ العَلاقَةِ يُؤَدِّي إلى إسقاطِ العُنصُرِ اللغويِّ. كما لا يُمكِنُ أن يُطابِقَ المَعنَى عَلاقَةَ التَّعبيرِ (Ausdruck). وأخيرًا، يَظهَرُ المَعنَى بِوَصفِهِ عَلاقَةً مُحَدَّدَةً لكِنَّها مُعقَّدَةٌ، تَرتَكِزُ على نظريَّةِ 'الانطِباعاتِ الكُلِّيَّةِ total-impressions (Totalimpression)' وعلى التَّجارِبِ

العاطِفيَّةِ المُشتركةِ التي تُمَيِّزُ أتباعَ التَّجريبيَّةِ الانفِعاليَّةِ[17] pathempiricists[18].
"وفي وُسْعِ الصَّوتِ، أيًّا يَكُنْ، [276] أن يَكونَ اسْمًا لأيِّ أساسٍ، لكِن ليسَ في وُسعِهِ أن يَعْنِيَ إلّا حينَ يُصبِحُ عِبارَةً مِن خِلالِ تكوينِ مَضمونٍ عامٍّ-نَمَطيٍّ، ثُمَّ إنَّ هذا يُصبِحُ أساسًا (Grundlage) لِواقِعَةٍ مّا (Sacverhalt)[19].

---

(17) التَّجريبيَّةُ الانفِعاليَّةُ: فلسفةٌ لِغومبيرز تَرَى أنَّ جميعَ المفاهيمِ يَجِبُ أن تَستنِدَ إلى المشاعِرِ. وقد جاءَتْ هذهِ الفلسفةُ استِجابةً لأزمَةِ "المُحايَثة Immanence"؛ إذ ارتأتْ واحديَّةُ ماخ عدمَ وجودِ فرقٍ بينَ الواقعِ والحالاتِ الذِّهنيَّةِ، وعدَمَ الذَّهابِ إلى ما وراءَ الأحاسيسِ مِن "الوَعيِ"، أو "الخِبرَةِ"، أو "المَوضوعاتِ". وأصبَحَتِ الذّاتُ مَوضِعَ إشكالٍ. فعَلَى نَحوٍ مّا اندمَجَ دَفقُ الأحاسيسِ في وَعيِ "العالَمِ بِوصفِهِ حدَثًا مُنظَّمًا". لكِنْ كيفَ حدثَ ذلكَ؟ أمّا غومبيرز فقد تمسَّكَ بِالتَّجريبيَّةِ؛ فالمفاهيمُ مُتجذِّرةٌ في الخِبرةِ. وفي الوقتِ نفسِهِ قَبلَ غومبيرز نَقدَ كانْت لِهيوم الذي مفادُهُ أنَّ المفاهيمَ ليسَتْ مُجرَّدَ تَمثيلٍ لِلخِبرةِ؛ فالفَعّاليّاتُ التلقائيَّةُ لِلذّاتِ تُعَدِّلُ الخِبرةَ. ومعَ ذلكَ لم يَبْدُ الإدراكُ الكانتيُّ القَويُّ مُمكِنًا. إذ ذَهَبَ غومبيرز إلى أنَّ المشاعِرَ- وليسَ المقصودُ بِها العواطِفَ الحيَّةَ، بل هيَ المشاعرُ الإدراكيَّةُ- تَمنَحُ الخِبرةَ أشكالاً وتُوَلِّدُ تَمثيلاتٍ. فاستِنادًا إلى المفهومِ التَّجريبيِّ الانفعاليِّ لِلشَّكلِ يكونُ كلُّ الشَّكلِ شُعورًا، حتَّى إنَّ جميعَ مُحتوياتِ الخِبرةِ في الوعيِ تكونُ مُمَثَّلَةً من خِلالِ الأفكارِ، في مُقابِلِ جَميعِ أشكالِها التي تكونُ مُمَثَّلَةً مِن خِلالِ المشاعِرِ. وإنَّ ما يُقَرِّرُ حُدودَ الوَعيِ هوَ تقدُّمُ الكائنِ الحيِّ. فقد انتقَلَتِ التَّجريبيَّةُ الانفِعاليَّةُ مِن عِلمِ المعرفةِ إلى عِلمِ النَّفسِ وعِلمِ الأحياءِ. [المُترجِم]

(18) بِشأنِ هذهِ الوِجهَةِ يَقولُ الدُّكتور بيك E. H. F. Beck، الذي تُعَدُّ رِسالتُهُ التي عُنوانُها العِباراتُ المَجهولَةُ الفاعِلِ *Die Impersonalien* [كَعِبارَةِ "إنَّها تُمْطِرُ It is raining". المُتَرجِم] تَطبيقًا لِلتَّحليلِ الغومبيرزيِّ-الدِّيتريتشيِّ، والذي نَدينُ لَهُ يَقينًا بِما قَدَّمَهُ لَنا مِن المُقابِلاتِ الإنجليزيَّةِ التي ذَكَرْناها آنِفًا: "إنَّ التَّشديدَ يَقَعُ على الانطِباعِ العاطفيِّ الكُلِّيِّ Gesamteindrucksgefühl. فَالمُتكلِّمُ والمُستَمِعُ يَشتَرِكانِ في تَجارِبَ عاطِفيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تَشتَرِكُ في المَوضوعِ والانعِكاساتِ. ففي كُلِّ اتِّصالٍ فَعّالٍ يُعيدُ الانعِكاسُ- صَوتًا كانَ أو إيماءَةً أو رَمزًا مَكتوبًا- تَعيينَ التَّجرِبَةِ المُشتركةِ (النَّمطيَّةِ-العامَّةِ) العاطفيَّةِ التي يُرْجَعُ بِها إلى أساسِها. لِذلكَ كانَتِ العَلامَةُ- التي قد يَحُلُّ لَفظُها مَحَلَّ الصَّوتِ بِسببِ ما يتمتَّعُ بِهِ مِن مَدًى أوسَعَ- هيَ الشَّيْءَ المُدْرَكَ causa cognoscendi، على وَجهِ التَّقريبِ، لِحالةٍ عاطفيَّةٍ مُعيَّنَةٍ، وأساسًا لَها في نِهايَةِ الأمرِ".

(19) Dittrich, *op. cit.*, p. 52.

5. بالدوِن *Baldwin*

يُمكِنُ الوُقوفُ عل أفضَلِ دِراسَةٍ لِمَنْحَى البروفيسور بالدوِن في مُعالَجَةِ قَضيَّةِ المَعنَى في كِتابِهِ **الفِكرُ والأشياءُ** *Thought and Things*. إذ تناوَلَ الجُزءُ الثّاني مِن كِتابِهِ ما يُسَمِّيهِ 'المَنطِقَ التَّجريبيَّ Experimental Logic'، وقَد خُصِّصَ الفَصلُ السّابعُ مِنهُ لِتَطَوُّرِ المَعنى المَنطِقِيِّ. إذ "يَبدو أنَّ أكثَرَ مَناهِجِنا الإجرائيَّةِ واعِدِيَّةً هوَ أن نَأخُذَ مُختَلِفَ المَناحي والمَراحِلِ لِتَطَوُّرِ الحَمْلِ predication، فنُسائلَ كُلّاً مِنها على حِدَةٍ بِشَأنِ مَعناها البِنائيِّ أو التَّمييزيِّ، ما يَخُصُّها مِن 'ما what'- أي ما تَعنِيهِ الآنَ، بِوَصفِها فِقْرَةً ذاتَ مَعرفةٍ مُسَيَّقَةٍ contextuated ومُتاحَةٍ اجتِماعيًّا. فَـ'ما' هيَ مَوضوعُ الحُكم. فإذا ما انتَهَيْنا مِن تَقريرِ ذلكَ، أمكَنَنا التَّساؤُلُ عن آليَّةِ استِعمالِ مِثلِ هذا المَعنَى: أي 'مُقتَرَح' أنَّ المَعنَى يُوحِي أو يَقصِدُ حينَ يُعتَبَرُ اعتِبارًا آليًّا. ومِنَ المُمكِنِ تَسمِيَةُ التَّساؤُلِ الأخيرِ بِالتَّساؤُلِ المُتعلِّقِ بِـ'لِمَ why' المُتعلِّقَةِ بِالمَعنَى: أي الغَرَضِ أو الغايَةِ الشَّخصِيَّةِ أو الاجتِماعيَّةِ التي مِن أجلِها يُتاحُ المَعنَى لِلمُعالَجَةِ التَّجريبيَّةِ. وإذا ما استَعمَلْنا عِبارَةَ 'التَّفكيرِ الانتِخابيِّ'، كما فَعَلْنا سابِقًا، لِلعمليَّةِ الكُلِّيَّةِ التي تَنمُو على وَفقِها المَعاني في المَنحَى المَنطقيِّ: أي عمليَّةِ 'التَّحديدِ النِّظاميِّ' التي سَبَقَ وَضعُ تَخطيطٍ لَها في الفَصلِ الماضي- أمكَنَنا حينَئذٍ أن نَقولَ إنَّ كُلَّ مَعنًى مُعْطًى هو في وَقتٍ واحدٍ حَمْلٌ بِوَصفِهِ إيضاحًا لِـ مُقتَرَحٍ، وحَمْلٌ بِوَصفِهِ مُقتَرَحًا لِـ إيضاحٍ. فبِوَصفِهِ إيضاحًا لِصاحِبِ الاعتِقادِ فإنَّهُ يَقْتَرِحُهُ لآخَرَ، وبِوَصفِهِ مُقتَرَحًا فإنَّ المُتسائلَ يُقَدِّمُهُ إلى مُستَمِعٍ إيضاحِهِ. ثُمَّ يُمكِنُنا أن نَمضِيَ قُدُمًا معَ هذا المَنهَجِ ...".

وفي الفَصْلِ السّابِعِ، بَعدَ أربَعينَ صَفحَةً مِن هذا الكَلامِ، "نَقِفُ على استِنتاجاتٍ مُعَيَّنَةٍ أمكَنَ التَّوصُّلُ إليها سَلَفًا في عِباراتٍ تُعيدُنا إلى تَفريقِنا الأساسيِّ بينَ الاستِلزامِ Implication والتَّسليمِ Postulation"، على النَّحوِ الآتي:-

"عُرِّفَ الاستِلزامُ بِأنَّهُ المَعنَى الذي تُرَسِّخُهُ وتَختَصِرُهُ عمليّاتُ حُكمٍ لم

يُخَلَّف فيها أيُّ قَصدٍ افتِراضِيٍّ أو مُشْكِلٍ. بِعِبارَةٍ أُخرَى، ما الاستِلزامُ [277] إلّا المَعنَى الذي يُنقَلُ بِوَساطَتِهِ الاعتِقادُ، أي مَوقِفُ الإقرارِ في الحُكم. تَحتَ هذا العُنوانِ نَجِدُ نوعَيْنِ مِن المَعنَى: أحدُهُما هوَ مَوضوعُ الحَمْلِ، أي مَضمونُ الفِكرةِ، والآخَرُ هوَ مُسَلَّمَةُ presupposition الحُكمِ، أي مَجالُ التَّحكُّمِ الذي يَنعَقِدُ فيهِ الحَمْلُ أو يَصِحُّ ...".

وبَعدَ ذلكَ (ص 299) يُثارُ سُؤالٌ مفادُهُ: "على أيِّ وَجهٍ يُمكِنُ، بَعْدُ، أن يَكونَ المَعنَى الكُلِّيُّ المُشتركُ فَرْدِيًّا؟". والإجابَةُ تَكونُ "بِإبعادِ المَعنَى الفَردِيِّ مِن المَعنَى المَنطِقِيِّ، إن قَصَدْنا بِالفَردِيِّ نَمَطًا مِن المَعنَى يَفتَقِرُ إلى الاشتِراكِ. ذلكَ بِأنَّهُ إذا ما نُقِلَ مَعنًى فَردِيٌّ في حُكمٍ مّا فالمَعالِمُ التي جَعَلَتْهُ فَردِيًّا هيَ بِالتَّحديدِ التي تُعَمَّمُ في أحَدِ مَناحي الاشتِراكِ- وهذا ما يَحدُثُ بِاستِمرارٍ في تَجارِبَ مُختلفَةٍ لِشَخصٍ واحدٍ أو لأشخاصٍ مُختلِفِينَ. وقد تَراجَعَ قَصدُ الفَردِيَّةِ الذي لا يَسْمَحُ بِأيِّ تَعميمٍ إلى نِطاقِ التَّقويمِ المُباشِرِ أو التَّجربَةِ الفَورِيَّةِ". ويَذكُرُ أنَّ إيضاحَ هذا لا يَنطَوي على صُعوبَةٍ مّا. "فَلْنَفتَرِضْ أنِّي أُقِرُّ العِبارَةَ الآتِيَةَ: 'هذهِ هيَ البُرتُقالَةُ الوَحيدَةُ التي لَها هذا اللونُ.' فإنِّي بِفِعلي هذا أمنَحُ البُرتُقالةَ مَعنًى مُشتركًا بِطريقَتَيْنِ. فالذي أعنيهِ أنَّ بِاستِطاعتِكَ أن تَجِدَ أنَّها الوَحيدَةُ التي بِحَوزَتي، أو أنَّ بِاستِطاعتي أنا بِنَفسي أن أَجِدَ أنَّها هيَ نَفسُها بِتَكرارِ تَجرِبَتي عليها".

وخِتامًا (ص 423) يُجيبُ بالدونِ عَن الصُّعوباتِ التي ذكَرَها البروفيسور مُور A. W. Moore[20] بِشَأنِ مُصطَلَحاتِهِ، فيَقولُ مُوضِحًا ذلكَ: "إنَّ نِسبِيّاتِنا هيَ مَعانٍ مُتَضادَّةٌ، وثُنائيّاتٌ، ووَسائلُ بَعْضُها لِبَعضٍ، وإنَّ تَوَسُّطَ mediation هذهِ

(20) أدِسن ويبستَر مُور (1866-1930م). فيلسوفٌ براغماتيٌّ أمريكيٌّ. كانَ رئيسَ الجمعيَّةِ الفلسفيَّةِ الغربيَّةِ سنةَ 1911، ورئيسَ الجمعيَّةِ الفلسفيَّةِ الأمريكيَّةِ سنةَ 1917. حصلَ على شهادةِ الدكتوراه من جامعةِ شيكاغو سنةَ 1898 إبّانَ وجودِ جون ديوي فيها. وحينَ غادرَ ديوي إلى جامعةِ كولومبيا سنةَ 1904 أصبحَ مُور مدرِّسَ مادَّتَي الميتافيزيقا والمنطقِ في جامعةِ شيكاغو، وأستاذَ الفلسفةِ سنةَ 1909. من آثارِهِ: الوُجودُ والمعنَى والواقِعُ في مَقالةِ لوك وفي الأبِستمولوجيا الحاضرة، والبراغماتيَّةُ ونُقّادُها. [المُترجِم]

المُتَضادّاتِ والثُّنائيّاتِ والوَسائلِ وإلغاءَها إلى النِّهايَةِ يُزيلُ الحالاتِ النِّسبيَّةَ ويُقَدِّمُ 'المُطلَقَ' المَعقولَ الوَحيدَ. وهذا هوَ 'المُطلَقُ' الذي لِلتَّجرِبَةِ أهليَّةُ الوُصولِ إليهِ. فإنْ سألْتَ: لِمَ لا يَتطوَّرُ هذا مَرَّةً أُخرَى إلى حالاتٍ نِسبيَّةٍ جَديدَةٍ؟ كانَتْ إجابَتي أنَّهُ في الحَقيقَةِ يَفعَلُ ذلكَ، أمّا في المَعنَى فلا. ذلكَ بِأنَّ المَعنى هوَ الحالةُ الكُلِّيَّةُ لِجميعِ حالاتِ التَّوَسُّطِ التي مِن هذا القَبيلِ. فإنْ كانَ التَّوَسُّطُ المُتَحقِّقُ في الجَماليِّ تَوَسُّطًا ذا مَعنًى نَمَطِيٍّ في كلِّ مكانٍ مِن تَطوُّرِ 'الديناميكيَّةِ' العَقليَّةِ فإنَّ قيمَتَهُ وَحدَها هيَ التي تُسقِطُ سَلَفًا أيَّ مُطالَباتٍ جديدَةٍ بِالتَّوَسُّطِ قد تُنشِئُها ثُنائيّاتٌ جَديدَةٌ. فالجَماليُّ، إذَن، لا يَكونُ مُطلَقًا إلّا بِمَعنى أنَّ بِمَقدورِ المُصطَلَحِ أن يَعنِيَ أيَّ شَيءٍ: إنَّهُ تَقدُّميٌّ كُلِّيٌّ، كما أنَّهُ مُكتَفٍ أو عَلائِقيٌّ. إنَّهُ يَتَوسَّطُ تَولُّداتِ القُدْرَةِ التَّكوينيَّةَ كما يتوسَّطُ الثُّنائيّاتِ السّاكِنَةَ". ثُمَّ يَلتَفِتُ بَعدَ ذلكَ إلى المَعنَى، فيقولُ:

> "أمّا ما يتعلَّقُ بِـ'المَعنَى' فأنا أرَى أنَّهُ بَعدَما يَنشَأُ المَعنى بِإزاءِ مُجَرَّدِ المَضمونِ الحاضِرِ، يَعودُ مَضمونُ الضَّرُورَةِ [278] مِن خِلالِ التَّضادِّ أيضًا لِيُصبِحَ مَعنًى، ما دامَ في إمكانِ الوَعيِ حينَئذٍ أن يَقصِدَهُما كِلَيْهِما أو يَعنِيَهُما، أو أحَدَهُما، أو الفَرقَ بينَهُما. وقَد كُنْتُ ذَكَرْتُ في الجُزْءِ الأوَّلِ أنَّهُ عِندَ نُشوءِ مَعنًى تَنشَأُ مَعانٍ (بِصيغَةِ الجَمعِ). إنَّ الإبقاءَ على المَضمونِ في حُضورِهِ المُجَرَّدِ يَعني جَعْلَهُ مَعنًى- بَعدَ أن يَكونَ الوَعيُ قادِرًا في وَقتٍ مّا على أن يَعنِيَ 'ذلكَ فقط لا أيَّ شَيءٍ آخَرَ.' فَمِنْ ثَمَّ يَحُلُّ استِعمالُ 'المَعنَى' لِما يُوجَدُ في الذِّهنِ (كما في عِبارَةِ 'أنا أعني كَذا وكَذا 'I *mean* so and so) مَحَلَّ استِعمالِهِ لِما يَقتَصِرُ على ما يُلْحَقُ بِالمَضمونِ (كما في عِبارَةِ 'إنَّهُ يَعنِي الكَثيرَ 'It means much). فَحينَ أقولُ (على الوَجهِ السّابِقِ): 'أنا أَعْنِي الدَّجاجَ' لا أقصِدُ أن أقصُرَ 'المَعنَى' على ما يُوحِي بِهِ الدَّجاجُ خارِجَ نِطاقِ الصُّورَةِ المُجَرَّدَةِ. بل أقصِدُ، على العَكسِ مِن ذلكَ، الطّائرَ كُلَّهُ".

ويَنبَغي لَنا أن نَذكُرَ كذلكَ أنَّ بيرس C. S. Peirce، الذي يَتَّجِهُ حَديثُنا إليهِ الآنَ، أشادَ في كِتاباتِهِ إشادَةً كبيرَةً بِمُصطَلَحاتِ البروفيسور بالدوِن.

§6. بيرس C. S. Peirce

تُعَدُّ مُحاوَلَةُ المَنطِقِيِّ الأمريكيِّ بيرس إلى حَدٍّ بَعيدٍ أكثَرَ المُحاوَلاتِ صَرامَةً وتَفصيلاً لِتَقديمِ أُطروحَةٍ بِشأنِ العَلاماتِ ومَعناها، وهوَ الذي استَقَى مِنهُ وِلِيَم جَيْمس William James فِكرَةَ البراغماتِيَّةِ ومُصطَلَحَها، كما أنَّ شرودَر Schroeder[21] قَد طَوَّرَ جَبْرَ العَلاقاتِ الثُّنائيَّةِ الذي قَدَّمَهُ. ومِمّا يُؤسَفُ عليهِ أنَّ مَنظومَتَهُ المُصطَلَحِيَّةَ كانَتْ هائلَةً إلى دَرَجَةٍ لَم يَرغَبْ مَعَها إلّا القَليلُ في تَخصيصِ الزَّمَنِ اللازِمِ لامتِلاكِ ناصِيَتِها، فَمِنْ ثَمَّ لم يُقَيَّضْ لِعملِهِ أن يَكتَمِلَ قَطُّ. وقد كَتَبَ إلى اللَيْدي ويلبي Welby[22] في شَهرِ ديسمبر/كانونَ الأوَّلِ مِن سَنَةِ 1908 يَقولُ: "أنا الآنَ أعمَلُ جاهِدًا لأُخرِجَ قبلَ أن أموتَ كِتابًا في المَنطِقِ يَستَهوِي بعضَ العُقولِ التي قَد تَكونُ نافِذَتي لِتَقديمِ خَيْرٍ حَقيقيٍّ"، وبِفَضلِ السِّير تشارلز ويلبي Charles Welby[23] أُعيدَ إظهارُ هذهِ الأجزاءِ مِن الرَّسائلِ المُتَبادَلَةِ التي تُسَلِّطُ الضَّوءَ على مَقالاتِهِ المَنشورَةِ بِشَأنِ العَلاماتِ.

(21) فريدرِش وِلهلم كارل إيرنست شرودَر (1841–1902م). عالِمُ رِياضيّاتٍ ألمانيٌّ معروفٌ على نحوٍ رئيسٍ بِعملِهِ في المنطِقِ الجبريِّ. وهو شخصيَّةٌ رئيسةٌ في المنطقِ الرِّياضيِّ الذي رُبَّما يكونُ هو أوَّلَ مَن سمّاهُ بهذا الاسمِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُهُ الضَّخمُ (مُحاضَراتٌ في عِلمِ جَبْرِ المنطِق) في ثلاثةِ مُجلَّداتٍ. [المُترجِم]

(22) فِكتوريا ويلبي (1837–1912م). فيلسوفةٌ لغويَّةٌ، وموسيقيَّةٌ، ورسّامةٌ بريطانيَّةٌ. أوَّلُ ما نشَرَتْهُ كانَ عن الدِّيانةِ المسيحيَّةِ، وفي أواخرِ القرنِ التاسعَ عشرَ كانَت تَنشُرُ مقالاتٍ في أهمِّ دوريَّتَيْنِ أكاديميَّتَيْنِ لُغَويَّتَيْنِ إنجليزيَّتَيْنِ وهما Mind و Monist، ونشَرَتْ أوَّلَ كتابٍ فلسفيٍّ لها سنةَ 1903 وعنوانُهُ (ما المعنَى؟- دِراساتٌ في تطوُّرِ اللغة). وفي سنةِ 1911 أسهَمَتْ في الموسوعةِ البريطانيَّةِ بِمقالتِها المطوَّلَةِ التي عنوانُها Significs وهو الاسمُ الذي أطلَقَتْهُ على نظريَّتِها في المعنَى. وبدَأ أوغدِن بِمُراسلتِها في سنةِ 1910، وقد تأثَّرَتْ كتاباتُهُ اللاحقةُ تأثُّرًا كبيرًا جدًّا بنظريّاتِها، وإن حاوَلَ التقليلَ من شأنِ هذه الحقيقةِ في أشهَرِ كتابٍ لهُ وهو كِتابُنا هذا (مَعنَى المعنَى). [المُترجِم]

(23) تشارلز غلين إيرل ويلبي (1865–1938م). كانَ موظَّفًا حكوميًّا مَدَنيًّا بريطانيًّا، ثُمَّ أصبحَ سياسيًّا منتميًا إلى حزبِ المحافِظِينَ. كانَ الابنَ الثانيَ للسياسيِّ المنتمي إلى حزبِ المحافِظِينَ السِّير وِلِيَم ويلبي غريغوري وزوجتِهِ فكتوريا التي كانَتْ من فلاسفةِ اللغةِ وابنةَ تشارلز ستيوَرت وورتلي. [المُترجِم]

وفي بَحثٍ يَرجِعُ تأريخُهُ إلى الرّابعَ عَشَرَ مِن شَهرِ مايو/مايس مِن سَنَةِ 1867 (*Proc. Am. Acad. Arts and Sci.* (Boston), VII (1868), 295) عَرَّفَ بيرس المَنطِقَ بِأنَّهُ التَّعاليمُ الخاصَّةُ بِالشُّروطِ الصُّوريَّةِ الخاصَّةِ بِصِدْقِ الرُّموزِ، أي بإحالَةِ الرُّموزِ على مَوضوعاتِها. وبَعدَ حِينٍ، لَمّا أَدرَكَ "أنَّ العِلمَ يَكمُنُ في البَحثِ لا في 'التَّعاليمِ'- ذلكَ بأنَّ تأريخَ الكَلِماتِ، لا تَأصيلَها etymology، هوَ المِفتاحُ لِمَعانيها، ولا سِيَّما في حالةِ الكلماتِ المُشْبَعَةِ بِفِكرَةِ التَّقَدُّمِ كَالعِلمِ"، بَدَأَ يَعِي، كما جاءَ في كِتابتِهِ سنةَ 1908، مِقدارَ الزَّمَنِ الطَّويلِ الذي سَيكونُ فيهِ أُولئكَ الذينَ عكَفوا على دِراسَةِ "الإحالةِ العامَّةِ لِلرُّموزِ على مَوضوعاتِها مُضْطَرِّينَ إلى عَمَلِ أبحاثٍ بِشَأنِ إحالاتِها على عَوامِلِها المُؤَوِّلَةِ Interpretans[24] أيضًا، فَضلاً

(24) العامِلُ المُؤَوِّلُ: جُزءٌ من النَّظريَّةِ العَلاميَّةِ الثُّلاثيَّةِ عندَ بيرس؛ فالعَلامَةُ عندَهُ هيَ: شَكلٌ مُمَثِّلٌ (ماثولٌ) Representamen (ويُقابِلُ الدّالَّ عندَ سوسير)، يُحيلُ على مَوضوعٍ Object (ولا مُقابِلَ لهُ عندَ سوسير)، عبرَ عامِلٍ مُؤَوِّلٍ Interpretant (ويُقابِلُ المَدلولَ عندَ سوسير)، وهذهِ الحركةُ (سلسلةُ الإحالاتِ) هيَ ما يُشَكِّلُ عندَ بيرس ما يُسَمِّيهِ Semeiosis أي النَّشاطَ التَّرميزيَّ الذي يَقودُ إلى إنتاجِ الدَّلالةِ. فالعامِلُ المُؤَوِّلُ هو أثَرُ العَلامةِ في شَخصٍ مّا يَقرؤُها أو يَفهَمُها، فهو لا يُشيرُ إلى الشَّخصِ المُؤَوِّلِ Interpreter بل إلى المعنى الذي نستمِدُّهُ أو نَستخرِجُهُ من العَلامَةِ. ولا يَذكُرُ بيرس الشَّخصَ المُؤَوِّلَ على نحوٍ مُباشِرٍ في أنموذَجِهِ الثُّلاثيِّ لِمُكوِّناتِ العَلامةِ. ويَقسِمُ بيرس العامِلَ المُؤَوِّلَ على ثلاثةِ أقسام: المُباشِرُ، والدّاينميكيُّ، والنِّهائيُّ. فالعامِلُ المُؤَوِّلُ المُباشِرُ يُعَيِّنُ المُستَوَى المَعنَويَّ الذي تقترِحُهُ العَلامَةُ مُباشَرَةً، ويُكشَفُ عنهُ مِن خِلالِ إدراكِ العَلامةِ نَفسِها، وهو ما نُسَمِّيهِ عادَةً مَعنَى العَلامَةِ. إنَّ وظيفَتَهُ الأساسيَّةَ هيَ تَقديمُ نُقطةِ الانطلاقِ لِلدَّلالةِ، فَقولُنا: شَجرةٌ طَويلةٌ، يُدرَكُ بِوَصفِهِ إحالَةً على نباتٍ لهُ جُذورٌ عَميقةٌ وأغصانٌ تَشُقُّ السَّماءَ وهوَ مَوصوفٌ بِالطُّولِ. أمّا العامِلُ المُؤَوِّلُ الدّاينَميكيُّ فَيتشكَّلُ مِن خِلالِ استِحضارِهِ مُعطَياتٍ مَعرفيَّةً غيرَ مُعطاةٍ مُباشَرَةً معَ العَلامةِ. فهوَ كلُّ تأويلٍ يَمنَحُ الذِّهنُ العَلامَةَ إيّاهُ. وهوَ يُؤَسَّسُ على أنقاضِ العاملِ المؤوِّلِ المُباشِرِ ولا يُمكِنُ أن يُوجَدَ إلّا بِوُجودِ الأوَّلِ، فمَعَهُ نَخرُجُ من دائرةِ التَّعيينِ لِندخُلَ دائرةَ التّأويلِ بِمفهومِهِ الواسعِ. وأمّا العامِلُ المُؤَوِّلُ النِّهائيُّ فلا يُشَكِّلُ مُستَوًى دلاليًّا بِالمعنَى الحَرفِيِّ للكلمةِ؛ إذ إنَّهُ غيرُ مُستقِلٍّ عن حركيَّةِ العامِلِ المؤوِّلِ الداينَميكيِّ وما يَقترِحُهُ مِن إحالاتٍ، إلّا أنَّهُ يُعَدُّ قوَّةً مُضادَّةً تَكبَحُ جِماحَ هذا المُؤوِّلِ وتضَعُ قِطارَ التّأويلِ فوقَ سِكَّةٍ بِعينِها. فوظيفَتُهُ الرَّئيسةُ هيَ الوقوفُ في وَجهِ القوَّةِ التّأويليَّةِ المُدمِّرَةِ التي يُطلِقُ عِنانَها العامِلُ المُؤَوِّلُ الدّاينَميكيُّ. [المُترجِم]

عن الخَصائصِ الأُخرَى لِلرُّموزِ، ولا يَقتَصِرُ ذلكَ على الرُّموزِ وَحدَها [279] بَل يَشمَلُ جَميعَ أصنافِ العَلاماتِ. فَعَلى مُستَوَى الزَّمَنِ الحاضِرِ سيَكونُ مَن يُعِدُّ أبحاثًا في إحالةِ الرُّموزِ على مَوضوعاتِها مُجبَرًا على إعدادِ دِراساتٍ أصيلَةٍ في جَميعِ فُروعِ النَّظريَّةِ العامَّةِ لِلعَلاماتِ"(25). وقَد أَطلَقَ على هذهِ النَّظريَّةِ اسمَ السِّيميوطيقا Semiotic، وطَوَّرَ جَوانِبَها الأساسيَّةَ في مَقالَةٍ في مَجَلَّةِ *Monist*، سنةَ 1906، عُنوانُها "مُقَدِّمَةٌ في الدِّفاعِ عن البراغماتيكِيَّةِ(26) Prolegomena to an Apology for Pragmaticism".

(25) حذَفَ أوغدِن ورِتشاردز شيئًا مِن نَصِّ بيرس، وفي الآتي النَّصُّ كامِلاً مِن غيرِ حذفٍ مِن كِتابِ: تشارلز س. بيرس: كِتاباتٌ مُختارَةٌ (القِيَمُ في عالَمِ المُصادَفَةِ) Charles S. Peirce: Selected Writings (Values in a Universe of Chance)، ص402-403: "في بَحثٍ لي يَرجِعُ تأريخُهُ إلى الرّابعَ عَشَرَ مِن شَهرِ مايو/مايس مِن سَنَةِ 1867 (*Proc. Am. Acad. Arts a Sci.* (Boston), VII, 295) كُنتُ قَد عَرَّفتُ المَنطِقَ بِأنَّهُ التَّعاليمُ الخاصَّةُ بِالشُّروطِ الصُّوريَّةِ الخاصَّةِ بِصِدْقِ الرُّموزِ، أي بِإحالَةِ الرُّموزِ على مَوضوعاتِها. وبَعدَ حِينٍ، لَمّا أدرَكتُ أنَّ العِلْمَ يَكمُنُ في البَحثِ لا في 'التَّعاليم'- ذلكَ بِأنَّ تأريخَ الكَلِماتِ، لا تَأصيلَها *etymology*، هوَ المِفتاحُ لِمَعانيها، ولا سِيَّما في حالةِ الكلماتِ المُشبَعَةِ بِفِكرَةِ التَّقَدُّمِ كَالعِلمِ، وحينَ أدرَكتُ تَبَعًا لِذلكَ أنَّهُ مِن أجلِ أن تَكونَ خُطوطُ التَّحديدِ lines of demarcation وَسطَ ما نُسَمِّيهِ عُلومًا، نَظَرًا إلى النُّمُوِّ المُتسارِعِ لِلعُلومِ وإمكانِ الانفِتاحِ على الاكتِشافاتِ المُستقبليَّةِ، تلكَ الخُطوطُ لِلتَّحديدِ التي لَيسَ في وُسعِها إلّا أن تُمَثِّلَ الفَواصِلَ بينَ مَجموعاتٍ مُختلِفَةٍ مِن الرِّجالِ الذينَ يَبذِلونَ أعمارَهُم في سَبيلِ تقدُّمِ مُختلِفِ الدِّراساتِ، رأيتُ أنَّ الذينَ عكَفوا على اكتِشافِ الصِّدْقِ بِشأنِ الإحالةِ العامَّةِ لِلرُّموزِ على مَوضوعاتِها سيُضطَرُّونَ، زَمَنًا طَويلاً، إلى أن يَبحَثوا كذلكَ في إحالَتِها على عَوامِلِها المُؤَوِّلَةِ Interpretans، فَضلاً عن الخَصائصِ الأُخرَى لِلرُّموزِ، ولا يَقتَصِرُ ذلكَ على الرُّموزِ وَحدَها بَل يَشمَلُ جَميعَ أصنافِ العَلاماتِ. فَعَلى مُستَوَى الزَّمَنِ الحاضِرِ سيَكونُ مَن يُعِدُّ أبحاثًا في إحالةِ الرُّموزِ على مَوضوعاتِها مُجبَرًا على إعدادِ دِراساتٍ أصيلَةٍ في جَميعِ فُروعِ النَّظريَّةِ العامَّةِ لِلعَلاماتِ؛ فمِن ثَمَّ لَم يَكُنْ بُدٌّ مِن أن أجعَلَ عُنوانَ كِتابِ المنطِقِ الذي أكتُبُهُ 'المَنطِقُ بِوَصْفِهِ السِّيميوطيقا'، لَولا خَشيَتي مِن أن يَفترِضَ كُلُّ مَن يَطرُقُ هذا العُنوانُ سَمعَهُ أنَّهُ تَرجَمَةٌ لِلعُنوانِ الألمانيِّ 'Logic, als Semeiotik dargestellt'، وهذا ما لا يَنسَجِمُ معَ خِلافي (الذي يَقترِبُ كثيرًا مِن أن يكونَ ازدِراءً) لِلمَنطِقِ الألمانيِّ". [المُترجِم]

(26) اشتَقَّ بيرس مُصطَلَحَ (البراغماتيكِيَّة) بَعدَ تَوَسُّعِ البراغماتِيِّينَ، ولا سِيَّما وِلْيَم جَيْمس، في استِعمالِ المُصطَلَحِ الأَصْليِّ (البراغماتِيَّة) الذي كانَ بيرس قَد اشتَقَّهُ مِن كلمَةٍ يونانيَّةٍ قَديمَةٍ حتّى يَصْعُبَ تَداوُلُهُ إلّا في ما يُريدُهُ هوَ لَهُ. [المُترجِم]

وقَد نَصَّ هناكَ على أنَّ العَلامَةَ "لَها مَوضوعٌ Object[27] وعامِلٌ مُؤَوِّلٌ Interpretant، وهذا الأخيرُ هو ما تُنشِئُهُ العَلامَةُ في العَقلِ التَّقريبِيِّ أي المُؤَوِّلِ Interpreter بِوَساطَةِ تَحديدِ الأخيرِ بِشُعورٍ، أو مُمارَسَةٍ، أو عَلامَةٍ، يَكونُ تَحديدُها هوَ العامِلَ المُؤَوِّلَ. لكِن يَبقَى أن نُشيرَ إلى أنَّ ثَمَّةَ مَوضوعَيْنِ عادَةً، وأكثَرَ مِن عامِلَيْنِ مُؤَوِّلَيْنِ اثنَيْنِ. أي إنَّ علينا أن نُمَيِّزَ المَوضوعَ المُباشِرَ Immediate Object، وهوَ المَوضوعُ كما تُمَثِّلُهُ العَلامَةُ نَفسُها الذي بِذلكَ يَعتَمِدُ وُجودُهُ على تَمثيلِهِ في العَلامَةِ، مِن المَوضوعِ الدّاينَميكيِّ Dynamical Object، وهوَ الواقِعُ الذي يَحتالُ بِطَريقَةٍ مّا لِتَحديدِ العَلامَةِ لِتَمثيلِها. أمّا ما يتعلَّقُ بِالعامِلِ المُؤَوِّلِ فعلَينا أن نُمَيِّزَ، على نَحوٍ مُماثِلٍ، في المَقامِ الأوَّلِ العامِلَ المُؤَوِّلَ المُباشِرَ Immediate Interpretant، وهوَ العامِلُ المُؤَوِّلُ كما يُكشَفُ عنهُ في الفَهمِ الصَّحيحِ لِلعَلامَةِ نَفسِها ويُسَمَّى عادَةً 'مَعنَى' العَلامَةِ، في حينِ أنَّ علينا في المَقامِ الثّاني أن نَلحَظَ العامِلَ المُؤَوِّلَ الدّاينَميكيَّ Dynamical Interpretant، وهوَ الأثَرُ الفِعلِيُّ الذي تُحَدِّدُهُ العَلامَةُ حقًّا بِوَصفِها عَلامَةً. وأخيرًا، هُناكَ ما أُطلِقُ عليهِ مُؤَقَّتًا اسمَ العامِلِ المُؤَوِّلِ النِّهائيِّ Final Interpretant، وهو يُحيلُ على الطَّريقَةِ التي تَميلُ العَلامَةُ إلى تَمثيلِ نَفسِها بِها لِتُنسَبَ إلى مَوضوعِها. وأنا أُقِرُّ بِأنَّ

(27) الموضوعُ عندَ بيرس هو ما يُمَثِّلُهُ الشَّكلُ المُمَثِّلُ (الماثولُ)، سَواءٌ كانَ هذا الشَّيءُ المُمَثَّلُ واقِعيًّا، أو مُتَخَيَّلاً، أو قابِلاً لِلتَّخيُّلِ، أو لا يُمكِنُ تخيُّلُهُ البَتَّةَ. ومَوضوعُ العَلامةِ عندَهُ هو المعرِفةُ التي تَفتَرِضُها العَلامَةُ كَي تأتيَ بِمعلوماتٍ إضافيَّةٍ تتعلَّقُ بهذا المَوضوعِ. ويُمَيِّزُ بيرس صِنفَيْنِ من المَعرِفةِ: المَعرِفةُ المُباشِرَةُ، والمعرِفةُ غيرُ المُباشِرَةِ؛ فالمعرِفةُ المُباشِرةُ هي المُعطاةُ مِن خِلالِ الفِعلِ المُباشِرِ لِلعَلامةِ؛ أمّا غيرُ المُباشِرةِ فالتي تُدرَكُ مِن طَريقِ ما هوَ مُفتَرَضٌ مِن خِلالِ السِّياقِ البَعيدِ لِلعَلامَةِ. ويُطلِقُ بيرس على المعرِفةِ الأولَى اسمَ (الموضوع المُباشِر)، أمّا الثّانيةُ فيُسَمِّيها (الموضوع الدّاينَميكيّ). فالموضوعُ الأوَّلُ مُعطًى مِن خِلالِ العَلامَةِ مُباشَرَةً، أمّا الثّاني فهو حصيلةٌ لِسَيرورةٍ سيميائيَّةٍ يُسَمِّيها بيرس التَّجرِبَةَ الضِّمنيَّةَ. مِثالُ ذلكَ: قولُنا: شَجَرَةٌ طَويلَةٌ؛ فالموضوعُ المُباشِرُ هو وَصفُ الشَّجَرَةِ بِالطُّولِ، وهو أمرٌ يُدرِكُهُ كلُّ مَن لهُ مَعرِفةٌ بِاللغةِ، أمّا دَلالَةُ الشَّجَرةِ على الخِصْبِ أو الجِنسِ أو الوَطَنِ أو الدِّينِ أو أيِّ مَضمونٍ آخَرَ فأمرٌ يتطلَّبُ مَعرِفةً لِلثَّقافَةِ التي تُصاغُ فيها هذه العِبارَةُ. [المُترجِم]

تَصَوُّري لِهذا العاملِ المُؤَوِّلِ الثالثِ ما زالَ يَكتَنِفُهُ بَعضُ الغُموضِ".

ثُمَّ كانَتْ بَعدَ ذلكَ إحالةٌ على "التَّقسيماتِ العَشرَةِ لِلعَلاماتِ التي بَدَا لي أَنَّها تَقتَضي أن أَدرُسَها دِراسَةً خاصَّةً. ثَلاثَةٌ مِنها تتعلَّقُ بِخَصائصِ العامِلِ المُؤَوِّلِ، وثَلاثَةٌ بِخَصائصِ المَوضوعِ. وهكَذا فإنَّ التَّقسيمَ على آيقوناتٍ Icons[28]، ومُؤَشِّراتٍ Indices[29]، ورُموزٍ Symbols[30]، يَعتَمِدُ على العَلاقاتِ المُمكِنَةِ المُختلفَةِ لِلعَلامَةِ بِمَوضوعِها الدّاينَميكِيِّ". وثَمَّةَ عَلامَةٌ واحِدَةٌ تتعلَّقُ بِطبيعَةِ العَلامَةِ نَفسِها، يُوضِحُها كَلامُهُ الآتي:-

"إنَّ المَنحَى العامَّ في تَقديرِ حَجمِ المَوضوعِ في مَخطوطٍ أو في كِتابٍ مَطبوعٍ يَكونُ بِإحصاءِ عَدَدِ الكَلِماتِ. وفي العادَةِ أن يَبلُغَ مَجموعُ ذلكَ نَحوَ عِشرِينَ 'thes' في الصَّفحةِ الواحدَةِ، ولا شَكَّ في أنَّها تُمَثِّلُ عِشرينَ كَلِمَةً. على أنَّهُ بِمَنحًى آخَرَ لِكلمةِ 'كَلِمَة' لا يُوجَدُ غيرُ 'the' واحِدَةٍ في اللغةِ الإنجليزيَّةِ، ومُحالٌ أن تَكونَ هذهِ الكَلمةُ مَرئيَّةً في صَفحَةٍ مّا، أو أن

(28) الآيقونَةُ: هي العَلامَةُ التي تكونُ فيها العَلاقَةُ بينَ الماثولِ والموضوعِ عَلاقَةَ تَشابُهٍ في المَقامِ الأوَّلِ، فهيَ تَدُلُّ على موضوعِها مِن حيثُ إنَّها تَرسمُهُ أو تُحاكيهِ. وهيَ عَلاقةٌ تَخيُّلِيَّةٌ؛ إذ لا يُمكِنُ فَهمُ الآيقونةِ ما لم يَكُنْ قد حدَثَ وَعيٌ مِن قَبْلُ لِنظيرِها المُشابِهِ لها، كالصُّورَةِ الفوتوغرافيَّةِ؛ فهيَ ورقةٌ مطبوعةٌ (دالٌّ) تُحيلُ على شَخصٍ مّا (مَوضوعٍ) على وَفقِ مَبدَإِ التَّشابُهِ. [المُترجِم]

(29) المُؤشِّرُ: هوَ العَلامَةُ التي تكونُ فيها العَلاقَةُ بينَ الماثولِ والموضوعِ عَلاقَةً سببيَّةً مَنطقيَّةً، فهيَ تختصُّ بِعَلاقةِ المُجاوَرَةِ بينَها وبينَ الموضوعِ، وهيَ ذاتُ طابعٍ بَصَريٍّ في مُجمَلِها، كارتِباطِ الدُّخانِ بالنّارِ، أو الأعراضِ الطِّبِّيَّةِ التي تُشيرُ إلى وُجودِ عِلَّةٍ عندَ المريضِ، والآثارِ التي نراها على الرِّمالِ والتي تَدُلُّ على مُرورِ أُناسٍ مِن هذا الطَّريقِ. وتستعيرُ هذهِ العَلامةُ اسمَها عندَ بيرس من السَّبّابَةِ التي تُحيلُ على المُشارِ إليهِ مِن خِلالِ التَّجاوُرِ الطبيعيِّ. [المُترجِم]

(30) الرَّمزُ: هوَ العَلامَةُ التي تكونُ فيها العَلاقَةُ بينَ الماثولِ والموضوعِ عَلاقَةً عُرفِيَّةً؛ فليسَ بينَهُما تَشابُهٌ، أو صِلَةٌ طبيعيَّةٌ، أو تَجاوُرٌ، كارتِباطِ الحمامةِ البيضاءِ بِالسَّلامِ، والشَّمسِ بِالحُرِّيَّةِ. [المُتَرجِم]

تَكونَ مَسموعَةً في صَوتٍ مَا؛ والسَّببُ في ذلكَ أنَّها ليسَتْ شيئًا مُفرَدًا أو حَدَثًا مُفرَدًا. إنَّها لا وُجودَ لَها؛ إنَّها [280] تُحَدِّدُ الأشياءَ التي لَها وُجودٌ، فحَسْبُ. وأقترِحُ إطلاقَ اسمِ نَمَط *Type*(31) على هذهِ الصِّيغَةِ الدّالَّةِ المُحَدَّدَةِ. وسأغامِرُ فأُطلِقُ اسمَ الأمارَة *Token*(32) على حَدَثٍ مُفرَدٍ يَحدُثُ مَرَّةً واحِدَةً وتُحَدِّدُ هُويَّتُهُ بِذلكَ الحَدَثِ الوَحيدِ، أو على مَوضوعٍ مُفرَدٍ لِشَيءٍ مَا في مَكانٍ مَا مُفرَدٍ في لَحظَةٍ مَا زمنيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، بِحَيثُ لا يَكونُ مِثلُ هذا الحَدَثِ دالاً إلّا بِحُدوثِهِ في زَمَنِ حُدوثِهِ ومَكانِهِ، مِثل هذهِ الكَلمةِ أو تلكَ في سَطرٍ مُفرَدٍ في صَفحَةٍ مُفرَدَةٍ في نُسخَةٍ كِتابٍ مُفرَدَةٍ. أمّا الخَصيصَةُ الدّالَّةُ غيرُ المُحَدَّدَةِ مِثلُ نَغمَةِ الصَّوتِ، فمِن غَيرِ المُمكِنِ تَسمِيَتُها نَمَطًا ولا أمارَةً، لِذا أقتَرِحُ تَسميتَها طابعًا *Tone*(33). ومِن أجلِ إمكانِ استِعمالِ النَّمَطِ يَنبَغي أن يُجَسَّدَ في أمارَةٍ تكونُ عَلامَةً لِلنَّمَطِ، ومِن ثَمَّ لِلمَوضوعِ الذي يَدُلُّ عليهِ النَّمَط. وأنا أقتَرِحُ أن تُسَمَّى هذهِ الأمارَةُ لِلنَّمَطِ مِثالَ النَّمَطِ. بِذلكَ يُمكِنُ أن نَحصلَ على عِشرينَ مِثالاً لِنَمَطِ 'the' في الصَّفحَةِ".

وكانَ مَبعَثُ اهتِمامِ بيرس الخاصّ بِالتَّمييزاتِ المُسَمّاةِ على النَّحوِ المذكورِ آنِفًا إسهامَها في الإيضاحِ والتَّطويرِ لِنظامِ لِـ'الأخطوطاتِ الوُجوديَّةِ Existential Graphs'(34)، التي على وَفقِها تُجَهَّزُ المُخَطَّطاتُ "لِتُجَرَّبَ عليها، في

(31) النَّمَطُ يُساوي العَلامَةَ القانونيَّةَ عندَ بيرس، وسيأتي إيضاحُها. ويَختصُّ إحصاءُ عددِ الأنماطِ عندَ بيرس، فيما يتعلَّقُ بالكَلماتِ الموجودةِ في أيٍّ مِن النُّصوصِ، بِتحديدِ عددِ الكَلماتِ المختلِفةِ المُستعمَلَةِ في النَّصِّ، مُغفِلاً أيَّ تَكرارٍ لِهذهِ الكلماتِ. [المُترجِم]

(32) الأمارَةُ تُساوي العَلامَةَ العَيْنِيَّةَ عندَ بيرس، وسيأتي إيضاحُها. ويَختصُّ إحصاءُ الأماراتِ عندَ بيرس، فيما يتعلَّقُ بالكَلماتِ الموجودةِ في أيٍّ مِن النُّصوصِ، بِتحديدِ العددِ الإجماليِّ لِلكَلماتِ، بِصَرفِ النَّظرِ عن أنواعِها وأنماطِها. [المُترجِم]

(33) الطّابعُ يُساوي العَلامَةَ الكَيْفِيَّةَ عندَ بيرس، وسيأتي إيضاحُها. وكثيرًا مّا يُغفَلُ ذِكرُ الطّابعِ في هذهِ القِسمةِ الثُّلاثيَّةِ لِلعَلامَةِ عندَ بيرس، ويُكتَفَى بِالنَّصِّ على النَّمَطِ والأمارَةِ. [المُترجِم]

(34) الأخطوطُ الوُجودِيُّ: نَمطٌ مِن التَّمثيلِ البَيانيِّ التَّخطيطيِّ أو البَصَريِّ لِلتَّعبيراتِ المنطقيَّةِ، =

حَلٌ أكثَرِ مُعضِلاتِ المَنطِقِ صُعوبَةً". ويَقولُ: "على الرَّغمِ مِن أنَّ المُخَطَّطَ لَهُ، في العادَةِ، سِماتٌ رَمزِيَّةٌ هوَ في جُملَتِهِ آيقونَةٌ في صُوَرِ عَلاقاتٍ في بِنيَةِ مَوضوعِها". ويُمكِنُ التَّعبيرُ بِالمُصطَلَحِ نَفسِهِ فيُقالُ إنَّ آثارَ الأقدامِ التي وَجَدَها كروسو Crusoe في الرِّمالِ "كانَتْ مُؤَشِّرًا Index لَهُ على وُجودِ مَخلوقٍ مَا، في حينِ أنَّها بِوَصفِها رَمزًا استَدعَتْ فِكرَةَ رَجُلٍ مَا". وبِشَأنِ المادَّةِ المُعادِ إنتاجُها هُنا نَحنُ غيرُ مَعْنِيِّينَ بِالتَّطبيقاتِ الخاصَّةِ التي اضطلَعَ بِها مُؤَلِّفُها في نَظرِيَّتِهِ، ولكِنْ بِسببِ إصرارِهِ المُتَواصِلِ على الطَّبيعَةِ المَنطِقِيَّةِ لِبَحثِهِ ورَغبتِهِ في تَجَنُّبِ عِلمِ النَّفسِ يُمكِنُ أن يُذكَرَ هُنا المَزيدُ مِن التَّقسيماتِ الثُّلاثيَّةِ[35] التي تَستَقطِبُ الاهتِمامَ العامَّ. فقد عَرَّفَ المَنطِقَ *Logic* في مَقالَةٍ لهُ في دَوْرِيَّةِ *Monist* (Vol. VII., 1896-7, p. 25) بِوَصفِهِ يَتَعامَلُ معَ قَضِيَّةِ "الشُّروطِ التي يَنبَغي أن يُطَوَّعَ لَها التَّقريرُ مِن أجلِ أن يُناظِرَ 'الواقِعَ'"؛ وكانَ دَنْز سكوتس Duns Scotus[36] قَد أطلَقَ هوَ أيضًا اسمَ النَّحوِ التَّأَمُّلِيِّ *Speculative Grammar* على "دِراسَةِ خَواصِّ الاعتِقاداتِ التي تَنتَمي إليها بِوَصفِها اعتِقاداتٍ"؛ أمّا ثالِثًا فإنَّ "دِراسةَ تلكَ الشُّروطِ العامَّةِ التي في

= اقترَحَهُ بيرس الذي كتبَ في منطِقِ الأُخطوطاتِ مُبَكِّرًا منذُ سنةِ 1882، وواصَلَ تطويرَ هذا المنهجِ حتّى وفاتِهِ سنةَ 1914. وقد اقترحَ بيرس ثلاثةَ أنظمةٍ من الأُخطوطاتِ الوُجوديَّةِ، هيَ: الألفا، والبيتا، والغاما. [المُترجِم]

(35) "يَبدو أنَّ كُلَّ ما يُشَكِّلُ صِفَةً مُمَيِّزَةً لِلطَّبيعَةِ الثُّلاثِيَّةِ الأصلِ لِلعَلامَةِ يَكونُ خاضِعًا لِلقِسمةِ الثُّلاثِيَّةِ".

(36) جون دَنز سكوتس (1266–1308م). وُلِدَ في أُسكتلندا، والتحقَ بِالرَّهبنةِ الفرانسيسكيَّةِ، ودَرَسَ في أوكسفورد وباريس. يُعَدُّ أحدَ أهمِّ ثلاثةِ فلاسفةٍ لاهُوتيِّينَ في العُصورِ الوُسطَى المتوسِّطةِ. وكانَ له تأثيرٌ كبيرٌ في الكاثوليكيَّةِ والفِكرِ العَلمانيِّ. من المعتقَداتِ التي اشتهرَ بها أُحاديَّةُ تَسميةِ الكائناتِ، التي تُفيدُ أنَّ الوجودَ هو أكثرُ المفاهيمِ المجرَّدَةِ لدينا، ويُمكِنُ تطبيقُهُ على أيِّ شيءٍ موجودٍ؛ والتمييزُ الشكليُّ، وهو طريقةٌ لتمييزِ الجوانبِ المختلفةِ للشيءِ نفسِهِ؛ وفكرةُ الماهيَّةِ، وهيَ الخاصِّيَّةُ المفترَضُ وجودُها في كلِّ شيءٍ فَرديٍّ يَجعلُهُ فَرديًا. وأسهَبَ سكوتس أيضًا في مُناقَشَةٍ معقَّدَةٍ لوجودِ اللهِ. وقد مُنِحَ وِسامَ العُصورِ الوُسطَى (الدكتور البارع)، لِنهجِهِ الدقيقِ والبارعِ في الفِكرِ. مِن آثارِهِ الفلسفيَّةِ: المُذَكِّراتُ الباريسيَّةُ، ومَسائلُ في ميتافيزيقا أرِسطو، ورِسالَةٌ في النَّفسِ. [المُترجِم]

ضَوئها تُقَدِّمُ المُشكِلَةُ نَفسَها لِلحَلِّ، ثُمَّ التي في ضَوئها يَقودُ أَحَدُ التَّساؤُلاتِ إلى الآخَرِ" تَظهَرُ بِوَصفِها بَلاغَةً كُلِّيَّةً *Universal Rhetoric*. ونَجِدُ في ما كَتَبَهُ إلى اللَّيْدي ويلبي تَعليقًا لَهُ مفادُهُ أنَّ الـ 'Significs'، وهوَ المُصطَلَحُ الذي استَعملَتْهُ لِلتَّعبيرِ عن دِراسَةِ المَعنَى، "يَنُمُّ اسمُهُ على أنَّهُ ذلكَ الفَرعُ مِن السِّيميوطيقا الذي يَبحَثُ في عَلاقَةِ العَلاماتِ بِالعَوامِلِ المُؤَوِّلَةِ (الذي [281] كُنْتُ في سَنَةِ 1867 قَد اقتَرَحْتُ لَهُ، بِوَصفِهِ مَقصورًا على الرُّموزِ، اسمَ البَلاغَةِ الكُلِّيَّةِ)". وقَد حَثَّها حَثًّا قَويًّا على إعدادِ دِراسَةٍ عِلمِيَّةٍ عن السِّيميوطيقا وعن أُخطوطاتِهِ ("أرجُو أن تُعِدِّي دِراسَةً عن أُخطوطاتي الوُجودِيَّةِ؛ إذ إنَّها، في رَأيِي، تُتيحُ، على نَحوٍ رائعٍ جدًّا، الكَشفَ عن الطَّبيعةِ والمَنهَجِ الصَّحيحَيْنِ لِلتَّحليلِ المَنطقيِّ- أي لِلتَّعريفِ؛ وإنْ لم يَكُن اكتِشافُ كَيفيَّةِ فِعلِها لِذلكَ بِالأمرِ السَّهلِ، إلى حِينِ كِتابَةِ عَرضي لِذلكَ الفَنِّ")؛ وفي رِسالَةٍ لَهُ كَتَبَها في سنةِ 1904، قَبلَ مُدَّةٍ يَسيرَةٍ مِن نَشرِ مَقالَتِهِ الرَّئيسَةِ في دَورِيَّةِ *Monist*، تَناوَلَ تَصنيفَ العَلاماتِ بِشَيءٍ مِن البَسطِ.

وقَد قَدَّمَ لِمَلحوظاتِهِ فيها بِتَأكيدِهِ أنَّ "لِلعَلامَةِ مَوضوعَيْنِ: مَوضوعَها كما هوَ مُمَثَّلٌ، ومَوضوعَها في نَفسِهِ. كما أنَّ لَها ثَلاثَةَ عَوامِلَ مُؤَوِّلَةٍ: عامِلَها المُؤَوِّلَ كما هوَ مُمَثَّلٌ أو كما يُقصَدُ أن يُفهَمَ، وعامِلَها المُؤَوِّلَ كما هوَ مُنتَجٌ، وعامِلَها المُؤَوِّلَ في نَفسِهِ". ويُمكِنُ أن تُقسَمَ العَلاماتُ بِاعتِبارِ طَبيعتِها المادِّيَّةِ الذّاتيَّةِ، وبِاعتِبارِ عَلاقاتِها بِمَوضوعاتِها، وبِاعتِبارِ عَلاقاتِها بِعَوامِلِها المُؤَوِّلَةِ.

> "فبِاعتِبارِ نَفسِها تَكونُ العَلامَةُ ذاتَ طَبيعَةٍ مَظْهَرِيَّةٍ، فعِندَئذٍ أُسَمِّيها عَلامَةً كَيفيَّةً (نَوْعِيَّةً) *qualisign*[37]؛ أو تَكونُ مَوضوعًا مُفرَدًا أو حَدَثًا مُفرَدًا، فعِندَئذٍ أُسَمِّيها عَلامَةً عَيْنِيَّةً (مُنْفَرِدَةً) *sinsign*[38] (والمَقطَعُ sin هوَ المَقطَعُ الأوَّلُ

(37) حينَ تَكونُ العَلامةُ مُجرَّدَ ظاهرةٍ أو كيفيَّةٍ بَحتَةٍ تُسَمَّى عَلامَةً كيفيَّةً. فكلُّ قوامٍ مادِّيٍّ لِلعَلامةِ هو كيفيَّةٌ، فَمِن ذلك الصِّفاتُ الحِسِّيَّةُ كالألوانِ، والأنغامِ، والرَّوائحِ، وما إلى ذلك. [المُترجِم]

(38) حينَ تكونُ العَلامةُ شيئًا أو حَدَثًا فَرديًّا حاصِلاً في الخارجِ تُسَمَّى عَلامةً عَينِيَّةً. فهكذا مَثَلاً تُشَكِّلُ إحدَى الكلماتِ في سَطرٍ مّا مِن صَفحةِ كتابٍ مَخصوصٍ عَلامةً عَينِيَّةً، ولَو وُجِدَتْ =

في Semel، وsimul، وsingular، وما إلى ذلكَ)؛ أو تَكونُ ذاتَ طَبيعَةٍ مِن نَمَطٍ عامٍّ، وهيَ ما أدعُوهُ عَلامَةً قانونيَّةً (عُرْفِيَّةً) legisign[39]. فَحينَ نَستَعمِلُ لَفْظَ 'كَلِمَة' في مُعظَمِ الحالاتِ، قائِلينَ إنَّ 'the' 'كَلِمَةٌ' واحِدَةٌ، وإنَّ 'an' 'كَلِمَةٌ' ثانِيَةٌ، تَكونُ 'الكَلِمَةُ' عَلامَةً قانونيَّةً (عُرْفِيَّةً). لكِنْ حينَ نَقولُ عن صَفحَةٍ في كِتابٍ إنَّها تَشتَمِلُ على مِئَتَيْنِ وخَمسينَ 'كَلِمَةً'، مِن ضِمنِها عِشرونَ هيَ 'thes'، تَكونُ 'الكَلِمَةُ' عَلامَةً عَيْنِيَّةً (مُنْفَرِدَةً). وعندَ تَجسيدِ العَلامَةِ العَيْنِيَّةِ العَلامَةَ القانونِيَّةَ على هذا النَّحوِ أُسَمِّيها نُسْخَةً مُطابِقَةً replica لِلعَلامَةِ القانونِيَّةِ. والفَرقُ بينَ العَلامَةِ القانونِيَّةِ والعَلامَةِ الكَيفيَّةِ، عِلمًا بِأنَّ كِلتَيْهِما لَيسَتْ شَيئًا مُفرَدًا، هوَ أنَّ العَلامَةَ القانونِيَّةَ لَها هُوِيَّةٌ مُحَدَّدَةٌ، وإنْ كانَت تَسمَحُ في العادَةِ بِتَنَوُّعٍ كَبيرٍ مِن المَظاهِرِ. وبِذلكَ يَكونُ &، وand، والصَّوْتُ جَميعًا كَلِمَةً واحِدَةً. في حينِ أنَّ العَلامَةَ الكَيفيَّةَ لَيسَتْ لَها هُوِيَّةٌ. إنَّها مُجَرَّدُ صِفَةٍ لِمَظْهَرٍ مَا، ولا تَكونُ الصِّفَةُ نَفسَها تَمامًا مَعَ مَظْهَرٍ ثانٍ. ولَها، بَدَلاً مِن الهُوِيَّةِ، مُشابَهَةٌ كَبيرَةٌ، ولا يُمكِنُ أن تَختَلِفَ كَثيرًا مِن غيرِ أن تُسَمَّى عَلامَةً كَيفيَّةً مُختَلِفَةً تَمامًا".

أمّا تَقسيماتُهُ الرَّئيسةُ الأُخرَى لِلعَلاماتِ فَيَشرَحُها بِقَولِهِ: "بِاعتِبارِ عَلاقاتِ العَلاماتِ بِمَوضوعاتِها الدّاينَميكيَّةِ أقسِمُها على آيقوناتٍ، ومُؤَشِّراتٍ، ورُموزٍ (وهيَ قِسمَةٌ كُنتُ قَد قَدَّمْتُها في سنةِ 1867). وأنا أُعَرِّفُ الآيقونةَ بِأنَّها عَلامَةٌ يُحَدِّدُها مَوضوعُها الدّاينَميكيُّ بِمُقتَضَى طَبيعتِها الدّاخليَّةِ. مِثالُ ذلكَ أيَّةُ عَلامَةٍ كَيفيَّةٍ مِثل الرُّؤْيَةِ، أو العاطِفَةِ التي تَهيجُها مَقطوعَةٌ [282] موسيقيَّةٌ تُعَدُّ مُمَثِّلَةً لِما قَصَدَ بِها مُؤَلِّفُها. ومِثالُ ذلكَ عَلامَةٌ عَيْنِيَّةٌ مِثلُ مُخَطَّطٍ مُفرَدٍ، كَأن يَكونَ مُنحَنَى

= آلافُ النُّسَخِ مِن هذا الكتابِ. وكذلكَ كلُّ نصبةِ إشارةٍ ضوئيَّةٍ هيَ في مكانِها عَلامَةٌ، مهما تكرَّرَتْ هذهِ النصبُ في شارعٍ مّا. [المُترجِم]

(39) حينَ تكونُ العَلامَةُ ذاتَ طبيعةٍ عامَّةٍ تُسَمَّى عَلامةً قانونيَّةً. وهيَ، خِلافًا لِلكيفيَّةِ والعَينيَّةِ، لا ترتبِطُ بِتحقُّقٍ مَخصوصٍ لها، بل تبقَى هي نفسها في جَميعِ تَجلِّياتِها. فكلمةُ (بَيْت) مَثَلاً هيَ عَلامةٌ قانونيَّةٌ واحدةٌ، بِغَضِّ النظرِ عن تَعدُّدِ لفظِها أو كتابتِها. ومِن هذهِ العَلاماتِ: ألفاظُ اللغاتِ الطبيعيَّةِ، والرُّموزُ الرِّياضيَّةُ والكيميائيَّةُ، وعَلاماتُ السَّيرِ. ونستطيعُ أن نتبيَّنَ مِمّا مَضَى أنَّ العَلامةَ العَينيَّةَ ليسَتْ سِوَى تَحقُّقٍ فَرديٍّ لِلعَلامةِ القانونيَّةِ. [المُترجِم]

لِتَوزيعِ الأَغلاطِ. وأُعَرِّفُ المُؤَشِّرَ بِأَنَّهُ عَلامَةٌ يُحَدِّدُها مَوضوعُها الدّاينَميكيُّ بِمُقتَضَى كَونِها على عَلاقَةٍ واقِعِيَّةٍ بِهِ. مِثالُ ذلكَ اسمُ العَلَمِ (عَلامَةٌ قانونيَّةٌ)، وحُدوثُ عَرَضٍ مّا لِمَرَضٍ مّا (العَرَضُ نَفسُهُ عَلامَةٌ قانونيَّةٌ، وهوَ نَمَطٌ عامٌّ لَهُ خَصيصَةٌ مُختلِفةٌ. أمّا الحُدوثُ في حالةٍ مَخصوصةٍ فعَلامَةٌ عَيْنِيَّةٌ). وأُعَرِّفُ الرَّمزَ بأَنَّهُ عَلامَةٌ لا يُحَدِّدُها مَوضوعُها الدّاينَميكيُّ إلّا على الوَجهِ الذي تُؤَوَّلُ على وَفقِهِ. فبِذلكَ يَكونُ اعتِمادُها على عُرفٍ، أو على عادَةٍ[40]، أو على تَخلُّصٍ طَبيعيٍّ مِن عامِلِها المُؤَوِّلِ أو مِن مَيدانِ عامِلِها المُؤَوِّلِ (الذي يَكونُ العامِلُ المُؤَوِّلُ مُحَدِّدًا لَهُ). وكلُّ رَمزٍ هوَ، بِالضَّرورَةِ، عَلامَةٌ قانونيَّةٌ؛ إذ لا دِقَّةَ في تَسمِيَةِ نُسخَةٍ مِن عَلامَةٍ قانونيَّةٍ رَمزًا".

ويُمكِنُ أن تَكونَ العَلامَةُ، باعتِبارِ مَوضوعِها المُباشِرِ، عَلامَةَ صِفَةٍ[41]، أو حَقيقَةٍ[42]، أو قانونٍ[43]؛ أمّا باعتِبارِ عَلاقتِها بِعامِلِها المُؤَوِّلِ المَدلولِ عليهِ فيُقالُ إنَّها تَكونُ تَصَوُّرًا\ *Rheme*[44]، أو تَصديقًا *Dicent*[45]، أو حُجَّةً *Argument*[46].

---

(40) جاءَ في مَقالتِهِ في دَوْرِيَّةِ *Monist* (1906): "الرَّمزُ يُنشِئُ العادَةَ، ويُمكِنُ الاستِغناءُ عنهُ عندَ تَطبيقِ أيَّةِ عادَةٍ عَقليَّةٍ في الأَقَلِّ" (ص 495). وكذلكَ: "لَيسَ في وُسعِ الرُّموزِ الخالِصَةِ تَمامًا أن تَدُلَّ إلّا على الأشياءِ المألوفَةِ، ولا تَدُلُّ على هذهِ إلّا بِالقَدْرِ الذي تكونُ بِهِ مَألوفَةً".

(41) هيَ الخاصَّةُ بِالتَّصَوُّرِ، وسيأتي الكَلامُ عليهِ. [المُترجِم]

(42) هيَ الخاصَّةُ بِالتَّصديقِ، وسيأتي الكَلامُ عليهِ. [المُترجِم]

(43) هوَ الخاصُّ بالحُجَّةِ، وسيأتي الكَلامُ عليها. [المُترجِم]

(44) التَّصَوُّرُ: كلُّ عَلامةٍ مُفرَدَةٍ أو مُرَكَّبَةٍ لا تَصلحُ لأَن تَكونَ حُكمًا بَل تَكونُ حَدًّا في الحُكمِ فَحَسْبُ. فهيَ مِن ثَمَّ لا تَحتَمِلُ الصِّدْقَ ولا الكَذِبَ. مِن ذلكَ المَحمولاتُ البسيطةُ مِثلَ (أسمَر)، والمَحمولاتُ المركَّبَةُ مِثل (طَويل الشَّعرِ). [المُترجِم]

(45) التَّصديقُ: كُلُّ عَلامَةٍ قابِلةٍ لِلحُكمِ، أي تَقبَلُ الصِّدْقَ أو الكَذِبَ. فهيَ بِهذا المَعنَى مُرَكَّبٌ يَصِحُّ السُّكوتُ عليهِ. [المُترجِم]

(46) الحُجَّةُ: تأليفٌ مِن العَلاماتِ لا يتعلَّقُ بِسِوَى القَواعِدِ. وهيَ أكمَلُ العَلاماتِ؛ فمِن حيثُ البِنيَةُ تُعَدُّ الحُجَّةُ صَحيحَةً، أي دائمةَ الصِّدْقِ. ومِثالُ الحُجَجِ الأقيِسَةُ المنطقيَّةُ، نحو: (أ) هوَ (ب)، و(ب) هوَ (ج)، إذَن (أ) هوَ (ج). [المُترجِم]

• وهذهِ القِسمَةُ تُناظِرُ القِسمَةَ القَديمَةَ على: حَدٌّ Term، وقَضِيَّةٍ Proposition، وحُجَّةٍ Argument، لكِنَّها عُدِّلَتْ لِيُمكِنَ تطبيقُها على العَلاماتِ عُمومًا. فالحَدُّ إنَّما هوَ اسمُ نَوعٍ class-name أو اسمُ عَلَمٍ. وأنا لا أَعُدُّ الاسمَ العامَّ common noun[47] أَحَدَ أقسامِ الكَلامِ الضَّروريَّةِ ضَرورَةً أساسيَّةً. فالحَقُّ أنَّهُ لم يَكتَمِلْ تَطوُّرُهُ بِوَصفِهِ قِسمًا مِن أقسامِ الكَلامِ إلّا في اللغاتِ الآرِيَّةِ Aryan[48] وفي لُغَةِ الباسك Basque[49]- ورُبَّما في لُغاتٍ أُخرَى غيرِ مَعروفَةٍ. وهوَ في اللغاتِ السّامِيَّةِ Semitic[50]، عُمومًا، فِعلِيٌّ في شَكلِهِ، وعادَةً مّا يَكونُ فِعلِيًّا في مادَّتِهِ أيضًا[51].

---

(47) الاسمُ العامُّ: هوَ الاسمُ الذي يَدُلُّ على اسمِ الجِنسِ لِلأشياءِ أو المَفاهيمِ أكثَرَ مِمّا يَدُلُّ على اسمِ شَخصٍ أو مُفرَدٍ. والأسماءُ العامَّةُ قد تكونُ أسماءً غيرَ معدودةٍ أو أسماءَ مَعانٍ مِثلَ (طَحين) و(شَجاعَة)، أو أسماءً مَعدودةً أو اسمَ وحدةٍ قابِلَةٍ لِلجَمعِ مِثلَ (مِنضَدَة) و(صُندوق). [المُترجِم]

(48) اللُّغاتُ الآرِيَّةُ: هيَ لُغاتُ الآرِيِّينَ الذينَ سُمُّوا بِهذا الاسمِ في القَرنِ التاسِعَ عَشَرَ، وهُم مَجموعةٌ مِن الشُّعوبِ الناطقةِ بِاللُّغاتِ الهنديَّةِ-الأورُبِّيَّةِ؛ اعتِمادًا على وُجودِ قَرابَةٍ بينَ تلكَ اللُّغاتِ. لكِنَّ مُصطَلَحَ (آرِيّ) يُستَعمَلُ اليومَ لِلدَّلالَةِ على الفَرعِ الشرقِيِّ بِخاصَّةٍ أي الهِنديِّ-الإيرانيِّ مِن أُسرةِ اللُّغاتِ الهنديَّةِ-الأورُبِّيَّةِ، فهوَ مِن ثَمَّ مُصطَلَحٌ لُغَويٌّ في المقامِ الأوَّلِ، ولا يتضمَّنُ بالضَّرورةِ خصائصَ إثنيَّةً أو عِرقيَّةً أو ثقافيَّةً أو قوميَّةً مُحدَّدَةً. [المُترجِم]

(49) لُغَةُ الباسك: هيَ اللغةُ التي تنتَمي إلى أُسرةٍ لغويَّةٍ لا يُعرَفُ عنها الكثيرُ، ولا يَزالُ البحثُ عن أصلِ هذهِ الكلمةِ أمرًا غيرَ مُجْدٍ. ومُعظَمُ مُتكلِّمِي هذهِ اللغةِ ثُنائيُّو اللغةِ مِمَّن يتكلَّمونَ، فضلاً عن الباسك، اللغةَ الإسبانيَّةَ أو اللغةَ الفرنسيَّةَ، وهُم عُمومًا يَقطِنونَ إقليمَ الباسك الذي يتمتَّعُ بِحُكمٍ ذاتيٍّ ويَضُمُّ المقاطعةَ الإسبانيَّةَ المُسمّاةَ غيبوزكوا وجُزءًا مِن فزكاية وجُزءًا مِن آلافة. ويَعيشُ بعضُ الناطقِينَ بلغةِ الباسك في المنطقةِ الغربيَّةِ من الجزءِ الفرنسيِّ مِن البيرينة. [المُترجِم]

(50) اللُّغاتُ الساميَّة: تُعَدُّ مِن فُروعِ أُسرةِ اللغاتِ الساميَّةِ-الحاميَّةِ، أو ما يُعرَفُ بِاللغاتِ الإفروآسيويَّةِ. وقد كانَ المؤرِّخُ الألمانيُّ أوغست فون شلوتسر (1735-1809م) أوَّلَ مَن استعمَلَ مصطلَحَ (اللغات الساميَّة) لِلُغاتِ التي مَوطِنُها الأصليُّ بِلادُ الرافِدَيْنِ وبِلادُ الشامِ والجزيرةُ العربيَّةُ وشَمالُ إفريقية. وهيَ مِن أقدَمِ لُغاتِ العالَمِ. [المُترجِم]

(51) لَعَلَّ الإشارَةَ هُنا إلى أسماءِ المَعاني التي ذَكَرْنا في هامشٍ قَريبٍ أنَّها مِن أقسامِ الأسماءِ العامَّةِ، وأنَّ أكثَرَ ما تَنصَرِفُ إليهِ هوَ المَصادِرُ التي تُمَثِّلُ أحداثَ الأفعالِ، وتُشْبِهُ الأفعالَ في الشَّكلِ والمادَّةِ. [المُترجِم]

وهوَ كذلكَ في مُعظَمِ اللغاتِ على حَدٍّ عِلمي. وليسَ في ما أَعدَدتُهُ مِن جَبْرٍ كُلِّيٍّ لِلمَنطِقِ اسمٌ عامٌّ".

ويُعَرَّفُ التَّصَوُّرُ بِأَنَّهُ "عَلامَةٌ مُمَثَّلَةٌ في عامِلِها المُؤَوِّلِ المَدلولِ عليهِ كما لَو كانَتْ خَصيصَةً أو سِمَةً (أو بِوَصفِها كذلكَ)". إنَّهُ أيَّةُ عَلامَةٍ غيرِ صادِقَةٍ ولا كاذِبَةٍ، مِثل مُعظَمِ الكَلماتِ المُفرَدَةِ ما عَدَا كلِمَتَيْ 'نَعَمْ' و'لا'، اللتَيْنِ تَكادانِ تكونانِ خاصَّتَيْنِ بِاللُّغاتِ المُعاصِرَةِ.

أمّا التَّصديقُ فيُعَرَّفُ بِأَنَّهُ "عَلامَةٌ مُمَثَّلَةٌ في عامِلِها المُؤَوِّلِ المَدلولِ عليهِ كما لَو كانَتْ على صِلَةٍ واقِعِيَّةٍ بِمَوضوعِها (أو بِوَصفِها كذلكَ إن كانَتْ تَقريريَّةً)". والقَضِيَّةُ، على ما حَرَصَ أن يُبَيِّنَ في دَورِيَّةِ *Monist* (1905، ص 172)، لا تَعني عِندَهُ ما تَعنيهِ *Satz* في الألمانيَّةِ، بَل "إنَّها ما يُعْزَى إلى أيِّ تَقريرٍ، سَواءٌ أَكانَ ذِهنِيًّا وخِطابًا ذاتِيًّا أم كانَ تَعبيرًا خارِجيًّا، تَمامًا كما يُعزَى أيُّ إمكانٍ إلى تَحقُّقِهِ". وقَد عُرِّفَ هُنا بِوَصفِهِ رَمزًا تَصديقِيًّا. [283]

"ولَيسَ التَّصديقُ تَقْريرًا، بَل هوَ عَلامَةٌ قابِلَةٌ لأن تُقَرَّرَ. أمّا التَّقريرُ فَتَصديقٌ. واستِنادًا إلى وِجهَةِ نظري الحاضرةِ (وقَد أزدادُ تَبَصُّرًا في المُستقبَلِ) فإنَّ الفِعلَ التَّقريرِيَّ act of assertion ليسَ فِعلاً دَلاليًّا خالِصًا. إنَّهُ عَرْضٌ لِحَقيقَةِ أنَّ المَرءَ يَجعَلُ نَفسَهُ مُعَرَّضًا لِلعُقوباتِ التي يَلْقاها الكاذِبُ في حالِ كَونِ القَضِيَّةِ التي قَرَّرَها غيرَ صادِقَةٍ. أمّا الفِعلُ الحُكْمِيُّ act of judgment فهوَ إدراكٌ ذاتِيٌّ اعتِقادِيٌّ؛ ويَكمُنُ الاعتِقادُ في القَبولِ المُتَعَمَّدِ لِلقَضِيَّةِ بِوَصفِها قاعِدَةً لِلسُّلوكِ. لكِنّي أعتقِدُ أنَّ هذا الوَضعَ قابِلٌ لِلشَّكِّ. فهوَ إنَّما يُمَثِّلُ سُؤالاً مفادُهُ: أيُّ الآراءِ يُقَدِّمُ أبْسَطَ رُؤيَةٍ لِطبيعَةِ القَضِيَّةِ؟ فبِذَهابي إلى أنَّ التَّصديقَ لا يُقَرِّرُ لا جَرَمَ أنّي أتَبَنّى أن لا حاجَةَ بِالحُجَّةِ إلى أن يُسَلَّمَ بِها أو أن تُؤَكَّدَ فِعليًّا. فأنا، لِذلكَ، أُعَرِّفُ الحُجَّةَ بِأنَّها عَلامَةٌ مُمَثَّلَةٌ في عامِلِها المُؤَوِّلِ المَدلولِ عليهِ لا بِوَصفِها عَلامَةً لِهذا العامِلِ المُؤَوِّلِ، أي النَّتيجَة، بَل كما لَو كانَتْ عَلامَةً لِلعامِلِ المُؤَوِّلِ، أو رُبَّما كما لَو كانَتْ عَلامَةً لِحالَةِ العالَمِ الذي تُحيلُ عليهِ والذي تَكونُ فيهِ المُقَدِّماتُ مُسَلَّمًا بِها".

ويُمكِنُ أن تَرُوقَ العَلامَةُ عامِلَها المُؤَوِّلَ الدّاينَميكِيَّ بِثَلاثِ طَرائقَ:-

1. يُمكِنُ أن تُسَلَّمَ الحُجَّةُ فقط إلى عامِلِها المُؤَوِّلِ، بِوَصفِها شَيئًا مَا يُقَرُّ بِمَعقوليَّتِهِ.

2. يُمكِنُ أن تُدفَعَ الحُجَّةُ أو التَّصديقُ بِقُوَّةٍ إلى العامِلِ المُؤَوِّلِ بِوَساطَةِ فِعلٍ إلحاحيٍّ act of insistence.

3. يُمكِنُ أن تُقَدَّمَ الحُجَّةُ أو التَّصديقُ إلى العامِلِ المُؤَوِّلِ لِغَرَضِ التَّأمُّلِ، ولا يُتاحُ لِلتَّصوُّرِ إلّا هذا الإمكانُ.

"وأخيرًا، بِاعتِبارِ عَلاقاتِ العَلاماتِ بِعامِلِها المُؤَوِّلِ المُباشِرِ، تُقسَمُ عندي على ثَلاثَةِ أصنافٍ، هيَ:-

1. العَلاماتُ القابِلَةُ لِلتَّأويلِ بِالأفكارِ أو بِعَلاماتٍ أُخرَى مِن النَّوعِ نَفسِهِ في سِلسِلَةٍ لانِهائيَّةٍ.

2. العَلاماتُ القابِلَةُ لِلتَّأويلِ بِالتَّجارِبِ الفِعليَّةِ.

3. العَلاماتُ القابِلَةُ لِلتَّأويلِ بِصِفاتِ المَشاعِرِ أو المَظاهِرِ.

والنَّتيجَةُ أنَّ ثَمَّةَ عشَرَةَ أصنافٍ رَئيسَةً مِن العَلاماتِ:-

1. عَلاماتٌ كَيفِيَّةٌ؛ 2، عَلاماتٌ عَيْنِيَّةٌ آيقونِيَّةٌ؛ 3، عَلاماتٌ قانونيَّةٌ آيقونِيَّةٌ؛ 4، آثارٌ أو عَلاماتٌ عَيْنِيَّةٌ مُؤَشِّرِيَّةٌ تَصوُّرِيَّةٌ؛ 5، أسماءُ أعلامٍ أو عَلاماتٌ قانونيَّةٌ مُؤَشِّرِيَّةٌ تَصوُّرِيَّةٌ؛ 6، رُموزٌ تَصوُّرِيَّةٌ؛ 7، عَلاماتٌ عَيْنِيَّةٌ تَصديقيَّةٌ (مِثالُها صُورَةٌ شَخصِيَّةٌ أُسطورِيَّةٌ)؛ 8، عَلاماتٌ قانونيَّةٌ مُؤَشِّرِيَّةٌ تَصديقيَّةٌ؛ 9، قَضايا أو رُموزٌ تَصديقيَّةٌ؛ 10، حُجَجٌ".

إنَّ هذهِ المُعالَجَةَ لِلتَّفريقِ المَنطِقيِّ المألوفِ بينَ الحَدِّ، والقَضِيَّةِ، والحُجَّةِ، تَختَلِفُ شَيئًا مَا عن [284] العَرضِ الذي قَدَّمَهُ في مَقالَتِهِ في دَورِيَّةِ *Monist* (1906)، حَيثُ أوضَحَ أنَّ "العُضوَيْنِ الأوَّلَيْنِ يَنبَغي أن يُوَسَّعا تَوسيعًا كبيرًا"، وحَيثُ قُدِّمَتْ لَنا قِسمَةٌ أُخرَى هيَ Semes (تَصوُّراتٌ)، وPhemes (تَصْديقاتٌ)، وDelomes (حُجَجٌ).

"أنا أقصِدُ بِـ *Seme* كُلَّ ما يُمكِنُ أن يَكونَ في أيِّ غَرَضٍ بَديلاً لِمَوضوعٍ هوَ مُمَثَّلٌ أو عَلامَةٌ لَهُ على وَجْهٍ مّا. ففي المَنطِقِ يَكونُ الحَدُّ، الذي هوَ اسمُ نَوعٍ، مُساوِيًا لِـ Seme. وبِذلكَ يَكونُ الحَدُّ 'فَناءُ الإنسانِ' هوَ Seme. أمّا ما أقصِدُهُ بِـ *Pheme* فَعَلامَةٌ مُكافِئَةٌ لِجُملَةٍ نَحويَّةٍ، استِفهاميَّةً كانَتْ أو أمريَّةً أو تقريريَّةً. على أيَّةِ حالٍ، فإنَّ المَقصودَ بِهذهِ العَلامةِ أن يَكونَ لَها نَوعٌ مِن الأثَرِ الإلزاميِّ في مُؤَوِّلِها. وأمّا العُضوُ الثّالثُ في هذهِ الثُّلاثيَّةِ فأستَعمِلُ لَهُ أحيانًا كَلِمَةَ *Delome* (تُلفَظُ على هذا النَّحوِ deeloam، وأصلُها *δήλωμα*)، وإنْ كانَتْ كلمَةُ حُجَّة Argument مُلَبِّيَةً لِلحاجَةِ بِما فيهِ الكِفايَةُ. وهيَ عَلامَةٌ لَها شَكلٌ يَميلُ إلى أن يُمارِسَ فِعلاً تجاهَ المُؤَوِّلِ مِن خِلالِ ما لَدَيهِ مِن تَحَكُّمٍ ذاتِيٍّ، لِتُمَثِّلَ عمليَّةَ تَغييرٍ في الأفكارِ أو العَلاماتِ، كما لَو أنَّها تُوَلِّدُ هذا التَّغييرَ عندَ المُؤَوِّلِ".

ويَذكُرُ أنَّ الأُخطوطَ تَصديقٌ Pheme، ويَقولُ: "وهوَ، في استِعمالي حتَّى الآن في الأقَلِّ، قَضِيَّةٌ. والحُجَّةُ تُمَثِّلُها سِلسِلَةٌ مِن الأُخطوطاتِ".

ويَلي ذلكَ نِقاشٌ بِشَأنِ "المُدْرَكِ الحِسّيِّ Percept، وقَد كانَ في التَّحليلِ الأخيرِ المَوضوعَ المُباشِرَ لِكُلِّ مَعرِفَةٍ ولِكُلِّ فِكرٍ".

"وهذا المَذهَبُ لا يُعارِضُ البَتَّةَ البراغماتيكِيَّةَ التي تَذهَبُ إلى أنَّ العامِلَ المُؤَوِّلَ المُباشِرَ لِكُلِّ فِكرٍ مُلائمٍ هوَ السُّلوكُ Conduct. وليسَ ثَمَّةَ ما هوَ أكثَرُ أساسيَّةً لِلتَّوصُّلِ إلى نَظريَّةِ مَعرِفَةٍ سَليمَةٍ مِن التَّفريقِ الدَّقيقِ بينَ المَوضوعِ والعامِلِ المُؤَوِّلِ لِلمَعرِفةِ، كما أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ ما هوَ أكثَرُ أساسيَّةً لِلتَّوصُّلِ إلى أفكارٍ جُغرافيَّةٍ سَليمَةٍ مِن التَّفريقِ الدَّقيقِ بينَ خَطِّ العرضِ الشَّماليِّ وخَطِّ العرضِ الجَنوبيِّ، وليسَ أحَدُ التَّفريقَيْنِ بِأكثَرَ أساسيَّةً مِن الآخَرِ. وكَونُنا نَعِي مُدرَكاتِنا الحِسِّيَّةَ نَظريَّةٌ مُسَلَّمٌ بِها في ما يَبدو لي، لكِنَّها ليسَتْ واقِعَةً إدراكِيَّةً حِسِّيَّةً مُباشِرَةً. فالواقِعَةُ الإدراكِيَّةُ الحِسِّيَّةُ المُباشِرَةُ ليسَتْ مُدرَكًا حِسِّيًا، ولا هِيَ جُزءٌ مِن أجزاءِ المُدرَكِ الحِسِّيِّ؛ فَالمُدرَكُ الحِسِّيُّ تَصَوُّرٌ Seme، في حينِ أنَّ الواقِعَةَ الإدراكِيَّةَ الحِسِّيَّةَ المُباشِرَةَ أو بِالأحرَى الحُكمَ الإدراكيَّ الحِسِّيَّ الذي تكونُ هذهِ الحقيقَةُ عامِلَهُ المُؤَوِّلَ المُباشِرَ

تَصديقٌ Pheme أي العامِلُ المُؤَوِّلُ الدّاينَميكيُّ المُباشِرُ لِلمُدرَكِ الحِسّيِّ، وهو الذي يَكونُ المُدرَكُ الحِسِّيُّ مَوضوعَهُ الدّاينَميكيَّ، والذي يُمَيَّزُ مِن المَوضوعِ المُباشِرِ بِقَدرٍ مِن الصُّعوبةِ غيرِ قَليلٍ (على ما يُظهِرُ تأريخُ عِلمِ النَّفسِ)، على الرَّغمِ مِمّا لِهذا التَّمييزِ مِن دَلالَةٍ كَبيرَةٍ. لكِن، مِن أجلِ ألّا نَقطَعَ سِلسِلَةَ أفكارِنا، نتَّجِهُ إلى أن نَلحَظَ أنَّهُ في الوَقتِ الذي يَكونُ فيهِ المَوضوعُ المُباشِرُ [285] لِلمُدرَكِ الحِسّيِّ غايَةً في الغُموضِ يُبادِرُ الفِكرُ الطَّبيعِيُّ لِتَعويضِ هذا النَّقصِ (وهوَ يَكادُ يَبلُغُ هذهِ الغايَةَ) على النَّحوِ الآتي:- إنَّ ثَمَّةَ عامِلاً مُؤَوِّلاً داينَميكِيًّا سابِقًا لِمُجمَلِ مُرَكَّبِ المُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ يَكونُ هوَ التَّصَوُّرَ Seme لِعالَمٍ أبدِيٍّ مُمَثَّلٍ في فِكرٍ غَريزيٍّ بِوَصفِهِ مُحَدِّدًا لِلمَوضوعِ المُباشِرِ الأصليِّ لِكُلِّ مُدرَكٍ حِسّيٍّ. ولا شَكَّ في أنَّهُ يَجِبُ أن يُفهَمَ مِمّا مَضى أنّي لا أتحدَّثُ حديثًا يتعلَّقُ بِعِلمِ النَّفسِ، بَل يتعلَّقُ بِمَنطِقِ العَمليّاتِ الذِّهنيَّةِ. والعَوامِلُ المُؤَوِّلَةُ الحاصِلَةُ تُنشِئُ تَصَوُّراتٍ Semes جديدَةً لِعَوالِمَ ناجِمَةٍ عن ضَمائمَ مُختلفةٍ إلى عالَمِ الإدراكِ الحِسّيِّ. على أنَّها جَميعًا عَوامِلُ مُؤَوِّلَةٌ لِلمُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ.

وأخيرًا، وعلى نَحوٍ مَخصوصٍ، لَدَينا تَصَوُّرٌ Seme لِما هوَ أعلَى العَوالِمِ الذي يُعَدُّ مَوضوعًا لِكُلِّ قَضِيَّةٍ صادِقَةٍ، والذي إن أرَدْنا أن نُسَمِّيَهُ تَسمِيَةً كُلِّيَّةً أطلَقْنا عليهِ الاسمَ المُضَلِّلَ شَيئًا مّا 'الصِّدْقَ The Truth'.

فَلْنَعُدِ الآنَ، وقَد فَرَغْنا مِن ذلكَ، وَلْنَطرَحْ هذا السُّؤالَ: كيفَ يُمكِنُ أن يَكونَ الحُكمُ الإدراكيُّ الحِسّيُّ الذي هوَ تَصديقٌ Pheme عامِلاً مُؤَوِّلاً داينَميكيًّا مُباشِرًا لِلمُدرَكِ الحِسّيِّ الذي هوَ تَصَوُّرٌ Seme؟ ذلكَ بِأنَّ هذا، بِلا شَكٍّ، ليسَ هوَ المَعهودَ مِن أَمرِ التَّصَوُّراتِ Semes. وجَميعُ النَّماذِجِ التي تَخطُرُ بِبالي في هذهِ اللحظةِ لِمِثلِ هذا الفِعلِ لِلتَّصَوُّراتِ Semes هيَ أمثِلَةٌ لِلمُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ، وإن لم يَكُنْ ثَمَّةَ شَكٌّ في وُجودِ أمثِلَةٍ أخرَى. ولَمّا لَم تَكُنْ جَميعُ المُدرَكاتِ الحِسِّيَّةِ تَعمَلُ بِطاقَةٍ مُتَساوِيَةٍ على هذا النَّحوِ، كانَت تِلكَ الأمثِلَةُ، معَ ذلكَ، مُبَيِّنَةً لِكَونِها مُدرَكاتٍ حِسِّيَّةً. على أنّي أستَميحُكَ أيُّها القارِئُ عُذرًا وأرجو أن تُقَلِّبَ هذا الأمرَ على وُجوهِهِ معَ نَفسِكَ، لِتَرَى بَعدَ ذلكَ- وهذا ما أتمَنَّى التَّوَصُّلَ إليهِ- أَيُوافِقُ رَأيُكَ، الذي تَوَصَّلْتَ إليهِ على نَحوٍ مُستَقِلٍّ، رأيي؟ والذي أراهُ هوَ أنَّ الآيقونةَ

الإدراكيَّةَ الحِسِّيَّةَ الخالصةَ- ومِن الواضِحِ أنَّ الكَثيرَ مِن عُلَماءِ النَّفسِ العُظَماءِ حَقيقَةً كانوا يَظُنُّونَ أنَّ الإدراكَ الحِسِّيَّ هوَ مُرورٌ لِلصُّوَرِ أَمامَ عَينِ العَقلِ، كما لَو أنَّ المَرءَ يَسيرُ في مَعرِضٍ لِلصُّوَرِ- لا يُمكِنُ أن يَكونَ لَها تَصديقٌ Pheme يُمَثِّلُ عامِلَها المُؤَوِّلَ الدّاينَميكيَّ المُباشِرَ. وأَوَدُّ، لأكثَرَ مِن سَببٍ، أن أُخْبِرَكَ بِما يَدفَعُني إلى هذا الاعتِقادِ، وإنْ بَدا لي أن لا مَطمَعَ اليَومَ في تَقديرِكَ لِما أُقَدِّمُهُ مِن أسبابٍ. على أنّي ما زِلْتُ أرغَبُ في أن تَفهَمَ عَنّي بِالقَدرِ الذي تَعرِفُ بِهِ، وقَد أكونُ مُخطِئًا في ذلكَ، أنّي لَسْتُ غارِقًا في لُجَّةٍ ذِهنيَّةٍ بِحَيثُ أتَناوَلُ الحَقيقَةَ الفَلسفيَّةَ بِخِفَّةٍ حينَ أجزِمُ بِأنَّ ثَمَّةَ أسبابًا خَطيرَةً دَفَعَتْني لأَتَبنّى رَأيي، كما أنّي حَريصٌ على أن يُعلَمَ أنَّ هذهِ الأسبابَ لَيسَتْ سايكولوجيَّةً البَتَّةَ، بَل إنَّها مَنطقيَّةٌ خالصَةٌ. فمُوجَزُ السَّبَبِ ومُلَخَّصُهُ، إذَن، أنَّهُ مِن غيرِ المَنطقيِّ لآيقونَةٍ خالصَةٍ أن يَكونَ لَها تَصديقٌ Pheme يُمَثِّلُ عامِلَها المُؤَوِّلَ، وأرَى أنَّ مِن المُحالِ على الفِكرَةِ غيرِ الخاضِعَةِ لِلتَّحَكُّمِ الذّاتِيِّ، كما لا يَخضَعُ لِذلكَ بِوُضوحٍ الحُكمُ الإدراكيُّ الحِسِّيُّ، أن تَكونَ غيرَ مَنطقيَّةٍ. وأحسَبُ أنَّ هذا السَّببَ قَد يُثيرُ فيكَ السُّخريةَ [286] أو الاشمِئزازَ، أو كِلَيْهِما مَعًا، وإن يَكُنْ ذلكَ فإنَّهُ لا يَقْدَحُ في ذَكائكَ عِندي".

وثَمَّةَ رِسالَةٌ لافِتَةٌ لِلنَّظَرِ يَرجِعُ تأريخُها إلى الرّابعَ عشَرَ مِن مارس/آذار مِن سنةِ 1909، تَتضَمَّنُ نِقاشًا لِلثُّلاثيَّةِ التَّأويليَّةِ التي تبَنَّتْها اللَّيْدي ويلبي. فقد كَتَبَ بيرس يَقولُ: "أُقِرُّ بِأنّي لَم أُدرِكْ، قبلَ أن أَطَّلِعَ على مَقالَتِكِ في المَوسوعَةِ البريطانيَّةِ، كَم هيَ أساسيَّةٌ حَقًّا قِسمَتُكِ الثُّلاثيَّةُ على: مفادٍ Sense، ومَعنًى Meaning، ومَغْزًى Significance. ولا يُتَوَقَّعُ لِمَفاهيمَ بِهذهِ الأهمِّيَّةِ أن تُعَرَّفَ تَعريفًا تامًّا مُدَّةً طَويلَةً... وأنا أرَى الآنَ أنَّ قِسمَتي (على أنواعِ العاملِ المُؤَوِّلِ الثَّلاثَةِ) تَكادُ تُطابِقُ قِسمَتَكِ، وهذا ما يَجِبُ أن يَكونَ عليهِ الأمرُ إن كانَت كِلتاهُما صَحيحةً. ولَسْتُ على وَعْيٍ البَتَّةَ بِأيِّ تأثُّرٍ لي بِما كَتَبْتِهِ عندَ وَضعي لِثُلاثيَّتي". بَل إنَّهُ لا يَعتَقِدُ وُجودَ تَذَكُّرٍ غيرِ واعٍ، ويَقولُ: إنّي أَشْعُرُ مِن ثَمَّةَ بِـ"بَعضِ الابتِهاجِ لأنّي أُلفي فِكرَتَيْنا تَكادانِ تَتَّفِقانِ".

ثُمَّ يُتابعُ لِيتساءَلَ عن مَدَى هذا الاتِّفاقِ. إذ يَقولُ: "يَبدو أنَّ التَّعارُضَ

الأكبرَ يَكمُنُ في العامِلِ المُؤوِّلِ الدّاينَميكيِّ عندي مُقارَنًا بـ'المَعنَى' عندَكِ. فهذا الأخيرُ، على ما يَتَبيَّنُ لي، يَكمُنُ في الأثَرِ الذي يَقصِدُ المُتَكلِّمُ (مَلفوظًا كانَ كَلامُهُ أو مَكتوبًا) بِالعَلامَةِ أن يُحْدِثَهُ في ذِهنِ المُؤوِّلِ. أمّا العامِلُ المُؤوِّلُ الدّاينَميكيُّ عندي فيَكمُنُ في الأثَرِ المُباشِرِ الذي تُحدِثُهُ العَلامَةُ فِعليًّا في مُؤوِّلِها. فهُما يَتَّفِقانِ في كَونِهما أثَرَيْنِ لِلعَلامَةِ في عَقلٍ مُفرَدٍ، على ما أعتَقِدُ، أو في عَدَدٍ مِن العُقولِ المُفرَدَةِ الفِعليَّةِ مِن خِلالِ مُمارَسَةِ فِعلٍ مُستَقِلٍّ على كلٍّ منها. وأعتَقِدُ أنَّ ما أُطلِقُ عليهِ اسمَ العامِلِ المُؤوِّلِ النّهائيِّ مُماثِلٌ تَمامًا لِما تُسَمّينَهُ مَغزًى، أي إنَّهُ الأثَرُ الذي يُمكِنُ أن تُحدِثَهُ العَلامَةُ في أيِّ عَقلٍ تَسمَحُ أوضاعُهُ لَها بِتَنفيذِ كامِلِ تأثيرِها. وأمّا ما أُسَمّيهِ عامِلاً مُؤوِّلاً مُباشِرًا فأعتَقِدُ أنَّهُ يَكادُ يُطابِقُ 'المفادَ' عندَكِ، إن لم يُطابِقْهُ تَمامًا؛ فَالذي أَفهَمُهُ أَنَّ السّابِقَ هوَ الأثَرُ الكُلِّيُّ غيرُ المُحَلَّلِ الذي لِلعَلامَةِ أهليَّةُ إحداثِهِ، وقَد اعتَدتُ مُطابَقَةَ هذا معَ الأثَرِ الذي تُحدِثُهُ العَلامَةُ أوَّلاً أو الذي قَد تُحدِثُهُ في العَقلِ، مِن غيرِ أيِّ تَفَكُّرٍ فيها. ولا يَحْضُرُني أنَّكِ قَد حاوَلْتِ مَرَّةً أن تُعَرِّفِي مُصطَلَحَكِ 'المفاد'، ولكِنَّ ما أفهَمُهُ مِن تأمُّلِ ما ذَكَرْتِهِ أنَّهُ الأثَرُ الأوَّلُ الذي يُمكِنُ أَن تُحدِثَهُ العَلامَةُ في عَقلٍ لَهُ الأهليَّةُ الجَيِّدَةُ لاستيعابِها. وما دُمْتِ تَقولينَ إنَّهُ مفادِيٌّ Sensal وليسَ فيهِ عُنصُرٌ إرادِيٌّ فأنا أفتَرِضُ أنَّهُ ذو طبيعَةٍ 'انطِباعيَّةٍ.' فهوَ بِذلكَ، بِقَدرِ ما أستَطيعُ أن أرَى، مُماثِلٌ تَمامًا لِلعامِلِ المُؤوِّلِ المُباشِرِ عندي. وقَد استَقَيْتِ كلماتِكِ مِن الكَلامِ الدّارِجِ مِن أَجلِ التَّعبيرِ عمّا اختَرْتِهِ، في حينِ أنّي تَجنَّبْتُها وشَرَعْتُ أستَحدِثُ مُصطَلَحاتٍ مُناسِبَةً، على ما أعتَقِدُ، لِلاستِعمالاتِ العِلمِيَّةِ. ويُمكِنُ أن أَصِفَ العاملَ المُؤوِّلَ المُباشِرَ عندي بِأنَّهُ قَريبٌ جِدًّا مِن أن يَكونَ أثَرًا لِعَلامَةٍ [287] يُمكِنُ أن تَجعَلَ الشَّخصَ قادِرًا على أن يُقَرِّرَ: أَقابِلَةٌ العَلامَةُ لِلتَّطبيقِ في أيِّ مَجالٍ لِهذا الشَّخصِ مَعرِفَةٌ كافيَةٌ لَهُ، أم غيرُ قابِلَةٍ لِذلكَ؟".

أمّا المَعنَى والقَصدُ فيُتابِعُ حديثَهُ قائلاً بِشَأنِهِما: "أنا أفتَرِضُ أنَّ عامِلِي المُؤوِّلَ بِأصنافِهِ الثّلاثَةِ هوَ شَيءٌ مّا يُقَدِّمُ زِيادَةً أساسيَّةً لأيِّ شَيءٍ يَتَصَرَّفُ بِوَصفِهِ عَلامَةً. فإذا ما نَظَرْنا في العَلاماتِ والأعراضِ الطَّبيعِيَّةِ وَجَدْناها لا يُتَكَلَّمُ بِها، فَلِذلكَ لا يَكونُ لَها مَعنًى، إن عُرِّفَ المَعنَى بِأَنَّهُ ما يَقصِدُهُ المُتَكلِّمُ. وأنا لا أُبيحُ

لِنَفسي الحَديثَ عن 'أَغراضِ اللهِ القادِرِ'، ما دامَ كُلُّ ما يَشاؤُهُ يَتَحَقَّقُ. ويَبدو لي القَصدُ، وإنْ جازَ أن أكونَ مُخطِئًا في ذلكَ، فاصِلاً زَمنيًّا بينَ الرَّغبَةِ وإعدادِ السِّلسلةِ التي تُظهِرُ الرَّغبَةَ. لكِنَّ الذي يَظهَرُ لي هوَ أنَّ الرَّغبَةَ لا يُمكِنُ أن تُنسَبَ إلّا إلى مَخلوقٍ مُتَناهٍ". ثُمَّ يَخلُصُ إلى ما يَأتي:-

"إنَّ أفكارَكِ بِشَأنِ المفادِ، والمَعنى، والمَغزَى يَبدو لي أنَّ مَصدَرَها تَحسُّسٌ مُذهِلٌ لِلإدراكِ الحِسّيِّ لا أستَطيعُ مُنافَسَتَهُ، في حينِ أنَّ المَراتِبَ الثَّلاثَ لِلعامِلِ المُؤَوِّلِ عندي قَد أُنجِزَتْ بِأن يُستَنتَجَ مِن تَعريفِ العَلامَةِ أيُّ نَوعٍ مِن الأَشياءِ يَجِبُ أن يَكونَ قابِلاً لأن يُلْحَظَ، ثُمَّ بِأن يُبحَثَ عن ظُهورِهِ. فأمّا العامِلُ المُؤَوِّلُ المُباشِرُ عندي فمُتَضَمَّنٌ في حَقيقَةِ أنَّ كُلَّ عَلامةٍ لا بُدَّ أن تَكونَ لَها قابليَّتُها التَّأويليَّةُ المُمَيِّزَةُ قَبلَ أن تحوزَ أيَّ مُؤَوِّلٍ. وأمّا العامِلُ المُؤَوِّلُ الدّاينَميكيُّ عندي فَهوَ الذي يُجَرَّبُ في كُلِّ فِعلٍ تأويليٍّ ويَكونُ مُختلِفًا عن ذلكَ الذي يَكونُ في أيِّ فِعلٍ تأويليٍّ آخَرَ؛ وأمّا العامِلُ المُؤَوِّلُ النِّهائيُّ فَهوَ النَّتيجةُ التَّأويليَّةُ الوَحيدَةُ التي يَتحَتَّمُ على كلِّ مُؤَوِّلٍ أن يَبلُغَها، إن رُوعِيَتِ العَلامَةُ مُراعاةً كافِيَةً. فَالعامِلُ المُؤَوِّلُ المُباشِرُ تَجريدٌ يَكمُنُ في الإمكانِ؛ والعامِلُ المُؤَوِّلُ الدّاينَميكيُّ حَدَثٌ فِعليٌّ مُفرَدٌ؛ والعامِلُ المُؤَوِّلُ النِّهائيُّ هوَ ما يُفضي الفِعليُّ إليهِ".

وقَد نالَ مَفهومُ 'العامِلِ المُؤَوِّلِ' عندَ بيرس مَزيدًا مِن الإيضاحِ في رِسالةٍ كَتَبَها في نِهايَةِ سنةِ 1908، وقَد سَبَقَ أنِ اقتَبَسْنا مِنها بَعضَ الفِقراتِ. وقد أكَّدَ فيها أنَّهُ في كُلِّ مَسائلِ التَّأويلِ لا غِنَى عن الابتِداءِ بِتَحليلٍ دَقيقٍ وواسِعٍ لِطَبيعَةِ العَلامَةِ. إذ يَقولُ: "أنا أُعرِّفُ العَلامَةَ بِأنَّها أيُّ شَيءٍ يُحَدِّدُهُ شَيءٌ آخَرُ يُدْعَى مَوضوعَهُ، ويَكونُ مُحَدِّدًا لأثَرٍ في شَخصٍ مّا، وهوَ الذي أُسَمّي أثَرَهُ عامِلَهُ المُؤَوِّلَ، بِحَيثُ يَكونُ السّابِقُ، بِذلكَ، هوَ الذي يُحَدِّدُ الأخيرَ على نَحوٍ غيرِ مُباشِرٍ. وقَد أقحَمْتُ عِبارَةَ 'في شَخصٍ مّا' استِرضاءً لِسيربيروس Cerberus[52]؛

(52) سيربيروس: كَلبٌ أُسطوريٌّ عادَةً مّا يكونُ بِثلاثةِ رؤوسٍ في الأساطيرِ الإغريقيَّةِ =

ذلكَ بِأنّي قَد يَئِسْتُ مِن جَعلِ مَفهومِي الأوسَعِ الخاصِّ بي مَفهومًا. فأنا أُمَيِّزُ ثَلاثَةَ عَوالِمَ تُمَيِّزُها [288] ثَلاثَةُ أنماطٍ وُجودِيَّةٌ. أحَدُ هذهِ العَوالِمِ الثّلاثةِ يَشمَلُ كُلَّ ما لَهُ وُجودٌ بِنَفسِهِ وَحدَهُ، إلّا أنَّ كلَّ ما في هذا العالَمِ يَجِبُ أن يَكونَ حاضِرًا لِوَعيٍ واحِدٍ، أو أن يَكونَ قابِلاً لأن يَكونَ حاضِرًا على هذا النَّحوِ لِوُجودِهِ كُلِّهِ". وسَمَّى مَوضوعاتِ هذا العالَمِ أفكارًا أو مُمكِناتٍ Ideas or Possibles، ومَوضوعاتِ العالَمِ الثّاني أو الفِعليّ وَقائعَ Facts، ومَوضوعاتِ الثّالِثِ مُقتَضَياتٍ Necessitants.

إنَّ المَنحَى الوُجودِيَّ لِلعَلاماتِ قَد يَكونُ 'مُمكِنًا' (مِثالُهُ مُسَدَّسٌ مُحَدَّدٌ بِمَخروطٍ أو حَولَ مَخروطٍ)؛ أو 'فِعلِيًّا' (كما في حالةِ مِقياسِ الضَّغطِ الجوِّيِّ)؛ أو 'مُقْتَضًى' (مِثل كَلِمَةِ 'ال the'، أو أيّةِ كلمةٍ أُخرَى في المُعجَم). وهوَ يُسَمّي العَلامَةَ 'المُمكِنَةَ'، على ما جاءَ في مَقالتِهِ في دَورِيَّةِ *Monist*، طابعًا ("معَ أنّي أُفَكِّرُ في أن أستَبْدِلَ بِهذهِ الكلمَةِ كلمةَ 'مَعْلَم Mark'")؛ والعَلامَةَ 'الفِعلِيَّةَ' أمارَةً؛ والعَلامَةَ 'المُقتَضاةَ' نَمَطًا.

> "ومِن المُعتادِ والمُلائمِ التَّفريقُ بينَ مَوضوعَيْنِ لِلعَلامةِ: غيرُ المُباشِرِ الذي يَكونُ خارِجَ العَلامَةِ، والمُباشِرُ الذي يَكونُ داخِلَ العَلامَةِ. وعامِلُها المُؤَوِّلُ هوَ كلُّ ما تَنقُلُهُ العَلامَةُ، ولا بُدَّ مِن الحصولِ على مَعرِفَةِ مَوضوعِها مِن طَريقِ التَّجرِبَةِ المُصاحِبَةِ. والمَوضوعُ غيرُ المُباشِرِ هوَ الموضوعُ الذي يَكونُ خارِجَ العَلامَةِ، وأنا أُسَمّيهِ المَوضوعَ الداينَمويديَّ *Dynamoid*. ويَجِبُ أن تُشيرَ العَلامَةُ إليهِ بِلَمحَةٍ، وهذهِ اللَّمحَةُ، أو مادَّتُها، هيَ المَوضوعُ المُباشِرُ".

وحينَ يَكونُ المَوضوعُ الداينَمويديُّ 'مُمكِنًا' تَكونُ العَلامَةُ ذاتَ طَبيعَةٍ

= والرومانيَّةِ. كانَ مِن نَسلِ إيتشيدنا، وهيَ مُهَجَّنَةٌ نِصفُها امرأةٌ ونِصفُها الآخَرُ أفعَى، وتايفون وهو وَحشٌ هائلٌ كانَ يَخشاهُ حتّى الآلِهةُ الإغريقيّةُ. [المُترجِم]

تَجريديَّةٍ (مِثل كَلِمَةِ جَمال)، وحينَ يَكونُ 'فِعلِيًّا' تَكونُ العَلامَةُ ذاتَ طَبيعَةٍ مادِّيَّةٍ (مِثل أيِّ مِقياسٍ لِلضَّغطِ الجوِّيِّ أو قِصَّةٍ مَكتوبَةٍ ذاتِ أيَّةِ سِلسِلَةٍ مِن الأحداثِ)، أمّا "العَلامَةُ التي يَكونُ مَوضوعُها الدايِنَمويديُّ مُقْتَضًى فليسَ لَدَيَّ في الوَقتِ الحاضِرِ تَسمِيَةٌ لَها أفضَلُ مِن 'الجَمْعِيَّةِ *Collective*'، وهذهِ التَّسمِيَةُ لَيسَتْ بِالسُّوءِ الكَبيرِ الذي تَبدو عليهِ، وذلكَ إلى حينِ أن تُتاحَ الفُرصَةُ لِدِراسةِ الأمرِ، لكِن مِنْ دَواعي الخَرَقِ والحَيْرَةِ الكَثيرَةِ لِشَخصٍ مِثلي يُفَكِّرُ في نِظامٍ لِلرُّموزِ مُختلِفٍ تَمامًا عن الكَلِماتِ أن تُتَرجَمَ الفِكرَةُ إلى كَلِماتٍ! فإنْ كانَ المَوضوعُ المُباشِرُ 'مُمكِنًا' (أي إن كانَ المَوضوعُ الدايِنَمويديُّ مُشارًا إليهِ، ويَكونُ ذلكَ، دَومًا، على نَحوٍ غامِضٍ بَعضَ الشَّيءِ، مِن طَريقِ صِفاتِهِ، وما إليها) دَعَوْتُ العَلامَةَ 'واصِفَةً *Descriptive*'؛ وإن كانَ المُباشِرُ حادِثَةً دَعَوْتُ العَلامَةَ 'مُعَيِّنَةً *Designative*'؛ وإن كانَ المَوضوعُ المُباشِرُ مُقْتَضًى دَعَوْتُ العَلامَةَ 'رابِطَةً *Copulant*'؛ إذ إنَّهُ في هذهِ الحالةِ على المُؤَوِّلِ أن يُمَيِّزَ المَوضوعَ تَمييزًا كَبيرًا يُمكِنُ مَعَهُ أن تُمَثِّلَ العَلامَةُ اقتِضاءً مّا".

وليسَ في وُسعِ المُمكِنِ أن يُحَدِّدَ سِوَى المُمكِنِ، كما أنَّهُ ما مِن شَيْءٍ يُمكِنُ أَن يُحَدِّدَ المُقتَضَى سِوَى المُقتَضَى. ويُتابِعُ قائلاً: "مِن هُنا يَنشَأُ مِن تَعريفِ العَلامَةِ أنَّهُ لَمّا كانَ المَوضوعُ الدايِنَمويديُّ مُحَدِّدًا لِلمَوضوعِ المُباشِرِ،

الذي يُحَدِّدُ العَلامَةَ نفسَها،

التي تُحَدِّدُ العامِلَ المُؤَوِّلَ المَحتومَ Destinate، [289]

الذي يُحَدِّدُ العامِلَ المُؤَوِّلَ الفَعّالَ Effective،

الذي يُنشِئُ العامِلَ المُؤَوِّلَ الصَّريحَ Explicit،

كانَتِ التَّقسيماتُ الثُّلاثيَّةُ السِّتَّةُ، بَدَلاً مِن أن تُحَدِّدَ 729 صِنفًا مِن العَلاماتِ، على ما كانَ يُمكِنُ أن يَحدُثَ لَو كانَتْ مُستَقِلَّةً، لا تُوَلِّدُ سِوَى 28 صِنفًا، وإنّي لأعتَقِدُ بِقُوَّةٍ (إن لَم أَقُلْ: أكادُ أستَحسِنُ) أَنَّ ثَمَّةَ أربَعَةَ تَقسيماتٍ ثُلاثيَّةٍ أُخرَى لِلعَلاماتِ لَها رُتبَةُ الأهمِّيَّةِ نَفسُها لا تُوَلِّدُ سِوَى 66 صِنفًا بَدَلاً مِن

أن تُوَلِّدَ 59049 صِنفًا. ولا شَكَّ في أنَّ أوَّلَ هذهِ التَّقسيماتِ الثُّلاثيَّةِ الأُخرَى هوَ المَبْنِيُّ على: الآيقوناتِ (أو Simulacra)، والمُؤشِّراتِ، والرُّموزِ، أمّا التَّقسيماتُ الثَّلاثَةُ الأُخرَى فتُحيلُ على العَوامِلِ المُؤَوِّلَةِ. وأنّا مُطمَئِنٌّ إلى حَدٍّ مّا إلى أنَّ أحَدَها يُقسَمُ على: الإيعازيّاتِ Suggestives، والطَّلَبِيّاتِ Imperatives، والإخباريّاتِ Indicatives، حيثُ تتضَمَّنُ الطَّلَبِيّاتُ الاستِفهاميّاتِ *Interrogatives*. أمّا التَّقسيمانِ الأخيرانِ فأعتَقِدُ أنَّ أحَدَهما يَجِبُ أن يَتَعلَّقَ بتَأكيدِ العَلاماتِ لِعَوامِلِها المُؤَوِّلَةِ مِن طَريقِ: الغَريزَةِ Instinct، والتَّجرِبَةِ Experience، والشَّكلِ Form. أمّا الآخَرُ فأفتَرِضُ أنَّهُ ما سَمَّيتُ (في مَقالَتي (1906) في دَورِيَّةِ *Monist*) أطرافَهُ: تَصَوُّراتِ *Semes*، وتَصديقاتِ *Phemes*، وحُجَجًا *Delomes*"[53]. [290]

---

(53) لم تُظهِرْ حتّى الآن طَبعَةُ **الأعمال الكامِلَة** *Collected Works* لِمُؤَلَّفاتِ بيرس، وهيَ الآنَ في طَورِ النَّشرِ في مَطبَعَةِ جامِعةِ هارفَرد، ما يُحَتِّمُ إجراءَ تَعديلٍ أو تَوسيعٍ لِلتَّحليلِ المذكورِ آنِفًا. *Cf.* J. Buchler, *Charles Peirce's Empiricism*, 1939, pp. 4-8, 155-6, and 180-5; also *Psyche*, 1935, pp. 5-7, and Vol. XVIII, 1943, *art. cit.*, "Word Magic".

التَّذييلُ E

في الوَقائعِ السّالِبَةِ

يُمكِنُ أن يُقارَبَ بَحثُ الوَقائعِ مِن عِدَّةِ زَوايا، لكِنْ قَد تَكونُ أفضَلُ بِدايَةٍ هيَ النَّظَرَ في الخِلافِ بِشَأنِ الوَقائعِ السّالِبَةِ التي مِن الواضِحِ أنَّ القَضايا فيها تَكونُ مُتَأَزِّمَةً. فَفي سَنَةِ 1917 نَشَرَ السَّيِّدُ رافائيل ديموس Raphael Demos[1] في دَوريَّةِ *Mind* نَتائجَ استِبانَةٍ شَمِلَ بِها أذكَى مَن يَعرِفُ مِن غيرِ ذوي المُيولِ الفَلسفيَّةِ- وفَحواها: هلَ واجَهَ أحَدُهُم بِصِفَةٍ شَخصيَّةٍ واقِعَةً سالِبَةً ولَو مَرَّةً؟ فجاءَتْ إجاباتُهُم جَميعًا مُتَّفِقَةً على أنَّ "كُلَّ حالةٍ مَعرفيَّةٍ عُبِّرَ عنها مِن خِلالِ قَضِيَّةٍ سالِبَةٍ كانَتْ في الواقِعِ ذاتَ طبيعةٍ مُوجَبَةٍ، على نَحوٍ لَم يَكُنْ في مَقدورِهِم أن يَستَوعِبوهُ".

وبِسببِ رَغبَةِ الكاتِبِ في عَدَمِ مُعارَضَةِ هذا الحُكمِ التَّجريبيِّ مِن غيرِ سببٍ وَجيهٍ غامَرَ في مُفاتَشَةِ الاستِنتاجِ التَّقليديِّ الذي مفادُهُ أنَّ الوَقائعَ السّالِبَةَ مُكَوِّنٌ أساسيٌّ في العالَمِ، واستَبْدَلَ بِهِ نَظريَّةَ التَّناقُضِ بينَ القَضايا التي يُفَسَّرُ على وَفقِها نَحوُ قَولِنا: "جون ليسَ في إنجلترا" بِأنَّهُ وَصفٌ لِقَضِيَّةٍ مُوجَبَةٍ ("جون في باريس") مُنافِيَةٍ لِلقَضِيَّةِ المُوجَبَةِ المَنفِيَّةِ في الأصلِ ("جون في إنجلترا"). وقَد أُغرِيَ مُؤَلِّفا كِتابِ مَبادِئُ الرِّياضِيّاتِ *Principia Mathematica*[2] بِهذِهِ المُغامَرَةِ

---

(1) رافائيل ديموس (1892-1968م). أحدُ الفلاسفةِ المتخصِّصِينَ في فلسفةِ أفلاطون. درَّسَ في جامعةِ هارفَرد بينَ سنَتَيْ 1919 و1962، وحرَّرَ الأعمالَ الكاملةَ لأفلاطون في سنةِ 1936، وألَّفَ كتابَ (فلسفةُ أفلاطون) في سنةِ 1939. [المُترجِم]

(2) كتابٌ في ثلاثةِ مُجلَّداتٍ في أُسُسِ الرِّياضيّاتِ، ألَّفَهُ ألفريد نورث وايتهيد وبرتراند رَسِل، وطُبِعَ في السنواتِ: 1910، و1912، و1913. ويَنبَغي عَدَمُ الخَلطِ بينَ هذا الكِتابِ والكِتابِ الذي قَد يَحمِلُ في التَّرجَمَةِ العربيَّةِ العُنوانَ نَفسَهُ والذي انفرَدَ برتراند رَسِل بتأليفِهِ سنةَ 1903. [المُترجِم]

المنطقيَّةِ إغراءً شَديدًا اضطُرًّا مَعَهُ إلى فَحصِ الحُجَّةِ بِدِقَّةٍ والخُروجِ منها بالإشارَةِ إلى أنَّهُ لِكَونِ 'مُنافِيَة incompatible' مُطابِقَةً لِـ'غَيْرِ مُوافِقَة not compatible' سَمَحَ التَّأويلُ نَفسُهُ على نَحوِ غيرِ مَشروعٍ بِواقِعَةٍ سالِبَةٍ، هذا على الرَّغمِ مِن رَغبَتِهما التي لا يَكادانِ يَستَطيعانِ لَها كَبحًا في التَّملُّصِ مِن الإقرارِ بالوَقائعِ السّالِبَةِ التي لَحِظا أنَّها مُودَعَةٌ في صَدرِ كلِّ إنسانٍ. ولَو أُعيدَ استِعمالُ التَّأويلِ مِن أجلِ التَّخلُّصِ مِن ذلكَ، لَسَمَحَ هذا الاستِعمالُ بِمُتَطَفِّلٍ آخَرَ، وهَلُمَّ جَرًّا.

على أنَّهُ مِمّا يَنبَغي أن يُلحَظَ أنَّهُ في ذلكَ الزَّمَنِ كانَتْ لَدَى السَّيِّدِ جونسن W. E. Johnson مُداخَلَةٌ على صَفَحاتِ دَورِيَّةِ *Mind* تضَمَّنَت القَولَ الآتِيَ: "ليسَ في وُسعِنا إلّا أن نَقولَ إنَّ 'مُنافِيَة incompatible' تَعني 'مُنافِيَة لِمُوافِقَة incompatible with compatible'- أو بِتَعبيرٍ آخَرَ: إنَّ المُنافِيَةَ عَلاقَةٌ مُوجَبَةٌ مُطلَقَةٌ مِثْلَما أنَّ المُوافِقَةَ عَلاقَةٌ مُوجَبَةٌ مُطلَقَةٌ". [291] وقَد كانَ مُتَوَقَّعًا أن تُوجَدَ تَحرُّكاتٌ أُخرَى في هذا الاتِّجاهِ، ويُمكِنُ الوُقوفُ على بَعضِها، حَقًّا، في كِتابِ البروفيسور إيتن Eaton[3] الذي عُنوانُهُ الرَّمزِيَّةُ والصِّدْقُ *Symbolism and Truth* (1925).

على أنَّ مَذهَبَ الرَّمزِيَّةِ يُتيحُ لَنا أن نَحسِمَ الخِلافَ بِهُدوءٍ بِجَذبِ الانتِباهِ إلى مَوضِعِ النِّزاعِ. إذ يُمكِنُنا حينَئذٍ تَطبيقُ نظرِيَّةِ العَلاماتِ التي يَعتمِدُ عليها المَذهَبُ ثُمَّ الإشارَةُ إلى ما كانَ سببَ الخِلافِ.

فَالخِلافُ يتعلَّقُ بِالمَراجِعِ التي لَها رُموزٌ مُعقَّدَةٌ مُعَيَّنَةٌ، وهيَ الرُّموزُ التي تشتَمِلُ على التَّعبيرِ 'غَيْر not' أو ما يُكافِئُهُ. إنَّهُ يتعلَّقُ بِتَحديدِ: أ'واقِعَةٌ سالِبَةٌ negative fact' تُعَدُّ مِثلُ هذهِ الرُّموزِ أم 'لَيسَتْ بِواقِعَةٍ not a fact'؟ وبِالنَّتائجِ المُفتَرَضَةِ لِهذا القَرارِ. ويُتيحُ لَنا الرُّجوعُ إلى لَفْظِ (الواقِعَة) أفضَلَ إيضاحٍ لِلمسألةِ، إذا ما تَرَكْنا الآنَ مُشكِلَةَ (السّالِبَة) جانِبًا.

(3) رالف مونرو إيتن (1892-1932م). فيلسوفٌ أمريكيٌّ عُرِفَ بدراسةِ عَلاقَةِ نظريَّةِ المعرِفَةِ بالمنطقِ والميتافيزيقا معَ إدموند هوسِّرل والمدرسةِ الظاهراتيَّةِ للفلاسفةِ الألمانِ ولا سيَّما مدرسةُ فرايبورغ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (الرَّمزيَّةُ والصِّدْقُ-مُقدِّمةٌ لِنظريَّةِ المعرِفَة). [المُترجِم]

إنَّ القَضِيَّةَ، أو الرَّمزَ المُعَقَّدَ "ماتَ تشارلز الأَوَّلُ على المِشنَقَةِ" تُستَعمَلُ لِلإحالَةِ على مَرجِعٍ مُعَقَّدٍ مُعَيَّنٍ. وكُلَّما كانَتْ ثَمَّةَ صِيغَةٌ مِن الكَلِماتِ لَيسَ لَها مَرجِعٌ أَخفَقَتْ في أن تَكونَ رَمزًا وكانَتْ هُراءً. وفي هذهِ الحالةِ يَسمَحُ المُؤَرِّخونَ بانتِماءِ المَرجِعِ إلى نِظامٍ مِن المَراجِعِ يُطلِقُونَ عليهِ اسمَ 'أَحداثٍ تأريخيَّةٍ'.

فكذلِكَ يُقالُ عن العَلامَةِ المُعَقَّدَةِ 'أَصبَحَ الإسكَندَرُ السّادِسُ صائدَ فِئرانٍ' إنَّ لَها مَرجِعًا يَستَبعِدُهُ المُؤَرِّخونَ مِن النِّظامِ التَّأريخيِّ. وهُم يَفعَلونَ ذلكَ بِحُجَّةِ أنَّ جَميعَ المَواضِعِ التي يُمكِنُ أن يُناسِبَها هذا المَرجِعُ مَشغولَةٌ بِمَراجِعَ أُخرَى. فيَقولونَ حينَئذٍ (إنْ كانوا رَمزِيِّينَ) إنَّ هذا المَرجِعَ يَنتَمي إلى نِظامٍ آخَرَ[4]؛ فإمّا أن يَكونَ نِظامَ الأَحداثِ الجَهَنَّمِيَّةِ لِرابيليه Rabelais[5]، وإمّا أن يَكونَ نِظامًا آخَرَ مِن الأَحداثِ الخَياليَّةِ، أو الأَحداثِ التي فيها نَوعٌ مِن الخَيالِ- وكُلُّها 'تأريخيٌّ' بالمَعنَى الأَوسَعِ لِلأَحداثِ التي وَقَعَتْ.

فإنْ كانَ المَرجِعُ لِرَمزٍ مُعْطًى مُنتَمِيًا إلى النِّظامِ الذي نَبحَثُ عنهُ فيهِ فعادَةً ما نَقولُ: "الرَّمزُ ('ماتَ تشارلز الأَوَّلُ على المِشنَقَةِ') يُعَبِّرُ عن واقِعٍ"، أو "إنَّهُ لَواقِعٌ أنَّهُ قَد (الرَّمزُ)"، وفي أحيانٍ أكثَرَ نَقولُ: "(الرَّمزُ- أي تشارلز الأَوَّلُ، إلى آخِرِ الكَلامِ) صادِقٌ". فهذهِ الأَقوالُ لَها المَرجِعُ نَفسُهُ، وهوَ المَرجِعُ الذي يُحالُ عليهِ على نَحوٍ أكثَرَ كِفايَةً بِوَساطَةِ الرَّمزِ المُعَقَّدِ:- "يَنتَمي المَرجِعُ إلى النِّظامِ

---

(4) بِشَأنِ الطَّريقَةِ التي يُستَعمَلُ بِها هُنا الرَّمزانِ 'مَوْضِع' و'مَرجِع' تُنظَرُ الصَّفحَةُ 198 مِن الفَصلِ الخامِسِ. وإذا ما قُلْنا إنَّ المَرجِعَ يُحَدَّدُ لَهُ 'نِظامٌ' فإنَّ الـ'نظامَ' هُنا اختِزالٌ لأجزاءِ الإحالَةِ التي بِمُساعدتِها نُحاولُ التَّحَقُّقَ. وأكثَرُ الأَنظِمَةِ شُيوعًا في الاستِعمالِ هيَ 'التَّأريخيُّ'، و'الفِعْليُّ'، و'الفيزيائيُّ'، و'السّايكولوجيُّ'، و'الخَياليُّ'، و'الحُلمُ.' وبَعضُ الأَنظِمَةِ تُوَلِّدُ مُشكِلاتٍ صَغيرَةً خاصَّةً، مِثل 'النِّظام الدراماتيكيّ.'

(5) فرانسوا رابيليه (1494-1553م). كاتبٌ فرنسيٌّ من كُتّابِ عصرِ النهضةِ، وطبيبٌ، وراهِبٌ، وعالِمٌ بِاليونانيَّةِ. يُعَدُّ أحدَ أعظمِ الكُتّابِ على مُستَوَى العالَمِ، وأحدَ مؤسِّسي أسلوبِ الكتابةِ الأوربيِّ الحديثِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ سلسلةٌ من الرِّواياتِ الهزليَّةِ عنوانُها (غارغانتوا وبانتاغرويل)، وهي تروي قصَّةَ عِملاقَيْنِ: أبٍ اسمُهُ غارغانتوا، وابنٍ له اسمُهُ بانتاغرويل، ومُغامَراتِهِما، بأسلوبٍ مُمتِعٍ، ومُبالِغٍ، وساخِرٍ. [المترجِم]

المُحَدَّدِ لَهُ (بِالسِّياقِ أو على نَحوٍ صَريحٍ) بِوَساطَةِ الإحالَةِ". [292]

ومِن جِهَةٍ أُخرَى، إنْ كانَ المَرجِعُ مُنتَمِيًا إلى نِظامٍ آخَرَ غيرِ الذي نَبحَثُ عَنهُ فيهِ فحينَئذٍ نَميلُ إلى أن نَقولَ، إن كانَتْ دِرايَتُنا بِهذا النِّظامِ كافِيَةً:-

(1) القَولُ إنَّ تشارلز الأَوَّلَ ماتَ في فِراشِهِ مُضادٌّ لِلواقِعِ.

(2) (الرَّمزُ، أي 'تشارلز الأَوَّلُ، إلى آخِرِ الكَلامِ') لا يُعَبِّرُ عن واقِعٍ.

(3) (الرَّمزُ) يُعَبِّرُ عَمّا ليسَ بِواقِعٍ.

(4) إنَّهُ ليسَ بِواقِعٍ أنَّ (الرَّمز).

(5) إنَّهُ لَواقِعٌ أنَّ (الرَّمز، معَ 'غَيْر not' مُقَدَّمَةٍ على نَحوٍ مُناسِبٍ).

ويُمكِنُ أن يُلحَظَ أنَّ لِهذهِ الأقوالِ المَرجعَ نَفسَهُ. إنَّها تُوضِحُ التَّحوُّلاتِ التي تَخضَعُ لَها العَلاماتُ لِتُهَيِّئَ تَيسيرًا لُغويًّا ولِتَكونَ مَصدَرَ شَقاءٍ لِلمَناطِقَةِ. والقَولُ الأَوَّلُ أكثَرُ الأقوالِ إثارَةً لِلفُضولِ. إذ إنَّهُ شَكلٌ مَضغوطٌ لِتَوَسُّعٍ مّا، وهوَ تَوَسُّعٌ في الاتِّجاهِ إلى نظريَّةِ السَّيِّدِ ديموس كما أنَّ القَولَ الخامسَ هوَ تَحَوُّلٌ في مَصلَحَةِ خَصمِهِ. فبَدَلاً مِن 'لَواقِعٌ' يُمكِنُ أن نَضَعَ 'لَصادِقٌ' أو 'لَصِدْقٌ'، وبَدَلاً مِن 'ليسَ بِواقِعٍ' يُمكِنُ أن نَضَعَ 'كاذِبٌ' أو 'لَيسَ صادِقًا.' وفي وُسعِ الفيلولوجيِّينَ المُولَعِينَ بِالإحصاءاتِ أن يُحصُوا ما يَكونُ تَحتَ تَصرُّفِنا حينَئذٍ مِن الأبدالِ التي تُجَنِّبُنا الرَّتابَةَ في كِتاباتِنا النَّثريَّةِ. وفي الآتي عَلامَةٌ مُعَقَّدَةٌ أكثَرُ كِفايَةً معَ المَرجِعِ الذي تُحيلُ عليهِ جَميعُ تلكَ الأقوالِ:-

إنَّ مَرجعَ (الرَّمزِ) يَنتَمي إلى نِظامٍ آخَرَ لِلمَراجِعِ غيرِ الذي هوَ مُحَدَّدٌ لَهُ (على نَحوٍ سِّياقِيٍّ أو على نَحوٍ صَريحٍ).

وأَصَحُّ مِن ذلكَ إسقاطُ المُكَمِّلَيْنِ الرَّمزِيَّيْنِ 'مَرجِع' أو 'نِظام'، لِتَكونَ النَّتيجَةُ:- إنَّ الإحالَةَ التي تَستَعمِلُ (الرَّمزَ)، لَها مِن الإحالاتِ الجُزئيَّةِ ما لا تَقوَى مُجتَمِعةً على تَكوينِ إحالَةٍ لأيِّ حَدَثٍ.

فالواقِعَةُ، إذَن، هيَ مَرجِعٌ يَنتَمي إلى النِّظامِ المُحَدَّدِ لَهُ. وهذا التَّعريفُ

لِـ'الواقِعَةِ' يَحُلُّ 'مُشكِلَةَ الوَقائِعِ السّالِبَةِ' التي كُنّا قد ابتَدَأنا بِها. ولا يُمكِنُ أن يَحلَّها سِواهُ. إنَّ المَرجِعَ الجُزئيَّ لِلرَّمزِ المُعَقَّدِ (1) 'تشارلز الأوَّلُ لم يَمُتْ على المِشنَقَةِ' هوَ المَرجِعُ الجُزئيُّ كذلكَ لِلرَّمزِ المُعَقَّدِ (2) 'تشارلز الأوَّلُ ماتَ على المِشنَقَةِ'، لكِنْ بِتَحديدٍ مُختَلِفٍ. ويُمْكِنُ أن يُقالَ بِعبارةٍ أوضَحَ إنَّ الشَّكلَ المُوَسَّعَ لِـ(1) هوَ: "مَرجِعُ الرَّمزِ 'تشارلز الأوَّلُ ماتَ على المِشنَقَةِ' يَنتَمي إلى نِظامٍ آخَرَ غيرِ نِظامِ الأحداثِ التَّأريخيَّةِ". والشَّكلُ المُوَسَّعُ لِـ(2) هوَ: "مَرجِعُ الرَّمزِ 'تشارلز ماتَ على المِشنَقَةِ' يَنتَمي إلى نِظامِ الأحداثِ التَّأريخيَّةِ". وما دامَ المُؤَرِّخونَ يَجِدونَ مَرجِعَ "تشارلز الأوَّلُ ماتَ على المِشنَقَةِ" في النِّظامِ التَّأريخيِّ ففي وُسعِنا أن نَقولَ إنَّ (1) كاذِبٌ و(2) صادِقٌ، لكِنَّنا بِذلكَ لا نَفعَلُ سِوَى استِعمالِ أقوالٍ بَديلَةٍ.

والحالَةُ المَعكوسَةُ لِلرَّمزَيْنِ (1) "تشارلز الأوَّلُ لم يَمُتْ [293] في فِراشِهِ" و(2) "تشارلز الأوَّلُ ماتَ في فِراشِهِ" تُعالَجُ بِالطَّريقَةِ نَفسِها. إذ يَتَوَسَّعُ (1) لِيُصبِحَ "مَرجِعُ 'تشارلز الأوَّلُ ماتَ في فِراشِهِ' يَنتَمي إلى نِظامٍ آخَرَ غيرِ نِظامِ الأحداثِ التَّأريخيَّةِ". ويَتَوَسَّعُ (2) لِيُصبِحَ "مَرجِعُ 'تشارلز الأوَّلُ ماتَ في فِراشِهِ' يَنتَمي إلى نِظامِ الأحداثِ التَّأريخيَّةِ". ويَجِدُ المُؤَرِّخونَ 'المَوْضِعَ' في النِّظامِ التَّأريخيِّ الذي يُمكِنُ أن يَشغَلَهُ هذا المَرجِعُ مَشغولاً بِمَرجِعٍ آخَرَ. لِذا في وُسعِنا أن نَقولَ إنَّ (1) صادِقٌ و(2) كاذِبٌ، أو إنَّ (1) يُحيلُ على واقِعَةٍ و(2) لا يُحيلُ على واقِعَةٍ، أو يُحيلُ على ما لَيْسَ بِواقِعَةٍ أو على واقِعَةٍ سالِبَةٍ، لكِنَّنا بِقَولِنا ذلكَ لا نَفعَلُ سِوَى استِعمالِ اختِزالاتٍ مُتَنافِسَةٍ، مُطَوَّرَةٍ لأغراضِ التَّيسيرِ اللغويِّ.

إنَّ قِطعَةَ الحَبلِ يُمكِنُ أن تَربِطَ الرُّزمَةَ الواحِدَةَ سَواءٌ أكانَتْ لَها عُقدَةٌ أم لَم تَكُنْ. وليسَتْ ثَمَّةَ زِيادَةُ تَمَيُّزٍ لِلرُّزَمِ التي يُصادِفُ أن تُربَطَ بِحَبلٍ يَشتَمِلُ على عُقَدٍ. فهِيَ لَيسَتْ 'رُزَمًا تَشتَمِلُ على عُقَدٍ' ولا 'رُزَمًا مَعقودَةً'، بَل إنَّها رُزَمٌ صادِقَةٌ فَحَسْبُ. على نَحوٍ مُشابِهٍ يَنبَغي أن يَكونَ واضِحًا أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ القَضايا التي تَشتَمِلُ على عَناصِرَ سالِبَةٍ تَختَلِفُ، بِوَصفِها قَضايا، عن التي تَخلو مِن (الأغيارِ nots) لا يَتَضَمَّنُ التَّمايُزُ فُروقًا مُناظِرَةً في المَوضوعاتِ المُحالِ عليها،

أو صِنفًا خاصًّا مِن المَوضوعاتِ السّالِبَةِ. ولا شَكَّ في أنَّ هذا يَصْدُقُ على حَدٍّ سَواءٍ في حالةِ عَدَمِ استِعمالِ العُنصُرِ السّالِبِ إلّا بِوَصفِهِ إشارَةً إلى عَلاقَةٍ بينَ الرُّموزِ، كما في المُسَلَّمَةِ الرّابِعَةِ لِبيانو Peano[6] "الصِّفرُ ليسَ رَقمًا تالِيًا لأيِّ رَقم"، وفي حالةِ المَوضوعاتِ التي يُصادِفُ أنَّنا لا نَستَطيعُ أن نُحيلَ عليها بِوَسيلَةٍ لُغَوِيَّةٍ أُخرَى. وحينَ نُنازِعُ بِشَأنِ إيجابِ واقِعَةٍ مّا أو سَلبِها، أو بِشَأنِ وُجودِ 'وَقائعَ سالِبَةٍ'، إنَّما نَخوضُ في نَقْدِ الأساليبِ النَّثريَّةِ المُتَنافِسَةِ.

وقَد يَكونُ أفضَلُ ما يُشيرُ إلى قِيمَةِ إهمالِ مِثلِ هذهِ الاعتِباراتِ حِكايَةً رَمزِيَّةً تَخُصُّ الأميبا-

قالَت المَشيئَةُ Will: "تَحَقَّقِي، عَزيزَتي الأميبا"، فتَحَقَّقَتِ الأميبا، ولَم يَكُنْ التَّحَوُّلُ يَسيرًا بَل كانَتْ هُناكَ عِدَّةُ عَقَباتٍ حَيثُ أخَذَ الزَّمَنُ الجامِحُ يَنمو ويَنمو ويَنمو. وفي نِهايَةِ المَطافِ ظَهَرَ الإنسانُ Homo. كَيفَ How كانَ ذلكَ؟ لم يَكُن يَدري. وسَمَّى الإنسانُ التَّحَوُّلَ ارتِقاءً Progress، والكَيْفَ إلَهًا ...God فالكَلامُ كانَ على الدَّوامِ مَصدَرَ راحَةٍ Comforter. وحينَ شَرَعَ الإنسانُ يَدرُسُ أقسامَ الكَلامِ نَسَجَ لِنَفسِهِ شَبَكَةً مِن الكَلِماتِ. ثُمَّ إنَّهُ أصغَى إلى نَفسِهِ، وأطرَقَ مُفَكِّرًا فابتَكَرَ مُجَرَّداتٍ، تَجسيدِيَّةً وتَمجيدِيَّةً. فبِذلكَ نَشَأتِ الكَنيسَةُ والدَّولَةُ والكِفاحُ على وَجهِ الأرضِ؛ فكَثيرًا مّا تَسَبَّبَ الإنسانُ في مَوتِ البَشَرِ في سَبيلِ مُجَرَّداتٍ مُجَسَّدَةٍ ومُمَجَّدَةٍ، وسارَ الأبناءُ على دَرْبِ آبائهم؛ [294] فهذا ما تَرَبَّوْا عليهِ. وفي نِهايَةِ المَطافِ شَرَعَ الإنسانُ يَنكِصُ عمّا كانَ قَد تكلَّمَ بِهِ.

وبَعدَ مُدَّةٍ طويلَةٍ ظَهَرَ العَقلُ Reason، الذي قالَ: "ما الذي دَعاكَ إلى فِعلِ ما فَعَلْتَ؟".

(6) جيوسيبي بيانو (1858-1932م). عالِمُ رِياضيّاتٍ إيطاليٌّ. اشتهرَ بِمُسَلَّماتِهِ التي تُعرَفُ بِمُسَلَّماتِ بيانو، وهيَ في عِلمِ المنطقِ الرِّياضيِّ مجموعةٌ من المُسَلَّماتِ المتعلِّقَةِ بالأعدادِ الطبيعيَّةِ أوجَدَها بيانو في القَرنِ التاسعَ عشَرَ. وقد استُعمِلَتْ هذهِ المُسَلَّماتُ كما هيَ ومن غيرِ تعديلاتٍ تُذْكَرُ في عددٍ من الأبحاثِ الرِّياضيَّةِ أهمُّها التَّثَبُّتُ من اتِّساقِ نظريَّةِ الأعدادِ وكمالِها. مِن أهَمِّ مُؤلَّفاتِهِ: مَبادِئُ الحِسابِ على وَفقِ مَنهَجٍ جَديدٍ، والكِتابُ الأساسُ في المنطِقِ الرِّياضيِّ. [المُترجِم]

فقالَ الإنسانُ: "غَرَّرَ بِي الكَلامُ".

فأجابَهُ العَقلُ بِقَولِهِ: "فاذهَبِ الآنَ وابحَثْ عن مَذهَبِ الرَّمْزِيَّةِ لِيَظهَرَ لَكَ مَدَى تَمَسُّكِكَ بِالأوهامِ وتَخلِّيكَ عن العَقلِ"[7].

بَيدَ أنَّ الإنسانَ لَم يُصغِ إلى هذا الكَلامِ، وتَعاظَمَتْ خَطيئتُهُ بِأنْ كانَ مُتَكبِّرًا وعَنيدًا أيضًا. إذ قالَ بِوَصفِهِ فَيلسوفًا ورَجُلَ اقتِصادٍ: "سنَتَّجِهُ صَوبَ إيلاءِ هذا الأمرِ اهتِمامًا مُتَأنِّيًا". وتَساءَلَ بِوَصفِهِ مُحارِبًا عائدًا: "ماذا قُلْتِ ياجَدَّتي بِشَأنِ الحُروبِ العالَمِيَّةِ؟". وبِصِفتِهِ الإنسانيَّةِ الخالِصَةِ ظَلَّ يَنثُرُ بِوَقارٍ مُفرَداتٍ مُلْبِسَةً- وما انفَكَّتِ الشَّبَكَةُ تَشتَدُّ وأخَذَ الإنسانُ يَزدادُ عِيًّا.

ثُمَّ أبدَى العَقلُ شَفَقَةً نَحوَهُ، ومَنَحَهُ الضَّميرَ اللُّغَويَّ، وقالَ بِرِفقٍ مَرَّةً أُخرَى: "انطَلِقِ الآنَ أيُّها الإنسانُ، وكُن رَجُلاً! تَخَلَّصْ مِن شَبَكَةِ الكَلِماتِ التي نَسَجْتَها، لِئلّا تَختَنِقَ بِها. وانظُرْ! إلى مَذهَبِ الرَّمْزِيَّةِ الذي يُفَسِّرُ كُلَّ شَيءٍ. ما قَوانينُ العِلمِ؟ أليسَتْ هيَ اختِزالَكَ التَّصَوُّرِيَّ الشَّخصيَّ؟".

فاحمَرَّ وَجهُ الإنسانِ خَجَلاً.

فتَساءَلَ العَقلُ مَرَّةً أُخرَى قائلاً: "ما العَدَدُ؟ أليسَ هوَ فِئةً مِن الفِئاتِ؟ أوَ لَيسَت الفِئاتُ أنفُسُها هيَ تَخيُّلاتِكَ الشَّخصيَّةَ المُريحَةَ؟ وتَأمَّلْ قِمَّةَ الجَبَلِ

---

(7) الأصلُ الإنجليزيُّ لِهذِهِ الفِقرَةِ هوَ: "Go to now and seek the doctrine of Symbolism which showeth that the bee buzzeth not in the Head but in the Bonnet". والتَّرجَمَةُ الحرفِيَّةُ لها هيَ: "فاذهَبِ الآنَ وابحَثْ عن مَذهَبِ الرَّمْزِيَّةِ الذي يُظْهِرُ أنَّ النَّحلَ لا يَطِنُّ في الرَّأسِ ولكِنْ في القُبَّعَةِ". والتَّعبيرانِ bee in one's head و bee in one's bonnet يُقصَدُ بِهِما في الإنجليزيَّةِ انشِغالُ المرءِ بِمَسألةٍ مِن المسائلِ الغَريبَةِ المُتَوَهَّمَةِ انشِغالاً يُذهِلُهُ عن كُلِّ شَيءٍ غَيرِها. ومِن الواضِحِ أنَّ المؤلِّفَيْنِ قَد ساقا هذَيْنِ التَّعبيرَيْنِ في الفِقرَةِ السّابقة على سبيلِ الكِنايَةِ؛ فالحديثُ مُوَجَّهٌ مِن العَقلِ إلى الإنسانِ الذي ضَلَّ سبيلَ العَقْلِ واتَّبَعَ أوهامًا مَحضَةً مَنشَؤُها عاداتٌ كَلامِيَّةٌ ضالَّةٌ أوصَلَتْهُ إلى ما وَصَلَ إليهِ مِن تَعاسَةٍ وشَقاءٍ. [المُترجِم]

Mountain Top[(8)]- إنَّـهـا لا تَـؤُزُّ ولا تَـدُورُ it Hums not neither does it Spin. فَكُفَّ إذَنْ عن الاستِماعِ إلى ضَجيجِ الأزيزِ. ولا تُرْهِقْ نَفسَكَ في حَلِّ خُيُوطِ الشَّبَكَةِ التي لَم تُغْزَلْ spun قَطُّ".

فأجابَ الإنسانُ بِقَولِهِ: "صَحيحٌ".

فعِندَئذٍ طَفِقَ العَقلُ والإنسانُ يُغَنِّيانِ التَّرنيمَةَ 1923 "المَجْدُ لِلإنسانِ في الأعالي[(9)]؛ فالإنسانُ سَيِّدُ الكَلِماتِ"- سَنَةَ ثَلاثٍ وعِشرينَ وتِسعِمِئةٍ وألفٍ.

وما زالَ صَوتُ التَّرنيمَةِ يَرِنُّ في آذانِنا.

وبِذلكَ انتَهَى تَحَقُّقُ الأميبا إلى تَحَقُّقِ الغَلَطِ.

"ضَحِكَ الإلَهُ حينَ خَلَقَ الصَّحارَى"، هذا ما قالَهُ مَثَلٌ إفريقيٌّ قَديمٌ- لكِنْ قَد يَكتَشِفُ الإنسانُ بَعدُ فَوائدَ الغُبارِ. [295]

(8) سَبَقَ أن أشَرْنا إلى أنَّ كلمةَ top في الإنجليزيَّةِ قَد يَنصَرِفُ مَعناها إلى القِمَّةِ وإلى اللُّعْبَةِ التي تَدُورُ حَولَ نَفسِها وتُصْدِرُ أزيزًا. فالمُؤَلِّفانِ يَستَعمِلانِ هذهِ المادَّةَ اللغويَّةَ التي هيَ مِن المُشترِكِ اللفظيِّ لإحداثِ المُفارَقَةِ المطلوبةِ. [المُترجِم]

(9) إشارةٌ إلى الآيةِ 14 من إنجيلِ لوقا: "المَجدُ لِلَّهِ في الأعالي، وعلى الأرضِ السَّلامُ، وبِالنّاسِ المَسَرَّةُ". [المُترجِم]

المُلْحَقُ الأَوَّل

مُشكِلَةُ المَعْنَى في اللُغاتِ البِدائيَّة

بِقَلَم برونِسلاف مالِنوفسكي[1]

Bronislaw Malinowski, Ph.D., D. Sc.

أُستاذِ الأَنثروبولوجيا السّابِقِ في جامِعَةِ لَندَن

1. الحاجَةُ إلى عِلمٍ لِلرَّمْزِيَّةِ والمَعنَى كالذي قَدَّمَهُ أوغدِن ورِتشاردز في هذا المُؤَلَّفِ. هذهِ الحاجَةُ تَتَمَثَّلُ بِالصُّعوباتِ التي واجَهَها عُلَماءُ الأعراقِ في تَعامُلِهِم معَ اللُغاتِ البِدائيَّةِ.

---

(1) برونسلاف كاسبر مالِنوفسكي (1884-1942م). أنثروبولوجيٌّ بولَندِيٌّ، ومن أهَمّ الرُّوّادِ في الأنثروبولوجيا التطبيقيَّةِ. حصلَ على درجةِ الدكتوراه في الفلسفةِ من جامعةِ جاجيولونيا سنةَ 1908، وكانَتِ الرّياضيّاتُ والعلومُ الفيزيائيَّةُ مِحوَرَ اهتِمامِهِ. تدهورَتْ حالتُهُ الصحِّيَّةُ في أثناءِ دراستِهِ، وفي أثناءِ تَعافيهِ قرَّرَ أن يتخصَّصَ في الأنثروبولوجيا بعدَ أن قرأَ كِتابَ جَيْمس فرَيْزَر (الغُصنُ الذَّهَبيّ). فدرَسَ عِلمَ الأعراقِ في جامعةِ لايبزغ على عالِمِ الاقتصادِ كارل بوخر وعالِمِ النَّفْسِ فِلهلم فونت. وانتقَلَ سنةَ 1910 إلى إنجلترا حيثُ درَسَ على يَدِ ويستَرْمارك. وسافرَ سنةَ 1914 إلى بابوا غينيا الجديدةِ حيثُ أجرَى بعضَ الأبحاثِ الميدانيَّةِ في منطقةِ مايلو ثمَّ في منطقةِ جُزُرِ تروبرياند. وفي رحلتِهِ إلى تلكَ المنطقةِ تاهَ وضاعَ أثرُهُ، واندلَعَتْ في أثناءِ ذلكَ الحربُ العالميَّةُ الأولَى، فألقَت القوّاتُ الأستراليَّةُ القَبضَ عليهِ وخيَّرَتْهُ بينَ أن يُنفَى إلى جُزُرِ تروبرياند وأن يُحتَجَزَ حتّى انتِهاءِ الحربِ، فاختارَ النَّفيَ، وذهبَ إلى جُزُرِ تروبرياند وحيدًا، وأجرَى أبحاثَهُ الميدانيَّةَ فيها، وما زالَت النتائجُ التي توصَّلَ إليها في تلك الرِّحلةِ والعمليّاتُ التي اتَّبَعَها ذَواتِ أثرٍ كبيرٍ =

2. تَحليلٌ لِكَلامٍ بِدائيٍّ يُظهِرُ مُشكِلاتِ المَعنَى المُعَقَّدَةَ التي تَنقُلُنا مِن دِراسَةِ اللِسانِيّاتِ وَحدَها إلى دِراسَةِ الثَّقافَةِ وعِلمِ النَّفسِ الاجتِماعيِّ. هذهِ الدِّراسَةُ المُشتَرَكَةُ بينَ اللِسانيّاتِ وعِلْمِ الأعراقِ تَحتاجُ إلى أن تَستَنيرَ بِنَظريَّةٍ لِلرُّموزِ مُطَوَّرَةٍ في سُطورِ العَملِ الحاليِّ.

3. مَفهومُ 'سِياقِ الحالِ Context of Situation'. اختِلافٌ في الرُّؤَى اللِسانيَّةِ المُتاحَةِ أمامَ الفيلولوجيِّ الذي يَدرُسُ اللغاتِ المَيتَةَ والنُّقوشَ، وأمامَ عالِمِ الأعراقِ الذي عليهِ أن يَتعامَلَ معَ اللسانِ البِدائيِّ الحَيِّ الذي لا يَتحقَّقُ إلّا في النُّطقِ الفِعليِّ. جَدوَى دِراسَةِ المَوضوعِ الحَيِّ أكبرُ مِن جَدوَى دِراسَةِ بَقاياهُ المَيتَةِ. 'الحالُ العَلامِيَّةُ' التي قَدَّمَها الكاتِبانِ تُطابِقُ 'سِياقَ الحالِ' المَطروحَ هُنا.

4. عَدُّ اللغَةِ، في وَظيفَتِها البِدائيَّةِ، ضَرْبًا مِن العَمَلِ *mode of action*، لا إمضاءً لِلفِكْرِ *countersign of thought*. تَحليلٌ لِحالٍ كَلامِيَّةٍ مُعَقَّدَةٍ وَسطَ الهَمَجيِّينَ. الاستِعمالاتُ البِدائيَّةُ الأساسيَّةُ لِلكَلامِ: الكَلامُ العَمَليُّ، والمُعالَجَةُ الشَّعائريَّةُ لِلكَلِماتِ، والحِكايَةُ، و'الاتِّصالُ الارتِباطِيُّ phatic communion' (الكَلامُ في حالةِ الخُلطَةِ الاجتِماعيَّةِ).

5. مُشكِلةُ المَعنَى في اللُغاتِ البِدائيَّةِ. تَكوينٌ عَقلِيٌّ لِلمَعنَى بِإدراكٍ واعٍ غيرِ بِدائيٍّ. وِجهةُ نَظرٍ بايولوجِيَّةٌ بِشَأنِ المَعنَى في رُدودِ الفِعلِ الصَّوتِيَّةِ غيرِ الإفصاحيَّةِ، [296] التي تَكونُ تَعبيرِيَّةً، ودالَّةً، ومُرتَبِطَةً بِالحالِ. المَعنَى في الحقَبِ المُبَكِّرَةِ لِلكَلامِ الإفصاحيِّ. مَعنَى الكَلِماتِ مُتَجَذِّرٌ في فَعّاليَّتِها البراغماتيَّةِ. أُصولُ المَوقِفِ السِّحرِيِّ تجاهَ الكَلِماتِ. الإثباتُ الإثنوغرافِيُّ

= في الدراساتِ الإنسانيَّةِ التطبيقيَّةِ إلى يومِنا هذا. وفي سنةِ 1922 حصلَ مالِنوفسكي على درجةِ الدكتوراه في الأنثروبولوجيا وأصبحَ أستاذًا في مدرسةِ الاقتصادِ في لندن. وفي العامِ نفسِهِ أصدَرَ كتابَهُ (مُستَكشِفُو غَربِ المُحيطِ الهادِئ) الذي حظِيَ بِمكانةٍ عاليةٍ مرموقةٍ، وأصبحَ مالِنوفسكي بسببِهِ من أشهَرِ الأنثروبولوجيِّينَ في العالَمِ. ومن آثارِهِ الأخرى: الأسطورةُ في عِلمِ النَّفْسِ البِدائيّ، والجريمةُ والعُرفُ في المجتمَعِ الهَمَجيّ. [المُترجِم]

والنُّشوئيُّ لآراءِ أوغدِن ورِتشاردز في المَعنَى والتَّعريفِ.

6. مُشكِلَةُ البِنيَةِ النَّحويَّةِ. أينَ يُمكِنُ أن يُوجَدَ الأُنموذَجُ الأَصليُّ لِلفَصائلِ النَّحويَّةِ. رَفضُ التَّفسيراتِ 'المَنطقيَّةِ' و'النَّحويَّةِ الخالِصَةِ.' وُجودُ فَصائلَ واقِعيَّةٍ في النَّظرَةِ البراغماتيَّةِ لِلرَّجُلِ البِدائيِّ، تُناظِرُ الفَصائلَ البِنائيَّةَ لِلُّغَةِ. مِثالُ ذلكَ طَبيعَةُ الاسمِ وأقسامِ الكَلامِ الأُخرَى.

(1)

اللُغَةُ، بِوَظائفِها الأدبيَّةِ والعِلميَّةِ المُطَوَّرَةِ، أداةٌ لِلفِكرِ ولِتَوصيلِ الفِكرِ. وفَنُّ الاستِعمالِ المُلائمِ لِهذهِ الأداةِ هوَ الهَدَفُ الأوضَحُ لِدِراسَةِ اللغةِ. وقَد كانَت البَلاغَةُ، والنَّحوُ، والمَنطِقُ تُدَرَّسُ في الماضي، وما زالَتْ، تَحتَ عُنوانِ الفُنونِ، وغالِبًا مَا تُدْرَسُ مِن وِجهَةِ نظرٍ عَمَليَّةٍ مِعيارِيَّةٍ. ولا شَكَّ في أنَّ وَضعَ القَواعِدِ، واختِيارَ صِحَّتِها، وإحرازَ الكَمالِ في الأسلوبِ مَوضوعاتٌ دِراسِيَّةٌ مُهِمَّةٌ وشامِلَةٌ، ولا سِيَّما أنَّ اللغَةَ تَنمو وتتطوَّرُ بِتَطوُّرِ الفِكرِ والثَّقافَةِ، بَل تَقودُ هذا التَّقَدُّمَ بِمَعنًى مُعَيَّنٍ.

على أنَّ كُلَّ الفَنِّ الذي يَحْيَا بِالمَعرفةِ لا بِالإلهامِ يَجِبُ أن يُحَوِّلَ نَفسَهُ في نِهايَةِ المَطافِ إلى دِراسَةٍ عِلمِيَّةٍ، ولا شَكَّ في أنّا نُساقُ مِن كُلِّ زَوايا المُقارَبَةِ إلى نَظريَّةٍ عِلميَّةٍ لِلُّغَةِ. والحَقُّ أنَّهُ سَبَقَ أن كانَتْ لَنا في مُدَّةٍ زَمَنِيَّةٍ مَا، جَنْبًا إلى جَنبٍ معَ فُنونِ اللُغةِ، مُحاوَلاتُ عَرضٍ أو حَلٍّ لِمُشكِلاتِ نَظريَّةٍ خالِصَةٍ مُختلِفَةٍ لُغَويَّةٍ الشَّكلِ والمَعنَى، جَرَتْ مُقارَبَتُها الرَّئيسَةُ مِن وِجهَةِ نظرٍ سايكولوجيَّةٍ. ويَكفي، في هذا المَقامِ، أن نَذكُرَ أسماءَ هَمْبولت W. von Humboldt، ولازاروس Lazarus[2] وشتاينتال Steinthal، ووِتْني Whitney[3]، وماكس مُلَر Max Müller،

(2) موريتز لازاروس (1824-1903م). فيلسوفٌ، وعالِمُ نَفْسٍ ألمانيٌ. أهمُّ مَبدإٍ من مبادِئِ فلسفتِهِ أنَّ الحقيقةَ يجبُ ألّا يُبحَثَ عنها في المجرَّداتِ الميتافيزيقيَّةِ، بل في البحثِ السايكولوجيِّ، وأنَّ هذا البحثَ، زيادةً على ذلك، لا يُمكِنُ أن يَقتصِرَ بِنجاحٍ على الوعيِ الفَرديِّ، بل يجِبُ أن يَعُمَّ المجتَمَعَ كلَّهُ. مِن مؤلَّفاتِهِ: عِلمُ الأخلاقِ في اليَهوديَّةِ، وتَقديسُ الحياةِ هَدَفُ الأخلاقِ. [المُترجِم]

(3) وِليَم دوايت وِتني (1827-1894م). لسانيٌّ، وفيلولوجيٌّ، ومُعجَميٌّ أمريكيٌّ حَرَّرَ مُعجَمَ =

ومِستيلي Misteli[4]، وسويت Sweet[5]، وفُونت Wundt[6]، وباول Paul[7]، وفِنْك Finck[8]، وروزفادوفسكي Rozwadowski[9]، وفيغينَر Wegener[10]،

= القَرن. ذهبَ سنةَ 1850 إلى ألمانيا ودرَسَ السنسكريتيَّةَ ثَلاثَ سنواتٍ، وأصبحَ سنةَ 1854 أستاذَ السنسكريتيَّةِ في جامعةِ يَيْل، وكذلكَ الفيلولوجيا المقارنةِ سنةَ 1869. من مؤلَّفاتِهِ: اللغةُ ودراسةُ اللغة، والدارونيَّةُ واللغة، وحياةُ اللغةِ ونموُّها- موجَزٌ لِعِلمِ اللغة. [المُترجِم]

(4) فرانز مِستيلي (1841-1903م). لسانيٌّ، وفيلولوجيٌّ كلاسيكيٌّ سويسريٌّ. درَسَ الفيلولوجيا الكلاسيكيَّةَ في جامعةِ زيورخ، وعمِلَ بعدَ ذلكَ مُدرِّسًا لِليونانيَّةِ واللاتينيَّةِ. وأصبحَ منذُ سنةِ 1874 أستاذًا مُشارِكًا لِلّسانيّاتِ المقارنةِ في قسمِ الفيلولوجيا الكلاسيكيَّةِ في جامعةِ بازل، ثمَّ أستاذًا في سنةِ 1877. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (موجَزٌ في اللسانيّات). [المُترجِم]

(5) هنري سويت (1845-1912م). فيلولوجيٌّ، وأصواتيٌّ، ونحويٌّ إنجليزيٌّ. تخصَّصَ في اللغاتِ الجرمانيَّةِ، ولا سيَّما الإنجليزيَّةُ القديمةُ. وألَّفَ كُتُبًا في الأصواتِ والنحوِ وتعليمِ اللغاتِ. من آثارِهِ: الدراسةُ العمليَّةُ لِلُّغات، وموجَزٌ في عِلمِ الأصوات، وتأريخُ اللغة. [المُترجِم]

(6) فِلهلم فونت (1832-1920م). عالِمُ نَفسٍ ألمانيٌّ. يُعَدُّ مؤسِّسَ عِلمِ النَّفسِ التجريبيِّ. تَلمَذَ لِلفسيولوجيِّ الكانتيِّ هيلمهولتز، وأصبحَتِ الفلسفةُ عندَهُ محاولةً لِفهمِ الظواهرِ الطبيعيَّةِ ووصفِها، أي إنَّهُ رفضَ الميتافيزيقا التي كانَتْ سائدةً في أفكارِ أساتذتِهِ، بل كانَ أوَّلَ مَن أسَّسَ معملاً تجريبيًّا لِعلمِ النَّفسِ سنةَ 1879 في لايبزغ على غِرارِ المعامِلِ التجريبيَّةِ لِعلمِ الطَّبيعةِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (مَبادِئُ عِلمِ النَّفسِ الفِسيولوجيّ) في ثلاثةِ مُجلَّداتٍ. [المُترجِم]

(7) هيرمان أوتو تيودور باول (1846-1921م). لِسانيٌّ، ومُعجَميٌّ ألمانيٌّ، ومن النَّحويِّينَ الجُدُدِ المُبَرِّزينَ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (مَبادِئُ تأريخِ اللغة). [المُترجِم]

(8) فرانز نِكولاس فِنك (1867-1910م). فيلولوجيٌّ ألمانيٌّ. كانَ أستاذَ اللسانيّاتِ العامَّةِ في جامعةِ برلين. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (لهجَةُ آران- إسهامٌ في الكَشفِ عن الإيرلنديَّةِ الغَربيَّةِ). [المُترجِم]

(9) جان ميشال روزفادوفسكي (1867-1935م). لسانيٌّ بولنديٌّ. أصبحَ سنةَ 1903 عضوَ الأكاديميَّةِ البولنديَّةِ لِلعلوم. درَسَ اللسانيّاتِ المقارنةَ والتأريخيَّةَ لِلُّغاتِ الهندوأوربيَّةِ والسلافيَّةِ باحِثًا في مُشكِلاتِ الفيلولوجيا الكلاسيكيَّةِ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (تكوينُ الكلمةِ وعِلمُ الدِّلالَة). [المُترجِم]

(10) فيليب فيغينَر (1848-1916م). مُدَرِّسٌ لِلكلاسيكيّاتِ، ومُديرُ مَدرسةٍ لِلنحوِ، ولِسانيٌّ =

وأورتيل Oertel[11]، ومارتي Marty[12]، وجيسبرسن Jespersen[13] وآخَرينَ، لِنُظهِرَ أنَّ عِلمَ اللغةِ ليسَ بِالجَديدِ ولا بِغَيرِ المُهِمّ. إذ نَجِدُ في جَميعِ مُؤَلَّفاتِهِم، زِيادَةً على قَضايا النَّحوِ الشَّكليّ، مُحاوَلاتٍ لِتَحليلِ العَمليّاتِ الذِّهنيَّةِ التي تَدخُلُ في نِطاقِ الاهتِمامِ بِالمَعنَى. لكِنَّ ما نَعرِفُهُ عن عِلمِ النَّفسِ وعن المَناهِجِ السّايكولوجيَّةِ آخِذٌ في التَّحَسُّنِ، وفي غُضونِ السَّنَواتِ الأخيرَةِ أحرَزَ، حَقًّا، تَقَدُّمًا سَريعًا جِدًّا. [297] وتُسْهِمُ العُلومُ الإنسانيَّةُ المُعاصِرَةُ الأُخرَى، ولا سِيَّما عِلمُ الاجتِماعِ والأنثروبولوجيا، بِنَصيبِها مِن المُشكِلَةِ المُشتَرَكَةِ بِما تُتيحُهُ لَنا مِن فَهمٍ أعمَقَ لِلطَّبيعَةِ ولِلثَّقافَةِ الإنسانيَّتَيْنِ. ذلكَ بِأنَّ مَسائلَ اللغةِ هيَ، حَقًّا، أَهَمُّ مَوضوعاتِ الدِّراساتِ الإنسانيَّةِ وأكثرُها مَركَزيَّةً. وبِذلكَ، يَتلَقَّى عِلمُ اللغَةِ، بِاستِمرارٍ، إسهاماتٍ بِمَوادَّ وحَوافِزَ جَديدَةٍ مِن مَناهِجَ جَديدَةٍ. وأَحَدُ أَهَمِّ الحَوافِزِ التي تَلَقّاها حَديثًا على هذا النَّحوِ كانَ مَصدَرُهُ الدِّراسَةَ الفَلسفيَّةَ لِلرُّموزِ ولِمُعطَياتِ الرِّياضيّاتِ التي تَأَلَّقَ في إنجازِها في كيمبرِج تَأَلُّقًا كَبيرًا السَّيِّدُ برتراند رَسِل

= سايكولوجيٌّ ألمانيٌّ. درَسَ الفيلولوجيا الكلاسيكيَّةَ والألمانيَّةَ، واللسانيّاتِ المقارنةَ، والفلسفةَ. كانَ موضوعُ أطروحتِهِ لِلدكتوراه (تأريخ أنظمةِ الحالاتِ الإغريقيَّةِ واللاتينيَّة). دَرَسَ الفيلولوجيا على مورِتز هاوبت وإيرنست كورتيوس، والفلسفةَ على فريدرِش أدولف تريندلنبيرغ، وتَلمَذَ كذلكَ لِلّسانيِّ العامِّ وعالِمِ النَّفْسِ هيرمان شتاينتال. من مؤلَّفاتِهِ: أبحاثٌ في المسائلِ الأساسيَّةِ لاستعمالِ اللغة. [المُترجِم]

(11) هانز أورتيل (1868-1952م). أستاذٌ لِلّسانيّاتِ والفيلولوجيا المقارنةِ ألمانيٌّ. درَسَ اللغةَ السنسكريتيَّةَ على وِتني، ودرَّسَ في جامعةِ يَيْل بينَ سنتَيْ 1891 و1917. وفي سنةِ 1914 سافرَ إلى ألمانيا. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ كتابُ (مُحاضَراتٌ في دراسةِ اللغة). [المُترجِم]

(12) مارتِن أنطون ماوروس مارتي (1847-1914م). فيلسوفٌ لُغويٌّ، وعالِمُ نَفْسٍ، وأنطولوجيٌّ سويسريٌّ. يُعَدُّ خليفَةَ فرانز برنتانو، وتميَّزَ إسهامُهُ الفلسفيُّ بِتطبيقِهِ علمَ النفسِ الوصفيَّ الذي طوَّرَهُ برنتانو في دراسةِ اللغةِ بإزاءِ الكثيرِ من التيّاراتِ المشهورةِ في اللسانيّاتِ وفلسفةِ اللغةِ في زمانِهِ. وقد تأثَّرَ لِسانيُّو مدرسةِ براغ بِأعمالِهِ. من مؤلَّفاتِهِ: بُحوثٌ في أُسُسِ النَّحوِ العامِّ وفلسفةِ اللغةِ، وفلسفةُ اللغة. [المُترجِم]

(13) أوتو جيسبرسن (1860-1943م). لِسانيٌّ دنماركيٌّ مُتخصِّصٌ في نحوِ اللغةِ الإنجليزيَّةِ. أهمُّ آثارِهِ كِتابُ (اللُّغَةُ: طبيعتُها، وتطوُّرُها، وأُصولُها). [المُترجِم]

Bertrand Russell والدُّكتور وايتهيد Whitehead[14].

وفي الكِتابِ الذي بينَ أيدينا يَنقُلُ السَّيِّدانِ أوغدِن ورِتشاردز دِراسَةَ العَلاماتِ إلى حَقلِ اللِسانيّاتِ، حيثُ تَكونُ لَها أهمِّيَّةٌ أساسيَّةٌ. والحَقُّ أنَّهُما يُؤَسِّسانِ عَلمًا جَديدًا لِلرَّمزيَّةِ مِن المُؤَكَّدِ أنَّهُ سَيُهَيِّئُ أكثَرَ المَعاييرِ قِيمَةً لِنَقدِ أغلاطٍ مُعَيَّنَةٍ في الميتافيزيقا والمَنطِقِ الشَّكليِّ الخالِصِ (تُنظَرُ الفُصولُ: الثّاني، والسّابعُ، والثّامِنُ، والتّاسِعُ). ومِن جِهةٍ أُخرَى، لا تُمَثِّلُ الفَلسَفةُ الوَجهَ الوَحيدَ لِلنَّظريَّةِ، بَل إنَّ لَها أهمِّيَّتَها العمليَّةَ في التَّعامُلِ معَ القَضايا العِلمِيَّةِ الخالِصَةِ الخاصَّةِ المُتعلِّقَةِ بالمَعنَى، والنَّحوِ، وعِلمِ النَّفسِ، وعِلمِ أمراضِ الكَلامِ. وأخَصُّ مِن ذلكَ أنَّ الأبحاثَ المُهِمَّةَ المُتعلِّقَةَ بالحُبْسَةِ التي يَضطَلِعُ بِها الدُّكتور هِنري هيد Henry Head[15] والتي تُؤْذِنُ بِتَسليطِ إضاءَةٍ جَديدَةٍ كُلِّيًّا على تَصَوُّراتِنا لِلمَعنَى، يَبدو أنَّها تَسيرُ بِاتِّجاهِ النَّظريّاتِ الدَّلاليَّةِ أنفُسِها المُتَضَمَّنَةِ في الكِتابِ الحاضِرِ[16]. وقد نَشَرَ الدُّكتور غاردِنَر A. H. Gardiner[17]، وهو أحَدُ أعظَمِ الخُبَراءِ في الخَطِّ الهيروغليفيِّ والنَّحوِ المِصريِّ القَديمِ- الذي يُقَدِّمُ لَهُ تَحليلاً جَديدًا-، عددًا مِن المَقالاتِ الرّائعَةِ في المَعنَى، قارَبَ فيها القَضايا أنفُسَها التي بَحَثَ فيها السَّيِّدانِ أوغدِن ورِتشاردز والتي وَجَدَا لَها الحُلولَ على نَحوٍ مُعجِبٍ جِدًّا، وإنَّ النَّتائجَ الشَّخصِيَّةَ التي خَرَجوا بِها لا تَبدو لي غيرَ مُنسَجِمَةٍ[18]. وأخيرًا، أنا أيضًا في

(14) يَعني كِتابَ (مَبادِئُ الرِّياضيّاتِ Principia Mathematica). [المُترجِم]

(15) هنري هيد (1861-1940م). طبيبُ أعصابٍ إنجليزيٌّ. قادَ عملاً رِياديًّا في النِّظامِ الجسديِّ الحِسِّيِّ والأعصابِ الحِسِّيَّةِ. من آثارِهِ: التغيُّراتُ الذِّهنيَّةُ المُصاحِبَةُ لِمرَضِ الأمعاءِ، وعواقِبُ إصابةِ الأعصابِ السَّطحيَّةِ لِلإنسانِ. [المُترجِم]

(16) تُنظَرُ المَقالاتُ التَّمهيدِيَّةُ في دَورِيَّةِ *Brain* التي يُحيلُ عليها الكاتِبانِ أيضًا في الفَصلِ العاشِرِ.

(17) ألَن هندرسن غاردِنَر (1879-1963م). عالِمٌ بريطانيٌّ مَعْنِيٌّ باللغةِ المِصريَّةِ القَديمةِ. أهمُّ إسهاماتِهِ في الفيلولوجيا المِصريَّةِ القديمةِ كتابُهُ (نحوُ اللغةِ المِصريَّة). [المُترجِم]

(18) تُنظَرُ مَقالاتُ الدُّكتور غاردِنَر في دَورِيَّةِ *Man*، يَنايِر/كانون الثّاني 1919، وفي دَورِيَّةِ *The British Journal of Psychology*، أبريل/نيسان 1922.

مُعالَجَتي لِقَضِيَّةِ اللُغاتِ البِدائيَّةِ مِن بابو-ميلانيزيا Papuo-Melanesia ألفَيْتُ نَفسِي في حَقلِ عِلمِ الدَّلالَةِ العامِّ(19). على أنّي حينَ كانَ لي شَرَفُ الاطِّلاعِ على ما أتَى بِهِ الكِتابُ الحاضِرُ مِن أدِلَّةٍ ذُهِلْتُ لِما وَجَدتُّ فيهِ مِن نَظريّاتٍ تُقَدِّمُ إجاباتٍ جيِّدَةً جِدًّا عن جَميعِ مُشكِلاتي وحُلولاً لِلصُّعوباتِ التي واجَهَتْني، وقَد سَرَّني أن أجِدَ أنَّ الوَضعَ الذي [298] أوصَلَتْني إليهِ دِراسَةُ اللُغاتِ البِدائيَّةِ لَم يَكُن مُختَلِفًا عن ذلكَ اختِلافًا جَوهَرِيًّا. لِذلكَ أسعَدَتْني كَثيرًا إتاحَةُ الكاتِبَيْنِ الفُرصَةَ لِي لأعرِضَ مُشكِلاتي، ولأُوجِزَ ما تَوَصَّلْتُ إليهِ مِن حُلولٍ تَجريبيَّةٍ لَها، جَنبًا إلى جَنبٍ مَعَ نَظريّاتِهِما الرّائعَةِ. ومِمّا زادَني سُرورًا بِقَبولِ ذلكَ ما أُؤَمِّلُهُ مِن إظهارِ أهمِّيَّةِ الضَّوءِ الذي تُسَلِّطُهُ نَظَريّاتُ هذا الكِتابِ على مُشكِلاتِ اللُغاتِ البِدائيَّةِ.

إنَّهُ لَرائعٌ أن يَبدَأَ باحِثُونَ كُلٌّ على حِدَةٍ، كالسَّيِّدَيْنِ أوغدِن ورِتشاردز، والدُّكتور هيد، والدُّكتور غاردِنَر، وإيّايَ، مِن مُشكِلاتٍ مُحَدَّدَةٍ ومَلموسَةٍ، وهِيَ مَعَ ذلكَ مُختلِفَةٌ تَمامًا، ثُمَّ يَنتَهوا إلى بِناءِ ذي نَظَرِيّاتٍ دَلاليَّةٍ مُتَشابِهَةٍ تَرتَكِزُ على اعتِباراتٍ سايكولوجيَّةٍ، وإن لَم تَكُن نَتائجُهُم مُتَماثِلَةً تَمامًا ولا مُقَرَّرَةً بِمُصطَلَحاتٍ واحِدَةٍ.

لِذلكَ كانَ عَلَيَّ أن أُبَيِّنَ كَيفَ أَلفَيْتُ نَفسِي، في حالَتي الشَّخصيَّةِ بِوَصفي مُشتَغِلاً بالأعراقِ يَدرُسُ العَقليَّةَ البِدائيَّةَ والثَّقافَةَ البِدائيَّةَ واللُغةَ البِدائيَّةَ، مَسُوقًا نَحوَ نَظَريَّةٍ لُغَويَّةٍ تُناظِرُ إلى حَدٍّ بَعيدٍ نَظريّاتِ الكِتابِ الحاضِرِ. ففي أثناءِ أبحاثي الإثنوغرافيَّةِ وَسطَ بَعضِ القَبائلِ الميلانيزيَّةِ في غينيا الشَّرقيَّةِ الجَديدَةِ التي أنجَزْتُها بِوَساطَةِ اللُغَةِ المَحَلِّيَّةِ حَصْرًا، جَمَعْتُ عدَدًا لا بَأسَ بِهِ مِن النُّصوصِ: صِيَغًا سِحريَّةً، وفِقْراتٍ شَعبيَّةً، وحِكاياتٍ، ومُقتَطَفاتٍ مِن مُحادَثاتٍ، وعِباراتٍ لِمَن اختَرْتُ مِن رُواةِ اللُغَةِ informants. وحينَ حاوَلْتُ، عندَ اشتِغالي بِهذهِ المادَّةِ

(19) تُنظَرُ مَقالَتي عن "الأدَواتُ التَّصنيفيَّة في لُغَةِ كيريوينا "Classificatory Particles in the Language of Kiriwina", *Bulletin of School of Oriental Studies*, Vol. II., and *Argonauts of the Western Pacific*, chapter on "Words in Magic- Some Linguistic Data".

اللُّغَوِيَّةِ، أن أُتَرجِمَ ما لَدَيَّ مِن نُصوصٍ إلى اللغةِ الإنجليزيَّةِ، وأن أُدَوِّنَ عَرَضًا مُفرَداتِ اللغةِ ونَحوَها، واجَهَتْني صُعوباتٌ أساسيَّةٌ. وحينَ حاوَلْتُ استِرشادَ أنحاءِ اللُّغاتِ الأوقيانوسيَّةِ الباقِيَةِ ومُفرَداتِها لَم تَزُل هذهِ الصُّعوباتُ بَل إنَّها، بِالأحرَى، ازدادَتْ. وكانَ مُعظَمُ كُتّابِها تَبشيرِيِّينَ كَتَبوا ما كَتَبُوهُ لِغايَةٍ عَمَلِيَّةٍ هيَ تَيسيرُ مهمَّةِ مَن يَأتي بَعدَهُم، وقَد تابَعوا في كِتابَتِها قاعدَةَ التَّجرِبَةِ. فعِندَ كِتابَةِ مُفرَداتِ لُغَةٍ مّا، على سبيلِ المِثالِ، يَلجَؤُونَ إلى إعطاءِ أفضَلِ تَقريبٍ في الإنجليزيَّةِ لِلكَلِمَةِ المَحَلِّيَّةِ.

لكِن ليسَ الغَرَضُ مِن التَّرجَمَةِ العِلمِيَّةِ لِلكَلمَةِ تَقديمَ مُعادِلِها التَّقريبيِّ الذي يَفِي بِالأغراضِ العَمَليَّةِ، بَل الغَرَضُ مِن ذلكَ أن يُبَيِّنَ بِدِقَّةٍ: أَتُناظِرُ كلمةٌ مَحَلِّيَّةٌ فِكرَةً مَوجودَةً، ولَو جُزئيًّا، عندَ الذينَ يتحدَّثونَ الإنجليزيَّةَ، أَم تتناوَلُ تَصَوُّرًا أجنَبِيًّا تَمامًا؟ وكَوْنُ هذهِ التَّصَوُّراتِ الأَجنبيَّةِ مَوجودَةً في اللُّغاتِ الأَجنبيَّةِ بِعَدَدٍ كبيرٍ أمرٌ واضِحٌ. فجَميعُ الكلماتِ التي تَصِفُ النِّظامَ الاجتِماعيَّ المَحَلِّيَّ، وجَميعُ التَّعبيراتِ التي تُحيلُ على اعتِقاداتٍ مَحَلِّيَّةٍ، وعلى عاداتٍ واحتِفالاتٍ وطُقوسٍ سِحرِيَّةٍ مَخصوصَةٍ- جَميعُ ما كانَ نَحوَ هذهِ الكَلماتِ مِن الواضِحِ أَنَّهُ لا وُجودَ لَهُ في الإنجليزيَّةِ كما أَنَّهُ لا وُجودَ لَهُ في أَيَّةِ لُغَةٍ أَوْرُبِّيَّةٍ. ومِثْلُ هذهِ الكَلِماتِ لا يُمكِنُ أن تُتَرْجَمَ إلى الإنجليزيَّةِ بِاللُّجوءِ إلى مُعادِلاتِها المُتَخَيَّلَةِ- فمِن الواضِحِ عدَمُ إمكانِ إيجادِ المُعادِلِ الواقِعِيِّ-، [299] بَل بِإيضاحِ مَعنَى كُلٍّ مِنها مِن خِلالِ وَصفٍ إثنوغرافيٍّ دَقيقٍ لِعِلمِ اجتِماعِ هذهِ التَّجَمُّعاتِ المَحَلِّيَّةِ، وثَقافتِها، وتَقاليدِها.

غيرَ أنَّ ثَمَّةَ صُعوبَةً أَبْعَدَ أَثَرًا، وإنْ كانَتْ أكثَرَ خَفاءً، وهيَ أنَّ الطَّريقَةَ بِتَمامِها التي تُستَعمَلُ بِها اللُّغةُ المَحَلِّيَّةُ مُختلِفَةٌ عن التي نَستَعمِلُ بِها لُغاتِنا. إذ يَفتَقِرُ مُجمَلُ البِناءِ النَّحويِّ في اللِسانِ المَحَلِّيِّ إلى الدِّقَّةِ والتَّحديدِ اللَذَيْنِ يَتمتَّعُ بِهِما بِناؤُنا النَّحوِيُّ، وإنْ كانَ مُعَبِّرًا تَمامًا بِطَرائقَ مَخصوصَةٍ مُعَيَّنَةٍ. ثُمَّ إنَّ ثَمَّةَ أَدَواتٍ غيرَ قابِلَةٍ لِلتَّرجَمةِ إلى الإنجليزيَّةِ تُضفي نَكهَةً خاصَّةً على الأُسلوبِ المَحَلِّيِّ. وتَنطَوي بِنيَةُ الجُمَلِ على بَساطَةٍ مُفرِطَةٍ تُخْفِي قَدْرًا لا بَأسَ بِهِ مِن

التَّعبيريَّةِ، كَثيرًا ما تُحرزُ بِوَساطَةِ المَوقِعِ والسِّياقِ. وإذا ما عُدْنا إلى مَعنَى الكَلِماتِ المُنعَزِلَةِ، أمكَنَنا أن نَقولَ إنَّ استِعمالَ الاستِعارَةِ، والبِداياتِ المُقتَرِنَةَ بالتَّجريدِ والتَّعميم، والغُموضَ المُرتَبِطَ بِحِسِّيَّةٍ تَعبيريَّةٍ مُفرِطَةٍ- كُلُّ تِلكَ السِّماتِ تُعْيي أيَّةَ مُحاولةٍ لِتَرجمةٍ بَسيطةٍ ومُباشِرَةٍ. فعَلى عالِمِ الأعراقِ أن يَنقُلَ هذا الاختِلافَ العَميقَ والدَّقيقَ في آنٍ واحِدٍ في اللغَةِ وفي المَوقِفِ الذِّهنِيِّ الكامِنِ وراءَها والمُعَبَّرِ عنهُ مِن خِلالِها. لكِنَّ ذلكَ يَقودُنا أكثَرَ فأكثَرَ إلى المُشكِلَةِ السّايكولوجيَّةِ العامَّةِ المُتعلِّقَةِ بِالمَعنَى.

(2)

إنَّ هذا العَرضَ العامَّ لِلصُّعوباتِ اللغويَّةِ التي تُحْدِقُ بِعالِمِ الأعراقِ في مَيدانِ عَملِهِ يَجِبُ إيضاحُهُ بِمِثالٍ مَلموسٍ. فتَخيَّلْ أنَّكَ قَد نُقِلْتَ فَجأةً إلى جَزيرَةٍ مَرجانيَّةٍ في المُحيطِ الهادِئِ، وأنَّكَ تَجلِسُ وَسْطَ حَلقَةٍ مِن السُّكّانِ المَحلِّيِّينَ مُستَمِعًا إلى حَديثِهِم. ولْنَذهَبْ إلى أبعَدَ مِن ذلكَ فَلْنَفتَرِضْ وُجودَ مُفَسِّرٍ مِثاليٍّ يُمكِنُهُ، قَدرَ ما يَستَطيعُ، أن يَنقُلَ مَعنَى كُلِّ قَولٍ يَنطِقونَ بِهِ، كَلِمَةً بِكَلِمَةٍ، لِيَحُوزَ المُستَمِعُ جَميعَ المُعطَياتِ اللغَويَّةِ المُتَوافِرَةِ. أَفَسَيُمَكِّنُكَ ذلكَ مِن فَهمِ الحَديثِ أو حَتَّى فَهمِ قَولٍ مُفرَدٍ مِنهُ؟ لا شَكَّ أنَّ ذلكَ لَن يَكونَ.

فَلْنُلْقِ نَظرَةً على نَصٍّ يُمَثِّلُ قَولاً فِعليًّا مُستَمَدًّا مِن حَديثٍ لِلسُّكّانِ المَحلِّيِّينَ لِجُزُرِ تروبريانْد Trobriand Islands في الشَّمالِ الشَّرقِيِّ مِن غينيا الجَديدَةِ. فسَيَتَّضِحُ جَلِيًّا مِن تَحليلِنا لَهُ مَدَى العَجزِ الذي يُمنَى بِهِ المَرءُ في مُحاولتِهِ الكَشفَ عن مَعنَى عِبارَةٍ مِن خِلالِ اللغةِ فقط، وسَنُدرِكُ أيضًا نَوعَ المَعرِفَةِ الإضافِيَّةِ الضَّروريَّةِ، زِيادَةً على المُعادَلَةِ اللفظيَّةِ، مِن أجلِ جَعلِ القَولِ مَفهومًا.

فَها أنا ذا أُورِدُ عِبارَةً في لُغَةٍ مَحلِّيَّةٍ مُقَدِّمًا تَحتَ كُلِّ كَلمَةٍ مِنها أقرَبَ مُعادِلٍ لَها في الإنجليزيَّةِ:

Tasakaulo	*kaymatana*	*yakida;*	
We run	front-wood	ourselves;	
نحنُ نَجري [300]	خَشَب أماميّ	أنفُسنا	
Tawoulo	*ovanu;*	*tasivila*	*tagine*
We paddle	in place;	we turn	we see
نَحنُ نُجَذِّفُ	في المَكانِ	نحنُ نَلتَفِتُ	نحنُ نَرَى
Soda;	*isakaula*	*kaúuya*	
Companion ours;	he runs	rear-wood	
صاحِب لَنا	يَجري	خَشَب خَلفِيّ	
Oluvieki	*similaveta*	*Pilolu*	
Behind	their sea-arm	Pilolu	
خَلْف	ذِراعُهُم البَحريّ	بِلولُو	

إنَّ التَّرجمةَ الإنجليزيَّةَ الحرفيَّةَ لِهذا القَولِ تَبدو بادِيَ الرَّأْيِ لُغزًا أو خَليطًا مِن كَلِماتٍ لا مَعنَى لَهُ، لا يُشبِهُ، يَقينًا، عِبارَةً دالَّةً مُبينَةً. بَل إنَّ المُستَمِعَ، الذي نَفتَرِضُ أنَّهُ يَعْرِفُ اللُغَةَ لكِنَّهُ يَجهَلُ ثَقافَةَ السُّكّانِ المَحلِّيِّينَ، إذا ما أرادَ أن يَفهَمَ الاتِّجاهَ العامَّ لِهذهِ العِبارَةِ فلا بُدَّ مِن إخبارِهِ أوَّلاً بِالحالِ التي نُطِقَتْ فيها هذهِ الكَلِماتُ. إذ إنَّهُ سيَحتاجُ في هذهِ الحالةِ إلى أن تُوضَعَ هذهِ الكَلِماتُ في مَواضِعِها المُلائمَةِ مِن الثَّقافَةِ المَحلِّيَّةِ. والعِبارَةُ في حالَتِنا هذهِ تُحيلُ على قِصَّةٍ لِحَملَةٍ تِجاريَّةٍ في ما وَراءَ البِحارِ لِهؤُلاءِ المَحلِّيِّينَ، تُشارِكُ فيها عِدَّةُ زَوارِقَ بِروحٍ تَنافُسِيَّةٍ. وهذهِ السِّمَةُ الأخيرَةُ تُفَسِّرُ كذلكَ الطَّبيعَةَ العاطِفِيَّةَ لِلعِبارَةِ: فهيَ ليسَتْ مُجَرَّدَ تَقريرٍ لِواقِعَةٍ، لكِنَّها عِبارَةُ فَخرٍ، وقِطعَةٌ مِن تَمجيدِ الذّاتِ، تَعكِسُ خَصيصَةً مُمَيِّزَةً تَمامًا لِثَقافةِ التروبرياندِيِّينَ بِعامَّةٍ ولِمُقايَضَتِهِم الاحتِفاليَّةِ بِخاصَّةٍ.

إنَّ تَحصيلَ المَعرِفَةِ التَّمهيدِيَّةِ هو الطَّريقُ الوَحيدُ المُؤَدّي إلى إمكانِ

الحُصولِ على فِكرَةٍ بِشَأنِ تَعبيراتٍ اصطِلاحِيَّةٍ تُعَبِّرُ عن الفَخرِ والتَّباري مِثلِ *kaymatana* (خَشَب أماميّ)، و *káuuya* (خشَب خَلْفِيّ). وإنَّ استِعمالَ الخَشَبِ استِعاريًّا لِلزَّورَقِ يَقودُنا إلى مَيدانٍ آخَرَ لِسايكولوجيَّةِ اللغَةِ، لكِنَّنا نَكتَفي في الوَقتِ الحاضِرِ بِتأكيدِ أنَّ 'أمام' أو 'زَورَق أمامِيّ' و'زَورَق خَلفِيّ' تَعبيراتٌ مُهِمَّةٌ عندَ أقوامٍ تَستَولي الفَعّاليّاتُ التَّنافُسِيَّةُ مِن أجلِ ذاتِها على قَدرٍ كبيرٍ مِن اهتِمامِهِم. وقَد أُضفِيَتْ على مَعاني هذهِ الكَلِماتِ مَسحَةٌ عاطِفِيَّةٌ مَخصوصَةٌ لا يُمكِنُ إدراكُها إلّا بالاطِّلاعِ على خَلفِيَّةِ سايكولوجيَّتِهِم القَبَلِيَّةِ في الاحتِفالِ، في حَياتِهِم، وتِجارَتِهِم، ومُغامَرَتِهِم.

ثُمَّ إنَّ الجُملَةَ التي يُوصَفُ فيها المَلّاحُونَ الذينَ في المُقَدِّمَةِ بِأنَّهُم يَلتَفِتونَ مُتَخَيِّلِينَ رِفاقَهُم وقَد خُلِّفُوا وَراءَهُم على ذِراعِ البَحرِ في بِلولُو، تقتَضي بَحثًا خاصًّا في الإحساسِ الجُغرافيِّ لِلمَحلِّيِّينَ، وفي استِعمالِهِم التَّخَيُّلَ أداةً لُغَوِيَّةً، وفي الاستِعمالِ الخاصِّ لِضَمائرِ التَّمَلُّكِ (*their* sea-arm Pilolu).

كُلُّ ذلكَ يُظهِرُ الاعتِباراتِ الواسِعَةَ والمُعقَّدَةَ التي تَقودُنا إليها مُحاوَلَةُ تَقديمِ تَحليلٍ وافٍ لِلمَعنَى. فبَدَلاً مِن التَّرجَمَةِ، أي مِن أن نَكتَفِيَ بإحلالِ كَلِمَةٍ إنجليزيَّةٍ مَحلَّ أُخرَى مَحلِّيَّةٍ، تُواجِهُنا عَمليَّةٌ طَويلَةٌ وغيرُ بَسيطَةٍ البَتَّةَ [301] تتضَمَّنُ وَصفَ مَيادينَ واسِعَةٍ مِن العُرفِ، والسّايكولوجيَّةِ الاجتِماعيَّةِ، والنِّظامِ القَبَلِيِّ، مِمّا يَنسَجِمُ مَعَ تَعبيرٍ مِن التَّعبيراتِ أو غيرِهِ. وما نَراهُ هوَ أنَّ التَّحليلَ اللغويَّ لا بُدَّ أن يَقودَنا إلى دِراسَةِ جَميعِ المَوضوعاتِ التي يَشمَلُها العَمَلُ المَيدانيُّ الإثنوغرافيُّ.

ولا شَكَّ في أنَّ التَّعليقاتِ المذكورَةَ آنِفًا بِشَأنِ التَّعبيراتِ المَخصوصَةِ (front-wood, rear-wood, their sea-arm Pilolu) هيَ بِالضَّرورَةِ مُقتَضَبَةٌ وتَقريبيَّةٌ. لكِنِّي تَعمَّدتُ اختِيارَ قَولٍ يَنسَجِمُ معَ مَجموعَةٍ مِن الأعرافِ سَبَقَ أن وُصِفَتْ وَصفًا تامًّا(20). وفي مَقدورِ قارِئِ ذلكَ الوَصفِ أن يَفهَمَ النَّصَّ الذي أورَدْناهُ فَهمًا تامًّا، وأن يُقَوِّمَ كذلكَ الحِجاجَ الحاضِرَ.

---

(20) See *op. cit.*, *Argonauts of the Western Pacific*- An account of Native Enterprise and Adventure in the Archipelagoes of Melanesian New Guinea, 1922.

وزِيادَةً على الصُّعوباتِ التي نُواجِهُها في تَرجَمَةِ الكَلماتِ المُفرَدَةِ، وهيَ صُعوباتٌ تَقودُ مُباشَرَةً إلى عِلْمِ الأعراقِ الوَصفيِّ، ثَمَّةَ صُعوباتٌ أُخرَى مُرتَبِطَةٌ بِمُشكِلاتٍ أكثَرَ انحِصارًا في اللغَةِ لا يُمكِنُ حَلُّها إلّا بالاستِنادِ إلى التَّحليلِ السّايكولوجيِّ. وبِذلكَ يَتَبَيَّنُ أنَّ التَّفريقَ الأوقيانوسيَّ المُمَيِّزَ بينَ الضَّمائرِ الاشتِماليَّةِ inclusive pronouns والضَّمائرِ الإقصائيَّةِ exclusive pronouns[21] يتطلَّبُ تَفسيرًا أعمَقَ مِن أيِّ تَفسيرٍ يَقتَصِرُ على العَلاقاتِ النَّحويَّةِ وَحدَها[22]. ثُمَّ إنَّ الطَّريقَةَ المُحَيِّرَةَ التي تُلحَقُ بِها بَعضُ الجُمَلِ المُتَرابِطَةِ بِوُضوحٍ بِنَصِّنا بِمُجرَّدِ المُجاوَرَةِ تتطلَّبُ ما هوَ أكثرُ بِكثيرٍ مِن الإحالةِ البَسيطَةِ إذا ما أُريدَ الكَشفُ عن كُلِّ ما فيها مِن أهمِّيَّةٍ ودَلالَةٍ. وهاتانِ السِّمَتانِ مَعروفَتانِ وقَد بُحِثَتا كَثيرًا، وإنْ كُنتُ، استِنادًا إلى ما لَدَيَّ مِن أفكارٍ، أرَى أنَّ ذلكَ البَحثَ لم يَكُنْ على نَحوٍ شامِلٍ.

على أنَّ ثَمَّةَ مُمَيِّزاتٍ مُعيَّنَةً في اللغاتِ البِدائيَّةِ يَكادُ النُّحاةُ يُهمِلونَها كُلِّيًّا على الرَّغمِ مِن أنَّها تَفتَحُ البابَ أمامَ تَساؤُلاتٍ مُثيرَةٍ لِلاهتِمامِ بِشأنِ سايكولوجيَّةِ الأقوامِ المُتَوحِّشِينَ. وسأُوضِحُ هذا مِن خِلالِ نُقطَةٍ تَقَعُ على الخَطِّ الفاصِلِ بينَ عِلمَي النَّحوِ والمُعجَمِ ويُمَثِّلُها جَيِّدًا القَولُ المُقتَبَسُ.

ففي اللُّغاتِ الهِندوأورُبِّيَّةِ العالِيَةِ التَّطوُّرِ يُمكِنُ أن يُرسَمَ خَطٌّ فاصِلٌ حادٌّ بينَ الوَظيفَتَينِ النَّحويَّةِ والمُعجميَّةِ لِلكَلِماتِ. إذ يُمكِنُ عَزلُ مَعنَى جَذرِ كَلِمَةٍ مّا عن المَعنَى المُعَدَّلِ لِعارِضٍ تَصريفِيٍّ أو لِعِلَّةٍ تَحديديَّةٍ نَحويَّةٍ أُخرَى. وبِذلكَ نَحنُ نُفَرِّقُ في كَلِمَةٍ يَجري بينَ مَعنَى الجَذرِ- إزاحَةٌ شَخصيَّةٌ سَريعَةٌ- [302] والتَّعديلِ في

---

(21) ضَمائرُ الجَمْعِ الاشتِماليَّةُ والإقصائيَّةُ تُشيرُ إلى احتِمالِ شُمولِ الحضورِ بالكَلامِ أو إقصائهم. ولا تُفَرِّقُ اللغةُ الإنجليزيَّةُ بينَ الحالتَيْنِ في الضَّمائرِ. مِثالُ ذلكَ: We have a party to attend this evening، وThey have not given a clear picture of what happened to us. [المُترجِم]

(22) See the important Presidential Address by the late Dr W. H. R. Rivers in the *Journal of the Royal Anthropological Institute*, Vol. LII., January-June, 1922, p. 21, and his *History of Melanesian Society*, Vol. II., p. 486.

الزَّمَنِ، وصِيغَةِ الفِعلِ، والتَّحديدِ، وما إلى ذلكَ، الذي تُعَبِّرُ عنهُ الصِّيغَةُ النَّحويَّةُ التي نَجِدُ الكَلِمَةَ على وَفقِها في السِّياقِ المُعْطَى. أمّا اللغاتُ البِدائيَّةُ فالفَرقُ فيها ليسَ واضِحًا البَتَّةَ وكثيرًا ما تَختَلِطُ فيها الوظيفَتانِ النَّحوِيَّةُ والمُعجميَّةُ على التَّوالي على نَحوٍ مُدهِشٍ.

وفي اللغاتِ الميلانيزيَّةِ أدَواتٌ نَحويَّةٌ مُعَيَّنَةٌ تُستَعمَلُ في تَصريفِ الأفعالِ وهيَ تُعَبِّرُ بِشَيءٍ مِن الغُموضِ عن عَلاقاتِ الزَّمَنِ، والتَّحديدِ، والتَّتابُعِ. وإنَّ أوضَحَ الأشياءِ وأسهَلَها إنجازًا لِلأورُبِّيِّ الذي يَرغَبُ في أن يَستَعمِلَ لُغَةً كَهذهِ استِعمالاً تَقريبيًّا لأغراضٍ عمليَّةٍ هوَ أن يَكتَشِفَ أقرَبَ مُقارَبَةٍ لِتلكَ الصِّيَغِ الميلانيزيَّةِ في لُغاتِنا ثُمَّ يَستَعمِلَ الصِّيغَةَ البِدائيَّةَ بالطَّريقَةِ الأورُبِّيَّةِ. ففي اللغةِ التروبرياندِيَّةِ، على سبيلِ المِثالِ، التي اقتَبَسْنا مِنها مِثالَنا المَذكورَ آنِفًا، تُوجَدُ أداةٌ ظَرفيَّةٌ هيَ *boge* تُوضَعُ قَبلَ الفِعلِ المُعَدَّلِ لِتَمنَحَهُ، على نَحوٍ غامِضٍ بَعضَ الشَّيءِ، إمّا مَعنَى حَدَثٍ ماضٍ وإمّا مَعنَى حَدَثٍ مُحَدَّدٍ. ويُعَدَّلُ الفِعلُ، زِيادَةً على ذلكَ، بِتَغَيُّرٍ في الضَّميرِ الشَّخصيِّ المبدوءِ بِسابِقَةٍ prefixed personal pronoun. فالجَذرُ *ma* (يَأتي come، أو يَتَحَرَّكُ إلى هُنا move hither) إن استُعمِلَ مَعَ الضَّميرِ المُسَبَّقِ لِلشَّخصِ الثّالِثِ -*i* كانَتْ لَهُ الصِّيغَةُ *ima* وكانَ مَعناهُ (تَقريبًا) هُوَ يَأتي he comes[23]. أمّا مَعَ الضَّميرِ المُعَدَّلِ -*ay* أو بِتَأكيدٍ أشَدَّ -*lay* فيَكونُ مَعناهُ (تَقريبًا) هُوَ قَدْ أَتَى *he came* أو *he has come*. ويُمكِنُ أن يُتَرجَمَ التَّعبيرُ *boge ayna* أو التَّعبيرُ *boge layma* على نَحوٍ تَقريبيٍّ بِقَولِنا: هُوَ قَدْ أَتَى سَلَفًا *he has already come*، وقد جَعَلَهُ اسمُ المَفعولِ *boge* أكثَرَ تَحديدًا.

غيرَ أنَّ هذا ليسَ إلّا مُعادِلاً تَقريبيًّا يُناسِبُ بعضَ الأغراضِ العمَليَّةِ كالمُتاجَرَةِ معَ المَحلِّيِّينَ، والوَعظِ التَّبشيريِّ، وتَرجمةِ الأدبيّاتِ المَسيحيَّةِ إلى

(23) مَعلومٌ أنَّ التَّرجمةَ العربيَّةَ المقبولةَ لِهذهِ الجملةِ الإنجليزيَّةِ هيَ: يَأتي، مِن غيرِ داعٍ إلى ذِكرِ الضَّميرِ، وإنَّما أثبَتْنا الضَّميرَ هُنا تَوَخِّيًا لِلمُطابَقَةِ النَّحويَّةِ ولِبيانِ ما يُمكِنُ أن يَحدُثَ مِن تَغيُّرٍ في الجُملةِ بعدَ التَّعديلِ الذي تحدَّثَ عنهُ الكاتِبُ. وما قيلَ في هذهِ الجملةِ يَصْدُقُ على سائرِ ما سيأتي مِن جُمَلٍ. [المُترجِم]

اللغاتِ المَحلِّيَّةِ. والذي أراهُ أنَّ المهمَّةَ الأخيرَةَ لا يُمكِنُ إنجازُها بِأيَّةِ درجةٍ مِن الدِّقَّةِ. وفي القَواعِدِ النَّحويَّةِ والتَّأويلاتِ لِلُّغاتِ الميلانيزيَّةِ التي دَوَّنَتِ الإرساليّاتُ التَّبشيريَّةُ مُعظَمَها لأغراضٍ عمَليَّةٍ كانَت التَّعديلاتُ النَّحويَّةُ لِلأفعالِ قَد اكتُفِيَ بِإثباتِها بِوَصفِها مُعادِلَةً لِلصِّيَغِ الفِعلِيَّةِ في اللغاتِ الهندوأورُبِّيَّةِ. وحينَ شَرَعْتُ، أوَّلَ أمري، أستَعمِلُ اللغةَ التروبرياندِيَّةَ في عَمَلي المَيدانيِّ كُنْتُ أجهَلُ تَمامًا أنَّهُ قد تَكونُ ثَمَّةَ فِخاخٌ في تَناوُلِ القَواعِدِ النَّحوِيَّةِ لِلأقوامِ الهمجيِّينَ بِما يَظهَرُ مِن قيمتِها السَّطحيَّةِ، فَنَهَجْتُ نَهْجَ الإرساليّاتِ التَّبشيريَّةِ في استِعمالِ أُسلوبِ التَّصريفِ في اللغةِ المَحلِّيَّةِ.

على أنِّي عَلِمْتُ فيما بَعدُ أنَّ ذلكَ لم يَكُنْ صَحيحًا، وقد تَوَصَّلْتُ إلى هذهِ النَّتيجةِ مِن خِلالِ خَطَإٍ عَمَليٍّ تَداخَلَ قَليلاً مَعَ عملي المَيدانيِّ فَأجبَرَني على فَهمِ أسلوبِ التَّصريفِ في اللغةِ المحلِّيَّةِ وإن كانَ ذلكَ قد سلَبَني راحَتي. فقد ألفَيْتُني مَشغولاً دفعةً واحدةً بِتَسجيلِ مَلحوظاتٍ عن مُعامَلَةٍ تِجارِيَّةٍ مُثيرَةٍ لِلاهتِمامِ جِدًّا حَدَثَتْ في قَريَةٍ مُحاذِيَةٍ لِلبَحرِ لِلتروبرياندِيِّينَ، بينَ صَيّادِي السّاحِلِ [303] ومُزارِعِي الجَزيرَةِ[24]. وقَد كانَ عليَّ أن أُتابعَ بعضَ التَّحضيراتِ المُهِمَّةِ في القَريَةِ ومَعَ ذلكَ لم أشَأ أن يَفوتَني وُصولُ الزَّوارِقِ على السّاحلِ. وبَيْنَما كُنتُ مَشغولاً بِتَسجيلِ الأحداثِ وتَصويرِها وَسطَ الأكواخِ إذا بِكَلِمةٍ تَذهَبُ في الأجواءِ: 'هُمْ قَد أتَوا سَلَفًا *boge laymayse* –'they have come already'. فتَرَكْتُ عَمَلي في القَريَةِ مِن غيرِ أن أُتِمَّهُ واندَفَعْتُ مُسرِعًا لأقطَعَ نَحوَ رُبُعِ مِيلٍ إلى الشّاطِئِ، لكِنِّي خِبْتُ وخَزِيتُ أن وَجدتُ الزَّوارِقَ بَعيدَةً جِدًّا وهيَ تُجَذِّفُ بِبُطْءٍ إلى الأمامِ بِاتِّجاهِ السّاحِلِ! وبِذلكَ كُنْتُ قَد أتَيْتُ قَبلَ المَوعِدِ بِعَشرِ دَقائقَ، وهيَ مُدَّةٌ كانَتْ كافِيَةً لِتُفَوِّتَ عليَّ مَصالحِي في القَريَةِ!

وقد احتَجْتُ إلى بعضِ الوقتِ وإلى قَدرٍ أكبَرَ مِن التَّمَكُّنِ العامِّ مِن اللغةِ قبلَ أن أقِفَ على طَبيعَةِ الخطإِ الذي وَقَعْتُ فيهِ وعلى الاستِعمالِ المُلائمِ

(24) كانَت احتِفاليَّةَ *Wasi*، وهيَ شَكلٌ مِن أشكالِ مُقايَضَةِ الخَضراواتِ بِالسَّمَكِ. يُنظَر: *op. cit., Argonauts of the Western Pacific*, pp. 187-189 and plate xxxvi.

لِلكلماتِ والصِّيَغ لِلتَّعبيرِ عن دَقائقِ التَّتابُعِ الزَّمَنيّ. فالجَذرُ *ma* الذي يَعني يَأتي *come*، أو يَتحرَّكُ إلى هُنا *move hither* لا يَتَضَمَّنُ المَعنَى الذي تَشتَمِلُ عليهِ كلِمَةُ يَصِلُ *arrive* عِندَنا. كما أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ مُحَدِّدٌ نَحويٌّ يَمنَحُهُ التَّحديدَ الخاصَّ والزَّمانيَّ الذي نُعَبِّرُ عنهُ بِقَولِنا: 'هُم قَد أتَوا they have come، وهُم قَد وَصَلُوا they have arrived'. فالصِّيغَةُ *boge laymayse*، التي سَمِعْتُها في ذلكَ الصَّباحِ الذي لا يُنسَى في القَريَةِ البَحْرِيَّةِ، تَعني عندَ المَحلِّيِّينَ 'هُم كانوا قَد تَحرَّكُوا سَلَفًا إلى هُنا they have already been moving hither' ولا تَعني عندَهُم 'هُم قَد أتَوا سَلَفًا إلى هُنا they have already come here'.

ومِن أجلِ الوُصولِ إلى التَّحديدِ المَكانيّ والزَّمانيّ الذي نَحوزُهُ بِاستِعمالِ صيغَةِ الزَّمَنِ الماضي المُحَدَّدِ يَلجَأُ المَحلِّيُّونَ إلى تَعبيراتٍ حِسِّيَّةٍ ومُحَدَّدَةٍ. ففي الحالةِ التي مَثَّلْنا بِها كانَ على القَرَوِيِّينَ أن يَستَعمِلوا كَلِمَةَ تَرْسُو *to anchor, to moor* لِيَنقُلوا حَقيقَةَ أنَّ الزَّوارِقَ قَد وَصَلَتْ. فَـ'هُم قَد أرْسَوا زَوارِقَهُم سَلَفًا They have already moored their canoes'، *boge aycotasi*، يَعنِي ما افتَرَضْتُ أنَّهُم عبَّروا عنهُ بِقَولِهِم *boge laymayse*. أي إنَّ المَحلِّيِّينَ يَستَعملونَ في هذهِ الحالةِ جَذرًا مُختَلِفًا بَدَلاً مِن أن يَكتَفُوا بِإجراءِ تَعديلٍ نَحوِيٍّ.

فَلْنَعُدِ الآنَ إلى نَصِّنا السّابِقِ؛ إذ إنَّ فيهِ مِثالاً آخَرَ يُنَبِّئُنا بِالخَصيصَةِ المُمَيِّزَةِ التي نَحنُ بِصَدِدِها. فالتَّعبيرُ الطَّريفُ 'نَحنُ نُجَذِّفُ في المَكانِ we paddle in place' لا يُمكِنُ فَهمُهُ على النَّحوِ المُلائمِ إلّا بِمَعرِفةِ أنَّ وَظيفَةَ كلِمَةِ نُجَذِّفُ *paddle* هُنا لَيسَت وَصفَ ما يَفعَلُهُ المَلّاحونَ بَل وَظيفَتُها الإشارَةُ إلى قُربِهِم الحاليّ مِن القَريَةِ في وِجهَةِ سفَرِهِم. وكما هيَ الحالُ في المِثالِ السّابِقِ تَمامًا فإنَّ لِصيغَةِ الزَّمَنِ الماضي لِكَلِمةِ يَأتِي to come ('هُم قَد أتَوا they have come')، التي نَستَعمِلُها في لُغَتِنا لإبلاغِ حَقيقَةِ الوُصولِ، مَعنًى آخَرَ في اللغةِ المَحلِّيَّةِ ويَجِبُ أن يُستَبْدَلَ بِهِ جَذرٌ آخَرُ يُعَبِّرُ عن الفِكرةِ، لِذلكَ ليسَ بِالإمكانِ استِعمالُ الجَذرِ المَحلِّيِّ *wa*، أي يَتَحرَّكُ إلى هُناكَ *to move thither*، [304] (تَقريبًا) في صيغَةِ الزَّمَنِ الماضي المُحَدَّدِ لإبلاغِ مَعنَى 'يَصِلُ إلى هُناكَ arrive there'، بَل يُستَعمَلُ جَذرٌ خاصٌّ يُعَبِّرُ

عن الفِعلِ الواقِعِيِّ لِلتَّجذيفِ لِيَدُلَّ على عَلاقَتَي الزَّورَقِ الأماميِّ المَكانيَّةِ والزَّمانيَّةِ بِالزَّوارِقِ الأُخرَى. وأَصْلُ هذا التَّصويرِ واضِحٌ. فكُلَّما وَصَلَ المَحلِّيُّونَ قَريبًا مِن شاطِئِ إحدَى قُرَى ما وَراءَ البِحارِ كانَ عليهِم أن يَطوُوا الأشرِعَةَ وأن يَستَعمِلوا المَجاذيفَ بِسَببِ عُمقِ الماءِ حتَّى في المَناطِقِ القَريبَةِ جِدًّا مِن الشّاطِئِ، وكَونِ الإبحارِ مُستَحيلاً. فَـ'التَّجذيفُ to paddle' يَعنِي 'الوُصولَ إلى القَريَةِ التي وَراءَ البِحارِ to arrive at the overseas village'. ويُمكِنُ أن يُزادَ على ذلكَ أنَّ الكلمَتَيْنِ الباقيتَيْنِ (في *in*) و(المَكان *place*) في هذا التَّعبيرِ 'نَحنُ نُجَذِّفُ في المَكانِ we paddle in place' لا بُدَّ مِن إعادَةِ تَرجمتِهِما تَرجمةً إنجليزيَّةً حُرَّةً إلى قُرْبِ القَريَةِ *near the village*.

وبِمُساعَدَةِ نَحوِ هذا التَّحليلِ المُقَدَّمِ قَبلَ قَليلٍ يُمكِنُ جَعلُ هذا القَولِ أو أيِّ قَولٍ بِدائيٍّ آخَرَ مَفهومًا. وفي حالتِنا يُمكِنُنا تَلخيصُ نَتائِجِنا وتَجسيدُها في تَعليقٍ حُرٍّ أو إعادَةِ صِياغَةٍ حُرَّةٍ لِلمَوضوعِ على وَفقِ الآتي:

يَجلِسُ عَددٌ مِن المَحلِّيِّينَ مَعًا. أحَدُ هؤُلاءِ كانَ قَد عادَ قَبلَ قَليلٍ مِن حَملَةٍ في ما وَراءَ البِحارِ، فيُقَدِّمُ وَصفًا لِلإبحارِ ويُباهِي بِأفضَلِيَّةِ زَورَقِهِ. ويُخبِرُ الحاضِرينَ بِكَيفيَّةِ تَصَدُّرِ زورقِهِ في الإبحارِ أمامَ جَميعِ الزَّوارِقِ الأُخرَى عندَ عُبورِ الذِّراعِ البَحريِّ لِبلولُو (بينَ الأَراضي التروبرياندِيَّةِ والأمفليتيَّةِ Amphletts). وحينَ كانَ مَلّاحُو المُقَدِّمَةِ يَقتَرِبونَ مِن وِجهَةِ سَفَرِهِم نَظَروا وراءَهُم فرَأَوا رِفاقَهُم بَعيدِينَ خَلفَهُم، لا يَزالونَ عندَ الذِّراعِ البَحريِّ لِبلولُو.

فبِوَضعِ القَولِ بِهذهِ الصِّيغَةِ يُمكِنُ أن يَكونَ مَفهومًا إجمالاً في أقَلِّ تَقديرٍ، وإن كانَ التَّقديرُ الدَّقيقُ لِظِلالِ المَعنَى وتَفصيلاتِهِ لا يَستَغني عن مَعرِفَةِ عاداتِ المَحلِّيِّينَ وسايكولوجيَّتِهِم فَضلاً عن مَعرِفَةِ البِناءِ العامِّ لِلُغَتِهِم.

ورُبَّما لا يَكونُ ضَروريًّا أن أُشيرَ إلى أنَّ كُلَّ ما قُلْتُهُ في هذا القِسمِ مِن البَحثِ ما هُوَ إلّا إيضاحٌ يَستَنِدُ إلى أُنموذَجٍ مَلموسٍ لِلمَبادِئِ العامَّةِ التي أَبدَعَ أوغدِن ورِتشاردز في عَرضِها في الفُصولِ: الأَوَّلِ، والثّالِثِ، والرّابعِ مِن مُؤَلَّفِهِما. والذي حاوَلْتُ إيضاحَهُ بِتحليلِ نَصٍّ لُغَويٍّ بِدائيٍّ هوَ أنَّ اللغَةَ مُتَجذِّرَةٌ أساسًا في

الواقِعِ الثَّقافيِّ لِلنّاسِ، وحَياتِهِم القَبَليَّةِ، وأعرافِهِم، وأنَّها لا يُمكِنُ تَفسيرُها مِن غيرِ إحالَةٍ مُستَمِرَّةٍ على هذهِ السِّياقاتِ لِلكَلامِ اللفظيِّ التي فيها مَزيدُ سَعَةٍ. إنَّ النَّظريّاتِ التي جَسَّدَها كُلٌّ مِن مُخَطَّطِ أوغدِن ورِتشاردز في الفَصلِ الأوَّلِ، ومُعالَجَتِهِما لِـ'الحالِ العَلامِيَّةِ' (الفَصل الثّالث)، وتَحليلِهِما لِلإدراكِ الحِسِّيِّ (الفَصل الرّابع) تَشمَلُ كُلَّ تَفصيلاتِ أُنموذَجِي وتُجمِلُها. [305]

(3)

إذا ما رَجَعْنا مَرَّةً أُخرَى إلى قَولِ المَحَلِّيِّينَ الذي ذَكَرْناهُ آنِفًا فلَن تَكونَ بِنا حاجَةٌ إلى أن نُشَدِّدَ تشديدًا خاصًّا على أنَّ مَعنَى أَيَّةِ كَلِمةٍ مُفرَدَةٍ في اللغَةِ البِدائيَّةِ يَعتَمِدُ اعتِمادًا كبيرًا جِدًّا على سِياقِها. فَالكَلِماتُ 'خَشَب wood'، و'يُجَذِّفُ paddle'، و'مَكان place' يَنبَغي أن تُتَرجَمَ تَرجَمَةً حُرَّةً مِن أَجلِ إظهارِ مَعانيها الواقعيَّةِ التي تُنقَلُ إلى المَحلِّيِّينَ بِوَساطَةِ السِّياقِ الذي تَظهَرُ فيهِ. ومِن الواضِحِ كذلِكَ أنَّ مَعنَى عِبارَةِ 'نَحنُ نَصِلُ قَريبًا مِن القَريَةِ (التي هيَ وِجهَةُ سَفَرِنا) we arrive near the village (of our destination)' الذي يَعني حَرفِيًّا: 'نَحنُ نُجَذِّفُ في المَكانِ we paddle in place' لا يُحَدَّدُ إلّا بِتَناوُلِهِ في سِياقِ القَولِ كامِلاً. ثُمَّ إنَّ هذا الأَخيرَ كذلكَ لا يُصبِحُ بَيِّنًا إلّا حينَ يُوضَعُ في سِياقِ الحالِ[25] الخاصِّ بِهِ، إن جازَ لِي أن أَبتَكِرَ تَعبيرًا يُشيرُ مِن جِهَةٍ إلى أنَّ مَفهومَ السِّياقِ يَنبَغي تَوسيعُهُ، ومِن جِهَةٍ أُخرَى إلى أنَّ الحالَ التي تُقالُ فيها الكَلِماتُ لا يُمكِنُ التَّغاضي عنها بِوَصفِها غيرَ ذاتِ صِلَةٍ بالتَّعبيرِ اللغَويِّ. وعلينا أن نَنظُرَ في الكيفيَّةِ التي يَجِبُ بِها تَوسيعُ مَفهومِ السِّياقِ فِعلِيًّا، إنْ أُريدَ لَهُ أن يُمِدَّنا بِكامِلِ ما فيهِ مِن نَفعٍ. والحَقُّ أنَّ

---

(25) يَذكُرُ الدُّكتور محمودُ السَّعران أنَّ سِياقَ الحالِ مُصطَلَحٌ أنثروبولوجيٌّ، يَرجِعُ أصلُ استِعمالِهِ إلى مَقالٍ لِلأُستاذِ أ. م. هوكارت، لكِنَّ مالِنوفسكي أضفَى عليهِ مَعنًى خاصًّا، ثُمَّ تَطوَّرَ هذا المُصطَلَحُ تطوُّرًا آخَرَ باستِعمالِ الأُستاذِ فيرث لهُ في دِراستِهِ اللغويَّةِ. يُنظَر: عِلمُ اللغةِ- مُقَدِّمةٌ لِلقارِئِ العربيّ: ص252. والمَعْنَى الخاصُّ عندَ مالِنوفسكي الذي أشارَ إليهِ الدُّكتورُ السَّعران هوَ أنَّهُ لَحِظَ أنَّ الأقوالَ في اللغاتِ غيرِ المألوفةِ لا تَكونُ مَفهومةً إلّا حينَ يُحالُ على الحالِ التي أُطلِقَتْ فيها. [المُترجِم]

عليه أن يُفَجِّرَ قُيودَ الاقتِصارِ على اللسانيّاتِ وأن يُزَجَّ بِهِ في تَحليلِ الأحوالِ العامَّةِ التي يُتَحدَّثُ باللغةِ على وَفقِها. فإذا ما انطَلَقْنا على هذا النَّحوِ مِن فِكرَةِ السِّياقِ التي فيها مَزيدُ سَعَةٍ وَصَلْنا مَرَّةً أُخرَى إلى نتائجِ القِسمِ السّابِقِ مِن هذا البَحثِ، أي إنَّ دِراسَةَ أَيَّةِ لُغَةٍ يَتَحدَّثُ بِها قَومٌ يَعيشونَ في أَحوالٍ تَختَلِفُ عن أحوالِنا ولَهُم ثَقافَةٌ مُختلِفَةٌ عن ثَقافتِنا يَجِبُ أن يَرتَبِطَ إنجازُها بِدِراسةِ ثَقافتِهِم وبيئتِهِم.

غيرَ أنَّ المَفهومَ المُوَسَّعَ لِسِياقِ الحالِ يُقَدِّمُ لَنا أكثَرَ مِن ذلكَ. إذ يَجعَلُ الفَرقَ بينَ لِسانيّاتِ اللُّغاتِ الميتَةِ واللُّغاتِ الحَيَّةِ واضِحًا في المَدَى والمَنهَجِ. فالمادَّةُ التي كَوَّنَتْ دِراستَنا اللغويَّةَ كُلَّها تَقريبًا حتَّى الآن تَعودُ إلى لُغاتٍ مَيتَةٍ. وهيَ حاضِرَةٌ في صُورَةِ وَثائقَ مَكتوبَةٍ، مَعزولَةٍ على نحوٍ طبيعيٍّ، ومُجَرَّدَةٍ مِن أيِّ سِياقٍ لِلحالِ. والحَقُّ أنَّ العِباراتِ المَكتوبَةَ إنَّما تُدَوَّنُ لِتَكونَ مُكتَفِيَةً بِذاتِها ومُفَسِّرَةً لِذاتِها. إذ إنَّ المَخطوطَ المَدفونَ، وقُصاصَةَ القَوانينِ أو المُدرَكاتِ القَديمَةِ، والفَصلَ أو العِبارَةَ في كِتابٍ مُقَدَّسٍ، أو، إن أخَذْنا مِثالاً أكثَرَ مُعاصَرَةً، نَصَّ الفَيلسوفِ أو المُؤَرِّخِ أو الشّاعِرِ الإغريقيِّ أو اللاتينيِّ- كُلُّ أُولئكَ بِلا استِثناءٍ قَد أُلِّفَ مِن أجلِ نَقلِ رِسالتِهِ إلى الأجيالِ مِن غيرِ عَونٍ، وكانَ عليهِ أن يَحتَوِيَ هذهِ الرِّسالةَ في ضِمنِ نِطاقِهِ الخاصِّ بِهِ.

فَلْنَأخُذْ أكثَرَ الحالاتِ وُضوحًا، وهيَ حالةُ كِتابٍ عِلمِيٍّ مُعاصِرٍ يَعتَزِمُ كاتِبُهُ مُخاطَبَةَ جَميعِ الأفرادِ مِن القُرّاءِ الذينَ يُنعِمُونَ النَّظَرَ في الكِتابِ والذينَ يَتَوَفَّرُونَ على المَرانَةِ العِلميَّةِ الضَّروريَّةِ. فإنَّهُ [306] يُحاوِلُ التَّأثيرَ في عُقولِ قُرّائهِ في اتِّجاهاتٍ مُعَيَّنَةٍ. وحينَ يَكونُ نَصُّ الكِتابِ المَطبوعُ مَعروضًا أمامَ القارِئِ فإنَّ الأخيرَ يَخضَعُ، بِتأثيرٍ مِن المُؤَلِّفِ، إلى سِلسلةٍ مِن العمليّاتِ- فهُوَ يُفكِّرُ، ويتأمَّلُ، ويتذكَّرُ، ويتخيَّلُ. فالكِتابُ يَكفِي بِنَفسِهِ لِتَوجيهِ ذِهنِ القارِئِ إلى مَعناهُ، وقَد يُغرينا هذا بِأن نَقولَ على نَحوٍ مَجازِيٍّ إنَّ المَعنَى مُحتَوًى كُلِّيًّا في الكِتابِ أو إنَّ الكِتابَ يَحمِلُهُ.

لكِنْ حينَ نَنتَقِلُ مِن لُغَةٍ مُتَحضِّرَةٍ مُعاصِرَةٍ، مُعظَمُ تَفكيرِنا بِها يَكونُ مِن

زاوِيَةِ سِجِلّاتٍ مَكتوبَةٍ، أو مِن لُغَةٍ مَيتَةٍ لَم يَبْقَ لَها وُجودٌ إلّا في النُّقوشِ، إلى لِسانٍ بِدائيٍّ لَم يَعرِفْ قَطُّ استِعمالاً كِتابِيًّا وكُلُّ ما فيهِ مِن مادَّةٍ لا تَحْيَا إلّا مِن خِلالِ كَلِماتٍ مُجَنَّحَةٍ تتنَقَّلُ مِن شَخصٍ إلى آخَرَ- يَجِبُ أن يَكونَ واضِحًا على الفَورِ أنَّ تَصَوُّرَ المَعنى مُحْتَوًى في القَولِ تَصَوُّرٌ زائفٌ ولا طائلَ وراءَهُ. فالعِبارَةُ المَقُولَةُ في الحياةِ الواقعيَّةِ غيرُ مَفصولَةٍ البَتَّةَ عن الحالِ التي تُقالُ فيها. ذلكَ بِأنَّ لِكُلِّ عِبارَةٍ لَفظيَّةٍ يَقولُها الإنسانُ هَدَفًا ووظيفَةً يتمثَّلانِ في التَّعبيرِ عن فِكرَةٍ مّا أو شُعورٍ مّا حَقيقيَّيْنِ في تلكَ اللحظةِ وفي تِلكَ الحالِ، ومِن الضَّروريِّ، لِسَببٍ أو لآخَرَ، أن تُجعَلَ مَعلُومَةً لِشَخصٍ أو لأشخاصٍ- بِما يَخدمُ أغراضَ فِعلٍ مُشتركٍ، أو تأسيسَ رَوابِطِ تَشارُكٍ اجتِماعيٍّ خالصٍ، وإلّا كانَتْ مهمَّتُهُما تَحريرَ المُتَكلِّمِ مِن المَشاعِرِ أو الانفِعالاتِ العَنيفَةِ. ومِن غَيرِ وُجودِ مُثيرٍ مُلِحٍّ في اللحظَةِ المَعْنِيَّةِ لا يُمكِنُ أن تُوجَدَ عِبارَةٌ مَنطوقَةٌ. لِذلكَ يَرتَبِطُ القَولُ والحالُ أَحدُهُما بِالآخَرِ في كلِّ حالَةٍ ارتِباطًا لا انفِصامَ لَهُ، ولا يُمكِنُ الاستِغناءُ عن سِياقِ الحالِ في سَبيلِ فَهمِ الكَلِماتِ. وتَمامًا كالشَّأنِ في واقِعِ اللُغاتِ المَنطوقَةِ أو المَكتوبَةِ، حيثُ لا تَكونُ الكَلِمَةُ المُجَرَّدَةُ مِن السِّياقِ اللُغَويِّ إلّا مَحضَ خَيالٍ وغَيرَ رامِزَةٍ إلى شَيْءٍ في نَفسِها، فَكذلكَ الحالُ في واقِعِ اللسانِ الحَيِّ المُتَكلَّمِ بِهِ؛ إذ إنَّ القَولَ فيهِ لا مَعنًى لَهُ إلّا في سِياقِ الحالِ.

فَمِن الواضِحِ تَمامًا الآنَ أنَّ وِجهَةَ نظرِ الفيلولوجيِّ الذي لا يَتعامَلُ إلّا معَ بَقايا اللُغاتِ المَيتَةِ لا بُدَّ أن تُخالِفَ وِجهَةَ نظرِ عالِمِ الأعراقِ الذي لَيسَتْ لَدَيهِ مُعطَياتُ النُّقوشِ المُتَحجِّرَةُ الرّاسِخَةُ فلِذا كانَ عليهِ الاتِّكاءُ على الواقِعِ الحَيِّ لِلُغَةِ المَنطوقَةِ المُتَدَفِّقَةِ. فعلى الفيلولوجيِّ أن يُعيدَ بِناءَ الحالِ العامَّةِ- أي ثَقافَةِ قَومٍ ماضِينَ- مِن العِباراتِ الباقِيَةِ، أمّا عالِمُ الأعراقِ فيُمكِنُهُ أن يَدرُسَ مُباشَرَةً الأوضاعَ والأحوالَ المُميِّزَةَ لِثَقافَةٍ مّا وأن يُؤَوِّلَ العِباراتِ مِن خِلالِها. وأنا أزعُمُ الآنَ أنَّ المَنظورَ الذي يتوفَّرُ عليهِ عالِمُ الأعراقِ هو المَنظورُ المُلائمُ والواقِعِيُّ لِتكوينِ التَّصَوُّراتِ اللغويَّةِ الأساسيَّةِ ولِدراسةِ حَياةِ اللغاتِ، في حينِ أنَّ وِجهةَ نظرِ الفيلولوجيِّ خَياليَّةٌ وغيرُ مُلائمَةٍ. ذلكَ بِأنَّ اللغةَ في أُصولِها لم تَكُنْ سِوَى [307] مَجمُوعِ مَنطوقٍ حُرٍّ لأقوالٍ مِن قَبيلِ التي نَجِدُها الآنَ في اللسانِ البِدائيِّ.

وجَميعُ الأُسُسِ والخَصائصِ المُمَيِّزَةِ الأساسيَّةِ لِلكَلامِ الإنسانيِّ قَد اكتَسَبَتْ شَكلَها وصِفَتَها في المَرحلةِ التَّطوُّريَّةِ المُلائمَةِ لِلدِّراسَةِ الإثنوغرافيَّةِ لا في الحَقلِ الفيلولوجيِّ. وليسَ تَعريفُ المَعنَى، وإيضاحُ الخَصائصِ النَّحويَّةِ والمُعجميَّةِ الأَساسيَّةِ لِلُّغَةِ اعتِمادًا على المادَّةِ التي تُزَوِّدُنا بِها دِراسَةُ اللغاتِ المَيتَةِ بِالشَّيءِ البَعيدِ عن الاستِحالَةِ في ضَوءِ حِجاجِنا. ومَعَ ذلكَ لعلَّنا لا نُبالِغُ إذا ما قُلْنا إنَّ دِراسَةَ اللغاتِ المَيتَةِ كانَتْ مَصدَرَ الإلهامِ لِما نِسْبَتُهُ تِسعَةٌ وتِسعونَ مِن مِئةٍ مِن حَجمِ العَمَلِ اللغويِّ الكُلِّيِّ أو، في أحسَنِ الأحوالِ، مِن حَجمِ السِّجِلّاتِ المَكتوبَةِ المُجَرَّدَةِ تَمامًا مِن أيِّ سِياقٍ لِلحالِ. وسَوفَ أُبَيِّنُ في الأقسامِ اللاحِقَةِ مِن بَحثي هذا، في الأَقَلِّ، أنَّ المَنظورَ الذي يتوفَّرُ عليهِ عالِمُ الأعراقِ لا يَقتَصِرُ على تَقديمِ العُموميّاتِ بَل يُقَدِّمُ النَّتائجَ الإيجابيَّةَ المَلموسَةَ.

وأَوَدُّ في هذا المقامِ أن أُوازِنَ مَرَّةً أُخرَى بينَ وِجهةِ النَّظرِ التي تَوصَّلْنا إليها لِلتَّوِّ والنَّتائجِ التي خَرَجَ بِها السَّيِّدانِ أوغدِن ورِتشاردز. وقَد كَتَبْتُ ما كَتَبْتُهُ آنِفًا بِمُصطَلَحاتي الخاصَّةِ بي رَغبَةً مِنِّي في إعادَةِ تَتَبُّعِ خطواتِ بَحثي على نَحوِ ما كانَ عليهِ الأمرُ قَبلَ أن أَتَعَرَّفَ الكِتابَ الحاضِرَ. لكِن مِن الواضِحِ أنَّ سِياقَ الحالِ الذي أُشَدِّدُ عليهِ هُنا ما هُوَ إلّا الحالُ العَلامِيَّةُ عندَ المُؤَلِّفَيْنِ. إنَّ كِفاحَهُما مِن أجلِ إثباتِ عَدَمِ إمكانِ تَقديمِ نَظريَّةٍ لِلمَعنَى مِن غيرِ دِراسَةٍ لآلِيَّةِ الإحالَةِ، وهوَ ما كانَ مُرتَكَزًا أساسيًّا لِجَميعِ استِدلالاتِهِما في مُؤَلَّفِهِما، كانَ كذلكَ لُبَّ ما حاجَجْتُ عليهِ في الفِقراتِ المُتَقَدِّمَةِ. فالفُصولُ الافتِتاحيَّةُ مِن كِتابِهِما تُظهِرُ عِظَمَ ما نَرتَكِبُهُ مِن الخَطَإِ حينَ نَعُدُّ المَعنَى كِيانًا واقِعِيًّا مُحتَوًى في كَلِمَةٍ أو قَولٍ. وتُظهِرُ المُعطَياتُ والتَّعليقاتُ الإثنوغرافيَّةُ والتَّأريخيَّةُ المُمتِعَةُ التي يُقَدِّمُها الفَصلُ الثّاني مِن الكِتابِ الأوهامَ والأخطاءَ المُضاعَفَةَ النّاجِمَةَ عن المَوقِفِ الزّائفِ مِن الكَلِماتِ. إذ إنَّ هذا المَوقِفَ الذي تُعَدُّ فيهِ الكَلِمةُ كِيانًا واقِعيًّا تَحتَوي مَعناها كما يَحتَوي صُندوقُ النَّفْسِ الجُزءَ الرُّوحِيَّ مِن الإنسانِ أو الشَّيءِ، قَد بُيِّنَ أنَّهُ مُستَمَدٌّ مِن الاستِعمالاتِ البِدائيَّةِ السِّحريَّةِ لِلُّغَةِ وأنَّهُ يَصُبُّ مُباشَرَةً في أكثرِ أنظِمَةِ الميتافيزيقا أهمِّيَّةً وتأثيرًا. فبِذلكَ يُحرِزُ المَعنَى، 'الجَوهَرُ' الواقعيُّ لِلكلمةِ، وُجودًا واقعيًّا في عالَمِ المُثُلِ الأفلاطونيِّ، ويُصبِحُ الوُجودَ الكُلِّيَّ القائمَ فِعليًّا عندَ

الواقعِيِّينَ الوَسيطِيِّينَ. إنَّ إساءَةَ استِعمالِ الكلماتِ التي تَستَنِدُ دَومًا إلى تَحليلٍ زائفٍ لِوَظيفَتِها الدَّلاليَّةِ يُؤَدّي إلى كلِّ الاضطِرابِ الأنطولوجيِّ في الفَلسفَةِ، حيثُ يُعثَرُ على الحَقيقَةِ بِاستِخراجِ المَعنَى مِن الكَلمةِ، التي هيَ وِعاؤُهُ الافتِراضيُّ.

ويُقَدِّمُ تَحليلُ المَعنَى في اللغاتِ البِدائيَّةِ تأكيدًا مُدهِشًا لِنظريّاتِ السَّيِّدَيْنِ أوغدِن ورِتشاردز. ذلكَ بِأنَّ الإدراكَ الواضِحَ لِلصِّلَةِ الوَثيقَةِ بينَ [308] التَّأويلِ اللغويِّ وتَحليلِ الثَّقافَةِ التي تَنتَمي إليها اللغةُ يُظهِرُ على نَحوٍ مُقْنِعٍ أن ليسَ لِلكَلِمَةِ ولا لِمَعناها وُجودٌ مُستَقِلٌّ ومُكتَفٍ بِذاتِهِ. وتُثْبِتُ وِجهةُ النَّظرِ الإثنوغرافيَّةُ تجاهَ اللغةِ مَبدَأَ النِّسبيَّةِ الرَّمزيَّةِ على ما قَد تُسَمَّى بِهِ، أي أنَّ الكلماتِ يَجِبُ ألّا تُعامَلَ إلّا بِوَصفِها رُموزًا وأنَّ سايكولوجيَّةَ الإحالَةِ الرَّمزيَّةِ يَجِبُ أن تُسَخَّرَ لِتَكونَ قاعِدَةً لِكُلِّ عِلمٍ لِلُّغَةِ. ولَمّا كانَ كُلُّ عالَمِ 'الأَشياءِ المُعَبَّرِ عنها' يَتَغَيَّرُ بِتَغيُّرِ مُستَوَى الثَّقافَةِ، وبِتَغيُّرِ الأَحوالِ الجُغرافيَّةِ، والاجتِماعيَّةِ، والاقتِصاديَّةِ، كانَتِ النَّتيجةُ أنَّ مَعنَى الكلمةِ يَجِبُ على الدَّوامِ أن يُجْمَعَ، لا مِن التَّأَمُّلِ السَّلْبِيِّ لِهذهِ الكلمةِ بَل مِن تَحليلِ وَظائفِها بِالرُّجوعِ إلى الثَّقافَةِ المُعطاةِ. فلِكُلِّ قَبيلَةٍ بِدائيَّةٍ أو بَربَريَّةٍ، كما لِكُلِّ نَمَطٍ مِن أنماطِ الحَضارَةِ، عالَمٌ مِن المَعاني ولا يُمكِنُ تَفسيرُ مُجمَلِ الجهازِ اللغويِّ لِهذهِ الأقوامِ- أي مُستَودَعِ كلماتِهِم ونَمَطِ نَحوِهِم- إلّا بِرَبطِهِ بِمُتَطلَّباتِهِم العَقليَّةِ.

وفي الفَصلِ الثّالثِ مِن هذا الكِتابِ يُقَدِّمُ الكاتِبانِ تَحليلاً لِسايكولوجيَّةِ الإحالَةِ الرَّمزيَّةِ، يُمَثِّلُ معَ المادَّةِ التي جُمِعَتْ في الفَصلِ الثّاني أكثَرَ مُعالَجاتِ المَوضوعِ التي وَقَفْتُ عليها إقناعًا. وأوَدُّ أن أُعَلِّقَ بِقَولي إنَّ استِعمالَ الكاتِبَيْنِ كَلمةَ 'السِّياق' مُنسَجِمٌ، لكِنَّهُ غيرُ مُتَطابِقٍ، معَ استِعمالي لِهذهِ الكلمةِ في تَعبيرِ 'سِياق الحالِ.' وليسَ في وُسعي الدُّخولُ هُنا في مُحاوَلَةِ تَنميطِ مَنظومَتِنا المُصطلَحيَّةِ الخاصَّةِ بِنا ويَجِبُ أن أُتيحَ لِلقارِئِ اختِبارَ نِسبيَّةِ الرَّمزيَّةِ في هذا المِثالِ البَسيطِ.

(4)

لَقَد كانَ تَعامُلِي الرَّئيسُ، حتَّى الآن، معَ أبسَطِ مُشكِلاتِ المَعنَى، وهيَ المُشكِلاتُ المُتَّصِلَةُ بِتَعريفِ الكَلماتِ المُفرَدَةِ وبِالمهمَّةِ المُعجَميَّةِ المُتضَمِّنَةِ استِحضارَ مُفرَداتِ لِسانٍ أجنَبيٍّ أمامَ القارِئِ الأورُبِّيِّ. وقَد كانَتِ النَّتيجَةُ الرَّئيسَةُ لِتَحليلِنا أنَّ مِن المُحالِ تَرجَمَةَ كَلِماتِ لُغةٍ بِدائيَّةٍ أو لُغَةٍ تَختَلِفُ اختِلافًا كَبيرًا عن لُغَتِنا، مِن غيرِ أن يَكونَ ثَمَّةَ تَقريرٌ مُفَصَّلٌ عَن ثَقافَةِ مُستَعمِلِيها يُقَدِّمَ، بِذلكَ، المِقياسَ المُشتَرَكَ الضَّروريَّ لِلتَّرجمةِ. لكِنْ على الرَّغمِ مِن عَدَمِ إمكانِ الاستِغناءِ عن المِهادِ الإثنوغرافيِّ في المُعالَجَةِ العِلميَّةِ لِلُّغَةِ لا يُمكِنُ أن يُكتَفَى بِهِ البَتَّةَ، وإنَّ مُشكِلَةَ المَعنَى بِها حاجَةٌ إلى نَظرِيَّةٍ خاصَّةٍ بِها. وسأُحاوِلُ أن أُبَيِّنَ، مِن خِلالِ النَّظرِ إلى اللغةِ مِن المَنظورِ الإثنوغرافيِّ واستِعمالِ تَصوُّرِنا لِـسِياقِ الحالِ، أنَّ بِإمكانِنا تَقديمَ خُطوطٍ عَريضَةٍ لِنَظرِيَّةٍ دَلاليَّةٍ [309] نافِعَةٍ في مَجالِ اللُّغاتِ البِدائيَّةِ ومُسَلِّطَةٍ لِشَيءٍ مِن الضَّوءِ على لُغَةِ البَشَرِ عُمومًا.

فَلْنُحاوِلْ قَبلَ كُلِّ شَيءٍ أن نُكَوِّنَ، مِن وِجهَةِ نظرِنا، رَأيًا بِشَأنِ طَبيعَةِ اللغةِ. فأنا أعتَقِدُ أنَّ غِيابَ الرُّؤيَةِ الواضِحَةِ والمُحَدَّدَةِ بِشأنِ وَظيفةِ اللغةِ وطَبيعَةِ المَعنَى هوَ السَّببُ في العُقمِ النِّسبيِّ لِلتَّنظيرِ اللغَويِّ المُمتازِ في الأَحوالِ الأُخرَى. وإنَّ الطَّريقَةَ المُباشِرَةَ التي يُواجِهُ بِها الكاتِبانِ هذهِ المُشكلةَ الأَساسيَّةَ والحِجاجَ المُمتازَ الذي يَحلّانِها بِهِ يُشَكِّلانِ القِيمَةَ الدّائمَةَ لِعَمَلِهِما.

وقَد أوضَحَت دِراسَةُ النَّصِّ المَحلِّيِّ المُقتَبَسِ آنِفًا أنَّ القَولَ لا يَغدُو مَفهومًا إلّا حينَ نُؤَوِّلُهُ مِن خِلالِ سِياقِ الحالِ الخاصِّ بِهِ. فإنَّ تَحليلَ هذا السِّياقِ يُقَدِّمُ لَنا لَمحَةً عن مَجموعَةٍ مِن الهَمَجِيِّينَ الذينَ تَربِطُهُم وَشائجُ مُتَبادَلَةٌ مِن المَصالحِ والطُّموحاتِ، ومِن الإثارَةِ والاستِجابَةِ العاطفيَّتَيْنِ. وقَد كانَتْ ثَمَّةَ إحالَةٌ تَبجُّحيَّةٌ على فَعّاليّاتٍ تِجارِيَّةٍ تَنافُسِيَّةٍ، وعلى حَمَلاتٍ احتِفاليَّةٍ في ما وَراءَ البِحارِ، وعلى مُرَكَّبٍ مِن العَواطِفِ، والطُّموحاتِ، والأفكارِ، مِمّا هوَ مَعلومٌ لَدَى جَماعَةِ المُتكلِّمِينَ والمُستَمعِينَ مِن خِلالِ انغِماسِهِم في التَّقاليدِ القَبَليَّةِ وكَونِهِم هُم أنفسهم مُمَثِّلِينَ في مُناسَباتٍ كَالتي مَرَّ ذِكرُها في حِكايَتِنا. وقَد كانَ في وُسعي، بَدَلاً مِن

تَقديمِ حِكايَةٍ، أن أُورِدَ نَماذِجَ لُغويَّةً هيَ، بَعدُ، أَعمَقُ وأكثرُ مُباشَرَةً في تَجذُّرِها في سِياقِ الحالِ.

فَلْنَأخُذْ، على سبيلِ المِثالِ، اللغَةَ التي تَتَحدَّثُ بِها مَجموعةُ مَحلِّيِّينَ مُنهَمِكِينَ في إحدَى مُطارَداتِهِم الأساسِيَّةِ بَحثًا عن مَوارِدِ الرِّزقِ- صَيدِ الحَيَواناتِ، أو صَيدِ الأسماكِ، أو فِلاحَةِ الأرضِ؛ أو مُنهَمِكِينَ في إحدَى تلكَ الفَعّاليّاتِ التي تُعَبِّرُ بِها القَبيلَةُ الهَمَجيَّةُ عن أشكالٍ مِن الطّاقَةِ إنسانيَّةٍ في أساسِها- كالحَربِ، أو اللَعِبِ أو الرِّياضَةِ، أو أداءٍ احتِفاليٍّ أو عَرضٍ فَنِّيٍّ كالرَّقصِ أو الغِناءِ. والمُمَثِّلونَ في أيِّ مَشهَدٍ مِن هذهِ المَشاهِدِ إنَّما يُمارِسونَ فَعّاليَّةً ذاتَ غَرَضٍ، ويَحتَشِدونَ جَميعًا لِتَحقيقِ هَدَفٍ مُحَدَّدٍ؛ وعَلَيهِم جَميعًا أن يُمَثِّلوا بِطَريقَةٍ مُتَّفَقٍ عليها طبقًا لِقَواعِدَ أرساها العُرفُ والتَّقليدُ. وفي كُلِّ ذلكَ يُشَكِّلُ الكَلامُ الوَسيلَةَ الضَّروريَّةَ لِلجَماعَةِ؛ فهوَ الأداةُ التي لا يُمكِنُ الاستِغناءُ عنها مِن أجلِ خَلقِ الرَّوابِطِ الآنِيَّةِ والتي يَستَحيلُ إحداثُ نَشاطٍ اجتِماعيٍّ مُوَحَّدٍ مِن غيرِ وُجودِها.

ثُمَّ لِنَنظُرِ الآنَ في نَمَطِ الحَديثِ الذي يَدورُ بينَ الأشخاصِ الذينَ يُمارِسونَ التَّمثيلَ على ذلكَ النَّحوِ، وفي طَريقَةِ استِعمالِهِ. ومِن أجلِ أن نُضفِيَ على تَوجُّهِنا طابعًا مَلموسًا مُنذُ البِدايَة سنُحاوِلُ تَعَقُّبَ مَجموعَةٍ مِن صَيّادِي الأسماكِ في بُحَيرَةٍ مَرجانيَّةٍ، يَتربَّصونَ بِأسماكِ المِياهِ الضَّحلةِ، مُحاوِلينَ اصطِيادَها بِشَبَكاتِ صَيدٍ واسِعَةٍ، ونَقلَها في حَقائبَ شَبَكيَّةٍ صَغيرَةٍ- وهوَ مِثالٌ وَقَعَ اختياري عليهِ كذلِكَ لِطُولِ إلفي الشَّخصيِّ لِذلكَ الإجراءِ[26]. [310]

إذ تَنزَلِقُ الزَّوارِقُ بِبُطْءٍ ومِن غيرِ ضَجيجٍ، يُسَيِّرُها رِجالٌ مُتَخَصِّصُونَ في هذهِ المهمَّةِ ويُلجَأُ إليهِم على الدَّوامِ لأدائها. وثَمَّةَ خُبَراءُ آخَرونَ على دِرايَةٍ بِقاعِ البُحَيرَةِ وما فيهِ مِن حَياةٍ نَباتِيَّةٍ وحَيَوانيَّةٍ، في حالِ تَرقُّبٍ لِلأسماكِ. ويَلمَحُ أحدُهُم

(26) تُنظَرُ مَقالَةُ كاتِبُ هذهِ السُّطورِ التي عُنوانُها "صَيْدُ السَّمَكِ وسِحْرُهُ في جُزُرِ تروبرياند Fishing and Fishing Magic in the Trobriand Islands"، في دَورِيَّةِ *Man*، 1918.

الطَّريدَةَ. فتُطلَقُ عَلاماتٌ أو أصواتٌ أو كلِماتٌ مُتَّفَقٌ عليها. وفي بَعضِ الأحيانِ يَتطَلَّبُ الأمرُ أن يُنطَقَ بِجُملَةٍ تَنضَحُ بإحالاتٍ عُرْفِيَّةٍ على قَنَواتِ البُحَيرَةِ أو مُسَطَّحاتِها النَّباتيَّةِ؛ وفي بَعضِ الأحيانِ حينَ تَكونُ المِياهُ الضَّحلَةُ قَريبَةً ومهمَّةُ الاصطِيادِ سَهلَةً تُطلَقُ صَرخَةٌ مُتَعارَفَةٌ بِصَوتٍ غيرِ عالٍ جِدًّا. ثُمَّ يَتَوقَّفُ الأُسطولُ كُلُّهُ ويَصُفُّ نَفسَهُ- كُلُّ زَورَقٍ وكُلُّ رَجُلٍ فيهِ يُؤَدِّي مُهِمَّتَهُ الموكولةَ إليهِ- طبقًا لِنِظامٍ مَعهودٍ. غيرَ أنَّ الرِّجالَ، لا شَكَّ، يُطلِقُونَ في أثناءِ أداءِ مهمَّتِهِم صَوتًا بينَ الفَينَةِ والفَينَةِ يُعَبِّرُ عن حَماسَةٍ في المُطارَدَةِ أو نَفادِ صَبرٍ عندَ مُواجَهَةِ صُعوبَةٍ مِهْنِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أو فَرحَةٍ عندَ الإنجازِ أو خَيبَةِ أَمَلٍ عندَ الإخفاقِ. وتُسمَعُ، مَرَّةً أُخرَى، كَلِمَةٌ آمِرَةٌ هُنا وهُناكَ، تُمَثِّلُ تَعبيرًا أو تَفسيرًا عُرْفِيًّا يُعينُ على جَعلِ سُلوكِهِم مُتَناغِمًا تجاهَ الرِّجالِ الآخَرينَ. فالمَجموعَةُ كُلُّها تَعمَلُ بِطريقَةٍ مُتَّفَقٍ عليها، يُحَدِّدُها عُرفٌ قَبَلِيٌّ قَديمٌ، ويَألَفُها المُمَثِّلُونَ تَمامًا عبرَ تَجرِبَةِ حياةٍ طَويلَةٍ. وبَعضُ الرِّجالِ في الزَّوارِقِ يُلقُونَ الشِّباكَ الواسِعَةَ المُطَوَّقَةَ في الماءِ، وآخَرونَ يَغطسونَ ويَسوقونَ الأسماكَ إلى داخِلِ الشِّباكِ بِخَوضِهِم في مِياهِ البُحَيرَةِ الضَّحلَةِ. وثَمَّ آخَرونَ كذلكَ يَنتَظِرونَ بِشِباكِهِم الصَّغيرَةِ، استِعدادًا لِلإمساكِ بالأسماكِ. ويَتْبَعُ ذلكَ مَشهَدٌ مُفعَمٌ بِالحيويَّةِ، مِلْؤُهُ الحَرَكَةُ؛ فالآنَ والأسماكُ في حَوزَةِ الصَّيّادِينَ تَراهُم يَتَحدَّثُونَ بِصَوتٍ عالٍ، ويُنَفِّسُونَ عن مَشاعِرِهِم. فتجوبُ المَكانَ عِباراتٌ هتافِيَّةٌ قَصيرَةٌ مُوحِيَةٌ، يُمكِنُ أن تُعَبِّرَ عنها كَلِماتٌ نَحوُ: 'اسْحَبْ Pull in'، و'اتْرُكْ Let go'، و'تَحَوَّلْ أَبْعَدَ Shift further'، و'ارفَعِ الشَّبَكَةَ Lift the net'، أو تَعبيراتٌ اصطِلاحِيَّةٌ عَصِيَّةٌ على التَّرجمةِ تَمامًا إلّا بِوَصفٍ دَقيقٍ لِلأدَواتِ المُستَعمَلَةِ، ولِلمَنحَى العَمَلِيِّ.

إنَّ كُلَّ اللغةِ المُستَعمَلَةِ في أثناءِ تلكَ المُطارَدَةِ مَملوءَةٌ بِالتَّعبيراتِ العُرْفِيَّةِ، وبالإحالاتِ المُقتَضَبَةِ على ما هوَ مَوجودٌ في البيئةِ المُحيطَةِ، وبالإشاراتِ الخاطِفَةِ إلى التَّحَوُّلِ- كُلُّ أولئكَ يَستَنِدُ إلى أنماطٍ سُلوكيَّةٍ مُتَعارَفَةٍ، يَألَفُها المُشارِكونَ جَيِّدًا مِن خِلالِ خِبراتِهِم الشَّخصيَّةِ. وكُلُّ قَولٍ يُطلَقُ يَكونُ مُقَيَّدًا بِسِياقِ الحالِ وبِالهَدَفِ مِن المُطارَدَةِ؛ سَواءٌ كانَ إشاراتٍ قَصيرَةً مُتعلِّقَةً بِحَرَكاتِ الطَّريدَةِ، أو إحالاتٍ على الأقوالِ المُعَبِّرَةِ عن البيئةِ المُحيطَةِ، أو تَعبيرًا عن

الشُّعورِ والعاطِفَةِ المُقَيَّدَيْنِ بِوَثاقَةٍ بِالسُّلوكِ، أو كَلِماتٍ أمرِيَّةً، أو تَعالُقًا عَمَلِيّاً. إنَّ بِنيَةَ كُلِّ هذهِ المادَّةِ اللغويَّةِ مَمزوجَةٌ مَزجًا لا فِكاكَ مِنهُ بِسَيرورةِ الفَعّاليَّةِ التي أودِعَتْ فيها تلكَ الأقوالُ، ومُعتَمِدَةٌ عليها. وإنَّ المُفرَداتِ، ومَعنَى الكَلِماتِ المَخصُوصَةِ المُستعمَلَةِ بِعُرْفِيَّتِها المُمَيِّزَةِ ليسَتْ بِأقَلَّ تَبعيَّةً لِلعَمَلِ. ذلكَ بِأنَّ اللُّغَةَ العُرْفِيَّةَ، في أُمورِ المُطارَدَةِ العَمَليَّةِ، لا تَكتَسِبُ مَعناها [311] إلّا مِن خِلالِ المُشارَكَةِ الشَّخصيَّةِ في هذا النَّمَطِ مِن المُطارَدَةِ. إنَّ تَعلُّمَها لا يَكونُ مِن خِلالِ التَّأمُّلِ بَل مِن خِلالِ المُمارَسَةِ.

ولَو كُنّا قَد تَناوَلْنا أيَّ مِثالٍ آخَرَ سِوَى صَيدِ السَّمَكِ لَتَوَصَّلْنا إلى نَتائجَ مُشابِهَةٍ. فَدِراسَةُ أيِّ شَكلٍ مِن أشكالِ الكَلامِ المُستَعمَلِ فيما يتعلَّقُ بِعَمَلٍ حَيَويٍّ يَكشِفُ عن المُمَيِّزاتِ النَّحويَّةِ والمُعجَميَّةِ أنْفُسِها: أي اعتِمادِ مَعنَى كُلِّ كلمةٍ على تَجرِبَةٍ عَمَليَّةٍ، وبِنيَةِ كُلِّ قَولٍ على حالٍ آنِيَّةٍ قِيلَ فيها. وبِذلكَ يَقودُنا النَّظَرُ في الاستِعمالاتِ اللغويَّةِ المُرتَبِطَةِ بِأيَّةِ مُطارَدَةٍ عَمَليَّةٍ إلى استِنتاجِ أنَّ اللغَةَ في أشكالِها البِدائيَّةِ يَجِبُ النَّظَرُ فيها ودِراسَتُها بِإزاءِ خَلفيَّةِ الفَعّاليّاتِ الإنسانيَّةِ وبِوَصفِها ضَرْبًا مِن السُّلوكِ الإنسانيِّ في الأُمورِ العَمَليَّةِ. وعلينا أن نُدرِكَ أنَّ اللغةَ في الأَصلِ لَم تَكُنْ تُستَعمَلُ البَتَّةَ في أوساطِ الأقوامِ البِدائيِّينَ غيرِ المُتَحضِّرينَ مُجَرَّدَ مِرآةٍ عاكِسَةٍ لِلأفكارِ. فَالطَّريقَةُ التي أستَعمِلُها بِها الآنَ عندَ كِتابَةِ هذهِ الكَلماتِ، والطَّريقَةُ التي على مُؤَلِّفِ كِتابٍ مّا أو مَخطوطٍ بَرْدِيٍّ أو مَخطوطٍ مَنحوتٍ أن يَستَعمِلَها، إنَّما هيَ وَظيفَةٌ لُغَويَّةٌ مُتَكَلَّفَةٌ جِدًّا وثانَويَّةٌ. فَبِهذهِ الوَظيفَةِ تَغدُو اللغَةُ قِطعَةَ تأمُّليَّةً مُكَثَّفَةً، وسِجِلّاً لِلحَقيقَةِ أو الفِكرِ. أمّا وظيفَةُ اللغةِ في الاستِعمالاتِ البِدائيَّةِ فَأن تَكونَ رابِطًا في فَعّاليَّةٍ إنسانيَّةٍ مُتَّفَقٍ عليها، وأن تَكونَ قِطعَةً مِن السُّلوكِ الإنسانيِّ. إنَّها ضَرْبٌ عَمَلِيٌّ لا أداةُ تأمُّلٍ[27].

(27) يَقولُ الدُّكتور محمودٌ السَّعران في كِتابِهِ (عِلمُ اللغةِ- مُقَدِّمةٌ لِلقارِئ العربيّ): ص251: "لقد وصَلَ مالينوفسكي إلى أنَّ اللغةَ ليسَتْ، كما يرَى التَّعريفُ التَّقليديُّ، وسيلةً من وسائلِ توصيلِ الأفكارِ والانفِعالاتِ أو التَّعبيرِ عنها أو نَقلِها؛ فمِثلُ هذا لا يَعدو أن يَكونَ وظيفةً واحدةً مِن وظائفِ اللغةِ، ورأى أنَّ اللغةَ، كما يُمارِسُها المتكلِّمونَ في أيِّ =

وقَد تَوصَّلْنا إلى هذهِ الاستِنتاجاتِ بِناءً على مِثالٍ يَستَعمِلُ فيهِ اللغَةَ قَومٌ مُرتَبِطونَ بِشُغلٍ عَمَليٍّ تَكونُ فيهِ الأقوالُ كامِنَةً في العَمَلِ. وقَد يُعتَرَضُ على هذا الاستِنتاجِ بِأنَّ ثَمَّةَ استِعمالاتٍ لُغَويَّةً أُخرَى كذلكَ حتَّى وَسطَ الأقوامِ البِدائيِّينَ الذينَ قَد حُرِموا الكِتابَةَ أو أيَّةَ وَسيلَةٍ لِلتَّثبيتِ الخارجيِّ لِلنُّصوصِ اللغويَّةِ. على أنَّهُ يُمكِنُ تأكيدُ أنَّهُ حتَّى هؤلاءِ قَد ثَبَّتوا نُصوصًا في أُغنياتِهِم، وأقوالِهِم، وخُرافاتِهِم، وأساطيرِهِم، وفي صِيَغِهِم الشَّعائريَّةِ والسِّحريَّةِ التي هيَ أَهَمُّ مِن كُلِّ ما سبَقَ. فَهل تَصِحُّ استِنتاجاتُنا بِشأنِ طَبيعَةِ اللغةِ حينَ تُواجَهُ بِهذا الاستِعمالِ لِلكَلامِ؟ وهَل في وُسعِ آرائنا أن تَظَلَّ ثابتَةً لا تتغيَّرُ حينَ نُحَوِّلُ نَظَرَنا مِن الكَلامِ العَمَلِيِّ إلى الحِكايَةِ الحُرَّةِ أو إلى استِعمالِ اللغةِ في الاتِّصالِ الاجتِماعيِّ الخالِصِ، حينَ لا يَكونُ غَرَضُ الكَلامِ إحرازَ هَدَفٍ مّا بَل يَكونُ غَرَضُهُ تَبادُلَ الكَلِماتِ بِوَصفِهِ غايَةً في نَفسِهِ تَقريبًا؟

وكُلُّ مَن تابَعَ تَحليلَنا لِلكَلامِ العَمَلِيِّ وعَقَدَ مُوازَنَةً بينَهُ وبينَ مُناقَشَةِ النُّصوصِ

= جماعةٍ من الجماعاتِ، إنَّما هيَ نوعٌ من السُّلوكِ، ضَرْبٌ مِن العَمَلِ، إنَّها تؤدِّي وظائفَ كثيرَةً غيرَ التَّوصيلِ". وقد أحالَ الدُّكتورُ السَّعرانُ في خِتامِ فِقرتِهِ هذهِ على كِتابِهِ (اللُّغةُ والمُجتمَعُ: رأيٌ ومَنهجٌ)، وهذا أنا ذا أَنقُلُ ما ورَدَ فيهِ إتمامًا لِلفائدَةِ وإظهارًا لِقيمَةِ المُلحَقِ الذي كتبَهُ مالِنوفِسكي لِكتابِ (مَعنَى المَعنَى)، إذ جاءَ فيهِ ص17 ما يأتي: "ولقد كانَ لِمالينوفِسكي (انظُرِ المُلحَقَ الذي كَتَبَهُ لِكتابِ مَعْنَى المَعْنَى The Meaning of Meaning مِن تأليفِ العالِمَيْنِ النَّفسيَّيْنِ الإنجليزيَّيْنِ I. A. Richards وC. K. Ogden)، العالِمِ الأنثروبولوجيِّ، فضلٌ كبيرٌ في تغييرِ النظرِ إلى اللغةِ؛ فقد أدرَكَ عندما كانَ يَدرُسُ بعضَ المجتمعاتِ التي جَرَى الاصطِلاحُ على تسميتِها بالمجتمعاتِ (البِدائيَّةِ) أو (الفِطريَّةِ) أو (الوَحشيَّةِ) أنَّ دراستَهُ لن تَصِحَّ دونَ معرفةِ الوظيفةِ التي تقومُ بها اللغةُ في المجتمعِ. ومِن هُنا كانَتْ نظريَّتُهُ الهامَّةُ في اللُّغَةِ، والتي كانَتْ بينَ عواملِ تَطوُّرِ النظرِ إلى عِلمِ اللغةِ. وصَلَ مالينوفسكي بعدَ دِراستِهِ لأمثالِ هذهِ المجتمعاتِ إلى أنَّ وظيفةَ اللغةِ ليسَتْ أنَّها مجرَّدُ وسيلةٍ لِلتَّفاهُمِ أو لِلتَّوصيلِ، بل وظيفةُ اللغةِ هيَ أنَّها حَلقةٌ في سِلسلةِ النشاطِ الإنسانيِّ المنتظمِ، هيَ أنَّها جزءٌ من السُّلوكِ الإنسانيِّ، إنَّها ضَرْبٌ من العَمَلِ ولَيْسَتْ أداةً عاكِسَةً لِلفِكرِ .(Malinowski, op. cit., p. 312) واستِعمالُ اللغةِ على هذهِ الصُّورةِ ليسَ قاصِرًا على الجماعاتِ (البِدائيَّةِ)، بل إنَّهُ لَيُلاحَظُ في أرقَى الجماعاتِ تَمدُّنًا". [المُترجِم]

الحِكائيَّةِ في القِسمِ الثّاني سيَقتَنِعُ بِأنَّ الاستِنتاجاتِ الحاليَّةَ تَنطَبِقُ على الكَلامِ الحِكائيِّ أيضًا. فَحينَ يُخبَرُ بِالحَوادِثِ أو تُناقَشُ وَسطَ مَجموعَةٍ مِن المُستمِعِينَ فَثَمَّةَ، أوّلاً، الحالُ الآنِيَّةُ التي تُشَكِّلُها المَواقِفُ الاجتِماعيَّةُ والعَقليَّةُ والعاطفيَّةُ الشَّخصِيَّةُ لِلأشخاصِ الحاضِرينَ. وفي ضِمنِ هذهِ الحالِ تَخلُقُ الحِكايَةُ [312] رَوابِطَ وعَواطِفَ جَديدَةً بِوَساطَةِ الجاذِبِيَّةِ العاطِفيَّةِ لِلكلماتِ. وفي الحِكايَةِ المُقتبَسَةِ يُوَلِّدُ تَباهي المَرْءِ أمامَ خَليطٍ مِن الحاضِرينَ مِن عَديدِ الزّائرينَ والغُرَباءِ مَشاعِرَ الفَخْرِ أو الخِزْيِ، والنَّصْرِ أو الحَسَدِ. وفي كُلِّ حالَةٍ يَكونُ الكَلامُ الحِكائيُّ، على ما نَجِدُهُ عليهِ في التَّجمُّعاتِ البِدائيَّة، في المَقامِ الأوَّلِ مَنْحًى لِفِعلٍ اجتِماعِيٍّ لا مُجَرَّدَ انعِكاسٍ لِلفِكرِ.

والحِكايَةُ مُرتَبِطةٌ كذلكَ على نَحوٍ غيرِ مُباشِرٍ بِحالٍ تُحيلُ عليها- وهيَ في نَصِّنا السّابقِ أداءُ إبحارٍ تَنافُسِيٌّ. وتَكونُ الكَلماتُ في هذهِ العَلاقَةِ دالَّةً بِسببِ تَجارِبَ لِلمُستَمِعينَ سابِقَةٍ، ويَعتَمِدُ مَعناها على سِياقِ الحالِ المُحالِ عليهِ، ولا تَكونُ هذهِ الإحالَةُ بِالدَّرَجةِ نَفسِها التي تَكونُ بِها في حالَةِ الكَلامِ العَمَلِيِّ ولكِنْ بِالطَّريقَةِ نَفسِها. والفَرقُ في الدَّرَجةِ مُهِمٌّ؛ فالكَلامُ الحِكائيُّ إنَّما يُحْرَزُ في وَظيفَتِهِ، ولا يُحيلُ على العَمَلِ إلّا على نَحوٍ غيرِ مُباشِرٍ، لكِنَّ الطَّريقَةَ التي يَكتَسِبُ بِها مَعناهُ لا يُمكِنُ فَهمُها إلّا مِن الوَظيفَةِ المُباشِرَةِ لِلكَلامِ العَمَلِيِّ. وإذا ما استَعمَلْنا مُصطَلَحاتِ هذا الكِتابِ قُلْنا: إنَّ الوَظيفَةَ الإحاليَّةَ لِحِكايَةٍ مّا ثانَوِيَّةٌ بِالإضافَةِ إلى وَظيفَتِها الاجتِماعيَّةِ والانفِعاليَّةِ، على ما مَرَّ تَصنيفُ ذلكَ عندَ المُؤَلِّفَيْنِ في الفَصلِ العاشِرِ.

إنَّ حالَةَ اللغةِ المُستَعمَلَةِ في الاتِّصالِ الاجتِماعيِّ الحُرِّ غيرِ الهادِفِ تَقتَضي اهتِمامًا خاصًّا. فحينَ يَجلِسُ عددٌ مِن النّاسِ مَعًا إلى نارِ القَريَةِ، بَعدَ انقِضاءِ جَميعِ أَشغالِ النَّهارِ، أو حينَ يَتَحدَّثونَ لِيتخفَّفوا مِن أعباءِ العَمَلِ، أو حينَ يَصْحَبُ عَمَلاً لَهُم يَدَوِيًّا مَحضًا ثَرْثَرَةٌ لا تَمُتُّ بِصِلَةٍ البَتَّةَ لِما يَفعَلونَهُ- مِن الواضِحِ أنَّ علينا التَّعامُلَ هُنا معَ ضَرْبٍ مُختَلِفٍ مِن ضُروبِ استِعمالِ اللغةِ، أي مَعَ نَمَطٍ آخَرَ لِوَظيفَةِ الكَلامِ. فاللغَةُ هُنا لا تَعتَمِدُ على ما يَحدُثُ في تلكَ اللحظةِ، بل إنَّها

لَتَبدو مُجَرَّدَةً مِن أيِّ سِياقٍ لِلحالِ. إذ لا يُمكِنُ رَبطُ مَعنَى أَيَّةِ مَقُولَةٍ بِسُلوكِ المُتكلِّمِ أو المُستَمِعِ، ولا بِالغَرَضِ مِن أفعالِهِما.

إنَّ العِبارَةَ المُهَذَّبَةَ، التي تُستَعمَلُ وَسطَ القَبائلِ الهَمَجيَّةِ تَمامًا كما تُستَعمَلُ في قاعَةِ استِقبالٍ أوْرُبّيَّةٍ، لَتُؤَدّي وَظيفَةً يَكادُ مَعنَى الكَلِماتِ فيها يَكونُ مُنْبَتَّ الصِّلَةِ بِها تَمامًا. فالسُّؤالُ عن الصِّحَّةِ، والتَّعليقُ على الطَّقسِ، والتَّشديدُ على حالَةٍ لِلأشياءِ شَديدَةِ الوُضوحِ- كلُّ ما هوَ نَحوُ ذلكَ لا يُتَبادَلُ مِن أجلِ الإخبارِ، ولا مِن أجلِ رَبطِ النّاسِ بِفِعْلٍ مّا في هذهِ الحالَةِ، ولا مِن أجلِ التَّعبيرِ عَن أيَّةِ فِكرَةٍ، بِلا شَكٍّ. بَل إنّي أرَى أَنَّهُ ليسَ صَحيحًا أن يُقالَ إنَّ مِثلَ هذهِ الكلماتِ تُؤَدّي مهمَّةَ تأسيسِ عاطِفَةٍ مُشتركةٍ؛ إذ إنَّ هذهِ عادَةً مّا تَكونُ غائبَةً في مِثلِ هذهِ العِباراتِ الدّارِجَةِ في الاتِّصالِ، وحَيثُما أوحَتْ بِالظُّهورِ، كما في التَّعبيراتِ التَّعاطُفيَّةِ، كانَتْ زائفَةً في أحَدِ جَوانِبِها على نَحوٍ صَريحٍ. فَما الغَرَضُ، إذَن، مِن وُجودِ عِباراتٍ نَحوِ: 'كَيفَ حالُكَ؟ How do you do?'، و'آه، ها أنتَ ذا Ah, here you are'، و'مِن أينَ قُدومُكَ؟ Where do you come from?'، [313] و'إنَّهُ لَيَومٌ جَميلٌ Nice day to-day'- وكُلُّها يُؤَدّي غَرَضًا واحِدًا في مُجتَمَعٍ أو آخَرَ، وهوَ أنَّها صِيَغُ تَحِيَّةٍ أو تَوَدُّدٍ.

أعتَقِدُ أنَّ بَحثَنا في وَظيفَةِ الكَلامِ في المُخالَطَةِ الاجتِماعيَّةِ المَحْضَةِ يَقودُنا إلى أَحَدِ الجَوانِبِ الأساسيَّةِ لِطَبيعَةِ الإنسانِ في المُجتَمَعِ. فَفي داخِلِ كُلِّ إنسانٍ مَيْلٌ مَعروفٌ إلى الاجتِماعِ، إلى أن يَكونَ في رِفقَةٍ، يَستَمتِعُ بَعضُها بِصُحبَةِ بَعضٍ. والكَثيرُ مِن الغَرائزِ والمُيولِ الدّاخليَّةِ كالخَوفِ أو المُشاكَسَةِ، وجَميعُ أَنماطِ العَواطِفِ الاجتِماعيَّةِ كالطُّموحِ، والغُرورِ، والرَّغبَةِ في حِيازَةِ القُوَّةِ والثَّروَةِ، تَعتَمِدُ على المَيْلِ الأَساسيِّ الذي يَجعَلُ مُجَرَّدَ حُضورِ الآخَرينَ حاجَةً لِلإنسانِ، وتَرتَبِطُ بِهذا المَيْلِ[28].

---

(28) أنا أتَعَمَّدُ تَجنُّبَ استِعمالِ تَعبيرِ غَريزَةِ التَّجَمُّعِ Herd-instinct؛ لإيماني بِأنَّ المَيْلَ الذي نَحنُ بِصددِهِ لا يُمكِنُ أن يُسَمّى، على نَحوٍ دَقيقٍ، غَريزَةً. ثُمَّ إنَّهُ قَد أُسيءَ استِعمالُ مُصطَلَحِ غَريزَةِ التَّجَمُّعِ في مُؤَلَّفٍ سوسيولوجيٍّ حَديثٍ أصبَحَ، مَعَ ذلكَ، شائعًا بِما فيهِ =

والكَلامُ هوَ العَلاقَةُ المُتَبادَلَةُ الحَميمَةُ لِهذا المَيْلِ؛ ذلكَ بِأنَّ صَمْتَ رَجُلٍ مّا لَيسَ عامِلَ اطمِئنانٍ لِرَجُلٍ آخَرَ طَبيعِيٌّ، بَل إنَّهُ، بِعَكسِ ذلكَ، شَيءٌ مّا مُثيرٌ لِلذُّعرِ وخَطِرٌ. والشَّخصُ الغَريبُ الذي لا يُمكِنُهُ التَّحَدُّثُ بِاللُّغَةِ يُمَثِّلُ عَدُوًّا طَبيعيًّا لِجَميعِ رِجالِ القَبيلَةِ الهَمَجِيِّينَ. ولا يَقتَصِرُ ما تَعنيهِ قِلَّةُ الكَلامِ عندَ العَقليَّةِ البِدائيَّةِ، سَواءٌ أكانَ ذلكَ في أوساطِ الهَمَجِيِّينَ أم في أوساطِ طَبَقاتِنا المُتَعَلِّمَةِ، على الجَفاءِ، بَل إنَّها تُفَسَّرُ مُباشَرَةً بِأنَّها سُوءُ خُلُقٍ. ولا شَكَّ في أنَّ هذا يَختَلِفُ اختِلافًا كبيرًا في حالَةِ الخُلُقِ المَحَلِّيِّ لكِنَّهُ، بِوَصفِهِ قاعِدَةً عامَّةً، يَظَلُّ صادِقًا. ويُمَثِّلُ كَسْرُ الصَّمتِ وتَبادُلُ الكَلماتِ الفِعلَ الأَوَّلَ لِتأسيسِ أواصِرِ الصُّحبَةِ، التي لا تَكتَمِلُ إلّا بِاقتِسامِ الخُبزِ والتَّشارُكِ في الطَّعامِ. إنَّ التَّعبيرَ الإنجليزيَّ المُعاصِرَ: 'إنَّهُ لَيَومٌ جَميلٌ Nice day to-day'، أو العِبارَةَ الميلانيزِيَّةَ: 'مِن أينَ قُدومُكَ؟ Whence comest thou?'، إنَّما يُحتاجُ إليهِما لِتَجاوُزِ التَّوتُّرِ الغَريبِ والمُزعِجِ الذي يَشعُرُ بِهِ الرِّجالُ في حالِ صَمْتِهِم حينَ يُواجِهُ بَعضُهُم بَعضًا.

وبَعدَ إطلاقِ الصِّيغَةِ الأُولَى يَحدُثُ انثِيالٌ لُغَويٌّ مِن تَعبيراتِ تَفضيلٍ أو كُرْهٍ غيرِ هادِفَةٍ، وتَقريراتٍ عَن وَقائعَ غيرِ ذَواتِ صِلَةٍ، وتَعليقاتٍ على ما هوَ شَديدُ الوُضوحِ. ولا تَختَلِفُ هذهِ الثَّرثَرَةُ التي نَجِدُها في المُجتَمَعاتِ البِدائيَّةِ عن ثَرثَرَتِنا إلّا قَليلاً. إذ نَجِدُ دَومًا تشديدَ التَّأكيدِ والقَبولِ نَفسَهُ الذي قَد يَكونُ مَمزوجًا بِخِلافٍ عارِضٍ يَخلُقُ أواصِرَ الكَراهيَةِ. أو تَقريراتٍ شَخصيَّةً لآراءِ المُتَكلِّمِ وتأريخِ حَياتِهِ، يُصغي إليها المُستَمِعُ بِشَيْءٍ مِن الكَبْحِ وبِنَفادِ صَبرٍ مُغَلَّفٍ قَليلاً، مُنتَظِرًا دَورَهُ في الكَلامِ. ذلكَ بِأنَّ الأَواصِرَ المُوَلَّدَةَ في هذا الاستِعمالِ لِلكَلامِ بينَ المُتَكلِّمِ والمُستَمِعِ لَيسَتْ تامَّةَ التَّناظُرِ؛ فالرَّجُلُ النَّشيطُ لُغَويًّا يَستَولي على الحِصَّةِ الكُبرَى مِن الاستِمتاعِ الاجتِماعيِّ وتَعظيمِ الذّاتِ. لكِنْ على الرَّغمِ مِن أنَّ الاستِماعَ المُوَجَّهَ إلى نَحوِ تلكَ [314] الأَقوالِ لا يَنطَوي في العادَةِ على حَماسَةٍ كَالتي تَنطَوي عليها حِصَّةُ المُتَكلِّمِ نَفسُها، إنَّهُ أساسيٌّ تَمامًا لِتَحقيقِ استِمتاعِهِ، ويَتحقَّقُ التَّبادُلُ بِتَغييرِ الأدوارِ.

= الكِفايَةُ لِيُؤَسِّسَ آراءَهُ بِشأنِ هذا المَوضوعِ ولِيَعرِضَها على عُمومِ القُرّاءِ.

وليسَ ثَمَّةَ مَجالٌ لِلشَّكِّ في أنَّا هُنا بِإزاءِ نَمَطٍ جَديدٍ مِن الاستِعمالِ اللغَويِّ- وأنا أميلُ إلى تَسميَتِهِ اتِّصالاً ارتِباطِيًّا *phatic communion*، يَدفَعُني إلى ذلكَ شَيطانُ الابتِكارِ الاصطِلاحيِّ- وهوَ نَمَطٌ مِن الكَلامِ تَتولَّدُ فيهِ أواصِرُ الاتِّحادِ بِتَبادُلِ الكَلماتِ فَحَسْبُ. فَلْنُلْقِ عليهِ نَظرَةً مِن زاوِيَةِ النَّظَرِ التي نَحنُ مَعنِيُّونَ بِها هُنا، وَلْنَتَساءَلْ: ما الضَّوءُ الذي يُسَلِّطُهُ على وَظيفَةِ اللغةِ أو طَبيعَتِها؟ هَل تُستعمَلُ الكَلِماتُ في ما أُسَمِّيهِ اتِّصالاً ارتباطِيًّا في المَقامِ الأوَّلِ لِنَقلِ المَعنى، المَعنَى الذي هُوَ، رَمزِيًّا، لَها؟ الإجابَةُ: لا، بِلا شَكٍّ! فهيَ تُؤَدِّي وَظيفَةً اجتِماعيَّةً، وهذا هوَ هَدَفُها الرَّئيسُ، ولِكنَّها لَيسَتْ نتيجَةَ تأمُّلٍ عَقليٍّ، كما أنَّها لا تَستَدعي، بِالضَّرورَةِ، تَأمُّلَ المُستَمِعِ. ويُمكِنُنا أن نَقولَ مَرَّةً أخرَى إنَّ اللغَةَ لا تَعمَلُ هُنا بِوَصفِها وَسيلَةً لِنَقلِ الفِكرِ.

ولكِنْ هَل يُمكِنُنا عَدُّها ضَرْبًا عَمَلِيًّا؟ وبِأيَّةِ عَلاقَةٍ تَفي بِتَصوُّرِنا الحاسِمِ لِسِياقِ الحالِ؟ ومِن الواضِحِ أنَّ الحالَ الخارجيَّةَ لا تَدخُلُ مُباشَرَةً في تِقْنِيَّةِ التَّكلُّمِ. ولكِن ما الذي يُمكِنُ أن يُعَدَّ حالاً حينَ يُثَرثِرُ عددٌ مِن النّاسِ مَعًا مِن غيرِ ما هَدَفٍ؟ إنَّهُ يَكمُنُ في هذا الجَوِّ مِن المُخالَطَةِ الاجتِماعيَّةِ وفي حَقيقَةِ التَّشارُكِ الشَّخصيِّ لِهؤُلاءِ النّاسِ. لكِنَّ هذا يُنجِزُهُ الكَلامُ في الواقِعِ، والحالُ في جَميعِ هذهِ الحالاتِ يُوَلِّدُها تَبادُلُ الكَلِماتِ، والمَشاعِرُ المُحَدَّدَةُ التي تُشَكِّلُ المُخالَطَةَ الاجتِماعيَّةَ المَرِحَةَ، وتَبادُلُ الأقوالِ الذي يُؤَلِّفُ الثَّرثَرَةَ الاعتِياديَّةَ. والحالُ الكُلِّيَّةُ تكمُنُ في ما يَحدُثُ لُغَويًّا. فَكُلُّ قَولٍ هوَ فِعلٌ يُحَقِّقُ الهَدَفَ المُباشِرَ الذي هوَ رَبطُ المُستَمِعِ بِالمُتكلِّمِ بِرِباطٍ مِن عاطِفَةٍ أو أُخرَى. ومَرَّةً أُخرَى، لا تَبدُو لَنا اللغةُ بِوَظيفَتِها هذهِ أداةً لِلتَّأمُّلِ، بَل تَبدو ضَرْبًا مِن العَمَلِ.

وأَوَدُّ أن أَزيدَ، حالاً، على ما قُلْتُ أنَّهُ إنْ تَكُنِ الأَمثِلَةُ المَطروحَةُ قَد أُخِذَتْ مِن الحَياةِ الهَمَجيَّةِ، فبِإمكانِنا أن نَجِدَ بينَ ظَهرانينا حالاتٍ مُناظِرَةً تَمامًا لِكُلِّ نَمَطٍ مِن الاستِعمالِ اللُّغويِّ قَد ناقَشْناهُ حتَّى الآن. فَنَسيجُ الكَلِماتِ الرّابِطُ الذي يُوَحِّدُ طاقِمَ سَفينَةٍ حينَ يَسُوءُ الطَّقسُ، والمُصاحِباتُ اللفظيَّةُ لِمَجموعةِ جُنودٍ في المَعرَكَةِ، واللغةُ العُرْفِيَّةُ التي تَسيرُ مُوازِيَةً لانشِغالٍ عَمَليٍّ مُعَيَّنٍ أو لِمُطارَدَةِ

رِياضِيَّةٍ- كلُّ أُولئكَ يُشبِهُ في الأساسِ الاستِعمالاتِ البِدائيَّةَ لِلكَلامِ التي يُزاوِلُها المَرءُ في أثناءِ العَمَلِ، وقَد كانَ في الإمكانِ أن يُقامَ بَحثُنا على مِثالٍ مُعاصِرٍ على حَدٍّ سَواءٍ. وقَد وَقَعَ اختِياري آنِفًا على مِثالٍ مِن مُجتَمَعٍ هَمَجِيٍّ لإرادَتي تَأكيدَ أنَّ طَبيعَةَ الكَلامِ البِدائيِّ هيَ على هذا النَّحوِ لا على نَحوٍ آخَرَ.

ونَعُودُ مَرَّةً أخرَى لِنَقولَ إنَّا في ما هوَ خالِصٌ مِن المُخالَطاتِ الاجتِماعِيَّةِ والثَّرثَرَةِ نَستَعمِلُ اللُغَةَ بِالطَّريقَةِ نَفسِها [315] التي يَستَعمِلُها بِها الهَمَجيُّونَ ويُصبِحُ كَلامُنا 'اتِّصالاً ارتِباطِيًّا'، وهو الذي أخضَعْناهُ لِلتَّحليلِ آنِفًا، والذي يُؤَدِّي مهمَّةَ تأسيسِ أَواصِرِ الوحدَةِ الشَّخصيَّةِ وَسطَ أُناسٍ أَدَّى مَحضُ الحاجَةِ إلى الصُّحبَةِ إلى وُجودِهِم مَعًا، ولا يُؤَدِّي أيَّ غَرَضٍ لَهُ صِلَةٌ بِتَوصيلِ الأفكارِ. ويُعَلِّقُ المُؤَلِّفانِ بِقَولِهِما: "مِن المتَّفَقِ عليه في طُولِ العالَمِ الغَربيِّ وعَرْضِهِ أنَّ على النّاسِ أن يَلتَقُوا كثيرًا، وأنَّ حَديثَ بَعضِهِم إلى بعضٍ ليسَ مَقبولاً فحَسْبُ، بَل إنَّ مِن مُقتَضَياتِ اللُطفِ الاجتِماعيِّ قَولَ شَيءٍ مّا حَتَّى حينَ لا يَكادُ يُوجَدُ ما يُقالُ"[29]. والحَقُّ أنَّهُ ليسَ ضَروريًّا أن يَكونَ ثَمَّةَ ما يُوَصَّلُ، أو رُبَّما يَجِبُ ألّا يَكونَ ثَمَّةَ ما يُوَصَّلُ. فَما دامَتْ ثَمَّةَ كَلِماتٌ تُتَبادَلُ فإنَّ الاتِّصالَ الارتِباطيَّ يَجلِبُ الهَمَجِيِّينَ والمُتَحَضِّرِينَ على حَدٍّ سَواءٍ إلى داخِلِ الجَوِّ اللطيفِ لِلاتِّصالِ الاجتِماعيِّ المُهَذَّبِ.

ولا تُستَخدَمُ اللغَةُ لِتَأطيرِ الأفكارِ والتَّعبيرِ عنها إلّا في استِعمالاتٍ مُعَيَّنَةٍ خاصَّةٍ جِدًّا في المُجتَمَعِ المُتَحضِّرِ، وهيَ أرقَى استِعمالاتِها. فَفي النِّتاجِ الشِّعريِّ والأدَبيِّ تُستَعمَلُ اللغَةُ لِتَجسيدِ المَشاعِرِ والعَواطفِ الإنسانيَّةِ، ولِلتَّعبيرِ عن حالاتٍ داخليَّةٍ مُعَيَّنَةٍ وعَمَليّاتٍ ذِهنيَّةٍ بِطَريقَةٍ مُرهَفَةٍ ومُقْنِعَةٍ. وفي النِّتاجاتِ العِلميَّةِ والفَلسفيَّةِ تُستَعمَلُ أنماطٌ مِن الكَلامِ غايَةٌ في التَّطَوُّرِ والتَّخَصُّصِ لِضَبطِ الأفكارِ ولِجَعلِها مِلكًا مُشاعًا لِلشُّعوبِ المُتَحَضِّرَةِ.

على أنَّهُ ليسَ صَحيحًا أن نَعُدَّ اللغَةَ حتَّى في وَظيفَتِها هذهِ مُجَرَّدَ فَضلَةٍ

(29) اقتِباسٌ مِن الفَصلِ الأوَّلِ لِلكِتابِ الحاضِرِ.

عاكِسَةٍ لِلفِكرِ. وإنَّ تَصَوُّرَ الكَلام بِوَصفِهِ مُؤَدِّيًا لِمهمَّةِ تَرجمةِ العَمليّاتِ الدّاخليَّةِ لِلمُتكلِّمِ إلى المُستَمِعِ ليسَ إلّا تَصَوُّرًا أُحادِيَّ الجانِبِ ولا يُقَدِّمُ لَنا، حتَّى بِالنَّظَرِ إلى استِعمالاتِ الكَلام التي هيَ غايَةٌ في التَّطَوُّرِ والتَّخَصُّصِ، إلّا نَظرَةً جُزئيَّةً، لا شَكَّ في أنَّها ليسَتْ أكثَرَ النَّظَراتِ صِلَةً بِالمَوضوعِ.

وإذا ما أَرَدْنا إعادَةَ تَثبيتِ الوَضعِ الرَّئيسِ الذي وَصَلْنا إليهِ في هذا القِسم أَمكَنَنا أن نَقولَ إنَّ لِلُّغَةِ بِوَظيفَتِها البِدائيَّةِ وبِصورَتِها الأَصليَّةِ صِفَةً براغماتيَّةً أساسًا، وإنَّها مَنْحًى سُلوكيٌّ، وعُنصُرٌ لا غِنَى عنهُ في الفِعلِ الإنسانيِّ الجَماعيِّ. أمّا النَّظرَةُ المُعاكِسَةُ التي تَرَاها وَسيلَةً لِتَجسيدِ الفِكرِ أو لِلتَّعبيرِ عنهُ فتَعني اتِّخاذَ وِجهَةِ نَظَرٍ أُحادِيَّةِ الجانبِ باتِّجاهِ إحدَى أكثَرِ وَظائفِها ثانويَّةً وتَخصُّصًا.

(5)

قَد حاوَلْتُ تأسيسَ وِجهَةِ النَّظَرِ هذهِ بِشَأنِ طَبيعَةِ اللغةِ بِوَساطَةِ تَحليلٍ مُفَصَّلٍ لِلنَّماذِجِ، بِالإحالةِ على وَقائعَ مَلموسَةٍ وفِعليَّةٍ. لِذلكَ أنا مُطمَئِنٌّ إلى أنَّ التَّفريقَ الذي أَوضَحْتُهُ بينَ 'المَنْحى العَمَلِيّ' و 'وَسيلَةِ التَّفكيرِ' لَن يَظَلَّ عِبارَةً فارِغَةً، بَل إنَّه قَد تلَقَّى مَضمونَهُ مِن الوَقائعِ المُقَدَّمَةِ. على أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ ما يُؤَسِّسُ [316] القِيمَةَ الإيجابيَّةَ والطَّبيعَةَ التَّجريبيَّةَ لِمَبدَإٍ عامٍّ على أكمَلِ وَجهٍ كَما يَكونُ ذلكَ حينَ يُوضَعُ على المحَكِّ العَمَليِّ في حَلِّ مُشكِلاتٍ مُحَدَّدَةٍ ذَواتِ تَوصيفٍ صَعبٍ ومُحَيِّرٍ شَيئًا مّا.

ولَدَيْنا في اللِسانيّاتِ مَوضوعٌ مِن هذا القَبيلِ صَعْبُ المِراسِ هوَ مُشكِلَةُ المَعنَى. وقَد يَكونُ جُرْأَةً مِنّي أن أُعالِجَ هذا المَوضوعَ بِطَريقَةٍ تَجريدِيَّةٍ وعامَّةٍ وبِطُموحٍ فَلسَفيٍّ أيًّا يَكُنْ، بَعدَما أظهَرَ أوغدِن ورِتشاردز (في الفَصلَيْنِ الثّامِنِ والتّاسِعِ) أنَّهُ ذو طَبيعَةٍ خَطِرَةٍ جِدًّا. غيرَ أنّي أَوَدُّ أن أُقارِبَهُ مِن خِلالِ طَريقِ التَّجريبيَّةِ الإثنوغرافيَّةِ الضَّيِّقِ وأن أُظهِرَ كَيْفَ يَبدُو إذا ما نُظِرَ إليهِ مِن مَنظورِ الاستِعمالاتِ البراغماتيَّةِ لِلكَلامِ البِدائيِّ.

وقَد أَتاحَ لَنا هذا المَنظورُ تَصنيفَ الكَلامِ البَشَريِّ في خانَةِ الضُّروبِ الفَعّالَةِ

لِلسُّلوكِ البَشَريِّ لا في خانَةِ الضُّروبِ التَّأمُّلِيَّةِ والمَعرِفِيَّةِ. لكِنَّ هذهِ النَّظرَةَ الخارِجِيَّةَ وهذا التَّصَوُّرَ المُجْمَلَ يَجِبُ أن يُرفَدا بَعدُ بِاعتِباراتٍ تَحليليَّةٍ أكثَرَ تَفصيلاً، إذا ما أَرَدْنا الوُصولَ إلى فِكرَةٍ أوضَحَ بِشأنِ المَعنَى.

وقَد دَرَسَ الكاتِبانِ في الفَصلِ الثّالِثِ مِن الكِتابِ الذي بينَ أيدينا سايكولوجيَّةَ الأحوالِ العَلاميَّةِ واكتِسابَ الدَّلالَةِ بِوَساطَةِ الرُّموزِ. وليسَتْ بي حاجَةٌ إلى تَكرارِ تَحليلِهِما الذَّكِيِّ أو تَلخيصِهِ، وإنّي لأراهُ مُقنِعًا تَمامًا ومُرْضِيًا ويُشَكِّلُ حَجَرَ الزّاويَةِ لِنظريَّتِهِما اللغَويَّةِ. ومَعَ ذلكَ أوَدُّ أن أُتابِعَ نُقطَةً واحدَةً في حِجاجِهِما، نُقطَةً وَثيقَةَ الصِّلَةِ بِتَصوُّرِنا البراغماتيِّ لِلُّغَةِ.

إذ يَرفُضُ الكاتِبانِ، وحُقَّ لَهُما ذلكَ، تَفسيراتِ المَعنَى بِالإيحاءِ، والتَّرابُطِ، والإدراكِ الواعي، مُؤَكِّدَيْنِ أنَّ هذهِ التَّفسيراتِ غيرُ فاعِلَةٍ بِما فيهِ الكِفايَةُ. ولا شَكَّ في أنَّ الأفكارَ الجَديدَةَ يُشَكِّلُها الإدراكُ الواعي وما دامَتِ الفِكرَةُ الجَديدَةُ تُنشِئُ مَعنًى جَديدًا وتتلَقَّى في الوَقتِ المُناسِبِ اسمًا جَديدًا فإنَّ الإدراكَ الواعيَ عَمليَّةٌ تَخلُقُ الدَّلالَةَ. لكِنَّ ذلكَ لا يَحدُثُ إلّا في أكثَرِ استِعمالاتِ اللغَةِ تَطَوُّرًا وتَهذيبًا لِلأغراضِ العِلميَّةِ. وقَد تَبيَّنَ لَنا جَيِّدًا مِن بَحْثِنا السّابِقِ أنَّ هذا النَّمَطَ مِن صِياغَةِ المَعنَى ثانَويٌّ جِدًّا ولا يُمكِنُ اتِّخاذُهُ نَمَطًا تُدرَسُ في ضَوئِهِ الدَّلالَةُ وتُفَسَّرُ. ولا يَقتَصِرُ ذلكَ على الهَمَجِيِّينَ، بَل يَنطَبِقُ كذلكَ على حَياتِنا اللغَويَّةِ. ذلكَ بِأنَّ المَرْءَ الذي يَستَعمِلُ لُغَتَهُ استِعمالاً عِلمِيًّا، قَد سَبَقَ أن طَوَّرَتِ الأشكالُ التي هيَ أكثَرُ ابتِدائيَّةً لِوَظائفِ الكَلِماتِ مَوقِفَهُ تجاهَ اللغَةِ ورَسَّخَتْهُ فيها. فقَبْلَ أن يَبدَأَ أصلاً بِاكتِسابِ مُفرَداتِهِ العِلمِيَّةِ بِطَريقَةٍ عالِيَةِ الاصطِناعِ مِن خِلالِ الإدراكِ الواعي- الذي لا يَحدُثُ، زِيادَةً على ذلكَ، إلّا بِدَرَجَةٍ مَحدودَةٍ جِدًّا- كانَ قَد تَعلَّمَ استِعمالَ كَلِماتٍ وتَراكيبَ، فَاستَعمَلَها، ثُمَّ شَبَّ على استِعمالِها، [317] وكانَ مَعناها قَد تَشَكَّلَ في ذِهنِهِ بِطَريقَةٍ مُختلِفَةٍ تَمامًا. وهذهِ الطَّريقَةُ ابتِدائيَّةٌ مِن حيثُ الزَّمَنُ؛ إذ إنَّها مُستَمَدَّةٌ مِن استِعمالاتٍ مُبَكِّرَةٍ؛ وهيَ أكثَرُ عُموميَّةً؛ إذ إنَّ القِسمَ الأعظَمَ مِن الكَلِماتِ يَتلقَّى مَعناهُ على هذا النَّحوِ؛ وهيَ أكثَرُ أساسِيَّةً؛ ما دامَت تُحيلُ على أكثَرِ استِعمالاتِ الكَلامِ أهمِّيَّةً وهَيْمَنَةً- تلكَ الاستِعمالاتِ التي أَشَرْنا إليها آنِفًا

بِوَصفِها مُشتَرَكةً عندَ الأقوامِ البِدائيِّينَ والمُتَحَضِّرِينَ.

ويَجِبُ أن نُواصِلَ الآنَ تَحليلَ هذهِ الطَّريقَةِ لِتَشكيلِ المَعنَى بِتَفصيلٍ أكبَرَ، مُحيلينَ على وِجهَةِ نَظرِنا البراغماتيَّةِ لِلُّغَةِ. ويُمكِنُ تَحقيقُ ذلكَ على خَيْرِ وَجهٍ بِوَساطَةِ الاعتِباراتِ الوِراثيَّةِ، وبِوَساطَةِ تَحليلِ استِعمالاتِ الأطفالِ لِلكَلماتِ، والأشكالِ البِدائيَّةِ، والدَّلالَةِ، واللغَةِ ما قَبلَ العِلميَّةِ في أوساطِنا. وسَوفَ تَبدو بعضُ لَمَحاتِ تَشكيلِ المَعنَى في مَرحَلَتَي الرَّضاعَةِ والطُّفولَةِ أكثَرَ أهمِّيَّةً بِتَعاظُمِ مَيْلِ عِلمِ النَّفسِ المُعاصِرِ إلى أن يَعْزُوَ إلى العاداتِ العَقليَّةِ المُبَكِّرَةِ تأثيرًا مُتَواصِلاً في تَوَجُّهاتِ البالِغِينَ.

إنَّ إطلاقَ الصَّوتِ العاطفيِّ غيرِ الإفصاحِيِّ والكَلامِ الإفصاحِيِّ يُمَثِّلُ تنظيمًا بايولوجيًّا ذا أهمِّيَّةٍ كبيرَةٍ لِلصِّغارِ والبالِغِينَ مِن بينِ شَرائحِ بَني الإنسانِ، وهوَ يَضرِبُ بِجُذورِهِ عَميقَةً في التَّنظيمِ الغَريزِيِّ والسّايكولوجيِّ لِلكائنِ البَشَريِّ. فالأطفالُ، والهَمَجيُّونَ، والبالِغُونَ المُتَحضِّرونَ على حَدٍّ سَواءٍ يَكونُ لَهُم رَدُّ فِعلٍ بِتَعبيرٍ مَلفوظٍ تجاهَ أحوالٍ مُعَيَّنَةٍ- سَواءٌ كانَ ما وَلَّدَتْهُ هذهِ الأحوالُ ألَمًا جَسَدِيًّا أو كَرْبًا ذِهنِيًّا، خَوفًا أو عاطِفَةً، فُضولاً شَديدًا أو فَرحَةً غامِرَةً. إنَّ رُدودَ الأفعالِ الصَّوتيَّةَ هذهِ هيَ جُزءٌ مِن التَّعبيرِ البَشَريِّ عن العَواطِفِ، وقَد بَيَّنَ دارْوِن Darwin[30] وغيرُهُ أنَّها بِذلكَ تَتَوَفَّرُ على قِيمَةِ بَقاءٍ أو أنَّها في أقَلِّ تَقديرٍ هيَ أنفُسها آثارٌ لِتلكَ القِيَم. وكُلُّ مَن يَكونُ على اتِّصالٍ بِالرُّضَّعِ وبِالأطفالِ الصِّغارِ يَعلَمُ أنَّهُم يُعَبِّرونَ مِن غيرِ أدْنَى لَبْسٍ عن أمزِجَتِهِم، وعواطِفِهِم، وحاجاتِهِم، ورَغَباتِهِم. وإذا ما وَجَّهْنا اهتِمامَنا الآنَ إلى تَفَوُّهاتِ الأطفالِ الرُّضَّعِ التي مِن هذا

(30) تشارلز روبَرت دارون (1809-1882م). عالِمُ تأريخٍ طبيعيٌّ بريطانيٌّ. اكتسبَ شهرتَهُ بوصفِهِ واضِعًا لِنظريَّةِ التطوُّرِ التي تنصُّ على أنَّ جميعَ المخلوقاتِ الحيَّةِ على مَرِّ العصورِ تنحدرُ من أسلافٍ مشتركةٍ. واقترحَ نظريَّةً تتضمَّنُ أنَّ هذهِ الأنماطَ المتفرِّعةَ من عمليَّةِ التطوُّرِ ناجمةٌ عن عمليَّةٍ وصَفَها بالانتِقاءِ (الانتِخابِ) الطبيعيِّ، وكذلك الصراعُ من أجلِ البَقاءِ له التأثيرُ نفسُهُ الذي لِلاختيارِ الصناعيِّ الذي يُسهِمُ في التكاثرِ الانتقائيِّ للكائناتِ الحيَّةِ. أهمُّ مؤلَّفاتِهِ الذي شرحَ فيهِ نظريَّتَهُ كتابُهُ (أصلُ الأنواع) الذي نشرَهُ سنةَ 1859. [المُترجِم]

النَّمَطِ أَمكَننا أن نَقولَ إنَّ كلَّ صَوتٍ منها تَعبيرٌ عن حالَةٍ عاطِفيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ؛ وإنَّ لَهُ عندَ النّاسِ المُحيطينَ دَلالَةً مُعَيَّنَةً؛ وإنَّهُ مُرتَبِطٌ بِالحالِ الخارجيَّةِ المُحيطَةِ بِنِظامِ الطِّفلِ والمُشَكِّلَةِ لَهُ- وهيَ الحالُ التي تَجعَلُ الطِّفلَ جائعًا أو خائفًا أو مَسرورًا أو مُهتَمًّا.

وكُلُّ ذلكَ يَصْدُقُ على الأصواتِ غيرِ الإفصاحِيَّةِ التي يُطلِقُها الطِّفْلُ الرَّضيعُ، كالقَرقَرَةِ، والعَويلِ، والصُّراخِ، والصِّياحِ، والبُكاءِ. ويَعقُبُ ذلكَ بَعدَ حينٍ تَفَوُّهاتٌ غيرُ إفصاحِيَّةٍ، وأَوَّلُ ذلكَ مَقاطِعُ- غو *gu*، وما *ma*، وبا *ba*، وما إليها- تُرَدَّدُ لا على التَّعيينِ، معَ أَصواتٍ أُخرَى مُختَلِطَةٍ بِها ومُبْهِمَةٍ لَها. وهذهِ الأصواتُ تَعمَلُ بِطَريقَةٍ مُناظِرَةٍ على التَّعبيرِ عن حالاتٍ نَفسِيَّةٍ عُضويَّةٍ مُعَيَّنَةٍ وعلى تَصريفِ شَيءٍ مِن طاقَةِ الطِّفلِ. إنَّها عَلامَةُ صِحَّةٍ وشَكلٌ مِن أَشكالِ [318] التَّمرينِ الذي لا غِنَى عنهُ. إنَّ إطلاقَ الأصواتِ في المَرحَلَتَيْنِ المُبَكِّرَةِ والمُتأخِّرَةِ مِن التَّطوُّرِ اللفظيِّ يُمَثِّلُ إحدَى فَعّاليّاتِ الطِّفلِ الرَّئيسَةِ المُلِحَّةِ والانفِعاليَّةِ، وهذا ما تَعرِفُهُ كُلُّ والِدَةٍ مِن التَّجارِبِ السّارَّةِ وغيرِ السّارَّةِ على حَدٍّ سَواءٍ!

كيفَ يُمكِنُنا تَصَوُّرُ تَشكيلِ المَعنَى في هذهِ المَراحِلِ المُبَكِّرَةِ؟ هُنا، في هذهِ المُقارَبَةِ المُختلِفةِ شَيئًا مّا، تُطِلُّ النَّظرَةُ البراغماتيَّةُ لِلُّغَةِ بِرأسِها مَرَّةً أُخرَى. فالطِّفلُ يَتَصَرَّفُ مِن خِلالِ الصَّوتِ في هذهِ المَرحَلَة، وهوَ يتصرَّفُ بِطريقَةٍ تَكونُ مُعَدَّلَةً على وَفقِ الحالِ الخارجيَّةِ، وعلى وَفقِ الحالةِ الذِّهنيَّةِ لِلطِّفلِ، وتَكونُ مَفهومَةً كذلكَ لِلبالِغينَ المُحيطِينَ بِهِ. وبِذلكَ تَكونُ دَلالَةُ الصَّوتِ، ومَعنَى التَّفَوُّهِ هُنا مُطابِقَيْنِ لِلاستِجابَةِ الفَعّالَةِ لِما في البيئةِ ولِلتَّعبيرِ الطَّبيعيِّ عن العَواطِفِ. ويُستَمَدُّ مَعنَى مِثلِ هذا الصَّوتِ مِن أَحَدِ أَقدَمِ أشكالِ الفَعّاليَّةِ البَشَريَّةِ وأكثَرِها أهمِّيَّةً.

وحينَ تَبدَأُ الحالةُ الإفصاحِيَّةُ لِلصَّوتِ يَتطوَّرُ عَقلُ الطِّفلُ بِطريقَةٍ مُوازِيَةٍ ويُصبِحُ مُهتَمًّا بِعَزلِ الأشياءِ عن مُحيطِها، وإنْ كانَتْ أكثَرُ العناصِرِ صِلَةً، التي لَها ارتِباطٌ بِطَعامِ الطِّفلِ وراحتِهِ، قَد أُفرِدَتْ سَلَفًا. وفي الوقتِ نَفسِهِ يُصبِحُ الطِّفلُ واعِيًا لِلأصواتِ التي يُصدِرُها البالِغونَ والأطفالُ الآخرونَ في الجِوارِ، ويُطَوِّرُ مَيْلاً إلى مُحاكاتِها. إنَّ وُجودَ الوَسَطِ الاجتِماعيِّ المُحيطِ بِالطِّفلِ عامِلٌ ذو أهمِّيَّةٍ

بايولوجيَّةٍ أَساسيَّةٍ في تَنشِئَةِ الصِّغارِ وهوَ كذلكَ عُنصُرٌ لا غِنَى عنهُ في تَكوينِ الكَلامِ. وبِذلكَ سرعانَ ما يَجِدُ الطِّفلُ الذي يَبدَأُ بِنُطْقِ مَقاطِعَ مُعَيَّنَةٍ هذهِ المَقاطِعَ تتردَّدُ على أفواهِ البالِغينَ، بِما يُمَهِّدُ الطَّريقَ لِنُطقٍ أَوضَحَ وأكثَرَ إبانَةً.

وسَيكونُ مِمّا يُثيرُ الاهتِمامَ كَثيرًا الوقوفُ على احتِمالِ حِيازَةِ الأَصواتِ المَنطوقَةِ المُبَكِّرَةِ مَعنًى 'طَبيعِيًّا' ومَدى ذلكَ، أي مَعنًى مُستَنِدًا إلى صِلَةٍ طَبيعِيَّةٍ بينَ الصَّوتِ والمَوضوعِ. والحَقيقَةُ الوَحيدَةُ ذاتُ الصِّلَةِ هُنا ناجِمَةٌ عن مَلحوظَةٍ شَخصِيَّةٍ. فقد لَحِظْتُ عندَ مُتابَعَتي لِطِفلَيْنِ أَنَّهُ في مَرحَلَةِ بَدْءِ تَكوينِ المَقاطِعِ المُتَمايِزَةِ يَظهَرُ الصَّوتُ المُكَرَّرُ ما، ما، ما،... حينَ يَكونُ الطِّفلُ غيرَ راضٍ عُمومًا، وحينَ تَكونُ ثَمَّةَ حاجَةٌ أَساسيَّةٌ لَم تُلَبَّ أو ثَمَّةَ مَصدَرُ إزعاجٍ عامٌّ يَغُمُّهُ. فالصَّوتُ يَجذِبُ المَوضوعَ الأَهَمَّ في مُحيطِهِ، أي الأُمَّ، وبِظُهورِها تُشفَى الحالَةُ الذِّهنِيَّةُ المُؤلِمَةُ. فهَل يُمكِنُ أن يَكونَ دُخولُ الصَّوتِ ماما... تَمامًا في مَرحَلَةِ بَدْءِ الكَلامِ الإفصاحِيِّ- بِدَلالتِهِ العاطفيَّةِ [319] وقُدرتِهِ على استِحضارِ الأُمِّ لِلنَّجدَةِ- هوَ ما وَلَّدَ في عَدَدٍ كَبيرٍ مِن لُغاتِ البَشَرِ الجَذرَ ما *ma* لِكَلمةِ *mother*[31]؟

وكَيفَما يَكُنْ ذلكَ، وسَواءٌ أكانَ اكتِسابُ الطِّفلِ بَعضَ مُفرَداتِهِ المُبَكِّرَةِ بِعَمليَّةٍ عَفوِيَّةٍ أَم جاءَتْهُ كُلُّها مِن الخارِجِ، فالطَّريقَةُ التي تُستَعمَلُ بِها المُفرَداتُ الأُولَى لِلكَلامِ الإفصاحِيِّ هيَ النُّقطَةُ المُثيرَةُ لِلاهتِمامِ حَقًّا التي لَها صِلَةٌ بِنا فيما نَحنُ بِصَدَدِهِ.

إنَّ الكلماتِ الأُولَى- ماما، أَو دادا، أَو بابا، والتَّعبيراتِ الدّالَّةَ على طَعامٍ، أَو شَرابٍ، أَو أَلعابٍ، أَو حَيَواناتٍ مُعَيَّنَةٍ- لا تُحاكَى وإنَّما تُستَعمَلُ

(31) إنَّ التَّناظُرَ بينَ الأصواتِ الطَّبيعيَّةِ المُبَكِّرَةِ وأقرَبِ تَعبيراتِ النَّسَبِ أمرٌ مَشهورٌ.(cf. Westermarck, *History of Human Marriage*, Vol. I., pp. 242-245). وإنِّي لأَرَى هُنا، زِيادَةً على ذلكَ، أنَّ النَّغمةَ العاطفيَّةَ الطَّبيعيَّةَ لأحَدِ تلكَ الأصواتِ، وهوَ ما ma، ودَلالتَهُ على الأُمِّ، تتسبَّبانِ في ظُهورِها مُكَوِّنَتَيْنِ بِذلكَ مِن خِلالِ عمليَّةٍ طَبيعيَّةٍ مَعنَى نَمَطِ ماما mama مِن الكَلماتِ. والرَّأيُ المُعتادُ هوَ أنَّ البالِغِينَ هُم مَن يُضفِي المَعنَى عليها على نَحوٍ مُصطَنَعٍ، وأنَّهُ "لا شَكَّ في أنَّ التَّعبيراتِ التي مَصدَرُها ثَرثَرَةُ الأطفالِ الرُّضَّعِ قَد انتَقاها الأشخاصُ الرّاشِدونَ وثَبَّتوا استِعمالَها" (Westermarck, *loc. Cit.*, p. 245).

لِلوَصفِ، أو التَّسمِيَةِ، أو التَّعيينِ. فَهذهِ الكَلِماتُ المُبَكِّرَةُ، شأنُها شأنُ ما سَبَقَها مِن تَعبيراتٍ عن المَشاعِرِ غيرِ إفصاحِيَّةٍ، تَأتي لِتُستَعمَلَ بِتأثيرِ ضَغطِ أحوالٍ مُؤلِمَةٍ أو عَواطِفَ جَيّاشَةٍ حينَ يَصرُخُ الطِّفلُ طَلَبًا لِوالِدَتِهِ أو يُسعَدُ لِرُؤيتِها، حينَ يُثيرُ الضَّجيجَ ابتِغاءَ الطَّعامِ أو يُرَدِّدُ جَذَلاً أو استِثارَةً اسمَ لُعبَةٍ يُؤثِرُها في مُحيطِهِ. هُنا تُصبِحُ الكلمةُ بِمنزلةِ رَدِّ الفِعلِ الدّالِّ، المُعَدَّلِ على وَفقِ ما تَقتَضيهِ الحالُ، والمُعَبِّرِ عن الحالَةِ الدّاخليَّةِ، والمَفهومِ لَدَى الوَسَطِ البَشَريِّ.

ولِهذِهِ الحَقيقَةِ الأخيرَةِ مَجموعَةٌ أُخرَى مِن النَّتائجِ المُهِمَّةِ جِدًّا. فالطِّفلُ البَشَرِيُّ، بِضَعفِهِ في نَفسِهِ وعَدَمِ قُدرتِهِ على مُقاوَمَةِ صُعوباتِ حَياتِهِ المُبَكِّرَةِ وأخطارِها، مُزَوَّدٌ بِتنظيماتِ عِنايَةٍ ومُساعَدَةٍ مُتَكامِلَةٍ جِدًّا، ناجِمَةٍ عَن المَحَبَّةِ الغَريزيَّةِ لِلأُمِّ، والأَبِ أيضًا لكِنْ بِدَرَجَةٍ أَقَلَّ. فَالطِّفلُ يُمارِسُ فِعلَهُ في العالَمِ المُحيطِ بِهِ مِن خِلالِ الأَبَوَيْنِ اللذَيْنِ يَعودُ فيُمارِسُ فِعلَهُ فيهِما مَدفوعًا بِما يُغريهِ، بِالإغراءِ اللفظيِّ بِصورَةٍ رَئيسَةٍ. فَحينَ يُثيرُ الطِّفلُ ضَجَّةً طَلَبًا لِشَخصٍ مّا، يُنادِيهِ فَيَظهَرُ أمامَهُ. وحينَ يُريدُ طَعامًا أو شَيئًا مّا أو حينَ يَرغَبُ في إزالَةِ شَيءٍ أو ترتيبٍ غيرِ مُريحٍ، ليسَ لَهُ مِن وَسيلَةٍ غيرِ الصَّخَبِ، وقَد ثَبَتَ لَدَى الطِّفلِ أنَّ هذهِ الوَسيلَةَ العَمَليَّةَ ناجِعَةٌ جِدًّا.

لِذلكَ لَم تَكُنِ الكَلِماتُ تُمَثِّلُ لِلطِّفلِ مُجَرَّدَ وَسيلَةٍ لِلتَّعبيرِ بَل كانَتْ ضُروبًا عمليَّةً ناجِعَةً. فالنُّطقُ بِاسْمِ شَخصٍ مّا عالِيًا بِصَوتٍ مُثيرٍ لِلشَّفَقَةِ لَهُ القُدرَةُ على تَحويلِ هذا الشَّخصِ إلى الحالَةِ المادِّيَّةِ. ويَنبَغي أن يُنادَى على الطَّعامِ، فما يَكونُ مِنهُ إلّا أن يَظهَرَ- في مُعظَمِ الحالاتِ. وهكذا لا بُدَّ لِلتَّجرِبَةِ الطُّفوليَّةِ مِن أن تُخَلِّفَ في ذِهنِ الطِّفلِ انطِباعًا عَميقًا بِأنَّ لِلاسمِ سُلطَةً على الشَّخصِ أو الشَّيءِ الذي يَدُلُّ عليهِ. [320]

وهكذا نَجِدُ أنَّ التَّنظيمَ الأساسيَّ بايولوجيًّا لِلجِنسِ البَشَريِّ يَجعَلُ الكَلِماتِ المُبَكِّرَةَ النُّطقِ التي يُطلِقُها الأطفالُ تُوَلِّدُ الأثَرَ عَيْنَهُ الذي تَعنيهِ هذهِ الكَلماتُ. فالطِّفلُ يَنظُرُ إلى الكَلِماتِ بِوَصفِها قُوَى فَعّالَةً، فهيَ تَمنَحُهُ سَيطَرَةً أساسيَّةً على الواقِعِ، وتُزَوِّدُهُ بِالوَسيلَةِ المُؤَثِّرَةِ الوَحيدَةِ لِتَحريكِ الأشياءِ الأُخرَى، وجَذبِها،

ورَدِّها، ولإحداثِ تَغييراتٍ في كُلِّ ما لَهُ صِلَةٌ بِهِ. ولا شَكَّ في أنَّ ما تَقَدَّمَ ليسَ وَصفًا لوِجهاتِ نظرٍ واعِيَةٍ لِلطِّفلِ بِشأنِ اللغةِ، لكِنَّهُ المَوقِفُ المُتَضَمَّنُ في سُلوكِهِ.

وبِمُتابَعَةِ الطَّريقَةِ التي يُستَعمَلُ بِها الكَلامُ في المَرحَلَةِ المُتأَخِّرَةِ مِن الطُّفولَةِ نَجِدُ مَرَّةً أُخرَى أنَّ كُلَّ شَيءٍ يُعَزِّزُ هذهِ العَلاقَةَ البراغماتيَّةَ بِالمَعنَى. فالكَلِماتُ تَعْنِي، في كُلِّ ما يَمُرُّ بِهِ الطِّفلُ مِن تَجارِبَ، بِالقَدرِ الذي تكونُ بِهِ فاعِلَةً لا بِالقَدرِ الذي تَجعَلُ بِهِ الطِّفلَ يَفهَمُ أو يُدرِكُ إدراكًا واعِيًا. إنَّ لاستِمتاعِهِ بِاستِعمالِ الكَلماتِ وبِالتَّعبيرِ عن نَفسِهِ في تَكرارٍ مُتواصِلٍ، أو بِالتَّسَلِّي بِكَلِمَةٍ مّا، صِلَةً بِمَوضوعِنا بِالقَدرِ الذي يَكشِفُ بِهِ عن الطَّبيعَةِ الفَعّالَةِ لِلاستِعمالِ اللُّغويِّ المُبَكِّرِ. وسَيَكونُ مِن الخَطَإِ أن يُقالَ إنَّ هذا الاستِعمالَ العابِثَ لِلكَلِماتِ 'لا مَعْنَى لَهُ.' لا شَكَّ في أَنَّهُ مُجَرَّدٌ مِن أيِّ غَرَضٍ فِكرِيٍّ، لكِنَّهُ يَتوفَّرُ، دَومًا، على قِيمَةٍ عاطِفيَّةٍ، وهوَ أَحَدُ النَّشاطاتِ المُفَضَّلَةِ لَدَى الطِّفلِ؛ إذ يُقارِبُ بِهِ هذا الشَّخصَ أو الشَّيءَ أو ذاكَ مِمّا هوَ مَوجودٌ في بيئَتِهِ. فَحينَ يَحتَفِي الطِّفلُ بِالشَّخصِ أو الحَيَوانِ القَريبِ، أو بِنَوعٍ مِن أنواعِ الطَّعامِ أو اللُّعَبِ، بِوابِلٍ مِن تَكراراتِ الاسمِ، يُؤَسِّسُ بِذلكَ صِلَةَ حُبٍّ أو كُرْهٍ بينَهُ وبينَ ذلكَ الشَّيءِ. وعلى مَرِّ الزَّمَنِ، حَتَّى بُلوغِ سِنٍّ مُتَقَدِّمَةٍ إلى حَدٍّ مّا، يَظَلُّ اسمُ الشَّيءِ الوَسيلَةَ الأُولَى التي يُرجَعُ إليها، مِن أجلِ أن يَجذِبَ هذا الشَّيءَ، أي يَجعَلَهُ يَظهَرُ بِصُورَةٍ مادِّيَّةٍ.

فإذا ما نَقَلْنا هذا التَّحليلَ إلى أحوالِ الجِنسِ البَشَريِّ البِدائيِّ فَمِن المُفَضَّلِ ألّا نَنغَمِسَ في التَّأَمُّلاتِ الخَياليَّةِ أساسًا، التي هيَ، لِخياليَّتِها، غيرُ مُجدِيَةٍ، والتي تتعلَّقُ بِبِداياتِ الكَلامِ، بَل الأَوْلَى أن نُلقِيَ نَظرَةً على الاستِعمالاتِ الاعتِيادِيَّةِ لِلُّغَةِ التي نُشاهِدُها بِمُتابَعاتِنا التَّجريبيَّةِ لِلهَمَجيِّينَ. فإذا ما عُدْنا إلى الأَمثِلَةِ المذكورةِ آنِفًا المُتعلِّقَةِ بِمَجموعةِ مَحلِّيِّينَ مُنهَمِكِينَ في مُطارَدَةٍ عَمَليَّةٍ رَأَيْناهُم يَستَعمِلونَ كَلِماتٍ عُرْفِيَّةً، وأسماءَ أَدَواتٍ، وفَعّالِيّاتٍ مُمَيَّزَةً. فَالكَلِمَةُ، التي تُمَثِّلُ أداةً مُهِمَّةً، تُستَعمَلُ على نَحوٍ عَمَلِيٍّ، وليسَ الغَرَضُ مِن هذا الاستِعمالِ التَّعليقَ على طَبيعَتِها أو التَّأَمُّلَ في خَواصِّها، بَل الغَرَضُ مِنهُ جَعلُها تَظهَرُ، أو تَسليمُها إلى المُتَكلِّمِ، أو تَوجيهُ شَخصٍ آخَرَ إلى استِعمالِها المُلائِمِ.

ومَعنَى الشَّيءِ تُكَوِّنُهُ تَجارِبُ استِعمالاتِهِ الفَعّالَةِ ولا يُوَلِّدُهُ التَّأمُّلُ الذِّهنيُّ. وهكَذا حينَ يَتعلَّمُ الهَمَجيُّ فَهمَ مَعنَى كَلِمَةٍ مّا لا تُنَفَّذُ هذهِ العَمليَّةُ بِالشُّروحِ، ولا بِسِلسِلَةِ أَفعالٍ إدراكِيَّةٍ واعِيَةٍ، بَل بِتَعلُّمِ مُعالَجَتِهِ. فالذي تَعنِيهِ الكَلِمَةُ لِلمَحَلِّيِّ هوَ الاستِعمالُ المُلائمُ لِلشَّيءِ الذي تَرْمِزُ إليهِ، تَمامًا كما تَعني الأداةُ شَيْئًا مّا [321] حينَ تُمكِنُ مُعالَجَتُها ولا تَعنِي أيَّ شَيءٍ حينَ لا تتوافَرُ تَجرِبَةٌ فَعّالَةٌ لَها. كذلكَ الحالُ معَ الفِعلِ، أي الكَلِمَةِ المُتَضَمِّنَةِ عَمَلاً، فهوَ يتلقَّى مَعناهُ مِن خِلالِ مُشارَكَةٍ فَعّالَةٍ في هذا العَمَلِ. فالكَلمةُ تُستَعمَلُ حينَ يَكونُ في وُسعِها أن تُوَلِّدَ عَمَلاً، لا أن تَصِفَهُ، ولا أن تُتَرْجِمَ الأفكارَ، وهذهِ الحالَةُ الأخيرَةُ هيَ أقَلُّ ما يُتَصَوَّرُ مِن استِعمالاتِها. فلِلكَلِمَةِ، مِن أجلِ ذلكَ، في نَفسِها سُلطَةٌ، فهِيَ وَسيلَةٌ لِلإتيانِ بالأشياءِ، وهيَ مُعالَجَةٌ لِلأفعالِ والأشياءِ، لا تَعريفٌ لَها.

ونَعودُ مَرَّةً أُخرَى لِنَقولَ إنَّ النَّظرَةَ إلى المَعنَى نَفسَها تَنشَأُ مِن الاستِعمالاتِ الفَعّالَةِ لِلكَلامِ فيما بَينَنا، حتَّى بينَ مَن يَستَطيعُ مِنّا في مُناسَباتٍ نادِرَةٍ نِسبيًّا استِعمالَ اللغَةِ بِطَريقَةٍ عِلميَّةٍ أو أَدبيَّةٍ. وإنَّ ما لا يُحْصَى مِن الخُرافاتِ- الخَوفِ اللاأدريِّ مِن التَّجديفِ أو، في الأقَلِّ، النُّفورِ مِن استِعمالِهِ، والكُرهِ الفَعّالِ لِلُّغَةِ الماجِنَةِ، وسُلطَةِ الحَلِفِ- لَيُظهِرُ أنَّ ما يَربِطُ الرَّمزَ بِالمَرجِعِ في الاستِعمالِ الاعتِياديِّ لِلكَلِماتِ أكثَرُ مِن أن يَكونَ مُجرَّدَ مُواضَعَةٍ.

إنَّ الأُمِّيِّينَ في التَّجمُّعاتِ المُتَحَضِّرَةِ يُعامِلونَ الكَلِماتِ ويَنظُرونَ إليها على نَحوٍ يَقرُبُ كَثيرًا مِن مُعامَلَةِ الهَمَجيِّينَ لَها ونَظرَتِهِم إليها، أي أَنَّها مُتَّصِلَةٌ بِالواقِعِ العَمَليِّ اتِّصالاً وَثيقًا. وإنَّ الطَّريقَةَ التي يُقَوِّمونَ بِها المَعرِفَةَ اللفظِيَّةَ- الأَمثالَ، والأَقوالَ، والأَخبارَ في أيّامِنا هذهِ- بِوَصفِها الشَّكلَ الوَحيدَ لِلحِكمةِ، لَتُضفي صِفَةً مُحَدَّدَةً على هذا المَوقِفِ الضِّمنِيِّ. لكِنِّي في هذا المَوضِعِ أنتَهِكُ حُرمَةَ مَجالٍ قَد أُوضِحَ وحُلِّلَ بِما فيهِ الكِفايَةُ في هذا الكِتابِ.

والحَقُّ أنَّ كُلَّ مَن قَرَأَ الفُصولَ المُتألِّقَةَ لَدَى أوغدِن ورِتشاردز وأدرَكَ المَنحَى الرَّئيسَ لِحِجاجِهِما لا بُدَّ أن يَكونَ قَد سَبَقَ أَن اتَّضَحَ لَهُ أَنَّ كُلَّ ما جاءَ في هذا القِسمِ مِن بَحثِنا هوَ نَوعٌ مِن الهامِشِ لِمَتْنِ حِجاجِهِما الأساسيِّ في أنَّ

المَوقِفَ البِدائيَّ السِّحرِيَّ مِن الكَلِماتِ مَسؤُولٌ عَن قَدْرٍ كبيرٍ مِن عُمومِ استِعمالِ اللغَةِ أو إساءَةِ استِعمالِها، ولا سِيَّما في الفِكرِ الفَلسَفيِّ. وقَد مَكَّنَتْنا المادَّةُ الغَنِيَّةُ في الفَصلِ الثّاني، وفي سِحرِ الكَلِمَةِ، وأَمثِلَةُ الفُصولِ السّابِعِ والثّامِنِ والتّاسِعِ، والكَثيرُ مِمّا يَعرِضُ ذِكْرُهُ، مِن مَعرِفَةِ كَم هيَ عَميقَةٌ جُذورُ اعتِقادِ أنَّ لِلكَلِمةِ سُلطَةً مّا على الشَّيءِ، وأنَّها تُشاطِرُ الشَّيءَ طَبيعَتَهُ، وأنَّها، بِما تَشتَمِلُ عليهِ مِن 'مَعْنًى'، مُجانِسَةٌ لِلشَّيءِ أو حتَّى مُماثِلَةٌ لَهُ أو لِنَمَطِهِ النّموذَجِيِّ.

ولكِن ما مَصدَرُ هذا المَوقِفِ السِّحرِيِّ؟ هُنا تَمُدُّ دِراسَةُ المَراحِلِ المُبَكِّرَةِ لِلكَلامِ يَدَ العَونِ، ويُمكِنُ أن يَكونَ عالِمُ الأعراقِ ذا نَفعٍ لِفَيلَسوفِ اللغَةِ. وقَد وَقَفْنا على هذا المَوقِفِ المُفرِطِ السِّحرِيَّةِ مِن الكَلِماتِ عندَ دِراسَةِ التَّكوينِ الطُّفوليِّ لِلمَعنَى والمَعنَى عندَ الهَمَجِيِّينَ والأُمِّيِّينَ. فالكَلِمَةُ تَمنَحُ السُّلطَةَ، وتُمَكِّنُ الشَّخصَ مِن مُمارَسَةِ تأثيرٍ في الشَّيءِ أو الفِعلِ. ويَنبَثِقُ مَعنَى الكَلِمَةِ مِن رَحِمِ الإلفِ، مِن رَحِمِ القُدرَةِ على الاستِعمالِ، مِن رَحِمِ مَلَكَةِ الصَّخَبِ المُباشِرِ [322] كما في حالَةِ الطِّفلِ، أو التَّوجيهِ العَمَليِّ كما في حالَةِ الرَّجُلِ البِدائيِّ. فالكَلِمَةُ تُستَعمَلُ دَومًا بِارتِباطٍ مُباشِرٍ فَعّالٍ بالواقِعِ الذي تَعْنِيهِ. والكَلِمَةُ تُمارِسُ فِعلاً في الشَّيءِ، والشَّيءُ يُطلِقُ الكَلِمةَ في الذِّهنِ البَشَريِّ. والحَقُّ أنَّ هذا يَكادُ يَكونُ جَوهَرَ النَّظرِيَّةِ التي تُشَكِّلُ أَساسَ استِعمالِ السِّحرِ اللفظيِّ. ونَحنُ نَجِدُ هذهِ النَّظرِيَّةَ مُرتَكِزَةً على تَجارِبَ سايكولوجيَّةٍ واقِعِيَّةٍ في الأشكالِ البِدائيَّةِ لِلكَلامِ.

وقَبلَ بَدْءِ بَواكيرِ الفِكْرِ الفَلسفيِّ تَنطَلِقُ المُمارَسَةُ والنَّظرِيَّةُ لِلسِّحرِ الذي يَغدُو مَوقِفُ الإنسانِ فيهِ مِن الكَلِماتِ راسِخًا ومُشَكَّلاً مِن خِلالِ مَعرِفَةٍ وعُرفٍ خاصَّيْنِ. وإنَّ أفضَلَ فَهمٍ نَحوزُهُ لِهذهِ النَّظرَةِ التَّقليديَّةِ المُطَوَّرَةِ لِلسُّلطَةِ الخَفِيَّةِ التي تُمارِسُها الكَلِماتُ المُلائمَةُ على أشياءَ مُعَيَّنَةٍ إنَّما يَكونُ مِن خِلالِ دِراسَةِ المُمارَساتِ السِّحرِيَّةِ الفِعليَّةِ والسِّحرِ اللفظيِّ وكذلكَ بِوَساطَةِ تَحليلِ أفكارِ الهَمَجِيِّينَ بشأنِ السِّحرِ. وبِاختِصارٍ، يُمكِنُ القَولُ إنَّ هذهِ الدِّراسَةَ إنَّما تُعَزِّزُ تَحليلَنا النَّظريَّ في هذا القِسمِ مِن البَحثِ. ونَحنُ نَجِدُ في الصِّيَغِ السِّحرِيَّةِ غَلَبَةً لِلكَلِماتِ التي تَنطَوي على شَدٍّ عاطِفِيٍّ عالٍ، ولِلتَّعبيراتِ العُرْفِيَّةِ، ولِلصِّيَغِ الأمرِيَّةِ القَويَّةِ، ولِلأفعالِ التي تُعَبِّرُ عن الأمَلِ، والنَّجاحِ، والإنجازِ. ولا بُدَّ أنَّ هذا القَدْرَ كافٍ في هذا

المَوضِعِ، ونُحيلُ القارِئَ الذي يَرغَبُ في الحُصولِ على المَزيدِ مِن المَعلوماتِ على الفَصلِ الثّاني مِن هذا الكِتابِ، وعلى الفُصولِ التي تتطرَّقُ إلى 'السِّحرِ' وإلى 'سُلطَةِ الكَلِماتِ في السِّحرِ' في كِتابي الذي اقتَبَسْتُ مِنهُ آنِفًا[32].

وقَد يَكونُ مِن المُهِمِّ تأويلُ نتائجِ تَحليلِنا لِلمَراحلِ المُبَكِّرَةِ جِدًّا لِلمَعنَى في ضَوْءِ المُخَطَّطِ الذي تُمَثِّلُ فيهِ العَلاقاتُ بينَ الرَّمزِ، والفِعلِ الفِكريِّ، والمَرجِعِ بِمُثَلَّثٍ في مُستَهَلِّ الفَصلِ الأَوَّلِ مِن هذا الكِتابِ. ويَفِي هذا المُخطَّطُ بِتَمثيلِ العَلاقاتِ المَذكورَةِ آنِفًا في الاستِعمالاتِ المُطَوَّرَةِ لِلكَلام. وما يُمَيِّزُ هذا المُثَلَّثَ أنَّ القاعِدَةَ المُؤَشَّرَةَ بِخَطٍّ مُنَقَّطٍ تُمَثِّلُ العَلاقَةَ المَنسوبَةَ التي تَكونُ بينَ الرَّمزِ والشَّيءِ الذي يُحيلُ عليهِ، أي مَرجِعِهِ كما يُسَمِّيهِ الكاتِبانِ. وفي وَظائفِ الكَلامِ المُطَوَّرَةِ، كالتي تُستَعمَلُ، أو يَجِبُ أن تُستَعمَلَ في أقَلِّ تَقديرٍ، في الفِكْرِ الفَلسَفيِّ أو اللغَةِ العِلمِيَّةِ (وإنَّ اهتِمامَ الكاتِبَيْنِ الأَساسيَّ في هذا الكِتابِ مُوَجَّهٌ صَوبَ هذهِ الوَظائفِ) لا يُجَسِّرُ خَليجَ المَعنَى، على ما يُمكِنُ أن يُسَمَّى بِهِ، إلّا الفِعلُ الفِكريُّ- الخَطُّ المائلُ لِضِلعَي المُثَلَّثِ.

فَلْنُحاوِلْ أن نُمَثِّلَ بِمُخَطَّطاتٍ مُشابِهَةٍ مَراحِلَ المَعنَى التي هِيَ أكثَرُ تَبكيرًا. ففي المَرحلَةِ الأُولَى، حينَ يَكونُ التَّفَوُّهُ مُجَرَّدَ رَدِّ فِعلٍ صَوتِيٍّ مُعَبِّرٍ ودالٍّ ومُرتَبِطٍ بِالحالِ، لكِنَّهُ لا يَنطَوي على أيِّ فِعلٍ فِكرِيٍّ، يُقَلَّصُ المُثَلَّثُ إلى دَرَجَةِ الاقتِصارِ على قاعِدَتِهِ التي تَرْمِزُ إلى الارتِباطِ الواقِعِيِّ- الذي [323] يَكونُ بينَ رَدِّ الفِعلِ الصَّوتيِّ والحالِ. وليسَ في الإمكانِ بَعْدُ أن يُصطَلَحَ على أَوَّلِهِما بِالرَّمزِ ولا على ثانيهِما بِالمَرجِعِ.

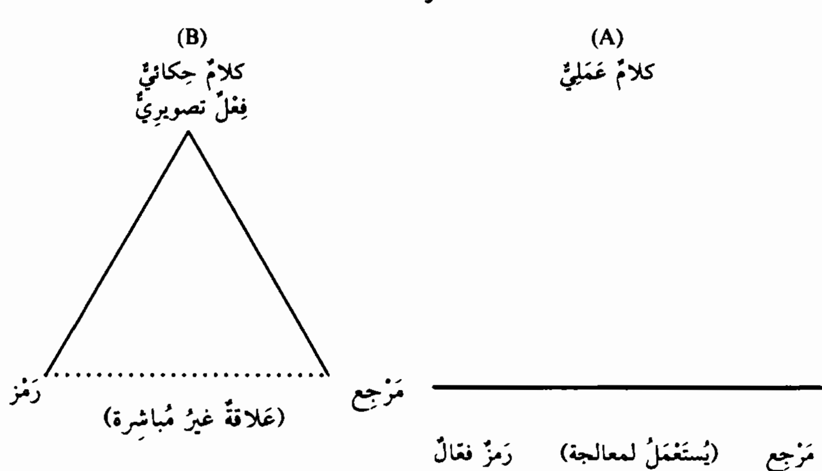
إنَّ بِداياتِ الكَلامِ الإفصاحيِّ، حينَ تَبدَأُ المَراجِعُ بِالتَّوازي معَ ظُهورِهِ بِالانبِثاقِ مِن الحالِ، ما زالَت تُمَثِّلُ بِخَطٍّ مَوصولٍ مُنفَرِدٍ ذي عَلاقَةٍ تَبادُليَّةٍ فِعليَّةٍ (المَرحَلَةُ الثّانيَةُ). ولَمّا يُصْبِح الصَّوتُ في هذهِ المرحلةِ رَمزًا واقِعيًّا بَعْدُ؛ لِعَدَمِ استِعمالِهِ بِمَعزِلٍ عن مَرجِعِهِ.

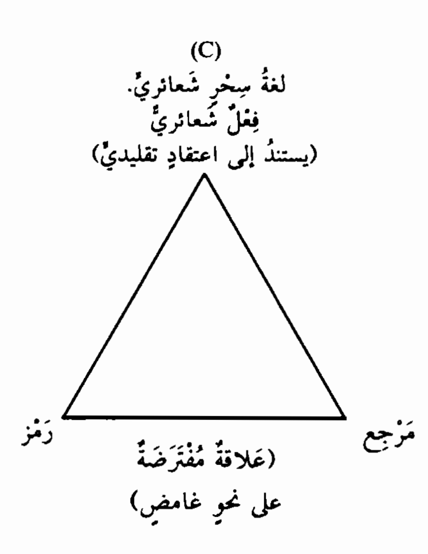
---

(32) *Argonauts of the Western Pacific.*

المَرحلةُ الأُولى			المَرحلةُ الثانية		
حال	(مرتبطٌ مباشرةً بـ)	ردُّ فعلٍ صوتيٍّ	مَرْجع	(ذو عَلاقةٍ تَرابُطِيَّةٍ بـ)	صوتٌ فعّالٌ (شِبْهُ إفصاحِيٍّ أو إفصاحِيٌّ)

المَرحلةُ الثالثة





وعلَينا أن نُفرِّقَ في المَرحَلَةِ الثّالثَةِ بينَ الاستِعمالاتِ الأساسيَّةِ الثَّلاثَةِ لِلُّغَةِ: العَمَليِّ، والحِكائيِّ، والشَّعائرِيِّ. والمُخَطَّطُ المَعروضُ يُقَدِّمُ إيضاحًا وافِيًا لِكُلٍّ منها، ذلكَ المُخَطَّطُ الذي يَجِبُ أن يُتَناوَلَ بِرَبطِهِ بِتَحليلِنا السّابِقِ. ويُمَثِّلُ مُثَلَّثُ أوغدِن ورِتشاردز المَرحلَةَ الأخيرَةَ مِن مَراحِلِ اللغَةِ المُطَوَّرَةِ، وإنَّ عَلاقَتَها النُّشوئيَّةَ بِما سَبَقَها مِن مَراحِلَ مُتَواضِعَةٍ قَد تُفَسِّرُ شَيئًا مِن بِنيَتِها التَّكوينيَّةِ. فنَقولُ بادِئَ ذي بَدْءٍ: إنَّ إمكانَ تَوسيعِ مُخَطَّطِ الكاتِبَيْنِ أو العَودَةِ بِهِ إلى الاستِعمالاتِ الكَلاميَّةِ البِدائيَّةِ يُقَدِّمُ دَليلاً إضافيًّا على صِحَّتِهِ وكِفايَتِهِ. ثُمَّ إنَّ الطَّبيعَةَ المُصمَتَةَ لِجَميعِ قَواعِدِ مُثَلَّثاتِنا تَقريبًا تُفَسِّرُ سببَ إظهارِ الخَطِّ المُنَقَّطِ في المُخَطَّطِ الأخيرِ هذا التَّأبِّيَ وسَبَبَ مُطاوَعَتِهِ لِما لَحِقَهُ مِن نَقْصٍ. وإنَّ الحَيَويَّةَ المُفرِطَةَ لِلمَوقِفِ السِّحريِّ مِن الكَلماتِ يُوضِحُها ما أنجَزْناهُ مِمّا نَعُدُّهُ هامِشًا لِنَظريَّةِ الكِتابِ هذهِ، ولَم يَكُنْ ذلكَ بِالاقتِصارِ على الإحالَةِ على الاستِعمالاتِ البِدائيَّةِ لِلُّغَةِ عندَ الهَمَجيِّينَ ومِن غيرِ شَكٍّ عندَ إنسانِ ما قَبلَ التَّأريخِ، بَل بِمَصاديقِها الدّائمَةِ كذلكَ في الاستِعمالاتِ الطُّفوليَّةِ لِلُّغَةِ وفي الآليَّةِ عَينِها التي يَكتَسِبُ بِها المَعنَى كُلُّ كائنٍ مُفرَدٍ.

وثَمَّةَ لَوازِمُ أُخرَى يُمكِنُ استِنتاجُها مِن نَظريَّتِنا بِشَأنِ المَعنَى البِدائيِّ. فبِذلكَ يُمكِنُ أن نَجِدَ فيها تَعزيزًا إضافيًّا لِتَحليلِ الكاتِبَيْنِ لِلتَّعريفِ. فَمِن الواضِحِ أَنَّهُما مُحِقّانِ في ذَهابِهِما إلى أنَّ التَّعريفَ 'اللفظِيَّ' و'الواقِعِيَّ' يَجِبُ أن يَصْدُقا في نِهايَةِ المَطافِ على شَيءٍ واحِدٍ، وأنَّ جَعلَ مِثلِ هذا التَّمييزِ المُصطَنَعِ تَمييزًا جَوهَريًّا قَد خَلَقَ مُشكِلَةً زائفَةً. فالمَعنَى، على ما قَد رَأَينا، لا يَكتَسِبُهُ الشَّخصُ البِدائيُّ بِتَأمُّلِ الأشياءِ، أو بِتَحليلِ الأحداثِ، ولكِنْ بِالاطِّلاعِ العَمَليِّ والفَعّالِ على الأحوالِ ذَواتِ الصِّلَةِ. فالمَعرِفَةُ الواقِعيَّةُ لِلكَلِمةِ إنَّما تُكتَسَبُ بِمُمارَسَةِ استِعمالِها المُلائمِ في حالٍ مُعَيَّنَةٍ. فالكَلِمَةُ، شَأنُها شَأنُ أَيَّةِ أداةٍ يَبتَكِرُها الإنسانُ، لا تَغدُو ذاتَ دَلالَةٍ إلّا بَعدَ استِعمالِها واستِعمالِها على نَحوٍ مُلائمٍ في كُلِّ أنواعِ الظُّروفِ. فَبِذلكَ لا يُمكِنُ أن يَكونَ ثَمَّةَ تَعريفٌ لِكَلِمَةٍ مِن غيرِ وُجودِ

الواقِعِ الذي تَعْنِي حُضورَهُ. ونَقولُ مَرَّةً أُخرَى إنَّهُ ما دامَ الرَّمزُ الدّالُّ ضَروريًّا لِلإنسانِ مِن أجلِ أن يَعزِلَ فِقرَةً مِن فِقراتِ الواقِعِ ويُمسِكَ بِها فليسَ ثَمَّةَ تَعريفٌ لِلشَّيءِ مِن غيرِ تَعريفٍ لِلكَلِمةِ في الوَقتِ نَفسِهِ. فليسَ التَّعريفُ في أكثَرِ أشكالِهِ بِدائيَّةً وجَوهَرِيَّةً سِوَى رَدِّ فِعلٍ صَوتِيٍّ، أو كَلمةٍ مَنطوقَةٍ مَوصولَةٍ بِجانِبٍ مِن حالٍ ذاتِ صِلَةٍ بِوَساطَةِ فِعْلٍ إنسانيٍّ مُلائم. ولا شَكَّ في أنَّ تَعريفَ التَّعريفِ هذا لا يُحيلُ على نَمَطِ الاستِعمالِ اللُّغَويِّ نَفسِهِ الذي بَحَثَهُ الكاتِبانِ في هذا الكِتابِ. على أنَّ مِمّا يُثيرُ الاهتِمامَ أن نَجِدَ استِنتاجاتِهِما التي تَوَصَّلا إليها بِدِراسَةِ [325] أنماطٍ أرقَى مِن الكَلامِ تَصْدُقُ على حَقلِ الاستِعمالاتِ البِدائيَّةِ لِلكَلماتِ.

(6)

قَد حاوَلْتُ في أثناءِ هذهِ المَقالَةِ تَضييقَ مَجالِ كُلِّ المُشكِلاتِ اللُّغَويَّةِ المَدروسَةِ. فبادِئَ ذي بَدْءٍ واجَهْنا مَبدَأَ احتِياجِ دِراسَةِ اللُّغَةِ إلى مِهادٍ إثنوغرافيٍّ لِلثَّقافَةِ العامَّةِ، وأنَّ اللِسانيّاتِ لا بُدَّ أن تَكونَ قِسْمًا مِن عِلمٍ عامٍّ لِلثَّقافَةِ، والحَقُّ أنَّها القِسمُ الأهَمُّ. ثُمَّ كانَتْ ثَمَّةَ مُحاوَلَةٌ لإظهارِ أنَّ هذا الاستِنتاجَ العامَّ يَقودُنا إلى وِجهاتِ نَظَرٍ أكثَرَ تَحديدًا بِشَأنِ طَبيعَةِ اللُّغَةِ، تَوَصَّلْنا فيها إلى تَصَوُّرٍ لِلكَلامِ البَشَريِّ بِوَصفِهِ ضَرْبًا مِن العَمَلِ لا إمضاءً لِلفِكرِ. وشَرَعْنا بَعدَ ذلكَ نَبحَثُ في الأُصولِ والأشكالِ المُبَكِّرَةِ لِلمَعنَى، بِالطَّريقَةِ التي لا بُدَّ أن يَكونَ الإنسانُ البِدائيُّ قَد مارَسَهُ بِها. وقَد فَسَّرَ لَنا هذا جُذورَ المَوقِفِ السِّحرِيِّ لِلإنسانِ مِن الكَلِماتِ وأظهَرَها. وهكَذا تَنَقَّلْنا عبرَ سِلسِلَةٍ مِن الاستِنتاجاتِ، كُلُّ واحِدٍ مِنها أكثَرُ واقعيَّةً وتَحديدًا مِن سابِقِهِ.

وأوَدُّ الآنَ أن أُعَرِّجَ على مُشكِلَةٍ أُخرَى، هيَ بَعْدُ أكثَرُ تَحديدًا وواقعيَّةً مِن الأُخرَياتِ، وهيَ مُشكِلَةُ بِنيَةِ اللُّغَةِ.

فَلِكُلِّ لِسانٍ بَشَريٍّ بِنيَةٌ مُحدَّدَةٌ تَخُصُّهُ. ولَدَيْنا أنماطٌ مِن اللُّغاتِ العازِلَةِ isolating[33]، والإلصاقيَّةِ agglutinative[34]، والتَّأليفِيَّةِ polysynthetic[35]، والاندِماجيَّةِ incorporating[36]، والتَّصريفيَّةِ inflectional[37]. ويُمكِنُ في كُلٍّ مِنها أي يُتَوَصَّلَ إلى العَمَلِ والتَّعبيرِ اللُّغَويَّيْنِ طبقًا لِقَواعِدَ مُعَيَّنَةٍ، مُصَنَّفَةٍ على وَفقِ فَصائلَ مُعَيَّنَةٍ. هذهِ المَنظومَةُ مِن القَواعِدِ البِنائيَّةِ باستِثناءاتِها وشُذوذاتِها، والتَّصنيفاتِ المُختلِفَةِ التي يُمكِنُ أن تُدرَجَ عَناصِرُ اللغَةِ في ضِمنِها، هيَ ما نُسَمِّيهِ 'البِنْيَةَ النَّحوِيَّةَ' لِلُّغَةِ.

وعادَةً مَا تُعَدُّ اللُّغَةُ، وإن لَم يَكُنْ ذلكَ صَحيحًا على ما قَد تَبَيَّنَ لَنا، 'التَّعبيرَ عن الفِكرِ بِوَساطَةِ الأصواتِ الكَلامِيَّةِ.' لِذلكَ كانَت الفِكرَةُ الواضِحَةُ هيَ أنَّ البِنيَةَ اللُّغَويَّةَ نَتيجَةٌ لِقَواعِدِ الفِكرِ الإنسانيِّ، وأنَّ 'كُلَّ مَقولَةٍ نَحويَّةٍ هيَ تَعبيرٌ

(33) اللغةُ العازِلةُ: هي اللغةُ التي تتكوَّنُ كلُّ كلمةٍ فيها مِن مورفيم واحدٍ. وهذا يَعني أنَّ جذورَ كلماتِها لا تَقبَلُ الزَّوائدَ. وعازِليَّةُ اللغةِ مسألةُ درجةٍ؛ فثمَّةَ لُغاتٌ عازِلةٌ تمامًا؛ وأُخرَى عازِلةٌ نَوعًا مَا؛ وأُخرَى غيرُ عازِلةٍ البَتَّةَ. ومِن اللغاتِ العاليةِ العازليَّةِ الصِّينيَّةُ والفِيِتْناميَّةُ. وتُسَمَّى اللغةُ العازِلَةُ أيضًا لُغَةً تَحليليَّةً analytic language. [المُترجِم]

(34) اللغةُ الإلصاقيَّةُ: هيَ اللغةُ التي غالِبًا مَا تتكوَّنُ كلُّ كلمةٍ فيها مِن عدَّةِ مورفاتٍ، وكلُّ مورفٍ واحدٍ يُمَثِّلُ مورفيمًا واحدًا. وتمتازُ هذه اللغةُ باستِعمالِ السَّوابقِ واللواحقِ وإضافتِها إلى الجذرِ لِتغييرِ المعنَى. ومِن أمثلتِها اللُغاتُ الأوراليَّةُ Uralic languages كالهنغاريَّةِ والفِنلنديَّةِ. وتُقابِلُها اللغةُ العازِلَةُ. [المُترجِم]

(35) اللغةُ التَّأليفيَّةُ: هيَ اللغةُ التي تتَّحِدُ فيها عدَّةُ كلماتٍ لِتُكَوِّنَ كلمةً واحدةً تُمثِّلُ جملةً كاملةً أو فِكرةً كاملةً. وتُسَمَّى أيضًا لُغَةَ الكلماتِ الجُمْلِيَّةِ holophrastic language أو اللُّغَةَ غيرَ المُفرَداتيَّةِ wordless language. وتوجَدُ أمثِلَةٌ لَها في أستراليا، وسيبيريا، وبابوا غينيا الجديدةِ. [المُترجِم]

(36) اللغةُ الاندِماجِيَّةُ: هيَ اللغةُ التي تُظهِرُ العَلاقاتِ النَّحويَّةَ بِوَساطةِ المورفيماتِ المُقيَّدَةِ، وتندَمِجُ فيها الكلماتُ لِتَكَوِّنَ كلمةً واحدةً تُؤدِّي معنَى الجُملةِ. وتُوجَدُ أمثِلةٌ لها في أمريكا الشَّماليَّةِ، وسيبيريا، وأستراليا الشَّماليَّةِ. [المُترجِم]

(37) اللغةُ التَّصريفيَّةُ: هيَ اللغةُ التي تَنقَسِمُ كلماتُها إلى مورفيماتٍ بِطريقةٍ اعتِباطيَّةٍ غيرِ ثابتةٍ كاللاتينيَّةِ واليونانيَّةِ، كما أنَّ العَلاقاتِ النَّحوِيَّةَ بينَ كلماتِ الجُملةِ تُظهِرُها حركاتٌ إعرابيَّةٌ. [المُترجِم]

عن مَقُولَةٍ مَنطِقِيَّةٍ مُعَيَّنَةٍ، أو يَجِبُ أن تَكونَ كَذلكَ.' لكِن مِمّا لا يَستَدعي كَبيرَ إعمالِ فِكرٍ إدراكُ أنَّ نشدانَ مِثلِ هذا التَّناغُمِ الاقتِرانيِّ التّامِّ بينَ اللُّغَةِ والمَنطِقِ مُتَفائلٌ جِدًّا، وأنَّهُما على المُستَوى الفِعلِيِّ 'كَثيرًا مّا يَنحَرِفُ أَحَدُهُما عَن الآخَرِ'، وأَنَّهُما في الواقِعِ في خِصامٍ مُستَمِرٍّ وأنَّ اللُّغَةَ كَثيرًا مّا تُسيءُ مُعامَلَةَ المَنطِقِ، حتّى يَصِلَ الأَمرُ بينَهُما إلى أَن تَهجُرَهُ'[38]. [326]

بِذلكَ نَكونُ في مُواجَهَةِ مَأزِقٍ: فإمّا أن تَكونَ مَقُولاتُ النَّحوِ مُستَمَدَّةً مِن قَوانينِ الفِكرِ، فحينَئذٍ سَنَحارُ في تَفسيرِ سَبَبِ سُوءِ تَكَيُّفِ أَحَدِهِما معَ الآخَرِ؛ فإنْ كانَتِ اللغَةُ قَد تَرَعرَعَتْ في كَنَفِ الفِكرِ فَلِمَ لَم يَطبَعْها بِطابِعِهِ إلّا قَليلاً؟ وإمّا أن نتَّجِهَ إلى الطَّرَفِ الآخَرِ مِن المَأزِقِ كما يَفعَلُ مُعظَمُ النَّحويِّينَ مِن أَجلِ التَّخلُّصِ مِن هذهِ الصُّعوباتِ. إنَّهُم يُشيحونَ بِوُجوهِهِم بِعَجرَفَةٍ عن العِنَبِ الحامِضِ[39] لأَيِّ سَبرٍ أَو فَلسَفَةٍ لِلُّغَةِ أعمَقَ، ويَكتَفُونَ بتأكيدِ أنَّ النَّحوَ يَحكُمُ بِمُقتَضَى حَقِّهِ الذّاتيِّ بِمِنَّةٍ إلهيَّةٍ مِن غيرِ شَكٍّ، وأنَّ إمبراطوريَّةَ النَّحوِ يَجِبُ أن تَظَلَّ في عُزلَتِها الرّائعَةِ، بِوَصفِها سُلطَةً قاهِرَةً على الفِكرِ، والتَّرتيبِ، والنِّظامِ، والفَهْمِ المشتَرَكِ.

وكِلتا الوِجهَتَيْنِ- أي التي تَلجَأُ إلى المَنطِقِ مُلتَمِسَةً منهُ العَونَ، والأُخرَى التي تُعَبِّرُ عن حُكمٍ استِقلاليٍّ لِلنَّحوِ- مُخالِفَةٌ لِلحَقائقِ على حَدٍّ سَواءٍ ومَصيرُها الرَّفضُ. وليسَ مِن قِلَّةِ السُّخفِ أن نَفتَرِضَ، معَ النَّحويِّ المُتَصَلِّبِ، أنَّ النَّحوَ قَد تَرَعرَعَ بِوَصفِهِ عُشبَةً بَرِّيَّةً ضارَّةً بِقُدُراتٍ بَشَرِيَّةٍ لا لِغَرَضٍ البَتَّةَ سِوَى وُجودِهِ الذّاتيِّ. إنَّ التَّوَلُّدَ التِّلقائيَّ لِلفَظاعاتِ التي لا مَعنَى لَها في دِماغِ الإنسانِ لا يُقِرُّها عِلمُ النَّفسِ بِسُهولَةٍ- إلّا إذا كانَ الدِّماغُ يَعودُ، مِن غيرِ شَكٍّ، إلى مُتَخَصِّصٍ عِلميٍّ مُتَصَلِّبٍ. وسَواءٌ أتَعَلَّقَ الأمرُ بِمَبادِئَ عامَّةٍ أم بِنَزَعاتٍ مُنفَرِدَةٍ، فَإنَّ جَميعَ اللُّغاتِ

---

(38) اقتَبَسْتُ هذا الكَلامَ مِن كِتابِ سويت H. Sweet الذي عُنوانُهُ (**مُقَدِّمَةٌ لِتاريخِ اللُّغَة** *Introduction to the History of Language*) لأنَّ هذا الكاتِبَ أَحَدُ أَذكَى مُفَكِّرِي اللُّغَةِ. ومَعَ ذلكَ حتَّى هُوَ لا يَجِدُ بَديلاً؛ فإمّا قانونُ المَنطِقِ وإمّا الفَوضَى في اللُّغَةِ.

(39) يُشيرُ هذا التَّعبيرُ، الذي يَرجِعُ أصلُهُ إلى قِصَّةِ إيسوب (الثَّعلَبُ والعِنَب)، إلى التَّظاهُرِ الزّائفِ بِعدمِ الاهتِمامِ بِأمرٍ مّا يُريدُهُ الإنسانُ لكِنَّهُ لا يستطيعُ الحصولَ عليهِ. [المُترجِم]

تُبدِي قَدْرًا مِن الاتِّفاقِ الجَوهَرِيِّ في البِنْيَةِ ووَسيلَةِ التَّعبيرِ النَّحويِّ، على الرَّغم مِن الاختِلافاتِ الكَبيرَةِ بينَها. ومِن دَواعي مُنافاةِ العَقلِ والجُبنِ أن يُتَخَلَّى مُنذُ البَدءِ عن أيِّ بَحثٍ عن قُوًى أعمَقَ لا بُدَّ أن تَكونَ قَد وَلَّدَتْ هذهِ السِّماتِ الإنسانيَّةَ العامَّةَ المُشتَركةَ لِلُّغَةِ. وقَد رَأينا في نَظريَّتِنا لِلمَعنى أنَّ اللغَةَ تُؤَدِّي أغراضًا مُحَدَّدَةً، وأنَّها تَعمَلُ بِوَصفِها أداةً تُستَعمَلُ وتُكَيَّفُ لِهَدَفٍ مُحَدَّدٍ. هذا التَّكَيُّفُ، أي هذا الارتِباطُ بينَ اللغَةِ والاستِعمالاتِ التي وُضِعَتْ مِن أجلِها، قَد خَلَّفَ آثارَهُ في البِنْيَةِ اللُّغَويَّةِ. لكِن لا شَكَّ في أنَّ مِن الواضِحِ أنَّا يَجِبُ ألّا نَنظُرَ في دائرةِ التَّفكيرِ المَنطقيِّ والتَّأمُّلِ الفَلسَفيِّ مُلتَمِسينَ فيهِما ما يُسَلِّطُ الضَّوءَ على هَدَفِ الكَلامِ الإنسانيِّ المُبَكِّرِ وأغراضِهِ، فبِذلكَ تَكونُ هذهِ النَّظرَةُ المَنطِقِيَّةُ الخالِصَةُ لِلُّغَةِ مُساوِيَةً لِلنَّظرَةِ النَّحويَّةِ الخالِصَةِ في عَدَمِ النَّفعِ.

وثَمَّةَ فَصائلُ واقِعِيَّةٌ تَرتَكِزُ عليها التَّقسيماتُ النَّحويَّةُ وتُفْرَغُ في قَوالِبَ على وَفقِها. لكِنَّ هذهِ الفَصائلَ الواقِعيَّةَ لَيسَتْ مُستَمَدَّةً مِن أيِّ نِظامٍ فَلسَفيٍّ بِدائيٍّ مَبْنِيٍّ على التَّفَكُّرِ في العالَمِ المُحيطِ وعلى التَّأمُّلاتِ الفَجَّةِ، نَحوِ ما يَعزُوهُ بَعضُ الأنثروبولوجِيِّينَ إلى الرَّجُلِ البِدائيِّ. فَاللُّغَةُ بِبِنْيَتِها تَعكِسُ الفَصائلَ الواقِعيَّةَ المُستَمَدَّةَ مِن المَواقِفِ العَمليَّةِ لِلطِّفلِ ولِلرَّجُلِ البِدائيِّ أو الطَّبيعيِّ [327] مِن العالَمِ المُحيطِ. وإنَّ الفَصائلَ النَّحويَّةَ بِكُلِّ خُصوصيّاتِها، واستِثناءاتِها، وما فيها مِن حالاتِ تَمَرُّدٍ مُتَطاوِلَةٍ تَحتاجُ إلى الضَّبطِ، هيَ انعِكاسٌ لِلنَّظرَةِ العَمَليَّةِ غيرِ النِّظامِيَّةِ المُؤَقَّتَةِ التي يَفرِضُها كِفاحُ الإنسانِ مِن أجلِ الوُجودِ بِالمَعنَى الأوسَعِ لِلكَلِمةِ. ومِن غيرِ المُجدي أن نَأمُلَ أن نَغدُوَ قادِرِينَ على أن نُعيدَ بِدِقَّةٍ بِناءَ هذهِ الرُّؤيَةِ البراغماتيَّةِ لِلعالَمِ التي لَدَى البِدائيِّ، أو الهَمَجيِّ، أو الطِّفلِ، أو أن نَتَتَبَّعَ بِالتَّفصيلِ ارتِباطَها بِالنَّحوِ. لكِنْ بِالإمكانِ الوُقوفُ على خُطوطٍ عَريضَةٍ وتَوافُقٍ عامٍّ، وإنَّ إدراكَ هذا لَيُحَرِّرُنا، على أيَّةِ حالٍ، مِن أغلالِ المَنطقِ ومِن عُقمِ النَّحوِ.

ولا شَكَّ في أنَّهُ كُلَّما كانَتِ اللغَةُ أكثرَ تَطوُّرًا وتَأريخُها الارتِقائيُّ أطولَ كانَتْ أكثَرَ تَجسيدًا لِلأطوارِ البِنائيَّةِ. وإنَّ المَراحِلَ المُتَعدِّدَةَ لِلثَّقافَةِ- الهَمَجيَّةَ، فالبَربَريَّةَ، فَشِبْهَ المُتَحضِّرَةِ، فالمُتَحَضِّرَةَ؛ والأنماطَ المُختَلِفَةَ لِلاستِعمالِ-

البراغماتيَّ، فالحِكائيَّ، فالشَّعائريَّ، فالمَدرَسيَّ، فالدِّينيَّ- لا بُدَّ لِكُلٍّ مِنها أَن يَترُكَ بَصمَتَهُ. وحتَّى التَّهذيبُ النِّهائيُّ الضَّخمُ، لكِنْ غيرُ الكُلِّيِّ النُّفوذِ، لِلاستِعمالِ العِلمِيِّ لَن يَكونَ في مَقدورِهِ أَن يَمحُوَ البَصَماتِ السّابِقَةَ. فالخُصوصيّاتُ البِنائيَّةُ المُتَعدِّدَةُ لِلُّغَةِ المُتَحضِّرَةِ الحديثَةِ تَحمِلُ، على ما بَيَّنَ أوغدِن ورِتشاردز، كَمِّيَّةً مَيتةً هائلةً مِمّا هوَ مِن قَبيلِ الاستِعمالِ المُماتِ، مِن الخُرافَةِ السِّحريَّةِ والغُموضِ الصُّوفيِّ.

فَإن صَحَّتْ نَظريَّتُنا فإنَّ الخُطوطَ العامَّةَ الأساسيَّةَ لِلنَّحوِ مَرَدُّها الرَّئيسُ إلى أَكثَرِ استِعمالاتِ اللُّغَةِ بِدائيَّةً. ذلكَ بِأنَّ هذهِ الاستِعمالاتِ تُهَيمِنُ على مَرحَلَةِ النَّشأَةِ وعلى أكثَرِ المَراحلِ مُرونَةً في التَّطوُّرِ اللُّغَويِّ، وتُخَلِّفُ أَقوَى البَصَماتِ. والفَصائلُ النَّحوِيَّةُ المُستَمَدَّةُ مِن الاستِعمالِ البِدائيِّ تكونُ مُتَماثِلَةً كذلكَ في جَميعِ لُغاتِ البَشَرِ، على الرَّغمِ مِن الاختِلافاتِ السَّطحِيَّةِ المُتَعدِّدَةِ. ذلكَ بِأنَّ الطَّبيعَةَ الجَوهريَّةَ لِلإنسانِ واحِدَةٌ وأنَّ الاستِعمالاتِ البِدائيَّةَ لِلُّغَةِ مُتَماثِلَةٌ. ولا يَقتَصِرُ الأَمرُ على ذلكَ، بَل قَد رأَينا أنَّ الوَظيفَةَ البراغماتيَّةَ لِلُّغَةِ مُتَواصِلَةٌ في أَرقَى مَراحِلِها، ولا سِيَّما مِن خِلالِ الاستِعمالِ الطُّفوليِّ ومِن خِلالِ انغِماسِ البالِغِينَ في أَنماطٍ ساذجةٍ مِن التَّفكيرِ والتَّحدُّثِ. فتأَثُّرُ اللغةِ بِالفِكرِ قَليلٌ، لكِنَّ الفِكرَ، على عَكسِ ذلكَ، كَثيرُ التَّأَثُّرِ بِها؛ لاحتِياجِهِ أن يَستَعيرَ مِن النَّشاطِ أَداتَهُ، أعني اللُّغَةَ. خُلاصَةُ الأَمرِ أَنَّ في استِطاعتِنا أن نَقولَ إنَّ الفَصائلَ النَّحويَّةَ الأَساسيَّةَ التي تَشمَلُ جَميعَ لُغاتِ البَشَرِ لا يُمكِنُ فَهمُها إلّا بالإحالةِ على النَّظرَةِ البراغماتيَّةِ لِلإنسانِ البِدائيِّ، وإنَّ الفَصائلَ البِدائيَّةَ البَربَريَّةَ لا بُدَّ أَن تَكونَ قَد خَلَّفَتْ، مِن خِلالِ استِعمالِ اللُّغَةِ، آثارًا عَميقَةً في الفَلسَفاتِ البَشَريَّةِ المُتأَخِّرَةِ.

ولا بُدَّ مِن التَّمثيلِ لِذلكَ بِتَحليلٍ مُفَصَّلٍ لِواحِدَةٍ، في الأَقَلِّ، مِن مُشكِلاتِ النَّحوِ المَلموسَةِ، وقَد وَقَعَ اختِياري على مُشكِلَةِ أَقسامِ الكَلامِ لِئَلّا يَطولَ بِنا البَحثُ. فعلَيْنا [328]، لِذلكَ، الرُّجوعُ إلى مَرحلةٍ مِن تَطوُّرِ الأَفرادِ أَو البَشَريَّةِ لَم يَكُنِ الإنسانُ فيها مُغرَمًا بِالتَّفَكُّرِ والتَّأَمُّلِ، ولا مَعْنِيًّا بِتَصنيفِ الظَّواهِرِ لِلأَغراضِ المَعرفِيَّةِ إلّا بالقَدرِ الذي تَدخُلُ بِهِ في تَعامُلاتِهِ المُباشِرَةِ معَ أَحوالِهِ المَعيشِيَّةِ. فلا بُدَّ لِلطِّفلِ، ولِلإنسانِ البِدائيِّ، ولِلفَردِ البَسيطِ مِن استِعمالِ اللُّغَةِ بِوَصفِها وَسيلَةً لا

غِنَى عنها لِلتَّأثيرِ في البيئةِ الاجتِماعيَّةِ. وفي كُلِّ ذلكَ يَتَطوَّرُ مَوقِفٌ مُحَدَّدٌ جِدًّا، نَمَطٌ مِن لَحْظِ فِقراتٍ مُعَيَّنَةٍ في الواقِعِ، مِن عَزلِها خارِجًا ثُمَّ رَبطِها- مَوقِفٌ لا يُؤَطِّرُهُ أيُّ نِظامٍ فِكريٍّ، لكِن يُفصِحُ عنهُ السُّلوكُ، وتُجَسِّدُهُ في المُجتَمَعاتِ البِدائيَّةِ حُزمَةُ الإنجازاتِ الثَّقافيَّةِ التي تأتي اللُّغَةُ فيها أوَّلاً وفي المُقَدِّمَةِ.

وَلْنَبْدَأْ بِعَلاقَةِ الطِّفلِ ببيئتِهِ. ففي المَراحِلِ الأُولَى تَكونُ نَشاطاتُهُ وسُلوكُهُ مَحكومَةً بِاحتِياجاتِ الكائنِ الحَيِّ. فهوَ يَتَحرَّكُ بِتأثيرِ الجُوعِ والعَطَشِ، والرَّغبَةِ في الدِّفْءِ وفي نَظافَةٍ مُعَيَّنَةٍ، والأحوالِ المُلائمَةِ لِلرّاحَةِ والنَّومِ، والقَدْرِ الوافي مِن حُرِّيَّةِ الحَرَكَةِ، وأخيرُها لا آخِرُها الحاجَةُ إلى الصُّحبَةِ البَشريَّةِ، وإلى مُعامَلَةِ البالِغِينَ لَهُ. وفي مَرحلةٍ مُبَكِّرَةٍ جِدًّا لا يُبدِي الطِّفلُ رَدَّ فِعلٍ إلّا تجاهَ الأحوالِ العامَّةِ، بَل لا يَكادُ يُمَيِّزُ أقرَبَ الأشخاصِ الذينَ يَقومونَ على راحتِهِ ويُمِدُّونَهُ بِالطَّعامِ. لكِنَّ هذا لا يَدومُ طَويلاً. فَبَدْءًا حتَّى مِن الأسبوعَيْنِ الأَوَّلَيْنِ تَبدَأُ بَعضُ الظَّواهِرِ وبَعضُ الوحداتِ بِالظُّهورِ مِن وَسطِ البيئةِ العامَّةِ. فوُجوهُ البَشَرِ تَبدَأُ بِإثارَةِ اهتِمامٍ خاصٍّ- إذ يَلتَفِتُ الطِّفلُ مُبتَسِمًا ويُطلِقُ أصواتًا جَذِلَةً. ويَبدَأُ في تَمييزِ الأُمِّ أو المُمَرِّضَةِ شيئًا فَشَيئًا، كما كانَ قَد مَيَّزَ حتَّى قَبلَ ذلكَ مَوضوعاتِ الطَّعامِ أو ناقِلاتِهِ.

ولا رَيبَ في أنَّ التَّأثيرَ العاطِفِيَّ الأقوَى يُمارَسُ على الطِّفلِ مِن خِلالِ شَخصيَّةِ والدَتِهِ، وفِقراتِ الطَّعامِ تلكَ أو ناقِلاتِهِ. وكُلُّ مَن قَد تَشَرَّبَ بِمَبادِئِ فرويد يَشعُرُ بِمَيلٍ إلى البَحثِ في هذا المَوضِعِ عن صِلَةٍ مُباشِرَةٍ. ففي مَرحَلَةِ الصِّغَرِ عندَ البَشَرِ، كما هيَ الحالُ في أيِّ صِنفٍ مِن الثَّدْيِيّاتِ، يَربِطُ الطِّفلُ بِأُمِّهِ كُلَّ عَواطِفِهِ تجاهَ الطَّعامِ. فهِيَ عِندَهُ، قَبلَ كُلِّ شيءٍ، وِعاءُ تَغذِيَةٍ. لِذلكَ إن أتَى الغِذاءُ مِن مَصدَرٍ آخَرَ- ويَجِبُ أن نتذَكَّرَ أنَّ أطفالَ الهَمَجِيِّينَ يُغَذَّوْنَ ما يُمضَغُ مِن طَعامٍ نَباتِيٍّ مُنذُ الوِلادَة تَقريبًا، زِيادَةً على الرَّضاعَةِ- فإنَّ المَشاعِرَ الرَّقيقَةَ التي يَستَجيبُ الطِّفلُ بِمُقتَضاها لِرِعايَةِ الأُمِّ قَد تَمتَدُّ إلى وَسائلِ إمدادٍ غِذائيٍّ أُخرَى. وإذا ما رَأى المَرْءُ مِنّا مَشاعِرَ الحُبِّ التي يُبديها طِفلٌ مُعاصِرٌ يُغَذَّى على زُجاجَةِ الحَليبِ تجاهَ زُجاجتِهِ، والمُلاطَفاتِ الرَّقيقَةَ والابتِساماتِ المُغرَمَةَ التي يَمنَحُها

إيّاها، تَبَدَّى لَهُ أَنَّ تَماثُلَ الاستِجابَةِ لِمُزَوِّداتِ الطَّعامِ الاصطِناعيَّةِ مِنها والطَّبيعيَّةِ يَبدو مُتَضَمِّنًا لِتَماثُلٍ في المَوقِفِ الذِّهنِيِّ لَدَى الطِّفلِ. فإنْ كانَ ذلكَ كذلكَ، نَكُنْ قَد اكتَسَبْنا ما يُبَصِّرُنا [329] بِعَمليَّةٍ مُبَكِّرَةٍ جِدًّا تتَمَثَّلُ بِشَخصَنَةِ الأشياءِ، وهيَ التي تُوَلِّدُ بِمُقتَضاها الأشياءُ ذاتُ الصِّلَةِ والمُهِمَّةُ في البيئةِ الاستِجابَةَ العاطفيَّةَ نَفسَها التي يُوَلِّدُها الأشخاصُ ذَوُو الصِّلَةِ. ومَهما يَبلُغْ صِدْقُ هذا العَرضِ المُتعلِّقِ بِالتَّماثُلِ المُباشِرِ فلا شَكَّ في وُجودِ شَبَهٍ كبيرٍ بينَ المَوقِفِ المُبَكِّرِ مِن أقرَبِ الأشخاصِ والمَوقِفِ المُبَكِّرِ مِن أقرَبِ الأشياءِ التي تُلَبِّي الحاجاتِ الغِذائيَّةَ.

وحينَ يَبدَأُ الطِّفلُ بِمُعالَجَةِ الأشياءِ، وباللعِبِ بِمَوجوداتِ مُحيطِهِ، يُمكِنُ أن تُلحَظَ سِمَةٌ مُثيرَةٌ لِلاهتِمامِ في سُلوكِهِ، مُرتَبِطَةٌ كذلكَ بِالمَيْلِ الغِذائيِّ الأساسيِّ لَدَى الطِّفلِ. فهُو يُحاوِلُ أَن يَضَعَ كُلَّ شَيءٍ في فَمِهِ. وهوَ، لِذلكَ، يَشُدُّ، ويُحاوِلُ أن يَحنِيَ الأشياءَ الطَّرِيَّةَ واللَدِنَةَ ويَطوِيَها، أو يُحاوِلُ أن يُفَكِّكَ أشياءَ صُلبَةً إلى أجزاءٍ. وفي العاجِلِ القَريبِ تُصبِحُ الأشياءُ المَعزولَةُ القابِلَةُ لِلتَّفكيكِ ذاتَ أهمِّيَّةٍ وقِيمَةٍ تَفوقانِ كَثيرًا الأهمِّيَّةَ والقِيمَةَ اللتَيْنِ تَحظَى بِهِما الأشياءُ التي ليسَ في الوُسعِ مُعالَجَتُها بِكُلِّيَّتِها. وبِبُلوغِ الطِّفلِ واستِطاعتِهِ تَحريكَ الأشياءِ بِحُرِّيَّةٍ أكبَرَ يَتَطوَّرُ هذا المَيلُ إلى العَزلِ والإفرادِ الفيزيائيِّ إلى أبعَدَ مِن ذلكَ. ويَكمُنُ هذا في عُمقِ المَيْلِ الإتلافيِّ المَشهورِ لَدَى الأطفالِ. وهذا الأمرُ مُثيرٌ لِلاهتِمامِ بِصَدَدِ ما نحنُ فيهِ؛ ذلكَ بِأَنَّهُ يُظهِرُ كَيفَ يَكونُ لِلمَلَكَةِ العَقليَّةِ التي تتعلَّقُ بإفرادِ العَوامِلِ البيئيَّةِ ذاتِ الصِّلَةِ- الأشخاصِ، والمَوضوعاتِ المُرتَبِطَةِ بِالتَّغذِيَةِ، والأشياءِ- ما يُناظِرُها في السُّلوكِ الجَسَدِيِّ لِلطِّفلِ. ومَرَّةً أُخرَى نَجِدُ هُنا في دِراسَةِ هذا التَّفصيلِ السُّلوكيِّ ما يُعَزِّزُ نَظرَتَنا البراغماتيَّةَ لِلتَّطوُّرِ العَقليِّ المُبَكِّرِ.

وفي الإمكانِ أيضًا أن نَقِفَ على مَيْلٍ إلى شَخصَنَةِ أشياءَ تُثيرُ اهتِمامًا خاصًّا. ولا أعنِي بِمُصطَلَحِ 'شَخصَنَة' هُنا أَيَّةَ نَظريَّةٍ أو وِجهَةِ نَظَرٍ ذاتِيَّةٍ لِلطِّفلِ. وإنَّما أعنِي، كما في حالَةِ أصنافِ الطَّعامِ، أنَّ في وُسعِنا أن نَلحَظَ لَدَيْهِ نَمَطًا مِن السُّلوكِ لا يُمَيِّزُ أصلاً الأشخاصَ مِن الأشياءِ. فالطِّفلُ يُحِبُّ بَعضَ لُعَبِهِ ويَكرَهُ بَعضَها، ويَغضَبُ مِنها إذا صَعُبَ عليهِ تَناوُلُها، وهوَ يُعانِقُها ويُقَبِّلُها ويُبدِي أماراتِ

الوُدِّ تجاهَها. ولا رَيبَ في أنَّ الأشخاصَ يَظهَرونَ أوَّلاً مِن حيثُ الزَّمَنُ وفي المَرتَبَةِ الأُولَى مِن حيثُ الأهمِّيَّةُ. ولكِنْ حتَّى هذا لا يَنجُمُ عنهُ إلّا أنَّ العَلاقَةَ بِهِم هيَ نَوعٌ مِن نَمَطٍ لِمَوقَفِ الطِّفلِ تجاهَ الأشياءِ.

وثَمَّةَ نُقطَةٌ مُهِمَّةٌ أُخرَى هيَ الاهتِمامُ الكَبيرُ بِالحَيَواناتِ. وأَستَطيعُ أن أُؤَكِّدَ مِمّا لَحِظْتُهُ شَخصيًا أنَّ الأطفالَ الذينَ يَبلُغونَ مِن العُمُرِ بِضعَةَ أشهُرٍ مِمَّن ليسَ لَدَيْهِم أيُّ اهتِمامٍ مُتَطاوِلٍ بِالأشياءِ غيرِ الحَيَّةِ يُحاكُونَ حَرَكاتِ الطّائرِ مُدَّةً مِن الزَّمَنِ. وكذلكَ كانَ اسمُهُ إحدَى الكَلِماتِ التي يَفهَمُها الطِّفلُ مُبَكِّرًا، ومِصداقُ ذلكَ بَحثُهُ عن الطّائرِ حينَ يُذكَرُ اسمُهُ. ومَعلومٌ مِقدارُ ما تَحظَى بِهِ الحَيَواناتُ مِن اهتِمامٍ في مَراحِلِ الطُّفولَةِ المُتأخِّرَةِ. ولِهذا الأمرِ أهمِّيَّتُهُ لَدَيْنا؛ ذلكَ بِأنَّ الحَيَوانَ ولا سِيَّما الطّائرُ بِحَرَكاتِهِ التِّلقائيَّةِ، وبِسُهولَةِ انعِتاقِهِ مِن مُحيطِهِ، وبِتَذكيرِهِ الأكيدِ [330] بِالأشخاصِ، يُمَثِّلُ مَوضوعًا مِثالِيًّا لإثارَةِ اهتِمامِ الطِّفلِ، استِنادًا إلى نظريَّتِنا.

ويَقِفُنا تَحليلُنا لِهَمَجيِّ الزَّمَنِ الحاضِرِ في عَلاقَتِهِ بِالبيئةِ على نَظيرٍ واضِحٍ لِلمَوقِفِ الذي وَصَفْناهُ قَبلَ قَليلٍ. فالعالَمُ الخارِجيُّ يُهِمُّهُ بِالقَدْرِ الذي يُثْمِرُ بِهِ أشياءَ نافِعَةً. ولا شَكَّ في أنَّ النَّفعَ يَنبَغي أن يُفهَمَ هُنا بِمَعناهُ الأوسَعِ، وأنَّهُ لا يَقتَصِرُ على ما يُمكِنُ أن يَلتَهِمَهُ الإنسانُ بِوَصفِهِ طَعامًا، ويَستَعمِلَهُ بِوَصفِهِ مَأْوَى وآلَةً، بَل يَتضَمَّنُ كُلَّ ما يُثيرُ فَعّاليّاتِهِ في اللَّعِبِ، والشَّعائرِ، والحَربِ، والإنتاجِ الفَنِّيِّ.

وجَميعُ هذهِ الأشياءِ الدّالَّةِ تَظهَرُ لِلهَمَجيِّ وحداتٍ مَعزولَةً مُفَكَّكَةً أمامَ خَلفِيَّةٍ غيرِ مُمَيَّزَةٍ. وحينَ كُنْتُ أتَحرَّكُ بِصُحبَةِ الهَمَجِيِّينَ في أيِّ وَسَطٍ طَبيعيٍّ- كالإبحارِ في البَحرِ، أوالمَشيِ على الشّاطِئِ أو في الغابَةِ، أو النَّظَرِ في السَّماءِ المُضاءَةِ بِالنُّجومِ- كَثيرًا مّا كانَ يُثيرُ انتِباهي مَيْلُهُم إلى عَزلِ الأشياءِ القَليلَةِ التي تُهِمُّهُم، ومُعامَلَتِهِم ما عَدَا ذلكَ على أنَّهُ خَلفِيَّةٌ لا غيرُ. فقد كانَ يَلفِتُ نَظَري في غابَةٍ نَبْتَةٌ أَو شَجَرَةٌ، لكِنْ حينَ السُّؤالِ عنها أُخبَرُ بِالقَولِ: 'آه، إنَّها مُجَرَّدُ "شُجَيْرَة".' فما لا يُؤَدِّي دَوْرًا في العُرفِ أو التَّغذِيَةِ مِن حَشَرَةٍ أو طائرٍ يُطرَدُ بِالقَولِ: *'Mauna*

'مُجَرَّدُ حَيَوانٍ طائرٍ.' لكِنْ إنْ كانَ الشَّيءُ، على عَكسِ ذلكَ، نافِعًا بِطَريقةٍ -wala' أو بأُخرَى اختِيرَ لَهُ اسمٌ، وقُدِّمَ تَعريفٌ تَفصيليٌّ باستِعمالاتِهِ وخَصائصِهِ، وبذلكَ يُفْرَدُ الشَّيءُ بِوُضوحٍ. والشَّيءُ نَفسُهُ يَحدُثُ معَ النُّجومِ، وسِماتِ المَنظَرِ الطَّبيعيِّ، والعُضويّاتِ، والأَسماكِ، والأصدافِ. وفي كلِّ مَكانٍ ثَمَّةَ مَيْلٌ إلى عَزْلِ ما يَتَّصِلُ بِعُرفِ الإنسانِ، أو شَعائرِهِ، أو نَفْعِهِ، وإلى جَعلِ كُلِّ ما عَداهُ كَوْمَةً غيرَ مُمَيَّزَةٍ. ولكِنْ حتَّى في ضِمنِ هذا المَيْلِ يُلحَظُ تَفضيلٌ لِلأَشياءِ الصَّغيرَةِ المَعزولَةِ السَّهلَةِ المُعالَجَةِ. وإنَّ اهتِمامَهُم بِالحَيَواناتِ أكبَرُ نِسبيًّا مِن اهتِمامِهِم بِالنَّباتاتِ؛ وبِالقِشْرِيّاتِ أكبَرُ منهُ بِالعُضْوِيّاتِ؛ وبِالحَشَراتِ الطّائرَةِ أكبَرُ مِنهُ بِالزّاحِفَةِ مِنها. فَما يَسْهُلُ عَزْلُهُ يَكونُ مُفَضَّلاً. وفي المَنظَرِ الطَّبيعيِّ كَثيرًا مّا يُختارُ لِلتَّفصيلاتِ الصَّغيرَةِ أسماءٌ ويُنهَجُ مَعها النَّهجُ نَفسُهُ، وتَكونُ مَثارَ الاهتِمامِ، في حينِ تَظَلُّ امتِداداتٌ واسِعَةٌ مِن الأَرضِ مِن غيرِ تَسمِيَةٍ ولا إفرادٍ.

ويُشَكِّلُ اهتِمامُ البِدائيِّ البالِغُ بِالحَيَواناتِ نَظيرًا لافِتًا لِلنَّظَرِ لِمَوقِفِ الطِّفلِ، وإنَّ الأَسبابَ السّايكولوجيَّةَ لِكِلَيْهِما مُتَشابِهَةٌ على ما أعتَقِدُ. وفي جَميعِ مَظاهِرِ الطَّوطَمِيَّةِ، وعِبادَةِ الحَيَوانِ، والتَّأثيراتِ الحَيَوانيَّةِ المُختلِفَةِ في ما هوَ بِدائيٌّ مِن تُراثٍ شَعبيٍّ، واعتِقاداتٍ، وشَعائرَ، يَجِدُ اهتِمامُ الهَمَجيِّ بالحَيَواناتِ لَهُ ما يُعَبِّرُ عنهُ.

فَلْنُعِدِ الآنَ تَثبيتَ طَبيعَةِ هذهِ الفَصيلَةِ العامَّةِ التي يَضَعُ فيها العَقلُ البِدائيُّ الأَشخاصَ، والحَيَواناتِ، والأَشياءَ. وهذهِ الفَصيلَةُ الفَجَّةُ الخَرقاءُ [331] غيرُ مُحَدَّدَةٍ، لكِن يُحَسُّ بِها بِقُوَّةٍ، ويُعَبَّرُ عنها جَيِّدًا في السُّلوكِ البَشَرِيِّ. وهيَ مَبْنِيَّةٌ على مَعاييرَ انتِقائيَّةٍ مِن النَّفْعِ البايولوجيِّ زِيادَةً على أغراضٍ وقِيَمٍ أُخرَى سايكولوجيَّةٍ واجتِماعيَّةٍ. وإنَّ المَوضِعَ المُمَيَّزَ الذي يَشغَلُهُ الأَشخاصُ فيها يُلَوِّنُها على نَحوٍ يَجعَلُ الأَشياءَ والحَيَواناتِ تَدخُلُ فيها بِصِفَةٍ تَشخيصِيَّةٍ. وكُلُّ فِقراتِ هذهِ الفَصيلَةِ تُفْرَدُ كذلكَ، وتُعزَلُ، وتُعامَلُ بِوَصفِها وحداتٍ. وتَعزِلُ النَّظرَةُ العَمَليَّةُ لِلرَّجُلِ البِدائيِّ فِصيلَةً مِن الأَشخاصِ والأَشياءِ المُشَخصَنَةِ خارجَ نِطاقِ الخَلفيَّةِ غيرِ المُمَيَّزَةِ. ويَتَّضِحُ على الفَورِ أنَّ هذهِ الفَصيلَةَ تُطابِقُ مَبدَئيًّا الجَوهَرَ- ولا سِيَّما

الجَوْهَرُ الأرسطيُّ Aristotelian *ousia*. لكِن لا شَكَّ في أَنَّها لا تدينُ بِشَيءٍ البَتَّةَ لأيِّ فِكْرٍ فَلسَفيٍّ مُتَقَدِّمٍ أو مُتأخِّرٍ. إنَّها الرَّحِمُ الفَجُّ الأخرَقُ الذي يُمكِنُ أن يُستَخرَجَ منهُ مُختلِفُ التَّصوُّراتِ عن الجَوهَرِ. والذينَ يُفَضِّلونَ التَّسمِياتِ العِلمِيَّةَ على البَسيطَةِ منها في وُسْعِهِم تَسْمِيَتُها الجَوهَرَ الأَوَّلِيَّ، أو *protousia*.

وقَد سَبَقَ أن رأَيْنا أَنَّ نُشوءَ الصَّوتِ الدّالِّ الإفصاحِيِّ يَأتي مُوازِيًا لِمَواقِفِ الطِّفلِ العَقليَّةِ المُبَكِّرَةِ، ورُبَّما لِمَواقِفِ الإنسانِ في المَراحِلِ الأُولَى مِن تَطَوُّرِهِ. وإنَّ فَصيلَةَ الجَوهَرِ الأَوَّلِيِّ الشَّديدَةَ الوُضوحِ في التَّوَجُّهِ العَقليِّ المُبَكِّرِ تَقتَضي وتَستَقبِلُ أَصواتًا إفصاحِيَّةً لِلدَّلالَةِ على مُختلِفِ فِقراتِها. وإنَّ صِنفَ الكَلِماتِ المُستَعمَلَةِ لِتسمِيَةِ الأَشخاصِ والأَشياءِ المُشَخصَنَةِ يُشَكِّلُ فَصيلَةً نَحويَّةً بِدائيَّةً مِن الأَسماءِ المَحضَةِ noun-substantives[40]. وبِذلكَ يُرَى هذا القِسمُ مِن أقسامِ الكَلامِ مُتَجذِّرًا في ضُروبِ السُّلوكِ الفَعّالَةِ وفي الاستِعمالاتِ الفَعّالَةِ لِلكَلامِ، ومَلحوظًا عندَ الطِّفلِ والإنسانِ الهَمَجيِّ، ومُفتَرَضًا عندَ الإنسانِ البِدائيِّ.

وَلْنُعالِجْ بَعدَ ذلكَ، بِاختِصارٍ، الصِّنفَ المُهِمَّ الثّانيَ مِن الكَلِماتِ- الكَلِماتِ العَمَلِيَّةَ أو الأفعالَ. إذ يتأَخَّرُ ظُهورُ الفَصيلَةِ الواقعيَّةِ الأَساسيَّةِ في التَّوجُّهِ العَقليِّ لِلطِّفلِ، وتَكونُ أَقَلَّ غَلَبَةً في التَّوجُّهِ العَقليِّ لِلإنسانِ الهَمَجيِّ. ويُوافِقُ ذلكَ حَقيقَةَ أَنَّ البِنْيَةَ النَّحويَّةَ لِلأَفعالِ أَقَلُّ تَطوُّرًا في لُغاتِ الهَمَجِيِّينَ. والحَقُّ أَنَّ النَّشاطَ البَشَريَّ يَتَرَكَّزُ حولَ الأَشياءِ. ويَعِي الطِّفلُ، وعليهِ أن يَعِيَ، الطَّعامَ أو الشَّخصَ المُسعِفَ قَبلَ أن يَستَطيعَ، أو يَحتاجَ إلى، أن يَفُكَّ الفِعلَ مِن الفاعِلِ أو يُصبِحَ واعِيًا لأفعالِهِ الشَّخصيَّةِ. وكذلكَ يَكونُ انبِثاقُ الحالاتِ الجَسَديَّةِ لِلطِّفلِ مِن الحالِ أَقَلَّ بِكثيرٍ مِن انبِثاقِها مِن الأَشياءِ التي تَدخُلُ فيها. وبِذلكَ لا يُمكِنُنا الوُقوفُ على فَكِّ الطِّفلِ التَّغيُّراتِ الحاصِلَةَ في بيئتِهِ مِن الأَشياءِ التي تَتغَيَّرُ إلّا في مَرحَلَةٍ لاحِقَةٍ

(40) يُعَدُّ الـ substantive في اللغةِ الإنجليزيَّةِ الفَصيلَةَ الاسميَّةَ الواسِعَةَ التي يُمكِنُ أن يَشغَلَها الاسمُ، أو ما يُؤَدِّي وَظيفَةَ الاسم مِن ضَميرٍ أو صِفَةٍ أو غيرِ ذلكَ مِن كلماتٍ أو عِباراتٍ تَعمَلُ عَمَلَ الاسم. لِذلكَ ظَهَرَ مُصطَلَحُ (الاسم المَحض noun-substantive) لِيُعَبِّرَ عن الفَصيلَةِ الاسمِيَّةِ التي يَشغَلُها الاسمُ لا غيرُهُ. [المُترجِم]

مِن مَراحِلِ تَطوُّرِهِ. ويَحدُثُ هذا في مَرحلَةٍ يَبدَأُ الطِّفلُ فيها بِاستِعمالِ الأصواتِ الإفصاحِيَّةِ. إذ يُبدَأُ بِالتَّعبيرِ عن نشاطاتٍ كالأكلِ، والشُّربِ، والاستِراحَةِ، والمَشيِ؛ وعَن حالاتٍ جَسَديَّةٍ كالنَّومِ، والجُوعِ، والرّاحَةِ؛ وعن أمزِجَةٍ كالحُبِّ والكُرهِ. [332] ويُمكِنُنا أن نَقولَ عن هذهِ الفَصيلَةِ الواقِعِيَّةِ مِن النَّشاطِ، والحالَةِ، والمِزاجِ إنَّها تُسْلِمُ نَفسَها لِلأمرِ وكذلكَ لِلإشارَةِ أو الوَصفِ، وإنَّها مُرتَبِطةٌ بِعُنصُرِ التَّغييرِ، أي الزَّمَنِ، وإنَّها تَكونُ على صِلَةٍ وَثيقَةٍ خاصَّةٍ بِشَخصَي المُتَكلِّمِ والمُستَمِعِ. ويُمكِنُ أن تُلحَظَ خَصائصُ هذهِ الفَصيلَةِ أنفُسُها في نَظرَةِ الهَمَجِيِّينَ؛ إذ يُبْدُونَ اهتِمامًا كَبيرًا بِكُلِّ التَّغَيُّراتِ التي تَعودُ إلى الكائنِ البَشَرِيِّ، وبِأطوارِ النَّشاطِ البَشَرِيِّ وأنماطِهِ، وبِحالاتِ الجَسَدِ البَشَرِيِّ والأمزِجَةِ البَشَرِيَّةِ. وتُتيحُ لَنا هذهِ الإشارَةُ المُختَصَرَةُ أن نُبَيِّنَ أنَّهُ لا بُدَّ مِن أنَّ المَراحِلَ البِدائيَّةَ مِن الكَلامِ البَشَرِيِّ كانَتْ قَد شَهِدَتْ وُجودَ فَصيلَةٍ واقِعِيَّةٍ دَخَلَتْ فيها جَميعُ فِقراتِ التَّغييرِ القابِلَةِ لِلتَّعديلِ العَرَضِيِّ، حامِلَةً خَصيصَةَ المِزاجِ البَشَرِيِّ والإرادَةِ البَشَرِيَّةِ، ومُتَّصِلَةً اتِّصالاً غيرَ مُنفَصِمٍ بِالنَّشاطِ الشَّخصِيِّ لِلإنسانِ.

وحينَ نَنظُرُ إلى صِنفِ الكَلِماتِ المُستَعمَلَةِ لِلإشارَةِ إلى فِقراتِ هذهِ الفَصيلَةِ الواقِعِيَّةِ نَجِدُ تَناظُرًا كَبيرًا بينَ الفَصيلَةِ والقِسمِ المُعَيَّنِ مِن أقسامِ الكَلامِ. فالكَلِمَةُ العَمَلِيَّةُ، أو الفِعلُ، قابِلَةٌ في جَميعِ اللغاتِ لِلتَّعديلاتِ النَّحويَّةِ المُعَبِّرَةِ عمّا هُوَ عَرَضِيٌّ مِن عَلاقَةٍ أو أمزِجَةٍ أو مَناحٍ في القَولِ، ويَرتَبِطُ الفِعلُ كذلكَ ارتِباطًا وَثيقًا بِالضَّمائرِ، وهيَ صِنفٌ مِن الكَلِماتِ يُناظِرُ فَصيلَةً واقِعِيَّةً أُخرَى.

ولا بُدَّ مِن كَلِمَةٍ بِشَأنِ الضَّمائرِ. إذ ما الفَصيلَةُ الواقِعِيَّةُ لِلسُّلوكِ البَشَرِيِّ البِدائيِّ والعاداتِ الكَلاميَّةِ البِدائيَّةِ التي تُناظِرُ صِنفَ الكَلِماتِ الصَّغيرَ الحجمِ والشَّديدَ الحَيَويَّةِ؟ مَعلومٌ أنَّ الكَلامَ هوَ أحدُ الضُّروبِ الأساسيَّةِ لِلنَّشاطِ الإنسانِيِّ، لِذلكَ كانَ فاعِلُ الكَلامِ، أي المُتَكَلِّمُ، يَقِفُ مَوقِفَ المُتَصَدِّرِ في الرُّؤيَةِ البراغماتيَّةِ لِلعالَمِ. ومَرَّةً أُخرَى، لَمّا كانَ الكَلامُ مُرتَبِطًا بِالسُّلوكِ الجَماعِيِّ كانَ على المُتَكلِّمِ أن يُحيلَ دَومًا على المُستَمِعِ أو المُستَمِعِينَ. فَبِذلكَ يَحتَلُّ المُتَكلِّمُ والمُستَمِعُ، إن جازَ التَّعبيرُ، المَوقِعَيْنِ الرُّكْنِيَّيْنِ الأساسيَّيْنِ في مَنظورِ المُقارَبَةِ اللُّغَوِيَّةِ. يَأتي بَعدَ ذلكَ صِنفٌ مِن الكَلِماتِ خاصٌّ ومَحدودٌ جِدًّا يُناظِرُ فَصيلَةً

واقِعِيّةٌ مُستعمَلَةٌ على الدَّوامِ وسَهلَةَ الرَّبطِ بالكَلماتِ العَمَلِيَّةِ، لكِنَّها مُشابِهَةٌ في طَبيعَتِها النَّحويَّةِ لِلأسماءِ- وهيَ القِسمُ الكَلامِيُّ الذي يُدعَى الضَّمائرَ والذي لا يَتَضَمَّنُ إلّا كَلِماتٍ قَليلَةً لكِنَّها كَثيرَةُ الدَّورانِ على الألسِنَةِ، وهيَ في العادَةِ كَلِماتٌ قَصيرَةٌ طَيِّعَةٌ تَظهَرُ مُرتَبِطَةً ارتِباطًا وَثيقًا بالأفعالِ، لكِنَّ عَمَلَها قَريبٌ مِن عَمَلِ الأسماءِ. ومِن الواضِحِ أنَّ هذا القِسمَ مِن أقسامِ الكَلام يُناظِرُ إلى حَدٍّ كَبيرٍ فَصيلَتَهُ الواقعيَّةَ. ويُمكِنُ تَتَبُّعُ هذا التَّناظُرِ في تَفصيلاتٍ أُخرَى أكثرَ إثارَةً لِلاهتِمام- كالمَوضِعِ الخاصِّ غيرِ التَّماثُلِيِّ لِضَميرِ الشَّخصِ الغائبِ، ومُشكِلَةِ الأجناسِ والأدَواتِ التَّصنيفيَّةِ classificatory particles[41]، التي تَظهَرُ على نَحوٍ خاصٍّ في الشَّخصِ الغائبِ[42]. [333]

على أنَّ ثَمَّةَ نُقطَةً يَنبَغي لَنا بَعْدُ أن نُعَرِّجَ عليها تتعلَّقُ بِخَصيصَةٍ مُشتركةٍ في الأسماءِ والضَّمائرِ، وتُعالِجُ تَصريفَ مُختَلِفِ حالاتِ الاسمِ. والفَصيلَةُ الواقعيَّةُ لِهذهِ الأخيرَةِ مُستَمَدَّةٌ مِن الوحداتِ المُشَخْصَنَةِ لِلبيئةِ. والمَوقِفُ الأوَّلُ مِن فِقراتِ هذهِ الفَصيلَةِ عندَ الطِّفلِ هوَ التَّمييزُ المُستَنِدُ إلى النَّفعِ البايولوجيِّ وإلى مُتعَةِ إدراكِها. ويَحتَفي بِها الطِّفلُ الرَّضيعُ مِن خِلالِ أصواتٍ دالَّةٍ، أو يُطلِقُ عليها أسماءً بِكَلِماتٍ إفصاحِيَّةٍ عندَ ظُهورِها، ويُنادِي عليها عندَ الحاجَةِ. وبِذلكَ تُخضَعُ هذهِ الكَلِماتُ، أي الأسماءُ، لاستِعمالٍ مُحَدَّدٍ هوَ التَّسمِيَةُ والمُناداةُ. ويُناظِرُ ذلكَ صِنفٌ ثانَوِيٌّ مِن الأسماءِ المَحضَةِ يُمكِنُ أن يُدْعَى حالَةَ الاسمِ العامِّ appellative

(41) اللُغاتُ التَّصنيفيَّةُ: هيَ اللغاتُ التي تُضيفُ إلى كلِّ كلمةٍ أداةً زائدَةً تدُلُّ على نوعِ الكلمةِ. وينطبِقُ هذا الوصفُ على مجموعةِ لُغاتِ البانتُو التي تُضيفُ سابِقَةً إلى كلِّ كلمةٍ لِلدَّلالةِ على نَوعِها. [المُترجِم]

(42) تُنظَرُ مَقالَةُ كاتِبِ هذهِ السُّطورِ بِشأنِ 'الأدَوات التَّصنيفيَّة Classificatory Particles' في دَوريَّةِ *Bulletin of Oriental Studies*, Vol. II.

[يُشيرُ الكاتِبُ إلى الحالَةِ غيرِ التَّماثُلِيَّةِ لِضَميرِ الشَّخصِ الغائبِ في اللغَةِ الإنجليزيَّةِ بانصِرافِهِ إمّا إلى المُذَكَّرِ he وإمّا إلى المُؤنَّثِ she، في حينِ أنَّ الضَّميرَ فيها يَكونُ تَماثُلِيًّا عندَ استِعمالِهِ لِلمُتَكَلِّمِ بِجِنسَيْهِ المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ I، ولِلمُخاطَبِ بِجِنسَيْهِ المُذَكَّرِ والمُؤَنَّثِ you. المُتَرجِم]

case(43)، وهوَ يُشْبِهُ بَعضَ استِعمالاتِ النِّداءِ والرَّفعِ في التَّصريفِ الهِندوأوْرُبِّيّ.

ويُصبحُ هذا في الاستِعْمالاتِ اللُّغَوِيَّةِ التي هيَ أكثرُ تَطوُّرًا إضافَةَ عَمَلِيَّةً أكثَرَ فَعّالِيَّةً. إذ تَدخُلُ الكَلِمَةُ الشَّيئِيَّةُ في ارتِباطٍ أكثَرَ وَثاقَةً معَ الكَلِمَةِ العَمَلِيَّةِ. فيُسَمَّى الأشخاصُ بِأسمائِهِم أو بِتَسمِياتٍ ضَميرِيَّةٍ مُرتَبِطَةٍ بِما يَفعَلونَهُ: 'أنا أذهَبُ'، أو 'أنتَ تَأتي'، أو 'فُلانٌ يَشرَبُ'، أو 'حَيَوانٌ يَركُضُ'، وما إلى ذلكَ. وبِذلكَ يُستَعمَلُ اسمُ الشَّخصِ أو الشَّيءِ المُشَخصَنِ بِطريقَةٍ مُختلِفَةٍ، وبِوَجهٍ مُختلِفٍ لِلمَعنَى بِوَصفِهِ فاعِلاً، أو بِوَصفِهِ فاعِلاً لِلحَدَثِ بالمَعنَى الاصطِلاحِيّ. وهذا هو الاستِعمالُ المُناظِرُ لِحالَةِ الفاعِلِيَّةِ التي يُوضَعُ فيها الاسمُ على الدَّوامِ بِوَصفِهِ فاعِلَ الإسنادِ. ويُمكِنُ أن يُقالَ إنَّ ثَمَّةَ صِنفًا مِن الضَّمائرِ، هيَ الضَّمائرُ الشَّخصيَّةُ: أنا، وأنتَ، وهوَ، يُناظِرُ هذهِ الحالَةَ في الأسماءِ.

ويُنَفَّذُ العَمَلُ مُتَّصِلاً بِأشياءَ مُعَيَّنَةٍ. إذ تُعالَجُ أشياءُ وأشخاصٌ. فَتَظهَرُ أسماءُ هذهِ الأشياءِ وهؤلاءِ الأشخاصِ، حينَ تَرتَبِطُ بِكَلِمَةٍ عَمَلِيَّةٍ بِتلكَ الطَّريقَةِ، في حالَةِ المَفعولِيَّةِ، وتُستَعمَلُ الضَّمائرُ في هَيْأَةٍ خاصَّةٍ، أي ما يُدْعَى الضَّمائرَ المَفعولِيَّةَ أو الانعِكاسِيَّةَ objective or reflexive.

وما دامَت اللُّغَةُ ضارِبَةً بِأطنابِها في الاهتِمامِ العَمَليِّ لِلإنسانِ بالأشياءِ والأشخاصِ فثَمَّةَ عَلاقَةٌ أُخرَى ذاتُ أهمِّيَّةٍ أساسيَّةٍ، هيَ التي في وُسعِ الشَّخصِ أن يَعرِضَ فيها ادِّعاءً مُحدَّدًا لِعَلاقَةٍ بِشَخصٍ آخَرَ أو بِشَيءٍ آخَرَ، أو لاستِحواذٍ على شَخصٍ آخَرَ أو على شَيءٍ آخَرَ. فبِاعتِبارِ أقرَبِ النّاسِ في البيئةِ تُوجَدُ أواصِرُ النَّسَبِ والصَّداقَةِ. وباعتِبارِ الأشياءِ تَظهَرُ عاطِفَةُ التَّمَلُّكِ الاقتِصادِيَّةُ. والعَلاقَةُ بينَ اسمَيْنِ يَتعلَّقُ أحَدُهُما بِالآخَرِ كما يُنسَبُ شَيءٌ أو شَخصٌ إلى شَيءٍ آخَرَ أو إلى شَخصٍ آخَرَ، أو كما يَملِكُ شَيئًا أو شخصًا شَيءٌ آخَرُ أو شَخصٌ آخَرُ، يُمكِنُ أن تُدْعَى عَلاقَةَ الإضافَةِ أو التَّمَلُّكِ، ويُمكِنُ الوُقوفُ عليها في جَميعِ لُغاتِ البَشَرِ

(43) الاسمُ العامُّ appellative: هوَ اسمٌ يَدُلُّ على الفَرْدِ أو أمثالِهِ، مِثلُ .tree, boy ويُسَمَّى أيضًا في الإنجليزيَّةِ common noun. [المُترجِم]

بِوَصفِها مَنْحًى واضِحًا لِلرَّبطِ بينَ اسمَيْنِ. وتُطابِقُ هذهِ الحالَةَ كذلكَ حالَةُ الإضافَةِ في اللُغاتِ الأَوْرُبِّيَّةِ في أكثَرِ استِعمالاتِها تَميُّزًا. وإذا ما عُدْنا إلى الضَّمائرِ مَرَّةً أُخرَى فإنّا نَجِدُ فيها صِنفًا خاصًّا مِن ضَمائرِ التَّملُّكِ التي تُعَبِّرُ عن العَلاقَةِ. [334]

وأخيرًا يَتميَّزُ مِن بينِ الضُّروبِ العَمَلِيَّةِ ضَرْبٌ عَمَلِيٌّ مُعَيَّنٌ تجاهَ الأشياءِ والنّاسِ في الخارِجِ، وهوَ الذي تُحَدِّدُهُ الحَيثِيّاتُ المَكانيَّةُ. ومِن غيرِ مَزيدِ خَوضٍ في تَفصيلِ هذا المَوضوعِ أقتَرِحُ إمكانَ افتِراضِ صِنفٍ ثانويٍّ مُحَدَّدٍ مِن الاستِعمالاتِ الاسميَّةِ في جَميعِ اللُغاتِ- وهوَ الذي يُناظِرُ حالَةَ الجَرِّ.

ومِن الواضِحِ أنَّ ثَمَّةَ فَصائلَ أُخرَى يُوَلِّدُها المَوقِفُ النَّفْعِيُّ لِلإنسانِ، تتعلَّقُ بِنُعوتِ الشَّيْءِ وصِفاتِهِ، ومُمَيِّزاتِ الحَدَثِ، والعَلاقاتِ بينَ الأشياءِ، والعَلاقاتِ بينَ الأحوالِ، ومِن المُمكِنِ أن نُبَيِّنَ أنَّ الصِّفَةَ، والظَّرفَ، وحَرفَ الجَرِّ، وأداةَ العَطفِ، تَستَنِدُ إلى هذهِ الفَصائلِ الواقعيَّةِ. وبِاستِمرارِنا في مُعالَجَةِ ما يُعَبِّرُ عنهُ دَلاليًّا مِن جِهَةٍ والسِّماتِ البِنائيَّةِ لِلُّغَةِ مِن جِهَةٍ أُخرَى يُمكِنُ كذلكَ أن نُتابِعَ لِنُفَسِّرَ هذهِ الأخيرَةَ بِالإحالَةِ على الوَقائعِ الواقعيَّةِ لِلطَّبيعَةِ البَشَريَّةِ البِدائيَّةِ.

على أنَّ هذا العَرضَ المُوجَزَ كافٍ لِلإشارَةِ إلى المَنهَجِ والحِجاجِ اللَذَيْنِ أمكَنَ بِهِما تَأسيسُ عِلمِ دَلالَةٍ نُشُوئيٍّ بِدائيٍّ مِن هذا القَبيلِ- عِلمٍ يُبَيِّنُ الطَّبيعَةَ الواقِعِيَّةَ لِلفَصائلِ النَّحوِيَّةِ بِالإحالَةِ على المَوقِفِ البِدائيِّ لِلإنسانِ مِن الواقِعِ. وإنّي لأَعتَقِدُ أنَّ نَتائجَ عِلمِ الدَّلالَةِ البِدائيِّ هذا، حتَّى بِالقَدرِ الذي أشَرْنا إليها بِهِ، وَثيقَةُ الصِّلَةِ بِالنَّتائجِ التي تَوصَّلَ إليها أوغدِن ورِتشاردز. فما ذَهَبا إلَيْهِ هوَ أنَّ المَوقِفَ الزّائفَ مِن اللُغَةِ ووَظائفِها يُمَثِّلُ إحدَى العَقَباتِ الرَّئيسَةِ في طَريقِ تَقَدُّمِ الفِكرِ الفَلسَفيِّ والتَّحقيقِ العِلميِّ، وفي طَريقِ النُّمُوِّ المُتَواصِلِ لِلاستِعمالاتِ العَمَليَّةِ لِلُّغَةِ في الصِّحافَةِ، والكِتابَةِ القَصيرَةِ، والرِّوايَةِ. وقَد حاوَلْتُ في هذا القِسمِ مِن البَحثِ وفي سابِقِهِ أن أُبَيِّنَ أنَّ مِثلَ هذا المَوقِفِ الفَجِّ وغيرِ السَّليمِ مِن اللُغَةِ والمَعنَى لا بُدَّ أن يَكونَ مَوجودًا. وحاوَلْتُ أن أُظهِرَ بِوُضوحٍ كيفيَّةَ نُشوئهِ وسَبَبَ استِمرارِهِ، بَل إنّي لأُحاوِلُ تَتَبُّعَ آثارِهِ في تَفصيلاتِ البِنْيَةِ النَّحوِيَّةِ.

بَقِيَ لَدَيْنا أمرٌ واحِدٌ نَذكُرُهُ. فقَد حَدَثَ في العَمليّاتِ المُتَأخِّرَةِ لِلاستِعمالِ

والتَّفكيرِ اللُّغَويَّيْنِ تَحويلٌ غيرُ مُمَيِّزٍ ومُجمَلٌ لِلجُذورِ والمَعاني مِن فَصيلَةٍ نَحويَّةٍ إلى أُخرَى. فَاستِنادًا إلى وِجهةِ نظرِنا بِشَأنِ عِلمِ الدَّلالَةِ البِدائيِّ يَجِبُ أَن يَكونَ لِكُلِّ جَذرٍ دالٍّ مَوضِعُهُ أَصلاً، على أن يَكونَ مَوضِعًا واحِدًا فقط، في فَصيلَتِهِ اللفظيَّةِ المُلائمَةِ. فبِذلكَ تَكونُ الجُذورُ التي تَعنِي 'رَجُلاً'، و'حَيوانًا'، و'شَجرَةً'، و'حَجَرًا'، و'ماءً'، جُذورًا اسميَّةً أساسًا. أمّا الجُذورُ التي تَعنِي 'يَنامُ'، و'يَأكُلُ'، و'يَذهَبُ'، و'يَأتي'، و'يَسقُطُ'، فَفِعلِيَّةٌ. لكِنْ بِتَطوُّرِ اللُّغَةِ والفِكرِ يَبني النَّشاطُ الدّائبُ لِلاستِعارَةِ، والتَّعميمِ، والقِياسِ، والتَّجريدِ، والاستِعمالاتِ اللُّغَويَّةِ المُشابِهَةِ أَواصِرَ بينَ الفَصائلِ ويَمحو الخُطوطَ الفاصِلَةَ بينَها، مُتيحًا بِذلكَ لِلكَلِماتِ و[335] الجُذورِ حُرِّيَّةَ الحَرَكَةِ في جَميعِ مَيادينِ اللُّغَةِ. وأَشَدُّ ما تَتَّضِحُ هذهِ الطَّبيعَةُ الكُلِّيَّةُ الحُضورِ لِلجذورِ في اللُّغاتِ التَّحليليَّةِ، كالصِّينيَّةِ والإنجليزيَّةِ، لكِن يُمكِنُ الوُقوفُ عليها حتَّى في أَشَدِّ اللُّغاتِ بِدائيَّةً.

وقَد أَوضَحَ السَّيِّدانِ أوغدِن ورِتشاردز بِطَريقَةٍ فائقَةِ الإقناعِ الإلحاحَ المُفرِطَ لِلمُغالَطَةِ الواقعيَّةِ القَديمَةِ التي تَذهَبُ إلى أَنَّ الكَلِمَةَ شاهِدَةٌ على ما لِمَعناها الذّاتيِّ مِن واقِعٍ أو مُتَضَمِّنَةٌ لَهُ. وثَمَّةَ لَمحَةٌ مُتوارِيَةٌ خَلفَ المَشاهِدِ البِدائيَّةِ لِتَكوينِ الجُذورِ، وخَلفَ واقِعيَّةِ الفَصائلِ البِدائيَّةِ وانهِيارِها الماكِرِ اللاحِقِ، تُقَدِّمُ وَثيقَةً إضافيَّةً مُهِمَّةً تُعَزِّزُ آراءَ المُؤلِّفَيْنِ. وقد أَكسَبَتْ هِجرَةُ الجُذورِ إلى أَماكِنَ غيرِ مُلائمَةٍ الواقِعَ الخَياليَّ لِلمَعنَى الذي أُضفِيَ عليهِ طابِعٌ مادِّيٌّ تَماسُكًا ذاتِيًّا. فما دامَت التَّجرِبَةُ المُبَكِّرَةُ تُثبِتُ الوُجودَ الاسمِيَّ لأيِّ شَيءٍ يُوجَدُ في فَصيلَةِ الجَوهَرِ الأَوَّلِيِّ أَو الـ Protousia، والتَّحويلاتُ اللُّغَويَّةُ اللاحِقَةُ تُوَلِّدُ هُناكَ جُذورًا مِثلَ 'ذَهاب'، و'راحَة'، و'حَرَكَة'، وما إلى ذلكَ، فالاستِنتاجُ الواضِحُ هوَ أَنَّ هذهِ الكِياناتِ أَو الأَفكارَ التَّجريدِيَّةَ تَعيشُ في عالَمٍ واقِعِيٍّ خاصٍّ بِها. والصِّفاتُ غيرُ الضّارَّةِ مِثلُ 'حَسَن'، أَو 'سَيِّئ'، التي تُعَبِّرُ عَنِ الرِّضا بِصفِ الحَيَوانيِّ لِلهَمَجِيِّ في حالٍ مّا أَو عَدَمِ رِضاهُ، فَتَدخُلُ مِن ثَمَّ عُنوَةً إلى الحَظيرَةِ المَحجوزَةِ لِلقَوالِبِ الخَرقاءِ المَصوغَةِ على نَحوٍ مَبدَئيٍّ، الخاصَّةِ بِالمادَّةِ البِدائيَّةِ، تُحَوَّلُ إلى 'حُسْن'، و'سُوء'، وتَخلُقُ عَوالِمَ دِينِيَّةً مُتَكامِلَةً، وأَنظِمَةً فِكريَّةً ودينيَّةً. ولا شَكَّ في أَنّا يَجِبُ أن نتذَكَّرَ أَنَّ نظريَّةَ أوغدِن ورِتشاردز ووِجهَةَ النَّظرِ المُبداةَ هُنا تَتبنَّيانِ بِإلحاحٍ

كَبيرٍ أنَّ اللُغَةَ وجَميعَ العَمليّاتِ اللُغَويَّةِ لا تَستَمِدُّ سُلطَتَها إلّا مِن عَمَليّاتٍ واقعيَّةٍ تَحدُثُ في إطارِ عَلاقَةِ الإنسانِ بِبيئَتِهِ. ولَم يَكُن مِنّي سِوَى أنْ عَرَّجْتُ على مَسألةِ التَّحويلاتِ اللُغَويَّةِ، ومِن الضَّروريِّ تَقديمُ تَفسيرٍ لَها مِن خِلالِ العَمليّاتِ السّايكولوجيَّةِ والسّوسيولوجِيَّةِ التي تَجري في المُجتَمَعاتِ البَربَريَّةِ وشِبْهِ المُتَحَضِّرَةِ، تَمامًا كما قَدَّمْنا تَفسيرًا لِلِّسانيّاتِ البِدائيَّةِ بِتَحليلِ عَقلِ الإنسانِ البِدائيِّ- وكما يُقَدِّمُ مُؤَلِّفا هذا الكِتابِ تَفسيرًا لِفَضائلِ لُغَةِ اليَومِ ونَقائصِها بِتَحليلِهِما البارِعِ لِلعَقلِ الإنسانيِّ عُمومًا. [336]

المُلْحَقُ الثّاني

أَهَمّيَّةُ وُجودِ نَظَرِيَّةٍ لِلعَلاماتِ ونَقْدٍ لِلُّغَةِ في دِراسَةِ الطِّبّ

بِقَلَمِ كرُوكشانك

F. G. Crookshank, M.D., F.R.C.P

على الرَّغمِ مِن التَّقَدُّمِ الكَبيرِ الذي حَقَّقَهُ فَنُّ الطِّبُّ في مَناحٍ كَثيرَةٍ في القَرنِ الماضي؛ وعلى الرَّغمِ مِن إفادَةِ مُمارِسِي هذا الفَنِّ الواسِعَةِ مِن الخَزينِ الهائلِ لِلوَقائعِ التي تُدْعَى وَقائعَ عِلمِيَّةً مِن أجلِ تَحقيقِ النَّفعِ العَميمِ لِلإنسانيَّةِ المُعَذَّبَةِ؛ وعلى الرَّغمِ مِن أنَّ الأَطِبّاءَ لَدَيْهِم شَيءٌ مِن الاطِّلاعِ على عُلومٍ مُعَيَّنَةٍ لَها حُدودٌ تَشتَرِكُ جُزئيّاً معَ فَنِّ الطِّبِّ، لَم يَعُدْ لَدَيْنا اليَومَ أيُّ عِلمٍ لِلطِّبِّ بِالمَعنَى الاصطِلاحِيِّ.

صَحيحٌ أنَّ المُلاحَظَةَ والفِكْرَ قادَا الأَطِبّاءَ إلى تَكوينِ تَعميماتٍ حَظِيَتْ بِالقَبولِ، لكِن لَم يَعُدْ ثَمَّةَ وُجودٌ لِمُدَوَّنَةٍ نِظامِيَّةٍ أو مَنهَجيَّةٍ، أو نَظريَّةٍ مَصُوغَةٍ، يُمكِنُ تَبَنِّيها مِن أجلِ إرساءِ دَعائمِ عِلمِ الطِّبِّ، و(بِالتَّعبيرِ المَهجورِ اليَومَ) إنشاءِ قِسمٍ تكميليٍّ لِلفَلسَفَةِ الطَّبيعيَّةِ.

وسَبَبُ قَولي 'لَم يَعُدْ' أَنَّهُ قَد سَبَقَ في الأَيّامِ الخَوالي أن وُجِدَ عِلمٌ لِلطِّبِّ (أَو لِلشِّفاءِ) كَهذا، مَهما يَكُن مِن حَجمِ ومَشروعيَّةِ لازدِرائنا لِـ'الوَقائعِ'، والتَّعميماتِ، والنَّظريَّةِ، التي بُنِيَ على أَساسِها في أزمانٍ مُختلِفَةٍ. واليَومَ، على الرَّغمِ مِن وَفرَةِ ما نُسَمِّيهِ وَقائعَنا المُلاحَظَةَ بِدِقَّةٍ، وتَكامُلِ مَناهِجِنا العِلميَّةِ، يَجِدُ الذينَ يَكتُبونَ ويُحاضِرونَ في الطِّبِّ ضَرورَةَ إطلاقِ صَرخَةٍ احتِجاجيَّةٍ مفادُها أنَّ الطِّبَّ ليسَ أَحَدَ العُلومِ المُنضَبِطَةِ ولَن يَكونَ كذلكَ البَتَّةَ.

ورُبَّما لا يَقِفُ أساتِذَةُ الطِّبِّ ومُمارِسُوهُ على الدَّوامِ لِيَتَفَكَّروا: ما العِلْمُ المُنضَبِطُ، وأيُّ العُلومِ مُنضَبِطَةٌ، ولِمَ كانَتْ كذلكَ؟ لكِنَّ الاحتِجاجَ يَبدُو ذَريعَةً لإعفاءِ مَن يَكتُبونَ في الطِّبِّ مِن واجِبَيْ تعريفِ مُصطَلَحاتِهِم، وتَثبيتِ مُقَدِّماتِهِم المَنطِقِيَّةِ، في حينِ أنّا نُترَكُ، لُزُومًا، لِنَقبَلَ الاستِنتاجَ الذي مفادُهُ أنَّ الوَقائعَ المُتَراكِمَةَ والتَّعميماتِ المَقبولَةَ التي هيَ مَحَطُّ اهتِمامِ الأطِبّاءِ ليسَ بَينَها [337] تَعالُقٌ أو تَواقُفٌ، لِذا لا يُمكِنُ تَرتيبُها على وَفقِ أيِّ أُسلوبٍ تَنظيميٍّ، أو رَبطُها مَعًا مِن خِلالِ أيَّةِ نَظريَّةٍ عامَّةٍ، كما هيَ الحالُ معَ تلكَ التي يُعالِجُها الفَلَكيُّونَ، والكيميائيُّونَ، وعُلَماءُ الأحياءِ.

والحَقُّ أنَّ عالَمَ الطِّبِّ يَبدو بِذلكَ أنَّهُ يُنشِئُ نَوعًا مِن الألساشيا Alsatia[1]، أي المُقاطَعَةِ المُحاطَةِ بِأرضٍ أجنبيَّةٍ في الكَوْنِ، التي لا يُسمَحُ بِاستِغلالِها إلّا لِقَليلٍ مِن المُجازِينَ.

هُنا يَكمُنُ أغلَبُ ما يَبعَثُ على الاهتِمامِ، وليسَ مِمّا يُثيرُ الامتِعاضَ ولا الفُضولَ عَدَمُ كَونِ الطِّبِّ مِن المَوضوعاتِ التي تَقُودُ مُلاحَقَتُها إلى دَرَجَةِ الدُّكتوراه في العِلمِ، وأنَّ ثَمَّةَ فَجوَةً واسِعَةً راسِخَةً بينَ الدِّراساتِ 'العِلمِيَّةِ' و'الطِّبِّيَّةِ' التي يَضطَلِعُ بِها كُلٌّ مِن الطَّبيبِ والجَرّاحِ النّاشِئَيْنِ.

وتَفسيرُ عَدَمِ المُبالاةِ هذا غامِضٌ، وقَد يَكونُ استِقصاءُ البَحثِ فيهِ غيرَ ذي صِلَةٍ، لكِنَّ الوَضعَ الحاليَّ لِلطِّبِّ يَقتَضي الفَحصَ.

ويُمكِنُ أن يُقالَ إجمالاً إنَّ مِن الضَّروريِّ وُجودَ شَيءٍ مِن البَيانِ ومُحاوَلَةٍ لِتَعريفِ الأساسيّاتِ مِن أجلِ المُلاحَقَةِ النّاجِحَةِ لأيٍّ مِن العُلومِ المَعروفَةِ، ولَن يَكونَ ثَمَّةَ عَرْضٌ نِظامِيٌّ البَتَّةَ لأيٍّ مِن هذهِ العُلومِ مِن غيرِ تَبَنّي نُقطَةِ انطِلاقٍ مَا تَكونُ قَد حُدِّدَتْ، على ما قَد ضُمِّنَ أو اتُّفِقَ عليهِ أو رُبَّما ثُبِّتَ، مِن خِلالِ ما

(1) ألساشيا: يَنصَرِفُ هذا الاسمُ في الإنجليزيَّةِ إلى منطقتَيْنِ؛ إحداهُما منطقةٌ مِن مَناطقِ لَندن في القَرنِ السابعَ عشَرَ، كانَتْ مَلاذًا لِلمُجرِمِينَ والآثِمِينَ؛ والأُخرَى منطقةٌ في الشَّمالِ الشَّرقيِّ لِفرنسا مَشهورةٌ بِنَبيذِها. [المُترجِم]

سَبَقَ مِن فَحصٍ وبَحثٍ وقَرارٍ تتعلَّقُ بِطَبيعَةِ الأشياءِ والمَعرِفَةِ، ومَناهِجِنا في الفِكرِ والتَّواصُلِ.

ولا شَكَّ في أنّي أتَّفِقُ مَعَ مُؤَلِّفَيْ هذا الكِتابِ تَمامًا حينَ يَذهَبانِ إلى أنَّ المُشتَغِلينَ بالعِلمِ كَثيرًا مّا أخفَقوا حَديثًا في تَقديرِ أهمِّيَّةِ الاتِّفاقِ بِشَأنِ العَلاماتِ والرُّموزِ الذي كانَ حاضِرًا بِقُوَّةٍ في أذهانِ الفَلاسِفَةِ المَدرَسِيِّينَ، ولا شَكَّ في عَدَمِ إمكانِ أن يُقالَ إنَّ المُشتَغِلينَ مِنّا بالعِلمِ يُحسِنونَ دَومًا اختِيارَ ما يَتَبَنَّونَ مِن نِقاطِ الانطِلاقِ. ولكِنْ حَرِيٌّ بِنا، على الرَّغمِ مِن كُلِّ ذلكَ، أن نَنطَلِقَ بِجُرأةٍ وعَزمٍ، لا أن نَهيمَ على وُجوهِنا هُنا وهُناكَ مُعلِنِينَ أن ليسَ ثَمَّةَ سَبيلٌ ولا ما يَهدِي إليها، ومَهما تَكُنْ دَرَجَةُ الخَلَلِ في الشَّكلِ والمَضمونِ في الكَثيرِ مِن المَبادِئِ والتَّعريفاتِ الأُولَى في كُتُبِنا المَنهَجِيَّةِ العِلمِيَّةِ فإنَّ الشّارِحينَ المَنهَجِيِّينَ يُقِرُّونَ، في الأقَلِّ، بِضَرورَةِ مُناقَشَةِ الأساسِيّاتِ وبِمُلاءَمَتِها. أمّا قَضِيَّةُ الأطِبّاءِ فأخطَرُ.

فَالطِّبُّ في يَومِنا هذا فَنٌّ أو حِرْفَةٌ تُلْحَقُ بِمُمارَسَتِهِ، بِلا شَكٍّ، عُلومٌ مُعَيَّنَةٌ، لكِنَّهُ خَسِرَ ادِّعاءَ عَدِّهِ عِلمًا؛ بِسببِ رَفضِ أساتِذَتِهِ ومُمارِسِيهِ أن يُعَرِّفوا الأساسِيّاتِ أو يُثَبِّتوا المَبادِئَ الأُولَى، وأن يَعُدُّوا، بِلُغَةٍ واضِحَةٍ، العَلاقاتِ التي بينَ الأشياءِ والأفكارِ والكَلِماتِ مُتَضَمَّنَةً في تَواصُلاتِهِم معَ الآخَرينَ. [338]

ويَبلُغُ صِدْقُ ما قُلْنا مَبلَغَ أنَّهُ على الرَّغمِ مِن أنَّ كُتُبَنا المَنهَجِيَّةَ مُتْخَمَةٌ بِبَياناتِ 'الأمراضِ'، وكيفيَّةِ تَمييزِ مِثلِ هذهِ 'الأشياءِ'، ومُعالَجَتِها، وقَمعِها، كانَ ما قالَهُ الرّاحِلُ الدُّكتور ميرسيير Mercier[2] مُسَوَّغًا تَمامًا حينَ صَرَّحَ، في أحَدِ بُحوثِهِ النَّفيسَةِ الذي هوَ ليسَ بِأقَلِّها جِدَّةً، بِأنَّ "الأطِبّاءَ لَم يَصوغوا تَعريفًا لِلمَقصودِ بِـ'ما هُوَ مَرَضٌ a disease'"، وتابَعَ كَلامَهُ لِيَقولَ إنَّ الزَّمَنَ الذي يَقتَضي تَعريفَ الأفكارِ الأساسيَّةِ لِلطِّبِّ قَد حانَ في هذهِ المَرحَلَةِ مِن تَأريخِهِ (*Science Progress*, 1916-17).

(2) تشارلز آرثَر ميرسيير (1851–1919م). مُحلِّلٌ نفسيٌّ بريطانيٌّ، وخبيرٌ رياديٌّ في التحليلِ النفسيِّ الشرعيِّ والجنونِ. من أهمِّ آثارِهِ: المذهَبُ الرُّوحيُّ والسّير أولِفَر لوج، وتَجارِبُ الرُّوحِ، والجهازُ العصبيُّ والعَقل، والجريمةُ والجنون، والجريمةُ والمجرِمون. [المُترجِم]

فَما قالَهُ الدُّكتور ميرسيير كانَ مُسَوَّغًا تَمامًا لأَنَّهُ كانَ يَكتُبُ عَن الطِبِّ في يَومِنا هذا. ولَو أَنَّهُ كانَ على عِلمٍ بِوُجودِ 'فُصولٍ تَمهيدِيَّةٍ' كالفَصلَيْنِ اللَذَيْنِ عِندَ فيرنيل Fernel[3] (1485-1557) واللَذَيْنِ عُنواناهُما على التَّوالي "تَوجيهُ فَنِّ الطِّبِّ نظريَّةً ومُمارَسَةً"، و"تَشخيصُ المَرَضِ مِن حيثُ الأعراضُ والحالةُ الذِّهنيَّة"، ما كانَ لِيَفوتَهُ الإلحاحُ على أَنَّهُ حينَ كانَ الطِّبُّ عِلمًا، وإن كانَ في ذلكَ الوَقتِ أَقَلَّ 'عِلمِيَّةً' مِمّا هُوَ عليهِ اليَومَ، كانَتْ ثَمَّةَ مُحاولاتٌ لإنجازِ بَعضِ التَّعريفاتِ، وتَأكيدٌ لِبَعضِ المَبادِئِ، وإقرارٌ بِنَوعٍ مِن التَّفريقِ بينَ الأسماءِ، والأفكارِ، والأحداثِ.

أَمّا اليَومَ، فعلَى الرَّغمِ مِن تَراكُمِ ما لا يُحصيهِ عَدٌّ مِمّا نَدعُوهُ 'وَقائعَ' أو سِجلّاتٍ لِلوَقائعِ، ما مِن كِتابٍ مَنهَجِيٍّ حاليٍّ يَنطَوي على مُحاوَلَةٍ لِتَعريفِ المَقصودِ بِـ'ما هُوَ مَرَضٌ a disease'، وإن لم يَخْلُ الأمرُ أحيانًا مِن مُحاوَلَةٍ لِنَوعٍ مِن التَّعريفِ لِكَلِمَةِ 'مَرَض disease' ولأمراضٍ مَخصوصَةٍ. خُلاصَةُ القَولِ أَنَّهُ لَم تَكُنْ ثَمَّةَ مُحاوَلَةٌ لِلتَّفريقِ بينَ ما نَلحَظُهُ عندَ الأشخاصِ المَرضَى مِن جِهَةٍ، وما نُكَوِّنُهُ مِن أَفكارٍ عامَّةٍ بِشَأنِ أَمراضٍ مُتَشابِهَةٍ عندَ أَشخاصٍ مُختَلِفِينَ، مَعَ ما نُفيدُ مِنهُ مِن 'مُكَمِّلاتٍ لُغَوِيَّةٍ' مِن أَجلِ أَغراضٍ تَواصُلِيَّةٍ تتعلَّقُ بِالأمرِ نَفسِهِ، مِن جِهَةٍ أُخرَى.

صَحيحٌ أَنَّ السِّير كلِفورد ألبوت Clifford Allbutt[4] لَم يَكُفَّ عن شَنِّ هَجَماتِهِ، وإن كانَ ذلكَ في مَجالٍ مُنعزِلٍ شَيئًا مّا، على 'الكِياناتِ المَرَضِيَّةِ' التي يُخبِرُنا بَعضُ النّاسِ أَنَّها أَمراضٌ، ويُمكِنُ الوُقوفُ في دَورِيَّةِ *British Medical Journal*، في عددِها الصّادِرِ في الثّاني مِن سبتمبَر/أيلول سَنَةَ 1922، في

(3) جان فرانسوا فيرنيل (1497-1558م). طبيبٌ فرنسيٌّ. قَدَّمَ مُصطلَحَ (الفسيولوجيا) لِوَصفِ دراسةِ وظيفةِ الجِسمِ، وكانَ أَوَّلَ مَن وَصَفَ القناةَ الشوكيَّةَ. ولَم أَرَ مَن أَثبَتَ سنَتَي الوِلادةِ والوَفاةِ اللتَيْنِ أَورَدَهُما أوغدِن ورِتشاردز في المَتنِ. [المُترجِم]

(4) توماس كلِفورد ألبوت (1836-1925م). طبيبٌ إنجليزيٌّ، وهو مُخترِعُ المِحرارِ الطبِّيِّ. من أهمِّ آثارِهِ تحريرُ كتابِ (نِظامُ الطبِّ). [المُترجِم]

الصَّفحَةِ 401 مِنهُ، على بَعضِ انتِقاداتِهِ التي لَيسَتْ بِأَقَلِّها لَذاعَةً.

لكِنَّ القِلَّةَ النّادِرَةَ مِن الشُّجعانِ الذينَ تَطَلَّعوا (وإن كانُوا أَقَلَّ انتِقائيَّةً في لُغَتِهِم، ورُبَّما أَقَلَّ تَمَكُّنًا فيها) إلى التَّعبيرِ عن الحَقائقِ أَنْفُسِها التي عَبَّرَ عنها السّير كِلِفورد كانَ ثَمَّةَ مِقياسٌ قاسٍ لِلتَّعامُلِ مَعَهُم.

فقَد كانَ يُنظَرُ إليهِم نَظرَةَ ازدِراءٍ بِوَصفِهِم تُجّارًا، لا بِـ'الوَقائعِ المَلموسَةِ' والحُجَّةِ الحِيادِيَّةِ المُلائمَةِ لِطِبِّ القَرنِ العِشرينَ، بَل بِـ تَفاهاتٍ مُسهَبَةٍ وبِشَيءٍ مّا يُدعَى ميتافيزيقا على سبيلِ الاحتِقارِ. ذلكَ بِأَنَّ 'الأَطِبّاءَ المَجانينَ' هُم وَحدَهُم مَن يُحتَمَلُ في أَزمِنَتِنا العِلمِيَّةِ هذهِ أَن يَشتَغِلوا بِالفَلسَفَةِ مِن غيرِ أَن يَخسَروا سُمعَتَهُم بِوَصفِهِم مُمارِسينَ لِلطِّبِّ!

وقَد يَكونُ مِمّا يَشهَدُ على العَصرِ عَدَمُ الحُضورِ الفاعِلِ، في ما لَحِقَ مِن قَضايا، لِلمَقالَةِ الرّائعَةِ [339] التي قَدَّمَ بِها السّير كِلِفورد ألبوت لِلطَّبعَةِ الأُولَى مِن كِتابِهِ **نِظامُ الطِّبِّ** *System of Medicine* في سَنَةِ 1896، والتي ناقَشَ فيها، بِأُسلوبٍ فَذٍّ، مَوضوعاتٍ كَالتَّشخيصِ، والأَمراضِ، والأَسبابِ، والأَنماطِ، والمنظومَةِ المُصطَلَحِيَّةِ والمُصطَلَحاتِ. إذ يَنْدُرُ أَن نَجِدَ لِهذهِ المَقالَةِ ذِكْرًا الآنَ، وقَد تَكونُ قِراءَتُها أَكثَرَ نُدْرَةً. لكِنَّها كانَتْ لِكاتِبِ هذهِ السُّطورِ، الذي كانَ في سَنَةِ 1896 طَبيبًا مُبتَدِئًا، بِمَنزِلَةِ الكَشْفِ الذي ظَلَّ يَشعُرُ تجاهَهُ مُنذُ ذلكَ الحِينِ بِالامتِنانِ المُتَطامِنِ.

صَحيحٌ أَنَّ جَميعَ مُدَرِّسِي الطِّبِّ وأَساتِذَتِهِ- إلّا الذينَ تُعوِزُهُم الثَّقافَةُ النَّظرِيَّةُ مَعَ كَونِهِم 'ذَوِي كِفايَةٍ'، أَو الذينَ هُم دَجّالُونَ مَعَ كَونِهِم 'غَيْرَ ذَوِي كِفايَةٍ'- يَعتَمِدُونَ في تَوصيلِ أَبحاثِهِم إلى زُمَلائهِم، ومادَّتِهِم الدِّراسِيَّةِ إلى طُلّابِهِم، على ما يُفيدُونَهُ مِن الرُّموزِ، وعلى ما يَفهَمونَهُ مِن الفَرقِ بينَ الأَفكارِ والأَشياءِ، أَي ما لَم يَكُن مِن شَأنِهِم نَصْبُ الأَوثانِ في السُّوقِ[5]. لكِنَّ إحدَى نَتائجِ الإهمالِ الذي

(5) صَنَّفَ الفيلسوفُ فرانسِس بَيكن في كِتابِهِ (الآلِيَّةُ الجديدةُ لاكتِسابِ المَعرِفَةِ Novum Organum) المُغالَطاتِ الفِكرِيَّةَ في زَمنِهِ في أَربَعِ خاناتٍ سَمّاها أَوثانًا. وأَطلَقَ على =

وَقَعَتْ فيهِ عادَةُ تَقديمِنا لِكُتُبِنا المَنهَجِيَّةِ بِنِقاشٍ تَمهيدِيٍّ يُمكِنُ أن يُثيرَ المُفَكِّرَ والذَّكِيَّ، إن لَم يُقنِعْهُما، هيَ أن ليسَ ثَمَّةَ الآنَ إلّا القَليلُ مِمَّن يَفهَمُونَ الفُرُوقَ بينَ الكَلِماتِ، والأفكارِ، والأشياءِ، أو العَلاقاتِ المَوجودَةَ بينَها عندَ تَوصيلِ الأقوالِ.

صَحيحٌ أنَّ في الفَهْمِ المشتَرَكِ مَنجاةً لِلَّذينَ يُمارِسُونَ فَنَّهُم تَجريبيًّا مِن الكَشفِ والخَطَإِ الفادِحِ: أَي ما دامُوا لا يَسعَوْنَ إلى نَشرِ أحاديثِهِم العارِضَةِ في دَورِيّاتِنا الطِّبِّيَّةِ أو يُحرِزُونَهُ؛ ذلكَ بِأنَّ أشنَعَ أمثِلَةِ التَّخليطِ والخَطَإِ التي تَنشَأُ بِسببِ إهمالِ الأساسيّاتِ يُمكِنُ الوُقوفُ عليها بِالضَّبطِ في أكثَرِ دَورِيّاتِنا مُحافَظَةً وفي تَعامُلاتِ أكثَرِ مُجتَمَعاتِنا فَخامَةً.

ويَتحقَّقُ هذا على نَحوٍ مَخصوصٍ حينَ تكونُ أيَّةُ تَجرِبَةٍ أو فِكرَةٍ 'جَديدَةٍ' عُرضَةً لِلنِّقاشِ، ومِن ثَمَّ لِلتَّمَثُّلِ أو الرَّفضِ؛ وقَد كانَت حالَةً خاصَّةً جِدًّا مِن هذا القَبيلِ تِلكَ التي عادَتْ بِأفكارِ كاتِبِ هذهِ السُّطورِ في سَنَةِ 1918 إلى الوَراءِ إلى ما كانَ قَد تَعلَّمَهُ مِن السّير كلِفورد ألبوت في سَنَةِ 1896، وهوَ ما قادَهُ مُنذُ ذلكَ الحِينِ إلى إضمارِ تَقديرٍ صادِقٍ جِدًّا لِما استَهدَفَهُ مُؤَلِّفا هذا الكِتابِ ولِما أنجَزاهُ.

= الخانةِ الأولَى مِنها اسمَ (أوثان القَبيلَة Idols of the Tribe)، وعلى الثانيةِ اسمَ (أوثان الكَهْف Idols of the Cave)، وعلى الثالثةِ اسمَ (أوثان السُّوق Idols of the Marketplace)، وعلى الرّابعةِ اسمَ (أوثان المَسرَح Idols of the Theater). وما يُهِمُّنا مِنها هُنا أوثانُ السُّوقِ التي وَرَدَتْ في المَتْنِ. فَما يَقصِدُهُ فرانسِس بَيكن بأوثانِ السُّوقِ هوَ الأوهامُ التي تَنشَأُ مِن وَضعِ ألفاظٍ لأشياءَ غيرِ مَوجودَةٍ أو لأشياءَ غامِضَةٍ أو مُتناقِضَةٍ، أي إنَّها الأغلاطُ النّاجِمةُ عن الدَّلالةِ الزّائفةِ التي تُمنَحُها الكَلِماتُ. فبِذلكَ يَكونُ بَيكن قَد سَبَقَ عِلمَ الدَّلالةِ المُعاصِرَ. وهو يَذهَبُ إلى أنَّ الاعتِقادَ العامَّ هو أنَّ البَشَرَ يَصوغونَ أفكارَهُم في كلماتٍ مِن أجلِ إيصالِ آرائهِم إلى الآخَرينَ، لكِنْ كَثيرًا مّا تَنشَأُ الكلماتُ بِوَصفِها أبدالاً مِن الأفكارِ ويعتقِدُ البَشَرُ أنَّهُم قد غَلَبوا في نِقاشٍ مّا لأنَّهُم بَذُّوا خُصومَهُم كَلاميًّا. إنَّ تَواصُلَ تأثيرِ الكلماتِ التي تُستَعمَلُ استِعمالاً مُتنوِّعًا مِن غيرِ التِفاتٍ إلى مَعناها الصَّحيحِ يُكَيِّفُ الفَهمَ ويُوَلِّدُ المُغالَطاتِ. فكَثيرًا مّا تَخونُ الكلماتُ أهدافَها الخاصَّةَ، مُبْهِمةً الأفكارَ أنفُسَها التي صُمِّمَتْ لِلتَّعبيرِ عنها. [المُترجِم]

وأعتَقِدُ أَنَّهُ يُمكِنُ تَحقيقُ غَرَضٍ نافِعٍ إذا ما كانَتْ ثَمَّةَ مُحاوَلَةٌ لِتَقديمِ إيضاحٍ لِهذهِ المَسألةِ الخاصَّةِ، وأَنَّهُ يُمكِنُ بِذلكَ تَوجيهُ الاهتِمامِ نَحوَ الصُّعوباتِ الحاضِرَةِ في النِّقاشِ والحَديثِ الطِّبِّيَّيْنِ، لكِنْ قَبلَ البَدْءِ بِأيِّ إيضاحٍ مِن هذا القَبيلِ لا بُدَّ مِن كَلِمَةٍ مُجْمَلَةٍ بِشأنِ ما يَكتَنِفُ النِّقاشَ الآنَ مِن تَخليطٍ مَرَدُّهُ إلى الإخفاقِ المُتَواصِلِ في التَّفريقِ بينَ الأطرافِ التي كُنْتُ قَد سَمَّيْتُها [340] في مَوضِعٍ آخَرَ أسماءً، وأفكارًا، وأحداثًا (*Influenza: Essays by Several Authors*, Heinemann, 1922)، وهيَ التي يَدعُوها مُؤَلِّفا هذا الكِتابِ كَلِماتٍ، وأفكارًا، وأشياءَ.

فَأَوَّلُ ما يُعْنَى بِهِ المُشتَغِلونَ بِالطِّبِّ في المُمارَسَةِ اليَوميَّةِ لِفَنِّهِم هوَ اعتِلالُ الصِّحَّةِ الذي يَلحَظونَهُ، ويَرجِعُ إليهم مُختلِفُ الأشخاصِ مِن أجلِ مُعالَجَتِهِ.

ويُمَيَّزُ اعتِلالُ الصِّحَّةِ مِن خِلالِ مَظاهِرَ مُعَيَّنَةٍ، عادَةً مّا تُسَمَّى أعراضًا، يُحِسُّ بِها على الفَورِ مَن يُعانيها، وفي كَثيرٍ مِن الأحيانِ مَن يُشاهِدُها. ويُوجَدُ غيرُ ذلكَ أَيضًا، ومِنهُ ما يُدْعَى 'عَلاماتٍ جَسَدِيَّةً'، مِمّا يَقتَضي أن يَبحَثَهُ الأَطِبّاءُ السَّريريُّونَ بَحثًا مُتَأَنِّيًا، ويَستَلزِمُ سائرُ ذلكَ (مِمّا لَهُ أَهمِّيَّةٌ استِدلاليَّةٌ أو غيرُ مُباشِرَةٍ فَقَط) اللُّجوءَ إلى المَناهِجِ المُختَبَرِيَّةِ ومُلحَقاتِها.

على أَنَّهُ بِتَجاوُزِ الخِبْرَةِ حُدودَ الفُرصَةِ الفَردِيَّةِ كانَ مِن دَواعي الرّاحَةِ مُدَّةً طَويلَةً، مِن أجلِ إحالَةٍ وتَواصُلٍ سَريعَيْنِ، إدراكُ حَقيقَةِ أَنَّ ثَمَّةَ مَجموعاتٍ مُتَشابِهَةً مِن مَظاهِرِ اعتِلالِ الصِّحَّةِ تَحدُثُ ويتكَرَّرُ حُدوثُها مِن خِلالِ تَكوينِ إحالاتٍ عامَّةٍ مُعَيَّنَةٍ تتعلَّقُ بِهذهِ المَجموعاتِ المُتَشابِهَةِ. هذهِ الإحالاتُ العامَّةُ تُؤَسِّسُ مَفاهيمَ مَرَضِيَّةً، أَو، على نَحوٍ أكثَرَ بَساطةً، أمراضًا، وتَرْمِزُ إليها أسماءٌ هيَ، مِن غيرِ شَكٍّ، أسماءُ الأمراضِ. لكِنْ بِتَقَدُّمِ الزَّمَنِ والاتِّساعِ الحاصِلِ في مَجالِ خِبْراتِنا (أَو مَراجِعِنا) وتَعقيدِها نَجِدُ مِن الضَّروريِّ أن نُراجِعَ إحالاتِنا وأن نُعيدَ تَنظيمَ مَجموعاتِ المَراجِعِ التي تَخُصُّنا. حينَئِذٍ يَغدو إشراكُ تَرميزِنا حَتْمِيًّا ويَكونُ عَلَينا أحيانًا تَهيِئَةُ رَمزٍ جَديدٍ لِلإحالَةِ المُراجَعَةِ، في حينِ أَنّا نَستَبْقي أحيانًا أُخرَى رَمزًا قَديمًا لِما هوَ إحالَةٌ جَديدةٌ حَقًّا.

وعادَةً مّا تُوصَفُ هذهِ العَمليّاتُ بِأَنَّها اكتِشافُ مَرَضٍ جَديدٍ، أَو إيضاحُ

الطَّبيعَةِ الحَقيقيَّةِ لِمَرَضٍ قَديم، وحينَ يَكونُ تَنفيذُ هذهِ العَمَلِيّاتِ دَقيقًا، وكافِيًا، وصَحيحًا تَكونُ لَها فائدَةٌ كَبيرَةٌ جِدًّا على مُستَوى المُمارَسَةِ، إذ تَجعَلُ الإضافاتِ في الخِبْرَةِ الشَّخصيَّةِ لِلقَليلِ مِن النّاسِ مُيَسَّرَةً لِجَميعِهِم. ولكِنْ حينَ يُنقَلُ اسمٌ مّا على نَحوٍ غيرِ مَشروعٍ *مِن الإحالَةِ التي يَرمِزُ إليها إلى مَراجِعَ مَخصوصَةٍ، وهذا ما* يَحدُثُ كَثيرًا جِدًّا، يُصبِحُ تَفادِي حُدوثِ التَّخليطِ في الفِكرِ ورُبَّما في المُمارَسَةِ أمرًا غيرَ مُمكِنٍ.

وقَد نُقِلَ حَديثًا تَصْريحُ رَجُلِ طِبٍّ مُمَيَّزٍ بِأنَّ عُلَماءَ الجَراثيمِ قَد أظهَروا حَديثًا أنَّ النَّزلَةَ الوافِدَةَ influenza هيَ حُمَّى التّايفوئيد. ولا شَكَّ في أنَّ ما قِيلَ هوَ أنَّ ثَمَّةَ حالاتٍ مُعَيَّنَةً كانَ يُظَنُّ أنَّها قَد شُخِّصَتْ تَشخيصًا مُلائمًا على أنَّها مِن قَبيلِ النَّزلَةِ الوافِدَةِ أظهَرَ البَحْثُ البَكتيريُّ أنَّ التَّشخيصَ الأصَحَّ لَها هوَ أنَّها حُمَّى التّايفوئيد. لكِنْ سرعانَ ما حُمِلَ هذا الإعلانُ في الدَّوائرِ الصُّحُفِيَّةِ على أنَّهُ يَتَضَمَّنُ أنَّ مَرَضَ 'النَّزلَةِ الوافِدَةِ' هوَ في حَقيقَتِهِ مَرَضُ 'حُمَّى التّايفوئيد'، وأُعِدَّتْ فِقرَةٌ مُلائمَةٌ [341] تُذيعُ نَبَأَ الاكتِشافِ كَما لَو أنَّها تُعلِنُ أنَّ السَّيِّدَ فِنسِنت كرَملز Vincent Crummles[6] كانَ في الواقِعِ بروسِيًّا.

صَحيحٌ أنَّ هذهِ الحِكايَةَ تُصَوِّرُ التَّخليطَ الذي يَسودُ العَقلَ الاعتِيادِيَّ؛ غيرَ أنَّهُ مِن قَبيلِ الخَطَإِ الطِّبِّيِّ المُبتَذَلِ أن يَتَحَدَّثَ، وأن يُكتَبَ، وأخيرًا أن يُفَكِّرَ وكَأنَّ هذهِ الأمراضَ التي نُسَمِّيها، هذهِ الإحالاتِ العامَّةَ التي نَرمِزُ إليها، أشياءُ مُنفَرِدَةٌ لَها وُجوداتٌ خارِجِيَّةٌ.

ولا يَنبَغي أن يُظَنَّ أنَّ أيَّ رَجُلِ طِبٍّ مُثَقَّفٍ يَعتَقِدُ حَقًّا أنَّ 'ما هُوَ مَرَضٌ a disease' شَيْءٌ مادِّيٌّ، وإنْ كانَ الأسلوبُ المُستَعمَلُ حالِيًّا يُقَدِّمُ الذَّريعَةَ لِمِثلِ هذا الافتِراضِ.

على أنَّ 'الأمراضَ' تَعني بِلُغَةِ المُستَشفَياتِ 'كِياناتٍ مَرَضِيَّةً'، ويَعتَقِدُ طُلّابُ

---

(6) فِنسِنت كرَملز: مِن شخصيّاتِ رِوايةِ تشارلز دِكِنز التي عُنوانُها (نِكولاس نِكِلبي)، وتُمَثِّلُ رئيسَ مَجموعةِ كرَملز المسرحيَّةِ. [المُترجِم]

الطِّبِّ، بِحُمقٍ، أَنَّ هذهِ 'الكِياناتِ' تُوجَدُ على نَحوٍ مّا في الطَّبيعَةِ وقَد اكتَشَفَها أساتِذَتُهُم كما اكتَشَفَ كولومبس Columbus[7] أمريكا.

أمّا مُدَرِّسو الطِّبِّ، مِن ناحيَةٍ أُخرَى، فيَظهَرُونَ بِمَظهَرِ مَن يُشاطِرُ الاعتِقادَ الضِّمنِيَّ الذي مفادُهُ أنَّ جَميعَ الظَّواهِرِ السَّريريَّةِ المَعلومَةِ، أو القابِلَةِ لأَنْ تَكونَ مَعلومَةً، قابِلَةٌ لِلإيجازِ، ويَنبَغي إيجازُها، في عَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِن الفِئاتِ أو الإحالاتِ العامَّةِ، بِوَصفِها عددًا كَبيرًا جِدًّا مِن 'الأمراضِ'، وإنَّ العددَ الحقيقيَّ لِهذهِ الفِئاتِ، أَو الإحالاتِ، أَو 'الأمراضِ' قَد حَدَّدَتْهُ سَلَفًا بِنْيَةُ الكَونِ في أيَّةِ لَحظَةٍ مُعطاةٍ.

والحَقُّ أَنَّ 'الأمراضَ' تَعنِي لِهؤُلاءِ السّادَةِ وَقائعَ أفلاطونيَّةً: كُلِّيّاتٍ قَبْلِيَّةَ الوُجودِ. وهذا الاعتِقادُ غيرُ المُعلَنِ الذي لَو أُقِرَّ بِهِ صَراحَةً لَكانَ مِن المُحتَمَلِ أن يُتَغاضَى عنهُ، قَد وَرَّثَنا إيّاهُ جالينوس Galen[8]، ويَلزَمُ مِنهُ أَنَّ أفكارَنا بِشَأنِ هذا المَرَضِ، أو ذاكَ، أَو 'المرَضِ' الآخَرِ إمّا أن تَكونَ صَحيحَةً تَمامًا وإمّا أن تَكونَ خَطَأً تَمامًا، وأنَّها ليسَتْ مُجَرَّدَ أُمورٍ تتعلَّقُ بِالتَّيسيرِ الذِّهْنِيِّ. بِهذهِ الطَّريقَةِ تَكونُ الأَمراضُ التي يُفتَرَضُ وُجودُها في أيَّةِ لَحظَةٍ قابِلَةً- على ما يُعتَقَدُ- لِمِثلِ هذا الاستِنزافِ الفِئَوِيِّ شَأنُها في ذلكَ شَأنُ الحَيَواناتِ الأهلِيَّةِ في الجُزُرِ البريطانيَّةِ وسُكّانِ لَندَن. ولا يُقَرُّ في أيِّ مَكانٍ بِأنَّ الغَرَضَ الخالِصَ لِتَجميعِنا لِلحالاتِ المُتَشابِهَةِ بِوَصفِها حالاتٍ لِمَرَضٍ واحِدٍ إنَّما هوَ التَّسويغُ والتَّيسيرُ، وأنَّهُ عُرضَةٌ في أيَّةِ لَحظَةٍ لِلاستِبدالِ أو التَّنظيمِ، والأَمَلُ مَعقودٌ على أنَّا سَنَعلَمُ يَومًا مّا جَميعَ الأَمراضِ التي هِيَ 'مَوجودَةٌ'، وجَميعَ ما يتعلَّقُ بِها مِمّا يَنبَغي أن يُعرَفَ.

---

(7) كرِستوفَر كولومبس (1451-1506م). رَحّالةٌ إيطاليٌّ مَشهورٌ، يُنسَبُ إليهِ اكتشافُ العالَمِ الجديدِ (أمريكا). [المُترجِم]

(8) جالينوس (130-200م). كاتبٌ، وطبيبٌ إغريقيٌّ مَشهورٌ. كانَ مُتخصِّصًا في عِلمِ التشريحِ، وكانَ أوّلَ مَن توصَّلَ إلى العَلاقةِ بينَ الكَسرِ في العَمودِ الفِقريِّ وانقطاعِ الحبلِ الشوكيِّ والشَّلَلِ، ويُعتَقَدُ أنَّهُ أوّلُ مَن استخدَمَ قياسَ النَّبضِ في تشخيصِ الحالاتِ. [المُترجِم]

في غُضونِ ذلكَ أَصبَحَتْ خَطيئَةُ، أو عادَةُ، عَدِّ 'الأمراضِ' وَقائعَ بِالمَعنى المُبتَذَلِ لِلكَلِمَةِ شائعَةً على نَحْوٍ لَم يُثِرْ مَعَهُ أيُّ تَعليقٍ مُضادٌّ حينَ قِيلَ حَديثًا في وَثيقَةٍ رَسمِيَّةٍ (*Forty-eight Ann. Rep. Local Govt. Board,* 1918-19, Med. Supplement, p. 76) إنَّهُ "مِن الواضِحِ، في حُدودِ الخِبرَةِ المَحدودَةِ في هذا البَلَدِ بِمَرَضِ الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ encephalitis lethargica، أنَّ خَواصَّهُ البايولوجيَّةَ مُتَغَيِّرَةٌ . . .". [342]

ومِمّا يُؤَكِّدُ أنَّ هذا العَزوَ لِـ'الخَواصِّ البايولوجيَّةِ' إلى مَرَضٍ مّا لم يَكُنْ مُجَرَّدَ زَلَّةِ قَلَمٍ حَقيقَةُ أنَّ العِبارَةَ قَد كَرَّرَها الكاتِبُ نَفسُهُ على نَحوٍ يُشعِرُ بِنَوعٍ مِن الرِّضا عنها في دَوْرِيَّةِ *Annual Report of the Chief Medical Officer of the Ministry of Health,* 1919-20, on p. 366.

إنَّ الإسهابَ في أيِّ تَحذيرٍ مِمّا تَستَعمِلُهُ المَنشوراتُ الرَّسمِيَّةُ مِن صِيَغٍ تَعبيرِيَّةٍ 'واقِعِيَّةٍ' على نَحوٍ سَخيفٍ مِثلِ تلكَ الصِّيغَةِ يَبدو، بِالنَّظَرِ إلى القَولِ المُقْنِعِ جِدًّا الذي أدلَى بِهِ السِّير كِلِفورد ألبوت، أمرًا فائضًا عن الحاجَةِ. على أنَّ التَّحذيرَ يَكونُ ضَرورِيًّا حينَ نَجِدُ شَخصًا صاحِبَ يَدٍ بَيضاءَ كالسِّير جَيمس مَكّينزي James Mackenzie[9] يُصَرِّحُ بِأنَّ "المَرَضَ لا يَكشِفُهُ سِوَى الأعراضِ التي يُسَبِّبُها". ويَقولُ الواقِعِيُّونَ إنّ المَرَضَ، والأمراضَ، لا بُدَّ أن تَكونَ 'أُمورًا واقِعِيَّةً' إن كانَتْ عَوامِلَ تُسَبِّبُ الأعراضَ. وهكذا يُصبِحُ السِّير جَيمس مَكّينزي، الذي ألَحَّ بِشِدَّةٍ على أهمِّيَّةِ البَحثِ في الأعراضِ، والذي احتَجَّ بِقُوَّةٍ على خُضوعِنا لاستِبدادِ ما هوَ مُجَرَّدُ أَسماءٍ، حَليفًا غيرَ واعٍ لِلَّذينَ يَنهَمِكونَ في التَّفتيشِ عَن المادَّةِ الجَوهَرِيَّةِ الغامِضَةِ التي لَها 'خَواصُّ بايولوجيَّةٌ' والتي 'تُوَلِّدُ' أعراضًا.

واستِبدادُ الأسماءِ في الطِّبِّ المُعاصِرِ ليسَ أقَلَّ أذًى مِن الصِّيغَةِ المُعاصِرَةِ لِلواقِعِيَّةِ الفَلسَفيَّةِ المَدرَسِيَّةِ. فالتَّشخيصُ، الذي صَرَّحَ السَّيِّدُ برنارد شَو Bernard

---

(9) جَيْمس مكّينزي (1853-1925م). طبيبٌ أسكتلنديٌّ مُتخصِّصٌ في أمراضِ القَلبِ. من أهمِّ مؤلَّفاتِهِ: أمراضُ القَلب، والأعراضُ وتَفسيرُها. [المُترجِم]

Shaw[10] في مَكانٍ مّا بِوُجوبِ أن يَكونَ المَقصودُ بِهِ اكتِشافَ كُلِّ ما لَيسَ على ما يُرامُ عندَ مَريضٍ مَخصوصٍ وأسبابِهِ، كَثيرًا مّا يَعني في المُمارَسَةِ التَّلَفُّظَ الشَّكليَّ والمِطواعَ لِلاسمِ الذي يُعَدُّ مُلائمًا ويُعفي مِن الحاجَةِ إلى إجراءِ المَزيدِ مِن البَحثِ. وعلى المَدَى البَعيدِ كَثيرًا مّا يُعامَلُ التَّقديرُ الدَّقيقُ لِـ'الحالَةِ الرّاهِنَةِ' لِلمَريضِ بِوَصفِهِ ناجِمًا عَن جَهلٍ لأَنَّهُ لا يَنسَجِمُ معَ الاستِعمالِ الصّادِقِ لأَحَدِ الرُّموزِ اللفظِيَّةِ القَليلَةِ المُتاحَةِ لنا بِوَصفِها أسماءَ أعلامٍ لأمراضٍ خاصَّةٍ.

ويُمكِنُ أن يُشارَ في هذا الصَّدَدِ إلى ما كانَ مِن الجَيشِ مِن استِعمالٍ قَسْرِيٍّ لِرُموزٍ لَفظِيَّةٍ مُعيَّنَةٍ في الحَربِ الأخيرَةِ.

وقَد تَسَبَّبَ الاستِعمالُ الحَصيفُ، الذي يَجري تَحتَ الضَّغطِ وفي أحيانٍ خاصَّةٍ، لِمُكَمِّلاتٍ لُغَوِيَّةٍ مِثلِ P.U.O. (حُمَّى مَجهولَة الأصلِ pyrexia of unknown origin)، وN.Y.D. (غَير مُشَخَّصٍ بَعْدُ not yet diagnosed) في إمكانِ التَّجَنُّبِ الدّائمِ لِلمَظهَرِ المُزعِجِ لِلتَّقاريرِ الرَّسمِيَّةِ المُشتَمِلَةِ على تَشخيصاتٍ غيرِ مَرغوبٍ فيها، وإمكانِ سُهولَةِ تَكثيرِ ما يُرغَبُ فيهِ مِن اعتِقادِ غِيابِ أنواعٍ مُعَيَّنَةٍ مِن المَرَضِ. ولا شَكَّ في أنَّ الأغراضَ الرَّسمِيَّةَ تَستَوجِبُ وُجودَ شَيءٍ مِن اتِّساقِ المُمارَسَةِ في استِعمالِ الرُّموزِ، لكِن لا يَنبَغي لَنا أن نَنسَى أنَّ الإحصاءاتِ الرَّسمِيَّةَ التي يَنبَغي أن تَكشِفَ لَنا، نَظرِيًّا، عَمّا يَحدُثُ، أو عَمّا حَدَثَ في مَيدانِ التَّجرِبَةِ السَّريرِيَّةِ، هيَ في الواقِعِ أكثَرُ بِقَليلٍ مِن كَونِها تَحليلاتٍ لِتَكرارِ حُدوثِ أشكالٍ أو استِعمالاتٍ مُعَيَّنَةٍ في التَّرميزِ. [343] بَل إنَّ هذا النَّقدَ لَيَزدادُ قُوَّةً حينَ نتذَكَّرُ أنَّ الإحصاءاتِ الرَّسمِيَّةَ كَثيرًا ما تَنطَوي على إحالَةٍ على التَّرميزِ الذي لَم تُحَدَّدْ لَهُ مُمارَسَةٌ رَسمِيَّةٌ، صَحيحَةً كانَتْ أو اعتِباطِيَّةً. وهكذا نَشَرَتْ وِزارَةُ الصِّحَّةِ

---

(10) جورج برنارد شَو (1856-1950م). مؤلِّفٌ إيرلنديٌّ مشهورٌ. وُلِدَ في دَبلِن، وانتقَلَ إلى لندن حينَ أصبَحَ في العشرينيّاتِ. ألَّفَ ما يَزيدُ على سِتِّينَ مسرحيَّةً. تشتمِلُ أعمالُهُ على جرعةٍ كوميديَّةٍ. كانَ أحدَ مؤسِّسي الاشتراكيَّةِ الفابيَّةِ، وكانَتْ نظريَّةُ التطوُّرِ والوصولِ إلى السوبرمان تشغَلُهُ. ويُعَدُّ أحدَ أشهَرِ الكُتّابِ المسرحيِّينَ في العالَمِ. من أهمِّ مسرحيّاتِهِ: بيوتُ الأرامِلِ، والإنسانُ والسوبرمان، وسيِّدتي الجميلة. [المُترجِم]

في غُضونِ السَّنَواتِ القَليلَةِ الماضِيَةِ جَداوِلَ إحصائيَّةً رُحِّبَ بِها بِوَصفِها مُظهِرَةً لِلأنواعِ المُختلِفَةِ مِن شُيوعِ ما يُدْعَى الالتِهابَ الدِّماغيَّ المُسَبِّبَ لِلاستِغراقِ في النَّومِ في سَنَواتٍ مُتَعاقِبَةٍ وفي مَواسِمَ مُختلِفَةٍ، ولِلفَرقِ بينَ حالاتِ الشُّيوعِ هذهِ وتِلكَ المُتعلِّقَةِ بِـ'أمراضٍ مُشابِهَةٍ' مُعَيَّنَةٍ.

وليسَ الدَّرسُ الحقيقيُّ المُستَخلَصُ مِن هذهِ الإحصاءاتِ هوَ أنَّ 'الخَواصَّ البايولوجيَّةَ' لأيٍّ مِن هذهِ 'الأمراضِ' مُتَغَيِّرَةٌ، بَل هوَ أنَّ المُشتَغلِينَ بِالطِّبِّ يَرمِزونَ إلى حَوادِثَ سَريريَّةٍ مُتَنَوِّعَةٍ بِطَريقَةٍ مُختلِفَةٍ في أزمِنَةٍ مُختلِفَةٍ وفي أماكِنَ مُتَعَدِّدَةٍ، وأنَّ مُمارَسَةَ الطَّبيبِ نَفسِهِ في هذا المَجالِ قَد تَغيَّرَتْ مُنذُ سَنَةِ 1918 استِجابَةً لِلتَّغَيُّرِ الحاصِلِ في أفكارِهِ بِشَأنِ مَجموعَةِ 'الأمراضِ المُشابِهَةِ' المَعْنِيَّةِ.

خُلاصَةُ القَولِ أنَّ الإحصاءاتِ الطِّبِّيَّةَ تَتَعلَّقُ بِاستِعمالِ الرُّموزِ لِلإحالاتِ العامَّةِ، سَواءٌ أكانَ الرَّمزُ صَحيحًا والإحالاتُ كافِيَةً أم لَم يَكُنْ الأمرُ كذلكَ، ولا تَتَعلَّقُ بِالأشياءِ، أو الوَقائعِ، أو الأحداثِ. ولَيسَتْ لَها قيمَةٌ أساسِيَّةٌ إلّا بِوَصفِها تَحليلاتٍ لِتَكرارِ الرُّموزِ، ما لَم يُتَّفَقْ على عَلاقَةِ الرُّموزِ بِالإحالَةِ وعَلاقَةِ الإحالَةِ بِالمَراجِعِ بَعدَ ذلكَ النِّقاشِ المُنافي بِشِدَّةٍ لِلعَقلِ الطِّبِّيِّ والمَوسومِ عُمومًا بِأنَّهُ تَقطيعُ كَلِماتٍ غيرُ مُجْدٍ. على أنّا إذا رَغِبْنا في أن تُقبَلَ تَحليلاتُ الإشعاراتِ المَرَضِيَّةِ بِوَصفِها دَليلاً على ما حَدَثَ في المَيدانِ السَّريريِّ، فلا شَكَّ في أنّا يَجِبُ أن نتصَرَّفَ تَصَرُّفَ المُحاسِبينَ الجَيِّدِينَ، فنُقارِنَ ما هوَ مُدَوَّنٌ في الكُتُبِ بِالعُملَةِ الحاضِرَةِ في اليَدِ وشَواهِدِ الصَّفَقاتِ الفِعليَّةِ.

ومِمّا يَتَّصِلُ بِمَسألَةِ القِيَمِ الإحصائيَّةِ مَسألَةُ البَحثِ حينَ تُمَوِّلُهُ الدَّولَةُ أو تَدعَمُهُ ماليًّا، وتَتَحَكَّمُ بِهِ أو تُوَجِّهُهُ الهَيْآتُ الرَّسميَّةُ. فَمِن حَيثُ المَبدَأُ يَكادُ مِثلُ هذا البَحثِ يَتَّخِذُ دَومًا الشَّكلَ الظّاهِرِيَّ لِلبَحثِ في الأمراضِ.

ولا شَكَّ في أنَّ البَحْثَ الرَّسمِيَّ المُخلِصَ في الطَّبيعَةِ والعَلاقَةِ لِلإحالاتِ العامَّةِ التي نُسَمِّيها 'أمراضًا' سَيَدُرُّ بعضَ النَّفعِ، لكِنَّ ما يتخيَّلُهُ عامَّةُ النّاسِ ويَرغبونَ فيهِ هوَ التَّساؤُلُ عَمّا يَحدُثُ. وليسَ الغَرَضُ مِن هذا الكَلامِ الإيحاءَ بِأنَّ مِثلَ هذا التَّساؤُلِ يُهمَلُ كُلِّيًّا على مُستَوى المُمارَسَةِ، ومعَ ذلكَ كَثيرًا ما يَحدُثُ أنَّ

ما يَقَعُ وما يُظهِرُ الأَثَرَ الرَّسمِيَّ الأكبرَ في الباحِثِينَ ليسَ هوَ التَّساؤُلَ عن الأمراضِ ولا عن الأحداثِ، بَل هوَ شَيءٌ تَبلُغُ قِلَّةُ نَفعِهِ ما تَبلُغُهُ قِلَّةُ نَفعِ البَحْثِ في أسبابِ الحَربِ الذي تَضطَلِعُ بِهِ لجنَةٌ مِن ضُبّاطِ الاستِخباراتِ تُسَخِّرُ جهدَها لِلكَشفِ عَن سُجَناءَ مُعتَقَلِينَ في [344] الخَنادِقِ ولِوَصفِ أسلِحَتِهِم وتَجهيزاتِهِم.

إنَّ الشَّيءَ المَرئِيَّ، كالرَّصاصَةِ، هوَ ما يَحمِلُ عُقولَ 'النّاسِ العَمَلِيِّينَ' على الاقتِناعِ؛ فلِذلكَ حينَ يُناقِشُ عُلَماءُ الوَبائيّاتِ إحالاتٍ عامَّةً مُعَيَّنَةً يُسَمُّونَها 'تَكويناتٍ وَبائيَّةً' يَلجَأُ الباحِثونَ الصّارِمونَ والعَمَليُّونَ إلى إنتاجِ شَيءٍ مِثلِ ذلكَ، على طَبَقٍ أو صَحنٍ كَبيرٍ، يُشبِهُ رَأسَ يوحَنّا المَعمَدانِيّ[11] (cf. Sir Thomas Horder: *Brit. Med. Journal*, 1920, i., p. 235).

زِيادَةً على ذلكَ كُلِّهِ وفَوقَهُ يَبلُغُ تَحَكُّمُ الاستِعمالِ الانفِعاليِّ لِلُّغَةِ بِالعُقولِ مَبْلَغًا يَجعَلُ العِباراتِ التي تُوحِي بِأَنَّ الوُجودَ 'الواقِعِيَّ' لِلأمراضِ عِبارَةٌ عن مَوضوعاتٍ تَصَوُّرِيَّةٍ مَعزولَةٍ، تَقودُ الأطِبّاءَ إلى التَّفكيرِ بِهذهِ الأمراضِ كما لَو أَنَّها تُبْعَدُ عَنّا بِوَساطَةِ فِخاخِ الأسلاكِ الشّائكَةِ، أو 'تُسحَقُ' مِن خِلالِ قُوًى فيزيائيَّةٍ تُستَخدَمُ بِلا رَحمَةٍ. ولا يَقتَصِرُ فِعلُنا على إضفاءِ الطّابعِ المادِّيِّ على هذهِ المُجَرَّداتِ، بَل إنّا نُشَخْصِنُها حينَ نُواصِلُ الحَديثَ عن "العَدُوِّ الوَحشِيِّ لِلجِنسِ البَشَرِيِّ، الذي يُهاجِمُ سَواحِلَنا" كُلَّما تَسبَّبَ تَغيُّرٌ في أحوالِ الأنواءِ الجَوِّيَّةِ بِتَقليلِ مُقاوَمَةِ الشَّعبِ لِطُفَيلِيّاتِهِ الاعتِيادِيَّةِ، وكَثُرَتْ حالاتُ السُّعالِ والزُّكامِ تَبَعًا لِذلكَ.

---

(11) يوحنّا المعمدانيّ: هو مَن عَمَّدَ السَّيِّدَ المسيحَ عليهِ السَّلامُ عندَ النصارَى. ويَذكُرُ الإنجيلُ أَنَّهُ وُلِدَ من أبوَيْنِ تقيَّيْنِ هما زكريّا الكاهِنُ وأليصابات. أمّا عندَ المُسلِمِينَ فهو النبيُّ يَحيَى بنُ زكريّا عليهما السلامُ. أمّا قِصَّةُ رأسِهِ في المسيحيَّةِ فهيَ أنَّ الملِكَ هيرودس تزوَّجَ هيرودا زوجةَ أخيهِ. وكانَ هيرودس يخافُ أن يَمنعَهُ يوحنّا من الزواجِ بزوجةِ أخيهِ لأنَّها لا تَحِلُّ له، لذلكَ سجَنَهُ، وكانَتْ هيرودا تَحقِدُ على يوحنّا من أجلِ ذلك. وفي عيدِ ميلادِ الملِكِ هيرودس دعا العظماءَ إلى عشاءٍ فاخرٍ، ودخلَت ابنَتُهُ سالومي لِترقُصَ، فسُرَّ الملِكُ وقالَ لها: اطلبي ما تشائينَ، فشاورَت الصبيَّةُ أمَّها هيرودا، ثمَّ طلبَتْ رأسَ يوحنّا المعمدانيّ على طَبَقٍ. فأرسلَ الملِكُ سيّافًا يأتيهِ برأسِ يوحنّا. فأُتِيَ برأسِهِ إلى الصبيَّةِ التي سلَّمَتْهُ إلى أُمِّها. ودُفِنَ الرأسُ في دمشقَ. [المُترجِم]

ثُمَّ يَأتي رَدُّ فِعلٍ حَتْمِيٌّ؛ إذ يُصَرِّحُ أَحَدُ الشُّكوكِيِّينَ المُشاكِسِينَ، مِن غيرِ تَفكيرٍ في ما يَعنِيهِ، بِأنَّ 'النَّزلةَ الوافِدَةَ' لَيسَتْ سِوَى بِطاقَةٍ تَعريفِيَّةٍ، في حين يَرَى آخَرُ مُضطَرِبُ التَّفكيرِ 'أنَّها' ليسَتْ مَرَضًا، بَل هيَ مَجموعَةُ أعراضٍ مُتَلازِمَةٍ، أو تَجَمُّعُ أعراضٍ.

فالذي يَحدُثُ أنَّهُ في أثناءِ المُناقَشَةِ (لِلنَّزلةِ الوافِدَةِ، على سَبيلِ المِثالِ) يُعامِلُ أَحَدُهُم الاسمَ بِوَصفِهِ مُجَرَّدَ صَوتِ رِيحِ الأمعاءِ، ويَنظُرُ إليهِ آخَرُ على أنَّهُ اسمٌ لِإحالةٍ عامَّةٍ غامِضةٍ أو غيرِ مُحَدَّدَةٍ، ويَرَى فيهِ ثالِثٌ اسمًا لِمَوضوعٍ لَهُ وُجودٌ خارِجيٌّ و'واقِعِيٌّ'، إن لَم نَقُلْ: مادِّيٌّ.

ولَن يُناقِشَ أَحَدٌ مِن المُتَنازِعِينَ صِحَّةَ التَّرميزِ المُتَضَمَّنِ، ولا كِفايَةَ الإحالةِ، في حينِ أنَّ شَخصًا مّا سيُلْمِحُ، يَقينًا، إلى أنَّ الوَقائعَ المُوجَبَةَ أو السّالِبَةَ المَزعومَةَ المُتعلِّقَةَ بِـ'النَّزلةِ الوافِدَةِ' يُمكِنُ إثباتُها أو دَحضُها بِفَحْصِ اثنتَيْنِ أو ثَلاثٍ مِن 'الحالاتِ' التي يُعلَمُ كَونُها 'حالاتِ' نَزلةٍ وافِدَةٍ، وهيَ مَرَضٌ لَهُ، بِحُكمِ الفَرضيَّةِ المَوضوعَةِ، خَواصٌ وصِفاتٌ مُحَدَّدَةٌ تَحديدَ جَبَلِ إيفرِست أو وَزنِ رَطلٍ مِن الرَّصاصِ، ولا يَتطلَّبُ إلّا أن يَكتَشِفَهُ خُبَراءُ مُعتَمَدونَ على نَحوٍ مُلائمٍ ويَأخُذوا قِياسَهُ.

ويُواجَهُ أيُّ لُجوءٍ إلى التَّعريفِ بِالاستِشهادِ بِمَقُولَةِ جون هَنتَر John Hunter[12] التي مفادُها أنَّ التَّعريفاتِ هيَ أكثَرُ شَيْءٍ استِحقاقًا لِلَّعْنِ مِن بينِ جَميعِ الأشياءِ، وتُقابَلُ أيَّةُ مُطالَبَةٍ بِالضَّبطِ في اللغَةِ أو الفِكرِ بِالقَسَمِ بِأنَّ الطِّبَّ لِيسَ عِلمًا مُنضَبِطًا.

وثَمَّةَ اتِّفاقٌ عامٌّ، في الأقَلِّ، على هذهِ النُّقطَةِ.

لكِنْ هَل يُرضينا أن نَترُكَ الأمرَ على هذهِ الشّاكِلَةِ؟ وهَل يَنبَغي لَنا أن نَكونَ [345] راضِينَ بِأن نَترُكَهُ على هذهِ الشّاكِلَةِ؟ وهَل نُذعِنُ لِما يُلمَحُ إليهِ مِن أنَّ

(12) جون هَنتَر (1728-1793م). جرّاحٌ أسكتلنديٌّ. يُعَدُّ أحدَ أعظمِ العلماءِ والجرّاحِينَ في زَمانِهِ. [المُترجِم]

عُمقَ التَّفكيرِ ليسَ مِن الضَّروريّ أن يَكونَ جُزءًا مِن عدَّةِ الطَّبيبِ؟ ولا شَكَّ في أنَّ الاستِعمالَ الصَّحيحَ لِلكَلِماتِ جُزءٌ أساسيٌّ مِن آلِيَّةِ المُفَكِّرِ كما أنَّ الاستِعمالَ الصَّحيحَ لإبرَةِ الزَّرعِ البلاتينيَّةِ والمِمَصِّ جُزءٌ أساسيٌّ مِن آلِيَّةِ عالِمِ البَكتيريا؛ ولا يَنبَغي أن يُخْجَلَ مِن الاعتِرافِ بِأنَّ الفِكرَ، والتَّعبيرَ عن الفِكرِ، يَتطَلَّبانِ مِن الحِرْفِيَّةِ الكَبيرَةِ ما لا يَقِلُّ عمّا يتطلَّبُهُ مِنها تَقطيعُ شَرائحَ مِن أُنبوبٍ شَعْرِيٍّ ومُعالَجَتُهُ بِبَراعَةٍ. ومعَ ذلكَ، في الوَقتِ الذي تَتوافَرُ فيهِ المُقَرَّراتُ التي توضِحُ الآلِيَّةَ المُختَبَرِيَّةَ والتي يَنتَفِعُ بِها الطُّلّابُ، لا نَجِدُ واحِدًا مِنها مُخَصَّصًا لإيضاحِ المَبادِئِ الأساسيَّةِ لِلطِّبِّ، والأخطاءِ الأساسيَّةِ في الفِكرِ والتَّواصُلِ.

في ظِلِّ هذهِ الظُّروفِ بَدَا لِلكاتِبِ الحاليِّ قَبلَ سَنَةٍ أو سَنَتَيْنِ أنَّهُ قَد يَتَوَصَّلُ إلى نَتيجَةٍ نافِعَةٍ إذا ما حاوَلَ إزالَةَ بَعضِ مَصادِرِ التَّخليطِ، المُشَخَّصَةِ آنِفًا، بِوَساطَةِ الكِتابَةِ مِن زاوِيَةِ الجَدَلِ الكَبيرِ لِلفَلسَفَةِ المَدرَسِيَّةِ، مُؤَشِّرًا كَيفَ يَقومُ مَقامَ المَدرَسِيِّ الاسمِيِّ في هذهِ الأيّامِ الشُّكوكِيُّ الذي يَقولُ إنَّ 'النَّزلةَ الوافِدَةَ' ما هيَ إلّا اسمٌ، أمّا المَدرَسِيُّ الواقِعِيُّ فيُمَثِّلُهُ اليومَ مَن يُلَقِّنُ أنَّ النَّزلةَ الوافِدَةَ 'كِيانٌ مَرَضِيٌّ'.

لِذلكَ كانَتْ ثَمَّةَ مَقالَةٌ أو مَقالَتانِ استَمرَّتْ إعادَةُ طَبعِهِما مُنذُ ذلكَ الحينِ، وقَد تَضَمَّنَتا اقتِراحَ أنَّ السَّلامَةَ تَكمُنُ في تَبَنِّي الوَضعِ التَّصَوُّرِيِّ الذي يُنسَبُ إلى وِليَم الأوكاميّ William of Occam في المَوسوعَةِ البريطانيَّةِ Encyclopedia Britannica (11[th] ed., arts. 'Occam' and 'Scholasticism'). إذ نُخبَرُ هُناكَ (Vol. 24, p. 355) أنَّ "إضفاءَ الطّابعِ المادِّيِّ على المُجَرَّداتِ هوَ الخَطأُ الذي يَستَمِرُّ أوكام في مُكافحَتِهِ"، وأنَّهُ يَرَى أنَّ "الكُلِّيَّةَ ليسَتْ أكثَرَ مِن مَفهومٍ عَقليٍّ يَدُلُّ أُحادِيًّا على عِدَّةِ مُفرَداتٍ"، وأنَّهُ "لَيسَتْ لَهُ حَقيقَةٌ وَراءَ حَقيقَةِ الفِعلِ العَقليِّ الذي يُوَلِّدُهُ، وحَقيقَةِ المُفرَداتِ التي يُبْنَى عليها".

أمّا نَحنُ، مَعاشِرَ الأطِبّاءِ، فأكثَرُ ما يَستَحوِذُ على اهتِمامِنا مِن الكُلِّيّاتِ هوَ الإحالاتُ العامَّةُ التي نَدعوها أمراضًا خاصَّةً، ومُفرَداتُنا التي نَألَفُها هي الأعراضُ و'الحالاتُ' التي نُراقِبُها، وقَد كانَ هذا الإضفاءُ لِلطّابعِ المادِّيِّ على المُجَرَّداتِ

هوَ الخَطَأُ عَيْنَهُ الذي كافَحَهُ السّير كلِفورد ألبوت طَوالَ عُمُرِهِ، في حينِ أنَّ الرُّوحَ التي ألهَمَتْ أوكام- "رُوحٌ تَرتابُ في المُجَرَّداتِ، وتُوَسِّعُ مَجالَ المُلاحَظَةِ المُباشِرَةِ، والبَحثِ الاستِقرائيّ"- هيَ الرُّوحُ التي ما زالَت تُوَجِّهُ عَمَلَ جَميعِ الأطِبّاءِ السَّريريِّينَ الحَقيقيّينَ. هذهِ الرُّوحُ هيَ رُوحُ أبُقراط Hippocrates[13] نَفسِهِ، الذي "وَصَفَ الأعراضَ عندَ الأشخاصِ لا الأعراضَ المَرسومَةَ لِتُطابِقَ أشكالاً مِثاليَّةً مُعَيَّنَةً مِن المَرَضِ" (آدَمز Adams[14]). غيرَ أنَّ الواقعيَّةَ اللاواعيَةَ لِـ'باحِثِينا' المُعاصِرينَ فاقَتْ بِمَراحِلَ فَلسَفَةَ سَيِّدِهِم غيرِ المُعلَنِ، [346] الأفلاطونيِّ الجَديدِ العَظيم جالينوس؛ فهُم يَصِفُونَ الكِياناتِ التي كانَ، حتَّى هُوَ، سَيُحْجِمُ عنها، مِن غيرِ تَرَدُّدٍ أو شَكٍّ.

على أنّا حتَّى لَو تَجَنَّبْنا مُغالَطاتِ الواقِعِيِّينَ لَوَجَبَ علينا مَعَ ذلكَ أن نَتَجَنَّبَ الاقتِناعَ بِالاقتِصارِ على تَجميعِ المُفرَداتِ مِن ناحيَةٍ، وعلى الإذعانِ بِكَسَلٍ مِن ناحِيَةٍ أُخرَى لِبَعضِ إزعاجاتِ التَّعبيرِ التَّصَوُّرِيِّ المُشَخَّصَةِ في هذا الكِتابِ (يُنظَرُ آنِفًا: ص190-192). وقَد يَرجِعُ سَبَبُ نُشوءِ بَعضِ هذهِ الإزعاجاتِ إلى نَقصِ الخِبرَةِ لَدَى الشّارِحينَ القَليلِي الخِبرَةِ (ومِنهُم كاتِبُ هذهِ السُّطورِ) لا إلى ضَعفٍ مُتأصِّلٍ في النَّزعَةِ التَّصَوُّرِيَّةِ Conceptualism؛ لكِن يُمكِنُ الاعتِرافُ بِها، ويُمكِنُ أن نَضُمَّ جُهودَنا إلى جُهودِ المُؤَلِّفَيْنِ في مُحاولتِهِما تَهيئَةَ طَريقَةٍ أكثَرَ تَمَيُّزًا.

وعلى الرَّغمِ مِن عَدَمِ وُجودِ النِّيَّةِ في ما يَأتي مِن هذا البَحثِ لِلتَّعبيرِ بِلُغَةِ هذَيْنِ المُؤَلِّفَيْنِ عن الصُّعوباتِ التي (على وَفقِ التَّعبيرِ العاطِفِيّ) تَكتَنِفُ سَبيلَ الطَّبيبِ المُفَكِّرِ، مِن المُؤَمَّلِ أن يُؤَدِّيَ عَرضُ حالَةٍ خاصَّةٍ إلى أن يُعَزِّزَ، مِن وِجهَةِ نَظَرِ الطَّبيبِ، ما قَد قالاهُ في مُطالَبَتِهِما بِالتَّبَنِّي العامِّ لِنَظريَّةٍ لِلرَّمْزِيَّةِ.

---

(13) أبُقراط (460-370 ق.م). طبيبٌ إغريقيٌّ قَديمٌ. يُعَدُّ أبا الطبِّ، وأعظَمَ أطبّاءِ عصرِهِ، وأوّلَ مُدَوِّنٍ لكُتُبِ الطبِّ، ومُخَلِّصَ الطبِّ من آثارِ الفلسفةِ وظُلُماتِ الطقوسِ السِّحريَّةِ. وهو صاحِبُ فِكرةِ القَسَمِ المشهورِ الذي يُؤَدِّيهِ الأطبّاءُ قبلَ مُزاولةِ مِهنةِ الطبِّ. [المُترجِم]

(14) فرانسِس آدَمز (1796-1861م). طبيبٌ أسكتلنديٌّ تَرجَمَ عددًا مِن الأعمالِ الطِّبِّيَّةِ اليونانيَّةِ إلى اللغةِ الإنجليزيَّةِ، ومِن ضِمنِها أعمالُ أبُقراط. [المُترجِم]

والحالةُ الخاصَّةُ التي سَنَعرِضُها الآنَ هيَ التي كُنّا قَد ذَكَرْناها آنِفًا بِوَصفِها قَد وَجَّهَت اهتِمامَ الكاتِبِ الحاليِّ تَوجيهًا مُحَدَّدًا، قَبلَ بِضعِ سَنَواتٍ، إلى المَسائِلِ التي ناقَشَها هذا الكِتابُ؛ والشُّعورُ الحاضِرُ هوَ أنَّ الصُّعوباتِ أنفُسَها لَن تَختَفيَ ما لَم تُوَضَّح المَسائلُ الأساسيَّةُ في ضَوءِ نَظريَّةٍ لِلعَلاماتِ ونَقْدٍ لاستِعمالِ اللُّغةِ، سَواءٌ أكانَت الآراءُ التي يَتبنّاها كاتِبُ هذهِ السُّطورِ بِشَأنِ الحَلِّ الحَقيقيِّ لِلصُّعوباتِ صَحيحَةً أم كانَتْ غيرَ صَحيحَةٍ.

فَقَبلَ نَحوِ ثَمانينَ سنَةً لحظَ جَرّاحٌ مُتَخصِّصٌ في كُسورِ العِظامِ اسمُهُ هاينَة Heine[15] يَعمَلُ قَريبًا مِن شتوتغارت إصابَةَ عددٍ مِن الأطفالِ الصِّغارِ بِشَكلٍ مِن أشكالِ الشَّلَلِ في طَرَفٍ أو أكثَرَ، يَكادُ يَكونُ غيرَ مُزمِنٍ، وأنَّهُ كانَ يَعْقُبُ ذلكَ فقدانٌ لِلقُوَّةِ واضِحٌ ومُسبِّبٌ لِلهُزالِ. وقَد عَرَفَ مَن قَبْلَنا مُبَكِّرًا هذا النَّوعَ مِن المَرَضِ، لكِنَّهُ لَم يَنَلْ على أيديهِم حَظًّا وافِرًا مِن الوَصفِ كما نالَ عندَ هاينة. وباستِقطابِ أطروحَةِ هاينة الاهتِمامَ العامَّ، وبتَأكُّدِ مَلحوظاتِهِ عُمومًا، أُقِرَّ بإحالَةٍ عامَّةٍ مُحدَّدَةٍ، أو 'مَرَضٍ'، أُطلِقَ عليهِ في إنجلترا اسمُ 'شَلَلِ الأطفالِ الشَّوكِيِّ Infantile Spinal Paralysis'؛ إذ أُقِرَّ بِأنَّ الشَّلَلَ والهُزالَ كانا يَتبَعانِ تَضَرُّرَ الحَبلِ الشَّوْكيِّ. وقَد أدَّى ازدِيادُ الخِبرَةِ، وفَحصُ الحَبلِ الشَّوكيِّ في الحالاتِ التي تُوُفِّيَتْ بَعدَ مُرورِ زَمَنٍ قَليلٍ على بِدايَةِ الشَّلَلِ، إلى تَوسيعِ مَعرِفَتِنا لِلحالاتِ، وضُمِّنَت الأعراضُ على نَحوٍ مُحَدَّدٍ في الأضرارِ التي تَلحَقُ ما يُسَمَّى بِالقُرونِ الأماميَّةِ لِلمادَّةِ الرَّماديَّةِ لِلحَبْلِ الشَّوكيِّ. وقَد عُدَّت الأضرارُ في البِدايَةِ التِهابًا حادًّا، ورُمِزَ إلى المَفهومِ السَّريريِّ-المَرَضِيِّ بِتَعبيرِ 'التِهاب المادَّةِ السِّنجابيَّةِ الشَّوكِيَّةِ الأماميَّةِ الحادّ Acute Anterior Poliomyelitis'. [347]

(15) جاكوب هاينَة (1800-1879م). اختصاصيٌّ في تَقويمِ العِظامِ ألمانيٌّ. أكثرُ ما اشتهرَ بهِ دراستُهُ لِشللِ الأطفالِ التي أنجَزَها سنةَ 1840، والتي كانَت التقريرَ الطبِّيَّ الأوَّلَ عن هذا المرضِ الذي غالبًا مّا يُعرَفُ بِاسمِ مرضِ هاينَة-ميدِن، اعترافًا بِفضلِ جاكوب هاينَة وكارل أوسكار ميدِن في هذا المجالِ. [المُترجِم]

وبَعدَ عِدَّةِ سَنَواتٍ، كانَ ثَمَّةَ كَشْفٌ حاسِمٌ لِميدِن Medin[16]، وهوَ سُويديٌّ كانَتْ لَهُ مَلحوظاتٌ مُوَسَّعَةٌ على مُستَوَى التَّطبيقِ، مفادُهُ أَنَّ الحالاتِ التي مِن النَّوعِ المُشارِ إليهِ على هذا النَّحوِ حَدَثَتْ مُرتَبِطًا بَعضُها بِبَعضٍ، أو على نَحوٍ وَبائيٍّ، وكَذلكَ بِارتِباطٍ وَبائيٍّ بِحالاتٍ أُخرَى كانَتْ أعراضُها دِماغِيَّةً وناجِمَةً عن أضرارٍ تَقَعُ في الدِّماغِ.

وسارَ وِكْمان Wickman[17] تِلميذُ ميدِن بِهذهِ المَلحوظَةِ شَوطًا أبعَدَ. إذ أدرَكَ التَّرابُطَ الوَبائيَّ لِلحالاتِ ذَواتِ الطَّبيعَةِ التي وَصَفَها هاينة وميدِن بِحالاتٍ ذَواتِ أنماطٍ سَريريَّةٍ أُخرَى، وكُلُّها يُبدِي وَظيفَةً مُضطَرِبَةً لِقِسمٍ مّا مِن أقسامِ الجهازِ العَصَبِيِّ المَركَزِيِّ. وأظهَرَ، زِيادَةً على ذلكَ، أَنَّهُ بِاختِلافِ السِّنِينَ، أو بِاختِلافِ الأوبِئَةِ، سادَتْ أنماطٌ مُختَلِفَةٌ لِلحالَةِ، وإن اتَّفَقَتْ جَميعُ الحالاتِ في الطَّبيعَةِ العامَّةِ لِلأَضرارِ التي وُقِفَ عليها بِالفَحصِ القائمِ على تَشريحِ الجُثَّةِ.

وقَد أطلَقَ اسمَ مَرَضِ هاينة-ميدِن على الإحالةِ العامَّةِ الواسِعةِ التي مَكَّنَتْهُ عَبقرِيَّتُهُ السَّريريَّةُ مِن إنشائها، مُستَأنِفًا مَدًى واسِعًا مِن حالاتٍ ذَواتِ مَنحًى سَريريٍّ مُختَلِفٍ يَعتَمِدُ على تَمَركُزٍ مُختَلِفٍ لِلعمليَّةِ الحادَّةِ في الجهازِ العَصَبِيِّ.

وفي مُؤَلَّفٍ لاحِقٍ لَهُ وَسَّعَ قاعِدَةَ هذا المَفهومِ التَّركيبيِّ العَظيمِ كذلكَ، مُشيرًا إلى أَنَّهُ في بِدايَةِ حالاتِ مَرَضِ هاينة-ميدِن (على ما تَصَوَّرَهُ) كَثيرًا مّا ظَهَرَتْ أعراضٌ نَزْلِيَّةٌ catarrhal (أو تُشبِهُ النَّزلةَ الوافِدَةَ) حادَّةٌ وكانَ حُدوثُها وَثيقَ الارتِباطِ بِحالاتٍ أُخرَى ذَواتِ طَبيعَةٍ نَزلِيَّةٍ حادَّةٍ لَم تُبدِ أَيَّةَ عَلامَةٍ مِن عَلاماتِ الاضطِرابِ العَصَبِيِّ. وقَد عَدَّ هذهِ الحالاتِ حالاتٍ 'مُجْهِضَةً' لِمَرَضِ هاينة-ميدِن.

---

(16) كارل أوسكار ميدِن (1847-1927م). طبيبُ أطفالٍ سويديٌّ. أكثرُ ما اشتهرَ به دراستُهُ لِشللِ الأطفالِ الذي يُعرَفُ بِاسمِ مَرضِ هاينَة-ميدِن. [المُترجِم]

(17) أوتو آيفر وِكْمان (1872-1914م). طبيبٌ سويديٌّ. اكتشَفَ سنةَ 1907 الطابعَ الوبائيَّ والمُعْدِيَ لِمرضِ شللِ الأطفالِ. نشَرَ سنةَ 1905 أطروحتَهُ لِلدكتوراه عن شللِ الأطفالِ. كانَ تلميذَ اختِصاصيِّ أمراضِ الأطفالِ كارل أوسكار ميدِن. [المُترجِم]

غيرَ أنَّ وِكْمان واصَلَ مَسيرَهُ في سُرعَةٍ كَبيرَةٍ؛ فَفي إنجلترا، حَيثُ كانَ ما أَنجَزَهُ هُوَ وما أَنجَزَهُ ميدِن أيضًا لَمّا يَنالا بَعْدُ حَظَّهُما مِن الدِّراسَةِ، كانَ يُقالُ إنَّهُ مِن غيرِ المُمكِنِ أن تَكونَ حالَةُ اضطِرابٍ عَصَبِيٍّ ناجِمَةٌ عن التِهابٍ في الدِّماغِ حالَةً مِن حالاتِ الالتِهابِ الحادِّ لِلمادَّةِ السِّنجابِيَّةِ الشَّوكِيَّةِ الأماميَّةِ الذي يَعلَمُ العالَمُ كُلُّهُ أنَّهُ مَرَضٌ يُصيبُ جُزْءًا مَحدودًا فقط مِن الحَبْلِ الشَّوْكِيِّ!

وقَد عُدَّ الحَديثُ عَن مَرَضٍ جَديدٍ يُدْعَى مَرَضَ هاينة-ميدِن مُحاوَلَةً تافِهَةً مِن جانِبِ بَعضِ الأجانِبِ لِلغَضِّ مِن مَقامِ المُتابِعِينَ الإنجليزِ الذينَ تَبَنَّوا وِجهاتِ النَّظَرِ السّائدَةَ قَبلَ أن يَبدَأَ ميدِن ووِكْمان أبحاثَهُما. وقَد قِيلَ إنَّ مِن الواضِحِ أنَّ حالاتِهِما الدِّماغِيَّةَ لا بُدَّ أن تَكونَ حالاتٍ لِمَرَضٍ مُختَلِفٍ تَمامًا، وهوَ مَرَضٌ يُصيبُ الدِّماغَ لا الحَبلَ الشَّوْكِيَّ. وابتُكِرَ حينَئذٍ اسمُ الالتِهابِ الحادِّ لِلمادَّةِ السِّنجابِيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ Acute Polio-encephalitis لِيَفِيَ بِمُقتَضَياتِ الحالِ، على الرَّغمِ مِن التَّحذيراتِ المُبَكِّرَةِ التي أطلَقَها شترُومبيل Strümpell[18] بِالضِّدِّ مِن أيَّةِ مُضاعَفَةٍ غيرِ ضَرورِيَّةٍ لِلأمراضِ. وإنَّ تَبَنِّيَ هذا التَّفريقِ المُصطَنَعِ كُلِّيًّا بينَ ما يُمكِنُ أن يُسَمّى طَرَفَيْ نِطاقِ هاينة-ميدِن أُكِّدَ فيما بَعْدُ حينَ وُجِدَ أنَّ إعادَةَ الإنتاجِ التَّجريبِيَّةَ لِلأعراضِ والأضرارِ في القِرَدَةِ (نَتيجَةً لِتَطعيمِ هذهِ الحَيَواناتِ بِأجزاءٍ مِن أنسِجَةٍ مَريضَةٍ مأخوذَةٍ مِن البَشَرِ) كانَتْ أقَلَّ نَجاحًا حينَ تُؤْخَذُ مادَّةُ التَّطعيمِ مِن الدِّماغِ مِنها حينَ تُؤْخَذُ مِن الحِبالِ الشَّوكِيَّةِ. وفيما بَعْدُ كانَتِ الحاجَةُ ما زالَتْ قائمَةً إلى الإشعارِ المُنفَصِلِ الذي يُقَدِّمُهُ مُمارِسُو الطِّبِّ عَن حالاتِ 'الالتِهابِ الحادِّ لِلمادَّةِ السِّنجابِيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ'، و'الالتِهابِ الحادِّ لِلمادَّةِ السِّنجابِيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ'، وقَد كانَ ما حَظِيَ بِهِ إنجازُ وِكْمان مِن التَّقديرِ ضَئيلاً جِدًّا حتَّى في سَنَةِ 1918، حتَّى إنَّ السِّير آرثَر نيُوشولم Arthur Newsholme[19]، الذي كانَ

(18) إرنست أدولف غوستاف غوتفريد فون شترومبيل (1853-1925م). طبيبُ أعصابٍ ألمانيٌّ. [المُترجِم]

(19) آرثَر نيوشولم (1857-1943م). خبيرٌ بريطانيٌّ رِياديٌّ في الصحَّةِ العامَّةِ في العَهدِ الفِكتوريّ. [المُترجِم]

آنَذاكَ المَسؤولَ الطِّبِّيَّ الرَّئيسَ في مَجلِسِ الحُكومَةِ المَحَلِّيَّةِ، كَتَبَ عَن "الأَشكالِ الكَثيرَةِ لِلمَرَضِ- أَو لِمَجموعَةِ الأَمراضِ- التي يُلصِقُ بِها عُلَماءُ تَصنيفِ الأَمراضِ الآنَ البِطاقَةَ غيرَ المُمَيِّزَةِ 'مَرَض هاينة-ميدِن Heine-Medinische Krankheit'". (*Report of an Inquiry into an Obscure Disease, Encephalitis Lethargica*: [348] Reports to the Local Government Board on Public Health and Medical Subjects, New Series, No. 121.)

والحاجَةُ قائمَةٌ حتَّى في يَومِنا هذا إلى إشعارٍ مُنفَصِلٍ بِشأنِ هذَيْنِ 'الكِيانَيْنِ'، على الرَّغمِ مِن أَنَّ مُمارِسَ الطِّبِّ لَم يُزَوَّدْ بِما يَدُلُّهُ على مَسارِ الأَحداثِ حينَ تَكونُ أَعراضُ إصابَةِ الحَبْلِ الشَّوكيِّ والدِّماغِ كِلَيْهِما حاضِرَةً في الوَقتِ نَفسِهِ، وهذا ما يَحدُثُ كَثيرًا جِدًّا.

لكِن لِنَعُدْ إلى الوَراءِ. فقَد بَدَأَ الأَطِبّاءُ في أمريكا قَبْلَ الحَربِ العُظْمَى يُمَيِّزونَ سَلاسِلَ كامِلَةً مِن الحالاتِ والأَوبِئَةِ ذَواتِ الطَّبيعَةِ التي كانَ وِكْمان أَمينًا جِدًّا في وَصفِها، والتي أُسيءَ فَهْمُها إساءَةً بالِغَةً في إنجلترا. وبَلَغَتْ هذهِ الأَوبِئَةُ ذروَتَها في الانتِشارِ الواسِعِ في نيويورك وما حَولَها لِما عُرِفَ بِاسمِ الوَباءِ الكَبيرِ في سَنَةِ 1916.

وجَميعُ الخَصائصِ المُمَيِّزَةِ التي لَخَّصَها وِكْمان في إحالَتِهِ العامَّةِ الكَبيرَةِ ورَمَزَ إليها بِمَرَضِ هاينة-ميدِن كانَ الأَطِبّاءُ الأَمريكيُّونَ في ذلكَ الوَقتِ قَد عَرَفوها ودَرَسوها، لكِنَّهُم، لِسُوءِ الحَظِّ، استَبْقَوا اسمَ 'الالتِهاب الحادّ لِلمادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ'، ومِن الواضِحِ أَنَّ ذلكَ جَرَى عَمَلاً بِمَبدَإِ تَفسيرِ الكَلِمَةِ بِعَكسِ ما تُوحِي بِهِ، ما دامَ وَصفُ الأَضرارِ لم يَقتَصِرْ على المادَّةِ الرَّمادِيَّةِ بَل شَمِلَ المادَّةَ البَيضاءَ لِلدِّماغِ والحَبْلِ الشَّوكِيِّ أيضًا.

ولَم تَجْرِ، لِحُسنِ الحَظِّ، مُحاوَلَةُ التَّفريقِ السَّخيفَةُ بينَ 'التِهاب المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ' و'التِهاب المادَّةِ السِّنجابيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ'.

على أَنَّ الأَطبّاءَ في أمريكا ذَهَبوا، فيما عَدا مَسألَةَ التَّرميزِ، إلى أَبعَدَ حتَّى

مِمّا ذَهَبَ إليهِ وِكْمان؛ إذ إنَّ الدُّكتور درَيْبَر Draper[20]، الذي قَد يَكونُ أكثَرَ المُعَقِّبينَ اقتِدارًا، كانَ قَد قَدَّمَ مَفهومَهُ بِشَأنِ الالتِهابِ الحادِّ لِلمادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ، وهوَ أنَّهُ أحَدُ أنواعِ مَرَضٍ مُعْدٍ عامٍّ يَكونُ حُدوثُ الشَّلَلِ في أثنائِهِ عَرَضِيًّا وطارِئًا، على الرَّغمِ مِن أنَّ الجهازَ العَصَبِيَّ، على ما يُتابِعُ قَولَهُ، لا يَكونُ طَرَفًا في ذلكَ على الدَّوامِ، وذلكَ حينَ يُمكِنُ أن تُصيبَ الأضرارُ أيَّ جُزْءٍ مِن الجِسْمِ. (cf. Ruhräh and Mayer, *Poliomylitis in all its Aspects*, 1917).

إنَّ تَصَوُّرَ درَيْبَر، الذي هوَ أوسَعُ بِكَثيرٍ حتَّى مِن تَصَوُّرِ وِكْمان، مُسَوَّغٌ تَمامًا بِقَدْرِ ما يَذهَبُ إليهِ حينَ يُنْظَرُ في الخِبْراتِ مُجتَمِعَةً.

ومَبعَثُ الشَّكِّ الوَحيدُ (وهوَ الذي أعلَمُ أنَّ الدُّكتور درَيْبَر نَفسَهُ يُشاطِرُني إيّاهُ) هوَ التَّساؤُلُ الذي مفادُهُ: ألا يَتَطَلَّبُ الأمرُ مَعَ ذلكَ إحالةً أو مَفهومًا تَركيبيًّا أوسَعَ، إذا ما أُريدَ التَّعامُلُ بِكِفايَةٍ معَ مَلحوظاتٍ مُعَيَّنَةٍ في المَجالِ السَّريريِّ أكثَرَ جِدَّةً مِن تلكَ التي كانَتْ في سَنَةِ 1916؟

وكَيْفَما يَكُنِ الأمرُ (وسوفَ نُناقِشُ هذهِ النُّقطَةَ) فإنَّ استِبْقاءَ الأطِبّاءِ في أمريكا تَرميزًا لا صِحَّةَ لَهُ البَتَّةَ كانَ أمرًا مُؤْسِفًا جِدًّا. ذلكَ بِأنّا نَحنُ الإنجليز كُنّا، بينَ سَنَتَيْ 1916-1917، مُنشَغِلينَ انشِغالاً لَم تُتَحْ لَنا مَعَهُ دِقَّةُ التَّفكيرِ، ولَمّا تَناهَى إلى سَمعِنا ظُهورُ وَباءٍ مُعَيَّنٍ في نيويورك يُدْعَى التِهابَ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ لَهُ مَظاهِرُ مُغايِرَةٌ تَمامًا لِلمَظاهِرِ التي اعتَدْنا تَعرُّفَها بِوَساطَةِ هذا الاسمِ، عَدَدْنا الكَثيرَ مِن التَّقاريرِ التي وَصَلَتْ إلينا مِن نَزَواتِ العالَمِ الجَديدِ.

والحَقُّ أنَّهُ في سَنَةِ 1918 أخبَرَني أحَدُ أكثَرِ اختِصاصِيِّينا تَبريزًا أنَّ في وُسعِهِ، بَعدَ تَجرِبَةٍ شَخصيَّةٍ لَهُ في نيويورك في سَنَةِ 1916، أن يَجزِمَ بِأنَّ مُعظَمَ الحالاتِ التي عُدَّتْ مِن حالاتِ التِهابِ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ (أي بِالمَعنَى الذي أرادَهُ درَيْبَر) لَم تَكُنْ سِوَى حالاتِ نَزلَةٍ وافِدَةٍ! وقَد صِيغَ هذا

(20) جورج درَيْبَر (1880-1959م). كانَ الطَّبيبَ الشَّخصيَّ لِرئيسِ الوِلاياتِ المُتَّحدةِ الأمريكيَّةِ فرانكلِن روزفلت تَقديرًا لِعِلمِهِ بِمَرَضِ شَلَلِ الأطفالِ. [المُترجِم]

التَّصريحُ بِطريقَةِ المُضِيِّ في أَيِّ أَمرٍ إلى حَدِّ السُّخفِ، لكِنَّ مُحَدِّثِي لَم يَكُن يَعلَمُ أَنَّ بروشتروم Broström في الخارجِ، وهَيْمَر Hamer في الدّاخلِ، تَبَنَّيا طَوالَ سَنواتٍ كَونَ التِهابِ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ (بِالمَعنَى القَديم) مَظهَرًا لِلإصابَةِ بِالنَّزلَةِ الوافِدَةِ في الجهازِ العَصَبِيِّ. [349]

وفي أَواخِرِ سَنَةِ 1917، وأَوائلِ سَنَةِ 1918، بَدَأَ كاتِبُ هذهِ السُّطورِ (الذي كانَ آنَذاكَ يَستَمتِعُ بِفُرصَةٍ غيرِ اعتِيادِيَّةٍ شَيْئًا مّا لِدِراسَةِ المَرَضِ جُملَةً) يَلْحَظُ حُدوثَ حالاتٍ مُمَيَّزَةٍ لَها طَبيعَةٌ عَصبيَّةٌ ومُشْبِهَةٌ لِلنَّزلَةِ الوافِدَةِ قادَتْهُ إلى أَمرَيْنِ؛ أَحَدُهُما التَّنَبُّؤُ بِأَنَّ سَنَةَ 1918 ستَكونُ سَنَةَ طاعُونٍ، والآخَرُ أَنّا نُوشِكُ أَن نُعاني وَباءً مِن مَرَضِ هاينة-ميدِن الدِّماغِيِّ، أَو مِن نَمَطِ 'التِهابِ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ'.

والحَقُّ أَنَّهُ بَعدَ مُدَّةٍ وَجيزَةٍ كانَتْ جَميعُ 'أَنماطِ' مَرَضِ هاينة-ميدِن تَقريبًا التي وَصَفَها وِكْمان مَعروفَةً في لَندَن، وإنْ كانَ الشُّيوعُ لِلأَنماطِ الدِّماغِيَّةِ (Crookshank, *Lancet*, 1918, i., pp. 653, 699, 751).

غيرَ أَنَّ هذا الشُّيوعَ قَد أُغفِلَ، جُملَةً، لِلأَسَفِ، وصُرِفَ الاهتِمامُ إلى عَدَدٍ قليلٍ نِسبيًّا مِن الحالاتِ التي لَها أَعراضٌ شَديدَةٌ مِن نَمَطٍ غيرِ مألوفٍ كانَ يُظَنُّ بادِيَ الرَّأْيِ أَنَّها حالاتٌ مِمّا يُدْعَى 'التَّسَمُّمَ السُّجُقِّيَّ' botulism و(قَد أُلْمِحَ إلى) أَنَّها ناجِمَةٌ عَن تَسَمُّمٍ بِالمَوادِّ الغِذائيَّةِ التي تُرسِلُها أَلمانيا بِنِيَّةٍ شَرٍّ مُبَيَّتَةٍ. وإنَّ تأريخَ المَفهومِ الذي يُرمَزُ إلَيهِ بِـ'التَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ' هوَ، في نَفسِهِ، ضَخْمٌ يَفوقُ التَّصوُّرَ، ويَستَحِقُّ الفَحْصَ.

فَمِن المُمكِنِ أن يَكونَ صَحيحًا وكافِيًا لِعَدَدٍ مُعَيَّنٍ مِن التَّجارِبِ أَو المَراجِعِ، لكِنَّ لِذلكَ شَأْنًا آخَرَ. فالمَعلومُ هوَ أَنَّ اسمَ 'التَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ' كانَ قَد استُعمِلَ مِرارًا وتَكرارًا في حالاتٍ، على الرَّغمِ مِن مُماثَلَتِها سَريريًّا لِلوَصفِ المُقَدَّمِ لِحالاتِ التَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ، لا عَلاقَةَ لَها، معَ ذلكَ، بِالتَّسَمُّمِ بِالمُنتَجاتِ التي هيَ مِن نَوعِ العُصَيّاتِ المُسَمّاةِ عُصَيَّةَ التَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ *B. botulinus* -التي هيَ العِلَّةُ التَّصوُّرِيَّةُ لِلتَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ.

أَمّا أَنَّ هذا الشَّكلَ مِن التَّسَمُّمِ قَد كانَ لَهُ صَدّى في مَجالِ التَّجرِبَةِ أَو لَم يَكُنْ، فأمرٌ لَسْنا بِصَدَدِ تأكيدِهِ هُنا ولا نَفيِهِ، لكِنَّ مِن المُقَرِّ بِهِ الآنَ في كُلِّ مَكانٍ أَنَّ الحالاتِ الدِّماغيَّةَ المُمَيَّزَةَ في رَبيعِ سَنَةِ 1918 التي سَبَقَ الإلماحُ إليها لا شَأنَ لَها البَتَّةَ بِهذهِ العُصَيَّةِ المَشهورةِ وما تُوَلِّدُهُ، خُرافَةً كانَ ذلكَ أم حَقيقَةً قائمَةً. على أَنّي، قَبلَ أن يُهجَرَ التَّشخيصُ الخَطَأُ لِلتَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ، كُنتُ قَد عَبَّرْتُ عن وِجهَةِ النَّظرِ التي مفادُها أَنَّ هذهِ الحالاتِ تَقَعُ في نِطاقِ مَرَضِ هاينة-ميدِن، أو الإحالَةِ العامَّةِ، وتُمَثِّلُ، إن جازَ التَّعبيرُ، 'نَمَطًا' مُتَطَرِّفًا مِن هذا 'المَرَضِ.' وقَد تَبَنّى هذا الرَّأيَ الرّاحِلُ السّير وِلْيَم أوسلَر William Osler[21]، وكذلكَ (وإنْ كانَ ذلكَ مَصحوبًا بِدَرَجَةٍ مُعَيَّنَةٍ مِن التَّحَفُّظِ) الدُّكتور درِيْبَر الذي طُلِبَ مِنهُ، إبّانَ عَمَلِهِ في فَرَنسا في ذلكَ الوَقتِ، أن يُعِدَّ تَقريرًا عن المَوضوعِ. وقَد طَوَّرْتُ أفكاري الشَّخصيَّةَ فيما بَعْدُ في سَنَةِ 1918 حينَ تَتَبَّعْتُ في مُحاضَراتي في جامِعَةِ تشادوِك Chadwick نُمُوَّ مَفهومِ هاينة-ميدِن وأَظهَرْتُ قابِلِيَّتَهُ، إذا ما وُسِّعَ قَليلاً فقط، لأن يُطَبَّقَ على الحالاتِ التي نَحنُ بِصَدَدِها، فَما لَقِيَتْ أفكاري تلكَ إلّا القَليلَ مِن التَّأييدِ العامِّ؛ ذلكَ بِأَنَّ مَجلِسَ الحُكومَةِ المَحَلِّيَّةِ، الذي هَجَرَ سَريعًا النِّسبَةَ إلى التَّسَمُّمِ السُّجُقِّيِّ، اكتَشَفَ أَنَّ ثَمَّةَ شَخصًا اسمُهُ فون إكونومو Von Economo[22]، وهو طَبيبُ أمراضٍ عَقليَّةٍ أُستراليٌّ، كانَ قَد وَصَفَ حالاتٍ ذَواتِ طَبيعَةٍ مُماثِلَةٍ قَبلَ سَنَةٍ مِن ذلكَ التَّأريخِ بِأَنَّها حالاتٌ لِـ'مَرَضٍ جَديدٍ' هوَ: الالتِهابُ الدِّماغيُّ المُسَبِّبُ لِلاستِغراقِ في النَّومِ. وسَبَبُ اختِيارِ هذا الاسم أَنَّ الالتِهابَ الدِّماغِيَّ كانَ مِن الأَعراضِ المَشهورَةِ، والتِهابَ أجزاءٍ مِن الدِّماغِ كانَ مِن الأَضرارِ المَشهورَةِ.

---

(21) ولِيَم أوسلَر (1849-1919م). طبيبٌ كَنَدِيٌّ. يُعَدُّ واحدًا من أعظَم رموزِ الطبِّ في العصرِ الحديثِ، حتّى إنَّهُ وُصِفَ بِأبي الطبِّ الحديثِ. وكانَ كذلكَ اختِصاصيًّا في عِلمِ الأمراضِ، ومُؤرِّخًا، وكاتِبًا، ومُحاوِرًا. أَلَّفَ كتابًا ظلَّ مُهمًّا طَوالَ أربعينَ سنةً منذُ تأليفِهِ هوَ (أساسيّاتُ الطبِّ). [المُترجِم]

(22) كونستانتين فريهر فون إكونومو (1876-1931م). مُحلِّلٌ نَفسيٌّ، وطبيبُ أعصابٍ رومانيٌّ من أصلٍ يونانيٍّ. أكثرُ ما عُرِفَ به اكتشافُهُ مرضَ الالتهابِ الدِّماغيِّ المسبِّبِ لِلاستغراقِ في النومِ. [المُترجِم]

ولَمّا كانَت الحالاتُ الإنجليزيَّةُ التي سُمِّيَتْ في البَدْءِ 'التَّسَمُّمَ السُّجُقِّيَّ' مُطابِقَةً إلى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ لِتلكَ التي شاهَدَها فون إكونومو، سادَ شُعورٌ بِأَنَّها كانَتْ حالاتٍ لِلمَرَضِ الذي وَصَفَهُ، استِنادًا إلى قاعِدَةِ بانغلوس Bangloss[23] التي مفادُها أَنَّ الأشياءَ لا يُمكِنُ أَن تَكونَ خِلافَ ما هيَ عليهِ. وسادَ شُعورٌ أَيضًا بِأَنَّها لا يُمكِنُ أن تَكونَ مِن حالاتِ التِهابِ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ- لِلأسبابِ التي سَبَقَتِ الإشارَةُ إليها. وكانَتْ لِلسّير آرثَر نيوشولم إحالاتٌ استِخفافيَّةٌ [350] على مَرَضِ هاينة-ميدِن، وازَنَها ما اقتَرَحَهُ أَحدُ مُساعِديهِ مِن أَنَّ الكَثيرَ مِن الحالاتِ التي كانَ يُظَنُّ في الماضي أَنَّها حالاتٌ لِذلكَ الدّاءِ كانَتْ في الحقيقَةِ مِن حالاتِ الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّوم، وإنْ كانَ السّير آرثَر قَد قالَ أيضًا إنَّ الحالاتِ المَعْنِيَّةَ كانَتْ قَد "أَتَتْ في ضِمْنِ الحُدودِ الواسِعَةِ لِلتَّعريفِ المَقبولِ عُمومًا لِمَرَضِ هاينة-ميدِن" (*Report of an Inquiry into an Obscure Disease*, etc., pp. 2, 36).

كانَ يَنبَغي، إذَن، أن يَكونَ المَرَضُ هوَ الالتِهابَ الدِّماغيَّ المُسَبِّبَ لِلاستِغراقِ في النَّومِ، وبِذلكَ خُلِقَ هذا الكِيانُ، وأُضيفَ مَرَضٌ آخَرُ يَجِبُ الإشعارُ بِهِ إلى قائمَةِ 'الأمراضِ المُشابِهَةِ' التي يتصَدَّرُها الالتِهابُ الحادُّ لِلمادَّةِ السِّنجابِيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ، والالتِهابُ الحادُّ لِلمادَّةِ السِّنجابِيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ.

---

(23) الدكتور بانغلوس وفلسفتُهُ هما النقطةُ الأساسيَّةُ في سُخريةِ الكاتبِ الفرنسيِّ المشهورِ فولتير (1694-1778) في روايتِهِ (كانديد) التي أَلَّفَها رَدًّا على نزعةِ التفاؤُلِ لدى الفيلسوفِ الألمانيِّ لايبنتز الذي قالَ: "كلُّ شيءٍ على خيرِ حالٍ في أحسَنِ عالَمٍ يُمكِنُ أن يكونَ"، وذهبَ إلى أنَّ العالَمَ كامِلٌ وأنَّ كلَّ ما فيهِ من الشَّرِّ ما هو إلّا وسيلةٌ للمزيدِ من الخيرِ. فهذهِ الفلسفةُ قد حوكِيَتْ مُحاكاةً ساخرةً باعتِناقِ الدكتور بانغلوس لها، وهو يُمَثِّلُ دورَ مُعلِّم كانديد ومُرَبِّيهِ في الرِّوايةِ. وينكشِفُ الجانبُ الساخرُ في الرِّوايةِ من خلالِ إثباتِ الراوي أَنَّ كلَّ شيءٍ على أحسنِ حالٍ في الوقتِ الذي تتراكمُ فيهِ البلايا والمصائبُ أمامَ مَصائرِ الشخصيّاتِ، فيَسخَطُ كانديد من مُرَبِّيهِ بانغلوس الذي هو صورةٌ روائيَّةٌ للفيلسوفَيْنِ لايبنتز ورُوسّو اللذَيْنِ يَسخَرُ فولتير من أفكارِهِما وأطروحاتِهِما، ومِن ثَمَّ يبدأُ كانديد حياةً جديدةً وقد توصَّلَ إلى أنَّ تعاليمَ بانغلوس هُراءٌ. [المُترجِم]

على أَنَّهُ كانَ قَد أُلْمِحَ بِخُبْثٍ إلى أَنَّ الطَّريقَةَ الوَحيدَةَ التي يُمكِنُ بِها تَحديدُ تَمييزِ هذهِ الأَمراضِ 'المُتَقَلِّبَةِ'، التي يُحاكي بَعضُها بَعضًا على نَحوٍ مُزعِجٍ جِدًّا، هيَ الاعتِمادُ على الأَشكالِ الرَّسمِيَّةِ المُختلِفَةِ التي يُبْلَغُ عن تلكَ الأمراضِ على أَساسِها!

ورُبَّما لم يَكُنْ هذا الاستِهزاءُ مُنصِفًا؛ إذ إنَّ السُّلُطاتِ الرَّسمِيَّةَ كانَتْ قَد ذَكَرَتْ، يَقينًا، أنَّ التِهابَ المادَّةِ السِّنجابِيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكِيِّ يَحدُثُ في الصَّيفِ، ويُصيبُ الأَطفالَ، ويتعلَّقُ بِالحَبْلِ الشَّوكيِّ، في حينِ أَنَّ الالتِهابَ الدِّماغيَّ المُسَبِّبَ لِلاستِغراقِ في النَّومِ يَحدُثُ في الشِّتاءِ، ويُصيبُ البالِغِينَ، ويتعلَّقُ بِجُزءٍ مُعَيَّنٍ مِن الدِّماغِ؛ ويَبدو أنَّ مُحاوَلَةَ التَّمييزِ هذهِ ما زالَتْ مُتَبَنّاةً، وإنْ كانَ قَد قِيلَ إنَّ "التَّمييزَ الاعتِباطِيَّ لالتِهابِ المادَّةِ السِّنجابِيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ بِوَصفِهِ مَرَضًا يَجِبُ الإشعارُ بِهِ، ثَبتَ أَنَّهُ مِقياسٌ مُفيدٌ وقَد قَدَّمَ لَنا نَوعًا مِن الحَلِّ الوَسَطِ لِلحالاتِ البَيْنِيَّةِ" (*Report C.M.O. to the Minister of Health*, 1920, p. 64).

وقَد يَظهَرُ أنَّ الغَرَضَ مِن الاحتِفاظِ بِالإحالةِ العامَّةِ 'التِهاب المادَّةِ السِّنجابِيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ' هوَ تَقديمُ حَلٍّ وَسَطٍ لِلحالاتِ التي لا تُكونُ مُلائمَةً في الفَصائلِ الأُخرَى- ولا شَكَّ في أَنَّ هذا يتضمَّنُ إقرارًا بِعَدَمِ كِفايَتِها- على الرَّغمِ مِنَ الإقرارِ المُتَقَدِّمِ بِأنَّ 'ما يُسَبِّبُها' هوَ نَفسُهُ الذي يُسَبِّبُ التِهابَ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ (*Annual Report of C.M.O. to the Minister of Health*, 1919-20, p. 260).

غيرَ أنَّ الصُّعوبةَ العَمَليَّةَ تَكمُنُ في أَنَّهُ، على الرَّغمِ مِن القَراراتِ الرَّسمِيَّةِ، كَثيرًا مّا يَستَحيلُ تَمامًا مِن النّاحيةِ المَنطقيَّةِ الحُكمُ على حالَةٍ مّا بِأَنَّها تَنتَمي إلى إحدَى الفَصيلَتَيْنِ- التِهابِ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ والالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ- بِسَبَبِ حُدوثِ بَعضِ الحالاتِ الشَّوكيَّةِ في الشِّتاءِ وأَحيانًا عندَ البالِغِينَ، في حين تَحدُثُ بعضُ الحالاتِ الدِّماغيَّةِ في الصَّيفِ ولا يَندُرُ حُدوثُها عندَ الأَطفالِ. وقَد حَلَّ هذهِ الصُّعوبَةَ العَمليَّةَ حَلًّا لَقِيَ قَبولاً واسِعًا الدُّكتور نيتير Netter[24] مِن باريس، وهوَ مُؤَيِّدٌ مُتَحَمِّسٌ لاعتِقادِ وُجودِ 'كِياناتٍ' مُنفَصِلَةٍ.

---

(24) جوست أرنولد نيتير (1855-1936م). طبيبٌ فرنسيٌّ، اختِصاصيٌّ في الصِّحَّةِ العامَّةِ، =

ويُسهِبُ نيتير في تَفسيرِ حَقيقَةِ أَنَّ الحالاتِ تُمَيَّزُ بِسُهُولَةٍ أَقَلَّ مِن سُهولَةِ تَمييزِ الأَوصافِ الرَّسمِيَّةِ، بِتأكيدِهِ أَنَّ المَرَضَيْنِ يُحاكي أَحَدُهُما الآخَرَ وأَنَّ لِلالتِهابِ الدِّماغيِّ شَكلَ التِهابِ لِلمادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ، وأَنَّ لالتِهابِ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ شَكلَ التِهابِ دِماغيٍّ، مُوفِيًا بِذلكَ بِأَحكامِ فَلسَفَةِ بانغلوس مَرَّةً أُخرَى. غيرَ أَنَّ الحَلَّ الذي تَوَصَّلَ إليهِ نيتير يَبدو نَفعُهُ في الحقيقةِ كَنَفعِ تَصنيفِ كَوْمَةٍ مِن أوراقِ اللَّعِبِ إلى 'حُمْرٍ بِلاطِيَّةٍ red court'، و'سُودٍ مُجَرَّدَةٍ black plain'.

فَعندَ ظُهورِ مَلِكِ البستونِيِّينَ في وَرَقِ اللَّعِبِ يَغدو سَهْلاً على المَرْءِ أن يَقولَ، بَدَلاً مِن الإقرارِ بِأَنَّهُ قَد قُدِّمَتْ فِئَةٌ يَتَعذَّرُ الدِّفاعُ عنها، إنَّهُ قَد ظَهَرَتْ 'وَرقَةٌ حَمراءُ بِلاطِيَّةٌ' مِن النَّمَطِ 'الأَسْوَدِ'، وأن يَدَّعِيَ تَقَوِّيَ هذا الوَضعِ بِظُهورِ الدِّيناريِّيْنِ في وَرَقِ اللَّعِبِ- ومِن الواضِحِ أَنَّهُما 'ورقتانِ سَوداوانِ مُجرَّدَتانِ black plain مِن النَّمَطِ 'الأَحْمَرِ red'[25]. هذا هوَ مَنطِقُ الطِّبِّ اليَومَ.

فَليسَ مِمّا يُثيرُ الاستِغرابَ، في ظِلِّ هذهِ الظُّروفِ، أن يَغدُوَ التَّخليطُ أكثَرَ اضطِرابًا، وأن يُشْعِرَ الأَطِبّاءُ [351] بِالحالاتِ بِما يَرْتَؤُونَ مِن العِباراتِ، وأن

= وطِبِّ الأطفالِ، وعِلمِ الجراثيم. أصبَحَ أُستاذًا في كلِّيَّةِ الطِّبِّ في سنةِ 1882. عُرِفَ بإنجازاتِهِ في مَجالاتِ التِهابِ السَّحايا الدِّماغِيِّ-الشَّوكيِّ، وشَلَلِ الأطفالِ، وأمراضِ المُكَوَّراتِ الرِّئويَّةِ، والتِهابِ الدِّماغِ، وداءِ المنطقةِ. وهو مِن أوائلِ مَن طَبَّقوا عِلمَ الجراثيمِ في مَجالِ الطِّبِّ السَّريريِّ. [المُترجِم]

(25) تتألَّفُ مجموعةُ ورَقِ اللعِبِ من أوراقٍ بِلَونَيْنِ، هما اللونُ الأحمرُ واللونُ الأسوَدُ، لكنَّ كِلا اللونَيْنِ يشتَمِلُ على جميعِ الفِئاتِ نفسِها من الرقمِ (2) إلى الآص Ace. والذي يُريدُ الكاتِبُ أن يُبَيِّنَهُ أنَّهُ من دَواعِي النقصِ في القولِ أن يُذكَرَ أنَّهُ ليسَ ثَمَّةَ إلّا أوراقٌ حُمرٌ وَجْهِيَّةٌ red face cards وأوراقٌ سُودٌ لاوَجْهِيَّةٌ (رَقْمِيَّةٌ numbered)؛ فمِن الواضحِ أنَّهُ تُوجَدُ أيضًا أوراقٌ سُودٌ وَجْهِيَّةٌ وأوراقٌ حُمْرٌ رَقْمِيَّةٌ. وتُسَمَّى الأوراقُ الوجهيَّةُ بِلاطيَّةً court لأنَّها مَلَكيَّةٌ royal، وتُسَمَّى الأوراقُ الرَّقميَّةُ مُجرَّدَةً plain للإشارةِ إلى أنَّها أوراقٌ اعتياديَّةٌ وأكثرُ عُموميَّةً، وأنَّها ليسَتْ مَلَكِيَّةً (وتكونُ عادةً أدنى منزِلَةً من فِئةِ الأوراقِ المَلَكِيَّةِ). [المُترجِم]

يُطالَبَ مَسؤولُو وِزارَةِ الصِّحَّةِ بِتَقديمِ تَفسيرٍ لِعَدَمِ قَطعيَّةِ إحصاءاتِهِم المُسَبِّبِ لِلحَيْرَةِ مِن خِلالِ زَعْمِهِم حُدوثَ تَغَيُّرٍ في الخَصائصِ البايولوجيَّةِ لِلمَرَضِ!

ومِمّا هوَ أكثَرُ إشكالاً المُهِمَّةُ غيرُ المَرغوبِ فيها التي تتضَمَّنُ أن تُطَرَحَ مِن الإحصاءاتِ حالاتُ 'الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ' التي تَتأبّى على أن تتكَشَّفَ عن استِغراقٍ في النَّوْمِ!

على أنَّ الجانِبَ المُهِمَّ حَقًّا في الحالَةِ الحاضِرَةِ المُتَمَثِّلَةِ بِعَدَمِ القَطعيَّةِ وبِالتَّخليطِ النّاجِمَيْنِ عن كَراهَةِ مُواجَهَةِ المَسائلِ الأساسيَّةِ وبَحْثِ المَقصودِ بِـ'ما هُوَ مَرَضٌ a disease'، هوَ أنَّ المُلاحَظَةَ مَكبوحَةٌ، والتَّواصُلَ صَعْبٌ، والنِّقاشَ غيرُ مُجْدٍ، والتَّعميمَ مُحالٌ. ويُمكِنُ أن يُقالَ على نِطاقٍ واسِعٍ إنَّ اللَومَ إنَّما يُوَجَّهُ إلى المُحَقِّقِينَ الرَّسمِيِّينَ الذينَ كانَتْ شُؤونُ سَنَةِ 1918 في عُهدَتِهِم، فَلَم يَنطَلِقُوا انطِلاقًا مُلائمًا لِلبَحْثِ في جُمْلَةِ الظُّروفِ ذاتِ الصِّلَةِ، جُمْلَةِ حُزْمَةِ وَرَقِ اللَّعِبِ، بَل قَصَروا اهتِمامَهُم على الحالاتِ التي تَستَقطِبُ أكبَرَ قَدرٍ مِن الاهتِمامِ، الأسْمَى مِن وَرَقِ اللَّعِبِ. وكانَ يَنبَغي لَهُم البَدْءُ بِمُناقَشَةِ جَميعِ المَراجِعِ المُتاحَةِ، لكِنَّ ما يُظهِرُهُ عُنوانُ التَّقريرِ الرَّسمِيِّ- بَحْثٌ في مَرَضٍ غامِضٍ، الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ- هوَ أنَّ المَسألَةَ الحقيقيَّةَ التي هيَ مَوضِعُ الخِلافِ قَد سُلِّمَ بِها ابتِداءً. وقَد افتُرِضَ أنَّ ثَمَّةَ كِيانَيْنِ مَوجودَيْنِ- التِهابَ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ، والالتِهابَ الدِّماغيَّ المُسَبِّبَ لِلاستِغراقِ في النَّومِ-، واستَمَرَّ الباحِثُونَ حينَئذٍ في تَساؤُلِهِم: أ'شَيْءٌ واحِدٌ' هذانِ الكِيانانِ أم شَيْئانِ مُختَلِفانِ؟ وانتَهى بِهِم الأمرُ إلى أنَّهُما لَم يَكونَا الشَّيءَ نَفسَهُ. ولا شَكَّ في أنَّهُ لَيسَ ثَمَّةَ مَن يُجادِلُ في وُجودِ فَرْقٍ بينَ الإحالَتَيْنِ، لكِنَّ المُحَقِّقِينَ الرَّسمِيِّينَ لَم يُناقِشُوا كِفايَةَ الإحالَتَيْنِ فيما يتعلَّقُ بِالمَرجِعَيْنِ، أو حَسَناتِ الاحتِفاظِ بِالإحالَةِ المُفرَدَةِ (على ما اقتَرَحَ بَعضُنا) التي يُرمَزُ إليها بِمَرَضِ هاينَة-ميدِن. ولَو اتُّجِهَ صَوبَ الوِجهَةِ الأخيرَةِ لَجَنَّبْنا أنفُسَنا مُشاهَدَةَ المَنظَرِ الكَئيبِ لِلمُشتَغِلِينَ بِالعِلمِ وهُم يُفَرِّقُونَ على وَجهِ التَّخصيصِ بينَ ثَلاثَةِ 'كِياناتٍ'؛ إذ عَدُّوا كُلَّ واحِدٍ منها مُمَيَّزًا بِسِمَةٍ خاصَّةٍ تَكونُ أحيانًا حاضِرَةً فيها جَميعًا.(Crookshank, *British Medical Journal*, 1920, ii., 916)

ومَعَ ذلكَ سارَ الأمرُ على هذا المِنوالِ: وبِوَساطَةِ تَقريرٍ بِشَأنِ تَصاميمِ مَلِكَةِ

الإسباتِيِّينَ واثنَيْنِ مِن القُلوبِ في وَرَقِ اللَعِبِ أصبَحْنا مَدْعُوِّينَ لِنَعلَمَ خَصائصَ المَجموعَتَيْنِ: مَجموعَةِ الأوراقِ 'الحُمْرِ البِلاطِيَّةِ'، ومَجموعَةِ الأوراقِ 'السُّودِ المُجرَّدَةِ'!

فَالذينَ يُلقُونَ بِأبصارِهِم مِنّا، إن جازَ التَّعبيرُ، صَوبَ جَميعِ الحالاتِ الشّائعةِ، فَيَرَوْنَ بِذلكَ النِّظامَ، والتَّسَلسُلَ، والاستِمراريَّةَ، زِيادَةً على الحاجَةِ إلى الإحالَةِ المُتَبادَلَةِ بينَ جَميعِ أعضاءِ السِّلسِلَةِ الواحدَةِ، يَلقَوْنَ مِن الازدِراءِ ما يَلقَاهُ مَن يُصَرِّحُ بِأنَّ طَرَفَي الطَّيْفِ يُماثِلُ أحدُهُما الآخَرَ! ونَحنُ نَرغَبُ في أن نَضَعَ تَجارِبَنا تَحتَ أقَلِّ عَدَدٍ مُمكِنٍ مِن الإحالاتِ العامَّةِ التي تَنسَجِمُ معَ الأشغالِ العَمَلِيَّةِ في التَّواصُلِ: فيُقالُ لَنا إنَّنا نَخلِطُ الكِياناتِ المُنفَصِلَةَ، أي الأمراضَ التي هيَ مُتَشابِهَةٌ لكِنَّها فَريدَةٌ، ولَيْسَتْ مُتَماثِلَةً! وزِيادَةً على ذلكَ، يَتَجلَّى ما هوَ أكثَرُ شَناعَةً في الإساءَةِ إلينا في كَونِنا قَد تَوَصَّلْنا إلى أنَّ أطِبّاءَ القَرنِ السّادِسَ عَشَرَ كانوا على حَقٍّ في ذَهابِهِم مَذهَبَ بروشتروم وهَيْمَر اليَومَ الذي يَقضي بِأنَّ الحالاتِ العَصَبِيَّةَ التي أدرَجَها وِكْمان في ضِمنِ الإحالَةِ هاينَة-ميدِن، معَ ما تُسَمِّيها وِزارَةُ الصِّحَّةِ حالاتِ 'الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّوم'، تَحدُثُ حُدوثًا وَبائيًّا في الأوقاتِ التي تَكثُرُ فيها النَّزلاتُ التَّنَفُّسِيَّةُ والمَعِدِيَّةُ-المِعَوِيَّةُ التي نُسَمِّيها النَّزلَةَ الوافِدَةَ (Cf. *op. cit.*, *Influenza: Essays by Several Authors*). [352]

فَمِنْ ثَمَّ يَقولُ المَسؤولونَ الرَّسمِيُّونَ إنَّهُ مِمّا لا يُصَدَّقُ أن تَكونَ النَّزلَةُ الوافِدَةُ، والتِهابُ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ، والتِهابُ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ لِقِشرَةِ الدِّماغِ، والالتِهابُ الدِّماغيُّ المُسَبِّبُ لِلاستِغراقِ في النَّوم، كُلُّها "شَيْئًا واحِدًا"! فالحالاتُ التي نُطلِقُ عليها نَحنُ اسمَ النَّزلَةِ الوافِدَةِ هيَ لَيْسَت تلكَ التي نُطلِقُ عليها أيًّا مِن الأسماءِ الأُخرَى، وليسَ في الإمكانِ العُثورُ على عَلاقَةٍ مّا بينَ الحالاتِ التي نُطلِقُ عليها هذهِ الأسماءَ المُختلِفَةَ إلّا عَلاقَتَي الزَّمانِ والمَكانِ! (Cf. *Rep. C.M.O. to Min. of Health*, 1919-20, p. 48).

على أنَّ مِن دَواعي الإنصافِ أن نَذكُرَ أنَّهُ في وَثيقَةٍ أحدَثَ

(*Min. of Health*: *Reps. on Pub. Health, etc., No.* II, *Encephalitis Lethargica*) لَم نَعُدْ نَقِفُ على اقتِراحِ أنّا في سَنَةِ 1918 نَشهَدُ وِلادَةَ مَرَضٍ جَديدٍ: وكانَ الحَديثُ، بَدَلاً مِن ذلكَ، عن وِلادَةِ تَصَوُّرٍ جَديدٍ. لكِنْ، أَثَمَّةَ فَرْقٌ بينَ الأمرَيْنِ؟ وفي نِهايَةِ المَطافِ تَعودُ الواقِعِيَّةُ المَدرَسِيَّةُ لِتتصدَّرَ المَشهَدَ؛ إذ استُحضِرَتْ مَقولَةُ البروفيسور ماكِنتوش MacIntosh[26] التي مفادُها أنَّ "الالتِهابَ الدِّماغيَّ المُسَبِّبَ لِلاستِغراقِ في النَّومِ مَرَضٌ... مُغايِرٌ لِلأدواءِ المُشابِهَةِ"، وحَظِيَتْ بِالقَبولِ(*loc. Cit.*, p. 126)، في حينِ أنَّ **المَجَلَّةَ الطِّبِّيَّةَ البريطانيَّةَ** British Medical Journal (1922, ii., p. 654) صَرَّحَتْ بِأنَّ التَّقريرَ الذي نَحنُ بِصَدَدِهِ يُظهِرُ أنَّ الالتِهابَ الدِّماغيَّ المُسَبِّبَ لِلاستِغراقِ في النَّومِ والتِهابَ المادَّةِ السِّنجابيَّةِ في الحَبْلِ الشَّوكيِّ لَهُما هُوِيَّتانِ مُنفَصِلَتانِ!

ورُبَّ سائلٍ يَسأَلُ: هَل يَقتَصِرُ ما يَعنيهِ مَن يَكتُبُ على هذا النَّحوِ على أَنَّ المَفاهيمَ هيَ ما يَكونُ مُختَلِفًا؟ نَحنُ نُقِرُّ بِهذا القَدْرِ: لكِنّا نَشُكُّ في صِحَّتِها، أو كِفايَتِها. بَل تَبدو صِحَّتُها وكِفايَتُها أكثَرَ عُرضَةً لِلخَطَرِ المُحْدِقِ مِن ذي قَبْلُ حينَ يَستَمِرُّ المُدافِعُ الرَّسمِيُّ في الكِتابَةِ عن حالاتٍ وأوبِئَةٍ مُعَيَّنَةٍ في أُستراليا بينَ سَنَتَيْ 1917-1918 يُدرِجُها بَعضُنا تَحتَ مِظَلَّةِ هاينَة-ميدِن، لكِنَّها لا تُناظِرُ أيًّا مِن الإحالاتِ الرَّسمِيَّةِ المُفَضَّلَةِ. وقَد هَجَرَ مُمَثِّلُ وِزارةِ الصِّحَّةِ مُؤَقَّتًا كُلَّ ما يُقالُ عن الصِّفاتِ المُمَيِّزَةِ المُتَقَلِّبَةِ، والخَواصِّ البايولوجيَّةِ المُتَغَيِّرَةِ، والحُلولِ الوَسَطِ، لِيُصَرِّحَ بِأنَّ الحالةَ الأُستراليَّةَ "تَبدو مُتَمَيِّزَةً تَمامًا مِن" الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ، و(افتِراضِيًّا) مِن جَميعِ الكِياناتِ الأُخرَى، الكِياناتِ

(26) جَيْمس ماكِنتوش (1882-1948م). طَبيبٌ بريطانيٌّ. وُلِدَ في مَدينةِ أبردين وتخرَّجَ في جامعتِها سنةَ 1905، ثمَّ أمضَى مُدَّةً مُعيَّنَةً في معهدِ باستور في باريس قبلَ أن يَعودَ إلى أبردين سنةَ 1908. وتحوَّلَ في السنةِ نفسِها إلى مُستَشفَى لندن وبَقِيَ هناكَ حتَّى أصبحَ أستاذًا لِعِلمِ الأمراضِ ومُديرًا لِمَعهَدِ بلاند-سَتن في مُستَشفَى مِدِلسكس في سنةِ 1920. مِن المناصِبِ الرَّفيعةِ التي تقلَّدَها مَنصِبُ رئيسِ ما أصبَحَ يُعرَفُ فيما بَعدُ بِمعهدِ العلومِ المختبريَّةِ الطبِّيَّةِ. نشَرَ، مُنفَرِدًا ومُشارِكًا، ما يَربو على مئةِ بَحثٍ؛ منها ما يتعلَّقُ بِمَرَضِ الزُّهْرِيِّ، وبالنَّزلَةِ الوافِدَةِ، وبِغيرِ ذلكَ. [المُترجِم]

المُنفَصِلَةِ، والأدواءِ المُشابِهَةِ، والأمراضِ الفَريدَةِ. ولِذلكَ، بِسببِ تَلاشي الخَوفِ مِن النَّصْلِ الحادِّ لأوكام مَرَّةً أُخرَى، تَكرَّرَتْ مُضاعَفَةُ الكِياناتِ مِن غيرِ ضَرورَةٍ.

زِيادَةً على ذلكَ أُقِرُّ بِالحاجَةِ إلى أن يُسَوَّغَ استِبقاءُ الرَّمزِ 'الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ' نَفسُهُ لإحالةٍ يَنبَغي، مَهما يَكُنْ تَركيبُها في تلكَ اللحظَةِ، أن تَصلُحَ لِمَراجِعَ كَثيرًا مّا لا تَكونُ مُسَبِّبَةً لِلاستِغراقِ في النَّومِ وعادَةً مّا تَكونُ أكثَرَ مِن التِهابٍ دِماغيٍّ. ويُقالُ إنَّ استِبقاءَ هذا الاسمِ يُسَوِّغُهُ حَقُّ البُكُورَةِ و"حَظُّ الأُبُوَّةِ المَشهورَةِ": "إلباسُ المَفهومِ لبوسًا مِن اللغَةِ الشّائعَةِ عندَ العُلَماءِ في جَميعِ البُلدانِ"، و"رُبَّما يَكونُ مَرَدُّ ذلكَ، جُزئيًا، إلى أسبابٍ تتعلَّقُ بِحُسنِ الوَقْعِ في الأُذُنِ" (*Ibid.*, p. 1).

وحينَ يَعُودُ الطِّبُّ لِيُصبِحَ عِلْمًا مَرَّةً أُخرَى قَد نُطالِبُ مَسؤولِينا الرَّسمِيِّينَ بِأكثَرَ مِن 'أسبابٍ تتعلَّقُ بِحُسنِ الوَقْعِ في الأُذُنِ' عندَ مُناقَشَةِ دِقَّةِ التَّرميزاتِ، لكِن لا بُدَّ مِن تَقديمِ مِثالٍ واحِدٍ مُمتازٍ هُنا لِـ'الأسبابِ التي تتعلَّقُ بِحُسنِ الوَقْعِ في الأُذُنِ.' وهو: أَنَّهُ "ليسَ ثَمَّةَ دَليلٌ قَريبٌ يُعَوَّلُ عليهِ يَصُبُّ في مَصلَحَةِ تَطابُقِ النَّزلَةِ الوافِدَةِ والالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ".

فهُنا، على الرَّغمِ مِن أنّا لَيسَتْ لَدَيْنا أدْنَى إشارَةٍ إلى الوَجهِ الذي يَستَعمِلُ بِهِ الكاتِبُ الرَّسمِيُّ عِبارَتَيْ 'النَّزلَةِ الوافِدَةِ'، و'الالتِهابِ الدِّماغيِّ المُسَبِّبِ لِلاستِغراقِ في النَّومِ'- وإنْ كُنّا لا نَعلَمُ: أكانَ في ذِهنِهِ الأسماءُ (الرُّموزُ)، أم كانَ في ذِهنِهِ المَفاهيمُ (الإحالاتُ)- قَد نُوافِقُهُ فيما ذَهَبَ إليهِ. ومِمّا لا يُصَدَّقُ أن يَكونَ ثَمَّةَ دَليلٌ يُعَوَّلُ عليهِ يَصُبُّ في مَصلَحَةِ تَطابُقِ المُختَلِفِ مِن الأسماءِ، أو المَفاهيمِ، أو الأحداثِ. [353]

ورُبَّما أُؤمِنُ قَريبًا بِتَطابُقِ طَرَفَي العَصَا. ومَعَ ذلكَ، على الرَّغمِ مِن إقراري التّامِّ والصَّريحِ بِأنَّ أحَدَ طَرَفَي العَصَا هوَ غَيرُ الطَّرَفِ الآخَرِ؛ وأنَّهُ في الحَقيقَةِ مُتَمَيِّزٌ مِنهُ (وإن يَكُن 'مُشْبِهًا' لَهُ)؛ وأنَّ لَهُ هُوِيَّةً مُنفَصِلَةً، وأَنَّهُ طَرَفٌ فَريدٌ، أنا أعلَمُ أنّي سأُخفِقُ في تَقديمِ تَقويمٍ، لِلجِهاتِ الرَّسمِيَّةِ، لِوِجهَةِ النَّظَرِ التي إنْ جازَ

أنْ تَكونَ غيرَ حَكيمَةٍ فَلَيسَتْ في جَوهَرِها غيرَ مَعقولَةٍ على أيَّةِ حالٍ.

يَبدو واضِحًا إذَنْ أنَّهُ في ظِلِّ ظُروفِ البَحثِ التي تَفرِضُها عاداتُ الفِكرِ والتَّعبيرِ الحاضِرَةُ، قَليلاً مّا يَكونُ النِّقاشُ مُثمِرًا: في الطِّبِّ، على أيَّةِ حالٍ.

ولا شَكَّ في أنَّ ضَغطَ الخِبرَةِ المُتَراكِمَةِ سيُؤَدّي في نِهايَةِ المَطافِ إلى تكوينِ إحالاتٍ ورُموزٍ سَليمَةٍ إلى دَرَجَةٍ مّا وعَمَليَّةٍ، وإنْ تَكُنْ قَد أُنشِئَتْ واختيرَتْ على نَحوٍ غيرِ عِلمِيٍّ، وهيَ تتعلَّقُ بِجَميعِ الأحداثِ السَّريريَّةِ والوَبائيَّةِ المُشارِ إليها هُنا: أي، إن لَم يُقْمَع الفَهْمُ المشتَرَكُ، على ما هوَ مُعتادٌ، بِالعِلمِ الزّائفِ وبِمُجَرَّدِ اللُّغَةِ الاصطِلاحيَّةِ.

لكِن لا بُدَّ مِن أن تُوجَدَ، وهيَ مَوجودَةٌ، طَريقَةٌ أفضَلُ وأسرَعُ:- أي أن نَحْسِمَ أمرَنا مُنْذُ البِدايَةِ بِشَأنِ المَسائلِ التي يُعالِجُها هذا الكِتابُ.

فقَد كانَ لَدَى كاتِبِ هذهِ السُّطورِ ما يُشْبِهُ الغَرَضَ الذي يَرمي إليهِ مُؤَلِّفا نَظريَّةِ العَلاماتِ هذهِ؛ إذ حاوَلَ، قَبلَ نَحوِ سِتِّ سَنواتٍ أو سَبْعٍ، في مُلتَقًى لِلقِسمِ الوَبائيِّ في الجَمعيَّةِ المَلَكيَّةِ لِلطِّبِّ، أن يَشرَحَ الفَرقَ بينَ الأسماءِ، والأفكارِ، والأحداثِ، أو (على ما يُمكِنُ قَولُهُ على نَحوٍ آخَرَ) بينَ الكَلِماتِ، والأفكارِ، والأشياءِ. ولَم يَلقَ إلّا القَليلَ مِن الاستِحسانِ، وأخبَرَهُ أحَدُ أكثَرِ المُديرينَ الطِّبِّيِّينَ تَمَيُّزًا بِأنَّ العالِمَ المَسيحِيَّ هوَ وَحدَهُ مَن يُمكِنُهُ الشَّكُّ في واقِعِيَّةِ ألَمِ الضِّرسِ، على سَبيلِ المِثالِ. وقالَ إنَّ ضِرسَهُ كانَ يُؤْلِمُهُ في لَحظَةِ التَّكلُّمِ، ولِذلكَ كانَ على يَقينٍ تامٍّ مِنهُ. وقَد انتَهى النِّقاشُ بَعدَ ذلكَ، لكِنَّ البَحثَ الذي أُلقِيَ حينَئذٍ أُعيدَ طَبعُهُ في كِتابٍ يَضُمُّ مَقالاتٍ في النَّزْلَةِ الوافِدَةِ سَبَقَتِ الإحالَةُ عليهِ، معَ بَعضِ المُحاوَلاتِ الأُخرَى لإيضاحِ المَسائلِ الخِلافِيَّةِ.

وليسَ ثَمَّةَ شَكٌّ في أهمِّيَّةِ ما يَجنِيهِ الطِّبُّ، إن أُريدَ لِلطِّبِّ أن يَستَعيدَ مَكانَتَهُ وَسطَ العُلومِ، مِن مَزيدِ التَنقيبِ في هذهِ المَسائلِ بِنَحوِ طَريقَةِ المُقارَبَةِ التي تَوَخّاها الكاتِبُ الحالِيُّ، والتي لَقِيَت المَزيدَ الجَمَّ مِن الاعتِبارِ على يَدَي السَّيِّدَيْنِ أوغدِن ورِتشاردز.

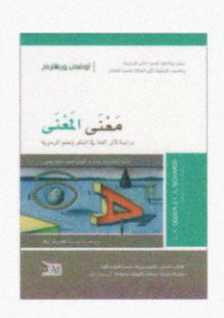
وإنَّ تَحَقُّقَ الغَرَضِ مِن هذا التَّعليقِ مُرتهنٌ بإقْناعِ أساتِذَةِ الطِّبِّ ومُمارِسِيهِ بِحاجَةِ الطِّبِّ إلى نَظريَّةٍ لِلعَلاماتِ، مِن خِلالِ تَقديمِ مُشكِلَةٍ حَيَّةٍ مِن مُشكِلاتِ اليَومِ، لكِنَّ المُؤَمَّلَ، في مُؤَلَّفٍ مُستَقبَليٍّ في هذهِ المَكتَبَةِ، أن يُمكِنَ تَضمينُ دِراسَةٍ [354] لِلمَوضوعِ كُلِّهِ تَحتَ عُنوانِ نَظَريَّة التَّشخيصِ الطِّبِّيِّ.

على أنَّهُ في غُضُونِ ذلكَ عَمَدَ الدُّكتور سايمن فليكسنَر Simon Flexner(27)، الباحِثُ والمَرجِعُ الذّائعُ الصِّيتِ، والمُنتَسِبُ إلى مَعهَدِ روكفِلَر Rockefeller، مُفصِحًا عن حقيقةِ مَوقِفِهِ، إلى تَقديمِ نَفسِهِ، في المَجَلَّةِ الأمريكِيَّةِ لِلعُلومِ الطِّبِّيَّةِ *American Journal of the Medical Sciences* لِشَهرِ أبريل/نَيْسانَ مِن سَنَةِ 1926، "بِوَصفِهِ شَخصًا يَرَى أنَّ النَّزلَةَ الوافِدَةَ الوَبائيَّةَ والتِهابَ الدِّماغِ الوَبائيَّ كِيانانِ مُتَمايِزانِ" [355].

(27) سايمن فليكسنَر (1863-1946م). طبيبٌ، وعالِمٌ، وأستاذُ علمِ الأمراضِ التجريبيِّ في جامعةِ بنسلفانيا بينَ سنتَيْ 1899 و1903. كانَ أوَّلَ مُديرٍ لِمعهدِ روكفِلَر لِلأبحاثِ الطبِّيَّةِ بينَ سنتَيْ 1901 و1935، وعُضوًا في مجلسِ أُمَناءِ مؤسَّسةِ روكفِلَر. [المُترجِم]

مَسْرَدُ المُصطَلَحات

مَسْرَدُ الأعلام



مَعْنَى المَعْنَى

دراسة لأثر اللغة في الفكر ولعلم الرمزية

"اللغةُ أهمُّ أداةٍ من أدواتِ الحضارَة".

هذا ما يُقرِّرُهُ المؤلّفانِ بجُرْأَةٍ في تَصديرِهِما لِكتابِ مَعْنَى المَعْنَى، وهوَ أثَرٌ كلاسيكيٌّ ظَلَّ مُحتَفِظًا بِأهمِّيَّتِهِ- وتَحدِّيهِ- لِدراسَةِ اللُّغَةِ، والأدَبِ، والفَلسَفَةِ مُنذُ أنْ طُبِعَ أوَّلَ مَرَّةٍ.

إنَّ الكَثيرَ مِمَّا يتعلَّقُ باللُّغَةِ ما زالَ لا يَحظَى بِفَهمٍ فاعِلٍ، لِما يَلقاهُ من تَشويهٍ بِفعلِ مَوقفِنا المُعتادِ- الذي كَثيرًا مَا يتَّسِمُ بِسِمَةِ اللامُبالاةِ- تجاهَ الكَلِماتِ، أو بِفِعلِ الافتراضاتِ المُتلكِّئَةِ التي تَستَنِدُ إلى نَظريّاتٍ غيرِ مَوثوقٍ بها. فَما العَلاقَةُ بيْنَ الكَلِماتِ وما تُحيلُ عليهِ الكَلِماتُ؟ وبَيْنَ الكَلِماتِ والطَّريقَةِ نفسِها التي نُفكِّرُ بها؟ وهَل يُمكِنُ أن يُؤدِّيَ فَهمُ هذهِ الأُمورِ إلى مَزيدٍ منَ الدِّقَّةِ في التَّواصُلِ؟ إنَّ القُرّاءَ المَعْنيِّينَ بهذهِ الأَسئلَةِ يَجِدُونَ أنفُسَهُم في مُفترَقِ طُرُقِ اللِّسانيّاتِ ونَظريَّةِ التَّواصُلِ، والنَّقدِ الأَدبيِّ والفَلسَفَةِ- وهيَ مَجموعَةٌ مُترابِطَةٌ مُتَعَدِّدَةُ الاختِصاصاتِ يَقتَضيها حَقْلُ السِّيميوطيقا المُتزايِدُ التَّأثيرِ- وسيُثْبِتُ كِتابُ مَعْنَى المَعْنَى أَنَّهُ مَصدَرٌ أَساسيٌّ في ذلكَ، كما أَثبَتَ ذلكَ على مَدَى العُقودِ السِّتَّةِ الأَخيرَةِ.

وتَعرِضُ مُقَدِّمَةُ أمبرتو إيكو، الرِّوائيِّ والسِّيميوطيقيِّ، لا بِحُكمِ المُصادَفَةِ، المُبرِّزِ، مَنظُورًا ساحِرًا لِهذا المُؤلَّفِ الرِّياديِّ الذي يُواصِلُ إقلاقَ الإخلادِ العَقليِّ وتَحفيزَ الفِكرِ والنِّقاشِ.

موضوع الكتاب **علم الدلالة**

ISBN 978-9959-29-662-7



دار المدار الإسلامي
توزيع حصري

موقعنا على الإنترنت
www.oeabooks.com